

آلان ليفينز
هنري ستيل كوماجر

موجز تاريخ الولايات المتحدة

ترجمة
محمد بدر الدين خليل



موجز تاريخ الولايات المتحدة

تصميم الغلاف : محمد رشدى المنير

موجز تاريخ الولايات المتحدة

تأليف
ألان ليفينز
هنري ستيل كوماجر

ترجمة
محمد بدر الدين خليل



الدار الدولية للنشر والتوزيع

القاهرة - الكويت - لندن

A SHORT HISTORY OF THE UNITED STATES by Allan Nevins and Henry Steele Commager. Copyright 1942 by Little, Brown and Company; copyright 1945 by Random House, Inc.; copyright 1951 by Allan Nevins and Henry Steele Commager; copyright © 1976 by Henry Steele Commager; copyright © 1981 by Henry Steele Commager (1981 ed. in English entitled A POCKET HISTORY OF THE UNITED STATES published by Pocket Books).
ALL RIGHTS RESERVED .

الطبعة العربية الأولى

حقوق الطبع والستر © ١٩٩٠ ، جميع الحقوق محفوظة للنشر

الدار الدولية للنشر والتوزيع

٣٨ ش الأهرام - روكسى - مصر الجديدة

ص . ب : ٥٥٩٩ هليوبوليس غرب - القاهرة

ت : ٢٥٨٢٨٨٧

تلکس : ٢٠٠٧١/٢٠٠٧٠ PBCRB UN

فاکس : ٠٠٢٠٢/٢٩١٨٠٥٩

أشرفت الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية بالقاهرة على ترجمة وإخراج هذه الطبعة من الكتاب ، كما قامت بأعمال الجمع التصويرى وإعداد الأفلام .

The Egyptian Society for the Dissemination of Universal Culture and Knowledge (ESDUCK), Cairo, supervised the translation and production of this edition. Phototypesetting and films were done by ESDUCK.



مقدمة

برزت أمريكا من غمرة الخفاء إلى صفحات التاريخ ، منذ حوالي أربعة قرون فحسب . فهي أحدث الأمم الكبيرة ، وأكثرها جدة ، وإن كانت - لاعتبارات كثيرة - أدعاها لإثارة الاهتمام . فهي مثيرة للاهتمام لأن تاريخها يوجز تاريخ الأجناس ، ويلخص تطور النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وهي مثيرة للاهتمام لأن معظم تلك القوى والعوامل التاريخية التي صاغت العالم الحديث ، عملت على أرضها : الاستعمار ، والقومية ، والهجرة ، والتصنيع ، والعلم ، والدين ، والديمقراطية ، والحرية . . ثم لأن أثر هذه القوى على المجتمع يتكشف في تاريخها بأجلى مما يتكشف في تاريخ الأمم الأخرى . وهي مثيرة للاهتمام لأنها اليوم أقدم جمهورية وأقدم دولة ديمقراطية ، بالرغم من حداثة عهدها ، كما أنها تعيش في ظل أقدم الدساتير المكتوبة في العالم . وهي مثيرة للاهتمام لأن أهلها ، منذ باكورة بداياتها ، يفتنون إلى قَدَر خاص يلوح أمامها ، ولأن آمال الجنس البشرى وتطلعاته ترتبط بها ، ثم لأنها لم تحف في تحقيق ذلك القدر ، ولا في إرضاء هذه الآمال .

إن قصة أمريكا هي قصة تأثير ثقافة عريقة على بيئة قفر . فلقد طوت الآلاف الستة الأولى من أعوام التاريخ بوثة واحدة ، في الواقع ، وبرزت على مسرح التاريخ جريئة ناضجة (مكتملة النمو) . ذلك لأن المستوطنين الأوائل لم يكونوا بدائيين ، وإنما كانوا متحضرين ، فغرسوا فيها ثقافة لها من العمر قرون . ومع ذلك فإن العالم الجديد لم يكن يوماً مجرد امتداد للعالم القديم ، بل كان ما توقعه مستوطنوه الأوائل ، وما صممه الآباء المنشئون . . كان شيئاً جديداً في التاريخ . ذلك لأن البطاح غير الممهدة التي قابلت الرواد الأوائل من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادئ المتألق ، عدلت وحورت نظماً

٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

وأعرافاً موروثة ، كما أن المخالطة بين الأقوام والعناصر عدلت وحورت ثقافات موروثة . وأصبحت أمريكا أكثر التجارب طموحاً بين كافة التجارب : في المزج بين الأقوام ، وفي التسامح الدينى ، والمساواة الاجتماعية ، والعدالة في الفرصة الاقتصادية ، والديمقراطية السياسية .

ومع إقرار المؤرخين والرحالة الأوربيين ، عن طيب خاطر ، بما للشعب الأمريكى من فضائل راسخة ، فقد طال إصرارهم على أن التاريخ الأمريكى رتيب ، غير ممتع ولا مثير ، يفتقر إلى التنوع والدسامة والأبهة . ولكنه في الواقع على النقيض من ذلك : فهو مفعم بالحركة والشعور ، وبالصور المثيرة ، وهو مصوغ في قالب بطولى . فليس في التاريخ الحديث شبيه للقصة الممتعة ، قصة الانتشار السريع الذى قام به قوم صغىرو العدد ، ضعاف ، في عرض قارة كاملة ، وقصة نمو بضع مستعمرات قليلة متناثرة لتصبح أقوى أمة . ومرتنا الجبلية لا تقل رواءً عن الحصون الإقطاعية ، كما أن الاجتماعات في مدننا الصغيرة لا تقل جلالاً عن البلاطات الملكية ، ولا يقل تدفق الناس على جوف القارة إثارة عن انتشار جحافل النورمان والمسلمين Saracens . وإن أبطالنا القوميين - واشنطن وجيفرسون ولنكولن - ليقفون جنباً إلى جنب مع أبطال أى شعب آخر .

إننا نكتب هذا التاريخ للعامة وليس للدارسين ، فهو معد لإرضاء الحاجة إلى تاريخ موجز ، في قالب قصصى ، للشعب الأمريكى . وإذا كان ثمة موضوع رئيسى ، فهو ذاك الذى يتضمنه العنوان . . نمو شعب هنا ، أوتى من الذكاء ما يجعله ينشد الحرية ، ويجعله راغباً في العمل من أجلها ، وفي النضال في سبيلها .

المؤلفان

ألان نيفينز

هنرى ستيل كوماجر

١٩٤٢



المحتويات

صفحة

| | |
|--|-----|
| الفصل ١ : تأسيس المستعمرات | ١١ |
| الفصل ٢ : تراث عهد الاستعمار | ٣٥ |
| الفصل ٣ : المشكلة الاستعمارية (الامبريالية) | ٦٥ |
| الفصل ٤ : الثورة والاتحاد الكونفيدرالى | ٩١ |
| الفصل ٥ : وضع الدستور | ١١٧ |
| الفصل ٦ : الجمهورية تهتدى إلى ذاتها | ١٣٩ |
| الفصل ٧ : نهضة الوحدة القومية | ١٥٧ |
| الفصل ٨ : ثقافة قومية | ١٧١ |
| الفصل ٩ : الديمقراطية الجاكسونية تكتسح الميدان | ١٨٥ |
| الفصل ١٠ : الغرب والديمقراطية | ٢٠٥ |
| الفصل ١١ : الصراع بين القطاعين | ٢٢٧ |
| الفصل ١٢ : حرب الأشقاء | ٢٤٩ |
| الفصل ١٣ : بزوغ أمريكا الحديثة | ٢٧١ |
| الفصل ١٤ : قيام المشروعات الكبيرة | ٢٩٣ |
| الفصل ١٥ : العمالة والهجرة | ٣١٩ |
| الفصل ١٦ : الغرب يبلغ سن الرشد | ٣٤١ |
| الفصل ١٧ : المزارع ومشكلاته | ٣٦١ |
| الفصل ١٨ : عصر الإصلاح | ٣٨٧ |

٨ موجز تاريخ الولايات المتحدة

| | |
|-----|---|
| ٤١١ | الفصل ١٩ : الارتقاء إلى مركز دولة عالمية كبرى |
| ٤٣١ | الفصل ٢٠ : أمريكا تبذل الرشد |
| ٤٤٧ | الفصل ٢١ : وودرو ويلسون والحرب العالمية |
| ٤٦٧ | الفصل ٢٢ : من الوضع السوء إلى الكساد الاقتصادي |
| ٤٨٣ | الفصل ٢٣ : فرانكلين دى . روزفلت والنظام الجديد |
| ٥٠٣ | الفصل ٢٤ : الحرب العالمية الثانية |
| ٥٣٩ | الفصل ٢٥ : الحرب الباردة |
| ٥٦٩ | الفصل ٢٦ : مشكلات ما بعد الحرب : ١٩٤٦ - ١٩٥٢ |
| ٥٨٣ | الفصل ٢٧ : الحرب الكورية : القنبلة الهيدروجينية |
| ٦٠١ | الفصل ٢٨ : حكومة أيزنهاور |
| ٦٢٣ | الفصل ٢٩ : حدود جديدة : التحدي |

موجز تاريخ الولايات المتحدة



الفصل ١

تأسيس المستعمرات

المعالم الطبيعية لأمريكا الشمالية

بدأ تاريخ التوطن الانجليزى فى أمريكا ، فى صباح يوم بديع من أيام شهر أبريل سنة ١٦٠٧ ، عندما رست سفن الربان كريستوفر نيوبورت الثلاث ، التى أضنتها العواصف بالقرب من مدخل خليج تشيزابيك ، وأوفدت إلى الشاطئ رجالاً ، وجدوا « مروجاً بديعة ، وأشجاراً سامقة ضخمة ، فضلاً عن مياه عذبة بوفرة كانوا يتمنون أن تقع عليها أبصارهم » . وكان من مرافقى هذه السفن جورج بيرسى ابن إيرل نورثمبرلاند ، الذى كان يتسم بالنشاط والوسامة ، والكابتن جون سميث . ويسجل بيرسى كيف وجدوا غابات وارفة ممتازة ، والأرض مكسوة بالزهور ، والفراولة البرية البديعة « تضارع فى الحجم أربعة أمثال ما لدينا فى انجلترا ، وتفضلها » ؛ والمحارات البحرية « الكبيرة جداً ، واللذيذة المذاق » ، وكثيراً من الحيوانات الصغيرة الصالحة للصيد ، ووفرة من « مأوى الديوك الرومية ، وكثيراً من البيض » ؛ وبلدة هندية أحضر لهم البدائيون فيها خبزاً مصنوعاً من الأذرة ، وطباقاً (تبغاً) يدخن فى قصبات من الطين ذات قصاع من النحاس . ولقد بدت هذه التجارب الأولى فى فيرجينيا باهرة ، لفترة من

١٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

الزمن . ويصف بيرسى في كتابه الذى نشره بعنوان « مشاهدات » اغتباط الوافدين الجدد بالطيور الوفيرة الألوان ، والفواكه ، وأنواع التوت ، وسمك الحفش الضخم البديع ، والمناظر الطبيعية الممتعة . بيد أن روايته الرائعة ، الزاخرة بالشعر المتحمس ، تنتهى بما يشبه الصرخة المرتاعة : إذ يروى كيف كان الهنود يهاجمون المستوطنين « وهم يزحفون من التلال على أربع ، كالدببة ، وأقواسهم بين أسنانهم » ، وكيف أن الرجال كانوا يصابون « بأمراض قاسية ، كالأورام ، وحالات الإسهال ، وأنواع الحمى المصحوبة بحرارة متأججة » ؛ وكيف أن الكثيرين ماتوا من مجرد الجوع ، « فكانت أجسادهم تمجر إلى خارج أكواخهم كالكلاب ، لكى تدفن » .

لم يكن غرس أمة جديدة في أمريكا مشروعاً للهو والترفيه ، وإنما كان معناه عملاً ضارياً ، قذراً ، مضيئاً ، خطراً . فقد كانت هذه قارة شاسعة ، وعرة ، تكسو ثلثها الشرقى غابات لا تتخللها مسالك ، وكانت جبالها وأنهارها وبحيراتها وسهولها المترامية جميعاً باللغة الاتساع كبيرة الأحجام ، وبطاحها الشمالية ضارية البرد في الشتاء ، ومساحاتها الجنوبية لاهبة القيظ في الصيف ، كما كانت مليئة بالوحوش الكاسرة ، ومسكونة بقوم محيين للحرب ، قساة ، غادرين ، باقين بعد في العصر الحجري للثقافة . كانت بلداً منفرة ، من عدة اعتبارات ، ولا سبيل إلى بلوغها إلا برحلة بحرية مخوفة بالمخاطر ، حتى إن بعض السفن كانت تدفن من ركابها عدداً يساوى من توصلهم إلى البر . ومع ذلك ، فقد كان مقدراً لها أن تصبح ، برغم نقائصها ، وطناً لشعب موفور النشاط ، مزدهر النجاح .

وتشبه قارة أمريكا الشمالية في الشكل مثلثاً ، يمتد أكبر أضلاعه — وهى مساحة غنية بالخيرات ، متباعدة النعم ، موفورة المياه بوجه عام — بين خطى العرض السادس والعشرين والخامس والخمسين . والمناخ هنا صحى ، ذو صيف حار يتيح محصولات بديعة ، وشتاء بارد يدفع البشر إلى النشاط . فكان في وسع الأوروبيين أن يستقروا في هذه المنطقة دون عملية تأقلم مضيئة . وكان في مقدورهم استنبات محصولاتهم الغذائية الرئيسية ، من قمح ، وشوفان ، وجودار ، وبقول ، وجزر ، وبصل . . كما وجدوا في البلاد الجديدة محصولين غذائيين جديدين ممتازي القيمة ، هما الأذرة والبطاطا . فكانت الأذرة الهندية إذا زرعت في شهر مايو ، آتت ثمارها (أكوازا) صالحة للأكل في شهر يوليو ، وتوفرت بعد ذلك علفاً للماشية ، كما تستخدم أوراقها حشواً لفرش المستوطنين ،

١٣ تأسيس المستعمرات

فضلاً عن غلة من الحبوب لا يضارعها مثيل . وكانت حيوانات الصيد متوفرة في كل مكان ، فالوعول والثيران الأمريكية تهيم بالملايين ، وأسراب الحمام المهاجرة تغطي صفحة السماء . وكانت المياه الساحلية غنية بالأسماك . وعندما حان الوقت للبحث تبين أن أمريكا الشمالية تحتوي من الحديد ، والفحم ، والنحاس ، والبتروك أكثر مما تحتوي أية قارة أخرى . ولقد أتاح الخلق والمراعى مأوى كثيرة للسفن على طول الشاطئ الشرقي ، الذى كان منخفضاً بوجه عام . . في حين أن الأنهار العريضة — سانت لورنس ، وكونكتيكت ، وهدسن ، وديلاوير ، وسكوهانا ، وبوتوماك ، وجيمس ، وبي دى ، وسافانا — تيسر التغلغل إلى مسافات كبيرة في داخل القارة . فكان من الممكن الظفر بمركز ، والتوسع فيه ، دون ما عناء مفرط .

وكان مقدراً لبعض التضاريس الطبيعية في القارة أن تكون ذات أثر بارز على سير مستقبل الأمة الأمريكية . فإن الخلجان والمسالك المائية الكثيرة ، على ساحل المحيط الأطلنطى ، أدت إلى قيام مستوطنات صغيرة وعديدة ، بدلاً من مستوطنات كبيرة الحجم وقليلة العدد . فسرعان ما بلغ مجموع ما أنشئ منها خمس عشرة إذا حسبنا بينها نوفا سكوشيا وكوبيك وقد أضفت على أمريكا في باكورة تاريخها مجموعة وفيرة التنوع من النظم ، وتشبثت كل منها بطابعها الخاص في حرص . فلما أقبل الاستقلال ، لم يكن للأمة المشيدة من ثلاث عشرة وحدة من هذه الوحدات بد من أن تصبح اتحاداً فيدرالياً . ووراء السهل الساحلى ، قام حاجز من الجبال الوعرة ، هى سلسلة جبال أبلاش . وكان من العسير اجتيازها ، مما جعل المستوطنات الساحلية تزداد كثافة واستقراراً ، بطرق وثيقة الرسوخ ، قبل أن يبذل المستوطنون أى جهد كبير للتوسع عبر جبال أبلاش . حتى إذا قدر للناس الاتجاه إلى الغرب ، عبروا الجبال ليجدوا أمامهم سهلاً رئيسياً شاسعاً ، هو حوض المسيسيبي . وكان هذا السهل ، الذى يؤلف حوالى نصف مساحة الولايات المتحدة وما يزيد على نصف أراضيها الزراعية ، من الانبساط بحيث أن المواصلات كانت سهلة ، ولاسيما إذ تتخلله شرقاً وغرباً جداول كثيرة صالحة للملاحة — ويسكونسين ، وإيووا ، وإلينوى ، وأوهايو ، وكمبرلاند ، وتينيسى ، وأركنساس ، وريد — وتمتد شمالاً وجنوباً الشبكة العظيمة المؤلفة من نهري المسيسيبي والميسورى وروافدهما . وانتشر المستوطنون في هذا الحوض الخصيب بسرعة وسهولة قياسية ، وامتزج فيه الناس من كافة أرجاء الساحل وكافة دول أوروبا الغربية على أسس من

المساواة ، فأصبح مجعاً شاسعاً تولدت فيه ديمقراطية جديدة ، وعاطفة أمريكية جديدة .

وإذا أوغلنا إلى الغرب ، كانت هناك سهول مرتفعة ، ذات مناخ بلغ من جفافه أن هذه السهول وجبال روكي الشاهقة ، القائمة خلفها مباشرة ، صدت التدفق الاستيطاني فترة طويلة . ثم قدر لربة وذهب أراضي حوض المحيط الهادى النائية أن تجتذب كثيرين من الرواد المغامرين ، قبل انتزاع هذه السهول المقفرة من الهنود بعدة عشرات من السنين . وأصبحت كاليفورنيا ولاية زاخرة بالسكان ، موفورة النفوذ ، فى الوقت الذى ظل يفصلها وولاية أوريغون عن الأجزاء الأقدم عهداً ، من أجزاء الولايات المتحدة ، حزام واسع من أراض غير مستوطنة . بيد أن هذا الحزام لم يظل قفراً موحشاً أمدأ طويلاً . فإن مربى الماشية ما لبثوا أن أقبلوا فى أعقاب صائدى الجاموس فسرعان ما انتشروا فى السهول ، بينما أخذ السكان يزدادون كثافة ، إذ أخذت السكك الحديدية تجلب المواد التى تدعو إليها الحاجة لتذليل الإقليم الخالى من الأشجار : من الأسلاك الشائكة ، إلى طواحين الهواء ، إلى الأخشاب ، إلى الأدوات الزراعية . وكذلك أخذ عدد المزارع المجهزة بوسائل الرى فى الازدياد . ولم تحن سنة ١٨٩٠ ، حتى كانت الحدود الفاصلة بين العمران والقفرة قد تلاشت إلى حد كبير ، ولم يعد الغرب القفر قائماً .

كان محتوماً من البداية ، أن تسير حركة الاستيطان فى أمريكا على خطوط من الشرق إلى الغرب بوجه عام . فإن نهر سانت لورنس وممر البحيرات الكبرى المائى ، اللذين أتاحا منفذاً ميسوراً إلى داخل القارة ، يجريان فى اتجاه يربط بين الشرق والغرب تقريباً . كما أن خور وادى موهوك فى جبال أبلاش الشمالية ، الذى هيا فيها بعد موقعاً لقناة إيرى أتاح طريقاً آخر بين الشرق والغرب . ويمتد وادى أوهايو ، وهو شريان استيطاني ثالث ، بين الشرق والغرب تقريباً . فكانت الهجرة الداخلية من المحيط الأطلنطى إلى جبال روكي تميل إلى السير فى خطوط موازية لخطوط العرض إلى درجة تستلفت الانتباه . ولم يكن ثمة مناص كذلک من أن تتلاشى السيادة الفرنسية على لويزيانا ، والسيادة المكسيكية على كاليفورنيا والجنوب الغربى ، أمام زحف الأمريكين الناطقين باللغة الانجليزية . وكان المراقبون الثاقبو البصريتينون ، حتى فى أيام الاستعمار ، أن الذين يسيطرون على وادى أوهايو ، لابد أن يسيطروا يوماً على الميسيسيبى . ولم يقل عن هذا صحة أنه كان مقدراً للسيطرين على الميسيسيبى ألا يلبثوا أن يسيطروا على كافة المنطقة

١٥ تأسيس المستعمرات

المتحدة إلى الغرب منه . وقد استغل الأمريكيون ، بأعدادهم وطاقاتهم الفائقة ، الميزات الجغرافية لهذه الأماكن إلى أقصى مدى .

وكان من حظ المستوطنين البيض ، أن هنود أمريكا الشمالية كانوا قلة ضئيلة ، وكانوا أكثر تخلفاً من أن يشكلوا عقبة كؤوداً للاستعمار . ولقد عرقلوه ، وعاقوه في بعض الأحيان ، بيد أنهم لم يوقفوه زمناً طويلاً قط . ولعل عدد الهنود في شرق المسيسيبي لم يكن يتجاوز مائتي ألف ، عندما وصل الأوروبيين الأوائل . أما في كافة أرجاء القارة شمالي المكسيك ، فلم يكونوا يزيدون قطعاً على خمسمائة ألف . ولم يكونوا عادة أنداداً للمجموعات الجيدة التسلح والتدرب من البيض اليقظين ، إذ لم يكونوا مسلحين بغير القوس والسهم ، والفأس ، وهراوة الحرب ، كما أنهم لم يكونوا على دراية من الفنون العسكرية بغير الكماثن . ومن جراء هذا ، فإنهم لم يكشفوا عن مقدرة تذكر في تذليل الطبيعة ، وكانت مواردهم غير مكفولة ، إذ كانوا يعيشون على صيد الحيوان ، وصيد السمك في المقام الأول . فكان معظم مئاث القبائل في العشائر التسع والخمسين المعروفة في شمال المكسيك ، من الصغر بحيث لا تملك أن تحشد شراذم حربية قوية . وكان أقوى تنظيم هندي هو الشعب الخمس (الست فيما بعد) لأسرة إيروكوى الذين كان معقلهم في القطاع الغربي من ولاية نيويورك ، والذين أوتوا مجلساً عاماً ، ويتجهجون سياسة عدائية جعلتهم مبغوضين من قبائل ألجونكين المجاورة . وفي الجنوب الشرقي ، كان هنود الكريك قد أقاموا اتحاداً قوياً آخر للأسرة المسكوجية . وفي السهول العليا ، في أقصى الشمال الغربي ، كان السيوكس قد أقاموا تنظيماً آخر أقل ترابطاً إلى حد ما .

ولقد سار الصراع بين المستوطنين والهنود ، في عهد الاستعمار ، في عدة مراحل محددة : فما إن أقيمت المستوطنات الأولى ، حتى اضطرت معظمها إلى الاحتكاك الحاد محلياً بالقبائل الصغيرة المجاورة . وتقدم لنا الحرب ضد قبيلة بيكوت الضاربة ، القصيرة ، مثلاً طيباً . فقد دارت في نيوجلاندا ، وانتهت في سنة ١٦٣٧ بالقضاء التام على قبيلة بيكوت التي كانت تسكن وادي كونكتيكت . وهناك مثال آخر في الحرب بين مستوطني فيرجينيا وقبائل البوهاتان ، وقد بدأت في سنة ١٦٢٢ ، وانتهت هي الأخرى بهزيمة ساحقة للهنود . غير أن الهنود كونوا أحلفاً قبلية كبيرة للمقاومة ، إذ أخذ الوافدون البيض في الزحف والاستيلاء على مساحات متزايدة من الأراضي . فحشد الملك فيليب — مثلاً — عدداً من قبائل نيوجلاندا المهمة ، التي ظلت عامين تقاتل في

بسالة قبل أن يتم سحقها ، في حين أن مستوطنى كارولينا الشمالية واجهوا تجمعاً شبيهاً بهذا في حرب توسكارورا ، وكذلك فعل مستوطنو كارولينا الجنوبية في حرب ياماسى . وكانت هذه الصراعات شديدة ، وقاسية ، فكبدت البيض كثيراً من الخسائر فى الأرواح والممتلكات . وجاءت أخيراً مرحلة من الحرب وجد فيها الهنود حلفاء أوروبيين ، فانضمت بعض القبائل الشمالية إلى الفرنسيين ، وأخذت بعض القبائل الجنوبية تتلقى أسلحة وتشجيعاً من الإسبانين . وشاء حظ المستوطنين الناطقين بالإنجليزية ، أن يتخذ اتحاد إيركوى القوى موقفاً ودياً نحوهم ، وأن يعاونهم فى عمليات ضد الفرنسيين . وفى نهاية الأمر ، بآ الهنود المعادون هزيمة ماحقة فى المرحلة الثالثة من الحروب ، كتلك التى منوا بها فى المرحلتين السابقتين .

المستوطنون الأوائل

أقبل المستوطنون البريطانيون الأوائل على القارة الجديدة الفجة فى جماعات جريئة . وكانت السفن التى دخلت هامبتون رودز ، فى ١٣ مايو سنة ١٦٠٧ ، تحت قيادة كريستوفر نيوبورت لا تحمل غير رجال ، بغير معدات . ولكن لم يلبث هؤلاء أن أقاموا بلدة جيسمتاون ، التى لم تكن تتألف فى بادئ الأمر إلا من حصن ، وكنييسة ، ومخزن ، وصف من الأكواخ الصغيرة ، وعندما حاقت بهم كارثة ، أبدى الكابتن جون سميث من رباطة الجأش ، وسعة الحيلة والجهد ، ما جعله فى العام التالى رئيساً وديكتاتوراً حقيقياً للمستعمرة . وأخذت الزراعة تتقدم وتبدأ ، ففى سنة ١٦١٢ شرع جون رولف فى زراعة الطباق (التبغ) ، فلما حقق أسعاراً عالية فى سوق لندن ، أقبل الكل على زراعته ، حتى لقد زرعت ساحة سوق البلدة به .

غير أن النمو كان بطيئاً ، فلم يكن فى فيرجينيا ما يزيد على ألفى نسمة فى سنة ١٦١٩ . وقد امتازت هذه السنة بثلاثة أحداث ، كان أحدها وصول سفينة من إنجلترا تحمل تسعين حسناء شابة ليصبحن زوجات للقادرين من المستوطنين على دفع نفقات نقلهن ، بواقع مائة وعشرين رطلاً من الطباق عن كل واحدة . وقوبلت هذه الشحنة بفرح شجع على إفاد شحانات مماثلة فى وقت قصير . ولم يكن إدخال الحكم النيابى فى

١٧ تأسيس المستعمرات

أمريكا أقل أهمية من هذا الحدث ، فلقد اجتمع أول مجلس تشريعي في القارة يوم ٣٠ يوليو ، في كنيسة جيمستاون ، حيث كان جون رولف قد دعم سلاماً مؤقتاً مع الهنود ، بأن تزوج بوكاهونتاس قبل ذلك بسنوات . وكان المجلس مؤلفاً من الحاكم ، وستة من أعضاء الكنيسة ، واثنين من الأهالي يمثل كل منها عشر مزارع . أما ثالث الأحداث الهامة في ذلك العام ، فكان وصول سفينة هولندية ، في شهر أغسطس تحمل عبيداً من الزنوج ، بيع عشرون منهم للمستوطنين .

وبينما كانت فيرجينيا تعمل جاهدة ، على هذا النحو ، للبقاء والنمو ، كان حشد من أتباع كالفين من الإنجليز الذين استقروا في هولندا ، يضعون الخطط للانتقال إلى العالم الجديد . فإن هؤلاء المهاجرين الذين اضطهروا لإنكارهم على الملك السيادة الكنسية ولرغبتهم في إقامة كنيسة مستقلة لهم ، كانوا قد جاءوا أصلاً من قرية سكروبي في مقاطعة نوتينجهام الإنجليزية . وكانوا مجموعة ممتازة من كل النواحي ، إذ كان لهم ثلاثة من الزعماء ذوو كفاءة بارزة ، هم : المدرس جون روبنسن ، وهو عالم واسع العقل ، كريم القلب ، تخرج في جامعة كمبريدج . . وشيخهم الحكيم وليم بروستر ، وهو الآخر من خريجي كمبريدج . . ووليم برادفورد ، وهو مثالي من أصحاب المبادئ ، أريب ، قوى الشخصية . وكان عامة القوم ممن أوتوا نزاهة ، وأدباً جاداً ، ورصانة ، فضلاً عن الشجاعة والجلد . فقد احتملوا عداءً شعبياً في إنجلترا ، كما صمدوا للعزلة والعمل الكادح في هولندا . أما وقد ظفروا بإذن يخولهم الاستقرار في أمريكا ، وبسفينة تدعى مايفلاور ، وأكداش من المؤن ، فقد استعدوا لمواجهة مصاعب البراري . وأبحر المهاجرون من بلايموث وعددهم مائة واثنان ، فوصلوا إلى ساحل مساشوستس في ١١ ديسمبر (بالتقويم القديم) من عام ١٦٢٠ . وفي ذلك الشتاء ، مات أكثر من نصفهم من البرد وداء الاسقربوط . وما أروع الصورة التي كتبها وليم برادفورد عن تلك المغامرة :

ولكني لا أملك سوى أن أمسك عند هذه النقطة ، وأن أترث وأقف متأثلاً في عجب حال القوم المساكين الراهنة . . . فهم وقد عبروا المحيط الشاسع ، واجتازوا قبله بحراً من المتاعب تأهباً لذلك . ليس لهم من أصدقاء يرحبون بهم ، ولا فنادق تسرى عنهم أوترد النشاط إلى أجسادهم التي أضنتها العوامل الجوية ، ولا ديار بل ولا مدن يأوون

إليها ، وينشدون ملاذاً وملجأً . . . ثم إن السفر في هذا الفصل ، فصل الشتاء — والذين يعرفون فصول الشتاء في هذه البلاد ، يعرفون أنها قاسية عنيفة ، معرضة لمواصف هوجاء ضارية — السفر في هذا الفصل إلى أماكن معروفة أمر خطير ، وهو أشد خطراً إذا كان للسعى إلى ساحل غير معروف . ثم ، ما الذي يمكن أن يشهده اللهم إلا برارى بشعة موحشة ، زاخرة بالوحوش والأدميين المتوحشين ؟ . . ما الذي يمكن أن يشد أزرهم ويعينهم والحال هذه سوى روح الله وفضله ؟

غير أنهم في الصيف التالى أنتجوا محاصيل جيدة . وفي الخريف أحضرت إحدى السفن مستوطنين جدد ، فإن عزمهم لم يهن قط . وعندما أرسل لهم زعيم هنود النارجانسيت — واسمه كانونيكس — حزمة من السهام داخل جلد أفعى كدعوة إلى الحرب ، حشا برادفورد جلد الأفعى بالرصاصات وردة مع رسالة تحد .

وما لبثت المستعمرات الإنجليزية الأخرى أن ظهرت في تتابع سريع ، فإن الخلية الأم ^(١) كانت على استعداد لأن توفد أسراها . إذ شهد أحد أيام شهر مايو سنة ١٦٢٩ أرضفة ميناء لندن تعج بالحركة والانفعال المبتهج ، إذ كانت خمس سفن تقلع إلى خليج مساشوستس حاملة ٤٠٠ مسافر ، و ١٤٠ رأساً من الماشية ، و ٤٠ عنزاً ، فكانت هذه أكبر دفعة أرسلت حتى ذلك الحين عبر المحيط الأطلنطى في آن واحد . وقد وصلت قبيل نهاية شهر يونيو إلى سالم حيث كان جون إنديكوت وفريق صغير من الأعوان قد أقاموا بلدة ، في الخريف السابق . وكان هؤلاء القوم من المتطهرين (البيوريتان) — أى أعضاء كنيسة إنجلترا ، الذين ودوا في بادئ الأمر أن يصلحوا أو يطهروا تعاليمها ، ثم انتهوا بالانسحاب منها — ففتحو السبيل إلى هجرة بيوريتانية كبيرة . وفي ربيع ١٦٣٠ ، وصل جون وينشروب إلى سالم مع إحدى عشرة سفينة ، حملت تسعمائة مستوطن ، كانوا كافين لإنشاء ثمان مدن جديدة ، منها بوسطن . ولقد نمت مستعمرة خليج مساشوستس بسرعة كبيرة ، حتى إنها سرعان ما أخذت تمد فروعها إلى الجنوب والغرب . ولقد اضطر روجر ويليمز — وكان قساً بروتستانتيّاً من سالم راح يدعو بشجاعة إلى الفصل بين الكنيسة والدولة ، مع بعض الآراء الجذرية الأخرى — إلى الزواج إلى بطاح رود آيلاند .

(١) يقصد المؤلف بالخلية الأم « إنجلترا » — المترجم .

١٩ تأسيس المستعمرات

وهناك أنشأ بلدة بروفيدنس ، فى سنة ١٦٣٦ ، كموطن للتسامح الدينى المثلالى . وفى ذلك العام ، بدأ كذلك أول نزوح إلى كونكتيكت تحت قيادة الأب توماس هوكر ، الذى نقل قسماً كبيراً من أبريشتة دفعة واحدة من كمبريدج إلى الغرب . وفى سنة ١٦٣٤ ظهرت إلى الوجود مستعمرة أخرى جديدة بالذكر ، إذ تم لأول مرة استيطان ميريلاند تحت توجيه سيسيليوس كالفيرت ، بارون بلتيمور الثانى ، ذى العقلية المتحررة . وكان معظم السادة الذين ذهبوا إلى هناك من الكاثوليك الإنجليز ، على شاكلة منشئ المستعمرة ، فى حين كان معظم عامة القوم من البروتستانت . ومن ثم فقد كان التسامح الدينى أمراً لا غنى عنه ، فكانت ميريلاند موطناً للحرية الدينية ، تجتذب الناس من مختلف العقائد . ولقد اتجه المستوطنون من فيرجينيا إلى آلبهارل ساوند — إحدى مناطق كارولينا الشمالية حالياً — من أوائل الخمسينات (١٦٥٠) . بيد أن الملك تشارلز الثانى لم يلبث أن منح ثمانية من المقربين إليه تفويضاً يبيع لهم امتلاك المنطقة الشاسعة التى تضم ولايتى كارولينا وولاية جورجيا حالياً . وكان أن أطلق المنتفعون بهذا التملك اسم الملك الذى أثرهم بفضلله ، على أول مستعمرة وأول مدينة ، وحملوا جون لوك على أن يضع لهم دستوراً أساسياً ، لم يقدر له أن ينفذ قط ، لحسن الحظ . وأقبل المستوطنون من فيرجينيا وغيرها ، وبينهم كثيرون من الهيجونوت الفرنسيين الذين وفدوا من انجلترا وجزر الهند الغربية إلى الساحل مباشرة . وسرعان ما أصبحت تشارلستون ، التى أنشئت فى سنة ١٦٧٠ ، العاصمة الثقافية والسياسية للمستعمرة .

ولقد تسنى بالفتح الظفر بعاصمة إحدى المستعمرات الغنية . ذلك أن الهولنديين كانوا قد أوفدوا هنرى هدسن ، وهو أحد رجال البحر الإنجليز ، لاستطلاع النهر الذى يحمل اسمه . . وقد قام بالمهمة فى سنة ١٦٠٩ ، وتبعه تجار الفراء من الهولنديين ، فلم تلبث أن تشكلت على جزيرة مانهاتان مستوطنة صغيرة ، فى سنة ١٦٢٤ . وأخذ إقليم نيو نيذرلاند (هولندا الجديدة) ينمو حولها فى ببطء ، وقد قعد عن أن يقيم نظاماً ومؤسسات للحكم الذاتى ، بيد أنه ترك أثراً باقياً فى نظام المزارع الإقطاعية على طول نهر هدسن ، وفى فن العمارة ، وفى عائلات المهاجرين الهولنديين الأوائل — النيكر بوكر — التى قدر لها أن تقوم بدور قيادى فى تاريخ نيويورك والأمة كلها . وفى هذه الأثناء ، لم يتخل الإنجليز قط عن ادعاء الحق فى الساحل كله ، فكانت مستوطنات كونكتيكت توافقة للاستيلاء على جارتهم المزعجة . فلماذا السماح بوجود هذا العنصر الأجنبى فى قلب

٢٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

وسط أمريكا البريطانية ؟ ومنح تشارلز الثاني المنطقة لأخيه دوق يورك ، الذى أقدم على تصرف شديد . ففي صيف سنة ١٦٦٤ ، وصلت إلى خارج ميناء نيو أمستردام ثلاث بوارج حربية ، حملت قوة من الجنود عُززت بجنود كونكتيكت ، كما وعدت بتعزيزات من مساشوسيتس ولونج آيلاند . ولم يعارض معظم المستوطنين الهولنديين تغيير السيادة ، إذ ضاقوا بالحكم الاستبدادى . وبالرغم من أن المناضل بيتر ستيفسانت أعلن أنه يؤثر الموت على التسليم ، فإنه لم يكن يملك خياراً ، فارتفع العلم البريطانى على المدينة ، التى بدّل اسمها إلى نيويورك ، وظلت فى حوزة الإنجليز ، فيما عدا فترة وجيزة أثناء حرب لاحقة (بين سنتى ١٦٧٢ ، ١٦٧٤) كانت فيها بين الإنجليز والهولنديين . والواقع أن العلم البريطانى أصبح مرفوعاً من كنبيك حتى فلوريدا .

على أن من أهم المستعمرات مستعمرة لم تتخذ شكلاً محدداً حتى أواخر القرن ، إذ كان عدد من المستوطنين البريطانيين والهولنديين والسويديين قد شقوا سبلهم إلى المنطقة التى أصبحت فيما بعد ولايتى بنسلفانيا وديلاوير . وعندما تولى وليم بن التقى البعيد النظر حكم المنطقة ، فى سنة ١٦٨١ ، أعد العدة لإقامة دولة ديمقراطية كومنولث على مبادئ الكويكرز . . تلك الطائفة التى وصفها فولتير فيما بعد بأنها أصدق الناس مسيحية . ولقد هدأ تمسك الهنود بحقوقهم فى الأرض ، بمعاهدات شراء ودية ، جرياً على طريقة وليم بن المطبوعة على الخير . وعرض هذا شروطاً متحررة لاجتذاب المستعمرين ، مطمئناً كل القادرين على الحصول على أراض ، وإنشاء بيوت مناسبة ، ومعاشة جيرانهم بالعدل والمساواة . فما كان لمسيحي أن يعانى من الاضطهاد الدينى ، وكانت السيادة للقانون فى الشؤون المدنية ، كما كان للشعب نصيب فى وضع القوانين . وتولى بن توجيه إنشاء فيلادلفيا لتكون « مدينة الحب الأخوى » التى كان يحلم بها ، حيث تحيط الحدائق بكل بيت ، حتى تكون « بلدة ريفية خضراء . . وتكون صحية دائماً » . ثم جاء بنفسه فى سنة ١٦٨٢ ، جالِباً معه حوالى مائة من المستعمرين . وازدهرت بنسلفانيا ازدهاراً رائعاً ، فاجتذبت مجموعة كبيرة متباينة الأصول من المستوطنين ، من بريطانيا وأوروبا ، وإن ظلت محتفظة بسماة الكويكرز .

ويمكن القول بوجه عام أن هناك أداتين استخدمتا فى عملية نقل البريطانيين وغيرهم عبر البحار وإنشاء ولايات جديدة . فكانت الشركة التجارية التى خولت حق امتلاك الأراضى ، والتى أنشئت أصلاً للكسب من وراء ذلك ، هى الأداة الأولى ،

٢١ تأسيس المستعمرات

وهي التي عمرت فيرجينيا ومساوشوستس . ذلك أن شركة لندن — كما كانت تسمى ، لأنها تشكلت من مساهمين مقيمين في لندن — كانت قد منحت تفويضاً في سنة ١٦٠٦ بتعمير مستعمرة بين خطي العرض الرابع والثلاثين والواحد والأربعين . أما شركة بلايموث ، التي كان مساهموها يقيمون في بلايموث وبريستول ومدن أخرى ، فقد خولت في العام ذاته إقامة مستعمرة بين خطي العرض الثامن والثلاثين والخامس والأربعين . فكان لهاتين الشركتين حق توزيع الأراضي ، واستغلال المناجم ، وسك النقود ، وتنظيم الدفاع عن مستعمرتيهما . واحتفظ الملك ، الذي كان يمنح التفويضات ، بالسلطة العليا على حكومتى المستعمرتين . وفي سنة ١٦٢٤ ، سعت شركة لندن إلى إلغاء تفويضها بعد خسائر مالية فادحة ، وجعل الملك فيرجينيا مستعمرة تابعة للتاج . ولقد أقامت شركة بلايموث عديداً من المستوطنات ومصادر الأسماك الشبالية ، بيد أنها لم تحقق أرباحاً ، فما لبثت بعد أن أعادت تنظيم ذاتها أن طلبت إلغاء تفويضها في سنة ١٦٣٥ ، واصفة ذاتها بأنها ليست سوى « جثة هامدة » .

ومع ذلك ، فإن شركتى لندن وبلايموث قامتتا بعمل باقى الأثر في التعمير والاستعمار ، وإن لم يكن مربحاً مالياً . فكانت شركة لندن أم فيرجينيا بكل ما للكلمة من معنى . وأنشأت شركة بلايموث — ومجلس نيو إنجلاند الذي خلفها — المدينة إثر المدينة في مين ونيو هامبشاير ومساوشوستس . كما كانت هناك شركة ثالثة ، هي شركة خليج مساشوستس أوتيت طابعاً ممتازاً ومصيراً خاصاً . فلقد أنشئت أصلاً كهيئة من المساهمين ذوى الحوافز التجارية والوطنية ، وكان معظمهم من البيوريتان . ولم يشتم فشل الشركتين اللتين سبقتهما في تحقيق أرباح ، عن الإيمان بأن الإدارة الحسنة كفيلة بأن تنتج أرباحاً . ومنحها تشارلز الأول تفويضاً بامتلاك الأراضي في أمريكا ، في سنة ١٦٢٩ . ثم حدث تطور غريب : فعندما أصبح الملك ، وفريق الكنيسة العليا تحت رئاسة الأسقف لود ، المسيطرين على كنيسة إنجلترا ، رغب كثير من الزعماء البيوريتان في الهجرة . كانت لهم ثروات ، ومكانة اجتماعية ، وروح استقلالية ، فلم يشاءوا الذهاب إلى خليج مساشوستس كمجرد أتباع لشركة في لندن ، فضلاً عن أنهم كانوا يطمعون في تحقيق الحرية التي تمكنهم من إقامة حكومة كنسية من النوع الذي كانوا يودون . ومن ثم فإن البيوريتان الرئيسيين في الشركة عمدوا إلى شراء كل أسهمها ، وأخذوا تفويض امتلاك الأراضي ، وأبحروا به إلى أمريكا . وهكذا تحولت شركة تجارية

٢٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

إلى مستعمرة ذات حكم ذاتي . . مستعمرة خليج مساشوستس .
 أما الأداة الرئيسية الثانية للاستعمار ، فهي منحة التملك . وكان المالك هو الرجل
 الذى ينتمى إلى الطبقة الراقية أو النبلاء فى بريطانيا ، والذى أوتى مالا فى حوزته ،
 والذى منحه التاج قطعة من الأرض فى أمريكا كما كان يمنح الإقطاعيات فى بريطانيا .
 وكانت القاعدة القديمة فى القانون الإنجليزى تقضى بأن كافة الأراضى غير المملوكة
 بطريقة أخرى ، تكون ملكاً للملك ، وقد خضعت أمريكا لهذه القاعدة . وهكذا تلقى
 لورد بلتيمور ميريلاند ، وتلقى وليم بن - وهو ابن قائد بحرى كان الملك مديناً له بهال -
 بنسلفانيا ، وحظى فريق من المقربين إلى الملك بولايتى كارولينا ، فى عهد تشارلز
 الثانى . ولقد منح كل هؤلاء الملاك سلطات واسعة لإقامة حكومة فى أقاليمهم . فكان
 اللورد بلتيمور يعتنق بعض آراء آل ستوارت فى الحكم المطلق ، ومن ثم كره أن يعطى
 مستوطنى المستعمرة أية سلطة لسن القوانين ، ولكنه انصاع أخيراً لمجلس نيابى أنشأه
 الشعب . أما بن فكان أكثر منه حكمة ، إذ دعا فى سنة ١٦٨٢ مجلساً تشريعياً إلى
 الاجتماع ، وكان كافة أعضائه ممن انتخبهم المستوطنون ، وقد سمح لهم بأن يضعوا
 «دستوراً أو» ميثاقاً أعظم» أضفى على ممثلى الشعب كثيراً من سلطات الحكومة . . وتقبل
 بن هذا المشروع .

وما إن ثبت أن الحياة فى أمريكا من الممكن أن تكون رخية زاخرة بالأمل ، حتى
 بدأت حركة هجرة تلقائية كبيرة من أوروبا . ولقد جاءت على دفعات غير منتظمة ،
 وببواعث متباينة . فكان البيوريتان فى إنجلترا ، فيما بين سنة ١٦٢٨ و ١٦٤٠ ، فى حال
 من القنوط والتوجس ، يعانون كثيراً من الاضطهاد الفعلى . إذ أن السلطات الملكية آلت
 على نفسها بعث الأوضاع القديمة فى الكنيسة ، وأصررت على أن تجعل الكنيسة تابعة
 تبعية كاملة للتاج وللأساقفة . ولقد استشرى الهياج السياسى والكنسى (الإكليريكى)
 فى البلاد ، فحل الملك البرلمان ومارس الحكم بدونه عشر سنوات ، وسجن كبار
 معارضيه . ولما بدا أن حزب الملك عاكف على القضاء على الحرية فى إنجلترا ، أيقن كثير
 من البيوريتان أن خير مسلك هو النزوح عن الجزيرة وإقامة دولة جديدة فى أمريكا .
 فغادر إنجلترا حوالى عشرين ألفاً من أشد أهلها جلدأ وأصلبهم عوداً ، فى الهجرة الكبرى
 بين سنتى ١٦٢٨ و ١٦٤٠ . ولم يقل عدد الرحلات البحرية التى نقلت المستوطنين ،
 والأنعام ، والأثاث ، عبر المحيط الأطلنطى عن ألف ومائتين . وأصبحت بوسطن من

٢٣ تأسيس المستعمرات

أهم الموانئ البحرية في العالم ، إذ كانت تخدم منطقة حافلة بالحركة والحياة . وأنشئت فيها كلية هارفارد . وكان بين المستوطنين أجداد فرانكلين وآدامز ، وإيمرسون ، وهوثورن ، وأبراهام لنكولن . وكان من أبرز سمات هذه الحركة هجرة البيوريتان لا فرادى ، ولا كعائلات ، وإنما مجتمعات بأكملها ، حتى إن بعض مدن إنجلترا خلت من نصف سكانها . ولم تكن المستوطنات الجديدة مؤلفة من تجار ومزارعين فحسب ، وإنما من أطباء ، ومحامين ، ومدرسين ، ورجال أعمال ، وحرفيين ، ورجال دين كذلك . وأصبحت نيو إنجلاند صورة مصغرة من إنجلترا – موطنهم القديم – مثقلة ببذور النمو المقبل ، إلى درجة غير عادية .

وخفت هجرة البيوريتان عندما بدأت الحرب الأهلية في إنجلترا ، في عام ١٦٤٢ . بيد أن ما يمكن أن يسمى تجاوزاً بهجرة الفرسان المدللين بدأت بعد ذلك بقليل ، واشتدت في عام ١٦٤٩ ، عندما أعدم الملك تشارلز الأول ، ثم واصلت اشتدادها حتى إعادة الملكية في سنة ١٦٦٠ . وكما أن هجرة البيوريتان رفعت عدد سكان نيو إنجلاند فوق ثلاثين ألفاً ، فإن هجرة الفرسان كانت العامل الرئيسى في زيادة سكان فيرجينيا حوالى سنة ١٦٧٠ إلى أربعين ألفاً تقريباً . وقد جلب هذا السيل قدراً ملحوظاً من الثروة ، ذلك لأن الفرسان لم يكونوا سوى فئة قليلة من الوافدين ، وكان الكثيرون من أبناء الطبقات الثرية . وبفضل امتلاكهم الأموال ، ابتاعوا ضياعاً كبيرة وزرعوها . كما أنهم كثيراً ما كانوا قادرين على توسيع رقاع هذه الضياع من الأراضي الملكية بفضل ما لهم من سلطان أو نفوذ . فأصبحت فيرجينيا مليئة بدوى اليسار ، وكانت في بادئ الأمر مستعمرة يغلب على سكانها الفقر . ولقد جلبت هذه الهجرة بعضاً من أعظم الأسماء في التاريخ الأمريكى . فقد وصل أجداد لى إلى فيرجينيا فى الأربعينات من القرن السابع عشر ، ووصل جون واشنطن ، الجد الأكبر لواشنطن ، فى سنة ١٦٥٧ . وتبين وثائق أسرة مارشال أن أول أمريكى من أسلافهم كان ضابطاً بالقوات الملكية أثناء الحرب الأهلية الإنجليزية ، وجاء إلى فيرجينيا عندما غلب الملكيون على أمرهم . وإنما لنصادف فى تاريخ فيرجينيا بعد الهجرة الكبيرة أسماء بعض العائلات المبرزة ، مثل آل هاريسون ، وآل كارى ، وآل ميسون ، وآل كارتر ، وآل تايلر ، وآل راندولف ، وآل بيرد .

بيد أنه لا سبيل إلى استخلاص أى فارق اجتماعى حقيقى بين مستوطنى كل من مساشوستس وفيرجينيا ، فإن القوم الذين جعلوا كلاً من الدولتين عظيمة كانوا من عين

الطبقة الوسطى الواسعة النطاق . فكان آل واشنطن في إنجلترا من أعيان الريف فحسب ، وقد كانت لهم ضيعة صغيرة تدعى سلجريف في نورثهامبتونشاير ، وكان أحدهم عمدة لنورثهامبتون . ويبدو أن الجد الأكبر لجون مارشال كان نجاراً . وكان أول راندولف في فيرجينيا ينحدر من أسرة من أعيان وورويكشاير ليست ذات شأن كبير . فلم يكن أحد من هؤلاء الفرسان أفضل مولداً أو عراقاً من جون ويشروب البيوريتاني ، الذى انحدر من أسرة ميسورة الحال ، كانت تمتلك ضيعة غروتون في سفولك بانجلترا . وما من شخص كان أفضل أصلاً من سيرريتشارد سالتونستال ، الذى خلف كثيراً من النسل المبرزين في نيو إنجلاند ، أو وليم بروستر الذى كان كوكيل وزارة ذى أثر كبير في القضاء . ولقد كانت الأغلبية الكبرى من المهاجرين إلى ماساشوستس وفيرجينيا ، قبل سنة ١٦٦٠ ، من صغار الضباط والملاك ، ومن الميكانيكيين ، وأصحاب المتاجر ، وصغار الموظفين الكتابيين ، في حين أن الكثيرين في كافة أرجاء أمريكا كانوا من الخدم المرتبطين بعقود ، إذ دفعوا نفقات سفرهم بالتعاقد على العمل لفترة محددة . وكانت ثروتهم الحقيقية في صدق نزاهتهم واستقامتهم ، واعتمادهم على النفس ، ونشاطهم .

قيام الحكم الذاتى

كان المستعمرون أينما ذهبوا يحملون معهم ، من الناحية النظرية ، حقوق البريطانيين الأحرار المولد ، وتراثهم من الصراع الإنجليزى من أجل الحرية . ولقد تأكد هذا بوجه خاص في أول تفويض لتمليك وتعمير فيرجينيا ، إذ أعلن أن المستوطنين سيحظون بكافة الحريات ، والحقوق السياسية ، والحصانات ، « كما لو أنهم كانوا مقيمين ومولودين في داخل هذه المملكة . . إنجلترا » . فكان لهم أن يحظوا بحماية الماجنة كارتا والقانون العام . وكان هذا مبدأ أساسياً عظيم القيمة . على أنه كان لابد لتنفيذ هذا من أن يبدى المستعمرون يقظة مستمرة ، وأن يشنوا صراعاً حامياً من أجلها . وقد بدأوا منذ بداية تاريخهم تقريباً يعكفون على نسيج خاص لنظام الحكم الدستورى الذى يسودهم ، مكافحين من أجل نظام نيابى أقوى ، وإشراف على خزانة الدولة ، وضمانات أكمل للحرية الشخصية .

٢٥ تأسيس المستعمرات

ولقد شرع المجلس التشريعي لفيرجينيا ، الذى ولد فى سنة ١٦١٩ ، فى سن مجموعة من القوانين المتباينة ، على الفور . وعندما ألغى التاج التفويض الذى كان لشركة فيرجينيا ، واصل مجلس مندوبى المواطنين إبداء نشاط عارم لم يتضاءل . ولم يلبث أن وضع فى بضع سنوات بعض قواعد جوهرية بصدد حقوقه . فأعلن أنه لم يكن للحكومة حق فرض أية ضرائب بدون تحويل من الهيئة التشريعية ، وعليها استخدام الأموال المحصلة من الضرائب وفقاً لتوجيهات الهيئة التشريعية ، وأن مندوبى المواطنين معفون من التوقيف والاعتقال . وبعد ذلك بقليل ، أعلن المجلس أنه ليس لشيء أن يعترض تنفيذ قانون تشريعي ، كما اتخذ خطوات ليكفل عدالة المحاكمات عن طريق المحلفين . ولقد ظل المجلس التشريعي فى فيرجينيا قوى السلطان طيلة أمد احتلال الدولة فى إنجلترا ذلك . بيد أنه أخذ يضعف بعض عودة آل ستيوارت إلى العرش ، لسوء الحظ . غير أن خضوعه للحاكم المعين من الملك لم يلبث أن قوبل برد فعل عنيف .

وسرعان ما تكون نظام نيابى فى خليج مساشوستس كذلك . وكانت نصوص وثيقة التحويل تتيح لجون وينشروب وأعوانه الاثنى عشر سلطة حكم كافة المستوطنين . وفى خريف سنة ١٦٣٠ تقدمت هيئة كبيرة من المستعمرين إلى هذه المجموعة الحاكمة بالمطالبة بجعلهم أعضاء أحراراً فى الشركة ^(١) . وتقرر فى العام التالى الاستجابة للطلب ، ولكن « بحيث تقصر هيئة النواب على الرجال الصالحين ، الأمانة » ، وبالتالى فلا « يضم لحرية هذه الهيئة السياسية إلا من يسمح بضمهم إلى بعض الكنائس ، وفى الحدود التى يقبلون فيها » . وهكذا أقيمت دولة دينية أوكنسية ، وقرر المعاونون الاثنا عشر أن يحتفظوا ، فى الوقت ذاته ، بعضويتهم للهيئة عاماً بعد عام ، إلى أن يقصوا عنها بتصويت خاص من الأحرار (أعضاء المجلس) . ولما كانوا يتولون كافة السلطات القضائية والتشريعية فى الواقع ، فإن توطد هذه الولاية خلق شيئاً من الأوليغاركية ^(٢) (Oligarchy) . وشدد الحاكم والمعاونون ورجال الكنيسة قبضاتهم على المستعمرة .

على أن الوقت لم يطل قبل قيام ثورة . فعندما فرضت على مدينة ووترتاون ضريبة للدفاع فى سنة ١٦٣٢ ، جازف المواطنون غير الممثلين فى المجلس ، ورفضوا أن

(١) Freemen : يقصد بها الذين يتمتعون بالحريات السياسية — المترجم .

(٢) نظام حكم تتولاه أقلية ضئيلة لا تحمل بغير استغلال مراكزها لتحقيق منافع خاصة — المترجم .

يدفعوها ، « خشية أن ينساقوا وذرياتهم إلى ربقة الاستعباد » . ولتهدئة هؤلاء المتذمرين ، لم يلبث أن تقرر أن يسترشد الحاكم ومعاونوه في وضع الضرائب بمجلس يتألف من مندوبين عن كل مدينة ، وهذا تسنى وضع أساس هيئة تشريعية حقيقية . والواقع أن هذه الهيئة من مندوبى المدن كانت ، باجتماعها بالحاكم ومعاونيه ، تؤلف هيئة تشريعية من مجلس واحد . وعندما التأمّت في سنة ١٦٣٤ ، استولت على زمام السلطة التشريعية ، فسنت القوانين ، وقبلت ضم أحرار جدد ، وأصبحت تتلقى اليمين بالولاء . وهذا برزت إلى الوجود ثانية الهيئات النيابية في القارة . ولما بدا نظام المجلس التشريعى الواحد غير موفق ، انقسمت هذه الهيئة فيما بعد إلى مجلسين ، فكان معاونون يؤلفون المجلس الأعلى ، ومندوبو المدن يؤلفون المجلس الأدنى . وظلت مستعمرة خليج مساشوستس جمهورية بيوريتانية يحكمها أعضاء منتخبون من أهلها زهاء نصف القرن . وعندما جعلت إقليماً تابعاً للتاج في سنة ١٦٩١ ، بموجب وثيقة تفويض جديدة ، ظلت الهيئة التشريعية هيئة قوية . وكان التاج بعد ذلك هو الذى يختار الحاكم ، ولكن الشعب كان يختار أعضاء المجلس النيابى ، الذى احفظ برقابة قوية على الخزانة .

وفي الوقت ذاته ، برزت على الأرض الأمريكية جمهوريتان صغيرتان راسختان ، هما : رود آيلاند وكونكتيكت ، إذ كان الرعيل الأول من الذين انسابوا من خليج مساشوستس ، قد أقاموا عدداً من المدن في وادى كونكتيكت الأدنى . وقد اجتمع أحرارهم في هارتفورد في سنة ١٦٣٩ ، ووضعوا « النظم الأساسية لكونكتيكت » ، وهذا أول دستور مكتوب وضعته إحدى الولايات الأمريكية (الكومنولث) لنفسها . . بل الأول في العالم الغربى ، في الواقع . وقد نص على حاكم ، وهيئة من معاونين ، ومجلس أدنى يتألف من أربعة نواب عن كل مدينة ، ينتخبون جميعاً بوساطة الشعب . وبعد عودة آل ستيوارت للعرش ، حصلت كونكتيكت من التاج على وثيقة تفويض (١٦٦٢) ، ولكنها اشتملت على نصوص متحررة بدرجة تثير الدهشة : فلأحرار السلطة في أن يحكموا أنفسهم كما يحبون ، لا يخضعون إلا لقيد مبهم هو ألا تكون أية قوانين يسنونها معارضة لقوانين إنجلترا . وكذلك سارت رود آيلاند موفقة ، فعندما ضمت مدنها صفوفها لأول مرة ، كان روجر وليمز قد حصل لها على وثيقة تفويض يكفل أكمل سلطات ممكنة للحكم الذاتى . وكانت عودة الحكم الملكى في إنجلترا مدعاة لطلب تفويض جديد ، ولكن التفويض الذى صدر في سنة ١٦٦٣ ، جعل رود آيلاند

٢٧ تأسيس المستعمرات

جمهورية صغيرة في نطاق الإمبراطورية البريطانية ، على غرار كونكتيكت ، وظلت هكذا حتى الثورة . ولعلها كانت أكثر المجتمعات حرية على وجه البسيطة ، إذ كانت تنتخب كافة موظفيها الحكوميين ، وتسن كل قوانينها .

لم يحن عام ١٧٠٠ حتى كان ثمة نظام عام للحكم في المستعمرات قد تبلور . وكان لكونكتيكت ورود آيلاند وضع خاص ، كجمهوريتين تتمتعان بالحكم الذاتي الكامل ، فتختاران كافة موظفي حكومتيهما . أما المستعمرات الأخرى فكانت إما ملكاً لأفراد أو هيئات ، أو ملكاً للتاج ، ولكنها على أي الحالين ذات إطار سياسي واحد تقريباً . فكان الملك أو المالك يعين الحاكم وكان يحيط بالحاكم ، ويساعده إلى حد ما ، مجلس يعينه التاج أو المالك ، إلا في مساشوستس . ولكن بينما كان الحاكم بريطانياً باستمرار تقريباً ، فإن أعضاء المجلس كانوا من الأمريكيين . ومع أنهم كانوا يمثلون الطبقة الموسرة بوجه عام ، فإن آراءهم كثيراً ما كانت جد مختلفة عن وجهات نظر الحاكم . وكانت وظائفهم في البداية إدارية وقضائية ، بيد أنهم أخذوا يزدادون تطوراً بمجلسهم نحو أن يكون مجلساً تشريعياً أعلى^(١) . وكان لكل مستعمرة مجلس للنواب خاص بها ، يختار أعضاؤه البالغون من الذكور الذين تتوفر لهم ثروة معينة أو مؤهلات أخرى . وكان هذا المجلس الشعبي يضع القوانين ، ويحدد الاعتمادات المالية ، ويفرض الضرائب . وكانت سطوته تكمن في سلطته كممثل للرأى العام ، وفي سيطرته على الخزنة . . وهما عين العاملين اللذين جعلوا البرلمان في بريطانيا قوى السلطان بعد سنة ١٦٨٩ .

ولقد حقق المستعمرون لأنفسهم ولذريتهم نفعاً كبيراً بالظفر بالمؤسسات النيابية والاحتفاظ بها ، وكانت تميز نظامهم السياسي ثلاث حقائق جوهرية : أولاها القيمة الرفيعة التي أضفوها على الوثائق المكتوبة كضمانات لحياتهم . وما كان لانجلترا دستور مكتوب ، بيد أن المستعمرين تعلموا منذ السنين الأولى أن يقدسوا الحقوق المكتوبة في وثائق التفويض المعطاة لشركات التجارة أو للمالكين أو للناس أنفسهم . وكان مقدراً لهذه النظرة لأية مجموعة مكتوبة من القوانين الأساسية أن تكون ذات أثر عميق في التاريخ الأمريكي . وثانية الحقائق المهمة هي النزاع شبه المستمر بين الحكام والمجالس النيابية .

(١) المجلس الأعلى : مجلس الشيوخ أو الأعيان . . والأدنى : مجلس النواب — المترجم .

فقد كانا يمثلان عنصرين متضادين : فالحاكم يقف منافحاً عن الحقوق المكتسبة ومصالح الإمبراطورية ، بينما يقف المجلس ذائداً عن حقوق الشعب والمصالح المحلية . وأخيراً ، كان من المعالم البارزة للسياسة في المستعمرات إصرار المجالس النيابية على الإشراف على الاعتمادات المالية . ولقد صادفت كثيراً من المعارضة ، بيد أنها كانت تحقق هذا المطلب عادة .

ولم يكن من الحقيقة في شيء أن المستعمرات البريطانية عانت ظلماً وطغياناً . فهي بوجه عام كانت تستمتع بحرية سياسية لا مثيل لها في أى جزء من الكرة الأرضية في القرنين السابع عشر والثامن عشر . بيد أنها عانت الكثير من الحكم الطبقي ، فكانت هناك الفئة القليلة الحاكمة في الدولة الدينية في نيوانجلاند ، التي كان تحطيم سلطانها أمراً لازماً . ولقد حاول النبلاء من ملاك الأراضي والتجار إقامة احتكار سياسي في الجنوب .

وكان طغيان الطبقة يرفع رأساً بالغ الشاعة من وقت لآخر ، فكان سكان المستعمرات يدقونه . وقد وقعت أول ضربة من هذا القبيل في فيرجينيا ، في تمرد بيكون في سنة ١٦٧٦ . فإن الخدم المرتبطين بعقود ، والذين أدوا المدد المتعاقد عليها ، والمهاجرين الذين كانوا يفلحون المزارع على الحدود ، وأصحاب المزارع الصغيرة ، والعديد من العمال ومن ملاحظي العبيد شعروا بأنهم يلقون معاملة سيئة . ذلك لأنه لم يكن لمن لا يملك أرضاً أى صوت انتخابي بعد سنة ١٦٧٠ . وقد حُرموا بطرق متعددة أخرى من أن يكون لهم صوت في الشؤون السياسية . وكانت المجالس النيابية تبقى دون تغيير لمدة طويلة في الواقع ، حتى لقد ظل واحد منها أربع عشرة سنة ، من عام ١٦٦١ حتى عام ١٦٧٥ ، وكانت المناصب توقف على ذوى الخطوة لدى الحاكم ولأصحاب المزارع الأثرياء . وكان التعليم فوق متناول الفقراء ، كما أنهم لم يكونوا ينعمون بحراسة كافية ضد اعتداءات الهنود ، لأن الحاكم ومعاونه كانوا يصادقون الهمجيين مراعاة لتجارة الفراء . وكانت الضرائب باهظة ، والأسواق بعيدة عن المزارع القائمة في الأطراف ، وقد ترك المزارعون في أسوأ المآزق عندما هبط سعر التبغ .

أخيراً ، أدى اعتداء هندي على المستوطنات المكشوفة إلى ثورة عارمة . وجأر المستوطنون مطالبين بحمايتهم ، فلما أعطاهم الحاكم بيركلي وأصحاب المزارع الساحلية إجابات ماطلة ، هاجت نائيرتهم . ووضع ناثانييل بيكون نفسه على رأس الغاضبين من

٢٩ تأسيس المستعمرات

رجال البطاح العليا لنهرى جيمس ويورك ، ووجه ضربة قضت على المعقل الرئيسى للهنود ، وقتلت مائة وخمسين همجياً . حتى إذا ذهب بعد ذلك لحضور اجتماع المجلس النيابى فى وليمسبيرج ، قبض عليه الحاكم المتعجرف ، ولكن تمرداً فورياً نشب فى أعالى النهرين ، أدى إلى إخلاء سبيل بيكون ، الذى بادر إلى الفرار . وعندما عاد ، كان على رأس أربعمائة من الرجال المدججين بالسلاح . وأسرع بيركلى والمجلس إلى استقبال المزارع الشاب المعقود العزم خارج مبنى المجلس النيابى . وشق الحاكم ثيابه كاشفاً عن صدره ، وصاح : « هيا . أطلق رصاصك ! . . أشهد الله على أن الهدف واضح . أطلق ! » ولكن بيكون أجاب : « كلا ، فقد يرضى فخامتكم أننا لن نمس شعرة من رأسك ، ولا من رأس أى إنسان . إنما جئنا نطلب تفويضاً لننقذ أرواحنا من الهنود ، وهو ما وعدتنا به كثيراً ، وسوف نظفر به الآن ، قبل أن نصرف » . فصاح زملاؤه مرددين معاً ، وهم يهزون بنادقهم المعدة للإطلاق ، عند نوافذ المجلس النيابى : « سنظفر به ! » . وإلقى بيكون خطاباً صاخباً فى المجلس استغرق نصف الساعة ، مطالباً بحماية المستوطنين ، وبمراجعة سليمة للحسابات العامة ، وبتخفيض الضرائب ، وبإصلاحات أخرى .

وسرعان ما انتشر التمرد كعاصفة صيفية اجتاحت حقول فيرجينيا المتربة . وقطع الحاكم بيركلى وأعوانه وعدواً ، لم يصدق المراقبون الحصفاء أنهم سيبرون بها . وما لبث الحاكم أن استدعى ألفاً ومائتين من ميليشيا جلوسستر وميدلسيكس ، طالباً أن يساعده على قمع التمرد بيكون . وإذ ذاك انبعثت تمتمة مستنكرة ، عميقة : « بيكون ، بيكون ، بيكون » . وغادر رجال الميليشيا الميدان فى استهجان ، وهم لا يزالون يدمدمون : « بيكون ، بيكون ، بيكون » . وأعقبت ذلك حرب صريحة ، فاجتاح بيكون جيمستاون ، وفى أحد أيام الصيف المعتدلة الطقس أحرقها عن آخرها ، واستولى على سفينة مجهزة بعشرين مدفعاً فى نهر جيمس . ثم مات فى أوج عملياته بالملايا ، فانهار تمرد الذى كان قد بدأ كتأكيد عادل كل العدالة لحقوق صغار المزارعين والعمال وأهل الحدود فى الحماية من الهمجيين ، وفى معاملة سياسية ومالية منصفة ، وأفضى إلى عصيان صريح للحكومة الملكية . وما لبث بيركلى المتحرق للانتقام أن انحنى فى هزم لأحد مساعدى بيكون وهو يساق أسيراً ، وقال : « أهذا مستردرموند ؟ . . مرحباً بك . إن سرورى برؤيتك يفوق سرورى برؤية أى رجل فى فيرجينيا . لسوف تشنق خلال

٣٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

نصف الساعة يا مستر ذرموند ! » . على أن العصيان وإن بدا فاشلاً ، كان مثلاً لروح الاستقلال والاعتداد الوطيد بالنفس لدى أهل الحدود . . للروح الأمريكية إذ تجلت بطريقة لا تُنسى . . وهى أبداً لم تُنس .

الكنيسة والدولة في المستعمرات

وكما ازداد الظلم إلى الحرية السياسية في أمريكا ، نمت روح التسامح الدينى . كانت المستعمرات من باكورة الأوقات مأوى لكثير من الطوائف التى تعلمت أن تعيش معاً فى انسجام .

لقد انتقلت دوحة كنيسة انجلترا إلى فيرجينيا مع المستوطنين الأوائل . وكان بين البنايات الأولى التى أقيمت فى جيمستاون مبنى الكنيسة البسيط ، الذى أعيد تجديده بشكل جميل ، والذى لا يزال مشرفاً على النهر . وعندما جاء لورد ديلاوير حاكماً ، فى سنة ١٦١٦ ، أمر بإصلاح المبنى وتوسيعه ، فأصبح صرحاً مهيباً ، ذا مقصورات من خشب الصنوبر ، ومذبح من خشب الجوز ، ومنبر طويل ، ومنصة للكتاب المقدس ، وحوض للمعمودية . وفى هذه الكنيسة كان المزارعون يتزوجون الفتيات اللاتى كن يأتين فى السفن مشحونات ، وفيها كان أطفالهم يعمدون . ومع نمو فيرجينيا أقيمت أبرشيات جديدة ، وأنشئت كنائس . وكانت تتلقى العون من الضرائب العامة ، كما كان شأن الكنيسة الأساسية فى انجلترا . فظل كل مستوطن بضع سنين يؤدي لرجال الكنيسة ضريبة مؤلفة من بوشل من الأذرة وعشرة أرطال من التبغ . ولم يكن هذا كافياً ، فأجاز المجلس التشريعى ، فى سنة ١٦٣٢ ، قانوناً يلزم كل مستوطن بأن يخصص للقس – إلى جانب المساهمة السالفة – العجل العشرين ، والعنز العشرين ، والخنزير العشرين مما تنجب أنعامه . وبعد عودة آل ستوارت ، زيدت حصة التبغ كمية والزاماً . وفضلاً عن هذا كان من المتاح لرجال الدين الحصول على منح من الأرض دون مقابل ، تسمى الوقف أو مخصصات الكنيسة ، وعلى عطايا أخرى . كان نظام الكنيسة الإنجليكانية الرسمية حقيقة واقعة فى فيرجينيا إلى حد كبير ، كما أصبح فى أرجاء أخرى من الجنوب ، لا سيما ميريلاند وكارولينا الجنوبية .

٣١ تأسيس المستعمرات

ومع ذلك ، فإن كنيسة فيرجينيا لم تكن هيئة ذات ازدهار مادي ، ولا هي فرضت نفوذها روحياً أو فكرياً على المستوطنين ، إذ أن الظروف الاجتماعية والاقتصادية لم تكن مواتية لنموها . فكانت معظم الأبرشيات ممتدة على مساحات هائلة من أراض قليلة المستوطنين ، وكانت حدود كثير منها تمتد متاخمة لضفاف النهر ، لما بين ثلاثين وستين ميلاً ، طولاً . فكان على الذين يذهبون إلى الكنيسة أن يقطعوا مسافات طويلة على طرق متعبة ، أو أن يجدفوا تجديفاً مضيئاً عدة ساعات ، في ذهابهم وإيابهم بالنهر . فكان التردد على الكنيسة غير منتظم بطبيعة الأمر ، حتى إن جورج واشنطن — وهو من المترددين الأوفياء للكنيسة — كان معرضاً للاتهام بعدم الانتظام . وكان القس خليقاً بأن يجد معظم المقصورات خاوية ، في الطقس الشتوى السيئ . ولقد اشتكى أحدهم من أنه كان يقطع خمسين ميلاً ، في بعض الأحيان ، ليقم قداساً فإذا به لا يجد من الحضور سوى نفر قليل . وكذلك كانت هذه المساعدات للقس هزيلة ، في أغلب الأحيان ، في الأبرشيات القليلة السكان . ومع هبوط الأسعار ، فإن الضرائب المحلية ، التي كانت تُجمع تبغاً ودواجن — بدون ارتباط بالأسعار — لم تكن كافية ، فإذا حاولت الهيئة التشريعية رفعها ، كانت الأبرشيات الفقيرة تضج بالشكاوى .

ولإزاء انخفاض الرواتب ، وعدم الاطمئنان لمدة تولي المنصب ، والصعاب الكثيرة ، كان من المسير الحصول على قساوسة ذوى كفاءة وتقوى وحمية . وما كان خيرة رجال الكنيسة ليرتضوا الهجرة من إنجلترا إلى المستعمرات ، إذ كان بوسعهم العثور على مناصب أفضل في وطنهم . أما الذين كانوا يقدون على المستعمرات ، فكثيراً ما كانوا من متبلدى الذهن ، أو كسولى الجسم ، أو ذوى الأخلاق المثيرة للشك . وسرعان ما نجد أن الحكام وسواهم كانوا يشكون من أن رجال الكنيسة في فيرجينيا كانوا شرذمة من ذوى السلوك المخزى ، المقبلين على كثير من الشرور التي لا تليق بأزيائهم ، المدمنين للسباب ، والشراب ، والعراك . كانوا على غرار شخصية القس تروليب كما صورها فيلدينج في روايته . ولقد نظمت حركات إصلاحية أدت إحداها إلى إنشاء ثانية الكليات في المستعمرات ، في سنة ١٦٩٣ ، وهي كلية وليم وميرى ، كمدرسة لتعليم القساوسة الشبان ، في بادىء الأمر . بيد أن المؤسسة الكنسية ظلت غير مرضية حتى قيام الثورة .

كانت الكنيسة الإنجليكانية تتقبل المعونات من الأموال العامة في فيرجينيا وأنحاء أخرى من الجنوب ، ولكنها لم تؤت أية سيطرة على الدولة . أما في ماساشوستس

٣٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

وكونكيتكت فقد ظلت الكنيسة البيوريتانية مرتبطة بالدولة إلى حد كبير ، لعشرات من السنين ، فكانت تمارس سيطرة ملحوظة على الحكومة ، وقد ظلت طويلاً تفرض طغياناً كنسياً في الواقع .

كان السبب الأساسي لهجرة البيوريتان إلى ماساشوستس هو إنشاء دولة كنسية وليس السعى إلى الحرية الدينية . فلم يكن البيوريتان تقدميين دينيين ، بل كانوا محافظين دينيين . وكانوا قد آمنوا في إنجلترا بكنيسة إنجلترا ، بيد أنهم رغبوا في تعديل السلطان المطلق للمسيطرين عليها ، وفي تغييرها بإلغاء التقاليد الشككية الكاثوليكية ، والالتزام التام بعطلة يوم السبت ، وفرض رقابة وثيقة على الأخلاق . وإذ أخفقوا في تحقيق أمل السيطرة على المؤسسة الكنسية ، سعوا إلى البرارى الأمريكية ليقيموا « كنيستهم الخاصة » ، التي ينفق عليها من الضرائب العامة ، والتي تندمج في نسيج الدولة ، ولا تتسامح إزاء أية معارضة . وعندما أنشأ إنديكوت أول كنيسة بيوريتانية في سالم ، أخرج اثنان من مرافقيه كتاب صلوات إنجليكاني من متاعها ، وأرادا أن يقرأ منه الصلوات ، فبادر إلى وضعهما وكتابه المنكر على سفينة ، وشيعهما إلى إنجلترا . وأقام الزعماء البيوريتان على الفور دولة كنسية وثيقة النسيج ، قُصرت سلطاتها على طبقة أرستقراطية من الحكام الكنسيين المستبدين ، ذوى الإرادة الحديدية والمقدرة .

وكان انتصار هذه الدولة الكنسية الكالفينية ، بنظامها القاسى ، يعنى أن الغاية المثالية للهجرة أو الانفصال ، أى إقامة أبرشيات ذات حكم ذاتى ، قد توارت واحتجبت . ففى بلايموث أنشأ المهاجرون الدينيون كنيسة ديمقراطية صغيرة ، تولى فيها القوم شؤونهم الدينية دون مراعاة لأساقفة أو لمجمع كنسى . بيد أن البيوريتان وجدوا أن هذا عمل فوضوى ، غير خلقي ، إذ كانوا يؤمنون بالسيطرة المركزية القوية .

وكانت إقامة هذه الدولة الكنسية في ماساشوستس على أربع خطوات : أولاها تتمثل في شرط أساسى ، بأنه ليس لإنسان أن ينتخب مرشحاً أو يتولى منصباً ما لم يكن عضواً في الكنيسة البيوريتانية وطيد العضوية . أما الخطوة الثانية فجعلت الذهاب إلى الكنيسة إجبارياً على كل امرئ ، حفاظاً على الكنيسة والمستعمرة من غير المؤمنين . وأما الثالثة فكانت تتطلب أن تقر الكنيسة والدولة معاً تكوين أية كنيسة جديدة . فليس لأية مجموعة من المارقين أو غير المؤمنين أن تقيم معبداً لنفسها في أى مكان من ماساشوستس ، وعلى الراغبين في كنيسة لا تطابق الطراز البيوريتانى أن يهاجروا إلى صقع آخر من أمريكا .

٣٣ تأسيس المستعمرات

والخطوة الأخيرة تمثلت في نص على معونة الدولة ، جعل من الممكن للدولة أن تتعاون مع رءوس الكنيسة في معاقبة أى عصيان أو خرق للنظام . وفى سنة ١٦٤٦ أصدر مجمع الكنائس البيوريتانية ما سمي برنامج كمبريدج ، الذى نص على أنه إذا تمردت أبرشية أية كنيسة على المجمع ، أو على القواعد الكنسية ، فعلى الحكومة أن تمسك مرتب القس ، وأن تفصله ، وأن تعين فى مكانه رجلاً يلتزم بالقواعد وبالطاعة للمجمع .

هذه الدولة الكنسية فى مساشوستس ، وهذا الحكم تمارسه مجموعة من القساوسة والحكام المدنيين استمر مع تضاؤل عنفوانه تدريجياً حتى سنة ١٦٩١ ، عندما أصدر الملك وليم والملكة ماري وثيقة منقحة ، فصارت مساشوستس مقاطعة ملكية . ولقد حقق الحكم الدينى نصراً عظيماً واحداً يسجل له . فإن الحكومة الدينية البيوريتانية الصارمة قاومت المحاولات التى بذلها تشارلز الثانى لبسط نفوذه بإصرار وطيء كان له أثر قوى فى نمو الحرية السياسية فى العالم الجديد . فقد أدت هذه المقاومة الكثير إلى تعبيد الطريق لتحقيق الاستقلال السياسى فيما بعد ، فى القرن التالى . بيد أن للحكومة الدينية عدة أشياء تُحسب عليها ، فقد كانت طاغية ظالمة ، وقد ارتكبت بعض تصرفات اضطهادية مشينة ضد الكويكرز وغيرهم ، وكانت معادية لحرية الفكر والقول ، وقد ساعد تطرفها على تفشى فضيحة شعوذة السحر فى سالم ، التى شُق خلالها تسعة عشر رجلاً وامرأة . ومع تكاثف السكان وتغلغل مبادئ جديدة ، قام حزب تحررى ليبرالى قوى لمصارعة المحافظين ، يقوده إنكريز مائر ، وابنه الواسع المعرفة كوتون ، وكان كلاهما قسيسين ذائعى الصيت فى بوسطن . وكان تضاؤل نفوذ نظام الحكم الدينى مناسبة سعيدة لأمريكا .

ولقد أبرزت مساشوستس داعيتين عظيمين للحرية الدينية فى شخص روجر وليمز وآن هتشينسون . وكان وليمز راقى التعليم ، تخرج فى جامعة كمبريدج بإنجلترا ، ومن أتقى المسيحيين ، وخصماً عنيفاً لمبدأ الحكم الدينى البيوريتانى بأكمله ، إذ كان يؤمن بوجود الفصل تماماً بين الكنيسة والدولة ، وأن من الخطأ محاولة إجبار البشر على التردد على الكنيسة ، وأن من الواجب التسامح مع المارقين . وكان على الحكومة فى رأيه أن تحمى كافة الطوائف ذات السلوك الحسن على السواء . ولقد أمرت سلطات مساشوستس وليمز بالعودة إلى إنجلترا ، ولكنه بدلاً من ذلك هرب مجتازاً الثلوج ليجعل من رودآيلاند بلاداً من الممكن تطبيق مبادئه فيها . أما آن هتشينسون فكانت أصلاً من

٣٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

سالم ، وكانت أول امرأة تضطلع بدور بارز في المسائل الدينية والسياسية ، فراحت تبشر بتعاليم شبيهة بتلك التي أطلق عليها فيما بعد ، في أيام إيمرسون ، الفلسفة المتعالية ^(١) . فكانت تقول إن واجب كل امرئ أن يتبع إيعازات صوت داخلي خارق للطبيعة (غيبى) ، وأن خلاص أى فرد يرجع إلى وجود الروح القدس في أعماقه ، وليس إلى أى قدر من الأعمال الطيبة أو التطهر من الخطايا . وبعد أن عاشت رداً في ريف رود آيلاند ، لقيت مصرعها في مذبحه قام بها الهنود في نيويورك .

ولقد أصبح التسامح هو القاعدة في كافة مستعمرات الوسط منذ زمن مبكر . ولم يبذل أى جهد جدى لتوطيد الكنيسة الإنجيلكانية إلا في نيويورك وحدها ، ومع ذلك فقد أخفقت هناك إخفاقاً تاماً تقريباً . فقد كانت الأغلبية العظمى من الناس تنتمى إلى طوائف أخرى . كان القوم ، كما كتب المؤرخ وليم سميث في القرن الثامن عشر ، يميلون إلى « تسامح شامل ، على قدم المساواة ، نحو البروتستانت » . وكان اليهود ينفقون على معبد لهم . وفي مستعمرتي الكويكرز ، بنسلفانيا وديلاوير ، كانت جميع الطوائف تلقى ترحيباً ، وقد ثبتت كثير من الطوائف الصغيرة ، والعجبية ، أقدامها هناك . . وكانت ألمانية إلى حد كبير . ولم يتعرض الكاثوليك للإزعاج ، كما كان القداس يجرى في حفلات عامة في فيلادلفيا . كما أن ميريلاند كانت هي الأخرى موطناً لعقائد كانت متعادلة لزمن طويل فأصبحت تعيش في وفاق عام . وفي سنة ١٦٤٩ ، أجازت جمعية تشريعية ، ضمت كاثوليك وبروتستانت ، قانوناً للتسامح الدينى أصبح من المعالم الكبرى للحرية الدينية . ولقد كان قاسياً بالنسبة لغير المسيحيين وللموحدون ^(٢) ، ولكنه ساوى بين الكاثوليك والبروتستانت . ولقد اشتمل قانون ميريلاند للتسامح على عبارة مثقلة بالمعاني ، فقد أعلن واضعوه أن التسامح أمر حكيم ، « لأن إجبار الضمير في مسائل الدين كثيراً ما تكشف عن عاقبة خطيرة » . ومع مرور عقود الزمن ، أصبح معظم المستعمرين يوقنون من أنه كان من الإنصاف والحكمة ترك الناس يتعبدون كما يروق لهم .

(١) transcendentalism : فلسفة تقول بأن دراسة العمليات الفكرية ، وليس التجربة أو الاختبار ، هي الطريق إلى كشف

الحقيقة - المترجم

(٢) Unitarians . طائفة مسيحية ترفض التثليث ، وتصر على وحدانية الله - المترجم .



الفصل ٢

تراث عهد الاستعمار

روح قومية أمريكية مطردة النمو

من الممكن تمييز عاملين رئيسيين في نمو وتطور قومية أمريكية واضحة المعالم خلال عهد الاستعمار ، وهذا طابع كان قد أخذ يتبلور عندما بدأت الثورة . وكان أحد هذين العاملين : شعباً جديداً . . مزيجاً من سلالات مختلفة القومية . أما العامل الآخر فكان : أرضاً جديدة . . بلاداً غنية ، خالية ، لا تتطلب من الوافدين ثمناً لخيراتها سوى أن يجلبوا إليها الجدد والإقدام . ولم تحن سنة ١٧٧٥ حتى كان ثمة مجتمع أمريكي قد بدأ يبرز ، بسمت اجتماعية واقتصادية وسياسية خاصة به . وكان في بعض النقاط يقترب اقتراباً وثيقاً من النسق الأوربي : فلم يكن من اليسير تمييز التجار ، والمهنيين ، والميكانيكيين في بوسطن ونيويورك عن الفئات المشابهة في لندن وبريستول . بيد أن الأغلبية الكبرى من العامة الأمريكيين ، كانوا يزدادون تميزاً عن النمط الأوربي في الوطن القديم .

وكانت الهجرة إلى أمريكا قد حدثت بطريقة جعلت — لحسن الحظ — اللغة الإنجليزية والنظم الإنجليزية غالبية في كل مكان ، فكانت البلاد تحظى لذلك بوحدة

٣٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

عامّة . فلم ينشئ الألمان ولا الهيجونوت الفرنسيون مستعمرة خاصة منفصلة ، كما كان ينبغي أن يفعلوا ، بل اختلطوا بالوافدين البريطانيين الأوائل ، متخذين لغتهم ومعتقدات وجهات نظرهم . وما لبثت الهجرة الإنجليزية أن طغت على الهولنديين في وادي هدسون والسويديين في ديلوير . ومع ذلك فإن هذه الوحدة الموفقة في اللغة والمبادئ الأساسية تعايشت مع تباين ملحوظ في الأصول القومية .

ولا يجدر بنا أن نبالغ في اندماج الأقوام في عهد الاستعمار ، ولا أن نبخسه قدره . ومن المحتمل أن ما يزيد على ثلاثة أرباع المستعمرين البيض كانوا ، في عهد الثورة ، من ذوى الدم البريطانى ، بيد أن اندماج السلالات الهولندية والألمانية والفرنسية وغيرها من السلالات الأوروبية كان ملحوظاً . ولقد كانت الدفعات الكبرى الأولى من المستوطنين إنجليزية ، وظلت نيوانجلاند والأراضي المنخفضة في الجنوب محض إنجليزية تقريباً . على أنه مع استمرار انسياب السيل الأصيل ، وفدت من أوروبا في القرن الثامن عشر موجتان هائلتان أخريان من الهجرة ، هما : الموجة الألمانية ، والموجة الاسكتلندية الأيرلندية . وكان يمثل كلاً منهما ، عند انبثاق الثورة مئات الألوف من المستوطنين .

وكانت الهجرة الألمانية هي التي تبدت أهميتها أولاً . فلقد كانت المناطق الغربية من ألمانيا ، لاسيما الراينلاند ، تزخر بالبؤس والتذمر . إذ كانت عمليات التخريب والإتلاف التي قامت بها الجيوش الفرنسية ، في عهد لويس الرابع عشر ، من أقسى العمليات طابعاً . وقد أعقبها اضطهاد ديني مدروس ومنسق لأتباع لوثر ولطوائف أخرى ، عززه الاضطهاد السياسى الصادر عن صغار الأمراء الألمان . وعندما بسطت حكومة الملكة آن وخلفائها الأمان والحرية الدينية تحت العلم الإنجليزي ، تدفق الألمان على إنجلترا ومستعمراتها بعشرات الآلاف . وكانت طلائع منهم قد أقبلت من كريفيلد إلى ممتلكات وليم بن من زمن مبكر يرجع إلى سنة ١٦٨٣ ، فجعلت من جيرمانتاون — ومعناها المدينة الألمانية — قاعدة مزدهرة للحرف اليدوية . فأقامت أسرة ريتنهاوز هناك أول مصنع للورق في المستعمرات ، كما قامت صناعة البيرة والأقمشة . بيد أن السيل العارم بدأ في التدفق بعد عام ١٧٠٠ . فذهب بعض الوافدين إلى وادي موهوك في نيويورك ، وذهب بعض إلى (برونزويك) في نيوجيرسى ، ولكن الأغلبية ذهبت إلى بنسلفانيا . ومع مرور الزمن ، أصبح عدة آلاف من الألمان والسويسريين يفدون في العام الواحد .

٣٧ تراث عهد الاستعمار

وكان هذا السيل من الضخامة بحيث أن بنجامين فرانكلين قدر أن ثلث سكان بنسلفانيا قبيل الثورة كانوا من الألمان . وتناثرت في الإقليم مستوطنات اللوثريين ، والمورافيين ، والمينونيين ، والإخوة المتحدين . وكانت اللغة الإنجليزية تستعمل بقلّة في مناطق كبيرة ، حتى إذا كانت سنة ١٧٣٩ ، أنشئت صحيفة ألمانية في جيرمانتاون . واكتسب مصنعا البارون شتيجل لسبك الحديد وللزجاج ، وكذلك مؤسسة ساور للطباعة ، شهرة . بيد أن معظم الألمان كانوا من المزارعين البارعين ، الذين أحال اجتهداهم تربة بنسلفانيا المكونة من الحجر الجيري إلى مزارع شاسعة للقمح . وذلك أنهم لم يقبلوا على ارتياد الأصقاع غير المعمورة ، بل كانوا يؤثرون شراء منطقة استقر فيها الاستيطان ، فيتولون حمايتها وتحسينها إلى حد ما ، ويمهدون الأرض تماماً ، ثم يقيمون مخازن للحبوب وحظائر للماشية بديعة ، قبل أن ينفقوا جهداً كبيراً في إقامة البيوت . كما كانوا يحرصون على سمنة مواشيهم وصحتها ، وعلى ارتفاع أسوارهم ومتانتها . وإذا كانوا مقتصدين في معيشتهم ، فقد اعتادوا أن يبيعوا أكثر ما يتسنى لهم ببيع من منتجاتهم . وكانت النسوة يعملن في الحقول ، ويربين مع ذلك عائلات كبيرة .

أما الاسكتلنديون والأيرلنديون ، فكانوا صنفاً أكثر نضالاً : كانوا عنصر الارتياح الرئيسي في بنسلفانيا ، ووادي شيناندواه ، والمرتفعات في كارولينا ، وكانوا هم الآخرون قد فروا من الظلم في وطنهم ، إذ عانوا الكثير من الكنيسة الإنجليكانية في أيرلندا ، كما أن القوانين الإنجليزية ضد الصناعات الأيرلندية أودت بصناعة النسيج عندهم . وقد جاءوا متزاحمين على السفن ، وحملوا معهم شعوراً مريباً ضد الإنجليز . وكان الاسكتلنديون فيهم أكثر عدداً من الأيرلنديين ، ومعظمهم من البريسبيتاريان (أتباع الكنيسة المشيخية) ، الذين هاجروا إلى مقاطعة ألستر قبل ذلك ، أثناء القرن السابق ، فبثت فيهم الكنيسة المشيخية فهماً وحباً طبيعيين للنظم الديمقراطية . ولقد استقر بعضهم في نيوهامبشاير ، وبعضهم في مقاطعة ألستر وأورانج بولاية نيويورك . على أن ملاذهم الأول تمثل في بنسلفانيا والوديان المترامية جنوباً حتى فيرجينيا وكارولينا . وفي إيغالهم في البراري أخذوا يعيشون على الصيد ، ويمهدون الأرض ، ويقيمون أكواخاً من الكتل الخشبية ، ويقتطعون من الغابات مزارعهم الفجة الأولى . وكان هؤلاء « الأغراب ذوو الجرأة والشمم » — كما وصفهم أحد

٣٨ موجز تاريخ الولايات المتحدة

رجال الحكومة في ينسلفانيا - يضيّقون بالقيد القانونية ورسوم الإعفاء من الخدمات التي فرضها بن وغيره من أصحاب الأراضي ، كما كانوا يكرهون الهنود ويبادرون إلى الاشتباك بهم . وكانت روح التملك عندهم تبرر القول المأثور : « كانوا يحرصون على عطلة يوم السبت وعلى كل ما يمكن أن تقع عليه أيديهم » . وقد أثبتوا أنهم طلائع للاستيطان رائعة الكفاءة ، إذ انتشروا غرباً وجنوباً ، فوصلوا إلى مرتفعات جورجيا ، ونفذوا إلى كنتكي قبل الثورة ، منشئين عائلات كبيرة ، مبدعين مواهب ملحوظة في السياسة وقتال الهنود ، وبهذا بدأ الاسكتلنديون والأيرلنديون يطبعون أثراً قوياً على الحياة الأمريكية . وكانت بينهم أسماء اكتسبت ذيوماً فيما بعد ، مثل : كاهلون ، وجاكسون ، وهيوستون ، وبولك ، وماكنيلي ، وويلسون .

أما في وادي شيناندواه والوديان الداخلية الأخرى ، فسرعان ما امتزجت دماء الاسكتلنديين - الأيرلنديين ، والإنجليز ، والألمان ، والهولنديين وغيرهم لتنتج شعباً أمريكياً جديداً . كذلك كانت آخر مستعمرة أنشئت ، وهي جورجيا ، تمثل خليطاً من الأقوام . وقد حصل الجنرال جيمس أوجليثروب بمعاونة غيره من أهل الخير الإنجليز ، على تفويض ملكي لتعميرها في سنة ١٧٣٢ ، لتكون مأوى للفقراء المدنيين ولغيرهم من البؤساء ، ولتكون مركزاً أمامياً لصد العدوان الإسباني والهندي . وأحضر هؤلاء المفوضون المحسنون إلى جورجيا أناساً انتقوهم بحرص من الإنجليز ، ومجموعة كبيرة من البروتستانت الألمان ، وعدداً من أبناء المرتفعات الاسكتلندية . وكان الرق محظوراً في بادئ الأمر ، كما كانت كافة العقائد غير الكاثوليكية تلقى تشجيعاً ، فكان الإنجليكانيون ، والمورافيون ، والبريسبيترانيان ، والأناباطيست ، واللوثريون واليهود يؤدون شعائهم جنباً إلى جنب . وقد برزت الكنيسة الإنجليكانية في سهول المراعي (السافانا) بقسيسين ذائعي الصيت ، هما : جون ويسلي وجورج هوايتفيلد .

وكانت الجماعات من غير الإنجليز أصغر من الجماعات الإنجليزية ، بيد أنها لم تكن أقل منها أهمية . فإن إلغاء مرسوم نانت^(١) ، جلب إلى المستعمرات الإنجليزية

(١) مرسوم أصدره هنري الرابع ملك فرنسا ، في سنة ١٥٩٨ ، يمنح الهيجونوت حرية أداء شعائهم الدينية ، وحقوق تولي كافة المناصب الحكومية التي كانوا محرومين منها - المترجم .

٣٩ تراث عهد الاستعمار

مئات - بل ربما آلافاً - من الهيجونوت الفرنسيين ، وظهرت أساء مثل لوران وليجاريه في كارولينا الجنوبية ، ومورى ولاتانيه في فيرجينيا ، وديلانوجاى في نيويورك ، وريفيرو فانوى في مساشوستس ، مما يوحى بمدى اتساع انتشارهم . كما جاءت شراذم قليلة من السويسريين مع الألمان ، وكان ثمة أعداد ليست بالقليلة من السويديين والفنلنديين في كافة أرجاء ديلاوير ، كما كانت ثمة جماعات قليلة من اليهود الإيطاليين والبرتغاليين هناك ، وفي المدن بوجه خاص . ولقد دفعت هزيمة الاسكتلنديين في كلودن ، في سنة ١٧٤٥ ، إلى نزوح كثير من أهالي المرتفعات منهم إلى أمريكا . وتذكرنا أساء مدن مثل رادنور ، وبرايين مور في بنسلفانيا ، وويلش نك في كارولينا الجنوبية ، بأن أهل ويلز أسهموا هم الآخرون بنصيب . وهذا يبين أن أمريكا أشبه ببوتقة لصهر الأقوام ، حتى في عهد الاستعمار .

وكانت الأرض ، لاسيما عند حدود العمران ، هي ثاني العاملين الكبيرين في صوغ قومية أمريكية واضحة المعالم . فعند طرف الشريط الساحلى ذاته ، كانت الحدود تتناثر متخللة الغابات المظلمة . ذلك أن المستوطنين الأوائل كانوا عديمى التجربة إلى حد لا يصدق العقل . فكان المهاجرون الدينيون يبحثون في أدغال بلايموث عن التوابل ، ويخالون أن الوحوش التى كانوا يسمعونها أسود أو سباع ! وكان بعض المتأنقين في جيمستاون يظنون أن بوسعهم أن يعيشوا هناك كما كانوا يعيشون في شوارع لندن . بيد أن الوافدين كانوا مضطرين إلى أن يؤهلوا أنفسهم وفقاً للبرارى البدائية وإلا ماتوا . وإنا لنصادف في باكورة البداية رجالاً مثل الكابتن جون سميث ومايلز ستانديش ، تذكرنا جرأتهم وجلدهم بأبطال ظهوروا فيما بعد ، مثل روبرت روجرز ، ودانييل بون ، وكيت كارسون . وتعلم المستوطنون من الهنود كيف يزرعون ويسمدون الأذرة ، وكيف يستنبتون التبغ ، وكيف يطهون السكوتاش succotash^(١) ، ويصنعون القوارب وأحذية السير على الجليد ، ويطاردون حيوانات الصيد ، ويصبغون جلود الوعول ، ويكتسبون خبرة بكل ما يتصل بالغابات . وأصبح الرائد بالتجربة الشاقة صائداً ، وزارعاً ، ومقاتلاً في آن واحد . وظهرت زراعة جديدة ، وفن معمارى جديد ، واقتصاد منزلى جديد . وإن هو إلا عقد من الزمن ، حتى كان في العالم الجديد أناس لا تكاد

(١) Succotash صنف من الطعام يصنع من الأذرة واللوبياء - المترجم .

٤٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

تجمعهم بالجيران الذين خلفوهم في إنجلترا سوى صفات مشتركة قليلة ، أخذت تزداد قلة لدى أطفالهم . فقد أوتوا نظرة إلى الحياة أخشن مما لأولئك ، وأكثر اتصافاً بأنها عملية ، من نسج البيئة . وقد سجل الأديب ستيفن فينسنت بنيت هذا في تصويره شخصية ديكون هيرون :

ما قطعت عهداً ، ولا أقسمت يميناً ،
ولكنهم يسمونني الآن الكابتن هيرون
وهذا عالم يبدأ الإنسان فيه متحرراً من كل شيء ،
بمجرد أدائه ثمن الوصول إلى هنا . . .
فها هنا فارس نبيل ومدين مفلس من نيوجيت ،
ترى أى الاثنين سيثبت أنه أفضل ؟
أفتستطيع أن تحمل اللغز ؟ أما أنا فلن أحاول ،
ولكننا نعيش هنا تحت سماء أخرى ،
غير سماء الرجال الذين اجتازوا البحار .

ولم تحن سنة ١٧٠٠ ، أحواليها ، حتى كانت حدود العمران قد زحزحت إلى أقصى نقطة للملاحة في الأنهار ، وبلغت جبال أليجنى في سنة ١٧٦٥ ، ثم تجاوزت الجبال قبيل الثورة . ولقد تعرضت أجيال متعاقبة لتأثيرها ، وخرجوا من التجربة وقد تشكلوا تشكيلاً جديداً ، وكأنها صيغوا في قالب هائل لا سبيل إلى مقاومته .

وكانت القاعدة عند الحدود هي : مساواة خشنة في الحال الاجتماعية . . والواقع أن مثل هذه المساواة كانت غالبية خارج المدن الكبيرة القليلة بوجه عام . فلم تكن كعكة المجتمع الأمريكي موشاة بغطاء الحلوى . فالمرحون من السجون الإنجليزية الذين تعهدوا بالعمل لخمس سنوات ، كثر من لعبورهم المحيط ، والمدينون الفقراء المعفون من السجن ، والألمان الهاربون من مقاطعة بلاتينيت التي عمها الفساد والخراب ، والاسكتلنديون والأيرلنديون الذين اضطرتهم القوانين التجارية الإنجليزية إلى النزوح عن ديارهم . . هؤلاء جميعاً وفدوا وليس لديهم شيء ما ، وكان عليهم أن يكافحوا بجهد ليجمعوا ثروة . ونظراً لأنهم كانوا من العامة ، فقد كانوا يكرهون الأرستقراطيين الذين

٤١ تراث عهد الاستعمار

ظفروا بمساحات كبيرة من الأرض كمنح دون مقابل ، أو الذين كونوا ثروات من التجارة والمضاربات . على أن المستوطن العادى شعر ، أياً كان مدى فقره ، بشعور انفساح الفرصة والاستقلال ، وهو شعور لم يكن قد عرفه في أوربا ، وقد تولد عن المساحات الشاسعة ، والثروة الطبيعية الوفيرة في البلاد . وقد كتب سان جون كريفكير ، وهو سيد فرنسى راق جاء إلى المستعمرات الأمريكية حوالى سنة ١٧٥٩ ، واستوطنها كمزارع أمريكى . . كتب أن « الأغنياء يبقون في أوربا ، فليس يهاجر سوى متوسطى الحال والفقراء » . وأردف قائلاً : « كان كل شئ يبعثهم بعثاً جديداً ، من قوانين جديدة ، وأسلوب معيشة جديد ، ونظام اجتماعى جديد . . إنهم هنا يصبحون بشراً » . ووصف في فقرة بليغة الروح الأمريكية الناشئة ، والقائمة على نشاط غير مقيد ، في بلاد ذات موارد طبيعية هائلة :

يبدو الأوربى ، عندما يصل لأول مرة ، محدوداً في نواياه وفي آرائه ، ولكنه فجأة يبدل أبعاده . فما إن يستنشق هواءنا حتى يكون مشروعات جديدة ، ويستقر على خطط ما كانت لتخطر بباله قط في وطنه . فهناك يطوى اكتيال المجتمع كثيراً من الأفكار النافعة ، بل ويحمد أجدر المشروعات بالتحبيذ ، في حين أنها تستوى هنا وتنضج . . . ويبدأ المهاجر في الشعور بتأثيرات نوع من البعث ، فهو حتى الآن لم يكن قد عاش ، بل نما حاملاً فحسب ، أما الآن فهو يحس بنفسه إنساناً ، لأنه يلقي معاملة الإنسان . . لقد أغفلته قوانين بلاده في تهاة وجوده ، أما قوانين هذه البلاد فتكسوه بعبائتها ، فقدروا أى تحول لابد أن يطرأ على عقل هذا الإنسان وأفكاره . إنه يبدأ بنسيان ربقته وتبعيته السابقتين ، ويكبر قلبه ويمتلئ حرارة دون إرادة منه ، فإذا أول ارتفاع لشأنه يلهمه تلك الأفكار الجديدة التى تميز أى أمريكى .

على أن قلة من المستعمرين ظلوا حتى عشية الثورة لا يفتنون إلى أن شخصية أمريكية كانت في تطور ونمو . كانوا يرون أنفسهم رعايا بريطانيين ذوى ولاء أولاً ، ثم فيرجينيين ، أو نيويوركيين ، أو أبناء رود آيلاند . وفي هذا كتب مؤلف « قلوب بلوط فيرجينيا » سنة ١٧٦٦ :

بالرغم من أننا نستمتع بالأطياب ونسمن على أرض أمريكا :

٤٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

فإننا ننتمى إلى جزيرة بريطانيا الجميلة كرعيا ،
ومن الذى يبلغ به السخف أن ينكر علينا هذا ،
وثمة دم بريطانى أصيل فى كل عرق من عروقنا .

ولم يحن عام ١٧٥٠ ، حتى كانت دعائم المستعمرات الثلاث عشرة قد توطدت ، محتوية على ١ ٥٠٠ ٠٠٠ نسمة . وكانت تمتد على طول الساحل من صنوبرات وادى أندروسكوجين إلى نخيلات سانت جونز المروحية السعف . وكانت لكل منها ميزاتها الخاصة ، وإن انطوت جميعاً فى أربعة قطاعات محددة إلى درجة كبيرة .

كان القطاع الأول نيوإنجلاند . . بلاد ذات مزارع صغيرة ، صخرية ، جيدة الحرث ، وتقوم بها صناعة الأخشاب ، ومجموعة كبيرة من الأعمال البحرية : إنشاء من النوع الذى وصفه لونجفيلو فى « بناء السفينة » ، وصيد سمك القد على شاكلة ما وصفه كبلنج فى روايته المشهورة « الربانة البواسل Captains Courageous » ، وصيد الحوت كما صوره ملفيل فى « موبى ديك » ، والاتجار مع الخارج بما يشبه ما وصفه آر . إتش . دانا فى كتابه « عامان أمام الصارى » . وكانت المستعمرات الوسطى قطاعاً آخر ، بعضه من المزارع الصغيرة ، وبعضه من الضياع الكبيرة ، مع حظ لا بأس به من الصناعات الصغيرة النطاق ، ومشروعات ملاحية نشيطة فى نيويورك وفيلادلفيا . وكانت المستعمرات الجنوبية قطاعاً ثالثاً ، حيث المزارع الواسعة ، تعمل فيها جماعات من العبيد السود . وكان إنتاج النيلة ، والأرز ، والتبغ ، أبرز معالم القطاع وإن لم يكن أعمها رواجاً . وأخيراً كان هناك أكثر القطاعات جميعاً اتساماً بالروح الأمريكية : وهو الشريط الساحلى أو الريف القائم خلفه ، من مين إلى جورجيا ، حيث طلائع الصيادين المستوطنين سكان الأكواخ المصنوعة من كتل الخشب ، وشرادم من المزارعين الأشد صلابة ، الذى أوغلوا فى داخل القارة . وكان هذا القطاع الساحلى نمطاً واحداً فى الشمال والجنوب . ففى مساشوستس الغربية ، وفى بنسلفانيا الغربية ، وفى كارولينا الغربية على السواء ، أنتج رجالاً شديدي المراس ، واسعى الحيلة ، لا يحفلون بالدراسة فى الكتب ، ولا يطيقون القيود ، ولا يهن تفاؤهم أويلين .

مستعمرات نيو إنجلاند

كانت المستوطنات الساحلية في نيو إنجلاند تكشف عن نفوذ وسلطان واسعين . ولقد رأينا كيف أن حركة واحدة للهجرة قام بها أهل مساشوستس أوجدت رود آيلاند ، وكيف أن حركة أخرى أنشأت مستعمرتي كونكتيكت ونيو هافن التوأمين اللتين اندمجتا فيما بعد في وحدة . وانتشرت مجموعة ثالثة من البيوريتان شمالاً إلى مين ونيو هامبشاير ، وكانتا منطقتين استحل تملكهما أصلاً معمران من غير البيوريتان ، وسرعان ما سيطر عليهما البيوريتان . ولم يحن عام ١٦٥٠ حتى كانت مساشوستس تفرض سيطرتها السياسية على المستوطنات في مين ونيو هامبشاير ، بيد أن أولاهما صارت في أواخر القرن مقاطعة ملكية منفصلة . وكان مقدراً لهذه الصفة التوسعية لنيو إنجلاند أن تستمر جيلاً بعد جيل ، وأن ترسل موجة إثر موجة من نسل البيوريتان للتوغل غرباً حتى وصلوا إلى المحيط الهادئ .

ولقد ظلت نيو إنجلاند طيلة عهد الاستعمار محتفظة بتجانس أصل سكانها إلى درجة ملحوظة ، إذ كان سكانها السبعائة ألف ، عند قيام الثورة ، من أصل إنجليزي قح تقريباً . فكانوا بوجه عام سواء في اللغة ، والطباع ، والتقوى ، وطرق التفكير ، لا يشذ عن ذلك إلى حد ما ، سوى رود آيلاند الصغيرة ، إذ أن المتطرفين السياسيين والجماعات الكنسية المنشقة خلعوا عليها طابعاً خاصاً . ولقد انبعث اليانكي^(١) في الأغلب من أصل إنجليزي ذى قوة واستقلال وذكاء رائع ، وقد نشأوا على الفخر الشديد بأصلهم . وقد تناثرت هذه النخبة المنتقاة كما وصفها أحد القادة ، لتزرع البرارى المقفرة . فكان الذين يفلحون الأرض أو يصيدون أسماك البحار يهيئون لأنفسهم عيشاً رغيداً ، في حين أن التجار وأصحاب السفن وصغار أصحاب المصانع يجمعون في أكثر الأحيان ثروات صغيرة . ولم تحن سنة ١٧٧٠ ، حتى كانت التجارة الخارجية لبوسطن وحدها تستخدم ستائة سفينة . أما مصائد الأسماك في مساشوستس ، فكانت مصدر صادرات كبيرة إلى أوروبا وجزر الهند الغربية قدرت قيمتها بحوالى ١ ٢٥٠ ٠٠٠ دولار سنوياً . فكان ثمة

(١) Yankee : اسم اصطلاحى تقليدى أطلق على أبناء (نيو إنجلاند) ، ثم اتسع فأصبح يطلق على أبناء الولايات المتحدة الأمريكية عامة — المترجم .

٤٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

مبرر قوى لجعل سمك القُد شعاراً ورمزاً للدويلة . وكانت معظم بيوت نيوانجلاند تحظى بكفاية ذاتية : ينسج أهلها ثيابهم ، ويستنبئون ويربون غذاءهم ، ويصنعون أثاثهم وأحذيتهم . فكانت أبرز سمات اليانكى الكد ، والاقتصاد ، والإقدام الدءوب ، وحداً ضيقاً من التقوى . وإذا لم يكن القوم يحظون بكثير من الحب في القطاعات الأخرى ، فإنهم كانوا يلقبون الاحترام في كل مكان .

وكانت كل من الكنيسة والمدرسة تحتل مكانة محترمة ، خاصة في نيوانجلاند . فكانت كافة المجتمعات البيوريتانية تتطلع إلى قسيسها كمرشد ثقافى كما أنه مرشد دينى ، وإلى قاعة الاجتماعات بالكنيسة لإجراء القسط الأوفر من مداوالاتهم الاجتماعية . وكان رجال الكنيسة أقوىاء قادرين على النضال ، أكفاء لا فى العلم وحده ، بل فى قيادة الجماعة كذلك ، فكانوا موضع تبجيل من أتباعهم . وكانوا يلقبون الناس التعاليم الخاصة بموجبات اللعنة وغضب الله بأسلوب قوى التأثير ، فكانت الصور الوصفية التى كتبها جوناثان إدواردز للأثمين وهم يتلوون من آلام العذاب فى جهنم ذائعة ، وقد قال جون كوتون إنه كان يجب أن يرطب فمه بفقرة من تعاليم كالفين الصارمة قبل أن ينام كل ليلة . على أن رجال الكنيسة كانوا مضطرين لأن يكونوا ذوى سلطان ، واستقامة ، وسعة اطلاع . فكانوا متفقيين فى اللاهوت واللغات القديمة . وكان رئيس جامعة هارفارد المدعوتشونسى يطلب أن يقرأ « العهد القديم » عليه باللغة العبرية فى الصباح ، و« العهد الجديد » باللغة اليونانية بعد الظهر ، ويعلق عليهما باللغة اللاتينية . ومن المحتمل أن كثيرين من القساوسة ورجال الدين كانوا على غراره . ولقد حرص البيوريتان من البداية على تخصيص الأموال للتعليم العام . ذلك لأن تقدم التعليم ، وكفالة استمراره للنسل ، من الأمور التى كنا نصبوإليها ، ونعنى بها ، كراهية منا لأن نخلف للكنيسة أبرشية أمية ، عندما يقدر لقساوستنا الحاليين أن يرقدوا فى التراب ، كما ينبئنا مؤلف « الثمار الأولى لنيوانجلاند » . ولقد افتتحت مدرسة بوسطن اللاتينية فى سنة ١٦٣٥ ، فلما كان العام التالى « شاء الرب أن يحرك قلب شخص يدعى السيد هارفارد ، فيجود بنصف ضيعته لإنشاء كلية ، وبكل مكتبته » . ثم أصدرت المحكمة العامة فى مساشوستس ، فى سنة ١٦٤٧ ، قانون « أيها الشيطان الغرور منذ القدم » مطالباً كل بلدة تضم خمسين أسرة بأن تنشئ وتعمل مدرسة أولية ، وكل مدينة

تراث عهد الاستعمار ٤٥

تضم مائة أسرة بأن تقيم مدرسة متوسطة^(١) . وسرعان ما سنت كونكتيكت قوانين مشابهة . ومع أن هذه القوانين الخاصة وما أعقبها لقيت تهرباً ومراوغة ، فمن المحتمل غالباً أن التعلم ومعرفة القراءة والكتابة كانا أوسع انتشاراً في نيوانجلاند منها في أى مكان آخر في عالم القرن السابع عشر .

ومع مرور الزمن ، تخففت حياة نيوانجلاند من صرامتها بشكل سار . فإن المصالح الحرفية والتجارية الناهضة لم تجلب الثراء وحده ، بل جلبت آراء جديدة كذلك . فقد ازداد عدد المحامين والأطباء وغيرهم من الحرفيين . وفي مساشوستس وكونكتيكت ظلت عطلة السبت^(٢) موضع مراعاة متزمتة ، بادئة من الساعة السادسة من يوم السبت حتى غروب شمس يوم الأحد ، فلا يباح سفر ، ولا يجوز لحانة خدمة زائر ، وكانت الألعاب تحرم ، بل قد يلقي القبض على ثلثة من الناس إذا تجمعوا في الطرقات ليتبادلوا الكلام . بيد أن التزمت لم يجل دون وفود أنماط جديدة في الأزياء ، مثل الشعر المستعار ، وأدخل أتباع الكنيسة الإنجليكانية مرحاً في الاحتفال بعيد الميلاد ، وبدأت السياسة واكتساب المال بالمقامرة ، وممارسة الهوى ، وإقامة المآدب الحافلة بالمأكولات تحتل دوراً معترفاً به جهاراً في الحياة .

ويوميات صمويل سيوال وثيقة تتيح صورة لا تبارى للانتقال العظيم من النظام القديم للنظام الجديد في مساشوستس . وقد تخرج سيوال في هارفارد سنة ١٦٧١ ، وبدأ بعد أعوام ثلاثة تسجيلاً للحياة واطب عليه حتى سنة ١٧٢٩ . كان هذا البيوريتانى المتزمت في الحفاظ على القديم ، والذي أصبح كبيراً للقضاة ، يستمرىء قدحاً من النبذ ، ونزهة في مركبته ، ولكنه كان يكره كل مستحدث . وإذ نقرأ أجزاء يومياته الثلاثة ، تتمثل أمامنا رؤية كثيرة الألوان . فنرى مدينة بوسطن الصغيرة ، متينة البيان على رقعة ضيقة من الأرض بين تلال ثلاثة ، بأبراجها ، وحصنها ، والمرفا المزدهم بالنشاط الملاحي . ونسمع الحارس يرفع عقيرته مؤذناً بالساعات ، والمنادى العام يقوم

(١) Grammar School : مدرسة تجمع بين المرحلتين الابتدائية والثانوية ، فهي وسط بين الأولية والعليا أو الجامعة — المترجم .

(٢) الأصل في عطلة السبت أنها عطلة دينية يهودية يحرم فيها على المرء ممارسة أى عمل ، وتبدأ من غروب شمس يوم الجمعة إلى غروب شمس يوم السبت ، ولكنها اتخذت شكلاً آخر في أمريكا ورد شرحه في العبارات التالية ولم تعد تشمل يوم السبت ، بل كانت تبدأ عند غروب شمس ذلك اليوم — المترجم .

بجولاته . ونحس بالقشعريرة التي تسرى في المدينة عندما تفلد أنباء القراصنة عند الساحل ، أو عن تاهب الكونت دو فرونتناك للانقضاض على نيوانجلاند بقواته من الفرنسيين والهنود . ونرى أهل المدينة يطاردون الأبقار الشاردة ، كما فعل سيوال نفسه « من أول المدينة إلى آخرها » ، ونراهم يتجمعون لمناقشة الترشيحات للمجلس ، ونراهم يتدفقون لتلك التسلية المحببة إليهم ألا وهي الجنازة . وعندما يتجمد الجليد في المرفأ حتى جزيرة كاسل نرتعش مع رواد الكنيسة المساكين ونحن نسمع الخبز المقدس المتجمد « إذ يحدث رنيناً كاسفاً وهو يسقط في الأطباق » . ويستشرى مرض الجدري في المدينة . والمواليد كثيرون ، فكل زوجة صالحة فرع مثمر ، ولكن وفيات الأطفال تحفظ التوازن . وتمثل يوم التدريب العسكري موضع احتفال عام ، والمدفعية العريقة والمكرمة وغيرها من الفرق في أبهى أزيائها الرسمية ، وإطلاق النيران والهرج الطروب ، وعلية القوم سادة وسيدات يتناولون الغداء في خيام ضربت على الحشائش . وننظر إلى الجنود ذوى السترات الحمراء (الجنود البريطانيين) في استهجان ، ونسمع في استنكار أن الحاكم الملكي أقام حفلاً راقصاً في قصره امتد حتى الثالثة صباحاً . وننضم إلى الحشود الذاهبة إلى تل بروتون لمشاهدة الأشرار وهم يشنقون . ونرى رجال الشرطة وهم يفرقون حلقات لعبة القوارير^(١) على تل بيكون ، أوجبل الدعارة كما كان يسميه البيوريتان الساخطون ، ونشاهد سيوال على صهوة جواده ، يجوس خلال تشارلستون أوبوسطن — بوصفه قاضياً — عند غروب شمس يوم السبت ، آمراً بإغلاق أبواب الحوانيت . ولكننا نرى التزمت البيوريتاني ينحسر رويداً رويداً أمام العصر الحديث . كانت الجريمة والإملاق أندري في نيوانجلاند المزدهرة النشاط ، المستتبة النظام منها في المستعمرات الأخرى . ولم يكن الخدم المقيدون يعقود للعمل لفترات محددة مقابل نقلهم عبر المحيط إلى أمريكا معروفين في البداية ، ولكنهم انتشروا في القرن الثامن عشر ، وقد تبينوا هم وغيرهم من الكادحين أن من السهل الحصول على استقلالهم . وتضائل الرق اللهم إلا في رود آيلاند . وكان نظام حكم المدينة يعزز الاعتماد على النفس ، فكل الشؤون العامة تعالج في اجتماع للمدينة يتسم بتساوى الأصوات . وقدر لبوسطن ونيوهافن والمراكز الكبيرة الأخرى أن تضم عديداً من الأرستقراطيين ذوى

(١) تسع قطع خشبية على شكل قوارير ، تقف منتصبة ، وعلى اللاعب أن يدحرج كرة فيوقع أكبر عدد منها — المترجم .

٤٧ تراث عهد الاستعمار

البيوت الفخمة ، وشعارات النبالة ، واللوح المعدني الحامل لرمز المكانة ، في حين أن تعدد الطبقات كان حقيقة واقعة وظاهرة . على أنه لم يتح لعامة الناس في أى مكان في العالم أن يظهروا احتراماً للذات يفوق رزانة ما كان يديه العامة هناك .

المستعمرات الوسطى

أوتيت المستعمرات الوسطى مجتمعاً أكثر تبايناً وتعداداً للعناصر وتسامحاً ، من مجتمع مستعمرات نيوجلاندي بكثير ، كما أنه كان أقل رقياً ، وإن كان كذلك أقل تزمناً . وكانت بنسلفانيا وشقيقتها ديلاوير تضم حوالى ٣٥٠ ٠٠٠ عند قيام الثورة ، ولم تكن نيويورك ونيوجيرسى تضمان معاً أقل من هذا العدد . وكانت الكثرة الغالبة من الناس هناك ، كما في أى مكان من أمريكا ، تعتمد في عيشها على الأرض . فأخذ أصحاب الأراضي في أفضل أجزاء هذه الأقاليم يشرون بسرعة . وكانت مزارع الكويكر في بنسلفانيا مثلاً تزدهى ببيوت كبيرة من الطوب ، ذات حجرات مكسوة الجدران بالخشب أو الورق ، وأثاث ضخم الحجم ، وأدوات خزفية وزجاجية جيدة . وكانت الموائد التى اعتاد المزارعون وخدمهم أن يتناولوا غذاءهم عليها تثنى لوفرة الأطعمة البسيطة ، وإن كانت متنوعة . وكان اللحم — النادر في أوروبا — يؤكل ثلاث مرات يومياً . وبلغ من سرعة ازدياد الآلات الزراعية أنه لم تحن سنة ١٧٦٥ حتى كانت بنسلفانيا تتيه بتسعة آلاف عربة . وكانت الزراعة في المستعمرات الوسطى أكثر تنوعاً منها في القطاعات الأخرى ، فكانت هناك أنواع متباينة من الغلال والخضر وبساتين الفواكه البديعة ، وكافة أنواع الدواجن ، كما كان كثيرون من أصحاب الأراضي يمتلكون بركاً خاصة بهم لصيد الأسماك . وكان وادى هدسن مجتمعاً في ضياع واسعة لعائلات فان رينسيلير ، وكورتلانت ، وليفنجستون ، وغيرهم من الأرستقراطيين الذين أوتوا بيوتاً هائلة وجحافل من الخدم ، والذين كان لدخولهم السنوية من تأجير أراضيهم صفة إقطاعية . بيد أن لونج آيلاند وأعلى نيويورك كانتا زاخرتين بالمزارع الصغيرة كذلك .

وكانت بنسلفانيا ونيويورك تضمان إلى جانب المشتغلين بالزراعة عدداً مطرد الازدياد من التجار وأصحاب الحرف والميكانيكيين . وكانت حرفة النقل واسعة المجال وفيرة

الربح ، مخصصة في المقام الأول لتصدير الخشب والفراء والغلال وغيرها من المنتجات الزراعية ، واستيراد المصنوعات ، والسكر ، والخمور . ولقد شقت طريقها إلى خارج خليج ديلاوير - قبيل الثورة مباشرة - حوالى خمسمائة سفينة ، عليها ما يزيد على سبعة آلاف بحار . في حين أن خليجي هدسن ولونج آيلاند كانا زاخرين بحركة الملاحة . ولقد أصبحت كل من فيلادلفيا ونيويورك مركزاً كبيراً لتوزيع تجارة الداخل . وكان من طرق الإثراء إرسال الغلال والأسماك المجففة إلى جزر الهند الغربية ، لتعود السفن بالريquin ودبس السكر (العسل الأسود) . ومن تلك الطرق كذلك إرسال الفراء من البانى لتستبدل بها المنسوجات الرقيقة ، أو الأواني الصينية أو الأثاث من لندن . وانتشرت في بنسلفانيا ونيوجيرسى أفران صهر الحديد ، فأدى تصدير المنتجات الحديدية إلى أن يصدر البرلمان الإنجليزى قانوناً لوقف انتشار مصانع الحديد . وكان أهل نيويورك يصنعون الزجاج والقبعات اللبادية ، بينما تخصص أهل رودآيلاند في صنع الروم . وبازدياد الثروة ازداد عدد أصحاب المهن ، وتوصل محامو المدن الرئيسية إلى الزعامة السياسية ، وساهموا بقدر ما ساهمت أية فئة من الناس في قيام الثورة .

وكان من الممكن أن نجد في نيويورك ، بل في فيلادلفيا المحافظة ، مجتمعاً أكثر اختلاطاً وصقلاً مما في نيوجلاندا . فإن التجار والمشتغلين بالملاحة كانوا يقيمون حفلات بهيجة وراقية ، نظراً لاتصالهم الوثيق بأوروبا . وعندما توقف جون آدامز في نيويورك ، وهو في طريقه إلى فيلادلفيا ، بُهر بفخامة البيوت ، وأدوات المائدة الفضية الراقية ، وألوان الطعام المتقنة والبذخة . وكانت هذه المدينة تتهى بمنتدياتها ، ومراقصها ، وحفلاتها الموسيقية ، وحدثات اللهو في الهواء الطلق ، والمقاهى ، والمسرحيات التى تعرض في حفلات خاصة ، والجنائزات التى كانت تتكلف أحياناً عدة آلاف من الدولارات . وكان الهولنديون يبدون تذوقاً لأيام العطلات والراحة اكتسبها عنهم الانجليز تدريجاً . فأصبح الأثرياء يرتدون أحدث أزياء لندن ، من حرير ومخمل ، والشعور المستعارة المشاة بالمساحيق (البودرة) ، وسيوف المبارزة (الشيش) . وساعد اختلاط الطوائف والعناصر على رواج الآراء بسرعة . وكانت فيلادلفيا بطرقاتها الواسعة ، وأرصفتها المعنى بنظافتها ، تتمتع بأناقة أهدأ . بيد أنها كانت محط الانتباه بسبب مؤسساتها العامة - لاسيما الكلية والجمعية الفلسفية الأمريكية - كما أنها بثت تلك الدراسات العلمية التى اكتسب فيها فرانكلين وبنجامين رش ، والعالم النباتى وليم

٤٩ تراث عهد الاستعمار

برترام مكانة ممتازة . ويوصفها أكبر مدينة في المستعمرات فقد كانت نظيفة ، عامرة ، مثرية . فبدت لتوماس جيفرسون أشد تأثيراً على النفس من لندن وباريس . وما كان جيفرسون بحكم يستهان به . ولقد ازدادت التعاليم الدينية تحوراً في نيويورك ، حتى إن رجال الكنيسة أخذوا يشكون من « التفكير الحر » ، في الوقت الذي أثارت فيه السياسة من التحمس في هذا الإقليم أكثر مما أثارت في أى مكان آخر في أمريكا البريطانية . ولقد كان الرأى في بنسلفانيا ، التي سيطر عليها الكويكر أكثر ميلاً للطابع المحافظ ، بيد أن مكانة الكويكر العالية في السياسة اهتزت بعنف ، قبيل الثورة ، على أيدي الألمان والاسكتلنديين والأيرلنديين .

ولقد أضاف عدد كبير من السكان الزنوج لوناً جديداً للحياة في كافة أرجاء المستعمرات الوسطى . وكان الكويكر شديداً العداء للرق ، وقد أنجبوا في أواخر عهد الاستعمار زعيماً معادياً للرق ذا شهرة عالمية . . « تلك النفس الجميلة » — كما وصفه لام — جون وولمان . كذلك لم يزدهر الرق بين الاسكتلنديين والأيرلنديين ولا الألمان الذين كانوا يمارسون أشق الأعمال بأيديهم . بيد أنه كان شائعاً في المدن ، وفي الضياع القائمة على نهر هدسن . وبوجه عام ، كان للحياة في المقاطعات الوسطى طابع أوفر وأوسع مما كان لها في نيوي إنجلاند . وكان المناخ ، والتربة ، والقوم ، أكثر اعتدالاً وكرمًا . فما كان في الشمال شيء يضارع عيد رأس السنة في نيويورك ، حين كانت المدافع تنطلق بالتحية في الفجر ، وكان عليه القوم يجوسون خلال المدينة ، يتزاورون ، ويتناولون الحلوى ، ويشربون من النبيذ والكحوليات ما يدعوا في كثير من الأحيان إلى نقلهم إلى بيوتهم في المركبات . وما كان ثمة شيء يشبه الاستقبال الذي كانت نيويورك تقيمه لحاكم جديد يعينه الملك ، من حيث الأبهة والاحتفاء ، ولا ما يشبه الاحتفال الذي كان يقام في إحدى الضياع عند زواج الابن الأكبر لصاحبها .

المستعمرات الجنوبية

وكانت للمستعمرات الجنوبية ، لاسيما فيرجينيا وكارولينا الجنوبية — وهما أغناها وأوفرها نفوذاً — ثلاث صفات مميزة ، هي : الطابع الريفي الشامل تقريباً لحياتها — فكانت

٥٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

تشارلستون وبلتيمور هما المدينتان الوحيدتان اللتين أوتيتا أية أهمية — والمكانة البارزة التي احتلتها الضياع الشاسعة — بجيوش العبيد والقصور المهيبة وبذخ المعيشة — وانقسام المجتمع إلى طبقات ذات مستويات مميزة . فبين البيض ، كانت الطبقة العليا تتألف من أصحاب المزارع الموسرين والأرستقراطيين في الغالب ، الذين كانوا يوفرون زعامة سياسية ذات كفاءة فذة . وكانت الطبقة الوسطى مؤلفة من أصحاب المزارع الصغيرة ، والمزارعين ، وقلة من التجار وأصحاب المصانع والميكانيكيين . أما الطبقة الدنيا فكانت من العامة و« فقراء البيض » . وتحت هذه الطبقات الثلاث ، كان ثمة العبيد الذين لم يكن عددهم يقل في فيرجينيا ، حوالي سنة ١٧٧٠ ، عن نصف مجموع السكان الأربعمئة والخمسين ألفاً ، وفي ميريلاند عن ثلث السكان الذين بلغوا حوالي مائتي ألف ، وفي كارولينا الجنوبية ما يتجاوز عدد السكان البيض ، بمعدل ٢ إلى ١ .

وكان انتشار السكان في مساحات شاسعة (عدم تكاثفهم) ناجماً ، من ناحية ، عن نظام المزارع ، إذ كانت كل ضيعة من الكبر بدرجة تمكنها من الاكتفاء الذاتي ، ومن ناحية أخرى عن نفور الجنوبيين من المدن . وكان كبار أصحاب الأراضي الذين تمتد مزارعهم على الأنهار المتصلة بالمحيط ، يمارسون تجارة مباشرة مع انجلترا أو مع المدن الشمالية ، دون احتياج إلى تجمع تجارى كبير . ولقد وضع الرق شبكة للصناعات اليدوية حتى أزهرت الحياة الحرفية تقريباً . وعبثاً أخذت فيرجينيا تصدر القوانين التي تهدف إلى خلق مدن كبيرة . . ومنها ، على سبيل المثال ، قانون يلزم كل مقاطعة بإقامة دار تمثلها في وليمسبيرج . وكانت نورفولك هي أكبر مركز عمراني في المستعمرة ، عند قيام الثورة ، وبها حوالي سبعة آلاف نسمة ، في حين أن وليمسبيرج لم تكن تضم سوى مائتي بيت متناثرة . ولقد كتب الكولونيل بيرد عن فردريكسبيرج ، نحو سنة ١٧٣٢ ، فقال إنها لم تكن تضم بجانب « صاحب السلطة في المكان » سوى « تاجر واحد ، وخياط ، وحداد ، وبدال عادي ، وسيدة تقوم بعمل طبيبة وصاحبة مقهى في آن واحد » . وكان الأمر ذاته في كل مكان آخر في الجنوب تقريباً . فكانت تشارلستون قبيل الثورة مجرد بلدة ريفية الشكل تضم خمسة عشر نسمة ، نصفهم من الزنوج ، وذات طرق رملية غير مرصوفة . أما بلتيمور فكانت ميناء فجاً تقريباً ، في حوالي حجم تشارلستون ، تعتمد على اتجارها في المنتجات الزراعية المستجلبية من « الريف الداخلي » . وكان للافتقار إلى المدن عواقب غير طيبة . أما من حيث الصحف فقد

٥١ عهد تراث الاستعمار

كانت لبوسطن صحيفة من عهد مبكر يرجع إلى سنة ١٦٩٠ ، بيد أن صحيفة « فيرجينيا جازيت » لم تظهر قبل سنة ١٧٣٦ . ولم تكن ثمة عروض مسرحية تؤديها فرق محترمة في فيرجينيا حتى وقت متأخر خلال سنوات الثورة الخمس والعشرين ، وقد أثار الشكوى بين القادة بعيدى النظر اعتماد القطاع ذى الاتصال بالمحيط على أرجاء من الإمبراطورية أكثر إقبالاً على المشروعات التجارية والصناعية ، للحصول على كل سلعة مصنوعة . . حتى المكناس ، والمقاعد ، والمعازق الزراعية ، والأواني الفخارية .

وكانت المزارع الكبيرة في ميريلاند وفيرجينيا وكارولينا الجنوبية متناثرة في الأراضي المنخفضة على نهر أو « مجرى مائي » بوجه عام ، يكفل إمكانيات النقل المائي . وكان لكل منها قصر عائلى من الطوب أو الحجر عادة ، ومخازنها ، وحانوت للحديد ، وورشة لصنع البراميل ، وغير ذلك من البنيات الإضافية ، وأكواخ متناثرة في غير نظام لسكنى الزوج . ولقد كان الكثير من البيوت الكبيرة ذا تصميم جميل وكمال في البناء ، مثل قصر فاونتين روك للجنرال رينجولد ، وويستوفر لوليم بيرد ، وغنستن هول لجورج ماسون ، وقصر ضيعة جون رتليدج بالقرب من تشارلستون . . فكانت في داخلها أبهاء مبطنة الجدران بالخشب ، ودرج بديع ، وحجرات واسعة . وكانت خير البيوت تضم أثاثاً أنيقاً من خشب الماهوجانى ، صنع بعضه في أمريكا ، ولكن أغلبه استورد من إنجلترا ، وفيها أطقم من الأواني الفضية الثقيلة تحمل علامات صناع لندن ، وستائر من الحرير والمخمل ، ولوحات بديعة لأفراد الأسرة ، ولوحات محفورة (وكانت لوحات الفنان هوجارث ذات حظوة أولى) ، ومكتبات ليست بالصغيرة ، فكان روبرت كارتر صاحب قصر نوميى هول مثلاً يقتنى ما يزيد على ألف وخمسمائة كتاب ، كما كان لدى ولیم بيرد الثالث ما يزيد على أربعة آلاف . كذلك كان لكثرة كبيرة من أصحاب المزارع بيوت في آنابوليس ، وأوليمسبيرج ، أو تشارلستون ، ينزحون إليها في مركبة الأسرة في كل خريف ، لحضور موسم حفلات الرقص ، والعشاء ، ولعب الورق ، والسباق ، واللوان. النشاط في الهيئة التشريعية . وكان أصحاب المزارع — في مجموعهم كطبقة — يتعرضون للالتزام بالكسل . بيد أن العناية السليمة بالمزارع الكبيرة كانت تتطلب الكثير من الجهد البدنى والذهنى . فكان واشنطن يعمل جاهداً في الإشراف على ماونت فيرنون ، بينما كان روبرت كارتر ، سيد ضيعة نوميى ، في شغل لا يتقطع ، إذ كانت ممتلكاته تشمل على ستة آلاف دونم متناثرة في أرجاء فيرجينيا ، ومصنع للمنسوجات ، ونصيب في مصنع

للحديد ، وعدد من المناجم وورش الحرف اليدوية . كذلك كان أصحاب المزارع متهمين بالافتقار إلى الميول الذهنية ، بيد أنهم أولوا السياسة اهتماماً حاراً ، وشغلوا معظم المناصب التي ينتخب من يتولونها ، وكانوا يتحدثون ويكتبون في مسائل الحكم بمقدرة خارقة ، ولقد شغف منهم بالعلم عدد يدعو إلى الدهشة ، ووقفوا في أن يُنتخبوا للجمعية الملكية .

أما أصحاب المزارع الفلاحون الأقل شأنًا في الجنوب ، فكان خير مثال لهم هو بيتر ، والد توماس جيفرسون ، الذي ظفر بأرض رخيصة عند الحدود الغربية للعمران نتيجة العمل في مسح الأراضي ، وساعد على تمهيدها للزراعة بنفسه — كانوا أهل عمل جاد ، وذكاء ، وحسن تدبير . فأزالوا القفر ، وشيدوا منازل متواضعة ، واكتسبوا ثروة . وحرث كثير منهم مساحات واسعة بمعونة العبيد ، كما تزوج بعضهم من بنات الطبقة الأرستقراطية ، كما فعل بيتر جيفرسون . كانوا عنصراً قوياً ، ذا اعتماد ذاتي واستقلال في الطبع ، وإذا إصرار على الاحتفاظ بحرياتهم البريطانية . وإذا أعوزهم الصقل والتعليم ، فإنهم أوتوا الكثير من قوة الإدراك ، وأنجبوا زعماء سياسيين لامعين ذوى آراء ديمقراطية ، مثل جيفرسون ، وجيمس ماديسون ، وباتريك هنرى . والواقع أن الفوارق بين الطبقتين العليا والوسطى في الجنوب أخذت تزداد إبهاماً ، كما أن التزاوج بينهما أفضى إلى اندماجهما . ولقد شهد القرن الثامن عشر ، في ميريلاند بوجه خاص ، اتجاهاً شديداً لتفتيت الضياع الكبيرة المضنية إلى مزارع صغيرة ذات كفاءة . وكان التجار والمحامون في مستوى أدنى نوعاً ما من أصحاب الأراضي ، في حين أن أصحاب الخوانيت ظلوا أجيالاً يحظون بما كانت تلقاه طبقتهم في انجلترا من تعاطف . وكانت مجتمعات التجارة والمشروعات — مثل بلتيمور ونورفولك — على صعيد أقل بدرجة ظاهرة من مجتمعات عواصم المستعمرات . بيد أن المضاربة على الأراضي ازدهرت بين أفضل الأوساط في الجنوب والشمال على السواء . ولقد أنشأ وليم بيرد الثانى ولاية ريتشموند في سنة ١٧٣٧ ، بأن قسم ضيعة في أعلى نهر جيمس وباعها قطعاً للبناء تؤلف مدينة .

وكان أدنى مستوى أبيض للمجتمع في الجنوب مميزاً بخطوط واضحة . فإن بعض المسجونين السابقين ، والمدنيين الذين سرحوا من السجن حيث كانوا قد أودعوا لعجزهم عن تسديد ديونهم ، والخدم المقيدون بالخدمة فترة لقاء نقلهم عبر المحيط ، ممن جاءوا من أوروبا . كل هؤلاء تداعوا تحت ظروف الحدود وكونوا هيئة أمية ، مبتذلة ، خاملة ،

٥٣ عهد تراث الاستعمار

تلقي ازدرء حتى من الزوج . والواقع أنه ما كان الهوان محتوماً على الخدم المقيدين ، فإن كثيراً من المهاجرين ذوى الخلق الرفيع دفعوا نفقات انتقالهم إلى أمريكا بالتقيد بعقد للخدمة فترة . وكان منهم حرفيون إنجليز وأوربيون — من نجارى الأثاث ، والخباطين ، وصاغة التحف الفضية ، وصناع المجوهرات ، وصناع البنادق ومن إليهم — فكان من الممكن أن يتيحوا للجنوب درجة من التصنيع أكبر بكثير مما توفر فيه ، لولا الانتشار السريع للرق . وكمن رجال ذوى مكانة أفلتوا من سجن فليت بلندن بفضل الهجرة الميسرة بالمساعدة . وكثيراً ما كان المسجونون ينقلون إلى أمريكا لأتفه المخالفات ، وكان بعض البريطانيين يقدمون في أوقات المحن على ارتكاب جرائم صغيرة ليرسلوا عبر البحار . فإذا ما وصلوا كان وقتهم يباع لمن يدفع الثمن الأعلى . ومع ذلك فقد اكتسب الجنوب عنصراً كبيراً من القوم الميالىن للغلظة ، غير المقدامين على عمل ، والمشاغبين الذين صاروا مزارعين كسالى ، ومواطنين فقراء . وما لبث العلم أن كشف أن المناخ ، ونقص التغذية ، وديدان الإنكلستوما أشد أثراً من العيوب الكامنة في خلق الخمول والشراسة . كذلك هبط استخدام العبيد بالعمل اليدوى إلى درجة الازدرء . وفى الكتاب الذى سجل فيه وليم بيرد خواطره ومشاهداته في بعثة لمسح الأراضى « تاريخ الخط الفاصل » ، وصف فيه مبالغة فكهة هؤلاء المشردين من أهل الريف ، القانعين بخشن العيش ، المعادين للقانون والضرائب والكنيسة الرسمية ، المشغوفين « بمتعة الكسل والبطالة » .

وكان العبيد الزوج يستجلبون في الغالب من الساحل الغربى لأفريقيا ، من سنغامبيا في الشمال ، إلى أنجولا في الجنوب . وبعد ختام القرن السابع عشر ، عندما انتهى احتكار الشركة الأفريقية الملكية ، انتقلت تجارة الرقيق إلى أيدي مجموعة كبيرة من الشركات والأفراد ، أمريكيين وبريطانيين على السواء . وكمن من ثروات قامت في بوسطن ، ونيويورك ، ونيويورك ، وموانئ الجنوب على هذه التجارة . ولعل أكثر أسواقها رواجاً هى التى كانت تعقد في تشارلستون ، حيث كان يتزاحم عدد كبير من الشركات . ولقد كتب هنرى لورنز ، الذى برز في هذه التجارة بعض السنين فيما بعد ١٧٥٠ ، أن أصحاب المزارع كانوا يفدون من مسافات طويلة ، ويقدمون بتمحس ما يصل إلى ٤٠ جنيهًا إسترلينياً مقابل الشباب من الزوج . وبينما كان العبيد يباعون عادة في الشمال من المستجلبين إلى المشتري مباشرة ، ونقداً ، كانوا كثيراً ما ينتقلون في

الجنوب جماعات إلى التجار وغيرهم من الوسطاء الذين كانوا يبيعونهم بالمقايضة ، مقابل التبغ أو الأرز أو النيلة . وكان رقيق الحقول يلبسون ملابس خشنة ، وينزلون في أكواخ حقيرة ، ويمارسون أشق العمل في الحقول تحت إمرة ملاحظين قساة القلوب . أما خدم البيوت فكانوا يحفظون بمعاملة أكرم . وسرعان ما أصبح الخلاسيون ^(١) أعداداً كبيرة في الشمال والجنوب على السواء . وبازدياد العبيد في الجنوب ، قل العثور على خدم مقبدين أو عمال من البيض في مزارع التبغ أو الأرز الكبيرة .

ومن الجلى أن نيوانجلاند والسهول المنخفضة في الجنوب كانا جدي مختلفين ، في حين أن المستعمرات الوسطى أوتيت سمات من كل منها . ولم تأخذ نيوانجلاند إلا بنظام المزارع الصغيرة ، أما فيرجينيا الواطئة ، وكارولينا الجنوبية ، وجورجيا ، فأخذت بنظام المزارع الكبيرة . وكان الناس في نيوانجلاند يعملون بأيديهم ، في جو يحفز على العمل . أما في فيرجينيا فكان العمل الشاق تحت الشمس الحامية تقوم به فرق من العبيد يسوقهم الملاحظون . وكانت الممتلكات الصغيرة ، والمساحات المترامية من الأراضي الخالية تشجع الآباء في نيوانجلاند على تقسيم ضياعهم بين أولادهم بالتساوى . أما في الجنوب ، فكانت الضياع الكبيرة ، التي يعمل فيها العبيد ، نادراً ما يتسنى تقسيمها دون خسائر اقتصادية ، فكان الناس يحافظون على تماسكها بقانونى توريث الآبن الأكبر ، والوقف . وكان الناس في نيوانجلاند يتجمعون في قرى متقاربة الأطراف حفاظاً على أبرشيات كنيستهم ، أما في معظم الجنوب ، فلم يكن للأبرشيات شأن يذكر ، فكانت المزارع تترامى على أبعاد شاسعة ، حتى إن قيام القرى كان مستحيلاً . وبينما كانت المدينة هي الوحدة الطبيعية للحكم في نيوانجلاند (وإن كانت المقاطعات قد أنشئت) ، فإن المقاطعة كانت أهم وحدة في الجنوب . ومع أن القاعدة العامة في نيوانجلاند هي أن تختار الناس الموظفين ، المحليين فإن بعض هؤلاء في الجنوب كانوا يعينون من قبل السلطات الإقليمية ، وكانت الصفوة الأرستقراطية تختار البعض . ولم يكن أبناء الأبرشيات ينتخبون أعضاء مجالس كنائسهم مثلاً ، وإنما كان هؤلاء هم الذين يختارون خلفاءهم . ومع أن البيوريتان لم يكونوا متزمتين ، متطرفين ، عزوفين عن المتع كما يوصفون أحياناً ، فإنهم غالباً ما كانوا متشددتين في إرضاء ضمايرهم وترويض

(١) الخلاسى أو المولد ، هو المولود من أبوين أحدهما أبيض والآخر زنجى .

٥٥ تراث عهد الاستعمار

أنفسهم . أما الجنوبيون فكانوا أكثر إشراقاً وتحراً ، وأكثر حباً للهو . وكانت المستعمرات الوسطى تقف بين الفريقين ، في كثير من الاعتبارات . ومع ذلك فإن التجمعات الاقتصادية والاجتماعية أخذت تتشكل في قطاعات عرضية ، مع انطواء القرن الثامن عشر ، وازدياد الثراء ، وزيادة تعقد المجتمع وتراكبه . فكان التشابه كبيراً بين تجار تشارلستون ويورتسهاوث ونورفولك وبوسطن ، من حيث أن مكاتبهم كانت حافلة بالمستخدمين ، ومن حيث علاقاتهم بلندن وبريستول وجزر الهند الغربية والساحل الإفريقي ، ومن حيث بيوتهم الأنيقة الغنية بالأثاث الماهوجاني ، والأواني الفضية ، والمرايا التي كانت تكسو الجدران . وكان الفرد من آل لورنز والفرد من آل هانكوك يتآلفان كل مع الآخر على الفور . وكان التشابه كبيراً بين ميكانيكيي الموانئ البحرية ، من كارولينا إلى مساشوستس ، بما لهم من غلظة ، وصخب ، وامتلاء نفوسهم بالوعى الطبقي المتطرف ، واستعدادهم لأن ينسابوا من حاناتهم في تجمهرات غوغائية عند أنفه استفزاز . وكان صغار المزارعين — سواء في نيوهامبشاير أو ميريلاند ، في بنسلفانيا أو فيرجينيا — متشابهين من حيث التدبير ، والجد ، واكتمال اكتفائهم الذاتي في مناسبات لا حصر لها . كما أن الرواد في منطقة الحدود كانوا مطبوعين على صفات واحدة في كل مكان .

الريف الداخلي

وقد برز القطاع الرابع إلى الوجود — وهو الحدود أو الريف الداخلي — خلال القرن الثامن عشر . وكان يمتد من مشارف جرين ماونتين بوز الوعة ، والمساحات الخشنة التي انتزعت من الغابات في وادي موهوك ، إلى الأطراف الشرقية لجبال أليجني ضامة وادي شيناندواه في فيرجينيا ، حتى منطقة بيدمونت في ولايتي كارولينا وجورجيا . وفي هذا القطاع عاش قوم خشنون ، بسطاء ، جسورون ، ذوو مظهر أمريكي قح . ولقد اشتروا الأرض رخيصة ، بشلن أو اثنين للدونم ، وأخذوها بوضع اليد ، فأخذوا يمهدون المساحات في القفار ، ويحرقون الأدغال ، ويزرعون الأذرة والقمح بين بقايا الأشجار . وأقاموا أكواخاً خشنة من جذوع شجر القارية (من فصيلة الجوز) ،

أو البرسيمون ، فيشدون كتل الخشب بعضها إلى بعض في الأركان الأربعة ، ويملاون الثغرات بينها بالطين ، ويثبتون في أرضها ألواحاً مصقولة من الخشب ، ويتخذون زجاج النوافذ من ورق مغموس في دهن الخنزير أو دهن الدب . وكان الرجال يلبسون أقمصه للصيد تنسج في بيوتهم ، ويحمون سيقانهم بجلد الوعل . أما النساء فكان يكتسبن أنسجة تصنع على المغزل والمنسج اللذين كانا في كل دار . وكانوا يصنعون مقاعدهم وموائدهم من كتل خشبية معشقة ، ويسحقون موادهم الغذائية في هاونات حجرية يصنعونها بأيديهم ، ويتناولون الطعام بملاعق من قطع مجوفة من أشجار الصنوبر ، ويمشون حفاة أو في نعال من الجلد . وكان غذاؤهم من لحم الخنزير الصغير ، مع شواء من لحم الغزال ، ومع ديوك رومية أو طيور الحجل ، وأسماك من أقرب جدول مائي . وكان المستوطنون المتناثرون ينشئون حصناً عند نبع يتوسط بقاعهم ، للدفاع ضد الهنود ، ويجعلون له معازل وحواجز واستحكامات منيعة على الرصاص . وكانت لهم تسليحاتهم الزاخرة بالطرب . . مثل عمليات الشواء المرحية في المهرجانات السياسية ، حيث كانت الثيران تشوى بأكملها دون تقسيم ، وحفلات تكريم العروسين الحديشي الزواج ، بما يتخللها من رقص ، وشراب ، ومباريات صيد ، وجماعات تضريب اللحاف ، وحفلات الرقص حيث تمارس رقصة فيرجينيا^(١) . وكانت المنازعات والقتال المتقطع تشير كثيراً من الانفعال كما هي الحال في أكثر أرجاء اسكتلندا وأيرلندا بداوة وضراوة . فكان الاسكتلنديون والأيرلنديون والألمان يشنون معارك للثأر . وكانت الاشتباكات الشخصية في فيرجينيا وكارولينا لا تخضع لقواعد ، وقد أدى التبارى في اقتلاع العيون إلى أن أصبح منظر الرجال العور عادياً . وكان جميع سكان الحدود يرقبون الهنود بعداوة ، ومع أن بعض القبائل كانت صديقة ، فإن المستوطنين عامة كانوا يشنون حرباً لا تنقطع مع البرارى والقفار والرجال الحمر ، ومن ثم فقد كانوا مدربين على اليقظة ، والمشاقة ، والتضامن العشائري .

ولقد أنجبت الحدود تجاراً رائعين وموفوري النشاط مع الهنود ، مثل جورج كروغان في الشمال ، وجيمس آدير المثقف ، المتعدد المواهب والخبرات ، في الجنوب الغربي . وكان كلاهما صديقين للمهمجين ، ومغامرين على نطاق واسع ، كما كانا يوقنان من سرعة

(١) reel : نوع من الرقص الاسكتلندي الأصل ، يدور فيه الراقص حول نفسه بخفة وسرعة — المترجم .

٥٧ تراث عهد الاستعمار

تقدم الغرب الأمريكى . وقد نشط كروغان - فى الأيام الأخيرة من عهد الاستعمار - لبقاء هنود الإيروكوى آمنين فى نيويورك ، وفى فتح أبواب الريف ، عند أعلى نهر أوهايو . أما آدير فكان يفخر بأنه على تعارف بهنود ينتشرون على طول ألفى ميل . كذلك أنجبت الحدود مضاربين بالأرض ، مثل ريتشارد هندرسون فى كارولينا الشمالية ، الذى رأى قبيل الثورة بقليل أن يشتري قسماً كبيراً من المنطقة التى أصبحت فى الوقت الحاضر كنتكى ، من هنود التشيروكى ، وأن يحولها إلى ما يشبه مستعمرة ملكاً لشخص واحد . وقد أنجبت محاربين جسورين مثل روبرت روجرز ، وهو اسكتلندى - أيرلندى من نيوهامبشاير أبلى بلاء بطولياً فى الحدود الشمالية الشرقية ، أثناء الحرب مع الفرنسيين والهنود . . وجون سيفير الذى كان يتيه فى إقليم تينيسى بـ « خمس وثلاثين معركة ، وخمسة وثلاثين انتصاراً » . كما أنجبت المستعمرة النموذج الأصيلى لطراز الرواد الذين لا يركنون لراحة ، ألا وهو دانييل بون ، وهو من أهل كارولينا الشمالية ، من ديفون ، وقد اجتاز فى سنة ١٧٦٩ الباب السحرى الذى يفضى خلال جدار جبال أبلاش الوعرة إلى كنتكى ، والذى يسمى ثغرة كمبلاند . وبفضل سلسلة من الاستطلاعات التى قام بها وحيداً فى هذه الأراضي الهندية الغنية ، الموفرة الصيد ، أدى دوراً كبيراً فى إذاعة المفاتن الطبيعية لإقليم كنتكى ، وقدم خدمة جليلة لهندرسون وعديد من الجماعات المستعمرة . بيد أن الأهم من هذا كله ، أن الحدود أنجبت مزارعين رواداً أشداء ، دأبوا على توسيع رقعة الاستيطان والعمران .

وإذا كان الريف الداخلى أرض محن ومخاطر ، فإنه كذلك كان منطقة ذات جدة وفتنة لا تقاومان بالنسبة للكثيرين . وإن صفحات كتاب وليم بيرد لتشع أثراً من مفاتها الطبيعية . ففى حديثه عما فعله من مد خط الحدود إلى داخل القفار ، يصف كروم العنب الأسود والأبيض ، الملتوية على الأشجار ، والديوك الرومية البرية وهى تحوم هاربة فى أسراب فى كل جانب ، وجحافل الحمام تغطى كبد السماء فى مرورها بين الخليج وكندا ، وتهبط أحياناً على أغصان أشجار التوت والبلوط . وهو يصور الدببة البدينة تسبح متخبطة فى عرض الأنهار ، وحيوانات الأوبسوم القارضة وهى تتغذى على الفواكه البرية ، والذئاب التى كانت « تطربهم » شطراً كبيراً من الليل ، والجاموس الذى يرمى متبلداً ، والذى قتل رجال بيرد منه عجلاً فتياً عمره عامان . وهو يتحدث عن أسماك الحفش إذ تستمرىء الشمس على صفحة الأنهار فى الصيف ، ويذكر الكتل الناتئة من

الرخام الذى يختلط فيه اللونان الأرجوانى والأبيض ، والجداول النميرة تتدفق فى أحواض رملية تلمع خلالها مادة الميكسا تحت الشمس كالذهب ، وغابات البلوط الكثيفة ، وأشجار القارية ، والجراد ، والقمم النائية تلمع تحت الشمس الآفلة فى الغرب . وهو يشير إلى السماء فوق ستائر رقيقة من الدخان الناشئ عن إحراق هنود الكاتوبا والتوسكارورا الأحراش ليحبوا حيوانات القنص على الخروج منها . . ويتحدث عن رجفة الانفعال عند مصادفة مضرب لخيام الهنود ، ويبين ما لهؤلاء البسطاء من سلوك رصين ، أبى ، كثيراً ما تصحبه مسحة من العظمة والوقار فى قسائمهم ، وملاحظة العذارى ذوات اللون النحاسى ، اللاتى لا يمتزن بكثير من النظافة ولا كثير من الزينة ، ولكن الحياء يملكهن أمام الرجال البيض . وكم من الرواد الأوائل آثروا البرارى على أية بيئة أخرى ، بمجرد أن تذوقوا مباهجها .

الثقافة

بدأت الثقافة تزدهر وتنتشر فى المجتمعات الأثرية ، فى الشطر الأخير من عهد الاستعمار . ولقد أولت نيوانجلاند بوجه خاص التعليم اهتماماً كبيراً . وبينما كانت المستعمرات بعد فى حداثتها ، كانت رود آيلاند قد جعلت قدراً من التعليم الأولى إلزامياً . وازدهرت المدارس المتوسطة والعليا . وأقيمت كليتان هما هارفارد وويل ، كما كانت أقدام جامعتين أخريين تتوطد ، وهما كلية رود آيلاند (براون حالياً) ودارتماوث . وكانت ثمة مكتبة تضم خمسة آلاف كتاب ، وأجهزة علمية جيدة ، فى هارفارد ذات البنايات الضخمة من الطوب ، كما كان تدريس اللاهوت ، والفلسفة ، والآداب القديمة لا يتخلف كثيراً عن مستوى أحسن الجامعات الأوروبية .

وكانت ميريلاند هى الوحيدة بين المستعمرات الوسطى ، التى أوتيت نظاماً للتعليم العام ، وكان سىء التنظيم ، ضعيفاً . ولقد كان الكويكر والألمان يديرون مدارس تحت إشراف الكنيسة إلى درجة ما ، فى حين أوتيت بنسلفانيا كثيراً من المدارس الخاصة ، لاسيما فى فيلادلفيا وعلى مقربة منها . أما نيويورك فكانت فيها بعض المدارس التابعة لمجالس المدن فى لونج آيلاند ، وبعض المدارس المتوسطة فى مدينة نيويورك ، ولكنها

٥٩ تراث عهد الاستعمار

لم تؤت نظاماً عاماً للتعليم . وكان التعليم في الجنوب في أيدي هيئات خاصة إلى حد كبير . فكان القساوسة يتولون عدداً لا بأس به من المدارس الخاصة ، وكان جوناثان باوشر أسقف فيرجينيا ، مثلاً ، يقبل الغلمان مقابل عشرين جنيهاً عن الواحد . وقد كان ابن زوجة واشنطن منهم . وكان أصحاب المزارع الأثرياء هناك وفي ولايتي كارولينا ، يستأجرون مدرسين خصوصيين من بريطانيا العظمى والمستعمرات الشمالية يلزمون أولادهم ويعلمونهم القراءة والكتابة والرياضيات التطبيقية واللاتينية واليونانية . ولم تكن هناك سوى مدرستين بالمجان ، إحداهما في فيرجينيا ، والأخرى في كارولينا الجنوبية . ولقد أنشئ عدد من الكليات في المستعمرات الوسطى والجنوبية ، فأقيمت كلية وليم آند ميرى في فيرجينيا ، في سنة ١٦٩٣ ، حيث تعلم جيفرسون وكثير من الشخصيات الهامة ، وكلية فيلادلفيا جامعة بنسلفانيا حالياً في سنة ١٧٥٥ ، التي بذل فرانكلين الكثير لإقامتها ، وكلية برينستون في سنة ١٧٤٨ ، وكلية الملك (جامعة كوليبيا حالياً) في سنة ١٧٥٤ ، حيث تعلم جون جاي ، وألكسندر هاملتون وجوفرنير موريس . وكثيراً ما كانت العائلات الموسرة في نيويورك والجنوب توفد أبناءها إلى أكسفورد وكمبريدج ، فكان المحامون منهم يتناولون وجباتهم في مطاعم محكمة لندن ، والأطباء والجراحون يقيمون شطر أدنبره بطبيعة الحال .

وكانت الصحف ، والمجلات ، والكتب السنوية (التقاويم) ، بل وكتب ذات جدارة باقية ، تنشر في المستعمرات . فلن العهد بإقامة أقدم مطبعة في أمريكا يرجع إلى سنة ١٦٣٩ ، في كمبريدج ، ولم تتوقف عن النشاط قط . وقد كان في بوسطن ، عشية الثورة ، خمس صحف يومية ، وفي فيلادلفيا ثلاث . وأصبح تجار الكتب من الشخصيات المهمة في عهد الاستعمار ، كما أنشئ عدد من المكتبات أنشئت مكتبة بوسطن سنة ١٦٥٦ . ولقد استورد أحد الناشرين في فيلادلفيا ، في سنة ١٧٧١ ، ألف مجموعة من أجزاء كتاب بلاكستون « التعليقات » ، وأصدر بنفسه ألفاً أخرى . واكتسب رجلان شهرة باقية في أوربا ككاتبين ، هما جوناثان إدواردز في الفلسفة واللاهوت ، وبنجامين فرانكلين في العلوم والآداب . وحرص كل من القاضي اليانكي المثرى صمويل سيوال — وهو إداري محافظ ، عنيد ، دءوب — والمزارع المثقف الكولونيل وليم بيرد ، من فيرجينيا ، وكان زميلاً في الجمعية الملكية ورجلاً ذا ثروة وعراقة في المقام الأول . . حرص كلاهما على تدوين يوميات قدر لها — كما قدر ليوميات جون وولمان —

٦٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

ألا تروح في أدراج النسيان . . ولقد قال ليناوس عن جون برترام ، وهو فاحص علمي دقيق ، إنه أعظم علماء النبات الطبيعي في العالم . واكتسب كادوالدر كولدن ، ذو الدأب الذي لا يفتقر - وكان من أهالي نيويورك - صيتاً ذائعاً بفضل كتابه « تاريخ خمس أمم من الهنود » . وظفر ديفيد ريتنهاوز ، من بنسلفانيا ، بصيت دولي كعالم في الفلك والرياضيات . وأحرز جون ميتشل ، الزميل في الجمعية الملكية من فيرجينيا ، مكانة مبرزة في علم النبات ، والطب ، والزراعة . ونشر القس العالم كوتون مائر ، الذي كان يسمى العملاق الأدبي الجبار في نيويورك ، ما لا يقل عن ٣٨٣ كتاباً وكتيباً ، منها كتابه « عجائب المسيح الأمريكية » الذي يكاد يكون مكتبة في حد ذاته . وهناك مؤرخ من أواخر عهد الاستعمار ، لا يزال من الممكن قراءة إنتاجه بمتعة وانتفاع ، هو توماس هتشينسون من ماساشوستس . وكان ثمة فنانون موفقون يعملون في المستعمرات ، وقد ذهب بنجامين ويست المبرز إلى إنجلترا قبيل الثورة ، فخلف سير جوشوا رينولدز في رئاسة الأكاديمية الملكية .

وقد يجوز أن نستخلص من « السيرة الذاتية » لفرانكلين فكرة حية عن الطريقة التي ازداد بها الإقبال على الممارسات الثقافية . فقد ولد فرانكلين في بوسطن سنة ١٧٠٦ في أسرة عديد أفرادها ، حتى إنه ليتذكر ثلاثة عشر طفلاً يحيطون بالمائدة في آن واحد ، وكان فرانكلين ذاتي التعلم إلى حد كبير ، إذ كان أبوه الذي وفد من نورثهامبتونشاير في إنجلترا ، يمتلك مكتبة احتوت إلى جانب الكتب الدينية المتبحرة كتب : « بحث في الحقائق الموضوعية » لديفو ، و « مقالات لفعل الخير » لكوتون مائر ، و « الحيات » لبلوتارك . وإذ عمل الفتى النابه لدى أحد أصحاب المطابع في سن الثانية عشرة ، توصل إلى كتب أخرى لبنيان ، ولوك ، وشافيتسيري ، وكولينز ، وإلى بعض المؤلفات العريقة مترجمة . وبينسات معدودات ابتاع نسخة من كتاب إديسون « المتفرج » ، الذي أذكى فيه الطموح إلى كتابة مقالات . فلما ذهب إلى فيلادلفيا لتحسين أحواله ، وجد الأدب قد بدأ يوطد أقدامه في تلك المدينة . وكان كيمر الطباع مجهزاً بآلة للطباعة قديمة مضغضة ، وطاقم حروف إنجليزية واحد ، صغير ، بال . وبعد أن قضى فترة في إنجلترا ، شرع فرانكلين المقدام الذي لا يكل في تحسين مدينة الكويكر .

أنشأ عصابة أو « منتدى لتبادل تحسين المستوى » ، بدأ بتسعة أعضاء ، وبث فروعاً ذات نفوذ . وأسس مكتبة تعير الكتب لمشاركتها ، كانت الأولى في أمريكا (١٧٣١)

٦١ عهد تراث الاستعمار

وسرعان ما اتسع نطاقها . وأصدر صحيفة صُممت بحيث تتفادى المقالات الجدلية ، وتنشر الأخبار الواقعية ، هي « سترداى إيفنج بوست » ، كما أنشأ الجمعية الفلسفية الأمريكية في سنة ١٧٤٣ . وهذه الجمعية التي ضمت بين أعضائها أبرز الممتازين من الأمريكيين في ذلك الجيل وكثيرين من الأوروبيين ذوى السمعة العالمية ، احتضنت بحوثاً واستطلاعات واسعة المدى ، لا في العلوم فحسب ، بل في التعليم والفلسفة والفنون . ولقد أنشأ أكاديمية ، ما لبثت أن حظيت باشتراك آل بن وسواهم ، وأن أثرت من عطايهم ، فنمت وأصبحت جامعة . ويحدثنا فرانكلين عما كان لخطب الوعظ البليغة ، التي كان يلقيها جورج هوابتفيلد ، من أثر في استدرار النقود من جيوب الكويكر المترددين . كما يصف لنا كيف أن بعض الكماليات — كأدوات المائدة الصينية والفضة — أخذت تزحف لتحتل مكان الأدوات الفخارية والخشبية في بيوت مثل بيته ، وكيف أدخل التحصين ضد الجدري ، ولقد أنحى على نفسه بأقصى اللوم عندما مئى في ابن بديع من أبناؤه الأربعة لإهماله التطعيم . وكانت العلوم تستهويه دائماً ، وما لبث بإطلاق طائرة ورقية نحو السحب الرعدية أن أجرى التجربة الشهيرة التي دعت ناقداً فرنسياً إلى أن يقول هازلاً إنه اصطاد البرق من السماء . أما الأنشطة السياسية التي بررت الشطر الثاني من الملاحظة — « وهى والصولجان من الجبار » — فبدأت بإقبال صادق عندما مثل بنسلفانيا في سنة ١٧٥٤ ، في أول اجتماع مشترك للمستعمرات ، وهو مؤتمر ألبانى . وشغل من سنة ١٧٥٣ حتى ١٧٧٤ منصب نائب المدير العام للبريد في المستعمرات ، وقد أسهم تحسينه للخدمات البريدية بقسط ليس بالقليل في الوحدة الثقافية الأمريكية . ولقد أظهرت أعمال فرانكلين ، في مجموعها ، مدى ما يمكن الاستفادة منه من الموارد الثقافية للمستعمرات ، ومدى ما كان بوسع زعيم قدير أن يفعله لتدعيمها .

وأخذ الثراء يتدفق بسرعة مطردة ، فإذا بيوت أرقى من سابقتها ترفع ، وإذا البذخ في المأكل والملبس يزداد ، وإذا الاجتماعات الحديثة الفخمة تزداد شيوعاً . فلم يحن عام ١٧٥٠ ، حتى تسنى وجود مجتمع راق ، على دراية بأرقى الفكر الأوروبى ، على طول الساحل الشرقى . فكان المرء يشاهد من الأناقة والوجاهة في بوسطن ، ونيويورك ، وفيلادلفيا ، وتشارلستون قدر ما يوجد في أية مدينة بريطانية أو فرنسية خارج لندن وباريس . بيد أن حدود العمران كانت في تزحزح دائب في اتجاه الغرب ، في الوقت ذاته ، وقد بدأت الدفعات الأولى من المهاجرين تتدفق خلال ممرات جبال أبلاش إلى

٦٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

إقليم أوهايو وكتكتي . وما كان رواد الحدود الشجعان الخشنون ، بينادقهم الطويلة وفؤوسهم الحادة ، يحفلون بالترف ، أو الأزياء الحديثة ، أو الآراء ، إذ كانت رسالتهم في الحياة هي تذليل الفيافي . وبين المزارعين والتجار المترفين من جانب ، ورجال الحدود المقبلين على الفتك بالهنود من الجانب الآخر ، كان الحشد الكبير من أبناء الطبقة المتوسطة غير الموسرين ، الذين كانوا الطراز المثالي للأمريكيين في سنة ١٧٧٥ . كان عامة المزارعين ، وصغار ملاك الأراضي ، والميكانيكيون المفتولر العضلات ، وأصحاب الحوانيت الصاخبون المهتاجون ، قد ترعرعوا دون أن يكون لهم علم بأية بلاد سوى أمريكا ، ولا تذوق لأى نهج في الحياة غير أمريكى . كانوا رعايا أوفياء للتاج ، يعجبون بانجلترا ، ويفخرون بحقوق المواليد البريطانيين . بيد أنهم كانوا يشعرون ، ولودون أن يفطنوا ، بأن لأمريكا قدراً خاصاً بها .

تراث عهد الاستعمار

إن جزءاً من التراث الذى كان مقدراً للمستعمرات أن تخلعه على الأمة الناشئة جلى لأول وهلة . فإن وجود لغة مشتركة ، هى الإنجليزية ، كان ذا قيمة لا تقدر . كان من العناصر الكبرى التى يسرت قيام أمة حقيقية . وكانت التجربة الطويلة والمطردة الاتساع بأشكال الحكم النيابى جزءاً آخر من التراث يفوق كل تقدير . ويجوز لنا أن نتقبل هذا كقضية مسلمة حتى نتذكر أن المستعمرات الفرنسية والإسبانية لم تؤت تجربة بالحكم الذاتى النيابى ، فإن البريطانيين وحدهم هم الذين سمحوا لمستعمراتهم بأن تقيم مجالس شعبية ، وأن تخلق حكومات للناخبين والمندوبين فيها مسئولية سياسية حقاً . ونجم عن هذا أن أهالى المستعمرات الإنجليزية كانوا ذوى عقليات سياسية وخبرة سياسية . وكان ما أولى من احترام للحقوق المدنية الجوهرية عاملاً مهماً آخر فى التراث ، إذ كان لأهل المستعمرات ما للبريطانيين فى وطنهم من إيمان وطيد بحرية الكلام ، والصحافة ، والاجتماع ، وكانوا يستمتعون بقدر يفوق ما يستمتع به البريطانيون ، أو أية شعوب أخرى فى هذا الصدد ، من الحريات الثلاث جميعاً . ويجب أن تضاف إلى القائمة روح التسامح الدينى العامة فى المستعمرات ، وإدراك إمكان وجوب أن تتعاشر

٦٣ تراث عهد الاستعمار

الطوائف المختلفة في محبة خالصة . كانت كل عقيدة تحظى بالحماية تحت العلم البريطاني ، بالرغم من الخوف التقليدي من الكاثوليكية في إنجلترا . بل إن بعض أبناء المستعمرات اتهموا البرلمان ، بعد سنة ١٧٦٣ ، بإبداء إثارة ضاف لهذا الدين . ولم تكن روح التسامح العنصرى بأقل قيمة بالنسبة لشعب مختلف الأعراق — إنجليز ، وأيرلنديون ، وهيجونوت ، وهولنديون ، وسويديون — امتزج وتزاوج دون أن يعبر أى اختلاف اهتماماً يذكر .

ومن المحقق أن من الجدير بنا أن نضيف إلى هذه الموروثات تلك الروح القوية ، روح المشروع الفردى ، التى كشفت عن ذاتها في المستعمرات ، وكانت فردية استلقت الانتباه في بريطانيا ذاتها ، وقد بلغت ذروتها تحت ضغط الحياة في بلاد غنية ولكنها غفلة وصعبة . فما سمح البريطانيون في المستعمرات يوماً باحتكارات كتلك التى سحقت المجهود الفردى في الممتلكات الفرنسية والإسبانية . ولقد استجاب المشروع (العمل) للفرصة دون شيء يكبحه . وهذه الأجزاء من تراث العهد الاستعماري ، في مجموعها ، كنز يفوق في القيمة ملء سفن من الذهب ، أودونيات من الماس .

كذلك تغلغل مبدأ أمريكيان أساسيان ، أثناء عهد الاستعمار . أحدهما هو مبدأ الديمقراطية ، بمعنى أن لكل البشر حقاً في المساواة في الفرصة . فما جاء عدد كبير من المستوطنين إلى العالم الجديد إلا لاكتساب فرصة لأنفسهم ، ولأبنائهم بوجه خاص . كانوا يأملون إقامة مجتمع لا بد لكل إنسان فيه من أن يحظى لا بفرصة فحسب ، وإنما بفرصة طيبة ، ويجوز له فيه أن يرقى من القاع إلى أعلى قمة السلم . ولقد قدر لهذا السعى إلى المساواة في الفرصة أن يجلب تغيرات متزايدة في التركيب الاجتماعى لأمريكا ، فيحطم كافة أنواع الامتيازات الخاصة . كان لزاماً لإحداث تغيرات ملحوظة في التعليم والحياة الفكرية ، مما جعل أمريكا أكثر أمم العالم حظاً من « المدارس العامة » . وكان مقدراً لهذا أن يحدث تغيرات سياسية عظيمة ، فتيح للإنسان العادى مزيداً من الرقابة المباشرة على الحكومة . كان بوجه عام محركاً جباراً لرفع مستوى الجماهير .

والمبدأ الأساسى الثانى هو الشعور بأن قدراً خاصاً كان يرتقب الشعب الأمريكى ، وأنه كان أمامهم عمل لا يحتمل أن ينجز مثله أية أمة أخرى . فهذا الثراء العام ، وطاقة الشعب ، وجو الحرية الذى احتوى الثراء والطاقة ، بثت في الأمريكيين تفاعلاً جديداً وعارماً ، واعتداداً بالنفس جامعاً . وفي هذا قال المزارع الأمريكى سانت جون

كريفكير : « الأمريكيون هم المهاجرون الذين حملوا معهم ذلك القدر العظيم من الفنون والعلوم والعنفوان والجد التي بدأت قبل ذلك بزمان طويل في الشرق ، وسوف يتمون الدائرة العظيمة » . لقد قدر لفكرة « قدر سعيد ممتاز » أن تكون من القوى الدافعة الرئيسية في الامتداد السريع للشعب الأمريكى في القارة بأسرها . وكان مقدراً له أن يؤتى آثاراً سيئة في بعض الأحيان ، بمعنى أنه كان مقدراً له أن يفضى بالأمريكيين إلى أن يركنوا بكل سهولة إلى « العناية » ، عندما كان ينبغي عليهم أن يستحثوا تفكيرهم للتصدي لما يواجههم من صعاب . . كان مقدراً له أن يجعلهم راضين عن أنفسهم ، في الوقت الذى كان جديراً بهم أن ينتقدوا أنفسهم . ولكنه بوجه عام ، ومع مبدأ الديمقراطية ، قد أضفى على الحياة الأمريكية جدة واتساعاً وبهجة لا مثيل لها فى أى مكان آخر . لقد كانت البلاد الجديدة بلاد البشرى ، والأمل ، والأفاق المطردة الاتساع .



الفصل ٣

المشكلة الاستعمارية (الامبريالية)

الحروب الفرنسية

بازدياد مكانة المستعمرات البريطانية في أمريكا ونموها ، كان لازماً أن تصطدم بجاراتها من المستعمرات الفرنسية والإسبانية ، في الشمال والغرب والجنوب . كذلك كان من المحقق أن تشمل اشتباكات بريطانيا وإسبانيا في العالم القديم ، رعايا تلك الدولة في العالم الجديد ، فما كانت أمريكا إذ ذاك ، ولا فيما بعد ، بمعزل عن بقية العالم الغربي . ومن القصص البطولية في تاريخ أمريكا الشمالية ، قصة سلسلة المنازعات الخطيرة ، التي شبت بين اللاتينيين والأنجلو - سكسونيين ، وهي منازعات تزداد أهميتها لأنها لم تقتصر على الشعوب ، بل شملت الأفكار والثقافات . كانت حروباً بين الاستبدادية والديمقراطية ، بين حكم مطلق يتسم بنظام صارم وبين الديمقراطية ، بين رجال ذوى عقيدة واحدة لا تعرف التسامح ، ورجال ذوى عقائد كثيرة متساهلة بعضها إزاء بعض . ونظراً لوجود القفار الواسعة كخلفية ، ووجود الهنود كمشاركين ، ووجود عسكريين ذوى مقدرة عالية - فرونتناك ، ومونتكام ، وولف ، وأمهيرست ، وواشنطن - كقادة . . نظراً لهذا ، اتسمت تلك الحروب بفترات قسوة

٦٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

وحشية ، وشهامة بطولية ، واستراتيجية حاذقة . وكان المغنم المنشود من هذا النزاع هو السيطرة على القارة .

كان الإسبان هم أول من ظفر بركيزة منيعة في أمريكا الشمالية . ففي أعقاب كشف كولبس العالم الجديد ، سارعوا إلى احتلال جزر الهند الغربية الرئيسية احتلالاً تاماً . وفي سنة ١٥١٩ ، شق العسكري الذي لا يلين هرنان كورتس طريقه بجيش صغير إلى قلب المكسيك ، فهزم قوات مونتزوما إمبراطور الأزتك^(١) ، واستولى على البلاد . وبعد عشرين عاماً ، هبط سيد إسباني آخر ذو عزيمة حديدية ، هو هرناندو دى سوتو ، إلى فلوريدا (التي كانت قبل ذلك مسرحاً لعدة مغامرات إسبانية فاشلة) ، فهزم الهنود ، وخلف وراءه حامية ، ثم انطلق مع حوالى ستمائة رجل يجوس — لأربع سنوات دون هودة — خلال ما يعرف حالياً بالولايات الجنوبية ، موغلاً في الغرب حتى أوكلاهوما وتكساس . وقام مستكشفون إسبان آخرون ، لاسيما كورونادو الذي اتخذ المكسيك قاعدة له ، برحلات استطلاعية صوب الشمال بحثاً عن أعاجيب أسطورية مثل المدن السبع الواقعة على مرتفعات شاهقة ولها أبواب مرصعة بالجواهر ، وشوارع بأكملها يُشغل فيها الصاغة بصياغة الذهب . وأقام الإسبان أولى مستوطناتهم في فلوريدا ، وهي سانت أوغسطين ، في سنة ١٥٦٥ . وقبل أن ينتهي القرن السادس عشر ، كان الجنود والقساوسة الإسبان قد وطدوا مركزهم في نيو مكسيكو (المكسيك الجديدة) ، حيث تولى حكم الإقليم الغافى — أو الناعس — سلسلة طويلة من الحكام العسكريين بدأها سانتا في . وفي تلك الأثناء كان مبشر جيزويتى من أصل إيطالى ، هو يوسيبو فرانثيسكو كينو ، قد ارتاد كاليفورنيا المنخفضة وإقليم الأريزونا ، مشيداً كنائس صغيرة ومعمداً الهنود الرحالة . على أنه لم يقدر لكاليفورنيا — قبل سنة ١٧٦٩ — أن تُحتل احتلالاً حقيقياً ، بقوة من الجنود الإسبانين ، أقبل معهم مبشرون من الفرنسيين برئاسة جونبيرو سيرا للمساعدة على إنشاء سان دييجو ومونتريه .

ولم يثبت الفرنسيون أقدامهم في كندا حتى قبيل استيطان العمرين لفرجينيا . وواقع الأمر أن رحالة من بريتانى ، هو جاك كارتيه ، كان قد حمل العلم الفرنسى في سنة ١٥٣٥ على نهر سانت لورانس حتى موقع مونتريال ، وقام بعد حوالى ست سنوات

(١) شعب عريق المدينة كان يعمر المكسيك ، حتى أوائل القرن السادس عشر — المترجم .

٦٧ المشكلة الاستعمارية (الامبريالية)

بمحاولات غير مثمرة لاستعمار جزء من الإقليم الجديد . وأدت عداوة الهنود وبرد الشتاء الفظيع إلى اضطراب المستوطنين للعودة إلى وطنهم وقد ثبتت عزائمهم . ولم يظهر منشىء فرنسا الجديدة صمويل دوشامبلان حتى سنة ١٦٠٣ . كان جندياً وملاحاً سابقاً ، في السادسة والثلاثين من العمر ، وقد روى مغامراته للإسباني مين براءة حملت الملك على أن يجعله الجغرافي الملكي له . وفي سنة ١٦٠٨ ، أرسى أسس كوبك ، أول مستوطنة أوربية ثابتة في فرنسا الجديدة . وقد صاحب في العام التالي ، لأغراض استطلاعية ، فريقاً من هنود الهرون والألونكيين ضد الإيروكوى ، فعب البحر المعروفة الآن باسمه ، وأفرغ بندقيته في الممجين المعادين بالقرب من تيكوندروجا . ولقد عزى إلى الحادث أنه سبب العداوة الطويلة التي تملكت الإيروكوى ضد الفرنسيين ، بيد أن الأرجح أن هذه العداوة نشأت عن الجغرافيا وتجارة الفراء ، التي كانت الأمم الخمس وسطاء طبيعيين فيها بين الإنجليز والقبائل الغربية . ولقد بذلت شركة فرنسا الجديدة ، التي تشكلت تحت رعاية ريشيليو في سنة ١٦٢٨ ، جهداً لتنشيط مشروع الاستعمار . وعندما استكمل لويس الرابع عشر سلطانه على فرنسا في سنة ١٦٦١ ، ومعه كولير الأريب رئيساً للوزارة ، قدمت السلطات الملكية معونة سخية للمستوطنين في كندا .

وكانت مشروعات الاستعمار الإسبانية والفرنسية والبريطانية متشابهة من حيث أنها كانت على الأرجح عشوائية ، وبدون تخطيط ، ولكنها كانت تختلف اختلافاً كبيراً في النواحي الأخرى . كانت الفتوحات الإسبانية تنطوي على إخضاع كتلة عديدة النفر ، مستقرة ، جادة في العمل ، من الأهالي الأصليين بوساطة عدد صغير من الجنود والتجار والمغامرين ، الذين عقدوا العزم على جمع الثروات بسرعة . وكان معنى هذا أن إسبانيا نقلت كثيراً من صفات النظام الإقطاعي إلى أمريكا . وسرعان ما كان بضعة آلاف من الغزاة العنيدون ، الشديدي البطش ، القساة في أساليبهم ، يسيطرون على ملايين من الهنود . ولقد حاول أهل الخير من رجال الكنيسة — مثل لاس كازاس — أن يخففوا من قسوة تسلطهم ، ولكن نجاحهم كان هزياً . فقد فتح الإسبان المواجه الغنية التي كانوا يجبرون عشرات الآلاف من الهنود على العمل فيها حتى الموت ، وأقاموا مزارع كبيرة لتربية الماشية ، واستنبت بعض المحصولات الاستوائية : السكر ، والفانيليا ، والكافور ، والنيلة . وكان الإسبان سادة مستبدين ، بينما كان الهنود ، والزنوج (الذين سرعان ما استُجلبوا بأعداد كبيرة ، لاسيما إلى أراضي الكاريبي والبرازيل

البرتغالية) والنشء المهجن من العناصر الثلاثة هم خدم الأرض أو العبيد . ولقد أنتج النظام قدراً كبيراً من الثراء ، ولكنه ذهب إلى فئة قليلة من الأيدي الجشعة ، في حين أن الجماهير ظلت في فقر . فلم تنم طبقة وسطى محددة المعالم . كان الإسباني يحب أن يكون صاحب مزرعة لتربية الماشية ، أورجل كنيسة ، أوجندياً ، ولكنه لم يعمل إلى أن يكون تاجراً أو صانعاً . وكان الأجانب ، لاسيما البروتستانت ، مبعدين بصرامة . ولم يكن للمؤسسات النيابية ، فيما عدا مجالس المدن أحياناً ، أى وجود ، فكان الحكم بأكمله من أعلى .

وفي الوقت ذاته ، أدخل الإسبان والبرتغاليون المسيحية للملايين الهمجين ، وعلموا الأهالي حرفاً جديدة ، وزراعة بدائية ، وأوليات من التعليم الأوربي ، فجعلوا أراضيهم منتجة للملايين الماشية . وأنشأوا جامعات لتدريس الآداب القديمة وتعاليم آباء الكنيسة . ولقد نشروا المدنية في مساحات شاسعة أدنى ريو جراندي ، وإن كان ذلك بطريقة فجأة وغير منتظمة .

أما الفرنسيون فلم يقدوا على أمريكا إلا في أعداد صغيرة ، وكان العامل الأكبر في تشكيل حضارتهم يتمثل في الأحوال الجغرافية والاقتصادية ، وأتوقراطية الحكم الفرنسي ، والكنيسة الكاثوليكية ، ولم يكن الذهب أو مزارع تربية الماشية بغيتهم ، بل كانوا يسعون إلى الأسماك والفراء . ولقد نفذوا إلى بلاد قارسة البرد ، كثيرة المشاق ، ذات سكان من الهنود الرحالة ، كثيرون منهم عدائيون . وكلما أمعنوا في التوغل في الداخل ، ازداد ما يظفرون به من الفراء . ولهذا فإنهم بعد أن أقاموا عدداً من المستوطنات الزراعية الضعيفة ، أخذوا يدفعون مراكزهم إلى البراري باطراد ، متتبعين المسالك المائية الرئيسية : نهر سانت لورانس ، والبحيرات الكبرى ، وأنهار ويسكونسين ، وإلينوى ، ووايانش ، والميسيسيبي ، وأخيراً مياه مانيتوبا . وبينما أقام المستعمرون الإنجليز مجتمعات ذات حكم ذاتي ، وكشفوا عن روح مبادرة فردية لا حدود لها ، منحت باريس المستعمرات الفرنسية حكومة جمعت بين الاستبداد والسلطان الأبوي . وبالرغم من ظهور زعماء ذوى جرأة ، فإن الشعب لم يتعلم قط أن يستوى على ساقه ، وأن يتولى شؤونه . وبينما كانت إنجلترا تشجع أناساً من كل العقائد على الهجرة ، لم تسمح فرنسا لغير الكاثوليك بأن يطاءوا أرض كندا . فلما حان الصراع النهائي ، كانت المستعمرات البريطانية تملك حوالى عشرين رجلاً مقابل كل رجل فرنسي ، وكان أهلها قد عمقوا

٦٩ المشكلة الاستعمارية (الامبريالية)

جذورهم ، في حين أن الفرنسيين كانوا فلاحين لا يملكون الأرض بل يكدحون تحت تحكم طبقة من النبلاء الإقطاعيين ، فلم تكن جذورهم متغلغلة في الأرض ، وكان الإنجليز واسعى الحيلة والطاقة ، بينما كان الفرنسيون يعتمدون على سلطة مركزية .

ولقد مر تاريخ فرنسا الجديدة بخمس حقبة متميزة . كانت الأولى فترة من خمس وثلاثين سنة ، ذات بدايات متصلة ومشتركة بأعمال شامبلان المكافح . فبعد إبحاره نحو منابع نهر سانت لورانس ، في سنة ١٦٠٣ ، ساعد في العام التالى على إنشاء بورت رويال (أنابوليس) فيما يعرف الآن باسم نونافسكوشيا . ولقد كرس جهده ، حتى موته في سنة ١٦٣٥ ، لتطوير كندا كمستعمرة فرنسية ، ولدفع أعمال الاستكشاف قدماً - فوصل هو شخصياً حتى بحيرات جورج وأونتاريو وهرون - ولجعل تجارة الفراء مصدر ربح كبير . أما الحقبة الثانية فأبرز معالمها النشاط التبشيري لعصابة من الرجال المتفانين في رسالتهم ، من الفرنسييسكان ، والاستذكارين ، والأورسوليين ، ومن الجيزويت (اليسوعيين) بوجه خاص . ولقد أبدى بعضهم ، مثل إيزاك جوج وجان برييف ، بطولة لا سبيل إلى قهرها ، وقد عُذب هذان حتى الموت على أيدي هنود الإيروكوى . ولقد كتبوا في مؤلفهما « العلاقات » صفحة من أقوى صفحات تاريخ الكاثوليك إلهاماً . ولكن ميدان إقدامهم المثمر أبيع في ١٦٤٩ - ١٦٥٠ ، عندما اكتسح هنود الإيريكوى هنود الهرون الذين صادف اليسوعيين بينهم أعظم نجاح لهم ، كما أن قبيلة الإيري أفنيت هي الأخرى ، في سنة ١٦٥٤ . ولقد كانت المستعمرة في هذه الفترة فاشلة من الناحية التجارية . ولم تطلع سنة ١٦٦٠ على أكثر من بضعة آلاف من الفرنسيين المستقرين في كندا بأسرها وسط الأخطار .

وكانت الحقبة الثالثة أينع ثماراً . فقد أصبحت فرنسا الجديدة مقاطعة ملكية ، لها حاكم ، ومدير إدارى ، وموظفون آخرون ، على غرار ما في الأقاليم الفرنسية . ولقد أصدر لويس الرابع عشر منحاً مالية سخية وأوامر ونصائح ، إذ اهتم شخصياً بأحوالها . وأوفدت سفن محملة بمعمرين جدد ، ووصل إلى كوبيك ، في سنة ١٦٥٩ ، أول أسقف ، هو فرانسوا كرافيه دى لافال - مومورنسى ، الذى قرر أن تكون كندا تحت حكم الكنيسة ، وفقاً لنظام صارم ومتقشف كذلك الذى فرضه الحكام الدينيون في نيوزإنجلاند . ولا يزال طابعه منقوشاً على حياة كوبيك ، إذ أنه وفق إلى غايته برغم نزاعه مع الحكام واحداً بعد آخر .

٧٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

على أن رجال الكنيسة الطموحين صادفوا ، في النهاية ، من هو أقوى منهم إرادة ، عندما وصل الكونت دو فرونتناك ذو العزيمة الحديدية ، في سنة ١٦٧٢ ، كحاكم للإقليم فافتتح الحقبة الرابعة . فقد كان رجلاً عارم المقدرة والإصرار ، فأكد سيطرة السلطات المدنية على الكنيسة ، وحطم سطوة الإيروكوى إلى أجل ، وأوقع الهزيمة بأسطول من أربع وثلاثين سفينة قاده سيروليم فييس ضد كويبيك ، في حرب الملك وليم (١٦٩٠) . وكان أعظم المستكشفين الفرنسيين منهمكين ، في هذه الحقبة ، في الغرب الأقصى : فنفذ راديسون وجروزييه إلى ما وراء بحيرة سوبريور ، وحدد جولييه وماركيت شطراً كبيراً من أعالي وادي المسيسيبي على الخرائط ، وانحدر لاسال في نهر المسيسيبي حتى مصبه . وكان فرونتناك ، قبل موته في نهاية القرن ، قد شرع في إعداد فرنسا الجديدة للصراع المستميت الذي كان معظم ذوى البصيرة قد رأوا أنه لابد من خوضه ضد البريطانيين . وهذا الصراع الذي امتد طيلة حرب الخلافة الإسبانية وحرب الخلافة النمساوية (حرب الملكة آن ، وحرب الملك جورج) واستمر خلال حرب السنوات السبع ، يملأ الحقبة الخامسة والأخيرة في تاريخ فرنسا الجديدة .

وكانت للفرنسيين امتيازات معينة في الصراع الطويل . فلقد بذلوا جهوداً لاتخاذ مراكز ذات سيطرة استراتيجية . فدأبوا بخط متصل من الحصون ومراكز تجارة الفراء على تحديد إمبراطورية هائلة بشكل الهلال ، تمتد من كويبيك في الشمال الشرقي مارة بديترويت وسان لويس حتى نيو أورليانز في الجنوب . وكانوا يتوقعون أن يحتفظوا بهذه الأراضي الداخلية الشاسعة وأن ينموها ، مضطرين البريطانيين إلى ملازمة الحزام الضيق الممتد شرقي جبال أبلاش . وكانت فرنسا أقوى عسكرياً من بريطانيا وبوسعها إيفاد جيوش قوية . كما أن حكومة فرنسا الجديدة ذات السلطة المركزية البالغة كانت أحسن تهيؤاً لإدارة الحرب من المجموعة المفككة من حكومات المستعمرات السيئة التماسق .

بيد أنه كان من المحقق أن يحرز البريطانيون انتصاراً في النهاية ، لثلاثة أسباب رئيسية : أولاً ، لأن سكان المستعمرات البريطانية - وعددهم ١ ٥٠٠ ٠٠٠ ، في سنة ١٧٥٤ - كانوا كتلة سريعة التكاثر ، متعاسكة متضامنة ، واسعة الموارد ، في حين أن فرنسا الجديدة أوتيت عدداً من السكان دون المائة ألف ، شجعاناً ولكنهم متناثرون وغير أكفاء في القيام بالمشروعات . وثانياً ، لأن البريطانيين كانوا في وضع استراتيجي أفضل .

٧١ المشكلة الاستعمارية (الامبريالية)

فبالتحرك على خطوط داخلية ، كان بوسعهم أن يوقعوا ضرباتهم بإحكام غرباً ، على ما يعرف الآن باسم بيتسبيرج ، وشمالاً بغرب نحو نياجرا ، وشمالاً نحو كويبيك ومونتريال . كما أنهم أوتوا أسطولاً أفضل ، فكان بوسعهم أن يعززوا قواتهم ويمدوها بسرعة ، وأن يفرضوا حصاراً من الماء على كويبيك . وقد أثبتوا ، أخيراً ، مقدرة على الظفر بقيادة أفضل . فما لبثوا أن وجدوا في تشاتهم زعيماً سياسياً ، وفي وولف ، وأمهيرست ، ولورد هاو (الذى أقامت له مساشوستس نصباً تذكاريّاً في دير ويستمنستر) قادة عسكريين لم يضارعهم الفرنسيون . في حين أن الضباط من أبناء المستعمرات حققوا امتيازاً رفيعاً ، مثل واشنطن اليقظ الذى قاد جيش برادوك ، وفينياس لايمان الذى صد الفرنسيين عند بحيرة جورج ، والليفنتان كولونيل برادستريت الذى استولى على فورت فرونتناك . ولقد اضطر تشاتهم ، وكان عبقرياً حقاً ، أن يقضى عامين تقريباً لينظم المجهود الأنجلو-أمريكى قبل أن تهتدى فرنسا إلى رجل حكم قدير في شخص دوق دى شوازيل .

وكانت الأعوام السبعون التى دامها النزاع ، وقد بلغ أوجه في سنة ١٧٦٣ ، مليئة بالأحداث المثيرة . وبرزت خلالها شخصيات تستوقف الانتباه ، ففي الجانب الفرنسى : كاديلاك الذى أنشأ ديترويت ، وإيرفيل الذى تصدى للبريطانيين من خليج هدسن إلى جزر الهند الغربية ، وبيانفيل الذى أسس نيو أورليانز وطالب بحق فرنسا في امتلاك وادى أوهايو . وفي الجانب البريطانى : وليم شيرلى حاكم مساشوستس اليقظ ، المناضل ، وسير وليم بيبيريل المقاتل الجسور ، وهوراشيو شارب حاكم ميريلاند الداهية . ولقد ضمت قصة الحرب حصارات عنيدة مثل حصار لويسبورج التى استولت عليها القوات الإمبراطورية مرتين ، ومعارك دامية كتلك التى دارت عند تيكوندروجا وانتصر فيها الفرنسيون في البداية ثم فاز البريطانيون ، وإغارات بشعة من الهنود على مدن الحدود مثل ديرفيلد في مساشوستس ، والسير المرهق عبر الفيافي المقفرة . وكانت إبادة الفرنسيين والهنود لبرادوك وجيشه ، في سنة ١٧٥٥ ، وهم يقتربون من موقع بيتسبيرج ، نكبة مهينة . بيد أن الهزيمة ما لبثت أن غسلت باستيلاء فوربس على ذلك الموقع الاستراتيجى .

وفي محاولة للالتحام مع مونكالم في كويبيك ، أقدم وولف ، في سنة ١٧٥٩ ، على مغامرة مستميتة ، إذ تسلق التلال العالية ليلاً ، واضطر العدو لخوض المعركة في سهول

أبراهام المفضية للمدينة . ولقد لقي وولف ومونكالم مصرعهما في الاشتباك ، وكان القائد البريطاني - الذى لم يكن قد بلغ الثالثة والثلاثين من العمر - قد قال فى الليلة السابقة إنه كان يؤثر أن يكتب مربية جراى على أن يكسب مجد إيقاع الهزيمة بالفرنسيين . وكان مجده الحقيقى أن اسمه ارتبط للأبد بغلبة الشعوب الناطقة بالإنجليزية فى أمريكا الشمالية ، إذ أن الاستيلاء على كوبيك حسم الحرب .

وبمقتضى معاهدة الصلح فى سنة ١٧٦٣ ، أخذت إنجلترا كندا بأكملها من فرنسا ، وفلوريدا من إسبانيا التى كانت قد دخلت الحرب ضد الإمبراطورية البريطانية . وأصبحت أمريكا الشمالية من المحيط الأطلنطى حتى نهر الميسيسيبى - فيما عدا نيو أورليانز - بريطانية . وفى الوقت ذاته انتقلت لويزيانا من السيادة الفرنسية إلى السيادة الإسبانية . ويحق لنا أن نلاحظ أن انتصارات البريطانيين فى كندا تصادفت مع انتصاراتهم المعادلة فى الهند بقيادة كلايف ، إذ كانت هذه من الحروب العالمية الحاسمة فى التاريخ ، وقد طرد الفرنسيون من الهند كما طردوا من أمريكا الشمالية .

العلاقات مع الإمبراطورية

دفعت حرب السنوات السبع المظفرة بالمستعمرات الأمريكية إلى وضع جديد تماماً بالنسبة لبريطانيا العظمى . فلقد أزال التهديد الحاد الذى كانت الممتلكات الفرنسية الجيدة التسليح تفرضه فى الشمال والغرب ، محيطة المستعمرات إحاطة نصف دائرية كالمنجل المسنن . كذلك أزال الضغط الأقل وطأة من الإspanيين فى الجنوب . ولقد أتاحت حملاتها تدريباً حربياً عظيماً القيمة لكثير من ضباط المستعمرات وجنودها ، وأدكت ثقتهم بالنفس . كما كان لها أثر فى خلق شعور ينحو إلى توحيد الأقاليم ، فطرح عدد من المشروعات للاتحاد ، كان أجدرها بالمراعاة ما وضعه مؤتمر ألبانى فى سنة ١٧٥٤ ، الذى حضره مندوبو سبع مستعمرات . وكان هذا المشروع ، الذى صاغ فرانكلين معظمه ، يدعو إلى رئيس عام يعينه الملك ، ومجلس اتحادى (فيدرالى) يجب أن تختار المجالس النيابية فى المستعمرات أعضاءه . وكان على المجلس أن يقرر شؤون الدفاع العام ، ويشرف على العلاقات مع الهنود الحمر ، ويفرض الضرائب للأغراض

٧٣ المشكلة الاستعمارية (الامبريالية)

العامة ، بينما يتمتع الرئيس العام بسلطة النقض (الفيتو) . ومع أن المشروع أخفق في إحراز التأيد ، فإنه كان ذا أثر كبير في تفقه الشعب في مبدأ الاتحاد . وكذلك فعل منظر الرجال المنتمين إلى مختلف الأقاليم وهم يقاتلون جنباً إلى جنب .

وكما خففت الحرب الاعتماد القديم على بريطانيا العظمى ، نجدها قللت من الاحترام الذي كان يؤدي لها . فإن جنود المستعمرات ، بالرغم من سوء تجهيزهم وسوء تدريبهم النظامي ، تبينوا أن بوسعهم أن يحاربوا في عدة ميادين ببلاء الجنود البريطانيين النظاميين ، وبوسعهم أن يفوقوهم في القتال في الفياق . ووجدوا كثيراً من الضباط الإنجليز يخطئون ، كما وجد البريطانيون أن كثيرين من ضباط المستعمرات غير أكفاء . . . ولقد رأوا أن برادوك كان بأسلاً ولكنه لم يكن كفئاً ، وكان من الخير أن يأخذ بنصح جورج واشنطن الشاب في مقاتلة الهنود . وكان أهل نيو إنجلاند الذين اعتادوا انتخاب قادتهم على أسس ديمقراطية ، لا يرضون عن النظام البريطاني الأرستقراطي في تعيين القادة ، ولقد كره الأمريكيون من كل المستعمرات النظام الذي كان أى ضابط بريطاني يحتل بمقتضاه مرتبة تعلو على كافة ضباط المستعمرات .

وأخيراً ، فإن النهاية المظفرة للحرب ، والاتساع الهائل للإمبراطورية أثارا مسائل أصبحت موضوع تدمير فعلي بين أهل المستعمرات والحكومات البريطانية . وما كان « الجور » المتعمد بذى وجود ، ولكن إدارة شؤون الإمبراطورية كانت بحاجة إلى إحكام وتنظيم دقيق ، وكان هذا يعنى جحافل من الموظفين الجدد . وكان لزاماً عليها أن توفر الأموال للدفاع ضد الجارات الحاسدة ، وهذا معناه فرض الضرائب . وكان لزاماً تنقيح وتدعيم قوانينها الملاحية أو « قوانين التجارة » .

وكانت السيطرة الإدارية البريطانية على المستعمرات ، حتى ذلك الحين ، متهاونة للغاية . فكانت الهيئة الرئيسية الإمبراطورية الممثلة للحكومة ، تحت سيطرة التاج ، هي مجلس المفوضين للتجارة والمزارع ، الذي اتخذ شكلاً مكتملاً تقريباً في حوالى سنة ١٦٩٦ . وكان الوزراء الرئيسيون من أعضاء الحكومة السابقين ، بيد أن الجزء الأكبر من العمل كان بوجه عام في أيدي هيئة صغيرة من موظفين ذوى خبرة واجتهاد كبيرين . فكانت هذه الهيئة تصون المصالح التجارية للدولة الأم وللمستعمرات ، وتشرف على الشؤون المالية ونظم العدالة للمستعمرات ، وتمنح بعض التوجيه لمشروعات المستعمرات ، وتقترح السياسات الإمبراطورية الجديدة . وكانت لها سلطات تحقيق

خاصة ، كما كانت تضع التعليمات للحكام الملكيين ، وتعين الموظفين من أبناء المستعمرات إذا شغرت مناصب ما ، كما كان لها أن تطلب تقارير من هؤلاء الموظفين . وكان البرلمان يمارس سلطات تشريعية كبيرة على المستعمرات ، وكان في الواقع الهيئة الوحيدة القائمة ، التي تملك معالجة العلاقات التجارية وغيرها للإمبراطورية البريطانية ، الخارجية منها والداخلية ، بدرجة كبيرة . وكانت للتاج سلطات كبيرة هو الآخر . فلم يكن يقتصر على تعيين حكام الأقاليم الملكية الثمانية (إذ أنه لم تكن سنة ١٧٦٠ حتى كانت رود أيلاند وكونكتيكت وهدهما مستعمرتين تتمتعان بحكم ذاتي بموجب تفويض ، وكانت بنسلفانيا وديلاوير وميريلاند هي المستعمرات المملوكة الوحيدة) ، بل كان يملك أن يجب - وكثيراً ما فعل - قوانين أجازتها المجالس التشريعية للمستعمرات . وكانت حالات النقض هذه تصدر عادة من مجلس شورى الملك ، استناداً إلى رأى يقدمه مجلس التجارة والمزارع . كذلك كان لمجلس شورى الملك أن يجتمع بشكل محكمة استئناف في قضايا المستعمرات .

ولقد كانت التشريعات البرلمانية الرئيسية حتى ختام حرب السنوات السبع ، هي قوانين الملاحة المتعددة ، تطبيقاً لمبادئ اقتصادية معينة كان المفترض أن صالح الإمبراطورية البريطانية يركز إليها . وكانت نظرية مذهب التجاريين في ذلك العهد تقول بأن ثروة أية دولة تتناسب مباشرة مع ما تدخر من ممتلكات أو ذهب أو فضة ، وأن مشروعات الأفراد أو الشركات يجب أن تكون تحت سيطرة الدولة ، من أجل تعزيز سلطتها . ولم تكن الإمبراطورية تعتبر اتحاداً ، وإنما وحدة ، أى دولة متماسكة . وكان المفترض في هذه الوحدة أن يكون بوسع المستعمرات أن تساهم في الثروة والسلطان القومي بتوفير العمالة للملاحة الإمبراطورية ، وبإنتاج سلع كان على بريطانيا بدون ذلك أن تبتاعها من بلدان أجنبية . كالسكر ، والتبغ ، والأرز ، ومؤن السفن البحرية ، وغيرها من المواد الأولية . وفي مقابل ذلك ، كانت الدولة الأم تمد المستعمرات بالصناع ، وبهذا يصبح العنصران الرئيسيان في الإمبراطورية متكاملين .

وكان البرلمان - في جزعه لنمو الملاحة التجارية الهولندية - قد أصدر قانوناً للملاحة ، منذ سنة ١٦٥١ ، حتم نقل كافة الصادرات من المستعمرات إلى إنجلترا على سفن يمتلكها إنجليز ، ويتولى تشغيلها إنجليز . ولقد وسعت من نطاق هذا النظام سلسلة من التشريعات التي تلت ذلك القانون . فأتاحت لإنجلترا والمستعمرات احتكار

٧٥ المشكلة الاستعمارية (الامبريالية)

نقل تجارة الإمبراطورية ، ووفرت لها حماية ضد أصحاب السفن الهولنديين وغيرهم من الأجانب ، واستلزمت أن يعاد شحن صادرات المستعمرات إلى القارة الأوربية في الموانئ الإنجليزية ، ونظمت استيراد السلع الأوربية إلى المستعمرات بطريقة تعطى إشاراً للمصنوعات الإنجليزية . ولقد حذت لندن من نطاق المشروعات في المستعمرات ، من بعض النواحي ، ولكنها شجعت في نواح أخرى . ولم تكن هذه القوانين منفذة تنفيذاً كاملاً في البداية ، ولكن قوانين مذهب التجاريين تعرضت للتصحيح في سنة ١٧٦٣ ، عندما قامت بريطانيا بتنقيح وإحكام نظام المستعمرات .

مشكلة المذهب الاتحادي في الإمبراطورية

والواقع أن التصحيح شمل النظام الإمبراطوري بأكمله . وأدت العملية ، إذ اشتملت على إعادة دراسة علاقات المستعمرات بالدولة الأم ، إلى التعجيل بالثورة . ومشكلة تنظيم الإمبراطورية هذه ، التي عرضت إذاك بنسق واضح الحدود لأول مرة ، هي التي تضيف وحدة ومعنى على قدر كبير من تاريخ الجيل التالي ، التاريخ المتداخل والمشوش . كانت المشكلة هي : كيف يتسنى تنظيم وحكم إمبراطورية بحيث تصان مصالح السلطة المركزية والسلطة الذاتية المحلية معاً ، وكانت تلك من أصعب المسائل التي واجهت ساسة الحكم في أى عصر . هل من الممكن ابتكار نظام تستطيع بوساطته الحكومة العامة في ويستمنستر ممارسة السيطرة على كل الأمور الإمبراطورية العامة بطبيعتها - الحرب ، والسلم ، والشؤون الخارجية ، والأراضى الغربية ، والهنود ، والتجارة ، وما إلى ذلك - بينما يباح لمختلف الحكومات المحلية في ماساشوستس ، وفرجينيا ، وكارولينا الجنوبية ، وأى مكان آخر ، أن تسيطر على كل الأمور التي تعنى كل إقليم وحده ؟ هل من الممكن رسم خط بين هذه المصالح العامة والمصالح المحلية ببراءة تدع للحكومة المركزية سلطات كافية ، دون انتهاك لحریات الناس في شؤونهم المحلية ؟

كانت هذه ، في الواقع ، مشكلة المذهب الاتحادي . لقد كانت الإمبراطورية

٧٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

البريطانية في أواسط القرن الثامن عشر إمبراطورية اتحادية (فيدرالية) عملياً وواقعياً ، إن لم يكن وفقاً للقانون أو النظريات . كانت إمبراطورية تتوزع فيها السلطات بين حكومة مركزية وحكومات محلية . وكان البرلمان قد سيطر ، قرناً ونصف قرن ، على كافة المسائل ذات الصالح العام ، بينما مارست المجالس النيابية المحلية ، من البداية ، سيطرة عملية على كافة الأمور ذات الصالح المحلي . وكان هذا خليقاً بأن يتجلى واضحاً ، لو قدر للإمبراطورية أن تتجمد في وضعها ، في سنة ١٧٥٠ .

ولكن الإمبراطورية لم تكن من الناحية القانونية اتحادية ، بل كانت مركزية . كانت للبرلمان السلطة كلها ، قانوناً ونظرياً . وعندما آلى رجال الحكم البريطانيون على أنفسهم ، بعد سنة ١٧٦٣ ، مهمة إعادة تنظيم الإمبراطورية ، اتكأوا على السيادة العليا - القانونية أو النظرية - للبرلمان . وأصروا ، بنص المرسوم البياني في سنة ١٧٦٦ ، على أن المستعمرات « كانت ، ولا تزال ، وينبغي أن تكون حقاً تابعة وخاضعة للتاج الإمبراطوري والبرلمان في بريطانيا العظمى » ، وأن للبرلمان « السلطة والنفوذ الكاملين لسن قوانين ولوائح لها قوة وصلاحيات كافيتان لإلزام المستعمرات وشعب أمريكا . . في كل الحالات ، أياً كانت » .

لقد أقسد رجال الحكم البريطانيون الرجاء ، إذ عرضت لهم الفرصة لإنشاء نظام اتحادى حقيقى . بيد أن المشكلة لم تحل في سنة ١٧٧٦ ، ولا هي انتهت بانفصال المستعمرات عن الدولة الأم ، بل اكتفى بإحالتها إلى الولايات المتحدة . فقد واجه الأمريكيون ، من سنة ١٧٧٥ حتى سنة ١٧٨٧ ، المشكلة ذاتها . . مشكلة التوصل إلى حكومة موحدة للأغراض العامة ، مع الاحتفاظ بالحكم الذاتى للحكومات الولايات بالنسبة للمصالح المحلية دون مساس . وكان أول مجهود لحل المشكلة ، وهو « مواد الاتحاد الكونفيدرالى » فاشلاً ، وكرر الأمريكيون المحاولة مرة أخرى ، مستهدين بالتجربة المبررة ، فأنشأوا نظاماً فيدرالياً باقياً ، بموجب الدستور الفيدرالى في سنة ١٧٨٧ .

وكان من الأهداف الكبرى في هذه الفترة ، هدف يجب ألا نغفل عنه وسط دخان المعارك وفي المسيرة نحو الديمقراطية ، وهو حل مشكلة التنظيم الإمبراطورى وظهور نظام فيدرالى . فهذا النظام ، كما اكتمل في النهاية ، أقيم على تجربة قرن من الزمن ، في الإمبراطورية البريطانية ، والمداولات والمناقشات بعد عام ١٧٦٣ في بريطانيا

٧٧ المشكلة الاستعمارية (الامبريالية)

وأمریکا ، وبلايا الحرب ومحن الاتحاد الكونفيدرالى . فكان التوصل النهائى إلى النظرية الاتحادية الفيدرالية ، فى دستور سنة ١٧٨٧ ، من أعظم الإنجازات البناءة فى ذلك العصر .

الأسباب العامة للتذمر

ليس من السهل تحديد تاريخ بداية الثورة ، غير أنه من المحقق أنها لم تكن فى سنة ١٧٧٥ . ولقد حاول جون آدامز ، بعدها بسنوات ، أن يميز بين الثورة الخالصة والحرب الثورية ، معلناً أن الأولى انتهت فعلاً قبل بداية الثانية . فكتب : « كانت الثورة فى رءوس الناس وفى اتحاد المستعمرات ، فتحقق كلاهما (ثورة العقول ، والاتحاد) قبل ابتداء الاشتباكات العدائية . كانت الثورة والاتحاد فى تكون تدريجى من سنة ١٧٦٠ حتى سنة ١٧٧٦ » . وهذا صحيح ، غير أنه لا يقل عنه صحة أن الثورة — كأمر منفصل عن الحرب — ظلت دون أن تكتمل سنوات قد تصل إلى سنة ١٨٠٠ . وقول آدامز إن الثورة كانت « فى عقول الناس » يضع أمامنا ضرورة البحث عن تمييز آخر . فلم يكن بين أهالى المستعمرات الأمريكية ، فى يوليو سنة ١٧٧٦ ، سوى أقلية موقنة بحكمة الانفصال عن الامبراطورية البريطانية . ولعل نصف الأمريكين ظلوا ، حتى ذلك التاريخ ، يتمنون تفادى حدوث طلاق سياسى . وقد ظل ثلث أهالى المستعمرات تماماً ، طيلة سنوات الحرب ، يعارضون التمرد ، وثلث آخر غير مكترئين ، بشهادة جون آدامز نفسه . لذلك فمن الأدق أن نقول إن الثورة قبل سنة ١٧٧٦ ، كانت فى عقول جزء من الناس ، وأن الصراع الذى جرى من سنة ١٧٧٦ حتى سنة ١٧٨٣ كان صراعاً لفرضها على بقية الناس ، ولحمل الحكومة البريطانية على الاعتراف بها .

وإذا تناولنا الأسباب الاقتصادية ، فعلى أن نفرق تفريقاً جلياً بين مختلف القطاعات والمصالح : فقد كان التاجر من سكان الشمال يعانى من مظالم تختلف عما يقاسيه المزارع فى الجنوب ، وكان المستغل للأرض من القطاعات الغربية يعانى غير ما يعانى هذان .

لقد كانت قوانين الملاحة أو القوانين التجارية أكثر إضراراً بالمستعمرات الشمالية منها

بالجنوبية . ولم تكن هذه المستعمرات الشمالية سلع رئيسية ثمينة تحملها إلى إنجلترا مباشرة لاستبدال سلع مصنوعة بها . فكان عليها ، بوجه عام ، أن تدفع مقابل مستوراداتها من إنجلترا بنقود حاضرة ، وللحصول على النقود كان عليها أن تتجرع جزر الهند الغربية . فكانت تنقل القمح واللحوم وكتل الخشب إلى جزر الهند الغربية ، وتحصل في مقابلها على القطن أو النيلة أو السكر . كذلك كانت تحصل على الدبس^(١) فتصنع به خمر الروم . وكانت تتاجر في أفريقيا للحصول على عبيد تبيعهم في جزر الهند الغربية أو في المستعمرات الجنوبية . وفي سنة ١٧٣٣ ، صدر قانون الدبس ، الذي فرض رسوماً مانعة قصرت تجارة نيوي إنجلاند مع جزر الهند الغربية على الجزر البريطانية وحدها . ولونفذ القانون تنفيذاً صارماً لأصبحت نيوي إنجلاند بخسائر جسيمة . غير أن قانون الدبس تفوذي على أوسع نطاق . فكانت رود أيلاند مثلاً تستورد حوالي ١٤ ٠٠٠ برميل من الدبس سنوياً ، منها ١١ ٥٠٠ ترد من جزر الهند الغربية الفرنسية والإسبانية . إذ أن التهريب لم يكن جريمة ، وكانت السلطات الإنجليزية تغمض عينها ، بل كان البعض يقولون صراحة إن النقود المستخلصة من هذه التجارة غير المشروعة ، كانت تذهب في آخر الأمر إلى التجار والصناع الإنجليز . وقد جمعت أسرة ليفنجستون في نيويورك ، وجون هانكوك في مساشوستس ثروة من السلع المهربة .

وكان قانون السكر في سنة ١٧٦٤ في واقعه بعثاً لقانون الدبس القديم الصادر في سنة ١٧٣٣ ، بحيث يجعله نافذ المفعول . فخفضت الرسوم المانعة القديمة ، التي لم يكن من سبيل لتحصيلها — بواقع ستة بنسات عن الغالون — إلى ثلاثة بنسات ، وأضيف نص للاستيلاء على كل السفن التي تنهرب من القانون . ولعل جعل المعدل بنسين كان أكثر عدالة ، بيد أن جماعة الضغط السياسي المتحمسة لجزر الهند الغربية البريطانية في البرلمان ، دفعته إلى المستوى الأعلى . وكانت هذه ضربة قاسية للمصالح الاقتصادية لنيوي إنجلاند . ولقد احتجت رود أيلاند بأن تجارة جزر الهند الغربية كانت تمثل كافة أسس تجارة هذه المستعمرات مع إنجلترا ، وأن جزر الهند الغربية البريطانية ، ما كانت تملك أن توفر من الـ ١٤ ٠٠٠ برميل من الدبس التي كانت تستوردها ، سوى ٢٥٠٠ على أكثر تقدير . ونصت إحدى مواد القانون على أن القضايا المتعلقة بقانون

(١) Molasse وهو دس السكر أو العسل الأسود ، وهو مادة لزجة تفصل عن السكر الخام عند صنع السكر .

٧٩ المشكلة الاستعمارية (الامبريالية)

السكر من الممكن أن تعرض على محكمة يرأسها أى نائب أميرال فى أمريكا ، مما يعنى أن أى تاجر قد يجد سفينته وملاحيه مقتادين مسافة طويلة حتى هاليفاكس للمحاكمة . وما كان له أن يطالب بتعويضات عن الإضرار إذا ما برأ المحلفون ساحته . وقد قال أحد زعماء المستعمرات — وهو جاريد إنجرسول — إن الإجراء كان أشبه بإشعال النار فى مخزن للغلال من أجل إنضاج بيضة ، فمن المؤكد أن هذا مزعج للرجل الذى يمتلك المخزن .

وكان ثمة باعث آخر للمضايقة ، تمثل فى ضريبة التصدير على السلع الأوروبية التى تشحن إلى المستعمرات من بريطانيا العظمى ، فقد رفعت فى سنة ١٧٦٤ من ٢,٥ فى المائة إلى ٥ فى المائة . وصدرت الأوامر لموظفى الجمارك بأن يكونوا أكثر تشدداً ، وعزز تنفيذ القانون بعدة طرق ، مثل إرساء بوارج حرية ترابط فى المياه الأمريكية لاعتقال المهربين ، وإصدار أوامر قضائية مساعدة لتمكين ضباط التاج من تفتيش أية أماكن يشتبه فيها .

وكان الجنوب فى موقف مختلف تماماً . فلم تكن له تجارة تذكر مع جزر الهند الغربية ، بل كان يرسل سلعه الرئيسية — التبغ والنيلة والأسماك المحفوظة والخشب والجلود — إلى إنجلترا مباشرة ، ويأخذ فى مقابلها سلعاً مصنوعة . بيد أن هذه التجارة مع إنجلترا كانت تقوم على نظام مناسب للدولة الأم وليس مناسباً لسكان المستعمرات . فقد كان فى أيدى البيوت التجارية البريطانية والعمال أو الوكلاء الذين كانت ترسلهم إلى الأقاليم . فكان العمال يشترون التبغ والسلع الأخرى بأسعار منخفضة بدرجة غير منصفة فى أكثر الأحيان ! — وكانوا يبيعون الملابس ، والأثاث ، والخمور ، والمركبات وغيرها من البضائع بأسعار مرتفعة بدرجة غير عادلة فى أكثر الأحيان . وكان أصحاب المزارع ذوو اليسار قد ركنوا إلى عادة طلب ما يودون من لندن ، ودفع الأثمان بصكوك ، تاركين ديونهم ترتفع إلى مبالغ فادحة . وأصبح كثير من الديون وراثية تنتقل من أب إلى ابن ، وفى هذا كتب جيفرسون بعد الثورة : « كان أصحاب المزارع هؤلاء نوعاً من الممتلكات التابعة لبيوت تجارية معينة فى لندن » .

والواقع أن جيفرسون قدر مجموع ما كان على فيرجينيا من ديون للتجار البريطانيين ، فى أوائل الثورة ، بما يزيد على مليونى جنيه ، حاسباً أن هذا قدر جميع النقود المتداولة فى فيرجينيا عشرين مرة أو ثلاثين . ومن الطبيعى أن أصحاب المزارع كانوا

٨٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

يكرهون دائنيهم الإنجليز ، كما كان مزارعو الغرب يكرهون ، في مرحلة لاحقة ، الدائنين الذين رهنوا لديهم أراضيهم من أبناء الشرق . وكانوا يدركون تماماً أن أسهل طريقة للتخلص من العبء الفادح هو التمرد على ربة الإنجليز جميعاً ، واللجوء إلى تأجيل أو إلغاء دفع الديون بسبب الحرب . على أنه كانت للدائنين الإنجليز شكاة هم الآخرين ، إذ أنهم كانوا قد جازفوا بأموالهم إكراماً لأصحاب المزارع ، وما كان مليوناً جنيه بمبلغ يستهان بخسارته .

ولقد أصدرت بعض المجالس التشريعية في الجنوب ، خلال ربع القرن الذي تلا سنة ١٧٥٠ ، قوانين للإفلاس ولتجميد الديون متساهلة في صف المدينين . فلما نُميت هذه إلى انجلترا أخذ مجلس شورى الملك ينقضها باستمرار تقريباً . ونجم عن هذا شعور ساخط بأن الأغنياء في انجلترا كانوا يسحقون كرامة الفقراء . كذلك حاول البرلمان أن يوقف لجوء المستعمرات إلى إصدار نقود ورقية . إذ كانت معظم الأقاليم قد أصدرت قدراً كبيراً من الورق النقدي بعد عام ١٧٣٠ ، وأضفت عليه بعض الأقاليم قيمة قانونية لسداد الالتزامات ، ولكنها صادفت معارضة مطردة الازدياد من لندن . وأخيراً ، حظر البرلمان نهائياً ، في سنة ١٧٦٤ ، على المستعمرات جعل النقود الورقية ذات صلاحية قانونية لسداد الديون ، فأثار بذلك ضغينة جديدة ، وكبيرة ، لدى جماعات المدينين في كافة أرجاء أمريكا البريطانية .

وثمة مصلحة اقتصادية كبيرة أخرى ، تتعلق باستغلال الأرض والتوطين في الغرب . فقد كانت الثروة تجمع في البطاح الغربية بطريقتين رئيسيتين : بالاتجار مع الهنود للحصول على الفراء ، وتنظيم شركات للأراضي تحصل على مساحات كبيرة من القفار ، وتقسيمها ، وبيعها . وكان تاجر الفراء والساعي للاستحواذ على الأرض يطمعان في تلك الأعوام في أن يظفروا بحرية التصرف ، كما يطمع المنقب عن البترول وقاطع الأخشاب في الغرب ، في أيامنا الراهنة . وإلى جانب هذين الفريقين نجد ، بعد سنة ١٧٦٠ ، فريقاً آخر هم المحاربون من أبناء المستعمرات في حرب السنوات السبع ، الذين منحوا أراضي في الغرب مكافأة لهم . وكانت فيرجينيا بالذات قد كافأت جنودها على هذا النحو ، بينما وعد الحاكم دينويدي الجنود الذين يبلغون من البسالة أن يطردوا الفرنسيين من ممتلكاتهم الواسعة في وادي أوهايو بهائتي ألف دونم .

ولقد كان الكثيرون من عامة الشعب في بنسلفانيا وفيرجينيا وإقليمى كارولينا من

٨١ المشكلة الاستعمارية (الامبريالية)

المتعطين إلى الأرض . ومع نهاية الحرب بدا واضحاً أنه لن يلبث أن يكون ثمة إقبال كبير على الغرب . فأخذت شركات الأرض تكون واحدة بعد أخرى ، وكان أعظم رجال القارة – وهم بنجامين فرانكلين ، وجورج واشنطن ، وسير وليم جونسون – شديدي الاهتمام ، فكانت ثمة ضجة صاحبة من المطالبات وصفقات الشراء ، وعمليات مسح الأراضي .

غير أن الحكومة البريطانية كانت تضع بعزم سياسة جديدة لتشديد السيطرة وفرض الأمن والنظام في الغرب ، بينما كان هذا السيل من البشر يتخاطفون أراضي الغرب . وفي سبيل إقرار السلام مع الهنود ، ومنع أبناء المستعمرات من الإيغال في الغرب إلى ما يتجاوز نطاق السيطرة الإنجليزية ، وإنهاء فوضى تداخل ادعاءات ملكية الأراضي ، أعلنت في سنة ١٧٦٣ أن الاستيطان بأكمله يجب أن يتوقف عند قمة جبال أبلاش ، وأن كافة الأراضي بعد « خط البيان » هذا محجوزة إلى أجل كأملك للتاج ، ولا ينبغي أن تباع أي من أراضي الهنود ، في أي مكان ، إلا للتاج . وكان الرأي أن شيئاً من التأخير لا يضير ، وإن من الممكن فتح الأراضي لأبناء المستعمرات بعد ذلك الأجل شيئاً فشيئاً . وما لبث مجلس التجارة والمزارع أن ساند مشروعاً لإنشاء مستعمرة غربية جديدة تدعى فانداليا . غير أن البيان أساء إلى تجار الفراء ، وشركات الأراضي ، والملوك الذين اكتسبوا الأرض على سبيل المكافأة ، وأولئك الذين كانوا في نهم إلى أراضي الغرب بوجه عام ، إذ بدا أنه أغلق بعنف الباب الذي كان الأمريكيون قد قاتلوا الفرنسيين ليفتحوه قسراً .

وكانت الشكاوى المتعلقة بالكنيسة في المستعمرات تتركز في العلاقات بالكنيسة الإنجليكانية ، إذ كانت كنيسة تساندها الدولة في كافة المستعمرات جنوب ديلاوير ، وتعوها جزئياً في نيويورك كذلك . وكانت ثمة كنائس ذات سلطات في ثلاث مستعمرات في الواقع ، ومع أن هذه السلطات كانت أشد مما تمارسه الكنيسة الإنجليكانية ، فإن هذه هي التي كانت تثير العداء .

ولقد قام هذا العداء على أساسين رئيسيين : أن كثيرين من أبناء المستعمرات كانوا يعارضون بعنف دفع ضرائب للكنيسة ، وأنهم كانوا يخشون قيام سلطة أسقفية بروتستانتية ذات ميول سياسية . وكان لكل راعي كنيسة إنجليكاني بيت ، وأرض موقوفة على الكنيسة ، ومرتب ثابت يدفع من الضرائب ، ورسوم يتقاضاها . ومن

المحقق أن أتباع الكنيسة البروتستانتية في كافة المستعمرات كانوا أقلية . ولقد كانت كل العائلات الكبيرة في الأراضي المنخفضة من فيرجينيا – ومنهم آل واشنطن ، وآل لي ، وآل راندولف ، وآل كارتر ، وآل ميسون ، وآل كاري – من الأسقفيين البروتستانت . بيد أن المنشقين – الكويكر ، والمعمدانيين ، واللوثريين ، والمشيخيين – كانوا أكثر عدداً في غرب ريتشموند . ولم يكن في كارولينا الشمالية سوى حفنة من البروتستانت الأسقفيين ، وإن كانت السلطات قد حاولت أن تجعل الشعب يعول تسعة من القساوسة الأسقفيين . أما في كارولينا الجنوبية فكانت الكنيسة أقوى مكانة ، ولكن المنشقين كانوا أغلبية كبيرة هناك هم الآخرون ، إذ كانت لهم حوالى ثمانين أبرشية . وما من منشق متدين كان يستسيغ دفع إعانة لرجل دين أسقفى ، استساغته دفعها الواحد من عقيدته . وكان ثمة سبب آخر للنزاع يتمثل في مسألة الدفاع عن الامبراطورية . كان من المحقق حدوث بعض القتال مع الهنود ، بينما كان الفرنسيون يتحرقون شوقاً للانتقام ، ولم يكن من سبيل للاطمئنان إلى الإسبانيين فيما وراء نهر المسيسيبي . ولم تكن الحكومة البريطانية تعتقد أن بوسع المستعمرات أن تدافع عن نفسها . فكانت تشكو من أنها مبطئة ومزعجة في حشد الجنود في الحرب الأخيرة ، وأنها أخفقت في العمل بانسجام وتناسق . وكانت الهيئة المركزية الوحيدة هي الحكومة الامبراطورية في لندن ، برئاسة جورج جرنفيل ، ومن ثم لم يلبث أن تقرر الاحتفاظ بعشرة آلاف جندي في أمريكا الشمالية ، ودفع ثلث نفقات بقائها من حصيلة ضرائب المستعمرات . وكان معنى هذا تحصيل حوالى ٣٦٠ ٠٠٠ جنيه استرليني في المستعمرات . وبعد أن أمهل جرنفيل المستعمرات عاماً ، وأكد لها أنه سيتخذ خطة أفضل إذا هي قدمت المبلغ ، قدم مشروع قانون لفرض ضريبة تمغة (رسوم طوابع) على الصحف والمستندات القانونية وغيرها . وأجاز البرلمان القانون في سنة ١٧٦٥ بمعارضة لا تذكر ، وأقر معه إجراء يلزم المستعمرات بإمداد الجنود بالوقود ، والضوء ، ومعدات النوم ، وأواني الطهو ، ومساعدتهم في الحصول على مأوى . ولقد بدا الأمر بسيطاً في نظر انجلترا ، بيد أنه بالنسبة لأهالى المستعمرات كان مثالاً واضحاً لفرض الضرائب دون وجود ممثلين للشعب .

أخيراً ، كانت أمريكا تربة خصبة لتعاليم ومذاهب ذات طابع جمهورى أوشبه جمهورى . إذ ظل السكان قرناً ونصف قرن يعيشون في جو ديمقراطى أو « محقق

المشكلة الاستعمارية (الامبريالية) ٨٣

للمساواة » . فكانت الفوارق الديمقراطية قليلة ، وكانت الفرص الاقتصادية مفتوحة للجميع على قدم المساواة . ولم يؤد وجود طبقة أرستقراطية إلا إلى تنشيط نمو المبادئ الديمقراطية . وكانت ثمة طبقة من سكان الساحل ، أو صفوة متضامنة ، قليلة العدد ، تستحوذ على معظم الثروة ، وتقتصر على بعض الأقاليم ، مثل فيرجينيا وكارولينا الجنوبية ، وتستأثر بالنفوذ السياسى ، وقد واجهت الديمقراطية الناشئة فى داخل البلاد صراعاً طويلاً ضدها ، فكان صغار المزارعين فى جوف البلاد ، والمهاجرون الألمان والاسكتلنديون – الأيرلنديون ، والعمال والميكانيكيون من أهل المدن ، يعززون أنفسهم باستمرار إزاء التجار وأصحاب المزارع القدامى . وقد فعلوا ذلك طيلة الجيل السابق على الثورة بهمة أذهلت من هم أرقى منهم ، وساهمت هذه الروح ذاتها فى تحمسهم الثورى ضد الدولة الأم .

وعندما نحصى القادة فى الثورة على إنجلترا ، نجد أنهم ينقسمون إلى فريقين رئيسيين : الأول : مجموعة من المتعلمين ، والكتاب ، والمفكرين ، من أمثال صمويل آدمز ، وجون آدمز ، وجون جاي ، وجيمس أوتيس ، وألكسندر هاملتون ، وجون مورين سكوت ، ووليم ليفنجستون ، وبنجامين فرانكلين ، وجون ديكنسون ، وتشارلز كارول من كارولتون ، وتوماس جيفرسون ، وجورج ميسون ، وويلي جونز ، وجون رتليدج . وكانت تؤازرهم مجموعة من المتطرفين قليلي التعليم أو عديميه ، انبثقت من الميكانيكيين وصغار العمال الزراعيين ، من أمثال ألكسندر ماكدوجال ، وإيزاك سيرز ، وجون لام فى نيويورك ، وأمثال دانييل روبردو ، وجورج بريان فى بنسلفانيا ، وأمثال باتريك هنرى فى فيرجينيا ، وتوماس بيرسن وتيموثى بلديريث فى كارولينا الشمالية ، وكريستوفر جودسدن وتوماس سومتر فى كارولينا الجنوبية . أما الفريق الثانى فكان من المندفعين ، ذوى الطباع المتأججة ، الذين يميلون إلى الأخذ بالآراء المتطرفة فى الحكم ، فهم يريدون ديمقراطية خالصة أو ما يقرب من ذلك . وكانوا يستمدون إلهامهم من مفكرين أمثال جيفرسون وسام آدمز ، بيد أنهم بثوا فى الحركة الثورية ، عندما بدأ عنفوانها ، كثيراً من نشاطها العنيف القاسى . على أن الفريق الأول كان أهم من الثانى بكثير فى إيقاد شعلتها . فكان المتعلمون يستغلون الصوت والقلم بإخلاص صادق ، ويطلقون أسراباً من المنشورات ، ويملاون الصحف بالمقالات ، وينشرون آراءهم السياسية عن طريق الاجتماعات العامة .

ولقد رجع كتاب المستعمرات إلى فريقين قوى النفوذ من المفكرين البريطانيين : الفريق الذى كان قد كتب ليبرر التعاليم الداعية لدولة بيوريتانية ، والفريق الذى برر ثورة الأحرار (الهويج) فى سنة ١٦٨٨ . أى أنهم استمدوا حججهم من سيدنى ، وهارينجتون ، وميلتون — وفوق هؤلاء جميعاً — جون لوك . فإن ثانى كتب لوك ، وهو « رسالتان فى الحكم » يحتوى على بذور « إعلان الاستقلال الأمريكى » . فقد كان لوك يرى أن الوظيفة العليا للدولة هى حماية الحياة ، والحرية ، والثروة ، وهى الحماية التى لكل إنسان الحق فيها . وقال إن تقلد السلطة السياسية إنما يكون أمانة من أجل مصلحة الشعب وحده . وعندما تنتهك الحقوق الطبيعية للجنس البشرى ، فإن للشعب الحق فى — ومن واجبه — إلغاء أو تغيير الحكومة . وهذا المبدأ مكتوب فى مقدمة « إعلان الاستقلال » . ولقد أكد لوك أن « العلاج الحق للقوة بدون سلطة هو معارضتها بالقوة » . كذلك أرسى حجر أساس كبيراً آخر للثورة ، عندما أوضح فى « رسالة فى التسامح الدينى » رأى بأن الكنيسة والدولة تشغلان مجالين منفصلين تمام الانفصال ، ويجب أن يظلا منفصلين . وأبدى أن الكنيسة ، فى أسلم شخصية لها ، منظمة اختيارية ، يعولها أعضاؤها بمحض إرادتهم ، لا الحكومة بقوة فرض الضرائب .

وقد كان لوك والمفكرون الذين وقفوا معه موضع إعجاب عميق من كل الأمريكيين المتعلمين ، المهتمين بالسياسة . والواقع أن الأمريكيين ورثوا فلسفتهم السياسية فى عين الوقت الذى تحول فيه البريطانيون عنها . فإن الممارسة الدستورية فى بريطانيا ، بعد سنة ١٦٨٨ ، ابتكرت نظاماً نيابياً مشوهاً ، وغير ديمقراطى . إذ برزت قلة حاكمة (أوليجاركية) ، تقوم على نظام دوائر انتخابية غير سليم ، وعلى رفض منح المدن الصناعية الجديدة حق أن يكون لها نواب ممثلون ، وعلى حرمان مدروس ومنظم لأجزاء كبيرة من السكان من حق الانتخاب . وكان الحرمان من حق الانتخاب ، والدوائر غير السليمة أو ما يعادها موجودة فى أمريكا ، ولكن إلى غير هذا المدى . فالواقع أن صراعاً دائماً استمر فى أمريكا طيلة القرن الثامن عشر لتوسيع نطاق المتمتعين بحق الانتخاب ، وللعمل على أن تحظى المقاطعات الجديدة والمناطق الغربية بتمثيل نيابى عادل ، على نسق المستوطنات الأقدم عهداً . فكان لأمريكا نظام نيابى يزداد تمثيلاً للشعب باطراد . أما إنجلترا فكان نظامها أقل تمثيلاً باطراد . وكان الشعبان يؤمنان بالحقوق الطبيعية ، إذ أن « وثيقة بيان الحقوق » كانت من التراث البريطانى العظيم ، بيد أن كثيرين من

المشكلة الاستعمارية (الامبريالية) ٨٥

البريطانيين كانوا يميلون إلى أن يقبلوا قيام سلطة برلمانية مطلقة تقريباً ، في حين أن معظم الأمريكيين أسرعوا في رفضها ورفض أية سلطة مطلقة أخرى . وعندما بدأت المتاعب مع الدولة الأم ، في سنة ١٧٦٥ ، وجد الأمريكيون أنهم أوتوا فلسفة سياسية مصوغة تماماً وفقاً لحاجاتهم .

سوء تفاهم

نادراً ما أساء غريبان فهم أحدهما الآخر ، كما فعل أهالي المستعمرات الأمريكية والتاج البريطاني في السنوات العشر السابقة على الثورة . فما كانت أى من الخطوات البريطانية الأولى مستلزمة من رغبة في التعسف بأمريكا . إذ كان الحرص على حل مشكلة الهنود الحمر ، وإقامة حاميات في المستعمرات الأمريكية لحمايتها ، وتدعيم المرافق الجمركية ، تبدو أموراً عادلة ومعتدلة في نظر الوزراء في لندن ، ولكنها بدت في نظر الأمريكيين أشبه بوسائل محكمة للظلم .

ولقد أعقبت حرب السنوات السبع أوقات عصيبة . فإذا الرجال المتعطلون عن العمل والمحتاجون إلى المال ييغون البحث عن مواطن جديدة وراء الجبال — ولكن « خط البيان » كان يمنع ذلك . وكانت التجارة كاسدة ، والنقد الحاضرة نادرة جداً ، ومع ذلك انتهز التاج هذه اللحظة بالذات ليستنزف ما في البلاد من ذهب وفضة بضرائب جمركية جديدة ، تفرض بصرامة . وفي الوقت ذاته ، كان يفرض على أهالي المستعمرات بقانون التمتع ضريبة بدون رضاهم . وكانت الأموال المحصلة بهذه الطريقة تستخدم للاحتفاظ بجيش مرابط ، لم يكن معظم أهالي المستعمرات يرون حاجة حقيقية تدعو إليه . ثم إن هذه الحامية المبعوضة كانت موكلة بدورها بأن تنفذ اللوائح الجمركية الباهظة وقوانين الضرائب الجائرة . ولقد كان يبدو لضباط التاج ، في سنة ١٧٦١ ، أن طلب « أوامر قضائية مساعدة » من المحاكم أمر سليم — فهي أوامر تفتيش لمعالجة التهريب . ولكن هذه الأوامر القضائية كانت ، في نظر أهالي المستعمرات ، تنطبق على كل امرئ ، وتمنح الضباط الذين يحملونها سلطة مطلقة ، وتسمح بمداهمة وتفتيش بيت كل امرئ أو حانوته ، فهي لا تطاق . وكانت الحكومة البريطانية قد أقرت قوانين

لتقييد أو تحريم الصناعات في المستعمرات . وقد ظن التاج أن هذا أمر عادل ، إذ كان يعتقد أن الإمبراطورية تصبح أكثر رخاء إذا انصرفت المستعمرات إلى إنتاج المواد الأولية ، وعكفت بريطانيا على إنتاج السلع المصنوعة . غير أن كثيرين من أهل المستعمرات كرهوا هذا التدخل .

ثم إن ثمة خلافاً نظرياً وراء الخلافات على هذه الأمور العملية ، أضفى على النزاع كله عمقاً ، وأحدث فجوة لا سبيل لسدها .

ذلك أن معظم المسئولين البريطانيين كانوا يعتقدون بأن البرلمان هيئة إمبراطورية ، لها من السلطان على المستعمرات عين ما لها في الوطن . فبوسعه أن يقر قوانين لمساوشوستس كما يقر قوانين لبركشاير . وكانت للمستعمرات حكوماتها الخاصة حقاً ، ولكن المستعمرات كانت مع ذلك مجرد شركات ، فهي بهذا الوضع تخضع لكافة القوانين الانجليزية ، وللبرلمان أن يحد من حكوماتها أو يوسعها أو يحلها متى شاء . وقال القادة الأمريكيون إن الأمر ليس كذلك ، إذ لا وجود لبرلمان « إمبراطوري » . وذهبوا إلى أن علاقاتهم القانونية الوحيدة كانت مع التاج . فالتاج هو الذي وافق على إنشاء مستعمرات وراء البحر ، والتاج هو الذي أتاح لها حكومات . وكان الملك ملكاً لمساوشوستس كما هو ملك لانجلترا ، ولكن البرلمان الانجليزي لم يؤت حقاً لسن قوانين لمساوشوستس إلا بقدر ما للمجلس التشريعي لمساوشوستس من حق لسن قوانين لانجلترا . فإذا كان الملك راغباً في أموال من مستعمرة ما ، فقد كان بوسعه الحصول عليها بأن يطلب منها منحة ، ولكن البرلمان لم يؤت سلطة لأخذها بإقرار قانون للتمغة أو أى قانون آخر من قوانين الدخل الحكومي . وموجز القول أنه لا سبيل لفرض ضريبة على أحد الرعايا البريطانيين ، سواء كان في انجلترا أو في أمريكا ، إلا عن طريق ممثليه النيابيين .

على أنه من الجدير أن نتبين أن الشعور في كل من بريطانيا وأمريكا كان منقسماً انقساماً حاداً إزاء المسائل الرئيسية ، وهي أن النزاع المتطور لم يكن صراعاً بين المستعمرات والدولة الأم بقدر ما كان نزاعاً مدنياً في داخل المستعمرات وفي داخل بريطانيا العظمى كذلك . وكان زعماء الأحرار المبرزون في البرلمان : تشاتهام ، وبيرك ، وباريه ، وفوكس ، يميلون ميلاً قوياً نحو جانب الوطنيين الأمريكيين . وفي المستعمرات ، كانت كتلة قوية من المحافظين تساند الحكومة البريطانية . كذلك من الجدير أن ندرك أن بعضاً من المتطرفين من الجانبين كان يسعدهم أن يستغلوا الخلاف

المشكلة الاستعمارية (الامبريالية) ٨٧

لتعزيز وجهات نظرهم الخاصة . فكان اللورد بيوت يغتبط بخشونة الحملة على أهل المستعمرات للنيل من روح الديمقراطية التي كان جون ويلكس وآخرون في إنجلترا ينادون بها . وكان صمويل آدمز في مساشوستس ، وباتريك هنرى في فيرجينيا ميالين هما الآخران إلى استغلال النزاع لدفع آرائهما المتطرفة (الراديكالية) في الشؤون السياسية للمستعمرات قدماً ، ولإعادة تشكيل المجتمع على قاعدة أكثر مراعاة للإنسان العادى .

تنظيم ثورة

لم يكن الانقضاض على الحكومة البريطانية حركة واسعة ، تلقائية . بل إنها كانت مرسومة بعناية ، بوساطة رجال أذكاء ، وقد نفذت بجد وحكمة بوساطة بعض من أنشط الأفراد في القارة الأمريكية الشمالية . وما كانت لتنجح قط لو كانت قد تركت بغير تنظيم . فنظراً لأن الوطنيين من ناحية كانوا ذوى تنظيم طيب ، ولأن المحافظين أو المواليين لبريطانيا لم يكونوا منظمين ، كسب الفريق الأول المعركة .

كانت الخطوة الأولى في الحركة ، هى ظهور شغب متقطع ، وغير مترابط ، لمقاومة الإجراءات البريطانية . وقد أحدث قانون التمغة الصادر في سنة ١٧٦٥ هذا الرد في عدة مستعمرات . واحتجت المجالس التشريعية ، وأصدرت فيرجينيا بوجه خاص مقررات قوية . بيد أن أشد التصرفات مفعولاً ، صدر عن عامة الجماهير الذين أتلفوا طوابع التمغة في مساشوستس ونيويورك ، وفيرجينيا ، وكارولينا الشمالية وأقاليم أخرى ، واضطروا محصلى الضريبة إلى الاستقالة أو الفرار ، بل إنهم هددوا حياة الحكام الملكيين . ولقد وجد هذا التمرد تأييداً شعبياً كبيراً في البداية ، ولكن المواطنين المراعين للنظام والموسرين لم يلبثوا أن أبدوا عدم رضائهم عنه . كذلك ظهرت إلى الوجود منظمات تدعى « أبناء الحرية » لتحقيق معارضة شعبية للطغيان البرلمانى .

وكانت الخطوة الثانية تنظيم مقاطعة اقتصادية يتولاها التجار ، ويؤيدها في بعض الأحيان المجالس النيابية للأقاليم . وقد دعا إلى ذلك « القانون المؤقت » الذى صدر في سنة ١٧٦٧ ، وفرض مكوس استيراد على الشاى ، والورق ، والزجاج ، والطلاء . فانتهج التجار والمواطنون ذوو المكانة في عديد من المجتمعات اتفاقيات لعدم الاستيراد

أوعدم الاستهلاك ، لمقاطعة المواد التي فرضت عليها ضرائب بريطانية . وقد اتخذ هذا الإجراء في بوسطن ، في مارس سنة ١٧٦٨ ، فسرعان ما انتشر في المستعمرات حتى عمها جميعاً خلال عامين . ولقد هبطت الواردات من إنجلترا في بعض المستعمرات إلى حوالى النصف ، بينما نفذت الاتفاقات في بعض آخر تنفيذاً سيئاً . وانتهت هذه الحركة في سنة ١٧٧٠ ، عندما ألغى البرلمان كل المكوس المؤقتة إلا على الشاي .

وكانت الخطوة الثالثة تشكيل شبكة من اللجان المحلية واللجان المشتركة بين المستعمرات للتراسل . وكان الزعيم الرئيسى لهذا المشروع هو سام آدمز من مساشوستس ، وكان رجل دعاية وتنظيم بالفطرة . كما كان أقوى الشخصيات نفوذاً في الجمعية العامة للأحرار ، التي اجتمعت في فانويل هول للسيطرة على بوسطن ، بينما كان يقوم بدور قيادى في الهيئة التشريعية لمساشوستس . وعلم المواطنون في صيف سنة ١٧٧٢ أن الحكومة الملكية كانت تعزم منح الحاكم وقضاة المحكمة العليا رواتب دائمة ، فتخلصهم بذلك من سيطرة الشعب . فدعيت المدينة إلى اجتماع ، واتخذت فيه خطوة « اشتملت على الثورة الكاملة » . وأقيمت لجنة للتراسل كى تتصل بالمدن الأخرى في الإقليم كله . وسرعان ما كان في كل منطقة لجنة مماثلة ، وأصبح الإقليم يطن كخلية نحل هائجة . ونُظم القوم من خليج مساشوستس إلى المناطق المتطرفة في حشد جيد التنظيم . وشهد بذلك كاتب من المحافظين ، إذ قال فيما بعد : « كان هذا هو مصدر العصيان . لقد شهدت البذرة الصغيرة عند غرسها . كانت في ضالة حبة الخردل ، وقد راقبت النبتة حتى أصبحت شجرة عظيمة » . وأقامت مستعمرات أخرى لجناً محلية مشابهة ، وعين ممثلو المدن في فيرجينيا ، في سنة ١٧٧٣ ، أول شبكة للجان المشتركة بين المستعمرات ، فسرعان ما شملت القارة بأسرها .

وكانت الخطوة الرابعة نحو الثورة ، هي إقامة هيئات تشريعية ثورية ، أو مؤتمرات إقليمية ، كما كانت تسمى بوجه عام . فما كانت الهيئات التشريعية النظامية القديمة لتسعف المتطرفين ، لسبيين : أنها كانت تتألف من رجال محافظين إلى حد كبير ، وكان أصحاب الثروات يتشبثون بالنظام القائم ، كما أنها كانت بطيئة التصرف . . أما السبب الثانى ، فإنها كانت إلى حد ما تحت سيطرة الحكام الملكيين الذين كانوا يملكون أن يعطلوها أو يفضوها متى شاءوا . ولقد ظهرت أول مؤتمرات إقليمية في سنة ١٧٧٤ ، نتيجة نبأ إقرار قانون ميناء بوسطن . وكانت وسيلة إنشائها غاية في البساطة .

المشكلة الاستعمارية (الامبريالية) ٨٩

ففى فيرجينيا مثلاً ، وصلت أنباء قانون ميناء بوسطن فى مايو سنة ١٧٧٤ ، فأثارت هزة فى الإقليم . وكانت الهيئة التشريعية مجتمعة إذ ذاك ، فإذا جيفرسون وياتريك هنرى ، وريتشارد هنرى لى ، وأربعة أعضاء أو خمسة آخرين يعقدون اجتماعاً فى قاعة المجلس . وقرروا الدعوة إلى يوم صيام وصلاة . وكانت هذه مناسبة جلييلة غير عادية ، إذ لم يحدث مثلها منذ حرب السنوات السبع . ولقد راجعوا السوابق الصادرة عن البرلمان فى عهد كرومويل ، وأغروا ممثلى المدن بتحديد يوم أول يونيو سنة ١٧٧٤ لهذه المناسبة . وبادر الحاكم دانمور إلى إلغاء عضوية الممثلين بوصفهم عصاة . فساروا فى موكب ضم تسعة وثمانين عضواً قوى الشكيمة ، فى الطريق حتى حانة رالى ، وفى قاعة أبوللو ، التى كانت مسرحاً لكثير من الحفلات الراقصة والمآدب ، انتظموا برقاسة رئيس الهيئة التشريعية بيتون راندولف . واقترح الأعضاء الراديكاليون عقد اتفاقية جديدة لعدم الاستيراد . وأراد ريتشارد هنرى لى اتخاذ خطوات إضافية ، بيد أن البعض أمسكوا عن الموافقة ، لأنه « كان ثمة فارق بين وضعهم إذ ذاك ، ووضعهم حين كانوا مجلساً للممثلى المدن » . ولكن إحجامهم لم يطل . ففى ٢٩ مايو ، وصل رسل من بوسطن حاملين رسائل من عواصم مستعمرات أخرى . وقد أحضروا نبأ بأن وقف التجارة بأسرها مع إنجلترا كان مشروعاً مقترحاً . فقرر بيتون راندولف بمشورة خمسة وعشرين من نواب المدن ، دعوة أعضاء المجلس السابق إلى اجتماع فى أول أغسطس . وهذه الدعوة ولد أول مؤتمر إقليمي ، أو مجلس تشريعى ثورى فى المستعمرات .



الفصل ٤

الثورة والاتحاد الكونغيدريالى

اللجوء إلى السلاح

أخذ الهياج والشغب يزدادان في المستعمرات شيئاً فشيئاً . فإن وجود الجنود البريطانيين في مختلف المدن ، أتاح للزعماء المتطرفين فرصة لإثارة خواطر الأهالى . ولقد حدثت في نيويورك ، في سنة ١٧٧٠ ، « معركة جولدن هيل » التي لم ترق فيها دماء . وهى كما يصفها كادوالادر كولدن : أذكى الاستياء بين أهل المدينة والجنود بحذق ، وأخيراً « بدأ بعض سكان المدينة يتسلحون ، فهرع الجنود من ثكناتهم لمساعدة زملائهم من الجنود » ، ولم يحل دون الاشتباك سوى توسط ضباط الجيش والقضاة . أما في بوسطن فحدث تصادم أشد خطراً . فإن تغيير حرس الحامية يوم الأحد ، أغضب بعض أهل المدينة المتمسكين بالتعاليم البيوريتانية ، بينما شاءت بعض العناصر الأكثر ميلاً للخشونة ، أن تسخر من الجنود ، وأن تستدرجهم . وقد أخذ هذا الاستدراج يزداد إلحاحاً وقحة ، إذ صدرت الأوامر إلى الجنود بأن يلزموا أعظم كبح للنفس .

وأخيراً ، هاجم أهل المدينة جنديين وضربوهما في ٥ مارس . ودقت النواقيس لدعوة

الناس للخروج إلى الطرقات . وتعرض حارس معين عند دار الجمرك للإساءة . وُجُم بالشلج ويقذائف أخرى . وعندما أقبل الكابتن بريستون وشرذمة صغيرة من الجنود لحمايته ، ازدادت السخرية والرجم . وأخذ الجمهور يصيح : « أطلقوا النار إن تجاسرتم . . أطلقوا النار ، عليكم اللعنة ! » وأحسن الجنود التصرف إلى أن ضرب شخص ما ، آخر الأمر ، جندياً بهراوة فألقاه أرضاً . وإذ نهض الجندي ، أطلق بندقيته . وساد هرج عام ، وأطلق ثلاثة من الجنود الآخرين النار دون أوامر . فقتل ثلاثة رجال على الفور ، وأصيب اثنان بجراح مميتة . وإذ انبعثت دقات الطبول لجمع الجنود عامة ، ظهر الحاكم وأعاد النظام . وقال أحد الرجلين اللذين أصيبا بجراح قاتلة ، وهو على فراش الموت إنه « رأى هياج الغوغاء في أيرلندا ، ولكنه لم يعرف قط جنوداً تحملت كل هذا التحرش دون أن تطلق النار على المشاغبين وتحسم الأمر » ولقد اتهم الكابتن بريستون وجنوده بالقتل ، ووجد جون آدمز الشاب الجرأة على أن يقوم بمهمة المحامى للدفاع عنهم ، وظفر بتبرئة ساحتهم . وقد كتب يقول : « كان خليقاً بالحكم على أولئك الجنود بالإعدام أن يكون وصمة خزى لهذه البلاد ، كما كانت أحكام إعدام الكويكر أو السحرة في الماضي » . ولقد بدت مذبحة بوسطن في نظر الكثيرين كحدث ينم عن ذروة الطغيان البريطاني ، فأصبحت ذكراه موضوع احتفال مهيب في كل عام ، كما أنه أثار الأهالي كما لم يثرهم أى شيء حتى ذلك الحين .

وأخفقت الوزارة البريطانية ، برئاسة لورد نورث ، في استخلاص الدرس المناسب من الارتياح والعداء الناشبين . ففي سنة ١٧٧٢ ، وقع حادث آخر ذو أهمية ، إذ أن السفينة الحربية الصغيرة ، ذات المدافع الثمانية ، « جاسى » جنحت إلى الشاطئ ، بالقرب من بروفيديانس ، في شهر يونيو ، أثناء انهاكها في تنفيذ القوانين ضد التهريب ، في مياه رود آيلاند . وإذا بجمع من المدنيين يهاجمونها ، ويتغلبون على رجالها ، ثم يحرقون السفينة المكروهة . وكانت كافة المكوس المفروضة بمقتضى قوانين تاونسيند قد ألغيت ما عدا تلك المفروضة على الشاي ، التي بقيت إلزاماً للمبدأ . وكان تعاظم الشاي قد انقطع في المستعمرات في الواقع ، وقعت شركة الهند الشرقية في صعاب مالية . ولقد سمحت لها الوزارة في سنة ١٧٧٣ ، على سبيل المساعدة لها ، بأن ترسل الشاي إلى أمريكا بشروط جعلته رخيصاً ، بيد أن لورد نورث ظل مصراً على استبقاء

٩٣ الثورة والاتحاد الكونفيدرالى

المكوس بواقع ثلاثة بنسات عن الرطل ، فى المستعمرات ، قائلاً إن الملك كان يعتبر ذلك حكماً للسلطان . وقد أدى هذا إلى الثورة الأمريكية مباشرة . فلقد أثار السخط الحاد لدى الأمريكيين ما بدا لهم حيلة خادعة . إذ أرسلت الشركة عدداً من السفن . وقرر القوم فى كل ميناء المقاومة بإصرار . ففى تشارلستون وضع الشاى فى أقبية مغلقة ، ومن فيلادلفيا ونيويورك أعيد من حيث جاء على السفن التى أحضرته . ولقد اشتد أوار الانفعال فى بوسطن بوجه خاص ، ففى ليل ١٦ ديسمبر سنة ١٧٧٣ ، تنكرت شردمة من حوالى خمسين رجلاً فى زى الهنود ، يقودهم سام آدمز نفسه ، وصعدوا إلى السفن ، وفتحوا ٣٤٣ صندوقاً من الشاى عنوة ، وأفرغوا ما فيها فى مياه المرفأ . ولم يحاول أحد من المسئولين فى المدينة أن يمنع إتلاف البضاعة . وقال جون آدمز متشياً : « هذه أعظم الحركات جميعاً أهمية . ففى هذا المجهود الأخير للوطنيين كرامة وجلال وسمو أعجب بها أعظم الإعجاب . إن إتلاف الشاى هذا عمل بالغ الجرأة ، وبالغ البسالة ، وبالغ الحزم ، والإقدام والصلابة ، ولا بد أن تكون له عواقب بالغة الأهمية والبقاء لدرجة أننى لا أملك إلا أن أعتبره عهداً جديداً فى التاريخ » . وبهذا العمل المتسم بالعنف ، والذى قوبل بالإعجاب من مين إلى جورجيا ، طرحت بوسطن القفاز عند قدمى التاج . وأسرعت الحكومة البريطانية إلى التقاطه .

كان جورج الثالث وأغلبية البرلمان مصريين على معاقبة بوسطن العاصية . ودعا بيرك وتشاتهام إلى مسلك يفسح السبيل للتراضى ، بيد أن الوزارة أجازت عن طريق البرلمان مجموعة من خمسة قوانين شديدة ، أحدث أحدها تغييراً جذرياً فى وثيقة التفويض الخاصة بمساشوستس ، والتى كانت تحظى بإعزاز كبير ، بالقضاء على بعض من أشد معاملته تحراً . وجعل أحدها من القائد العسكرى البريطانى فى أمريكا ، الجنرال جيج ، حاكماً لمساشوستس ، مع تعيين أربع كتائب لمساندته ، مع سلطة إنزال الجنود فى بيوت الناس . ونص أحد القوانين على أن الضباط الذين توجه إليهم تهمة القتل المتعمد يرسلون مع الشهود إلى انجلترا للمحاكمة . ونص قانون آخر على إغلاق ميناء بوسطن دون التجارة كافة ، إلى أن يدفع تعويض عن الشاى الذى جرى إتلافه ، وأن تقدم الأدلة على أن المكوس ستدفع بولاء وطاعة . وأخيراً ، مد قانون كوينيك حدود كندا فشملت الإقليم الواقع شمال أوهايو وغرب جبال أليجنى ، بأكمله . ولم يكن

هذا الإجراء الأخير تأديبياً في طابعه ، بل إنه ظل طويلاً موضع تفكير ، وقد أقيم على دراسة تخصصية إلى حد كبير ، واستُهدف به توفير تنظيم أفضل لتجارة الفراء في الشمال الغربي ، ووضع السكان الفرنسيين الكاثوليك ، في إقليم متشيجان واللينوى تحت سلطة مناسبة . غير أنه صدر في وقت غير ملائم ، فكان من الطبيعي أن يرى سكان المستعمرات الساحلية أنه أغلق الشمال الغربي دونهم .

هذه القوانين القاسية من البرلمان أثارت الغضب والتوتر . وأجمعت لجان التراسل المشتركة بين المستعمرات على العمل ، فعقدت الاجتماعات ، وكتبت المقالات في الصحف ، ونشرت الدعاية بالمنشورات . وعندما أصدر أعضاء الهيئة التشريعية لفيرجينيا ، في اجتماعهم بحانة رالى ، دعوات إلى مؤتمر سنوى لمناقشة « المصلحة الموحدة لأمريكا » ، جاء الرد فوراً ومتحمساً . وانتخب مجلس فيرجينيا الإقليمى مندوبين ، فحذت الأقاليم الأخرى حذوه . وفي ٥ سبتمبر سنة ١٧٧٤ ، اجتمع أول مؤتمر للقارة في فيلادلفيا ، ممثلاً لجميع المستعمرات عدا جورجيا . وكان بين المندوبين الواحد والخمسين : واشنطن ، وبنجامين فرانكلين ، وجون آدمز ، وجون ديكنسون ، وغيرهم من الأكفاء . وعكفوا - في تجاهل للبرلمان - على توجيه خطب إلى الملك وإلى الشعب في بريطانيا وأمريكا . ووضعوا بياناً قوياً بحقوق المستعمرات ، أكدوا فيه أن للأقاليم « السلطة الكاملة » لوضع التشريعات المتعلقة بشؤونها ، على أن يكون للملك حق النقض ، ولكنهم وافقوا على القوانين البرلمانية الخاصة بالتجارة الخارجية والمتعلقة بمصلحة حقيقية للإمبراطورية .

على أن المؤتمر القارى تبنى ، فوق كل شيء ، إجراءات كشفت مباشرة عن قطيعة مع الوزارة البريطانية . وكان أحدهما إعداد اتفاقية تنشر على أوسع نطاق ، وتلزم موقعيها بوقف كافة الواردات مع السلع الإنجليزية خلال ثلاثة أشهر ، وجميع الصادرات إلى الموانئ البريطانية ، وبينها جزر الهند الغربية ، في بحر عام . وكانت في هذا تضحية فادحة . فلم يعد في وسع أصحاب المزارع في فيرجينيا إرسال تبغهم إلى المستهلكين الإنجليز . ولم يعد لربابنة السفن في مساشوستس الاشتغال بتجارة جزر الهند الغربية المربحة . وصدقت إحدى عشرة مستعمرة (إذ ظلت نيويورك وجورجيا بمعزل) على الترابط ، بينما اتفقت اللجان المحلية الثلاث عشرة كلها على تنفيذها بالقوة . . فأخذت المواثيق ، ونشرت قوائم بالخارجين على الاتفاق ، ولجأت أحياناً إلى سوطهم علانية ،

٩٥ الثورة والاتحاد الكونفيدرالى

أوتلطيخهم بالقار والريش . أما الخطوة الثانية فكانت وضع مسودة قرار — هو فى الواقع إنذار — لم يقتصر فيه البرلمان على الموافقة على معارضته مساشوستس للقوانين البرلمانية الأخيرة ، بل إنه أعلن أن « على أمريكا بأسرها أن تؤيد أهل المستعمرة فى مقاومتهم ، إذا استخدمت القوة ضدهم » .

بهذا لم يعد ثمة مفر من حدوث تصادم : فإما إبطال القوانين البرلمانية ، وإما تستخدم القوة فى تنفيذها . وما كان بوسع أحد الجانبين أن يتراجع . فأعلن البرلمان أن مساشوستس متمردة ، وعرض على التاج موارد الإمبراطورية لقمع التمرد . وساد الإقبال على شراء الأسلحة جميع أرجاء البلاد ، وأخذت السرايا العسكرية فى التدريب . واعتقد القائد البريطانى جيج فى بوسطن أن ربيع سنة ١٧٧٥ سيجلب هجوماً على قوته . فقرر الاستيلاء على بعض مخازن المعدات الحربية غير المشروعة فى كونكورد ، فى مساء ١٨ أبريل ، وأرسل لذلك فيلقاً من ثمانمائة رجل . وكان الوطنيون متربصين ، وصدرت إشارة من مصباح فى برج الكنيسة الشمالية إلى بول ريفير خلف نهر تشارلز ، فانطلق على جواده ليستفز أهل الريف . وتجمع المزارعون المتأهبون للمعركة فى الفجر ، عند ليكسينجتون كومون ببنادقهم . وجرى اشتباك وجيز سقط فيه ثمانية من الأمريكين صرعى . ودارت عجلة الثورة . ولم يكن سام آدمز بعيداً ، فلما سمع قعقعة البنادق ، صاح : « يالهدا الصباح من صباح مجيد ! » .

الحرب الثورية

وإن هى إلا بضعة أيام حتى كان حشد من الجنود الوطنيين ، غير منظم من الناحية العسكرية ونصف مسلح ، يحاصرون جيج وجيشه فى بوسطن ، وخلال أسابيع قلائل ، كانت آخر الحكومات الملكية فى كافة أرجاء البلاد قد قلبت . واجتمع المؤتمر القارى الثانى فى فيلادلفيا ، يوم ١٠ مايو ، كهيئة ثورية صريحة (وأرسل نداء أخير إلى ملك بريطانيا للتوفيق) ، ونظم الجنود المحيطون ببوسطن فى « الجيش القارى الأمريكى » وعين جورج واشنطن ليتولى القيادة . واستولت قوة بقيادة إيثان آلين قائد فتيان الجبل الأخضر على حصن تيكونديروجا ، المشرف على السبيل الوحيد إلى كندا ، بانتصار

باهر . وإذ ازداد إحكام الخطوط الأمريكية حول بوسطن ، تبين جيج أن من الممكن تهديد مركزه من مرتفعات دورشيستر في الجنوب ، ومن التلال القائمة وراء تشارلستاون في الشمال . وعندما زحف الوطنيون في ١٦ - ١٧ يونيو لاحتلال الموقع الأخير ، كان زحفهم تعجلاً لأول المعارك الكبرى في الحرب ، وهي بنكر هيل .

كانت لمعركة بنكر هيل - كما كانت لمعركة بول رن Bull Run التي وقعت بعدها بسبع وثمانين سنة - أهمية تتجاوز كل تناسب مع نتائجها المباشرة . كان الأمريكيون حوالى ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل ، قد اتخذوا مراكزهم أثناء الليل ، على تل بريدز هيل Breed's Hill - حيث أقاموا تحصينات - وتل بنكر هيل . وجمع جيج مجلس حرب ، وقرر أن يهاجمهم في المقدمة ، مع أنه كان بوسعه أن يعزلهم عن تحصيناتهم في المؤخرة . ولعل مبعث هذا الإقدام الجريء هو تعجل البريطانيين لقتال مواجهة والتحام . وأنزل المشاة تحت موقع الأمريكيين ، فشكلوا صفوفهم ، ثم أرسلوا للهجوم في الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم قاتظ الحر . وزحفوا ببطء ، وبنظام بديع ، وهم في كامل زهم العسكري ، وقد حمل كل منهم على ظهره حقيبته ، ومؤونة لثلاثة أيام ، وذخيرة ، وبندقية - أى ما يحتمل أن يبلغ وزنه ١٢٥ رطلاً . فلما صاروا على أربعين ياردة من الاستحكامات ، صوب الأمريكيون بنادقهم نحو خط الوسط ، وأطلقوا النار فأحدثوا نتيجة رهيبة ، وأجفل البريطانيون ، ثم أعادوا تنظيم صفوفهم ، وعادوا للتقدم ثانية ، ليلقوا ناراً قاتلة أخرى حين صاروا على عشرين ياردة ، وتراجعوا مرة أخرى ، ثم نظموا صفوفهم ثانية ، وفي هذه المرة ، اجتاحوا الاستحكامات ، بينما كان الوطنيون يطلقون آخر دفعتين من ذخيرتهم . كان عملاً رائعاً ، ولكنه كان غير ضرورى بدرجة إجرامية .

فقد كان بوسع قوة مساوية لهذه ، أن تحتل تشارلستاون نيك Charlestown Neck تحت حماية الأسطول ، فتحاصر الأمريكيين حتى يدفعهم الجوع إلى الاستسلام في أمد وجيز . وكانت خسائر البريطانيين ١٠٥٤ رجلاً ، وخسائر الأمريكيين ٤٤١ رجلاً فقط .

ولقد أثبتت المعركة للأمريكيين أن بوسعهم ، ولوبدون تنظيم سليم أو تجهيز كاف ، أن يصدوا خير جنود نظاميين في أوروبا ، فاكسبوا ثقة هائلة في أنفسهم . ولقد بلغ من تأثرهاو بالمذبحة - وكان القائد المباشر للجانب البريطانى - أنه لم ينسها قط . فلما خلف جيج ، الذى استُدعى إلى انجلترا مجللاً بالعار ، أبدى جنباً في دفع الأمريكيين إلى الالتحام ، مما ساعد على أن تخسر انجلترا الحرب .

عيوب الأمريكيين

امتد الصراع أكثر من ست سنوات ، دار القتال خلالها في كل مستعمرة ، ووقعت اثنتا عشرة معركة كبيرة ذات أهمية . وكان من العسير على واشنطن أن يؤلف جيشاً حقيقياً من خليط القوات الناقصة التدريب ، التي كانت تحت إمرته . . وكان الأشد من هذا عسراً ، أن يستبقى الجيش كاملاً . فإن الشعور بالولاء للملك أخذ يستشري ، وكان عدم الاكتراث أكثر استثناء . ولقد أظهر الناس في نيوانجلاند ، وفيرجينيا ، وأجزاء من كارولينا الشمالية والجنوبية سليقة قتالية عارمة . ولكن نيويورك أظهرت من المحابة للبريطانيين بقدر ما أظهرت من الوطنية ، وفي بنسلفانيا أبى أتباع مذهب الكويكر أن يقاتلوا ، في حين أن معظم الألمان كرهوا أن يغادروا مزارعهم . أما في كارولينا الشمالية فإن كثيرين من مستوطني المرتفعات كانوا يكرهون سكان الأراضي الدنيا ، فاحتشدوا ليقاتلوا في صف الملك . كما أن قسماً كبيراً من أهل جورجيا اجتنبوا الصراع تحت تهديد آل كريك ، ومقابل منحة مالية خاصة من الملك . ولقد حمل السلاح في جانب الملك من الأمريكيين خمسة وعشرون ألفاً ، على أقل تقدير . ولو أن الموالين للملك دربوا تدريباً شاقاً ، ونظموا بعناية ، ووجدوا قيادة قديرة ، لاختلفت نتيجة الحرب .

أما القوات الوطنية فكانت سيئة التنظيم في بادئ الأمر ، حتى وصل في عام ١٧٧٨ البارون فون ستوبن — وكان من أركان حرب العاهل الألماني فريدريك الأكبر — متطوعاً لتحسين الموقف ، فسرعان ما ارتقى إلى مركز مفتش عام . ولقد وجد أن قوة الفرق كانت تتراوح بين ثلاث وثلاث وعشرين سرية لكل منها ، وكانت نوعية الضباط ضعيفة ، إذ كان بوسع أى رجل مفوه ذى شخصية مستحبة ، في بعض المستعمرات ، أن يغرى الرجال بالانضواء تحت قيادته ، أو قد يسعى — باستخدام الخمر والمال — إلى أن ينتخب لمرتبة أرقى . وقد أدت الديمقراطية في نيوانجلاند وغيرها إلى انعدام الطاعة . فقد كان المزارع أو القروي يعاف تلقى الأوامر من قائده حين يعلم أنه جار له . ولهذا كتب واشنطن أن اليانكى لم يكونوا يقيمون لضباطهم وزناً . كذلك لم يكن كثير من الجنود يصمدون عن شعور قوى بالمسؤولية ، بل كانوا يشعرون بأنهم انضموا إلى الجيش لمدد من الممكن إنهاؤها عند ما يروق لهم . فكانوا يتسربون من المعسكر إذا ما جاء طقس الشتاء البارد ، أو حين كانوا يسمعون بأن المحصولات أوشكت على

النضج وما من أيد لجمعها ، أو عندما يشتد حنينهم إلى ديارهم وتخور عزائمهم . ولقد سعى واشنطن لدى الكونجرس لتقرير التجنيد الطويل الأجل ، فحوله الكونجرس ذلك في سبتمبر سنة ١٧٧٦ ، بيد أن هذا لم يعالج سوء معالجة تامة . وأخيراً ، أهاب واشنطن بالكونجرس أن يخول المحاكم العسكرية سلطة إيقاع عقوبة أقصاها خمسمائة جلدة بالسوط على المخالفين ، وذلك لتعزيز صلابة النظام .

ولقد أوشك الجيش أن يتلاشى مراراً . فبعد أن استولى الوطنيون على بوسطن ، في مارس سنة ١٧٧٦ ، ونقل واشنطن جنوده إلى نيويورك ، وجد أنه لم يؤت سوى ثمانية آلاف رجل صالح للخدمة ، وكان مجموع القوات البريطانية خمسة وثلاثين ألفاً ، وقد هبط هاو في لونج آيلاند بعشرين ألف من الأكفاء على الأقل . ومن الطبيعي أنه لم يلق عناء في تحطيم القوة الصغيرة من الوطنيين التي وجدها عند فلاتبوش ، ولم يبق أمامه سوى خمسة آلاف وخمسمائة جندي ، ولو أنه زحف في الوقت المناسب ، لاستطاع أن يوقع بهم الارتباك وأن يأسرهم جميعاً ، بيد أنه ترك الفرصة تفلت إلى أن هرب واشنطن تحت جنح الضباب إلى جزيرة مانهاتان . ثم وقعت هزيمتا الوطنيين في مانهاتان وهوايت بليتز ، وفيما كان واشنطن يتراجع عبر نيو جيرسي ، ذاب جيشه حتى أوشك أن يتلاشى ، فلقد هجر رجال المليشيا من نيويورك ونيوإنجلاند الجيش زرافات . ولقد أضاع مؤونته ، وأمتعته ، ومدفعه . وقبل أن يبلغ نهر ديلاوير ، كان رجال المليشيا من نيو جيرسي وميريلاند قد هجروه بدورهم . فلما أقام لجيشه معسكراً لفترة الشتاء ، لم يكن لديه سوى حوالى ثلاثة آلاف وثلاثمائة رجل ، نصفهم ممن لا يكاد يعول على ثباتهم . ولم ينقذ البلاد سوى جرأته وبراعته في الضربات البارة التي أوقعها بالبريطانيين في ترينتون وبرينستون ، في ذلك الشتاء . ولقد تمكن من أن يبدأ الحملة في سنة ١٧٧٧ — « عام المشائق الثلاث » كما قال المحافظون — بأحد عشر ألف رجل ، وهو العدد الذي كان تحت إمرته عندما تقدم في فيلادلفيا في ٢٤ أغسطس سنة ١٧٧٧ ، ومعه ما وصفه أحد كتاب ذلك الحين بأنها « ثلاث فرق منهوكة القوى ، مفككة النظام ، عارية » . وزحف هاو على فيلادلفيا بعشرين ألف جندي مدرب ، واضطر واشنطن إذ هُزم في جيرمانتاون إلى التقهقر ليقضى شتاءً قاسياً في فالى فورج .

كذلك كان عدم قدرة الوطنيين على تمويل الحرب تمويلًا كافياً ، يشل حراكهم إلى درجة رهيبية . فما كان لهم من سبيل إلى طرح سندات لقرض ما . وكان اللجوء إلى

٩٩ الثورة والاتحاد الكونفيدرالى

الضرائب أمراً شبه مستبعد ، فما كان لأية هيئة قارية سلطة فرض الضرائب ، وكان على الكونجرس أن يطلب إلى الولايات الثلاث عشرة إقرار فرض الضرائب ، ولما كانت الولايات تغار بعضها من بعض ، وتتسم بالشح ، وتخضع لحكم سيىء ، فإنها لم تجد بغير معونة مبتسرة ، وعلى كره منها . فإذا كافة ما حُصل للأغراض القومية ، بفضل تشريعات الولايات الضريبية ، حتى سنة ١٧٨٤ ، يقل عن ستة ملايين من الدولارات ، بقيمة العملة ، أو ما لا يصل إلى دولارين عن الفرد الواحد . ولم تحقق القروض سوى مبالغ غير كافية ، فكانت القروض الداخلية زهاء اثنى عشر مليوناً من الدولارات ، والقروض من الخارج (وأغلبها من فرنسا ، مع مساهمات من هولندا وإسبانيا) دون الثمانية ملايين . وكان لزاماً على الولايات المتحدة أن تجعل اعتمادها الرئيسى فى خوض الثورة على النقود الورقية .

ولقد رزحت البلاد تحت سيل من الأوراق النقدية ، فسرعان ما تداعت قيمتها ، حتى إن العائد على خزانة الدولة بقيمة العملة الحقيقية كان أقل من ٣٨ مليوناً من الدولارات ، بالرغم من أن قيمتها الاسمية كانت تصل إلى حوالى ٢٤٠ مليوناً . ولم يحن ربيع سنة ١٧٨١ حتى كانت العملة الورقية القارية قريبة من الصفر ، حتى إن جدران حوانيت الحلالة كانت تكسى بها ، وحتى إن الملاحين العابثين العائدين من رحلاتهم ، كانوا يأخذون حزم الأوراق النقدية التى تمثل مستحقاتهم ، فيوجهونها إلى صنع ثياب لهم منها ، ويختالون فى الطرقات فى هذه الأسمال المهلهلة . ومن الطبيعى أن الأوراق المالية المتداعية القيمة كانت مصدر ظلم ، وتذمر ، وسوء تنظيم بالغ . وقد كتب فى هذا مراقب معاصر ، هو بيلاتيا ويستر يقول : « لقد شوهت الأوراق النقدية عدالة قوانيننا ، وأحالتها إلى أدوات للجور ، وأفسدت عدالة هيئتنا الإدارية العامة ، وقضت على ثروات الآلاف الذين كانوا يثقون فيها ، وأضررت بالتجارة ، والمزارع ، والصناعات فى بلادنا ، ثم ذهبت إلى درجة القضاء على أخلاق شعبنا » .

ومن ناحية أخرى ، عانت القضية الوطنية أشد العناء من حدة عدم ثقة المستعمرات بالكونجرس — كل على حدة — ومن غيرة كل منها من الأخرى . فقد كان من المستحيل إقامة حكومة قارية . كانت المستعمرات متمردة على أية سيطرة مركزية ، وكانت تؤمن بالحكم المحلى فى كل منطقة . وفضلاً عن هذا ، فإن الشعور الأخرى بينها تضاعف بعد انحسار التوهج الأول للتحمس الوطنى . فكانت فيرجينيا تكره اليانكى

١٠٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

بوصفهم زمرة من السوق ، الطامعين في السلطان ، والساعين إلى إسفاف في الديمقراطية . . بل إن واشنطن المتحفظ ، كتب عن سوء سلوكهم بلهجة قاسية . وكان اليانكي يرون أن الجنوبيين يميلون إلى الكبرياء والأرستقراطية ، وكانت كل مستعمرة من مستعمراتهم تعيش بمعزل عن سواها ، حتى إن جون آدمز كان يجهل أسماء الزعماء الرئيسيين لنيويورك وبنسلفانيا تقريباً ، عندما ذهب إلى الكونجرس القارى . وكان على الكونجرس أن يجثو متوسلاً في طلب تدعيم الجيش والخزانة ، وكثيراً ما ذهبت توسلاته أدراج الرياح .

كذلك لم يكن للأمريكيين قوة بحرية تذكر ، وإن لم يلبث جون بول جونز أن قام ببعض مغامرات رائعة في البحر ، مغيراً في جرأة على المياه البريطانية . ولقد كان البريطانيون يحتفظون بسيطرة عامة على المحيط حتى سنة ١٧٧٨ ، ثم بسيطرة جزئية بعد ذلك . كان بوسعهم أن يهاجموا أى مكان تقريباً ، حيثما طاب لهم ، على ساحل طولاه ألف وخمسمائة ميل . وكانت لديهم أموال وإمدادات وفيرة ، وقد جلبوا حوالى ثلاثين ألف جندي مرتزق من الألمان ، كما أن ضباطهم كانوا على مران فائق بالمسائل العسكرية . لهذا لم يكن من المستغرب أنهم توقعوا الانتصار في البداية وكلهم ثقة به .

الميزات الأمريكية

على أن الأمريكيين أوتوا ميزات عظيمة بقدر ما أوتوا من معرقات ، وقد قلبت هذه الميزات ميزان الصراع في النهاية ، ومنها مسرح القتال . فقد كانوا يقاتلون في بلادهم غير المزدحمة بالسكان — إذ كان قسط كبير منها بعد قفراً — على بعد ثلاثة آلاف ميل من بريطانيا . وكان من الممكن أن ينهزم جيش في مكان ما ، فيهب جيش آخر على بعد مئات الأميال . وما كان بوسع البريطانيين أن يخضعوا مثل هذه الأراضي الشاسعة ، إذ كان نقل الرجال والإمدادات عبر المحيط الواسع باهظ التكاليف وعسيراً ، في حين أن الإدارة السليمة للسياسة الاستراتيجية للقوة البريطانية بأسرها — من لندن — كان أمراً مستحيلاً . وهناك ميزة أخرى هي روح القتال الفائقة التي أبداها الجنود الأمريكيون في بعض اللحظات الحاسمة . فإن هؤلاء الجنود المزارعين ، الوافدين لفورهم من دروب

الثورة والاتحاد الكونفيدرالى ١٠١

الصبيد وخطوط المحررات ، قاتلوا فى بعض الأحيان قتال الموهوبين ، بالرغم من أن فرديتهم وأخطاءهم كانت مبعثاً للضييق فى ثلاثة أرباع الوقت . ولقد أثبت جنود الشمال الذين احتشدوا للقضاء على جيش بيرجوين الغازى فى سنة ١٧٧٧ ، وجنود الجنوب الذين تلقوا هزيمة إثر أخرى فى ١٧٨٠ - ١٧٨١ وهم يعودون فى كل مرة إلى الهجوم حتى حان النصر فى النهاية - أثبت هؤلاء وأولئك أن فى وسع الوطنيين الأحرار من عامة الناس أن يرتفعوا فوق الهزيمة . ثم كانت هناك ميزة أخرى بعد سنة ١٧٧٨ ، هى التحالف مع فرنسا التى كانت تتحرق شوقاً إلى الانتقام لنفسها من بريطانيا . . وكان تحالفاً جلب المال ، والرجال ، والتشجيع ، والسيطرة على الساحل فى اللحظة الحاسمة الأخيرة . وما كان سوء التدبير الذى قاد به بيرجوين وهاو وكلينتون الجنود البريطانيين بأقل النعم التى حظى بها الوطنيون . وكان وولف قد مات ، ولم يبرز بين البريطانيين ويلنجتون آخر .

وكانت الميزة التى توجت ميزات الأمريكيين ، هى القيادة . . فلقد أوتى الأمريكيون جورج واشنطن . فمع أن الكونجرس اختاره دون دراية تذكر بقدراته ، فإنه أثبت فى كل الأمور أنه خير مرشد ومعين للقضية الوطنية . وهو قد يتعرض للنقد على نطاق عسكري محدود ، فما سبق له أن تولى جيشاً يزيد على فرقة واحدة من الفرق الحديثة ، فأخطأ فى كثير من الخطوات ، وهُزم مرة تلو مرة . ومع ذلك فإنه أصبح ، إذ تولى القيادة فى سن الثالثة والأربعين ، روح الحرب . كان هذا المزارع الفيرجينى ، وضابط الحدود برتبة كولونيل هو الروح الهادية للحرب ، بسبب وطنيته التى لا تتذبذب ، وحكمته الهادئة ، وشجاعته المعنوية الرصينة ، ولأنه فى أحلك الساعات لم يفقد مهابته ، ولا اتزانة ، ولا قدرته على البت ، ولأن نزاهته ، وترفعه ، وسمو تفكيره لم تتخل عنه لحظة ، ولا اهتزت صلابته وجلده . كان يعرف كيف ينتظر الساعة المناسبة ليوجه ضربته ، حتى إن يقطته المتسمة بالصبر والناة أكسبته لقب فاببوس .

وكان من الممكن أن يفقد أعصابه فيثور بضراوة إذا ما استثير فوق الطاقة ، كما تبين الخائن تشارلزلى فى معركة مونماوث ، بيد أنه كان يتسم بوجه عام ، بسيطرة فولاذية على نفسه ، بلغ من كمالها أنه عندما حملت إليه ، فى سنوات لاحقة ، أنباء هزيمة واين الشنيعة على أيدي الهنود ، وكان فى مأدبة عشاء فى قصر الرئاسة ، لم يكشف عن أية اختلاجة أمام ضيوفه . ونظراً لأنه لم يكن يطمئن إلى شىء ، فقد قاد جنوده بشدة ، وقسا

١٠٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

في عقاب المخالفين للنظام في الجيش ، بيد أن عدالته وحبه لرجاله أكسبها الولاء التام منهم . ولقد ذرف الكثيرون الدمع ، عندما بدأ خطابه في الجنود الذين لم يتقاضوا رواتبهم فأعلنوا التذمر في نيويورك ، بهذه الكلمات : « أيها السادة ، اسمحوا لي بأن أستعمل نظارتى ، لأننى لم أزد شيئاً فحسب ، بل أوشكت أن أصبح أعمى في خدمة أبناء وطنى » . كان من السمات المميزة له أنه لم يقبل شيئاً مقابل خدماته الثورية سوى نفقاته ، وكان يسجل هذه النفقات بحرص دقيق . وعندما انتهت الحرب ، لم يفكر إلا في العودة إلى مزرعته الحبيبة ، التى كان يرغب أن يجعلها أحسن مزرعة في أمريكا . ولقد كتب بهذا الصدد : « لقد ظلت الزراعة ملهاتى المفضلة طيلة حياتى » . غير أنه مكث استجابة لنداء الواجب . ومع أنه كان أقل استهواء للنفوس من بعض أبطال الجمهورية الآخرين ، فإنه ظل مبرزاً عن سواه في كبر شخصيته ، وما اتسمت به أهدافه من ترفع ثابت ، وحكمة واتساع تفكير . ولقد كان جولدوين سميث على حق حين ذكر أن أبداع ثلاثة أمور في الثورة هى : « شخصية واشنطن ، وسلوك جيشه في فالى فورج ، وولاء الطبقة العليا من أنصار الملك » .

الاستقلال

فيما يزيد على العام بقليل ، تحول ما بدأ على أنه حرب « لحقوق إنجليز » ولمجرد علاج الشكايات ، إلى حرب من أجل الاستقلال . وكان هذا طبيعياً تماماً . ففي بداية الأمر ، أخذ الكونجرس يعلن بحرارة ولاءه للعرش . ولكن الماراة الناشئة عن إراقة الدماء والدمار ، والاستياء الذى أثاره مسلك جورج الثالث الذى لا ينثنى ، مع شعور بالحق الطبيعى للأمريكيين فى أن يقرروا مصيرهم بأنفسهم . . كل هذه لم تلبث أن أفضحت إلى انفصال تام . فقد رفع جيش واشنطن ، فى أوائل عام ١٧٧٦ ، علماً أمريكياً مستقلاً . وفى الوقت ذاته ، كان ثمة تأثير عميق يتأتى عن كتيب « الإدراك العام » ، الذى كتبه شاب متطرف نابه ، هو توماس بين ، الذى وفد من إنجلترا فى الفترة الأخيرة . فلقد أوضح أن الاستقلال هو العلاج الوحيد ، وأنه كلما تأخر ازدادت مشقة الفوز به ، وأنه وحده الكفيل بأن يجعل اتحاد أمريكا ممكناً . ومع مقدم شهر يونيو ، نفذ صبر كثير من

الثورة والاتحاد الكونفيدرالى ١٠٣

أعضاء الكونجرس . وقدم مندوب من فيرجينيا ، هوريتشارد هنرى لى اقتراحاً بقرار بالاستقلال ، انضم إليه فى تبنيه جون آدمز . ثم وضعت لجنة من خمسة أعضاء — تولى توماس جيفرسون سكرتيريتها — إعلاناً رسمياً بالاستقلال ، أجازه الكونجرس فى ٢ يوليو ، وأعلن فى ٤ يوليو سنة ١٧٧٦ .

ولم يقنع الذين وضعوا وتبنوا هذه الوثيقة التى أقامت عهداً جديداً ، بمجرد إعلان الاستقلال . فقد نادوا « باحترام لائق لآراء البشر » ، كما حرصوا على أن يبينوا بتفصيل الأسباب التى « دفعتهم إلى الانفصال » ، والفلسفة التى كانت تبرره . ثم إن هذه الأسباب — وقد بلغت حوالى خمسة وعشرين أو ثلاثين سبباً — ذكرت بحيث تبرر فى حد ذاتها خطوة بهذه الشدة . وقد أوردت بترتيب مقصود لإثبات « عزم على إردائهم تحت حكم مطلق » من جانب جورج الثالث . ومن الأمور ذات المغزى ، أن الأمريكيين ، منذ البداية الباكرا لتاريخهم القومى ، بنوا موقفهم على مبادئ وأعلنوا فلسفة .
فما هى مبادئ الحكم هذه التى صيغت هنا بتعبير خالد ؟ « إننا نعتبر هذه الحقائق ذاتية الموضوع » ، كما كتب جيفرسون :

إن كل البشر قد خلقوا سواسية ، وإن خالقهم أولاهم حقوقاً معينة لا مرء فيها ، وإن بين هذه الحقوق : الحياة والحرية والسعى إلى السعادة ، وإنه من أجل صون هذه الحقوق تنشأ الحكومات بين البشر ، مستمدة سلطاتها العادلة من قبول المحكومين ، وإنه إذا ما أصبح أى شكل من أشكال الحكم هداماً لهذه الغايات ، فإن من حق الشعب أن يغيره أو يزيله ، وأن ينشئ حكومة جديدة ، يقيم أسسها على المبادئ ، وينظم سلطاتها بالشكل الذى يبدو له أصلح لتحقيق سلامته وسعادته .

والذى نجده هنا ، هو فى الواقع فلسفة الديمقراطية — فلسفة لم يتح لها من قبل بيان بمثل هذا الإيجاز أو هذه البلاغة . فلقد قال الأمريكيون إن هناك أموراً معينة لا يمكن أن يرتاب فيها إنسان عاقل ، فهى حقائق تنطوى على وضوح ذاتى . فهناك حقيقة أن كل البشر خلقوا متساوين . إن كل البشر متساوون فى نظر الله ، متساوون أمام القانون . ولقد كانت فى أمريكا قطعاً — وكما كتب جيفرسون — كثير من حالات عدم المساواة : عدم المساواة بين الأغنياء والفقراء ، وبين الرجال والنساء ، وبين السود

١٠٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

والبيض . ولكن إخفاق أى مجتمع فى أن يعيش وفقاً لمثل أعلى ، لا يلغى صلاحية المثل الأعلى ، ولقد كان مبدأ المساواة ، منذ إعلانه ، أشبه بخميرة فى الفكر الأمريكى . وهناك حقيقة أخرى أعلنت فى البيان ، هى أن البشر « أولوا » حقوقاً لا مرء فيها ، وبين هذه الحقوق : الحياة ، والحرية ، والسعى إلى السعادة . فهذه حقوق لم تمنحها للبشر حكومة خيرة ، ولا تقوم وفقاً لهُوى تلك الحكومة . بل إنها حقوق يولد بها كافة البشر ، ولا يملكون أن يفقدوها . ولقد عمل هذا المبدأ كذلك كخميرة فى عقول الأمريكيين وغيرهم ، مغيراً موقفهم نحو السلطة ، إذ أن الحكومات إنها نظمت – كما أوضح البيان – لصون هذه الحقوق بالذات ، فى المقام الأول . فالذى أوتيناه هنا هو النظرية « المحكمة الموجزة » للحكم – النظرية القائلة بأن البشر كانوا يعيشون يوماً فى وضع طبيعى ، وأنهم فى هذا الوضع كانوا فى خطر باستمرار ، وأنهم ليحموا أنفسهم قد تجمعوا وأقاموا حكومات ، ومنحوا هذه الحكومات من السلطة ما يكفى لحماية حيواتهم ، وحريرتهم ، وممتلكاتهم . وقصارى القول ، أن البشر صنعوا الحكومة لفعل الخير لا الشر ، صنعوها لتحميمهم وليس لتضرهم . وفى اللحظة التى تخفق فيها الحكومة فى الأغراض التى من أجلها أقيمت ، لا تعود جديرة بتأييد البشر أو ولائهم .

وإذا كان بوسع البشر إقامة الحكومات ، فهم يملكون هدمها ، إذ أن لهم الحق فى أن يغيروا أو يزيلوا الحكومة السيئة ، وأن ينشئوا أخرى جديدة . وسرعان ما أثبتوا أن هذه لم تكن مجرد نظرية ، فقد شرعوا فى ترجمة هذه الفكرة إلى واقع ، حتى والثورة قائمة ، وفى أثناء وطأة الحرب وصخبها . فلقد اجتمعوا فى جمعيات عامة وألغوا فعلاً حكوماتهم القديمة ، وأقاموا حكومات جديدة . ولقد كتبوا فى دساتيرهم ضمانات راسخة للحياة ، والحرية ، والسعادة . فإذا الأفكار التى ظلت قروناً وقفاً على الفلاسفة ، قد نقلت من عالم الفلسفة وجُعِلت قانوناً .

سير القوات والمعارك

كانت ساراتوجا أكبر معركة حاسمة فى الحرب ، ونقطة التحول فيها من الناحية العسكرية . ففى بداية سنة ١٧٧٧ ، كان لدى البريطانيين قوات كبيرة فى كندا وجيش

١٠٥ الثورة والاتحاد الكونفيدرالى

متين في نيويورك تحت قيادة هاو . ولو أن هذه القوات ركزت في نيويورك ، لكان بوسع التاج أن يدفع إلى الميدان خمسة وثلاثين ألف جندى نظامى مجهزين أقوى تجهيز . ولو أن قائداً بريطانياً موفور النشاط استخدم هؤلاء الجنود إذ ذاك ليوجه ضربات لا هوادة فيها لجيش واشنطن الصغير المؤلف من ثمانية آلاف من القاريين (الاتحاديين) في نيوجيرسى — كما فعل جرانت في سنة ١٧٦٤ إذ وجه ضربات لا تهن إلى لى في فيرجينيا — لكان من شبه المحقق أن تنهار الثورة . وكان أقصى ما يخافه واشنطن هو هذا التركيز للجنود من أجل القضاء عليه . ولكن السلطات في لندن ، قررت إبقاء قواتها مقسمة ، بفضل سوء مشورة بيرجوين الذى كان قد ذهب إلى الوطن في عطلة . فكان على أحد الجيوش — وكان بقيادة بيرجوين — أن يتحرك من كندا ، ويسير جنوباً إلى آلبنى ، عند رأس الملاحه في نهر هدسن ، وكان على جيش هاو في نيويورك أن يزحف شمالاً على نهر هدسن إلى آلبنى . وصدق الملك على الخطة . ثم أرسلت التعليمات الوافية من لندن إلى السلطات الكندية لتشن النصف الشمالى من الحملة المشتركة . بيد أن هاو لم يتلق أوامر محددة ، فزحف على فيلادلفيا بدلاً من آلبنى .

وقد كان من العيوب الجذرية في مشروع بيرجوين أنه حال دون توحيد للقوات البريطانية ما كان من سبيل إلى دفعه . وثمة عيب جذرى آخر ، هو أن الجيش الشمالى بمجرد تقدمه داخل الأرض الأمريكية أصبح بعيداً عن قاعدته أكثر مما كان ينبغى . فقد كان بيرجوين عند وصوله إلى فورت إدوارد ، في شمال نيويورك ، على بُعد ١٨٥ ميلاً من مونتريال ، وكانت كل خطوة إلى الأمام تزيد من الأراضى الوعرة بينه وبين إمداداته . فكان عليه أن يدبر المؤن من الريف المحيط به . وقد كانت في بنينجتون — في الجزء الجنوبي من الإقليم الذى يعرف اليوم باسم فيرمونت — مخازن كبيرة للدقيق والماشية ، ولم يكن يحرسها سوى نفر قليل من المليشيا . وفي سبيل الاستيلاء عليها ، وإيقاع ضربة قاسية بمنطقة كتب بيرجوين عنها أنها « تزخر بأشد عناصر القارة نشاطاً وعصياناً ، وتخيم على يسارى كأنها عاصفة تستجمع قواها » ، أوفد حوالى ألف وثلاثمائة من الألمان وسواهم ليهاجموا بنينجتون . . . وكأنها هاجموا عشاً للزنابير ، فإن الجنود الفلاحين من أبناء نيوانجلاند ، وكانوا يبلغون حوالى ألفى رجل تحت قيادة أحد المحاربين القدامى في الحرب الفرنسية ، ويدعى جون ستارك ، تغلبوا عليهم .

وفي الوقت ذاته ، كان ثمة جيش أمريكى سريع التزايد ، يتصدى للقوة الرئيسية

١٠٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

ليرجوين في أعالي حوض نهر هدرسن . فلما التحم الجيشان عند فريمانز فارم ، في ١٩ سبتمبر سنة ١٧٧٧ ، كان عدد الأمريكيين حوالى تسعة آلاف ، وعدد البريطانيين حوالى ستة آلاف . وأتمت اشتباكات أخرى خيبة جهود بيرجوين ، الذى سرعان ما تورط في القفار ، منهوك القوى ، وأخذ يمنى بخسائر فادحة ، بينما ارتفع عدد الجيش الأمريكى إلى عشرين ألفاً . وفي ١٧ أكتوبر ، ألقى جنوده أسلحتهم وقد أحيط بهم . وبذلك أثبت غباء الزحف بجيش حوالى مائتى ميل ، بعيداً عن قاعدته ، في جوف بلاد تزرخر بالمجندين المعادين .

ولقد كانت لهزيمة بيرجوين عواقب بعيدة المدى . إذ فقد جيش الملك ما يقرب من ربع جنوده الأكفاء في أمريكا بضربة واحدة ، وصار حوض هدرسن تحت السيطرة الأمريكية نهائياً ، وظفر الوطنيون بروح معنوية جديدة . ولقد كان بنجامين فرانكلين يناضل باستبسال في باريس لإغراء فيرجين ، وزير خارجية فرنسا ، بإرسال معونة للأمريكيين . فلما ترامت الأنباء بأن هاو في فيلادلفيا ، وأن بيرجوين استولى على تيكونديروجا ، فتر تحمس الفرنسيين . أما حين وصلت أنباء معركة ساراتوجا ، فيقال إن بومارشيه ، صديق فرانكلين ، أصيب بالتواء ذراعه ، وهو يهرع فرحاً لإبلاغ الملك . وفي ٦ فبراير سنة ١٧٧٨ ، وقعت فرنسا والولايات المتحدة معاهدة تحالف أضفت على الحرب ضعفاً جديداً كل الجدة . كان لافاييت الشهم ، الذى قدم إلى الولايات المتحدة على نفقته الخاصة ليؤدى خدماته في أى وضع ، قد عين في درجة ميجر جنرال بقرار من الكونجرس . وكان ملكا فرنسا وإسبانيا قد قدما للأمريكيين قروضاً في السر ، ابتعت بها مقادير كبيرة من الذخائر والأسلحة . أما الآن ، فقد تأهب الفرنسيون لإيفاد ستة آلاف من الجنود الممتازين بقيادة روكامبور لتعزیز قوات واشنطن ، وقدموا المال والإمدادات بكميات أكبر من ذى قبل ، وأدت عمليات الأساطيل الفرنسية إلى تفاقم صعوبات البريطانيين في إمداد قواتهم .

وإذ أخفق البريطانيون في هزيمة الشمال ، تحولوا إلى الجنوب . وكانت خطتهم أن يستولوا على جورجيا ، التى كانت ضعيفة بدرجة شنيعة ، وأن يزحفوا شمالاً بإصرار لا يقاوم ، وهم يظفرون في مضيقهم بعون الموالين للملك . ولقد استولوا على سافانا في الأيام الأخيرة من سنة ١٧٧٨ ، واحتلوا مناطق من جورجيا وكارولينا الجنوبية في سنة ١٧٧٩ . فأرسل الأمريكيون الجنرال بنجامين لينكولن لمعالجة الموقف . ولكنه ترك للعدو

الثورة والاتحاد الكونفيدرالى ١٠٧

فرصة محاصرته فى تشارلستون ، ثم أسره البريطانيون ورجاله الخمسة آلاف ، واستولوا على الميناء الرئيسى فى الجنوب ، فى آن واحد ، فى مايو سنة ١٧٨٠ . وكانت هذه من أفدح الصدمات للثورة ، فسرعان ما اجتاحت كارولينا الجنوبية بأكملها . وذهب قائد أمريكى ثان إلى الجنوب ليقف السيل ، هو هوراشيو جيتس — بطل ساراتوجا — ولكن جيشه الصغير ، المؤلف من ثلاثة آلاف ، نصفهم من المليشيا غير المدربين ، سُحق أمام لورد كورنواليس عند كامدن ، فى ١٦ أغسطس سنة ١٧٨٠ . وبلغ مجموع خسائره ألفى رجل ، بين قتيل وجريح وأسير ، بينما لم يتوقف جيتس فى فراره حتى قطع زهاء مائتى ميل .

بيد أن قوة فرسان الملك ، وكانت تضم ألفاً من الموالين من غرب كارولينا ، هُزمت فى تلك الأثناء على أيدي جيش يفوقها من الوطنيين . ووصل إلى مسرح عمليات الجنوب قائد أمريكى ثالث ، كان يفوق سابقه مقدرة بكثير ، هو ناثانييل جرين . وقد هُزم هو الآخر — عند جيلفورد كورتهاوس ، فى أوائل سنة ١٧٨١ ، بيد أنه أبدى براعة مذهلة فى الزحف الطويل والسريع ، والواقع أنه وإن خسر أربع معارك مهمة فى تسعة أشهر ، إلا أنه أضنى الجنود البريطانيين ، وما لبثت تهديداته — مجمعة مع عداوة السكان — أن اضطرتهم إلى التراجع إلى تشارلستون وسافاناه . فكان جرين على غرار واشنطن : خسر اشتباكاتة ولكنه فاز فى حملاته .

وبينما كان جرين يطهر أقصى الجنوب ، كان ثمة جيش بريطانى آخر يوشك أن يهلك . إذ أن كورنواليس ترك ريف كيب فى فى أواخر الربيع ، وسعى شمالاً ليلحق بقوة الخائن بنيدكت آرنولد فى فيرجينيا . وبعد مطاردة غير مثمرة للقوات الأمريكية التى كانت بقيادة لافاييت ، انسحب إلى يوركتاون ، عند مصب نهر يورك ، وقام بتحصينها . وكان لدى واشنطن ، فى ذلك الوقت ، حوالى ستة آلاف رجل بالقرب من نيويورك ، كما كان لدى روكامبو حوالى خمسة آلاف فى نيويورك ، بولاية رود آيلاند . وما أن انسحب كورنواليس إلى الساحل ، حتى جاءته رسالة من الأدميرال الفرنسى فى جزر الهند الغربية دوجراس ، بأن بوسعه أن ييسر تعاونه . ورأى واشنطن فرصته المنشودة ، فاستغلها بذلك لامع . وبعمليات زحف اتسمت بسرعة رائعة ، نقل إلى أمام يوركتاون جيشاً مشتركاً من الأمريكيين والفرنسيين قوامه ستة عشر ألفاً . وسدت الطريق إلى النجاة بحراً أمام رجال كورنواليس الثمانية آلاف ، بفضل أسطول دوجراس . وتم الاستيلاء على

١٠٨ موجز تاريخ الولايات المتحدة

حصون كورنواليس الخارجية ، كما هدمت المدفعية الأمريكية استحكاماته الدفاعية الداخلية . وفي ١٩ أكتوبر ، أرسل سيفه إلى واشنطن ، الذي أمر بأن يتسلمه الجنرال لينكولن ، وألقى الجنود البريطانيون أسلحتهم ، بينما كانت موسيقاهم تعزف نشيد « انقلبت الدنيا رأساً على عقب » .

وإذ ذاك ، كانت الحرب قد انتهت في الواقع . ولقد ظل الملك جورج فترة يرفض الاعتراف بالهزيمة في عناد . ولكن الجلاء تم عن الموانئ الجنوبية بأكملها أثناء سنة ١٧٨٢ ، ولم تلبث القوات الملكية أن أصبحت دون أى سلطان ، اللهم إلا صوت أبواق الحامية في مدينة واحدة ، هي . . نيويورك .

معاهدة الصلح

ولقد قدمت بريطانيا العظمى نصوصاً سخية في المعاهدة التي أنهت الحرب ، في سنة ١٧٨٣ . ولو شاءت حكومتها ، لساقت مساومة عسيرة بشأن الحدود . فإن الأسطول البريطاني بقيادة رودنى كان قد أحرز لتوه نصراً حاسماً على الأسطول الفرنسى في جزر الهند الغربية ، كما عز إجلاء الجنود البريطانيين عن نيويورك . ومن الصحيح أن حملة البنادق الأمريكيين ، بقيادة جورج روجرز كلارك ، كانوا قد نفذوا إلى إقليم الوعر ، شالى نهر أوهايو ، واستولوا على المراكز البريطانية فيما أصبح إنديانا ، وإلينوى ، ومتشيغان ، إلا أن شطراً كبيراً من هذا الإقليم استرده البريطانيون قبل انتهاء الحرب . ولقد كان من الممكن للوزير البريطانى شيلبيرن ، الذى تولى مفاوضة المندوبين الأمريكيين المفوضين بنجامين فرانكلين وجون آدمز وجون جاي أن يحاول تضيق رقعة أمريكا الجديدة . ولكنه بدلاً من ذلك ، نزل للجمهورية الجديدة عن كل الأراضى الواقعة بين جبال أليجنى ونهر المسيسيبي ، مع جعل الحدود الشمالية حيث هى الآن تقريباً ، بينما أسلم فلوريدا لإسبانيا ، ومنح الأمريكيين حقوقاً واسعة لصيد الأسماك في مياه الساحل الكندى .

وأثمر السخاء نتائج ثمينة ، فلو أن البريطانيين حاولوا أن يستبقوا شطراً كبيراً من الشمال الغربى ، لكان النزاع بينهم وبين الولايات المتحدة (وهو ما لم يكن مفتقداً على

١٠٩ الثورة والاتحاد الكونفيدرالى

أية حال) خليقاً بأن يكون دائباً وخطيراً . لقد كان التوسع الطبيعى للجمهورية فى اتجاه الغرب ، مما اضطر الفرنسيين فى النهاية إلى النزول عن لويزيانا ، والمكسيكيين إلى النزول عن المنطقة الواقعة شمال ريو جرانده — على أنه لم يسبب كثير قلق للإمبراطورية البريطانية ، لاسيما بعد سنة ١٨١٥ . والواقع أن كندا والولايات المتحدة امتدتا حتى المحيط الهادى جنبا إلى جنب ، وهما اليوم تملكان الشطر الأكبر من القارة ، كصديقتين حميمتين وحليفتين .

نمو الديمقراطية

حققت أمريكا ثورة لن تُنسى ، فى العلاقات الخارجية . كما طرأ تغير مهم على الشؤون الداخلية . فإن التغير الشامل الذى جلبته تلك السنين على المجتمع الأمريكى كان يعادل فى أهميته قطع الارتباط ببريطانيا .

كان من الطبيعى أن يعنى الانفصال عن بريطانيا كسباً فورياً مباشراً فى مجال الديمقراطية السياسية ، فأصبح الحكام يُنتخبون بوساطة الشعب ، ولا يعينون من قبل التاج . وأصبحت المجالس العليا فى الهيئات التشريعية تؤلف بالانتخاب بدلاً من التعيين ، والقوانين التى يطالب بها الشعب بمنجاة من النقض « الفيتو » . ولا تقل الإصلاحات الداخلية عن هذا ، فقد وسعت انتشار الحقوق الانتخابية ، وجعلت التمثيل النيابى أكثر عدالة . ففى بنسلفانيا ، قامت مطالبة هائلة ، فى ١٧٧٥ - ١٧٧٦ ، بخطوتين ديمقراطيتين ، أولاهما منح المقاطعات الغربية ، التى طال غبها ، تمثيلاً فى الهيئة النيابية يتناسب مع عدد سكانها ، والآخر هو إلغاء شرطى المؤهلات القائمة على الثروة وعلى الجنسية الأصلية ، التى كانت تقصر حق الانتخاب على طبقة أثيرة صغيرة العدد . وقد فاز الشعب بالمطلين فوزاً حاسماً . فأجازت الهيئة التشريعية ، فى مارس سنة ١٧٧٦ ، زيادة سبعة عشر عضواً إلى أعضائها ، بينما وسع نطاق الحقوق الانتخابية ليسمح لأى دافع ضرائب من الذكور بأن يدلى بصوته . ولاتزال القطاعات القديمة الاستيطان تحظى بتفوق غير عادل فى الهيئة التشريعية فى بعض الولايات ، مثل فيرجينيا ، فى حين ظلت المؤهلات المتعلقة بالثروة مطلوبة لدى

١١٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

الناخب ، في بعض ولايات أخرى . أما في بنسلفانيا ، وديلاوير ، وكارولينا الشمالية ، وجورجيا ، وفيرمونت ، فأطلق حق الانتخاب من كل القيود ، حتى قال أحد المحافظين المستنكرين أن أى دافع ضرائب من وحوش الغابة قد يحظى بحق الانتخاب .

كذلك أدى تشتت أنصار الملك مساهمة عظيمة للديمقراطية ، فإن كثيرين من المحافظين وأنصار بريطانيا من أصحاب الأراضي أبدوا كراهية لأولئك الذين وصفتهم دوروثي هتشينسون بأنهم الرعاع القذرون . ويدافع من الوفاء للنظام القديم ، هجروا البلاد وهم يفيضون بخليط عاطفى من الاستهجان والأسف . فعند جلاء هاو عن بوسطن ، أبحر معه حوالى ألف من أنصار بريطانيا ، وسرعان ما لحق بهم ألف آخرون ، وكان شعارهم : « إما الجحيم ، أو السفينة ، أو هاليفاكس » . وكان كافة أصحاب الثروات تقريباً ، فى إقليم نيويورك ، من الموالين لبريطانيا . وعند جلاء البريطانيين عن تشارلستون ، انطلقت فى الخليج مائة سفينة اتخذت شكل هلال كبير ، حاملة أنصار بريطانيا الراحلين . . وكان منظرأ رائعاً ومخزناً . واستقبل شمال كندا والأقاليم المطلة على البحر أكثر من ستين ألفاً من اللاجئين ، كما استقبلت جزر الهند الغربية آلافاً أخرى ، وتلقت إنجلترا حشداً غير محتفى به ، حتى لقد كتب أحدهم : « لن تكون هناك قرية فى إنجلترا تقريباً ، دون ما شىء من تراب أمريكى ، عندما نرقد جميعاً رقدتنا الأخيرة » . وفى أعقاب رحيل هؤلاء ، أصبح البسطاء من المزارعين الكادحين ، وأصحاب الحوانيت ، وأصحاب الحرف أحراراً فى صنع حضارة وفق هواهم . ومن ذلك الحين هبطت أهمية المكانة ، والفراغ ، والثقافة ، وازدادت قيمة الطاقة العاملة والاعتداد الفج بالنفس . وأصبح التاجر الطموح والمضارب الجشع أكثر بروزاً فى المجتمع الأمريكى . أصبح كل امرئ متساوياً مع سواه ، وكل امرئ فى عجلة من أمره ، ولم يعد من هم لكل امرئ تقريباً سوى الدولار .

كذلك توفر دافع قوى نحو الديمقراطية ، بفضل الحملة الناجحة على الدعائم الثلاث للامتيازات : القضاء على قصر الوراثة على الابن الأكبر ، ووقف الثروة على شخص واحد وسلالته ، وتفتيت ضياع أنصار بريطانيا الكبيرة ، والإطاحة بالسلطان الرسمى للكنيسة الأنجليكانية أينما وجدت . وكانت فيرجينيا هى المستعمرة التى توطدت فيها وراثة الابن الأكبر ، ووقف الثروة على شخص واحد وسلالته ، أكثر من توطدهما فى أية مستعمرة أخرى . وكانت نتيجتهما صون ضياع العائلات الكبيرة من أى

١١١ الثورة والاتحاد الكونفيدرالى

مساس . وهذا أتيح للإقليم ، كما قال جيفرسون فى كتابه « ملاحظات عن فيرجينيا » ، كتلة من العائلات الأرستقراطية الكبرى ، التى اتخذت شكل نظام سلطان أبوى ، وامتازت بأبهة مؤسساتها وفخامتها . فكان أصحاب القصور الإقطاعية : ويستوفر ، وشيرلى ، وتكهافو يشرفون على أملاك لا تتاح إلا لأمرء . ولقد شن توماس جيفرسون الحملة على وقف الثروة على شخص واحد وسلالته فى الهيئة التشريعية لفيرجينيا ، واستطاع أن يمحوه فى أول هجوم تقريباً ، فى سنة ١٧٧٦ . فتعرضت كل الضياع بعد ذلك للبيع دون ما قيود . كذلك نجح جيفرسون فى سنة ١٧٨٥ ، فى إلغاء قصر الوراثة على الابن الأكبر . ولقد اقترح البعض وجوب منح الابن الأكبر نصيباً مضاعفاً على الأقل ، فرد جيفرسون قائلاً : « كلا ، اللهم إلا إذا كان يأكل قدرأ مضاعفاً من الغذاء ، ويقوم بنصيب مضاعف من العمل » . وعندما قدر للرحالة الفرنسى بريسودو وورفيل أن يزور فيرجينيا بعد ذلك بقليل ، استطاع أن يكتب : « لقد بدأ التمييز بين الطبقات يتلاشى » . فأخذت الضياع الكبرى تقسم بين الأبناء بسرعة ، أوتباع أجزاء للوافدين ، بينما أخذ الأبناء يتقاضون الأثمان وينزحون إلى الغرب . وسرعان ما حذت ولايات جنوبية أخرى — جورجيا ، وكارولينا الجنوبية ، وميريلاند — حذو فيرجينيا .

كذلك مهدت مصادرة المساحات الشاسعة من الأرض التى كان يستأثر بها الملاك والأغنياء من الموالين لبريطانيا ، لقيام نظام ديمقراطى قوامه صغار الملاك . وكانت أكبر أسرتين رئيسيتين من ملاك الأراضي هما أسرة بن فى بنسلفانيا ، وأسرة اللورد بلتيمور فى ميريلاند . ولقد منحت بنسلفانيا آل بن ١٣٠ ٠٠٠ جنيه تقديراً لذكرى منشئها ، أما هارفورد ، فلم يتلق من ميريلاند سوى ١٠ ٠٠٠ جنيه . ولقد صادرت فيرجينيا عدداً من الضياع ، لاسيما ضيعة صديق واشنطن القريب إلى قلبه لورد فيرفاكس السادس . واستولت كارولينا الشمالية على ممتلكات آل جرانفيل ومساحتها ملايين من الدونيات . وأخذت نيويورك كافة أراضي التاج ، وفوقها ضياع نفر معين من أنصار بريطانيا ، منها أراضي فيليبس وكانت حوالى ثلاثمائة ميل مربع . ولقد بيعت ضيعة دولانسى فى ورشيستر وأراضي روجر موريس فى مقاطعة بوتنام إلى أكثر من خمسمائة مالك . أما ضيعة سيرجون جونسون التى صودرت فى شمال نيويورك ، فأوت آخر الأمر عشرة آلاف من المزارعين . واستولت مساشوستس على عدد من الملكيات بينها أراض فى مين لسيروليم بيبيريل ، وهونبيل كان يستطيع أن يمضى راكباً ثلاثين ميلاً ، فى خط

١١٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

واحد ، في أراضيه . وفي كافة الأصقاع من نيوهامبشاير - حيث فقد سيرجون ويتتويرث إقطاعيته - إلى جورجيا ، حيث مُنى سيرجيمس راين بالمصير ذاته ، انتقل صغار المزارعين مغتربين إلى أراض خصبة ما كانت من قبل لتقبلهم إلا كمستأجرين .

ومع أرستقراطية ملاك الأرض وكبار الموظفين ، هوت أرستقراطية رجال الدين التي كانت مرتبطة بالعهد البريطاني . ولقد ظلت الامتيازات الخاصة للكنيسة الأبرشية في نيوزلاند ، إذ لم تكن لها علاقة بالتاج . بل إن مساشوستس دعمت هذه الامتيازات ، ولكن امتيازات الكنيسة الأنجليكانية في الجنوب انهارت .

ولقد هدمت الثورة الكنيسة الرسمية في كارولينا الشمالية ، فلم تُبق منبراً من منابرها مشغولاً . كما أنها أتاحت ، في ولايات أخرى ، للمتطرفين السياسيين وللطوائف المتذمرة - كالمعمدانيين والمشيخيين - فرصة ذهبية . واتخذت كارولينا الشمالية ، في سنة ١٧٧٦ ، دستوراً كفّل حرية الدين وحرّم أى كنيسة رسمية . وأقدمت كارولينا الجنوبية على الخطوة ذاتها في دستورها ، سنة ١٧٧٨ . وكذلك فعلت جورجيا في دستورها ، سنة ١٧٧٧ . ولكن أعنف النضال دار في فيرجينيا ، إذ كانت الكنيسة الرسمية فيها وطيدة الأركان ، نظراً لأن معظم العائلات الأرستقراطية كانت من الانجليكانيين . . حتى إن ثائراً سياسياً مثل باتريك هنرى كان يعتقد أن معونة الدولة للدين أمر لا غنى عنه بالنسبة للتقوى والأخلاق الحميدة . بيد أن الطوائف المتذمرة وجدت قيادة في شخصين عظيمين من المتحررين الليبراليين ، ترعرعا في أحضان كنيسة إنجلترا ، هما توماس جيفرسون ، وجيمس ماديسون .

وكان من السهل على هذين الزعيمين أن يتغلبا على العقبة الأولى ، بالتوصل إلى كفالة التسامح الدينى . فكتب ماديسون في إعلان الحقوق ، في سنة ١٧٧٦ ، هذا المبدأ البسيط : « لكل الناس ، على قدم المساواة ، حق حرية ممارسة الدين » . ولكن الكنيسة الرسمية ظلت قائمة ، واحتاج الأمر إلى معركة مداها عشر سنوات للإطاحة بها . وقد وصف جيفرسون الصراع بأنه « أقسى نضال قدرى أن أشارك فيه » . ولقد وفق ، ابتداء من سنة ١٧٧٦ ، مع أصدقائه إلى إيقاف الضرائب الكنسية عاماً بعد عام ، ثم ألغوا في سنة ١٧٧٩ ضريبة العشور (عشر الإنتاج) إلى الأبد . بيد أن خصومهما أجازوا قرارات ، في سنة ١٧٧٦ ، تنادى بوجوب الاحتفاظ بمسألة فرض ضريبة عامة لجميع الكنائس ، واحتشد فريق قوى النفوذ لمساندة هذه المطالبة بضريبة

الثورة والاتحاد الكونفيدرالى ١١٣

دينية عامة . وكان المشروع — فى جوهره — كفىلاً بأن يجعل جميع المذاهب المسيحية رسمية ، كديانات للدولة على قدم المساواة ، وأن يعولها من الخزانة العامة . وكان أقوى الدعاة إليه هو باتريك هنرى الخطيب المثير .

وحلت الأزمة فى ١٧٨٤ - ١٧٨٦ ، فإن هنرى بمقدرته الجدلية التى لا تقاوم ، أجاز فى مجلس مندوبى المدن قراراً يقول : « ينبغى على أهل هذه الدولة أن يدفعوا ضريبة معتدلة ، أو اكتتاباً لمساندة الدين المسيحى ، أو إحدى الكنائس أو المذاهب المسيحية ، أو أية طائفة من المسيحيين . على أن المعارضة حشدت كل قواها ، عندما بدا ثمة مجهود بتنفيذ هذا القول بوساطة مشروع بقانون . ودار نقاش هائل بين هنرى وماديسون ، أحرز الأخير فيه انتصاراً كبيراً ، فأرجىء مشروع القانون ، وأتاح هذا لزعماء الأحرار شن حملة من أجل التعليم . وفى سنة ١٧٨٦ دفن هذا المشروع نهائياً ، وأجيز فى الوقت ذاته ، مشروع القانون الشهير الذى طرحه جيفرسون خاصاً بالحرية الدينية ، وهو مشروع يبين أنه ليس للحكومة أن تتدخل فى شؤون الكنيسة أو المسائل الخاصة بالإيمان ، أو أن تفرض ما يعوق الرأى الدينى . ولقد أصبح هذا التشريع الحاسم حجر الزاوية للحرية الدينية ، لا فى فيرجينيا وحدها ، بل فى كثير من الولايات الجديدة فى الغرب كذلك .

وما أكثر ما ينبغى أن يقال عن الإجراءات التى اتخذت فى عديد من الولايات لتدعيم أسس التعليم أيضاً . فلقد تمكن الأمريكيون خلال سنوات الحرب والقلق من إنشاء ما لا يقل عن سبع كليات جديدة — منها ديكنسون وفرانكلين فى بنسلفانيا ، وهامبدن سيدنى وواشنطن فى فيرجينيا ، وترانسلفانيا فى كنتكى النائية — فى حين أرسى ثلاث ولايات أسس جامعات مملوكة للدولة . بيد أن النزاع كان ذا أثر مؤسف على المدارس الخاصة والكليات فى الوقت ذاته . فأغلقت كلية ييل إلى حين ، وكذلك كلية الملك التى أصبحت تسمى كولبيا . ولقد كان رئيس كلية وليم ومارى يعلم مجموعة من الفتية الحفاة ، إلى فترة متأخرة وصلت إلى سنة ١٧٩٧ ، فى حين أن هيئة التدريس فى هارفارد كانت تتألف فى سنة ١٨٠٠ من رئيس الكلية وثلاثة من الأساتذة وأربعة من المدرسين . ولم يظهر فى الفترة ١٧٨٠ - ١٧٨٤ فى الصحيفة الرئيسية فى بوسطن إعلان واحد للمكتبات .

على أن من الآثار السعيدة للثورة أنها بعثت مطالبة عامة بالتعليم الشعبى —

بالمدارس العامة المجانية . فلقد تجلّى على الفور أن الحكم الذاتى يتطلب ناخبين متعلمين . ولقد قال جورج كلينتون ، حاكم نيويورك ، فى سنة ١٧٨٢ : « إنه لواجب مبرز ، على حكومة أية دولة أخرى تفتح فيها أعلى المناصب للمواطنين من كل مستوى ، أن تسعى — بإنشاء المدارس وحلقات الدرس — إلى نشر درجة المعرفة اللازمة لإنشاء مناصب المسئولية العامة » . وكتب جيفرسون : « آمل أن يتسنى الانصراف إلى تعليم العامة قبل كل شىء ، اقتناعاً بأن بوسعنا أن نركن بأقصى درجات الاطمئنان إلى حسن إدراكهم من أجل صون درجة من الحرية لا بد منها » . ولقد عرقل الفقر جهود الولايات فى البداية ، ولكن صدور هذا المطلب الجديد فى الوقت المناسب ، أدى إلى تسهيلات للتعليم الأولى أفضل بكثير مما كان موجوداً قبل الحرب . ولقد كانت مواد قانون الأرض الصادر فى سنة ١٧٨٥ ذات أهمية بعيدة الأثر بالنسبة للتعليم ، إذ يسرت ملايين الدونيات من الأراضي العامة منحة للمدارس العامة .

الافتقار إلى حكومة قومية

هكذا كانت الصورة العامة للجمهورية الناشئة ، حافلة بالأمل والتقدم فى نواح كثيرة . ومع ذلك فقد خيمت على الأفق سحابة قائمة واحدة ، إذ أن الولايات الثلاث عشرة لم توفق قط إلى إقامة حكومة « قومية » حقاً . ولقد اتخذت فى مارس سنة ١٧٨١ بعض مواد معينة لاتحاد كونفيدرالى ، ولكن هذا النظام كان ضعيفاً وغير كاف ، إذ كان مجرد « رابطة صداقة » . فلم تقم أية هيئة تنفيذية حقيقية ، ولم تنشأ أية شبكة محاكم قومية . كان المؤتمر القارى المؤلف من مجلس واحد لكل ولاية فيه صوت واحد ، أضعف من أن يكون ذا فعالية . فما كان يملك أن يفرض الضرائب ، أو يجند القوات ، أو يعاقب الذين ينتهكون ما يقر من قوانين ، أو يجبر الولايات على احترام المعاهدات التى أبرمتها مع دول أخرى . والأسوأ من كل هذا ، أنه لم يملك أن يجمع من المال ما يكفى للقيام بمهام الحكومة أو دفع فوائد القرض الوطنى . على أن المبالغة فى ضعف المواد وعدم كفايتها أمر سهل . فإذا لم يكن المؤتمر قد حل مشكلة الاتحاد ، فإنه قطع شوطاً طويلاً على طريق الحل ، وكان التقسيم الذى وضعه بين السلطات العامة والسلطات المحلية

١١٥ الثورة والاتحاد الكونفيدرالى

تقسيماً سليماً . كان خطوة مهمة ، بل ضرورية ، على طريق الانتقال من استقلال وسيادة الولايات فرادى ، إلى الاتحاد الفيدرالى فى سنة ١٧٨٩ .

وموجز القول ، أن الثورة منحت الشعب الأمريكى مكاناً مستقلاً فى أسرة الأمم . ولقد أتاحت له نظاماً اجتماعياً متغيراً ، قلت فيه أهمية الوراثة والثروة والمكانة ، وزادت فيه قيمة الصفة الإنسانية . . خُفضت فيه — مؤقتاً — مستويات الثقافة وآداب السلوك ، ولكن مستويات المساواة رفعت لمكانة عليّة . أعطته ألف ذكرى لتعميق الروح الوطنية : واشنطن وهو يجرد سيفه من غمده تحت شجرة فى كمبريدج . . منحدرات تل بنكر هيل المضمخة بالدم . . موت مونتجمرى تحت أسوار كويبيك . . قول ناثان هيل : « لست آسف إلا على أننى لم أوت سوى حياة واحدة أجود بها فى سبيل بلادى » . . السفن التى اتخذت سجوناً فى نهر هدسن . . مصرع بنديكت أرنولد وهو يحاول أن يخون بلاده . . برد فالى فورج الذى ينخر العظام . . مقاتلو العصابات بقيادة ماريون فى كارولينا الجنوبية ، الذين اكتسبوا له لقب ثعلب المستنقعات . . روبرت موريس رجل المال الوطنى وهو يدبر الأموال بصبر من أجل القضية الوطنية . . ألكسندر هاملتون وهو يحتاج الحصن فى يوركتاون . . الأسطول البريطانى يبحر مغادراً خليج نيويورك ، عند جلالة العظيم .

على أنه ظل لزاماً على الشعب الأمريكى أن يبين أنه أوتى عبقرية حكم نفسه . . وجعل جمهوريته دولة ناجحة . كان عليهم بعد أن يثبتوا أن بوسعهم أن يحلوا مشكلة التنظيم الاستعمارى — فإنهم لم يكونوا قد أثبتوا ذلك بعد — إذ بدا أن رابطة صداقتهم كانت تتحول إلى رابطة خلاف وشقاق . وكان مؤتمرهم « الكونجرس » يهوى إلى انعدام تام للاحترام . فقد أخذت المنازعات بين الولايات تستفحل بدرجة خطيرة قطعاً . ولم تعان جماعة من فوضى هذه الأحوال أكثر مما عانى الجيش ، الذى لم يستطع الحصول على ما كان يحتاج من طعام وكساء ورواتب . وكثيراً ما كان ضباطه يشربون نخب الأمل فى طوق للبرميل . . فما لم يتوفر الطوق ، كان من المحتمل أن ينهار البرميل إلى كومة من الألواح الخشبية .



الفصل هـ

وضع الدستور

إنجاز حاسم

هناك اتفاق عام على أن الولايات المتحدة أوتيت دستوراً من أوضح الدساتير التي أعدت في يوم من الأيام وأكثرها فعالية . . . دستوراً على غير غرار دستور بريطانيا ، فهو مكتوب ولكنه اتسع بمرونة باتساع الأمة . ولقد قال فيه جلادستون : « إذا كان الدستور البريطاني هو أبرع كيان قدر له أن يمضى قدماً من التاريخ التقدمي ، فإن الدستور الأمريكي هو أروع عمل انطلق في وقت معين من عقل الإنسان وعزمه على غايته » . ولقد كان — في الواقع — نتاجاً تقدمياً إلى حد كبير كذلك . بيد أنه تشكل في جمعية من أعجب الجمعيات التأسيسية في العصور الحديثة .

ولعله كان من يمن الطالع أن مواد الاتحاد الكونفيدرالي ، الذي انتهجته الولايات قرابة نهاية الثورة ، كانت ناقصة إلى حد كبير . فلو أنها نصت على إطار للحكم أفضل ، لكان من المحتمل أن يقنع الأمريكيون بترقيها لإصلاح عيوبها ، ولكن من المحتمل أن تشقى البلاد عشرات كثيرة من السنين بدستور ضعيف . ولكنها بُذت جانباً ، إذ تداعت تداعياً كاملاً تقريباً . ولأن انهيارها انبعث عن ضعفها ، وضع الدستور الجديد

قوياً بدرجة غير عادية . كذلك كان من حسن الحظ أن انهيار المواد صادم كساداً تجارياً في سنتي ١٧٨٥ و ١٧٨٦ . وما كان لغير أزمة ظاهرة أن يفضى بكثير من الأمريكيين المتشككين إلى قبول حكومة مركزية جديدة قوية .

ضعف الحكومة الكونفيدرالية

ذلك أن سنة ١٧٨٦ كانت الذروة العليا للفترة الحرجة . فلم تكن البلاد بدون جهاز حكم قومي قوى حقيقى فحسب ، بل إن الولايات الثلاث عشرة كانت قد أصبحت من التنافر والاضطراب بدرجة دعت الناس إلى أن يتحدثوا عن قيام حرب بين بعضها . ففى بنسلفانيا وفرمونت ، كان القوم فى عراك على خطوط الحدود ، بل كانوا يتضاربون من أجلها . ولقد كان من الواجب أن تملك الحكومة القومية السلطة لفرض أية رسوم جمركية تدعو إليها الضرورة لتنظيم التجارة ، ولكنها لم تكن كذلك . وكان من الواجب أن تملك هذه الحكومة سلطان فرض الضرائب للأغراض القومية ، ولكنها لم تكن تملك هذا أيضاً . وكان من الواجب أن يكون لها الانفراد بالسيطرة على العلاقات الخارجية ، بيد أن عدداً من الولايات كانت قد شرعت فى مفاوضات مع دول أجنبية . ولقد كان من الواجب أن تملك هذه الأمة الإشراف الأوحده على العلاقات مع الهنود ، ولكن عدة ولايات تولت الأمر مع الهمجيين وفق هواها ، وبدأت جورجيا حرباً هندية وأنهتها .

وعندما هددت القلاقل الداخلية سلامة الممتلكات فى مساحات كبيرة ، اشتد زعر الطبقات الوسطى الرصينة التفكير . فلما استفحل الكساد فى ١٧٨٥ - ١٧٨٦ ، نجمت عنه ضائقة شديدة فى المناطق التى كان الناس يعيشون فيها فى مستوى قريب من الكفاف . فشحت الأموال على طول الحدود ، وثلت الأسواق ، وتلفت المحصولات على أرضها لعدم وجود من ينجيها . ولجأ الناس إلى المقايضة . وطالبت جماعات المدينين حكومات الولايات بإصدار نقود ورقية ليتمكنوا من تصريف محاصيلهم وسداد التزاماتهم . كما طالبوا بقرار لإرجاء تحصيل الديون (موراتوريوم) ، وبتشريعات تجعل المشاة أو القمح أداة قانونية لسداد الديون . ولقد ذكرت مظلمة مدينة جرينويتش ، بولاية ماساشوستس ، فى يناير سنة ١٧٨٦ ، أن عمليات البيع القضائى

١١٩ وضع الدستور

للأراضي نتيجة عدم الوفاء بالديون ، كانت تجري يومياً وبثلث القيمة الحقيقية ، وأن الماشية كانت تباع بنصف ثمنها ، وأن الضرائب خلال السنوات الخمس السابقة قد عادلّت القيمة الإيجارية للمزارع بأكملها . واتخذ التزاحم السياسى شكل صراعات بين الطبقات الدائنة والطبقات المدينة . واستفحلت الكراهية بين الفقراء ومن كانوا في ميسرة في كثير من الولايات . ومن أمثلة ما قيل ، هذا القول الذى صدر عن فريق من أهل كارولينا الجنوبية ، فى النيل من الحاكم رتليدج وغيره من الأرستقراطيين : « أثرياء هذه الولاية المتسلطون ، وأتباعهم العبيد آكلو الضفادع ، وصنائعهم من المستعبدين الراضين بالعبودية من لاعقى لعاب الفريقين » .

ولقد انصاعت الهيئات التشريعية فى سبع ولايات لضغط المطالبين بالنقود الورقية ، فى سنة ١٧٨٦ . وأجيزت فى رود آيلاند إجراءات لكل امرئ بمقتضاها أن يفى بالتزاماته بعملة لا قيمة لها فى الواقع . وقد كتب فى هذا أحد مؤلفي الرجز :

يفلسون دائنيهم بالخالع أموج

دون توقف ، ولا رحمة من جماعة المدينين

.

ولما كانت النقود المتردية أداة وافية لسداد الديون المستحقة لأناس فى ولايات أخرى ، فإن مساشوستس وكونكتيكت أقرتا فى إباء إجراءات انتقامية ^(١) . على أن القوى المطالبة بنقود ورقية أخفقت فى حمل الهيئتين التشريعتين المسيطرتين على شمال نيوجلاندا بأسره ، ألا وهما هيئتا مساشوستس ونيوهامبشاير . وهنا اندلعت اضطرابات مسلحة . وكان دستور مساشوستس القائم يضع السيطرة على الحكومة فى أيدي العناصر ذات الثروة فى المجتمع . إذ كان قد أقام تخصيصات خاصة للدفاع عن الملكيات فيما نص عليه من مؤهلات للناخبين ومؤهلات لشاغلي المناصب . وكانت الهيئة التشريعية المحافظة قد فرضت إذ ذاك ضرائب لدفع ديون الثورة ، وهى ديون كان معظمها للمضاربين ، وعبثاً التمسست اجتماعات البلدية والاجتماعات العامة التخفيف ، فاستمرت عملية البيع القضائى للأراضي المرهونة ونزع الملكية سداداً للضرائب المتأخرة . فلا عجب فى قيام

(١) أى أن لسكانها السداد لدائنين فى الولايات الأخرى بنفس النقود — المترجم .

تمرد زراعى . فكان انفضاض المحكمة العامة ، فى يوليو سنة ١٧٨٦ ، إيداناً بقيام ثورة بقيادة أحد من خاضوا معركة بنكر هيل ، وهو دانييل شايز . وكان تمرد شايز — كما أصبح يدعى — على غرار الانتفاضات الزراعية الأولى ، مثل تمرد بيكون ، أو حركات الإصلاح فى غرب كارولينا الشمالية قبيل الثورة ، فهى لم تكن ثورة ضد الحكومة بقدر ما كانت احتجاجاً عنيفاً ضد أحوال أصبحت لا تطاق .

ونشطت الولاية للعمل بهمة بقيادة الحاكم بودوين ، والجنرال لينكولن ، وبعض المؤسرين الذين كانوا يقرضون ما لهم فى الأزمة ، فكان من السهل إيقاف زحف شايز عندما حاول أن ينهب ترسانة الأسلحة فى سبرينجفيلد وأن يوزع قواته . بيد أن الصراع الوجيز أزعج الدوائر المحافظة فى كافة أرجاء الأمة أيما إزعاج ، فقد لاحت نذيراً بحركة ثورية نحو اليسار . فكتب الجنرال نوكس لواشنطن أن لدى نيو إنجلاند اثنى عشر أو خمسة عشر ألفاً من المستيئين الذين كانوا يعتنقون ما يسمى الآن آراء شيوعية : « عقيدتهم أن ثروة الولايات المتحدة قد صينت من أن تصادها بريطانيا ، بفضل الأعمال المشتركة التى قام بها الجميع ، ومن ثم فينبغى أن تكون ملكاً مشاعاً للجميع » . ولقد أثاروا خوف « كل امرئ ذى مبادئ وثروة فى نيو إنجلاند » . ورأى واشنطن أنه كان على سلطات مساشوسيتس أن تكون أقسى صرامة ، فكتب فى جزع أشد من جزع الجنرال نوكس : « هناك أمور قابلة للاشتعال فى كل ولاية ، قد توقد النار فيها شرارة واحدة » . وكانت هذه هى وجهة النظر العامة . وكانت النتيجة المنطقية المستخلصة من هذا أن الحاجة تمس إلى حكومة قومية أشد مكانة لتساعد الولايات على معالجة الشغب . وقد كتب ستيفن هيجنسن من مساشوسيتس إلى ناثانييل دين : « من الجلى فى ذهنى أننا لن نملك البقاء طويلاً تحت نظامنا الحاضر ، وما لم نحرز فى القريب مزيداً من القوة للاتحاد ، بأية وسيلة ، فإن المتمردين سينهضون ولن يلبثوا أن ينتزعوا الزمام منا . ولن يكون ثمة مفر من أن نُدفع إلى تشنجات عنيفة ستؤدى إلى حكومة أو أكثر تقوم على إراقة كثير من الدم » .

وكانت المشاهدات بين حكومات الولايات قد أحدثت عناءً قاسياً للجماعات التى كان عيشها يتوقف على قدر من التناسق . فكان التجار فى يأس بسبب الافتقار إلى عملة رسمية ، إذ كانوا مضطرين إلى التعامل بخليط عجيب من العملات التى سكنها أكثر من عشر دول ، وكثيرة منها متآكلة وناقصة الوزن ، وبقطع نقدية مزيفة ، وبمجموعة

١٢١ وضع الدستور

لا يصدقها العقل من النقود الورقية القومية والخاصة بالولايات ، اتسمت بهبوط سريع في قيمتها . فبات من الواضح أنه لن يكفى للموقف سوى نقد قومي مقنن . وأخذ المصدرون كافة يثنون من افتقاد الحماية لإقدامهم على محاولة تسويق السلع الأمريكية في الخارج . كما وجد الكونجرس الضعيف أن من المستحيل إعادة إقامة العلاقات التجارية القديمة مع الإمبراطورية البريطانية ومع جزر الهند الغربية بوجه خاص . وكانت إسبانيا قد أغلقت في تحدٍ مصب نهر المسيسيبي في وجه التجارة الأمريكية ، وكان ثمة خوف عام من أن تقبل الحكومة منصاعة لهذه الخطوة القاضية على مصالح الغرب الأمريكي . وما كانت من وسيلة تكفل للتجار الاطمئنان على تحصيل ما لهم من نقود ، حتى في داخل البلاد . فكان النيويوركي الذي يقاضى مديناً في بنسلفانيا تحت رحمة محاكم بنسلفانيا ومحلفيها الذين كانوا ينحازون لمواطنيهم بطبيعة الأمر . وباتت طبقة أصحاب المصانع الأمريكيين ، الذين كانوا في نمو سريع ، تحت رحمة منافسة من أوروبا تنحر الأسعار نحرًا .

غير أن أسوأ الشرور انبعث من المعوقات المتعمدة التي أقيمت ضد التبادل التجاري بين الولايات . وعمد عدد من الولايات إلى فرض رسوم جمركية على كافة الواردات ، في تلهفها على الحيلولة دون إغراق البلاد بالسلع الأوروبية وعلى اكتساب إيرادات . وبدت ثلاث خطوات رئيسية في هذه العملية . ففي أثناء الحرب ، كانت فيرجينيا وحدها هي التي فرضت رسوماً على مجموعة كبيرة من السلع ، إذ كانت لها تجارة كبيرة من جراء تصديرها التبغ واستيرادها مختلف السلع ، ومن ثم فكانت تملك أن تفعل ذلك . ثم فرضت جميع الولايات ، ما عدا نيوجيرسى ، في الثلاث سنوات الأولى بعد الصلح ، رسوماً على الواردات ، ولكن اكتساباً للدخل فقط ، وليس للحماية . وأخيراً ، لم تحن سنة ١٧٨٥ حتى كانت نيوجلاندا ومعظم ولايات الوسط قد أنشأت صناعات محلية تبشر بالنجاح ، فعانت من المنافسة الأوروبية . ومن ثم فإنها فرضت رسوماً جمركية للحماية .

وسرعان ما دب في الموقف عنصر بين الولايات من التعامل بالمثل . فإن الولايات الجنوبية ، وبعض الولايات الشمالية الصغيرة لم تؤت سوى مصانع قليلة ، فكانت بحاجة إلى السلع المستوردة . لذلك أنشأت ديلاوير ونيوجيرسى موانئ حرة للبضائع الأوروبية ، بينما أصدرت كونكتيكت بدورها قوانين لتشجيع النقل البحري المباشر للسلع

الأوربية . كذلك وضعت قيود على تنقلات السفن ، فلم يكن بوسع أبناء نيو جيرسى مثلاً أن يجتازوا نهر هدسن لبيع الخضر في نيويورك دون أن يدفعوا أجوراً باهظة . وأخذت ضراوة المشاعر بين الولايات تستفحل بطبيعة الأمر . فكان أبناء كارولينا الشمالية - في غمرة التشهير بفيرجينيا وكارولينا الجنوبية - يشبهون ولايتهم بقنينة كبيرة مخروقة الطرفين . وقال أوليفر إليسويرث أن ولايته الصغيرة كونكتيكت كانت مثل « يساكر ^(١) في الماضي ، حماراً جسيماً رابضاً بين الخطاثر » .

وكانت مجموعة واسعة التباين من جماعات الدائنين ، بجانب التجار وأصحاب المصانع ، ينعون على البلاد الافتقار إلى أية سلطة قومية تستطيع أن تضع قيوداً فعالة تكبح اتجاهات الهيئات التشريعية المتطرفة نحو « المساواة » . وكان بين أفرادها مقرضو المال ، وواضعو اليد على رهونات ضابقتهم قوانين « وقف البيع » التي فرضتها تلك الولايات ، وبعمليات الإصدار الجزافي للنقود غير ذات القيمة . وكان بينهم أمريكيون ممن لديهم صكوك بديون كانت لبريطانيين وآلت إليهم ، إذ أن الجماعات المتطرفة المسيطرة على بعض الهيئات التشريعية والمحاكم كانت قد قضت بآلا تكون الديون المستحقة لبريطانيين قابلة للاقتضاء . وكان بينهم كثير من الضباط والجنود الذين تسلموا صكوكاً لتملك أراض كجزء من رواتبهم عن الخدمات الثورية . وكان بينهم المضاربون على الأراضي ، الذين كانوا قد ابتاعوا مساحات كبيرة ، سواء من أراضي الجنود أو من الأراضي المصادرة ، بأسعار زهيدة ، وكانوا تواقين لإعادة بيعها . كان مالكو الأراضي هؤلاء يبتغون حكومة قومية لها من القوة ما يحمي الحدود من الهنود ، ويكفل النظام في المناطق الحديثة الاستيطان ، ويحمي حقوق تملكهم .

وأخيراً ، فإن كتلة ذات وزن من حاملي السندات الاتحادية وسندات قروض الولايات ، أخذوا يرقبون في جزع وأسى الظروف المالية التي دبت فيها الفوضى في ذلك العهد ، والتهرّب الشعبي من الضرائب . ففي الأربعة عشر شهراً الأخيرة من عمر مواد الاتحاد الكونفيدرالي ، بلغت الفائدة على قروض الدولة الداخلية والخارجية قرابة ١٤ مليوناً من الدولارات ، في حين أن إيرادات الحكومة القومية كانت ٤٠ ألف دولار فقط . وقد شرح واشنطن الموقف بإيجاز ، حين كتب إلى جيمس وارين في سنة ١٧٨٥ :

(١) نكوبن ١٤٠٤٩ .

« إن عجالات الحكومة قد غاصت فى الوحل » .

قانون الشمال الغربى

قدر لحكومة الاتحاد الكونفيدرالى أن تحرز نجاحاً كبيراً واحداً . فعندما ووجهت بمشكلة ما ينبغى أن تفعله بالأراضى غير المستوطنة غربى جبال أليجنى (إذ كانت الولايات قد نزلت واحدة بعد أخرى عن مطالبتها بحقوق تملك هذه الأراضى إلى الحكومة العامة) ، ابتكرت خطة حكيمة كان لها أثر كبير فى أن تصبح الولايات المتحدة ما هى عليه . إذ قررت أن تبيح هذه الأراضى للاستيطان المنظم والتقدمى ، وأن تشجع السكان على إقامة حكم ذاتى على مراحل منتظمة ، ثم أن تنشئ ولايات جديدة ، متشابهة مع الولايات الثلاث عشرة الأصلية فى السلطات . وهذا المشروع تضمنه قانون الشمال الغربى (سنة ١٧٨٧) الذى شمل المنطقة الواقعة شمال نهر أوهايو ، ونص على المراحل التى تنتهى بإنشاء ما بين ثلاث وخمس ولايات . فحرم دخول الرق إلى المنطقة ، وعين ثلاث مراحل منتظمة للحكم . فكان للكونجرس أولاً أن يقيم إقليماً ، وأن يعين حاكماً وقضاة لهم أن يسنوا القوانين ، على أن يكون للكونجرس حق النقض (الفيتو) . فإذا ما بلغ السكان خمسة آلاف ، تكون لهم بعد ذلك هيئة تشريعية من مجلسين ينتخبون بأنفسهم المجلس الأدنى منها . وأخيراً ، إذا ما بلغ السكان ستين ألفاً ، يحول الإقليم إلى ولاية كاملة ، تتساوى مع الولايات الأصلية فى كل اعتبار . وبهذا حلت الولايات المتحدة مشكلة المستعمرات الخاصة بها ، وأقامت الأمة نسقاً اتبعته فى امتدادها إلى المحيط الهادى ، وأتاح لها آخر الأمر خمسين ولاية .

بيد أن الاتحاد الكونفيدرالى كان مخيباً للآمال فى معظم النواحي الأخرى . وقد كتب واشنطن أن الولايات المتحدة لم تكن متحدة إلا بحبل من الرمال ، كما صرح مراقب آخر بأن « استيلاءاتنا أخذت تتفاعل لتصبح حرباً أهلية » . كان عدد ذوى الكفاءة من أعضاء الكونجرس قد تضاعف كل التضاعف ، وكانت مكانته أدنى مما ينبغى بكثير ، مما لم يكن يمكنه من وضع نظام أفضل للحكم . وكان توماس بين قد اقترح قبل وقت طويل « عقد مؤتمر للقارة ، ليصوغ ميثاقاً قارياً » . وقد أثار هذا الاقتراح نعر

من الزعماء اجتمعوا لبحثوا مسائل تجارية .

الدعوة إلى مؤتمر قومي

وقصة الخطوات الأولية للمؤتمر الدستوري معروفة . فقد كانت ثمة مشكلة تجارية خاصة تلح على الأذهان ، بينما كان ذوو الفكر الصائب يزدادون برماً بالضعف القومي ، وبمشاكسات الولايات . ذلك أن ميريلاند فرضت السيادة على نهر بوتوماك بأكمله ، من حيث فصلها عن فيرجينيا حتى شاطئه الجنوبي . وخشى أهل فيرجينيا أن تعترض ميريلاند حرية ملاحتهم في هذا النهر المهم ، فاجتمع مندوبو فيرجينيا وميريلاند في سنة ١٧٨٥ مع جورج واشنطن في ماونت فيرنون لبحث الملاحاة في نهر بوتوماك وخليج تشيزابيك ، وكان ماديسون ، الذي حضر الاجتماع ، في هم شديد من جراء الفوضى العامة في التجارة ، إذ كان يعتقد أنه لا بد من مؤتمر أكبر ، يعقد بغرض حل الولايات على أن تعهد بلوائحها إلى الكونجرس . واجتمع هذا المؤتمر في آنابوليس سنة ١٧٨٦ ، وقد بدا فاشلاً كل الفشل حين لم يحضره سوى وفود خمس ولايات أخرى .

وشاء الحظ أن يكون أحد المندوبين ألكسندر هاملتون المقدام ، الذي انتزع من الهزيمة انتصاراً ، إذ حمل الجمع على أن يدعوا الولايات إلى تعيين مفوضين يجتمعون في فيلادلفيا في شهر مايو التالي ، لدراسة موقف الولايات المتحدة و« ليضعوا من النصوص الجديدة ما سترأى لهم لازماً لجعل دستور الحكومة الفيدرالية كافياً لمتطلبات الاتحاد الضرورية » . ولقد استنكر المؤتمر القارى هذه الخطوة الجريئة في بادئ الأمر ، ولكن اعتراضاته المهتاجة اقتضبت عندما ورد نبأ بأن فيرجينيا انتخبت واشنطن مندوباً . إذ ذاك عاد الكونجرس إلى انتظامه ، وحدد يوم الاثنين الثاني من مايو سنة ١٧٨٧ ، تاريخاً للاجتماع . واختارت الولايات جميعاً ، ما عدا رود آيلاند الصغيرة السادرة في عنادها ، مندوبيها خلال الخريف والشتاء .

كانت الهيئات التشريعية للولايات هي التي اختارت الوفود . وكانت بعض هذه الهيئات تحت سيطرة الجماعات الزراعية المتطرفة ، كما كان الدائدون عن سيادة الولايات في جميع هذه الهيئات عزيزي الجانب . ومع ذلك فقد طلبت معظمها إلى موفديها إنشاء

١٢٥ وضع الدستور

حكومة قومية متينة ، وأرسلت إلى فيلادلفيا بمجموعة من الرجال كانوا قوميين في نظرهم العامة . وبوجه عام ، كان القوميون جميعاً — وقد أطلقوا على أنفسهم فيما بعد : الاتحاديين (الفيدراليين) — هم الذين كانوا مهتمين أشد الاهتمام بتصدع الاتحاد الكونفيدرالى ، والذين أطلقوا الدعوة الأصلية إلى عقد المؤتمر القومى . كذلك كان القوميون هم الذين أمسكوا بزمام المؤتمر ، وقد حالفهم الحظ بأن كان واشنطن في صفهم ، وكان واشنطن هو المختار المحتوم من كافة الوفود لرئاسة المؤتمر . وقد أوتوا من حسن الإدراك ما جعلهم يأتون مستعدين بمسودة لدستور جديد ، وما مكنهم من جعل هذا المشروع موضوع الدراسة بدلاً من المواد القديمة .

وشهدت أوائل شهر مايو المندوبين يسعون إلى فيلادلفيا فرادى وأزواجاً . وكان واشنطن دقيقاً في مواعده بما طبع عليه ، فوصل في الثالث عشر من الشهر ، متشحاً بالمخمل الأسود ، متقلداً سيفاً لمجرد أبهة المنظر ، فأصبح على الفور معقد الانتباه . وأقام بنجامين فرانكلين في السادس عشر مأدبة عشاء للوفود التي كانت موجودة بالمدينة إذ ذاك ، قدر لها أن تعلق بالأذهان طويلاً ، ففض لهم قنينة كبيرة من الشراب كان أحد أصدقائه قد أرسلها له ، وقدم إليهم وافرأ من نبيذ ماديرا المعتق ولاشك . وكان بين ضيوفه جيمس ماديسون مندوب فيرجينيا ، وكان ضيفاً في الجسم ولكنه عملاق في قدراته على التحليل السياسى . وهو — كخريج في جامعة برينستون ، ومحام من أصحاب المزارع ، يقضى الكثير من وقته في الأدب الرفيع — كان ثانى أعظم أعضاء المؤتمر علماً بعد فرانكلين ، وقدر له أن يثبت أنه كان أكثر المندوبين دأباً ، وأعظمهم عقلية بناء . كذلك كان بين الضيوف جورج وايت ، البالغ من العمر خمساً وستين سنة ، والذي علم جيفرسون ، وماديسون ، وجون مارشال ، وغيرهم من المحامين اللامعين في فيرجينيا القانون . ثم كان هناك حاكم فيرجينيا إدموند راندولف ، الذى كان يمتلك حوالى سبعة آلاف دونم ومائتى عبد .

وكان بين مندوبى بنسلفانيا روبرت موريس ، رجل المال الجليل الذى دبر من المال ما مكن جيوش واشنطن من البقاء في الميدان خلال أحلك أيام الثورة . وفي البيت الأبيض ، بيت موريس ، أقام واشنطن أثناء الاجتماعات . كما كان هناك جوفرنير موريس ، الذى ولد في أسرة غنية في نيويورك وأصبح في طليعة المحامين والمضاربين على الأرض في فيلادلفيا . وحضر كذلك جاريد إنجرسول الذى درس في ميدل تمبل وارتقى

ليصبح من أحسن المحامين في بنسلفانيا ، وجيمس ويلسون ، وكان رجلاً متمزناً في صراحته ، ولد وتعلم في اسكتلندا ، وأصبح أضحل القانونيين وأوسعهم اطلاعاً في أمريكا . وكان من العسير أن تجمع مواهب وشخصيات تفوق هؤلاء حول مائدة عشاء ، في أى مكان في العالم ، في سنة ١٧٨٧ . بل المحقق أنه ما كان لأية مجموعة في العالم القديم أن تزهر بشخصيات باهرة تفوق واشنطن الجاد ، الجليل ، وفرانكلين الحكيم والطيب في بشاشة ولطف ، والذي كان يبدو كأنه « يفيض تحرراً وسعادة منطلقين » ، كما كتب أحد المعاصرين .

ومن الجدير بالملاحظة أن بعضاً ممن كانوا أكثر نشاطاً في إطلاق الثورة والقتال من أجلها ، لم يشتركوا في المؤتمر . فقد كان جيفرسون في فرنسا ، ورفض باتريك هنرى الاختيار ، وكان جون آدمز وزيراً مفوضاً في إنجلترا ، كما أن الاختيار لم يقع على الخطباء الشائرين الثلاثة : توم بين ، وسام آدمز ، وكريستوفر جادسدن . وموجز القول أن المتطرفين لم يكونوا ممثلين تمثيلاً كافياً . ولقد وجه بعض المؤرخين كثيراً من الاهتمام إلى أن النسبة الكبرى من المندوبين كانوا من أصحاب الأراضي ، ويمتلكى سندات الحكومة القارية أو حكومات الولايات . ولكن الجدير بنا أن نتذكر أن النسبة الكبرى من الأمريكيين كانوا ينتمون إلى العناصر الوسطى المالكة لثروات . فقد كان في أمريكا — كما ذكر بنجامين فرانكلين — نفر قليل من فاحشى الغنى ، ونفر قليل من الفقراء المدقعين ، في القرن الثامن عشر . ومن الواجب أن نضيف أن المؤتمر الفيديرالى كان — فيما يحتمل — أكثر اجتماع سياسى ممثل لشعبه يمكن العثور عليه في العالم الغربى في ذلك الحين .

المؤتمر يعمل

هكذا كان المؤتمر خلقاً نادراً ، هيئة معقودة العزم بتصميم صادق . وكان عجباً من حيث أنه كان لكل ولاية أن توفد أى عدد شاءت من المندوبين ، إذ أن كل ولاية اختارت المندوبين على حدة . بيد أن معظم الولايات أرسلت وفوداً صغيرة لأسباب دعته للاقتصاد . فلم يكن مجموع الحضور سوى خمسة وخمسين ، ولم يحضر بعضهم إلا لوقت

١٢٧ وضع الدستور

قصير، لذلك فلم يكن الحاضرون في الختام سوى تسعة وثلاثين، ولم ينجح إلى السكوت أثناء المداولات سوى قلة، منها واشنطن طبعاً. وكان النصف تقريباً من خريجي التعليم العالى، كما كانت أغلبية كبيرة من المحامين، فعبروا عن آرائهم بدقة وإجادة. ولم يحتفظ بتقرير مفصل للمداولات، وما لاشك فيه أن الروايات التى نشرت فى يوميات ماديسون وغيره حذفت كثيراً من الكلام. بيد أن أحداً لا يملك أن يقرأ هذه الملخصات دون أن يُهر بها لمعظم المتكلمين من قوة إقناع منطقى. ولقد أعانتهم فى مناقشاتهم قاعدة السرية التى حرص عليها المؤتمر بشدة. إذ أن النشر كان خليقاً بأن يضخم الخلافات، وأن يغرى الأعضاء بإلقاء خطب لتردها المحافل والصحف، مما كان يعرضهم لضغوط من ناخبيهم. ولقد استحق مواطنو فيلادلفيا العاقلون الشناء لأنهم رفضوا الاطلاع على عمل المؤتمر. ولقد ذكر فرانكلين لأصدقائه فى مادبته الخرافة القديمة عن أفعى ذات رأسين ماتت جوعاً لأن الرأسين أبيتاً أن يتفقا على أى جانبى الشجرة تمر الأفعى عنده، وقال إن بوسعه أن يقدم مثلاً من مناسبة حديثة فى المؤتمر، بيد أن أصدقاءه ذكروه بقاعدة السرية فأوقفوه عن الكلام.

اتفق المندوبون ضمناً، فى بداية المؤتمر، ألا ينقحوا مواد الاتحاد الكونفيدرالى، بل يضعوا دستوراً جديداً كل الجدة. وقد تجاوزوا بهذا السلطة التى منحهم إياها قرار المؤتمر القارى، ولكنهم لم يتجاوزوا السلطات التى استخلصها من الهيئات التشريعية للولايات، إذ أن معظم هذه الهيئات حولتهم وضع دستور «كاف لمتطلبات الاتحاد». ولما لم يكن مجرد التعديل للمواد القديمة كفيلاً بتحقيق هذه الغاية، فقد أقدم المندوبون «باعتداد نبيل ببلادهم» — كما كتب ماديسون فيما بعد — على المضى فى جرأة نحو شكل جديد للحكم.

ومن المهم فى وصف عمل المؤتمر، إبراز بضعة اعتبارات عامة عظيمة. كان المندوبون يدركون أنه لا بد من إقامة جهاز مترابك، فما كانت أية حكومة بسيطة لتكفى. وكان عليهم فى البداية، أن يوفقوا فى رفق تحف به الهواجس، بين سلطتين مختلفتين: سلطة السيطرة المحلية التى كانت تمارسها فعلاً الولايات الثلاث عشرة نصف المستقلة، وسلطة الحكومة المركزية الحديثة الإنشاء. وكانت مهمة لم يتضمن سابقة لها سوى تاريخ الإمبراطورية البريطانية. فقد كان فى الإمبراطورية، كما كانت قائمة قبل سنة ١٧٦٣، نظام فيدرالى بالنسبة لكافة النوايا والأغراض، وتقسيم لاختصاصات

الحكم بين السلطات المركزية والمحلية . بيد أن الاتحادات الأخرى التي أنشئت حتى ذلك الحين ، كانت جميعاً — دون ما استثناء — صغيرة المساحة ، وكادت أن تكون جميعاً — دون ما استثناء — مفككة للغاية ، ونادراً ما رافقها النجاح لأية مدة طويلة . وكان جيمس ماديسون وبضعة نفر آخرين قد قاموا بدراسة واسعة للحكم بوجه عام ، وللاتحادات في اليونان ، وهيلفسيا ، وهولندا بوجه خاص . في حين كان معظم المندوبين من ذوى الاطلاع الواسع في مجال الفكر السياسى . وكان المبدأ الذى اتخذه ، هو أن وظائف الحكومة القومية وسلطاتها يجب أن تحدد بعناية ، بينما يكون من المفهوم أن كافة الوظائف والسلطات الأخرى ملكاً للولايات . وكان لابد من ذكر وإثبات سلطات السيادة القومية — بوصفها سلطات جديدة ، وعامة ، ولا تقبل التجزئة .

النتائج النهائية للعمل

ومضت عملية إنشاء جهاز قومي تسير قدماً ، جنباً إلى جنب مع عملية تسجيل السلطات هذه . وقد ساند هذا العمل كذلك مبدأ عام . كان من المفهوم أنه لابد من إقامة ثلاثة فروع منفصلة للحكم ، كل منها متساو ومتناسق مع الآخرين : الهيئات التشريعية ، والتنفيذية ، والقضائية ، فتكون متكاملة ومتراطة بدرجة تسمح بانسجام عملها ولكنها — في الوقت ذاته — تكون من قوة التوازن بحيث لا يتسنى لأية مصلحة فردية أن تفرض سيطرتها . كانت هذه الفكرة عن توازن السلطات في القرن الثامن عشر ، مذهباً في السياسة يرجع إلى نيوتن . ولقد استخلص المبدأ ، بحكم طبيعته ، من تجربة المستعمرات ، وعُزز بكتابات لوك ومونتسكيو ، التي كان معظم المندوبين على دراية بها . وكان التعريف الأمريكى للحكومة الجائرة ، أنها الحكومة التى يستولى فيها عنصر واحد بمفرده على دور متسلط . كذلك كان من الطبيعى التسليم بأن الفرع التشريعى يجب أن يتألف من مجلسين ، كما كانت الهيئات التشريعية في المستعمرات وكالبرلمان البريطانى . ولم يكن الإيذان بقيام هيئة تنفيذية واحدة إجماعياً ، ولكن دعاة تعدد الهيئة التنفيذية أفحموا إذ ذُكروا بالمثل العام الذى ضربته المستعمرات والولايات . ولقد أدى قرار إقامة هيئة تشريعية من فرعين إلى تيسير تسوية النزاع الأساسى ،

١٢٩ وضع الدستور

وإن لم يكن واقعياً ، في المؤتمر بصدد سلطات الولايات الصغيرة والولايات الكبيرة . فلقد أكدت الولايات الصغيرة أن من حقها أن تتساوى مساواة تامة مع شقيقاتها الكبرى ، كما كانت الحال في الاتحاد الكونفيدرالى ، وأن كونكتيكت الصغيرة يجب ألا تداس تحت أقدام نيويورك الكبيرة ، ولا ميريلاند الصغيرة تحت أقدام فيرجينيا الكبيرة . أما الولايات الواسعة ، فقد أكدت أن السلطان يجب أن يتناسب مع الحجم ، والسكان ، والثروة .

وبفضل التوفيق الذى انتهج في النهاية ، مُنحت الولايات الصغيرة حق المساواة في التمثيل في مجلس الشيوخ مع الولايات الكبيرة . أما في مجلس النواب ، فوُزعت المقاعد على أساس السكان . وعند الانتقال إلى الهيئة التنفيذية ، كانت المشكلة الكبرى هى الاستقرار على نهج انتخابى . هل يكون اختيار الرئيس بواسطة الكونجرس ؟ إن هذا يميل كثيراً نحو جعله مستنداً إلى الفرع التشريعى ، مما يخل بميزان القوة . هل يختار بتصويت شعبى ؟ لقد كان شعب الولايات المتحدة ، متناثراً في مساحة هائلة ومطردة الامتداد ، وكانت وسائل المواصلات قاصرة . ومن ثم فسيكون من العسير عليهم أن يركزوا أصواتهم على مرشح واحد أو عدد قليل من المرشحين ، وسيكون هناك عدد كبير من الاختيارات ، فلا يقدر لرجل واحد أن يقترب من إحراز أغلبية الأصوات . لهذا استقر الرأى أخيراً على إقامة مجمع انتخابى ، يكون فيه لكل ولاية من المندوبين بعدد ما لها من شيوخ ونواب . ولم يطبق هذا النظام في الواقع بالشكل الذى قصد إليه واضعوه ، إذ فاتهم أن يروا مقدماً تطور الأحزاب السياسية التى بدأت على الفور . أما فيما يتعلق بالفرع الثالث ، وهو القضاء الفيدرالى ، فتقرر أن يعين الرئيس القضاة بمشورة مجلس الشيوخ وموافقة ، لمدى الحياة إذا أحسنوا التصرف .

إن براعة واضعى الدستور وحكمتهم لتعلوان على إعجابنا . فلقد أقاموا أكثر الحكومات التى ابتكرها الإنسان - حتى الآن - تراكباً ، وهى كذلك الأبدع توازناً والأكثر حظاً من الحماية . فكان كل من الفروع الثلاثة مستقلاً عن الآخرين ومتساوياً معهما ، ومع ذلك فقد كان كل منهما تحت إشراف الآخرين ورقابتهما . فما كان للتشريعات التى يقرها الكونجرس أن تغدو قوانين حتى يصدق عليها الرئيس ، وكان على الرئيس بدوره أن يعرض تعييناته للمناصب وارتباطاته وكافة معاهداته على مجلس الشيوخ ، كما كان من الممكن اتهامه ومحاسبته وإبعاده عن منصبه بواسطة الكونجرس . وكان للهيئة القضائية أن تنظر كل القضايا التى تثار تحت القوانين والدستور ، ومن ثم

١٣٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

فقد كان لها أن تفسر القانون الأساسى والقانون التشريعى . بيد أن القضاة كانوا يعينون من قبل الرئيس ويعزز مجلس الشيوخ تعيينهم ، فى حين كان من الممكن للكونجرس أن يوجه إليهم الاتهام هم الآخرين . ولما كان الشيوخ يُنتخبون بمعرفة الهيئات التشريعية للولايات لمدة ست سنوات ، وكان الرئيس يُختار بمعرفة مجمع انتخابى ، وكان القضاة يعينون ، فلم يكن أى جزء من جهاز الحكم معرضاً لضغط من الجمهور اللهم إلا المجلس الأدنى فى الكونجرس . يضاف إلى هذا أن موظفى الحكومة كانوا يُختارون لمدد واسعة الثباين ، تتراوح بين مدى الحياة وعامين ، فلم يكن من سبيل لتغيير الموظفين تغييراً كاملاً إلا بثورة .

ولقد أعلن بعض الدارسين للمؤتمر ، وقد تناولوه على أنه هيئة اقتصادية وليست سياسية ، أن النتائج الرئيسية له كانت فى صالح ملاك الثروات ، وطبقة التجار وأصحاب القروض . ولكن علينا أن نتذكر مرة أخرى أن أمريكا كانت ، فى سنة ١٧٨٧ ، بلاداً يكاد الجميع فيها — من مزارعين ، وأصحاب مزارع ، وأصحاب حوانيت ، ومهنيين — أن يكونوا فى ميسرة ، فكانت الفواصل الطبقة فيها قليلة وباهتة . كما أن الأمن والاستقرار كانا لنفع كل امرئ ، إذ كان الجميع يصبون إلى نقد مستقر ، وتجارة منعشة ، وحماية الأصصاق الغربية ، وتطبيق حازم للعدالة ، وتطبيق كفء لكل شأن من شؤون الحكم اليومية . أما فيما يتعلق بأن الدستور وثيقة طبقية ، فيكفى أن نلاحظ أن نصوصه لم تتضمن أية مؤهلات من ثروة أو دين للظفر بحق الانتخاب أو للترشيح لأى منصب اتحادى .

ولقد كان من الممكن أن تكون القرارات التى كفل بها المؤتمر للحكومة الاتحادية أن تكون من القوة بحيث تصون النظام وتحمى الثروة . . كان من الممكن لهذه القرارات أن تكون متفجرة بدرجة خطيرة ، فى أية ظروف أخرى . بيد أن معظمها اتخذ بعد مناقشة موجزة وهادئة . فمُنحت الحكومة الاتحادية السلطة الكاملة ، دون ما قيود ، لفرض الضرائب ، مما كفل لها الوسائل لدفع الديون التى تجاوزت مواعيد استحقاقها بأجل طويل ، ولتسترد قروضها ، ولتفرض الرسوم والضرائب المباشرة والاستقطاعات الرسمية ، وأن تقر قوانين رسمية للإفلاس . ولقد مُنحت سلطة سك النقود ، وتحديد الأوزان والمقاييس ، ومنح رخص الاختراع وحقوق النشر ، وإقامة مكاتب للبريد ، وطرق للبريد . ولقد خُولت سلطة تكوين جيش وأسطول والاحتفاظ بهما . وكان لها أن

١٣١ وضع الدستور

تنظم التجارة بين الولايات . ولقد عهد إليها بتولى العلاقات الهندية بأسرها ، والعلاقات الخارجية ، والحرب . وكان لها أن تتدخل لإقرار النظام إذا اندلعت أعمال العنف المحلية في أية ولاية ، وطلبت الهيئة التشريعية أو الحاكم المساعدة . وكان لها إصدار قوانين لمنح الأجانب الجنسية . ونظراً لسيطرتها على الأراضي العامة ، فقد كان بوسعها ضم ولايات جديدة على قدم المساواة مع القديمة . وكان لها أن تتخذ عاصمة خاصة بها في بقعة لا تتجاوز عشرة أميال مربعة . وقصارى القول أن الحكومة القومية كانت عزيزة السلطان من البداية ، وقدر لها أن تزداد قوة بفضل تأويلات المحكمة العليا للدستور . وكانت هذه القوة رد فعل طبيعى نشأ عن ضعف الاتحاد الكونفيدرالى .

على أن الولايات ظلت هى الأخرى قوية . فقد احتفظت بكافة سلطات الحكم المحلى ، وتولت تنظيم معظم الأمور اليومية التى تهم الشعب . فالمدارس ، والمحاكم المحلية ، وصون الأمن ، وتخطيط المدن الصغيرة والكبيرة ، وإجازة شركات المصارف والأوراق المالية ، والعناية بالجسور والطرق والقنوات . . كل هذه الأمور وكثير غيرها كانت فى أيدي الولايات . وكان للولايات أن تقرر من الذى له حق الانتخاب ، وكيف . وكانت مسئولة — فى المقام الأول — عن حماية الحريات المدنية . ولقد ظل كثير من الناس أمدأ طويلاً يرون أنفسهم أبناء جورجيا أو بنسلفانيا أو فيرجينيا قبل أن يشعروا بأنهم أمريكيون .

أخيراً ، واجه المؤتمر أهم المشكلات جميعاً : كيف ينبغى تنفيذ السلطات التى منحت للحكومة القومية الجديدة ؟ . . كانت الحكومة الكونفيدرالية القديمة تمتلك سلطات كبيرة — وإن لم تكن كافية — على الورق . ولكن سلطاتها عند التطبيق العمل كانت قريبة من لا شئ ، لأن الولايات لم تولها أى اهتمام . فما الذى كان ينقذ الحكومة من أن تصادف عين العقبات والرفض ؟ لم يقدم معظم المندوبين فى بادئ الأمر سوى رد واحد : استخدام القوة . واقتربت فيرجينيا أن يخول الكونجرس السلطة « لدعوة قوة الاتحاد ضد أى عضو . . يخفق فى أداء واجبه وفقاً للمواد التالية » . وكان هذا خطأ من الناحية النظرية ، لأن القوة أداة للقانون الدولى ، وكان من الممكن أن تكون قاضية عند التطبيق ، إذ أنها كانت بمثابة حرب أهلية . كان تطبيق القوة خليقاً بأن يحطم الاتحاد سريعاً ، وسط الدم المراق والخراب .

فما الذى كان ينبغى عمله إذن ؟ مع استمرار المناقشة ، تبلور حل جديد ، ومثالى .

١٣٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

فقد تقرر ألا توجه الحكومة تصرفها إلى الولايات إطلاقاً ، بل يجب أن تتصرف مع الشعب في داخل الولايات مباشرة . فتضع التشريعات لمصلحة جميع سكان الدولة ولفرضها عليهم ، متجاهلة حكومات الولايات . وفي هذا كتب ماديسون إلى جيفرسون : « لم يكن من سبيل للأمل في أن تراعى كافة الأعضاء (الولايات) القانون الاتحادى طوعية . ومن الواضح أنه ما كان من الممكن وضع أى قانون لإلزامها بذلك موضع التطبيق ، فإذا تسنى ذلك فإنه كان سينطوى على كوارث للبرء والمذنب على السواء ، وعلى مشهد أقرب شبهاً — بوجه عام — بحرب أهلية منه إلى قيام حكومة نظامية بمهامها . من هنا اعتنق الحل البديل ، الذى يقضى بحكومة تمارس مهامها على الأفراد المؤلفين للولايات ، بدلاً من الولايات ذاتها ، وبدون تدخلها . . . » . وأقر المؤتمر المادة الموجزة التالية ، كمبدأ أساسى :

هذا الدستور ، وقوانين الولايات المتحدة التى ستصدر وفقاً له منذ الآن ، وكافة المعاهدات المبرمة أو التى ستبرم بسلطان الولايات المتحدة ، ستكون الشريعة العليا للبلاد ، وسيكون القضاء فى كل ولاية ملتزمين بها منذ الآن ، بالرغم من أى شيء فى دستور أية ولاية أو قوانينها يخالفها .

بموجب هذه المادة ، أصبحت قوانين الولايات المتحدة قابلة للتنفيذ فى محاكمها القومية ، وعن طريق القضاء والمسؤولين عن التنفيذ القضائى . كذلك كانت نافذة فى محاكم الولايات ، عن طريق قضاة الولايات ومسؤوليها القضائيين . وقد بث هذا النص حيوية فى الدستور ما كان من الممكن أن يكتسبها بدونه ، كما أن من المحتمل أنه يقدم خير مثال يصور ما اتسم به هذا الجهاز (الدستور) — فى مجموعه — من جمع بين الإدراك السليم والإلهام ، بين البراعة التطبيقية ، والتطلع البعيد النظر .

وفى يوم الاثنين ١٧ سبتمبر ، عقد المؤتمر آخر اجتماعاته ، بعد أحسن إنتاج صيفى قامت به أية جمعية فى العالم التأمّت للسعى إلى غاية صممت عليها .

ولم يرفض التوقيع سوى ثلاثة من المندوبين الحاضرين فقط ، أما معظم المندوبين فكانوا مغتربين . وأعلن فرانكلين المسن أنه وإن لم يكن يقرر كافة أجزاء الدستور فإنه كان فى دهشة من أن يجده أقرب ما يكون للكمال . ولقد رجا أى رجال لا يرتاحون إلى

١٣٣ وضع الدستور

بعض معاملة أن يرتابوا في عصمتهم الشخصية من الخطأ قليلاً ، فيقبلوا الوثيقة . وأطلق ألكسندر هاملتون ، الشاب المندفع ، رجاء شبيهاً بهذا إلى حد ما . فلقد كان يأمل في حكومة من نوع أكثر مركزية وأكثر أرستقراطية ، ثم تساءل : ولكن كيف يمكن لأى وطنى صادق أن يتردد بين الفوضى والقلق من ناحية ، والنظام والتقدم من ناحية أخرى ؟ وأقبل المندوبون الممثلون لاثنتى عشرة ولاية على التوقيع . وبدأ الكثيرون مسوقين تحت جلال اللحظة ، بينما جلس واشنطن في استغراق واجم . بيد أن فرانكلين خفف من التوتر بإحدى ملححه الفكهة ، إذ أشار إلى نصف قرص الشمس المرسوم بلون ذهبى لامع على ظهر مقعد واشنطن ، وقال إن الفنانين اعتادوا دائماً أن يجودوا عناء في التمييز بين شمس مشرقة وشمس غاربة . واستطرد قائلاً : « وكثيراً ما تطلعت مراراً وتكراراً - خلال الاجتماع ، وتضارب آمالى وخوافى بالنسبة لمقرراته - إلى الشمس التى وراء الرئيس ، دون أن أملك أن أجزم بما إذا كانت مشرقة أو آفلة . أما الآن ، وأخيراً ، فإننى سعيد إذ أعلم أنها شمس مشرقة وليست جانحة للغروب » .

التصديق

ترى أنصدق الولايات على الدستور الجديد ؟ إنه بدا لكثير من عامة الناس مليئاً بالأخطار . ألن تجر عليهم الحكومة المركزية القوية التى أقامها ، وتظلمهم بالضرائب الباهظة ، وتجرهم إلى حروب فى الخارج ؟ ولقد قرر المؤتمر أن يغدو الدستور سارياً بمجرد أن تقره تسع من الولايات الثلاث عشرة . وقبل أن تنتهى سنة ١٧٨٧ كانت ديلاوير وبنسلفانيا ونيوجيرسى قد صدقت عليه ، ولكن هل تتبعها ست ولايات أخرى ؟ كان واضعو النظام الجديد يشعرون بقلق عظيم .

ولقد أدى الصراع من أجل التصديق إلى مولد حزبين : الاتحاديين (الفيدراليين) ، ومناهضى الاتحاد ، أى الذين كانوا يؤثرون حكومة قوية ، والذين كانوا يبتغون مجرد رابطة للولايات . واستمر النضال فى الصحافة ، والهيئات التشريعية ، والمؤتمرات السياسية فى الولايات . وتدفقت من الجانبين المجادلات الحامية . وكانت أفدرها مفعولاً « البحوث الاتحادية » ، التى كتبها ألكسندر هاملتون ، وجيمس

ماديسون ، وجون جاي دفاعاً عن الدستور ، فكانت مجموعة قدر لها أن تصبح من روائع التأليف في السياسة . وتجلى أن المعركة كانت أشد أواراً في ثلاث ولايات ، هي مساشوستس ونيويورك وفيرجينيا . ففي مساشوستس أدى التأييد القوي من عمال الملاحة في بوسطن ، والمشتغلين بالأعمال المعدنية وغيرهم من الميكانيكيين ، إلى تعزيز المحامين والتجار وقسط كبير من المزارعين ، مما أفضى بالدستور إلى الفوز . وفي نيويورك ، حولت بلاغة ألكسندر هاملتون المجادل الرئيسى في آخر الأمر ، وصدعت قوات العدو ، وظفرت بالتصديق بأغلبية كبيرة . أما في فيرجينيا ، فإن نفوذ جورج واشنطن (الذى كان قوياً في كل مكان) ، وحجج ماديسون القوية ، ظفرت بالفوز . وعندما آن لفيرجينيا أن تبت في الأمر أخيراً ، كانت تسع ولايات أخرى قد أصدرت موافقتها ، ومن ثم بات من المحقق أن تصبح الحكومة نافذة السلطان ، بيد أن التأييد الكامل من ولاية واشنطن بدا أمراً لا غنى عنه ، وقد استقبل بمظاهر صاحبة للفرح .

ولقد حشدت فيلادلفيا موكباً عظيماً ، يوم ٤ يوليو سنة ١٧٨٨ ، للاحتفال بقبول نظام الحكم الجديد . وأظهرت إحدى منصات الموكب الرمزية سفينة الكونفيدرالية المصدعة (تمثيلاً للحكومة الضعيفة بموجب مواد الاتحاد الكونفيدرالى) ، يقودها الغباء ، وقد امتلأت بالماء وجنحت للغرق . وأظهرت أخرى سفينة الدستور المتينة متأهبة لتخوض أعلى البحار . ولقد كانت مستعدة فعلاً ، فقد اتخذت التدابير لاختيار الرئيس والكونجرس ، ولتحقيق قيام الحكومة الجديدة في ربيع سنة ١٧٨٩ . ولم يكن على شفاه الجميع سوى اسم واحد كرئيس للدولة ، فاختير واشنطن رئيساً بالإجماع .

وهكذا شهدت البلاد ، بعد ظلمات الأعوام الأخيرة ، الشمس المشرقة التى كان فرانكلين قد حياها في قاعة الاستقلال . ومن الأحداث البهيجة في مطلع التاريخ الأمريكى ، حادث شاعرى ومثير للعواطف في آن واحد ، تمثل في الرحلة التى قام بها واشنطن من ضيعته الجميلة المطللة على نهر بوتوماك ليتسلم زمام الحكم في نيويورك . فقد انطلق في أواسط أبريل ، والربيع المكتمل يتفتح على تلال فيرجينيا . واتجه شمالاً في طريق كانت شديدة الشبه ، في بعض مواقعها ، من الطريق التى سلكها في سنة ١٧٨١ ليأسر كورنواليس . وأخذ الناس يتدفقون في كل محلة وبلدة ومدينة ليحيوه بهتافات جذلة . وقام الفرسان في فيلادلفيا بعرض منظم ، كما سارت مركبته تحت أقواس للنصر من النباتات الدائمة الخضرة والغار . وبلغ تريبتون بعد ظهر يوم مشمس ، في حين أنه

١٣٥ وضع الدستور

قبل اثني عشر عاماً عبر نهر ديلاوير المليء بالثلوج في جنح الظلام ، وتحت العاصفة ، ليوجه إحدى ضرباته الحربية الشهيرة . وهنا أخذ فريق من العذارى المتشحات بثياب بيضاء يشرون الزهور في طريقه وينشدن إحدى القصائد العصباء . وعلى ضفاف خليج نيويورك ، انتقل إلى سفينة عبور جميلة ، تولى أمرها ثلاثة عشر رجلاً في بزات بيضاء ، حتى إذا اقترب من المدينة ، أطلق ثلاثة عشر مدفعاً ، وهبط ليجد المدينة مليئة بحشود مبهجة ، بينها كثير من المحاربين في الثورة . وفي ٣٠ أبريل ، وقف في شرفة القاعة الاتحادية في وول ستريت ، أمام جمع هائل من الناس ، ليؤدي يمين المنصب . وتولى مراسم القسم مستشار نيويورك ، ثم التفت إلى الحشد هاتفاً : « ليعيش جورج واشنطن ، رئيس الولايات المتحدة ! » . . ومن الجمع الزاخر تحت الشرفة ، انطلق هتاف مجلجل .

أمريكا في سنة ١٧٨٩

كانت جمهورية متوثبة تلك التي أصبحت متأهبة لتبدأ حياتها . ولقد كشف تعداد للسكان أجرى في العام التالي لتتصيب واشنطن ، عن أنها كانت تضم حوالي أربعة ملايين من النسب ، كان ثلاثة ملايين ونصف المليون تقريباً من البيض . وكان هؤلاء السكان في الغالب من الريفيين جميعاً . فلم تكن هناك من المدن ما تستحق الاسم سوى خمس : فيلادلفيا وتضم ٤٢٠٠٠ شخص ، ونيويورك وتضم ٣٣٠٠٠ ، وبوسطن ١٨٠٠٠ ، وتشارلستون ١٦٠٠٠ ، وبلتيمور ١٣٠٠٠ . كانت الأغلبية العظمى من السكان يعيشون في مزارع أو ضياع ، أو في قرى صغيرة . وكانت المواصلات شحيحة وبطيئة ، إذ كانت الطرق سيئة ، والحافلات (المركبات العامة) غير مريحة ، والسفن غير منتظمة . بيد أن شركات الطرق بدأت تتكون (وسرعان ما أنشئ طريق نموذجي بين فيلادلفيا ولانكاستر) ، وما لبثت القنوات أن حفرت . وكان معظم الناس يعيشون في عزلة نسبية ، والمدارس قليلة ، والكتب أقل ، والصحف نادرة . كان الطابع الذي خلفته أمريكا لدى الرحالة الأوروبيين طابع الخشونة ، وقلة الراحة ، وغلظة الطابع ، وضآلة الثقافة ، مع الاستقلال ، واليسر المادي ، واعتداد

بالنفس لا حدود له . على أن حالها كانت في تحسن ثقافياً ومادياً .
 ذلك أن البلاد كانت في نمو مطرد دائم . فأخذ المهاجرون من العالم القديم يفدون بأعداد جعلت الأمريكيين يظنون في بعض الأحيان ، أن نصف أوروبا الغربية كان يتدفق على بلادهم . وكانت المزارع الجيدة متوفرة لقاء مبالغ صغيرة ، والطلب شديداً على العمال ، والأجراً طيباً . ونظرت الحكومة إلى هذه الهجرة بتحبيد ، وكان واشنطن بالذات يترشح إلى فكرة اجتلاب المزارعين ذوي الخبرة من بريطانيا لتعليم الأمريكيين أساليب زراعية أفضل . وسرعان ما أصبحت المساحات المترامية في وادي موهوك وجنيسى في شمال نيويورك ، ووادي سسكيهانا في شمال بنسلفانيا ، ووادي شيناندوا في فيرجينيا ، مناطق لزراعة القمح . وأخذ الناس من نيوانجلاند وبنسلفانيا ينتقلون إلى أوهايو ، ومن فيرجينيا وكارولينا الشمالية والجنوبية إلى كنتكى وتينيسى .

كذلك كان أصحاب المصانع في ازدياد ، تشجعهم المنح من الولايات . وأخذت مساشوستس ورود آيلاند تضعان أسس صناعات نسج مهمة ، أخذت تحصل خفية على نماذج الآلات من إنجلترا . وكانت كونكتيكت قد بدأت تنتج السلع القصدية والساعات ، وولايات الوسط تنتج الورق والزجاج والحديد . غير أن أمريكا لم تكن حتى ذلك الحين قد أوتيت مدناً صناعية ينصرف سكانها تماماً إلى العمل في المصانع . والواقع أن معظم العمليات الصناعية كانت تؤدي في المساكن : فكان بوسع المزارعين أن يصنعوا ، في أمسيات الشتاء الطويلة ، أقمشة خشنة ، وسلعاً من الجلد ، وأنية من الفخار ، والأدوات الحديدية البسيطة ، والسكر ، والأدوات الخشبية . وعندما بدأت المصانع والورش في الظهور ، كان أصحابها كثيراً ما يشتغلون مع عمالهم الأجراء .

وأخذت الملاحة تزدهر ، وشرعت الولايات المتحدة في احتلال المكانة الثانية بعد إنجلترا في المحيط . وصُنعت السفن بأعداد كبيرة للتجارة الساحلية ، ولصيد سمك القد وصيد الحوت ، ولنقل الحبوب للخبز والتبغ والخشب وغيرها من البضائع إلى أوروبا . ولم تكن الثورة قد انتهت تماماً عندما قامت السفينة إمبريس برحلة إلى كانتون ، وعادت بأنباء إمكانات الاتجار مع الصين ، مما أثار حماس أهل نيوانجلاند . وبرزت تجارة جديدة ، بلغ من نشاطها أن خمس سفن تحمل العلم الأمريكي (النجوم والأشرطة) ذهبت إلى الصين في سنة ١٧٨٧ . وكان الشرقيون يتلهفون على اقتناء الفراء ، فصمم بعض تجار بوسطن على إرسال سفن إلى الساحل الشمالي الغربي ، لشراء جلود الحيوان

١٣٧ وضع الدستور

من الهند ، ونقلها إلى الصين وإحضار الشاي والأقمشة الحريرية في مقابلها . وتكشف المشروع الجديد عن نجاح . وفوق هذا ، أدى إلى أن الربان اليانكي روبرت جراى ، ربان السفينة كولبيا ، ولج النهر العظيم عند الساحل الشمالى للمحيط الهادى ، الذى أطلق عليه اسم سفينته ، وبهذا خلق أساساً لادعاء الولايات المتحدة حق تملك أوريجون .

وكان الدافع الرئيسى للطاقة الأمريكية فى اتجاه الغرب — الغرب باطراد واستمرار . فمن المساحات التى طُهرت من شجر البلوط فى أوهايو ، إلى المساحات التى اجتثت منها الأعشاب الصنوبرية فى جورجيا ، كانت بلطة القائم بإزالة الغابات على الحدود تدق كدقات طبل جحافل زاحفة . وزحفت مركبات كونيستوجا ذات السطوح البيضاء متسلقة سفوح جبال أليجنى الطويلة فى قوافل للهجرة الداخلية ، وخلال عمر كمبرلند إلى كنتكى سعى الصيادون وطلّاع المرتدين ، وهم يتشحون بفراء الوعول ، مع مركبات الأثاث والبذور وأدوات الزراعة البسيطة والحيوانات المستأنسة . وما أكثر المساحات التى استُخلصت بطريقة فجّة من أشجار الجوز — رمز التربة الخصبة — بعد القضاء عليها بطريقة الخنق ، ليقم فيها المزارع من مستوطنى الحدود بمساعدة جيرانه كوخاً من الكتل الخشبية ، تسد الثغرات بينها بالطين ، ويكسى السقف بشرائط رقيقة من البلوط . وأخذ نهرا أوهايو والميسيسيبى يشهدان فى كل عام مزيداً من الأطواف والسفن المسطحة الأمريكية تطفو فى اتجاه المصب نحو نيواورليانز محملة بالغلال ، واللحوم المملحة ، ورماد الخشب المستخدم فى صناعة الصابون . وعاماً بعد عام ، كانت تزداد أهمية المدن الغربية مثل سينسيناتى على نهر أوهايو ، ناشفيل فى قلب وادى تينيسى ، ولكسينجتون فى كنتكى . ولم يكن ثمة بد من مواجهة إغارات الهند ، والملايا ، والوحوش الضارية ، وقطاع الطريق الذين يطوفون بالحدود النائية ، وغير ذلك من أخطار . . ولقد تقاضت المحن والفقر والمرض ضريبة فادحة . ومع ذلك تدفق على الفقر عشرة آلاف مجرى للاستيطان ، واستمر خط الحدود النهائية يتباعد ، وظل ما قاله الأسقف بيركل فى عهد الاستعمار صالحاً للتطبيق : « إن طريق الإمبراطورية يشق اتجاهه نحو الغرب » .



الفصل ٦

الجمهورية تمتد إلى داتها

تنظيم الحكومة تحت رئاسة واشنطن

طلع عام ١٧٨٩ على نيويورك وهي تزدهر متحولة إلى عاصمة قومية مؤقتة . فقد أعيد تجديد خير بيوتها بكل أناقة ممكنة ، وازدحت طرقاتها في ذلك الصيف برجال الكونجرس والمرشحين لمناصب الدولة ، وجماعات الضغط السياسي ، والمتفرجين . ولقد شغل الرئيس واشنطن ، في بادئ الأمر ، مسكناً في طريق من المدينة ، بميدان فرانكلين ، ثم اتخذ بيت ماكوم الفخم في أقصى برودواي ، وفيه قاعة استقبال بديعة . أما نائب الرئيس جون آدمز فقد شغل داراً كبيرة على تل ريتشموند . وأخذ الكونجرس يجتمع في القاعة الاتحادية (الفيدرالية) في شارعى وول وبرود ، إذ كانت العاصمة السياسية الأولى للدولة في الموقع الذى أصبح فيما بعد عاصمتها المالية . وكانت حفلات الاستقبال تقام ، والحفلات الراقصة تُنظم . وكان الرئيس يقيم مآدب عشاء تتسم بوقار خال من الدفء ، وكثيراً ما كان يذهب مع أصدقائه إلى المسرح في شارع جون . وإذا ذهب إلى الكونجرس ، كان يذهب في موكب رسمي ، مستقلاً مركبة في لون القشدة الثقيلة « كريم » ، تجرها ستة خيول بيضاء كريمة من نتاج

١٤٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

فيرجينيا ، مع رجال بالزى الرسمى يعتلون الجياد ، ومرافقين يركبون خارجها . ولم يكن من المباح للمواطنين أن يحضروا مداولات الكونجرس ، ولكن شراذم منهم كانت تجتمع في الطرق خارجة ، لمناقشة المسائل المهمة المطروحة .

وما كان للحكومة الجديدة غنى عن قيادة واشنطن الحكيمة . إنه لم يكن واسع الخيال ، ولا أوتى روح المبادرة الذكية ، من الناحية السياسية ، بل كان كاتباً جامد الأسلوب وخطيباً غير مصقع ، ولم يكن على الإمام يذكر بمبادئ الإدارة ، بيد أنه كان يفرض على سواه طاعته ، بل ونوعاً من التهيب . كان طرازاً يمثل الاتحاد كما لم يكن أحد سواه يملك أن يمثله . فكان المسئولون في كل حزب وقطاع يثقون في إنصافه وسعة رأيه وحججه . ولوقاره الدائم ، كان « البلاط الجمهورى » في عهده يتسم بالطابع الرسمى الرصين . فكان في الاستقبالات يدخل في زى من المخمل والحرير اللامع الأسودين ، ذى مشبكين ماسيين عند الركبتين ، وقد جمع شعره الموشى بالبودة في كيس ، وقبعته العسكرية تحت إبطه ، وإلى جانبه سيف للزينة في غمد أخضر . وكان في علاقاته بالكونجرس أو الموظفين الحكوميين يحرص على أن يكون بمنأى عن أى حزب أو فريق ، محاولة منه ألا يمثل سوى رأى القومى وحده ، وإن كانت ميوله مع الاتحاديين (الفيدراليين) . وكان — بما طبع عليه من يقظة واجتهاد — يعمل ساعات طويلة وفقاً لبرامج وقتية محددة . ولقد عمل جاهداً وتوفيق على أن يضفى على الحكومة ارتقاء ومبدأ ، وأن يوقر في نفوس رجال الدولة النصح الذى أورده في « خطاب الوداع » في سنة ١٧٩٦ : « كونوا متحدين . . كونوا أمريكيين » .

وانفض الكونجرس في أغسطس ١٧٩٠ ، ليعود إلى الاجتماع في ديسمبر من ذلك العام ، في فيلادلفيا ، إذ كان مقدراً لفيلادلفيا النظيفة ، الهادئة ، الكريمة أن تصبح عاصمة لعشر سنوات . وفي تلك الأثناء ، كان تنظيم الشؤون القومية قد قطع شوطاً كبيراً .

لم يكن تنظيم الحكومة مهمة بسيطة . ولقد أنشأ الكونجرس في تعاقب سريع وزارة للخارجية ، ووزارة للحربية ، ووزارة للخزانة . وعين واشنطن للمنصب الأول توماس جيفرسون الذى كان قد عاد لتوه من بعثته كوزير لدى فرنسا ، وللمنصب الثانى هنرى نوكس من مساشوسستس وكان قائداً عادى المواهب ولكنه ذو شعبية ، وللمنصب الثالث

١٤١ الجمهورية تهتدى إلى ذاتها

ألكسندر هاملتون الذى اشتهر بدرأيته الخاصة بالشؤون المالية . وأنشأ الكونجرس منصب المدعى العام كذلك ، الذى لم يكن ذا وزارة فى بادىء الأمر ، بل كان مجرد مستشار قانونى للحكومة ، وقد شغله واشنطن بإدموند راندولف ، من فيرجينيا . وكان المفهوم أن هاملتون ونوكس ميولاً لحزب الفيدراليين ، ولجيفرسون ورائدولف آراء تنتمى لحزب المعارضين للاتحاد (الأنثيفيدراليين) . وفى الوقت ذاته سعى الكونجرس لإنشاء هيئة قضائية اتحادية وأن يضع النظم التى تعمل بمقتضاها مع الهيئات القضائية للولايات . وكان الدستور بالذات قد نص على محكمة عليا ، ولكنه ترك لرأى الكونجرس مسألة إنشاء محاكم أدنى . فإذا المرسوم القضائى لسنة ١٧٨٩ — وهو مرسوم يكاد يعتبر ملحقةً للدستور ذاته — لا يكتفى بإقامة محكمة عليا ، بل أقام كذلك ثلاث محاكم متنقلة ، وثلاث عشرة محكمة منطقية « محكمة خط » ، وكان الرئيس هو الذى يعين جميع القضاة — على غرار تعيين الوزراء الاتحاديين — على أن يعزز مجلس الشيوخ التعيين . وتضمن المرسوم تفصيلاً أن تلجأ محاكم الولايات إلى المحاكم الاتحادية فى كافة المسائل المتعلقة بتفسير الدستور أو حقوق المواطنين الواردة فى الدستور . وهكذا لم تكن نهاية سنة ١٧٩٠ حتى كانت الوزارات القومية الثلاث الأولى والمحاكم الاتحادية عاكفة على العمل .

وثيقة الحقوق

حقق هذا الكونجرس الأول أكثر مما حقق أى كونجرس آخر فى التاريخ الأمريكى بوجه عام . ولم يقتصر فضله على التنظيم الموفق للحكومة ، والقانون ، ولإدارة ، وللدفاع فحسب ، بل امتد إلى إصدار وثيقة الحقوق .

ولم يكن الدستور الأصلى مشتملاً على وثيقة معينة للحقوق ، وإن كان عدد من الحقوق قد كفل فى سياقه . وما كان هذا الإغفال لضم وثيقة للحقوق دليلاً على عداة أو عدم اكتراث من المزارعين بحقوق الإنسان ، بل الأرجح أنه كان عن اقتناع منهم بأنه ما من ضرورة لضمانات معينة للحقوق . فقد أورد الدستور سلطات الكونجرس وعدّها بتحديد ، على أية حال ، وما لم يكن ممنوحاً كان غير مباح له . ولما تكن ثمة سلطة

١٤٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

منحت على حقوق الإنسان ، فقد ترتب على هذا أنه لم يكن للحكومة أى سلطان عليها . وكانت هذه حجة منطقية سليمة ، بيد أنها لم تحل دون المطالبة العاطفية الشديدة بتأكيدات قاطعة بأنه لن يتاح للحكومة الجديدة أن تمارس البطش والجور . تلك كانت فكرة جيفرسون ، إذ كتب من باريس إلى صديقه جيمس ماديسون أن « من حق الشعب وثيقة للحقوق ضد أية حكومة على وجه الأرض ، عامة كانت أو خاصة ، وهو ما لا ينبغي للحكومة عادلة أن ترفضه ، أو تقعد عنه » .

وكان عدد من الولايات قد صدق على الدستور ، على فهم منها بأنه سيعالج فوراً بإضافة وثيقة للحقوق . وكان كثير من أعضاء الكونجرس يميلون إلى الاستهانة بهذا الفهم ، ولكن ماديسون - بدافع من جيفرسون - رأى أن هذا التزام مقدس . فما إن عقد الكونجرس اجتماعاته ، حتى قدم مجموعة من التعديلات تضمنت معظم المقترحات التي كانت قد وردت من الولايات . ولم يلبث الكونجرس أن أجاز اثني عشر منها ، وتم التصديق على عشرة منها ، قدر لها أن تعرف فيما بعد باسم وثيقة الحقوق .

ولقد صيغت وثيقة الحقوق الاتحادية على نسق وثائق الحقوق الأكثر إسهاباً وتفصيلاً ، في ولايتي فيرجينيا وماساشوستس وبعض الولايات الأخرى . وهى - كهذه الوثائق - مختلفة عن وثيقتي الحقوق الانجليزيتين التاريخيتين اللتين صدرتا في سنتي ١٦٢٨ و ١٦٨٩ . ذلك لأنه بينما عنيت الوثيقتان الانجليزيتان بالاقصاء تقريباً على مسائل إجراءات العدالة ، لم تتضمن الوثيقة الأمريكية ضمانات إجراءات التقاضى فقط - المحاكمة بوساطة محلفين ، وعدم الشطط في الكفالة لإطلاق سراح متهم ، وتحريم العقوبات القاسية أو غير العادية ، وعدم حرمان امرئ من الحياة أو الحرية أو الثروة بدون الإجراءات القانونية اللازمة ، وغير ذلك - بل إنها اتسعت كذلك لأمر مثل حرية الدين ، والقول ، والصحافة ، والاجتماع . فكانت هذه الحقوق - بوصفها حدوداً تقيد الحكومة - أوسع وأقوى مفعولاً من أى شيء يمكن العثور عليه في العالم ، في ذلك الحين ، بدرجة تجعل على القياس .

وبالرغم من أن القيمة الأولى لوثيقة الحقوق الاتحادية كانت رمزية في المقام الأول ، فقد قدر لها أن تكون ذات فاعلية عملية كذلك ، وقد أدرجت ضماناتها - بعد سنة ١٨٦٨ - في التعديل الرابع عشر للدستور ، وبهذا أصبحت تنطبق على الولايات مباشرة .

ألكسندر هاملتون

كما أنتجت أمريكا الثورية شخصيتين مسيطرتين اكتسبتا سمعة عالمية — هما واشنطن وفرانكلين — فإن الجمهورية الشابة رفعت إلى الشهرة رجلين ذوى كفاءة لامعة ، امتدت سمعتهما إلى ما وراء البحار ، هما ألكسندر هاملتون وتوماس جيفرسون . على أن المواهب الشخصية الباهرة لهذين الرجلين ، وإن كانت عظيمة ، ليست أفضل ما يشرحهما لبقاء الذكر . إنما الفضل لأنها كانا يمثلان اتجاهين قويين ولازمين ، وإن كانا إلى حد ما متعادين في الحياة الأمريكية : فكان ميل هاملتون إلى اتحاد أقوى وحكومة قومية أعز سلطاناً ، واتجاه جيفرسون نحو ديمقراطية أوسع مجالاً وأكثر تحرراً . وأهم الوقائع في التاريخ الأمريكى بين عامى ١٧٩٠ و ١٨٣٠ ، التى تأتى فى المرتبة الثانية بعد الزحف الذى لا ينثنى نحو الغرب ، انتصارات أحرزتها القومية والديمقراطية .

وُلد هاملتون فى نفيس Nevis ، فى جزيرة صغيرة تنتج السكر من جزر الأنتيل الصغرى ، لأب اسكتلندى ، وأم من الهيجونوت . وقد نشأ رجلاً من الطراز الاسكتلندى الذى صوره ستيفنسون فى شخصية آلان بريك فى روايته « الاختطاف » . . فكان طموحاً ، سخياً ، مخلصاً ، ذا كبرياء ، سريع الغضب لكرامته وسريع الصفح ، ذا عقل متألق فى وميض ، وطاقه لا تنفذ ولا تكل . ولقد انبعثت كل منجزاته من جمعه بين الذكاء ، والطموح المعتد ، والاجتهاد . ومن الجدير أن تلاحظ كيف كشف عن هذه الخصال فى سن مبكرة . فنظراً لأن أباه صادف نكبات فى أعماله ، لم يكن لدى الفتى من المال ما يمكنه من الالتحاق بالدراسة العليا . غير أن إعصاراً فظيلاً اجتاح جزر الأنتيل ، فكتب وصفاً له استرعى قسماً كبيراً من الانتباه ، دفع عماته إلى إيفاده إلى القارة الأمريكية . فالتحق بكلية الملك فى نيويورك . وكان اختياراً موفقاً ، لأنه دفع به إلى اتصال ميسور مع المتطرفين من أهل المدينة ، الذين كانوا يشنون تمرداً على سلطان الملك . واستطاع بنشترين طوليتين — إحداهما قبيل بلوغه العشرين بقليل ، والثانية بعيد ذلك — أن يتصدى بفعالية للأسقف المحافظ (الموالى للملك) فى الإقليم . فلما أصبح نقيباً لفصيلة من المدفعية فى سن الثانية والعشرين ، كشف عن نهمه العقلى بأن كان يحمل كتبه إلى المعسكر ، ويعكف

١٤٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

على الدراسة إلى ساعة متأخرة من الليل .

ولقد كانت لهاملتون مؤهلات أخرى ، إلى جانب الذكاء والطموح ، ساعدته أيها مساعدة . فلقد أوتى جاذبية شخصية عظيمة . كان بشعره البني الضارب إلى الحمرة ، وعينيه البنيتين المتألفتين ، وجبينه البديع ، وفمه وذقنه الناطقين بالحزم . . كان بهذه كلها مليحاً بدرجة غير عادية ، وكان وجهه يفيض حيوية وإشراقاً إذا ما تكلم ، ويعكس شدة وتفكيراً إذا ما عمل . وكان يحب المآدب الحافلة بالمرح ، ويتألق في أى وسط يوفر نبيذاً جيداً ، وزملاء من المثقفين ، وحديثاً فكرياً طلياً . ولما كان واسع الحيلة بقدر ما كان سريعاً ، فقد أوتى ميزة حضور البديهة العظيمة . . ميزة فعل الشيء المناسب في وقته الصحيح . وجعله حضور بديهته زعيماً للوطنيين في نيويورك ، ولفت إليه انتباه واشنطن فجعله المساعد الرئيسي للجنرال ، وممكنه من أن يقود هجوماً رائعاً لكسر حصار نيويورك ، ورفعته إلى قيادة محامى نيويورك ، وجعله الشخصية الرئيسية في حكومة واشنطن ، وأتاح له السيطرة على حزب كبير . كانت له مواهب رائعة كمدبر تنفيذي ومنظم . فكان يكتب ويتكلم باندفاع وتحمس . ومع ذلك فقد كشف عن عيوب بارزة كذلك : كان سهل الاستشارة ، سريع الغضب ، يحتاج اهتماماً لاريب فيه إذا ما اعترضه عائق . ولقد قفز عن جواده في معركة مونهاوث ، عندما أنحى واشنطن باللوم على الجنرال تشارلس لى لتقهقره ، وشهر سيفه ، وصاح : « لقد تعرضنا للخيانة ! » فأسكتته واشنطن إذ أمره بهدوء : « امتط جوادك يامستر هاملتون » . ولقد تشاجر مع واشنطن قرابة نهاية الحرب ، وكتب إلى حميه خطاباً يفيض بالخيلاء والغرور حول الحادث ، ورفض مساعى واشنطن لرأب الصدع . ولقد أدى تهوره الغاضب ، واستعداده للاندفاع السريع إلى الشجار ، وروح الشراسة المهتاجة لديه ، إلى تورطه في نزاعات قاسية لم يكن لها من داع — من نزاع مع جيفرسون أوقع الفرقة في حكومة واشنطن ، إلى نزاع مع جون آدمز أوقع الانقسام في الحزب الاتحادى ، إلى نزاع مع آرون بير انتهى بوفاته شخصياً في مبارزة .

وكان العنصر الرئيسى في أعمال هاملتون العامة هو حبه للكفاءة والنظام والتنظيم ، وهو دافع متسلط يفسر ما أداه للدولة الشابة من خدمة لا سبيل لنسيانها . وقد رأى — من سنة ١٧٧٥ حتى ١٧٨٩ — دلائل عدم الكفاءة والضعف منتشرة حوله . وكان يكره الفوضى الناجمة عن ذلك كل الكراهية . ولقد كان — كسكرتير — لواشنطن الوسيط

الجمهورية تهتدى إلى ذاتها ١٤٥

الذى كان القائد يوجه عن طريقه قسماً كبيراً من مهامه . ولسنا بحاجة إلى أكثر من نظرة نلقيها على رسائل واشنطن ، فى فترة الثورة ، لتبين كيف كان ضعف الحكومة يسبب قلقاً مستمراً للقائد . كان فى قلق لأن الولايات لم تمده بقوات كافية ، وكان فى قلق لأنها كانت ترسل الذخائر والملابس والمال بكميات غير كافية ، ولأنه إذا كان جزء من البلاد قد عمل بنشاط ، فإن أجزاء أخرى تقاعست . كان فى قلق من الافتقار إلى النظام العسكرى فى الجيش ، إذ كان الجنود يغادرون مراكزهم ، وينهبون ، وكثيراً ما يحزمون أمتعتهم ويعودون إلى ديارهم لأتفه عذر . وكان هاملتون يشاركه كل هذا القلق . ولقد كان هاملتون فيما بعد ، فى سنوات الاتحاد الكونفيدرالى المظلمة ، محامياً نشيطاً وثيق الاتصال بالجماعات التجارية فى نيويورك ، وعلى دراية دقيقة بالهموم التى كانت تساورهم من جراء العقوبات التى تعترض التجارة وعدم سلامة الثروة . ولقد وهبته اطلاعاته مفهوماً أوروبياً أكثر منه أمريكياً للشخصية الحقيقية للدولة ، ولقد ظل طيلة حياته يرى أن لون الحكم الانجليزى هو أكثر الأنظمة جدارة بالإعجاب . ومن هنا يسهل أن نتبين السبب فى أنه كان يبتغى الكفاءة والطاقة فى الحكومة — كان يبتغى سلطة اتحادية شديدة البأس .

توماس جيفرسون

وإذا انتقل إلى جيفرسون ، فإننا نتحول من رجل عمل إلى رجل فكر . وإذا كانت مواهب هاملتون تنفيذية ، فقد كانت مواهب جيفرسون تأملية وفلسفية . كان هاملتون يفتبط بإقامة جهاز قوى ومراقبة عمله الكفاء ، وكان جيفرسون يفتبط بالناس وبأن يراهم يحظون بالرضى سواء عن كفاءة أوبدونها . ولقد بولغ فى عدم كفاءته كحاكم لفيرجينيا ، بيد أنه ترك المنصب دون أن يحظى بتقدير ، كما أنه لم يكن ذا كفاءة معينة كوزير للخارجية . ولكنه لم يكن يبارى كمفكر ومؤلف سياسى فى أى مكان فى العالم فى جيله ، بعد موت بيرك . وعندما اقترح ما ينقش على قبره ، لم يتجه إلى سجله فى المناصب وإلى أعماله ، وإنما إلى ثلاث مساهمات كبرى قدمها للفكر ، فإن شاهد قبره يحمل هذه العبارات :

١٤٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

دُفن هنا توماس جيفرسون

مؤلف إعلان الاستقلال الأمريكى

وتشريع فيرجينيا من أجل الحرية الدينية

وأب جامعة فيرجينيا

وقد نشأ جيفرسون في جو فيرجينيا المتسم بالانطلاق المتحرر ، والمرح الطيب ، والإهمال الفكرى . فكان في شبابه يشترك في « الرقص ، والمآدب البذخة ، والهوايات الراقية » . فكان مشغولاً بركوب الخيل ، ومشاهدة الحياة الطبيعية البرية وممارسة الحياة الجامحة الانطلاق ، والعزف على الكمان ، كما كان يقرأ الروايات — من تأليف فيلدينج ، وسموليت ، وستيرن — وكان شديد الشغف بأوسيان . ولم تؤد حياته اللاحقة ، الزاخرة بالارتباطات الواسعة بالطبيعة ، والكتب ، والبشر ، إلا إلى زيادة نشاط تعدد اتجاهاته الفكرية . ولقد اكتسب معرفة بست لغات ، وبالرياضيات ، والمساحة ، والعلوم الميكانيكية ، والموسيقى ، وفن العمارة ، والقانون ، والحكم . ولقد جمع في إقبال ملهوف مكتبة كبيرة ، ومجموعة فذة من المطبوعات ، وكتب عن النبات ، والحيوان ، وفي التاريخ والسياسة والتربية ، وكان في كل ذلك يصدر عن أصالة وبصيرة . . ووضع تصميم بيته المشهور في مونتسيلو ، وقاعات جمعية فيرجينيا الجميلة . وكان من خير المحدثين في عصره ، كمحب للكلام ، عميق التفكير . دائم التنقل من موضوع إلى آخر ، متعدد الجوانب في حديثه . وكثيراً ما كان حكيم مونتسيلو يستضيف خمسين شخصاً في الليلة ، ويبدى من الحفاوة والود لزنجى متعلم قدر ما يبدى لأوربى نبيل المحتد . كان طيلة عمره يحب الحرية ، والفراغ ، واتساع الاتصالات .

وكانت ميول جيفرسون الغريزية ، من الناحية السياسية ، مضادة لميول هاملتون ، وكان مرانه يعززها . إذ ارتبط سنوات كثيرة بفيرجينيا ، كزعيم بالهيئة التشريعية في البداية ، ثم كحاكم . فرأى بجلاء كيف أن من العسير على الولايات أن تلبى كافة المطالب الملقاة عليها . وعندما رحل إلى الخارج ليكون وزيراً مفوضاً في فرنسا ، حيث راح يلح للعودة إلى دفع القروض لأمريكا ، تبين فعلاً أن من الممكن لحكومة قومية قوية أن تكون ذات وزن في العلاقات الخارجية ، بيد أنه لم يكن يريد لها شديدة السلطان جداً في نواح كثيرة أخرى ، وكان يعلن بصراحة : « لست صديقاً لحكومة شديدة النشاط

الجمهورية تهتدى إلى ذاتها ١٤٧

والطاقة . بل إنه قال إن المواد الضعيفة في الاتحاد الكونفيدرالى كانت « أداة مثالية رائعة » . كان يخشى أن تجور أية حكومة قوية السلطان على الناس . ولقد جاهد من أجل التحرر من التاج البريطانى ، والتحرر من سيطرة الكنيسة ، والتحرر من أرستقراطية ملاك الأراضى ، والتحرر من الفوارق الكبيرة في الثروة . وكان ديمقراطياً من أنصار المساواة . وكان يكره المدن ، والمشروعات الصناعية ، والمنظمات التجارية والمصرفية الكبيرة ، لأنها تزيد من عدم المساواة . ومع أنه اعترف في أواخر سنى عمره بأن التصنيع ضرورة لمنح البلاد استقلالاً اقتصادياً ، فقد كان يؤمن بأن أمريكا كانت تكون أسعد حالاً لو أنها بقيت أمة زراعية في المقام الأول .

على أنه من الخطأ أن نفكر في جيفرسون على ضوء « حقوق الولايات » أو فرديتها . فهو لم يكن واضع « إعلان الاستقلال » وأحد الآباء المؤسسين فحسب ، وإنما كان طيلة حياته قومياً متحمساً . وما تجلت هذه القومية في مكان ما قدر ما تجلت في موقفه إزاء الغرب الأمريكى . وما كان من قبيل المصادفة غير ذات المعنى أنه في الوقت الذى أقام فيه هاملتون في مدينة نيويورك الكبيرة الحافلة بالعمل ، وكان يتوق إلى أن يكون في أمريكا مجتمع واقتصاد على نمط ما في إنجلترا — أقام جيفرسون قصر مونتسيلو الجميل على تل يطل غرباً على وادى فيرجينيا . وكان جيفرسون هو الذى وضع الصيغة الأولى لتشريعى سنتى ١٧٨٤ و ١٧٨٥ ، اللذين أتاحا أساس تشريع الشمال الغربى في سنة ١٧٨٧ — وكان جيفرسون هو الذى أوفد لويس وكلارك إلى ساحل المحيط الهادى . وكان جيفرسون هو الذى ابتاع لويزيانا فضاعف بذلك حجم الأمة الجديدة ، كذلك كان جيفرسون أمريكياً غيوراً في الناحيتين الفلسفية والثقافية . كان موقناً بأن العالم الجديد أسمى من القديم بدرجة تجل على القياس ، وكان مصمماً على أن يظل كذلك ، ولو أدى إلى الانفصال عن القديم . كان برغم فلسفته العالمية الشخصية ، يبتغى أمريكا ذات استقلال ثقافى واستقلال سياسى — لها قوانينها الخاصة ، وأدبها الخاص ، ومدارسها الخاصة ، ونظمها ومؤسساتها الاجتماعية الخاصة . وإذ كان يألف مؤسسات العالم القديم — الملكية ، والدولة ، والكنيسة ، والجهاز العسكرى ، والنظام الطبقي — فإنه لم يشأ لأمريكا شيئاً من هذا ، فهنا كان لزاماً أن تجرى التجربة الكبرى للمساواة وللحكم الذاتى . وإذ كان موقناً من أن أمته « تتقدم بسرعة إلى مقدرات أبعد من أن تبلغها عين بشرية » ، فقد كرس عمراً طويلاً لتعليمها وتربيتها من أجل هذا القدر .

كان هم هاملتون الأكبر هو أن يتيح للبلاد تنظيمًا أكثر كفاءة ، أما هدف جيفرسون الأكبر فهو أن يتيح للأفراد من البشر حرية أوسع نطاقاً . وكانت الولايات المتحدة بحاجة إلى النفوذيين معاً . كانت بحاجة إلى حكومة قومية أقوى ، وكانت بحاجة كذلك إلى عتق الإنسان العادى . وكانت الأمة خليقة بأن تعاني النقص لو أنها حظيت بهاملتون وحده ، أوجيفرسون وحده . فكان من حسن الحظ البالغ أن أوتيت الاثنين ، وإن استطاعت مع الزمن أن تصهرهما معاً ، وأن توفق بين معتقدهما الخاصة إلى حد كبير .

إجراءات هاملتون المالية

قام هاملتون ، إذ أصبح سكرتير واشنطن للخزانة ^(١) ، بتنفيذ مجموعة من الإجراءات جعلته أعظم وزير للمالية في التاريخ الأمريكى . ولم يكن برنامجه باهراً من حيث مداه فحسب ، بل كان ذا طابع خلاق . فكم من أناس رغبوا في التنكر للدين القومى الذى بلغ حوالى ٥٦ مليوناً من الدولارات ، أودفع جزء منه فقط ، ولكن هاملتون نفذ — برغم معارضتهم — خطة لإعادة تنظيم الدين ودفعه بأكمله . ونفذ مشروعاً تحملت الحكومة الاتحادية بمقتضاه ديون الولايات غير المسددة ، التى اقترضتها لمساعدة الثورة ، وكانت حوالى ١٨ مليوناً أخرى . وأقام بنك الولايات المتحدة على نمط بنك انجلترا إلى حد كبير . وأنشأ داراً قومية لسك العملة ، وكتب « تقريراً عن الصناعات » مشهوراً ، محبذاً فرض رسوم جمركية معتدلة من أجل تنمية الصناعات القومية ، وقد أقر الكونجرس فعلاً قانوناً للتعريف الجمركية ، ساعد أصحاب الصناعات الأمريكية حقاً ، بالرغم من أنه اكتفى بفرض رسوم ضئيلة . وأخيراً ، فرض هاملتون ضريبة إنتاج على كافة المشروبات الكحولية .

وكان لهذه الإجراءات مفعول فوري ، امتد في ثلاثة اتجاهات . فهى قد أرست مكانة الحكومة القومية على أساس في متانة الصخر ، ومنحتها كافة الإيرادات التى كانت

(١) في النظام الأمريكى رئيس الجمهورية هو المسئول عن الحكومة ؛ فهو يعين سكرتيرين له يديرون شؤون فروعها ، ويقابلون الوزراء في النظم الشائعة عندنا ، ولذلك سنلقبهم بالوزراء في سياق الكتاب — المترجم .

الجمهورية تهتدى إلى ذاتها ١٤٩

تحتاج إليها . وهى قد شجعت الصناعة والتجارة ، وأهم من هذا كله ، أنها اجتذبت إلى الحكومة القوية جماعات قوية النفوذ من الرجال فى كل ولاية . إذ أن العودة لتسديد الدين القومى ، والاضطلاع بديون الولايات ، جعلاً حشداً كبيراً من الناس الذين كانوا يقتنون صكوك القرض القومى أو قروض الولايات ، يتطلعون إلى الحكومة الجديدة للحصول على نقودهم . وفى الاتجاه ذاته تطلع رجال الصناعة الذين أخذوا يعولون على قانون التعريفية الجمركية الجديدة أملاً فى الرخاء . ولقد ظفر المصرف القومى بتأييد جماعات قوية النفوذ من رجال المال ، لأنه جعل جميع المعاملات المالية أسهل وأكثر أمناً . أما ضريبة الإنتاج فإنها لم تهىء لدخول حكومى فحسب ، بل إن تحصيلها من كل معمل محلى للتقطير ، جعل المواطنين العاديين يلمسون سلطان الحكومة الاتحادية . وجملة القول أن سياسات هاملتون خلقت دعامة صلبة من ذوى الثروات الذين وقفوا صامدين خلف الحكومة القومية ، مستعدين لمقاومة أية محاولة لإضعافها فجعلت هذه الحكومة أقوى نفوذاً من ذى قبل .

هنود الشمال الغربى

من أكثر المشكلات إثارة للاستياء فى عهد رئاسة واشنطن ، مشكلة تهديئة القبائل المحبة للحرب فى شمال غربى نهر أوهايو . فلقد شهدت السنوات التى أعقبت الثورة تجدداً نشيطاً لسمى الرواد التواقين إلى أراض رخيصة نحو الغرب . وألف المضاربون على الأرض عدداً من الشركات ، حصلت من الكونجرس على مساحات كبيرة . فظفرت شركة أوهايو التى كونها الجنرال روفوس بوتنام بمليون ونصف مليون دونم ، أقام عليها بوتنام بلدة (مارييتا) فيما أصبح الآن أوهايو الجنوبية . وحصلت شركة تدعى شيوتو على خمسة ملايين من الدونمات ، والقاضى جيه . سى . سيمز من نيوجيرسى ، على مليون دونم ، قامت عليها مع مرور الزمن مدينة سينسيناتى . وهدد المستوطنون خير أراضى الصيد للهنود ، إذ أقبلوا على قطع الأشجار وإنشاء الأكواخ . وبدا من الواضح للحُمْرة أن عليهم أن يكبحوا هذا السيل وإلا فقدوا كل شىء . وسرت رسالة من قرية إلى قرية : « لن يزرع الإنسان الأبيض الذرة شمالى نهر أوهايو » .

١٥٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

وكما قتل المستوطنون البيض هنوداً ، ذبح الهنود رجالاً ونساء وأطفالاً من البيض . وقرر واشنطن إفاد حملة من ١٥٠٠ من الحرس الوطنى (الميليشيا) من أبناء بنسلفانيا وكنتكى ، لتأديب قبيلة الميامى . وشاء سوء الطالع ، أن القائد القليل الخبرة ، الذى كان موثقاً بالحملة — وهو جوزياه هارمر — قاد رجاله القليلي الخبرة مثله إلى كمين ، فهزم فيها أصبح الآن إنديانا الشمالية ، واضطر إلى التقهقر ، وقد خسر حوالى ٢٠٠ نفس . وعلى هذا ، أمر واشنطن فى خريف سنة ١٧٩١ ، قائداً مسناً ، معتل الصحة ، سىء التقدير — هو الجنرال آرثر سانت كلير — بأن يقود جيشاً أكبر من السابق بكثير ، إذ ضم فرقتين من النظاميين ، إلى أرض الهنود . وكانت النتيجة أسوأ هزيمة منيت بها قوة كهذه منذ انكسار برادوك . ففى كمين على حوالى مائة ميل شمالى سينسيناتى ، وفى أعماق إحدى الغابات ، مُزق جيش سانت كلير شرمزق ، فقتل حوالى ٧٠٠ وجرح الكثيرون . وعندما علم واشنطن بالنبا أظهر أعمق الحزن واللوعة . وكان التصرف المحتمل الوحيد ، هو العودة للمحاولة مع اختيار قائد أقدر وجيش أقوى . وفى هذه المرة ، تولى القيادة أنتونى واين (المجنون) ، الذى اشتهر فى حوالى ست معارك ثورية بإقدامه وبراعته . فدرّب جيشاً أكبر من الجيش السابق على أفضل أساليب قتال الهنود ، وبعد أن تلقى تعزيزاً قوامه ١٤٠٠ من ميليشيا كنتكى الأشداء ، تقدم على رأس أقوى وأعتى مجموعة من المقاتلين شوهدت يوماً غربى جبال أليجنى . وعند فولن تيمبرز على نهر مومى ، غير بعيد من فورت واين فى أيامنا هذه ، أوقع بالهنود هزيمة فاصلة بحيث توقفت كافة الأعمال الحربية بعدها (٢٠ أغسطس سنة ١٧٩٤) . وأصبح واين بطلاً قومياً .

وفى الحال ، مضى التوطن فى الشمال الغربى بحجم أكبر من ذى قبل . واستولى المهاجرون على مزارع على طول نهر أوهايو بأكمله ، وأقاموا مدناً ، وأنسابوا إلى « ويسترن ريزيرف » على بحيرة إيرى ، حيث أنشأوا كليفلاند .

تأويل الدستور : « سلطات ضمنية »

تطلبت إجراءات هاملتون تأويلاً مهماً للدستور . فعندما طرح مشروعه لإنشاء مصرف

١٥١ الجمهورية تهتدى إلى ذاتها

قومى ، اعترض جيفرسون متكلماً باسم جميع المؤمنين بحقوق الولايات إزاء السلطان القومى ، وباسم أولئك الذين كانوا يخشون الشركات الكبيرة وقوة نفوذ المال . وقد أرسل إلى واشنطن دفاعاً قوياً ، معلناً أن الدستور يعدد بإيضاح جميع السلطات الخاصة بالحكومة القومية ، ويحتفظ بكافة السلطات الأخرى للولايات ، ولم يرد فى أى جزء منه أن للحكومة الاتحادية أن تقيم مصرفاً . وبدا هذا المنطق سليماً ، وأوشك واشنطن أن ينقض مشروع القانون . بيد أن هاملتون رفع دفاعاً أكثر إقناعاً . فبين أنه لا سبيل لإيراد جميع سلطات الحكومة القومية بكلمات صريحة ، لأن هذا يعنى تفصيلاً مملأ . فكان لزاماً أن تتضمن المواد العامة قدراً كبيراً من السلطات ، وقد حوّلت إحدى هذه المواد الكونجرس أن « يسن كافة القوانين التى ستكون ضرورية ومناسبة بطبيعتها » . وضغط هاملتون وهو يقرأ هذه المادة على عبارة « مناسبة بطبيعتها » . فمثلاً ، من الواضح أن للحكومة بموجب سلطات الحرب الواردة فى الدستور ، الحق فى أن تغزو إقليمياً . ويترب على ذلك أن من المناسب بطبيعة الأمر أن تملك « سلطة ناجمة عن ذلك » لإدارة هذا الإقليم ، وإن لم يكن الدستور قد ذكر شيئاً عن هذا . ولقد نص الدستور على أن تنظم الحكومة التجارة والملاحة ، واستتبع هذا أن تكون لها « سلطة ناجمة عن ذلك » لبناء المارات . ثم إن الدستور أعلن أن للحكومة القومية سلطة فرض الضرائب وتحصيلها ، ودفع الديون ، واقتراض المال . ووجود مصرف قومى يساعد مادياً على جمع الضرائب ، وعلى إرسال الأموال لأماكن بعيدة سداداً لصكوك مستحقة ، وعلى الاقتراض . ومن ثم فمن حقها أن تنشئ مصرفاً قومياً بموجب « سلطاتها الضمنية » . وقد تقبل واشنطن هذا المنطق ، فوقع مصدقاً على إجراء هاملتون .

انتفاضة الويسكى : معاهدة جاى

رأى جيفرسون أن قانون رسوم الإنتاج الذى وضعه هاملتون فى سنة ١٧٩١ ، كان مثيراً للاستنكار ، فكتب إلى واشنطن أنه كذلك غير حكيم ، لأنه يقحم « سلطان الحكومة فى نواح تكون فيها المقاومة أرجح ، والقهر أقل الحلول صلاحية للتطبيق » . وكان يعنى بهذا غرب بنسلفانيا ، فى المقام الأول . فقد كانت هذه المنطقة مليئة باسكتلنديين —

أيرلنديين شديدي المراس ، ولم تكن لهم وسيلة لإرسال قمحهم شرقاً إلى السوق ، عبر الجبال ، وكانوا بحاجة إلى نقود ، وإذا كانوا على دراية بالفن الاسكتلندي لصنع الويسكى فقد أقاموا معامل تفتير في كل مزرعة تقريباً لإنتاج سلعة سهلة النقل . وقد بدا أن ضريبة الإنتاج تلقى عبثاً غير عادل على هذا الإنتاج المربح ، يضاف إلى هذا أنها كانت تستدعى إجراءات قضائية لا مبرر لها . وسرعان ما تعرضت أربع مقاطعات في المنطقة الواقعة جنوبى بيتسبيرج لمباشرة لعنت اضطر الزعماء الغاضبين إلى المقاومة الصريحة . فأصدر واشنطن نداء منذراً ، ولكنه قوبل بعدم اكتراث . وفى سنة ١٧٩٤ ، اندلع العنف عندما حاولت الحكومة إلقاء القبض على رجال تحذوا موظفى الإيرادات العامة . واضطر الغوغاء أحد المفتشين الاتحاديين إلى الفرار للنجاة بحياته ، وهددوا الحامية الصغيرة الموجودة فى بيتسبيرج . وكان جديراً بالحكم أن يستخدم الميليشيا ، ولكنه تقاعس عن ذلك خشية أن يصرف ناخبى القطاع الغربى عنه .

وعلى هذا ، قرر واشنطن أن يتخذ تصرفاً صارماً ، بمشورة خاصة من هاملتون . وكان من الممكن لقوة من ألف جندي أن تقمع العصيان بسهولة ، فهى لم تكن أكثر من مظهرة صاخبة . بيد أن هاملتون كان تواقاً لتحقيق مثال لما للحكومة من قدرة قاهرة . لذلك استدعى خمسة عشر ألف جندي من فيرجينيا وميريلاند وبنسلفانيا — أى جيش يكاد يعادل ذاك الذى أسر كورنواليس فى الكبر . وسرعان ما أزهت قوة الجنود المتمردين إذ سارت إلى منطقة القلاقل . ولقد ذهب معهم هاملتون ، واطمأن إلى أن المشاغبيين الثمانية عشر قد نقلوا إلى فيلادلفيا لمحاكمتهم . غير أن اثنين فقط هما اللذان أدينا ، وقد عفا عنهما واشنطن .

ولقد أحدثت انتفاضة الويسكى ضجة كبيرة ، فقد اتنى الاتحاديون على إجراءات الحكومة الصارمة ، بينما استنكر معارضو الاتحاد هذه الإجراءات بوصفها استبدادية وعسكرية . ولا مراء فى أن سياسة هاملتون رفعت مكانة السلطات القومية ، غير أنه لا مراء كذلك فى أنها أثارت كثيراً من السخط وعدم الثقة الشعبين ، فكانت خطأ . وما إن تولى أنصار جيفرسون الحكم حتى ألغيت رسوم الإنتاج .

كذلك لم يلق نهج حكومة واشنطن بالنسبة للشؤون الخارجية رضاء شعبياً لدى الكثيرين . فلقد بدأت حرب فى أوروبا ، فى سنة ١٧٩٣ ، بين فرنسا وبريطانيا ، فانبعث شعور قوى فى الولايات المتحدة . كانت طبقات التجار وكثيرون من رجال

الجمهورية تهتدى إلى ذاتها ١٥٣

الدين ، لاسيما في نيوجانلاند ، يخشون الجمهورية ويكرهونها ، إذ قلبت ما للثروة من مصالح وامتيازات ، وجعلت العقل رباً أولهاً . وكان المزارعون في الجنوب والعمال الميكانيكيون في المدن يتعاطفون مع فرنسا . فأصدر واشنطن — عن حكمة — إعلاناً للحياد . وقبول هذا باستنكار مهتاج ، حتى إن وزير فرنسا المفوض في الولايات المتحدة جينيه الأهووج ، ظن أن بوسعه عدم الاكتراث به . وكتب إلى حكومته أن واشنطن كان شيخاً ضعيفاً خاضعاً للنفوذ البريطاني ، وتحدث عن الاتجاه إلى الأهالي ، وعندما حرمت عليه الحكومة استخدام الموانئ الأمريكية كقاعدة عمل للسفن الحربية الفرنسية ، لم يقطع الأمر . وتساءل واشنطن مغضباً عما إذا كان يرمى إلى تعريض تصرفات هذه الحكومة لتحذ وقع ؟ . وصدر الأمر إلى جينيه بالعودة إلى بلاده ، ولكنه فعل ما هو أفضل : مكث في الولايات المتحدة إدراكاً منه لأن المقصلة كانت في انتظاره ، وتزوج ابنة حاكم نيويورك ، وعاش في رخاء حتى تقدمت به السن . ولقد أخرجت تصرفاته غير المعقولة الفريق المناصر لفرنسا في أمريكا ، ومع ذلك فقد شرع هذا الفريق ، في سنة ١٧٩٤ ، في المطالبة بالحرب ضد بريطانيا ، استناداً في المقام الأول إلى أن البريطانيين كانوا يستولون على السفن الأمريكية المتجهة إلى جزر الهند الغربية الفرنسية ، وأنهم كانوا يحتفظون بمراكز تجارية في الإقليم الشمالي الغربي ، بانتهاك شنيع لمعاهدة سنة ١٧٨٣ . وما من شيء كان أشد نكبة لأمريكا في ذلك الوقت من حرب كهذه ، فأوفد واشنطن إلى لندن جون جاي ، وكان دبلوماسياً ذا خبرة أصبح إذ ذاك كبيراً للقضاة ، كمبعوث فوق العادة لتسوية مجموعة من الخلافات مع بريطانيا العظمى . وما كان ليختار أفضل منه ، إذ كان جاي يؤمن بأن « شيئاً من الحكمة الصادرة عن طيبة نفس كثيراً ما يؤدي في السياسة إلى أكثر مما يؤدي إليه الدهاء المعرض للزلل » . وبالاعتدال والذكاء المستنير ، حقق معاهدة فازت بكل ما كان للولايات المتحدة أن ترتقبه عن حق . ذلك أنه ظفر بوعده بأن المراكز الغربية التي كانت بريطانيا تحتفظ بها بعد ، يجب أن تتخلى عنها خلال عامين . وتوصل إلى إحالة مطلب أمريكا بتعويض عن الأضرار الناجمة عن استيلاء بريطانيا على السفن ، إلى لجنة . وحصل — في النهاية — على امتيازات تجارية مهمة في جزر الهند الشرقية وجزر الهند الغربية البريطانية . وفي مقابل هذا ، استبعدت المعاهدة تجار أمريكا مع جزر الهند الغربية البريطانية في القطن ، والسكر ، والمولاس ، واعترفت بالالتزام بدفع الديون التي كانت على أمريكيين قبل الحرب لتجار بريطانيين ،

وقصرت عن النص على تعويض عن العبيد الذين انتزعتهم الجيوش البريطانية من أصحابهم أثناء الحرب . وما كانت هذه بعيوب خطيرة في الواقع ، غير أن الشعور بأن أمريكا يجب أن تنال خيراً ما في جميع المعاهدات ، كان قد أخذ يخنم في العقلية الأمريكية من ذلك الحين ، فقبولت المعاهدة بضجة استنكار . وأحرق الغوغاء المهتاجون تماثيل جاي ، وأهال الخطباء والمحرون الغاضبون السخط على واشنطن . ولكن واشنطن وجاي كانا أكثر حكمة وفلسفة من أن يتأثرا بضجيج شعبي مؤقت . ولقد قبل مجلس الشيوخ المعاهدة ببعض التعديلات ، ووجد التجار وأصحاب السفن مرة أخرى ما يدعو إلى التطلع إلى الحكومة الاتحادية بالعرفان .

جون آدمز

عندما تقاعد واشنطن في سنة ١٧٩٧ ، تولى الزمام جون آدمز القدير ، الرفيع الفكر ، وإن كان صارماً وعنيداً ومليئاً بالميزات الشخصية . ولقد أكدت صلابته رأيه ، وعدم لباقة أن مدة رئاسته ستكون مضطربة . فقد بلغ من شدة استقلاله بالرأى أن أبى تقبل إرشاد هاملتون ، بل إنه تشاجر مع هذا الزعيم قبل أن يبدأ الرئاسة . وهكذا حد من قدراته أن أوتى وراءه حزباً منقسماً على نفسه ، وإلى جواره مجلس وزراء منقسماً كذلك ، إذ أن الوزراء (رؤساء الإدارات) كانوا يأخذون بآراء هاملتون في المسائل المتعلقة بالحزب . وكان كثير من أبناء الجنوب وأبناء نيوانجلاند يكرهون آدمز ، فاشتد شعور الحزب بالسخط . ومما زاد الأمور سوءاً ، أن سماء الشؤون الدولية اشتدت اكفهراراً عنها في أى وقت آخر .

وكانت نذر الحرب في هذه المرة ضد فرنسا . فإن مجلس إدارة شؤون الدولة (حكومة المديرين) التي كانت تحكم الجمهورية الفرنسية رفضت — إذ أغضبتهها معاهدة جاي — أن تقبل الوزير المفوض الذى أوفده آدمز ، وهددت فعلاً بإلقاء القبض عليه . فأهاج هذا الحدث المهين الشعور الأمريكى أشد هياج ، وأرسل آدمز ثلاثة مفوضين إلى باريس لمحاولة تدليل الصعاب ، فقبولوا بمزيد من الإعراض . إذ رفض تاليران — وكان يتولى الشؤون الخارجية — أن يتعامل معهم دون إبداء أسباب ما . وأشار وسطاء وثيقو

الجمهورية تهتدى إلى ذاتها ١٥٥

الاتصال به — ذكرهم المبعوثون الأمريكيون فيما بعد بالرموز هـ ، و ، ي X, Y, Z — إلى أن من الممكن الوصول إلى نتيجة إذا هم تلقوا ٢٥٠ ٠٠٠ دولار رشوة . أخيراً قطع تاليران المفاوضات تماماً ، برسالة فظة مهينة ، اتهم فيها الولايات المتحدة بالتعامل بوجهين . ولقد أثار نشر « أوراق هـ ، و ، ي » — كما أطلق على الرسائل المتبادلة — غضبة للكرامة في أمريكا بلغت درجة الصياح المهتاج . وقال روبرت جودلو هاربر : « إننا نجود بالملايين من أجل الدفاع ، ولكن ما من سنت واحد ندفعه جزية » ، فصادت العبارة هوى شعبياً . وجُنِدت القوات ، وعُزز الأسطول ، وجرت في سنة ١٧٩٨ سلسلة من المعارك البحرية ، أوقعت فيها السفن الأمريكية الهزيمة بالسفن الفرنسية على طول الخط . وبدا لفترة من الزمن أن لا مناص من إعلان الحرب .

في هذه الأزمة ، كانت فردية آدمز الصارمة ذات نفع للأمة . فقد أعرض عن هاملتون ، الذى كان يبغي الحرب ، وأوفد فجأة وزيراً مفوضاً جديداً إلى فرنسا — فاستقبله نابليون ، الذى كان قد تولى الحكم ، بترحاب ودى . وسرعان ما تلاشى خطر الصراع . على أن آدمز لسوء الحظ تصرف في الشؤون الداخلية ، في تلك الأثناء ، بضيق أفق وعدم تمييز وجد الشعب الأمريكى أنها مما لا يُغتفر له . فقد تحمل الكونجرس مسئولية أربعة قوانين غير موفقة ، كان لها نصيب كبير في القضاء على الحكومة . وقد مد أولها المدة التى ينبغى على أى أجنبى أن يقيمها في الولايات المتحدة قبل أن يغدو مواطناً من خمس سنوات إلى أربع عشرة . ومنح ثانيها الرئيس السلطة لمدة سنتين لأن يأمر بطرد أى أجنبى خطر من البلاد . ونص الثالث على جواز ترحيل الأجانب ، في وقت الحرب ، أو سجنهم بمرسوم من الرئيس وبدون محاكمة . أما الرابع ، فجعل التآمر ضد أى إجراء قانونى من الحكومة ، أو التعرض لأى موظف عام ، بل مجرد نقده ، جناية كبرى .

وبدت قوانين الأجنبى ومقاومة الحكومة هذه قاسية بدرجة ظالمة ، وانتهاكاً منكراً للحريات الشخصية والمدنية . وصمم جيفرسون وماديسون — اللذان كانا يعتقدان بأن الاتحاديين أخذوا يركزون في الحكومة القومية سلطاناً خطيراً — على التصدى لهذه القوانين . وكتبوا مجموعتين من مشروعات القرارات ، فتبنت الهيئة التشريعية في كنتكى مجموعة جيفرسون ، والجمعية النيابية لفيرجينيا مجموعة ماديسون . واستناداً إلى النظرية القائلة بأن الحكومة القومية قد أقيمت بناء على اتفاق بين الولايات ، أعلنت مقررات

١٥٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

كنتكى وفيرجينيا هذه أن لأية ولاية أن تتخذ الخطوات لتنقض أى عمل غير دستورى . ولم يكن غرضها المناذاة بحقوق الولايات ، وإنما حماية حقوق الناس . وأقبلت سنة ١٨٠٠ والبلاد مهياة لتغير جديد ، والواقع أنها تكشف عن سنة انتفاضة سياسية كبيرة . كان الاتحاديون فى عهدى واشنطن وأدمز قد قاموا بعمل عظيم ، إذ أقاموا الحكومة وجعلوها قوية السلطان . ولم يعد إذ ذاك من يرتاب — كما كان الكثيرون يرتابون فى سنة ١٧٨٩ — فى أن الأمة والدستور باقيا . بيد أن الاتحاديين أخفقوا فى أن يدركوا أن المقصود بالحكومة الأمريكية أن تكون فى جوهرها شعبية الطابع ، فقد اتبعوا سياسات كانت ذات أثر كبير فى منح طبقات خاصة السيطرة على الحكومة والمنافع المترتبة عليها . وكان جيفرسون — وهو زعيم شعبى بفطرته — قد دأب على أن يجمع خلفه باطراد الكتلة المؤلفة من صغار المزارعين ، والميكانيكيين ، وأصحاب الحوانيت ، وغيرهم من العاملين . وكانوا معقودى العزم على أن يحققوا للأمة حكومة شعب وليس حكومة مصالح خاصة ، وقد أعلنوا تأكيدهم بقوة نفوذ هائلة . وفى انتخابات سنة ١٨٠٠ ، ظفر آدمز بأصوات نيوانجلاند ، بيد أن المعارضة اجتاحت الولايات الجنوبية ، وظفرت بأغلبية كبيرة فى ولايات الوسط . وأدى النظام الانتخابى الفج إلى الربط بين جيفرسون ، وآرون بير ، وهو من أبناء نيويورك ، وكان عضواً فى حزب جيفرسون ، وأهلاً للثقة ولكنه ليس من أصحاب المبادئ . ولكن كل الظواهر كانت تبين أن الشعب صمم على أن يكون جيفرسون رئيساً ، وعمل هاملتون ، بتصرف من تصرفاته الرائعة التى كثيراً ما اتسمت بها حياته العامة ، ليكون قرار مجلس النواب لصالح جيفرسون .

ولقد كتب جيفرسون إلى أحد أصدقائه : « لقد جُربت جوانب سفينتنا الكبرى الصلبة أدق تجريب ، وسندفعها فى طريقها الجمهورى ، وسوف تبين الآن بجمال تحركها براعة البناء الذين شيدها » .



الفصل ٧

بعضة الوحدة القومية

حكومة جيفرسون

كانت الطريقة التي تولى بها جيفرسون الرئاسة في سنة ١٨٠١ ، تأكيداً وإبرازاً لأن الديمقراطية قد تولت الأمر . وكانت الاحتفالات الرسمية أول ما أقيم من حفلات في واشنطن ، التي كانت قد أصبحت العاصمة . كانت إذ ذاك مجرد قرية في غابة على الضفة الشمالية لنهر بوتوماك ، وكانت طرقها الموحلة قد شقت خلال الأحراج وعبر المستنقعات ، وليس فيها سوى بضعة بيوت كالحلة . « معظمها أكواخ صغيرة ، بائسة » ، وفقاً لما قاله أحد الوزراء الراحلين عن الحكم . ولقد أشار جوفرنير موريس في سخرية إلى أن العاصمة كانت ذات مستقبل عظيم . « فلسنا نريد هنا سوى بيوت وأقبية لتخزين المؤن ، ومطابخ ، ورجال ذوى اطلاع ، ونساء لطيفات ، وبعض التفاهات الأخرى من هذا القبيل ، حتى نجعل مدينتنا مثالية » . أما جيفرسون ، فقد سار في ثياب غير أنيقة كالعادة ، مغادراً بيته البسيط فوق التل إلى الكابيتول الجديد — مبنى الهيئة التشريعية — يتبعه عدد من الأصدقاء . وإذ دخل قاعة الشيوخ ، صافح نائب الرئيس بير ، الذي لم يكن من أصحاب المبادئ والذي كان مزاحمه قبل فترة وجيزة .

ووقف على مقربة رجل آخر لم يكن يثق فيه ، هو جون مارشال ، من فيرجينيا . وكان على صلة قرابة بعيدة به ، وقد عينه آدمز في الفترة الأخيرة كبيراً للقضاة . وأدى جيفرسون يمين المنصب ، ثم ألقى في هدوء خطاباً من خير ما ألقى رئيس عند توليه منصبه .

وكان جزء من خطاب جيفرسون نداء للوفاق تمس الحاجة إليه : فإن الحملة الانتخابية السياسية التي انتهت من عهد قريب ، كانت متسمة بأفدع التشهير ، حتى إن الكثيرين ، لاسيما في نيوانجلاند ، اعتقدوا أن جيفرسون كان ملحداً ، وأداة ، بل وفوضوياً . فرجا المواطنين أن يتذكروا أن التعصب السياسي شر كالتعصب الديني ، وأن يتحدوا كأمريكيين في الحفاظ على الاتحاد ، جاعلين الحكومة النيابية ذات فعالية ، وعاملين على تنمية الموارد القومية . وقال : « نحن جميعاً جمهوريون . . نحن جميعاً اتحاديون » ، وأضاف تصريحاً لا ينسى عن الإيمان بالحرية : « إذا كان بيننا من يودون حل هذا الاتحاد ، أو تغيير شكله الجمهوري ، فليصمدوا دون إزعاج ، كنُصب شاهدة بالأمن الذي يجوز به تحمل خطأ الرأي ، حيث يترك العقل والمنطق حراً ليصارعه » . أما بقية الخطاب ، فبسطت المبادئ السياسية للحكومة الجديدة ، فقال إن البلاد يجب أن تنال « حكومة عاقلة ، مقتصدة » تصون النظام بين السكان ، ولكنها « تتركهم فيما عدا هذا أحراراً لينظموا مساعيهم الخاصة بالعمل الجاد والتحسين ، وألا تأخذ من فم العامل الخبز الذي كسبه بجده » . يجب أن تحافظ على حقوق الولايات ، يجب أن تسعى إلى صداقة صادقة مع كافة الأمم ، ولكن « لا ترتبط بتحالف مع أى منها » . هذه عبارة ظلت حاضرة في الأذهان طويلاً . ووعده جيفرسون بالإبقاء على الاتحاد « بكل عنفوان طاقته الدستورية » ، والحفاظ على « تفوق السلطات المدنية على العسكرية » ، وتدعيم الانتخابات الشعبية بوصفها الفيصل الوحيد فيما عدا الثورة .

ولقد كان وجود جيفرسون في البيت الأبيض فترتين في حد ذاته ، مشجعاً بدرجة عظيمة للإجراءات الديمقراطية في كافة أرجاء البلاد . فالغنى كافة المظاهر الأرستقراطية التي كان واشنطن قد أحاط بها رئاسة الجمهورية ، وتم التخلي عن حفلات الاستقبال الأسبوعية ، واقتضبت مراسم (إتيكيت) البلاط إلى أضيق الحدود ، ونبتت القباب التفخيم مثل صاحب السعادة ، ففي نظر جيفرسون كان أبسط المواطنين جديراً بالاحترام كأعلى الموظفين . وعلم معاونيه أن يعتبروا أنفسهم أوصياء مفوضين عن الشعب . وشجع الزراعة ، وشجع تعمير الأراضي بشراء حقوق الهنود فيها ومساعدتهم

١٥٩ نهضة الوحدة القومية

على التزوج غرباً . وإيماناً بأن أمريكا يجب أن تكون مرفأً وملأذاً للمظلومين ، شجع جيفرسون الهجرة إليها بقانون للجنسية متحرر . وحاول جاهداً المحافظة على السلام مع الدول الأخرى ، لأن الحرب كانت تعنى مزيداً من نشاط الحكومة ومزيداً من الضرائب ، مع الإقلال من الحرية . وإذ عين جيفرسون ألبرت جالاتين – وكان من رجال المال البعيدى النظر ، وسويسرى المولد – وزيراً للخزانة ، شجعه على تخفيض المصروفات وتسديد الدين القومى ، مما نجم عنه أنه لم تأت سنة ١٨٠٦ حتى كانت الإيرادات القومية ١٤ ٥٠٠ ٠٠٠ دولار ، والمصروفات ٨ ٥٠٠ ٠٠٠ ، والفائض ٦ ٠٠٠ ٠٠٠ دولار ، وحوالى نهاية سنة ١٨٠٧ ، كان جالاتين المقتصد قد خفض الدين القومى إلى أقل من سبعين مليوناً . وساد عامة الشعب جميعاً الاعتباط ، إذ اجتاحت البلاد موجة من الشعور الجيفرسونى ، فأخذت الولايات تلغى الواحدة بعد الأخرى مؤهلات الثروة التى كانت تُشترط لمنح حق الانتخاب ، وحق تولى المناصب ، وحتى أخذت تصدر قوانين أكثر إنسانية لمصلحة المدينين ، والمجرمين .

ومع ذلك فإن القدر دفع جيفرسون والبلاد فى الاتجاه الذى لم يكن يعتزمه . فإنه وهو نبي التكوين المحكم للدستور ، بسط بخطوتين سلطات الحكومة الاتحادية إلى أقصى مدى ، وعندما ترك الرئاسة ، كانت الحرب التى أبغضها تتربص على كئيب .

شراء لويزيانا : مؤامرة بير

أدت إحدى خطوطه إلى مضاعفة مساحة الدولة ، إذ كانت إسبانيا قد ظلت طويلاً مستحوذة على الإقليم الممتد غربى نهر المسيسيبي ، مع ميناء نيو أورليانز بالقرب من مصبه . على أن نابليون اضطر الحكومة الإسبانية الضعيفة إلى أن تعيد إلى فرنسا القسم الكبير المسمى لويزيانا ، عقب تولى جيفرسون الرئاسة بفترة قصيرة . وما إن فعل ذلك حتى ارتجف الأمريكيون البعيدو النظر توجساً وغضباً ، فقد كانت نيو أورليانز ميناء لا غنى عنها لشحن المنتجات الأمريكية من زراعة وادى أوهايو والمسيسيبي . كانت خطط نابليون لإقامة إمبراطورية استعمارية هائلة غربى الولايات المتحدة مباشرة لتوازن التسلط الأنجلوسكسونى على أمريكا الشمالية ، تهدد حقوق التجارة وسلامة كافة

١٦٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

المستوطنات الداخلية ، بل إن إسبانيا الضعيفة كانت قد سببت متاعب جسيمة للقطاع الجنوبي الغربي . فما بالك بفرنسا ، أقوى دولة في العالم ؟
وأكد جيفرسون أنه إذا استولت فرنسا على لويزيانا « فعلينا من تلك اللحظة أن نفترق بالأسطول والدولة البريطانيين » ، وأن أول طلقة مدفع في حرب أوربية ، خليفة بأن تكون إشارة لححف جيش أنجلو أمريكي على نيو أورليانز . وكان نابليون في هم من اليقين بأن الولايات المتحدة وأنجلترا لن تحجبا عن الهجوم . وكان يدرك أن ثمة حرباً أخرى مقبلة ولا بد مع بريطانيا بعد صلح آميان الوجيز ، وأنه سيخسر لويزيانا قطعاً إذا ما بدأت تلك الحرب . كما كان يشط من عزمته عن سحق الثورة الكبيرة التي أعلنها الزعيم الزنجي توسان لوفيرتير (الفاتح) في هايتي التي كانت تحت الحكم الفرنسي ، والتي قضى فيها الثائرون والحمى الصفراء على قوة قوامها أربعة وعشرون ألف رجل ، في سنة ١٨٠٢ . ومن ثم ، فقد حزم أمره على أن يملأ خزانته ، ويبعد لويزيانا عن قبضة البريطانيين ، ويسعى إلى صداقة الأمريكيين بأن يبيع المنطقة للولايات المتحدة . وانتقلت هذه المساحة إلى حوزة الجمهورية لقاء ١٥ مليوناً من الدولارات ، وبشرائها « وسع جيفرسون الدستور حتى كاد يتفسخ » ، إذ لم تكن ثمة مادة فيه تحول شراء إقليم أجنبي ، وقد تصرف قبل صدور موافقة مسبقة من الكونجرس .

بهذه العملية الموفقة حصلت الولايات المتحدة على ما يزيد على مليون ميل مربع ، مع ميناء نيو أورليانز الثمين ، وكانت مدينة جميلة شيدت من الطوب والجص على منحني هلال الشكل لنهر المسيسيبي ، تحف بها من الخلف غابة من الشجر القاتم دائم الخضرة . وفي أحد أيام خريف سنة ١٨٠٣ ، شاهد جمع مختلط الألوان والجنسيات ، نزول العلم الفرنسي وارتفاع العلم ذى النجوم والشرائط ، في ميدان الجيوش — جمع ضم جنوداً فرنسيين في أزياء عسكرية زاهية ، وإسبانيين وكريول فرنسيين ^(١) ، في أزياء أنيقة ، ورواداً في أقمصة الصيد ، وهنوداً تحالط سمرتهم صفرة كالحة ، وعبيداً في لون الأنبوس . ولقد اكتسبت الولايات المتحدة سهولاً خصبة مترامية ، لم تنقص ثمانون عاماً حتى كانت من أكبر موارد القمح في العالم . كما اكتسبت السيطرة على شبكة الأنهار الوسطى — في القارة — بأكملها . ولأول مرة جاز للأمريكيين أن يقولوا — كما قال

(١) الكريول هم سلالة التزاوج بين الفرنسيين والإسبانيين — المترجم .

١٦١ نهضة الوحدة القومية

لينكولن فيما بعد ، أثناء الحرب الأهلية — إن أبا المياه يمضى إلى البحر دون عائق يضايقه . وإن هى إلا أربع سنوات ، حتى أدى إقدام روبرت فولتون على استخدام سفينة بخارية فى نهر هدسن إلى حل مشكلة استخدام هذه المسالك المائية الغربية جميعاً ، ناقلة النازحين للاستيطان فى تلك الأراضى ، وحاملة إلى السوق فى عودتها الفراء ، والغلال ، واللحوم المحفوظة ، وعشرات المنتجات الأخرى .

وعندما اقتربت فترة نهاية الرئاسة الأولى ، كان جيفرسون قد اكتسب شعبية واسعة ، إذ كان قد تجلّى أن لويزيانا كسب كبير ، وكانت الأعمال فى رواج ، وكان الرئيس قد سعى إلى إرضاء كافة القطاعات . فكانت إعادة انتخابه محققة ، وفعلاً ظفر فى سنة ١٨٠٤ بجميع أصوات مندوبى مجمع الانتخاب المائة والستة والسبعين عدا أربعة عشر ، فائزاً بتأييد جميع الولايات ، حتى فى نيوانجلاند ، ما عدا كونكتيكت . وكان بقدرته على السيطرة على حزبه بيد قوية ، قد اتخذ الخطوات لسحق آرون بير الطموح ، الدائب التآمر . وإذ حرم النيويوركى الماكر من كل نصيب عند توزيع الحزب الاتحادى مرشحيه للمناصب ، وفُصل من الحزب فعلاً ، تحول إلى التقرب إلى أشد الاتحاديين خصومة فى نيوانجلاند . ورشح حاكماً لنيويورك فى قائمة الحزب الاتحادى فى ربيع سنة ١٨٠٤ ، ولكنه منى بهزيمة مزرية ، وكان الفضل الأكبر راجعاً إلى معارضة هاملتون ، الذى ارتاب عن حق فى أن بير وبعض الدساسين اليانكى ، مثل تيموثى بيكيرينج ، كانوا يدبرون انفصلاً يحل الاتحاد . واستفز بير عديم المبادئ هاملتون إلى المباراة ليثأر لنفسه ، وقد انتهت المباراة ، التى جرت فى صباح أحد أيام يوليو على شاطئ نهر هدسن عند جيرسى ، بموت هاملتون . وأثار فقدان هذا الزعيم اللامع المحبوب عاصفة من الحزن الغاضب ، حتى لقد اضطرب بير إلى الاختباء حرصاً على سلامته . ولقد نُسفت صفحته فى الشرق ، ولكنه بصفاقة شريرة تحول نحو الغرب سعياً إلى مغامرات جديدة .

لم تكن المكافآت والتقدير المعتبرة كافية بالنسبة لطموح طاغ كطموح بير ، فكان شعاره : « احكم أودمّر » ، وقد وضع خططاً لإنشاء ولاية خاصة به . أما أين ، وكيف ينشئها ، فهذه أمور لا تزال موضوع تضارب . ويعتقد كثير من الدارسين أنه كان ينتوى جمع جيش صغير فى الغرب ، ويبحر نحو مصب الميسيسيبى فيستولى على نيواورليانز . وبسط مثل هذه النية لمسؤولين بريطانيين وإسبانيين ، محاولاً الحصول على مال من لندن

١٦٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

ومدريد . ولقد أخبر البريطانيين بأنه سيضع الولاية تحت حمايتهم ، بينما أخبر الإسبانين بأنه سيجعلها منطقة عازلة بين المكسيك والولايات المتحدة . ولكن أياً من الفريقين لم يؤيده . غير أن دارسين آخرين يعتقدون أن الغاية الحقيقية لبير ، كانت أن يحشد جيشه وأن يقوده ضد السلطات الإسبانية في فيراكروز ومدينة المكسيك . فيسيطر على تكساس والمكسيك . والواقع أنه أخبر بعض الزعماء ، مثل أندرو جاكسون ، من تنيسى ، الذى كان يكره إسبانيا ، بأن هذه كانت غايته . ومن المحتمل أنه هو نفسه لم يكن يدرى أكان يستهدف لويزيانا ، أو المكسيك ، بل من المحتمل أنه كان يستهدف الاثنين .

وعلى كل حال فقد انتهى إلى سقوط تام كسقوط زهرة الصباح (الشيطان) . فقد نمت مؤامره إلى رجال ذوى ولاء في الجنوب الغربى ، فاتهموه رسمياً في أواخر سنة ١٨٠٦ . وقبض عليه وأرسل إلى ريتشموند ، في فيرجينيا ، لمحاكمته عن جريمة الخيانة . ورأس المحاكمة جون مارشال ، فكانت أحكامه الرئيسية في صالح بير ، نظراً لأن الأدلة كانت مبهمة بدرجة لا مناص منها . ومن ثم برئت ساحة بير ، ولكن سمعته كانت قد تقوضت لدرجة لا سبيل لإصلاحها .

حياد أمريكا : قانون الحظر

استغل جيفرسون السلطان الاتحادي استغلالاً غير عادى للمرة الثانية ، في محاولة الحفاظ على حياد أمريكا أثناء الصراع الهائل بين بريطانيا العظمى و نابليون . فقد كان يعرف أن الجمهورية الناشئة ، التى لم تستكمل نضجها ، بحاجة إلى السلام . ولما كانت الحرب محتدمة في البر والبحر ، فقد راوده الأمل في إبقاء الولايات المتحدة خارج نطاق النيران . كانت بريطانيا العظمى تحارب لتمنع غزو دولة كبرى واحدة للقارة الأوربية بأكملها . ومن الطبيعى أن الحرب التجارية كانت من خير أسلحتها . وإدراكاً لقيمتها ، سارعت بريطانيا إلى محاصرة امبراطورية نابليون ، فرد نابليون بمرسومى برلين وميلان لحصار بريطانيا العظمى . وأوقعت الدولتان في صراعهما ضربات قاسية بالتجارة الأمريكية ، فقد عمل البريطانيون على قطع ما كان للسفن الأمريكية من تجارة نقل

١٦٣ نهضة الوحدة القومية

دسمة لمنتجات جزر الهند الغربية الفرنسية ، ولمنعها تماماً عن الساحل الأوربي بأكمله ، من إسبانيا حتى الألب . وأمر الفرنسيون بالاستيلاء على كل سفينة أمريكية تخضع للتفتيش البريطاني أو تمس ميناء بريطانية . أى أن الحرب سرعان ما بلغت درجة لم تعد معها أية سفينة أمريكية تملك أن تتجرع المنطقة الواسعة التي تحت السيطرة الفرنسية دون أن يستولى عليها البريطانيون ، ولا أن تتجرع مع بريطانيا دون أن تستولى عليها فرنسا (إذا قدر لها أن تقع في متناولها) . فكانت التجارة في هذه الظروف مستحيلة تقريباً . وكانت الحكومة البريطانية صارمة في إنصاف ، بينما كانت الحكومة الفرنسية تصادر السفن الأمريكية لأتفه حجة .

وكان الأمر الذى أثار الشعور الأمريكى بوجه خاص ضد بريطانيا العظمى ، هو موضوع التجنيد القسرى . فلقد اضطر البريطانيون إلى زيادة أسطولهم ، من أجل الفوز في الحرب ، إلى درجة أن أصبح لها ما يزيد على سبعمائة سفينة عاملة ، وحوالى ١٥٠.٠٠٠ ملاح وجندى بحرى . وحفظ هذا السياج المتين سلامة بريطانيا ، وحى تجارتها ، وصان مواصلاتها مع مستعمراتها . فكان ذا أهمية حيوية لوجود بريطانيا . غير أن رجال الأسطول كانوا يعانون من سوء الرواتب ، وسوء التغذية ، وسوء المعاملة ، حتى أصبح من المستحيل الحصول على بحريين عن طريق التطوع للجندية . وهرب كثير من البحارة ، وسرهم أيما سرور أن يجدوا ملجأ في سفن اليانكى الأسعد حالاً ، وأكثر أمناً . في هذه الظروف ، اعتبر المسئولون البريطانيون أن تفتيش السفن الأمريكية وأخذ من يكون عليها من رعايا بريطانيين ضرورة لا غنى عنها . ولم يدعوا الحق في أن يجندوا رجال البحر الأمريكيين قسراً ، ولكنهم رفضوا الإقرار بإمكان اكتساب أى بريطانى للجنسية الأمريكية . على أن وجهة النظر الأمريكية كانت معادية لهذا الادعاء تماماً . وكان من الإذلال للسفن الأمريكية أن تقبع تحت مدافع طراة بريطانية ، بينما يقوم ملازم وشرذمة من الجنود البحريين بإيقاف رجالها صفأ ، وفحصهم . ولقد جندوا قسراً بحريين أمريكيين تماماً بالعشرات والمئات ، وقيل — آخر الأمر — بالآلاف .

ولحمل بريطانيا العظمى وفرنسا على مسلك أكثر إنصافاً دون حرب ، انتهى جيفرسون إلى استصدار قانون الحظر من الكونجرس ، وهو قانون لتحريم التجارة الخارجية بأكملها . وكانت تجربة قاسية ، فلقد كادت شركات الملاحة أن تفلس من جراء هذا الإجراء ، في بداية الأمر ، فازداد عدم الرضاء في نيو إنجلاند ونيويورك . ثم

وجدت المشروعات الزراعية أنها تعاني خسائر باهظة ، لأن الأسعار تداعت عندما لم يعد في طوق مزارعي الغرب أن يشحنوا الفائض من قمحهم ، ولحومهم ، وتبغهم إلى ما وراء البحار . وشبه المراقبون هذا الإجراء بإقدام جراح على بتر ساق سعيًا إلى إنقاذ حياة شخص ما . فقد هوت الصادرات الأمريكية في سنة واحدة إلى خمس حجمها السابق . بيد أن الأمل في أن يؤدي الحظر إلى إجاعة بريطانيا العظمى فتضطر إلى تغيير سياستها لم يتحقق ، إذ أن الحكومة البريطانية لم تحرك ساكنًا . فاستُبدل الحظر بقانون منع التعامل . وكان يحرم الاتجار مع كل من بريطانيا وفرنسا والبلاد التابعة لهما ، ولكنه وعد بإيقاف هذا الإجراء بالنسبة لكل منها بمجرد أن تكف عن الاعتداءات على التجارة المحايدة . فأعلن نابليون رسمياً ، في سنة ١٨١٠ ، تحوله عن إجراءاته . وكانت هذه أكذوبة ، إذ أنه ظل سادراً فيها . غير أن الولايات المتحدة صدقته ، وقصرت عدم التعامل على بريطانيا العظمى .

حرب سنة ١٨١٢

زاد هذا من سوء العلاقات مع بريطانيا العظمى ، فانسأقت الدولتان سريعاً نحو الحرب . إذ أشارت عدة أحداث مشاعر الاستياء ، مثال ذلك أن البارجة البريطانية ليوبارد أمرت البارجة الأمريكية تشيزابيك بتسليم بعض البريطانيين الهاربين من الأسطول . ومع أنه لم يكن عليها سوى واحد ، فإن ليوبارد أطلقت النيران على تشيزابيك ربع الساعة ، حين صادفت شيئاً من التردد ، ثم اعتلت السفينة فإذا سطوحها مخضبة بالدماء ، وأخذت أربعة رجال . وبعد ذلك بقليل ، قدم الرئيس إلى الكونجرس تقريراً مفصلاً تضمن ٦٠٥٧ حادثاً جند فيها البريطانيون رعايا أمريكيين عنوة ، في فترة ثلاث سنوات . كذلك طرأت قلاقل الهنود على الموقف . وكان المستوطنون في الشمال الغربي الذين عانوا هجمات رابطة من القبائل الهندية كونها الزعيم القدير تيكومسه ، موقنين من أن العملاء البريطانيين في كندا كانوا يشجعون الهمجين .

وكان ثمة حافز أناني كل الأنانية . فإن أهل الغرب النهمين إلى الأرض ، والذين كان يمثلهم أقدر تمثيل في الكونجرس هنرى كلاي ، ابن كنتكي البليغ اللسان ، كانوا

١٦٥ نهضة الوحدة القومية

يودون الاستيلاء على كندا بأسرها ، وكان يحرضهم على ذلك أهل الجنوب ، بزعامة جون سي . كاهون الشاب - الذى كان يرجو غزو فلوريدا وانتزاعها من إسبانيا ، إذ أصبحت حليفة لبريطانيا - وصقور حرب آخرون . وكانت النتيجة ، وقد استقر ماديسون فى البيت الأبيض ، أن أعلنت الحرب على بريطانيا فى سنة ١٨١٢ .

كانت حرب سنة ١٨١٢ من أبعد الأمور عن التوفيق فى التاريخ الأمريكى ، من نواح كثيرة . فمن الأسباب أنها كانت عملاً لا داعى له ، إذ أن الأوامر البريطانية موضوع البحث ، والتى سببت أسوأ هياج ، كانت موضوع إلغاء غير مشروط فى اللحظة التى أعلن الكونجرس الحرب فيها . ومن الأسباب أن الولايات المتحدة عانت انقسامات داخلية من أخطر الأنواع . فبينما كان الجنوب والغرب يجذبان الحرب ، كانت نيوانجلاند ونيويورك ضدها بوجه عام ، ولقد ذهبت جماعات من ذوى النفوذ فى نيوانجلاند إلى حافة نقض الولاء ، قرابة نهايتها . وهناك سبب ثالث ، هو أن الحرب كانت من الناحية العسكرية بعيدة عن أن تكون مجيدة .

كان الجيش الأمريكى فى وضع سيئ إزاء القتال ، إذ كان الاقتصاد الجيفرسونى قد هبط به إلى أقل من ثلاثة آلاف جندى ، تعززهم قوة من العامة تمثل حرساً وطنياً (ميليشيا) غير مدرب ولا مروض على النظام . وكان كثير من الجنود النظاميين من أرباب السجون والمواخير . ويروى لنا وينفيلد سكوت ، وهو شاب من فيرجينيا كان قد بدأ حياته العسكرية اللامعة قبل بضع سنوات ، إن القادة كانوا ينقسمون إلى فريقين رئيسيين : « كان الضباط القدامى قد انحدروا إلى الكسل ، أو الجهل ، أو الإسراف فى الشراب ، بوجه عام إلى درجة كبيرة » . أما الضباط الأحدث عهداً ، فكانوا فى الغالب قد عينوا لأسباب سياسية ، فكانت القلة من الصالحين ، ولكن الأغلبية فيما « أجلاف وجهلة » ، أو - إذا كانوا متعلمين - فهم « سادة مغرورون ، متواكلون ، متداعون ، وآخرون لا يصلحون لأى شىء آخر » . وكان أكبر ميجر جنرال ، عندما بدأت الحرب ، هو هنرى ديربورن غير الكفاء ، الذى تجاوز الستين من العمر ولم يتول قط قيادة وحدة فى الميدان تزيد على فصيلة . وكان أكبر بريجادير جنرال هو جيمس ويلكنسون ، الذى عرف الآن أنه كان خائناً للولايات المتحدة ، أجيئاً لإسبانيا وفرنسا معاً ، ومتآمراً مع آرون بير . فكان مفسوداً ، منحلاً ، غير مطيع ، محتقراً من كل من كانوا يعرفونه . وكان البريجادير جنرال الوحيد الذى أوتى خبرة قيمة هو وليم هل ، الذى

كان قد بلغ مرتبة كولونيل في الثورة ، بيد أنه كان قد أصبح واهن القوى ، مسناً . وقد بدأ الحرب بتسليم ديترويت دون إطلاق رصاصة واحدة .
ومن ثم تابعت النكبات . فانتهت جهود الأمريكيين لغزو كندا إلى فشل عام .
وكما قال مؤرخ بريطاني : « لم يكن يبدو على الحرس الوطني والمتطوعين ، في السنة الأولى ، أنهم قد عقدوا الرأي على أنهم راغبون في القتال ، أو غير راغبين » . وكانت أشد المعارك على الحدود الشمالية ، هي التي دارت عند لنديز لين بالقرب من نياجرا ، معركة استطال أمدها ، وزعم كل من الطرفين فيما بعد أنه منتصر . على أن البريطانيين والكنديين كانوا أرجح حقاً في الابتهاج ، إذ أنها صدعت مؤقتاً خطط الأمريكيين للزحف قدماً على كندا .

وعندما انهزمت قوات نابليون في إسبانيا ، أصبح في مقدور البريطانيين أن يعززوا جيوشهم تعزيزاً كبيراً بالجنود الذين كانوا يحاربون مع ولينجتون . فنفذت قوة شديدة البأس إلى نيويورك عند بلاتسبيرج على بحيرة تشامبلين ، ولكن الأسطول البريطاني في تلك المياه منى بهزيمة حاسمة على يدى شاب في الثامنة والعشرين ، هو الكومودور توماس ماكدونو ، فاضطر الجيش البريطاني إلى التقهقر وقد أصبحت مواصلاته مهددة .
وهبط جيش بريطاني آخر ، تألف من أقل من خمسة آلاف رجل ، بقرب واشنطن ، والتقى بقوة تكبره قليلاً ، أغلبها من الحرس الوطني ، عند بلادينسبيرج . وتحلى المدافعون عديمو البطولة عن القتال بعد أن فقدوا عشرة قتلى ، وأصيب أربعون بجراح ، وهرعوا نحو واشنطن بسرعة كبيرة ، حتى إن كثيرين من البريطانيين أصيبوا بضربة الشمس وهم يحاولون الاستمرار في ملاحقتهم . وانتقاماً لتدمير الأمريكيين المباني العامة في يورك (وهي الآن تورنتو) أطلق البريطانيون قذائفهم على الكابيتول والبيت الأبيض . بيد أن الأسطول البريطاني لم يحقق شيئاً عندما عرض فورت ماكهينرى على مقربة من بلتيمور ، للقصف من مسافة بعيدة ، إذ كانت صخور المياه الضحلة تجعل القصف عن كذب مستحيلاً . وكان على إحدى البوارج البريطانية إذ ذاك محام شاب من واشنطن ، هو فرانسيس سكوت كى ، يحاول تدبير عملية لتبادل الأسرى ، فأوحى له منظر العلم القومى وهو يرفرف في نسيم الصباح ، أن يكتب قصيدة العلم المرصع بالنجوم .

لم يحظ الأمريكيون بأية انتصارات إلا في البحر . وكان الأسطول ، الذى بنى وفقاً

١٦٧ نهضة الوحدة القومية

لخطة دقيقة في عهدى واشنطن وآدمز ، قد أبلى بلاء رائعاً في الحرب القصيرة مع فرنسا ، وفي عمليات ١٨٠٣ - ١٨٠٤ ضد سفن القراصنة الطرابلسيين ، الذين بات عدوانهم على الملاحة الأمريكية لا يطاق . وكان ، على نقبض الجيش ، قد أوتى شخصاً منظماً عظيماً في مرحلة مبكرة ، هو إدوارد بريبل الذي فرض على جناح البحر المتوسط من الأسطول إدارة قاسية ولكنها تتسم بالكفاءة ، فغرس في رجاله روح الشجاعة والشهامة والطاعة ، مما أصبح تقليداً لهم ، ودرّب شباب الضباط من أمثال ستيفن ديكتاتور حتى اكتسبوا مقدرة رفيعة . وكان الأسطول صغيراً ، من حيث العدد - إذ أن جيفرسون اتبع سياسة خرقاء ، تمثلت في الاقتصار على إنشاء زوارق مسلحة للدفاع الساحلي ، فلم يكن عدده في سنة ١٨١٠ يتجاوز اثنتي عشرة سفينة من أى حجم . بيد أن قادة السفن من اليانكي ، في مجموعة من العمليات الفردية (أى التى كانت تقوم بها سفينة واحدة) ، كالتى قامت بها كل من السفينة كونستيتيوشن ، وجيرير ، ويوناييتد ستيتس ، وماسيدونيان ، هزموا باستمرار سفناً بريطانية معادلة في الحجم والقوة أو أكبر . كذلك أثبت الأمريكيون مقدرتهم في البحيرات الكبرى جريت ليكس . ولقد أنشأ الكابتن أوليفر هازارد بيري - وهو ضابط آخر دون الثلاثين من العمر - أسطولاً في بحيرة إيري ، وسعى وراء قوة بريطانية أصغر ، وبعد عملية اتسمت بالعناد ، هز البلاد برسالة المقتضبة : « التقينا بالعدو ، وهو في أيدينا » . على أن الأسطول البريطاني القوي بسط في النهاية سلطانه كاملاً على البحار ، واضطر السفن التجارية الأمريكية إلى أن تلوذ بالبر ، وفرض حصاراً محكماً على الساحل الأمريكى .

وعندما اختتمت الحرب ، لم تذكر معاهدة جنت (سنة ١٨١٤) - التى تفاوض بصددّها جون كوينسى آدمز ، وهنرى كلاى وغيرهما - أية كلمة عن التجنيد عنوة ، وحقوق الحياد التى كان من الجلى أنها السببان الرئيسيان للحرب . ولم يتح للبلاد أية غبطة سوى انتصار ضخم من جانب واحد ، ظفر به في نيواورليانز جيش غير نظامى ولكنه شديد ، من رجال الحدود ، تحت قيادة أحد الذين خاضوا حروب الهنود ، هو أندرو جاكسون ، على قوة بريطانية بقيادة مساعد ولينجتون المقدم إدوارد باكينهام . وكان ذلك يوم ٨ يناير سنة ١٨١٥ ، بعد أن أبرمت معاهدة الصلح . ولكن قبل أن يُعرف أمرها في أمريكا ، فجعل هذا النصر من جاكسون المتأجج الحماس والمتسلط الإرادة بطلاً قومياً هائلاً .

الوحدة القومية

على أن الحرب ساهمت مساهمة فذة في تطور الجمهورية ، بالرغم من طابعها العسكرى المخزى . فهي وإن بدأت وانتهت في غمرة التدمير والتشاحن ، قد عززت عاطفة الوحدة القومية الوطنية . ومن الممكن إبداء عدة أسباب لهذا . فإن العمليات الناجحة المتفرقة ، والانتصارات البحرية بوجه خاص ، وهزيمة محاربي باكينهام المتمرسين في نيو أورليانز ، أتاحت للأمريكيين أساساً جديداً للفخر والاعتداد . فخلعوا عنهم الشعور الذي كانت « سياسة جيفرسون الخانعة » قد ربته في النفوس . وبلى ذلك أن الرجال من مختلف الولايات قاتلوا جنباً إلى جنب مرة أخرى ، وأن وينفيلد سكوت الفيرجينى كان أقدر قائد وجهه جنود الشمال ، مما أنمى شعور الوحدة القومية . ولقد كسب الجنود من أبناء الغرب بعض المواقع التي لم ينسوها ، فأصبحوا أقل ارتباطاً بولاياتهم وأكثر ولاء للدولة من كثيرين من أبناء الولايات الأصلية الثلاث عشرة . ومنذ ذلك العهد ازداد دور الغرب في الحياة الأمريكية ، فكان الغرب قومياً في عاطفته دائماً .

وأخيراً ، فإن القوم خرجوا من الحرب مشمئزين من العقلية غير الوطنية التي أبدتها بعض الجماعات الأنانية ، الضيقة الأفق . كان الناقمون من أهل نيو إنجلاند قد تمادوا إلى حافة الخيانة بالذات ، وقد أوفدوا في مرحلة متأخرة من الحرب مندوبين إلى اجتماع سياسى في هارتفورد لدراسة إقامة اتحاد منفصل . وقد أصبح اجتماع هارتفورد هذا رمزاً يعبر عن الاحتقار واللوم ، وإن كان في الواقع لم يتهاد إلى درجة الانفصال .

وعلى الإجمال ، فإن هذه الحرب المنحوسة الطالع فعلت الكثير لتصبح الجمهورية أكثر نضجاً وأكثر استقلالاً ، ولربط كيائها ، ولتقوية طابعها . ولقد أكد ألبرت جالاتين أن الأمريكيين قبل الصراع كانوا يزدادون أنانية ، ومادية ، وجنوحاً إلى التفكير على هدى أضواء محلية ، أكثر مما ينبغى . وقال : « لقد جذدت الحرب الشعور والطابع القوميين اللذين جادت بهما الثورة ، واللذين كانا يتناقضان يوماً بعد يوم ، وأعادت توطيدهما . فأصبح للناس مزيد من مشاعر الارتباط العامة ، التي تربط بها كرامتهم وآراؤهم السياسية . لإنهم أمريكيون أكثر من ذى قبل ، وهم أكثر من ذى قبل شعوراً وتصرفاً كأمة ، وآمل أن يكون دوام الاتحاد أفضل تحقّقاً بهذا » . ولما كان خوض الحرب قد جرى بهذا الترابط الوثيق ، فإنها لم تخلف ضغائن تذكر . وعندما التقى البريطانيون

١٦٩ نهضة الوحدة القومية

والأمريكيون في ميدان للقتال مرة أخرى بعد أكثر من مائة عام ، كان لقاءهم كزملاء في السلاح ، وفي مودة وتعاطف .

لقد أثبتت الأحداث أن الوحدة القومية قد نمت ، وأن سلطان الحكومة المركزية ازداد ، بغض النظر عن الحزب الذي في الحكم : اتحادى هاملتون ، أوديمقراطى جيفرسون . ذلك لأن ظروف النمو القومى تطلب هذا . فإن اقتناء لويزيانا ، وشن نزاحم تجارى مع فرنسا وبريطانيا العظمى ، ومهاجمة قراصنة البربر ، والقيام بحرب مع البريطانيين — كل هذه الأعمال كانت تتطلب سلطة مركزية قوية البأس .

كذلك كانت الحكومة البريطانية تزداد تدعماً بدرجة كبيرة في هذه السنوات ، بفضل قرارات المحكمة العليا . إذ أن جون مارشال الفيرجينى ، المؤمن بالوحدة ، والذي عين كبيراً للقضاة قبيل تولى جيفرسون الرئاسة ، شغل هذا المنصب حتى وفاته في سنة ١٨٣٥ . ولقد كانت المحكمة ضعيفة ، ولا تحظى باكتراث يذكر ، فحولها إلى هيئة قضائية قوية النفوذ والمهابة ، تحتل مكانة في أهمية مكانة الكونجرس ورئيس الجمهورية . ولقد كان مارشال في أذواقه وأساليب مسلكه ينتمى إلى مجتمع المزارع المتحرر ، في الولاية التى ولد ونشأ فيها . كان بسيطاً في ملبسه ، يحمل عشاءه بنفسه من السوق في عودته لبيتته ، يحب لعب الورق ، وشراب البنش^(١) ، وممارسة لعبة الروليكينج^(٢) الصاخبة بحدوات الجياد أو الحلقات المعدنية . ولكنه في أفكاره كان يمثل دوائر الأعمال والمهن في المدن من قبيل بوسطن ونيويورك . ولقد أظهرت قراراته الباقية ، وهى نتاج عقل جرىء وثاقب ، أنه كان تحت سلطان مبدأين جوهريين : أولهما سيادة الحكومة المركزية ، والثانى قداسة الملكية الخاصة .

كان مارشال قاضياً عظيماً ، وكانت قراراته تكتب بمنطق قدير يوحى بالإقناع للقارئ في كل مناسبة تقريباً . كانت بسيطة في الأسلوب ، تقوم على دراسة هائلة وتحليل شامل دقيق . وكانت عادته أن يثبت مقولته الرئيسية كاملة في البداية ، ثم يستطرد إلى الاستقراءات ، هادماً كل معارضة لها ، مثبتاً في النهاية استنتاجه مدعماً إياه بوافر من الأقوال المنقولة والأمثلة . وكرئيس للمحكمة العليا ، وهب هذه المحكمة

(١) شراب من النبيذ واللبن والشاي ، مضافاً إليها السكر والليمون والبهارات ١ — المترجم .

(٢) لعبة رماية حدوة أو حلقة على شئء ثابت لتحيط به — المترجم .

١٧٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

انسجاماً وتنسيقاً ، فكانت وجهات النظر المتنافرة ، والآراء غير المتوافقة ، نادرة . غير أن مارشال كان أكثر من قاض عظيم — كان رجل حكم دستوري عظيماً . فهو في البت فيما يقرب من خمسين قضية تناولت مسائل دستورية جلية ، كان يعالجها على أساس من فلسفة سياسية مكتملة النضج . كانت تتعلق بكافة أجزاء الدستور المهمة تقريباً . وترتب على هذا ، أنه حين اختتم خدمته الطويلة ، كان الدستور كما تطبقه المحاكم في كافة أرجاء البلاد ، دستوراً من تفسير مارشال إلى حد كبير جداً ، حتى ليجوز القول بأنه أعاد صياغته وفقاً لتصوره وبصيرته الجلية .

ومن المستحيل أن نفعل أكثر من تعداد قراراته الرئيسية . ففي قضية ماربوري ضد ماديسون (سنة ١٨٠٣) ، أرسى — بقرار حاسم — حق المحكمة العليا في إعادة النظر في أى قانون صادر عن الكونجرس أو الهيئة التشريعية لإحدى الولايات ، فكتب : « من المؤكد قطعاً أن مجال الهيئة القضائية وواجبها ، أن تعين ما هو القانون » . وفي قضية آل كوهن ضد فيرجينيا (سنة ١٨٢١) استبعد الحجج التي ساقها أولئك الذين قالوا إن القرار الصادر من محكمة إحدى الولايات ، في قضايا قائمة تحت قوانين الولاية ، يجب أن يكون نهائياً . فأظهر البلبلة التي يؤدي إليها هذا بالبلاد — لأن الولايات قد تتخذ العديد من وجهات النظر المختلفة ، إزاء صلاحية القوانين الواردة في الدستور الاتحادي أو المعاهدات الاتحادية — وأصر على أن الحكم النهائي يجب أن يكون ذلك الصادر عن المحاكم القومية . وفي قضية ماك كلوش ضد ميريلاند (سنة ١٨١٩) تناول الموضوع القديم ، موضوع السلطات الضمنية للحكومة بموجب الدستور . وفي هذا تصدى بجرأة للدفاع عن نظرية هاملتون القائلة بأن الدستور يمنح الحكومة ضمناً سلطات لا يوردها تعبيراً . وفي قضية جيبونز ضد أوجدن (سنة ١٨٢٤) ، ضخم مارشال هذه النظرية . فإن الدستور أعطى الكونجرس حق وضع اللوائح لتنظيم التجارة بين الولايات . وفي هذه القضية ، التي نشأت عن نزاع على حقوق السفن البخارية في نهر هدسن ، رأى مارشال أن هذا الحق القومي في التنظيم يجب أن يفسر على أوسع نطاق ، وليس أضيقه . وفي قضية كلية دارتماوث ، طبق مارشال بند التعاقد في الدستور لتأييد صلاحية مرسوم مخول لشركة ، منكرأ على الولاية سلطة تعديله بعد صدوره . وبوجه عام ، فقد فعل مارشال قدر ما فعل أى زعيم لجعل حكومة الشعب الأمريكي المركزية قوة حية ، نامية .



الفصل ٨

ثقافة قومية

البحث عن شخصية قومية

كان من الأمور البالغة المعنى ، أن الدولة جاءت قبل الأمة في تكوين الولايات المتحدة ، في حين أن الأمة سبقت الدولة بقرون ، في قيام معظم الدول الجديدة ، كالبرتغال أو النرويج أو ألمانيا أو إيطاليا . أى أن الولايات المتحدة تبلورت سياسياً وإدارياً قبل أن تكون قد اكتسبت معظم العناصر التقليدية للقومية . ومن ثم فإن قسماً كبيراً من العمل الإنشائي الثقافي كان موجهاً ، سواء عن وعى أو دون وعى ، إلى مهمة توفير هذه العناصر : تاريخ مشترك ، وأغان وقصص وأساطير مشتركة ، وأبطال مشتركين ، وأدب وفن مشتركين .

ولقد أدرك الأمريكيون — من البداية — أن من المرغوب أن تكون ثمة لغة وأدب وثقافة « أمريكية » . ولقد كتب ذلك المتحمس للقومية نواه ويست ، الذى اشتهر بالقاموس : « يجب أن تكون أمريكا مستقلة في الأدب ، كما هى في السياسة » . وأشار جوفرنير سوليفان ، من مساشوستس ، أن « الوقت قد حان الآن لكى نتخذ شخصية وآراء قومية خاصة بنا » . ولقد وجهها القول إلى شطر كبير من رأى العام المتعلم . ولقد

شهد الجيل الأول من الاستقلال الأمريكي مجهوداً نشيطاً ، يكاد أن يكون متشجعاً ، من أجل « خلق » ثقافة أمريكية . كان لابد من لغة أمريكية ، وقد آلى نواه ويبستر على نفسه في عزم أن يذود عن الكلام الأمريكي ويثبت تفوقه على الكلام البريطاني . وكان لابد من أدب أمريكي ، فإذا فيليب فرينو وهيو براكينريدج ومجموعة من شعراء كونكتيكت ، الشعراء الذين عرفوا بلقب مضلل نوعاً ما هو « عباقرة كونكتيكت الموهوبون » ، يحاولون جهدهم الخروج على معايير العالم القديم ، وإنشاء معايير أفضل في العالم الجديد . وكان لابد من تعليم أمريكي ، فعمل جيل جيفرسون ونواه ويبستر وبنجامين رش دائيين على جعل التعليم غير ديني وعاماً في آن واحد . وكان لابد من علم أمريكي — وكان الأمريكيون منصرفين إلى دراسة البيئة بحكم ظروفهم ، وقد ركزوا عناية كبيرة على الجغرافيا ، وعلم النبات ، وعلم أصول الإنسان . . بل كان لابد من حساب أمريكي ، إذ كتب نيكولاس بايك : « الآن وقد أصبحنا أمة مستقلة ، فقد بات من اللائق أن يكون لنا علم حساب مستقل » . ولم تقطع الأمة الجديدة صلتها تماماً بأقليدس (أبى علم الحساب) ، ولكنها حققت طفرة كبيرة على الأقل إلى الأمام ، بنظام النقد (العملة) العشري .

والواقع أن هذا الاعتداد الذاتي الثقافي لم يسفر عن كثير في الجيل الأول بعد الثورة ، فإن الأمة الجديدة لم تكن مهياً بعد لتوفير ثقافة وأدب مستقلين ، وظل الفن والمعمار متشبثين بالاعتباس . وأسفرت اللغة « الأمريكية » عن شبه كبير جداً بالانجليزية ، وبمرور الزمن أخذت الانجليزية تزداد شبهاً بالأمريكية باطراد . واتخذت الصحف الناشئة الكثيرة ، التي كان عليها أن تنمى الأدب الأمريكي ، طراز المجلات الفصلية البريطانية الكبرى ، حتى « مجلة أمريكا الشمالية » التي سادت الميدان سنوات كثيرة . أما الرسامون الأمريكيون ، أمثال بنجامين ويست وجون سينجلتون كوبلي ، فلم يقتصروا على الدراسة في الخارج ، بل عاشوا في الخارج . ولعل الأمريكيين لم يسهموا أعظم إسهام إلا في الميدانين اللذين لم يملكهم فيها الاعتداد الذاتي ، وهما القانون والسياسة . فلم يكن أعظم إنتاج الأمة الجديدة الأدبي أثراً في الأشعار أو الروايات — فقد كانت كلها تقريباً ضعيفة — وإنما الكتب مثل « الإدراك السليم » ، و« البحوث الاتحادية » ، والمذكرات العامة لرجال الحكم من أمثال واشنطن ، وجيفرسون ، وماديسون ، وجون مارشال . كان التفوق الأمريكي في مجال السياسة في

هذا الجيل الأول ، أمراً لا ينازع ، مثله مثل تفوق الإيطاليين في المجال الفني أو الألمان في المجال الموسيقي ، فإن فن سياسة الحكم كان التخصص الأمريكي .

مولد أدب أمريكي

لم يبدأ الأمريكيون في اكتساب ثقافة قومية في الواقع ، إلا بعد حرب سنة ١٨١٢ . فقد أتمت هذه الحرب دفعة واحدة تبدد أوهام الأمريكيين إزاء « الوطن الأم » ، وأذكت الاعتداد الذاتي الأمريكي ، وحولت اتهامات الأمريكيين غرباً ، نحو المساحات الحديدية الشاسعة التي أخذت تبدو باطراد ذات أصالة أمريكية . ومع أن واشنطن إرفينج كتب الكثير بأسلوب كتاب المقالات المعاصرين باللغة الانجليزية ، فإنه قصر اهتمامه على الأقل بموضوعات بلده . وكتبه « تاريخ نيويورك » بعض الحق في أن يعتبر بداية مزاج أدبي أمريكي . ولقد اقتنص في كتاب « القصص القصيرة » أساطير وادي هدسن وحكاياته القديمة ، التي كان يعرفها تمام المعرفة ، فصانها وحفظها ، مثل أسطورة « ريب فان وينكل » ، وأسطورة « الغور الناعس » . وبعد أن استغرق فترة طويلة في البراءة والكتابة عن انجلترا وألمانيا وإسبانيا ، عاد إلى الموضوعات الأمريكية ، فجاد على مواطنيه بأول سيرة موضوعية عرفتهم بكولبس ، وأول سيرة جيدة لواشنطن ، وثلاثة كتب مهمة وشاملة عن الغرب الأقصى ، ضمت فيما ضمت القصة القديمة عن أستوريا .

وكان إرفينج يرى نفسه عالمياً ، يسعد بالعالم القديم سعادته بالعالم الجديد . ولم يكن جيمس فني مور كوبر مثله ، بل عالج عن قصد موضوعات أمريكية ومشاهد أمريكية كمادة تنصدي للروايات الأوروبية الرومانسية ، واشترك بتحمس قوى في الحرب الأدبية ضد انجلترا . وكان كوبر هو الذي اكتشف في الواقع الإمكانات الأدبية التي تتيحها حياة الهنود وسكان الحدود ، والذي قدم ، في سلسلة ليذرستوكينج العظيمة التي كتبها ، سجلاً للصدام بين حضارتي الحمر والبيض ، الصدام الذي استهوى خيال العالم الغربي بأسره . ولقد كان كوبر كاتباً ذا موهبة واسعة النطاق ، فكتب سلسلة من قصص البحر ، قدر لها أن تلهم فيما بعد مؤلفين مثل ماريات وكونراد ، وسلسلة أخرى

من الروايات عن المجتمع الأمريكى فى مدن وريف ولاية نيويورك ، لها بعض الحق فى أن تعتبر النماذج الأولى للقصة القائمة على دراسات اجتماعية فى أمريكا . وفى هذه الأثناء ، كان وليم كولين بريانت - الذى بشرت قصيدته « ثاناتوبسيس » ، وقد كتبها فى سن السابعة عشرة ، بظهور موهبة شعرية حقيقية - يتغنى بالطبيعة الأمريكية فى قصائد ، وبالديمقراطية الأمريكية فى مقالات لصحيفة إيفينينج بوست النيويوركية .

على أن أول ازدهار كبير للأدب الأمريكى ، تحقق فى نيوانجلاند ، فيما بين أواسط الثلاثينات من القرن التاسع عشر حتى الحرب الأهلية . ونستطيع أن نحدد تاريخ الازدهار بشىء من التأكيد بظهور ديوان « الطبيعة » لـ رالف والدو إيمرسون فى سنة ١٨٣٦ ، وقد يكون لنا أن نؤرخ أفوله ابتداء من وفاة هوثرن فى سنة ١٨٦٤ . فإن هى إلا سنوات قلائل بعد ظهور مقالات إيمرسون الأولى ، حتى برز إيمرسون كناطق معبر عن العقل النيوانجلاندى ، وربما الأمريكى . فقد كان إيمرسون ، كمثالى وتفاؤلى وذى أصالة وجدة ، يتكلم بصفاء وجمال ينفذان إلى العقل ويلهبان خيال الشباب فى كل جيل . وبرغم ما للمثالية الألمانية من أثر عليه ، فقد كان أمريكياً أصيلاً و« يانكى » حقيقياً فى فلسفته ، كما إنه كان فيلسوف كل من لم يكن لهم فيلسوف آخر . وكان كتابه « الطبيعة » ، و« خطاب مدرسة الألوهية » يؤلفان منبر الدعوة إلى الفلسفة الارتقائية transcendentalism الأمريكية ، وكان كتابه « الدارس الأمريكى » و« خصال إنجليزية مميزة » (سنة ١٨٥٦) إعلاناً أدبياً وفلسفياً للاستقلال ، وكان شعره يسفر عن مزيد من الأصالة ، وربما كان يكشف عن عمق فلسفى يزيد على أى شىء كتب فى أمريكا قبل ديوان « أوراق العشب » .

كان إيمرسون ، على حد تعبير أحد معاصريه ، البقرة التى كان كل من عداه يستمدون منها اللبن . ولقد كان هنرى ديفيد ثورو - وهو الآخر من كونكورد مثله - أحد الذين اعتمدوا على إيمرسون ، وبدا لفترة أنه يعيش فى ظلاله . غير أن ثورو أوتى عقلاً كمعقل إيمرسون استقلالاً ، وأكثر منه أصالة فى اعتبارات عديدة . وكتابة « والدين ، أو الحياة فى الغابة » الذى يقرأه بشغف كل جيل جديد من الشبان والشابات ، قادر إلى حد كبير على أن يعيش إلى أبعد ما يعيش أى شىء كتبه إيمرسون نفسه . ولقد ألهم مقاله عن « العصيان المدنى » شخصيات عالمية مثل ليوتولستوى ، والمهاتما غاندى ، والبانديت نهرو .

ثقافة قومية ١٧٥

وكان ناثانيل هوثورن شخصية ثالثة من أبناء كونكورد ، وهى بلدة لها بعض الحق فى أن تعتبر بمثابة أئينا الأمريكية . كان روائياً ذا حسن بالغ الإرهاف ، وقد وجد فى تاريخ نيوانجلاند مادة لقصص اتخذت بفضل خياله الخصب طابعاً عالمياً : « الشارة القرمزية » ، « والبيت ذو السقوف السبعة » ، « ومغامرة بلايئديل » ، ومجموعة من القصص القصيرة — مثل « الوجه الصخرى الكبير » ، « وصمة إيثان » — تنتمى إلى الأدب العالمى كالروايات . ولقد أتاح لنا هوثورن فى « الإله الرخامى »^(١) أعماق التفسيرات جميعاً للصدام بين خلق العالم القديم وخلق العالم الجديد . . وهو موضوع استهوى الكتاب الأمريكيين من كوبر إلى هنرى جيمس .

على أن الشعراء — وليس الروائيون ولا كتاب المقالات — هم الذين كانوا أكثر حظوة لدى المعاصرين ، وهم الأفضل حضوراً فى الأذهان . فقد كان ذلك عهد هنرى وادسويرث لونجفيلو ، أكثر الشعراء الأمريكيين جميعاً استثناءً بالحب ، وجيمس رسل لويل الذى كشف ديوانه « أوراق بيجلو » الإمكانيات الأدبية للهجة نيوانجلاند العامية ، وجون جرينليف هويتير شاعر ريف نيوانجلاند وشاعر حركة إلغاء الرق ، والدكتور هولز الذى لا قرين له ، فقد كان شاعراً ، وكاتب مقال ، وروائياً ، وأكثر الأطباء تبحراً . ولقد خلق هؤلاء الرجال ، مع رجال الدين — من أمثال وليم تشانينج والواعظ الأمريكى العظيم ثيودور باركر — ما لا يزال يمثل للأذهان العهد الذهبى للأدب الأمريكية .

على أن مركز الثقل الأدبى كان قد أخذ يتحول فى الخمسينات من القرن التاسع عشر إلى نيويورك . وكان إرفينج وكوبر ويريانت قد عاشوا حتى ذلك العقد من الزمن ، بيد أن موهبتهم الأدبية كانت قد نضبت ، إذ كان كتاب الخمسينات ينتمون إلى عالم جديد . كان هيرمان ميلفيل قد نشر ما لا يقل عن خمس روايات قبل سنة ١٨٥٠ ، بيد أنه لم يبدأ ما يمكن اعتباره أدباً أمريكياً متميزاً عن سواه ، إلا برواية « موبى ديك » (١٨٥١) ، ففعل « موبى ديك » كانت أقل انتماء للرواية الانجليزية التقليدية من أى شئ كتب فى أمريكا حتى ذلك الحين . فقد احتوت هذه الرواية الرمزية عن مطاردة الحوت الأبيض فى صفحاتها معالم أمريكية صميمة ، وإن تناولت مسائل خلقية كانت

(١) أصل الاسم : The Marble Faun ، وهو تمثال لإله قديم نصف إنسان ونصف عر — المترجم .

عالمية . ولقد انبعث بعد سنوات قلائل صوت أمريكي قح آخر ، إذ نشر والت ويتمان البروكليني الطبعة الأولى من طبعات عديدة من ديوانه « أوراق العشب » . وكانت هذه القصائد — لعدم تقيدها بما كان متعارفاً عليه إذ ذاك ، في الأسلوب والمادة — تعتبر في تلك الأيام خارجة ومثيرة للاستنكار . والواقع أنها صيغت ببراعة ، وكشفت في أوجها عن موهبة شعرية أخصب مما أوتي أي شاعر من شعراء القرن العشرين ، كما أنها كانت سليمة ، ملتزمة بالقواعد والأصول في رومانيتها (روح الفردية في الخيال والفكر والتعبير) . والواقع أن الشعر الأمريكي — والشعر الحديث بالذات — لم يتخلص تماماً من تأثير « أوراق العشب » .

التاريخ

يقال بوجه عام إن من العناصر الجوهرية للقومية الناجحة وجود تاريخ وتراث مشتركين ، وجود شعور مشترك بالماضي . ولو كان هذا صحيحاً ، لكانت الولايات المتحدة في مركز سيء ، إذ أنها لم تؤت من التاريخ الخاص بها سوى القليل جداً . ولقد عكف آباؤها المؤسسون — في مجال الفكر — على علاج هذا الموقف ، وبعث ماض أمريكي ، وكشف تقاليد أمريكية ، وتمجيد أبطال أمريكيين . ولقد عملت قصة الصراع من أجل الاستقلال ، والجهاد لصياغة الدستور ، عملاً رائعاً في هذا السبيل ، فلماذا الأمريكيون ، قبل أن يقدر لحرب الاستقلال أن تنتهي ، يشبهون مؤسسي أمتهم برومولس وريمس ، بهورسا وهنجيست ، في حين أن واشنطن لم يُدرج يوماً ما بين الأبطال الأسطوريين الآخرين مثل ألفريد العظيم ، وفردريك برباروسا . والواقع أن واشنطن لدى بارسون ويمز المناق قد فاقهم جميعاً في الفضيلة ، والإقدام ، والمهابة ، والحكمة . وسرعان ما كان المؤرخون الأكثر رصانة يكتبون تاريخ الثورة أو يجمعون أوراق « الآباء المؤسسين » ورسائلهم .

وفي سنة ١٨٣٤ ، ظهر الجزء الأول من مؤلف جورج بانكروفت الضخم « تاريخ الولايات المتحدة » ، الذي تلهج كل صفحة منه اغتباطاً بالحرية والديمقراطية ، ويعلن كل جزء منه سمو أمريكا على كافة الأمم الأخرى . ولقد بدأ بانكروفت العصر الذهبي

ثقافة قومية ١٧٧

للكتاب في التاريخ الأمريكي ، وظل يتزعمه نصف القرن . وسرعان ما قام وليم بريسكوت ببعث حضارتي الإنكا والأزتك ، وسرعان ما كان جون موتلى يعيد رواية الصراع الهولندي المجيد ضد الإسبانيين من أجل الحرية ، وسرعان ما بدأ فرانسيس باركرمان الشاب مؤلفاته التاريخية بمؤلفه « مؤامرة بونتياك » ، الكتاب الأول من سلسلة مؤلفات تسجل الصراع بين إسبانيا وفرنسا وإنجلترا من أجل أمريكا الشمالية .

ولقد لقيت مؤلفات بانكروفت وپريسكوت وموتلى رواجاً واسعاً ، بيد أن الأمريكي العادي لم يستمد إدراكه للماضي من صفحاتهم المتألقة ، وإنما من قصائد لونجفيلو المحبوب ، الذي نشر هالة رومانتيكية على الهنود في قصيدته « هياواتا » ، وعلى طرد الأكاديين في قصيدته « إيفانجلينا » ، والذي صاغ الماضي الأمريكي صياغة قصصية في قصائد مثل « بول ريفير على جواده » ، و« غرام مايلز ستانديش » ، وغيرهما من القصائد الكثيرة التي دخلت في مجرى الذاكرة الأمريكية . ومن ويتير في قصائد مثل « رحلة النوتى إيرسون » و« سنوباوند » وغيرهما من الصور الشعرية الباعثة لماضى نيوانجلاند ، ومن قصص وروايات ناثانييل هوثورن ، ومن مقطوعات المطالعة في كتاب النحو الذي وضعه نواه ويبستر والذي ظل يستخدم خمسين عاماً في كل مدرسة في البلاد ، أو كتب « المطالعة » الكثيرة التي وضعها الأخوان ماكجفى ، ومن الخطب البليغة لدانييل ويبستر الذي استطاع - كما صورته الأقوال الأسطورية - أن يفحم الشيطان نفسه في الجدل ، والذي ظل ختام دفاعه عن الاتحاد ، في رده على السيناتور هين ، قطعة أثرية من المحفوظات زهاء نصف القرن :

عندما تلتفت عيناى لتأمل الشمس في السماء لآخر مرة ، فأمل ألا أراها مشرقة على أشلاء يجللها الخنزى لاتحاد كان يوماً ما مجيداً ، على ولايات مفككة ، غير متفقة ، متحاربة . . على أرض ممزقة بفعل المنازعات الأهلية ، أولعلها تكون مبتلة بالدم الأخوى ! . . بل لتقع نظرتيما الأخيرة ، الواهنة ، المتلكئة ، على راية الجمهورية الزاهية - التي أصبحت معروفة وأثيرة بالإجلال في كافة أرجاء الدنيا - وهى بعد في كامل رقيها ، تنساب أسلحتها وانتصاراتها في بريقها الأصلي ، فيما من شريط محو وملطخ ، وما من نجمة واحدة مطموسة ، لا تحمل كشعار لها عبارة استهفامية تعسة مثل : ما جدوى هذا كله ؟ . . ولا تلك الكلمات الأخرى المضللة الطائشة : الحرية أولاً ، ثم

الاتحاد . . بل لتنتشر في كل مكان ، فوق البحر ، وفوق البر ، وفي كل ربح تحت
السموات جميعاً ، تلك العاطفة العزيزة على كل قلب أمريكي صادق في أمريكته :
الحرية والاتحاد ، الآن وإلى الأبد ، وحدة لا تنفصل !

الفنون

كذلك حاولت الأمة الجديدة ، عن اعتزاز بالذات إلى حد ما ، أن تحقق في الفن والعمارة شيئاً قومياً مميزاً عن سواه ، ولكن دون ما توفيق كبير . فقد ظل الرسم والنحت يستندان إلى الاقتباس حتى فترة طويلة بعد الحرب الأهلية . وكان الجيل الأول من الفنانين الأمريكيين يرسم على ضوء سموات بعيدة . . انجليزية وإيطالية في الغالب . فكان من الأوائل بنجامين ويست الذي درس في إيطاليا ، واستقر في لندن فيما قبل الثورة ، فكان مرسمه يجتذب معظم الرسامين الناشئين في الجمهورية الجديدة . . ومنهم تروبول ، وبيل ، وكوبلي ، وستيوارت . ولقد ولى الرسامون الناشئون وجوههم ، فيما بعد ، نحو إيطاليا التماساً للإلهام والتعليم . . مثل واشنطن آلستون ، أوتوماس كول الذي يمكن القول بأنه أدخل الرومانسية على فن الرسم الأمريكي ، والذي مهد الطريق إلى الرومانسية لذلك الفريق من رسامي الطبيعة الذي عرف بمدرسة نهر هدسن . وفي الوقت ذاته ، كان ثمة تأثير أجنبي آخر ، فإن مدرسة من الرسامين تعلمت في دسلدورف بألمانيا ، فأقبل أفرادها على الإغراق في الرسم التاريخي الرومانسي ورسم الطبيعة ، على حساب الأمة الجديدة : وإلى هذه المدرسة الفنية تنتمي لوحة لوتز « واشنطن يعبر نهر ديلاوير » ، وكذلك كان كثير من المناظر الطبيعية بريشة ألبرت بيريشتات ، مما ساعد على أن ترسخ في الخيال الأمريكي صورة الغرب كعالم شاعري وجامح على الترويض . وكانت أقرب منها إلى الطابع القومي المحلي ، لوحات الطيور الأمريكية بريشة العبقري المهمل الذكر جون جيمس أودوبون ، واللوحات الرائعة للهنود الأصليين بريشة جورج كاتلين ، وألفريد جاكوب ميلر ، واللوحات المستمدة من الواقعية اليومية بريشة جورج بينجهام وليم سيدنى ماونت .

ولم تكن الظروف مواتية لتطور ونمو فن النحت . فلم يكن لدى العالم الجديد

١٧٩ ثقافة قومية

مدارس ، ولا أساتذة ، ولا نحاتون ، ولا نماذج « موديلات » . ولقد اتجه النحاتون الأمريكيون منذ البداية إلى إيطاليا للدراسة على تلامذة كانوفار ، أو على ثوروالدسن نفسه ، وليتعلموا أن يقلدوا هذين الأستاذين . ويكاد يكون جميع المثاليين الأمريكيين الأوائل قد درسوا في إيطاليا ، وقد ثابروا جميعاً - تقريباً - على التراث الكلاسيكي زمناً طويلاً بعد أن لم يعد يلقي إقبالاً في أوروبا . فكان منهم هوراشيو جرينوه الذى طار صيته بتمثاله البطولى لواشنطن وهو نصف متشج . وكان منهم توماس كروفورد ، الذى نحت تمثالاً هائلاً لواشنطن على صهوة جواد ، والذى توج مبنى الكابيتول فى واشنطن بتمثال ضخيم : « الحرية المسلحة » . وكان منهم هيرام باورز الذى أحدث تمثاله العارى « الجارية اليونانية » نوعاً من الفضيحة فى أمريكا ، وإن أثار هزة إعجاب عندما عُرض فى القصر البلورى فى لندن . على أن مساهمته الحقيقية كانت مجموعة تماثيل نصفية لرجال الحكم والأدب . وكان منهم وليم ويتمور ستورى ، وكان ابن قاض كبير ، ترك مركزاً قانونياً ذا مستقبل فى بوسطن ، ليعيش فى روما حياة مثال ، وشاعر ، وبوهيمى ، فوفر مادة لرواية كتبها هوثورن وسيرة كتبها هنرى جيمس . . وهى شهرة كافية لأى رجل .

كذلك كان فن العمارة يستمد من أوروبا ، وإن كانت البيئة المستجدة تطلبت ؛ والمواد الجديدة يسرت تباينات طريفة ومهمة عن الأساليب الأوروبية . كانت المدينة فى نيونجلاند وحدة كاملة الشبه تقريباً بمدن القرون الوسطى ذات الأسوار ، مثل آفنيون أومورا ، فهى جميلة المنظر وصالحة للأغراض المرجوة منها فى آن واحد ، ولم يستطع المهندسون المعماريون ومخططو المدن أن ينتجوا شيئاً مناسباً كهذا طيلة القرن ونصف القرن الماضيين . كان النمط الجورجى ، ومحسن أن يسمى الاتحادى ، تعديلاً للنمط الانجليزى السائد ، وإن لم يكن ثمة مناص من أن يكون أصغر حجماً ، وأكثر تواضعاً ، ومعتمداً على الخشب بدلاً من الحجر . ولقد أنتجت نيونجلاند ، فى شخص صمويل ماكينتاي من سالم وتشارلز بولفينش من بوسطن ، مهندسين معماريين أوتيا القدرة على أن يقتبسا أساليب البناء والزخرفة الانجليزية ويعدّلاها وفقاً للاحتياجات الأمريكية . ولقد ترك ماكينتاي طابعه على مدينة سالم بقدر ما ترك بالاديو طابعه على فيشينتسا ، فى حين أن الأثر الباقي لبولفينش كان دار الولاية فى بوسطن ، الذى كان أوليفر ويندل هولز يعتبر قبتها بمثابة مركز الكون .

ولقد كان ثلاثة من المهندسين المعماريين الذين ولدوا خارج أمريكا - وليم

١٨٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

ثورنتون ، وستيفن هاليت ، وبنجامين لاثروب — هم الذين اضطلعوا بمبنى الكابيتول القومي ، الذى أقيم على نسق النماذج الرومانية طبعاً ، والبيت الأبيض . وكان لاثروب ، مع توماس جيفرسون ، المسئولين الأولين عن الدعوة إلى بعث الفن اليونانى الذى ازدهر فى كافة أرجاء البلاد إلى قسط كبير من الربع الثانى من القرن ، وأتاح لفن العمارة المحلى فى الجنوب طابعاً مميزاً .

كان توماس جيفرسون — فى جيله — أوسع المماريين الأمريكين خيالاً وحيلة ، فهو الوحيد الذى جمع بين إنشاء الحدائق ذات المناظر الطبيعية وفن العمارة فى التراث الانجليزى العظيم . وكان قد شغف بالبيت المربع فى نيم ، ومنجزات بالاديو الرائعة فى فيشيتسا ، وآلى على نفسه أن يطوع فن العمارة اليونانى — الرومانى وعمارة بالاديو وفقاً لاحتياجات الجمهورية الجديدة . فكان بيته مونتشييللو ، الذى أقامه على قمة تل يطل على وادى فيرجينيا ، مشيداً على نمط بيت بالاديو « فيلا مالكونيتسا » ، ثم مجهزاً بإضافات أمريكية الطابع . وكانت جامعة فيرجينيا — التى وضع جيفرسون تصميمها وشيدها واختار المناظر الطبيعية المحيطة بها ، وهو فى السبعينات من عمره — ولعلها لا تزال أجمل مجموعة من المباني ، وأكثر المجموعات تناسقاً ، فى الدولة ، من الناحية المعمارية .

التعليم

كان الآباء المؤسسون يعرفون أن تجربتهم فى الحكم الذاتى تجربة لم يسبقها مثيل ، وأيقنوا من أنها ما كانت لتنجح بدون ناخبين متنورين . فكتب جيفرسون : « آمل ، قبل كل شىء ، أن يلقي تعليم العامة عناية ، يقيناً بأن لنا أن نعتد ، بأقصى درجة من الاطمئنان ، على حسن إدراكهم للحفاظ على الدرجة المنشودة من الحرية » . وأصر جون آدمز على « التعليم لكل درجة وكل مرتبة من الناس حتى أدناها وأفقرها » للتأكد من أن الأمة ستحظى بحكم طيب ، وستكون متحدة . وكان بنجامين رش فى بنسلفانيا ، ونواه ويبستر فى كونكتيكت ، والحاكم كليتون فى نيويورك يأخذون بهذين الرأيين ، فصرفوا طاقاتهم إلى نشر وترقية التعليم العام والعالى فى مجتمعاتهم . وهكذا

ثقافة قومية ١٨١

ناضل الدكتور رش من أجل مدارس البنات ، وساهم بنصيب كبير في التعليم الطبي ، ودعا إلى إنشاء جامعة قومية . كما عمل على إنشاء كلية ديكنسون . وأقام الحاكم كليتون جامعة ولاية نيويورك ، ووضع ابنه دي ويت أسس شبكة من المدارس العامة في الولاية . وكذلك عمل نواه ويستردون هوادة من أجل التعليم العام ، فأمد المدارس بالقواميس ، وكتب الهجاء ، وكتب المطالعة ، وكتب التاريخ ، وساعد على إنشاء كلية ماهرست . وكان جيفرسون - بين الآباء المؤسسين جميعاً - هو الذي منح التعليم القسط الأوفر من وقته وتفكيره ، والذي بذل أهم المساهمات . فوضع مخططاً حاول تنفيذه لآخره ، لنظام كامل يوفر التعليم العام لكافة أطفال فيرجينيا ، وكان صاحب الفضل الأكبر في المواد المستنيرة الخاصة بالتعليم العام في قانوني الأراضي الغربية ، واضطلع بإصلاح شامل لكلية وليم آند ماري العتيقة ، وأنشأ مكتبة الكونجرس وأمدّها بقسط كبير من الكتب ، ووضع مخطط جامعة فيرجينيا وشيدها ، فكانت في زمنها أكثر المنشآت التي من نوعها في البلاد تقدماً .

ومع أن العمل على توفير التعليم العام كان أفضل - إلى حد ما - من أي عمل من نوعه في أوروبا الغربية في ذلك الوقت ، فإنه ظل غير كاف - بالمعايير الحديثة - إلى درجة تدعو للأسى . ففي ولايات نيوانجلاند كان التهرب من المستلزمات القانونية للتعليم الأولى على نطاق واسع ، كما أن ولايات كثيرة أخرى لم تحفل بالمستلزمات . ومع ذلك فإن الأمية كانت أقل بكثير مما في بريطانيا أو في أوروبا ، فكان بوسع معظم الرجال قراءة الصحف اليومية المحلية ، والتقويم السنوي ، والتوراة . ولم يكن التعليم العالي بالرقى الذي كان موجوداً في اسكتلندا أو ألمانيا أو إيطاليا في ذلك الحين ، ولكنه كان أيسر منالاً ، ولأعداد أكبر نسبياً مما في تلك البلاد . وإذا كانت بعض الكليات - مثل وليم آند ماري ، وبرينستون ، وهارفارد - قد بدت أقرب إلى الأكاديميات منها إلى الجامعات الحقيقية ، فلنستحضر في أذهاننا أنها خرّجت رجالاً مثل جيفرسون ، وماديسون ، وجون آدمز .

وبالرغم من هذا الاهتمام البالغ بالتعليم العام ، فإن المجتمعات - على نطاق الولاية وعلى النطاق المحلي - أهملته بدرجة شنيعة في الجيل الأول من عمر الجمهورية . فلم تتجه الأمور إلى التحسن إلا في الثلاثينات من القرن التاسع عشر في الواقع ، وتلقى التعليم العام دفعة قوية من الخارج . . من رجال التعليم السويسريين والألمان الذين

١٨٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

كانوا يقومون بثورة في التعليم في بلادهم ، ومن المصلحين الذين كانوا يرون أن الجهل عقبة كؤود في طريق برناجهم للتنمية الخلقية والاجتماعية . ومن الممكن القول بأن هوريس مان ، من مساشوستس ، كان أشدهم أثراً ، وإن لم يكن الأول في هذا الميدان . فعندما عين مفوضاً للتعليم للولاية في سنة ١٨٣٧ ، دعم القوانين القائمة ، وحسّن التسهيلات المادية والمستويات الذهنية في المدارس ، وأوجد أول برنامج لإعداد المدرسين ، وبسط في اثني عشر تقريراً سنوياً مشهورة تفصيلات فلسفة لمكانة ووظيفة التعليم العام في دولة ديمقراطية ذات نفوذ محسوس في كثير من أرجاء الكرة الأرضية . ولم يكن ما قام به هنري بارنارد ، من كونكتيكت ، يقل عن هذا أهمية بدرجة تذكر . فقد فعل من أجل ولايته وولاية رود آيلاند ما فعله مان من أجل مساشوستس ، وعرف رجال التعليم الأمريكيين بالتطورات التعليمية في الخارج ، على صفحات مجلته ، وأصبح في سنة ١٨٦٧ أول مفوض (مدير) للتعليم للولايات المتحدة . وفي هذه الأثناء ، سعى ثاديوس ستيفنز في بنسلفانيا — وكان حديث الوفود عليها من فيرمونت — إلى صدور قانون يطالب بمعونة من الأموال العامة للمدارس . ولقد أقامت ولاية نيويورك أول مدارس ثانوية عامة ، وأيدت النصوص الخاصة بالتعليم في قانون الشمال الغربي ، فازدهر التعليم العام في كافة أرجاء الشمال الغربي القديم .

ولم يشعر التعليم الأمريكي بأثر الآراء الجديدة الوافدة من الخارج لأول مرة ، إلا في الثلاثينات من القرن التاسع عشر . وهي الآراء القائلة بأن التعليم عملية إيجابية وليست سلبية ، فالصغير يكون بالمشاهدة والعمل أفضل تعلماً منه بتريديد الدروس من الكتاب ، والمدرس مرشد و صديق وليس آمراً ومهيماً ، وأن للطفل حياة خاصة به ولا يتقدم وينمو إلا على قدر طاقته الخاصة ، وأن للعب والرياضة ما لحفظ الكتب من أهمية بالنسبة للطفل — وكان جان جاك روسو هو أول من نادى بهذه الآراء ، ولكن تطبيقها جاء على يدى بيسثالوزي في سويسرا ، وفروبل في ألمانيا . وكانت آراء صادفت بطبيعة الأمر هوى من شعب ديمقراطي ، شعب كان قد اكتسب فعلاً عادة رفع الشباب إلى مستوى مثالي . فسرعان ما شرع برونسون آلكوت في تجربة بعض هذه الآراء في مدرسته تيمبل سكول في بوسطن ، وسرعان ما أقامت مسز كارل شورتز وإليزابيث بيبودي رياض الأطفال في أمريكا ، وقدر لفروبل أن يقول إن رياض الأطفال التي نادى بها لم تحقق أغراضها الحقة إلا في أمريكا .

ثقافة قومية ١٨٣

وكان التقدم في التعليم العالى كميّاً إلى حد كبير . فلم نحن نهاية القرن ، حتى كانت الكليات التسع ، التى ازدهرت في عهد الاستعمار ، قد ازدادت إلى أكثر من عشرين ، وبدأ أنها أخذت تزداد بعد ذلك بمتوالية هندسية . وكانت معظم الكليات صغيرة وفقيرة ، ذات موارد غير كافية ، ومكتبات هزيلة ، وأساتذة يحظون بالإعجاب لتفانيهم أكثر منهم لكفاءتهم . بيد أن هذه الكليات فعلت ما لم تكن المعاهد الشبيهة بها في أوروبا على استعداد لفعله — كانت تقبل كل من يقرع أبوابها تقريباً ، وأولت التعليم الخلقى والمسئولية الوطنية عناية بارزة ، وعلمت طلبتها الموضوعات الصالحة لأن يستعملوها ، إلى جانب الموضوعات ذات القيمة الذهنية والثقافية .

ولقد امتاز التعليم العالى الأمريكى خلال النصف الأول من القرن بثلاث انطلاقات . إحداها : نمو جامعة الولاية ، التى كانت تشاهد في أحسن مستوياتها في الولايتين الغربيتين الحديديتين : أوهايو ومتشيغان . وكان ظهور التعليم العالى للبنات انطلاقة ثانية ، وقد جاهدت لأجله بحرارة ماري ليون ، وإيما ويلارد ، وكاترين بيتشر ، اللاتى نجحن في إقامة أول كليات للإناث في العالم الغربى . أما الانطلاقة الثالثة فهم تحرير التعليم العالى من مطلب القدرات الأربع التقليدى ، وإنشاء معاهد متعددة الأغراض لأداء المهام المتعددة التى كانت الحاجة تمس لأدائها في هذه الدولة الديمقراطية الجديدة — وقد بلغ هذا التحرير أوجه في قانون موريل الصادر في سنة ١٨٦٢ ، والذي خصص أراضى عامة لمساعدة الجامعات الزراعية والهندسية في كل ولاية .



الفصل ٩

الديمقراطية الجاكسونية تكتسح الميدان

مبدأ مونرو

أفسح جيمس ماديسون « الضئيل الجسم ، المجدد البشرية » منصب الرئاسة ، في سنة ١٨١٧ ، لجيمس مونرو الطويل ، النحيل ، القسيم ، الذي كان مثلاً لهذا الاجتماع غير النادر ، بين إنسان عادي (خلو من الميزات الفذة) وحياة عملية عامة ذات امتياز رفيع . إذ كان قد تقلد منصباً بعد آخر — عضواً بمجلس الشيوخ ، فحاكماً ، فوزيراً لدى فرنسا وانجلترا ، فوزيراً للخارجية — إلى أن أصبح رئيساً للجمهورية . ومع أن عهده كان ذا أثر سيء أكثر منه طيباً ، فإن الحزبين السياسيين كانا في حال من الخمول المؤقت ، فحظى مونرو في سنة ١٨٢١ ، بامتياز إعادة انتخابه للرئاسة بأصوات جميع الناخبين عدا صوت واحد ، أدلى به ناخب في نيو هامبشاير كان يبتغى ألا يحظى بشرف الإجماع أحد سوى واشنطن . ومع ذلك فإن مونرو ، الذي كان يفتقر إلى قوة الجاذبية ، لم يكن ذا شعبية كبيرة في يوم من الأيام ، كما كانت زوجته —

وكانت امرأة مليحة ، جافة ، متحفظة - أقل نصيباً من حب الشعب من دوللي ماديسون . كانت الصفتان الفذتان لدى مونرو هما إدراك عام ماهر ، وإرادة قوية . كان - كما وصفه جون كوينسى آدمز ذا « عقل سليم في أحكامه النهائية ، وحزم في استنتاجاته النهائية » .

وكان الحدث الذى صدر عن حكومته ومنحه خلود اسمه ، هو مناداته بها أطلق عليه مبدأ مونرو . وقد اقترنت فكرتان رئيسيتان في هذا المبدأ ، الذى لم يكن في الواقع سوى جزء من رسالة مونرو السنوية للكونجرس في سنة ١٨٢٣ ، إحداهما فكرة الاستعمار ، تأكيداً بوجوب منع أوروبا من إقامة أية مستعمرات جديدة في نصف الكرة الأرضية الغربى . أما الأخرى فهي فكرة اللاتدخل ، إعلاناً بوجوب ألا تعود أوروبا للتدخل في شؤون دول العالم الجديد على نحو يهدد استقلالها . وقد نبعت هاتان الفكرتان من موقفين معينين بالذات .

وكان الداعى للفكرة الأولى ، في المقام الأول ، ادعاء روسيا حق امتلاك الإقليم الجنوبى من ألاسكا ، الذى يمتد حتى خط العرض الواحد والخمسين . وهو ادعاء كان يتعارض مع تأكيد الأمريكين والبريطانيين ملكية الشمال الغربى الممتد إلى ساحل المحيط الهادى . أما الفكرة الثانية فأثارها التهديد الصادر من الحلف الرجعى الرباعى في أمريكا لشعوب أمريكا اللاتينية ، التى كان بوليفار وسان مارتان قد حرراها . وكانت الدول المتحالفة قد اتخذت خطوات لسحق الحركات الديمقراطية في إسبانيا وإيطاليا . وفي مؤتمر عقدته في فيرونا سنة ١٨٢٢ ، بحثت إرسال قوات عبر المحيط إلى أمريكا الجنوبية ، لقسر بعض من الجمهوريات الجديدة الضعيفة على الأقل على العودة إلى السواء لإسبانيا . وكانت فرنسا ستضطلع بالدور القيادى في حملة كهذه ، وقد تظفر بأراض لنفسها .

وعند سماع هذه الأنباء ، جزع وزير الخارجية البريطانى الذكى جورج كانينج أيماء جزع ، فاقترح أن تتخذ بريطانيا العظمى والولايات المتحدة خطوات متناسقة للتصدى لمثل هذا التدخل . وبدأ على الحكومة الأمريكية ، لفترة ، أنها ميالة للقبول . وأشار جيفرسون وماديسون على مونرو بتحييد العمل المشترك . ولكن جون كوينسى آدمز ، كوزير للخارجية ، أصر عن صواب بوجوب أن تنصرف الولايات بمفردها ، وانتهى مونرو إلى أن مال لرأيه . فأعلن في رسالته إلى الكونجرس : أولاً ، أن القارتين

الديمقراطية الجاكسونية تكتسح الميدان ١٨٧

الأمريكيين « يجب ألا تعتبر منذ الآن عرضة لاستعمار من أى من الدول الأوروبية الكبرى في المستقبل » ، وثانياً ، أن أى تصد أوروبى « بغرض الجور على دول أمريكا اللاتينية ، أو السيطرة على مصيرها بأى شكل آخر » سيؤخذ على أنه دليل على مجافاة الصداقة إزاء الولايات المتحدة . وبهذا أقيم أحد المعالم الكبرى في سياستنا الخارجية ، وقدر له أن يبقى لأكثر من قرن .

اتفاق الميسورى

بالرغم من أن الرق لم يكن حتى ذلك الحين قد حظى باهتمام عام يذكر ، فإنه كان قد نما بسرعة حتى أصبح مشكلة ذات نفوذ عظيم . وفى سنة ١٨١٩ ، وبمباغنة مذهلة ، انفجرت المشكلة على الانتباه العام « كجرس ينذر بحريق في جوف الليل » ، كما كتب جيفرسون . إذ أن كثيراً من الزعماء افترض أن الرق لن يلبث أن يذوى في كل مكان ، عندما كانت الولايات الشمالية تضع التشريعات لتحرير العبيد فوراً أو تدريجياً . ولقد كتب واشنطن إلى لافاييت في سنة ١٧٨٦ ، أنه كان يرجو صادقاً إمكان اتخاذ خطة ما « يتسنى بها إلغاء الرق بدرجات بطيئة ، أكيدة ، غير ملحوظة » ، وقد اعتق عبيده في وصيته . وكان جيفرسون يرى أن الرق يجب أن يمحق بعملية تجمع بين التحرير والإبعاد عن البلاد . وكان يقول : « إننى أرتجف فرحاً من أجل بلادى ، عندما أفكر في أن الله عادل » . وصرح باتريك هنرى ، وماديسون ، ومونرو ، وكثيرون غيرهم بمثل هذا . وكان العديدون من الجنوبيين يرون — حتى سنة ١٨٠٨ ، عندما ألغيت تجارة الرقيق — أن الرق لن يكون سوى شر مؤقت .

بيد أن الجنوب تحول ، أثناء الجيل التالى ، إلى قطاع كان في الغالب متحداً اتحاداً قوياً وراء الرق . فكيف تسنى هذا ؟ لماذا اختفت تقريباً روح إلغاء الرق في الجنوب ؟ من الأسباب أن المبادئ التحررية الفلسفية التى ذكت واستقرت في أيام الثورة ، أخذت تضعف تدريجياً . ومن الأسباب أن روح عدااء عام بين نيوانجلاند البيوريتانية والجنوب المتشبث بالرق ، أصبحت واضحة ، وقد اختلفا بصدد حرب سنة ١٨١٢ ، والرسوم الجمركية ، ومسائل كبرى أخرى ، وأخذت استساغة الجنوب لما أطلق عليه « مبدأ

التحرير لدى الشماليين « تقل باطراد . بيد أن فوق الأسباب جميعاً ، أن عوامل اقتصادية جديدة جعلت الرق أكثر ربحاً ونفعاً مما كان قبل سنة ١٧٩٠ ، فما كان يعتبر أصلاً « شراً لا بد منه » أصبح ضرورياً حتى إنه لم يعد شراً .

وهناك عنصر معروف من عناصر التغير الاقتصادي . . ذلك هو قيام صناعة كبرى في الجنوب ، هي إنتاج القطن . وقد استندت فيها استندت إليه على إدخال أنواع محسنة من القطن ، ذات شعيرات (تيلة) أفضل ، ولكنها استندت بقسط أكبر على اختراع إيلي هويتنى الذى أحدث ضجة في ذلك العهد - اختراع الحلج لتنظيف القطن في سنة ١٧٩٣ . وسرعان ما زحفت زراعة القطن من كارولينا الشمالية والجنوبية وجورجيا نحو الغرب ، منتشرة في قسم كبير من الجنوب الأدنى ممتدة إلى نهر المسيسيبي ، وما لبثت أن امتدت إلى تكساس . وكانت زراعة قصب السكر عاملاً آخر أقام الرق على قاعدة جديدة . فإن أراضي الدلتا الخصبة ، الدافئة ، في الجنوب الشرقى من لويزيانا ، مثالية لقصب السكر . وفي ١٧٩٤ - ١٧٩٥ أثبت رجل أعمال كريولى من نيو أورليانز ، يدعى إيتيين بوريه أن من الممكن أن يدر المحصول ربحاً كبيراً . فأقام آلة وآنية كبيرة ، وما لبثت الجموع التي جاءت من نيو أورليانز لتشاهد العصور المغلى وهو يبرد ، أن انفجرت هاتفة عندما تبدت أولى بلورات السكر في السائل . وإذا الصيحة « أنه يتحول إلى حبيبات متبلورة » فتفتح للويزيانا عهداً جديداً . فقد نجم عن ذلك رواج عظيم ، فلم تحن سنة ١٨٣٠ حتى كانت الولاية تقدم حوالى نصف حاجة الأمة من السكر . وقد تطلب هذا عبيداً ، فاستجلبوا بالآلاف من الساحل الشرقى .

وأخيراً ، انتشرت زراعة التبغ هو الآخر نحو الغرب ، وأخذت الرق معها . كان الإنتاج المتواصل قد أنهك تربة المنطقة المنخفضة من فيرجينيا ، وقد كانت من أعظم مناطق التبغ في العالم ، فلم يجد المنتجون مانعاً من الانتقال إلى كنتكى وتينيسى ، مصطححين زنوجهم . وترتب على هذا أن العبيد الذين كانوا يتكاثرون بسرعة في أعالي الجنوب ، تضاءلوا إلى حد كبير ، إذ انتقلوا إلى أدنى الجنوب وإلى الغرب . ولقد ارتاح كثيرون من المراقبين إلى هذا الانتشار للرق ، لأنه خفض خطر قيام عصيان من الرقيق مثل عصيان نات تيرنر ، وهو تمرد قام به ستون أو سبعون من عبيد فيرجينيا في سنة ١٨٣١ ، وقدر له أن يكون ذا أثر كبير في زيادة تخوف الجنوبيين من مبادئ التحرير .

الديمقراطية الجاكسونية تكتسح الميدان ١٨٩

ومع امتداد مجتمع الشمال الحر ومجتمع العبيد الجنوبي نحو الغرب ، بدأ من المستحب إقامة نوع من المساواة بينها . فعندما ضُمت إلينوى إلى الاتحاد في سنة ١٨١٨ ، كانت ثمة عشر ولايات ، تبيع الرق وإحدى عشرة ولاية حرة . وفي سنة ١٨١٩ ، طلبت ألاباما وميسوري الانضمام للاتحاد . وكان لزاماً على ألاباما أن تبيع الرق ، بحكم شروط نزول جورجيا عن الأرض التي كانت لها ، ومن ثم فإن ضمها كان كفيلاً بتحقيق التوازن بين الولايات المبيحة للرق وتلك المحبذة للحرية . بيد أن كثيرين من الشماليين بادروا إلى التكتل لمعارضة انضمام ميسوري إلا كولاية حرة . وقدم النائب تالميدج النيويوركي تعديلاً لمشروع قانون الضم ، مطالباً ميسوري بأن تأخذ تدريجياً بعق العبيد . واجتاحت البلاد عاصفة هوجاء . وبدا ، لفترة ، أن الكونجرس في مأزق لا منفذ منه ، إذ كان أبناء الولايات الحرة يسيطرون على مجلس النواب ودعاة الرق يسيطرون على مجلس الشيوخ . بل لقد خشى الناس أن تراق الدماء .

ثم تسنى تدبير حل وسط ، بزعامة هنري كلاي المحب للسلام . فكان لميسوري أن تنضم كولاية تبيع الرق ، ولكن مين تنفصل ، في الوقت ذاته ، عن مساشوستس ، وتنضم كولاية حرة . وأصدر الكونجرس قانوناً بإقصاء الرق إلى الأبد عن الإقليم الذي تسنى اكتسابه بمقتضى صفقة شراء لويزيانا ، شمالى خط عرض ٣٦° ٣٠' ، وهو الحد الجنوبي لولاية ميسوري . وعاد الصحو إلى السماء مرة أخرى ، ولكن كل مراقب بعيد النظر ، كان يدرك أن العاصفة لابد أن تعود . وقد كتب جيفرسون أن هذا الحادث الذي كان شبيهاً بجرس الحريق في بهيم الليل ، بدا له نذيراً بنهاية الاتحاد . واستطرد قائلاً : « ولقد أخرجنا إلى حين في الواقع . غير أنه ليس الحكم النهائي ، وإنما هو تأجيل لتنفيذ الإعدام . فإن حلاً جغرافياً ، متمشياً مع مبدأ خلقى وسياسى مبرز ، لن ينمحي قط ، مادام قد تجلّى مرة واتخذ لتهدئة مشاعر البشر الغاضبة ، بل إن كل توتر جديد سيزيده عمقاً ورسوخاً » .

وكان من الممكن لسحابتين لا تزيدان عن قبضة الإنسان أن تعلنا للجنوب العاصفة التي كانت تتحفر . ففي سنة ١٨٢١ ، أنشأ شاب من الكويكر يدعى بنجامين لندى صحيفة في أوهايو معارضة للرق ، تدعى « داعية العتق العالمى » . وفي سنة ١٨٢٣ ، أقام المصلح الانجليزى ويلبرفورس جمعية لمناهضة الرق انضم إليها زاكارى ماكولى وغيره من ذوى المكانة .

ظهور جاكسون

طلع عام ١٨٢٤ وأمام البلاد خمسة من المرشحين المهمين لرئاسة الجمهورية . وكان جون كوينسي آدمز ، وكلاي ، وكالهن - من بين الخمسة - ذوى مقدرة وشيكة النضوب ، وكان دبليو . إتش . كروفورد ، من جورجيا ، من أدهى السياسيين . ولكن ما من مرء في أن أكثر المتطلعين للمنصب شعبية ، كان أندرو جاكسون الخامس . كان المعجبون من أهل الغرب يبطل نيو أورليانز يعتبرونه أعظم عسكري على قيد الحياة . وكان البعض يرون أن قبصر ونابليون ومارلبورو نكرات إذا قورنوا به . وكان كثيرون من المحافظين في الشرق لا يطمئنون إليه ، ويستعيدون إلى الأذهان مع جيفرسون أن الغضب كان يستبد به في مناقشات الكونجرس حتى ليختنق حلقه ولا يستطيع الكلام ، ويتذكرون كيف غزا فلوريدا الإسبانية في تهور ، وهو قائد حربى ، وكيف شنق رجلين اسكتلنديين هناك جوراً واستبداداً . ولقد رأى آدمز أنه صالح لأن يكون نائباً مثالياً لرئيس الجمهورية . فالمنصب يليق بكرامته ، وخليق بسمعته أن تسترد رواءها ، ولن يكون ثمة خطر ما من أن يشنق أحداً .

بيد أن الانتخابات أسفرت عن سبق كبير لجاكسون في الفوز بأصوات الناخبين ، ولكن أحداً لم يظفر بأغلبية في المجمع الانتخابى ، وانتقل الاختيار إلى مجلس النواب ، الذى انتهى إلى اختيار العالم ، المجرى ، المحنك للحكم آدمز ، وإن كان عنيداً ، لا ينساق لأحد .

وأقبل آدمز على المنصب ، يسانده إنجازان قوميان عظيمان : إذ كان مبدأ مونرو - فى أصله - من نتاجه ، كما أنه هو الذى دفع الحكومة الإسبانية ، فى سنة ١٨١٩ ، إلى معاهدة نزلت فيها عن فلوريدا للولايات المتحدة . كان رجلاً ذا مواهب خارقة ، وشخصية رفيعة ، وروح عامة عظيمة ، ولكن صرامته القاسية ، وحدة طباعه ، وتحاملاته العنيفة ، كانت تعترض طريقه . ولم يستطع كرئيس أن يحقق الكثير ، إذ أن العداوة الحاقدة من أنصار جاكسون - الذين اتهموه بأنه وصل إلى البيت الأبيض بصفة غير نظيفة ، أخذ بها أصوات ناخبى كلاي فى مقابل تعيين كلاي وزيراً للخارجية - عرقلت كل حركة له . ونادراً ما بلغ الحقد الحزبى درجة تفوق ما بلغه فى تلك السنوات . ولقد تحدث جون راندولف - من روانوك - عن آدمز وكلاي بنقد لاذع ،

١٩١ الديمقراطية الجاكسونية تكتسح الميدان

فشبههما بشخصيتين في رواية فيلدينج المسماة «توم جونز» ، قائلاً : « إن ائتلاف بليفيل وجورج الأسود . . هو الائتلاف الذى لم يسمع بمثله من قبل ، بين البيوريتانى والمقامر الغشاش » . ولقد استفزت مثل هذه الحملات آدمز لأن يكتب فى يومياته : « إن حيوانات ظربان السباب الحزبى ، يتسللون حول مجلس النواب لينفثوا سموهم وينشروا رائحتهم الخبيثة فى جو الاتحاد » . وقد وصف راندولف بأنه « المتردد على حارة الجن ودرب البيرة » .

وخلال حكمه أخذت تكتلات جديدة فى التبلور ؛ إذ اتخذ أنصار آدمز وكلاى اسم الجمهوريين القوميين ، الذى استبدل به فيما بعد اسم الأحرار ؛ وإذ أضفى أنصار جاكسون على الحزب الديمقراطى طابعاً جديداً . ولقد حكم آدمز بأمانة وكفاءة ، وناضل — دون جدوى — لإقامة مجموعة تشريعات للتحسينات الداخلية . والفقره التالية من يومياته خير وصف لدأبه الذى لم يهن أو يكل :

إن الحياة التى أعيشها قد تكون أكثر انتظاماً منها فى أية فترة أخرى . فلقد استقر بحكم العرف أن ليس لرئيس الولايات المتحدة أن يخرج مع أى رفاق شخصيين ، وإنى لالتزم بهذه العادة ، ولهذا أضطر لأن أقوم برياضتى ، إذا قدر لى ، فى الصباح قبل الإفطار . فانا أستيقظ عادة بين الخامسة والسادسة ، أى — فى هذا الوقت من العام — قبل شروق الشمس بما بين ساعة ونصف الساعة وساعتين . فأمشى على ضوء القمر أو النجوم ، أو بلا ضوء ، حوالى أربعة أميال ، وأرجع إلى هنا عادة فى وقت مناسب لأشهد شروق الشمس من الحجرة الشرقية بالبيت الأبيض . ثم أشعل مدفأتى ، وأقرأ ثلاثة إصحاحات من الإنجيل ، مع تعليقات سكوت وهبوليت . وأقرأ أوراقاً حتى التاسعة ، فأفطر . ومن التاسعة حتى الخامسة مساءً أستقبل الزائرين المتتابعين ، دون ما انقطاع أحياناً — وفى النادر جداً أخطفى براحة لنصف ساعة — وذلك بدرجة لا تمكننى قط من الاضطلاع بأى عمل يتطلب عناية . ومن الخامسة حتى السادسة والنصف تتناول العشاء ، وأقضى بعده حوالى أربع ساعات منفرداً فى حجرتى ، أكتب يومياتى هذه ، أو أقرأ أوراقاً حول بعض المسائل العامة .

كانت انتخابات سنة ١٨٢٨ أشبه بالزلزال ، إذ أن أنصار جاكسون اكتسحوا آدمز

١٩٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

ومؤيديه . وكانت ضغينة النفوس قد استفحلت ، حتى إن الرئيس المنتخب جاكسون ، رفض عند وصوله إلى واشنطن أن يقوم بزيارة التقدير المعتادة للرئيس ، في حين أن آدمز أبى أن يرافق خليفته في المركبة إلى الكابيتول .

ولقد اعتبر تنصيب جاكسون فاتحة لعهد جديد في الحياة الأمريكية ، لفترة طويلة . كان احتفالاً لم تشهد البلاد مثله من قبل قط . ولقد شبهه المراقبون في واشنطن بغزو الهمجيين لروما . وقد كتب دانييل ويستربل ذلك بأيام عديدة أن المدينة امتلأت بمستغلى الفرص ، وطلاب المناصب ، والسياسيين المنتصرين ، والعمامة البسطاء من أهل الغرب والجنوب . ومن الناس من قطعوا خمسمائة ميل ليروا بطلهم يُنصَّب رئيساً ، وكانوا يتحدثون وكأنها أنقذت البلاد من خطر رهيب . وكان الكثيرون منهم ، وهم ينسابون في الطرق هاتفين « مرحى لجاكسون ! » شديدي الصخب ، حتى إن السادة المهذبين كانوا يجفلون منهم . ولقد ترك أحد المراقبين سجلاً مكتوباً جاء فيه :

في صبيحة يوم التنصيب ، كانت المنطقة المحيطة بالكابيتول أشبه ببحر عظيم متلاطم ، فقد سد الناس كل طريق إلى البقعة الموعودة ، حتى إن الموكب الرسمي الذي رافق الرئيس المنتخب لم يكد يشق طريقه إلى البهو الشرقى حيث ، كان مقرراً أن يقام الحفل . ولدفع الناس من أمام الموكب ، مُدَّ سلك سميك مما يستخدم في السفن بعرض حوالى ثلثي طريق الدرج الطويل ، الذى يفضى إلى الكابيتول من هذه الناحية ، بيد أنه بدا في بعض الأوقات كأن هذا لا يكاد يكتفى لصعد تلهف الجموع ، التى بدا أن كل امرئ فيها كان عاقد العزم على الظفر بمجد مصافحة يد الرئيس . ولن أنسى ما حييت المشهد الذى تمثل في كل جانب ، ولا اللحظة المشحونة بالانفعال ، عندما وقعت العيون المترتبة في هذا الحشد الهائل المتباين الألوان ، على القامة الطويلة ، المهيبة لذلك الزعيم الأثير بالإعجاب ، وهو يتقدم بين أعمدة البهو ، فإذا القبعات تُرفع جميعاً في وقت واحد ، وإذا الظل القاتم الذى يسود عادة منظر خليط من البشر ، يتحول ، وكأنها بعصا ساحر ، إلى المنظر المشرق ، منظر عشرة آلاف من الوجوه المتألقة ، الطافحة بفرحة مفاجئة ، وهى تتطلع إلى أعلى . وإذا دوى اهتاف الذى انبعث يشق الهواء ، ويلوح كأنه يرج الأرض ذاتها .

الديمقراطية الجاكسونية تكتسح الميدان ١٩٣

ولكن أشد المشاهد تمييزاً لذلك اليوم ، هو ذلك الذى أعقب الاحتفال . فإن السيل الزاخر من الديمقراطيين المتحمسين اندفع نحو البيت الأبيض . كان كل امرئ يعرف أن المشروبات المرطبة ستوزع هناك ، وكل امرئ يبتغى رؤية الرئيس الجديد فى مقره . وكانت البراميل المليئة بشراب البرتقال معدة ، ولكن الحشد أزاح السقاة بدلائهم وكؤوسهم ، واضطر جاكسون للالتصاق بالجدار ، لكى يعقد أصدقاؤه أذرعهم بعضها فى بعض حماية له . ووقف الناس بأحذية موحلة على الأثاث المكسو بالحرير . وكتب القاضى ستورى يقول : « ما رأيت قط خليطاً كهذا . وبدأ أن عهد صاحبة الجلالة الدهماء قد انتصر » .

آراء جاكسون

كان جاكسون من رؤساء قلائل انصرفوا لعامة الشعب بكل الروح والقلب . فكان يعطف عليهم ، ويؤمن بهم ، ومن أسباب ذلك أنه كان واحداً منهم دائماً . فلقد وُلد فى فقر مدقع ، إذ كان أبوه بائع تيل فقير من اسكتلندى ألستر ، قدم إلى غابات كارولينا الشمالية ، فأجلى الأشجار عن أرض ليزرعها ، ومات قبل أن يولد أندرو ، فعجزت الأسرة حتى عن شراء شاهد حجري لقربه . وآوى أمه أحد الأصهار كقرية فقيرة تتولى تدبير بيته . فنشأ الصبى فى فاقة وعدم اطمئنان ، يرتدى الثياب القطنية والصوفية الخشنة الرخيصة ، وإذا تعرض لمرض عصبى ، فمن المحتمل أنه كان يلقي إذلالاً مراراً وتكراراً . ولعل شعوراً بالنقص لازمه منذ الطفولة يفسر حدة طباعه ، وشدة حساسيته المرهفة ، وعطفه طيلة عمره على المستضعفين . ولقد قاتل فى الثورة ، وهو بعد صبى يافع ، مما جنى على حياة شقيقين له ، فغرس فى نفسه عدم اطمئنان إلى البريطانيين لازمه للنهاية .

كذلك تشبع جاكسون بعدم اطمئنان عارم نحو المنظمات الرأسمالية فى الولايات الشرقية ، يرجع إلى بيئته على الحدود الغربية ، وإلى تجارب شخصية تعسة . وبعد أن درس القانون ، ذهب إلى تينيسى حيث حاول أن يشق طريقه فى الحياة . فعمل فى شراء الأرض وبيعها ، وتاجر فى الخيل والعبيد ، وامتلك لفترة من الوقت متجرًا لكل السلع .

وكان لزاماً على المحامى فى تلك المنطقة أن يكون تاجراً ، إذ أنه كان يتقاضى أتعابه فى شكل فراء الدببة ، وشمع العسل ، والجلد ، والقطن ، والأرض . ولقد اشترى جاكسون فى سنة ١٧٨٩ سلعاً فى فيلادلفيا قيمتها ٧٠٠٠ دولار تقريباً ، وباع أرضاً ليسدد ثمنها إلى تاجر كانت صكوك ديونه (بكفالة جاكسون) قد قدمت للقضاء . وألقى هذا على عاتقه عبء دين ثقیل ، دفعه وفى نفسه شعور بأن النظام المالى فى الولايات الشرقية قد جنى عليه بطريقة ما . ولم يكن تصرفه مقامرة ، فكل ما هنالك أنه أخذ بعض الصكوك المتداولة بين تجار فيلادلفيا ، وعندما انقشع الضباب ، كان التاجر قد استولوا على أرضه ونقوده .

وفضلاً عن هذا ، تعلم جاكسون ، بوصفه محامياً وصاحب مزارع وتاجراً على الحدود ، أن الولايات الشرقية كانت تمارس سيطرة مطلقة على شطر كبير من تجارة الغرب . فقد كان عليه أن ينقل قطنه وقمحہ وخنازيره إلى مصب النهر لبيعها فى نيواورليانز ، وكان عليه أن يشتري السلع عامة لمتجره فى ناشفيل من فيلادلفيا . وفى كلتا المدينتين ، كانت الأسواق متذبذبة باستمرار . فقد يرسل طلباته إلى فيلادلفيا ، فيجد أن أسعار البضائع قد ارتفعت إلى مستوى باهظ . وقد يرسل إنتاجه إلى مصب المسيسيبي فيجد أن الأسعار هوت إلى الحضيض ، والرجال الذين على طرفى هذا الخط ويسيطرون على الائتمان يزدادون بدانة ، بينما يعانى جاكسون وجيرانه الضيق فى تدبير أمورهم . من هذه الحقيقة انبثق عدم اطمئنان وكرهية للمصارف — عين عدم الاطمئنان الذى اتسم به الغرب دائماً . كان جاكسون يعتقد أن سلطة المال تتقاضى عن خدماتها أكثر مما ينبغى . وكان من البشع أن تكون لأصحاب المصارف الميسورى العيش فى فيلادلفيا ونيويورك السلطة لإفلاس الكادحين فى تينيسى .

وثالث الأمور ، أن جاكسون أوتى الإيثار الغربى بأن الإنسان العادى قادر على القيام بما هو غير عادى . كان أهل الغرب يؤمنون بأن أى رجل قائم على ساقه ، قادر على قيادة سرية من الحرس الوطنى (الميليشيا) ، وإدارة شؤون مزرعة ، وإلقاء خطاب سياسى مناسب ، أهل لأى منصب . فلم يؤمنوا لحظة بأن المراكز العليا فى الحياة وقف على الأغنياء ، وذوى المحتد ، والمتعلمين . بل إن لصائد الراكون^(١) فيها حقاً يعادل

(١) حيوان سنجابى فى أمريكا الشمالية ، يسكن الأشجار ، وله ذيل ملفف غزير الشعر ، ويصاد من أجل فرائه — المترجم .

الديمقراطية الجاكسونية تكتسح الميدان ١٩٥

ما لخريج هارفارد . وكان لهم بعض الحق في هذا الرأي . فإن محارب الهنود جاكسون في تينيسي ، الذى كانت زوجته تدخن غليوناً قصيراً ، وتخطىء في هجاء كلمة أوربا ، تلقى تعليماً جعله قائداً قومياً عظيماً . كان في يفاعه عامل تحويلة في السكك الحديدية ، نحيلاً ، جاهلاً كل الجهل بآداب السلوك في قاعة الجلوس ، ويتصرف الأفعال اللاتينية ، غير أنه كان مقدراً له أن ينقذ الاتحاد . ولقد رأى جاكسون أبناء غابات الحدود يضربون بالسياط جنوداً حاربوا مع ويلينجتون . ورأى رجالاً كونوا أنفسهم ، مثل بنتون وكلاى ، يسيطرون على الكونجرس القومى . وعرف ما للغرب من طاقة نشطة هائلة ، ومدى متانة شخصيته وطابعه .

ومن الممكن ، بوجه عام ، إجمال عقيدة جاكسون في عبارات قليلة : إيمان بالإنسان العادى ، ويقين بالمساواة السياسية ، ويقين بالمساواة في الفرصة الاقتصادية ، وكراهية للاحتكار وللامتيازات الخاصة وتعقيدات المالية الرأسمالية .

وكان من الممكن تمييز عنصرين رئيسيين في الحزب الديمقراطى المتباين العناصر الذى كان يؤيد جاكسون . كان العنصر الأكبر بكثير من الآخر ، يتألف من الناحيين المرتبطين بالزراعة ، في الأمة ، والرواد الأوائل ، والمزارعين ، وصغار الملاك الزراعيين ، وأصحاب الحوانيت في الريف . ولقد امتاز الغرب الممتد وراء جبال أليجنى بصفات خاصة . كان قومياً في شعوره بدرجة كبيرة ، كانت المناطق الجديدة أقل ميلاً إلى الولاية ، وأكثر تعلقاً بالاتحاد من الولايات الثلاث عشرة الأصلية . يضاف إلى هذا ، أن المساواة السياسية كانت متخذة في الغرب كفضية مسلمة ، فكان لكل ذكر بالغ من البيض حق التصويت وتولى المناصب . أما في الشرق فقيود الحقوق الانتخابية كانت قائمة من أمد طويل ، وقد قوبلت حركة إلغاء القيود باستنكار واستبشاع من المحافظين أمثال ويبستر في مساشوستس ، والمستشار جيمس كينت في نيويورك ، وجون مارشال في فيرجينيا . غير أن ألاباما وميسورى وإنديانا وإلينوى أباحت حق الانتخاب لكل رجل أبيض .

كذلك كان الغرب يرتاح إلى لون مباشر من الديمقراطية . وقد هاجم أتباع جاكسون الأسلوب القديم الذى كان يقضى بأن يتولى مؤتمر من أعضاء الكونجرس تعيين المرشحين للرئاسة ، وأيدوا الأسلوب الجديد — أسلوب اجتماعات سياسية مباشرة للترشيح — الذى استقر ورسخ في سنة ١٨٣٦ . وكانوا يفضلون القضاة المنتخبين على

١٩٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

القضاة المعينين . ثم ، أخيراً ، كان النخبون في المناطق الزراعية من الغرب يعنون بمجموعة جديدة من المطالب السياسية . وكانوا يكرهون النظم المصرفية الخاضعة لسيطرة الشرق ، ويحابون المدين في مواجهة الدائن ، ويمقتون أى شىء من قبيل الاحتكار ، من الباخرة والوثائق المصرفية حتى حقوق الامتياز .

أما العنصر المبرز الآخر في الديمقراطية الجاكسونية فكان جماهير الكادحين في المدن الشرقية صغيرها وكبيرها . كانت المصانع قد شرعت تزداد أهمية في نيوانجلاند وولايات الوسط ، وقد أذكى نشاطها الحصار البحري ، وحرب سنة ١٨١٢ ، والتعريفية الجمركية لحماية المنتجات الأمريكية . فأصبح وادى ميريهام والمنطقة المحيطة ببروفيدانس مركزين مزدهرين لصناعة النسيج ، وكان في لويل بماساشوستس حوالى خمسة آلاف من عمال المصانع في سنة ١٨٣٠ . وكان قسم كبير من سكان نيويورك المائتى ألف ، حوالى ذلك العام ، من العاملين في المصانع وفي ورش إنشاء السفن . وقد وجد معظم المهاجرين — من انجليز وأيرلنديين وألمان — أن الحزب الديمقراطي أقرب من الأحرار إلى ميولهم ومشاعرهم . فإذا الطبقات العاملة الجديدة تحول نيويورك — باندفاع قومي — من مدينة مناصرة للحزب الاتحادي الفيدرالى إلى مناصرة للحزب الديمقراطي ، وجعلت من فيلادلفيا وبيتسبيرج مركزين للمشاعر المؤيدة لجاكسون . ولقد أنشأوا نقابات (كانت تدعى جمعيات حرفية في بادئ الأمر) في العهد الجاكسونى ، هاجمت بضراوة ، تحت قيادة زعماء مثل وليم ليجيت ذى الحماس النارى ، المحاكم الرجعية التى كانت تعاقب الإضرابات بموجب قانون التآمر القديم . ولقد امتدحت جاكسون بحرارة عندما قرر في سنة ١٨٣٦ أن يكون يوم العمل في مصانع السفن بالدولة عشر ساعات (فقد كانت مصانع مساشوستس إذ ذاك تشغل الرجال اثنتى عشرة أو أربع عشرة ساعة في اليوم ، مقابل خمسة دولارات في الأسبوع) .

إجراءات جاكسون

ما إن تولى جاكسون الحكم ، حتى وضع آراءه موضع التطبيق بهمة . فأقدم — معارضة منه للطريقة التى كان الكونجرس يميز بها اعتماد الأموال للطرق والقنوات المحلية — على

الديمقراطية الجاكسونية تكتسح الميدان ١٩٧

كبح هذه الإغارات على الخزنة بشدة ، عن طريق نقض مايزفيل ، إذ رفض التصديق على طريق من مايزفيل إلى ليكسينجتون في ولاية كنتكي . وعامل كارولينا الجنوبية بشدة حازمة عندما حاولت أن تلغى التعريفية الجمركية الحثائية الصادرة في سنة ١٨٢٨ . ففى مأدبة للاحتفال بيوم جيفرسون في سنة ١٨٣٠ ، ثبت نظراته على عيني زعيم كارولينا الجنوبية كالهون ، وهو يدعو لشرب نخب خالد : « نخب اتحادنا . . يجب أن يُصان » . ولما واصلت كارولينا الجنوبية مسلكها المتعمد ، أبدى في سنة ١٨٣٢ أنه كان جاداً ، بإيفاد الجنرال سكوت مع قوة بحرية إلى تشارلستون ، وبإصدار بيان أعلن فيه أن « الانفصال بالقوة المسلحة خيانة عظيمة » . وكان على استعداد لشنق كالهون إذا دعت الضرورة ، ولقد ندم في سنوات لاحقة على أنه لم يفعل ذلك . وبخطاب ممتاز البلاغة ، أفحم دانييل ويبستر نصير كارولينا الجنوبية الرئيسى في مجلس الشيوخ روبرت واى . هاين وأصبحت العبارة الختامية لخطابه : « الحرية والاتحاد ، الآن وإلى الأبد ، وحدة لا تتجزأ ! » صيحة قومية مأثورة . وشاء حسن الحظ أن تعجز كارولينا الجنوبية عن توحيد الجنوب ، فتخلت عن إلغاء التعريفية الجمركية عندما دبر كلاى ، الذى كان داعية للسلام دائماً ، حلاً وسطاً بتخفيض التعريفية .

وخاض جاكسون حرباً مستميتة وناجحة مع المصرف الثانى للولايات المتحدة ، فالغى مرسوم تفويضه مصرفاً للدولة ، هذه القلعة للسُلطان الشرقى المالى والاحتكارى . وكان رئيسه نيكولاس بيدل الحاذق يلقي تأييداً من هنرى كلاى والأحرار . ومهما يكن ، فإن المصرف كان يسير بإدارة طيبة ، وقد أدى خدمات جليلة للأمة . بيد أن جاكسون ، لكراهيته لأى سلطات مالية متركزة ، اعترض على مشروع قانون لتجديد تفويضه في سنة ١٨٣٢ . وفي العام التالى نقل الودائع الحكومية من المصرف ، وأودعها المصارف الكبرى في الولايات ، ليتسنى لهذه المصارف أن تتولى وظائف المصرف المركزى . وما من شك في أن المصرف كان قد تورط في السياسة ، وما من نزاع كذلك في أنه كان احتكاراً خاصاً در الثراء إلى فئة قليلة من أعضائه دون وجه حق . وكان الشعور العام مسانداً لجاكسون . ومع أنه كان لزاماً عليه أن يناضل بشدة ليحمل حزبه على مساندته ، فقد قضى على مصرف نيكولاس بيدل الكبير .

كذلك تصرف الرئيس بحسم صارم في مسائل أخرى ، فعندما أوقفت فرنسا دفع بعض التزامات إلى الولايات المتحدة ، أوصى بالاستيلاء على الممتلكات الفرنسية

فاضطرها إلى السعى للمصلح . ولقد أقصى الهنود عن جورجيا بخشونة قاسية ، ولم يعبأ بمحاولة من المحكمة العليا للتدخل في صالح الأهالي الأصليين المستضعفين . على أنه كان من الحكمة بحيث اتخذ موقف الانتظار ، عندما ثارت تكساس Texas على المكسيك وتقدمت تطلب الانضمام إلى الولايات المتحدة . وقد ظل محتفظاً بشعبيته الهائلة حتى نهاية المدة الثانية لحكمه .

اتجاهات ديمقراطية أخرى

شملت موجة الديمقراطية الجديدة التي انسابت في أيام جاكسون جماهير من السكان لم تكن ديمقراطية جيفرسون قد مستهم . فكانت الثلاثينات من القرن التاسع عشر هي العقد الذي انتشر فيه حق الانتخاب للرجال في معظم الولايات التي كانت حتى ذلك الحين تفرض قيداً على هذا الحق من الملكية أو الثروة . وأدى حق الانتخاب لمن يبلغون مرحلة الرجولة إلى زيادة الاهتمام بالشؤون القومية . ففي سنة ١٨٢٤ لم يتجاوز مجموع الأصوات في انتخابات الرئاسة ٣٥٦٠٠٠ ، وإذا به في سنة ١٨٣٦ يرتفع إلى ١٥٠٠٠٠٠ ، وفي سنة ١٨٤٠ ، كانت الأصوات ٢٤٠٠٠٠٠ — أى سبعة أمثال ما كانت عليه قبل ستين عاماً فقط . ومع أن جزءاً من هذه الزيادة نجم عن نمو السكان ، فإن معظمها يمكن أن يعزى إلى تحرير حق الانتخاب من القيود ، وإلى الاهتمام المتزايد بالشؤون السياسية . ولقد توقف انتخاب الرئيس بمعرفة الهيئات التشريعية (إلا في ولاية كارولينا الجنوبية) ، فأصبح ينتخب بالتصويت الشعبي . وأصبحت القاعدة في الشؤون القومية هي ازدياد سرعة دورة المناصب ، فقد أعلن جاكسون إيمانه بهذا صراحة ، وأقصى كثيرين من خصومه السياسيين . ومع أن عدد من أقصاهم كان أقل مما فعل رؤساء لاحقون ، فإنه تقبل القاعدة التي عرفها وليم إل . مارسى النيويوركي بأن « الغنائم حق للمتصرين » .

وأخذت تصرفات الناس وسلوكهم تزداد ديمقراطية ، وتقل مراعاة للعرف وتحفظاً . فبهت المراقبون الأجانب لانتشار عادة بصق التبغ بعد مضغه ، وسرعة التهام الطعام على المائدة ، والفضول الوقح ، وشيوع المشاجرات بالأيدى وتبادل الشتائم ، والعجلة

الديمقراطية الجاكسونية تكتسح الميدان ١٩٩

المنفعة في مدن الشمال . كذلك أخذت الثقافة الأمريكية تتسم بطابع الاستهتار والعنف . وأصبح العمل الذي في اليد أهم من حياة الإنسان ، كما هو طبيعي في بلاد سريعة التطور والنمو . ولم تكن البواخر والقطارات تكثر كثيراً بالسلامة والأمان . وأخذت المبارزة تزداد شيوعاً ، وكثرت في الجنوب والغرب النزاعات العائلية التي تتسم بحرية استخدام التراشق بالمدى المعقوفة والمسدسات . ومن الطبيعي أن الشق بمعرفة الأهالي دون محاكمة تغلغل في المناطق التي كانت المحاكم ورجال القانون فيها غير أهل للركون إليهم . ولقد انتخب الأحرار في سنة ١٨٤٠ هنري هاريسون ، فكان على الحزب أن يدعى أن هذا الرجل المتعلم ، المتوسط الثراء ، الذي اعتاد العيش كسيد ريفي في ألفي دونم يمتلكها في سنسيناتي ، إنما كان من الرواد الخشنيين ، الذين أقاموا في الأكواخ الخشبية ، واعتادوا شرب السيدر الشديد المفعول . ومع هذا ، فإن المستوى المتوسط للعادات السلوكية لم يكن أدنى مما كان في الأيام الأولى للجمهورية ، في الواقع . كانت أسوأ مما كانت عليه أخلاق الطبقة الأرستقراطية إذ ذاك ، ولكنها كانت أفضل من أخلاق الجهلة والعاملين الشرسين . ولقد انمحت إلى حد كبير الثغرة القديمة التي كانت تفصل بدرجة واضحة بين المسلك الطيب للمهذبين من علية القوم ، والمسلك السيئ للفقراء . وأخذت الحياة تزداد ديمقراطية في نواح كثيرة ، إذ بدأت تنهض صحافة رخيصة الثمن . فقد أصدر بنجامين داي في سنة ١٨٣٣ ، صحيفة « صن » في نيويورك بسعر في متناول الجمهور ، مقلداً صحف لندن الزهيدة الثمن ، في حين حقق جيمس جوردون بنيت نجاحاً أبرز أثراً بعد عامين ، إذ أنشأ صحيفة « هيرالد » النيويوركية المثيرة . كذلك ظهرت أول مجلة شعبية في عهد جاكسون ، إذ أنشئ « كتاب جودي للمرأة » في فيلادلفيا في سنة ١٨٣٠ ، في حين أن أول مجلة أدبية شهرية واسعة الانتشار ، وهي « نيكربوكر » ظهرت بعد ثلاث سنوات . أما في التعليم ، فكانت ثمة معركة هائلة دائرة الرحى من أجل المدارس العامة المجانية ، غير الطائفية ، التي تخضع لسيطرة الدولة ، وينفق عليها من الضرائب ، وقد تزعم هذا الصراع هوريس مان من مساشوستس . والواقع أنها كانت حرباً أشد ضراوة مما قد تظن الأجيال التي تلتها ، فقد احتشد في أحد الجانبين الديمقراطيون وأصحاب الفلسفة الإنسانية ، والعاملون المتنورون ، وأتباع مذهب كالفين الديني ، وأتباع مذهب التوحيد ، وفي الجانب الآخر ، اجتمع ذوو الآراء الأرستقراطية ، والمحافظون الفقراء ، ومؤيدو مدارس

٢٠٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

الأبرشيات من اللوثريين ، والكاثوليك ، والكويكر ، وكثيرون من أصحاب المزارع والمزارعين ، ومدرسو المدارس الخاصة . واضطرت الولايات واحدة بعد أخرى إلى تأييد الدعوة بعد صراع مرير . وأعلن أحد أهالي نيوانجلاند استنكاره بقوله : « القراءة تتلف العقل » ، وطلب أحد الهنود أن ينقش على شاهد قبره « هنا يرقد عدو للمدارس المجانية » . بيد أن القوانين التي تبيح لأية مقاطعة أو مدينة فرض ضريبة من أجل المدارس العامة المجانية ، لحقت بها في ولايات الوسط والغرب قوانين تلزم الوحدات المحلية بأن تفعل ذلك .

بل إن الدين اتخذ الصبغة الديمقراطية ، وهويتع الحدود في اتجاه الغرب . فكانت الطوائف التي ازدهرت في الغرب أكثر من سواها ، هي البابتست (المعمدانون) ، والميثوديست ، وأتباع كامبل ، والبريسبيتاريون ، وكانت كلها تحبب الشكل الديمقراطي للحكومة ، وقد ازدادت تحبباً له . وكانت الطوائف الثلاث الأولى ، بوجه خاص ، تهتم بعنصرين دينيين مال إليهما أهل الحدود ، وهما : استهواء الانفعالات العاطفية ، بكثير من الصياح ، والإنشاد ، والصلاة الحارة . . وفكرة الإقناع الشخصي ، التي أدت إلى اجتماعات دينية حماسية ، وإلى معسكرات لاجتماعات دينية صاحبة من النوع الذي ورد في قصة مارك توين « هكليري فين » . كذلك أسفر الأدب عن اتجاهات ديمقراطية ، إذ كان بريانت ، وفينمور كوبر ، وواشنطن إرفينج جميعاً من المؤيدين المتحمسين لجاكسون . وقد رددت كتب كوبر عن المجتمع في الولايات الشرقية ، وكتب إرفينج عن الغرب الأقصى — على السواء — أفكاراً ديمقراطية . وكشفت المؤلفات الشعبية عن تأثير الحدود ، مثل « السيرة الذاتية » لديفيد كروكيت (سنة ١٨٣٤) ، و« مشاهد من جورجيا » لأوغسطس بي . لونجستريت (سنة ١٨٣٥) . وكان الجزء الأول من كتاب جورج بانكروفت « تاريخ الولايات المتحدة » بمثابة صوت في صالح جاكسون لا مراء فيه .

عصر الإصلاح

كتب إيمرسون في سنة ١٨٤١ : « لم يكن لنظرية الإصلاح يوماً في تاريخ العالم ما لها في

٢٠١ الديمقراطية الجاكسونية تكتسح الميدان

وقتنا الحاضر من مجال . فإن كافة المصلحين السابقين كانوا يوقرون بعض النظم والمؤسسات . . الكنيسة أو الدولة ، أو التاريخ ، أو التراث . « بيد أن هذه جميعاً ، وكافة الأمور الأخرى — المسيحية والقوانين والتجارة والمدارس والمزرعة والمعمل — تسمع الآن الصور (نفي البعث) ، فلتهرع إلى الحساب — وما من مملكة أو مدينة أو تشريع أو شعيرة أو دعوة أو رجل أو امرأة إلا تهدده الروح الجديدة » ؛ كان زمن تدمير لا نهاية له ، وأمل لا حدود له . ومرة أخرى ، يقول إيمرسون : « تفجر في أبعد الأوساط عن التوقع نقد قلتي ، متهجم ، واع — ألسنت شخصاً يحظى بحماية بالغة ؟ أليس ثمة فارق كبير بين حظي وحظك يا أخى الفقير ، ويا أختي البائسة ؟ » كان من المحتمل أن يخرج كل امرئ تلقاه في طرق بوسطن — إذ اتخذت حركة الإصلاح عاصمتها هناك — التماساً من جيبه أو احتجاجاً ، أو دعوة إلى اجتماع سياسى ، أو خطة لدولة مثالية . إذ أن « علينا أن نعيد النظر في كل بنياننا الاجتماعى : الولاية والمدرسة والدين والزواج والتجارة والعلم ؛ وأن نستكشف أصول طبيعتنا الخاصة » . وهذا بالذات ما فعله المصلحون .

كانت حركة الإصلاح في هذه الفترة الوسطى ، نتاجاً — إلى درجة مذهلة — لفلسفة . . فلسفة التجاوز أو الاستعلاء . كانت هذه الفلسفة — التى أسهم فيها كل دعاة الإصلاح تقريباً ، بدرجات متفاوتة من الالتزام — قد وفدت أصلاً من ألمانيا ، عن طريق كولبريدج في إنجلترا ، بيد أنها تعرضت في أمريكا لتغير هائل . كانت ترى أن البشر يجب أن يعترفوا بمجموعة من الحقائق الخلقية ، وأن هذه الحقائق فطرية وموضوعية وذات كيان قائم ، وبهذا تجاوزوا أو استعلوا فوق البرهان الحسى . ومن ثم ، فمن المنطقي أنها كانت تنبذ كل سلطان دنيوى — سلطان الكنيسة أو الكتب المقدسة ، سلطان الولاية ، أو القانون ، أو العرف — إلا إذا كان بوسعه أن يتطابق مع تلك الحقائق التى غرسها الرب فى عقل الإنسان وقلبه . وكانت أهم هذه الحقائق الفطرية ، كما عبر عنها الواعظ الأمريكى العظيم ثيودور باركر — هى : ما للرب من كرم لا نهاية له ، وما للطبيعة من خير لا نهاية له ، وربوبية الإنسان .

وبالتالى ، إذا كانت هذه المفاهيم حقيقية — ومن الذى كان يملك أن يتحداهما مادامت فطرية ؟ — فقد كان يترتب عليها أن أى زيغ عنها مخالفة للرب وللطبيعة . وإذا كان الإنسان ربانياً ، فمن الشر أن يقضى عليه بالاسترقاق ، أو أن تفسد الخرافات نفسه ، أو ينحيم الجهل على عقله . إذن ، فلنرد البشر إلى تلك الربوبية التى خلعها الله

٢٠٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

عليهم . لنمنح العبد حرية ، والفقر والتعس رفاهية ، والجاهل علماً ، والمريض صحة . . لنمنح المجتمع سلاماً وعدلاً . وقد عبر إيمرسون عن هذا بقوله : « إن الطاقة التي هي مبعث ومنظم - في آن واحد - لكل جهود الإصلاح ، هي الاقتناع بأن للإنسان قيمة لا نهاية لها ، تظهر عند دعوة أهل الجدارة ، وإن كافة الإصلاحات العملية إنما تتمثل في إزالة بعض العقبات » .

وهذا ما آتى دعاة الإصلاح على أنفسهم أن يفعلوه ، بنشاط عارم ، وانصراف صادق ، وعاطفة - تكاد تكون تطرفاً تهوسياً - لم يكن لها مثيل في تاريخنا ، فمكفؤوا على إزالة العقبات . كانت الخرافات عقبة ، وقد حاولوا - بقيادة رجل دين مثل إيمرسون ، وثيودور باركر ، ووليم إيلرى تشانينج ، وجورج ريبلى - أن يخلصوا الكنيسة من التعصب والطقوس ، وأن يرجعوا إلى المبادئ الخلقية العظيمة التي توجد في قلوب البشر . وكان الجهل عقبة ، وقد أخذ هوريس مان وهنرى بارنارد على عاتقهما خلق شبكة من المدارس العامة الحقيقية ، بينما وجهت ماري ليون وكاترين بيتشر همهما إلى مشكلة تعليم البنات . وكان الفقر عقبة ، فضم المثقفون جهودهم إلى جهود العمال لتحسين حال « الطبقات الخطيرة والسائرة إلى الهلاك في المجتمع » ، والعاملين والعمالات في المصانع ، ولحماية النساء والأطفال الذين لا حول لهم ولا قوة من اندفاع الثورة الصناعية . وكانت الملكية عقبة ، وقد نبذ عشرون مشروعاً للدولة المثالية الملكية الخاصة تماماً ، في حين ركز مصلحون آخرون جهودهم على الحل الأنسب للمعقول ، وهو توزيع الأرض على نطاق أوسع . وكان استضعاف المرأة عقبة ، فتكاثف حوالى اثني عشر من المصلحين - بينهم ثيودور باركر ، وويندل فيليبس ، وتوماس وينتويرث هيدجينسن - مع الجسورات من النساء على القيام بحملة من أجل حقوق المرأة ، في المحاكم ، وفي السياسة ، وفي الأعمال ، وفي المدارس . وكان عدم إنسانية الإنسان للإنسان القائم على عدم التدبر ، عقبة . فقادت دوروثيا ديكس حملة من أجل المصابين بالجنون ، وعمل الشيفالبيه هاو على إنشاء معهد بيركينز للعميان ، وأقام توماس جالوديت مدرسة للصم . ودعا إدوارد ليفنجستون إلى إصلاح قانون العقوبات . وصور تشارلز لورينج بريس مأساة الأطفال المشردين في طرق المدن الكبرى ، كما حارب نيل دو الخمر . وكانت الحرب عقبة ، فوضع رجال من أمثال إليهو بورت ووليم لاد مشروعات لسلام عالمي ، في حين نادى وليم لويد جاريسون بمبدأ عدم المقاومة ، ونادى

٢٠٣ الديمقراطية الجاكسونية تكستح الميدان

تشارلز سومنر بأنه ما من حرب مشرفة ، وما من سلام غير مشرف . وكانت الدولة عقبة ، وبينما حاول البعض أن يعتزلوا في عوالم مثالية خاصة ، سعى بعض آخر إلى الحد من سلطان الدولة بقانون أعلى ، أو بالدعوة لمبدأ العصيان المدني ، كما فعل ثورو . وكان الرق هو أعظم العقبات جميعاً ، فإذا الحرب ضد الرق تستوعب في النهاية كافة قوات الحركات الإصلاحية تقريباً .

ولقد تساءل إيمرسون ، في بداية عهد الإصلاح : « لماذا وُلد الإنسان ، إلا ليكون مصلحاً ، منقحاً ما صنعه الإنسان من قبل ، نابذاً للأكاذيب ، معيداً الصدق والخير من جديد ؟ » . وعندما أشرف هذا العهد على ختامه ، مع قيام الحرب الأهلية ، وخلفته الفلسفة المادية ، تطلع المحرر والمصلح العظيم هوريس جريلى خلفه ليتأمله ، وانتهى إلى القول بأنه « بالرغم من أن حياة المصلح قد تبدو شاقة ومضنية ، فإن من العسير القول بأن حياة أخرى تستحق أن يعيشها الإنسان ، على الإطلاق . . وما لم تكن مصلحاً ، فأنت لم تعيش حياة حقّة » .



الفصل ١٠

الغرب والديمقراطية

الحدود الزاحفة

كانت الحدود من القوى التي كان لها أكبر الأثر في تشكيل الحياة الأمريكية من البداية . ومن الممكن تعريفها بأنها منطقة الحدود التي كان سكانها القليلو الكثافة (لا يزيدون عن ستة في الميل المربع) قد انهمكوا إلى حد كبير في استخلاص الأراضي من الغابات ، وتهيئها ، وبناء المنازل . ولقد كان للتنقل بعرض القارة ، إذ أخذ السكان يزحفون من المحيط الأطلنطي إلى حافة السهول الكبرى ، أثر شامل على الشخصية الأمريكية . فقد كان أكثر من اتجاه عام — كان عملية تطور اجتماعية . فقد شجع روح المبادرة لدى الفرد ، وهياً للديمقراطية السياسية والاقتصادية ، وأضفى على الطباع السلوكية خشونة ، وكسر شوكة الروح المحافظة ، وربى وغذى روحاً من الاعتداد الذاتى المحلى المقترن باحترام للسلطان القومى .

وعندما نفكر في الحدود ، يتجه فكرنا إلى الغرب ، بيد أن الشريط الساحلى المطل على المحيط الأطلنطي كان أول حدود ، وقد ظل طويلاً يشتمل على مناطق حدود .

٢٠٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

فكانت مين ، التى اجتذبت أربعين ألف مستوطن من نيو إنجلاند القديمة بين عامى ١٧٩٠ و ١٨٠٠ ، إقليم حدود لمدة جيل بعد الثورة . وكانت منطقة الحدود الثانية هى الإقليم المحيط بمنايع وأعلى الأنهار الساحلية وما وراء جبال أبلاش مباشرة . ولقد أتى ختام الثورة والحدود فى القسم الغربى من نيويورك – حيث حصل اثنان من أصحاب الأموال ، فى سنة ١٧٨٧ ، على حق تملك ستة ملايين دونم^(١) من الأراضى الغفل (غير المعمورة) – وفى وادى وايومينج فى بنسلفانيا ، حيث أنشأ مستوطنو كونكتيكت منازل لهم ، وحول بيتسبرج التى كانت تضم ١٣٠ أسرة ، و ٣٦ ميكانيكياً فى سنة ١٧٩٢ ، وفى القطاع الشرقى من تينيسى ، حيث أقام الرواد ذوو العقيلة المستقلة ولاية فرانكلين القصيرة العمر – فى سنة ١٧٨٤ – وفى أعالي جورجيا . ثم أخذ واديا المسيسيبي وأوهايو يصبحان منطقة حدود كبرى ثالثة ، حوالى سنة ١٨٠٠ ، وباتت أغنية الآلاف من النازحين : « هيا ياهو ، لننطلق طافين على النهر ، مع الأوهايو » . وكان رفاس بوتنام قد اصطحب المهاجرين الأوائل ، فى الربيع التالى لتأليف الدستور ، صوب الغرب ، لإنشاء مارييتا على الضفة الشمالية لنهر أوهايو ، ففتح بذلك مساحة بلغت حوالى مليونى دونم ، انتقلت إلى أيدي شركة أوهايو بفضل الكونجرس . وفى العام ذاته ، أنشأت جماعة أخرى من مستغلى الأرض سينسيناتى . وكان السكان فى الوقت ذاته يتدفقون على كنتكى وتينيسى بسرعة مذهلة . ففى العام الأول بعد السلام ، دخل كنتكى عشرة آلاف من المستوطنين ، وقدر أول تعداد قومى فى سنة ١٧٩٠ ، أن عدد سكانها وتينيسى معاً تجاوز مائة ألف نسمة .

وانساب سبل المتجهين غرباً دون ما توقف ، على الشمال الغربى والجنوب الغربى . ولم يأت عام ١٧٩٦ حتى كانت كنتكى وتينيسى ولايتين مكتملتين ، كما كانت أوهايو توشك أن تصبح ولاية ، وقد امتدت أراض المستوطنين على طول حدود بنسلفانيا ونهر أوهايو . وفى سنة ١٨٢٠ ، أصبحت إنديانا وإلينوى فى الشمال الغربى ، ولويسيانا وألاباما والمسيسيبي فى الجنوب الغربى ، ولايات . كانت منطقة الحدود الأولى مرتبطة بأوربا ارتباطاً وثيقاً ، ومنطقة الحدود الثانية بالمستوطنات الساحلية ، أما وادى المسيسيبي فكان مستقلاً ، وكان أهله يتطلعون نحو الغرب لا الشرق .

(١) دونم هو الأكبر وهو مقياس للمساحة يساوى نحو أربعة آلاف متر مربع – المترجم .

مستوطنو الحدود

كان مستوطنو الحدود مجموعة متباينة من البشر ، بطبيعة الحال ، غير أن شهود العيان الأوائل تبينوا فيهم ثلاث فئات . ففي ركب الهجرة كان الصياد ، أو القناص . وقد كتب رحالة انجليزي يدعى فورد هام وصفاً حياً لأكثر أنواع الرواد الأوائل صراوة ، وكان عادة أعزب :

نوع من الرجال يتسمون بالجرأة ، وشدة الاحتمال ، ويعيشون في أكواخ خشبية بائسة ، يحصنونها في وقت الحرب مع الهنود ، الذين يكرهونهم بيد أنهم يشبهونهم إلى حد كبير في الملبس والسلوك . وهم غير مهذبين ، ولكنهم كرماء للضيف ، رحماء بالأغراب ، أمناء ، أهل للثقة . وهم يزرعون شيئاً من الذرة الهندية ، والقرع العسل ، ويربون الخنازير ، وقد تملك كل أسرة بقرة أو اثنتين ، وفرسين أو ثلاثة . غير أن البندقية هي وسيلة معاشهم الرئيسية .

وكان سماع بندقية أحد الجيران نذيراً لهم بالرحيل . ولقد وصف فينمور كوبر صورة واضحة للصيد من هؤلاء الطلائع في ناتى بمبو ، وللحياة في الغابات النائية على الحدود في الفيافي The prairie . كان هؤلاء الرجال يحذقون استخدام الفأس ، والبندقية ، والفخ ، وصيد السمك . ولقد شقوا الدروب ، وشيدوا أول أكواخ من كتل الشجر ، وصدوا الهنود ، وبهذا مهدوا الطريق للفئة الثانية .

ويصف فورد هام المجموعة الثانية بأنهم المستوطنون الأوائل حقاً « مجموعة مختلطة من الصيادين والمزارعين » . وبدلاً من الكوخ ، أنشأوا « بيتاً من جذع الشجر » ، له نوافذ زجاجية ، ومدخنة جيدة ، وحجرات تفصل بينها جدران ، فكان مريحاً على شاكلة أكواخ المزارع الانجليزية . وبدلاً من استخدام جدول الماء ، حفروا بئراً . كان المجتهد منهم يخل الأرض من الأشجار بسرعة ، فيحرق الخشب ليستخدم الرماد في صناعة الصابون ، ويترك أصول الشجر لتهلك وتتداعى . وفي إقباله على زراعة حاجته من الغلال والخضر والفواكه ، وارتياحه الغابات طلباً للوعول والديوك البرية وعسل النحل ، واصطياده السمك من أقرب الجداول ، ورعايته لعدد من الماشية والخنازير ، لا يكاد

يحفل بالوحدة ولا بخشونة الحياة . وكان الأكثر ميلاً إلى المشروعات منهم يتتبع مساحات كبيرة من الأرض الرخيصة ، استناداً إلى أن من الحكمة « أن تحصل على الكثرة وأنت تشق طريقك في الحياة » ، كما عبر أحد الأشخاص في رواية إدوارد إيجلستون Hoosier Schoolmaster . ثم كانوا لا يلبثون إذا ما ارتفعت قيمة الأرض ، أن يبيعوا مساحاتهم وينزحوا غرباً . وهذا أخلوا السيل لفئة ثالثة ، هي أهم الفئات جميعاً .

لم تكن المجموعة الثالثة تضم مزارعين فحسب ، بل كانت تضم أطباء ومحامين وأصحاب حوانيت وكتاباً وصحفيين وواعظين وميكانيكيين وسياسيين ومضاربين على الأراضي كذلك . . كافة العناصر الأولية اللازمة لنسيج مجتمع قوى النشاط . وكان المزارعون أهم العناصر ، إذ كانوا يعتزمون الإقامة حيث استقر بهم المطاف ، ويرجون أن يقيم أولادهم من بعدهم . فكانوا ينشئون مخازن للحبوب أكبر مما أنشأ أسلافهم ، ثم يشيدون بيوتاً أمتن ، من الطوب ، أو الجدران المتلاحمة . ولقد أقاموا حول أراضيهم أسواراً أفضل مما أقام سابقوهم ، وعنوا بتربية ماشية أحسن ، وحرثوا الأرض بمزيد من الحلق ، واستخدموا تقاوى أكثر إنتاجاً . ولقد أنشأ بعضهم طواحين للغلل ، أو ورشاً لقص الخشب ، أو معامل لتقطير المشروبات . كما أنهم مهدوا طرقاً برية جيدة ، وشيدوا كنائس ومدارس . ولقد أثرى كثيرون من هذه الفئة الثالثة ، إذ أصبحوا مع نمو المدن أصحاب مصارف أو تجاراً أو سماسرة لبيع الأراضي . وموجز القول أنهم كانوا يمثلون أكثر القوى جلداً في الحضارة الأمريكية . وقد بلغ من سرعة نهاء الغرب أن تغيرات لا يكاد يصدقها العقل تحققت في بضعة سنوات قلائل بفضل هذه الموجة الثالثة . ففي سنة ١٨٣٠ ، لم تكن شيكاغو سوى مجرد قرية تجارية حول حصن ، لا يرجى لها مستقبل ، وإذا بها تصبح في حياة بعض المستوطنين الأوائل من أكبر وأغنى مدن العالم .

وفي الغرب الجديد ، امتزجت دماء كثير من الأقوام المختلفة . وكان مزارعو مرتفعات الجنوب مبرزين ، ومن نسلهم برز أبراهام لينكولن ، وجيفرسون ديفيز ، وقد ولدا في عام واحد ، في كوخين من جذوع الشجر ، بولاية كنتكي . وكان للاسكتلنديين – الأيرلنديين ذوى الرؤوس الصلبة ، ولألمان بنسلفانيا الذين فطروا على التدبير ، ولليانكي المجازفين في إقامة المشروعات ، ولرجال من أصول أخرى ، أدوار

٢٠٩ الغرب والديمقراطية

أدوها . وقد أوتى هؤلاء جميعاً صفتين مشتركيتين : الفردية ، والديمقراطية . ولم تحل سنة ١٨٣٠ حتى كان ما يزيد عن نصف الأمريكيين قد نشأوا في بيئة غابت عنها تقاليد وعادات العالم القديم ، أو بقيت جد ضعيفة . كان على الرجال في الغرب أن يعتمدوا على جهودهم ، فلم تكن قيمتهم تقاس بحسبهم ، ولا بالأموال الموروثة ، ولا بسنوات الدراسة ، وإنما بما كانوا يملكون أن يفعلوا ، مثلهم في ذلك مثل المنبوذين في مسرحية باري « كرايتون العجيب » . كان في طاقة الناس أن يحصلوا على مزارع بأسعار لا تعبى أكثر الناس شحاً ، فقد كان من الممكن الحصول على الأراضي الحكومية لقاء ١,٢٥ دولار للدونم في سنة ١٨٢٠ ، كما رأينا ، بل لقاء مجرد الاستقرار عليها ، بعد سنة ١٨٦٢ . وكان من الميسور الحصول على الأدوات لاستغلالها . ثم كان بوسعهم « أن ينمو مع البلاد » بعد ذلك ، كما قال هوريس جريل . هذه المساواة في الفرصة الاقتصادية أنمت شعوراً بالمساواة الاجتماعية والسياسية ، وأتاحت لمن فطروا على القيادة فرصة التقدم بسرعة . وجدد بنا أن نضيف أن البحر كان في الواقع أحد الحدود ، من حيث تأثيره على الشخصية الأمريكية . كانت السفن صغيرة ، وتحمل ملاحين قليلين ، في حين أن كثيراً من سفن صيد السمك والحيتان تعمل على أساس المشاركة . فكانت روح المبادرة والشجاعة والطاقة الفردية والشعور بالجلد ، هي كل ما يتطلبه الرائد الأول ، سواء كان صياداً أو مزارعاً على الحدود أو ملاحاً في المياه الشرقية .

فضائل الحدود ورذائلها

أصبحت هذه الديمقراطية والفردية من المعالم البارزة لمدن الجمهورية الناشئة ، بفضل التفشى والاقتراء . وبات الاستقلال الخالص ، الذي أطراه وليم كوبيت الانجليزي ، يهر على الفور زائري نيويورك وفيلادلفيا من الأوروبيين . ' فلقد لاحظ هؤلاء المراقبون أن العمال لا يرفعون أيديهم إلى قبعاتهم ويقولون : « نعم » ليكسبوا درهماً . بل إن الحمال يتقبل العمل بمسلك الرجل الذي يؤدي صنيعاً . ولقد ذكر كوبيت باستحسان أن الحدّ الأمريكيين لم يكونوا أجراء يتميزون بزى خاص ، وإنما كانوا يتناولون وجباتهم مع الأسرة ، وكانوا يسمون مساعدين . ولم ير في أمريكا من المتسولين سوى اثنين ، وكان

٢١٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

كلاهما أجنبيين . ومن أكثر مقالات رالف والدو إيمرسون اتساماً بالروح الأمريكية الصادقة ، مقال عن الاعتماد على النفس . فهو يتحدث عن الأمريكي الذي يعتبر مثلاً لليانكى النازح إلى الغرب ، في ذلك العهد ، فيذكر أنه كان يتقلب بين الأعمال ، من مزارع ، إلى صاحب حانوت ، إلى سمسار للأراضي ، إلى محام ، إلى عضو في الكونجرس ، إلى قاض ، فهو يمارس كل عمل ، ويثبت جدارة باستمرار . ولم تكن هذه صورة منظوية على مغالاة ، فقد كان واحد من أقدر قادة الحرب الأهلية — هوديلو .

تى . شيرمان — طالباً عسكرياً ، فجندياً في حرب المكسيك ، فمصرفياً في سان فرانسيسكو ، فمحامياً في ليفينورث ، فمديراً لمزرعة على حدود كنساس ، ف رئيساً لكلية عسكرية في لويزيانا ، ثم عسكرياً مرة أخرى ، على التوالي .

على أن الحدود وإن عززت الفضائل ، كانت تنمى الرذائل كذلك . فإن أهل الحدود كانوا بوجه عام عسيري الترويض ، لا يطبقون النظام ، شديدي الاعتداد بالنفس إلى درجة الشراسة ، مفرطين في الخشونة . وكم من هزيمة عسكرية في حرب ١٨١٢ ، كانت تعزى إلى كراهية رجال الحدود للتدريب والنظام . إذ كان الأمريكيون المدربون من أهل الحدود ، يميلون إلى عمل كل شيء في تعجل ودون اكتمال . وقبل كانت الحاجة تمس إلى إنجاز كثير من المهام في عجلة تبدو معها العناية بصقلها مضية للوقت . كان الأمريكيون يقيمون في عجلة بيوتاً خشبية فجأة الشكل ، بدلاً من المباني المصنوعة من الحجر والطوب والتي يقدر لها الصمود أمام الزمن ، وكانوا يشقون طرقاً غير مكتملة التمهيد ، ويقيمون جسوراً موقوتة الأجل ، ويشقون التربة أكثر مما يحرقونها للزراعة . وكانت أجراس الحريق تدق في نيويورك طيلة الليل ، لأن بيوتها كانت سريعة الاحتراق ، كما أن اثنين من أكبر المباني التجارية في المدينة ، انهارا فعلاً في سنة ١٨٣٦ . وكانت حوادث التصادم بين القطارات ، والانفجارات في السفن البخارية كثيرة . ومن الطبيعي والحال هذه أن آداب السلوك أو الثقافة لم تكن تحظى بعناية تذكر ، فما كان في الحدود متسع من الوقت لذلك . والأنكى من هذا ، أن الحياة على الحدود اتسمت بقدر يؤسف له من الإجرام الصريح . فقد انتقل إلى المناطق المتطرفة بعض من حثالة المجتمع ، واستشرى بين الرجال جموح الطباع ، فاستمرأوا فض منازعاتهم بقبضات الأيدي وبالمسدسات . فكان لزاماً على ضباط الأمن أن يكونوا ذوى أعصاب حديدية ، وسرعة فائقة في استعمال مسدساتهم .

الحروب الهندية

كانت لأخلاق رجال الحدود المتمردة على الترويض عواقب مأسوية في معاملاتهم مع الهنود بوجه خاص . فكانوا يتعدون دائماً على أراضي الهنود بالرغم من المعاهدة ، ويقضون على حيوانات القنص التي كان الهنود يعتمدون عليها في مأكليهم وملبسهم ، كما أن الكثيرين كانوا على استعداد لقتل ذوى الجلود الحمراء بمجرد وقوع أبصارهم عليهم . فإذا ما حاول الهنود الدفاع عن أنفسهم ، اشتعلت الحرب . ولقد كان الهنوجيون عدوانيين في كثير من الأوقات حقاً ، بيد أن اندفاع البيض نحو الغرب دون هوادة كان السبب الرئيسي لكثير من الاشتباكات . وكانت أكثر الحروب إراقة للدماء ، هي التي جرت مع عشائر الكريك في الجنوب حيث ظفر أندرو جاكسون بنصر ماحق ، ومع عشائر السيمينول في مستنقعات فلوريدا وأحراشها ، ومع أتباع تيكومسه في إنديانا .

وكان أبراهام لينكولن في شبابه نقيباً في حرب الصقر الأسود ، وهي حرب كانت بالغة الوحشية . كان بعض المتحدثين بأسماء قبيلة الصقر الأسود وهنود السوك والفوكس قد نزلوا للحكومة عن حق هؤلاء في ملكية حوالى خمسين مليون دونم . ولكن زعيم القبيلة وقسماً كبيراً من أفرادها أنكروا صحة هذا التنازل . وعمد الصقر الأسود قبل أى تهديد بالقوة ، إلى الانسحاب من أراضيه — التي كانت تنبت الذرة — في إلينوى إلى الضفة الغربية لنهر المسيسيبي ، بيد أن قبيلته تعرضت للجوع ، فعادوا إلى عبور النهر في الربيع التالى ، لينضموا إلى عشائر الوينيبياجو الصديقة في ويسكونسين وليزرعوا الذرة هناك . وكانوا أشبه بالأطفال إذ أيقنوا من أن نواياهم الودية ستكون موضع فهم . بيد أن البيض هاجمهم على الفور ، فتراجع الصقر الأسود وعرض الصلح ، ولكن الميليشيا — المؤلفة من ألفى رجل — تجاهلت عرضه . ودُفع أتباعه عبر جنوب ويسكونسين إلى المسيسيبي ثانية ، وهم في يأس ، حتى إذا حاولوا عبور النهر مزقوا إرباً — رجالاً ونساءً وأطفالاً — دون ما رحمة . ولقد كتب أحد الرماة من حملة البنادق : « كان من البشاعة مشهد الأطفال الصغار جرحى ، يعانون أبشع الآلام ، بالرغم من أنهم كانوا من أبناء العدو الهمجى » . هكذا كان إنسان الحدود في أسوأ صوره .

كانت فكرة إزاحة الهنود الشرقيين — في حركة عامة — إلى السهول الكبرى المترامية

٢١٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

وراء المسيسيبي ، والتي ساد الظن طويلاً بأنها لا تصلح لسكنى البيض ، قد أنهجت رسمياً في عهد مونرو وسار تنفيذها بنشاط في عهد جاكسون . ونحو الكونجرس رئيس الجمهورية أن يستبدل الأراضي التي كانت في حوزة الهنود بأراض في الغرب . وأنشئت « بلاد هندية » امتدت بادية الأمر من كندا إلى تكساس . فنقل الهنود إلى هذه المنطقة دون صعوبة كبيرة . ولكن الهنود في الجنوب — حيث كانت العشائر أكبر وأقوى — أبدت مقاومة عنيدة ، فكانت النتيجة اليمية . كانت العشائر الملقبة بالعشائر المتحضرة الخمس — وهي الكريك ، والشوكتو ، والتشيكاسو ، والتشيروكي ، والسيمينول — تحب ديارها ، إذ كان الكثيرون منهم ، لاسيما الكريك والتشيروكي ، قد حذقوا الزراعة ، وأقاموا بيوتاً جيدة ، واقتنوا قطعاناً من الماشية ، وأنشأوا مطاحن الغلال ، وعلموا أولادهم في مدارس البعثات التبشيرية . فشبشوا بأراضيهم حتى النهاية ، ولم يبرحها بعضهم إلا بالقوة . وإذ رحل القسم الأكبر منهم بالعربات أو مشياً على الأقدام ، فقد عانوا الجوع والمرض والتعرض للعوامل الطبيعية ، فمات منهم الكثيرون . على أنه لم تحل سنة ١٨٤٠ ، حتى كان جميع هنود شرقى المسيسيبي تقريباً قد نقلوا إلى ديارهم الجديدة ، فيما يعرف الآن بولاية أوكلاهوما .

وأدى هذا الإجماع إلى تيسير إتمام تعمير وادى المسيسيبي ، أغنى أجزاء البلاد وأكثرها امتيازاً . ولقد ضمت ويسكونسين — آخر ولاية في شرق المسيسيبي — إلى الاتحاد في سنة ١٨٤٨ . وكانت ثمة مجموعة من الولايات قد أنشئت فعلاً في غرب النهر ، فبعد انضمام ميسوري إلى الاتحاد في سنة ١٨٢١ ، أصبحت أركنساس ولاية في سنة ١٨٣٦ ، وأيووا بعدها بعشر سنوات ، بينما انتظم إقليم مينيسوتا ولاية في سنة ١٨٤٩ . ولم يكبح الفزع الذي حدث في سنة ١٨٣٧ — والذي كان إلى حد كبير نتاج الإفراط في التوسع غرباً — جراح الزحف المستمر إلا لفترة وجيزة . إذ أنشأ سيرس إتش . ماكورميك ، مخترع المسلفة أو المعزقة ^(١) ، مصنعاً في شيكاغو ، في سنة ١٨٤٧ ، وشرع في إنتاج الآلات بدرجة يسرت زرع الفيافي الغربية بالغلال . وبدأ إنشاء السكك الحديدية ، فسرعان ما امتدت في المنطقة المستوية شبكة من الخطوط ، فكان ثمة أربعة وسبعون قطاراً تسير يومياً — في سنة ١٨٥٤ — إلى شيكاغو ، التي كانت تزدهو بأنها أكبر أسواق

(١) آلة حصد الغلال .

٢١٣ الغرب والديمقراطية

الغلال الرئيسية في العالم . ولقد شهد ذلك العام خط جالينا وشيكاغو الحديدي ، بنقل ثلاثة آلاف مهاجر إلى أيوا في الشهر الواحد ، في حين كان آلاف آخرون يسعون إليها بالطرق البرية . وساهم الألمان والاسكندنافيون والبريطانيون في ملء الوادي الجنوبي ، كما استوطنوا تكساس وأركنساس . ولقد ذهل رحالة انجليزى إذ وجد في سنة ١٨٥٤ أن سانت بول - في أقاصى مينيسوتا - كانت مدينة تضم سبعة آلاف أوثمانية آلاف نسمة ، وأربعة فنادق أو خمسة ، وحوالى ست كنائس ليست صغيرة ، وأرصعة ميناء تأوى إليها ثلاثمائة باخرة في العام ، وشوارع وأرصعة جيدة ، ومخازن شاهقة من الطوب ، ومتاجر وحوانيت زاخرة بالسلع كأية متاجر وحوانيت في أية مدينة بالانحد . وبرز زعماء جدد من الغرب قبل سنة ١٨٥٠ ، من أمثال ستيفن إيه . دوجلاس وأبراهام لينكولن في إللينوى ، وتوماس هارت بنتون وديفيد آر . آتشيسون في ميسورى ، وجيفرسون ديفيز في الميسيسيبى ، وسام هيوستون - بطل حرب تكساس الاستقلالية - في ولاية النجمة الواحدة .

استيطان الغرب الأدنى

كان لعدد من الطرق الكبرى للنقل دور رئيسى في تنمية وادى الميسيسيبى وتطويره . وكان طريق كمبرلاند هو أول شريان حيوى إلى الغرب ، وقد بدىء في استخدامه في سنة ١٨١١ ، وكان لأموال الحكومة الاتحادية النصيب الأكبر في إنشائه . وقد امتد من كمبرلاند بولاية ميريلاند ، مجتازاً الجبال إلى زينزفيل وكولبس بولاية أوهايو ، ثم تيرأوت في إنديانا ، وامتد في النهاية إلى فانداليا في إللينوى . وكان طوله عند اكتماله حوالى ستمائة ميل ، وعرضه ستين قدماً ، يتوسطه شريط مرصوف عرضه عشرون قدماً ، أنشئ وفقاً لمبادئ ماكدام .

وعلى هذا « الشريط القومى » كان البريد الغربى ينساب ، برسوم بريدية خاصة . وقامت الفنادق الصغيرة على مسافات مناسبة . وأخذ سيل المستعمرين يتدفق حتى لم يعد سالكوه في الصيف يغيبون عن البصر قط . وكتب أحد الشهود في سنة ١٨٢٤ : « إن مشات من العائلات تشاهد مهاجرة إلى الغرب في يسر وراحة . ويشاهد تجار الماشية

من الغرب وهم يتجهون شرقاً بإشيتهم التي من كل وصف ، ينشدون سوقاً . والواقع أن هذا السبيل قد يشبه أى طريق في قلب مدينة حافلة بالناس ، إذ يرى المارة ، مشاة وعلى ظهور الجياد وفي المركبات ، في خليط ينساب على سطحه المرصوف . ويتصل الطريق عند هويلينج بنهر أوهايو ، فأصبح هذا بدوره شرياناً حافلاً بالمسافرين . وكانت الملاحة فيه ، في بادئ الأمر بالقوارب المسطحة والأرماث والمراكب التي كانت تقوى على السير مع التيار ، وكانت تحمل الغلال ولحوم الغزلان والوعول والفراء ولحم الخنزير ، والدقيق إلى نيواورليانز . ثم شيد نيكولاس روزفلت — من الأسرة التي ذاع صيتها فيها بعد — سفينة بخارية ، بدأت في سنة ١٨١١ في السير من بيتسبرج خلال النهر إلى نيواورليانز مباشرة جيئة وذهاباً ، فسرعان ما حذا حذوه كثيرون .

ولقد كان أشهر الطرق البرية إلى الغرب قناة إيرى ، التي تربط نهر هدسن والمحيط الأطلنطي بالبحيرات الكبرى ، موفرة بذلك طريقاً مائياً إلى صميم قلب القارة . وكان الناس يملكون بمثل هذه الطريق — منذ القرن الثامن عشر ، إذ كانت تمكن المهاجرين والتجارة من تجاوز سلسلة جبال أبلاتش القفرة الوعرة . بيد أن عملية شق قناة طولها حوالى أربعمائة ميل كانت عسيرة حتى إن الزعماء أحجموا عنها . وأخيراً ، قام دى ويت كلينتون النيويوركى الذى لا يثنى ، بحملة لتحويل الحلم إلى واقع . ففاز بمنصب الحاكم ، وشرع في العمل في سنة ١٨١٧ ، وبعد سنوات مضنية ، شهد اكتمال قناة كلينتون . وفي سنة ١٨٢٥ ، استقبل أول موكب من السفن باحتفال بهيج ، وأمام جمع من المصفقين ، صب كلينتون ملء وعاء يعادل نصف البرميل من مياه إيرى في المحيط الأطلنطي . وعززت القناة مركز نيويورك كزعيمة للتجارة والمالية الأمريكيتين ، إذ جعلت بغالو ميناء مزدهراً ، كما قامت على امتدادها مدن جديدة صغيرة وكبيرة .

على أن مساهمتها في نماء الغرب كانت أهم من هذا أثراً . فقد أخذ أهالى نيواإنجلاند ونيويورك يرحلون عليها غرباً في سيل مطرد ، وقد أنمى هذا الفيض من المهاجرين كليفلاند وديترويت وشيكاغو ، فجعلها مدناً زاخرة ، وأضفت مساحة لاشك فيها من اليانكى على أجزاء كبيرة من الشمال الغربى . بل إنها كانت في حد ذاتها صاحبة الفضل في تحول مذهب في سكان أمريكا ، وقد قامت بدور كبير في المساعدة على إنقاذ الاتحاد ، إذ أنها ربطت المسيحيين الأعلى بالولايات الشمالية المطلية على المحيط الأطلنطي برباط وثيق ، قبل أن يقدر للحرب الأهلية أن تقوم . ولقد عاونتها في هذا شبكة القنوات

٢١٥ الغرب والديمقراطية

في بنسلفانيا ، إذ أن نجاح قناة كلينتون حفز أهل بنسلفانيا على أن ينفقوا حوالى أربعين مليوناً من الدولارات لإنشاء شبكة مواصلات ربطت بين فيلادلفيا وبيتسبيرج التى تبعد عنها بأربعمائة ميل . ولقد استخدموا الأنهار والقنوات فى بعض هذه الشبكة ، بينما تغلبوا على مرتفعات أليجنى الشاهقة بمجموعة من السطوح المائلة التى كانت السفن والبضائع والركاب تسحب عليها بقوة البخار . فكان مشروعاً بطولياً ، ومع أنه أنضب خزائن الولاية تقريباً ، فقد حقق عملاً نافعاً ، وساعد على أن يجعل بنسلفانيا واحدة من كبريات الولايات الصناعية .

وكانت حركات السكان تميل — بوجه التقريب — إلى الامتداد وفقاً لخطوط العرض فكان الشطر الرئيسى من مستوطنى ولايتى ألاباما والميسيسيبى من أهل الجنوب ، وكان المستوطنون الرئيسيون لميتشيغان وويسكونسين من الشماليين . أما فى أوهايو وإنديانا وإلينوى ، فقد التقى التياران : سيل الجنوبيين الذى عبر نهر أوهايو ، وسيل الشماليين الذى تدفق خلال قناة إيرى والبحيرات الكبرى ، فامتزج التياران فى هدوء ، واختلط الفريقان بالتزاوج أحدهما بالآخر ، وكلاهما بالمهاجرين الأوربيين . فتمت بفضلهم مدن مثل كولبس ، وإنديانابوليس ، وسبرينجفيلد . وهكذا نجد أن من الخمسة الذين سيطروا على الأمور السياسية فى إلينوى ، فى الفترة الوسطى ، كان أبراهام لينكولن وأورفيل براونينج قد وفدا من كنتكى ، وديفيد ديفيز من ميريلاند ، ولايمان ترمبل من كونكتيكت ، وستيفن إيه . دوجلاس من فيرمونت . ومهما كانت خلافاتهم السياسية ، فإنهم جميعاً كانوا نتاج « وادى الديمقراطية » هذا دون مرأى .

الغرب فيما وراء المسيسيبى

عندما نتحول إلى الأراضى الشاسعة المترامية غربى نهر المسيسيبى ، نجد أن الاستيطان فيها يقدم لنا قصة أكثر طرافة وتبايناً عما سبق . فلقد تكشف لعلم الأمة لأول مرة بفضل البعثة الاستكشافية التى أوفدها جيفرسون ، فى سنة ١٨٠٣ ، لتشق طريقها إلى المحيط الهادى ، بقيادة مريوذر لويس ووليم كلارك ، وكانا شابين من فيرجينيا على دراية كبيرة بمناطق الحدود . وقد رصد لهذا المشروع الشهير الذى سجل فصلاً خالداً فى الكشف

الجغرافى ، من أموال الحكومة الفيدرالية ٢٥٠٠ دولار فقط ! وكان جيفرسون دائماً على اهتمام مشبوب بعجائب الغرب ، فكتب بإسهاب عن الهنود ، الذين كان يعجب بهم ، وعند اكتشاف بقايا حيوان الماموث الذى وجد فى وادى أوهايو . فلما أرسل لويس وكلاكرك إلى الفيافي ، كانت غايته ذات شقين : فى جانب الاستطلاع العلمى ، كان يتوقع أن يفتح هذان الرجلان إقليم نهر ميسورى لتجار الفراء الأمريكيين . إذ كان الهنود ، فى ذلك الوقت ، يحملون فراءهم إلى كندا ، لبيعوه للتجار البريطانيين ، فخطر لجيفرسون أنهم خليقون بأن يجدوا من الأسهل إرسال الفراء عن طريق النهر إلى المشترين الأمريكيين .

وتسنى لإنجاز الغايتين ، فإن لويس وكلاكرك بإبحارهما نحو منابع ميسورى ، وعبورهما جبال روكى ، وإبحارهما فى نهر كوليبيا إلى المحيط الهادى ، أنجزا عملية اكتشافية بطولية ، وصفت بأنها « أكمل إنجاز لا يضارعه إنجاز من نوعه فى تاريخ العالم » . ولم يصادفوا خطراً حقيقياً يذكر ، إذ أنها تحاشيا عواصف السيوكس المحبة للحرب . ولقد قطعوا حوالى ألفى ميل فى الرحلة إلى الساحل ، فى ثمانية عشر شهراً ، وعنيا برسم خريطة للإقليم وبوصفه . كما أنها أرسيا قاعدة للتنافس الأمريكى مع الشركات البريطانية الغنية لتجارة الفراء ، وأثبتا إمكان إنشاء طريق برى إلى المحيط الهادى . وما إن عادا ، حتى ساعد كلارك على إنشاء شركة ميسورى للفراء ، وسلسلة من الحصون على طول النهر . ولقد أثرت الشركة ونمت ، وسرعان ما دخلت الشركة الأمريكية للفراء النشطة ، التابعة لجون جاكوب آستور المجال الشمالى الغربى ، وكانت حتى ذلك الحين تمارس القسط الأكبر من تجارتها حول البحيرات الكبرى ، بيد أن آستور لم يلبث أن قرر إقامة مركز تجارى عند مصب نهر كوليبيا . وفى سنة ١٨١١ ، دارت إحدى سفنه ، وتدعى تونكين ، حول رأس هورن ، وأبحرت شمالاً ، وأنشأت آستوريا (التى كتب عنها واشنطن إرفينج فيما بعد كتاباً مشوقاً) ، بينما وصلت بعثة اجتازت عرض القارة براً ، إلى الموقع ذاته فى العام التالى .

كانت هذه بداية طيبة . وقد عجل بتطوير الغرب وتنمية تجارته ثلاثة أحداث رائعة ، فى أوائل العشرينات من القرن التاسع عشر . وكان أولها بداية تجارة نشيطة على درب سانتا فيه إلى أقصى الجنوب الغربى ، الذى كان إذ ذاك فى أيدي المكسيكيين . إذ جمع مغامر جرىء من ولاية ميسورى يدعى وليم بيكنيل فريقاً تجارياً من حوالى سبعين رجلاً ، فحمل

٢١٧ الغرب والديمقراطية

سلعاً على الجياد والبغال ، وقطع ثمانمائة ميل في إقليم وعر وخطر ، ثم باع بضاعة في المركز المكسيكي الأمامي سانتا فيه بريح كبير . فلما كان العام التالي ، استخدم العربات في الرحلة الطويلة . فحذا حذوه تجار آخرون ، وبذلك فتح للتجارة درب سانتا فيه المشهور . وكان التجار الذين يستخدمونه يصادفون أخطاراً كثيرة ، إذ كان شطر كبير من الإقليم شبه صحراء ، قد تشققت أرضه بالحرارة والجفاف ، كما كان عليهم أن يخوضوا أنهاراً وعرة ، فضلاً عن أنهم كانوا معرضين لأن يهاجمهم هنود عشائر الكومانش والأراباهو والتشين . وبينما كانت الجماعات الكبيرة ، التي تضم ثمانين أو مائة رجل ، في أمان إلى حد كبير ، كانت الجماعات الصغيرة ، المؤلفة من عشرة أو عشرين رجلاً ، معرضة للعدوان . ولم يلبث الرواد أن مهدوا طريقاً أمريكياً كان له دور كبير في اكتساب الجنوب الغربي للجمهورية .

أما الحدث الرائع الثاني ، فهو إنشاء شركة جبل روكي للفراء في سنة ١٨٢٢ ، بوساطة وليم آشلي ، أحد قادة الحرس الوطني (الميليشيا) في سانت لويس ، الذي أعلن عن طلب مائة شاب للإبحار في ميسوري حتى منابعه ، والبقاء عند المنابع ما بين سنة وثلاث سنوات . وكانت هذه أول شركة اعتمدت في المقام الأول على قيام مستخدميها باصطياد حيوانات الفراء ، بدلاً من شرائه من الهنود . وكان بين رجالها بعض الشخصيات الكبرى في اكتشاف الغرب ، ومنهم كيت كارسون ، الذي قدر له — بوصفه صياداً بالفخاخ وبالسلاح ، ومحارباً للهنود ، وكشافاً ودليلاً — أن يصادف مجموعة من المغامرات جعلت قصة حياته أشبه برواية خيالية ، كما كان بينهم جديدياه سميث الذي لم يكن يبره أحد كمستكشف . أما الحدث الثالث ، فكان حملة عسكرية أبحرت نحو منابع ميسوري في سنة ١٨٢٣ ، لإرهاب عشائر الهنود الأريكارا وغيرهم من الهنود الشديدي الضراوة وإخضاعهم . وقد جهز فيلق ميسوري هذا بوساطة الحكومة القومية وتجار الفراء في سانت لويس معاً ، فأوضح بجلاء أن الولايات المتحدة مستعدة لحماية الباحثين عن الفراء .

كذلك أعان نشاط الإرساليات التبشيرية على الإيغال في الغرب الأقصى . وكانت الكنائس قد نشطت في مناطق الحدود قبل ذلك بوقت طويل ، بيد أن حدثاً عجبياً وقع في سنة ١٨٣١ ، فأتاح دافعاً جديداً لحماسها . ذلك أن العشائر الهندية في أعالي كولومبيا كانت قد تعلمت بعض مبادئ الدين من التجار البريطانيين ، ورغبت في أن تحرز مزيداً من المعرفة . فأرسلت عشائر الأنف المثقوبة أربعة من كبار رجالها إلى وليم كلارك في سانت

٢١٨ موجز تاريخ الولايات المتحدة

لويس ، ليطلبوا كتاب السماء . وعندما نشرت صحف الكنيسة القصة ، هب اهتمام حاد . فأوفد البروتستانت عدداً من رجال الدين ، مع جماعات تساندهم ، إلى أقصى الشمال الغربى ، فأقاموا إرسالية في وادى نهر ويلاميت ، وأخرى بالقرب من ملتقى نهري سنيك وكوليبيا . وكان صاحب الدور الأول في هذا المجهود ، هو الدكتور ماركس هويتان المتفانى في أداء الرسالة . ولقد قامت هاتان الإرساليتان بدور كبير في تنصير الهنود ، وأقامتا مزارع نموذجية ، لتعليم معتنقى المسيحية من الهمجيين كيف يشيدون البيوت ، ويمهدون الحقول ، ويزرعون المحصولات . وفي الوقت ذاته ، أذكت الرسائل المتحمسة التى كتبها الإرساليون عن الطبيعة والمناخ اهتمام الأقارب والأصدقاء ، وسرعان ما كانت تجتاز السهول والجبال قوافل سنوية تحمل المستوطنين إلى إقليم أوريجون .

درب أوريجون

كان المستكشفون وتجار الفراء الأوائل ، الذين أخذوا يتنقلون من نهر ميسورى إلى نهر كوليبيا ، قد مهدوا طريقاً غير واضح المعالم ، لم يلبث مع الزمن أن تحدد وأصبح درب أوريجون الذى لم تنتصف الأربعينات من القرن التاسع عشر حتى كان طريقاً برياً كبيراً . وكان بطوله الذى يناهز ألفى ميل ، يجرى وسط أخطار وصعاب . فانطلاقاً من إنديبيندانس على نهر ميسورى ، كان الطريق يخترق السهول المترامية حتى جبال روكى ، فيجتاز هذه خلال الممر الجنوبي المنخفض نسبياً ، ويمضى فى مساحات قفراء جبلية إلى فورت هول على نهر سنيك . ومن هنا ، امتد الدرب خلال جبال بلو (الزرقاء) العسيرة الاجتياز إلى نهر أوماتيلا ، ومنه إلى نهر كوليبيا . وكان ثمة طريق بديل يفضى بعد البحيرات الكبرى إلى كاليفورنيا . وكان جون بيدويل هو الذى نظم أول قافلة هجرة انطلقت إلى ساحل المحيط الهادى ، وكان عددها حوالى ثمانين رجلاً وامرأة وطفلاً ، وقد شقت طريقها بنجاح عبر الإقليم الوعر إلى أوريجون فى سنة ١٨٤١ . وكانت هذه مقدمة أوطليعة حركة مذهلة . فقد حدثت الهجرة الكبيرة فى سنة ١٨٤٣ ، عندما اجتازت السهول والجبال ما لا يقل عن مائتى أسرة ضمت ألف شخص ، وهى تسوق معها مئات من الماشية ، حتى بلغت غايتها . وكانت القوافل التى تجرها الثيران بسرعة ميلين

٢١٩ الغرب والديمقراطية

في الساعة ، قادرة على أن تطوى خمسة وعشرين ميلاً في الأيام الطيبة ، أما في الأيام السيئة فكانت لا تقطع سوى ما بين خمسة أميال وعشرة . ولقد نما الجدول الإنساني (من المهاجرين) الذي سلك درب أوريجون إلى نهر عريض في سنة ١٨٤٥ . ففي ذلك العام ، وفد على وادي ويلاميت ما يزيد على ثلاثة آلاف نسمة .

كانت حركة أوريجون ، هجرة بطولية أسطورية . كانت صيحة : « هيا ، انتظمو ! » تتردد عند الفجر ، وتشرع الصفوف الطويلة من العربات المغطاة في السير ، ينظم سيرها قادة مختارون . وعند هبوط الليل ، كانوا يقيمون معسكراً دائرياً ، فالعربات والأمتعة والرجال في المحيط الخارجي للدائرة ، والنسوة والأطفال والحيوانات في داخلها . وكانوا يقيمون الحراس في مراكز تنتقى بعناية . وفي سياق ذلك كان الطعام يطهى ، والثياب تغسل ، والعلاقات بين الجنسين مستمرة ، والأطفال يولدون ، والضعاف منهم يموتون فيدفنون في قبور لا تحمل ما يسهل التعرف عليها . وعندما كانت الثيران والبغال المنهكة القوى تعجز عن المضي في جر العربات الثقيلة ، كانت الضرورة تدعو للتخلي عن بعض المقتنيات الثمينة بتركها على الدرب . ولعل الرحلة كانت عناء طويلاً بالنسبة للبعض الذين كانوا يصادفون الهنود ، أودية الشمال الأمريكي الضخمة ، أو الكوليرا البغيضة ، أو الطقس القاسي . ولكن غيرهم كانوا يرونها مبهجة . وقد كتب أحدهم : « كانت أشبه بنزهة خلوية طويلة ، فالرحلة حافلة بالمناظر الطبيعية المتغيرة ، وحيوانات الخلاء والفيافي ، والهنود ، والتجار ، وقناصى الحيوانات في الإقليم الجبلى » . وقد أدت هذه الهجرة الكبيرة إلى جعل أوريجون مجتمعاً أمريكياً ، وقد أسهمت بقدر ما أسهمت الدبلوماسية في اكتسابها إلى الولايات المتحدة في سنة ١٨٤٦ . وقد عمّرت هذا الإقليم النائي بالسكان بدرجة ناجحة ، حتى إنها نظمت كإقليم في سنة ١٨٤٩ ، ولم تنقض عشر سنوات حتى أصبحت ولاية مكتملة .

المورمون

كانت أبرز المستوطنات الدينية وأهمها في الغرب ، حتى ذلك الحين ، هي مستوطنات المورمون في ولاية يوتاه . وكانت تقاليد الفردية والخلاف والمذهبية الدينية في أمريكا قد

٢٢٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

أدت إلى تكوين طوائف غريبة عديدة ، أغلبها متفرعة عن الكتل القائمة . بيد أن المورمون كانوا هيئة جديدة تمام الجدة . وكان مبتدع كنيسة قديسى اليوم الآخر هذه ، جوزيف سميث ، شاباً من أعالي نيويورك ، أكد أنه اعتكف في الغابات ، في أحد أيام سنة ١٨٢٠ ، ليصلى لله من أجل الخلاص ، وإذا بشخصيتين جليكتين تتجليان له ، وتطلبان إليه أن يرتقب عودة كاملة لتعاليم المسيح ، وذكر أن ملاكاً يدعى مورونى واثاه في وقت لاحق ، وأنبأه عن سجل محفور على ألواح ذهبية دفينه ، محتوياً التاريخ القدسى لسكان أمريكا الشمالية القدامى ، وأنه بمساعدة أدوات قدمها إليه الملاك ، ترجم هذا التاريخ . وقد نشر في سنة ١٨٣٠ بعنوان كتاب المورمون . وأنشئت في ذلك العام كنيسة أخذت تنمو بسرعة . وقد انتقلت قيادتها ، بعد تطورات وتغيرات عديدة ، إلى إللينوى . وهنا شيّد المورمون على ضفاف نهر الميسيسيبى مدينة ناوفر المزدهرة ، وأقاموا جامعة ، وشرعوا في إنشاء معبد عظيم . وكانوا قد اعتنقوا تعدد الزوجات ، فأدى السخط على هذا ، وعلى ديانتهم ، بجانب الأحقاد الاقتصادية والسياسية ، إلى اندلاع الشعب ضدهم . وانتزع حشد من الناس سميث وأخاه من سجن المقاطعة وشنقوهما ، وسرعان ما أبعد المورمون بعد ذلك من الولاية ، وقد أصبحوا تحت قيادة بريجهام ينج القدير . فاجتازوا الميسيسيبى ، وقد عقدوا العزم على أن ينشدوا السلام والأمن في الغرب الأقصى .

وكانت النتيجة مغامرة رائعة في تعمير ما كان الكثيرون يظنونها منطقة صحراوية . فقد قاد بريجهام ينج قومه عبر السهول إلى وادى بحيرة الملح الكبرى سولت ليك ، حيث عثر على أرض خصبة محوطة بسلاسل الجبال الشاهقة ، وعلى مناخ صحى ، وماء كاف للرى . فأشرف على تمهيد الحقول ، واختار موقعاً لمدينة ، ودبر المواصلات بينها وبين الشرق . وشهد العام الأول شيئاً من الضيق ، بيد أن يوتاه قدمت بعد ذلك وفرة بدائية لكل امرئ . فسرعان ما امتدت المزارع وقنوات الرى في طول الوادى وعرضه . وكان بريجهام ينج يمارس سلطاناً استبدادياً ، غير أن حكمته وحبه للخير جعلاً استبداده أمراً محتماً . وتولى هو والمسئولون في كنيسته تنظيم تسويق منتجات يوتاه ، وسيطروا على المستوطنين ، فأخذوا يختارون المواقع للمدن الجديدة ، ويرسلون إلى كل منها ما تحتاج إليه من أصحاب الحرف ، وأنشأوا مدينة سولت ليك بطرقها الواسعة ، وجداول المياه المتلاثة فيها ومعبدتها ومذبح قرايبتها ، فهى بذلك من أطرف الأماكن في أمريكا .

٢٢١ الغرب والديمقراطية

وكانت تلك أول تجربة أمريكية للاقتصاد المخطط (الموجّه) ، وقد كانت ناجحة . واستمر تعدد الزوجات زمناً ، من أجل غاية تعميرية سليمة ، إذ كانت للنساء الأغلبية بين معتنقي الديانة ، ولم يكن في منطقة الحدود متسع للنساء غير المتزوجات وغير المنجبات . ولم تحل سنة ١٨٥٠ حتى كانت يوتاه قد انتظمت كإقليم معمور ، بيد أن تعدد الزوجات أخرج انتظامها كولاية ، فلم يتسن هذا قبل خمسين سنة تقريباً ، فسمح ليوتاه بأن تصبح ولاية بعد أن كانت قد تخلت عن هذه العادة .

ضم ولاية تكساس

أتم ضم تكساس ، وفتح كاليفورنيا والجنوب الغربي وانتزاعهما من المكسيك الضعيفة ، نطاق السيطرة الأمريكية في الغرب نهائياً . وبسطت الولايات المتحدة خلال سنوات قلائل من أربعينات القرن التاسع عشر حدودها إلى بعض مناطق من أغنى مناطق القارة وأبدعها مستقبلاً . ولقد تناول كُتاب متباينون هذا الانتزاع للأرض من المكسيك على أنه عدوان غير خلقي . فقال جيمس رسل لويل إن الجنوب إنما ابتغى تكساس لمجرد أن يقتنى حظائر أكبر حجماً يزوج فيها بالعبيد . وهذا غير صحيح ، فإن عملية طبيعية هي التي حققت إضافة هذه الأراضي إلى الولايات المتحدة . . عملية يعبر عنها أحسن تعبير مصطلح ظاهرة القدر .

كانت تكساس ، كجزء من الجمهورية المكسيكية في بادئ الأمر ، بلاداً في مساحة ألمانيا ، ولكنها لم تؤت سوى القليل من مزارع تربية الماشية ومن الصيادين . ولقد اجتذبت كثيرين من الأمريكيين وبعض البريطانيين في وقت مبكر ، فأقام ستيفن إف . أوستن أول مستوطنة أنجلو - أمريكية في سنة ١٨٢١ . وكان الإغراء الرئيسي يتمثل في وجود أراض بدون مقابل ، وفي سهولة الوصول إليها من الولايات الجنوبية . ولقد كانت الحكومة المكسيكية معدومة الكفاءة ، مفسودة ، جائرة . فقام المستوطنون الأمريكيون بثورة في سنة ١٨٣٥ ، وبعد عدد من المعارك ظفروا باستقلالهم . وكان من الأحداث الرئيسية استيلاء المكسيكيين على آلامو ، وهي حصن في سان أنتونيو ، لقي فيه المدافعون الأمريكيون مصرعهم عن بكرة أبيهم : « لقد كان في تيرموبليه من حمل نبأ

الهزيمة ، أما في آلام فلم يبق أحد » . وما إن استقر الأمر للجمهورية التكساسية ، حتى ازدهرت فاجتذبت كثيرين من المستوطنين الأمريكيين الجدد . ولقد ظلت الولايات المتحدة زمناً ترفض دراسة أى مقترح لضم هذه البلاد ، ولكن كثيرين من الأمريكيين عدلوا عن تفكيرهم تدريجياً بفضل عدد من الأسباب ، منها أنهم رأوا أن التوسع في الغرب غير المأهول وغير المتطور واجب . ومن الأسباب أنهم شعروا أن أهل تكساس قوم ذوو قربى لهم ، ومكانهم الطبيعي تحت العلم الأمريكى . وهناك سبب ثالث ، هو أنهم خشوا أن تتدخل بريطانيا العظمى في تكساس وتحاول إقامة محمية لها . وأخيراً ، كانت الدوافع المادية تعمل بنشاط ، إذ كان أهل الشمال راغبين في بيع المنتجات الزراعية والسلع الصناعية في تكساس ، ورأى أصحاب السفن أن بوسع سفنهم القيام برحلات مربحة إلى جالفستون ، ورغب أصحاب مصانع الغزل في الولايات الشرقية (اليانكى) في الحصول على القطن التكساسى الرخيص لغزله . وكان كثيرون من أهل الجنوب يردون الهجرة ، ولكنهم يابون أن يهجروا العلم الأمريكى .

ولقد أبدت أغلبية من الناخبين ، في الانتخابات القومية سنة ١٨٤٤ ، أنهم على استعداد لضم الجمهورية الصغيرة إلى الاتحاد ، وذلك بتأييدهم المرشح الذى كان ينادى بالتوسع جيمس كيه . بولك . وضُمت الولاية في أوائل العام التالى .

الحرب المكسيكية والاستيلاء على كاليفورنيا ونيو مكسيكو

كان كثيرون من الأمريكيين مهتمين كذلك ، وفي الوقت ذاته ، بالظفر بالسيطرة على كاليفورنيا بالطرق السلمية ذاتها . وقد رأوا أن هذا ممكن ، بسبب الوضع الخاص لكاليفورنيا ، إذ لم تكن ، في سنة ١٨٤٥ ، تضم سوى عدد هزيل من السكان لا يتجاوز أحد عشر أو اثني عشر ألفاً ، تشبثوا بالبقاء على الساحل . ولم يكونوا يمتلكون مالاً ، ولا جيشاً ، ولا خبرة سياسية . وكان في عروقهم من الدم الإسباني أكثر مما أوتيت الجماهير المكسيكية ، فكانوا يرون أنفسهم أرقى من المكسيكيين جسداً وعقلاً ، حتى إنهم لم يكونوا تابعين للمكسيك إلا اسماً . والواقع أنهم كانوا خليقين بأن

٢٢٣ الغرب والديمقراطية

يطيحوا بالسلطان المكسيكى تماماً ، لولا أحقادهم العائلية ، ونزاع قديم بين شبال كاليفورنيا وجنوبها . ولم توفر المكسيك ، فى واقع الأمر ، محاكم ، ولا قوات أمن ، ولا مرافق بريدية ، ولا مدارس . وكانت المواصلات بين كاليفورنيا ومدينة المكسيك نادرة وغير مضمونة . وهكذا كانت المكسيك تدرك صراحة أن سيادتها مجرد ظل ، حتى إنها أبدت ميلاً ، فى أواسط الأربعينات ، لأن تبيع المنطقة إلى بريطانيا العظمى . وكان العنصر الأمريكى فى كاليفورنيا ينمو عاماً بعد عام ، من حيث العدد ومن حيث العدوان . فقد ظلت السفن الأمريكية زمناً طويلاً تتجر مع الساحل ، فى حين أن المهاجرين الذين كانوا يرغبون فى الاستقرار فى المناخ الذهبى وجمع ثروة من الماشية والقمح قد بدأوا يجتازون الجبال فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر . فلم يحل عام ١٨٤٦ حتى كان فى كاليفورنيا ألف ومائتان من المقيمين الأجانب ، معظمهم من الأمريكيين . فلا عجب فى أن بعض الناس كانوا يوقنون أن كاليفورنيا ستسقط كالفاكهة الناضجة فى يد الولايات المتحدة الممتدة ، وأن الحاجة لن تدعو إلى قوة .

ولعل هذا ما كان يحدث لولا اندلاع الحرب المكسيكية فى صيف سنة ١٨٤٦ . وكان السبب البعيد لهذا الاشتباك ازدياد انعدام الثقة بين الدولتين ، فى حين أن السبب العاجل كان نزاعاً على حدود تكساس . وتبينت الولايات المتحدة أنها حرب قصيرة وذكية . فقد أوفدت جيشاً أمريكياً ، بقيادة زاكارى تيلور إلى شمال المكسيك ، استولى على مدينة مونتيرى الحصينة ، وهزم قوة مكسيكية كبيرة فى معركة بونا فيستا العنيدة ، وهبط جيش آخر بقيادة وينفيلد سكوت ، بطل حرب سنة ١٨١٢ ، فى فيراكروز ، فشق طريقه غرباً فوق الجبال ، واستولى بعد قتال شديد على مدينة مكسيكو . وهنا رفع العلم الأمريكى فى أبهاء مونتزوما . وعندما أبرم الصلح فى فبراير سنة ١٨٤٨ ، لم تظفر الولايات المتحدة بكاليفورنيا وحدها ، التى كان المقيمون الأمريكيون فيها قد ثاروا فى تلك الأثناء وأقاموا جمهورية علم الدب ، وإنما ظفرت كذلك بالمساحة الهائلة القائمة بينها وبين تكساس ، والمسماة نيومكسيكو (المكسيك الجديدة) ، وكانت تضم ولايتى نيفادا ويوتا الحاليتين . وبلغ مجموع ما كسبته الولايات المتحدة فى هذا الإقليم وفى تكساس حوالى ٩١٨ ألفاً من الأميال المربعة .

ولقد ظفرت كذلك بكنز ، إذ بينما كان التصديق على المعاهدة جارياً ، اكتشف الذهب فى تلال كاليفورنيا . وفى الحال تدفق سرب من متصيدي الثراء ، أقبل بعضهم

بحراً ، وبعضهم بالدرب البرى ، إلى الوهاد والخيران ، حيث كان من الممكن غسل السبائك فى الأحواض الخشبية والأوعية النحاسية . وإذ زحرت الجبال بالمعسكرات الصاخبة ، طفرت سان فرانسيسكو بين عشية وضحاها لتصبح عاصمة صغيرة تنضح حيوية ، وتتخم بالزديلة ، والرفاهية ، والنشاط . وتحولت كاليفورنيا فى غمضة عين من مجتمع رومانتىكى ناعس ، من أصحاب مزارع تربية الماشية من الأمريكيين الإسبانى الأصل ، إلى دويلة دائبة الحركة زاخرة بالأنجلوساكسون . هذه « الأيام السالفة » أيام الذهب وأيام سنة ٤٩ « كانت من أهدى الأيام فى التاريخ الأمريكى بأسره . ولقد نمت كاليفورنيا سريعاً حتى إنها ضمت فى سنة ١٨٥٠ إلى الاتحاد ، كولاية .

وأجبر ضم هذه المساحات الشاسعة الجديدة فى الغرب ، أهل أمريكا على الاهتمام بعدديد من المشكلات المهمة . . مشكلة البحر الكاريبى ، ومشكلة المحيط الهادى ، ومشكلة قناة تصل بين الاثنين ، وفوق هذه جميعاً مشكلة الرق ، التى كانت تنذر بالانتشار فى المنطقة كلها .

الحدود على المحيط الهادى

لم تكن أورييجون وكاليفورنيا فى نظر كثير من الأمريكيين الذين تملكهم فكرة ظاهرة القدر ، سوى محطتين على الطريق إلى المحيط الهادى وآسيا . فقد أعلن الرئيس بيرس أنه ما كان ليقبل أن يكبحه « عن التوسع أية هواجس عديدة من قبج السيرة » ، كما أكد توماس هارت بنتون ، عضو مجلس الشيوخ ، أن واجب الولايات المتحدة « أن تعيد الحيوية إلى جسد آسيا الهامد » . وكانت هاواى معبراً طبيعياً إلى آسيا . فعندما اكتشف الكابتن كوك جزر هاواى (وكانت تسمى إذ ذاك جزر ساندويتش) فى سنة ١٧٧٨ ، كان فى صحبته يانكى من كونكتيكت يدعى جون ليديارد . وليديارد هذا بالذات هو الذى كان أول من رأى احتمالات التجارة بين الساحل الشمالى الغربى لأمريكا والصين القارية . وإن هى إلا سنوات قلائل ، حتى كانت سفن نيوانجلاند تقف فى ميناء هونولولو ، فى طريقها إلى الصين ، حاملة الفراء من إقليم أورييجون ، وسرعان ما كان صائدو الحيتان ، الذين قُدر لهم أن يسجل بطولتهم ، يرسون عند هاواى

٢٢٥ الغرب والديمقراطية

لإصلاح سفنهم والتزود بالمؤن . ولم تحن الأربعينات من القرن التاسع عشر ، حتى كانت هونولولو تعج بالسفن التجارية من سالم وبوسطن محملة بخمر الروم وثروات اليانكي ، وبصائدي الحيتان من نانتوكيت ، وبرجال البعثات التبشيرية يعيشون في بيوت خشبية بيضاء وراء أسوار وقائية بيضاء ، فأصبحت أشبه بمركز أمامي لنيوإنجلاند . وفي سنة ١٨٤٢ ، أعلن وزير الخارجية ويسترن الولايات المتحدة ما كانت لتسمح لأية دولة أخرى بضم الجزر إليها . وبعد سنوات قلائل ، أجرى وزير الخارجية مارسى مفاوضات لعقد معاهدة لضمها إلى الولايات المتحدة ، لم يرجع عدم إبرامها إلا إلى وفاة الملك هاميهاميهما الثالث ، في وقت غير مرتقب . وفي هذه الأثناء كانت مصالح أمريكا البحرية والاقتصادية والتبشيرية في نمو سريع ، فأصبح من الجلي أن الضم مسألة لا تحتاج إلا إلى وقت .

وخلال هذه السنوات أيضاً ، أبدت أمريكا أولى إمارات اهتمامها الرسمي بالشرق الأقصى ، فقد كانت السفن الوافدة من سالم وبوسطن مألوفة في الموانئ الصينية وفي جاوة وسومطرا منذ باكورة أيام الجمهورية ، ولكن العلاقات التجارية مع الصين لم تنظم إلا في سنة ١٨٤٤ ، عندما تفاوض كاليب كشينج وأبرم معاهدة تسمح للسفن الأمريكية بالرسو في بعض الموانئ الصينية ، وتمنحها امتيازات فيها . ولقد تضاعف الاهتمام الأمريكي بالصين بعد سنوات قلائل ، عندما عين مغامر من سالم ، يدعى فردريك تاونسند وارد ، قائداً « للجيش المظفر دائماً » ، وأخذ عصيان تايبينج الكبير . وكانت مملكة اليابان — القائمة على الجزر — قد ظلت قروناً مغلقة في وجه الاتصال مع أوروبا ، ولكن الكومودور بيرى — وهو شقيق بطل بحيرة إيري — أبحر في سنة ١٨٥٣ على رأس بعثة إلى خليج طوكيو ، ثم عاد في العام التالي ليبرم معاهدة فتحت اليابان للتجارة مع الغرب ، وكان هذا هو « فتح اليابان » الذائع الصيت ، الذي قدر له أن يغدوذا عواقب متباينة بعد قرن واحد .

وإذا كان لزماً على الولايات المتحدة أن تكون قوة كبرى في المحيط الهادى — وهو أمر لم يكن منه مناص بعد ضم أوريغون وكاليفورنيا — فقد كان لابد من العمل على توفير مواصلات أسرع وأكثر أمناً من الإبحار حول رأس هورن . وكان البديل الواضح هو مد خط حديدى أو شق قناة عبر برزخ بناما . وقد أبرم الرئيس بولك في سنة ١٨٤٦ معاهدة مع كولبيا ، تكفل حياد إقليم بناما ، في مقابل تأمين حرية المرور عبر البرزخ

٢٢٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

وإزاء المصالح البريطانية الكبيرة في أمريكا الوسطى ، أجرى وزير الخارجية كلايتون مفاوضات أسفرت في سنة ١٨٥٠ عن معاهدة كلايتون - بلوير ، التي وافقت الولايات المتحدة بمقتضاها على السيطرة المشتركة على أية قناة يقدر لها أن تنشأ عبر البرزخ ، وتخلت بريطانيا عن حقوقها الإقليمية في أمريكا الوسطى . وكان مقدراً أن ينقضى نصف قرن آخر قبل أن ينشئ المهندسون الأمريكيون القناة ، ولم يتحقق هذا إلا بعد إلغاء معاهدة كلايتون - بلوير . وفي الوقت ذاته ، أسرع رجال الأعمال الأمريكيون بإنشاء خط حديدي عبر البرزخ الخطر برغم ضيقه ، لتلبية حاجات آلاف من متصيدي الثراء الذين هرعوا إلى حقول الذهب في كاليفورنيا . وفي عام ١٨٥٥ ، قام المغامر ولیم ووكر - دون موافقة السلطات - بقيادة حملة على نيكاراغوا ، ومن مقعد رئاسة هذه الجمهورية المحدودة العمر ، حاول أن ييث الثورة في أمريكا الوسطى بأسرها . وخيب أغراضه الكومودور فاندربيلت ، الذي قاد عصبة منافسة من المحاربين ، وقد أسره جيش هوندراس في سنة ١٨٦٠ وأعدمه .



الفصل ١١

الصراع بين القطاعين

الرق : « النظام الفذ »

زار المراقب النيويوركى الأريب فردريك لو أولمستيد ، قبيل الحرب الأهلية بحوالى ستة أعوام ، إحدى مزارع القطن الممتازة فى ولاية المسيسيبي . فوجد داراً كبيرة أنيقة ، وحوالى ألف وأربعمائة دونم مزروعة قطناً ، وأذرة ، ومحصولات أخرى ، ومائتى خنزير . وكان زهاء سبعين ، من العبيد المائة والخمسة والثلاثين ، يعملون فى الحقول ، وثلاثة من الميكانيكيين ، وتسعة من الخدم فى البيت والحظيرة . كانوا يكدون من الفجر حتى الظلام ، ويرتاحون فى أيام الأحد ، وأحياناً أيام السبت . هكذا كانت جماعة الحصاد فى الصيف تقضى ست عشرة ساعة فى عمل بطيء مضى ، مع توقف وجيز لفترة ساعة عند الظهيرة للراحة . وكان الغذاء ربع بوشل من الذرة ، وأربعة أرطالٍ من لحم الخنزير للفرد فى كل أسبوع ، بجانب الخضر والبيض والدواجن مما كان العبيد أنفسهم ينتجون . وفى عيد الميلاد من كل عام ، كان العسل الأسود (المولاس) والبن ، والتبغ ، والقنب توزع عليهم بسخاء . وكان العبيد يحصلون على الوقود لأكوأخهم الصغيرة من مستنقع تكثر فيه الأشجار ، كما كان لهم أن يقطعوا منه ، فى أيام الأحد ،

حزماً كبيرة للبيع ، ويستغلوا النقود لشراء كماليات بسيطة . وكان يجوس بين عبال الحقول شخص أسود يستحثهم على العمل ، مرقعاً سوطه في الهواء ، وهو يسمح له أحياناً بأن يهوى بلفحات خفيفة على مناكبهم . وقال المشرف الأبيض أولستند إن النظام كان حسناً ، وإن كان قد باع لفوره عبداً حاول أن يطعنه . وقال : « إن عبيده لم يكونوا يهربون في أحيان كثيرة ، لأنهم كانوا شبه موقنين من أنهم لن يفلتوا . ولقد أطلق الكلاب لمطاردة عبد بمجرد أن تبين فراره » .

كانت تلك مثلاً لأحسن المزارع نوعاً . فقد وجد أولستند ، كما وجد سواه ، مزارع كان الاستعباد فيها أقسى وأشد وحشية ، وكان بوسعه أن يجد بعض مزارع اتسم الاسترقاق فيها بأنه أرق وأرحم . ولقد عاب النقاد الرق بسبب تشغيل الزنوج فوق طاقتهم ، والجلد بالسياط من آن لآخر ، والقطع القاسى لوشائج العائلات بالبيع ، والحرمان من التعلم والارتقاء . أما المدافعون عنه فكانوا يمتدحونه لأنه كان يرعى العامل في البطالة والمرضى والشيخوخة ؛ ولأنه كان يعفى الجنوب من الإضرابات وقلاقل العمال ؛ ولأنه كان يدخل قوماً كفرة في المسيحية ، ويرفع مستواهم تدريجياً ؛ ولأنه (كما كانوا يقولون) كان يجعل السادة ذوى شهامة ، والخدم ذوى ولاء . وكان للرق ، كنظام اقتصادى ، مهاجمون ومؤيدون . ولقد كان أولستند يرى أن الرق يؤدي إلى إفقار الجنوب ، مثله في ذلك مثل كاتب من كارولينا الشمالية ، هو هينتون روان هيلبر ، مؤلف « الأزمة الداهية » ، بيد أن كثيرين من الزعماء الجنوبيين ، كانوا يفسرون تأخر قطاعهم على ضوء ازدياد ثروة الشمال ونفوقه . ولقد كان الشماليون يعلنون أن الرق — من الناحية الاجتماعية — يضر بالزنوج والببيض على السواء ، غير أن معظم الجنوبيين كانوا يرون أنه الوسيلة الصالحة الوحيدة للسيطرة على الجموع الكبيرة من الزنوج ، ولصون تفوق الببيض وسيادتهم .

والواقع أنه لم يفهم طبيعة هذا النظام الفذ ، الذى كان أحد الجانبين يهاجمه بهذه القسوة ، والآخر يدافع عنه بهذه الحرارة ، سوى قلة من الأمريكيين ، سواء في الشمال أو في الجنوب . ذلك أن أهم الحقائق عن الرق الأمريكى ، هو أنه كان استرقاقاً للزنوج ، فأهم المعالم التى اتسم بها هو أنه كان مرتبطاً بالعنصر أكثر مما هو بالوضع القانونى . كان النظام بأسره يرمى إلى حد كبير إلى تنظيم علاقات السود والببيض أكثر مما يرمى إلى تنظيم العلاقات بين السيد والعبد ، ومع أن وضع الزنجى تغير تماماً بفضل

٢٢٩ الصراع بين القطاعين

الحرب الأهلية والتعديل الثالث عشر (للدستور) ، فإن الصلات الاقتصادية والاجتماعية بين الزنوج والبيض لم تتغير بدرجة كبيرة قبل ثلاثة أرباع قرن من الزمن . ولقد كان معظم الحجج التي طرحت لتبرير الرق صالحة لأن تطبق بنفس القوة والموضوعية على نظرية تفوق البيض ، التي تبلورت بعد الحرب الأهلية ، كما أن معظم انتقاد دعاة إلغاء هذا النظام الفذ كانت قابلة لأن تهذب لتستخدم فيما بعد الحرب . فإن اليانكي عندما كانوا يرددون الحجج على أن الرق عرقل تقدم الجنوب ، وعندما كانوا يلقون عليه تبعة تأخر الزراعة ، والصناعة ، والتعليم في الجنوب ، إنما كانوا يتحدثون في الواقع عن وجود أيد عاملة سوداء ، رخيصة وجاهلة . وهو موقف ظل قائماً بعد تحرير العبيد . وكان بعض الجنوبيين يفهمون ذلك ، ولكن بالسليقة أكثر منهم بالعقل ، فكانوا عاجزين عن أن يبينوا أن الرق مرحلة انتقالية في ارتقاء العلاقات العنصرية . ولما كان الشاليون لم يقدروا هذا ، فإنهم بدورهم لم يفقهوا ما كان ينطوي عليه تحرير العبيد ، وساقوا أنفسهم إلى خيبة أمل فادحة إزاء نتائجه .

ولم تحن سنة ١٨٥٠ ، التي تجاوز مجموع سكان البلاد فيها ثلاثة وعشرين مليوناً (متعدياً مجموع سكان بريطانيا العظمى في العقد التالي من الزمن) ، حتى كان مجموع عدد العبيد ٣٢٠٠٠٠٠ . وكان عددهم في ولايتي كارولينا الجنوبية والميسيسيبي يفوق عدد البيض ، وفي لويزيانا كانوا يعادلون البيض تقريبا . أما في ألاباما ، فكانوا حوالى ثلاثة أسباع السكان . وكانت في الجنوب مساحات شاسعة لا يبلغ العبيد عُشر معشار السكان ، وكانت جبال أبلاش — من ميريلاند حتى ألاباما — خالية منهم إلى حد كبير . على أنه كانت ثمة مناطق أخرى ، يغلب عليها العبيد بدرجة كبيرة . فكانوا شمال تشارلستون مباشرة يؤلفون ثمانية وثمانين في المائة من السكان وعلى ساحل جورجيا ثمانين في المائة ، وفي ألاباما الوسطى حوالى سبعين في المائة ، وفي شريط واحد على طول الجزء الأدنى من نهر الميسيسيبي كانوا يفوقون تسعين في المائة . وكان القسط الأكبر من السكان الزنوج حيث المناخ الحار ، والأرض المستوية الخصبة ، أدنى ما يكونون نسبة حيث الأراضي جبلية أو جرداء . ولم يكن يقتنى العبيد سوى أقلية من أهل الجنوب . فقد كشف التعداد في سنة ١٨٥٠ عن ٣٤٧٧٢٥ مالكا للعبيد من مجموع السكان البيض الذي بلغ حوالى ستة ملايين . ومع أن السود كانوا يقتنون في جماعات صغيرة في مناطق زراعة القطن وقصب السكر والأرز ، في الجنوب الأدنى ، فإن ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف

٢٣٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

أسرة ، تقيم في أفضل الأراضي وتستمتع بثلاثة أرباع الدخل ، هي التي كانت تمتلك السواد الأكبر من العبيد . فكان هاول كوب في جورجيا مثلاً ، يمتلك ألفاً من الزنوج ، يزرعون القطن في عشرة آلاف دونم . كذلك كان النفوذ السياسي والزعامة الفكرية تتركزان في فريق صغير ، أرسنقراطي بوجه عام .

وبإتداء من حوالى سنة ١٨٣٠ ، أخذت الاتجاهات تشتد باطراد بصدد الرق ، بين القطاعين الشمالى والجنوبى . وكان نمو الدعوة إلى إلغاء الرق ، والشعور بحرية البلاد أشد في الولايات الشمالية . فأنشأ وليم لويد جاريسون المتأجج الحماس صحيفته « المحرر » Liberator في بوسطن ، سنة ١٨٣١ . غير أن أهمية جاريسون كانت موضع مبالغة كبيرة ، فلقد قام بدور لا يقل عن دوره أثراً فريق قوى من أوهايو ، تزعمه الواعظ سى . جى . فينى والمتحمس المشير للخواطر ثيودور دى . ويلد ، وفريق من نيويورك تزعمه آرثر تابان . وكانوا أكفاء في تنظيم المطالبة بالتحريير الشامل للعبيد « عتق الأصل والفرع » . ولم يؤد الاضطهاد إلا إلى زيادة النار اشتعالاً . وعندما قتل إليجاه بى . لفجوى في سنة ١٨٣٧ ، وهو يدافع عن مطبعتة التي كانت تصدر النداءات بإلغاء الرق ، ضد فريق من الغوغاء ، في آلكتون بولاية إللينوى ازداد الكفاح شدة . فإن أحداث التدخل في الحقوق المدنية ، أقنعت كثيرين من ذوى الكفاءة بأن قضية حرية الإنسان كانت ذات شأن كبير في الصراع . فألهم اعتداء بعض الغوغاء على جاريسون الخطيب البليغ ونديل فيليبس — من بوسطن — بالانضمام إلى الحركة ، كما أن عدواناً على اجتماع معارض للرق في أتيكا ألهم جريت سميث — وكان مشرياً من أهالى ولاية نيويورك — بذلك ، وأوحت الاعتداءات على الصحافة في أوهايو سالمون بى . تشيز القدير ، من تلك الولاية ، بالانضمام للحركة . ولم ينقض وقت يذكر ، حتى كان دعاة الإلغاء الشامل للرق قد استحوذوا على قوة شعبية كبيرة . بيد أن دعاة أرض الحرية^(١) ، الذين أصرروا على أن الرق يجب ألا يمتد بوصة واحدة أبعد مما امتد ، ازدادوا عدداً . وفي الوقت ذاته ، فإن عديدين من الزعماء في الجنوب ، كانوا يعلنون أن الرق خير « مؤكداً » . فنشر توماس ديو — من جامعة وليم آند مارى — كتاباً يدافع عنه ،

(١) حركة انتشرت في الولايات الشمالية والشرقية (اليانكى) لا ترى بدأ من بقاء الرق في الجنوب ، حيث انتشر ، ولكنها تمنع في أن يتجاوز ذلك النطاق — المترجم .

٢٣١ الصراع بين القطاعين

ووصفه هموند ، حاكم كارولينا الجنوبية في سنة ١٨٣٥ ، بأنه حجر الزاوية في صرحنا الجمهوري ، وأكد كاهون أن الرق كان أمتن قاعدة لثقافة رائعة ، مشيراً بذلك إلى أثينا القديمة .

ولقد رأى ذوو البصيرة ، من تاريخ مبكر ، أن هذا النزاع بين قطاعي الدولة يهدد الاتحاد . فأنذر جون كوينسي آدمز الجنوب مراراً ، في مجلس النواب ، بأن الانفصال صنو الحرب ، وأنه « من اللحظة التي تصبح فيها ولاياتكم المملوكة للعبيد مسرحاً لحرب أهلية أو إرغامية أو أجنبية — من تلك اللحظة تمتد سلطات الحرب في الدستور لتبيح اعتراض نظام الرق » . وكان مقدراً للينكولن أن يثبت صدق هذه النبوءة .

هبوب العاصفة

ما إن جعلت مسألة تكساس والحرب المكسيكية ضم مساحات شاسعة من الإقليم الجنزبي الغربي أمراً محققاً ، حتى أقبل النزاع حول مسألة الرق على مرحلة حادة . فقد عاد « جرس الإنذار بالحريق في جوف الليل » ، على حد تعبير جيفرسون ، يدوى من جديد بالندير . كان الرق ، حتى سنة ١٨٤٤ ، قد اكتفى بتعزيز حقه في البقاء دون ما مساس به ، في الأماكن التي كان موجوداً بها إذ عُينت له حدود بمقتضى اتفاق ميسوري فلم يتجاوزها . حتى إذا ما جاهر بحقه في الانتشار هبت جمهرة من الشماليين للمعارضة ، إذ كانوا يؤمنون بأنه إذا احتبس في حدود مغلقة ، فسينقرض في نهاية الأمر ، وكانوا يؤكدون أن واشنطن ، وجيفرسون ، وغيرهما من مؤسسي الجمهورية قد اعتنقوا هذا الرأي ويشيرون إلى تشريع سنة ١٧٨٧ ، الذي حظر امتداد الرق إلى الشمال الغربي ، كسابقة لها قوة الإلزام . ولما كان الرق موجوداً في تكساس من قبل ، فقد كان من الطبيعي أن تدخل الاتحاد كولاية تبيح الرق . أما كاليفورنيا ، ونيو مكسيكو ، ويوتا فلم يكن بها رقيق ، فلما همت الولايات المتحدة بضم هذه المناطق ، أعد ديمقراطي من بنسلفانيا يدعى ديفيد ويلموت مشروع قانون للضم ألحق به شرطاً يبين أن الرق يجب أن يكون محرماً إلى الأبد في أي إقليم قد يتسنى اكتسابه من المكسيك . ولقد أجاز مجلس النواب شرط ويلموت ، أما مجلس الشيوخ فقد خذله .

٢٣٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

ويدا للجنوبيين أن من الإجحاف المرير بالعدالة ألا تباح منطقة ساعدوا بدمائهم على اكتسابها لهم وللشماليين على السواء ، فتكون لأحد الفريقين حرية نقل ما يمتلكون من رقيق ولآخر حرية نقل ممتلكاتهم من الآلات إليها . أما بالنسبة لدعاة « أرض الحرية » فقد بدا من المثير للسخط أن تباح أقاليم بكر لنظام ينال من الاقتصاد الحر ويمس إدراكهم للأخلاق .

ولقد ارتبط بهذه المسألة سؤال دستوري : هل كان الدستور يسمح للكونجرس بأن يمنع أو ينظم الرق في الأقاليم القومية أو لم يكن ؟ كان الكونجرس قد فعل ذلك مراراً ، بيد أن الأداة كانت مبهمة ، وقد أخذ كاهون وغيره من الراديكاليين الجنوبيين يؤكدون وجوب أن يمتد الرق في إثر العلم إلى الأراضي العامة للدولة ، ولا سبيل إلى صدها عن دخولها . ولقد ظهر حزب قوى من دعاة « أرض الحرية » لأول مرة ، في الحملة الانتخابية لعام ١٨٤٨ ، ورشح مارتين فان بورن لرئاسة الجمهورية ، ونُختم دعايته بهذه الكلمات المدوية : « إننا ننقش على علمنا : ' أرض حرة ، قول حرة ، عمل حرة ، بشر أحرار ' ، وتحت هذا العلم نناضل ، وسنظل نناضل حتى تكافأ جهودنا بنصر مظفر » . ولقد ظفر الحزب بقدر مدهش من الأصوات . وكان لجهوده الفضل الأكبر في هزيمة الديمقراطيين ، وفي انتخاب آخر رئيس للجمهورية من حزب الأحرار ، وهو بطل الحرب زاكاري تيلور .

ولقد اتضح خلال الحملة الانتخابية وفي أعقابها ، أن الجنوب الأدنى يؤثر الانفصال على الرضوخ لشرط ويلموت . كما اتضح أن مناهضى الرق من الشماليين ما كانوا لينزلوا عند طلب كاهون بدخول الرق إلى كافة الأجزاء التي تم الاستحواذ عليها حديثاً . وكان لابد من توفيق ما . فاقترح فريق من المعتدلين أن يمتد خط عرض ٣٠ ٣٦ في صلح ميسوري حتى المحيط الهادى ، وتكون الولايات شماله خالية من الرق ، بينما يباح الرق في الولايات الواقعة جنوبه . واقترح فريق معتدل آخر — بزعامة لويس كاس من متشيجان وستيفن إيه . دوجلاس من إلينوى — إحالة المسألة إلى « السيادة الشعبية » . أى أن ترفع الحكومة القومية يديها عن الأمر ، وتسمح للمستوطنين بالتدفق إلى الأراضي الجديدة دون قيد بالنسبة للعبيد ، حتى إذا حان الوقت لتنظيم المنطقة في شكل ولايات ، كان للقوم أن يبتوا في المسألة بأنفسهم . وعندما اجتمع الكونجرس في نهاية سنة ١٨٤٩ ، جاهر الجنوبيون بالتهديد بالانسحاب . وصاح

٢٣٣ الصراع بين القطاعين

روبرت تومز من جورجيا بصدد مشروع شمالي بقانون : « إذا أجيز ، فإننى أحبذ الانفصال » .

تسوية سنة ١٨٥٠

في هذه الأمة ، أوقف هنرى كلاى نزاعاً إقليمياً خطيراً — للمرة الثالثة — بتسوية حسنة السبك . وتضمن مشروعه أن تضم كاليفورنيا كولاية حرة (خالية من الرق) ، وأن تُجعل نيو مكسيكو ويوتا إقليميين بدون تشريع محبذ أو محرم للرق ، وأن يقام جهاز أكثر كفاءة لإعادة العبيد الهاربين إلى أصحابهم ، وأن تلغى تجارة الرق في مقاطعة كوليبيا ، وأن تُعوّض تكساس عن أراض ضمت إلى نيو مكسيكو . كان على كل من الجانبين أن ينزل عن شيء . ولقد صدر معظم هذه المقترحات عن دوجلاس أصلاً ، بيد أن كلاى صاغها معاً ، ولم يكن ثمة غنى عن مؤازرته . إذ أن الحاجة كانت تمس إلى مكانته في كافة القطاعات ، وإلى لباقتة ، وإخلاصه الصادق العميق ، ونفوذه الملتفين حوله ، وشخصيته الساحرة ، للوصول إلى الفوز .

وكانت المناقشات التى صاغت تسوية سنة ١٨٥٠ فى شكلها النهائى من أبداع المناقشات فى التاريخ الأمريكى . وكان فى مجلس الشيوخ إذاك ثلاثه من العمالقة البرلمانيين ، يقتربون جميعاً من حافة القبر ، هم : كلاى ، وويستر ، وكاهون . كما كان فيه زمرة من ذوى المواهب الرفيعة الذين يصغرونهم سناً ، هم : ستيفن إيه . دوجلاس ، وجيفرسون ديفز ، ووليم إتش . سيوارد ، وسالمون بى . تشيز . ومن بين هؤلاء الرجال ، عارض كاهون وديفز التسوية بوصفها مححفة بالجنوب . فكتب الأول دفاعاً مؤثراً ، منادياً بوجوب معالجة شكايات الجنوب فى سبيل تفادى صراع مأسوى . وقال إن الخيوط التى كانت تربط الشمال والجنوب أخذت تتقطع واحداً بعد آخر . وقد انقسمت الكنيسة : المنهجية (الميثودية) والمعمدانية ، إلى فريقين . . « عندما لا يبقى شيء للإبقاء على تجمع الولايات سوى القوة ، فإن هذه القوة بالذات ستنتهى ، وهى تعمل بنشاط متزايد ، إلى قطع كل خيط ، إذا استمرت الإثارة المهتاجة » . وإذ كان من الضعف بحيث لم يقو على قراءة خطابه . فقد سار مترنحاً إلى مجلس

٢٣٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

الشيخوخ ، ليسمعه على لسان زميل له من فرجينيا . وعارض سيوارد وتشيز التسوية باعتبارها محففة بالشمال . بيد أن كلاي حظى بتأييد رائع من دانييل ويبستر . ففى خطاب قوى ألقاه ويبستر فى ٧ مارس ، وكان آخر خطاب عظيم فى حياته ، دافع عن الوحدة « لا كرجل من أبناء مساشوستس ، وليس كرجل من أهل الشمال ، وإنما كأمرىكى » . ولقد أحق تأييده للمواد الخاصة بالعبيد الهاريين فى التسوية أبناء نيوانجلاند المتطرفين فى مناهضة الرق . ولكن الخطاب كان مثالا للحق فى سياسة الدولة – كان آخر خدمة جليلة يقدمها للأمة . وانتصرت آخر الأمر روح كلاي ودوجلاس وويبستر المتسمة بالاعتدال . وتم إقرار إجراءات التسوية فتنفست البلاد الصعداء . وكان من المحتمل أن يرفض زاكارى تيلور التصديق على مشروعات القوانين ، لولا أنه كان قد توفى فى أوائل الصيف ، فوقعها عن طيب خاطر خليفته ميلارد فيلمور المغمور ، المنسى الذكر .

وبدا أن التسوية قد أقرت كافة الخلافات تقريباً ، طيلة سنوات ثلاث قصار . فقد أيدتها أغلبية من حزبى الأحرار والديمقراطيين بحارة . ومع ذلك فإن التوتر ظل قائماً وأخذ ينمو تحت السطح . فإن القانون الجديد الخاص بالعبيد الهاريين أساء إلى شعور كثيرين من أهل الشمال ، فرفضوا أن يشتركوا فى القبض على العبيد ، بل إنهم كانوا على النقيض ، يساعدون الهاريين على الإفلات . وأصبح « الخط الحديدى الخفى » المفضى من العبودية إلى الحرية أكثر كفاءة وأقل تخرجاً من الظهور . ولقد أفلت بعض العبيد من المناطق الساحلية بالسفن . وسار بعضهم على الأقدام من مزارعهم إلى نهر أوهايو ، متنقلين فى الليل مسترشدين بالنجم القطبى الشمالى ، وتلقوا هناك المساعدات للانتقال إلى كندا . وسلك بعضهم سلسلة جبال أبلاش إلى بنسلفانيا . وانبثت فى أرجاء الولايات الشمالية الأوكار والمخابىء للهاريين ، وأخذ رجال مثل ليفى كوفين – الملقب برئيس « الخط الحديدى الخفى » – يساعدون العشرات على بلوغ بر الأمان . وفى سنة ١٨٥٠ ، تعرض حوالى عشرين ألفاً من العبيد الهاريين ، الذين استقروا فى المستوطنات الشمالية ، للاعتقال ثانية ، بيد أن الجهود للإيقاع بالرجال كثيراً ما أثارت أعمال الشغب .

ولقد ألهم قانون العبيد الهاريين هاريت بيتشر ستو تأليف رواية « كوخ العم توم » ، التى رسمت – إذ ظهرت ككتاب فى سنة ١٨٥٢ – صورة قائمة للرق ، بلغ من

٢٣٥ الصراع بين القطاعين

قوة وقعها أنها أثارت شعوراً عميقاً في الشمال والجنوب معاً . وكانت مسز ستود قد أقامت في مدينة سينسيناتي ، بمنطقة الحدود ، وقامت بزيارات في داخل بيوت أصحاب المزارع في كنتكي . ولقد انصفت كل الإنصاف الكثيرين من مقتني العبيد ، الذين أوتوا رحمة وكرماً ، وكان الموكل بتشغيل العبيد الفظ الوحيد في روايتها ، وهو سيمون ليجري من أصل يانكي . بيد أنها أظهرت كيف أن القسوة كانت نداءً لا ينفصل عن الرق ، وكيف أن مجتمعي الأحرار والعبيد كانا متناقضين في جوهرهما فلا سبيل للجمع بينهما . ولقد تُرجم كتابها إلى ما يزيد على عشرين لغة ، وبيع منه في الإمبراطورية البريطانية أكثر من مليون نسخة ، حتى إذا حول إلى مسرحية إذا بها تذهل أعداداً هائلة من النظارة . وقد هز مشاعر الجيل الناشئ من الناكبين في الشمال بدرجة كبيرة .

وما لبثت مسألة الرق القديمة في الأقاليم أن نكتث من جديد ، في سنة ١٨٥٤ ، ومع احتدام الخلاف ، برز زعماء جدد ليتولوا قياد الفريقين . وإذا المتطرفون من الجنوبيين يعقدون العزم على التخلص من صلح ميسوري ، الذي كان يحرم الرق في أعالي وادي ميسوري بأكملها . فلما اتخذت خطوات لتحقيق هذا ، هب الشمال كعملاق غاضب .

وكانت البلاد الواقعة خلف نهر ميسوري ، والتي أصبحت مؤلفة من ولايتي كنساس ونبراسكا الخصبتين ، تجتذب المستوطنين ، وتبشر بنهوض سريع إذا ما تسنى إبعاد الهنود عنها ، وإقامة حكومة راسخة الاستقرار . وكان الرائد المستكشف جون سي . فريمونت وغيره قد بددوا الفكرة القديمة عن وجود « صحراء أمريكية شاسعة » في هذه المنطقة ، وأيقن كثير من أهل الشمال بأن المستوطنين خليقون بأن يتدفقوا على المنطقة إذ تم تنظيمها كإقليم تابع للدولة ، فيتسنى مد خط حديدي خلالها ، يصل بين شيكاغو وساحل المحيط الهادي . وكان هذا كفيلاً بإحباط مشروع جنوبي لمد خط حديدي من نيواورليانز نحو الغرب . ولم يكن ثمة بد من عمل مبادر ، لأن الطريق الجنوبي كان يمتد خلال ولاية تكساس المستقرة ، وإقليم نيومكسيكو ، ولا يتعرض كثيراً لعدوان الهنود ، كما كانت الأراضي العامة متوفرة لمنحها لمنشئ الخط الحديدي . وما كان هناك من يفوق ستيفن إيه . دوجلاس ، الذي كان يقيم في شيكاغو ، تحمساً للتمهيد للخط الحديدي الشمالي . وكان من تجار العقارات النشيطين ، وقد صار رئيساً للجنة الأقاليم بمجلس الشيوخ . بيد أنه صادف معارضة شديدة . إذ أن هذه البلاد

٢٣٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

بأكملها كانت مغلقة دون الرق ، وفقاً لاتفاقية ميسورى ، وقد عارضت ميسورى فى أن تصبح كنساس ، التى تتاخها غرباً ، إقليماً محرماً على الرق ، وما كان أسهل على عبيد ميسورى من الهرب إلى هذه المنطقة المحرمة على الرق . وفضلاً عن هذا ، كان مقدراً على ميسورى إذ ذاك أن تصبح محوطة بثلاث جارات محرمة على الرق ، ومن المحتمل أنها لن تلبث أن تنصاع لحركة كانت قد اشتدت فعلاً ، فتصبح هى الأخرى ولاية محرمة على الرق فى القريب . ولقد ظل زعماء ميسورى فى واشنطن يسدون الطريق فى وجه كافة الجهود لتنظيم المنطقة لفترة من الزمن ، يسانداهم فى ذلك الجنوبيون .

ثم دفع السناتور دوجلاس المعارضة قدماً بمشروع قانون أثار سخط كافة أنصار تطهير البلاد من الرق . وكان هذا المشروع تطبيقاً للنظرية المفضلة لديه ، نظرية السيادة الشعبية . وكان المشروع فى صياغته النهائية ينادى بأن بنود تسوية سنة ١٨٥٠ قد جُبت تسوية ميسورى ، مما يدع ليوتاه ونيومكسيكو حرية البت بنفسيهما فى مسألة الرق ، وينظم إقليمين — هما كنساس ونبراسكا — بحيث يسمح للمستوطنين باستجلاب الرقيق إليهما ، ويحول سكانهما سلطة البت فيما إذا كانا يدخلان الاتحاد كولايتين يحرم الرق أو يباح فيهما . ولا مراء فى أن حوافز دوجلاس كانت خليطاً من الأمرين ، فاتهم بأنه كان يلتزم رضاء الجنوب ليظفر برئاسة الجمهورية فى سنة ١٨٥٦ ، وما من شك فى أن مطامحه السياسية كانت قوية . ولقد كان معاونوه من الديمقراطيين من أبناء الجنوب فى الغالب ، كما أنه كان قد تزوج من جنوبية ، ولم يكن يكره الرق أو يعترض على انتشاره . إنما كان اعتراضه الرئيسى هو تعجل تطوير المنطقة ، التى كان يرى أن مناخها غير ملائم للرق على أية حال .

وإذا كان قد اعتقد أن الشعور العام فى الشمال لن يلبث أن يتقبل مشروعه فى دعة ، فإنه سرعان ما تبين الحقيقة . إذ أن فتح هذه البطاح الغربية الغنية للرق بدا للملايين أمراً لا سبيل لاغتفاره ، فاتسم سير مشروع قانون كنساس — نبراسكا بمناقشات محتدمة . فأدانت الصحافة الداعية لتطهير البلاد من الرق ، وهاجمه رجال الدين الشاليون من آلاف المنابر فعلاً ، وإذا رجال الأعمال الذين كانوا يولون الجنوب ودهم حتى ذاك الحين يعرضون عنه ، وعقدت الاجتماعات الجماهيرية فى كافة المدن الرئيسية فى الشمال لمهاجمة دوجلاس ومشروعه . ولقد اعترف بأنه كان من الممكن أن يسافر من واشنطن إلى شيكاغو على ضوء النيران التى أشعلت لحرق دمي تمثله . وفى صباح أحد

٢٣٧ الصراع بين القطاعين

أيام شهر مارس ، أقر مجلس الشيوخ مشروع القانون وسط هدير المدافع التي أطلقها الجنوبيون المتحمسون . ولقد قال تشيز ، وهو يهبط درجات سلم الكابيتول ، لتشارلز سومنر الماساشوستسى : « إنهم يحتفلون بفوز حاضر ، بيد أن الأصدقاء التي يثيرونها لن تهدأ حتى يقضى على الرق ذاته » . وعندما عمد دوجلاس إلى زيارة شيكاغو للدفاع عن نفسه ، نكست السفن في الميناء أعلامها إلى منتصف الصواري ، وظلت أجراس الكنائس تدق ساعة من الزمن ، وأخذ حشد من عشرة آلاف شخص يصيحون ويزجرون ، حتى اضطر دوجلاس أخيراً ، وقد أنهكه الجهد لأن يجعل صوته مسموعاً ، إلى أن يخرج ساعته ، ثم يهتف وفقاً لما رواه بعض من سمعوه : « لقد حل صباح الأحد ، وسأذهب الآن إلى الكنيسة ، ولكم أن تذهبوا إلى الجحيم ! » .

وكانت النتائج السريعة لتشريع دوجلاس المنكود عظيمة الأهمية . فإن حزب الأحرار الذي وقف موقفاً مهتزاً من مسألة انتشار الرق إلى الأقاليم ، تردى ميتاً ، ونهض مكانه تنظيم قوى جديد ، هو الحزب الجمهوري . وكان عزيز الجانب من البداية ، لمثاليته ، وامتلأه بالتحمس ، واجتذابه الشباب من ذوى الذكاء والحمية ، واستهوانه رجال الأعمال في الشرق والمزارعين في الغرب على السواء . وكان مطلبه الأول هو إقصاء الرق عن جميع الأقاليم . وقد رشح في سنة ١٨٥٦ ، جون سي . فريمونت الجريء المقدام ، الذي أكسبته رحلاته الاستطلاعية الخمس في الغرب الأقصى شهرة كان أهلاً لها ، والذي اكتسح قسماً كبيراً من الشمال بصيحته المثيرة « بشر أحرار ، أرض حرة ، فريمونت » . ولو أنه وفق لاستمالة بنسلفانيا بهذه الصيحة في انتخابات أكتوبر ، لكان من المحتمل أن يتفوق على المرشح الديمقراطي جيمس بوكانان . ولقد ازداد نفوذ زعماء « أرض الحرية » — من أمثال سيوارد وتشيز — كما لم يزد في يوم من الأيام ، وبرز معهم محام طويل ، نحيل من إلينوى ، أظهر قوة منطق مذهلة في مناقشة المسائل الجديدة . . ذلك هو أبراهام لينكولن .

كان خير بيان لمبادئ أرض الحرية قدم حتى ذلك الحين ، خطاب ألقاه لينكولن في بيوريا ، في ١٦ أكتوبر سنة ١٨٥٤ . فقد قال إنه لا ينبغي التدخل في مسألة الرق في وضعها إذ ذاك . وقال : « لو أنني أوتيت كافة السلطات الدنيوية ، لما عرفت ماذا ينبغي أن أفعل للنظام القائم » . وأعلن أن حق الكونجرس المعنوي في إلغاء تسوية ميسوري لا يزيد على حقه في إلغاء القانون المناهض لاستعباد العبيد من أفريقيا . وأكد أن

جميع التشريعات القومية يجب أن تصاغ في إطار المبدأ الذي اتخذته الآباء المؤسسون للجمهورية ، وأن الرق نظام لا بد من تقييده ثم إلغائه في النهاية . كما أنه ذهب إلى أن مبدأ « السيادة الشعبية » زائف ، إذ أن الرق في الغرب لم يكن أمراً يعنى أهل الغرب وحدهم ، بل إنه يعنى الولايات المتحدة بأسرها . . وقال : « كيف يكون لواحد وثلاثين مواطناً من نبراسكا حق معنوى في أن يجرموا المواطن الثانى والثلاثين من اقتناء العبيد ، ولا يكون لأهل واحدة وثلاثين ولاية أن يجرموا دخول الرق في الولاية الثانية والثلاثين إطلاقاً ؟ » .

ولقد أدى تدفق مقتنى العبيد من الجنوبيين ومناهضى الرق من الشماليين على كنساس ، إلى صراع حاد ، تخللته فترات من حرب العصابات الضارية . واتخذت إجراءات في القطاعين لإيقاف طلائع للمستوطنين للاستيلاء على الإقليم ، فكانت « جماعة إعانة الهجرة » في الشمال ذات كفاءة خاصة . إذ كان موفدوها يذهبون مسلحين تسليحاً جيداً . ولقد جاهر القس البروكلينى ذو الشهرة الشعبية هنرى وورد ببتشر في اجتماع دعا فيه أحد الشمامسة إلى تزويد إحدى الجماعات بالأسلحة — بأن بندقية من طراز « شارب » كانت أعظم من الكتاب المقدس عوناً معنوياً ، وانبثقت عن هذه الإشارة العبارة المألوفة « كتب ببتشر المقدسة » . وسرعان ما تجلّى أن الشمال يستأثر بالوضع الأفضل . وساعد على ذلك قرب الإقليم من العدد الهائل من أنصار « أرض الحرية » في أعالي وادى المسيسيبي ، والأخطار التى كانت تحف باصطحاب العبيد إلى إقليم قد لا يلبث أن يغدو من مناطق تحریم العبيد . على أن كثيرين من « أشقياء مناطق الحدود » عبروا النهر وافدين من ميسورى ، ليدلوا بأصوات غير قانونية ، أوليرهبوا المستوطنين من الشماليين ، في الوقت الذى كانت فيه القوى المقتنية للعبيد تحظى فيه بمساندة حكومة بوكانان في واشنطن . ومن ثم فإن الصراع استطال ، مثيراً شعوراً مطرد الاحتدام في كافة أرجاء البلاد . وعندما حاول بوكانان المتخبط في الخطأ أن يغرى الكونجرس ، وكانت الغلبة في المجلسين للديمقراطيين ، بضم كنساس للاتحاد كولاية ، بموجب دستور ليكومتون الذى يبيح الرق ، اجتاحت الشمال عاصفة جديدة ، وتخاصم دوجلاس نفسه مع رئيس الجمهورية استنكاراً .

وفي الوقت ذاته ، رفض كثيرون من الشماليين تنفيذ قانون العبيد الهاريين ، الذى كان جزءاً من تسوية سنة ١٨٥٠ ، إذ شعروا بأن الجنوب قد خرق هذا الاتفاق . وكتب

٢٣٩ الصراع بين القطاعين

الشاعر جون جرينليف هويتير : « لا مطاردة للعبيد على حدودنا ، ولا قرصنة على مياهنا ! لا أغلال في خليج ولايتنا ، ولا رقيق على أرضنا ! » . وازداد شيوع تدخل الجماهير لصالح الزوج الهاريين ، وأجازت كثير من ولايات الشمال « قوانين الحرية الشخصية » وأبطلت علانية التشريع الفيدرالي . فلما اعتقل العبد أنتوني بيرنز في بوسطن ، سنة ١٨٨٥ ، بادر عدد من أبرز زعماء المدينة إلى الذود عنه . وتدفق الغاضبون من كافة الأرجاء الشرقية لمساشوستس ، وملأت الجماهير المتوعدة الشوارع ، وتطلب جر زنجى مسكين واحد لإعادته إلى الرق اتحاد قوة شرطة المدينة ، والحرس الوطنى بالولاية والجيش والأسطول القوميين .

الانسياق إلى الحرب

أخذت الأمة تسير نحو الحرب عاماً بعد عام ، وكأنها كان ثمة طبل ضخمة يدق منظماً الخطى نحو الاشتباك ، دقة إثر دقة . ففي سنة ١٨٥٦ ، اعتدى عضو في الكونجرس عن كارولينا الجنوبية ، يدعى بريستون بروكس ، على سومنر من مساشوستس ، وانهاه عليه بعصاه في عنف ، وهو يجلس إلى مكتبه في مجلس الشيوخ ، حتى إنه قضى سنوات عديدة في مرض . كان الاستفزاز عظيماً ، تمثل في خطاب من سومنر ملىء بالإساءة المقتدعة . بيد أن التصرف لم يكن مما يمكن تبريره . وفي سنة ١٨٥٧ أعلن كبير القضاة تانى وأغلبية من أعضاء المحكمة العليا ، في قضية دريد سكوت ، أنه لم يكن للكونجرس سلطة لتحريم الرق في الأقاليم التابعة للجمهورية . وكان هذا تأويلاً سيئاً ، قام على حجج سيئة . فبادرت الصحافة والساسة المناصرون لأرض الحرية إلى مهاجمة المحكمة بقسوة لم يسبقها مثيل ، معلنين بأنهم سيعملون مهما طال الزمن على تغيير هذا الصرح الخاطيء . وكتب رئيس التحرير الشاعر وليم كولن بريانت : « إذا ساند القانون هذا القرار ، فإن الرق ، من الآن ، لن يكون ما اعتاد أهل الولايات التي يباح فيها الرق أن يسموه ، نظامهم المميز الخاص ، بل سيكون نظاماً اتحادياً (فيدرالياً) ، سيكون التراث والعار المشتركين لكل الولايات ، ما يتخذ منها لقب الولايات الحرة ، وما يتقبل منها وصمة أن يكون أرض الاستعباد . ومن الآن سيحمل

٢٤٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

سلطان القانون معه أينما امتد القيد والنير . وحيثما يرفرف علمنا ، فهو علم الاسترقاق . وإذا كان الأمر كذلك ، فمن الواجب محو ضوء النجوم وخطوط الصباح الحمراء عن هذا العلم ، وليُصبغ باللون الأسود ، وليكن شعاره السوط والقيد . فهل علينا أن نتقبل هذه التفسيرات الجديدة للدستور دون نقاش . . ؟ أبداً ! أبداً ! » .

وجرت في سنة ١٨٥٨ سلسلة المناقشات الباقية الذكر بين لينكولن ودوجلاس ، في إللينوى وكلاهما يسعىان إلى مقعد في مجلس الشيوخ . ولم تكن هذه المناقشات تتسم بتكافؤ يذكر ، فقد كان دوجلاس قصيراً ، بديناً ، قوياً ، ذا رأس ضخم ، وكان لينكولن عملاقاً نحيلاً ، هباباً ، تعلو قسامته غير المليحة موجة من الشعر الأسود الخشن ، فكانا يمثلان تناقضاً صارخاً . ولكن ما من مجادلات في اللغة الإنجليزية أوتيت ما قدما من حصافة ، أو لمحية ، أو قوة سكسونية . وقد قاما بدور كبير في إيقاظ البلاد وتنبهها إلى معنى تلك المسائل . يضاف إلى هذا أن لينكولن أفلح في حمل دوجلاس على أن يردد بتأكيد إيمانه بأن قرار دريد سكوت لا يقضى بالضرورة على مبدأ السيادة الشعبية في الأقاليم . ومن الصحيح أن المحكمة العليا كانت قد قضت بأن كلا من الكونجرس والهيئة التشريعية الإقليمية لا يملك التدخل في مسألة الرقيق هناك . بيد أن دوجلاس أوضح أن الرق لا يمكن أن يعيش في المجتمعات المعادية له ما لم تحمه لوائح بوليسية موضوعية ، ففى وسع أية جماعة أن تشوّه وتقضى عليه . وعندما سمع الجنوبيون هذا الإقرار الجريء من دوجلاس ، آزر الكثيرون بوكاتان في فصل دوجلاس عن الحزب الديمقراطي ، ولقد فاز بعضوية مجلس الشيوخ ، ولكن لينكولن أصبح شخصية قومية بعد ذلك العام .

ثم جاءت إغارة جون براون على هاربرز فيرى في سنة ١٨٥٩ . كانت غزوة تهويسية لفيرجينيا بواسطة جماعة صغيرة كانت ترجو أن تحرر العبيد وتسلبهم . ولقد أخفق هذا المشروع الخيالي والإجرامى إخفاقاً تاماً واهتاجت خواطر الجنوب بحق من جراء هذا الهجوم . ولكن كثيرين من أهل الشمال مجدوا براون عندما شنت مع ستة من أتباعه ، ورفعوا هذا الداعية لإلغاء الرق إلى مرتبة شهداء الحرية . ولم ينقض عامان حتى كان الجنود يسرون إلى المعركة على أنغام لحن « جسد جون براون » .

ومن الحقائق التي أضفت خطورة بالغة على هذه الأحداث ، أن الشمال والجنوب كانا قد تطورا إلى قطاعين مختلفين اختلافاً كبيراً من النواحي الاقتصادية والاجتماعية

٢٤١ الصراع بين القطاعين

والسياسية ، كان الجنوب بأكمله - تقريباً - ريفياً ، فليست به سوى مدينة كبيرة واحدة ، هى نيو أورليانز . بينما انتشرت المدن فى أجزاء كبيرة من الشمال ، وأخذ سكان نيويورك يقتربون حثيثاً من المليون . ولم تكن فى الجنوب صناعة تذكر ، وأن كانت بعض المشروعات القليلة - مثل مصانع ترديدجار للحديد فى ريتشموند - قد ازدهرت ، والواقع أن ما كانت تستهلكه مصانع النسيج فيه من القطن ، كان يقل عما تستهلكه مدينة لوويل وحدها فى ماساشوستس . يقابل هذا أن الشمال كان قد أصبح زاهراً بالمنشآت الصناعية : ينتج الحديد والمنسوجات والأحذية والساعات والأدوات الزراعية وألف سلعة أخرى على نطاق كبير ، وينشء السفن ، ويعبئ اللحوم ، ويطحن القمح إلى دقيق ، وينمو فى البراعة الفنية باطراد . وكان السيل الدافق من المهاجرين الأوربيين بأكمله تقريباً (٢ ٤٥٢ ٠٠٠ فى العقد الواقع بين ١٨٥٠ و ١٨٦٠) قد أقام فى الشمال والغرب ، فاستقر الإيرلنديون فى المدن ، وذهب كثيرون من الألمان والاسكندنافيين إلى المزارع ، وتناثر البريطانيون فى كل مكان . وكان هذا القطاع قد بدأ يعاني فعلاً من مشكلة تنظيم القوى العاملة ومن مشكلة الأحياء الفقيرة . وكان الجنوب على استعداد للترحيب بالهجرة إليه ، ولكنه لم يؤت سوى النزر اليسير منها ، لأن المهاجرين لم يكونوا يحفلون بمزاحمة العبيد الزنوج . وكان إنشاء الطرق الحديدية فى الشمال أكثر تقدماً مما كان فى الجنوب بدرجة كبيرة . فقد أنشئت على جبال أبلاش أحوها ثلاثة خطوط رئيسية من الشرق : فقد اكتمل خط إيرى من نيويورك إلى منطقة بفالو فى سنة ١٨٥١ ، واكتمل خط بنسلفانيا من فيلادلفيا حتى بيتسبيرج فى سنة ١٨٥٢ ، واكتمل خط بلتيمور وأوهايو من بلتيمور حتى هولنج ، فى سنة ١٨٥٣ . وكان خط إلينوى المركزى هو أعظم الخطوط الغربية ، إذ حظى بمنحة سخية من الأرض مساحتها ٢ ٦٠٠ ٠٠٠ دونم ، وتربط شيكاغو بالخليج . وكان الشطر الأكبر من العشرين ألف ميل من الخطوط الحديدية التى أنشئت بين عامى ١٨٥٠ و ١٨٦٠ ، ممتداً فى الشمال .

وكان قسم مطرد الازدياد من سكان الشمال يؤمنون بالحماية الجمركية ، فى حين أن الجنوب الزراعى كان يكرهها ، إذ كان يرغب فى الحصول على حاجته من السلع المصنوعة بأسعار رخيصة . وكان الشمال معنياً بزيادة سرعة توزيع أراضي الدولة على صغار الملاك ، فأخذت المطالبة بتيسير مسكن تلحق به قطعة من الأرض لكل مستوطن دون مقابل ، تتحول باطراد إلى صبيحة شعبية : « أعط صوتك لتظفر بمزرعة » .

أما الجنوب فكان يرغب في أن تظل أراضي الدولة في أيدي الحكومة ولا تباع إلا بأسعار مناسبة . وكان الشمال يرغب نظاماً مصرفياً قومياً كفاءاً ، أما الجنوب — الذى لم يكن يجمع من المال إلا القليل — فكان ضد مركزية النظام المصرفي . وبرغم نمو الفوارق الشاسعة بين الغنى والفقر في المدن الكبيرة في الشمال ، فإنه كان أكثر ديمقراطية من الجنوب حيث كانت قلة ضئيلة من مقتني العبيد تستأثر بمعظم الثروة والسلطان .

على أن هذه الفوارق ما كانت — بالرغم من أهميتها — لتوقع الفرة بين القطاعين لولم يضخمها الخوف والتحامل ، ولولم يستغلها مثيرو الفتن بين عامة الشعب . كان الجنوب يدرك إدراكاً حاداً أن وراء مشكلة الرق مشكلة عنصرية لا يكاد يوجد حل لها . وفي هذا قال جيفرسون : « لقد أمسك الجنوب بالذئب من أذنيه » ، وما كان قادراً على أن يظل ممسكاً به ، ولا على أن يطلقه . وأدى تهيج المخاطر الذى أثاره دعاة إلغاء الرق إلى خوف من أن يقدم الشمال على مهاجمة الرق في الأماكن التى كان موجوداً فيها من قبل ، وأن يعطل النظام التاريخي للأيدي العاملة في الجنوب ، وأن يدفع عنصراً ضد عنصر مما يؤدي إلى دمار الاثنين . والواقع أن قسماً كبيراً من النقد الشمالى كان أنانياً ، من طراز عابث منافق ، فهو غير بناء ومشعل الخصام . يقابل هذا أن الشماليين ، حتى أحكمهم منطقاً مثل لينكولن ، كانوا يخشون أن يعمل المتطرفون الجنوبيون على نشر الرق في الأمة بأسرها . كما أنهم كانوا يخافون أن يقدم الجنوب الأدنى على محاولة إعادة إباحة تجارة الرقيق إذ كان بعض زعمائه يدعون لذلك ، وفي السعى إلى نشر نظام الرق ، قد يسوق الأمة إلى حروب لغزو كوبا أو المكسيك أو أمريكا الوسطى . وكان بيان أوستند في سنة ١٨٥٤ ، وهو بيان مجاف للمسئولية ، محبذ لضم كوبا ، وقعه الوزراء الثلاثة — من الحزب الديمقراطي — الذين كان الرئيس فرانكلين بيرس قد أوفدهم إلى بريطانيا العظمى وفرنسا وإسبانيا . هذا البيان أثار عدم الاطمئنان إلى روح الاستعمار لدى الجنوب . وكذلك فعلت حملات القرصنة غير النظامية التى قام بها المغامر المتهور وليم ووكر في أمريكا الوسطى .

ولقد بالغ كثيرون من كتاب الصحف ورجال الدين والسياسيين الشماليين في مساوئ الرق وفي نوايا ممتلكي الرقيق ، وبالغ كثيرون من مثيري الفتن في الجنوب في مساوئ المجتمع الصناعي وأهداف الداعين إلى أرض الحرية . ولقد قال أحد الحكماء من زعماء نيويورك ، إن الوثام بين القطاعين كان خليقاً بأن يصان لوتسنى جمع أسوأ

٢٤٣ الصراع بين القطاعين

مثيرى الخواطر من الفريقين وشحنهم فى مركبة وإغراقهم فى نهر بوتوماك لمدة خمس عشرة دقيقة . ولكن وجهة النظر هذه كانت مغرقة فى التفاؤل ، فسرعان ما كان غيرهم خليقين بأن يحلوا محلهم .

انتخاب لينكولن : الانفصال

تيسر فوز الحزب الجمهورى فى سنة ١٨٦٠ ، وهو ما عجل بانفصال الجمهور ، بفضل انقسام فى الحزب الديمقراطى . وتكمن وراء هذا الانقسام قصة من أكثر القصص إثارة فى التاريخ السياسى الأمريكى .

ذلك لأن كتلة مطردة النمو من المتطرفين الجنوبيين ، ظلت أعواماً تطالب بأن يبيح الكونجرس قوانين لحماية الرق فى الأقاليم . فلما أعلن دوجلاس أن قرار دريد سكوت الذى يبيح للرق دخول كافة الأقاليم ، قد يصبح غير ذى قيمة بفضل القوانين المحلية المعادية لذلك ، تضاعفت المطالبة بهذه الحماية . وكان المعبرون عن هذه المطالبة هم جيفرسون ديفز من الميسيسيبى ، ووليم إل. يانسى من ألاباما ، وروبرت تومز من جيورجيا ، وهم ثلاثة من المتكلمين بلسان مملكة القطن . وفى أوائل سنة ١٨٥٩ ، ردد : ألبرت جى . براون هذا الطلب فى مجلس الشيوخ ، ثم التفت إلى دوجلاس وسأله عن موقفه ، قائلاً : « هل تنشط إذا رفضت السلطات التشريعية للأقاليم أن تعمل ؟ وإذا هى أجازت قوانين معادية للرق ، فهل تلغونها وتحلون محلها قوانين تحبذ الرق ؟ » وقال إن الجنوب يطالب بعمل . . عمل موضوعى ، قاطع . وقد هب أعضاء آخرون من الجنوب إلى تأييده .

بيد أن دوجلاس لم يؤخذ بالإحراج ، فجهز بأن طلب براون انتهاك للحقوق الشعبية فى الأقاليم . فما أقر الكونجرس يوماً ، فى التاريخ الأمريكى ، قانوناً جنائياً لأى إقليم ، ولا قانوناً يحمى الثروة فى أى إقليم . إذ كان الكونجرس منذ سنة ١٧٨٩ قد ترك هذه الأمور للسلطات التشريعية الإقليمية . فما الذى يدعو إلى خرق هذه القاعدة السلمية الآن ؟ وكان الحزب الديمقراطى قد ظل أعواماً يجهز بأنه يؤيد عدم تدخل الكونجرس فى الشؤون الإقليمية . فما الذى يدعو إلى التحول عن هذا المبدأ الآن ؟ .

٢٤٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

وقال دوجلاس في تأكيد : « إذا نبذتم مبدأ عدم التدخل ووضعتم قانوناً للرق بتصرف من الكونجرس بينما يرفضه شعب إقليم ما ، فعليكم أن تنتحوا عن برنامج الديمقراطية . إننى أقول لكم ، أيها السادة الممثلون للجنوب ، بكل صراحة وإخلاص ، إننى لا أعتقد أن أى مرشح ديمقراطى يستطيع يوماً أن يقنع أية ولاية ديمقراطية من ولايات الشمال بالمبدأ القائل بأن من واجب الحكومة الاتحادية أن تجبر أهل أى إقليم على قبول الرق في حين أنهم يأبونه . فرد عليه جيفرسون ديفز بأن واجب الكونجرس أن يكفل حقوق المواطنين الأمريكيين ، وعندما تتقاعس هيئة تشريعية إقليمية عن أداء وظائفها الصحيحة في حماية الملكية ، فعلى الكونجرس أن يتولى الحماية . فصاح دوجلاس : « أبدا . إذا لم تصدر أوريجون قانوناً لتشجيع اقتناء البغال فلن أجاز قانوناً في واشنطن لأفرض عليها البغال قسراً . وإذا أبت أوريجون تشجيع اقتناء الماشية طويلة القرون ، فلن أفرض عليها الماشية غصباً ، وكذلك إذا أبت أوريجون قبول العبيد ، فلن أفرض العبيد على أهلها عنوة » .

كانت هذه هى الصخرة التى انشق عليها مؤتمر الحزب الديمقراطى في سنة ١٨٦٠ ، هى والنزاع بين دوجلاس ومؤيدى حكومة بوكانان . ولقد اجتمع المندوبون في تشارلستون ، مركز الشعور العدائى للرق - مدينة كاهون ، وهابن ، وأر. بى. ريت وصحيفته « ميركورى » المتطرفة . التقوا لاستئناف المعركة بين دوجلاس وديفز وكان قد انقضى على استعارها في مجلس الشيوخ عامان . فلو فاز دوجلاس ، تسنى للحزب الديمقراطى أن يستمر كمنظمة قومية حقاً ، متين المركز في الشمال والغرب كما هو في الجنوب . أما إذا فاز ديفز في برنامجه لقسر المجتمعات غير الراغبة على التمكين للرق ، فإن الحزب الديمقراطى خليف بأن يصبح حزباً قطاعياً ، غير عزيز الجانب إلا في الجنوب . ولقد بدا لفترة من الوقت أن مرشحاً وسطاً قد يتقدم على برنامج غير ملتزم . بيد أن المتطرفين الجنوبيين ، من أمثال ديفز ويانسى وريت وتومز وجوداه بى . بنجامين اللوزيانى ، كانوا يتبعون سياسة سيادة الحزب أو انهياره .

وعندما حاول المتطرفون أن يفرضوا مطلبهم على البرنامج الانتخابى للحزب ، صاح بو- من أوهايو- وكان المتكلم بلسان دوجلاس : « إنكم تخطئون الظن بنا ، أيها السادة من الجنوب . . إنكم تخطئون الظن بنا ، فنحن لن نقر هذا » . وصمد أغلبية من المندوبين ضد مبدأ ديفز - يانسى فعند ذلك نهض مندوبو ألاباما احتجاجاً وانصرفوا

٢٤٥ الصراع بين القطاعين

من القاعة . وتبعهم وفد كارولينا الجنوبية ، وحذا حذوهم آخرون من الجنوب الأدنى ، وانفض مؤتمر تشارلستون دون إعلان أى مرشحين ، إزاء هذا الانقسام التام فى الحزب . وسرعان ما انتظم شقاه فى مؤتمرين منفصلين ، فرشح المتطرفون الجنوبيون جون سى . بريكينريدج من كنتكى ، ورشح معارضوهم دوجلاس . وكانت أهمية هذا الانقسام أعظم مما تبين الكثيرون إذا ذاك . فإن الديمقراطيون لم يجعلوا هزيمتهم أمراً يقيناً فحسب ، بل إن حلقة جديدة من الروابط الكبرى التى كانت تجمع بين الشمال والجنوب قد انفكت .

أما الحزب الجمهورى فأقبل على الحملة الانتخابية فى وحدة كاملة . وفى مؤتمر حافل بالحماس ، فى شيكاغو ، رشح أكثر شخصياته شعبية من زعماء الغرب الأوسط ، وهو : لينكولن . وإذا بمزاحميه اللذين خابت آمالهما — سيوارد وتشيز ينضمان فى ولاء إلى المؤيدين . كانت روح الحرب قد أذكت إلى أقصى درجات الاستعار ، فاستولى تصميم جازم ، وحمية عقيدية ، على ملايين الناحيين الذين كانوا قد أعلنوا أنهم لن يسمحوا للرق بمزيد من الانتشار . كذلك كان الحزب موفقاً فى حشد مساندة من الجماعات الرأسمالية بلغ من شدتها أن الأموال توفرت به بدرجة أفضل مما حدث قبل أربع سنوات . وكان الذعر الوجيز ، الذى حدث فى سنة ١٨٥٧ منذراً بكارثة ، قد أذكى المطالبة فى المجتمعات الصناعية بتعريفه جمركية وقائية ، كما زاد المطالبة فى الدوائر التجارية والمالية بنظام مصرفى أفضل . فوعد الحزب الجمهورى بتلبية هاتين الرغبتين . وفى الوقت ذاته ، استمال الشماليين المتعطشين إلى الأراضى بأن تعهد باستصدار قانون يمنح المستوطنين مساكن تلحق بها مساحات من الأرض دون مقابل . وقصارى القول أنه ، فى الناحية الاقتصادية ، عرض على الجماعات الأمريكية المهمة مغريات قوية المفعول . ولقد ساهم بند التعريف الجمركية مساهمة قوية فى انتصار الجمهوريين فى بنسلفانيا التى كانوا قد فقدوها فى سنة ١٨٥٦ . وكسب برنامج الإصلاح الداخلى آلاف الأصوات فى مناطق الشمال الغربى القديمة العمران . . وكذلك كان أثر مشروع المسكن والأرض الملحقة به فى الغرب الأوسط .

وحصل لينكولن يوم الانتخاب على ١ ٨٦٦ ٤٥٢ صوتاً ، ودوجلاس على ١ ٣٧٦ ٩٥٧ ، وبريكينريدج على ٨٤٩ ٧٨١ ، وجون بيل — من تينيسى وقد رشح نفسه على برنامج التقريب بين القطاعين — على ٥٨٨ ٨٧٩ . وكان نصيب لينكولن من

٢٤٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

التصويت الشعبى أقلية ، بيد أنه ظفر فى مجمع الناخبين بأغلبية حاسمة . كان التصويت الشعبى فى جانب الحدد من الرق دون مرآه ، وفى جانب السلم والاتحاد كذلك . فنال بريكينريدج — المرشح الوحيد الداعى إلى الانفصال — أقل من خمس مجمع الأصوات .

غير أن السيطرة كانت للمتطرفين فى الجنوب . فكتب الاتحادى الكسندر إتش . ستيفنز من جورجيا : « لقد جُنَّ الناس ، إذ استبد الهوى والخبال » . كانت كارولينا الجنوبية قد حزمت أمرها على الانفصال . وما الداعى ؟ كان من المحتمل ، فيما يبدو ، أن كلا من الجنوب والرق لم يكن يتعرض لخطر حقيقى . كان لينكولن خليقاً بأن يواجه طيلة مدة رئاسته الأولى تقريباً (لو أن الولايات الجنوبية ظلت فى الاتحاد) أغلبية معادية فى الكونجرس ، كما كان الجنوبيون يتسلطون على المحكمة العليا كذلك ، فكان خليقاً بأن يكون مكتوف اليدين . ولهذا السبب فإن لينكولن نفى بكل وضوح أية نية للنيل من الرق فى الأماكن التى استقر بها . فما كان من الممكن إلغاء الرق فى الجنوب إلا بتعديل دستورى ، وهذا ما لم يكن ليتسنى قبل أجيال . ومع ذلك فإن الخطوة كانت قد اتخذت . . . واتخذت بالرغم من أن عاقبتها كانت مؤكدة . فقد قال ستيفنز متنبئاً : « لن يلبث الناس أن يقطع كل منهم رقبة الآخر » .

كانت الخطوة قد اتخذت ، ولكن ما من دليل قاطع على أنها كانت مؤيدة بأغلبية من الشعب خارج كارولينا الجنوبية . كان الشعور الاتحادى قوياً فى كافة أرجاء الجنوب — حتى فى ولاية بالميتو — وكذلك كان الشعور نحو السلام . وفى انتخابات سنة ١٨٦٠ ، أدلى الناخبون من الولايات الأربع عشرة المبيحة للرق بأصوات للمرشحين الداعين إلى الحل الوسط — وهما دوجلاس وبيل — تزيد على ما أدلوا به للمتطرف بريكينريدج بمائة وأربعة وعشرين ألف صوت . ويوحى التحليل الدقيق للأصوات فى بعض الولايات الواقعة فى أعماق الجنوب ، بأن موضوع الانفصال كان خليقاً بأن يهزم لو أنه عرض لاستفتاء عادل وصريح . بل إن جماعات قوية النفوذ فى الجنوب ، ظلت شديدة العداء لاتحاد الولايات المنفصلة ، حتى بعد الانفصال واشتعال الحرب . فانفصلت فيرجينيا الغربية عن مجموعة الولايات التى كانت تابعة للتاج البريطانى قديماً ، ولم يتسن فرض الخدمة العسكرية على الجزء الغربى من كارولينا الشمالية ، ويقال إن بعض مقاطعات تينيسى الشرقية أسهمت بنسبة من سكانها ، كمتطوعين فى جيش الاتحاد ، تفوق

٢٤٧ الصراع بين القطاعين

ما قدمته إليه مقاطعات في الشمال . على أن علينا أن نتذكر أن الثورة عادة من عمل أقليات مصممة ، وأن الانفصال كان يحظى قطعاً بتأييد شعبي واسع في سنة ١٨٦٠ ، لا يقل عما حظيت به الثورة على حكم جورج الثالث في سنة ١٧٧٦ .

كان الجنوب الأدنى مدفوعاً بعدد من الحوافز المتباينة : الكراهية نحو الشمال ، والضعف من جراء هزيمته في الانتخابات ، وعدم الرغبة في تقبل الحكم (بعدم إباحة الرق) الصادر على الأقاليم ، والحلم بتحقيق عهد أحسن وأكثر إشراقاً تحت علمه الخاص . وكان مدفوعاً ، فوق كل هذا ، بالخوف — الخوف من أن تطيح حكومة تسيطر عليها فكرة إلغاء الرق ؛ بمؤسسات الجنوب وحضارته المميزة في غير إشفاق . وفتحت كارولينا الجنوبية الباب ، في ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٦٠ ، بأن أعلنت أن الشمال قد انتخب للرئاسة رجلاً « ذا آراء وغايات معادية للرق » . وتبعتها ولاية المسيسيبي فأكدت أن الشماليين قد « اتخذوا موقفاً ثورياً نحو الولايات الجنوبية » . ورأى المتطرفون الجنوبيون ، الذين لم يخطر لهم أن الشمال قد يحارب فعلاً ، أن الفرصة سانحة لهم . كان الرئيس جاكسون قد قضى على أية محاولة لإبطال قانون اتحاد في ولاية من الولايات . وكان الشمال قد أخذ يزداد قوة بالنسبة للجنوب باطراد . فلو تركت هذه الأزمة تمر دون ما محاولة لإرساء استقلال الجنوب ، فلن تسنح فرصة أخرى لذلك . وقد يتسنى لاتحاد جنوبي أن يكسب مكانة وطيدة بين أمم العالم ، وقد لا يلبث أن يتمكن من التوسع جنوباً حول البحر الكاريبي . وفي أوائل فبراير سنة ١٨٦١ ، اجتمع وفود سبع ولايات منفصلة عن الاتحاد في مؤتمر في مونتجمري بولاية ألاباما ، وأنشأت ولايات أمريكا المتحالفة ، وانتخب جيفرسون ديفز رئيساً مؤقتاً لها .

وسرعان ما لحقت بها ثلاث ولايات أخرى من الجنوب الأعلى المتردد وأركنساس ، وفاء منها لقطاعها . وبذلت محاولات أخيرة للتوفيق . ولكن أفضل هذه المحاولات فرصة ، وهو مشروع جون جيه . كريتندين للعودة إلى خط عرض ٣٠° - ٣٦° وفقاً لتسوية ميسوري ، تحطمت على رفض لينكولن (في تشبهه بالمبدأ) السماح للرق بدخول أي إقليم . وفي فجر ١٢ إبريل سنة ١٨٦١ ، أطلقت المدافع الجنوبية نيرانها على حصن سومتر في مرفأ تشارلستون .



الفصل ١٢

حرب الأتقاء

الرجال والموارد

حسبنا أن نجعل العالم بأسره يشرع في تبين مقدار الموت والخراب الرهيبيين اللذين يتفشيان الآن في الخارج . فلقد أخذ العمل يتقدم يوماً بعد يوم ، طيلة الشهرين الماضيين ، ولست أرى ما ينبيء بأية هودة ما لم يتم القضاء على أحد الجيشين أو كليهما معاً . . . ولقد بدأت أعتبر موت وتشويه ألفى رجل مسألة بسيطة ، نوعاً من تداريب الصباح المنشطة . . . وقد يكون من الخير أن تصبح هذه القسوة والخشونة . هكذا كتب الجنرال وليم هـ. شيرمان إلى شقيقه في ٣٠ يونيو سنة ١٨٦٤ . وقد أردف قائلاً : « إن أسوأ مراحل الحرب لم تبدأ بعد » . وكانت هذه العبارة صادقة بالنسبة لجورجيا ، التي كان مقبلاً على أن يلقي بمزارعها ومدنها إلى الهلاك ، في موجة دمار واسعة شملت كل ما بين الجبال والبحر . وكانت صادقة بالنسبة لفيرجينيا ، كما كانت صادقة إلى حد كبير بالنسبة لجيشى جرانت ولى ، اللذين كان القتال العاتى بينهما قد بدأ فعلاً . ومع هذا فقد دخلت البلاد غمرة هذا الصراع بروح راضية ، والشماليون يهتفون : « هيا إلى ريتشموند ! » والجنوبيون يتشدقون بتفوقهم في الشهامة والفروسية

على اليانكى « الحثالة » ، والجانبان يحملان بأن يكون النزاع قصيراً ومتوجاً بالمجد . كانت صدمة الاشتباك عند فورت سومتري قد وحدث الشمال ، كما وحدث الجنوب على الفور . فإذا موجة من السخط تفصل فيرجينيا عن الاتحاد لتنتقلها إلى التحالف^(١) ، ومنحت الولاية التي كانت ملكاً للتاج فيما مضى الجنوب عاصمته ، إذ وصل جيفرسون ديفز وحكومته إلى ريتشموند في أواخر شهر يونيو سنة ١٨٦١ ، كما منحته أقدراً قادته ، إذ أن روبرت إى . لى بطل شيرو جوردو وتشابولتيك ، فى الحرب المكسيكية ، والمدير السابق ويست بونيت ، وقائد قطاع تكساس — وجد أن نداء ولايته أقوى من نداء الأمة ، وانحازت ولاية تنيسى إلى تحالف الولايات الجنوبية ، بينما أعلن وادى المسيسيبي الأعلى ، فى الشمال ، أنه لن يسمح قط بـ « صف من مراكز الجمارك » بينه بين الخليج ، وانحاز بقوة إلى الاتحاد . وكذلك فعلت كاليفورنيا النائية ، وترددت ولايات الحدود — ميريلاند وكنتكى وميسورى — إذ كان الشعور العام فيها منقسماً أشد انقسام . وسيطر الانفصاليون بضعة أيام على بلتيمور ، وبدأ لوهلة أنهم موشكون على الاستيلاء على سانت لويس . بيد أن ولايات فرانسيس سكوت كى وهنرى كلاى وتوماس هارت بنتون تشبثت فى النهاية بولائها القديم . وذابت الفواصل الحزبية لبعض الوقت فى الشمال والجنوب . فبحركة رمزية ذات مغزى حمل دوجلاس قبعة لينكولن عندما تقدم رئيس الجمهورية الجديد ليلقى خطابه الأول فى حفل تنصيبه ، بينما أصبح ألكسندر إتش . ستيفنز — الذى كان اتحادياً طيلة عمره — نائباً للرئيس فى تحالف ولايات الجنوب .

وكانت لكل من الجانبين ميزات حاسمة . كان الشمال أعز من الجنوب جانباً بفارق شاسع من حيث السكان ، والموارد الصناعية ، والثروة . فقد أظهر تعداد سنة ١٨٦٠ أن ثلاثاً وعشرين من الولايات التى تحت علم النجوم والأشرطة (فضلاً عن فيرجينيا الغربية التى لم تلبث أن أنشئت من المقاطعات الموالية للاتحاد فى فيرجينيا ، وعن تكساس التى لم تلبث أن ألحقت عضواً بالاتحاد) أوتيت حوالى اثنين وعشرين مليون نسمة ، فى حين أوتيت إحدى عشرة من الولايات التى تحت علم النجوم والقضبان ما لم يتجاوز

(١) نوع من الاتحاد غير الاندماجى بين بلدين ، يحتفظ كل منهما بأجهزته الإدارية والتشريعية والقضائية ، مع توحيد نواحي السياسات الخارجية والدفاعية والاقتصادية فى الغالب — المترجم .

٢٥١ حرب الأشقاء

تسعة ملايين من النسبات بكثير . وكان سكان الجنوب يضمون ما يزيد على ثلاثة ملايين ونصف المليون من الزوج . وكانت شبكة الخطوط الحديدية الشمالية تتألف من حوالى اثنين وعشرين ألفاً من الأميال ، وشبكة الجنوب تتألف من تسعة آلاف فحسب . وكان الشمال يستمتع بامتياز هائل فى تقدمه الصناعى ، إذ أنتجت نيويورك وحدها فى سنة ١٨٦٠ من السلع المصنوعة ما يزيد فى القيمة على ضعف ما أنتجته الولايات المتحالفة بأسرها ، وأنتجت بنسلفانيا ما يقرب من الضعف . وكان الشمال فى السنوات الثلاث الأخيرة من النزاع يصنع كل إمداداته تقريباً بنفسه ، فى حين أن الجنوب كان مضطراً للاعتماد على المدافع الأجنبية والعقاقير والمهمات الجراحية الأجنبية ، وكان يعتمد إلى حد كبير على الذخيرة الأجنبية . ولقد احتفظ الشمال بالسيطرة على الأسطول ، وعلى المحيط معه . كان يمتلك اقتصاداً قومياً أكثر قابلية للتكيف وأكثر تنوعاً . كان يمتلك المقدرة التى أضفتها الهجرة ، ولقد تضاءلت الهجرة حتى معركة جيتسبيرج ، ثم عادت إلى الانتعاش سريعاً .

أما الجنوب ، فأوتى لصالحه الروح العسكرية لدى أهله ، وسهولة الاستيلاء على عديد من الحصون ومخازن الأسلحة ، وتفوق زراعته فى الكفاءة والتنظيم ، والواقع أنه كان يقاتل من موقف الدفاع ، ومقدرة جيوشه على القيام بالعمليات على الخطوط الداخلية . وكان يمتلك فوق كل شيء - واقع أنه لم يكن مضطراً لأن يكسب الحرب من الناحية العسكرية فى سبيل تحقيق النجاح . . لم يكن مضطراً لأن يغزو الشمال ويهزمه . كان كل ما يحتاج إليه هو أن يقاتل لوقت طويل وبشدة حتى يقنع الشمال أنه لا سبيل إلى أن يقهر . فكان فى مكنته أن يخسر المعارك ، بل الحملات ، وكان فى مقدوره أن يتحمل الهزيمة إثر الهزيمة . كان خليفاً بالتحالف أن يفوز إذا استطاع أن يقنع الرأى العام الشمالى بأن انتصار الشمال قد يكلفه ثمناً باهظاً جداً ، وأن من الأفضل على أية حال ترك الولايات الشقيقة الضالة لترحل . لقد اعتقد الكثيرون أن الجنوب كان يمتلك ميزة كبرى كذلك ، بالسيطرة على مورد القطن الرئيسى للعالم . . وبأن حاجة بريطانيا إلى هذا القطن لتتطلب مصانعها عاملة كانت خليقة بحملها على التدخل فى صف الجنوب . ولقد أظهر الزمن أن هذا الحساب كان خاطئاً ، وأن بريطانيا لم تكن أقل حاجة إلى قمح الشمال منها إلى قطن الجنوب .

كان ثمة تحد رفيع يذكى حمية الجنوب ، حتى فى النكبة ، بيد أن الشمال أوتى فى

مقابله تصميمياً . وكان القادة الجنوبيون ، بوجه عام ، أقدر وأكثر خبرة وتجربة من قادة الشمال ، بيد أن الرئيس لينكولن أثبت أنه رجل حكم يفوق بكثير جيفرسون ديفز الذى أوتى امتيازاً ومكانة فكريين ، وجدأً صادقاً صارماً ، بيد أنه كان يفتقر إلى سعة الأفق ، وكان يترك الغضب ونفاد الصبر والأحكام الشخصية المتحيزة أساساً لحكمه أحياناً . وقصارى القول ، أن الشمال كان أعز جانباً بفارق شاسع ، وإن الأمل الأكبر للجنوب كان يكمن فى صعوبة إخضاع (الشمال) إقليمياً كالجنوب هائل المساحة ، وسكاناً بالكثرة وصعوبة المراس كسكانه .

ولقد لقى الشماليون الذين كانوا يعتقدون بأن الحرب قصيرة ، درساً نبههم فى بول رن إذ تشكل جيش يضم حوالى ثلاثين ألفاً فى واشنطن ، فى عجلة ، ودفع ضد قوة تحالفية فى مثل حجمه تقريباً ، كانت وراء أخدود بول رن العميق ، فى فرجينيا الشمالية . وفى ٢١ يوليو ، اخترقت قوات الاتحاد قلب القوات التحالفية ، وإذا بها تصادف هجوماً ساحقاً من الجناح التحالفى الأيمن ، المحتفظ بعنفوانه ، والذى كان تحت قيادة الجنرال جاكسون الملقب بالجدار الصخرى ستونول . واندفع الشماليون جميعاً ، ما عدا الجنود النظاميين ، فى فرار أهوج إلى واشنطن ، فغصت الطرق بالرجال والمدافع ، والأمتعة المهجورة ، ورجال الكونجرس الذين كانوا قد جاءوا بأمل الاستمتاع بنصر أشبه بالنزهة الخلوية . وأعقبت ذلك نكسات أخرى للشماليين فى ميسورى ، وعند بولز بلف على نهر بوتوماك ، حيث جرح أوليفر ويندل هولز الذى صار فيما بعد من قضاة المحكمة العليا . وأعد الجانبان نفسيهما لصراع مستميت .

وانتهى الأمر بامتداد الحرب أكثر من أربعة أعوام ، فلم تنته إلا حين استلقى الجنوب منهوك القوى تماماً . وكانت تكاليفها من المال ، والممتلكات ، والأرواح رهيبة . إذ يُقدر مجموع ما جنده الشمال من الرجال بمليونين ، وعندما انطلقت آخر الطلقات كان له فى الميدان حوالى مليون . ويُقدر مجموع ما جنده الجنوب بما يقل عن المليون ، ولن يقدر لأحد أن يعرف العدد بدقة . ولقد مات - فى جانب الاتحاد - حوالى ٣٦٠ ٠٠٠ رجل أثناء القتال ، من جراء الجراح أو الأوبئة . أما فى جانب التحالف ، فقد عدد لموتى بـ ٢٥٨ ٠٠٠ . ولقد حل الخراب بأجزاء كبيرة من الجنوب ، ووقع الدمار بوادى شيناندواه من أدناه إلى أقصاه ، وهدم شيرمان ما قيمته خمسون مليون دولار من البنايات العامة ، وما قيمة مئات الملايين من الممتلكات الخاصة فى جورجيا ، وعالت الحرائق فساداً فى مدن

٢٥٣ حرب الأشقاء

مثل كولبيا ، وريتشموند وأتلانتا ، واقتلعت الخطوط الحديدية ، وهدمت المصانع ، وبفضل القضاء على نظام الأيدي العامة القديم ، وتحطيم الممتلكات المادية ، استنزفت قوى الجنوب اقتصادياً . ومع أن الشمال كان ينعم بروج صناعى كبير عند انتهاء الحرب ، فإنه كان قد تكبد من الخسائر فوق ما تراءى له للوهلة الأولى .

الحملات

من الممكن تمييز أربع جبهات أو مسارح للقتال رئيسية : البحر ، وواى المسيسيبي ، وفيرجينيا والولايات القائمة على الساحل الشرقى ، والجبهة الدبلوماسية . ومن الممكن أن نأتى على الأولى بإيجاز . فلقد كان الأسطول المؤلف من أربعين سفينة بأكمله فى قبضة الاتحاد فى الواقع ، عند بداية النزاع ، ولكنه كان مبعثراً ، مفكك المعنويات والنظام . وسرعان ما استطاع رئيس قدير فى واشنطن ، هوجيدون ويليز (الذى يدين بشهرته إلى اليوميات العظيمة القيمة التى سجلها عن الحرب) أن يعيد تنظيمه وتدعيمه . وقد أعلن لينكولن حصاراً على الساحل الجنوبى ، لم تحن سنة ١٨٦٣ حتى كان بالغ المفعول ، بالرغم من أنه كان بالغ الضعف فى البداية . إذ أنه حال دون تصدير القطن إلى أوروبا واستيراد الذخائر والثياب والإمدادات الطبية التى كان الجنوب فى ميسس الحاجة إليها . وفى تلك الأثناء ، كان قائد بحرى لامع قد ظهر وقاد عمليتين فذتين ، وهوديفيدجى . فاراجت . ففى إحدى العمليتين ، أخذ أسطولاً اتحادياً من المراكب الخشبية وحيدة الشراع إلى مصب المسيسيبي ، فاجتاز حصنين قويين ، وأجبر نيواورليانز ، أكبر وأغنى مدن التحالف الجنوبى ، على الاستسلام . وفى الأخرى شق طريقه عنوة مجتازاً مدخل خليج موبيل ، فاستولى على سفينة مدرعة تابعة للتحالف ، وأغلق الميناء . وكانت السفن المدرعة قد بدأت تفتك بالسفن الخشبية . وقد حدثت فى مارس ١٨٦٢ لحظة من لحظات الحرب المثيرة للقلق ، عندما قضت مدرعة تحالفية جديدة ، تدعى ميريباك — انطلقت من نورفولك بولاية فيرجينيا على فرقاطتين اتحاديتين عند هامبتن رودز ، فى مصب نهر جيمس ، وبدت على أهبة مهاجمة واشنطن أونيوورك . ولحسن الحظ ، ظهرت فى الوقت المناسب سفينة اتحادية مصفحة ذات تصميم عجب ، « صندوق محكم

فوق رمث ، ، تدعى مونيتور ، كانت قد أنشئت في نيويورك ، وأرسلت على عجل إلى الجنوب ، فهاجمت المدرعة المظفرة وأنهت نشاطها . وظفر الاتحاد بنصر بارع آخر ، عندما أغرقت كيرسارج طراة تحالفية جواله - كانت قد صنعت في إنجلترا ، وتدعى ألاباما - خارج مياه شيربورج . ولقد أفاد الأسطول الاتحادى أنها إفادة في حصار الجنوب ، وفي المساعدة على الاستيلاء على النقاط الساحلية المهمة ، وفي القتال البرى المائى على الميسيسيبى والتينسى وريد ، وغيرها من المسالك المائية الداخلية ، وفي إغراق المدمرات التجارية التحالفية أو الاستيلاء عليها .

ولقد ظفرت قوات الاتحاد بسلسلة من الانتصارات تكاد تكون متواصلة ، في وادى الميسيسيبى . وكان أوليسس إس . جرانت قد عين قائداً لقوات غربية شديدة الوطأة . وهو من أبناء إللينوى ، ذو عناد لا يلى ، وأفق ضيق الخيال ، بيد أنه كان متمكناً من المبادئ الرئيسية للاستراتيجية ، فبدأ بتحطيم خط طويل للتحالف الجنوبى في ولاية تينسى ، وذلك بالاستيلاء على حصنى هنرى ودونيلسن على نهري تينسى وكمبرلاند ، مما يسر احتلال معظم القسم الغربى من الولاية . واضطر التحالفيون إلى مغادرة مدينة ناشفيل المهمة ، فتمكنت قوات الاتحاد من الزحف إلى الحدود الجنوبية لولاية تينسى ، أى أنها توغلت حوالى مائتى ميل في قلب التحالف . وهنا احتشد الجنود الجنوبيون تحت قيادة ألبرت سيدنى جونستون ، وبى . جى . تى . بوريجارد المقدام ، الذى كان قد تولى القيادة في تشارلستون وأمر بالهجوم على فورت سومتر . وقد وجها ضربة في أبريل ١٨٦٢ ، كادت تبديد جرانت . فقد فاجأوا جيشه بهجوم خاطف وهو غير مسنعد ، عند بيتسبرج لاندينج ، على نهر تينسى ، إذ كان ظهره نحو المجرى الذى ارتفع الماء فيه ، وكانت مقدمته غير محصنة . وأوشك الهجوم المفاجيء أن يربك قوات الاتحاد ، ولكن جرانت تلقى تعزيزات في الوقت المناسب ، في حين فقد التحالفيون قائدهم الذكى ، الجنرال جونستون . وكانت النتيجة أن شاع الاضطراب بين التحالفيين ، وانسحبوا إلى كورنث بولاية الميسيسيبى . ولقد منى الفريقان بخسائر جسيمة في معركة شيلوه . . وكانت خسارة القوات الاتحادية ١٣٠٠٠ من ٦٣٠٠٠ رجل ، ولكن لينكولن قال لجرانت : « لا أستطيع أن أفلت هذا الرجل . . فهو يجيد القتال » .

وفي ربيع سنة ١٨٦٣ ، أخذت قوات جرانت برغم خسائرها تتقدم جنوباً باطراد وإن كان بطيئاً . وكانت غايتها الكبرى أن تظفر بالسيطرة التامة على الميسيسيبى ، وكانت

٢٥٥ حرب الأشقاء

مشارفه الدنيا قد ظهرت من التحالفيين بعد استيلاء فاراجت على نيواورليانز . ولقد اضطر جرات فترة للتوقف عند فيكسبيرج ، حيث تحصن التحالفيون باستحكامات متينة على سفوح أكثر ارتفاعاً من أن ينال منها هجوم بحرى موفق . بيد أنه قاد جيشه بحركة جريئة إلى أسفل وحول فيكسبيرج ، وقام بحصار لسته أسابيع ، حتى إذا كان الرابع من يوليو استولى على المدينة وعلى أشد جيش للتحالفين في الغرب . وإذ ذاك قال لينكولن أن « أبا الأنهار »^(١) عاد ينطلق إلى البحر دون أن يصادفه ما يعكر سيره . وانقسم التحالف إلى شطرين ، وأصبح من شبه المستحيل استجلاب الإمدادات من تكساس وإقليم أركنساس إلى الشرق عبر النهر .

وفي هذه الأثناء كانت قوات الاتحاد في فيرجينيا تعاني هزيمة إثر أخرى . لم تكن المسافة بين واشنطن وريتشموند ، التي اتخذها التحالفيون عاصمة لهم ، تتجاوز مائة ميل ، بيد أن المنطقة كانت تتخللها مسالك مائية عديدة وفرت مواقع دفاعية متينة . يضاف إلى هذا أن التحالفيين أوتوا في شخصى روبرت إى . لى ، وتوماس جيه . « ستونول » جاكسون قائدين كانا يفوقان قادة الاتحاد الأوائل في ألمعية القيادة ببون شاسع . ومن المستحيل الإسهاب في تفصيلات الحملات الدامية المتتابعة التي كانت الجيوش الاتحادية ترتد فيها مرة إثر أخرى ، وهى تحاول الاستيلاء على ريتشموند والقضاء على القوات التحالفية . ولقد دفع جورج بى . ماكيللان في أوائل سنة ١٨٦٢ ، جيشاً بديع التدريب من ١٠٠ ٠٠٠ رجل ، عن طريق البحر إلى شبه الجزيرة القائمة بين نهري يورك وجيمس ، وقاده ضد الجيوش الأقل حجماً ، التي كانت تحت قيادة لى ، وخاض به قتالاً مستميتاً أمام ريتشموند ، في معارك الأيام السبعة . ولقد مرت بقواته فترة كانت تسمع فيها دقات الساعات في أبراج كنائس العاصمة التحالفية ، ولكنها ارتدت في النهاية وقد تكبدت خسائر باهظة . ولقد فشل جون بوب المتخبط في معركة بول رن الثانية (٢٩ أغسطس — ١ سبتمبر سنة ١٨٦٢) ، واضطر للارتداد نحو واشنطن ، بينما خشى الشمال على سلامته . ولقد أخفق قائد اتحادى آخر ، هو بيرنسايد المنكود ، وهو يحاول اجتياح المرتفعات القائمة وراء فريديكسبيرج ، وصُدَّ في مذبحة فظيعة . وهُزم قائد آخر هزيمة مخزية كهذه في معركة تشانسيلورزفيل الدامية ، غير أن التحالفيين فقدوا جاكسون الذى

(١) يقصد نهر المسيسيبي — المترجم .

٢٥٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

لا يُقاوم ، الساعد الأيمن للجنرال لى الذى يحتمل أن تكون إغارته الجريئة على وادى شيناندواه ، فى سنة ١٨٦٢ ، وإيقاعه الهزيمة بمجموعة متتابعة من قوات الاتحاد ، مثيراً للذعر فى واشنطن ، من أروع مغامرات الحرب . ولقد ظل التحالفيون الجانب المظفر فى الشرق ، حتى صيف سنة ١٨٦٣ .

على أنه ما من انتصار من هذه الانتصارات التحالفية كان حاسماً ، إذ كانت حكومة الاتحاد تحشد جيوشاً جديدة ، وتحاول من جديد . وإذا كانت جيوش الاتحاد قد عجزت عن الاستيلاء على ريتشموند ، فإن التحالفيين لم يكونوا أحسن توفيقاً عندما غمدوا إلى الهجوم . ففى أغسطس سنة ١ٸ٦٢ ، رأى لى أن الوقت قد حان لتوجيه ضربة فى داخل الشمال ، غير أن ماكليان تصدى له فى أنتيتام ، فى غرب ولاية ميريلاند ، وقاتله حتى شل تقدمه . وكان الفريقان متعادلين فى المعركة ، غير أن لى انسحب ، ولما كان لينكولن فى لهفة مستميتة إلى انتصار ، فقد رأى فى نتيجة المعركة نجاحاً كافياً لأن يبرر إذاعة بيان تحرير العبيد . وعاد لى فى الصيف التالى ، بعد الهزيمة الساحقة التى حاقت بجنود الاتحاد فى تشانسيلورزفيل ، فوجه هجوماً إلى الشمال ، وغزا بنسلفانيا . وكاد جيشه أن يبلغ عاصمة الولاية ، فأصاب ولايتى بليمور وفيلادلفيا فزع عظيم ، غير أن قوة اتحادية أشد وطأة عاقت زحفه عند جيتسبيرج . وهناك بذل مقاتلو الخمسة والسبعون ألفاً محاولة جبارة ، فى معركة دامت أيام (١ - ٣ يوليو) ، لزعزعة الثمانية والثمانين ألفاً الذين كانوا تحت قيادة جورج إس . ميد . ولوأنهم هجموا بسرعة خاطفة ، بينما كانت قوات الاتحاد تتمركز وتحتشد ، لكان من المحتمل أن يكسبوا المعركة . ولكنهم اضطروا فى النهاية إلى منازلة جيش أعز قوة ، احتل مواقع أفضل من مواقعهم . وكان هجوم بيكيت المستميت ، فى اليوم الأخير ، وفى مواجهة نيران فظيعة ، من أبسل الجهود فى تاريخ الحرب . ولكنه فشل ، وفى اليوم التالى ارتد محاربو لى إلى نهر بوتوماك ، بعد خسائر شلت قواهم بدرجة لا علاج لها ، فبدأ جلياً أن تحول التيار فى جيتسبيرج كان انحساراً لكافة الآمال التحالفية .

كان جيش جرانت إذ ذاك مستولياً على فيكسبيرج ، وقد أصبح الحصار على السواحل الجنوبية طوقاً حديدياً لم تخترقه سوى بضع سفن قليلة . كان التحالف موشكاً على نهاية موارده ، وقد أخذت مصانعه تفتقر إلى الآلات والمواد الأولية ، وراحت خطوطه الحديدية تتداعى . أما الولايات الشمالية فكانت على العكس ، إذ بدت أكثر رخاء من ذى قبل ، وأخذت مصانعه تدور بكل طاقتها ، ومزارعه تصدّر

٢٥٧ حرب الأشقاء

محصولات وفيرة إلى أوروبا ، وقواه البشرية تتجدد بالهجرة .

كذلك مضت المرحلة النهائية من حملات وادى المسييبي في غير صالح التحالفين بدرجة حاسمة ، في جنوب شرقى تنيسى . ولم تكن أهمية تشاتانوجا وهى ملتقى حافل للخطوط الحديدية في هذه المنطقة ، بأقل أهمية لتحالف ولايات الجنوب من ريتشموند وفيكسبيرج ، إذ كانت تسيطر على الخطوط الحديدية الممتدة في الجنوب الغربى ، والجنوب الشرقى والشرق ، وتقوم في موقع كان يسد الطريق على جيوش الاتحاد نحو الجنوب ، حوالى جبال سموكى الكبرى ، ومن ثم فإنها كانت من المنافذ المؤدية إلى الجنوب الأدنى . وقد وصلت إلى تشاتانوجا ، في أوائل سبتمبر سنة ١٨٦٣ ، قوة اتحادية بقيادة دبليو. إس. روزكرانز فوجدت نفسها في مواجهة قوة تحالفية منيعة ، بقيادة براكتون براج الذى لا يبارى . وكاد براج يظفر بالفوز في معركة حامية عند تشيكاماوجا لولا أن أحيط به في مأزق كبده الكثير ، على يدى الجنرال جورج إتش . توماس . وكان فيرجينيا انحاز للاتحاد . وإذ ذاك انساق روزكرانز إلى حصار في تشاتانوجا ، فلم يكن ثمة بد من إيفاد جرانت لنجدته . واستطاع جرانت في نوفمبر ، أن يخوض بتعزيز من شيرمان وتوماس معركة تشاتانوجا ويكسبها ، إذ طرد جزء من قوته التحالفيين من ميشينارى ريدج في هجوم عات لا سبيل لصدّه . وهكذا أصبحت قوات الاتحاد في مركز مكنها من البدء في الزحف على جورجيا ، وهو زحف أتمه شيرمان مظفراً في العام التالى . ففي مايو سنة ١٨٦٤ ، انفصل شيرمان عن قواعده ، وسار إلى جورجيا على رأس مائة ألف محارب . وعندما أخفق الجنرال جوزيف إى. جونستون في صدّه ، بسلسلة من المناورات الدفاعية البارة ، أقدم الرئيس ديفز على تصرف غير حكيم ، إذ عين للقيادة جون هود المقرب إليه . وعبثاً تصدى هود للقوات الغازية واضطر في أول سبتمبر إلى الجلاء عن أتلانتا ، وأصبحت جورجيا بأسرها مفتوحة أمام شيرمان . وتلا ذلك الزحف إلى البحر ، وهو الزحف المشهور في الأغاني والقصص ، واستولى شيرمان في ٢٢ ديسمبر على ميناء سافانا البحرية ، وقدمه إلى الرئيس لينكولن بمثابة « هدية عيد الميلاد » . وانسحب جونستون ، الذى بادر ديفز إلى إعادته للقيادة ، إلى كارولينا ببراعة ، بينما دفع هود بأربعين ألف رجل إلى تنيسى ، حيث كادوا يبادون في معركة فرانكلين وناشفيل الداميتين عن آخرهم ، على يدى توماس الذى أثبت مرة أخرى أنه كان من أعظم قادة الاتحاد العسكريين .

ولو أن الجنوب اعترف بهزيمته الداهمة وسعى إلى الصلح مع لينكولن الواسع الصدر ، لكان هذا أفضل له وأحسن . ولكن المشاعر كانت قد أسفّت في المراتبة بحيث لا تسمح بهذا . فظل التحالف يحارب إلى أن باتت المقاومة شبه مستحيلة . ففي سنة ١٨٦٣ فقد آخر أمل له من تدخل فرنسي وبريطاني . إذ كانت الحكومة الاتحاد ميزات كبرى في الجبهة الدبلوماسية ، وقد استخدمتها بحذو ، ولم يعد أى وزير أوربي مستعداً للانحياز لقضية خاسرة ، بعد معركة جيتسبيرج ، فضلاً عن أن لينكولن أصدر بيانه لتحرير العبيد في سنة ١٨٦٢ ، فجعل من استئصال الرق أحد الأهداف الرئيسية للحرب ، وأدى هذا إلى احتشاد الشعور الخلقى لدى الجماهير البريطانية في جانبه . وقد قدم عمال لانكاشير ، الذين أفقرهم الحرمان من القطن بسبب الحصار الاتحادى ، دليلاً لا ينسى على ولائهم للمبدأ ، عندما اتخذوا في تأييد الاتحاد موقفاً لا يتزعزع .

ولقد استقدم جرانث في أوائل سنة ١٨٦٤ إلى الشرق ، وأقيم قائداً للجيش الاتحاد جميعاً . وأخذ ينزل الضربات دون هوادة على لى في معركة إثر معركة ، من المعارك التى أطلق على مجموعها اسم الفيافي ، مما أوهن القوة الرئيسية للتحالف شيئاً فشيئاً . وكان الجنرال شيرمان قد بدأ حملته لإخضاع جورجيا . فبعد احتلال أتلانتا في أوائل سبتمبر ، اتجه قدماً نحو البحر ، مدمراً بخططه مرسومة المخازن ، والطرق الحديدية وغيرها من الممتلكات في جبهة عرضها ستون ميلاً ، ثم ظهر أخيراً عند سافانا ، وتحول بعد ذلك شمالاً ، فاستولى على كوليبيا ، واضطر تشارلستون على الاستسلام . وفي خريف العام ذاته - سنة ١ٸ٦٤ - قضى القائد الفارس المقدام فيل شيريدان على الموارد الزراعية لوادى شيناندواه قضاء مبرماً ، حتى إنه كان لزاماً على أى غراب يخلق فوقها أن يحمل معه مؤونته . وأخيراً ، اضطر لى إلى التخلي عن ريتشموند في ٩ أبريل سنة ١٨٦٥ ، ثم أسلم جيشه عند أبوماتوكس .

خلافات داخلية

ما أكثر ما يمكن أن يقال عن الخلافات الداخلية في الشمال وفي الجنوب ، على السواء ، خلال سنوات الصراع الرهيب هذا . فما أبدت الحكومة في أى من

٢٥٩ حرب الأشقاء

الجانبين كفاءة رفيعة . كانت الجيوش مفعمة بأساليب فجعة ، فاضحة الأخطاء ، جائرة . فقد سُنت قوانين للتجنيد ، ولكنها لم توضع بعدالة وديمقراطية . ففى الشمال كان يسمح للرجال بأن يستأجروا بدائل يحملون عملهم ، أدت هذه القوانين إلى اضطرابات من جراء الخدمة العسكرية . ولقد ابتلى كل من الجانبين بمنازعات سياسية داخلية . فإن الجمهوريين المتطرفين بقيادة ثاديوس ستيفنز من بنسلفانيا ، وبين ويد من أوهايو ، وتشارلس سومر من مساشوستس ، هاجموا لينكولن متهمين إياه بالضعف المفرط فى تسيير دفعة الحرب ، شديد البطء فى اتخاذ تحرير العبيد هدفاً من أهدافها ، بالغ اللين فى إجراءاته لإعادة تعمير لوزيانا وغيرها من الولايات المهزومة . أما فى الجنوب ، فإن حكاماً من أمثال جوزيف إى . براون حاكم جورجيا وزيبولون فانس حاكم كارولينا الشمالية ، عرقلوا سلطات ريتشموند بتشبههم الغنى بحقوق الولايات . ولقد قامت الأغراض السياسية بدور غير موفق فى التعيينات لمناصب الجيش فى كل من الجانبين ، وفى الشمال بوجه خاص ، فدفعت إلى الأمام بأشخاص غير أكفاء مثل بنجامين بتلر وأمبروز بيرنسايد بينما أهمل قادة شجعان أكفاء مثل توماس . وأخذ الهرب من الجيش يستشرى فى الجانبين ، حتى عرقل جيوش التحالفيين فى آخر الأمر .

وكان الشمال يوجه الاتهامات إلى الجنوب بإساءات رهيبة فى المعاملة فى سجن لى بريشموند ، وسجن أندرسونفيل بجورجيا وغيرها من السجون ، بيد أن المعسكرات الشمالية لم تكن أقل سوءاً . ولقد انتعشت المحسوبة والتحايل والفساد فى القطاعين . إذ أصبحت واشنطن مليئة بالمتعهدين غير الأمانة ، والمضاربين ، وعناصر الضغط السياسى ، وغيرهم من الطيور الجارحة الانتهازيين ، كما أن بعض الاستغلاليين من أهل الجنوب أثروا على حساب قضيتهم المحتضرة . ولقد أدى انخفاض النقود الورقية فى الجنوب إلى ارتفاع الأسعار بدرجات جنونية ، وقضى بالإفلاس على أعداد كبيرة من الكادحين . أما فى الشمال ، فإن التضخم العلنى شجع على مشروعات تنطوى على مقامرات ومغامرات جامحة ، وساعد على نشوء فريق من أصحاب الملايين الصارخى الغنى . وقصارى القول أنه كان للحرب جانب بالغ السوء . بيد أنها انطوت كذلك على ما لا حصر له من قصص البطولة والوفاء والجهد الإنسانى الخير والتضحية الوطنية .

روبرت إى . لى وأبراهام لينكولن

منحت الحربُ الجنوبَ بطلاً خالداً ، هوروبرت إى . لى ، أكثر القادة فروسية وشهامة . فإن ألمعية قيادته ، وتفانيه في الخدمة ، والروح الإنسانية التي أبداهها طيلة الصراع ، وسماحة نفسه في تقبل الهزيمة وحته شعب الجنوب على أن يغدو شريكاً وفيماً لأعدائه السابقين ، جديرة بأن تثير الإعجاب في كل زمن . وكانت أخطاؤه في جوهرها هي عيوب فضائله بالذات ، إذ كان مفرط المجاملة ، مسرفاً في مراعاة مشاعر الغير بدرجة لم تكن تحمل أعوانه على أن ينصاعوا لإرادته . وإذا كان أبرع في رسم الخطط الحربية منه في إدارة العمليات ، فقد كشف عن حدة ذكاء في التكهن بخطط خصومه ، ودقة في تحليل تقارير المخابرات العسكرية والإفادة منها ، وسلامة حكم في تقدير مقدرة الوحدات العسكرية ومواقعها . وبفضل قدرته على التنظيم ، وانتباهه الواعي للتفاصيل والدقائق ، وحسن رعايته لرجاله ، وجسارته ومهابته ، بث الثقة في نفوس جنوده واكتسب ولاءهم . وكان على غرار واشنطن ذا سيطرة على النفس نادراً ما فقدها ، فإذا فقدها فلفتت رات وجيزة . كان هذا السيد الصالح عظيماً في الانتصار وفي الهزيمة ، في الحرب وفي السلم . وقد كرس نفسه خلال السنوات الخمس ، التي عاشها بعد الصراع ، لإنهاض الجنوب من كبوته ، وللتوفيق بين القطاعين .

أما الشمال ، فقد وهبته الحرب بطلاً أعظم ، هو أبراهام لينكولن . وكانت قلة من الناس هي التي تبينت في الأشهر الأولى من الحرب ، حقيقة تكوين هذا المحامي الخشن المظهر ، القادم من الغرب ، والبعيد عن التكلف وعن التأنق واللباقة ، والذي لم ينل حظاً كبيراً من التعليم . فظل وزير الحرب الثاني في مدة رئاسته إديوين إم . ستانتون ، يصفه فترة بالغوريلا . . وإن جاهر فيما بعد بأن لينكولن كان أعظم قائد للبشر ظهر في أى يوم من الأيام . وكانت الصحف المعادية تصفه بأنه أبله . وشيئاً فشيئاً توصلت الأمة إلى إدراك حكمته العميقة ، القائمة على دراسة دقيقة وتفكير جاد ، وحبه الشديد للحقيقة ، وصبره الذي لا ينضب وما اتسمت به روحه من كرم لا حدود له . وإذا كان قد أبدى تردداً وتذبذباً في بعض اللحظات ، فإن الزمن كان يثبت دائماً أنه كان يعرف كيف ينتظر المصلحة القومية ، وكيف يجمع بين الشدة واللباقة . كان يفهمه للشعب الأمريكي يعرف متى يمسك ارتقاباً لتبلور الشعور العام ، ومتى يقدم في جراءة . كان

٢٦١ الحرب والأشقاء

أعظم الزعماء أمانة ، فلم يلجأ إلى إجراءات غير منصفة قط ، برغم حذقه كسياسي . كان دوماً يهيب بذكاء الناجحين وليس بجهلهم . وكان ميالاً للخير والرفق في تفكيره وأعماله ، فلم ينطق يوماً بكلمة دامغة لشعب الجنوب خلال لوعات الصراع وآلامه جميعاً . كان تواقاً فوق كل الأمور إلى أن يصوغ البلاد في اتحاد ، لا يقوم على القوة وإنما على القلوب ، حتى إنه اقترح وجيوش الاتحاد تظفر بآخر انتصاراتها أن يعوض الجنوب عن عبيده بسخاء . وكانت سياسته الخارجية تنم عن وقار ، ونزاهة ، وحزم . ومع أنه اضطر لاستخدام سلطات لا مثيل لها من قبل ، فإنه كان صادق الإيثار بالحكم الذاتي الديمقراطية ، وكان قديراً على بث الولاء في نفوس شعبه . وإذا كان قد مارس سلطان القياصرة ، فإنه كان يستحوذ على ثقة الجماهير . وقد نمت بلاغته بنمو الحاجة إليها ، حتى إن خطابه بمناسبة جيتسبيرج ، وخطابه الافتتاحي لمدة رئاسته الثانية ، وبعض رسائله تدخل في عداد أبدع ذخائر النشر الإنجليزي . وكان اغتياله في ١٤ أبريل سنة ١٨٦٥ ، ولما ينقض أسبوع على انتصار أبوماتوكس محنة محزنة للمنتصر والمهزوم على السواء . وفي هذا كتب جيمس رسل لورويل :

ما قدر قبل صباح ذلك اليوم المروع من أبريل ، لثل هذه المجموع من الرجال أن تذرف الدمع لوفاة شخص لم يكونوا قد رأوه من قبل ، فكأنها انتزع من حيواتهم بموته وجود يتسم بالود والصدقة ، خلفاً إياهم في مزيد من البرودة والظلام . أبداً ما كان الإطئاب الرئائي في بلاغة تلك النظرات الزاخرة بالعاطفة ، التي كان الناس يتبادلون بها — على غير تعارف — إذا ما التقوا في ذلك اليوم . كانت إنسانيتهم المشتركة قد فقدت واحداً من ذوي قرباها .

تركة الحرب

تمت زعامة قائد جديد ، غير مجرب ، ولا معد إعداداً كافياً — هو أندرو جونسون — كان على الأمة أن تواجه مشكلات إعادة التوافق وإعادة التعمير المضنية . وما كانت المطالبة بالانتقام ، التي انطلقت منتشرة بعد اغتيال لينكولن مباشرة ، لتخفف من صعوبة هذه

٢٦٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

المشكلات . فسرعان مازادت اعتبارات سياسية واقتصادية أنانية من تعقدها منها رغبة الحزب الجمهورى فى استغلال الموقف لترسيخ نفوذه وسلطانه ، ومنها رجاء الجماعات الأنانية لرجال الأعمال فى استخدام الموقف لمصلحتها . فإذا رجال الصناعة الذين كانوا يغفون رفع الرسوم الجمركية ، وحملة الأسهم والسندات الذين كانوا يرتجون الاطمئنان إلى دفع الفوائد بالذهب ، ومنشئو الخطوط الحديدية الذين كانوا يبتغون منحاً من الأرض دون مقابل ، إذا بهم يحتشدون جميعاً وراء الحكومة الجمهورية .

ولقد خلفت الحرب للبلاد تركة جمعت بين النتائج الطيبة والنتائج السيئة . فهى قد أنقذت الاتحاد ومنحته طابعاً لا سبيل للقضاء عليه . بيد أن الاتحاد الذى خرج من البوتقة الملتهبة لم يكن عين الاتحاد الذى أسسه الآباء . لقد ألفت الحرب الرق نهائياً ولكن بالعنف ، وبغير كثير احتفال بصالح الحرية ورفاهية المجتمع الذى كان على القوم أن يعيشوا فيه ، والاقتصاد القومى الذى كان عليهم أن يتشاطروه . ولقد هدمت سلطان أقلية أرستقراطية فى الجنوب ، بيد أنه لم تكن ثمة طبقة أخرى متأهبة للاضطلاع بمسؤوليات الحكومة التى كانت تلك الطبقة تحتكرها إلى حد كبير ، فظل الجنوب جيلاً من الزمن محروماً من قاداته الطبيعيين . كان لينكولن يدعو إلى حكومة للشعب يقيمها الشعب لمصلحة الشعب ، على أنه ما كان بوسع أى مراقب منصف للأحداث أن يستخلص أن الحرب قد ارتقت بالديمقراطية بأى معنى من المعانى المباشرة .

لقد خلفت الحرب كراهية بين الشمال والجنوب استمرت عشرات السنين — الكراهية التى كان لينكولن يأمل فى أن يمحوها ، إذ جعلت كثيرين من الناس أبعد من ذى قبل عن التسامح ، لاسيما فى الشؤون السياسية . فظل الزعماء الغوغائيون من الجمهوريين فى الشمال ، يلوحون أمدأ طويلاً بالقميص الملطخ بالدم ليقننصوا الأصوات ، بمعنى أنهم كانوا يتوسلون بالتحامل المتعصب ضد أنصار الحزب الديمقراطى الجنوبيين . وفى مقابل هذا ، أصبح القطاع المعارض جنوباً صلباً تحت علم الحزب الديمقراطى ، فظل أجيالاً يرفع شكواه ، ويصور فى قالب شاعرى الرق ، ونظام الزراعة ، والحرب . وكان هذا التعصب الحزبى الشديد أسوأ الأمور . فلم يقدر لديمقراطى أن يدخل البيت الأبيض قبل عشرين سنة بعد انتهاء الحرب ، ولا قُدِّرَ لرجل جنوبى المولد أن يصبح رئيساً للجمهورية ، حتى فاز وودرو ويلسون بعد انقضاء خمسين عاماً . ولقد أتاحت الحرب للشمال كتلة من العسكريين الذين خاضوا الحرب ،

٢٦٣ حرب الأشقاء

والذين امتلكوا نفوذاً انتخابياً كبيراً . فسرعان ما شرعوا يطالبون الحكومة بمعاشات ، وأخذ السياسيون المستخذون يهيلون عليهم الأموال العامة في عدم اكتراث مفرط . كذلك كان للصراع أثر سيء على النسيج الاجتماعي والخلقى للبلاد . إذ أنه أبرز طبقة من الرجال كانوا متلهفين على المال والسلطان ، وكانوا أجلاً في أذواقهم وميولهم ، ومجردين من الخلق في تصرفاتهم ، ولقد ظلت الأغلبية الكبرى من الأمريكيين جادين ، كادحين ، ذوى ضمائر واعية ، ووطنية . بيد أن عنصراً مبتذلاً ، وقحاً ، جشعاً برز أكثر جلاء من ذى قبل .

إعادة التنظيم في الجنوب ^(١)

أما وقد هُزم الجنوب ، فقد بات لازماً أن « يعاد تنظيمه » ، أى أن يرد إلى علاقته الصحيحة بالاتحاد . وقد غلبت هذه العملية الشاقة ، التى كانت تجرى في ولايتى تيسى ولويسيانا منذ سنة ١٨٦٢ ، على المسرح السياسى منذ أبوماتوكس حتى سنة ١٨٧٧ . ولو كان قد قدر للينكولن أن يعيش لأصر على سياسته الداعية إلى « ما من أذى نحو أحد ، بل الخير للجميع » ، وعلى رأيه القائل بأن الوضع الدستورى للولايات المنفصلة — سواء كانت من قبل في الاتحاد أو خارجه ، وسواء كانت قد انتحرت انتحاراً قانونياً أو ألغت حقوقها الدستورية — كان « غير صالح كأساس للجدال ، وغير صالح لأى شىء ألبتة ، وإنها هو محض فكرة تجريدية خبيثة » . وغالباً ما كان سيكسب الرأى العام والكونجرس معاً إلى جانب هذا الرأى المنطقى الحميد .

بيد أن أندرو جونسون لم يكن يحظى بنفوذ لينكولن ولا سلطانه . فقد تولى الرئاسة بمصادفة عفوية . إذ كان من أتباع الحزب الديمقراطى سابقاً ووصل إلى رئاسة الحزب الجمهورى ، ولم يكن له في الكونجرس سوى قلة من الأصدقاء ، ولم يكن ذا جاذبية للجماهير بالرغم من ولائه وتشبثه بالنزاهة . وكان قد نشأ في معمرة السياسة الخشنة

(١) Reconstruction : تعنى إعادة البناء والتعمير أو إعادة التنظيم . وهذا المعنى الأخير هو المقصود في دراستنا هذه — المترجم .

والمتخبطة في ولاية تينيسى ، ولم يهبط نفسه قط لظروف الرئاسة المختلفة كل الاختلاف . فلم يكن مسلكه أمام رأى العام مهيباً ، كما كانت علاقاته بالكونجرس متهورة وخالية من الكياسة . فتنازع مع الكونجرس بصدد مشروعات قوانين لمساعدة الزنوج عن طريق مكتب المعتوقين ، ولحمايتهم بقانون الحقوق المدنية ، إذ رأى أنها تشريعات تسطو على سلطان الولايات بشكل غير مناسب . وإذ استدرج إلى الانهزام وتشوه السمعة بفضل مناورات الزعماء المتطرفين في الكونجرس ، فإنه فقد السيطرة على الموقف السياسى ، ونبذت زعامته في انتخابات الكونجرس سنة ١٨٦٦ .

ولقد أحق الكونجرس عناده بصدد إعادة التنظيم ومسائل أخرى ، فتجاوز عن رفضه (مستخدماً حق النقض أو الفيتو) مشروع قانون يحرم عليه فصل الموظفين من بعض المناصب بدون موافقة الكونجرس ، ولعل القانون كان مجافياً للدستور ، وقد حاول الرئيس أن يختبره بأن فصل وزير الحرب في حكومته إدوين ستانتون إذ لم يكن مالياً له . وإزاء هذا ، اتهمه المتطرفون (الراديكاليون) في فبراير سنة ١٨٦٨ « بجرائم من الدرجة الأولى وجنح » ، وحاكموه أمام مجلس الشيوخ ، ولم ينج من الطرد من البيت الأبيض إلا بصوت واحد . ولم ينقذ الكونجرس والبلاد من العواقب الوخيمة لهذا الهجوم المشين على النزاهة الدستورية لرئاسة الجمهورية سوى شجاعة نفر من المستقلين ، مثل ترمبول من إلينوى ، وفيسيندن من ولاية مين .

وكان غرض إعادة التنظيم ، بوجه عام ، ذا ثلاث شعب : كان يرمى أولاً ، وببساطة ، إلى إنهاء شؤون الاتحاد التحالفى ، وإعادة الولايات الجنوبية إلى الاتحاد ، وإصلاح طبيعة تكوين السياسة والإدارة القوميتين وبث الحيوية فيهما . وكان يرمى - ثانياً - إلى تأكيد وضمان الحرية ، بل والحقوق السياسية والمدنية للزنوجى الحديث التحرر . وكان ثمة غرض ثالث ، هو الاحتفاظ وإطالة أجل تشريعات الحرب الأهلية المتعلقة بالرسوم الجمركية ، وأراضى الغرب ، والنظام المصرفى ، ونظام النقد ، والنظام المالى ، والمصالح التى من هذا القبيل ، وذلك بتدعيم مركز الحزب الجمهورى فى الجنوب ، وفى كافة أرجاء الدولة .

وكانت ثمة طريقتان واضحتان لتحقيق هذه الغايات : طريقة دستورية ، والأخرى سياسية . الأولى تضمين الدستور ذاته ضمانات تكفل دوام نتيجة أبوماتوكس والحقوق المدنية والسياسية للزنوج ، وهذا ما كان يتحقق إلا بتعديل الدستور . فأوضح التعديل

٢٦٥ حرب الأشقاء

الرابع عشر ، الذى أقره الكونجرس فى سنة ١٨٦٦ ، أن الزنجى مواطن ، شريطة ألا يكون لأية ولاية حق اقتضاب امتيازات أو حصانات مواطنى الولايات المتحدة ، أو حرمان أى فرد من الحياة أو الحرية أو الملكية بدون الاجراءات القانونية اللازمة ، أو إنكار المساواة فى حماية القوانين على أى فرد . وفى سنة ١٨٦٩ أقر الكونجرس التعديل الخامس عشر ، الذى يكفل حق الانتخاب للمتمتعين بالحرية ، وفوض للكونجرسات المقبلة فرض هذا الحق المكفول بوساطة التشريعات المناسبة .

أما الأسلوب الثانى لتحقيق غايات إعادة التنظيم فكان يتمثل فى تنفيذ هذه الضمانات الدستورية بوساطة تشريع الحقوق المدنية ، وتعزيز الحزب الجمهورى فى الجنوب بحشد أتباع له من الزنوج وباكتساب السيطرة على التجارة والصناعة ، والسكك الحديدية ، وغيرها من المصالح التى كانت ، فى الأيام الغابرة ، ترتبط بحزب الأحرار الجنوبي^(١) .

هل كانت إعادة التنظيم قصاصاً ؟ كان ثمة قدر كبير من الحديث غير المسئول ، عن عقاب الجنوب وزعمائه جزاء الانفصال والحرب ، ولكن العقاب فى ذلك كان أقل من المرتقب فى الواقع . ولقد ظل الجنوبيون زهاء قرن - حتى الآن - يصفون عهد إعادة التنظيم كعهد قسوة تامة ، ويصرون على أن الشمال المنتصر فرض على الجنوب المنهزم صلحاً قرطاجياً . ومع ذلك ، فما من عصيان كبير آخر ، فى العصور الحديثة ، أخذ بعقاب رسمى للمنهزم يقل عما حاق بالجنوب ، أو بأقل مما أصابه من التصرفات المنطوية على قصاص ، وما قدّر لعصاة غير الجنوبيين أن يسمح لهم باستئناف مراكزهم ونفوذهم بعد الهزيمة بمثل هذه السرعة . ونحن إذ نلقى نظرة على القرن الذى مضى من التاريخ ، وننذكر عمليات القمع الوحشى لحركات العصيان فى الصين ، وإسبانيا ، وروسيا ، وكوبا ، لا نجد بداً من أن نستخلص أن مسالك الشمال المظفر نحو الجنوب المنهزم ، كان يتسم فى مجموعه بالسباحة وسعة الأفق .

ولا داعى لأن نتعقب دقائق عمليات إعادة التنظيم بتفصيل . لقد ورث المعتدلون ، بزعامة الرئيس جونسون ، سياسة لينكولن فى شىء من التعثر والتخبط . وكانوا يبتغون تضميد جراح الحرب ، وإقناع الولايات الجنوبية بأن تجرب منح الحقوق

(١) Whig : حزب أنشئ فى الجنوب ، فى سنة ١٨٣٤ لمقاومة الحزب الديمقراطى - المترجم .

٢٦٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

النيابية ، واستعادة ولايات الجنوب إلى الاتحاد . أما الأحرار الراديكاليون ، بزعامة خصوم الأداء لطبقة ملاك الرقيق مثل ثاديوس ستيفنز من بنسلفانيا وبن ويد من أوهايو ، ومفكرين مثاليين من أمثال تشارلس سومنر من ماساشوستس — هؤلاء الراديكاليون لم يكونوا يحفلون كثيراً بالحقوق المدنية والانتخابية للزنج . بل كانوا يقترحون إرجاء العودة الكاملة للجنوب إلى الاتحاد ، إلى الوقت الذى يتبين فيه الجنوبيون أنهم قد تقبلوا عواقب الهزيمة تقبلاً تاماً ، وأنهم لن يقيموا أية عقبات في سبيل تحقيق منح الحقوق للزنج أو أية نواح أخرى من برنامج الأحرار .

ولقد استهمل الرئيس جونسون برنامج المعتدلين ، بأن أصدر بياناً سخياً بالعمو وبإقامة حكومات انتقالية في الولايات الجنوبية . وكان على هذه أن تضع دساتير جديدة وأن تعود بالولايات إلى الأحوال الطبيعية . ومع أن الجنوبيين كانوا على استعداد لقبول الأجزاء التوفيقية المنطوية على استرضاء من هذا البرنامج ، فإنهم أبوا منح الزوج حق الانتخابات أو أية حقوق مدنية ذات قيمة ، بل إنهم — على النقيض — أعادوا سريان تشريعات مهدت لسن قوانين للسود تهدف إلى بقاء الزنجى في مكانه ، أى في مركز ثانوى طبعاً . ورد الكونجرس على هذا بالتعديل الرابع عشر . ورفضت الهيئات الجنوبية هذا التعديل واحدة بعد أخرى . وانضمت بعضها إلى بعض في هذا الصدد . فمن الذى كان له أن يملئ شروط إعادة التنظيم ، الجنوب أو الشمال ؟

وأدى الفوز في انتخابات سنة ١٨٦٦ ، إلى تعزيز تصميم الراديكاليين وعدوانيتهم . فلما اجتمع الكونجرس في الربيع التالى ، محا صفحة إعادة التنظيم وشرع ينشئها من جديد . فأعاد أولاً فرض الحكم العسكرى في الجنوب ، مقسماً ولايات الاتحاد التحالفى السابق إلى خمس مناطق عسكرية تحت رئاسة قادة عسكريين كبار . وكان على هؤلاء القادة العسكريين بدورهم أن يسجلوا الناجحين ذوى الولاء ، من السود والبيض ، الذين يقيمون بعد ذلك حكومات جديدة مستعدة لأن تنفذ ما يطلب الكونجرس . وجعل إعادة الولايات إلى عضوية الاتحاد — أى تخصيص مقاعد لممثليها في الكونجرس — متوقفاً على تصديقها على التعديل الرابع عشر ، ثم على التعديل الخامس عشر الذى حرم على الولايات إعادة حرمان الزنجى من حق الانتخاب لمجرد أنه زنجى .

وسرعان ما انزاحت الحكومات العسكرية لتفسح مكانها لحكومات أعيد تنظيمها

٢٦٧ حرب الأشقاء

ويسيطر عليها ائتلاف من الزنوج الذين حصلوا على الحقوق السياسية حديثاً ، والبيض الجنوبيين المستعدين للتوافق مع الواقع ، والشاليين من « حملة الخرج »^(١) الذين تدفقوا على الجنوب لغايات سياسية أو تجارية لم تكن تتسم في كافة الأوقات بفحص دقيق . ولقد سيطرت هذه الحكومات الراديكالية بدورها على الولايات الجنوبية لمدة متباينة تراوحت بين سنة وست أو سبع سنوات . وكانت ، في حالات كثيرة ، مسرفة ، عديمة الكفاءة ، فاسدة ، كما كانت حال بعض حكومات الولايات الشالية في سنوات إعادة التنظيم كذلك . بيد أنها نفذت إصلاحات مهمة ، فهي لا تستحق القدر والذم اللذين أهيلا عليها .

وما لبث البيض الجنوبيون أن استردوا الحكم الداخلى شيئاً فشيئاً . ويرجع بعض الفضل في هذا إلى العنف والإرهاب . فقد أنشأوا جمعيات سرية مثل كوكلكس كلان التي أجبرت كثيرين من « حملة الخرج » على العودة إلى الشمال ، وأرهبت الزنوج لينصرفوا عن مراكز الانتخاب . كان أسلوباً من السرية والعنف أوجدسابقات خبيثة اتخذت قدوة في السنوات المقبلة . ومن هذه الوسائل أنهم « استعادوا » حكومتهم بأن استردوا السيطرة على الجهاز السياسى القديم — إذ كان البيض من الأهالى هم الذين عرفوا التجربة السياسية وأوتوا المهارات السياسية ، على أية حال . ومن الوسائل كذلك أنهم وجدوا في الشمال أصدقاء وحلفاء ، من الديمقراطيين الذين كانوا يبتغون حزباً متحداً من جديد ، ورجال الأعمال الذين كانوا يسعون لبناء السكك الحديدية وترويج الصناعة ، والمواطنين العاديين الذين كانوا قد سئموا طوال الاضطراب في الجنوب ، وقالوا مع الجنرال جرانت : « فلنحصل على السلام » . وعاد الديمقراطيون الجنوبيون إلى فرض نفوذهم على الولايات ، واحدة إثر أخرى ، حتى لم تبق في أيدي الراديكاليين ، حوالى سنة ١٨٧٦ ، سوى ثلاث ولايات : لويزيانا وفلوريدا وكارولينا الجنوبية .

كانت انتخابات سنة ١٨٧٦ من أحمى المعارك وأحفلها بالاضطرابات في التاريخ الأمريكى . وخرج مرشح الحزب الديمقراطى صمويل تيلدن النيويوركى بأغلبية واضحة من أصوات الشعب وبأغلبية جلية من أصوات المجمع الانتخابى كذلك ، كما

(١) Carpetbaggers : أبناء الشمال الذين لم يكونوا يملكون شيئاً ، وسعوا إلى الجنوب للإفادة من ظروفه ، عقب الحرب الأهلية — المترجم .

بدا من ظاهري النتائج . بيد أن نتائج أربع ولايات كانت موضع نزاع ، ولو أن هذه الأصوات جميعاً ذهبت إلى مرشح الحزب الجمهوري رذرفورد بي . هايز ، لثم انتخابه . ولقد منحت لجنة انتخابية عُينت لتسوية الخلاف هايز جميع الأصوات ، على أساس حزبي صارم ، أفكان الحزب الديمقراطي - وكان من المحتمل أنه أصبح حزب الأغلبية - يقبل ما بدا له بمثابة « سرقة » ؟

وصل زعماء الحزبين في هذه الأزمة إلى تفاهم صريح . إذ انصاع الحزب الديمقراطي لنتائج اللجنة الانتخابية وسمحوا لهايز بأن يصبح رئيساً للجمهورية ، فعليه بدوره أن يقوم بسحب القوات الاتحادية من الجنوب ، وأن يعين في مجلس وزرائه أحد الجنوبيين ، وأن يؤيد اعتمادات كبيرة لبرنامج التحسينات الداخلية في الجنوب . وأدى هايز اليمين ليتولى المنصب ، وما لبثت القوات الاتحادية أن سحبت من الجنوب . وكانت هذه نهاية إعادة التنظيم ، وكانت كذلك - من حيث كافة الأغراض المحلية - نهاية أي مجهود جدي كبير لحماية الزنجر في تمتعه بحقوقه الدستورية . ولقد جلبت « الصفقة » السلام - أو الهدوء - على الأمور السياسية الأمريكية ، ولكنها شلت تقدم الزواج مدة ثلاثة أرباع القرن ، وأسلمت الجنوب إلى الحزب الديمقراطي .

ونحن إذ نلقى نظرة على فترة الصراع المدني والقلاقل ، بين عامي ١٨٥٠ و١٨٧٧ ، يبدو لنا أن الفترة تكاد تكون مأساة مفعجة خالصة . فلو أن إلغاء الرق جرى تدريجاً ، مع التعويض المناسب للملاك العبيد ، كما ظل لينكولن يرجو أمداً طويلاً ، لسارت البلاد قدماً ، وبتوفيق كبير جداً . كان هذا كفيلاً بإتاحة الوقت لتعليم الزواج والبيض ليؤدوا خطواتهم الجديدة نسبياً في المجتمع ، ولأبقى للأمة الستائة الألف من الشباب الموفور الفتوة من سكان كان تعدادهم ٣١ مليوناً الذين فقدوا حياتهم في الصراع ، وملايين الأطفال الذين كانوا خليقين بأن ينجبونهم ، ولأعفى الجنوب من الخراب الهائل ، ولأنقد القطاعين معاً من النتائج المثيرة للمسالك الخشنة ، والتي تكشف بجلاء عن « العهد ذي الطلاء الذهبي » ، عهد السعي وراء المال ، والسوقية الفظة ، في أعقاب الحرب . ومع ذلك فليس ثمة ما يدعو لافتراض أنه كان من الممكن تنفيذ البرنامج . فما كان الجنوب ، في أي زمن ، على استعداد لأن يتخلل عن الرق بهدوء وسلام ، وفي هذا الصدد يحسن تذكر أن ديلاوير ظلت حتى فبراير ١٨٦٥ ، تصوت ضد عتق العبيد مقابل التعويضات .

٢٦٩ حرب الأشقاء

على أن قائمة الحساب تبين ، برغم المواد السالف ذكرها ، أرصدة دائنة . فلإن العاصفة وحدث الأمة ووصلت بينها في كيان كلى عظيم بدرجة ما كانت لتصل إليها أية عملية تدريجية بطيئة . فمن الناحية الاجتماعية ، أصبح الجنوب أكثر قربى وتجانساً مع الشمال . ولقد أدت الحرب الكثير لتعميق ونضج الطابع القومى ، وأصبح الأدب والتعليم أكثر نضجاً ، من نواح كثيرة . كذلك أتاح الصراع للبلاد مجموعة من الذكريات المثيرة والمأسوية ، التى تهز مشاعره وتسمو بخياله ويظل يذكرها — قروناً فى المستقبل — فى انبهار . . كإطلاق النيران على فورت سومتر وإنزال السفينتين ميريماك ومونيتور ، واندفاع ستونوول جاكسون الذى لا يقاوم ، محتاحاً شيناندواه مخلفاً وراءه سلسلة من الجيوش الاتحادية المهزومة ، وسفن المدفعية تنطلق فى نهر الميسيسيبى بعد فيكسبيرج وسط عاصفة من الطلقات والقذائف ، والصراع المميت بين جيش بيكيت التحالفى الجنوبى والخط الذى أقامته قوات هانكوك عند مرتفعات سيمترى ريدج ، واجتياح المرتفعات شالى تشاتانوجا بقوات لم يقو على إيقافها شيء ، حتى أوامر جرانت ، وهى بطولة فاقت بالاكلافا ، والبسالة المستميتة التى اتسمت بها قوات هود المقاتلة الممزقة فى انقضاضها على صفوف الاتحاد عند فرانكلين ، فلم تنقض ساعتان حتى كان ستة آلاف منهم بين قتلى وجرحى ، والسفينة كيرسارج التى ظلت تحوم حول الألباما حتى غرقت تحت الأمواج ، ولى بسيفه المرصع بالجواهر وجرانت فى زى الجندى العادى وهما يتصافحان فى أبوماتوكس ، ولينكولن وهو يسير فى شوارع ريتشموند وقد خلعت عليها الحرائق سواداً ، والجناسة التى شيعت بها رفات الرئيس الشهيد على طول ألف ميل ، والاستعراض الضخم الذى تتابعت فيه صفوف لا نهاية لها من الجيشين الشرقى والغربى فى طريق بنسلفانيا آفنىو فى المشهد الختامى للحرب . كانت ملحمة بطولية وستظل فى الذاكرة ما ظل الناس يعتزون بالماضى .



الفصل ١٣

بزوغ أمريكا الحديثة

أثر الحرب

أحدثت الحرب الأهلية ثورة في المجتمع والاقتصاد الأمريكيين ، سواء في الشمال أو الجنوب . ومع أن جذور أمريكا الحديثة تتغلغل في السنوات السابقة على الحرب ، فإن بوسعنا أن نرجع بزوغها الواقعي إلى الحرب ذاتها . فإن هذا الصراع أتاح للصناعة تنشيطاً هائلاً ، وعجل استغلال الموارد الطبيعية ، وتنمية التصنيع الواسع النطاق ، ونهضة الأعمال المصرفية الاستثمارية ، واتساع التجارة الخارجية ، ودفع إلى المقدمة بجيل جديد من « قادة الصناعة » و« أصحاب رأس المال » . ولقد زاد من نشاط إنشاء الطرق الحديدية وشبكات البرق بدرجة هائلة ، وبشر بعصر السكك الحديدية ، كما أنه شجع المخترعات وأجهزة توفير العمال ، وشهد تطبيق هذه الأجهزة في الزراعة وفي الصناعة ، على حد سواء ، على نطاق واسع . ولقد فتح مساحات جديدة شاسعة للزراعة والرعي ، وأوجد أسواقاً جديدة للإنتاج الزراعي ، واستهل الثورة الزراعية ومشكلة الزراعة معاً . لذلك خلق ظروفاً مواتية لنمو المدن ، وأتاح عملاً لمئات الآلاف من المهاجرين الذين سرعان ما تدفقوا على العالم الجديد . ولقد قضت الهزيمة — في

الجنوب - على طبقة أصحاب المزارع الكبيرة إلى درجة واسعة ، وحررت الزنج ، وأحدثت ثورة في الاقتصاد والزراعة ، ودفعت إلى المقدمة بطبقة وسطى جديدة ، وأرست أسس ذلك الجنوب الجديد الذى كان مقدراً له أن يظهر في الجيل التالى . أما في الشمال ، فإن النزاع فتح ميادين جديدة للاستثمار والمضاربات ، وخلق مجموعة من أغنياء الحرب ، وعجل سير تركيز السيطرة على الموارد والصناعة والمال في المراكز الحضرية (المدن) الكبرى ، وتبعية الجنوب والغرب للشمال الشرقى أى أصبحا في الدرجة الثانية بالنسبة إليه ، وخلق فوارق طبقية جديدة تحل محل القديمة .

ولقد تشكل نمط مجتمعنا واقتصادنا الراهنين في الجيل الذى أعقب أبوماتوكس . وكان النمو هو الحقيقة الوحيدة الأكثر اجتذاباً للانتباه . . النمو في المساحة ، وفي الأعداد ، وفي الثروة ، وفي النفوذ والسلطان ، وفي تعقد المجتمع ، وفي النضوج الاقتصادي . ولقد رسمت الأقسام السياسية للجمهورية في أوضاعها النهائية ، وضُمت اثنتا عشرة ولاية جديدة إلى عضوية الاتحاد ، وإقامة إمبراطورية أمريكية . وفي فترة أربعين عاماً ازداد السكان من واحد وثلاثين مليوناً إلى ستة وسبعين مليوناً ، وتدفق خمسة عشر مليوناً من المهاجرين - منهم نسبة مطردة الازدياد من أوربا الجنوبية والشرقية - على أرض الميعاد ، فتضاعف أكثر من مرة حجم مدن كبيرة مثل نيويورك ، وشيكاغو ، وبيتسبيرج ، وكليفلاند ، وديترويت . وفي حملات سريعة التعاقب أزيح الهنود من مهابطهم في سهول المرتفعات وفي الجبال والوديان النائية وسيقوا إلى مناطق مغلقة ، ونهضت مملكة التعدين وتربية الماشية ثم سقطتا ، وعمر الغرب بالناس وزرعت أراضيه ، ولم تحن نهاية القرن حتى كانت مناطق حدود العمران قد عفت وتلاشت . وأدت المكتشفات الشاسعة من الحديد الخام ، والنحاس ، والنفط إلى قيام عشرات الصناعات الكبيرة ، ونمت المشروعات التجارية والصناعية الصغيرة فأصبحت كبيرة ، وغدت اتحادات الحرفيين والتجار هي الأدوات الفعالة للاقتصاد القومى الجديد ، والمؤنقات أو الاتحادات الاحتكارية والشركات التى تمتلك أسهم شركات أخرى لتسيطر عليها هي الشكل التنظيمى المميز لهذا الاقتصاد . وزحفت البيوت المصرفية الكبرى ، كبيت مورجان ، في هدوء لتحتل مركزاً مهيماً على الاقتصاد القومى . واكتملت شبكة الطرق الحديدية تقريباً ، فازداد طول خطوطها من ثلاثين ألفاً إلى مائتى ألف ميل ، وأتاحت للبلاد أعظم شبكة للسكك الحديدية في أية دولة في العالم . وازدادت عضوية

٢٧٣ بزوغ أمريكا الحديثة

المنظمات العمالية ، التي كانت قليلة وضعيفة قبل الحرب ، ووطدت مكانتها في النظام الاقتصادي ، وأصبحت المنازعات الصناعية — التي كانت حتى ذلك الحين صغيرة ومتباعدة — منظمة وقوية التهديد . وصارت الجمهورية الصغيرة دولة كبرى عالمية ، ممتدة إلى البحر الكاريبي والمحيط الهادئ ، في حين ابتكرت صناعاتها التواقفة إلى الأسواق وأصحاب مصارفها المتحمسون للاستثمارات ، أساليب للإمبريالية الاقتصادية . وما قدر لجيل آخر في التاريخ الأمريكي أن شهد تغيرات بهذا التعاقب السريع أو الثوري التي اتسمت بها تلك التغيرات التي حولت جمهورية لينكولن إلى إمبراطورية ماكينلي وروزفلت الحضرية الصناعية .

وواجهت مجموعات جديدة من المشكلات المعقدة والمحيرة شعباً أمريكياً بلغ من قلة الخبرة بحيث لم يكن يفهمها ، ومن الانشغال بحيث لم يكن يوليها عناية تذكر . وكانت أكثر هذه المشكلات إلحاحاً هي المتعلقة بإعادة توزيع الثروة ، والسيطرة على تجمعات رأس المال الهائلة ذات النفوذ ، والحفاظ على الديمقراطية السياسية تحت وطأة اقتصاد غير ديمقراطي ، والبطالة والقلق العالمية الواسعة النطاق ، واكتظاظ المدن واستيعاب ذوى المولد الأجنبي ، وتضاؤل الدخل الزراعي مع تزايد الملكية الزراعية ، وصيانة الموارد الطبيعية التي تستنزف بسرعة نتيجة الاستغلال دون اكتراث ، ومسئوليات حكم مناطق فيها وراء البحار والسياسة العالمية ، وتنسيق النظم السياسية — التي شكلت وفقاً لحاجات جمهورية زراعية صغيرة — لتوافق المطالب الداهية لدولة صناعية كبرى .

تحويل الجنوب

كان وقع الحرب والهزيمة على الجنوب سريعاً مباشراً جائحاً ، فصافح أبصار المحاربين الجنوبيين وهم يعودون إلى ديارهم في ثاقل وإعياء — بعد ناشفيل وأبوماتوكس — خراب لا مثيل له في التاريخ الأمريكي . كانت الجيوش المتقاتلة قد أشاعت الدمار في أصقاع كبيرة من فيرجينيا وتينيسى ، وكان شيرمان قد شق رقعة عرضها ستون ميلاً في جورجيا وكارولينا الجنوبية ، كما اجتاحت هنتر وشريدان وادي فيرجينيا الخصب ، وأصبحت مساحات واسعة من شمال ألاباما ، وولاية مسيسيبي ، وأركنساس أطلالاً . وقد أتت

٢٧٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

الحرائق على مدن كانت مزدهرة ، مثل ريتشموند وشارلستون وكولبيا وأتلانتا ، أو هدمها قصف المدافع . ولقد هدمت جسور ، وأهملت طرق ، ونزعت مئات الأميال من قضبان السكك الحديدية ، وأتلفت العربات والمركبات وأنزل الدمار بأرصفت الموانئ وأحواض السفن . وباتت الحياة الاقتصادية العادية شبه مشلولة ، والعملات النقدية للتحالف الجنوبي غير ذات قيمة ، فليس من عملات ، ذات شأن إلا ما كان مخزنًا في الخفاء ، أوجلبه الجيش الاتحادى إلى البلاد المهزومة . ولقد أغلقت المصارف أبوابها . وعجزت شركات التأمين عن الوفاء بالتزاماتها ، وأفلست المصانع والمشروعات التجارية ، وأحرقت السلطات العسكرية شطراً كبيراً من القطن الذى كان مكسباً فى مخازن الموانئ أو صادرتة .

وكانت أجهزة الحكم المدنى قد تلاشت تقريباً ، فلم تكن سلطة ذات فاعلية لتحصيل الضرائب ، أو إدارة المدارس ، أو صيانة الطرق ، أو فرض القانون على النهابين والعصابات المسلحة ممن أخذوا يغيرون على الريف . وكانت الكنائس قد أحرقت والأبرشيات قد تفرقت ، والكنائس قد فقدت موارد المنح المالية ، كما قضى على مكنتاتها ومعاملها حتى إن أمين مكتبة جامعة ألاباما لم يستطع أن ينقذ من الحريق سوى كتاب واحد فقط . . هو « القرآن » ولقد أغلقت أبواب معظم المدارس العامة ، وتوقف التعليم تماماً .

وكانت الزراعة هى الأخرى فى حال تدعو إلى اليأس . . فقد هُجرت آلاف المزارع ، وهدمت الأسوار ونمت الأعشاب البرية فى القنوات وتصدعت السدود والخزانات المائية ، ونفقت الخيل والماشية أوسرقت وصدئت المحارث فى الحقول ، واختل نظام العمالة . ولقد قضى على إنتاج الأرز فى كارولينا قضاء مبرماً ، وغمرت المياه الملحة الحقول ، وأتلف إنتاج السكر فى لويزيانا . وكانت مساحة الأرض المزروعة تبغاً فى فيرجينيا تقل فى سنة ١٨٧٠ عما كانت عليه فى سنة ١٨٦٠ بمليونى دونم ، ولم يقدر للجنوب أن ينتج محصولاً من القطن يعادل عام الانفصال إلا فى سنة ١٨٧٩ . ولقد استشرت المجاعة فى أجزاء كبيرة من الجنوب ، خلال شتاء ١٨٦٥ ، فكان البيض والسود على السواء يتلقون المعونات من الجيش الاتحادى أو مكتب المعتوقين (المحررين) الحديث الإنشاء . وفى هذا كتب الشاعر الجنوبى سيدنى لانير : « كأنها كانت الحياة بأسرها تحتضر » .

٢٧٥ بزوغ أمريكا الحديثة

ولقد جلبت إعادة التنظيم بلايا كثيرة تكاد تعادل أعباء الحرب ثقلاً . ولقد تبدد دُين التحالف الجنوبي ، وتبدد معه — بطبيعة الحال — ما ساهم به الجنوبيون من أموال لأجل قضيتهم ، بيد أنه كان من المرتقب أن يتحمل الجنوب نصيبه من الدين القومي ومن النفقات الجارية للحكومة القومية ، فضلاً عن أنه فرضت عليه رسوم ضريبية فادحة على القطن . ولعل هذا لم يكن غبناً أو إيهاباً ، بيد أن هذا لا ينطبق على ديون الولايات والحكومات المحلية وضرائبها . ولقد بددت ملايين الدولارات في البذخ وأوجه الإسراف أثناء عهد الخُرج ، كما سرقت ملايين سرقة صريحة ، وأنفقت ملايين أخرى دون اكتراث على مشروعات للسكك الحديدية ومشروعات للتجارة محفوفة بالشبهات ، ونادراً ما عادت بعشرة في المائة عن كل دولار . ولقد تضاءلت الثروة في بعض الأرجاء بما يزيد على النصف ، ولكن الضرائب والديون تصاعدت تصاعداً فاحشاً . فأدى عهدا الخُرج والمتطرفين إلى زيادة الدين العام على كارولينا الجنوبية من خمسة ملايين إلى تسعة وعشرين مليوناً ، ودين أركنساس من ثلاثة إلى خمسة عشر ، ودين لويزيانا من أحد عشر إلى ما يقرب من خمسين مليوناً .

وما ينبغي أن يحملنا هذا كله على تعجل الحكم على حكومات إعادة التنظيم . فإن مهمة إصلاح ما خربته الحرب كانت باهظة التكاليف لا محالة ، وكانت معظم الممتلكات التي اعتادت تحمل عبء الضرائب من قبل — من طرق حديدية ومصارف وصناعات — قد ولت ، ومن ثم فإن عبء الضرائب أناخ بأكمله على الأرض . وأصبح تجديد المرافق العامة ، التي طال إهمالها في الجنوب ، يزيد من المطالب على الحكومات ، فعلى سبيل المثال ، كانت هذه أول حكومات سعت إلى توفير التعليم العام لجميع الصغار في الولاية . وما من شك في أن الفساد وعدم الكفاءة كانا مسئولين عن شطر كبير من الضرائب العالية والديون ، ولكن هذا أيضاً كان شأن ما اعتادته حكومات « المخلص » الأبيض من ضمان سنوات مشروعات السكك الحديدية وغيرها من المشروعات التجارية . ثم إن الفساد كان موجوداً لدى العنصرين ، ولدى الفريقين ، وفي كل الطبقات .

كذلك لا ينبغي أن نغفل تقدير الناحية البناءة في إعادة التنظيم التقدمية (الراديكالية) : إنشاء المدارس العامة ، والمؤسسات الخيرية والإنسانية ، وتشجيع الهجرة ، وتوزيع الأراضي على الزوج ، والخطوات — التي قدراها الإحباط — نحو

تحقيق الديمقراطية السياسية . وبقي للحكومات التي جاءت فيما بعد أن تشرع فيما تركته الحكومات التقدمية ، فتحاول ضمان قدر أكبر من المساواة والعدالة لجميع عناصر المجتمع الجنوبي .

وتحول الجنوب بكل همة إلى عملية التعمير المادى ، وإلى إصلاح اقتصاده الزراعى ، وإعادة نظم ومؤسسات المجتمع المتمدين . وقد قال هنرى جريدى ، من كتاب جورجيا ، وهو يستعيد الذكرى فيما بعد : « كما أن الدمار لم يكن يوماً بمثل هذه الفداحة ، فكذلك لم يكن التجديد يوماً بمثل هذه السرعة » . وقامت ريتشموند وتشارلستون وكولمبيا من بين الأطلال ، ولم تنقض ستة أشهر بعد نهاية الحرب ، حتى روى زائر المدينة أتلانتا أن مدينة جديدة كانت تنبثق بسرعة مذهلة . وأعيد مد الخطوط الحديدية ، ومدت طرق نحو الجنوب الغربى ، وأعيد إنشاء الجسور وتجديد السدود والخزانات ، وأخذت السفن ترسو من جديد فى مرافئ نورفولك وتشارلستون وموبيل ، وشرع تجار الريف وصغار التجار - ثم المصارف وشركات التأمين عندما حانت الظروف - فى العمل .

ولقد أعيد فتح المصانع ، واستُدريج رأس المال إلى صناعات جديدة بمعدلات فاحشة للفائدة . ووفرت المنشآت الشاسعة من خشب الصنوبر الأبيض والأصفر أساساً لازدهار صناعة قطع الأخشاب . ولقد أعجب التبغ الذى كان يعده واشنطن ديوك جنود الاتحاد الذين مروا بديرهام ، بولاية كارولينا الشمالية ، فكتبوا من ديارهم يطلبون مزيداً منه ، وبذلك توطد مركز صناعة التبغ الكبيرة فى كارولينا الشمالية ، ولم تحن سنة ١٨٨٨ حتى كانت ديرهام تملك أكبر مصنع فى العالم ، وكانت تصدر عشرة ملايين من أرطال التبغ فى كل عام . وانتشرت مطاحن القمح والغلال لتوفير الاحتياجات المحلية ، كما أعيد تعزيز صناعة الأسمدة التى لا غنى عنها لإنتاج القطن واكتشفت مستودعات الفحم والحديد المحلية فى تينيسى وشمال ألاباما . وفى عقدين من الزمن أصبحت بيرمينجهام ، التى كانت حقلاً للقطن فى سنة ١٨٧٠ ، مدينة تضم خمسين ألف نسمة ، ومركزاً لصناعة الحديد النامية ، وملتقى لستة خطوط حديدية رئيسية . ولم يحن عام ١٨٩٠ حتى كان الجنوب يُنتج خمس صناعة الحديد الخام المصهور فى الدولة بأسرها . وتطورت مدن أخرى ، مثل تشاتانوجا وديرهام ووينستون - سالم ودانفيل إلى مدن صناعية مطردة النمو .

٢٧٧ بزوغ أمريكا الحديثة

وفي الجزء الساحلى من الجنوب كانت صناعة النسيج مزدهرة منذ فتح وليم جريج مصانع القطن فى جرانيتفيل ، بكارولينا الجنوبية فى سنة ١٨٤٦ . بيد أنها اختلت تماماً ، كمعظم الصناعات الأخرى ، بفضل الحرب ، ثم عادت للازدهار مرة أخرى ، فى العقد الثامن من القرن ، مستغلة كل الاستغلال اجتماع عوامل الأيدى العاملة الرخيصة ، وقرب موارد الطاقة المتولدة من القوى المائية ، وسهولة الحصول على المواد الأولية . وانبثت على طول الأجزاء الداخلية من ولايتى كارولينا وولاية جورجيا عشرات المصانع الصغيرة الممولة برأس المال المحلى إلى حد كبير . فكان فى كارولينا الجنوبية ، حوالى سنة ١٨٩٠ ، نصف مليون مغزل ، وكان الجنوب بأكمله يفخر بامتلاك أربعة أمثال هذا العدد تقريباً . ودب القلق إلى رجال الصناعة فى نيوجانلاندر من منافسة هذا القطاع ، كذلك لم تحن سنة ١٨٩٠ حتى بدت فى الجنوب بوادر مشكلة عمالية كان مقدراً لها أن تنمو فى الخطورة على مر السنين .

ولقد ظلت صناعة النسيج فى الجنوب محلية ، واتخذت — بحكم الضرورة إلى حد كبير — طابعاً إقطاعياً عجيباً . فإن ما بدا أنه أجور مرتفعة وعمل ثابت اجتذب عائلات بأكملها فانتقلت من المزارع المخربة إلى أقرب القرى التى قامت فيها مصانع ، مجتلبة معها ما اكتسبه فى الزراعة من عادات وميول فى العمل . فكانت تتقبل ساعات العمل الطويلة كأمر مسلم به ، وتتقبل اشتراك الأسرة بأكملها — نساء وأطفالاً إلى جانب الرجال — فى العمل كأمر طبيعى كذلك . وكانت قرى المصانع هذه ، وهى تنمو على مشارف المدن ، ملكاً للذين أنشأوا المصانع ، وتحت سيطرتهم . فكان العمال يقطنون فى بيوت الشركة ، ويترددون على كنائس ومدارس الشركة ، ويتساعون غذاءهم وكساءهم من متاجر الشركة ، ويولدون على أيدى أطباء الشركة ، ويدفنون برعاية قساوسة الشركة فى مقبرة الشركة . فكان هذا نوعاً جديداً من الإقطاع . ومع أنه أفلح فى أعوامه الباكرة ، فإنه كان مثقلاً بالمتاعب للمستقبل .

على أن الطابع الريفى والزراعى ظل غالباً على الجنوب ، بالرغم من نهضة صناعات الحديد وقطع الأخشاب والتبغ والنسيج . فلم يكن يملك أن يفخر بمدينة واحدة تضم مائة ألف نسمة عدا نيواورليانز ، قبل سنة ١٩٠٠ . بل إن صناعاته كانت مرتبطة بالزراعة ارتباطاً وثيقاً ، وكان إنتاج التبغ والنسيج كبيراً ، بيد أن القيمة الحقيقية التى أضافتها الصناعة كانت صغيرة نسبياً . ولقد مكثت الغالبية الكبرى من سكان

الجنوب في مزارعهم ، ينتجون المحصولات الصالحة للتصدير . بيد أن الزراعة عانت الارتباك هي الأخرى أثناء الحرب ، وكان لزاماً أن تمر بفترة إعادة تنظيم .

وحل الفقر بأصحاب المزارع الكبرى إلى حد كبير من جراء الحرب والتعمير . فلقد انهارت القوى العاملة لديهم بفضل تبدد ما كانوا يستثمرون من رأس مال في العبيد ، والارتفاع المطرد للضرائب ، والنفقات العامة ، فاضطر أغلبهم إلى تقسيم مزارعهم وبيع بعض أجزائها ، أو إلى تأجيرها تحت وطأة الضرائب والديون المستحقة الأداء . ونجم عن ذلك ثورة جائحة في ملكية الأرض ، وإزاء عرض الأراضي الجيدة للبيع بسعر ثلاثة أو أربعة دولارات للدونم ، فإن الآلاف من صغار الزراع وسعوا ملكياتهم ، كما تمكن عشرات الآلاف من فقراء البيض ، والمحرّرين من السجناء الذين قدموا إلى البلاد ليعملوا لقاء حريتهم ، والميكانيكيين الذين لم يكونوا يملكون أرضاً ، وأصحاب الحوانيت — تمكن هؤلاء من إشباع جوعهم إلى الأرض وأصبحوا من أصحاب الأراضي . ففي سنة ١٨٦٠ كان في كارولينا الجنوبية حوالي ٣٣٠٠٠ مزرعة ، فارتفع هذا الرقم في عشرين سنة إلى ٩٤٠٠٠ . وفي سنة ١٨٦٠ كان عدد المزارع التي تقل الواحدة عن عشر دونات ، في ولاية المسيسيبي ، دون الستائة . وإن هي إلا عشر سنوات حتى ازداد العدد إلى أكثر من ١١٠٠٠ وهبط عدد المزارع التي تصل مساحة كل منها ألف فدان أو أكثر ، في كافة أرجاء الجنوب بما يتجاوز النصف ، وهبط متوسط حجم المزارع من ٣٣٥ إلى ١٥٣ دونما ، في بحر عشرين عاماً . وفي الوقت ذاته ، كان الإقبال كبيراً على الأراضي الخصبة الجديدة في أركنساس وتكساس ، وسرعان ما فتحت أوكلاهوما أبوابها للمستوطنين . فتوطدت مكانة القطن — ملك المحصولات — من جديد ، واتسعت إمبراطوريته ، بعد أن هوى زمناً عن عرشه .

ولإزاء انقضاء الرق ، بات لزاماً وضع نظام بديل للعمالة . ولم يكن أصحاب المزارع يمتلكون نقوداً لدفع الأجور ولا كان الزنوج يمتلكون نقوداً لاستئجار مزارع ما . فظهر أسلوب ثالث بحكم الضرورة ، يحدثنا عن منشئه عدد لا حصر له من السير الذاتية والمذكرات ، فعندما انتهت الحرب دعا أصحاب المزارع عبيدهم السابقين ، وأخبروهم بأنهم قد أصبحوا أحراراً ، وطلبوا إليهم البقاء للعمل في مكانهم القديم . ولم يكن ثمة مجال لأجور ما ، ولكن صاحب المزرعة كان على استعداد لأن يقتسم المحصول مع عماله إذا ما نضج . وكان هذا أصل المحاصصة أو المؤاجرة . ويمضى الزمن انتظمت وأصبحت

٢٧٩ بزوغ أمريكا الحديثة

لها لوائجها الخاصة . وكان أصحاب المزارع يمدون مؤاجريهم بالكوخ وبالأرض والأدوات والسماد ويغسل ، ويضطلعون بحاجاتهم المعيشية إلى أن يتم حصاد المحصول . وكان المزارع بالحصة يقدم العمل ، ويتلقى في مقابلة ثلث المحصول وبدأ النظام موقفاً وملائماً فسرعان ما امتد فشمّل مؤاجرين من البيض إلى جانب السود .

والواقع أن خطة المحاصصة هذه ، التي تغلبت على موقف كان مستحيلاً ، أدت إلى مساوئ كثيرة . فإن صغار المزارعين المعتمدين على محصولات التصدير ، كان يتردون في الديون عادة فأصبحوا أشبه بالمملوكين المرهونين لأصحاب المزارع الكبيرة والتجار الذين كانوا يمدونهم بحاجاتهم . وإذا لم يكونوا يمتلكون ما يرهنون ضماناً لما يتلقون من إمدادات ، فإنهم كانوا يرهنون محصولهم قبل أن يكتمل نضجه ، وبهذا نشأ نظام الحجز على المحصول المشبط للهمم . إذ أن هذا النظام استل من المزارع العادى المستأجر للأرض أى اهتمام صادق بمحصوله ، وشجع على الزراعة المتخلفة وغير العلمية ، وأصبح أداة يستغلها الدائنون من أصحاب المزارع والتجار ، فآثار ضغينة المستأجرين . ولما كان القطن المحصول الأوحى الذى بدأ استثماراً مأموناً ، فإن أصحاب المزارع أوالتجار الدائنين كانوا يصرون على أن يزرع المستأجرين القطن دون أى شئ آخر ، وبهذا حالوا دون التنوع ، وقضوا على قلب الجنوب بنظام اقتصادى يستند إلى محصول واحد . وخلال جيل واحد ، خبا الأمل فى إعادة توزيع الأرض على نطاق واسع وقيام طبقة وسطى راسخة من صغار الملاك . ففى بعض أرجاء الجنوب ، كان سبعون أو ثمانون فى المائة من المزارعين مؤاجرين ، وكان ثمة حجز واحد على المحصول — فى المتوسط — لكل مزرعة . فكان الجنوب فى سنة ١٩٠٠ أقل كفاية ذاتية مما كان فى سنة ١٨٦٠ ، وكانت الثروة الزراعية فى كثير من القطاعات قد انهارت على مر السنين . ولم يتحول الجنوب الزراعى بخطى ثابتة نحو التحسن إلا بعد أن دخله التعليم الزراعى وتحسين المرافق الصحية العامة بفضل مؤسسة روكفلر وقانون سميث — ليفر .

كذلك تبين الزنوج أنهم ليسوا أحراراً فعلاً ، وإن كانوا أحراراً قانوناً . فإن الكونجرس الذى سن تشريعات تحريرهم ، سرعان ما تركهم لسادتهم السابقين ، ولم يفعل شيئاً بعد سنة ١٨٧٧ لتيسير الحقوق السياسية أو المساواة الاجتماعية أو الأمن الاقتصادى لهم ، بل بدد جهوده فى مهمة غير ذات جدوى ، بدلاً من ذلك ، هى كفالة المساواة السياسية لهم . كان السود أشبه بلاجئين فى بلاد عاثت فيها الحرب فساداً ، لمدة

عام أو اثنين بعد الحرب . فانطلق آلاف منهم في الطرق هائمين على غير هدى من مقاطعة إلى مقاطعة ، ولا مغالاة في القول بأن عدد العائلات التي تفككت كان في العام الأول للحرية أكثر منه في أى عام من أعوام الرق . ولقد مات آلاف منهم بالمرض والجوع ، وأراحوا ضحايا للعنف . وأخيراً ، عادت الأمور إلى الانتظام بفضل جهود الجنوبيين الأكثر وعياً بالمسئولية ، وبالتعاون مع السلطات الاتحادية ، وعندما وجد الزوج أنه لم يكن مقدراً لهم أن يحصلوا على الأربعين دونماً وبغلاً التي كانوا يتشبثون بتخيل أنهم وعدوا بها ، عادوا إلى الأمر الوحيد الذي كانوا على دراية به — إلى العمل في الزراعة .

ولقد شق بعض من أكثرهم إقداماً طريقه إلى الشمال أو إلى المدن الصناعية الناهضة في الجنوب ، بيد أن الأغلبية الكبرى منهم تحولوا إلى مزارعين بالحصة ، وفي هذه الحال وجدوا أن الحياة بالنسبة لهم استمرت على ما كانت عليه قبل الحرب . فكانوا يحرثون الأرض ويجمعون القطن ، في مزارع البيض ، ويعيشون الحياة التي ألفوها دائماً في عين الأكواخ الرثة ، ويأكلون عين الغذاء المؤلف من الذرة والملفوف (الكرنب) ولحم الخنزير المملح ، ويرتدون عين الأقمصة المهلهلة وال سراويل الزرقاء الحائلة . ولم يحاولوا أن يدلوا بأصواتهم في الانتخابات أو أن يرسلوا أطفالهم إلى مدارس البيض أو أن يتجاوزوا حدودهم اجتماعياً . . أو أنهم سرعان ما كانوا يتلقون درساً إذا حاولوا .

وكان أكثر التطورات تبشيراً بالخير في الجنوب ، في هذا الجيل الذي أعقب الحرب ، هو ظهور طبقة وسطى من صغار المزارعين المستقلين ، وأصحاب الحوانيت ، ورجال الأعمال ، والتجار ، وأصحاب المصارف ، ورجال الصناعة ، وأصحاب المهن . كان هؤلاء قد تخلصوا من كابوس الرق ، فحرروا أنفسهم ، ولو جزئياً ، من الكابوس النفسى الممثل في « القضية المضيق » . كانوا على استعداد لأن ينسوا الجنوب المتسم بضوء القمر وأشجار الجاردينيا ، وأن يستعيدوا ذكرى جيتسبيرج والفيافي بفخر وليس بمرارة . وقد أقبلوا على إدماج اقتصاد الجنوب في الاقتصاد القومى ، وإعادة بناء نظمهم الاجتماعية المشتمة . فأعيد فتح الكليات ، وجعل روبرت إى . لى من نفسه قدوة للجنوب بأسره ، إذ تولى رئاسة كلية واشنطن الياقة في فيرجينيا . وأضفت الولايات الصبغة الديمقراطية على نظمها التعليمية ، إذ تكفلت ، على الورق على الأقل ، بتعميم التعليم العام المجانى في الصفوف الابتدائية ، وإن كان التعليم الثانوى قد قصر

٢٨١ بزوغ أمريكا الحديثة

على البيض إلى حد كبير ، وأعيد إنشاء الكنائس ، وسرعان ما أصبحت تزدهر بازدياد رعاياها عما كانوا قبل الحرب ، نظراً لنمو الأبرشيات الزنجية . وكان ثمة خطوات تقدم ملحوظة في التشريعات الاجتماعية ، فيما يتعلق بالفقراء والعجزة ، كما كانت ثمة اتجاهات واهنة نحو التشريعات العمالية . وعاد الجنوب يدخل نفسه في النسيج القومي مرة أخرى .

الثورة في الشمال

بينما كان الجنوب يعيد بناء اقتصاده في عناء ، ويكيف نفسه وفقاً للنظم الصناعية والزراعية ، مضى الشمال في تقدمه بحمية وهمية . وكانت الصناعة والدوائر المالية في الشمال أكثر من أية طوائف أخرى جنيًا لثمار النصر . وكان الحزب الجمهوري من بدايته ملتزماً بالتعريفات الجمركية العالية ، وبالإصلاحات الداخلية ، وبمنح الأراضي للسكك الحديدية ، وبتوزيع المزارع دون مقابل . ولقد كان عاجزاً قبل الهجوم على فورت سومتر عن تحويل أى جزء ذي قيمة من هذا البرنامج إلى قوانين . بيد أنه لم تعد ثمة معارضة قوية في قاعات الكونجرس بعد انفصال الولايات الجنوبية ، وأتاحت الحرب فرصة لسرعة إصدار القوانين المحققة للبرنامج كله . فإذا بقانون موريل للجمارك ، في سنة ١٨٦١ ، يحول اتجاه الضرائب الجمركية الذي ظل طويلاً في هبوط ، ويضع معدلات تحقق الحماية بصرحة . وتبعته قوانين زادت سياج الحماية الجمركية ارتفاعاً ، ولم تحن نهاية الحرب حتى ازدادت الرسوم الجمركية في المتوسط من ثمانية عشر إلى سبعة وأربعين في المائة . وأصبح أصحاب الصناعات في الشمال في مركز منيع إلى حد كبير ، فلم تتمكن أية حكومة حتى سنة ١٩١٣ من إحداث أى تخفيض محسوس في معدلات الرسوم الجمركية . وزيادة في تشجيع المصالح التجارية والصناعية ، لم يلبث الكونجرس أن ألغى ضريبة الدخل ، التي لم تكن يوماً مرتفعة جداً ومحا ضرائب الحرب على الفحم والحديد والاتحادات الحرفية . وبموجب سلسلة من القوانين المتعلقة بالسكك الحديدية ، وفر الكونجرس المعونات لإنشاء الخطوط الممتدة عبر القارة عن طريق قروض زادت على ستين مليوناً من الدولارات ، ومنح مباشرة زادت على مائة

مليون دونم من الأراضي العامة ، فضلاً عن المنح التي انهارت بسخاء من الولايات واللجان المحلية .

وازدهرت التجارة والصناعة كما لم تزدهر يوماً من قبل ، بفضل هذه الخيرات ، وبدفع احتياجات الحرب النهمة ، والحاجات التي لا سبيل لإشباعها لسكان مطردى الزيادة . ولقد كتب جون شيرمان إلى أخيه الجنرال : « الحقيقة هي أن انتهاء الحرب ومواردنا لم تمس بسوء ، يتيح لأفكار كبار الرأسماليين ارتفاعاً ، مجالاً أعلى بكثير مما بلغه أى شيء تسنى الاضطلاع به في هذه البلاد من قبل . فهم يتحدثون عن الملايين بالاعتداد الذي كانوا يتحدثون به عن الآلاف سابقاً » . وكان ثمة مجال ، إن لم يكن ارتفاعاً وتوسعياً ، لأفكارهم حقاً . فلقد تجاوزت الصناعة في تمسك مع الحاجات التي لا حصر لها للقوات المسلحة ، ومع المطالب الأعظم ، مطالب اقتصاد الحرب . ففي عشر سنوات تم مد عشرين ألف ميل من الخطوط الحديدية ، معظمها في الغرب ، وتقدمت الخطوط العابرة للقارة بسرعة مذهلة عبر السهول والجبال . ومدت خطوط البرق من مدينة إلى مدينة ، وسرعان ما اجتازت القارة ، فمدت الكابلات عبر المحيط الأطلنطي ، وفي بحر خمس عشرة سنة أضاف الهاتف وسائل جديدة للاتصال العاجل ، ولم تكن مصانع ماكورميك لآلات الحصاد ، في شيكاغو ، بقادرة على أن تلاحق الطلب الشره على آلات الحصاد الكبيرة ، المنهال من برارى الغرب الأوسط . وأخذت مصانع في آكرون وكانتون بولاية أوهايو تنتج آلاف الجزازات (آلات الحصاد الصغيرة) ، ولم تكن أواسط العقد الثامن من القرن حتى كانت المصانع التي قامت على طول الحافة الوسطى ترسل الأسلاك الشائكة لسياجات مزارع السهول في منطقة المرتفعات . وأخذت مصانع ماكاي للأحذية ، والمصانع الكبيرة لتعبئة الأغذية في شيكاغو وسنسيناتي ، ومطاحن القمح في المدينتين التوأمين ، ومصانع البيرة في ميلووكي وسانت لويس ، ومصانع الحديد والصلب في منطقة بيتسبيرج ، ومعامل تكرير النفط في أوهايو وبنسلفانيا ، ومائة نوع من المصانع الأخرى . . أخذت تعمل ليلاً ونهاراً لتلبية الطلبات التي كانت تتدفق عليها .

ولم تشهد نهاية الحرب تباطؤاً في النشاط الصناعي ، فقد حطم كل رقم قياسي للإنتاج الصناعي تقريباً في السنوات الخمس التالية أبوماتوكس . فاستخرج من المناجم مزيد من الفحم والحديد الخام ، ومن الفضة والنحاس ، وأنتجت المصانع مزيداً من

٢٨٣ بزوغ أمريكا الحديثة

الصلب ، ومُدد مزيد من القضبان الحديدية ، وأنتجت مصانع نشر الخشب مزيداً ، وشُيد مزيد من المساكن ، ونُسج مزيد من الأقمشة القطنية ، وطُحن مزيد من القمح ، وكُرر مزيد من النفط عما تسنى في خمس سنوات سابقة في تاريخنا . وقد ازداد مجموع عدد المؤسسات الصناعية في العقد المحصور بين سنتي ١٨٦٠ و ١٨٧٠ بحوالى ثمانين في المائة ، وزادت قيمة المنتجات المصنوعة مائة في المائة . كانت الثورة الصناعية حقيقة اكتمل إنجازها .

ولقد استفاد أصحاب المصارف ومستثمرو الأموال إلى جانب رجال الصناعة . ولقد محا الكونجرس بقانوني النظام المصرفي القومي لسنتي ١٨٦٣ و ١٨٦٤ النظام المصرفي المستقل الذي كان الحزب الديمقراطي في عهد جاكسون يعتزبه ، وأحل محله نظاماً أكثر ملاءمة للمصارف الخاصة . ولإفساح المجال لأوراق النقد الصادرة عن المصارف القومية ألغى وجود الأوراق المالية التي كانت تصدر عن مصرف الولاية . وكانت الحكومة قد أصدرت خلال الحرب عدة مئآت الملايين من الدولارات الورقية ، لم يكن يضستها سوى قرض الحكومة ، فلم تلبث أن انحدرت بسرعة ، وقد صدق الكونجرس على سياسة أعادت الثبات الذي كان النقد القومي في ميسس الحاجة إليه ، وذلك بتقرير التوقف عن إصدار قسم كبير من هذه « الأوراق الخضراء الظهر » ، كما كان يطلق عليها ، ورفع قيمة الأوراق الباقية إلى مستوى القيمة الاسمية . بيد أن هذه السياسة كانت ذات اتجاه انكماشى مثقل بالضيق للجماعات المدينة ، لا سيما المزارعين الغربيين .

ولقد أدت المضاربة في الأوراق الخضراء الظهر والسندات الحكومية إلى ثروات عديدة لا بأس بها . ففي أحلك فترات الحرب ، في أواسط صيف سنة ١٨٦٤ ، لم تكن هذه الدولارات الخضراء الظهر تباع بأكثر من تسعة وثلاثين سنتاً للدولار ، بيد أنها ظلت معتمدة لشراء سندات القروض الحكومية . وعندما تعهد الكونجرس بدفع القيمة الأصلية والفوائد لهذه السندات بالذهب ، كان من الواضح أن أولئك الذين كانوا من الدهاء — ومن الوطنية كما ينبغي أن نضيف بكل الإنصاف — بحيث جازفوا بأموالهم في هذه السندات ، خليقون بأن يحققوا ربحاً كبيراً . كان الدفع بالذهب هو الوفاء الأمين بتعهد صريح . بيد أن السياسة المالية للحكومة كانت أكثر من أى عامل آخر في إبراز الفواصل الطبقية ، إذا كان معناها أن حملة السندات يتقاضون دولارات لها قيمتها الكاملة ذهباً ، في حين أن الجنود كانوا يتقاضون دولارات خضراء الظهر لا تساوى

سوى خمسين أوستين في المائة من قيمتها ذهباً . وبينما كان المزارعون يتلقون قروضهم دولارات لا تساوى سوى خمسين أوستين في المائة من قيمتها ذهباً . فإنهم كانوا يطالبون بالسداد بدولارات لها مائة في المائة من قيمتها بالذهب . وكان معنى هذا أن من الممكن أن تطالب الأمة بأسرها بدفع أى دين قومى بما يصل إلى حوالى ضعف قيمته الأصلية .

كان من الممكن كسب ثروات إذ ذاك بالعمليات المصرفية والمضاربات المالية ، بيد أن الثروات الكبرى كانت تكتسب من السكك الحديدية ، والتعدين ، وقطع الأخشاب ، وتعبئة اللحوم ، والحديد والصلب ، والنفط ، وما إلى ذلك من استثمارات مرتبطة أوثق الارتباط بالحرب أو بفتح الغرب . وسرعان ما أصبحت أساء منشئى السكك الحديدية مثل فاندربيلت وستانفورد وهاريان ، وأصحاب مصانع تعبئة اللحوم مثل آرمور وسويفت ، وملوك الخشب مثل ويرهاوزر ، وسادة صناعة الحديد مثل أندرو كارنيجى وأبراهام إس . هويت ، وأمراء النفط مثل جون دى . روكفلر . . سرعان ما أصبحت هذه الأسماء تتردد فى كل بيت ، مزاحمة أسماء الساسة والأدباء فى الإجلال الشعبى . لقد أعادت الحرب توزيع الثروة القومية بيد سخية وغير مكتنزة ، فخلفت آفاقاً من الثروات المحترمة ومئات من الثروات المحفوفة بالشبهات . واكتسب المال نفوذاً متزايداً على الحكومات . . ولائحة واتحادية ، ويسر المال السبل إلى الخطوة الاجتماعية ، وسرعان ما كان آل فاندربيلت وجولد يحظون بما كانت عائلات النيويوركيين القديمة تلقاه من قبول . وأقام المال الصروح الجميلة التى قامت على جوانب فيث آفنيو ونيويورك ، ومتشيجان آفنيو ، وشيكاغو . وأغدق المال على الكليات والجامعات مثل جونز هوكينز ، وستانفورد ، وشيكاغو الجديدة ، كما ساعد الكنائس والإرساليات ، ورعا الفرق الموسيقية والمتاحف الفنية . وكانت الثروة أكثر تركيزاً فى المناطق الصناعية بطبيعة الأمر ، وقد دفعت ولايات نيويورك وبنسلفانيا وماساشوستس الثلاث وحدها ستين فى المائة من حصيلة ضريبة الدخل فى سنة ١٨٦٤ . بيد أن مستوى المعيشة ارتفع فى كل مكان ، شرقاً وغرباً ، بل وفى أرجاء كثيرة من الجنوب .

كذلك ظفر المزارعون بشيء من رواج الحرب وما بعد الحرب ، وإن كان أقل مما خطر لهم . فإن الحزب الجمهورى كان قد بنى الدعوة لتأييده على صيحة « ادل بصوتك واكسب مزرعة » ، فما إن تولى الحكم حتى جدد سن قانون البيت الملحقة به أرض زراعية ، وهو القانون الذى كان رئيس من الحزب الديمقراطى قد رفض التصديق عليه

٢٨٥ بزوغ أمريكا الحديثة

من قبل . فكان بوسع أى امرئ ، بمقتضى مواد هذا القانون ، أن يحصل على ١٦٠ دونما من الأراضي العامة ، إذا وافق على أن يزرعها لخمس سنوات . ولقد أدى هذا التشريع المستنير إلى تمكين عدة آلاف من المزارعين من تعمير أرض الغرب البكر ، فعزز الديمقراطية الاقتصادية . ومع ذلك فإن مساحات كبيرة منحت في الوقت ذاته ، للسكك الحديدية أو غيرها من الشركات أو بيعت لشركات الأراضي والمضاربين . وما لبث معظم هذه الأراضي أن انتهى إلى المزارعين كذلك . . ولكن لقاء ثمن . وفي الوقت عينه أجاز الكونجرس قانون موريل الذي كفل عدة ملايين من الدونمات ، من الأراضي العامة ، لأوقاف وصيانة الكليات الزراعية والصناعية في جميع الولايات ، وتقوم جامعات الولايات الكبيرة ، مثل أيووا ومتشيجان ومينيسوتا ، شاهدة على حكمة هذا القانون . بيد أن التوسع الزراعى أثناء الحرب وبعدها لم يكن متوقفاً على المساعدات أو التشجيع من الحكومة . فإن احتياجات الجيش وسكان المدن المطردى الازدياد ، والملايين الجائعة في الخارج ، وفرت جميعاً حافزاً لزراعى القمح والذرة ولمنتجى الألبان ومربي الماشية . ويسرت السكك الحديدية السريعة التوغل في السهول أسباب الوصول إلى أراض لم تمس ، كما أن آلات الحصاد والحراث والعزق والحزم ، التي هبطت إذ ذاك إلى الأسواق ، جعلت من الممكن لرجل واحد ، أو صبي ، أن يؤدي ما كان يؤديه من قبل اثنان . وفي العقدين اللذين أعقبا انتخاب لينكولن ، ازداد إنتاج الذرة والقمح والشوفان والشعير إلى أكثر من الضعف ، وكذلك الأمر بالنسبة للماشية والأغنام والخنازير ، ولما كانت الزراعة قد تقلصت فعلاً في نيوانجلاند والجنوب ، فإن معظم هذا الازدهار حدث في الشمال الغربى القديم والغرب وراء نهر المسيسيبي . ففى أثناء العقد الذى تخللته الحرب ازداد عدد سكان ميسورى بأكثر من خمسين فى المائة ، فكانت الولاية الخامسة فى الاتحاد التى بلغ سكانها المليونين . أما نبراسكا ، التى أصبحت ولاية فى سنة ١٨٦٧ ، فلم تحن سنة ١٨٨٠ حتى اقترب سكانها من نصف المليون . وفى ولايتى داكوتا ، حيث كانت عشائر السيوكس تنتقل دون نزاع أثناء الحرب ، تجاوز عدد السكان الزراعيين فيها نصف المليون بعد الحرب بخمسة عشر عاماً . وانتقل إنتاج الصوف من فيرمونت إلى أوهايو ، ثم لم تلبث ولايات الغرب الجبلية أن بزت سواها فيه ، وشرعت أيووا وكنسساس ونبراسكا ومينيسوتا تحتل المراكز الأولى كولايات منتجة للذرة فى الإحصاءات السكانية . كان المجال الزراعى ينتقل غرباً دون ما اعتراض .

ومع هذا ، فقد كان المزارعون أقل ربحاً من أية طبقة أخرى ، اللهم إلا العمال ، بسنوات الرخاء ، وكأنها كان هذا استباقاً لاتجاه الاقتصاد القومي في المستقبل ، ومن ثم فقد كانوا أول من أحس بوطأة أوقات الضيق . فإن تكاثر السكان فوق ما ينبغي ، أدى إلى الإفراط في الإنتاج ، وإذا شراء مزارع أكبر حجماً ومعدات زراعية باهظة لفلاحة هذه المزارع يفضى إلى عبء من الديون لا سبيل إلى حمله إلا إذا ظلت الأسعار العالية ميسورة . ولقد شعر مزارعو الشرق الذى استوطن من زمن بحدة المنافسة من أراضى الغرب الجديدة ، بينما كان مزارعو الغرب ، الذين حفظوا بالتربة الخصبة ، بعيدين عن الأسواق ، وتحت رحمة السكك الحديدية . فكان المزارعون يشقون ساعات طويلة تحت الشمس الحامية ، ويعيشون محرومين من متع الحياة الاجتماعية ، ثم لا يحظون في النهاية بشئ يذكر جزاء على جهودهم .

وكان العمال وحدهم ، دون الطوائف الكبيرة ، هم الذين حرما من أن يجنوا أية مكافآت مادية من الحرب . فلقد أسهموا بقدر كبير في انتصار الاتحاد ، نتيجة كدحهم عشر أو اثنتى عشرة ساعة في اليوم في مناجم الفحم وأمام أفران الصلب ، وفي إدارة المغازل وآلات صنع الأحذية ، وإنشاء السفن ومد الخطوط الحديدية ، كما أن النسبة الكبرى ممن قاموا بالقتال فعلاً كانوا من صفوفهم . وتحت وطأة الحرب والأسعار المتزايدة التأمت بعض منظماتهم التى كانت قد تضعضعت بفضل فزع سنة ١٨٥٧ ، إذ كانت القوى العاملة بحاجة إلى تنظيم . كانت الأجور قد ارتفعت ، ولكن الأسعار كانت أكثر ارتفاعاً ، وتنم التقديرات المتحفظة عن أن أغلبية العمال كانوا في سنة ١٨٦٥ أسوأ حالاً مما كانوا في سنة ١٨٦٠ . وبعودة ما يزيد على مليون جندي إلى الحياة المدنية والارتفاع الحاد في الهجرة ، اشتدت المنافسة على الأعمال ، فبادر المهرة من أصحاب الحرف إلى تنظيم أنفسهم حماية لمهارتهم . وكان من هذه التنظيمات نقابة لصناع الأحذية قصيرة العمر تدعى فرسان سانت كريستين ، وقد أثبت زوالها السريع عدم جدوى النضال ضد الآلة ونظام المصنع . وكان الادعى منها للاهتمام ، تجميعين أكبر حجماً وأقل تنظيماً ، هما نقابة العمل القومية وفرسان العمل ، ويعود قيام كليهما إلى الستينات ، وهما تمثلان الجهود لتوحيد أكثر الطوائف ثباتاً : العمال ، والمزارعين ، وجماعات الإصلاح .

ومع ذلك فقد ظلت الأغلبية الكبرى من العمال خارج هذه المنظمات ، وعانت

٢٨٧ يزوغ أمريكا الحديثة

كافة تقلبات صرح اقتصادى سريع التغير . وبإيجاز ، عانت الذعر والانكماش الاقتصادى . ولم تبذل الحكومة جهداً كبيراً من أجل العاملين ، برغم تحمسها لإصدار التشريعات للتجمعات التجارية والصناعية . ومن الصحيح أنها أقرت نظام يوم العمل المؤلف من ثمان ساعات فى المشروعات العامة فى سنة ١٨٦٨ ، بيد أن هذا المثال المثير للإعجاب لم يلق استجابة واسعة النطاق . ومن الممكن أن نحتسب التقاعس عن تنظيم الهجرة ، أو عن توفير أية حماية للمهاجرين ، كعيين أو مظهرين للنقص ، ضد تلك الخطوة .

مسائل سياسية

أهم ما يستلفت الانتباه فى الشؤون السياسية فى السنوات التالية للحرب ، هو تفاهتها . وبينما كانت بعض الحكومات — كحكومتى بيرس وبوكانان — تتسم بالكسل وعدم الكفاءة ، اختصت حكومة جرانت بعدم الكفاءة والفساد . فإن فن سياسة الحكم ، الذى لم تشتد الحاجة إليه يوماً قدر اشتدادها فى أزمة إعادة التنظيم القومى ، أفسح المجال للمسائل السياسية ، وكانت المسائل السياسية مشوبة بازدياد مطرد بالتشيع ، والإيثار ، والفساد .

كان المبدأ الرئيسى لشؤون سياسة إعادة التنظيم هو تمكين الحزب من السلطان . وخلق بنا أن نتذكر أن هذا الحزب كان مستجداً نسبياً ، وكان قطاعياً (منتسباً للقطاع الشمالى) إلى حد كبير . ولقد كانت كل الأمور وفقاً لهواه خلال الحرب ، فوطد مكانته فى الحكم — ولكن الفرص لاستمرار سيطرة الحزب الجمهورى على كافة فروع الحكم خبت بانتهاء الحرب ، وعودة بعض ولايات الجنوب إلى الاتحاد . . وعودتها جميعاً حوالى سنة ١٨٧١ : ذلك لأن الحزب الديمقراطى ظل طيلة تلك الأعوام كبير العدد ، قوى المكانة ، حتى فى الشمال ، فى حين أن الحرب وإعادة التنظيم — بوجه خاص — كتلت الجنوب فى صف الديمقراطيين ولو كان قد أمكن حمل الديمقراطيين الشماليين والجنوبيين على الاتفاق على المرشحين والمسائل السياسية ، لكان هناك احتمال قوى فى أن يزيحوا الجمهوريين عن المناصب ، وأن يسيطروا على الحكم .

وما كان تفوق الحزب هو الهدف وحده ، بل كان الهدف كذلك صون تلك السياسات التي التزم الحزب بها ، والتي كان قد مضى فيها قدماً ببسالة . كان هناك السياج الجمركي الحديد ، والنظام المصرفي القومي ، وبرنامج المساعدات للسكك الحديدية ، ثم – ولعل هذا أهم الجميع – سياسة تثبيت النقد ودفع التزامات الحكومة بالذهب . وكانت هذه المسائل الاقتصادية مشتبكة في الواقع بمسائل عاطفية – مثل مكافأة أولئك الذين كانوا أوفياء ومعاقبة الذين لم يكونوا أوفياء – ومسائل اجتماعية مثل مركز الزواج . وكان الزواج ، في نهاية الأمر ، هم أكثر المسائل تعرضاً للتضحية بها ، وكانوا أقل الناس كسباً وأكثرهم خسارة في الاضطراب السياسي .

كانت الاستراتيجية الكبرى والأساليب التي على الجمهوريين أن يأخذوا بها إذ ذاك واضحة تماماً . وكان الحفاظ على السياسات الاقتصادية – بعد أن بدأ تطبيقها بنجاح – يتطلب الإبقاء على الحزب في الحكم حتى تستقر تلك السياسات وتتوطد فلا يتسنى قلبها . فالتخذت خطوات غير دائمة لحرمان أعداد كبيرة من زعماء الاتحاد التحالفي الجنوبي مؤقتاً من الحقوق النيابية ومن تولى المناصب ، ولإبعاد ممثلي أشد ولايات الجنوب تمرداً عن قاعات الكونجرس . بيد أن هذا ما كان ليستمّر إلى أجل غير محدود في الواقع . وبدا أن في إنشاء حزب جمهوري في الجنوب سياسة تبشر بالخير . وكان لازماً أن تكون قاعدة تنظيم كهذا تلك العناصر من البيض التي طال اعتراضها على الطبقات الحاكمة في الجنوب . . . ومن الفقراء والمستضعفين الذين يرحبون بفرصة لإسماع أصواتهم . وما كان من سبيل لضمان المكانة العددية إلا بإغداق الحقوق السياسية على الزواج . . . والحرص على أن يصيبوا في استخدام أصواتهم . ولقد جربت هذه السياسة بقوانين إعادة التنظيم في بادئ الأمر ، ثم بتعديلات دستورية .

كان البرنامج منسقاً بدقة ، بيد أنه أخفق . فإن إعادة التنظيم العسكري أثار صلاية المعارضة الجنوبية . وكانت محاولة استغلال الزواج سياسياً أهم من ذلك . إذ أن سياسة الحزب الجمهوري أصبحت مقترنة بفكرة المساواة العنصرية . . . وهي فكرة ما كان ليطبقها معظم الجنوبيين في ذلك الحين ومن ثم فإن هذه السياسات أضعفت الحزب الجمهوري في الجنوب بدلاً من أن تعزز نفوذه . فما إن سُحبت السلطات العسكرية الاتحادية ، حتى انهارت منظمات الحزب ، وسرعان ما اهتدى الديمقراطيون إلى طرق لحجب حق الانتخاب عن الزواج . وأصبحت الأمور تسير وفق هوى الديمقراطيين

٢٨٩ بزوغ أمريكا الحديثة

الجنوبيين منذ ذلك الوقت . فما منحت أى من ولايات التحالف الجنوبي صوتها في المجمع الانتخابي لمرشح جمهوري للرئاسة ، من سنة ١٨٨٠ - ١٩٢٨ .

وإذا كان قد عز توطيد البرنامج الاقتصادي للحزب الجمهوري بفضل إعادة التنظيم عسكرياً أو بما استلزمه الدستور من منح الزوج حق الانتخاب ، فقد أمكن حمايته بنص آخر أضيف حديثاً إلى الدستور . فبينما كان التقدميون ماضين في خصامهم مع الرئيس جونسون ، في المراحل الأولى لإعادة التنظيم ، وضعت لجنة مشتركة في الكونجرس تعديلاً شاملاً يرمي إلى تعريف المواطنة ^(١) ، وحماية الحقوق المدنية المتعلقة بالحرية ، وحرمان قادة الاتحاد التحالفي من حق الانتخاب ، وضمان الديون الاتحادية وإبطال ديون التحالف الجنوبي . وكان هذا التعديل هو التعديل الرابع عشر المشهور ، الذي نصت مادته الأولى على :

ليس لأية دولة سن أو تنفيذ قانون ينال من امتيازات أو حصانات مواطني الولايات المتحدة ، وليس لأية ولاية حرمان أى شخص من الحياة أو الحرية أو الممتلكات ، بدون دعوى قضائية ، ولا حرمان أى شخص في دائرة سلطتها من المساواة في الحماية المكفولة بالقوانين .

وقد حققت هذه العبارات الخالدة ، بمرور الزمن ، ما أخفقت سياسة الجمهوريين في فعله . فأحاطت بالحماية ملكية وعمليات الشركات الكبيرة ، إذا أن المحاكم فسرتها ، في الوقت المناسب ، على أنها تعني أنه ليس لولاية أن تصدر تشريعاً لحرمان الشركات من ثرواتها أو من عوائد عادلة على ثرواتها . والحق أن هذا التفسير لم يطبق بأكمله معانيه حتى العقد الأخير من القرن . . في الوقت المناسب لكبح مبادئ حزب الشعب الأمريكي ^(٢) التي اشتد تيارها .

وكان من أهم ما عنت به حكومة جرانت الحفاظ على سياسات إعادة التنظيم التي تكفل استبقاء الجنوب تابعاً للشمال ، والديمقراطيين في المكانة الثانية بعد الجمهوريين .

(١) حقوق وواجبات وامتيازات والتزامات المواطن الذي يتمتع برعاية الدولة - المترجم .

(٢) حزب قام في أمريكا إذ ذاك يدعو إلى الحد من الملكية الخاصة وفرض سيطرة الدولة على المرافق العامة - المترجم .

٢٩٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

وقد وفقت في هذا إلى حد كبير ، إذ كانت تساندها المكانة الهائلة الناجمة عن الانتصار ، والناجمة عن شخصية جرانت نفسه ، وقد أطال من بقائها في الحكم عدم الاطمئنان الدائب إلى أى حزب كان ذا علاقة بالرق والانفصال ، وعززها تأييد المصالح التجارية التي كانت تخدّمها . وقد ضاعت هذه الميزات ، على مر الزمن . إذ كان جرانت عسكرياً عظيماً ، بيد أنه كان رئيساً غير موفق للهيئة الإدارية ، وكان سجل حكومته حافلاً بالفشل الذريع في غير ميدان الشؤون الخارجية . وقد قال هنري آدمز الشاب ، وهو يستعرض التاريخ الأمريكى من واشنطن حتى جرانت ، إن جرانت جعل التقدم مدعاة للسخرية .

فبعد توليه الحكم بقليل ، انتشرت قصص الفساد في المراكز العليا ، ولم تتكشف عن أنها كانت بدون أساس . إذ كان يمول شركة يونيون باسفيك للخطوط الحديدية ، وهى مفخرة الأمة ، جماعة من الممولين غير النزهاء ، الذين كانوا يستأجرون رجالاً من الكونجرس من أجل عطاءاتهم . وكانت وزارة البحرية تبيع العقود للمقاولين جهاراً ، ووزارة الداخلية ملجأ يحتوى به لصوص الأراضي ، ومكتب الشؤون الهندية يبيع ترخيصات الاتجار ذات التواريخ المسبقة إلى من يدفع أعلى ثمن ، ويهمل رفاة الهنود الذين تحت رعايته ، كما أن وزارة الخزانة كانت تعفى محصل الضرائب من الضرائب التي لم تسدد فيستغلونها لمصلحتهم ، وانتشر في دور الجمارك في نيويورك ونيو أورليانز الكسب غير المشروع ، واحتالت « عصابة للخمر » في سانت لويس على الحكومة فحرمتها من الملايين المستحقة كرسوم إنتاج ، وبزت عصابة من المرتشين في العاصمة القومية حكومات الخرج في الجنوب في التبذير والتبديد . وفي هذا كتب أحد أعضاء الشيوخ الجمهوريين ، بمبالغة لها ما يبررها : « كأنها أصيب الحزب الجمهورى بالسعار . . واعتقد أنه اليوم أكثر الأحزاب السياسية - التي قامت في أى عهد - فساداً وانحرافاً » .

ولقد كان لهذا الفساد ، الذى ملأ الحكومة بالثقوب والثغرات ، ارتباط واضح بفوضى زمن الحرب ، وبعهد التضخم والمضاربة الذى أعقب أبوماتوكس . وهو قد حرم جرانت على مر الزمن ، ثقة أهل الشمال ، وإن لم يحرمه حبههم ، ذلك لأن جرانت كان قد جاء إلى الحكم بسمعة تفوق سمعة أى رئيس منذ جاكسون ، كما جاء الحزب الجمهورى للسلطان ترافقه أعظم فرصة للعمل البناء أتيتحت لأى حزب منذ سنة

٢٩١ بزوغ أمريكا الحديثة

١٧٨٩ . وفي خلال أربع سنوات ، انشق الحزب على نفسه ، وظهرت في الميدان هيئة من الجمهوريين الأحرار الليبراليين مكرسة نفسها للإصلاح ، والتوفيق . ومع أن الديمقراطيين انضموا إلى الجمهوريين الأحرار ، فإنهم لم يبلغوا من القوة درجة تمكنهم من خلع جرانت . غير أن الديمقراطيين ظفروا بالنفوذ في مجلس النواب بعد عامين ، وأحرز مرشح الحزب للرئاسة في سنة ١٨٧٦ أصواتاً فاقت ما أحرزه مرشح الجمهوريين . ولم تنته الأساليب السياسية لكسب الثروات ، بيد أن الأمة لم تعد معرضة للخزي من جراء الفساد في الهيئة التنفيذية والكونجرس لمدة نصف قرن .



الفصل ١٤

قيام المشروعات الكبيرة

أسس الإمبراطورية الصناعية

كان جيفرسون يحلم بجمهورية زراعية كبيرة ، تزخر بشعب مستقل من صغار الملاك ، وتخلو من تحلل المدن الكبرى وعبودية المصانع أو مناجم الفحم ، مما كان يشاهد في إنجلترا ، ومن عبودية الأرض التي أثارت استنكاره في فرنسا وإيطاليا . وفي هذا كتب : « ما دمنا نمتلك أرضاً نفلحها ، فليس لنا أبداً أن نتمنى رؤية مواطنينا عاكفين على طاولة العمل الحرفي ، أو تطويح فلُكة المغزل » . ولقد وضع أسس دولة ديمقراطية زراعية ، كما اعتقد ، ووفر لها أسباب الاتساع بشراء لويزيانا . وقال بهذا الصدد إن الأرض متوفرة « لآلاف مؤلفة من الأجيال » . ولقد هزم هاملتون في الانتخابات ، وظن أنه دحض مشروع هاملتون لإنشاء ولايات متحدة على نسق إنجلترا في ذلك العهد . كان على الأمة أن تتجه غرباً ، عبر الجبال والبرارى والسهول ، وليس شرقاً عبر المحيط ، وأن تكون جنة للمزارعين وليست موئلاً للتجار والمصرفيين ورجال الصناعة . ويتوالى خلفاء جيفرسون على البيت الأبيض وسيطرة أتباعه على الكونجرس ، لاح أن حلمه كان في طريقه إلى التحقق . فقد أخذ مجال الزراعة في

الانتشار بأسرع من انتشار الآلة الصناعية ، مع تزحزح حدود الأمة غرباً نحو المحيط الهادى وريوجراندى . بل إن الأمة ظلت زراعية بنسبة طاغية ، حتى في سنة ١٨٦٠ ، ورأى كثير من المراقبين أن الحرب الأهلية كانت تراحماً بين الملك القطن والملك القمح ، وليس بين سياسة صناعية ناهضة وزراعة مطردة الاتساع .

ومع ذلك ، كان هاملتون هو الفائز في النهاية ، في الجبهة الاقتصادية على الأقل . فكان رأيه في المصرف هو الذى لقي قبولاً ، وكان نوع الحرية التجارية الذى تبناه و« تقريره عن الصناعات » هما اللذين أصبحا الميثاق القدسى لأمريكا . وبعد قرن من مصرع هاملتون في ميدان المبارزة في ويهوكن كانت الولايات المتحدة قد أصبحت أعظم أمة صناعية في العالم . فلقد استغلت من مناجم الفحم والحديد الخام ، وصنعت من الصلب ، وضخت وكررت من النفط ، ومدت من الخطوط الحديدية ، وأنشأت من المصانع أكثر مما فعلت أية أمة أخرى على الأرض . وبعد قرن من لجوء حكيم مونتيسيلو إلى الراحة التى كان جديراً بها ، بلغت قيمة المنتجات المصنعة خمسة أمثال قيمة المنتجات الزراعية ، وأصبح أقطاب المال وقياصرة الصناعة يملون السياسات على واشنطن ، وبدا أن المزارع معرض لأن يصبح مجرد فلاح .

كان هذا التحول السريع للاقتصاد الأمريكى طبيعياً تماماً ، وإن عاونته سياسات الحكومة . وكانت أسس التطور الصناعى الأمريكى ستة : مواد أولية أوسع حجماً وأكثر تنوعاً مما أتبع لأى شعب آخر فيما عدا الروس على ما هو محتمل . . والمخترعات والأساليب الفنية لتحويل الخامات إلى منتجات مصنوعة ، وشبكة لنقل الماء وشبكة للسكك الحديدية كافية تمام الكفاية لمتطلبات اقتصاد قومى متسع ، وسوق محلية مطردة الاتساع بازدياد السكان ونمو الأسواق الخارجية ، ومورد من القوى العاملة دائب التجدد بفضل الهجرة ، وغياب حواجز جمركية معرقلة بين الولايات أو القطاعين ، مع الحماية من المنافسة الأجنبية والحرص على مساعدات حكومية مباشرة وغير مباشرة . وقد يجوز أن نضيف إلى هذه العوامل الأساسية روح المغامرة في المشروعات ، وجو التفاؤل الذى امتاز به الشعب من البداية .

وكانت الثورة الصناعية تستند إلى الفحم والنفط والحديد ، ثم الكهرباء في آخر الأمر . كانت ثمة كميات لا تنضب من الفحم الإتراسيت وفحم البيتومين في جبال بنسلفانيا وفيرجينيا الغربية ، وتحت أعشاب برارى إللينوى ، وعلى سفوح جبال سموكى

قيام المشروعات الكبيرة ٢٩٥

الكبرى ، وتحت ملايين الدولارات في كنساس وكولورادو وتكساس . . بل إن نيومكسيكو وحدها كانت تفخر بأنها أنتجت من الفحم ما كان يكفى لإدارة المصانع الأمريكية قرناً كاملاً . ولم يحن عام ١٩١٠ حتى كانت البلاد تستخرج من المناجم خمسمائة طن في العام ، بيد أن ما يقل عن واحد في المائة من مواردها الميسورة كان قد فتح للاستغلال . ولم تكن الولايات المتحدة أقل من ذلك ثراء بثاني الموارد الرئيسية الكبرى للطاقة : بالنفط . فإن فتح حقوله في تكساس وأوكلاهوما وكنساس واللينوى وكاليفورنيا بدد أى تخوف من استنزاف هذا المورد الذى لا غنى عنه . كذلك كان الحديد الخام متوفراً بكثرة . . حول حافة بحيرة سوبيريور بأسرها ، فى الجنوب ، حيث قامت شركة تيسى للفحم والحديد ، وفى الغرب حيث اشتد ساعد شركة كولورادو للوقود والحديد . وكانت التقديرات المتحفظة ، بعد استمرار نصف قرن ، تشير إلى أن الكميات المخترنة فى جوف الأرض كفيلة بأن تدوم قرنين آخرين من الزمن على الأقل . كما أن الطبيعة أغدقت على الولايات إمكانات للطاقة المتولدة من الكهرباء أعظم مما منحت أية دولة أخرى وهى ، طاقة كانت كافية كل الكفاية للاحتياجات الصناعية لسكان يبلغ تعدادهم ثلاثمائة مليون نسمة .

ومن الحقائق الجديدة بالانتباه فى تاريخ الموارد الطبيعية فى الولايات المتحدة ، أن كثيراً منها لم يؤخذ فى استغلاله على نطاق واسع ، إلا بعد سنة ١٨٥٠ . وكان الحديد يستخرج منذ أوائل عهد الاستعمار ، ولكن فتح ميادين متشيجان الشمالية وبحيرة سوبيريور هو الذى أتاح للولايات المتحدة تفوقاً فى الحديد والصلب . ولقد عثر الكولونيل دريك على النفط فى غرب بنسلفانيا فى سنة ١٨٥٩ . وإن هى إلا سنوات خمس حتى كان الإنتاج السنوى قد ازداد إلى ما فوق مليونى برميل ، إذ اقيمت آلاف البريمات وأنفقت ملايين الدولارات ، وأصبح الإقبال على البحث عن النفط منافساً للإقبال على البحث عن الذهب فى كاليفورنيا ، قبل عقد من الزمن . وبدأ استخراج النحاس فى متشيجان منذ فتح هذا الإقليم ، ولكن استغلال عروق النحاس فى مونتانا وأريزونا لم يتسن قبل الثمانينات من القرن ، وبمجرد فتح منجم أناكوندا فى سنة ١٨٨٢ ، أصبحت مونتانا ميدان صراع فى « حرب ملوك النحاس » الذى لم يكن يرمى إلى الاحتكار الصناعى فحسب ، وإنما إلى السيطرة السياسية كذلك . ولقد أثر فتح مناجم الفضة الغنية فى كولورادو فى سنة ١٨٥٩ ، وفى نيفادا ومونتانا فى الستينات ، تأثيراً عميقاً

٢٩٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

على الصرح الاقتصادي والسياسة المالية للبلاد . ولقد كانت مناجم الرصاص الغنية في ميسوري ذائعة الصيت قبل الحرب الأهلية . بيد أن الازدياد العظيم في إنتاج الرصاص — مما يسر انتشار استخدامه في صنع الأنابيب وفي الطباعة — لم يتسن قبل السبعينات . ولقد هبط اسمنت بورتلاند إلى السوق في السبعينات ، كما أن عملية التحليل الكهربائي يسرت الحصول على الألومنيوم بمعدل تجارى في سنة ١٨٨٧ ، وقد تجاوز الإنتاج سبعة ملايين من الأرتال حوالى سنة ١٩٠٠ . وعندما زار هنرى آدمز معرض كولمبيا العالمى في سنة ١٨٩٣ ، رأى المولد الكهربائى (الدينامو) ، وخرج بأن اكتشافه كان أهم حدث في التاريخ الحديث ، ولم تحن نهاية القرن حتى كان المهندسون الأمريكيون يسخرونه للخرانات المائية ، ويمهدون السبيل لإحلال الكهرباء محل البخار .

ولعل الأمريكيين قد سجلوا من المخترعات ما يفوق ما سجله أى شعب آخر عدداً وإبداعاً ، فإن عدد براءات الاختراع التى أصدرتها دائرة براءات الاختراع في الولايات المتحدة ، بين عامى ١٨٦٠ ، ١٩٠٠ لم يقل عن ٦٧٦ ٠٠٠ ، وقد بلغ هذا العدد ، منذ ذلك الحين ، أرقاماً شبه خيالية . ومن المخترعات المهمة التى ترجع إلى نهاية القرن الثامن عشر : آلة حلج القطن لإيلى هويتنى ، وسفينة روبرت فولتون البخارية ، وآلة إيلياس هار للخطاطة ، ومطاط تشارلز جودير المقسى ^(١) ، وآلة الحصاد التى اخترعها سايرس ماكورميك وأوبيد هسى في وقت واحد تقريباً . بيد أن إنتاج الأجهزة الجديدة على نطاق واسع تلكا حتى نمو صناعة الصلب وإدخال الكهرباء على الصناعة .

وتوحى أية قائمة موجزة لأهم المخترعات الجديدة بصورة عن دورها في صنع أمريكا الحديثة . فقبل الحرب المكسيكية ، كان صمويل إف . بى . مورس ، وهو رسام أمريكي هجر الرسم إلى العلم ، قد توصل إلى مبادئ البرق (التلغراف) الكهربائى ، وأقنع الكونجرس بتقديم مساعدة مالية لمد الأسلاك من واشنطن إلى بلتيمور . وفي سنة ١٨٥٦ تكونت شركة ويسترن يونيون لاستغلال الاختراع ، فسرعان ما مدت هى وشركات أخرى شبكة في أرجاء القارة من الأعمدة والأسلاك . وبدأت الجهود في مد خط عبر المحيط الأطلنطى في الخمسينات ، بيد أنه لم يتهأ لشركة جريت ويسترن مد خط دائم وموفق من نيوفوندلاند وإيرلندا حتى سنة ١٨٦٦ ، وبادرت وكالة أنباء أسوشيتيد برس

(١) المطاط المقسى ، نوع من المطاط يعالج بهادة الكبريت لزيادة متانته — المترجم .

٢٩٧ قيام المشروعات الكبيرة

إلى الإبراق بخطاب وليم إمبراطور بروسيا في برلمانه كاملاً مقابل ما يناهز ستة آلاف دولار ، حتى يتسنى للأمريكيين تقدير فوائد العلم التطبيقي . ولقد عرض مهاجر إسكتلندي ، هو ألكسندر جراهام بل ، جهازاً للهاتف في سنة ١٨٧٦ ، ولم تنقض بضعة سنوات حتى كان في كل مكتب تجارى وصناعى جهاز هاتفى ، وكادت الأسلاك تحجب سماء المدن الكبرى . وبعد ربع القرن ، كانت شركة أمريكا تليفون آند تليجراف قد تكونت برأس مال قدره ربع بليون دولار .

وسار التحسن في النقل خطوة فخطوة مع اتساع الدولة . وأدى استعمال إشارات الحركة الأتوماتيكية ، والفرملة الهوائية ، وأداة الربط بين مركبات القطار ، ثم — بعد سنة ١٩٠٠ — المركبات المصنوعة من الصلب . . أدى هذا كله إلى الإقلال من خطر السفر بالسكك الحديدية ، كما أن إدخال مركبات بولمان للنوم جعله أكثر إراحة . ولقد ظل الأمريكيون طيلة الشطر الأول من الثمانينات يجرون التجارب على السكك الحديدية الكهربائية ، وقبل نهاية ذلك العقد من الزمن ، كان عدد من المدن ، قد يبلغ العشرين ، يمتلك مركبات الترام ، تدار ببكرة تحملها ذراع وتنقل الكهرباء من سلك علوى . وظهر اختراع السيارات التى تستخدم الجازولين في التسعينات ، وقد أسهم هنرى فورد ، ببراعته الهندسية وحذقه في مجال الأعمال ، بقسط كبير في جعلها ضرورة عالمية . ويقول في ذكرياته ، إنها في البداية :

اعتبرته شيئاً مزعجاً ، إذ كانت تحدث ضوضاء ، وتفزع الجياد . كما أنها كانت تعرقل حركة المرور . ذلك لأن حشداً من الناس كان يجتمع حول سيارتى ، إذا أنا تركتها في مكان من المدينة ، قبل أن يتسنى لى الشروع في تحريكها ثانية . ولو أنى تركتها وشأنها ، ولو لدقيقة واحدة ، لحاول شخص شديد الفضول أن يديرها . وأخيراً ، اضطرت إلى أن أحمل سلسلة ، وأن أربطها إلى أحد أعمدة الإضاءة كلما تركتها في أى مكان .

ولقد شهد هذا العقد ذاته من القرن ، تجارب إس. بى. لانجلى الجريئة ، على الآلة الطائرة ، التى قدر لها أن تغير مقادير الدول في حياة أولئك الذين كان يهزأون بها . وأدى الاختراع إلى زيادة سرعة نشاط المشروعات التجارية والصناعية ، وأدخل على مكاتب الأعمال أعداد كبيرة من النساء والمستخدمين الكتابيين ، وزادت أهمية

المواصلات . فأصبح الهاتف بخطى سريعة لازمة لا غنى عنها لكل مكتب ومتجر . وطُرحت الآلة الكاتبة في السوق في سنة ١٨٧٣ ، وكانت نتاجاً مشتركاً لاثنين من المخترعين في ميلووكي ، هما شولز وجليدن . وفي العام التالي ، كان مارك توين يوقع عليها رسالة جاء فيها : « بوسعك أن تضطجع في مقعدك وأن تستخدمها . وهي تكسب قدراً كبيراً من الكلمات في الصفحة الواحدة دون أن تثر الأمور في غير تناسق ، أو تبعثر بقع المداد » . وسرعان ما أصبحت الآلة في كل مكان ، وأصبح كل مكتب للأعمال يضم نسبة من الكاتبات عليها . وكفلت آلات الجمع وآلات تسجيل المدفوعات النقدية الدقة في المحاسبة ، ويسرت آلات طبع العناوين إغراق الجمهور بمنشورات إعلانية ودعائية دون ارتقَاب طلب منه ، كما أن البطاقة الفهرسية أعانت على جعل المكتبات الأمريكية خير المكتبات وأكثرها ملاءمة في العالم . وأحدثت آلة صف الحروف اللينوتايب ، وآلة هو للطباعة الروحية ، وعملية النسخ الكهربائي للمطبوعات انقلاباً في طباعة الصحف والكتب .

ولقد أثرت الكهرباء على الحياة الاجتماعية للأمة تأثيراً مباشراً ، بسبب أهميتها للصناعة والنقل والمواصلات . ولقد سجل مهندس شاب من أوهايو ، يدعى تشارلز برش ، في سنة ١٨٧٨ ، اختراعه لمصباح قوسي بادرت بعض المدن التقدمية إلى استخدامه في إضاءة الطرق . وكان المصباح المتوهج اختراعاً أكثر اتساقاً بأنه عمل ، وقد أعده توماس إيه . إديسون في وقت سمح له بإضاءة بيته به عندما انتخب جارفيلد رئيساً للجمهورية . ولقد كانت الإمكانيات التجارية للإضاءة الكهربائية هائلة . ففي سنة ١٨٨٢ أنشأ إديسون محطة لتوليد الكهرباء وتوزيعها في نيويورك ، وإن هي إلا سنوات قلائل حتى كان الدهاء من الساسة يظفرون بإجماع الأصوات في مقابل إمداد المدن بالكهرباء . وأخذ صراع الطاقة يتطور . ففي التسعينات قام إديسون بتجاربه على آلة للصور المتحركة ، فلم تنقُض عشر سنوات حتى كان التاريخ التجاري للسنيما قد بدأ ، وإذا بهذا الوسيط القوي التأثير يوجه صوب حملة الغزو التي قدر لها أن تحمل الكلام ، والطباع ، والعادات الأمريكية إلى أقصى أركان الكرة الأرضية . أما الإذاعة اللاسلكية ، التي لم تكن أقل أهمية في متضمناتها الاجتماعية ، فقد دخلت مجال الاستخدام الفعال بُعيد الحرب العالمية الأولى ، وإن هما إلا عقدان من الزمن حتى أصبح في كل بيت جهاز للراديو خاص به . وقد زاد الهاتف والمصباح والسينما والراديو

قيام المشروعات الكبيرة ٢٩٩

متعة الحياة ومجالاتها بدرجة تفوق القياس ، وكان لها دور كبير في تخطيط العزلة وتوحيد العادات الاجتماعية ، مهما يقال في تقدير قيمة هذا التطور . ولما كان استخدامها عملياً يتطلب أموالاً طائلة ومنظمات واسعة النطاق ، فإنها أسهمت بنصيب كبير في تعجيل نمو المشروعات الكبيرة .

وبعد أربعين عاماً من إتمام أول خط حديدي يجتاز القارة الأمريكية الشمالية بأسرها ، اكتملت شبكة السكك الحديدية إلى حد كبير ، وأخذت تنقل آلاف الملايين من أطنان البضائع في كل عام ، ونهضت الملاحة البحرية من ركودها الطويل بدرجة كافية لجعل العلم الأمريكي مألوفاً مرة أخرى في البحار السبعة ، وأصبح خمسون مليون طن من الخامات والغلال تجتاز قناة سولت سانت ماري ، وكانت قناة بناما على وشك أن تربط بين المحيطين الأطلنطي والهادي . كانت أنوال النسيج الأوروبية تصبى إلى القطن الأمريكي ، والعاملون عليها يصبون إلى القمح ولحم الخنزير الأمريكيين ، وفي نصف القرن الذي أعقب أبوماتوكس ، حظيت الولايات المتحدة بميزان تجارى موات لها بازدياد مطرد ، فتجاوز بليونين وربيع البليون من الدولارات ، ولم تحن سنة ١٩١٠ ، حتى كانت صادراتها السنوية قد تجاوزت البليونين .

وظل سيل الأيدى العاملة كافياً لإشباع الطلب عليها ، وكان معظمها رخيصاً . فكان يتدفق على المراكز الصناعية ملايين من العمال : من المزارع ومن القرى الريفية ، من صفوف النساء والأطفال ، من مدن إيطاليا والنمسا وبولندا المزدهمة . فازداد مجموع العاملين الأجراء في الثلاثين عاماً التي أعقبت سنة ١٨٧٠ ، من اثني عشر مليوناً إلى تسعة وعشرين مليوناً ، غير أن المشتغلين بالصناعة منهم ارتفع من أقل من ثلاثة ملايين إلى سبعة ملايين . ومن الحقائق التي تلقى على الموقف ضوءاً ، أن نسبة النساء العاملات في الصناعة ارتفعت من الثمن إلى الخمس ، كما ارتفع في الوقت ذاته عدد العمال من الأطفال ، بين العاشرة والخامسة عشر من العمر ، إلى مليون وثلاثة أرباع المليون . وجمع من شعوب أوروبا الجنوبية والشرقية ، الأكثر فقراً وأقل مهارة ، عدد مطرد الازدياد من المهاجرين ، فجلب العقد الأول من القرن الجديد مليونين من الشعوب التسعة في المملكة الثنائية^(١) ، ومليونين آخرين من إيطاليا ، ومليوناً ونصف المليون من

(١) النمسا والمجر في عهد أسرة هابسبورج — المترجم .

٣٠٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

روسيا . وكان معظمهم راغبين في العمل بأى أجر يحصلون عليه ، فكان متوسط الأجر السنوى في الصناعة في سنة ١٩٠٩ ، يزيد على خمسمائة دولار بقليل جداً . وكان هذا أقل مما ينبغي ، بالرغم من أن الدولار إذ ذاك كان يبتاع ستة أرطال من اللحم البقرى .

بقى عنصر واحد في نسيج الحركة الصناعية الناهضة ، جدير بالاعتبار ، ألا وهو دور الحكومة . فلقد تولت المصالح التجارية والصناعية ، طيلة الجيل الذى أعقب الحرب الأهلية ، السيطرة على الهيئات التشريعية في الولايات ، وليس على الهيئات التشريعية القومية فحسب . واستمر نظام الحماية الجمركية ، الذى أقيم خلال الحرب كإجراء مؤقت طارئ ، وكانت صناعات الحديد والصلب والنحاس والرخام وإنتاج الصوف الخام والنسيج ، والأواني الخزفية ، الأكثر انتفاعاً بوجه خاص . واقتدت الولايات والمجتمعات المحلية بالكونجرس في منح المساعدات للسكك الحديدية ، حتى ظفرت الخطوط الحديدية في مجموعها بما تناهز قيمته سبعمائة وخمسين مليون من الدولارات من الأرض والأسهم والإعفاءات الضريبية وغيرها من الهبات . واتخذت السلطات الحكومية مسلكاً متساهلاً إزاء الاستيلاء على الأراضى ، وإزاء اقتطاع أشجار الخشب ، ورعى الماشية في الأملاك العامة ، وقامت ثروات عديدة على استغلال ممتلكات الدولة . ولم يبد الكونجرس ميلاً يذكر نحو تقنين تنظيم المشروعات الخاصة ، فكانت المحاكم تمنح استثناءات ليست بالقليلة في التشريعات المقيدة لتلك المشروعات والصادرة عن الولايات . ولم تواجه فلسفة « الفردية الغشوم » تحدياً فعالاً إلا بعد نهاية القرن .

الحديد والصلب

من الممكن أن نتعقب العلاقات المتبادلة بين هذه العوامل ، فيما قدر له أن يكون أهم فصل في التطور الصناعى الأمريكى ، في قصة الحديد والصلب . فقد كان الحديد يُستخرج في أمريكا من أوائل أيام الاستعمار . وقد أنشأ جون بيركل في سنة ١٦١٩ ، مصنعاً لتشكيل الحديد في فولينج كريك بولاية فيرجينيا ، وقد كتب وليم بيرد بعد قرن من الزمن ، وصفاً حياً في كتابه « تقدم المناجم » في الغرب . وقد حصلت شركة تجارية في باي كولونى على أرض دون مقابل ، وإعفاء ضريبى ، واحتكار لإنشاء مصنع

قيام المشروعات الكبيرة ٣٠١

للحديد ، وأقام ايثان آلين قائد فتيه الجبل الأخضر فرنًا عاليًا لصهر الحديد في ليتشفيلد هيلز بولاية كونكتيكت . وقد أنتجت مصانع الحديد في بنسلفانيا الشرقية قذائف المدافع لقوات واشنطن الاتحادية ، كما أن مصانع ستيرلينج فورج ، بالقرب من ويست بونيت صاغت أعظم السلاسل التي شددت عبر نهر هدسن لاعتراض طريق الأسطول البريطاني . وكانت أهم مصانع الحديد الأول مصانع رامبو في شمال جيرسى ، الولاية التي قدر لبيتر كوبر ، في سنوات لاحقة ، أن ينشئ فيها مصانع كبيرة ، وقدر لأبرام هويت أن يبتكر طريقة الأفران المفتوحة لإنتاج الصلب . وظهرت بعد سنة ١٨٠٠ مصانع مزدهرة للحديد في بيتسبرج ، غربى جبال أليجنى ، حيث أتاحت الظروف اجتماع الخام ، والفحم ، والجير ، والغابات لإنتاج الفحم النباتى . وقد قامت مصانع الحديد هناك في وقت أتاح صب قذائف المدافع للكومودور بيرى والجنرال جاكسون .

على أن مصانع الصهر والتشكيل الأولى هذه كانت مشروعات صغيرة ، فلم يكن إنتاج البلاد كلها من الحديد الخام المصهور يتجاوز نصف المليون من الأطنان في العام ، ولم تكن صناعة الصلب ذات قيمة تذكر ، حتى سنة ١٨٥٠ . ولم تكن فرص ازدياد الإنتاج مشجعة ، لأن كميات الحديد الخام لم تكن كافية . كما أن تكاليف تصنيع الصلب كانت تصد عن الإقبال عليها . ثم حان انقلاب من أكبر الانقلابات في تاريخ الصناعة . ففي سنة ١٨٤٤ ، لاحظ القائمون بعمليات المساحة ، على طول الحدود بين ويسكونسين وأعالى متشيجان ، أن بوصلاتهم تتذبذب من جانب لآخر تذبذباً شديداً غير منتظم ، فرفعوا تقارير عن وجود طبقات سطحية كبيرة من الحديد الخام الأسود . وكان الهنود قد ظلوا أجيالاً يروون قصصاً عن جبل خرافى من الحديد . وفي سنة ١٨٤٥ ، قاد زعيم لعشائر تشيبويوا يدعى مادجيجيجيج أحد الباحثين عن النحاس إلى سلسلة جبال ماركييت ، والمطللة على بحيرة سوبيريور ، فسرعان ما تدفق على البطاح مشات من الباحثين بجنون عن الثروة ، يسعون للحصول على تصريحات استخراج النحاس والحديد . وكان نقل الخام الثقيل بالسكك الحديدية باهظ النفقات وعسيراً ، فلم يكن ثمة بد من طريق مائى . واقترحت متشيجان مشروع قناة حول شلالات نهر سانت ماريز ، تربط بحيرتى هورون وسوبيريور ، ولكن هذه الفكرة صادفت تسفيها حتى من هنرى كلاى ، أبى نظام النقل الأمريكى ، وقال : « إنه مشروع يفوق أقدم توطن في الولايات المتحدة ، إن لم يكن في القمر » . وأنشأ القناة شركة من القطاع

٣٠٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

الخاص والطاقة الدافعة لدى تشارلز هارفى الشاب ، وفتحت للسفن فى سنة ١٨٥٥ ، ولم يمض وقت طويل حتى كانت تمر فيها من السفن أكثر مما يمر بأية قناة أخرى فى العالم . وأنشئت أرصفة للشحن فى ماركيت وآشلند وإيسكانابا ، ثم أخذت أساطيل من السفن الكبيرة تحمل ملايين الأطنان من الحديد الخام إلى المصانع البعيدة ، بعد فتح سلسلة جبال مينومنى ، المتجمعة على الشاطئ الغربى لبحيرة متشيغان ، وسلسلة جبال جوجيك الغنية بالحديد ، والممتدة على جانبى حدود متشيغان ويسكونسين . ولم يمض وقت طويل حتى تضاءلت مستودعات الخام فى شمال شبه الجزيرة بالقياس إلى المناجم التى إلى الغرب من بحيرة سويريور ، بل إن الحديد كان يحف بالبحيرة الشاسعة بأسرها . ولقد صادفت أحد رجال المساحة سلسلة جبال فيرميليون فى السبعينات من القرن التاسع عشر ، فأنشئ فى سنة ١٨٨٤ ، برأس مال شرقى ، خط حديدى يصل بينها وبين البحيرات ، وإن هى إلا عشرون عاماً حتى كانت جبال فيرميليون تصدر ثلاثين مليون طن من الحديد الخام . وفى تلك الأثناء كان الاخوة الخمسة ميريت ، من دولوث ، يجوبون الفياق غرب البحيرة . وعلى بعد خمسة وسبعين ميلاً إلى الشمال الغربى من دولوث ، عند الحد المائى للقارة ، عثروا على سلسلة ميسابى ، أم السلاسل جميعاً ، وأغنى سلاسل العالم بالحديد إلى درجة أسطورية . كان هذا فى سنة ١٨٩٠ ، ولم ينقض عامان حتى كان ثمة خط حديدى يجرى على أرض غير مستوية ، خلال غابات الأشجار والنباتات الشوكية والمستنقعات ناقلاً مليون طن من الحديد الخام . وفى خلال عشر سنوات ، صبت ميسابى أربعين مليون طن فى مصاهر ومصانع بيتسبيرج وشيكاغو .

كان لموارد الحديد الخام هذه ، فى شمال مينيسوتا ، ميزات لا تمتلكها أية مناجم أخرى فى أى مكان من العالم ، وكان لها الفضل الأكبر فى تفوق أمريكا فى إنتاج الحديد والصلب . وما كان لها من نهاية فى الواقع ، ولا يمتد الحديد فيها فى عروق صخرية ، دفينة فى الأرض ، وإنما فى كميات مفككة تحت السطح مباشرة ، وفى هذا قال أحد الاخوة ميريت : « لو أن الجنون دفعنا إلى أن نركل الأرض تحت أقدامنا ، حيث كنا نفق مباشرة ، لكان من المحتمل أن ننثر تراباً يحتوى على أربعة وستين فى المائة من الحديد الخام . . هذا إذا ركلنا بقوة كافية لدفع أقماع الصنوبر عن الأرض » . كان الخام نقياً بدرجة غير مألوفة ، ومن الممكن رفعه بمجارف بخارية ، وكان جد قريب من البحيرات

قيام المشروعات الكبيرة ٣٠٣

الكبرى ، مما ييسر شحنه إلى المناطق الصناعية ومناطق الفحم بنفقات زهيدة . ولكن ، كيف يتسنى تحويل الحديد الأحمر إلى صلب أبيض ؟ قبل الحرب الأهلية بسنوات قلائل ، روادت صانع الحديد وليم كيل ، في بلدة إديفيل الصغيرة بولاية كنتكي ، فكرة غريبة ، تلك هي أن بوسعه تحويل الحديد إلى الصلب بتمرير الهواء البارد خلاله ، وبرهن على أنها لم تكن خيالية البتة . وبعد فترة قصيرة ، خطرت الفكرة ذاتها للمهندس الانجليزي هنرى بيسيمر ، ولم يكتف بإثبات صحتها ، بل إنه طبقها عملياً بنجاح . وكانت عملية بيسيمر ، كما أصبحت عند اكتمالها ، غاية في البساطة . إذ كان الحديد الخام المصهور يصب في وعاء كمثرى الشكل ، يمرر فيه الهواء البارد . فكان أوكسجين الهواء والكربون والسيليكون الموجودان في الحديد يثر صراعاً جباراً مصحوباً بالصراخ والهدير ، بينما تثبت فتحة جهاز التحويل ناراً كأن الوعاء وحش أسطوري ، فترتفع ألسن اللهب أربعين أو خمسين قدماً في الهواء ، ويتغير اللون من أحمر إلى بنفسجي ، ومن برتقالي إلى أبيض . وإن هي إلا عشر دقائق حتى تنتهي معركة العناصر ، وتحترق شوائب الحديد الخام تماماً ، ويقطب وعاء التحويل ليسكب الصلب الملتهب في قوالب . وبعد زمن ، حلت عملية جديدة لصنع الصلب ، هي الفرن المفتوح ، محل طريقة بيسيمر ، بيد أن الغلبة كانت لبيسيمر طيلة ربع القرن الأخيرة من الزمن .

لقد يسر الخام والفحم والعلم صناعة الصلب ، وكانت روح الإقدام والمهارة ورأس المال هي كل ما تدعو إليه الحاجة . وكان أندرو كارنيجي قد وفد من دنفيرملين باسكتلندا ، وهر في الثانية عشرة من عمره ، إذ أن ابتكار نظام المصنع قضى على أبيه بالإفلاس ، وكان من أقطاب صناعة النسيج . وكان للأسرة أقارب في بيتسبيرج ، فيممت شطر هذه المدينة الحافلة بالرخاء ، عند ملتقى نهري آلليجنى ومونونجاھيلا . وحصل أندرو على عمل كصبي يلف الغزل على البكرات ، ثم تخرج فنياً للمراجيل البخارية ، وانتقل للعمل بمكتب للبرق ، وانتهى به الأمر إلى العمل في السكك الحديدية ببينسلفانيا . وكان أميناً ، حاذقاً ، مجتهداً ، شديد اليقظة ، أكسبه سحر الطباع الذى لم يفارقه قط ثقة من هم أكبر منه سناً وصدقتهم . وقبل أن يبلغ الثلاثين ، كان دخله السنوى أربعين ألف أو خمسين ألف دولار ، درتها عليه استشارات ذكية في النفط والحديد وشركات القطارات السريعة ومركبات النوم . ومن الدلائل على بصيرته

٣٠٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

واقدمه أنه قرر في سنة ١٨٦٥ أن يركز اهتمامه على الحديد ويتخلى عن اهتماماته الأخرى . وإن هي إلا سنوات قلائل ، حتى كان قد أنشأ أو ابتاع أنصبه في شركات لصنع الجسور والقضبان والقاطرات الحديدية . فلما بلغ الثلاثين من العمر ، انتقل إلى نيويورك ، وبدأ يعمل كمندوب للمبيعات لحساب شركاته العديدة ، وكسمسار لعدد من شركات السكك الحديدية والحديد .

ومع أن كارنيجي تلكأ في انتهاز طريقة بيسيمر ، فإنه حين فعل جعل تحوله كاملاً ، وكان المصنع الذى أقامه في سنة ١٨٧٥ ، في ساحة معركة برادوك ، على ضفاف نهر مونونجاھيلا ، أكبر مصانع الدولة . ولم ينقض عام حتى كان إنتاجه من صلب بيسيمر يفوق إنتاج كل المصانع الأمريكية الأخرى مجتمعة . وكان يقطاً لكل تحسين جديد ، سريعاً في الإفادة من أوقاته الضائعات ليشتري مصانع منافسيه أو يعمل على إفلاسها ، وتحالف أوثق تحالف مع شركة بنسلفانيا وغيرها من شركات السكك الحديدية ، واستعان بمساعدين من الدهاء ، أمثال إتش . سى . فريك وتشارلز شواب ، مما جعله في مركز استراتيجي يؤكد زعامته لصناعة الصلب . وأخذت إمبراطوريته في النمو عاماً بعد عام ، فضمت مصانع جديدة للصهر والتشكيل ، وموارد للفحم والكوك والحديد الخام في سوبيريور ، وأسطولاً من السفن البخارية في البحيرات الكبرى ، وميناء على بحيرة إيري يتصل بها خطوط حديدية . كانت في الواقع شركة مساهمة ذات احتكار رأسى فكانت صناعة الصلب التى تمتلكها متحالفة أوثق تحالف مع عشرات غيرها ، ويوسعها أن تفرض اتفاقات مواتية لها مع السكك الحديدية وخطوط الملاحة ، كما كانت تمتلك من رأس المال ما يكفي للتوسع ، ومن العمال أفضلهم ، ومن المديرين أكثرهم ذكاء ، فلم يشاهد مثيلها في أمريكا من قبل ، وإن كانت الإمبراطورية التى أقبل روكفلر على إنشائها قد أخذت تسعى لتضارعها سلطاناً . وقد أنشئت في سنة ١٨٧٨ برأس مال قدره ربع المليون من الدولارات ، فسرعان ما ارتفعت أرباحها إلى خمسة ملايين في العام . وعندما رفع رأس مال المشروع في سنة ١٩٠٠ إلى ٣٢٠ مليوناً ، كان ينتج ثلاثة ملايين من أطنان الصلب في العام ، ويدر أرباحاً سنوية قدرها ٤٠ مليون دولار .

بقى عامل مهم واحد . . القوى العاملة . وهنا أيضاً تعتبر تجربة صناعة الحديد وشركة كارنيجي نموذجية . كان عمال مناجم الحديد يجمعون في السنوات الأولى من كورنول وويلز ، في المقام الأول . ثم جاء السويديون والفنلنديون ، وأعقبهم سيل من

قيام المشروعات الكبيرة ٣٠٥

السلافين والمجريين . وهذا التابع بالذات يشاهد بين أولئك الذين يوقدون الأفران ، ويرفعون الكرات الملتهبة من الصلب المصهور إلى القوالب . ولقد أظهر إحصاء في سنة ١٩٠٧ أن أكثر من ثلثي العمال في مصانع كارنيجي كانوا أجنبيي المولد ، وأن الأغلبية الغالبة من هؤلاء كانوا من جنوب أوروبا وشرقها . كانوا أشداء . . ولم يكن ثمة بد من هذا ، إذ كانوا يعملون اثنتي عشرة ساعة في اليوم ، وسبعة أيام في الأسبوع ، في جحيم من الحرارة والضجيج . ولما كان ثمة سيل وافر من العمال غير المهرة ، فإن النقابات نادراً ما كانت تحرص تقدماً في الصناعة ، فإذا أحرزت ، فإنها كانت تقمع في ضراوة .

هكذا توفرت لهذه الصناعة كل العناصر التي تكفل لها زعامة عالمية ، عدا عنصر واحد : توفرت لها الخامات والنقل والعلم والاختراع والمهارة الإدارية للمشروعات وروح الإقدام والقوى العاملة الرخيصة ، وأخيراً ، أدى نمو السكك الحديدية واستخدام الصلب في البناء إلى ضمان الأسواق . وكان العنصر الوحيد الذي مست إليه الحاجة فوق هذه العناصر ، هو : الحماية إزاء المنافسة الأجنبية . وقد عنيت بذلك تعريفه جمركية أملى أقطاب صناعة الحديد موادها ، كان فرض رسوم قدرها ثمانية وعشرون دولاراً على الطن من القضبان الفولاذية كفيلاً بمنع استيرادها ، حتى أن كارنيجي نفسه لم يلبث إن اعترف بأن من الممكن تخفيضها .

وأخذت صناعة الحديد والصلب الأمريكية في التقدم ، في رعاية هذه الإمكانات . فلم يحن عام ١٨٩٠ ، حتى كان الإنتاج يفوق إنتاج بريطانيا ، ولم يحن عام ١٩٠٠ حتى كانت الولايات المتحدة تصنع من الحديد والصلب ما يزيد على إنتاج بريطانيا وألمانيا معاً . وحوالي سنة ١٩٢٠ كانت أفران الصهر العالي تشكل سبعة وعشرين مليون طن من الخام المصهور ، واثنين وأربعين مليون طن من الصلب ، وقد كشفت مطالب الحرب العالمية الثانية عن إمكان رفع الطاقة الإنتاجية إلى خمسة وثمانين طن عند الضرورة .

كذلك يبين تاريخ شركة كارنيجي ، من ناحية أخيرة ، نهضة المشروعات الكبيرة في الولايات المتحدة . فإن الاسكتلندي صاحب المشروعات ظل متسلطاً على الصناعة طويلاً ، بيد أنه كان من المستحيل بالنسبة له أن يهars احتكاراً للموارد الطبيعية والنقل والمنشآت الصناعية المتعلقة بإنتاج الصلب . فكان روكفلر يمتلك أهم مناجم ميسابي وأسطولاً من البواخر في البحيرات الكبرى ، وكانت شركة تنيسى للفحم والحديد تسيطر

٣٠٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

على موارد شاسعة في الجنوب ، وقامت شركات جديدة للصلب ، مثل الصلب والأسلاك الأمريكية ، والاتحادية . والبنسلفانية ، لتحدي سيطرة كارنيجي . فهدد هذا ، وقد أثارته المنافسة ، بأن يحصل على مناجم جديدة ، وينشئ أسطولاً كبيراً من سفن النقل ، وينصرف إلى صناعة الأنابيب ، والأسلاك الشائكة ، وألواح الصفيح ، ومائة سلعة أخرى . ودبت في الصناعة حرب مدمرة ، فتحول رجال الصلب في جزع إلى الأفكار الرامية إلى الائتلاف والتجمع . وأثر كارنيجي أن يبيع حصصاً من شركاته بالثمن الذي يفرضه ، على أن يخوض معركة ، إذ كان وقد تقدمت به السن يرغب في التقاعد والنزول عن أمواله . لذلك أصغى بنفس راضية إلى اقتراح بإدماج ممتلكاته في منظمة جديدة تضم أهم مشروعات الحديد والصلب في البلاد . وفي سنة ١٩٠١ ، ولدت شركة صناعات الصلب المساهمة في الولايات المتحدة ، برأس مال قدره ١٤٠٠ مليون دولار ، وهو مبلغ أكبر من إجمالي الثروة القومية قبل ذلك بقرن واحد . وأن يحقق جون دي . روكفلر أرباحاً طائلة من مشروعه الموفق في جبال ميسابي .

الشركات المساهمة والاتحادات الاحتكارية

كان تكوين شركة صناعات الصلب المساهمة في الولايات المتحدة مثلاً لعملية ظلت تتطور ثلاثين عاماً ، وكان مقدراً لها أن تستمر دون هواده حتى الزمن الحاضر . تلك هي تجمع المشروعات الصناعية المستقلة في هيئات قوية السلطان (إمبراطوريات Empires) اتحادية أو ذات نظام مركزي . وما كانت شركة كارنيجي في أوج سلطاتها سوى مجرد واحدة من حوالى ستمائة مؤسسة للحديد والصلب ، وقد أنشئت شركة صناعات الصلب المساهمة في الولايات المتحدة لتستوعب أو تفضي على معظم هذه المؤسسات ، وتتولى صناعة ثلثي منتجات الصلب في البلاد . وخلال جيل آخر من الزمن ، تولت مائتا شركة مساهمة عملاقة للصناعات نصف تجارة وصناعة الأمة ، بينما تولى النصف الآخر ثلاثمائة ألف شركة مساهمة أصغر .

كانت الولايات المتحدة في عهد لينكولن دولة مشروعات صغيرة ، فما كان الاحتكار معروفاً في الواقع ، وكانت شركة آستور القديمة للفراء ، والاتحاد الغربي الحديث

٣٠٧ قيام المشروعات الكبيرة

الإنشاء هما أقرب المشروعات إلى الاحتكار منذ الاحتكارات الملكية الضعيفة في أيام الاستعمار . إذ كانت كثير من المجتمعات ، لاسيما في الشمال ، تستمتع بكفاية ذاتية إلى حد كبير فكان الأثاث يستمد من النجار المحلى ، والأحذية من صانع الأحذية في الجيرة ، واللحم من القصابين الصغار ، والمركبات من صانع العربات في المنطقة . وكانت الصناعة والتعدين ينتشران في شكل منشآت متناثرة ، متباعدة . وكان هناك ما يزيد على مصنع لصناعة المحارث وأدوات الفلاحة والحصاد . وكان في بنسلفانيا وحدها أكثر من مائتي معمل لتكرير النفط ، ومائة من أصحاب الأملاك يقتسمون فيها بينهم ثروة مناجم شركة كومستوك للفضة . وإن هي إلا أربعون عاماً حتى كان هذا كله قد تغير ، فصارت شركة إنترناشونال هارفيستر تصنع كل الأدوات الزراعية تقريباً ، واستحوذت شركة استاندارد أويل على احتكار فعلى لتكرير النفط ، وامتلك مناجم كومستوك الاتحادان أو ثلاثة للشركات الشرقية ، واستأثرت باستغلالها .

كان التغير قد بدأ خلال الحرب الأهلية ، واستمر بسرعة متزايدة بعد السبعينات . فقد فطن رجال الأعمال الأذكى إلى أن بوسعهم تخفيض نفقات الإنتاج ، والسيطرة على الأسعار — وهذا هو الأهم — لو أنهم تمكنوا من جمع الشركات المتنافسة في منظمة واحدة . وكانت الوسيلة الرئيسية لتحقيق هذه الغايات هي الشركات المساهمة ^(١) ، ثم ظهر نظام ائتلاف الشركات ^(٢) ، ثم الاتحاد الاحتكاري ^(٣) . كانت الشركة المساهمة ابتكاراً لإيجاد شخصية رمزية تستطيع الاستمتاع بالميزات القانونية ، ولكنها تتفادى معظم المسؤوليات الخلقية التي يلتزم بها الكائن البشرى . فكانت تستمتع بحياة دائمة ، وسلطة إصدار أسهم وسندات ، ومسئولية محدودة بالنسبة للديون ، كما كانت تخضع لقيود مرسوم إنشائها ، وكان لها حق ممارسة أعمالها في كل مكان من الدولة . أما الترسر فكان في الواقع تجمعاً لشركات مساهمة ، يضع بموجبه حملة الأسهم في كل شركة ،

(١) Corporation : شركة مساهمة ، أى شركة من عدة أفراد ، تعمل تحت اسم مشترك ، وتكون ذات شخصية قانونية منفصلة عن أعضائها ، الذين تمثلهم أسهم أو سندات قابلة للتحويل دون المساس باستمرار وجود الشركة — المترجم .

(٢) Pool : تجمع عدد من المشروعات المتنافسة ليكون عملها جماعياً ، وأرباحها جماعية تقسم فيما بينها حسب أنصبتها — المترجم .

(٣) Trust : اتحاد عدد من المشروعات الكبيرة ، بالنزول عن سندات هذه الشركات وقبول نصيب في هيئة سيطرة على كل هذه المشروعات ، وتكون من قوة النفوذ عادة بحيث لا يتسنى مزاحمتها — المترجم

أسهمهم في أيدي أوصياء يديرون أعمال الجميع . وما لبث الترتست أن أصبح يعنى أى تجمع تجارى وصناعى كبير . كذلك كانت ميزات ائتلافات الشركات – الترسنات – واضحة ، فقد يسرت التجمع على نطاق واسع ، وركزت الإشراف والإدارة ، وقضت على الوحدات الأقل كفاءة . وحشدت حقوق الاختراع ، وأوتيت بفضل مواردها المالية القدرة على التوسع ، ومنافسة الشركات الأجنبية ، ومساومة العمال ، واستخلاص شروط مناسبة من السكك الحديدية ، وممارسة نفوذ هائل فى الأمور السياسية الخاصة بالولاية والقومية على السواء .

كان التجمع ظاهرة شملت العالم كله ، ولكنها كانت فى الولايات المتحدة أبرز منها فى أى مكان ، اللهم إلا ألمانيا . وكان من أسباب ذلك توفر الموارد الشاسعة التى ترتقب الاستغلال . على أنه كانت ثمة أسباب أخرى . فإن اكتمال شبكة السكك الحديدية كفّل للمنتجات المصنوعة سوقاً محلية ، وأتاحت قوانين براءات الاختراع احتكاراً للعمليات الصناعية ذات الأهمية الكبرى ، وأصبحت منح الأرض بسخاء والتأويلات المتحررة لقوانين الأرض أداة فى أيدي الشركات التى بلغت من الكبر ما يمكنها من الاضطلاع باستغلال موارد الخشب أو النحاس أو الفحم على نطاق واسع . ولقد أتاح النظام الاتحادى (الفيدرالى) لأية شركة ، أن تحصل على مرسوم بتكوينها فى أية ولاية تكون قوانينها متحررة وأن تمارس أعمالها فى ولايات أخرى ، كما إن سياسة الحماية الجمركية حالت دون المنافسة الأجنبية .

وكانت شركة استاندارد أويل هى التى تقدمت سواها فى هذا الطريق . فبينما كان منتجو النفط فى غرب بنسلفانيا منهمكين فى منافسة قاتلة ، أقبل رجل أعمال شاب ، صامت متقشف ، من كليفلاند بولاية أوهايو ، على شراء معامل التكرير المحلية فى غير ضجيج وإدماجها فى شركة وحدة . وقد كتب ابنه فيما بعد : لا سبيل لإنتاج ملكة الورود الأمريكية فى بهائها وتضوع عبيرها إلا بالتضحية بالبراعم المبكرة التى تنمو حولها . وفى سنة ١٨٧٢ ، أفاد روكفيلر من منظمة شركة تحسين الجنوب (ساوث امبروفمنت كمبانى) القصيرة العمر ، والتخفيضات المواتية من سكك حديد نيويورك سنترال وإيرى ، فى الحصول على سيطرة كاملة على تكرير النفط فى كليفلاند . وإذ تم له هذا ، انتقل إلى السيطرة على التكرير فى نيويورك وفيلادلفيا وبيتسبيرج . وأنشئت شبكة تسويق عالية الكفاءة ، وأعقبت ذلك السيطرة على خطوط الأنابيب ، ولم ينقض عقد من

٣٠٩ قيام المشروعات الكبيرة

الزمن ، حتى كان روكفيلر يمتلك احتكاً فعلياً لنقل وتكرير البترول . وفى سنة ١٨٨٢ ، برزت شركة استاندارد أوليل كأول ترست كبير ، ولقد قضت محاكم أوهايو بحله ، ولكنه سرعان ما قام من جديد كشركة مهيمنة^(١) ، تحت قوانين نيو جيرسى الأكثر سخاء ، ومضت فى طريقها دون عائق . ولم يحن عام ١٩٠٠ حتى كان روكفيلر قد نظم فوضى صناعة النفط ، وقضى على معظم منافسيه ، وجمع ثروة أسطورية فى الوقت الذى خفض فيه الأسعار وأقام أعظم احتكار فى البلاد .

وسرعان ما تبعت ذلك ترستات واحتكارات أخرى فى : زيت بذرة القطن سنة ١٨٨٤ ، وزيت الكتان سنة ١٨٨٥ ، وترست القصدير وترست الويسكى وترست السكر فى سنة ١٨٨٧ ، وترست الثقاب سنة ١٨٨٩ ، وترست التبغ سنة ١٨٩٠ ، وترست المطاط سنة ١٨٩٢ . وشرع رجال الأعمال المتحفزون ، يرسمون لأنفسهم مجالات للسيطرة ، مقتفين خطوات كارنيجى وروكفيلر . فقام أربعة من كبار المشتغلين باللحوم المعلبة ، هم فيليب دى . آرمور وجوستافس إف . سوفيت بإنشاء ترست للحم البقرى ، وسيطرت شركات ججينهايم على مناجم النحاس فى أريزونا ، ومناجم بوت بولاية مونتانا ، حيث أنتج « أغنى تل فى العالم » ما تناهز قيمته ألفى مليون دولار من النحاس فى ثلاثين عاماً . وكان آل ماكورميك قد أرسوا مكانتهم فى طليعة إنتاج آلات الحصاد ، فلما تعرض مركزهم للتهديد ، أنشأوا تجمعاً هو إنترناشونال هارفيستر كمبانى التى احتكرت هذا الميدان تقريباً ، وأنشأت أسرة ديوك ترست كبيراً للتبغ ، وحدث الأمر ذاته فى : الفضة والنيكل والزنك والمطاط والجلود والزجاج والسكر والملح والبسكويت والسيجار والويسكى والحلوى والنفط والغاز والكهرباء . وقد أظهر إحصاء فى عام ١٩٠٥ أن ٣١٩ ترست صناعياً ، برأس مال تجاوز سبعة آلاف مليون دولار ، قد ابتلعت حوالى ٣٥٠٠ مشروع مستقل سابق ، وأن ١٢٧ مرفقاً للمنفعة العامة (ومنها السكك الحديدية) برأس مال تجاوز ثلاثة عشر ألف مليون دولار ، ابتلعت حوالى ٢٤٠٠ مشروع صغير سابق .

تغيرت بهذا التطور الشامل حياة الإنسان العادى ، لاسيما إذا كان من سكان المدن . فإن كل ما كان يأكله أو يرتديه ، وأثاث بيته ، والأدوات التى كان يستخدمها ،

(١) Holding Company : شركة تمتلك أكبر عدد ممكن من أسهم شركات أخرى لتهمس عليها - المترجم .

٣١٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

ووسائل النقل التى يستعملها كانت فى الغالب من صنع ، أو خاضعة لسيطرة ترستات . فإذا جلس للإفطار كان لحم الخنزير من علب عباها ترست اللحوم ، وكان الملح الذى ينثره على البيض من صنع ترست متشيجان للملح ، والسكر الذى يضيفه إلى قهوته مكرر بواسطة ترست السكر الأمريكى ، وكان يشعل سيجاراً من صنع شركة التبغ الأمريكى بثقاب من إنتاج دياموند ماتش كمباني ثم كان يستقل للذهاب إلى عمله دراجة من إنتاج ترست الدراجات ، أو حافلة كهربائية تجرى بتصريح احتكارى ، على قضبان فولاذية صنعها ترست الصلب الأمريكى . ومع هذا ، فمن المحتمل أن طعامه كان أحسن ، ووسائل انتقاله أفضل مما كانت قبل جيل ، أما ما كان أكثر استعراء لانتباه الإنسان العادى ، فهو أثر الترستات على الحياة التجارية والصناعية فى مجتمعه . فإن الصناعة المحلية ذوت ، وتعطلت المصانع أو اندمجت فى سواها ، والممتلكات مرهونة لدى المصارف أو شركات التأمين الشرقية ، وكان الجيران — الذين لم يعودوا يشتغلون بالحساب أنفسهم وإنما لحساب شركات مساهمة بعيدة — معرضين لتقلبات سياسية لم تكن لهم عليها أى سلطان .

ولم تقتصر عملية التجميع والإدماج على الصناعة والتعدين وحدهما . بل إنها كانت أكثر ظهوراً فى مجالى النقل والمواصلات . فبعد الاتحاد الغربى (ويسترن يونيون) — وهو أقدم التجمعات الكبرى عهداً — جاءت شبكة بل تليفون ، ثم انتهى الأمر إلى أمريكان تليفون آند تلجراف العملاقة . ولقد رأى الكومودور فاندربيلت ، الشيخ الجبار ، من وقت مبكر أن كفاءة السكك الحديدية تتطلب توحيد الخطوط ، فجمع — فى الستينات — حوالى ثلاثة عشر أو أربعة عشر خطاً منفصلة فى خط واحد يصل ما بين نيويورك وبفالو ، وحصل فى العقد التالى من الزمن على خطوط شيكاغو وديترويت ، وبهذا ظهرت إلى الوجود شبكة نيويورك المركزية . وكانت ثمة إدماجات أخرى ، وسرعان ما انتظمت معظم الخطوط الحديدية فى البلاد ، فى خطوط رئيسية وشبكات تحت سيطرة فاندربيلت ، وجولد وهاريمان وهيل ، والممولين المصرفيين مورجان وويلمونت . ولقد جمع إى . إتش . هاريمان خط إللينوى المركزى ، وخطوط يونيون باسيفيك وساوذرن باسيفيك وعدة خطوط أخرى ، وأخذ يحلم بخلق مؤسسة موحدة تشمل البلاد كلها وكان المصرف جيه . بى . مورجان هو أكثرهم اقتراباً من تحقيق هذا الحلم .

وتصور نهضة بيت مورجان التطور الأخير ، وربما الأهم ، فى عملية التجميع . .

قيام المشروعات الكبيرة ٣١١

ألا وهو إنشاء ما يسمى الترس المالى . ففى سنة ١٨٦٤ ، عمد جونوس سبنسر مورجان - الذى ظل طويلاً يعمل فى بيع السندات الأمريكية للمستثمرين الأمريكين - إلى تعيين ابنه جيه . بيرون مورجان على رأس فرع أمريكى لمؤسسته . وإن هى إلا سنوات قلائل حتى أقدم مورجان الشاب على مشاركة البيت المصرى العريق دريكسيل ، فى فيلادلفيا ، وأصبحت شركة دريكسيل ومورجان آند كمبانى فى سنة ١٨٧٣ من متانة المركز بحيث انشقت على جاي كوك وددت تمويل الدين القومى بثلاثة أرباع البليون من الدولارات . وأدى فشل جاي كوك ، المدوى فى ذلك العام إلى بقاء بيت مورجان فى مركز متين ، وعندما طرحت بعد سنوات قلائل كمية هائلة من أسهم نيويورك سنترال فى الخارج ، ذاع صيتها . وحدد هذا الارتباط بشركة نيويورك سنترال اتجاه النشاط المالى الأكبر لهذا البيت المصرى لعشرين عاماً تالية . ظل مورجان طيلة الثمانينات يعيد تنظيم وتمويل السكك الحديدية ، موعلاً بنفذه على أوسع نطاق فى هذا الميدان الرئيسى . ولقد أدى فزع سنة ١٨٩٣ إلى إلقاء نصف خطوط البلاد الحديدية فى أيدي الحراس القضائيين ، فتحول رجال السكك الحديدية إلى الملاذ الأكبر مورجان لينقذهم من الشدائد . ولقد استجاب لأن الصناعة كانت عالية المكاسب من ناحية ، ولأنه كان لزاماً عليه أن يحافظ على سلامة الأسهم والسندات التى باعها فى الخارج ، من ناحية أخرى . وعندما انقضت غيوم الفزع أخيراً ، كان نفوذ مورجان وسلطانه يهيمن على أكثر من عشرة من الخطوط الحديدية الكبرى : خطوط نيويورك المركزية والخطوط الجنوبية وخطوط تشيسابيك وأوهايو وسانتافيه وروك أيلاند ، وكثير غيرها . وفى الوقت ذاته ، امتد نفوذ مورجان وسلطانه إلى ميادين أخرى ، فلم يحن العقد الأول من القرن العشرين ، حتى ندر أن يوجد مشروع كبير لم يكن بيت مورجان يفرض عليه نفوذاً حاسماً . كان قد قدم الأموال لشركة الصلب الاتحادية (فيدرال ستيل) ، وإبرام الاتفاقية الضخمة التى أدت إلى شركة الولايات المتحدة للصلب (يونايتد ستيتس ستيل) . وكان قد جمع مصانع الأجهزة الزراعية المتنافسة وصاغ منها شركة إنترناشونال هارفيستر . وكان قد نظم الملاحة الأمريكية فى شركة الشحن البحرى الدولية المنكودة الحظ (إنترناشونال ميركانتيل مارين كمبانى) ، وساعد على تمويل جنرال إلكتريك ، وأمريكان تليفون آند تليجراف ، ونيويورك رابيد ترانسيت كمبانى ، وأكثر من عشرة مرافق ضخمة أخرى . ولقد تبينت لجنة من الكونجرس فى سنة ١٩١٢ ، أن البيوت

٣١٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

المصرفية التي هيمن عليها نفوذ مورجان وليم روكفيلر كانت تسيطر على ٣٤١ إدارة في السكك الحديدية والملاحة والمرافق والمصارف وشركات النقل السريع والفحم والنحاس والحديد والصلب والتأمين ، بلغ مجموع مواردها المالية اثنين وعشرين بليون دولار . وقد قال وودرو ويلسون في شيء من البلاغة : إن أكبر احتكار في هذه البلاد هو احتكار المال .

ما الدلائل التي كانت لنمو التجمعات وقيام الترسنات ؟ لقد خلقت نظاماً من الملكية الغيبائية أبعد مدى من أى شيء عرف في التاريخ الأمريكى حتى ذلك الحين ، فكانت شركات نيويورك المساهمة تمتلك وتدير ممتلكات شاسعة من الفحم والنحاس والحديد والخشب والسكك الحديدية . وركزت في أيدي نفر قليل من الرجال سلطاناً على أعداد ملايين من الناس يفوق ما كان في أيدي كثيرين من الملوك . وبذلك تركز ما للأمة من سيطرة اقتصادية في قطاع صغير من الشمال الشرقى ، مما أدى إلى خلق قطاعية — أو إقليمية — جديدة حلت محل القديمة . وفصل هذا النظام الملكية عن الإدارة ، فاستقرت الأولى في عشرات الآلاف من حملة الأسهم الذين لم يؤثروا نصيباً يذكر من الشعور بالمسئولية ، ولا كانوا يعرفون شيئاً عن السياسات المالية أو سياسات العمالة في شركاتهم . كما خلق تجمعات لرأس المال لها من المقدرة ما يمكنها من التأثير على سياسات الولايات ، بل وعلى الهيئات التشريعية القسومية ، سواء في الشؤون الخارجية أو الداخلية . ولأمراء في أنه قضى على المنافسة المحتدمة ، وحقق قدراً أكبر من الكفاءة ، وجاد بالأموال للتحسينات والبحوث اللازمة ، ويسر الإنتاج الكبير وخفض الأسعار . . ولكن هذا كله كان بثمن باهظ ، حتى أُلْمَ المجتمع بضرورة التنظيم المقتن وأساليه .

الحكومة تتدخل

كان آندرو كارنيجى يصف هذا كله بأنه « الديمقراطية المظفرة » . وكان غيره على استعداد لأن يقرروا بأنها مظفرة ، ولكنهم لم يكونوا مطمئنين البتة أنها ديمقراطية . والواقع أنهم بدأوا يرتابون في مقدرة الديمقراطية على البقاء ، وهم يتلفتون حولهم فيرون شطراً

قيام المشروعات الكبيرة ٣١٣

كبيراً من الموارد الطبيعية والصناعات والسكك الحديدية والمرافق الأخرى ، تخضع لإشراف يرمى إلى درّ الربح على حفة من الرجال . وإذا التكاليف الباهظة والتفرقة والأراضي التي كانت السكك الحديدية تغطيها بنفقات إجمالية ، وسوء تصرفات روكفيلر وكارنيجي وغيرهما في القضاء على منافسيهم ، والسلطان الضارى الذى كانت كثير من الشركات المساهمة العملاقة تخضع بها العمال ، واستئثار الترسنات بما يوفره العلم والاختراع من أموال ، ومشهد عملاء الشركات المساهمة وهم يضغطون سياسياً لإجازة القوانين المواتية لها في المجالس التشريعية للولايات ، وبحث محامى الشركات المساهمة عن الثغرات في قوانين الضرائب أو لوائح التنظيم في الولايات — كل هذه أثارت جزعاً وزعراً واسعاً النطاق .

ولقد كانت الاحتكارات منافية للقانون العام من عهد بعيد ، فتضمنت دساتير كثير من الولايات مواد تحرم وجودها . غير أن هذه التحريبات الدستورية . كانت عديمة المفعول تماماً ، في الوقت ذاته . ولقد سنت كثير من الولايات ، خلال الثمانينات ، قوانين أشد تقيداً ، ضمنتها مجموعاتها القانونية الأساسية ، بل إن بعضها ذهبت إلى حل الترسنات ذات السجل المريب بدرجة ملموسة . بيد أنه كان من الممكن لأى ترست يُحل في ولاية من الولايات أن يتكون في ولاية أخرى ، تكون القوانين فيها أكثر تساهلاً ، فتواصل العمل في عين وضعها الأولى ، ومن الواضح أن الأمر كان يتطلب قوانين منظمة على مستوى الاتحاد لا على مستوى الولاية .

ولقد أُنذر المليونير الفيلسوف بيتر كوبر — المرشح للرئاسة في قائمة حزب الدولارات الخضراء الظهر^(١) — من وقت مبكر ، يرجع إلى سنة ١٨٧٦ بأن الخطر الذى يتهدد نظمنا الحرة حالياً ، لا يفوقه شىء سوى بوادى عصيان مدنى . ففي هذه البلاد ظواهر تكوّن سريع لأرستقراطية الثراء ، وهى أسوأ أشكال الأرستقراطية التى يمكن أن تحيق لعنتها برخاء أية دولة . وخبا القلق بعودة الرخاء في أواخر السبعينات ، غير أن البلاد عادت إلى التوجس من الترسنات مرة أخرى ، في الثمانينات . فلم تحن سنة ١٨٨٤ حتى ظهر حزب مناهض للاحتكار ، بيد أنه لم يجتذب سوى أصوات ضئيلة ، في غمرة القلق

(١) حزب سياسى أنشئ سنة ١٨٧٥ للعمل على إلغاء قانون التعويض عن الدولارات الخضراء الظهر بقمعتها الاسمية ابتداء من أول يناير سنة ١٨٧٩ — المترجم .

٣١٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

من احتمال عودة الديمقراطيين إلى الحكم . وإن هي إلا أربع سنوات أخرى ، حتى نبه البلاد إلى الخطر قيام عدد من الترسات الكبرى . فأبلغ الرئيس كليفاند الكونجرس أن الشركات المساهمة ، التي يجب أن تكون خاضعة لقيود القانون المفروضة بحرص ، والتي يجب أن تكون في خدمة الشعب ، تتحول بسرعة إلى سادة مسيطرين على الشعب ، ومضى الحزبان الرئيسيان يتنافسان في معارضة الاحتكارات في أى شكل من أشكالها .

وتمثلت أولى نتائج هذا الانفعال كله ، في القوانين المنظمة للسكك الحديدية . إذ كان المزارعون قد أثاروا ضجيجاً ، منذ السبعينات ، ضد احتكار السكك الحديدية ، متهمين إياه بفرض أجور شاحن باهظة عليهم ، وبسوء الخدمة ، وبالاستئثار بملايين من الدونمات وحرمان سوق المضاربات منها . واستجابة للمنظمات الزراعية ، مثل جرانج ، ضمنت ولايات الغرب الأوسط قوانينها الأساسية لوائح تحد من الرسوم التي يجوز للسكك الحديدية والطرق أن تفرضها ، وتحرم إجراءات من قبيل الحسم (الخصم) وفئات الرسوم الخاصة لشركات الملاحة ذات الخطوة ، وفرض رسوم على النقل لمسافات قصيرة تزيد على ما يفرض للمسافات الطويلة على الطريق الواحد ، وإعفاءات المرور . وتعرض هذا التشريع على الفور للتحدي من السكك الحديدية ، بحجة أنه حرّمها من حقوق التملك « دون الإجراء القانوني اللازم » ، وأنه تعدى سيطرة الكونجرس على التجارة بين الولايات .

وعززت المحاكم تشريعات الولاية ، في سلسلة من الأحكام الرائعة في سنة ١٨٧٧ ، لاسيما في قضية من ضد ولاية إلينوى ، على أساس أن أية ملكية تتعلق بالصالح العام أو تخصص للاستخدام العام ، تخضع للوائح تضعها الحكومة . بيد أن موقف المحاكم كان مبهماً إزاء عدوان الولايات على مجال اللوائح التنظيمية الاتحادية . غير أن الأحكام أوضحت ، فيما بعد ، أن الولايات لا تملك أن تمس التنظيم التجاري إذا كان له أى طابع متبادل بين الولايات ، وإن كانت تملك تنظيم التجارة ذات الطابع المحلى المحض . إذ كان التنظيم الأول خاضعاً لسيطرة الحكومة القومية . ولما كان معظم التجارة مشتركة بين الولايات ، فقد أدى هذا إلى إحالة الموضوع بأكمله للكونجرس . ورد الكونجرس على ذلك بقانون سنة ١٨٨٧ للتجارة المشتركة بين الولايات . وكان هذا القانون يرمى إلى إنقاذ السكك الحديدية من النتائج السيئة لحرب فئات أجور

قيام المشروعات الكبيرة ٣١٥

الشحن وفئات الحسم بقدر ما استهدف حماية الجمهور ، وحرّم اتفاق الشركات لغير صالح الجمهور ، وعمليات الحسم ، والتفرقة في فئات الأجور أو الخدمات ، وطالب بأن تكون كل الأجور عادلة ومعقولة . وكان النص على إقامة لجنة للتجارة المشتركة للإشراف على تنفيذ القانون ، أهم من هذه التحريبات والمتطلبات المبهمة إلى حد ما . وكانت هذه أولى لجان إدارية كثيرة قدر لها أن تبلغ من الأهمية ما جعلها تتحول إلى قسم رابع من أقسام الحكومة . ولقد ظل قانون التجارة المشتركة بين الولايات غير ذي فاعلية زمنياً طويلاً ، غير أن عدداً من القوانين الجديدة — مثل قانون إيلكنز في سنة ١٩٠٣ ، وقانون هيبيرن سنة ١٩٠٦ — اشتملت على مزيد من الشدة لتنفيذها بوساطة اللجنة والمحاكم ، جاءت في الوقت المناسب لاجتثاث أسوأ التصرفات التي كانت السكك الحديدية تمارسها ، وإلقرار إشراف فعال على فئات الأجور والخدمات .

كانت مهمة التنظيم القانوني للسكك الحديدية بسيطة نسبياً ، إذا قورنت بتقنين اللوائح المنظمة للترستات . ولعل الصعوبة الرئيسية كانت ترجع إلى بلبلّة العقلية الأمريكية وليس إلى اتساع وتعقد الصناعة والتجارة ، إذ كان الأمريكيون يخشون المشروعات الكبيرة ، ولكنهم كانوا يعجبون بها كذلك . فكانوا يبغون حماية أنفسهم من أخطار الاحتكار ، ولكنهم كانوا يرجون كذلك الاستمتاع بفوائد الإنتاج الكبير ، والقضاء على ازدواج التكلفة . كانوا يؤمنون بالتنظيم المقنن الحكومي للمشروعات ، ولكنهم كانوا يؤمنون بنفس الحرارة بفضائل المشروعات الخاصة ، والروح الفردية الصارمة . فكان ما يسعون إليه في الواقع ، هو تطهير الترستات وليس سحقها . وفي هذا ، قال الرئيس ثيودور روزفلت في إحدى رسائله عن الترست ، في وقت لاحق :

ليس هدفنا القضاء على الشركات المساهمة ، بل العكس هو الأصح ، فهذه التجمعات الكبيرة جزء ضروري من فلسفتنا الصناعية الحديثة . . فنحن لا نهجم الشركات المساهمة وإنما نسعى إلى محو أي سوء فيها .

ولقد ألهمت مشكلته هذه معلّق الأمة الساخر بيتر دن تعليقاً فكها : « الترستات وحوش هائلة ، تنشئها المشروعات المستنيرة لرجال بذلوا الكثير لدفع عجلة التقدم في بلادنا الحبيبة . فأننا — من ناحية — أود أن أدهسها بقدمي ، ولكن بدون شدة ، من ناحية أخرى » .

وكان هذا يمثل الموقف فعلاً . . بدون شدة . ولم يقس الكونجرس حقاً ، وإذا انضج أن الولايات ما كانت لتستطيع أن تتغلب وحدها على مشكلة الترس ، فقد اضطر الكونجرس إلى العمل . فإذا قانون شيرمان المناهض للترس - في ١٨٩٠ - يقضى بعدم قانونية جميع العقود أو التجمعات أو المؤامرات المعرقة للتجارة والاحتكارات كافة . وكان الافتراض الشائع أن هذا التشريع كفيلاً بأن يهب الحكومة إدارة للسيطرة على الشركات المساهمة العملاقة ، مثل استاندرد أويل ، والتجمعات التي من قبيل ترستات الويسكي والسكر . على أن المحاكم أوقفت الحكومة عندما حاولت ، في ضعف ، أن تحل احتكارات مثل ترست السكر ، فمضت في طريقها مبتهجة . وقال دن الذي لا سبيل لكبح سخريته : « إن ما يبدو لرجل الشارع جداراً من الحجر ، يكون بالنسبة للمحامى قوس نصر » . وكان هذا الخذلان القضائي من الضخامة بحيث أن العقد الذي تلا قانون شيرمان شهد تكون بعض من أكبر الترسات وأسوأها سمعة .

وعند تكوين شركة الصلب في الولايات المتحدة ، انفجرت عاصفة الاستهجان من الرأي العام . وانهالت سيول النقد من الصحافة ومنابر النقاش . وبيعت عشرات الآلاف من كتب مثل كتاب إيدا تاربييل المسمى « تاريخ شركة استاندرد أويل » ، وكتاب رسل « أعظم ترست في العالم » (ترست اللحوم) ، في حين أن فضائح خطايا المشروعات الكبيرة ملأت المجلات الشعبية الجديدة مثل مجلة « ماكليور » و « إفريودي » و « كولير » ، وشقت طريقها إلى صفحات الصحف المحترمة القديمة . وبلغ من انتشار النقد وعنفه أن العقد الأول من القرن العشرين سمي « عهد مروّجى الفضائح » .

كانت المطالبة بمزيد من الكفاءة في فرض القوانين المناهضة لنظام الترس أقوى من أن تقاوم ، فاستجاب ثيودور روزفلت بتحمس ، وقال : « سنفرض القوانين المناهضة للترس إلى أبعد ما تذهب إليه ، وإذا رفع الأمر إلى القضاء ، فلن يكون هناك تراض إلا على أساس فوز الحكومة » . ولدهشة وول ستريت (حى المال) ، أصدر رئيس الجمهورية تعليماته إلى المدعى العام لحل تجمع السكك الحديدية عبر نهر المسيسيبي ، الذى كان من تكوين أقطاب السكك الحديدية الثلاثة : مورجان ، وهاريمان ، وهيل . . كما أفلح في قضية نورذرن سيكيوريتيز كمانى . وأعقب ذلك بسرعة العمل ضد ترست تعبئة اللحوم ، وترست التبغ ، وشركة استاندرد أويل ، وخرجت الحكومة من كل قضية مظفورة .

قيام المشروعات الكبيرة ٣١٧

غير أن هذه الانتصارات كانت دوماً مثيراً للمشاعر أكثر منها مكاسب مادية . فما إن حُلّت الاختكارات الكبرى حتى وجدت العناصر المكونة لها طرقاً أخرى للحفاظ على تنظيم لمصالحها المشتركة . ولم يفعل روزفلت شيئاً لتعزيز القوانين المناهضة للترست ، فيما عدا إنشاء مكتب الشركات المساهمة ليستخدم أكفاً استخدام « النشر في غير إشفاق » لسوء تصرفات الشركات المساهمة . وبالرغم من نجاحه في المحاكم ، واستنكاره العلني « للأشرار ذوي الثراء الكبير » ، فإن الترسّات كانت عند مغادرته منصبه أقوى منها حين تولاه . ومن الواضح أن جون دى . روكفلر كان على صواب حين قال : « إن التجميع وجد ليبقى ، فقد ولت الفردية ، إلى غير رجعة » .



الفصل ١٥

العملية والمجرة

العامل واستخدامه

أدى استغلال موارد البلاد الغنية ، وإدخال الآلة في الصناعة ، وقيام الاحتكارات ، إلى تدفق سيل لا ينقطع من الثروة في أيدي مجموعة صغيرة من رجال الأعمال البعيدى النظر ، وعدد أكبر من المستثمرين ذوى الذكاء الحاد . غير أنه لم يعد بكسب كبير على العمال الذين كان الكدح كله من نصيبهم . فلقد كان العمل من العوامل الأساسية في نمو المشروعات الكبيرة ، ولكنه عند تقسيم الأرباح كان يلقي إغفالاً مزرياً . كذلك كان يهمل عند توزيع المكافآت الاجتماعية . فنادر ما كان العمال يعيشون في الوضع الصحيح ، ولم يكونوا يدعون إلى الالتحاق بمتدييات الضواحي ، كما كان زعماءهم يلقون تجاهلاً من الكليات والجامعات التى كانت تغدق الشهادات الفخرية على أصحاب رأس المال فى كل عام . كان خليقاً بـموارد الثروة الجديدة أن تؤدى إلى مزيد من التوسع فى توزيعها ، ولكن تحقيق هذا استغرق زمناً طويلاً . وكان خليقاً باستخدام الآلات التى تقتصد فى العمل أن يؤدى إلى إنقاص ساعات العمل ، بيد أن هذا أيضاً ظل غاية مثالية استغرق تحقيقها أمداً طويلاً . وكان خليقاً بالعلم أن يكفل

للعمال أحوال عمل أكثر متعة وأمناً ، غير أن معظمهم استمروا يعمل في مصانع حارة ، حافلة بالضجّة ، سيئة التهوية ، أو محاطين بالأخطار في المناجم والمحاجر ، وكان نصيبهم من حوادث وأمراض الصناعة في ارتفاع مخيف عاماً بعد عام . كان نصيب العمال لا يحسد ، إذ كانوا يكتظون في الأحياء الفقيرة من المدن الكبيرة ، معرضين للضائقة الاقتصادية والبطالة ، متنافسين مع جحافل العمال غير المهرة المتدفقين من الخارج أو من الجنوب . كما أنهم لم يجدوا أن تحسين أحوالهم سهل ، إذ كان تنظيم صفوفهم والإضرابات موضع اشتباه ، لم يكن للكادحين ممثلون في المجالس التشريعية والكونجرس سوى نفر قليل .

والواقع أن بعض التطورات التي أسهمت أكثر من سواها في نمو أمريكا الصناعية ، كانت ضرراً أكيداً للأيدى العاملة . وبوسعنا أن نتناول اثنين منها في إيجاز ، ألا وهما : إدخال الآلة على الصناعة ، وقيام الشركات المساهمة . فإن إدخال الآلة (الميكنة) عمل على تخفيض معايير العمل ، والمهارات التي اكتسبها العمال بعناء لم تعد تحتفظ بقيمتها القديمة ، إذ أنه كان بوسع الآلة أن تصنع معظم الأشياء — التي كان الحرفيون يصنعونها — بأداء أفضل ، وأرخص ، وأسرع . مما قضى إلى حد كبير على ما للمهارة الحرفية من غريزة إبداعية ، فأنحدر العمال إلى مجرد جزء من عملية ميكانيكية ، إلى ممارسين آليين يؤدون عملية رتيبة ، وقائلة للحياة ، في كل دقيقة من اليوم . وقد وصف أبتون سينكلير هذا في روايته « الدغل » قائلاً :

كان كل جزء من مئات الأجزاء في أية آلة للحصاد يصنع على حدة ، ويتداوله أحياناً مئات من الرجال . وكانت في المكان الذي يعمل فيه يورجيس آلة تقطع وتسوى قطعة معينة من الصلب ، مساحتها بوصتان مربعتان تقريباً ، فكانت القطع تنهر على صفحة ، وكان كل ما على تلك الأيدى البشرية أن تفعله هو أن تصفها في صفوف منتظمة ، وتبدل الصحف من وقت إلى آخر . وأصبح صبي واحد يؤدي ذلك ، فيقف وقد تركزت عيناه وأفكاره عليها ، بينما تعمل أصابعه بسرعة بالغة ، حتى إن أصوات ارتطام هذه الرقاع الفولاذية بعضها ببعض كان أشبه بموسيقى القطار السريع كما تبدو لأذن المرء في إحدى مركبات النوم ، بالليل . . كان يتناول ثلاثين ألفاً من هذه القطع يومياً ، أي تسعة ملايين أو عشرة في كل عام . . والله وحده يعلم كم قطعة في مدى عمره . وعلى مقربة منه ، كان

٣٢١ العمالة والهجرة

ثمة رجل يجلس عاكفاً على مجلخة (حجر الشحذ) دائرة ، ليضيف اللمسات الأخيرة على السكاكين الفولاذية لألة الحصد ، فيلتقطها من سلة بيده اليمنى ، ويضغط أحد الجانبين أولاً ، ثم الجانب الثانى على الحجر ، ثم يسقطها آخر الأمر بيده اليسرى فى سلة أخرى . وقد قال أحد هؤلاء الرجال ليورجيس إنه ظل ثلاثة عشر عاماً يشحذ ثلاثة آلاف قطعة فولاذية كل يوم .

كذلك كانت الآلة تتجه إلى اغتصاب مكان العامل فى الاقتصاد الصناعى . كانت تمثل استثماراً مالياً هائلاً ، وبوسعه أن تعمل أربعاً وعشرين ساعة فى اليوم ، طيلة أيام الأسبوع السبعة ، فانتهى بها الأمر إلى أن تتحدأحوال العمل ، فإن ضرورة استبقاء الأفران مشتتلة باستمرار كانت حقيقة حاسمة فى استبقاء يوم العمل اثنتى عشرة ساعة ، فى صناعة الحديد والصلب ، لمدة نصف قرن . وأخيراً ، فقد كانت الآلة من العوامل المسئولة عن قدر كبير من البطالة . وقد يكون من الصحيح أن الآلات خلقت — آخر الأمر — من الأعمال أكثر من تلك التى قضت عليها ، بيد أن الفائزين بالأعمال الجديدة لم يكونوا دائماً نفس الذين فقدوا القديمة ، فكانت ثمة فترات من العوز الأليم تسبق عادة عثور العمال القدامى على عمل جديد . فالبطالة على نطاق واسع من نتاج عصر الآلة .

كذلك كثيراً ما كان نمو الشركات العملاقة فى غير مصلحة الأيدى العاملة . ذلك لأن الصناعة الصغيرة كانت وثيقة الصلات بعمالها وبالوسط الذى تقوم فيه . فكان بوسع العمال أن يتساوموا مع مخدميهم المحليين بنجاح يفوق نجاحهم فى مساومة هيئات بعيدة عنهم وليست ذات شخصية مجسدة ، وقد أجاد ثيودور روزفلت فى وصف هذا بقوله :

... كانت العلاقات القديمة المألوفة بين المخدم والمستخدم لديه فى طريقها إلى الزوال . فقبل بضعة أجيال ، كان المخدم يعرف كل رجل فى حانوته ، وينادى رجاله بأسمائهم : بيل ، توم ، ديك ، جون . . . ويسأل عن زواجهم وأطفالهم ، ويتبادل معهم الفكاهات والقصص ، وربما بعض من التبغ . كانت ثمة علاقة إنسانية ودية بين المخدم والمستخدم فى المؤسسة الصغيرة .

ولم تكن ثمة علاقة من هذا القبيل بين كبار أقطاب السكة الحديدية ، الذين كانوا يسيطرون على صناعة الفحم (الأنتراسيت) ، والمائة والخمسين ألفاً من الرجال الذين

٣٢٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

يعملون في مناجمهم ، أونصف مليون من النساء والأطفال الذين كانوا يعتمدون على عمال المناجم هؤلاء في عيشهم .

ولقد قال أحد أصحاب المصانع في نيوانجلاند بإيجاز بليغ ، في شهادة أدلى بها أمام إحدى لجان الكونجرس : « إننى لا أوجه كلاماً إلى العمال قط ، إنما أوجه كلامى إلى مراقبى العمال » .

وهناك عدة عوامل أخرى أثرت على رفاهية العمال ، وانفردت بها الولايات المتحدة . وأولها انتهاء الأرض الخصبة الرخيصة بعد الحرب الأهلية بجيل أومايقرب من الجيل . ومن المبالغة أن يقال إن الغرب كان « صهام أمن » بالنسبة لتدمير الأيدي العاملة ، أو ملاذاً لكثير جداً من العمال . ولكن من الجلى أن الأرض التى ظلت مباحة لجيلين أو ثلاثة امتصت فائض السكان فى الريف والقرى ، بل والمدن ، فضلاً عن المهاجرين الوافدين من الخارج . ولو أن المهاجرين الذين وفدوا فيها بين سنتى ١٨٥٠ و ١٨٧٠ ، وعدتهم خمسة ملايين ، أقاموا جميعاً فى المدن الصناعية فى الشرق ، بدلاً من أن ينتشروا فى أرجاء البلاد ، لكان وضع المال أسوأ مما صار إليه فعلاً بكثير . وبارتفاع نفقات الزراعة واختفاء الأرض الخصبة الرخيصة ، عمد فائض السكان إلى البقاء فى المناطق الصناعية . ولم تعد الزراعة بديلاً عملياً للعمل فى المصنع . فلم يعد فى وسع العامل أن ينجم من مشكلات المجتمع الصناعى ، بل اضطر إلى أن يواجهها مباشرة .

وهناك عامل آخر ، تختص به الولايات المتحدة دون الدول الصناعية ، هو استمرار الهجرة غير المقيدة . ففى الأربعين عاماً ، من ١٨٧٠ إلى ١٩١٠ ، تدفق على البلاد ما يزيد على عشرين مليون نسمة . وكان معنى هذا ، حتى إذا استبعدنا النساء والأطفال وقد كان كثيرون منهم يعملون ، أن عدة مئات من الآلاف كانوا ينضمون إلى صفوف العمال فى كل عام ، تواقين للعمل فى المصانع والمناجم ، بأى أجر ، وفى أية أحوال تقريباً . وما كانت هذه هى المزاحمة الوحيدة التى واجهت عمال الشمال . فبعد نهاية القرن التاسع عشر ، وفد من الجنوب مئات الآلاف من الزوج الأشداء ، متأهبين ليتخذوا لأنفسهم مكاناً بجانب البولنديين والإيطاليين والمجريين . ولم يكن أى وافد جديد من الخارج أو من الجنوب محل محل عامل من الموجودين ، فقد كانت ثمة أعمال للجميع فى أوقات الرواج ، وكان الوافدون يدفعون العمال المحليين إلى القمة بنفس

٣٢٣ العمالة والهجرة

القدر الذى كانوا يبيعونهم به عن أعمالهم ، ومع ذلك فقد ظل الاتجاه العام لهذه الحركة الكبيرة لسنوات عديدة ، هو دفع الأجور إلى الانخفاض ، وهبوط المعايير والمستويات ، وتفكك نقابات العمال .

وهناك عامل ثالث ، تنفرد به الولايات المتحدة هو الآخر ، هو وجود اقتصاد قومى ونظام سياسى اتحادى ، جنباً إلى جنب . فكانت مشكلات العمال - فى صناعة الفحم ، فى مصانع المنسوجات ، فى مصانع الحديد والصلب - واحدة إلى حد كبير فى الأمة بأسرها ، غير أن سلطة علاجها كانت مقصورة على الولايات وحدها ، إلى سنوات جد قريبة . كانت المنافسة تشمل الدولة كلها ، ولكن حق التقنين المنظم للأجور وساعات العمل كان على نطاق الولاية فقط . فكان من الممكن أن يكسب العمال تنازلات فى صناعة النسيج فى نيوجانلاند ، أو مصانع الثياب فى نيويورك ، فإذا بها تتلاشى نتيجة انتقال هذه المصانع إلى ولايات تكون القوانين فيها أقل تشدداً . ولقد تغير هذا كله قطعاً ، بعد البدء فى التشريع الشامل الجديد . إذ وجدت الحكومة الاتحادية طريقاً لفرض السيطرة القومية على ميدان العلاقات الصناعية بأكمله .

بقى اعتبار أخير جدير بالانتباه ، هو : الارتباب العميق الذى داخل كثيراً من الأمريكيين نحو النقابات ، وعدم استعدادهم لمعالجة مشكلات العمال بعين العطف الذى كانوا يولونه مشكلات الصناعة . وتذكر ليليان والد ، رئيس بيت لتسوية المشكلات معروف فى نيويورك ، أنه فى سنواتها الأولى فى الحى الشرقى كان يخشى من نقابات العمال ، « شأنها شأن الاشتراكيين فيما بعد ، والشيوعيين حالياً » .

وطبق قانون شيرمان لمناهضة الترسات لأول مرة ، وبأكبر قدرة من الفعالية بالنسبة للعمال : وكان هذا أمراً نموذجياً فى الموقف كله . إذ أن كثيرين من الأمريكيين كانوا يرون ، إلى سنوات قريبة ، أن التجمع فى الصناعة والتجارة فكرة سليمة ، ولكنهم كانوا ينظرون إلى تجمع العمال بغير رضى . كانوا يسلمون باشتراك التجارة والصناعة فى الأمور السياسية ، ولكنهم يرون أن من المنافى للروح الأمريكية أن يفعل العمال ذلك . كانوا يحبذون مساعدة الحكومة للصناعة ، ولكنهم كانوا يصرون على أن مساعدة الحكومة للعمال عمل اشتراكى أو خضوع لجماعات الضغط . كانوا يعتقدون بأن للمستثمرين حقاً طبيعياً فى عائد طيب لاستثماراتهم ، ولكنهم كانوا يرون أنه ليس للعمال أى حق فى أى عائد لعمله اللهم إلا ما يستطيعون انتزاعه من صاحب العمل ، وأن البطالة أمر من

عند الله . وقد تغيرت هذه المواقف عندما أصبحت الأمة على دراية بمشكلات التصنيع الحديث ، غير أنها تلكأت زمناً طويلاً كان كافياً لإقامة عراقيل في طريق تنظيم العمال . على أنه ليس لنا أن نستخلص من هذا صورة بالغة القنامة لأحوال العمل خلال الحقبة الصناعية . فقد كان ثمة عمل كاف - في الأغلب - للأيدي الراغبة في العمل ، وأجور عالية بدرجة تمكن من إعالة الأسرة في قدر من الغذاء والكساء والمأوى ، وإن كانت غير ملائمة تماماً . لم تكن في الولايات المتحدة طبقة عاملة بالمعنى الذي كانت توجد به في كثير من الدول الأوروبية ، بينما الفرصة متوفرة دائماً للانتقال من عمل إلى عمل ، بل ومن فئة من فئات الدخل إلى أخرى ، وقد علق إنجليزى زار الولايات المتحدة عقب الحرب الأهلية مباشرة على ذلك فقال بالمعية ثاقبة :

يحمل العامل في هذه البلاد وضعا مختلف جداً عن وضع الفرد من عين طبقتي في بلادنا ، فإن له إذا توفرت الأسباب أن يذهب حيث يشاء دون حاجة إلى شهادة بحسن السير والسلوك في جيبه . والواقع أنه كان من المسموح به في العرف الاجتماعى لمن يبحث عن عمل أن يطلب من المخدم الذى يتقدم إليه شهادة بنفس ما كان مسموحاً لصاحب العمل أن يطلب منه . فإن العامل في مثل هذه الأمور على قدم المساواة مع مخدمه . لقد أتاحت لهذه البلاد ميزة نادرة ، ميزة الارتقاء إلى العظمة القومية دون أن تضطر لاجتياز محنة الإقطاع ، أو أن تتعرض في تقدمها بفضل النفوذ الجائر المنبعث عن الكرامة الطبقية .

ولقد قدر لعلماء الاجتماع اللاحقين أن يكتشفوا أنه كانت ثمة طبقات في الولايات المتحدة فعلاً ، وأن يميزوا بجلاء بين طبقة وسطى ، وطبقة وسطى عليا ، وطبقة وسطى دنيا . بيد أن المجتمع الأمريكى لم يكن في يوم من الأيام مقسماً إلى طبقات تفصل بينها حواجز جامدة ، كما كان المجتمع الأوروبى . فلم تكن ثمة فواصل أو فوارق قانونية ، ولم تكن أية طبقة تنم عن نفسها بلهجة ، أو باتباع مناهج دينية ، وكان المجتمع المفتوح يوفر سهولة نسبية للفرد الأكثر إقداماً كى ينتقل من طبقة إلى أخرى ، ولقد مكن التعليم العام المجانى أبناء العمال من الارتقاء في دنيا الأعمال أو المهن ، وكان الانتخاب سلاحاً قادراً يستطيع به العامل ، إذا ما استثير الإثارة الصحيحة ، أن يضطر المرشحين إلى إجازة قوانين في صالحه .

فى الاتحاد قوة

لم يغفل العمال إدارك الإمكانات المعنوية لتنظيم المشروعات . ولقد قامت نقابات للعمال ، بشكل من الأشكال ، منذ الأيام الأولى لقيام الجمهورية ، ولكنها فى الغالب كانت عملية وضعيفة . وفى الخمسينات أنشئ عدد من النقابات الحرفية القوية ، كانت الطباعة أقدمها وأهمها . غير أن هذه النقابات لم تضم سوى نسبة ضئيلة من الطبقة العاملة ، وقد اختفى كثير منها خلال إعادة التنظيم والضائقة السوداء التى أعقبت فترة الفزع فى سنة ١٨٧٣ .

وظهرت فى سنوات ما بعد الحرب ثلاثة أنواع من التنظيمات العمالية . أولها النقابة الصناعية ، وكان فرسان العمل خير مثل لها . والثانى النقابة الحرفية وما تبعها من إدماج النقابات الحرفية فى اتحاد العمل الأمريكى . أما النوع الثالث فكان جماعات الاشتراكيين المتطرفين (الراديكاليين) أو الجماعات العمالية الثورية ، التى لم تكن ذات أهمية من حيث العدد ، ولكنها كانت صامدة . ولم يقدر لأى من هذه التنظيمات أن يضم أغلبية من العمال الأمريكيين قبل أواخر الثلاثينات من القرن العشرين . فقد ظلت قطاعات كبيرة من القوى العاملة — عمال الزراعة ، والعمال المتنقلين (الترحيل) والعاملين فى البيوت ، والمستخدمين ذوى الرواتب (ذوى الياقات البيضاء) — خارج دوائر التنظيم . وكان أهم وأطرف التنظيمات العمالية الأولى ، جماعة فرسان العمل السامية ، التى أنشئت سنة ١٨٦٩ ، ولكن تاريخها الحقيقى يبدأ من سنة ١٨٧٩ ، عندما أصبح تيرنس باودرلى المعلم الأعظم . وكانت أبرز صفات الفرسان المميزة هى ديمقراطيتها ونظرتها التطلعية الاجتماعية والاقتصادية العريضة . فقد كانت مباحة لجميع العمال ، مهرة وغير مهرة ، مزارعين وعمال مصانع ، وعمال مناجم ، وحرفيين يدويين ، فلم تحرم إلا على المقامرير ، وأصحاب الحانات ، ورجال المصارف ، والمحامين ، وسامسة الأوراق المالية ! وكانت غايتها أن « تحقق للكادحين نصيباً مناسباً من الثروة التى يخلقونها ، ومزيداً من وقت الفراغ الذى يحق لهم قانوناً ، ومزيداً من الميزات الاجتماعية . . . جميع الحقوق والامتيازات اللازمة لجعلهم قادرين على الاستمتاع . . . وبالحكم الصالح ، وتقديره ، والذود عنه ، والإبقاء عليه » . وما كانت هذه الأغراض البراقة لتُحقق بالإضرابات أو بالعنف ، وإنما بالإثارة السياسية ، والتعليم ، والتعاونيات العمالية .

٣٢٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

كان برنامج الفرسان متطرفاً ، ولكنه براق : يوم عمل من ثماني ساعات ، وإلغاء تشغيل الأطفال ، والملكية العامة للمرافق ، وضرائب على الدخل والتركات ، وإصلاح زراعى بإعادة توزيع الأرض . ولم يكن الجمع بين المثالية الحاملة والإقناع المذهب لتحقيق التغيرات الاقتصادية المتطرفة (الراديكالية) ذا فاعلية ، بيد أن الفرسان استطاعوا أن يحرزوا توفيقاً حقيقياً عندما لجأوا إلى الإضرابات بعد سنة ١٨٨٥ . فقد ازداد عدد أعضائها بطفرات واسعة ، فلم ينقض عام حتى كانت تزهر بأنها تضم سبعمائة ألف عضو . وفي نشوة النجاح ، أيدت إضراباً عاماً سعى التخطيط ، من أجل جعل يوم العمل ثماني ساعات . وقد ساعد الإضراب في شيكاغو على الإيحاء باجتماع كبير في ميدان هايتباركت ، ألقى فيه فوضوى مجهول قبلة أودت بكثير من رجال الشرطة . ومع أن الفرسان لم يكونوا مسئولين عن العدوان البشع ، فإن الرأي العام ربط بينهم وبينه . وأدى هذا ، بجانب إخفاق عديد من الاضطرابات ، والعنف الكامن في التنظيم ، إلى انهيار الجماعة ، حتى إذا ارتبط الفرسان بالحزب الشعبى ، في سنة ١٨٩٢ ، أصبح الانهيار فناءً .

وفي تلك الأثناء ، كان ثمة تنظيم جديد يرقى إلى النفوذ والسلطان ، هو اتحاد العمل الأمريكى . ففي سنة ١٨٦٣ ، قرر يهودى هولندى يدعى سولومون جومبرز أن يتخلى عن معمل له لصنع السيجار في لندن ، ليحرب حظه في أمريكا . واصطحب إليها ابناً في الثالثة عشرة من العمر ، يدعى صمويل ، لم يلبث أن عمل في لف السيجار . وفي العالم التالى ، انضم الفتى إلى اتحاد صناع السيجار ، ومن ذلك الحين اقترنت حياة صمويل جومبرز بنقابات العمل ، واقرن تاريخ النقابات العمالية في الولايات المتحدة بصمويل جومبرز . ولم يكن قد حظى بتعليم منهجى نظامى ، ولكن معمل صنع السيجار أتاح له إلماماً شاملاً بتاريخ العمل والاقتصاد . وقد كتب فيما بعد :

كانت طبيعة عملنا تنمى زمالة قل أن استمتع بمثلها عمال . كان عالماً في حد ذاته . عالماً ضم عناصر من مختلف أرجاء الأرض . إذ كان زملاء العمل قد جاءوا من كل مكان ، وزاروا كل مكان تقريباً . . . كذلك كانت في المعمل قراءة . إذ كان من تقاليد صناع السيجار أن يكتتبوا لتوفير مال لشراء الصحف والمجلات والكتب . ثم يقبل واحد منا على القراءة لنا لفترة قد تصل إلى ساعة ، وأطول من ذلك أحياناً ، بينما يهارس الباقيون

٣٢٧ العمالة والمهجرة

عملهم . ولكى لا تحقيق بمن يقرأ خسارة مالية ، كان كل من الآخرين فى العمل ينزل له عن عدد محدد من السيجار .

وهكذا اطلع جومبرز على كتابات دعاة الإصلاح البريطانيين ، والاشتراكيين الألمان والروس . كذلك كان هناك تعليم عملى : فبالخبرة المريرة بالإضرابات والضائقات وعدم ملاءمة النقابات القائمة ، أدرك جومبرز ضرورة وجود سياسة للعمل عملية واقعية . ولقد رأى ضرورة النظام ، وتكوين أموال احتياطية وفيرة للإتفاق على الإضرابات وللتغلب على ضائقات الكساد ، وتصادى أية اتصالات بالسياسيين أو المتطرفين أو أصحاب النظريات غير العملية . وفى سنة ١٨٨١ ، جمع ممثلين لمختلف النقابات فى اتحاد النقابات الحرفية والعمالية المنظمة فى الولايات المتحدة وكندا . وأصبحت هذه المنظمة بعد سنوات خمس : اتحاد العمل الأمريكى .

كان اتحاد العمل الأمريكى أقرب إلى التنظيمات العمالية البريطانية المعاصرة من فرسان العمل . كان على غير شاكلة الفرسان ، فهو اتحاد حرّفى ، قُصرت عضويته على الفئة الارستقراطية من العمال ، وتألف من مجموعة من النقابات ذات الحكم الذاتى ، اتحدت فيما بينها على غرار اتحاد الولايات المتحدة الأمريكية . كذلك كان يختلف عن الفرسان فى أن سياساته كانت عملية وانتهازية بشكل بارز . وقد قال أحد الناطقين بلسانه : « ليست لنا غايات نهائية . فنحن نمضى من يوم إلى يوم ، ونناضل من أجل أهداف عاجلة » . وقد كانت هذه الأهداف فى الغالب ترمى إلى رفع الأجور وتخفيض ساعات العمل ، وإن لم تغفل المسائل المرتبطة بها ، مثل تشغيل الأطفال ، والقوانين المتعلقة بالصحة العامة وصحة الأفراد ، وتحريم العمل بعقود جماعية والعمل بموجب أحكام بالسجن ، وإقصاء المهاجرين الصينيين عن العمل . على أنه قدر لاتحاد العمل الأمريكى طيلة تاريخه الطويل النجاح ، أن يكون محافظاً ، وانتهازياً نفعياً ، ومحصور العضوية إلى حد ما . وتغلب اتحاد العمل الأمريكى على الخصومات ، وأوقات الضيق ، والمزاحمت بتفاديه الأمور السياسية ، والتعاون مع رأس المال ما أمكن ، ومساندة الإضرابات بالأموال المدخرة المتجمعة من المتحصلات العالية ، والحفاظ على نظام محكم ، وكسب ثقة الرأى العام بفضل سياساته الرزينة . وعندما قبل جومبرز رئاسته لآخر مرة ، فى سنة ١٩٢٤ ، كان له أن يشعر بالارتياح ، إذ اقترب عدد الأعضاء من ثلاثة ملايين .

أما النوع الثالث من تنظيمات العمال ، فقد ظل ضعيفاً بدرجة ذات مغزى . ذلك أن للاشتراكية والشيوعية خلفيات طويلة الأمد في التاريخ الأمريكي ، بيد أن ظواهرهما الأولى تمثلت في الغالب في تجارب يوتوبية مثالية ولكنها غير عملية مثل مزرعة بروت . ولعل أقرب الأشياء إلى النظام الاشتراكي عرفته أمريكا ، هو دويلة المورمون بولاية يوتاه ، وقد كان للعمال دور ضئيل فيها . ولقد أثارت الإرهاب في حقول الفحم بولاية بنسلفانيا — حيث كانت ظروف العمل فظيعة في السبعينات من القرن التاسع عشر — منظمة سرية أحيطت بالإبهام ، وعرفت باسم مولى ماجوايرز ، إلى أن تسنى قمعها بالقوة . وفي السبعينات أيضاً ، حاول مثقفون من الألمان أكثر دراية بتعاليم كارل ماركس وفرديناند لاسال منهم بحركة العمال الأمريكية ، أن ينشئوا اشتراكية أمريكية ، ولكنهم لم يصادفوا نجاحاً يذكر . ولقد أتاح وصول جوهان مويست في سنة ١٨٨٢ ، اتجاهاً ثورياً للجناح اليسارى من الحركة العمالية ، وكان مويست قد طرد قبل ذلك من ألمانيا ومن إنجلترا ، وقد حاول عبثاً أن يستميل العمال الأمريكيين نحو سياسة العنف . ولقد خلصت الجماعات العمالية نفسها من شرك التورطات الأجنبية في وقت مناسب : كانت منظمة عمال العالم الصناعيين التى أنشئت سنة ١٩٠٥ عملية تماماً ، وإن استعارت شيئاً من تعاليم فورييل النقابية . ولم يقدر لها يوماً أى نفوذ يقوم على عدد المنضوين تحت لوائها ، بالرغم من بعض النجاح الذى أحرزته فى معسكرات اقتطاع الخشب والتعدين فى الغرب ، وفى مراكز النسيج فى الشرق . وقد أدى عداؤها للحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) إلى الانصراف عنها وخمودها ، اللهم إلا فى معسكرات اقتطاع الخشب فى الشمال الغربى — وبين عمال الزراعة المترحلين (التراحيل) .

منازعات العمال

تتناثر الإضرابات والعنف فى قصة حركة العمال فى أمريكا . فقد كان على العامل أن يناضل من البداية للحصول على معظم مكاسبه : للحصول على حق تنظيم النقابات ، وعلى حق الإضراب . وعلى حق التحريض على الإضراب ، وعلى تخفيض ساعات

العمالة والهجرة ٣٢٩

العمل ورفع الأجور ، وعلى ظروف للعمل أكثر أمناً ، وعلى تعويض عن الإصابات أثناء العمل ، وعلى إلغاء كل من تشغيل الأطفال ، والأوامر القضائية لمنع الإضراب ، والعقود الاستغلالية الخارجة على النقابات ، وتكليف العمال بعمل إضافي دون أجر مناسب ، وتهديد العمال بالفصل لمنعهم من الإضراب . وكذلك ناضل العمال للحصول على تقييد الهجرة من الخارج ، وعلى تحريم تشغيل غير النقابيين . ولقد دار الصراع في أغلبه داخل المجال الصناعي ، وأحياناً كان يجري في مجال السياسة . وكان العمل طيلة هذا الجهاد الطويل والمرير يقف وحيداً في الغالب ، في حين أن المشروعات التجارية والصناعية كانت تحظى بحلفاء ذوي نفوذ قوى يتمثلون في الرأي العام والشرطة والمحاكم . وإزاء هذه المعارضة المتينة ، كانت الإضرابات التي خسرها العامل ، أو قبل حلولاً وسطاً فيها تفوق تلك التي انتصر فيها ، بيد أن انتصاراته كانت من الكثرة بدرجة كافية لتشجيع الإضراب واستمرار استخدامه كسلاح . على أن اللجوء إلى القوة في العلاقات الصناعية لا يقل عن اللجوء إلى القوة في العلاقات الدولية دليلاً على الفشل .

ولقد وقع ما لا يقل عن سبعة وثلاثين ألف من الإضرابات من سنة ١٨٨١ حتى سنة ١٩٠٥ ، وكان معظمها إضرابات قصيرة ومحلية ، بينما طال أمد بعضها وشملت البلاد كلها . وكان أبرز الإضرابات في هذه الفترة إضراب السكك الحديدية في سنة ١٨٧٧ - الذي كان أول عنف صناعي واسع النطاق بين الأمريكيين - والإضراب الذي حدث في مصانع ماكورميك للآلات الزراعية في سنة ١٨٨٦ ، وأفضى إلى مأساة الشغب في ميدان هايباركت ، وإضراب هومستيد سنة ١٨٩٢ ، الذي اقترن بمعركة ضارية على ضفاف نهر مونونجاھيلا ، وإضراب بولمان الكبير في سنة ١٨٩٤ ، الذي شل نصف الخطوط الحديدية في البلاد ، وحرب كريل كريك الفظيعة في حقول الفحم بكلورادو ، وإضراب عمال الفحم (الأنتراسيت) في سنة ١٩٠٢ ، الذي هدد بشل النشاط الصناعي في البلاد بأسرها ، والذي لم تتسن تسويته في النهاية إلا بتوسط الرئيس تيودور روزفلت . ولا سبيل ، ولا جدوى من تعقب تاريخ الإضرابات بالتفصيل ، ولكن نختار واحداً منها ، هو إضراب بولمان في سنة ١٨٩٤ ، كمثال يمثلها في كثير من الاعتبارات .

كانت بدايته في مدينة بولمان النموذجية بولاية إللينوى ، حيث كان العمال يقيمون في بيوت مناسبة تمتلكها الشركة (لقاء إيجار يزيد على إيجارات المساكن المشابهة في أى

٣٣٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

مكان آخر بمقدار الربع) ، كما كانوا يشترون الغاز والماء من الشركة ، ويبتاعون حاجاتهم من متاجر الشركة ، مما كان يدر ربحاً دسماً على جورج بولمان وحملة أسهم شركته . وإزاء الكساد الذى حدث فى أوائل التسعينات من القرن التاسع عشر ، خفضت الأجور للإبقاء على أرباح سخية للمساهمين ، وعندما طالب مندوبو العمال بولمان بأن يكون فيصلاً بينهم وبين الشركة فى مسألة الأجور ، صرّهم دون أن يسمح لهم بالنقاش ، فبادر العمال إلى التوقف عن العمل ، وتبنت نقابة السكك الحديدية الأمريكية الحديثة التكوين ، بزعماء يوجين فى . دبس الشاب ، قضية عمال بولمان ، وأمرت عيالها بالآ يتولوا أياً من مركبات بولمان . وبهذا التصرف دارت الحرب بين السكك الحديدية والعمال . وشملت نصف البلاد . فإن هى إلا أسابيع قلائل حتى شلت حركة النقل فى كثير من أرجاء الشمال والغرب ، ومهدت إحدى الصحف اليومية بالعاصمة للأسلوب الذى استخدم لفض الإضراب ، مجاهرة بأنه كان حرباً ضد الحكومة وضد المجتمع . وفى غمرة الجزع من النجاح الظاهر للإضراب ، وتصميماً على تحطيم نقابة السكك الحديدية الناشئة قبل أن يتسنى لها إحداث مزيد من المتاعب ، طالبت جماعة المديرين العامين ، وهى منظمة لأصحاب العمل ، بتدخل الحكومة الاتحادية للحفاظ على خدمة مستمرة فى السكك الحديدية .

وكانت الجماعة موفقة فى هذا النداء . وكان المدعى العام فى حكومة الرئيس كليفلاند هوريتشارد أولنى ، الذى كان محامياً سابقاً للسكك الحديدية يعطف كل العطف على وجهة نظر أصحاب السكك الحديدية . فاستجاب لمطلبهم باستصدار أمر قضائى مانع لحركات الإضراب عامة . وعلى التوشاعت القلاقل ، وإن لم يستطع أحد أن يجزم أكان ذلك بفعل المضربين ، أو العملاء المحرضين ، أو الأشرار المجرمين . وكان آلتجلید ، حاكم إللينوى ، على استعداد لفرض النظام باستخدام الحرس الوطنى للولاية ، لولا أن الرئيس كليفلاند أمر القوات الاتحادية بالانتقال إلى شيكاغو ، دون أن يتيح له فرصة لذلك . ولقد فض الأمر القضائى الإضراب ، وكاد الجنود أن يقضوا على حركة العمال . ولقد رفض دبس إطاعة الأمر القضائى ، فسجن بجرم احتقار المحكمة . واحتج آلتجلید لأن الدستور امتنهن عندما أوفد الجنود الاتحاديون إلى الولاية بهذا الشكل ، ولكن كليفلاند أنحى عليه بالتفريق ، كما خذله المحاكم . وهكذا بدا أن شركات السكك الحديدية انتصرت على طول الخط .

٣٣١ العمالة والهجرة

بيد أن التحقيقات التي أجرتها بعد ذلك لجان تابعة للكونجرس ، وجماعات من الطلبة ، ناصرت المضربين — والتجديد كذلك — في كل نقاط الخلاف تقريباً . فأدينَت الإقطاعية الصناعية في مدينة بولمان . وُرىء المضربون إلى حد كبير من مسئولية القلاقل ، ودمغت جماعة المديرين العاملين بالتعنت ومجافاة القانون ، ووصفت سياسة أولنى بأنها غير لائقة ، واستخدام الأمر القضائي بمنع الإضراب بأنه تصرف قانوني مخفوف بالشبهات ، واستخدام القوات الاتحادية بأنه غير ضرورى وغير لائق . وأدى هذا الحادث المؤسف إلى تسليط الأضواء على كثير من القوى التي كانت تملى وضع العمال طيلة تلك السنوات جميعاً : تعنت الشركات الكبيرة ودور الإضراب المتعاطف ^(١) ، واستخدام قانون مناهضة الترسى ومنع الإضراب بحكم قضائى لكبح الحركة العمالية ، ومسلِك المحاكم العدائى ، وميل سلطات الحكومة لمناصرة رأس المال دون العمل .

ولم يحن عام ١٩٠٠ حتى كان العمال قد ظفروا بمعظم حقوقهم الأساسية — حق تنظيم النقابات ، وحق الإضراب ، وحق المساومة الجماعية — وأحرزوا بعض التقدم في المطالبة بأحوال أفضل للعمل والمعيشة . على أنه كان من الجلى أن هذه المكاسب اقتصرَت على قطاع صغير من الطبقة العاملة ، وأنها لم تكد تمس المسائل الأوسع نطاقاً والمتعلقة بأمن العمال ورفاهية المجتمع بأكمله . وبدأ يتجلى رويداً رويداً أن مشكلة العمل ليست بمعزل عن المشكلات الاجتماعية والاقتصادية الأخرى ، وأن على المجتمع واجباً مشروعاً في العمل على رفاهية وأمن عماله . فإذا أخفقت الصناعة في دفع أجر يفى بنفقات المعيشة ، فعلى المجتمع أن يتكفل بالفرق بطريقة ما . وإذا عجزت عن توفير العمالة ، فعلى المجتمع أن يعنى بالمتعطلين . وإذا تسببت في عاهة تعجز العمال أو إذا استنفدت قواهم قبل الأوان ، فعلى المجتمع أن يعولهم . وما كان تشغيل النساء والأطفال مسألة مقصورة عليهم وعلى من يستخدمونهم ، إذ أنها كانت تتعلق بمستقبل الجنس البشرى . كذلك ثمة مسألة مهمة للمجتمع : إلى متى يستطيع المجتمع تحمل التبديد المتمثل في الحرب الصناعية ، إذ أن المجتمع هو الخاسر دائماً ، مهما يكن الفائز فيها .

ولقد حظيت الحركة العمالية ، في صراعها من أجل الاصلاحات الاجتماعية ، بحلفاء ذوى نفوذ بين الأخصائيين الاجتماعيين — ورجال الكنيسة البروتستانتية ، وأهل

(١) إضراب عمال المناصرة وتأييد عمال آخرين اضطروا للاضراب — المترجم .

العلم والمثقفين . وفي أى تاريخ للحرب ضد عيوب الصناعة والأحياء الفقيرة ، لا بد أن تتألق بحروف كبيرة أسماء جاكوب ريس ، المخبر الصحفي الممتاز ، وجين آدمز من هل هاوس بشيكاغو ، وواشنطن جلادين من رجال الدين المبشرين بمذهب الموحدين ، وجون آر. كومنز الأستاذ بجامعة ويسكونسين ، فلقد عملوا دون هوادة لإطلاع الرأي العام على ما يتكبده المجتمع من جراء تشغيل الأطفال أو خطر المساكن المؤجرة ، ولتحريك الهيئات التشريعية الخاملة . وكان المصلحون موفقين لدرجة ملحوظة في بعض الولايات — مساشوستس ، ونيويورك ، وويسكونسين ، وأوريغون — بيد أن المشكلة كانت عويصة . فحيثما أقامت الولايات المتقدمة معايير عالية ، كانت الصناعة تنتقل إلى الولايات المتخلفة ، حيث لا توجد مثل هذه القيود .

ومع هذا فقد كان ثمة تقدم حقيقى . فلم تحن الحرب العالمية الأولى حتى كانت معظم الولايات قد حرمت — ولو نظرياً على الأقل — تشغيل صغار الأطفال ، وحددت كثير منها ثمانى ساعات حداً أعلى لشغل المرأة ، وأقامت نظماً للتعويض عن الحوادث ، ووضعت لوائح للتفتيش الدقيق على المصانع والمناجم ، ومنعت العقود الاستغلالية أو استخدام المخبرين السريين الخاصين ورجال الأمن الخاصين في المنازعات الصناعية ، وكشفت في أمور أخرى عن يقظة اجتماعية . ولا نملك أن نتعقب هذه التشريعات تفصيلاً ، ولكن تاريخ قوانين تشغيل الأطفال يصورها لنا بجلاء .

لم يحن عام ١٩٠٠ حتى كان تشغيل الأطفال قد أصبح فضيحة عامة . فكان هناك مليون وثلاثة أرباع المليون من الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ١٠ و ١٥ سنة يشتغلون من أجل التكسب إذ ذاك . فكان الكثيرون منهم يعملون في المصانع والمناجم ، وآخرون في مؤسسات التعليب ، أو حقول البنجر ، أو مواطن نمو الثوت البرى . ولقد وجد أحد المحققين ٥٥٦ طفلاً دون الثانية عشرة من العمر يعملون في ثمانية مصانع للقطن ، ووجد آخر أطفالاً في السادسة والسابعة من العمر يعملون في تعليب الخضر في الساعة الثانية صباحاً . ويصف جون سبارجو الذى هز كتابه « صرخة الأطفال الملتاعة » الأمة كلها ، ما رآه في مناجم الفحم بينسلفانيا وفيرجينيا الغربية ، في أوائل القرن ، فيقول :

كان الصبية ينحنون على قنوات تصريف الماء ، ساعة بعد ساعة ، يلتقطون قطع الإردواز وغيرها من الفضلات المتخلفة من الفحم ، وهى تندفع من المغاسل . ومن جراء الوضع

٣٣٣ العمالة والهجرة

غير السليم الذى كانوا يضطرون إلى اتخاذه ، تشوه أجسام معظمهم بدرجات متفاوتة ، ويصبحون ذوى ظهور منحنية كالشيوخ . . والفحم صلب حاد ، وإصابات الأيدي - كالقطوع والكسور والتهشبات التى تصيب الأصابع - شائعة بين الصبية . وأحياناً تكون هناك إصابات أسوأ ، فتسمع صرخة مدعورة ، وإذا صبى قد اشتبك فى الآلة وتمزق ، أو اختفى فى القناة ، ليلتقط بعد ذلك جثة هامدة . وتغلا آلات التكسير سحاً من الغبار يستنشقه الصبية ، لترسى أسس الربو ودرن المناجم . ولقد وقفت مرة فى قسم التكسير نصف الساعة ، وحاولت أن أؤدى العمل الذى كان صبى فى الثانية عشرة من عمره يؤديه يوماً بعد يوم . . وما كان بوسعى أن أؤدى ذلك العمل وأظل على قيد الحياة ، بيد أن هناك صبية فى العاشرة أو الثانية عشرة من العمر يمارسونه لقاء خمسين أوستين سنتا فى اليوم . وبينهم من لم يدخلوا المدرسة قط ، وقليل منهم من يستطيعون قراءة كتاب المطالعة للصف الأول .

كانت هناك قوانين فى الولايات ضد هذه المساوئ فى الواقع ، بيد أنها لم تكن كافية ، وكان من السهل التهرب منها . فانتهى الأمر بكارولينا الجنوبية إلى جعل الثانية عشرة حداً أدنى للعمل فى المصانع ، ولكنها سمحت باستثناءات حيث كان هذا الحد يفرض على العائلات ضائقة . وعندما اشترطت ميريلاند من كافة الأشخاص الذين دون السادسة عشرة ، الراغبين فى العمل أن يحصلوا على إجازة ، إذا بالطلبات تزيد عدداً عن مجموع عدد من كانوا فى السادسة عشرة وفقاً للتعداد السابق . ونادراً ما كانت التشريعات تتناول سوى عمال المصانع ، تاركة بلا حماية مئات الآلاف من الأطفال العاملين فى نقل الرسائل ، وطلاء الأحذية ، وفى جمع التوت فى الحقول ، وفى مؤسسات التعليب التى لم تكن تعتبر مصانع . ولم تفرض ولاية أمريكية واحدة - سوى ديلاوير - حتى سنة ١٩٠٩ أنه لا يجوز تشغيل أى طفل دون الرابعة عشرة ، أو إكراهه على ممارسة أى عمل يدر كسباً .

وأدى عدم كفاية قوانين الولايات إلى مطالبة الكونجرس بالتصرف . فاستجاب الكونجرس فى سنة ١٩١٦ بقانون يحرم شحن منتجات الأطفال العاملين فى الاتجار بين الولايات . وبدا أن المشكلة حلت بهذا - بيد أن المحاكم أعلنت صراحة أن هذا القانون خارج عن سلطات الكونجرس ، فهو باطل . وكرر الكونجرس

٣٣٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

المحاولة بعد ثلاث سنوات ، محاولاً في هذه المرة أن يحرم وجود منتجات من عمل الأطفال . ومرة أخرى ، أشهرت المحاكم سلاح النقض : ليس للكونجرس أن يبرم بطريقة غير مباشرة ما ليس له أن يبرمه مباشرة . وصحيح أن المحكمة العليا اعترضت بعد عشرين عاماً بأن هذا كله كان خطأ ، ولكن الضرر كان قد وقع . فاستمر تشغيل الأطفال طيلة العشرينات من القرن الحالى المتسمة بالرخاء ، وأظهر تعداد سنة ١٩٣٠ أن أكثر من مليونين من الصبية والبنات دون الثامنة عشرة كانوا مستخدمين لقاء أجور . ثم جاء البرنامج الجديد فقطع الحوار الدستوري وأنهى الفضيحة عملياً .

بهذين الأسلوبين — المساومة الجماعية والتشريع — حسن العمل وضعه تحسناً كبيراً . كذلك بدأت المشروعات تتخذ نحو مشكلة العمل رأياً أكثر استنارة ، وتصلح من أمرها وفقاً لذلك . فلم يعد أى رجل أعمال يشارك جاي جولد داهية السكك الحديدية : « إن العمل سلعة لن يسيطر عليها في الأجل الطويل سوى قانون العرض والطلب وحده » . وكان قانون العرض والطلب قد عدل لمصلحة أصحاب المصانع والمصارف والمزارع ، فبات لازماً أن يعدل لمصلحة العمل .

بوتقة الصهر

لم يقدر معظم الأمريكيين يوماً دور الهجرة في تاريخهم التقدير الصحيح . فهم ينظرون إلى الهجرة بوصفها « مشكلة » . ويرون عادة أنها مشكلة لم تبرز إلى المقدمة إلا في نصف القرن الأخير أو حوالى ذلك . وهم عندما يفكرون في الهجرة ، يتمثلون في خيالهم صورة الإيطاليين السمر ، أو اليهود ذوى اللحى ، أو الفلاحات البولنديات بالشيلان الزاهية وهم يهبطون معابر السفن إلى جزيرة إيليس . وهم لا يفكرون في الآباء المهاجرين ، ولا في الهيجونوت الفرنسيين ، ولا في الاسكتلنديين — الأيرلنديين ، ومن المؤكد أنهم لا يفكرون في السود المساكين الذين كانوا يعانون أهوال مرحلة الانتقال .

ومع هذا فإن الأمريكيين كافة — فيها عدا الهنود — مهاجرون ، أو أنسال من مهاجرين : سواء في ذلك سيدات العهد الاستعماري وأعضاء جماعة سنسيناتى ، وعمال

٣٣٥ العمالة والهجرة

الصلب البولنديين في جارى ، وزنوج هارلم . والواقع أن المهاجرين توافدوا في فترات مختلفة ، وظروف مختلفة ، ومن أرجاء مختلفة من المعمورة . بيد أنهم جميعاً اجتازوا تجربة واحدة ، اقتلعتهم من أوطانهم الأولى وغرستهم في وطن جديد . ولقد جلبوا معهم جميعاً ، حتى الجهلة والسفلة منهم ، مقدرتهم وثقافتهم وإيمانهم . فإذا بهم جميعاً عناصر في بوتقة أمريكا العملاقة .

ولقد اطلعنا على شيء من التيارات المتباينة التي عملت على تكوين سكان أمريكا في عهد الاستعمار . واستمرت الهجرة من الدنيا القديمة إلى الدنيا الجديدة طيلة الأعوام الأولى للجمهورية ، وكانت اختيارية طوعية . فمن عام ١٨٢٠ ، عندما بدأ الاحتفاظ بسجلات إحصائية لأول مرة ، حتى بداية الحرب الأهلية ، ربط حوالى خمسة ملايين من الوافدين من أيرلندا وإنجلترا وألمانيا أقدارهم بأقدار الأمريكيين . بل إن الحرب الحرب ذاتها لم تعرقل تدفق المهاجرين بدرجة كبيرة ، ثم اشتد إقبالهم بعد أبوماتوكس فأصبح سيلاً جارفاً ، ومن ثم فإن سكان أمريكا في سنة ١٨٧٠ كانوا قوماً متباينى الأصول جداً . ففي ذلك الحين ، كان من بين كل ألف أمريكى ٤٣٥ من الأمريكيين البيض بحكم المولد ، الذين ولدوا لأباء من الأهالى الوطنيين ، و ٢٩٢ من الوطنيين بحكم المولد من آباء أجناب أو مختلطين ، و ١٤٤ من البيض الأجانب المولد ، و ١٢٧ من الزنوج ، وكان تمام الألف واحداً من الهنود واحداً من الصينيين . ولقد وفد بين عامى ١٨٧٠ و ١٩٢٠ عشرون مليوناً آخرون تقريباً من المهاجرين . ومع ذلك فقد بقيت نسبة الأجنبي المولد والوطنى المولد واحدة إلى حد كبير . ولعل أبرز التغيرات تمثل في تضائل العدد النسبى للزنوج ، وازدياد عدد المكسيكيين .

غير أن حقيقة مهمة جداً عن الطابع المتغير لسكان أمريكا ، استرعت انتباه كل مراقب . تلك هى الزيادة الحادة في عدد أولئك الذين كانت أوطانهم أو أوطان آبائهم في دول أوروبا الجنوبية والشرقية . ولقد ظلت أغلبية المهاجرين في السبعينات والثمانينات من القرن التاسع عشر ، من الوافدين من تلك الدول التى أمدت البلاد بالكثيرين في الماضى . . وهى بريطانيا العظمى وألمانيا والدول الاسكندنافية . بيد أنه كان ثمة تيار بسيط من مصادر الهجرة « الجديدة » ، حتى في تلك السنين . ولقد أنشأت شركات الملاحة المغامرة اتصالات مباشرة مع نابولى ودانزج وميل وفيومى وأثينا ، واتخذت آلافاً من السوكلاء في إيطاليا وبولندا والمملكة الثنائية لاجتذاب المسافرين بالأجور الرخيصة .

وكانت شركات البواخر المغامرة تدبر مقابلة المهاجرين في جزيرة إيليس ، وأخذهم إلى مناطق التعدين أو مدن المصانع . وإذ خفت حدة ضغط السكان في بريطانيا العظمى وألمانيا واسكندنافيا ، خف تسرب المهاجرين إلى الدنيا الجديدة . ولكن الهجرة « الجديدة » ازدادت بطفرات واسعة ، فأقبل في العقد الأول من القرن العشرين — على سبيل المثال — ٣٤٠ ٠٠٠ فقط من أيرلندا ، و ٣٤٠ ٠٠٠ غيرهم من ألمانيا ، بينما أقبل من إيطاليا مليونان ، ومن مقاطعات النمسا والمجر مليونان آخران ، وقبل أن توضع الحواجز نهائياً لصد هذا السيل ، كانت إيطاليا قد أرسلت إلينا ما يزيد على أربعة ملايين ونصف المليون من أبنائها وبناتها ، وأرسلت النمسا والمجر أربعة ملايين ، وروسيا وبولندا ثلاثة ملايين وربع المليون .

كل هؤلاء الوافدين — أولئك الذين فروا من الاضطهاد الديني ينشدون حرية العبادة كما يبتغون ، وأولئك الذين هربوا من الخدمة العسكرية والحروب ، وأولئك الذين كانوا يتوقون إلى مجتمع أكثر ديمقراطية ، وأولئك الذين كانوا يرحون النجاة من الفقر المدقع والمشاركة في ثروات الدنيا القديمة — كانوا جميعاً يتطلعون إلى أمريكا كأنها « أرض الميعاد » . ولقد انغمسوا جميعاً في المغامرة الكبرى ، أيا كانت أسبابهم للإقدام ، وهم يحملون بحياة أفضل ، وعمل معظمهم على إقامة هذه الحياة لأنفسهم ولأبنائهم . كانت الهجرة « القديمة » قد انتشرت بقدر كبير من الانتظام في الشمال والغرب ، وتوزعت بين الزراعة والصناعة بأعداد متساوية تقريباً . ولكن المهاجرين « الجدد » تجمعوا في المراكز الصناعية في الشرق وفي الغرب الأوسط ، إذ أن إنشاء مزرعة كان يتطلب مالاً ، وإذ أن أجود الأراضي كانت قد نفدت ، لأنه كانت ثمة أعمال في المدن والمستوطنات التي أنشأها أبناء أوطانهم والكنائس الكاثوليكية . ولم يكن عام ١٩٠٠ حتى كان ثلثا الأجانب المولد يقيمون في المدن كبيرها وصغيرها ، ولم يكن عام ١٩٢٠ حتى كانت هذه النسبة قد ارتفعت إلى ثلاثة أرباع ، فكان في مدينة نيويورك مئات الآلاف من الإيطاليين والبولنديين والروس واليهود ، وكان الإيطاليون والكنديون الفرنسيون يعيشون بأعداد كبيرة في بوسطن الرزينة ، والروس في فيلادلفيا التي يغلب عليها مذهب الكويكر ، والروس والبولنديون في كليفلاند ، والاسكندنافيون في سانت بول ومينيابوليس ، في حين أن شيكاغو كانت تضم من متباين العناصر ما تضم أية مدينة أخرى في العالم ، بل إن نسبة الأجانب المولد كانت في المدن الصناعية الصغيرة ، مثل

٣٣٧ العمالة والهجرة

فول ريفر أوسكرانتون أو هامترامك أعلى منها في المدن الكبيرة . وكان معنى هذا أن الوافدين من جنوب وشرق أوروبا وجدوا عملاً في المناجم والمعامل والمصانع . فكان ثلاثة أرباع عمال مناجم الفحم في بنسلفانيا - مثلاً - حتى سنة ١٩١٠ من الأجانب المولد ، وكانت أغلبية طاغية منهم من الإيطاليين والبولنديين والسلوفاكيين . وفي سنة ١٩٢٠ ، كان الأجانب المولد يؤلفون ثُمن المجموع الكلي للسكان ، ولكنهم كانوا يؤلفون الثلث فقط من العاملين في المصانع ، وأكثر من نصف العاملين في المناجم .

بماذا أسهم المهاجرون ؟ . . كان أهم ما أسهموا به ، أنفسهم - مقدرتهم وعملهم وإيمانهم . إنهم يدينون بالكثير للبلاد التي تبنتهم ، كما تدين البلاد لهم بالكثير . كانوا يؤدون العمل الشاق المضني الذي كان لا بد منه إذ أريد تنمية موارد الأمة بسرعة وبنفقات زهيدة . فمهدوا تربة الفيافي الجرداء ، ومدوا القضبان للخطوط الحديدية عابرة القارة ، واستخرجوا الحديد الخام والفحم والنحاس ، واقتطعوا الخشب من غابات الشمال الغربي . بيد أن مساهمتهم لم تكن مقصورة على العمل الذي لا يتطلب مهارة ، فقد أضفوا ثراء ودسامة على الحياة الأمريكية ، وأضافوا الكثير إلى ثرائها الثقافي في بعض الميادين : فقدموا قسطاً كبيراً من الحفز الإبداعي في الموسيقى والفنون . وما من فرقة موسيقية في البلاد ، في سنة ١٩٣٠ ، إلا كان قائدها يحمل اسماً أنجلوسكسونياً .

على أن الهجرة خلقت مشكلات كذلك ، شعرت بها القوى العاملة في شكل التنافس على الأعمال ، مما عبر عنه أحد زعماء العمال بقوله : « بأن حياتنا محكومة بمعايير الهجرة ، فإن أجورنا تقوم على أساس الهجرة ، كما أن أحوال أسرنا تقاس بمقاييس الهجرة » . . وشعرت بها حكومات المدن في مشكلات جديدة متعلقة بالإسكان والصحة العامة والأمن ، وشعر بها النظام المدرسي في مشكلة الأمية والتوافق الاجتماعي . ومع هذا فلم يكن استيعاب الأجانب المولد عسيراً ، بالرغم من مخاوف الكثيرين من ممثلي العنصر الأهلي الذين كانوا يرتجفون فرقاً من « نبرة منذرة غريبة عن جونا » . كان المهاجر العادي يدوب لهفة على أن يصبح أمريكياً . والتجربة التي تصفها ميرى آنتين في كتابها « أرض الميعاد » ، تجربة خاضها مئات الآلاف منهم :

بلغت ذروة اعتدادي كمواطنة وطمأنيتي الشخصية في صباح يوم مشرق من شهر سبتمبر ، عندما دخلت المدرسة العامة . جدير بي أن أذكر هذا اليوم دائماً ، ولوعشت

إلى عمر أعجز معه عن ذكر اسمي . فإن اليوم الأول في المدرسة مناسبة لا تنمحي من ذاكرة معظم الناس . وقد كانت أهمية اليوم — في حالتي — أضخم منها لدى سوى مائة مرة ، بسبب السنوات التي اضطرت لقضاها في الانتظار ، والمسلك الذي سلكت ، والأمال الواعية التي كانت تخالجنى . . . ولقد أقلنا والذي إلى المدرسة بنفسه ، وما كان ليعهد بهذه المهمة لرئيس الولايات المتحدة نفسه . فلقد كان يرتقب هذا اليوم بعين ما كنت أرتقبه به من نفاذ صبر ، وكانت الرؤى التي تمثلها وهو يمضي بنا مسرعين على الأرضفة التي تتركشها أشعة الشمس تفوق أحلامى قاطبة . وأخيراً ، وقفنا نحن الأربعة حول مكتب المعلمة ، وفي إنجليزية لا تكاد تكون مفهومة ، عهد أبى بنا إليها ، مع بعض كلمات ركيكة عن آماله لنا التي لم يعد قلبه المفعم قادراً على الاحتفاظ بها .

كان أطفال المهاجرين ، وليس المهاجرون أنفسهم ، هم الذين أثاروا مشكلات الاستيعاب والتوافق . كان كثيرون منهم قد انتزعوا من مواطن جذورهم ، فتولاهم الارتباك وضعفت معنوياتهم . كانوا في أوطانهم يعيشون في عالم ، وخارج أوطانهم في عالم آخر غريب . كانوا بعد مشدودين إلى الدنيا القديمة عن طريق آباءهم — وعن طريق كنائسهم في كثير من الأحوال — غير أن صلتهم هذه كانت غير مباشرة ، وغير واقعية . وكثيراً ما كانوا يثيرون على تراثهم القديم قبل أن يكونوا قد تعلموا اعتناق الجديد . كانت المدرسة العامة هي الحل الأكبر ، بيد أن المدرسة كانت تبرز الفوارق أحياناً بدلاً من أن تمحوها . وكان الأمريكيون من الجيل الثاني أكثر من الجيل الأول إظهاراً لمشكلات سوء التوافق (التكيف) الاجتماعى والعنف والجريمة .

ولقد تولد حوالى سنة ١٩٠٠ شعور واسع الانتشار بأن الوقت قد حان لوقف الهجرة غير المقيدة . فقد كره العمال مزاحمة العاملين غير المهرة ، والذين يسهل استغلالهم : كان أمريكيو « الرعيل القديم » يخشون أن يكون النسب العنصرى في انحطاط بفضل الوافدين من البلاد السلافية والبحر المتوسط . وكان الإنسان العادى يرى أن الولايات المتحدة قد أوتيت من الناس والمشكلات ما يجعلها في غير حاجة إلى مزيد . وكان الكونجرس منذ سنة ١٨٨٢ قد أوقف الهجرة من الصين ، كما استبعد في الوقت ذاته أولئك الذين يعتبرون « غير مرغوب فيهم » — المرضى والمتخلفون عقلياً واللا أخلاقيون والفوضويون وغيرهم . ولعل هذا كان ذا أثر كفى ولكنه لم يكن

٣٣٩ العمالة والهجرة

ذا نتيجة كمية ، والشئ الذى كانت الحاجة تمس إليه ، هو غربال يحقق النتيجة الكيف والكم . وكان الحل المقترح هو اختبار الإلمام بالقراءة والكتابة ، إذ لم يكن للأمية وجود تقريباً في الجزر البريطانية وألمانيا واسكندنافيا ، في حين أنها كانت مرتفعة في إيطاليا وبولندا وروسيا وغيرها من دول جنوب وشرق أوروبا . وبدا أن لهذا ميزة تخفيض العدد الإجمالي للمهاجرين « الجدد » ، دون أن يؤثر تأثيراً قوياً على الهجرة القديمة .

ولقد رفض ثلاثة رؤساء للجمهورية — كليفلاند وتافت وويلسون — التصديق على مشروعات قوانين تجبذ اشتراط الإلمام بالقراءة والكتابة للسماح بدخول الولايات المتحدة ، باعتبار أن هذا لم يكن اختباراً للمقدرة وإنما هو اختبار للفرصة . على أن الكونجرس نفذ رغبته أخيراً ، في سنة ١٩١٧ ، ونص في قوانين الهجرة على الإلمام بالقراءة والكتابة . ومع انتهاء الحرب العالمية ، واحتمال الهجرة على نطاق واسع من الدول المخربة في أوروبا ، تبدت المشكلة كمسألة استبعاد أكثر مما هي مجرد تقييد . فوضع الكونجرس ، في سلسلة من القوانين تتابعت في سنوات ١٩٢١ و ١٩٢٤ و ١٩٢٩ ، حداً كمياً — بلغ ١٥٠ ٠٠٠ — بالنسبة لمن يسمح لهم بالمجيء من الخارج . ولم يطبق هذا التحديد على الهجرة من كندا أو المكسيك أو دول أمريكا الجنوبية ، ولكن التشدد في تفسير النصوص التي تحرم دخول أى ممن قد يصبحون عبئاً على الدولة ، خفض الهجرة من تلك الدول كذلك بدرجة محسوسة .

وهكذا ، لم تحن سنة ١٩٣٠ ، حتى انتهت حقبة من التاريخ الأمريكى . ظلت الولايات المتحدة بوتقة لصهر العناصر ، بيد أنها أصبحت مكتظة في كثير من المناطق ، فلم يعد من سبيل إلى أن تكون « أرض ميعاد » بالمعنى القديم المطلق للفقراء والمضطهدين من الدول الأخرى .



الفصل ١٦

الغرب يبلغ سن الرشد

فتح القسم الأخير من الغرب

في الوقت الذي كان الجنوب يفتق فيه من آلام الحرب وفوضى إعادة التنظيم ، وكان الشمال يربط اقتصاده بالمصنع والآلة ، كانت ثمة تطورات أشد إثارة للاهتمام تجري في الغرب المترامي وراء نهر المسيسيبي ، إذ أن هذا الإقليم ، الذي يضم نصف المساحة الإجمالية للولايات المتحدة تقريباً ، كان حتى سنة ١٨٦٠ يتألف من بطاح مقفرة . صحيح أن ولاية كاليفورنيا الجديدة كانت تزدهر بـ سكان يناهزون أربعمئة ألف ، وكان في وادي ولاميت فالى حوالى خمسين ألفاً من طلائع الوافدين على أوريجون ، وكانت مستوطنة المورمون التي تحف ببحيرة جريت سولت ليك تأوى أربعين ألف آخرين ، بينما عاش على ضفاف أعالي نهر ريو جراند جمع غير كثيف تألف من حوالى تسعين ألف من هنود البويبلو والمكسيكيين والبيض المغامرين . وكانت بقية هذه المساحة الشاسعة موثلاً للهنود . . عشائر السيوكس والبلاكفوت والكراو المحبة للحرب ، في السهول الشمالية . . وعشائر الأوت والشين والكيوا في المنطقة الوسطى ، وعشائر الكومانش والأباش القاسية في الجنوب المجذب . . العشائر العديدة التي فرضت أسماها على الفولكلور الأمريكى ،

٣٤٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

فترددت فيه . كانت تهيم في السهول والجبال والصحارى على صهوات الجياد ، متعيشة على قطعان هائلة من الجاموس تمدّها بكل شيء ، من القوت حتى الوقود ، لا يعترضها أحد اللهم إلا إذا اعترضت بعضها بعضاً أو اعترضتها أسود الجبال وذئابها .

بعد ثلاثين عاماً ، كان هذا كله قد تغير . كان الهنود قد هزموا وأخضعوا لعملية التمددين المحفوفة بالشبهات . وتلاشت قطعان الجاموس ذات الخوار . وانتشر عمال المناجم في كافة أرجاء الإقليم الجبلي ، ينقبون عن المعادن في الجداول الصافية التي كان لأسمائها ذاتها وقع شاعري — سان جواكان ، وييفرهيد ، وبيل فورس ، وبيتر روت وسويتوتر — ويحفرون الأنفاق في جوف الأرض ، وينشرون المجتمعات الصغيرة ذات النشاط المحموم في نيفادا ، ومونتانا وكلورادو ، بل وتلال داكوتا السوداء (بلاك هيلز) . ومضت السكك الحديدية في إقدام تشق أرض الفيافي المقفرة ، لتكون مسالك خلال جبال روكي الشاهقة ، رابطة بين المحيطين الأطلنطي والهادي . واستغل مربو الماشية الحشائش المباحة ، والسكك الحديدية ، والأسواق الجديدة ، فاستأثروا بإقليم شاسع من الأراضي المعشوشبة ، امتد من بائنهاندل في ولاية تكساس إلى أعالي ميسوري ، وعلى سفوح الجبال . ثم تدفق المزارعون على السهول ووديان الجبال ، فسدوا الثغرة بين الشرق والغرب . ولم يحن عام ١٨٩٠ ، حتى كانت مناطق الحدود الغربية قد تلاشت ، فامتد بعرض القارة نطاق متماسك من الولايات ، وانهمك خمسة ملايين أوستة من الرجال والنساء في فلاحه الفيافي التي كانت مرتعاً للبقر والكلاب الوحشية .

لماذا تأخر هذا الإقليم الشاسع كل هذا الزمن ، ولماذا جرى فتحه ، عندما حان ، بهذه السرعة المذهبة ؟ لقد ظل الأمريكيون قرنين وهم يمضون قدماً في اتجاه الغرب من ساحل المحيط الأطلنطي إلى « الغرب القديم » الذي كان معروفاً أيام الاستعمار ، عبر جبال أبلاش ، هابطين إلى أوهايو ، وإلى وادي المسيسيبي . ولم يحن عام ١٨٥٠ حتى كانت حدود العمران قد وصلت إلى ما يقرب من خط الطول ٩٥ . . وهناك ، ولأول مرة في التاريخ الأمريكي ، أوقفت مسيرتها الزاحفة الموعلة . وبدلاً من أن تمضي قدماً بانتظام ، إذا بها تثب عبر السهول وجبال روكي ، وتستقر على طول ساحل المحيط الهادي . إن الإيضاح يكمن في الجغرافيا والمناخ . كان الأوروبيون قد أقبلوا من دول حافلة بالغابات والأنهار ، فوجدوا في الدنيا الجديدة غابات وأنهاراً وأمطاراً وفيرة لمزروعاتهم . ولكن السهول الكبرى واجهتهم ، لأول مرة في قرنين من التجارب

٣٤٣ الغرب يبلغ سن الرشد

والخبرة ، بشيء جديد ، تمثل في الأراضي قليلة الماء . منسوب ضئيل للمطر ، وكانت ثمة فترات طويلة من الجفاف ، وجداول ضحلة لا سبيل للاطمئنان إليها ، وأخشاب قليلة لإقامة البيوت والأسوار ، فلا عجب في أن الرواد الأوائل تجاوزوا هذه المناطق ، مواصلين سعيهم إلى ساحل المحيط الهادى الغزير المياه الوفير الأخشاب .

١٠ وما كان للمزارع أن يأمل في أن يذلل السهول الكبرى حتى يتكر أدوات لكى يتأقلم وفقاً للبيئة الجديدة ، وقد جاء هذا التأقلم ، في موعد مناسب . فهيات السكك الحديدية النقل ، ويسرت الأسلاك الشائكة للأسوار ، ووفرت الآبار المحفورة في الأرض وطواحين الهواء الماء ، وساعدت الفلاحة الجافة والرى على حل مشكلة الزراعة حيث كان منسوب المطر غير كاف للنوع الذى كان المزارعون متعودينه من الزراعة . وبهذه الأدوات الجديدة بات في وسع الرواد الأوائل أن يعيشوا ، وأن يستنبتوا المحصولات ، وأن يقيموا مجتمعات دائمة في السهول . ولم تسفر التجربة عن طرق جديدة للزراعة فحسب ، بل نجمت عنها طرق جديدة للمعيشة . . نظم اجتماعية واقتصادية وثقافية جديدة .

أما الغرب الشاسع وراء نهر الميسورى ، فلم يكن مجهولاً وإن لم يكن مأهولاً بدرجة كبيرة . كان الرواد المستكشفون البواسل ، مثل لويس وكلاك وجون سى . فريمونت قد ارتادوها ، وكان صيادو حيوانات الفراء وتجار الفراء الذين يعملون لحساب شركتى نورث ويست أو أستور للفراء ، أو لحسابهم الخاص ، قد تعرفوا عليها ، وكان التجار على طول درب سانتا فيه قد شقوا الطريق إلى الجنوب الغربى الاسبانى ، وأضنى المبشرون الكاثوليك والبروتستانت على السواء أنفسهم مع الهنود . وكان الرواد الأوائل لدرب أوريجون ، والاتقياء على درب المورمون ، والمغامرون في سبيل الثراء على درب كاليفورنيا قد شقوا طرقاً برية عبر الإقليم ، وأنشأ الجيش حصوناً لحماية المهاجرين والتجار ، ورسم رجال المساحة الخرائط للإقليم المتعين مسارات الخطوط الحديدية ، ومع مطلع العهد الجديد كان الرئيس لينكولن يوقع مرسوماً لإنشاء أول خط حديدى عبر القارة .

فلقد كان ذوو الأفق الواسع يحلمون ، منذ أربعينات القرن التاسع عشر ، بخط حديدى يربط طرفى القارة ، بيد أن المشكلة لم تصبح ملحة حتى اندفع الناس إلى كاليفورنيا . فبعد ذلك احتدم النقاش بصدد مسار هذا الخط ، إذ كان الجنوبيون يريدون طريقاً يربط جنوب كاليفورنيا وتكساس بنيو أورليانز أو ممفيس ، والشماليون

٣٤٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

يطنطنون ابتغاء طريق يربط الشمال الغربى بسانت لويس أو شيكاغو . ولقد أجريت عمليات المسح ، ولكن الجدل لم يهدأ إلى أن انسحبت ولايات التحالف الجنوبي ، مما جعل للشماليين الكلمة العليا . وتضمن مشروع قانون السكك الحديدية للمحيط الهادى (باسيفيك ريلواى) فى سنة ١٨٦٢ خطين : يونيون باسيفيك وسنترال باسيفيك ، على أن ينشأ اليونيون باسيفيك إلى الغرب من كاونسيل بلفز بولاية أيووا ، والسنترال باسيفيك فى اتجاه الشرق من كاليفورنيا ، ويمدا حتى يلتقيا . ولكى تيسر الحكومة الاتحادية هذا المشروع الهائل ، منحت الخطين حوالى أربعة وعشرين مليون دونم من الأراضي العامة التى تملكها الدولة ، وقروضاً وصلت فى آخر الأمر إلى حوالى خمسة وستين مليون من الدولارات .

وبدافع من هذه المنح ، ومن هبات أخرى من الهيئات التشريعية للولايات ، مضى المديرون بهمة فى مخططاتهم . وكانت تواجههم مهمة جبارة ، فقد كان لزماً مد القضبان حوالى ١٧٠٠ ميل فى برارى مقفرة ، وجبال وصحراء لا يسكنها سوى هنود معادين . وكانت المشكلة الهندسية لخط سنترال باسيفيك ذات وعورة خاصة ، فلم تكن ثمة أيد عاملة ميسورة ، وانتهى الأمر باستجلاب عشرة آلاف عامل غير ماهر من الصين النائية . وكان لزماً نقل كل طن من القضبان الحديدية ، وكل مركبة ، وكل قاطرة ، وكل آلة ، بالسفن حول رأس هورن ، أو عبر برزخ بناما ، حتى لقد بلغ عدد السفن التى كانت تستأجرها فى فترة من الفترات لهذا الغرض خمسين سفينة . ولم تكن هناك طرق فى مرتفعات سييرا ، فكانت آلاف الأطنان من المعدات ، وبينها قاطرات ، تجر على زحافات ضخمة عبر ركامات الثلج . وسلكت الأغذية والبارود وجميع أنواع الإمدادات عين الطريق المضنى . وكان لابد من نسف مسار للخط الحديدى فى المرتفعات ، ومد جسور فوق الوهاد ، وحفرت فى جوف مرتفعات سييرا خمسة عشر نفقاً ، فى مسافة طولها ستون ميلاً . وعندما هدد الجليد الغزير بوقف كل عمليات الإنشاء ، أقام المهندسون البارعون حظائر واقية من الجليد طولها سبعة وثلاثون ميلاً ، استمر العمل تحتها .

أما العمليات الهندسية لخط يونيون باسيفيك فكانت أقل صعوبة . . ولعل من أسباب ذلك أنها حظيت فى شخص الجنرال جرنفيل دودج بواحد من أعظم المهندسين . وكانت قوته العاملة مؤلفة من عمال أيرلنديين ، ومن مقاتلين سابقين من جيوش الاتحاد والاتحاد التحالفى ، الذين كانوا يستبدلون البنادق بالمعاول بسرعة إذا ما ظهر الهنود .

٣٤٥ الغرب يبلغ سن الرشد

وتحت قيادته الدافعة امتد الخط بمعدل ميلين ، وثلاثة بل أربعة في اليوم ، فكانت إحدى جماعات الإنشاء تضع الروافد الرابطة ^(١) ، بينما تطرح أخرى القضبان وتثبتها .
وفي ١٠ مايو سنة ١٨٦٩ ، التقى الخطان عند برمونتوري بونيت بولاية يوتا ، فالتقت الأمة بأسرها في الاحتفال بوصل الخطين بمشبتات من الذهب والفضة . كان عملاً هندسياً عظيماً ، قصة بطولية للدأب ، والذكاء العبقري ، والجلد . وفي هذا كتب روبرت لويس ستيفنسون يقول :

عندما أمثل كيف مد الخط الحديدي خلال هذه البطاح الخالية من الماء ، التي ترتادها العشائر الوحشية . . كيف انبثقت في كل مرحلة من مراحل الإنشاء مدن صاخبة ، دون تخطيط أو إعداد ، مليئة بالذهب والشهوة والموت ، ثم ذوت وماتت مرة أخرى . كيف كان القراصنة الصينيون ذوو الصفائر يعملون في هذه الأماكن الغريبة جنباً إلى جنب مع أوغاد من مناطق الحدود ومفلسين من أوربا ، يتكلمون معاً بلهجة مختلطة ، أغلبها سباب وشتائم ، ويقامرون ، ويشربون الخمر ، ويتعاركون ، ويقتل بعضهم بعضاً كالذئاب . . ثم عندما أوغل في التفكير فأتذكر أن كل هذا النشاط الملحمي المصاحب كان يوجه بوساطة سادة في سترات (فروك) ، لا يتطلعون إلى شيء غير عادي يتجاوز الحصول على ثروة وزيارة لباريس بعد ذلك ، يترأى لى أنه إذا كان هذا الخط الحديدي هو الإنجاز المثلالي للأوحد للعصر الذي نعيش فيه . . إذا كان ما نبتغى هو الخيال الشعاري ، التناقض ، البطولة ، فكيف تقاس طروادة بهذا ؟

كان هناك خيال شاعري وبطولة حقاً ، ولكن كان ثمة ثروة وزيارة لباريس كذلك . والواقع أن الإنجاز الذي جلب مثل هذا الزهو ، جلب في الوقت ذاته شعوراً بالعار . فإن مديري يونيون باسيفيك لم يقنعوا بسخاء الحكومة ، فأقاموا شركة وهمية للإنشاءات ، وأجازوا عقوداً احتيالية درت عليهم أرباحاً بلغت ملايين الدولارات . وأنشأ الأقطاب الأربعة لخط سنترال باسيفيك شركة لإنشاءات خاصة بهم ، واستخلصوا لأنفسهم ما يزيد على ستين مليوناً من الدولارات ، وقد خلف كل منهم عندما مات

(١) الموارد الخشبية الفلنكات والقضبان المستعمرة لتثبيت القضبان الطويلة - المترجم .

٣٤٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

ما يتجاوز أربعين مليوناً . ولقد أقبل كل من الفريقين من المديرين على الرشوة الجماعية ، وأثقل كل من الفريقين خطة الحديدى بديون اضطرت الحكومة معها إلى أن تطالب دون طائل بقروضها ، واضطرت المجتمعات التى كان الخطان يخدمانها إلى أن تدفع أجوراً باهظة للنقل لمدة جيل تال .

وفى تلك الأثناء ، وضعت مشروعات كثير من الخطوط الحديدية الأخرى العابرة للقارة ، اكتمل منها أربعة . فبمساعدة منحة من الكونجرس قدرها أربعون مليوناً من الدولارات من الأراضى العامة ، بدأ جاي كوك خط نورذرن.باسيفيك الذى ربط بين بحيرة سويريور وبوجيت ساوند فى سنة ١٨٨٣ ، والذى أكمله فريدريك بيلينجز وهنرى فيلارد . ولم يكن خطان آخران عابران للقارة أقل حظاً من السابقين من المنح المتمثلة فى الأراضى ، وذلك هما : خط سانتا فيه الذى امتد على طول الدرب القديم من كنساس إلى نيومكسيكو ، وخط سودرن باسيفيك الذى امتد من نيواورليانز إلى لوس أنجلوس وسان فرانسيسكو . ولم تكن هذه الخطوط ، والخطوط الأخرى التى اتجهت إلى الغرب ، تتلقى الهبات من الحكومة الاتحادية وحدها ، بل من الولايات والمقاطعات كذلك . ولم ينشأ من الخطوط العابرة للقارة دون ما مساعدة حكومية سوى خط واحد ، هو جريت نورذرن . وهذا الخط ، الذى أنشأه جيه . جيه . هيل الكندى المولد ، يوازى خط نورذرن باسيفيك من سانت بول حتى سياتل . وقد أثبت من الناحية المالية أنه أسلمها جميعاً ، ومن ناحيتى السياسات الاقتصادية والاجتماعية أنه أكثرها نفعاً . فالواقع أن هيل كان من بناء الإمبراطورية ، وقد أدت شركة جريت نورذرن خدمات لا تقل عما أدته شركة خليج مساشوستس فى القرن السابع عشر ، وشركة أوهايو فى القرن الثامن عشر ، إذ نقلت المستوطنين إلى الإقليم ورعتهم طيلة العام الأول . وشيدت الكنائس والمدارس ، ونمت بنمو الإقليم .

مملكتا التعدين والماشية

. كان عمال المناجم هم الذين أنشأوا المراكز الأمامية الأولى فى الغرب الأقصى . ولقد أدى اكتشاف الذهب فى كاليفورنيا إلى تحويل تلك الولاية من مركز أمامى رعوى لتربية الماشية

٣٤٧ الغرب يبلغ سن الرشد

في اسبانيا الجديدة ، إلى ولاية أمريكية ناهضة وفتح السبيل إلى أنشطة اقتصادية متباينة : زراعة ، وملاحة ، وسكك حديدية ، وصناعة . وقد لهذه التجربة أن تتكرر مراراً متتابة في تاريخ مملكة التعدين ، عند الاندفاع إلى منطقة بايكس بيك في سنة ١٨٥٩ ، وإلى ألدردر جلش ولاست تشانس في مونتانا ، وضاف الماء العذب في وايومينج في أواسط الستينات ، وإلى بلاك هيلز في داكوتا في السبعينات . فكان رجال المناجم يفتحون المناطق غير المعمورة في كل مكان ، ويقومون مجتمعات سياسية ، ويرسون الأسس لمستوطنات أكثر استقراراً . ومع نزوب الذهب والفضة أو وقوعها في أيدي الشركات الشرقية ، وهبوط حمى التعدين ، أخذ المستوطنون يفتنون إلى احتمالات الزراعة وتربية الماشية فيما حولهم ، أو يسعون للعمل في الخطوط الحديدية التي كانت ، تمتد موعلة من الشرق والغرب . ولقد ظلت بعض المجتمعات مقتصرة على التعدين تقريباً ، غير أن الثروة الحقيقية لمونتانا وكلورادو ، ولوايومينج وإيداهو ، وكاليفورنيا ، كانت في حشائشها وتربتها . وفي مجال الثروة المعدنية ، لم تلبث قيمة النحاس والفحم والنفط — التي كانت متوفرة بكثرة — أن فاقت قيمة المعادن النفيسة التي أغرت المغامرين في الهداية .

وكان تداعى مملكة التعدين سريعاً كقيامها ، ولكنها تركت أثراً لا يمحو في العقلية الأمريكية . كانت لمعسكرات التعدين صورة بديعة بدرجة رائعة . فإن العثور على مصدر جديد كان كفيلاً بأن يجتذب آلافاً من الساعين للثراء فيتدفقوا على أحد المراكز الأمامية في البرارى المقفرة . وإن هى إلا أيام قلائل حتى تقوم ماث الخيام والأكواخ الخشبية على ضفاف أحد الجداول ، أو تتناثر على سفح الجبل الذى تتوارى الثروة فيه . وقد يكون أى منزل آخر حانة أو قاعة للرقص ، حيث تقدم الخمر الرديئة لقاء خمسين سنتاً للكأس ، وحيث تسامر عمال المناجم ذوى السوالف الطويلة غانيات متهلات . وما كان خرق القانون مسيطراً بالدرجة التى تصورها كتاب القصص الخيالية ، بيد أنه لم يكن هناك من نعم المدينة سوى القليل ، وكانت حياة المعسكر تولد الهمجية فى النفوس . ومع ذلك فإن المنازل والمدارس والكنيسة والقانون لم تلبث أن زحفت إلى هناك ، وأصبحت مجتمعات التعدين تنعم بالنظام إلى حد كبير .

ولقد أدت مملكة التعدين إلى نتائج تتجاوز إعلان الثراء الزراعى فى الغرب ، واجتذاب المستوطنين ، وإمداد الروائيين والمخرجين السينمائيين — فيما بعد — بالمادة . . فلقد عجلت تطور مشكلة الهنود ، وجلبت السكك الحديدية إلى هناك ، ودفعت سيلاً

٣٤٨ موجز تاريخ الولايات المتحدة

من الشراء إلى خزائن المستثمرين الشرقيين ، وأضافت ما قيمته حوالى بليونين من الدولارات من المعادن الثمينة إلى ثروة الأمة ، وهذا مكنتها من تعويض العملة الخضراء الظهر بقيمتها النوعية ، وأدخلت مشكلة النقود على المسائل السياسية الأمريكية .

كان ثمة فصل جديد ، وأكثر أهمية مما سبق ، يسجل في تاريخ الحرب ، حتى في الوقت الذى كان المعدنون ينقبون خلاله في تلال نيفادا ومونتانا . ذلك هو قيام مملكة الماشية . وكان الأساس المادى الطبيعى هو أراضى الحشائش في الغرب ، الممتدة في استرسال من ريجرانده إلى الحدود الشمالية ، ومن كنساس ونبراسكا إلى وديان جبال روكى . فهنا كان ملايين من الجاموس تهيم على هواها ، بيد أن الجاموس أوشك على الانقراض خلال عقود من الزمن ، وحلت محله أكثر من أبقار تكساس اللونجهورن ، وثيران وايومينج ومونتانا .

وكان ثروة الإسبان ومبشرو الإرساليات قد ظلوا قرناً من الزمن يربون الماشية في شمال المكسيك ، وعلى طول ريجرانده ، وفي وديان كاليفورنيا الجنوبية ، بيد أنها لم تكن ذات قيمة إلا للاستهلاك المحلى ولتوفير الشحم والجلود لهم . وبمقدم السكك الحديدية ، وإقامة دور التعليب في سانت لويس ، ومدينة كنساس ، وأوماها ، وشيكاغو ، وابتكار عربات التبريد ، أصبح تحسين سلاطات الماشية وقيادتها شمالاً إلى الأسواق عملية مربحة . وابتداء من بعد الحرب الأهلية مباشرة ، أصبح سوق الماشية في الرحلة الطويلة نظاماً سنوياً . فكانت عشرات الآلاف منها تقطع دروب تشيزولم وبيكوس وجودنايت وبوزمان ، وتهدر صاخبة في مدن الماشية — مثل آبيلين وتشين — التى قامت عند نهايات الخطوط الحديدية الجديدة . وفي هذه الأثناء ، كان مربو الماشية قد تبينوا أن بوسعهم أن يغذوا أنعامهم في الشتاء على حشائش الشمال الوفيرة ، وامتدت الإمبراطورية إلى كلورادو ، ووايومينج ، ومونتانا . وكانت تكساس تمتلك معظم الماشية ، ولكن وايومينج كانت أعظم مثال لموطن رعاة البقر . فلم تكن من حرفة فيها تزاخم الماشية لسنوات ، ومن ثم فرضت جمعية مربى الماشية في وايومينج سيطرتها دون منازع .

كان في وسع أى امرئ تقريباً في البداية أن يشرع في تكوين قطع ، بأن يحصل على بضع بقرات وعجول ثم يتركها ترعى في الأرض العامة . على أن كبار المربين وشركات الماشية — وقد أنشئ معظمها في الشرق أوفى بريطانيا — سيطروا على الصناعة بأن استباحوا المراعى العامة أو استأجروا أراضى من العشائر الهندية ، وضربوا أسواراً

الغرب يبلغ سن الرشد ٣٤٩

حول آبار الماء والجداول . فاستأثرت إحدى الشركات بمليون دونم من الأراضي العامة في كلورادو ، وأحاطت شركة أخرى مقاطعة جونز - بولاية تكساس - بأسرها بالأسوار . كما أجرت عشائر تشيين الهندية أربعة ملايين دونم من أراضيها لمجموعة واحدة من شركات الماشية ، ونزلت العشائر المتحضرة في الإقليم الهندى عن ستة ملايين دونم لشركة واحدة . ولقد تصدى كبار مربى الماشية لصغار المنافسين في غير رحمة ، وشنوا حرباً لا هوادة فيها ضد مربى الأغنام الذين كانت أغنامهم توغل في التهام الحشائش بدرجة ألفت المراعى . ولمملكة الماشية جانبها الخيالى الشاعرى ، كما لمملكة التعدين ، وقد ظلت ذكرى هذا الجانب باقية في الوعى الأمريكى بعد زوال مملكة الماشية ذاتها : الحياة الوحشة في السهل ، مطاردة الماشية على صهوات الجياد لجمعها وسوقها ، العلامات الغريبة التى كانت تدمغ بها ، سوق الماشية في رحلات طويلة ، تشتت القطعان هاربة في دعر ، الحرب ضد سارقى الماشية ، البراعة الرائعة في ركوب الخيل ، الزى الملفت للأنظار الذى صمم بمراعاة نفعه وليس وقعه على النفوس . . الحياة الفظة الجاحمة في مدن الأبقار مثل آيبلين وتشيين . كل هذه وجدت طريقها إلى الأدب الشعبى والأغاني الأمريكية . ولقد أصبح الأطفال يرتدون ثياباً تشبه زى رعاة البقر ، والأفلام السينمائية تظهر رجال مزارع تربية الماشية وهم يطلقون الرصاص على اللصوص فلا يخطئون الهدف ، والبلاد كلها تردد الأغنية التى اشتهرت بأنها كانت المفضلة لدى فرانكلين روزفلت :

إلى المواطن ، إلى مزرعة الماشية . .

حيث الأيل والبقرة الوحشية يلعبان . .

وحيث نادراً ما تسمع كلمة مثبطة للهمة . .

وحيث تخلو السماء من السحب طيلة النهار .

مقدم المزارعين

كانت تربية الأغنام والماشية عملية طبيعية في السهول الشبالية ، فكان كثير من مربى الماشية موقنين بأن من الخطأ للمزارعين أن يحاولوا الاستقرار في تلك البلاد . ولقد نشر

زبولون بايك ، في أوائل القرن التاسع عشر ، أنه « يبدو لي أنه لن يتسنى إلا إدخال عدد محدود من السكان إلى أحواض أنهار كنساس ، وبلات ، وأركنساس ، وروافدها العديدة . . وسيجد السكان أن من الأنفع أن يوجهوا عنايتهم إلى الإكثار من الماشية ، والحياد ، والأغنام ، والماعز » . ولقد قال أحد أعضاء مجلس شيوخ الولايات المتحدة ، بعد نصف قرن ، معارضاً ضم كنساس كولاية إلى الاتحاد ، إنه « لا يوجد إقليم للاستيطان أو السكنى ، بعد أن نجتاز نهر المسيسيبي ، اللهم إلا أحواض جداول قليلة » . ولقد أثبت هذا التعميم أنه خاطئ ، وإن كانت الأحداث التي تلت قد كشفت عن أن الزراعة في قطاعات كبيرة من الغرب الأجرد غير مربحة . وعلى أية حال ، فإن مربى الماشية كانوا موقنين من أن الطبيعة ذاتها خولتهم ملكية كافة أراضي الرعى في الغرب ، فأغفلوا قوانين الأرض سواء بحق أو باطل ، وضربوا الأسوار حول مساحات شاسعة ، واحتكروا المجارى المائية ، وحاولوا أن يصدوا زحف المزارعين .

غير أنها كانت حرباً خاسرة ، فقد كان بوسع مربى الماشية أن يرهبوا « المتسللين للاستقرار » فرادى ، بيد أنهم لم يكونوا يملكون تحدى الحكومة الاتحادية باستمرار . وعندما أمر الرئيس آرثر وكليفلاند بقطع الأسوار المضروبة من الأسلاك الشائكة ، وإباحة أراضي المراعى لواضعى اليد ممن يقيمون بيوتاً تلحق بها قطع من الأرض ، انتهت هذه الخطة . ولقد فتحت السكك الحديدية أثناء السبعينات والثمانينات السبل إلى جميع إقليم السهول ، واشتركت في جهود التعمير على نطاق واسع . فأغرقت شركة نورذرن باسيفيك أوروبا بإعلانات تصف ما لتربة الغرب من خصب المناطق الحارة (وهذا منشأ ما أسماه جاي كوك « حزام الموز ») ، إذا كانت تريد النزول عن أربعين مليون دونم ، وقد جاء وقت كان لفييلارد — خليفة كوك — فيه ما يزيد على ثمانمائة وكيل في الخارج يروجون لصفات الأرض . أما شركة سانتا فيه فجلبت آلفاً من الروس المينونيين^(١) ، واجتذبت شركة سودرن باسيفيك الألمان والاسكندنافيين ، وأقام هيل نفوذه وسلطانه عن طريق إقراض المزارعين المعدمين ، وتقديم المساعدات للزراعة بالطرق العملية ، وبناء الكنائس والمدارس . وتم القضاء على مقاومة الهنود ، وأقصيت بقايا العشائر المهزومة عن الإقليم أو سبقت إلى مناطق أفردت لها . وأخذت المصانع التي

(١) Mennonites أتباع مذهب من مذاهب الكنيسة البروتستانتية نشأ في سويسرا أصلاً — المترجم .

الغرب يبلغ سن الرشد ٣٥١

تناثرت على حافة إقليم السهول في إنتاج ملايين الأميال من الأسلاك الشائكة ، وآلاف من طواحين الهواء وبريمات حفر الآبار ، مما يسر الزراعة في الأراضي القاحلة . ولقد تدفق على الإقليم ملايين من المهاجرين ، وازداد السكان اثنين وعشرين مليوناً ، واشتد الضغط على المناطق الأقدم عهداً بالتوطن ، بينما اتسعت السوق المحلية للمنتجات الزراعية .

إزاء غلبة هذه التوقعات المشجعة ، شهدت السبعينات والثمانينات انتشاراً جامعاً حقاً في إقليم السهول . وقد تذكر هاملين جارلاند هذا عندما ذهب ليطلب تحويلاً بامتلاك أرض في داكوتا فكتب يقول :

كانت القطارات الزاخرة بالمهاجرين من كل بلد في العالم تزحف ببطء في الأراضي المستوية . فكان هذا السيل من الساعين لامتلاك الأراضي يضم خليطاً من النرويجيين والسويديين والدنمركيين والاسكتلنديين والبريطانيين ينسابون جميعاً نحو السهول الغربية ، حيث أفرد العم سام وادياً خصب التربة لإثراء كل إنسان . . كان الشارع يعج بالمنتفعين بالرخاء . ولا حديث إلا عن حصص الأرض . وساعة بعد أخرى ، ومع انحدار الشمس للمغرب ، كان الساعون لتملك الأرض يعودون إلى الفندق من جولاتهم في الأراضي التي لم يتم تملكها ، وهم جوعى ، مكدودون ولكنهم متلهللو الأساير .

كانت أمثال هذا المشهد تجرى في كافة أرجاء السهول . ففي عقدين من الزمن ازداد عدد سكان مينيسوتا إلى ثلاثة أمثالهم ، سكان كنساس إلى أربعة أمثالهم ، وسكان نبراسكا إلى ثمانية أمثالهم ، بينما وثبت داكوتا من أربعة عشر ألفاً إلى نصف مليون ، أما تكساس الهائلة ، ذات المليونين والرابع من السكان ، فقد أزاحت مساوئستس عن المكانة السادسة في قائمة السكان . وبوجه الإجمال ، ازداد سكان الولايات التي تغلب عليها الزراعة — وهي مينيسوتا ، وكنساس ، ونبراسكا ، وولايتا داكوتا ، وكولورادو ، ومونتانا — في تلك السنوات العشرين من مليون إلى خمسة ملايين . . وهو معدل يبلغ ثمانية أمثال معدل الزيادة في البلاد بأسرها . كان الأمر كما قال توكفيل العظيم ، قبل ذلك بنصف قرن : « هذا التقدم التدريجي المستمر لزحف العنصر الأوربي في اتجاه

٣٥٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

جبال روكى ، أوتى مهابة توحى بأنه من تدبير العناية الإلهية . كأنه طوفان من البشر ، فيفيض فى تدفق لا يهين ، ويندفع فى كل يوم قدماً بتوجيه الله » .
وما إن حانت نهاية الثمانينات ، حتى كان سيل الهجرة الدافق على السهول قد استنفد عنفوانه ، وبدأ فى بعض الأماكن ينحسر . فإن الضائقات ونوبات الجفاف دفعت كثيرين من المزارعين الطموحين إلى مغادرة الأراضي الجرداء غربى كنساس ونبراسكا وشقى داكوتا عائدین إلى الشرق . وانخفض معدل تزايد السكان بطفرات : فلم تزد نبراسكا مثلاً سوى أربعة آلاف نسمة أثناء التسعينات ، ولم تزد كنساس سوى أربعين ألفاً . . فى حين أن الزيادة فى أى مكان آخر لم تكد تتجاوز التكاثر الطبيعي لسكان ولودين .

ومع ذلك ، لم يكن أروع الفصول فى تاريخ فتح الغرب قد كُتب بعد . كان الرواد الأوائل قد ظلوا نصف قرن يتطلعون بنهم إلى المنطقة الغنية القائمة بين تكساس وكنساس ، والتي كانت ممنوحة كمكان إقامة دائم مقصور على خمس عشائر من الهنود المتحضرين . ولم تحن الثمانينات ، حتى كان الضغط للحصول على الأراضي المنخفضة الخصبة فى أحواض أنهار أركنساس ، وكنيديان ، ورد ، وواشيتا قد بلغ أشده فلم تعد الحكومة تقوى على مقاومته . وتم شراء حقوق التملك الهندية . ثم فتح الإقليم فى أبريل سنة ١٨٨٩ للتوطين . وكان الاندفاع إلى الأراضي الجديدة جنوبياً . وبعد سنوات قلائل ، جرى اندفاع مشابه عند فتح شريط الأرض الذى كان موطناً لعشيرة الشيروكى فى شمال أوكلاهوما للتوطين . وهذا ما يصفه ماركيز جيمس فى كتابه « قطاع شيروكى » بقوله :

أجل يا سيدى ، كان فى هذا السباق آلاف من الجياد ، وآلاف من الراكبين والسائقين ، وقد انتشروا فى صف عبر البرارى إلى أقصى ما يبلغ بصرك . وسألنى أبى أن أطلع شرقاً وأن أطلع غرباً وأن أتصور كل هذه الجياد وقد صفت جنباً إلى جنب ، متاهة للانطلاق . كان معظم الجياد تحمل سروجاً للركوب . أما الباقية فكانت مشدودة إلى نوع من المركبات . . وكانت المركبات الخفيفة هى أفضلها ، من البكبورد^(١) ، إلى العربات

(١) البكبورد Buckbard عربة يزود مقعدها وحده بالزئيركات .

٣٥٣ الغرب يبلغ سن الرشد

ذات الزنبركات^(١) ، إلى الصلبي^(٢) ، بيد أنه كان ثمة مركبات كبيرة مغطاة غير مكشوفة ، كثيرة العدد ، كما كان ثمة سائرون على الأقدام . وكانت تنطلق مع صرخة عالية ، فلا تستطيع في البداية أن تتبين شيئاً ، بسبب الغبار الذى يثار عندما تسحق سنابل الخيل الحشائش على طول خط الانطلاق . وفي هذه السحابة الكثيفة ، كانت عجلات المركبات تلتحم فيسقط بعضها في بداية التحرك . فإذا ما تقدم المتسابقون على الأعشاب ، انحسر الغبار ، اللهم إلا على طول درب شيزولم . وكان راكبو الجياد في الطليعة ، في غالب الأحوال ، تليها أسرع الجياد التى تجر المركبات الخفيفة . وعلى هذا النسق يمضى الركب . ولا تنس أنه لم تكن ثمة طرق ، عدا الدرب ، ولا جسور . عليك أن تهبط الوهاد وتصعد منها ، وأن تعبر الجداول والوديان الشديدة الانحدار والأخاديد بها وسعك من حيلة ، أو عليك أن تنفادها . وكانت المركبات الكبيرة تنفرز في الجداول ، أو تتعطل في الوهاد أو تصاب بعطب من جراء الرحلة الشاقة . وشيئاً فشيئاً ، كانت الجياد التى يركبها أفراد أويسوقها الخوذيون بشدة تبدأ في التباطؤ منهوكة ، وتشرع الجياد التى بدأت بسرعة أقل في التقدم عليها . . وفي الأميال الخمسة إلى إنيد ، ظل في المقدمة حوالى مائة من الآلاف التى انطلقت . وتختلف معظم الجياد الأخرى مسافات طويلة ، وكان بعضها يخرج من الركب ، على طول الطريق ، ليضع أصحابها أيديهم على أرض على طول الدرب ، أولينحرفوا بها شرقاً أو غرباً . أما الباقية فكانت تواصل السير لتقترب من إنيد . وتضاءل المائة الذين في الطليعة إلى خمسين ، وجميعهم تقريباً على صهوات الجياد ، وإن ظلت بعض المركبات البكبورد متقدمة معهم .

ولم يحن عام ١٩٠٠ ، حتى كان في هذا الإقليم سكان يناهرون ثمانمائة ألف . اختفت مملكة التعدين ومملكة الماشية ، ثم اختفت الحدود كذلك . ولقد ظلت هناك مناجم في الغرب حقاً ، ولكنها كانت مشروعات تجارية جيدة التنظيم ، تملكها وتديرها شركات شرقية ، وظلت ملايين الماشية تربي في مناطق الأعشاب من تكساس

(١) Spring Wagon : مركبة كبيرة يقوم جسمها على زنبركات

(٢) Sulky : مركبة بها مقعد لراكب واحد ، ويجرها جواد واحد - المترجم .

٣٥٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

ونيو مكسيكو ، حتى مونتانا وشطرى داكوتا ، غير أن المراعى المباحة كانت قد تلاشت ، وأصبحت تربية الماشية واحداً من عدد من المشروعات الاقتصادية . كذلك ظلت في الغرب أرض ، ولكنها غالباً ما كانت في الجبال ، أو في مناطق فقراء لا تكون الزراعة فيها مربحة بغير الرى . وأخذ الغرب يمتزج باطراد ، من حيث البنيان الاقتصادى ، ببقية البلاد .

كذلك تقدم الامتزاج ، من الناحية السياسية ، بخطوات سريعة . فأصبحت نيفاداً ولاية في سنة ١٨٦٤ ، وكان الفضل الأكبر هو شعور لينكولن بأنه قد يحتاج إليها من أجل الأصوات الانتخابية . وبلغت نبراسكا مرتبة الولاية في سنة ١٨٦٧ ، وأصبحت كلورادو ولاية في العيد المئوى لإعلان الاستقلال في سنة ١٨٧٦ . وأعقب ذلك فترة تلكؤ طويلة ، تطور خلالها آخر أجزاء الغرب ، وأخذت الأحزاب السياسية تتسابق للسيطرة على الأقاليم الجديدة . وأخيراً ، أسقطت آخر الموانع في سنة ١٨٨٩ - ١٨٩٠ ، وبقانون شامل ، ضمت ست ولايات غربية للاتحاد : شطرا داكوتا ، ووايومينج ، ومونتانا ، وإيداهو ، وواشنطن . ومع أن يوتاه كانت مأهولة من أمد طويل يجعلها جديرة بأن تصبح ولاية ، فلإنها كانت موضع توجس نظراً لسيطرة المورمون عليها ، فلم ترق لمكانة الولاية إلا بعد بضع سنوات . وأصبحت أوكلاهوما ولاية في سنة ١٩٠٧ ، وولايتا أريزونا ونيو مكسيكو الجنوبيتان الغربيتان في سنة ١٩١٢ . وهكذا اتخلت الحدود السياسية للدولة شكلها الدائم ، واكتملت العملية التى بدأت بقانون الشمال الغربى في سنة ١٧٨٧ .

وكانت الولايات الغربية شبيهة بالشرقية في تنظيمها السياسى . فكان الشكل المألوف للحكم متبعاً في كل مكان : ثلاث سلطات منفصلة ، وهيئة تشريعية ذات مجلسين ، نظام الحكومة المحلية في المدينة وفي المقاطعة . على أن دساتير الولايات الجديدة اختلفت في بعض النواحي عن الدساتير القديمة . فقد كانت أكثر تفصيلاً ، وكانت موضوعة بمزيد من الدقة . وأكثر تحرراً وتقدمية بوجه عام . ولقد نص معظمها على منح المرأة حق الانتخاب بشكل من الأشكال ، وحرمت الترسنات والاحتكارات ، وأحاطت السكك الحديدية بلوائح منظمة ، وأقامت معايير تقدميه للعمل والحركة العمالية . على أن الفلسفة التى أوحى بها ، والهمة التى بثت فيها الروح ، لم تكونا تختلفان في جوهرهما عن تلك الشائعتين في الولايات بأسرها .

٣٥٥ الغرب يبلغ سن الرشد

الحياة في المنطقة الأخيرة لحدود العمران

كانت حدود العمران دائماً تتسم بالصعاب والأخطار ، ولم تشذ عن ذلك الحدود الأخيرة . كانت الحياة قاسية ومخيفة للأمال بدرجة مريرة باستمرار ، بالنسبة للرجال والنساء الذين تركوا المدن أو المزارع التي اقتطعت من الغابات في الشرق . كان العمل أشق ، والجزء أقل منها في مزارع وادي أوهايو والميسيسيبي . كانت البراري المترامية دون نهاية حتى أبعد الأفاق ، والسحب الكبيرة المثقلة بالأمطار ، وغروب الشمس الرائع ، مناظر لها جماها الخاص في نظر البعض ، ولكن السهول كانت تبدو مجرداء ورتيبة الاسترسال بدرجة عملة في نظر الأغلبية . كانت الشمس الحامية تنصب في غير إشفاق على المهتمكين في الحرث أو الحصد في الصيف ، وكانت الرياح الجافة الحارة تهب من الجنوب فتجعل الحياة ، حتى في الليل ، أقسى من أن تطاق . وكان الشتاء يهبط مسرعاً ، ببرودة قارسة ، فتهدب درجة الحرارة إلى عشرين وإلى ثلاثين تحت الصفر ، كما كانت العواصف الثلجية التي تحجب الرؤية تهب متواصلة لعدة أيام ، فتخلف وراءها جثث آلاف من الماشية متناثرة على السهول ، وتقضى أوتشوه أجسام الرجال والنساء الذين يرميهم الحظ العاثر إلى التعرض لها ، كان الرجال أحياناً يضعون وهم يتلمسون طريقهم من بيوتهم إلى حظائر مواشيهم .

كان للرجال عملهم وآمالهم ، وكانت مشقة العمل والوحدة الموحشة تثقل على أصلب النساء جلدأ . كان الكثيرون منهم قد نشأوا نشأة مريحة في الشرق ، ثم قدر لهم أن يقيموا بيوتهم الأولى في مغارات أو أكواخ من الطين ، معتمة ، سيئة التهوية ، تغطي نوافذها وأبوابها بالملاءات أو جلود الحيوان ، والأمطار تخلف بركاً من الماء على أرضها العارية . وكانت البيوت الخشبية غير المصقولة التي خلفت هذه البنايات البدائية أكثر مناسبة ولكنها لم تكد تقل عنها قبحاً . كانت تقام على بطاح لا أشجار فيها ، وكانت صغيرة بنيت بعجلة ، وطلبت بلون رمادي كئيب ، حارة في الصيف ، وباردة في الشتاء ، غير هبيجة باستمرار . ولم يكن ثمة وجود للأشجار والأدغال والزهور التي لا تخلو منها المزارع في الشرق ، حتى أفقرها ، وإن كان بعضها قد غرس في بعض الأوقات ، وأحيط بالعناية عند تيسر الحصول على الماء . على أن الماء الذي يخصص لزراعة الحدائق ، بل ولتنظيف البيت وغسل الثياب ، كان قليلاً . وكان أكثر الناس

بسالة يفقدون عزيمتهم في أوقات الجفاف ، عندما تزدى الذرة ، وتذبل الكروم ، وتنضب الآبار ، وتدفع ريح الجنوب غباراً صلب الذرات إلى أركان البيوت وفجواتها ، وترتفع درجة الحرارة إلى ما بين تسعين ومائة ليلاً ونهاراً .

وكانت الوحدة والعزلة أسوأ من الحرارة والغبار وقسوة العمل . فكم من زوجة في مناطق الحدود فقدت اتزانها العقلي — مثل بيريت في رواية « عمالقة في التراب » العظيمة للكاتب أول رولفاج — في انعزالها عن متع الاتصال الاجتماعي ، وسلوى الكنيسة ، ومساعدة الأطباء . كان الأطفال يولدون بمساعدة الجارات الرحيات ، أو بدون مساعدة في كثير من الأحيان . وكانت الوفيات بين الأطفال الحديثي الولادة مرتفعة بدرجة فظيعة . كما تشهد المقابر الصغيرة المثيرة للأسى . وكان المرض مبعوضاً لصعوبة مجيء المعونة الطبية وفداحة النفقات . وكان الماء الملوث يسبب التيفويد ، كما كانت الكوليرا ، وذات الرئة ، والحصبة متفشية ، وبينما كان للحوادث نصيب كبير . كان الأطباء المكثرون يقومون بعمليات بطولية ، بدون مخدر في كثير من الأحوال ، وبأسوأ الأدوات الجراحية . ويروى إفريت ديك قصة طبيب شاب قام بأول جراحة مارسها لاستئصال الزائدة الدودية دون مخدر ، وعلى ضوء مصباح يشعل بالكبروسين ، وعندما انطفأ المصباح ، استؤنفت الجراحة على ضوء فتيلة يتصاعد من لهيبها الدخان .

كانت الحياة في المدن الصغيرة تتيح قدراً أكبر من التنوع والصلات الاجتماعية ، ولكنها كانت كثيفة وموحشة . كانت البلدة النموذجية في السهول ، في تلك الفترة ، صغيرة ، غير مكتملة ، يحلم أهلها بمستقبل باهر ، ولكنهم على استعداد دائم لأن يحزموا أمتعتهم في أوجز وقت لينتقلوا إلى موقع آخر أفضل حالاً . تصور شارعاً ضيقاً موحلاً ، ذا رصيفين من الخشب ينتهيان فجأة عند حافة الخلاء ، وعلى كل من الجانبين صف من البيوت الخشبية الرثة التي لوحث الشمس طلاءها الرمادي . وكانت أبرز البنايات هي الحانات ، والمتجر العام ، وحظيرة إيواء الجياد بالأجر^(١) ، والفندق ، والمحطة التي يجتمع فيها أهل البلدة كل يوم في انتظار القطار الذي يجلب الصحف والمجلات والقوائم المصورة (الكتالوجات) للسلع الممكن طلبها بالبريد ، والرسائل من الأصدقاء وأفراد الأسرة الباقين في الشرق ، والبائع المتجول أو وسيط القروض أو مشتري الغلال ممن

(١) حظيرة يترك فيها زائر البلدة جواده ريثما يؤدي مهامه ، لقاء أجر — المترجم .

٣٥٧ الغرب يبلغ سن الرشد

يترددون على البلدة من وقت لآخر . وفي أحد طرفي الشارع تقوم الكنيسة — وهي عادة منهجية (ميثودية) أو معمدانية أو مشيخية — حيث يعتق المترددون من نيران الجحيم قس ينوء بالفاقة ويسوء الراتب ، يزورها في الشهر مرة . وفي الجانب المقابل ، في ساحة مربعة سيئة التنسيق ، تقام المدرسة الأولية ، وهي عبارة عن مبنى فج ذى حجرتين مؤثنتين بمقاعد خشبية طويلة للتلاميذ ، ومقعد ومكتب للمدرس . . وهو عادة فتى قضى عاماً في مدرسة المعلمين ، أوسيدة عانس أو أرملة تدفعها الحاجة إلى العمل . وتغرس فئة قليلة من أكثر أهالي البلدة تقدمية بعض الأشجار ، وهنا وهناك يترأى صف من شجيرات عباد الشمس أو زهور الخطمي أو كرمة من زهور نجمة الصباح ، حيث تكون إحدى ربات البيت قد بذلت محاولة صادقة للتجميل . وفي الساحات الخلفية للبيوت ، يلعب أطفال يكتسون ثياباً من الشيت الخام أو التيل الأزرق ، أو هم يتجمعون أمام حانوت الحداد يتأملون عمله مبهورين . وفي المتجر العام ، أو حظيرة الخيل ، يجلس في تراخ رجال ذوو سؤالف طويلة ، في زى موحد أشبه بالأوفرول ، يتحدثون عن الفرص المرتقبة للمحصولات أو أسعار الذرة ، أو يتدبرون الأحوال السياسية .

ولم يكن للجريمة أو الرذيلة حظ كبير ، ولكن كان ثمة إفراط في الشراب ، وعدد من المشاجرات في أمسيات السبت ، عندما يتوافد عمال الزراعة على البلدة بعد أسبوع من العمل . ومن وقت لآخر ، كان ثمة تجمع كبير ، كما كان يحدث في الرابع من يوليو ، أو في النزاهات الخلوية ، عندما كان جميع أهل البلدة والمزارع المحيطة بها ، يشدون الجياد إلى المركبات وينطلقون إلى ضفاف أقرب نهر ، ليقتضوا النهار طوله . ويصف إيفريت ديك في كتاب « منطقة الحدود ذات البيوت الطينية فيما بين ١٨٥٤ — ١٨٩٠ » ، مناسبة كهذه ، في الرابع من يوليو ، في بلو سبرينجز بولاية نبراسكا ، فيقول :

عينت لجنة من ثلاثة لاصطياد سمك الصلور . . ولم يحن الرابع من يوليو حتى كان هؤلاء الرجال قد جمعوا أكثر من ألف رطل من الصلور الكبير ، حبسوها في مدخل خور قريب . . . وأقامت لجنة ثلاثية أخرى مظلة من أغصان الشجر ، وحصلت من مصنع لنشر الخشب على ألواح لعمل طاولة أربعون قدماً ومنصة للرقص . وجمعت كومة من

جذوع الأشجار من الغابة للوقود . وأوفد المتعهدون إلى براونزفيل ، على مبعدة أربعين ميلاً ، لشراء خنزير وزنه مائتان وخمسون رطلاً ، وفر كثيراً من الشحم لقل السمك . واتخذ لوح من الحديد كوسيلة لجرش الذرة . فكان ثمة خبز جيد إلى حد كبير من الذرة ، وإن لم يكن الدقيق قد سحق جيداً ولا نخل ليصير ناعماً . كانت ثمة وليمة سخية من السمك وفطائر الذرة ، وقليل من الخبز الأبيض الذى جرى به للتحلية . وبدأ القوم يتوافدون بعد ظهر الثالث من الشهر . ولم يحن اليوم التالى حتى كان ثمة مائة وخمسون شخصاً . جاءوا مشاة وركوباً فى مركبات تجرها الثيران وبأية طريقة كان من الممكن أن يصلوا بها . وكانت السيدات يرتدين قلنسوات واقية من الشمس وثياباً بسيطة . فلم يكن فى الجمع كله سوى ثوب واحد من الحرير ، كما كان بعض الرجال حفاة . ورفع العلم على صارطوله سبعون قدماً . وقرئ إعلان الاستقلال ، وبعد غداء شهى وفير ، أرسل عدد من الكهان — استجلبت من مسافة ثمانين ميلاً — أنغامها ، وبدأ الرقص .

ولقد ازدهرت بعض المدن الصغيرة وأثرت ، فعبدت الطرق ورصفت الأرصفة ، وحل الطوب والحجر مكان الخشب فى بناء الدور ، وأقيم فندق جديد ، ودار للأوبرا ، ومصارف ومتاجر ، ومدرسة ثانوية ، كلها تشهد بالرخاء وبالزهو المحلى . بينما تضاءلت بلدان أخرى واندرت . ففى كنساس وحدها ، اختفى ألفان من أسماء المواقع من الخريطة ، وكان نجاح أية بلدة على الحدود أوفشلها يرجع إلى حد كبير إلى السكك الحديدية . . والسياسة ، كما كان النضال بين المدن للفوز بأن تكون واحدة منها عاصمة للمقاطعة شائعاً فى إقليم السهول .

كانت منطقة الحدود الأخيرة هذه ديمقراطية تماماً ، على غرار مناطق الحدود السابقة . واختارت بعض المجتمعات الجديدة منح المرأة شكلاً من أشكال حق الانتخاب . . وسبقت وايومينج سواها فى ذلك ، فى سنة ١٨٦٩ . ونصت بعض الدساتير الجديدة على حق الناخبين فى اقتراح سن أو تعديل القوانين ، وعلى الاستفتاء الشعبى فى المسائل العامة ، كما كان معظم الموظفين المسئولين — حتى القضاة — ينتخبون بانتخاب شعبى . على أن الديمقراطية كانت أكثر ظهوراً فى العلاقات الاجتماعية منها فى السياسية . فكانت الشبهات تحيط بأى امرئ أحسن ثياباً من جيرانه ، وأى امرئ يبدو متعالياً ، وأى امرئ يزهو باستخدام خدم فى بيته . وكان المصرفى ، وصاحب

٣٥٩ الغرب يبلغ سن الرشد

المتجر ، والمحامي ، والزراع ، وصاحب حظيرة الخيل يجلسون معاً ، في أقمصة مشمورة الأكمام ، في ميدان البلدة ، ويشغلون مقاعد كالتى يشغلها سواهم فى الكنيسة ، وكل الأطفال يذهبون إلى المدارس العامة ، كما يذهب الطموحون من الشباب رجالاً ونساء إلى أقرب الكليات الطائفية ، أو مدارس المعلمين أو جامعات الولايات التى أقامتها كل ولاية غربية فى مرحلة مبكرة من عمرها . ولقد امتزجت عناصر كثيرة فى هذه المجتمعات التى قامت فى منطقة الحدود . فاختلط البريطانيون ، والألمان ، والنرويجيون ، والوافدون من بوهيميا ، وحفنة من اليهود ، مع الأمريكى المولد من أبناء الولايات المحيطة ، فكان هناك تسامح عام شامل إزاء الفوارق العنصرية واللغوية والعقيدية . كانت منطقة الحدود الأخيرة هذه أكثر من سابقتها جميعاً ديمقراطية واتساماً بالطابع الأمريكى ، من عدة اعتبارات .



الفصل ١٧

المزارع ومشكلاته

الثورة الزراعية

ظلت الثورة الصناعية تعتبر الحقيقة الأساسية للتاريخ أمداً طويلاً . غير أن الثورة الزراعية لم تكن تقل عنها أهمية . ولقد أثارت خيال جيلين من الأمريكيين انتصارات صناع الحديد ، ومنشآت السكك الحديدية ، والمهندسين ، وقادة الصناعة ، وأقطاب الشؤون المالية ، غير أن انتصارات المزارعين « ومكافحي الجوع » ليست أقل روعة ، وإن كانت أقل إثارة للانبهار . والواقع أن الثورتين - الصناعية والزراعية - متكاملتان ، تستند كل منهما إلى الأخرى . فلولا الآلات والسكك الحديدية ما تسنى للثورة الزراعية أن تحدث ، ولولا سيل الغلال المتدفق على مخازن المدن الكبرى ما أمكن قيام الثورة الصناعية . فلقد ظل البشر قروناً يناضلون لإنتاج ما يكفي من القوت لعيشهم ، بل إن نمو السكان ذاته كان يخضع لمقدار الأغذية الميسورة . ولقد ظل شعب المجاعة مألوفاً على مر القرون ، بل إن المجاعة تقاضت ضريبتها من البشر ممثلة في ملايين من الأرواح . كانت أحد الفرسان الأربعة الواردين في رؤيا النبوة (سفر الرؤيا) ، ولعلها أبشعهم رهبة ، ولقد أعفى القرن التاسع عشر معظم الجنس البشري

٣٦٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

من الخوف الذى يراوده من نقص الأغذية ، وكانت المزارع الأمريكية مسئولة عن هذا التحرير بدرجة كبيرة .

ففى الأربعين عاماً ، من ١٨٦٠ إلى ١٩٠٠ ، استزرع من الأرض ثلاثة أمثال ما كان فى المائتى عام من التاريخ الأمريكى التى سبقتها . وكان الإنتاج متمشياً باطراد مع ازدياد المساحة . فقد أنتجت المليونان من المزارع التى كانت موجودة فى سنة ١٨٦٠ ، ما لا يقل بكثير عن ٢٠٠ مليون بوشل من القمح ، وما يقل قليلاً عن بليون بوشل من الذرة ، وحوالى أربعة ملايين بالة من القطن ، وفى سنة ١٩٠٠ ، كانت ثمة ستة ملايين من المزارع ، أنتجت ما يزيد على ٦٥٥ مليون بوشل من القمح ، وما تجاوز بليونين ونصف البليون بوشل من الذرة ، وما ناهز عشرة ملايين بالة من القطن . وفى هذه الفترة ذاتها ، ازداد سكان الدولة إلى أكثر من الضعف ، وكان معظم الزيادة من حظ المدن ، ولكن المزارع الأمريكى أنتج من القمح والقطن وقدم من اللحم البقرى ولحم الخنزير ، واجتز من الصوف ما لم يكف لإمداد العمال الأمريكى وحدهم ، بل مكن من إرسال فائضات متزايدة لتغذية الأوربيين وكسائهم .

وهناك عاملان أساسيان يفسران إلى حد كبير هذا الانجاز غير العادى . أولهما توسع مجال الزراعة فى اتجاه الغرب ، وثانيهما إدخال الآلة والعلم على عمليات الزراعة . وقد ألمنا بالأول إلى حد ما . فإن الغرب الجديد ، المؤلف من سهول ومن وديان جبلية ، كان فى الغالب منطقة زراعة ، وفى وقت قصير بدرجة لا يكاد يصدقها العقل ، أصبح فى طليعة الإنتاج الزراعى فى البلاد كافة ، وانتقل حزام القمح غرباً من الولايات القائمة على نهر أوهايو إلى وادى نهر ميسورى ، فكانت إلينوى ، وإنديانا ، ويسكونسن ، وأوهايو ، وفيرجينيا ، وبنسلفانيا فى مقدمة الولايات المنتجة للقمح فى سنة ١٨٦٠ ، ولم تحن سنة ١٩٠٠ حتى كانت أوهايو وحدها هى التى ظلت تحتل مكانة متذبذبة بين الولايات الأولى ، وإن هى إلا عشر سنوات حتى اختفت هى الأخرى من القائمة . ولم يكن انتقال إنتاج الذرة ظاهراً بهذه الدرجة ، ولكن الحركة فى هذا الانتقال أيضاً كانت من أوهايو إلى وادى المسيسيبي . وكذلك كان أمر القطن تقريباً ، فلم ينته القرن التاسع عشر حتى كانت تكساس تسبق الولايات الأخرى بكثير ، كان ما لا يقل كثيراً عن نصف محصول القطن ينمو فى غرب وادى المسيسيبي ، وخلال هذه السنوات ذاتها ، كانت جحافل الماشية والغنم تنتقل باطراد مستمر إلى أراضى الرعى فى السهول والجبال .

المزارع ومشكلاته ٣٦٣

كان هذا الانتقال للزراعة نحو الغرب ، ينطوى على ضائقة لمزارعى الشرق والجنوب المتناخم للبحر ، فى الواقع . فإن الزراعة فى هذه المناطق أقبلت على فترة انهيار لم تبرا منها قط تماماً لعجزها عن منافسة تربة الغرب الخصبة العذراء ، ولما تحملته من الضرائب المرتفعة وأعباء التمويل الاستثنائى . وترك قسط كبير من فيرجينيا المتاخمة للبحر لأعشاب سمار المكناس ، فأصبحت تلك الأرض المقفرة التى وصفها إيلين جلاسجون فى روايتها ، كما تحولت مناطق كبيرة من بنسلفانيا ونيويورك إلى أراض جرداء أو ملاعب للناس فى عطلاتهم . وهجرت مئات الآلاف من الدونمات فى نيوانجلاند لتحلها الأعشاب البرية والغابات . وفى نصف القرن التالى للحرب الأهلية ، تضاعلت الأراضى المزروعة فى ذلك القطاع بحوالى خمسين فى المائة . وفى هذا كتب مسافر اجتاز نيوانجلاند فى ١٨٨٩ :

فى منتصف الطريق بين وليمزتاون (مساشوستس) وبرايتلبورو (فيرمونت) رأيت على قمة تل ، انتصب نحو سماء الغروب ، ما لاح أنه كاتدرائية كبيرة . وإذ يمتد إلى هناك ، وجدت كنيسة قديمة ضخمة ذات طابقين ، ومدرسة كبيرة ، وقرية ذات شارع واسع ، قد يكون عرضه ١٥٠ قدماً . وواصلت التقدم فتبينت أن الكنيسة المهجورة ، والمدرسة خالية ، والقرية خاوية . وكان صاحب المزرعة القائمة فى شمال القرية يقيم على حافة الشارع العريض ، وصاحب المزرعة القائمة فى الجنوب يقيم على الحافة الأخرى ، وهما الساكنان الوحيدان ، أما الباقون جميعاً فقد رحلوا . إلى قرى المصانع ، وإلى المدن الكبرى ، وإلى الغرب . كان العمل الجاد والتعليم والدين والراحة والاطمئنان هنا فلم يبق سوى وحدة موحشة تسيطر على الدور المهجورة .

ولا يمكن أن يكون التوسع الإقليمى وحده هو السبب فى التحول الحاد للإنتاج الزراعى ، الذى لم يكن يتناسب مع الزيادة فى الأرض المستزرعة أو فى الرجال العاملين فى الزراعة . بل إن التفسير قد يكون فى الكفاية المتزايدة لطرق الزراعة . كان من العجيب أن تتلكأ ميكنة الزراعة كثيراً عن ميكنة الصناعة . كان عامل المصنع أو المنجم فى سنة ١٨٠٠ يستخدم أدوات لم يعرفها آباؤه وأجداده ، ولكن المزارع فى سنة ١٨٠٠ كان يحرق التربة على غرار ما كان يحرقها أسلافه قبل ألف عام . كان محراثه أداة خشبية

٣٦٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

أوحديدية غير مصقولة ، يجرها حصان أو ثور واحد ، وكان يبذر القمح ويزرع الذرة والبطاطا بيده ، ويبحث الأعشاب بالمعزقة ، ويحصد غلاله بالمنجل أو المسلفة ، ويدرسه على أرض جُرنه ، وينزع قشور الذرة ويفكك حباتها بيده . وما كانت الأسرة تملك أن تفلح سوى ثمانية أو عشرة دونيات ، ولو أقدمت النسوة والأطفال على المساعدة .

وكان أول اختراع أمريكي مهم ، هو آلة إيلي هويتنى لحلج القطن . وقد أثرت على الزراعة تأثيراً عميقاً ، وأحدثت ثورة في اقتصاد الجنوب بأكمله . على أن حلج القطن كان من عمليات معالجته وليست زراعته . والواقع أن القطن ظل طويلاً في مناعة من الميكنة ، فيما عدا عمليات الحرث ، والغرس ، والرش . وكانت المحصولات الأخرى أسعد حظاً ، بيد أن استخدام الآلات تأخر طويلاً بالنسبة لمعظمها . وقصة المحراث مثال لذلك . ولقد صدرت أول براءة لاختراع محراث في سنة ١٧٩٧ ، ومنذ ذلك الحين صدرت حوالى اثنى عشرة براءة أخرى . كانت المشكلة الأولى هي الوصول إلى محراث يشق التربة ويقلبها بدقة ، دون أن ينحسر في التربة ، أو ينكسر إذا اصطدم بالجذور أو الأحجار . ولقد أجرى جيفرسون تجارب ، وظفر الدجر^(١) الذى ابتكره ، ويهدف إلى تقليل المقاومة إلى أدنى حد ، بالميدالية الذهبية للجمعية الزراعية الملكية في باريس . وفي سنة ١٨٣٧ ، كسا جون دير ، في برارى إلينوى ، محارثه الخشبية بصلب ذى متانة كافية لشق الطبقة العليا للتربة العذراء ، وسرعان ما انتهالت الطلبات على منتجاته . أما محراث أوليفر المقسى^(٢) ، الذى طرح في السوق في أواخر الستينات ، فكان يجمع بين سطح من الصلب الناعم وقاعدة من الحديد المتين ، ولاح أنه حل لكل ما كان مزارعو البرارى يحتاجون إليه . وتتابع التحسينات بعد ذلك .

وقصة أداة الحصد أكثر بياناً وإيضاحاً . فإن مزارع عام ١٨٠٠ ، الذى كان يستعمل منجلاً يدوياً ، ما كان يقطع في أن يحصد أكثر من نصف دونم في اليوم ، إذا هو اشتغل بجهد واجتهاد . وكان من الممكن بالمنجل ذى الأصابع ، بعد ثلاثين عاماً ، أن يحصد دونمين في اليوم . بيد أنه ما كان يستطيع إنتاج الغلال على نطاق واسع ، ولا كان بوسع غزو أرض السهول في الغرب ، بهذه الأدوات البدائية . وفي أوائل

(١) Mold board : وهى زائدة معقوفة من الحديد ، يجهز بها المحراث — المترجم .

(٢) الذى يكتسب صلابة بالتبريد المفاجئ بعد صبه — المترجم .

المزارع ومشكلاته ٣٦٥

الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، أجرى مزارعان هما أوبيد هسى وسائرس ماكورميك — تجارب على آلة حصاد ميكانيكية ، ولم يكن عام ١٨٤٠ ، حتى قاما بمعجزة حصد خمسة دونمات أوستة من القمح في اليوم ، بآليتهما الغريبتين . وانتقل هسى إلى بليتمورلتسويق آله . أما ماكورميك فكان أبعد نظراً ، فيمم شطر الغرب ، قاصداً بلدة شيكاغو الصغيرة في السهول . وهناك ، أقام في سنة ١٨٤٧ مصنعه لإنتاج آلات الحصاد ، وشرع في إنتاجها . ولم تكن الحرب الأهلية حتى كانت مصانع ماكورميك قد باعت ربع مليون من حصاداتها . ويتوفر آلات تمكن الرجال من الانصراف إلى الجيش ، بذل هذا الفيرجينى المزارع لضمان انتصار الاتحاد ما بذله أى قائد عسكري .

وأخذ كل عام يشهد تحسينات في آلة الحصد ، فخفضت مهمة جمع الغلال وربطها في حزم — وهى عملية تقصم الظهر — بفضل منصة متحركة كانت الغلال تنتهى فوقها إلى أيدي رجال يقفون على حافة جانبية فيربطونها حزماً . ثم ظهرت في سنة ١٨٧٢ أداة أتوماتيكية للربط بالسلك ، وبعد سنوات ظهر جهاز أبلبى للربط بخيط القنب المجدول . وفي هذه الأثناء ، كانت آلات الدرس قد بلغت أكمل درجاتها ، وأخذت هذه الأجهزة العملاقة في الستينات والسبعينات تنتقل مع جماعة الدرس من مزرعة إلى مزرعة ، على طول خط الحدود الأوسط . ويصف هربرت كريك المشهد في إحدى مزارع أيووا بقوله :

كانت كل القواعد توقف خلال وقت الدرس . ففي الصباح الذى بدأ فيه آل ماكورميك الدرس ، أوقف أهل البيت ودب النشاط في الساعة الثالثة ، وقد أعجلهم وصول الآلة ، التى كانت أديرت في وقت متأخر من الأمسية السابقة لدى مزرعة مجاورة ، ودفعت إلى هنا قبيل الفجر . . . وقفت الآلة الحمراء الضخمة بين الأكوام العالية المكدسة على شكل الخلية . وكانت الجياد العشرة تقف مشدودة إلى الكاسحات الخشبية الخمس المحركة للآلة . وكان السائق قد وقف على المنصة في الوسط ، وسوطه الطويل في يده . أما الموكلون بدفع الأعواد فكانوا قد تسلقوا الأكوام ومعهم مذراواتهم (جمع مذرة) ، وقد أصبحت مقابضها مصقولة لطول احتكاكها بالأيدى الخشبية ، وأسنانها الثلاث غائصة في الأكداش العليا من الكومة وانبعثت زجرة كأنها زجرة كلب بولدوج مضخمة خمسين مرة ، فملأت الهواء ، حتى إذا اشتدت سرعة الأسطوانة (السليندر) ، ارتفع

٣٦٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

الصوت من خفيض عميق ، إلى عال رفيع ، ثم إلى جهير صاوح بلغ من حجمه أن تردد في مساحة أربعة أميال مربعة من البرارى الملتفة بالضباب . وتطلع الموكل بتغذية الآلة إلى الموكلين بدفع الحزم ، فشهد الرجل الذى دفع أول حزمة إلى الآلة ، والحزمة الثانية معدة للإسقاط على الطاولة ، رأى فرائك ويده السكين قاطعة أربطة الحزم ، متاهبة لتشق بسرعة ورباطها ، ثم دفع الحزمتين الأوليين برفق إلى شفتى الآلة الفاغرتين ، ولف أعقابها برشاقة إلى أعلى ، وبدأت العملية الكبرى .

وفي الثمانينات ، ظهرت الآلة التى أحدثت انقلاباً ، الحاصدة — الدراسة ، أو الآلة المشتركة التى كانت تحصد الغلال وتدرسها وتنظفها وتعبثها فى الأكياس ، فى عملية واحدة متواصلة . وكان يجرها ما بين عشرين وأربعين فرساً ، ثم أصبح يجرها فيما بعد جرار يدور بالبخار أو الجازولين ، وبوسعها أن تحصد سبعين أو ثمانين دونماً فى اليوم الواحد .

ولقد خفت الآلات لمساعدة المزارع فى كل نواحي الزراعة ، ماعدا جنى القطن . . غارسات الذرة الآلية ، حاصدات الذرة ، آلات نزع قشور عرائيس الذرة ، آلات تفكيك حبات الذرة ، جهاز دى لافال لنزع قشدة اللبن ، جهاز نشر الأسمدة الطبيعية ، غارسات البطاطس ، مجففات التبن ، أجزاء تفريغ الدواجن ، المخصبات . . كل هذه ومائة من المخترعات الأخرى خففت جهد الرجل العامل بدرجة هائلة ، وزادت من كفاءته . فبفضل الآلات المشتركة ، أصبح فى وسع أربعة رجال أن يؤدوا ما كان يؤديه من قبل ثلاثائة . . وأن يؤدوه على وجه أفضل . وأصبح الرجل الواحد يحمل محل ثمانية بفضل آلة تقشير عرائيس الذرة ، ومكان خمسين بفضل آلة تفكيك حبات الذرة ، وانخفاض الوقت للزراعة لحصد طن من القش (التبن) إلى الخمس ، وباستعمال البخار والجازولين والكهرباء ، فى القرن العشرين ، أطلق للزراعة ملايين من الدونيات التى كانت تخصص من قبل لرعى الماشية ، كما خففت العمل البشرى بدرجة أكبر ، وزادت الكفاية الزراعية .

وكان الغرب الأوسط والغرب الأقصى هما اللذين استوعبا آلات الحصاد والدرس والحراث الجديدة ، بأسرع مما كانت تصنع . فإن المزارع فى الشرق كانت أصغر مساحة ، وكانت الزراعة أكثر تنوعاً من أن تبرر إنفاق الأموال على الآلات الباهظة

المزارع ومشكلاته ٣٦٧

التكاليف . أما في الجنوب ، فإن القطن والتبغ لم ينصاعا للميكنة ، كما أن الأيدي العاملة كانت رخيصة . ولقد زادت قيمة آلات الزراعة من ربع بليون دولار في سنة ١٨٦٠ ، إلى ثلاثة بلايين ونصف البليون في سنة ١٩٢٠ ، ولكن معظم هذه الزيادة تحققت في غرب المسيسيبي . ولقد زاد ما كان مزارعو أيووا وحدها قد أنفقوا على الآلات في سنة ١٩٢٠ ، على ما أنفق مزارعو نيو إنجلاند بأسرها وولايات ساحل الأطلسنطي الوسطى مجتمعة ، وكان متوسط قيمة الآلات في المزرعة الواحدة بولاية داكوتا الجنوبية ١٥٠٠ دولار ، وفي كل مزرعة من مزارع حزام القطن ٢١٥ دولاراً .

ولقد يسرت ميكنة الزراعة للمزارع أن يمد بالأغذية عدداً متزايداً من سكان المدينة ، وأن يرسل إلى الخارج فائضاً ساعد بدوره على تمويل التوسع في الصناعة والسكك الحديدية . ولم تكن هذه ميزة خالصة بالنسبة للمزارعين أنفسهم ، إذ أنها ورطت كثيرين منهم في نفقات أفدح مما كان في وسعهم ، واضطرتهم إلى التوسع في عملياتهم لتبرير تلك الاستثمارات ، وأن يركزوا جهودهم على المحصولات الرئيسية للتصدير . وأتاح هذا لكبار المزارعين امتيازاً على منافسيهم الصغار ، وعجل على الفور نمو الزراعة الكبيرة الموفورة الربح ، واستثجار الأراضي . فأفسحت المزرعة الصغيرة ، ذات الكفاية الذاتية — التي كانت شائعة في الخمسينات — بحقول القمح والذرة والشوفان فيها ، ورقاع الخضر ، وحظيرتى الدجاج والخنازير ، والثمان أو العشر بقرات التي ترعى في أراضي الرعى العامة . . أفسحت مكانها لمزارع القمح أو القطن الكبيرة ، التي شاعت في القرن العشرين ، والتي كانت تعتمد على متجر البقالة ، حتى في حاجاتها الغذائية .

ولا يكاد العلم أن يقل عن الآلة أهمية . فلقد كانت الزراعة الأمريكية من البداية انتشارية (واسعة) أكثر منها كثيفة ، إذ كان الحصول على أرض جديدة أسهل من صيانة الأرض القديمة فيما يبدو . على أن الإنهاك السريع لتربة الجنوب المتاخم للساحل أفزع أصحاب المزارع الكبيرة ، وكان واشنطن وجيفرسون مجرد أبرز اثنين من كثير من الجنوبيين الذين حاولوا التصدي لهذه الأزمة بإدخال نباتات جديدة ، ومحاصيل دورية (متناوبة للإبقاء على خصوبة الأرض) ، وتحسين ماشيتهم . وفي هذا كتب جيفرسون : « أعظم خدمة يمكن أدائها لأية دولة هي إضافة نبات نافع لزراعتها » . بيد أن هذه الإصلاحات كانت غير ذات جدوى إلى حد كبير ، إذ أن فتح الأراضي الشاسعة فيما وراء جبال أبلاش ، واختراع حليج القطن جعل الانتقال إلى أرض خصبة

٣٦٨ موجز تاريخ الولايات المتحدة

أكثر ربحاً للمزارعين من محاولة تجديد خصوبة التربة القديمة بمزيد من العناية العلمية . ولعل فلاحه الأرض الجديدة ، كان جزءاً لا مناص منه في اقتصاد مناطق الحدود ، قدر له أن يتكرر مراراً في مناطق الحدود المتعاقبة .

ولقد اعتمدت الحكومة الاتحادية أول مخصصات معينة للزراعة في سنة ١٨٣٩ ، ولكن البداية الحقيقية لاهتمام الحكومة ترجع إلى إقرار قانون موريل لمنح الكليات أراضى ، في سنة ١٨٦٢ . وهو ينص على هبات من الأملاك العامة للكليات الزراعية والصناعية ، ذلك لأنه كان لكل ولاية الحق في ثلاثين ألف دونم من الأرض عن كل عضو في الكونجرس ترسله لتمثيلها في واشنطن ، وبموجب هذا القانون أنشأت الولايات ، واحدة بعد أخرى ، كلية زراعية مستقلة أو مرتبطة بجامعة الولاية ، وما لبثت هذه الولايات أن دفعت البحث في الزراعة العلمية قدماً . ولا يقل عن هذا أهمية قانون هاتش ، سنة ١٨٨٧ ، الذى خصص أموالاً بسخاء لإنشاء محطات للتجارب في أرجاء الولايات المتحدة . وفي الوقت ذاته ارتفعت الاعتمادات المخصصة مباشرة لجهود وزارة الزراعة في الأبحاث إلى ملايين من الدولارات . ولم يحن عام ١٩٣٠ ، حتى كان ثمة سبعة آلاف أو ثمانية آلاف عالم يعملون لحساب هذه الوكالات الحكومية (الأقسام الإدارية) في مشروعات للبحث متباينة لدرجة مذهلة ، وأخذت مساهمات لها أعظم أهمية بعيدة المدى تنساب من المزارع التجريبية والمعامل .

ومن الأمثلة النموذجية لهؤلاء « المكافحين ضد الجوع » مارك ألفريد كارلتون ، الذى أدخل سلالات قمح كوبانكا وخاركوف العظيمة إلى غرب أمريكا . ففى أثناء ممارسته الزراعة والتعليم في كنساس ، أخذ كارلتون يرى عاماً بعد عام كيف كان الجفاف والصدأ الأسود يقضيان على كافة القمح الذى كان مزارعو السهول يستنبتونه ، ماعدا أشدها صموداً واحتمالاً . غير أنه رأى كذلك أن الروس المينونين الذين أحضرهم شركة سكك حديد سانتا فيه ليستقروا في أرضها ، كانوا أسعد حظاً في زراعة القمح ، وتبين أنهم كانوا يستنبتونه من تقاوى أحضروها معهم من وطنهم . كان القمح بوجه عام مستورداً في الأصل ، وقد أيقن كارلتون أن سر القمح الشديد الاحتمال ، الصامد للجفاف وللصدأ ، لابد أن يوجد في مكان ما من أوكرانيا أو منطقة الاستبس أو أوراسيا .

ويمم شطر أرض الخير هذه في سنة ١٨٩٨ ، بتشجيع من وزارة الزراعة . وأخيراً ، وفي سهول تورغساي ، غرب نهر الأورال مباشرة — حيث كان المناخ وطبيعة الأرض

المزارع ومشكلاته ٣٦٩

شبهين بما في كنساس الغربية بدرجة مذهشة — عثر على ما كان ينشد . . على قمح كوبانكا . كان ينتج في السهول من البوشلات أكثر مما تنتج سلالتا فايف وبلوستيم ، وقد أوتى مناعة تفوق التصور ضد وباء الصدأ الأسود . على أن قمح كوبانكا سجل أعظم انتصاراته في المنطقة الممتدة من مينيسوتا شمالاً إلى ساسكاتشيوان . ومن عجب أنه لم يفلح في السهول الجنوبية . ومن ثم اتجه كارلتون مرة أخرى إلى روسيا . وفي أوكرانيا ، بالقرب من خاركوف التي قدر للروس والألمان أن يقتلوا بعضهم بعضاً بالآلاف بعد أربعين عاماً ، وجد قمح خاركوف . ولم يكن عام ١٩١٤ حتى كان نصف القمح الشتوى في البلاد من الأنواع المشتقة من سلالتى كوبانكا وخاركوف . ولم تكن مساهمات مكافحى الجوع الآخرين بأقل أهمية من هذه . فلقد تغلب ماريون دورسيت على كوليرا الحنازير الرهيبة ، وهزم جورج موهلر وباء الحافر والقلم الغامض الذى استشرى فى الماشية . وأحضر جيه . إتش . واتكنز من شمال أفريقيا سلالة ذرة الكافير ، كما جلب نيلز هانسن من تركستان الفصفصة (البرسيم الحجازى) ذا الزهرة الصفراء . وأنتج لوثر بيربانك فى معاملته بكاليفورنيا عشرات من الفواكه والخضر الجديدة ، وأثبت ديفيد آر . كوكر ، فى مزرعته التجريبية بجنوب كارولينا ، أن من الممكن للقطن الطويل التيلة أن ينمو فى السفوح والمرتفعات . وفى جامعة ويسكونسين ، توصل ستيفن بابكوك إلى اختبار اللبن لتقرير نسبة الزبد والدسم فيه . ووجد العالم الزنجى جورج واشنطن كارفر ، أثناء عمله فى معهد تسكجى ماث من الاستعمالات الجديدة لمنتجات معروفة مثل الفول السودانى والبطاطا وفول الصويا . كما أنقذ سيان ناب صناعة الأرز من الانهيار الذى أصابها بعد الحرب ، بإدخال أنواع جديدة من الشرق ، وبدأت شبكة اتسع انتشارها من المزارع النموذجية التى أرشدت إلى أساليب محسنة للزراعة فى كافة أرجاء الجنوب .

الضائقات تكتنف المزرعة

أخذ المزارع الأمريكى يفلح التربة بكفاءة متزايدة عاماً بعد عام ، منتجاً محاصيل أكثر وفراً . وكان خليقاً — وهو دؤوب ، ذكى ، أوتى أرضاً خصبة ، وآلات بارعة ، وأسواقاً

٣٧٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

مستعدة - أن يكون في سعة وهناءة . ولكن حظه كان قاسياً ، وأخذ يزداد قسوة باطراد . فلم ينته أروع قرن للتوسع الزراعى فى التاريخ كله ، حتى كان المزارعون قد أصبحوا مشكلة اقتصادية كبرى ، بدلاً من أن يكونوا « شعب الله المختار » ، كما وصفهم جيفرسون . فما تفسير هذا التناقض ؟

إن مشكلة الزراعة معقدة ، تمثلت فى أشكال جد مختلفة لصاحب المزرعة فى الجنوب ، وزارع القمح ، ومنتج الذرة والخنزير ، ومربى الماشية ، وصاحب مزرعة الألبان ، وصاحب بستان الفواكه . ففى وقت من الأوقات بدت فى شكل ما ، مشكلة تتعلق بالسكك الحديدية ، وفى وقت آخر كمسألة مالية ، وفى ثالث كمسألة متعلقة بسياسة الأرض . ولقد انطوت على مصالح قطاعية ، وبرامج حزبية ، وعلاقات دولية . ومع ذلك فقد ظلت ثمة عوامل معينة غير متغيرة ، تقوم بدور أساسى فى كل وجه من وجوه مشكلة الزراعة . ومن أهمها إنباءك التربة ، وتقلبات الطبيعة المفاجئة ، والإفراط فى إنتاج محاصيل التصدير الرئيسية ، وانخفاض فى الكفاية الذاتية ، والافتقار إلى الحماية التشريعية والمعونة الكافيتين .

كانت تربة الجنوب قد أنهكت من زمن طويل من جراء زراعة التبغ والقطن ، وباستخدام الأيدى العاملة الزراعية الجاهلة . ولقد انتكست ملايين الدونيات فى الأجزاء القديمة من القطاع الجنوبى فلم تعد تنتج سوى الشجيرات القليلة القيمة ، بينما كانت سيول الأمطار ، التى لا تقوم على مساراتها سدود ، تجرف ملايين الأطنان من تربة السطح الخصبة ، فى كل عام . ومن الأمور التى تصور الإفقار المتوالى للتربة الجنوبية ، أن الجنوب يستخدم سبعين فى المائة من كافة المخصبات التى تباع فى هذه الدولة ، وأن ما ينفقه المزارعون فى كارولينا الجنوبية على المخصبات يصل إلى ربع قيمة محاصيلهم من القطن . كذلك اتلفت التعرية والرياح العاصفة أراضي الغرب . ولقد كان قسط كبير من سهول المرتفعات غير مناسب للزراعة ، بل ولا لنوع الرعى الذى يمارس هناك ، وقد انتشر الجفاف ومنطقة التراب فى الأماكن التى تعرضت للإفراط فى الزرعة والرعى . ولقد أوقعت نوبات الجفاف المتكررة نكبة بمزارعى السهول . ففى طول فترة دامت ستة عشر شهراً فى عام ١٨٥٩ - ١٨٦٠ لم تهطل الأمطار بكميات مناسبة مرة واحدة لنجدة مزارعى كنساس ونبراسكا ، وكان لابد من هبات خيرية من الولايات الشرقية لمعونة من أفلسوا من الرواد الأوائل الذين جاءوا إلى هذه المناطق مصطحبين آمالاً

المزارع ومشكلاته ٣٧١

جسماً . ومرة أخرى ، حل جفاف طويل من سنة ١٨٨٦ حتى سنة ١٨٩٠ ، رد حدود العمران في كنساس ونبراسكا إلى الداخل مائة ميل . وقد وصفت ذلك ميرى ساندوز في الصورة القلمية التي رسمتها لأبيها الشيخ جولد ، فقالت :

لقد تجاوز الجفاف كل احتمال . فلم تنبت أوراق الذرة . وعلى الحافة الصلبة الأرضية لمنطقة مراعى الجاموس ، ظهرت الحشائش وذوت محترقة قبل أول مايو . بل إن الأراضي الأخف تربة ، في جنوبي النهر ، لم تنبت شيئاً . ولم تظهر الخضرة في الكثبان الرملية إلا في شرائط متناثرة ، إذ كانت الخضرة تنبت حيث كان الماء يركد ولا يجف منفذاً . ولقد ابيضت قيعان البحيرات وتشققت بأشكال متواترة ، وأصبح طائر الطيهوج نادراً ، واسود لحمه . ونحلت الأرانب وازدادت ضراوة ، بينما ازدادت الذئاب (الكويوت) جراً . وأخذت المركبات المغطاة تتجه شرقاً كما كانت تتجه الحيوانات الهزيلة الكالحة . وكثيراً ما كان ركبها يتعرضون لهجمات علنية في الطريق .

وبينما أحرقت نوبات الجفاف الطويلة المزارع ، اجتاحت العواصف الثلجية العنيفة الماشية في السهول المرتفعة وفي وديان الجبال وقضت عليها .

ولم تكن الحشرات المؤذية والأوبئة النباتية أقل شراً مما سبق . وما من شك في أن خنفساء القطن كانت أسوأ هذه الحشرات . ولقد أصاب بلاؤها مملكة القطن بأسرها ، إذ عبر ريوجرانده وافداً من المكسيك في سنة ١٨٩٢ ، وأخذ يزحف بعد ذلك منتشراً بسرعة تقرب من خمسين ميلاً في العام . ولقد أقام مزارعو إنتر برايز ، بولاية ألاباما ، نصباً تذكارية له ، وذلك لنجاحه في أن فرض تنويع المحصولات عنوة . ولقد أخفقت كل الجهود لإبادة هذه الحشرة ، فليس في مقدرة زراع القطن أن يكبحوا جماحها إلا بالتبكير في الزراعة ، وبالإسراف في استخدام السم القاتل لها .

ولقد كانت الحشرات الوبائية في السهول وفيرة ، ولكن الجراد أبشعها إثارة للجزع دون ما شك . وقد عرف مزارعو السهول بلاء الجراد لأول مرة ، في سنة ١٨٧٤ . . . وكانت تجربة قدر لها أن تتكرر مراراً . وقد قال ستيوارت هنرى في وصفها :

التهم الجراد النطاط كل أثر للخضرة البانعة من جبال روكى إلى ما وراء نهر الميسورى . وأذكر أننى إذ كنت عائداً للبيت فى ساعة متأخرة من أصيل أحد الأيام ، لأتناول العشاء ، إذا بى أتراجع مأخوذاً إذ رأيت ما أصبح معروفاً بجراد جبال روكى يكسو جانب البيت ، كان قد أتى فى الداخل على الستائر . وسرعان ما هبطت على الإقليم كله غمامات منه . . فى كل مكان ، دون ما سبيل لتفاديها . ولقد شرع الناس فى قتله إنقاذاً لللبساتين ، ولكن سرعان ما تبين عدم جدوى ذلك . واستحدثت آلات خاصة ، تجرها الجياد ، فكانت تجمع الجراد من حقول القمح بالبراميل لإحراقه . ولم تكن هذه الطريقة بدورها ذات أثر محسوس . فقد كانت الأسراب هائلة ، لا تعد ولا تحصى . وإن هو إلا أسبوع حتى كانت حقول القمح والحدائق والشجيرات والكروم قد التهمت عن آخرها ، حتى منبتها أو حتى اللحاء . فما من حيلة سوى أن تجلس وأن تشهد كل شيء يتلاشى .

ولم تكن السوسة الصينية التى تنخر الدرة ، ولا خنفساء البرسيم أقل من ذلك تخریباً . كان المزارع يبيع إنتاجه فى سوق عالمية ، منافساً مزارعى روسيا والأرجنتين وكندا وأستراليا ، وكان يشتري لوازمه من سوق تتمتع بالحماية . وكان السعر الذى يظفر به للقمح أو القطن أو اللحم البقرى يتحدد فى ليفربول ، أما السعر الذى يدفعه مقابل آلة الحصد أو السباد أو الأسلاك الشائكة أو الأحذية أو الثياب أو الخشب أو الأثاث ، فكانت تحدده ترستات تعمل متمتعة بتعريفه جمركية للحماية . فكانت نفقاته فى ارتفاع لا هوادة فيه . . نفقات ما كان يستخدم فى المزرعة ، ونفقات الشحن ، وفوائد المال الذى يقترضه ، وما يدفع للحكومة . وكانت الأرض الجديدة والآلات تمكنه من زيادة الإنتاج فى كل عام ، ولكن دخله لم يكن يزداد بدرجة تذكر . ففى سنوات أكبر توسع زراعى — من ١٨٧٠ إلى ١٨٩٠ — لم تزد قيمة المنتجات الزراعية الأمريكية بأكثر من نصف بليون دولار ، فى حين ازدادت قيمة المصنوعات فى الفترة ذاتها ستة بلايين من الدولارات . كانت أسعار معظم المنتجات الزراعية فى هبوط غير منتظم . فالقمح الذى كان يدر دولاراً مقابل كل بوشل طيلة السبعينات ، هبط إلى خمسين سنتاً فى أواسط التسعينيات من القرن التاسع عشر . وهبط القطن من سبعة عشر سنتاً للرطل فى سنة ١٨٧٣ إلى تسعة سنتات بعد ذلك بعشرين عاماً ، ثم تردى إلى ستة سنتات ، والأمير

المزارع ومشكلاته ٣٧٣

ذاته يمكن أن يقال إلى حد كبير عن الذرة والشوفان والشعير والتبغ وغيرها من منتجات الزراعة . كان متوسط قيمة إنتاج الدونم الواحد من عشرة محاصيل رئيسية أربعة عشر دولاراً في أوائل السبعينات ، فهبط إلى تسعة دولارات في أوائل التسعينات . ولعل أخطر العقبان الاقتصادية التي كان المزارع يكسح في مواجهتها ، هو ارتفاع تكاليف المال . كان حين يذهب إلى المصرف المحل أو وكيل الرهونات ليقترض مالاً ، يجد أن المطلوب أن يدفع فائدة عن القرض تتراوح بين ٨ و ٢٠ في المائة . وتجل له الموقف بطريقة أكثر إيذاء ، تمثلت في تدهور الأسعار . وقد نكون أكثر سرعة في تفهم الأمر إذا فكرنا على ضوء تكلفة الدولار وليس تكلفة السلع الزراعية . ففي سنة ١٨٧٠ ، كان بوسع المزارع أن يبتاع الدولار ببوشل من القمح ، أو بوشلين من الذرة ، أو عشرة أرطال من القطن . ولم تحن سنة ١٨٩٠ حتى كان شراء الدولار الواحد يتطلب بوشلين من القمح ، أو أربعة بوشلات من الذرة ، أو خمسة عشر رطلاً من القطن . كان بوسع المزارع الذي يقترض ألف دولار في سنة ١٨٧٠ أن يسدد دينه بألف بوشل من القمح . وإذا ترك مزرعته رهناً مقابل الدين إلى سنة ١٨٩٠ ، فقد كان تخليصها يكلفه ألفي بوشل .

إزاء هذه الظروف المعاكسة ، لم يكن من المدهش أن تزداد ديون المزارع الأمريكي المكفولة بمرهونات ، في طفرات واسعة . ولم تحن سنة ١٨٩٠ ، حتى كان أكثر من تسعين ألفاً من مزارع إلينوى مرهونة ، ومائة ألف في نبراسكا ، وأكثر منها في كنساس ، وكانت معظم هذه المرهونات في أيدي الشرق ، فكان في أيدي سكان نيوهامبشير وحدها حوالي خمسة وعشرين مليون دولار من مرهونات الغرب . كذلك كان استئجار الأراضي في ارتفاع . كان متوسط النسبة في الدولة بأسرها ثمانية وعشرين في المائة ، أما في الجنوب والغرب فكان أعلى بكثير .

كانت هذه هي العناصر الرئيسية في مشكلة الزراعة . وكان إخفاق المزارع في استخدام الحكومة كأداة لحماية مصالحه نتيجة لبؤسه بقدر ما كان سبباً فيه . فبالرغم من أن المزارعين كانوا يؤلفون نصف سكان الأمة ، فإنهم نادراً ما كانوا يرسلون واحداً من صفوفهم ليمثلهم في الكونجرس ، أو حتى في الهيئات التشريعية للولايات ، وعندما قدر في أوائل التسعينات لمزارعين مثل السيناتور بيفر والنائب سمبسون أن يصلوا إلى واشنطن ، فإنهم اعتبروا تحفاً غريبة أكثر منهم مشرعين . كان الذين يسنون القوانين

القومية أكثر تحمساً لخدمة مصالح رجال المصانع والمصارف والسكك الحديدية منهم لرعاية المزارعين ، وقد عكست التشريعات هذا التحمس . وكان من الممكن للتعريفية الجمركية القائمة على الحماية أن تساعد الزراعة ، بيد أنها اضطرت المزارع لأن يدفع ثمناً أعلى لكل ما كان يشتريه تقريباً . وكانت تشريعات العمليات المصرفية والعملية ، الواردة في مجموعة القوانين ، نعمة لأصحاب المصارف ومستثمرى الأموال ، ولكنها كانت عبثاً فادحاً على المزارعين . وكانت القوانين الرامية إلى تنظيم الترسّات والسكك الحديدية مصوغة ، أو كانت تفسّر بحيث أنها لم تكن تسبب إزعاجاً يذكر لتلك المصالح ، وعندما حاولت الولايات الزراعية أن تصدر قوانين أشد إحكاماً ، خذلتها المحاكم . بل إن التشريعات التي كانت تهدف ظاهرياً إلى مساعدة المزارع ، مثل قانون المزرعة الصغيرة (بيت محوط بقطعة من الأرض) ، أسفرت عن تثبيط للأعمال . فإن الأراضي التي بيعت مباشرة أو عن طريق السكك الحديدية والمضاربين ، كانت حتى سنة ١٩٠٠ أكثر مما آل للمتفعين بهذا القانون . وهكذا لم تحن نهاية القرن ، حتى كان أصحاب المزارع الصغيرة هذه قد سجلوا ملكية حوالى ٨٠ مليوناً من الدونيمات ، ولكن السكك الحديدية كانت قد تلقت - من الحكومة الاتحادية - وحكومات الولايات - ١٨٠ مليوناً من الدونيمات ، وكانت الولايات قد وهبت ١٤٠ مليون دونم دون مقابل ، كما أن ٢٠٠ مليون أخرى - معظمها من أراضي الهنود - طرحت للبيع لمن يدفعون أعلى الأثمان . وعلى هذا ، فإن المزارع الأمريكى بعد أبوماتوكس بثلاثين عاماً ، كان قد بسط مجاله في كافة أنحاء القارة ، واستطاع بأحدث الآلات وبمساعدة العلم أن يزيد إنتاجه إلى الدرجة التي كانت تجعله مستعداً لتغذية العالم الغربى . وكان في الطريق إلى تنظيم الفلاحة .

المزارعون ينظمون مهنتهم

كانت التجارة والعمليات المصرفية بل والعمل في تنظيم لشؤونها ، والوقت قد حان للمزارع كى يحذو حذوها . ومع هذا ، فما كان من شىء أصعب من ذلك . كانت مهنة الزراعة تتألف من ملايين من الوحدات ، تعمل كل منها على حدة ، فكل منها منافسة .

المزارع ومشكلاته ٣٧٥

لأخرى من ناحية من النواحي. كان المزارع بطبيعته فردياً ، لا يقبل السيطرة الخارجية بارتياح ، كما أنه لم يكن من سبيل لتنظيم التربة والطقس بلوائح . ولم تأت السيطرة على الإنتاج الزراعى ، فى آخر الأمر ، حتى تدخلت الحكومة الاتحادية . وفى تلك الأثناء ، كان على المزارع أن يتصرف بنفسه إذا شاء إنقاذ نفسه من استغلال السكك الحديدية والترسبات وشركات الرهن له .

كانت أول منظمة للمزارعين على نطاق الأمة هى الجمعية الزراعية التعاونية أو أنصار العناية العلمية بالزراعة . ففي سنة ١٨٦٦ ، قام موظف حكومى يدعى أوليفر كيبلى برحلة طويلة فى الجنوب الذى نُكب بالحرب ، فأقنعه ما رآه بأن من الممكن علاج فقر المزارع وتخلفه وعزلته بعمل مشترك ، فأنشأ مع نفر من أصدقائه « أنصار العناية العلمية بالزراعة » ، وهى جماعة اجتماعية وتربوية ترمى إلى « تنمية رجولة وأنوثة أعلى مستوى وأحسن فيما بيننا ، تعزيز أسباب الراحة والجاذبية فى بيوتنا ، وتعزيز ارتباطاتنا بغاية . . . جعل مزارعنا ذات كفاية ذاتية » . وأقيمت فى ولايتى نيويورك وبنسلفانيا بضع جمعيات تعاونية زراعية ، كما أطلق على الفروع المحلية . بيد أن الجماعة لم تحقق تقدماً يذكر طيلة بقائها فى الشرق . فلما كانت سنة ١٨٦٩ ، نقل مركزها الرئيسى إلى الغرب الأوسط ، وانتشرت كالنار فى المهشيم أثناء الضائقات التى حدثت فى أوائل السبعينات . ولم يحن عام ١٨٧٣ حتى كانت الجمعيات التعاونية الزراعية فى كل ولاية تقريباً ، ووصلت عضويتها إلى ثلاثة أرباع المليون . وكان الغرب الأوسط أعز مناطق نشاطها ، غير أنها ازدهرت كذلك فى الجنوب وعلى طول ساحل المحيط الهادى .

وكان كيبلى يرى أن تكون الجمعية التعاونية منظمة اجتماعية فى المقام الأول ، فضمت النساء إلى جانب الرجال ، ووضعت لها لوائح مفصلة نقلت بعضها عن الطقوس الماسونية ، فكانت هناك اجتماعات شهرية مخصصة للتعليم ، واحتفالات بالمناسبات الوطنية والأعياد . فكانت الغاية الكبرى هى تحطيم عزلة المزارع وإدخال البهجة والتسلية على حياته ، وتحقيق تبادل الآراء ، وإنشاء تضامن قائم على المصالح . وقد كانت الجمعية التعاونية موفقة فى كل هذا بدرجة كبيرة ولقيت صحف الجمعية التعاونية رواجاً واسعاً ، وأخذت مكنتات الجمعية التعاونية توزع المطبوعات الزراعية . وراح محاضرو التعاون الزراعى يحاضرون فى اجتماعات بمدارس المقاطعة ، وأصبحت النزوهات والمآدب التى تنظمها الجمعية فى الخلاء تقليداً راسخاً . وقد

٣٧٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

كتب هاملين جارلاند يصف إحدى هذه النزعات :

كان من بواعث الفخر والإلهام . . لنا ، أن نرى تلك الصفوف الطويلة من المركبات تندفع في الدروب ، وينضم بعضها إلى بعض عند ملتقيات الطرق ، حتى التجمعت في النهاية جميع الجمعيات التعاونية من الطرف الشمالى للمقاطعة في صف هائل واحد واصل التقدم إلى أرض المأدبة ، حيث كان ثمة خطباء في انتظار اقتربنا بجلال هادئ وعزم رفيع . ما من شيء أكثر روعة وأكثر عوناً من هذا الذى انبعث من الحياة الريفية الأمريكية .

على أنه لم يكن مناصب للمزارعين إذا اجتمعوا ، ولو للهو ، من أن يتحدثوا في الأعمال والسياسة . وكان الحديث يفضى إلى العمل ، وسرعان ما أقامت التعاونيات الزراعية على مستوى الولايات هيئات تسويقية تعاونية ومتاجر ووكالات للإقراض ، بل ومصانع . وما كانت هذه لتحظى بإدارة حسنة في كل الحالات ، كما أنها لقيت معارضة في المشروعات التجارية القائمة ، منذ البداية . ومع ذلك فقد وفرت على أعضائها قدراً كبيراً من المال ، فنقلت تعاونية أيووا - مثلاً - خمسة ملايين بوشل من القمح بالسفن إلى شيكاغو ، موفرة ما بين عشرة وأربعين في المائة من النفقات ، كما أنها بالشراء التعاونى وفرت على أعضائها مائة دولار من ثمن كل آلة حصاد ابتاعوها . وللتصدي لهذه المنافسة وتلبية حاجات الجمعيات التعاونية مباشرة ، أنشئت دار « مونتجرى وورد » للبيع بالمراسلة البريدية .

ولقد خاضت الجمعيات التعاونية في السياسة كذلك ، بالرغم من تحريم العمل السياسى في دستورها . فقد انتخبت في عدد من ولايات الغرب الأوسط من أعضائها للهيئة التشريعية ، وعملت على إقرار ما سمي قوانين التعاونيات الزراعية متضمنة لوائح منظمة لأجور السكك الحديدية ومستودعات تخزين السلع ، وقاضية بعدم قانونية بعض مساوئ للسكك الحديدية أشجع من تلك ، مثل تعوّد فرض أجور للنقل لمسافات قصيرة تزيد على ما يفرض للمسافات الطويلة ، أو الرشوة غير المباشرة المتمثلة في منحها أعضاء الهيئات التشريعية والقضاة اشتراكات للسفر بالمجان . وعندما تعرضت هذه القوانين للتحدى في المحاكم ، فإنها أيدت بسلسلة من الأحكام عرفت في مجموعها باسم قضايا

المزارع ومشكلاته ٣٧٧

التعاونيات الزراعية ، في سنة ١٨٧٧ ، وهى قرارات قامت على أساس المبدأ الدستوى العظيم ، القائل بأن :

عندما ترتبط ثروة خاصة بمصلحة عامة فإنها لا تعود حقاً شرعياً خاصاً فحسب . .
تصبح الملكية متشعبة بمصلحة عامة عندما تستخدم على نحو يجعلها ذات شأن عام ،
ويؤثر على الجماعة بوجه عام . لهذا فعندما يخصص امرؤ ثروته لاستعمال يكون للجمهور
مصلحة فيه ، فإنه في الواقع يمنح الجمهور نصيباً في ذلك الاستعمال . . .

ومع هذا ، فإن التعاونيات الزراعية لم تنظم في مكان ما كحزب سياسى ، ولا هى
أفلحت في إنشاء ما يشبه كتلة زراعية في الكونجرس .
وتلاشت التعاونيات الزراعية بسبب فشل كثير من مشروعاتها التجارية ، وإحباط
التشريعات المتعلقة بها ، وعودة رخاء نسبي في أواخر السبعينات . ولقد أعيد إحيائها
ولكن كهيئة محض اجتماعية وتعليمية . وفي تلك الأثناء تحول بعض المزارعين غير
الراضين إلى حزب العملة الخضراء الظهر ، وهو تجمع سىء التنسيق ضم مزارعين
وعمالاً ومصلحين نظريين ، اختار في سنة ١٨٨٠ مرشحاً من أعضائه لرئاسة
الجمهورية ، هو الزعيم التعاونى القديم جيمس بى . ويفر من ولاية أيوا .
على أن المنظمات التى خلفت التعاونيات الزراعية حقاً ، وهى « تحالفات
المزارعين » ، أشد المنظمات الزراعية نضالاً في التاريخ الأمريكى . ويرجع منشأ
التحالفات إلى الأزمة الاقتصادية التى حدثت في أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات .
وكانت الأوقات أشد عسراً من أية فترة سابقة . فقد انقض الجفاف على السهول
المكبوة ، واستمر عاماً بعد عام . كما أن نظامى الاستزراع بالمشاركة ، والحجز
القضائى على المحصولات دفعا بالجنوب إلى أعماق الفاقة ، فهبط سعر القمح إلى خمسين
سنتاً للبوشر ، والقطن إلى ستة سنتات للرطل ، وصار حرق الذرة وقوداً أرخص من
شحنها إلى السوق . أما في واشنطن ، فإن أعضاء من الكونجرس قاصرو الفكر ،
لا يستجيبون إلا لمطالب التجارة والصناعة ، فرضوا على البلاد تعريف ماكينلى
الجمركية ، في سنة ١٨٩٠ - وهى أعلى تعريفه عرفت - وأبقوا على نظام للمصارف
والائتمان عديم المرونة ، وأقروا إنفاق مئآت الملايين من الدولارات على المعاشات

وتشريعات تعود على أنصار الحكومة بالمكاسب . وأدى هذا الغبن الحكومي إلى تنشيط حركة التحالف فانتشر بسرعة فائقة ، ولم يحن عام ١٨٩٠ حتى كان أعضاء التحالفات العديدة لا يقلون كثيراً عن المليونين .

لم تكن التحالفات في الشمال الغربي والجنوب تختلف عن التعاونيات الزراعية الأولى في كثير من الاعتبارات . فقد اضطلعت ببرامج تعليمية واسعة ، وروجت كتباً مثل « التقدم والفقر » لهنرى جورج ، و« التفاتة متأملة للوراء » لإدوارد بيلامى ، ونشرت صحفاً ناطقة بلسان التحالف — كان في كنساس وحدها مائة منها — وأوفدت المحاضرين ليرشدوا المزارعين إلى أحدث تطورات الزراعة العلمية ولإثارة الشعور العام من أجل تشريعات علاجية : وأنشأت معاهد ومنتديات دراسية للمزارعين . كذلك انصرفت إلى برامج اقتصادية بعيدة المدى . فعنيت جماعة تحالف تكساس بالشراء والتسويق والتخزين تعاونياً ، وقام التحالف في شطرى داكوتا بالتأمين على المحصولات ، ونظم في إلينوى مجموعة من دور البورصة للمزارعين . وكان بعض هذه المشروعات موفراً ووفر للمزارعين ملايين الدولارات من الأرباح وعمولات الوسطاء ، بينما أخفق بعضها لئاء العداء المستحكم من المصارف والسكك الحديدية .

ولم يطل الوقت حتى أنجبت التحالفات حزباً سياسياً مناضلاً . إذ كانت من البداية تدعو إلى برنامج للإصلاح السياسى ، وتملك الحكومة للسكك الحديدية ، والقروض بفائدة زهيدة ، وإلغاء المصارف القومية ، وتحريم تملك الأجانب للأراضي ، وتخفيض التعريفات الجمركية ، وإنشاء مشروع تابع للخزانة لتوفير القروض الميسرة للمزارعين . وكان هذا الأخير بالذات مشروعاً مثيراً للاهتمام ، إذ كان يدعو إلى أن تنشئ الحكومة الاتحادية مستودعات للتخزين في كل مقاطعة زراعية ، يجوز للمزارعين أن يودعوا إنتاجهم ، وأن يحصلوا لقاء ذلك على شهادات تعادل قيمتها ثمانين في المائة من سعر السلعة في السوق . وكان هذا المشروع كفيلاً بأن يتيح للمزارع قرضاً بفائدة منخفضة جداً ، ويمكنه من أن يحتفظ بمحصولاته دون تسويق إلى أن تسنح أسعار مجزية ، ويخفف من تضخم النقد . . . وبهذا يحسن قيمة المحصولات . ولقد رفض المشروع عندما قدم لأول مرة باعتباره شططاً وحيلة اشتراكية . وخلال جيل من الزمن ، لم تلبث الحكومة الاتحادية أن تبنت مبادئه الجهورية بأكملها .

المزارع ومشكلاته ٣٧٩

ولقد تحول التحالف فيما بين سنتي ١٨٩٠ و ١٨٩٢ إلى الحزب الشعبى . . أكثر الأحزاب السياسية الأمريكية نشاطاً وحيوية . ولقد كانت غالبية أعضائه من مزارعى الجنوب والغرب ، ولكنه ضم كذلك مجموعات أقلية أخرى كثيرة ، من بقايا فرسان العمل وحزبى خضرى الظهر واتحاد العمل ، ودعاة منح المرأة حق الانتخاب ، والاشتراكيين ، ودعاة اتخاذ الفضة أساساً للعملة ، ومحترفى الدعوة للإصلاح وتركزت قوة نفوذه فى منطقة الحد الأوسط كما كان زعماءه من هذه المنطقة ، وأبرزهم إيجناتيوس دونيللى ، وهو أيرلندى من مينيسوتا ، كان مزارعاً ، وخطيباً ، ومثيراً للرأى العام ، ومكتشفاً لقارة أتلانتيس المفقودة ، ونصيراً للنظرية البيكونية ^(١) ، ومؤلفاً للرواية الشعبية « رتل قيصر » ، وقد ظل عشرين عاماً يثير الاضطراب فى مياه السياسة الأمريكية . ومن كنساس ، موئل مبادئ الحزب الشعبى ، ظهر السيناتور وليم بيفر الذى كانت لحيته الطويلة المسترسلة تذكر مشاهديه بالأنبياء العبريين ، والذى وصفه ثيودور روزفلت فى شبابه مستهجنًا بأنه « فوضوى مذبذب مأفون حسن النية » . كذلك برزت من كنساس أعظم النساء اللاتى تصدرن الدعوة لإحياء التقاليد الدينية والعادات القديمة ، وهى مارى إيلين ليز ، التى كانت تناشد مزارعى السهول ببلاغة كى « يقللوا من إنتاج الذرة ويزيدوا من إثارة الاحتجاج » . وفى جورجيا ، تولى حشد المزارعين المستأجرين والعاملين فى مصانع القطن تحت لواء الحزب الشعبى توم واطسون المتهور ، الشديد الهزال ، حكيم هيكورى هيل ، الذى أقام نفسه خليفة لتوماس جيفرسون ، والذى كان يثير قشعريرة الخوف فى المحافظين المتعنتين البوريون فى الجنوب . أما فى نبراسكا ، فإن شاباً من الحزب الديمقراطى يدعى وليم جنينجز بريان راح يدعوا حزبه إلى الاندماج فى التنظيم الشعبى الجديد .

وما عرفت السياسة الأمريكية من قبل شيئاً مثل الانتفاضة الشعبية التى اجتاحت البرارى وأراضى القطن فى أوائل التسعينات من القرن التاسع عشر . وقد كتب واحد ممن شاهدها يقول : « كانت بعثاً دينياً ، حملة جهاد ، عيد عنصرة ^(٢) فى السياسة ،

(١) نظرية تزعم أن فرانسيس بيكون هو المؤلف الحقيقى لمسرحيات شكسبير - المترجم .

(٢) عيد يهودى يدوم ٥٠ يوماً بعد الحصاد ، وفى أول احتفال به بعد قيامة السيد المسيح ، تلقى الحواريون - على ما ورد فى المعتقدات - قدرة من الروح القدس على الكلام بعدد من الألسن ، وصحبت ذلك ألسن من اللهب وعزيف ريح جاثجة - المترجم .

٣٨٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

يهبط فيه على كل إنسان لسان من لهب ، ويتكلم فيه كل امرئ بما ينطقه به الروح القدس » . وقال آخر : « كانت تطرفاً متهوساً كالحرب الصليبية » . كان المزارعون بعد عناء العمل اليومي في الحقول ، يشدون الخيل إلى مركباتهم ، وينطلقون مصطحبين زوجاتهم وأطفالهم إلى الجمعية التعاونية أو مبنى المدرسة ، ويصفقون استحساناً للخطب الحماسية التي يلقيها قاداتهم المحليون ، ومنها ما كانت ماري ليز تقوله مستنكرة : « إن وول ستريت (حى المال فى نيويورك) يملك البلاد . فلم تعد الحكومة حكومة الشعب ، يتولاها الشعب ، من أجل الشعب ، وإنما هى حكومة وول ستريت ، يتولاها وول ستريت ، لمصلحة وول ستريت . إن قوانيننا نتاج نظام يكسو الأوغاد ثياباً ، والأمانة أسماءاً » . وأعطى المزارعون المهتاجون أصواتهم تأييداً لإعلانات جديدة للاستقلال ، جاء فى أحدها إن تاريخ الولايات المتحدة فى السنوات الثمان والعشرين الماضية ، تاريخ أحداث متكررة من الظلم ، والطفيان ، والاستغلال لا مثيل لها فى تاريخ العالم . كما أن جميع القوانين التى سنت ، ترمى إلى غاية واحدة ، تلك هى : إقامة أرستقراطية غنية بالمال على أنقاض أمريكا التى كانت يوماً حرة .

ولقد دفعت انتخابات سنة ١٨٩٠ الحزب الجديد إلى النفوذ والسلطان فى اثنتى عشرة ولاية جنوبية وغربية ، وأرسلت إلى الكونجرس شيوخاً ونواباً شعبيين روعوا أهواءه الرصينة . وفى نشوة هذا النجاح ، راح الحزب يرسم الخطط لانتصارات أعظم . ففى عيد الاستقلال من عام ١٨٩٢ ، اجتمع فى أوماها ألف مندوب متحمس ، متأجج المشاعر لاختيار مرشح لرئاسة الجمهورية ، وللتصديق على المقدمة النارية التى وضعها إيجناتيوس دونيللى لبرنامج سياسى تقدمى جرىء :

إننا نجتمع وسط أمة دفعت إلى حافة الخراب الخلقى والسياسى والمادى . . فثمار كدح الملايين تُسرق فى جرأة لتكوين ثروات هائلة لنفر قليل . . . ومالكوهذه الثروات من ناحيتهم يزدرون الجمهورية ويعرضون الحرية للخطر . من نفس رحم الظلم الحكومى الثمر ، ننجب الطبقتين الكبيرين . . المشردين المتسولين ، وأصحاب الملايين .

وأدلى الشعبون بمليون صوت ، ولكن جروفر كليفلاند وليس جيمس بى . ويفر — الذى تصدر كثيراً من القضايا الخاسرة — وهو الذى ذهب إلى البيت الأبيض ، لقد هبت

المزارع ومشكلاته ٣٨١

رياح التمرد من حقول القطن التى شققت الشمس تربتها فى الجنوب ، ومن البرارى الحارة المترية فى الغرب ، ولكن الأحزاب القديمة مضت فى طريقها المعهود . فما كان ليوقظها من عدم المبالاة المغرورة شىء أقل من زلزال يهز الأرض . ولم يطل الزمن قبل مقدم هذا الزلزال .

سنة ١٨٩٦

كانت الأحوال سيئة فى سنة ١٨٩٢ ، وقد أخذت تزداد سوءاً باطراد . فما إن أدى جروفر كليفلاند اليمين فى احتفال مهيب ليتولى الرئاسة للمرة الثانية ، حتى انقضت على البلاد فزع عظيم . فانهارت البيوت التجارية ، وأغلقت المصارف أبوابها ، وانتقلت السكك الحديدية إلى أيدي الدائنين ، وتوقفت المصانع ، وتقلصت التجارة ، واستولى الدائنون على المرهونات . وفى المدن ، أخذت صفوف طويلة من المتعطلين تقف أمام مطابخ الحساء^(١) ، وازداد جيش المشردين فى الريف آلافاً جدداً . كان هذا أسوأ من فزع سنة ١٨٧٣ ، وأوسع انتشاراً ، وأشد تدميراً فى آثاره .

واتبعت الحكومة إزاء هذه النكبة سياستها التقليدية القاضية بعدم التدخل فى الاضطرابات الاقتصادية . كان كليفلاند قائداً قديراً ، أميناً ، شجاعاً ، حسن النوايا . نصيراً رائعاً للبرالية مانحياً فى محاربة الفساد والامتيازات الخاصة . وكان قد قام بأعمال جديرة بالإعجاب فى فترة رئاسته الأولى (١٨٨٥ - ١٨٨٩) . بيد أنه كان شديد التشبث بفلسفة عدم التدخل الحكومى فى الشؤون الاقتصادية . ومع أن برنامجه كان يقوم على تخفيض التعريفات الجمركية والإصلاح الإدارى ، فقد رفض معظم المقترحات لإصدار تشريع اقتصادى علاجى . كان يؤمن بأن العاصفة يجب أن تترك لتنتشع بنفسها ، وأن خير علاج للكساد الاقتصادى هو ما يقوم على القوى الذاتية فى الاقتصاد . وظلت الأمور تزداد سوءاً مدة عامين . وشهد عام ١٨٩٤ إضراب بولمان الكبير ، ومسيرة جيش كوكسى من المتعطلين إلى واشنطن ، ومزيداً من التدهور فى أسعار

(١) مراكز تابعة للحكومة والهيئات الخيرية لتقديم شىء من القوت للمعتمدين - المترجم .

٣٨٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

المنتجات الزراعية . ومن حقول القطن والذرة والقمح انبثقت منطقة متخمة بالثورة . وهدد الجناح الجنوبي والغربي للحزب الديمقراطي بالانفصال عن الحزب القديم . وعندما تصدى كليفلاند في سنة ١٨٩٤ ليسد الطريق على إجراء يؤدي إلى التضخم ، أعلن داعية الحرب القديم ريتشارد بلاند من ميسوري : « لقد وصلنا إلى مفترق الطرق » . وفي خريف ذلك العام ، تكاتف جمع من الديمقراطيين مع الشعبين الذين جمعوا ما يقرب من مليون ونصف المليون من الأصوات .

وتوقع الكثيرون تكرار أزمة ١٨٥٤ - ١٨٥٦ ، عندما تفكك حزب الأحرار الذي أثقلته الشيخوخة ، وخلفه حزب الجمهوريين الشاب الموفور الفتوة . غير أن زعماء الديمقراطيين الغربيين الدهاء لم يكونوا بعد على استعداد للتسليم بالهزيمة في حين أن الديمقراطيين الجنوبيين كانوا قد أصبحوا مقترنين تماماً بسيادة البيض ، فلم تكن لأي حزب ثالث فرصة لمزاحمتهم . ومن ثم ، فإن الزعماء المتطرفين من الغرب والجنوب زحفوا للاستيلاء على التنظيم الحزبي ، بدلاً من أن ينضموا إلى الشعبين . . . « وإذ ذاك بدأ الصراع . وفي حماسة تقرب من الحماسة التي ألهمت الصليبيين الذين ساروا وراء بطرس الناسك ، مضى ديمقراطيونا ذوو الفصاحة المقنعة من نصر إلى نصر ، كما كتب بريان فيما بعد .

واختار الديمقراطيون من المناطق الزراعية أن يخوضوا الانتخابات على أساس المسألة النقدية . وكثيراً ما اعتبر هذا خطأ ، غير أنه من المشكوك فيه أن أية مسألة أخرى كانت خليقة بأن تستهوى الناخبين أو أن تتصاعد بهذه السهولة لتثير المشاعر . كانت مشكلة النقود في تلك المرة معقدة ، ومع ذلك فلن يكون مجانباً للصواب كثيراً أن نقول إنها كانت مسألة صراع بين التضخم والانكماش . كانت الحكومة تتبع لسنوات سياسة الإقلال من النقد ، بينما كان المشتغلون في تجارة الأمة يتكاثرون . وفي سنة ١٨٧٣ ، قبيل شروع إنتاج مناجم الفضة في الغرب في التهديد بتخفيض قيمة النقد ، أقصى الكونجرس الفضة عن النقد بإجراء روتيني محض . . أي أنه رفض شراء أو سك أي مزيد من العملات الفضية . ثم اضطرت الحكومة في سنة ١٨٨٧ ، ومرة أخرى في سنة ١٨٩٠ ، إلى شراء كميات كبيرة من الفضة إلى حد عرض الاحتفاظ بقاعدة ذهبية لنقد الولايات المتحدة لخطر جسيم . وصمم عدد من الرؤساء المتعاقبين على تدعيم هذه القاعدة ، تؤيدهم في ذلك كل القوى المحافظة في الأمة . ولقد شن كليفلاند بوجه

المزارع ومشكلاته ٣٨٣

خاص حملة جبارة ، وناجحة ، من أجل ذلك . وكان كثيرون من المزارعين يوقنون بأن هذه السياسة النقدية هي المسئول الأول عن انخفاض الأسعار . فكان دعاة العملة الفضية يقولون : أعيدوا العملة الفضية ، وسكوا كل ما يستخرج من المناجم ، وافتحوا دور السك لجميع المعادن النفيس في العالم ، ترتد قيمة النقد إلى مستواها الطبيعي ، فترتفع الأسعار ويرجع الرخاء .

أما المحافظون من أنصار النقود العسيرة ^(١) ، فقد ظلوا مقتنعين بأن سياسة كهذه كفيفة بأن تكون نكبة مالية . فإن التضخم إذا ما بدأ ، عزت السبل إلى إيقافه ، ولا تلبث الحكومة ذاتها أن تمنح للإفلاس . وليس يكفل الثبات سوى قاعدة الذهب . بل إنهم فوق هذا ، أقنعوا أنفسهم بأن قاعدة الذهب سلوك خلقي سليم ، وليست سلوكاً مالياً سليماً فحسب . ووصموا الدولار الفضي في ظلم بين بأنه دولار « غير أمين » . هذا الخلاف على النقود الرخيصة ^(٢) كان نزاعاً قديماً . . دائم التجدد .

ولقد كانت هناك دواع كثيرة للنزاع المتعلق بإصدار العملة الفضية ، وذلك لأسباب استراتيجية . إذ كان من الممكن الاعتماد على أصحاب مناجم الفضة المهددين بالإفلاس ، للمساعدة في تمويل حملة لذلك . وكان نفوذ الفضة مسيطراً تماماً في ست من الولايات الغربية غير كثيفة السكان ، وكانت مناصرة للحزب الجمهوري عادة ، وتسيطر على أصوات في المجمع الانتخابي غير متناسب مع قلة سكانها . فلو أمكن تحويل هذه الولايات إلى صف الحزب الديمقراطي ، لقلبت ميزان الانتخابات . والنقود السهلة ^(٣) خليقة بأن تروق لطبقة المدينين الشاسعة في كافة أرجاء البلاد ، ولبعض العمال وللمزارعين . وأخيراً ، كانت الفضة صفة عاطفية من السهل استغلالها . إذ كان الذهب نقود الغنى ، والفضة صديق الفقير . كان الذهب نقود وول ستريت ولومبارد ستريت ، أما الفضة فنقود البراري والمدن الصغيرة .

على أن إثارة الجدل لم تكن كافية ، بل كان لابد لأنصار الفضة من مرشح . فكتبت صحيفة « ویرلد » النيويوركية تقول : « كل ما يحتاج إليه أنصار الفضة هو موسى (أى

(١) العملات التي تفوق قيمتها الاسمية قيمتها المادية ، كالعملات الورقية — المترجم .

(٢) النقود التي تنخفض قيمتها الحقيقية عن قيمتها الاسمية ، أى تنخفض قوتها الشرائية بسبب التضخم — المترجم .

(٣) العملات التي لها من قيمتها المعدنية ما يتناسب مع قيمتها الاسمية — المترجم .

نبي مرشد) . فهم قد أوتوا مبدأ ، وأوتوا العزم ، وأوتوا الدعاة والمؤيدين والشعارات ، وأوتوا الصوت المدوى والوسيلة ، وأوتوا الأصوات الانتخابية ، وأوتوا الزعماء كما يسمون . ولكنهم يتيهون في القفر كفريق من الأغنام التائهة ، لأنه لم يظهر بعد بينهم شخص ذو شجاعة ، وجراً ، وسحر شخصية ، وحكمة ليكون قائداً حقيقياً .

ووجدوا موسى المنشود في شخص وليم جينينجز بريان ، من نبراسكا . وكموفد إلى مؤتمر شيكاغو الانتخابي الصاخب ، في سنة ١٨٦٠ ، تقرر أن يتحدث في المسألة النقدية . وإذ راح يصعد الدرجات إلى المنصة ، في تلك الليلة القاتطة ، مساء ٨ يونيو ، كان يخطو نحو الشهرة القومية .

إننا لا نأتي كمعتدين . فحربنا ليست حرب غزو ، وإنما نحن نقاتل دفاعاً عن ديارنا ، وعن عائلاتنا ، وعن ذريتنا . لقد رفعنا المطالب فقوبلت بالاستهزاء ، ولقد رجونا فقوبلت رجاءاتنا بالإغضاء ، ولقد توسلنا فسُخروا عندما حلت محنتنا ، فنحن لن نتوسل ثانية ، ولن نرجو بعد الآن ، ولن نلتمس المطالب ، إننا نتحدهم ! . . .

هكذا تكلم « الخطيب الفتى ابن حوض نهر بلات » ، فأثارت كل جملة عاصفة جنونية من التصفيق . فلما ألقى الختام المشهور لخطابه ، اهتزت القاعة بسيل من التصفيق المدوى الذي لم يُر مثله من قبل في أى اجتماع أمريكي آخر .

إذا تجاسروا على نزول الميدان علناً ، ودافعوا عن مستوى الذهب باعتباره شيئاً جيداً ، فسوف ننازلهم إلى أقصى مدى . فبمساندة الجماهير المنتجة من الأمة والعالم لنا ، وبتأييد المصالح التجارية ، والمصالح العمالية ، والكادحين في كل مكان ، سنجيب مطالبهم بمستوى الذهب بأن نقول لهم : لن تفرضوا على جبين العمل هذا التاج من الأشواك ، ولن تصلبوا الجنس البشري على صليب من الذهب .

وكان من الممكن أن يُرشد بريان ولو لم يلق خطابه ، إذ كان قد قام بحملة متقنة قبل المؤتمر ، فكان مرشحاً معقولاً من كل الاعتبارات . وكان اختياره مقررًا سلفاً عقب الخطاب . واكتمل انتصار جناح الفضة في الحزب الديمقراطي ، فكتبوا البرنامج ،

المزارع ومشكلاته ٣٨٥

وعينوا المرشح ، واضطروا الشعبين على أن يسعوا إليهم .
وبهذه الحملة تخطو شخصية بريان الأسرة إلى الحلبة القومية ، وظل يجتذب الأضواء من فترة إلى أخرى طيلة عقدين من الزمن . كان من بعض النواحي أكثر الزعماء السياسيين استثنائاً بالاهتمام منذ هنرى كلاى . وببهاء منظره ، وشعره الفاحم ، وعينه السوداوين المتألقين ، وصوته ذى الجمال الرخيم ، وسرعة بديته ، وذكائه ، وعدم خوفه ، أسر عقول الملايين من البسطاء ولولائم المفعم بالتبجيل . وكان قد نشأ فى مزرعة ، والتحق بكلية ريفية ، ونزح إلى إقليم السهول ، حيث مارس المحاماة والسياسة ، كما كان تقياً من أتباع المذهب المشيخى ، فكانت خطبه مرصعة بمقتبسات مناسبة من الكتب المقدسة . وكان ديمقراطياً بسيطاً ، لم يفسده النجاح ، كما كان صادق الإخلاص للمصالح العام كما كان يراه ، وموقناً من أن صوت الشعب هو صوت الله . ولقد كان مثلاً رفيعاً للشخصية الأمريكية ، برغم أن نواحي نقصه كانت كثيرة ، إذ لم يكن واسع الاطلاع ولا عميقه ، وكان بعيداً عن اعتباره مفكراً أصيلاً ، مبدعاً ، شامل النظرة .

وكان النضال فى حملة عام ١٨٩٦ الانتخابية أشد احتداماً منه فى أية حملة منذ أيام جاكسون . وبدا من أول وهلة أن مهمة بريان متعذرة . إذ كان حزبه منشقاً على نفسه بدرجة كبيرة ، وكان زعيمه الشرفى الأعلى كليفلاند فى المعارضة ، ومعظم زعمائه الشرقيين يتحولون إلى معسكر الحزب الديمقراطى ، كذلك كان الحزب الديمقراطى يرنج تحت لوم غير منصف بأنه المسئول عن الكساد الذى استمر ثلاث سنوات . وكانت جميع القوى ذات الوزن تقريباً متكاثفة ضد بريان : قوى دوائر الأعمال والجامعات والصحافة والمال . ودعا مارك حنا ، رئيس الحزب الجمهورى ، إلى اكتتاب لتمويل الحملة الانتخابية قدر بما بين ثلاثة ملايين وسبعة ملايين من الدولارات ، ولم يستطع الديمقراطيون أن يجمعوا فى مقابل هذا ما يصل إلى نصف مليون . ولم تكن للديمقراطيين ميزة واضحة ، إلا فى ناحية واحدة . . فى بريان نفسه . وقد قام بأروع حملة فى التاريخ الأمريكى ، جائساً خلال البلاد طولاً وعرضاً ، من نيوانجلاند حتى الغرب ، مستقلاً المركبات النهارية (غير المزودة بأسرة للنوم) الحارة الجو ، المترية ، ملقياً خطبه ثمانى بل عشر مرات فى كل يوم ، مناشداً العمال والمزارعين ، الأحرار والتقدميين ، لتأييده .

٣٨٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

كان مجهوداً رائعاً ، ولكنه لم يكن كافياً . وتعلق مسز هنرى كابوت لودج على ذلك بقولها :

تحقق الفوز في المعركة العظيمة ، معركة أدارتها قوى مدربة ، خبيرة ، منظمة ، امتلأت يداها بالمال . . كان كل سلطان الصحافة – والنفوذ العالى – فى جانب ، وفى الجانب الآخر دهماء غير منظمة فى البداية ، انبثق منها للأنظار والأسماح والقوة ، رجل واحد ، ولكن . . أى رجل ! لقد ناضل هذا الرجل وحيداً معدماً ، بدون مساندة ، وبدون مال ، وبدون صحيفة تذكر ، وبدون خطباء يدعون له . . ناضل نضالاً لا يملك معه أحد ، حتى أولئك الذين فى الشرق سوى أن يصفوه بأنه مجاهد صليبي ، مارق ملهم . . نبى ! كان نضالاً عجيباً . وكاد أن يفوز برغم ما كان يعوقه من أتباع ومن برنامج .

وفاز وليم ماكينلى آخر الأمر بما يزيد على نصف مليون من الأصوات . وأخفق الغرب والجنوب ، هذا التجمع الذى دفع جيفرسون إلى الحكم ، وساند جاكسون ودوجلاس . ذلك أن ماكينلى والجمهوريين ظفروا بأصوات ولايات من الغرب الأوسط مثل إلينوى ، وأيووا ، ويسكونسين ولايات من الغرب الأقصى مثل كاليفورنيا وأوريجون . بيد أنه قدر لبريان وحملته بريان أن يغدوا أسطورة . وفى هذا يقول فاشيل ليندساي :

المنتقم للغرب ، أسد الجبال . .

بريان ، بريان ، بريان ، بريان .

الشاعر الغنائى (التروبادور) الهائل ، المتكلم كأنه مدفع حصار . .

مهشماً صخرة بلايموث بكتفيه من الغرب .

كذلك قدر لأراء الشعبين وديمقراطى المناطق الزراعية أن تسجل أخيراً بأكملها ، دون أى استثناء واحد يذكر ، فى التشريعات . وقدر لها أن تغير مجرى التاريخ الأمريكى .



الفصل ١٨

عصر الإصلاح

التحدى الذى اعترض الديمقراطية

عندما أقدم بريان على كتابة تاريخ الحملة الانتخابية لسنة ١٨٩٦ ، أطلق على كتابه اسم « المعركة الأولى » . وكان ملهماً فى هذا العنوان . ذلك لأن المعركة ، وإن انتهت بهزيمة لقوات الديمقراطية الزراعية ، كانت البداية للحملة التقدمية . وقبل أن تنتهى الحرب ، كانت جيوش المزارعين والعمال قد اجتاحت الولايات واحدة بعد أخرى ، فى حملات انتخابية مظفرة متوالية ، مكتسحة معاقل الرجعية ، رافعة علمها فوق البيت الأبيض بانتصار ، وأعادت الحكومة القومية إلى طريقها الديمقراطى التقليدى .

ذلك كان العهد التقدمى . . عقدين من الزمن بين معركة بريان . . المعركة الأولى ، ومعركة وودرو ويلسن ، المعركة الثانية . وقد اتسم هذا العهد بالتمرد والإصلاح فى كل قسم من أقسام الحياة الأمريكية تقريباً . فأقصى زعماء سياسيون قدامى ، ودُفع بزعماء جدد ، وأجرى فحص شامل وتجديد حديث للجهاز السياسى ، ووضعت العادات التطبيقية السياسية تحت فحص دقيق ، فنبذ منها ما عجز عن أن

يكون متفقاً مع المبادئ المثالية للديمقراطية . وسيقت النظم والأعراف الاقتصادية — الملكية الخاصة ، الشركة المساهمة ، الترتيب ، الثروات الكبيرة — لمحكمة العقل ، وطلب إليها أن تبرر وجودها أو أن تغير أساليبها . وأعيد النظر في العلاقات الاجتماعية — أثر المدينة ، الهجرة ، ألوان عدم المساواة في الثروة ، نمو الطبقات . . كل هذه تعرضت لاهتمام ناقد دقيق . وتكاد كل شخصية بارزة في هذه المرحلة ، سواء في السياسة أو الفلسفة أو الثقافة أو العلم أو الأدب ، أن تكون قد أخذت بعض شهرتها عن ارتباطها بالحركة الإصلاحية : ويفر ، وبريان ، لافوليت ، ودبس ، وروزفلت ، وويلسن في حلبة السياسة . . وليم جيمس ، وجوزياه رويس ، وجون ديوى في الفلسفة . . ثورستين فييلين ، وريتشارد إيلي ، وليستر وارد في العلم . . وليم دين هاويز ، وفرانك نوريس ، وهاملين جارلانند ، وتيودور درايزار في الأدب . كان أبطال هذا العهد مصلحين عن بكرة أبيهم . قادوا بشجاعة وتحد استحكامات الديمقراطية ، بل وانطلقوا مهاجمين للقيام بفتوحات جديدة . وما حدث مثل هذا التفاعل في العالم الفكرى منذ الأربعينات من القرن التاسع عشر ، ولا قدر للإصلاح أن يوطد مكانته في الميدان كما وطده من ذلك الحين .

وما الذى دار حوله هذا النشاط المتلهف الرائع للإصلاح ؟ ما كنه هذا الذى أشاع الاضطراب في مياه الحياة الأمريكية ؟ لقد رأينا من قبل طرفاً من مشكلات المزارع والعمال . ولكن هذه المشكلات ، على إيلامها ، كانت أعراضاً أكثر منها أسباباً . فالمعضلة لم تكن اقتصادية فحسب ، ولا هى كانت مقتصرة على هذين المجالين الكبيرين : الزراعة والقوى العاملة . بل إنها مست كل وجه من وجوه المجتمع الأمريكى .

الواقع أن الخير الذى كان مرتقباً من الحياة الأمريكية لم يكن يلقي تحقيقاً . كان المرجو في هذه الدنيا الجديدة إقامة مجتمع تكون فيه الحرية والمساواة مكفولتين للجميع ، مجتمع تحظى فيه الحرية بالحماية . ومن المؤكد أن هذا كان حلماً ، ولكنه لم يكن حلماً وهمياً ، ولا كان مبتدعو تطلعات الجمهورية الأمريكية ممن يلوذون بأفيون الآمال الكاذبة . فإن الطبيعة لم تكن قد أتاحت للبشر يوماً من قبل مثل هذه الفرصة السخية ، ولا كان ثمة سبب مقبول — في يوم من الأيام — للاعتقاد بأن بوسع البشر أن ينشئوا لأنفسهم جنة على الأرض ، كالداعى الذى ترتب على ذلك . فكان الشعب الأمريكى في البداية « أمل الجنس البشرى » كما قال تيرجوت حقاً .

عصر الإصلاح ٣٨٩

هذا الأمل لم يتحقق . كان الأمريكيون أحسن حالاً من معاصريهم في الخارج ، ولكنهم كانوا أسوأ مما كان ينبغي لهم . كانت المنجزات المادية للأمة هائلة ، ولكن المنجزات الثقافية والاجتماعية كانت مخيبة للرجاء . وفي هذا قال الرئيس ويلسن في الخطاب الافتتاحي لفترة رئاسته الأولى :

لقد جاء الخبيث مع الطيب ، وكم من ذهب بديع المنظر صدا . فمع الثراء أقبل تبذير لا مبرر له ، وبددنا شطراً كبيراً مما كنا خليقين بأن نفيد منه ، ولم نكف لكي نصون سخاء الطبيعة الفياض . . مستهجنين أن نكون حريصين . فنحن مسرفون بدرجة تدعو للمخجل ، بقدر ما نحن أكفاء بدرجة تدعو للإعجاب . إننا نفخر بمنجزاتنا الصناعية ، ولكننا حتى الآن لم نتوقف متدبرين بدرجة كافية لنحسب التكلفة البشرية ، تكلفة النفوس التي ضُحيت دون تقدير ، والطاقات التي حملت فوق وسعها فتحطمت ، والتكلفة البدنية والروحية من الرجال والنساء والأطفال الذين وقع عليهم دون ما إشفاق ما لكل هذا من ثقل مميت وععب ، على طول السنين . . . ومع الحكومة العظيمة ولت أمور كثيرة خفية كل الخفاء ، تقاعسنا أطول مما ينبغي عن تأملها بعيون سريعة الاستيعاب ، مبرأة من الخوف . وما أكثر ما تعرضت الحكومة العظيمة التي أحببناها للاستغلال ، لأغراض خاصة وأنانية ، وقد تناسى الذين استغلوها الشعب .

لم يكن هذا لأن أناساً خبيثين ارتكبوا شرواً ، ولا كان لأن رجالاً أقوياء النفوذ قد عافوا وآلوا على أنفسهم أن يقضوا عليها ، ولا كان لأن الطغيان والاستبداد قاما بدلاً من الحرية . كلا ، بل إن الأسباب كانت أكثر حذقاً من كل هذا . كانت المحنة الأساسية شائعة في العالم الغربي بأسره . فلقد طغى العلم والآلة على علم الاجتماع والجهاز السياسي . ولم تعد العادات والمبادئ الموروثة عن أمة ريفية قامت في القرن الثامن عشر كافية لمتطلبات حالة العمران المدني في القرن العشرين . وكان هذا حقيقة في المجال السياسي ، حيث ألح الخوف من الحكومة في فترة لم يكن فيها من يقدر على السيطرة على القوى التي أطلقتها الآلة على المجتمع سوى الحكومة . وكان حقيقة في المجال الخلقي ، حيث هدد قيام الشركات غير ذات الطابع الشخصي المعتقدات القديمة عن المسؤولية الشخصية . وكان حقيقة في المجال الاجتماعي ، حيث لم تعد عادات الحياة الريفية في

مجتمع متجانس صالحة للتطبيق إزاء مطالب حياة المدن في مجتمع متباين العناصر بدرجة عالية .

ولقد خلق الناء في حد ذاته طائفة من المشكلات . فإن مجال الزراعة تجاوز في نموه الحدود التي كانت الطبيعة قد أقامتها ، وأخذ المهاجرون يتدفقون أسرع مما كان يمكن استيعابه ، وراحت المدن تنمو بسرعة لتؤوى سكانها المتكاثرين ، أو تحكمهم حكماً مناسباً ، وازداد إنتاج المصانع متجاوزاً الاستهلاك الفعلي ، وتضخمت الأعمال التجارية حتى لم يعد بوسع أحد أن يفهمها أو يسوس أمورها بدراسة كاملة ، وأثرى نفر قليل بدرجة أنهم لم يكونوا يدرون ما يفعلون بأموالهم . . ولم يكن المجتمع قد تعلم بعد كيف يخفف عنهم هذا العبء .

كانت هذه هي الصعاب الأساسية ، ولكن ما أقل من أوتوا بصيرة ثاقبة لتقديرها . وبدلاً منها كان المصلحون يرون الفقر والغبن والفساد . . كانوا يرون مسألة الأرض ، ومسألة القوى العاملة ، ومسألة المرأة ، ومسألة النقود . ومن ثم فقد انصرفوا للقضاء على الأحياء الفقيرة ، وطهروا السياسة ، وكسروا سطوة الترسنات ، وحاربوا الأشرار ذوى الثراء العظيم ، وشنوا الحرب على « شيطان الخمر » ، وعلى تشغيل الأطفال ، وعلى سوء أحوال العمل ، وقاموا بحملات من أجل الهند ، ومن أجل الزواج ، ومن أجل « الأشقاء السمر الصغار » في الجزر الجديدة التي امتلكتها ، وابتكروا أنظمة جديدة للحكم . . روح المبادرة ، والاستفتاء الشعبى ، وحق الانتخاب للمرأة ، والانتخابات الابتدائية ، وقوانين أعمال الفساد ، ونظام الأهلية ، كما أنقذوا الغابات والموارد المائية ، وقاموا بتجميل المدن . وبرزت ماث من الجمعيات لعمل الخير وازدهرت . وضجت المطابع بكتب تعرض شرور النظام الحاضر ، وتقدم مشروعات لنظام أفضل . وحارب محررو المجلات الفساد بمقالات تفضح كل شيء ، في كل مكان — شركة ستاندارد أويل ، أوترست اللحم البقرى ، أو « العمليات المالية المسعورة » ، أو « تاريخ الثروات الأمريكية الكبيرة » ، أو « عار المدن » . وتحول روائيون مثل تيودور درايزر وفرانك نوريس وبرانند هويتلوك عن الخيال واللون المحلى إلى الروايات التي تعالج مشكلات ، وإلى المواعظ الخلقية . وعاف الشعراء قصائدهم على تباين مقاطعها وقوافيها ، وراحوا مع إدوين ماركهام يكتشفون « الإنسان العامل بالمعزقة » . وبرز العلماء الدارسون من أبراجهم العاجية ليعالجوا المشكلات الاجتماعية . . ليناقشوا مع

٣٩١ عصر الإصلاح

فيلين نظرية المشروعات التجارية والصناعية ، أولينها لوميستر وورد طعناً في نظرية حرية العمل laissez faire . وأعاد الوعاظ اكتشاف رسالة التعاليم الاجتماعية ، وأزعجوا أبناء الأبرشيات المحترمين بقراءة كتاب « العهد الجديد » قراءة موضوعية ، أوبالتكهن بما يحدث « إذا جاء المسيح إلى شيكاغو » .

كان هذا كله مما راق للمزاج الأمريكي . فقد كان الاحتجاج والتمرد على الأحوال في إنجلترا القديمة هما اللذين حملا المهاجرين الأوائل والمتطهرين (البيوريتان) على المجيء إلى إنجلترا الجديدة (نيوانجلاند) ، ولقد ثار الزعماء في عهد الاستعمار تبعاً — روجر ولیمز ، وناثانييل بيكون ، وجاكوب ليسلر — على الطغيان والتعصب عندما قاما هنا . لقد ولدت الأمة من ثورة ، وكان أبطالها القوميون — جيفرسون ، فرانكلين ، سام آدمز ، توماس بين — ثواراً ليس ضد الوطن الأصلي فحسب ، بل ضد الطبقات الحاكمة في الوطن الجديد كذلك . ولقد جاهد كبار الكتاب والوعاظ والفلاسفة في نيوانجلاند ، في الأربعينات والخمسينات من القرن الثامن عشر — إيمرسون وهويتير ، جاريسون وباركر — في النضال من أجل المساواة والحرية . فقد كان التحري ، والتحدى ، والاحتجاج ، وتجربة كل الأمور والتشبت بما هو طيب . . كانت كلها من طبيعة الشخصية الأمريكية .

ولقد كانت حركة الإصلاح الجديدة تختلف اختلافاً واضحاً عن الحملة الكبرى في الربع الثاني من القرن ، من حيث الفلسفة والأساليب . فإن الحملة السابقة كانت منبثقة من فلسفة دينية ، وتضمنت إصلاحاً عالمياً شاملاً ، ولم تكن تكثرث للسياسة . أما حركة الإصلاح في الفترة بين ١٨٩٠ و ١٩١٢ ، فكانت مدنية غير دينية إلى حد كبير ، وكانت تفتقر إلى أية فلسفة منسقة ثابتة ، وكانت مستندة إلى المصادفة وتكاد تكون عشوائية في أهدافها واهتماماتها ، كما أنها كانت تعتمد على الصحافة ، وكانت سياسية إلى درجة كبيرة . ولقد كان ثمة إيمان مشترك بالديمقراطية وطبيعة الإنسان قطعاً ، بيد أن هذا كان أقل شيوعاً في الحركة الأخيرة منه في الحملة الأولى . وهناك ما يوحى بأنه إذا كان كل مجاهدي « العصر الذهبي » تقريباً قد ظلوا أوفياء لمبادئهم الأصلية ، فإن كثيرين من الصحفيين والسياسيين الذين ارتبطوا بالحركة التقدمية في التسعينات لا ذوا فيها بعد بمعسكرات العدو .

ولقد ظهر خلال هذه الأعوام تياران رئيسيان للإصلاح . أحدهما نابع من المناطق الزراعية في الغرب ، وقد عنى في الغالب بالموضوعات الاقتصادية ، وكشف من وقت

لآخر عن ومضات من الراديكالية الحقيقية . وكان فيلسوفا هذا الاحتجاج الغربى هما : هنرى جورج مؤلف « التقدم والفقر » ، وإدوارد بيلامى الذى كان كتابه « النظر إلى الخلف » (التفاتة متأملة لما مضى) يتمثل اقتصادياً يوتوبياً (خيالياً فى مثاليته) ، أما الدعاة السياسيون فهم ألتجيلد ودونيل ، وبريان ولا فوليت . وكان التيار الثانى شرقياً ، بل إنجليزياً فى أصله ، وقد عنى بمشكلات مثل إصلاح التعريف الجمركية ، ونظام الأهلية ، ومكافحة الإمبريالية . وكان المفكرون الناطقون باسمه هم : إى . إل . جودكين رئيس تحرير صحيفة « نيشن » النيويوركية القوية النفوذ ، جورج وليم كيرتس ، تشارلز ديليو . إلبوت رئيس جامعة هارفارد . وكان ممثلوه السياسيون هم : كارل شورز ، أبرام إس . هيويت ، جروفر كليفلاند ، وودرو ويلسن .

الجهاد من أجل العدالة الاجتماعية

أصدر جاكوب ريس ، وهو مهاجر من الدنمرك أثناء عمله كمخبر لصحيفة « صن » النيويوركية ، سنة ١٨٩٠ ، كتابه « كيف يعيش النصف الآخر » . كان عرضاً غير منمق للظروف فى الأحياء الفقيرة المكتظة من نيويورك ، صور الازدحام والقذارة والمرض والجريمة والرديلة والبؤس التى يعيش فيها النصف الآخر ، الذى تخلف عن ركب الديمقراطية . وسرعان ما أقبل الصحفيون فى مدن أخرى على إعداد تقارير مشابهة ، فتنبهت الأمة لإدراك أن الخطر الذى يتهدد المدينة ليس أقل إلحاحاً مما يتهدد المزارع . كانت المدينة ، كما أشار لورد برايس فى كتابه « جمهورية الديمقراطية الأمريكية » ، مظهر العجز الواضح الوحيد للديمقراطية الأمريكية . فهنا كان طرفا النقيض ، الثروة والفقر ، فى أبشع صورهما ، فالأحياء الفقيرة تزاخم قصور الأغنياء المرمية ، والمتسولون يحومون حول أبواب المطاعم الفخمة . هنا كان الفساد فى أوقع مظهر ، فالثلل والجماعات الاستقلالية تثرى على موارد الخزانة العامة ، إذ تباع الامتيازات والتراخيص العامة ، مستغلة الجريمة والرديلة . هنا كان الماخور والدار السيئة السمعة يلقيان الحماية والتشجيع من السياسيين وأصحاب المصالح الذين يفيدون منها ، بينما كانت العصابات الإجرامية — مثل الهوايوز فى ملبورى بيند بولاية نيويورك ، أوليك شور بوش بولاية

عصر الإصلاح ٣٩٣

كليفلاند - تمضى فى أساليب النهب والسلب دون أن يزعجها تدخل من سلطان الأمن . هنا كانت الورش التى تجور على حقوق العامل شهوداً على استغلال النساء ، وكان الصبية من باعة الصحف ومنظفى الأحذية شهوداً على العجز عن رعاية الأطفال . هنا كانت مشكلات الصحة العامة ، والإسكان ، والتعليم ، والحكم أشد ما تكون . كانت مشكلة الإسكان هى التى استأثرت أولاً باهتمام المصلحين ، إذ أنها لم تكن مقتصرة على التمسك سكان الأحياء الفقيرة فحسب ، بل كانت تعنى سكان المدن جميعاً . ففى العقدين التاليين للحرب الأهلية ، كان سكان المدن قد نموا بمعدل أسرع من معدل نمو المرافق الإسكانية ، مما نجم عنه تزايد المباني التى تؤجر للسكنى . . وهى بنايات خشبية ضعيفة الأسس ، ترتفع إلى خمسة طوابق أوسنة ، معتمة ، سيئة التهوية ، قدرة ، مأوى للأمراض ، ومبوءات للزبالة . فكان فى مدينة نيويورك وحدها ، فى سنة ١٨٩٠ ، ما قد يصل إلى نصف مليون شخص يعيشون فى هذه « الأحياء الفقيرة » ، حيث كان معدل الوفيات أربعة أمثاله فى أحياء المدينة الأسعد حظاً . ففى مجموعة من هذه المساكن ، تعتبر مثلاً لحي الجانب الشرقى (إيست إند) ، كان ثمة ٢٧٨١ شخصاً ، ولكن ما من حوض واحد للاستحمام . وكان ثلث حجراتها - وعدتها ١٥٨٨ - بدون ضوء ولا تهوية ، وثلث آخر يطل على « المناور » . فلندع ريس يصف إحدى المجموعات ، فى الطرف الأدنى من مانهاتان :

ما رأيك فى تأمل إحدها ؟ رقم (. .) فى تشيرى ستريت . أرجو أن تأخذ بعض الحذر ، فالبهو معتم ، وقد تتعثر فى الأطفال وهم يلعبون برماية قطع النقود على هدف هناك . ولست أخشى أن تؤذيهم ، فالركلات واللكمات غذاؤهم اليومي . ولا ينالون سواها شيئاً يذكر . هنا حيث ينحرف البهو ويغوص فى ظلام تام ، توجد درجة سلم ، فأخرى ، وأخرى ، مجموعة من الدرجات . بوسعك تحسس طريقك إن لم تكن تراها . مغلقة حبيسة ؟ أجل ، فماذا كنت ترجو ؟ كل الهواء الطلق الذى يقدر له دخول هذا السلم ، يأتى من باب البهو الذى لا يكف عن الاصطفاق ، ومن نوافذ حجرات النوم المعتمة التى تتلقى بدورها من السلم قسطها الوحيد من عناصر الطبيعة . . تلك كانت امرأة تملأ دلوها من الصنبور الذى ارتطمت به . إن الأحواض فى ممر البهو ، ليستطيع جميع المستأجرين أن ينفذوا إليها . . وليتسمموا

جميعاً ، على السواء ، بنيتها في الصيف . أسمع صرير المضخة ؟ إنها الأنشودة التي بنام عليها أطفال المستأجرين .

وكانت « معركة الأحياء الفقيرة » حملة طويلة حقاً ، استعرت في جبهات كثيرة . وبالشكوى من الأخطار الطارئة ، من حرائق وأوبئة ، أقنع مصلحون مثل ريتشارد واتسون جيلدر المشرعين المتقاعسين بأن يقضوا باعتبار أسوأ هذه البنيات مخالفة للقانون ، وبأن يشترطوا توفير التهوية والوسائل الصحية العامة اللائقة في غيرها . ولإبعاد الأطفال عن الطرق وعن العصابات ، وإتاحة فرصة أفضل ليحفظوا بالصحة والأدب ، أقيمت ملاعب في أشد قطاعات المدينة ازدحاماً ، وأتاحت الأموال التي جمعت لإمتاعهم بالهواء الطلق إرسالهم في العطلات إلى الريف ، وأخذت مراكز اللبن توزع اللبن بالمجان لمن لا يملكون شراءه ، وأعفت دور الحضانة النهارية الأمهات العاملات من القلق على أطفالهن ، وهيأت جماعات الممرضات الزائرات رعاية طبية وعلاجية دون مقابل ، ووفرت هيئات مثل جماعات الشبان المسيحيين والكشافة منافذ صحية وطبيعية للطاقت التقنية .

وأنشأت العاملات دون كلل في الخدمة الاجتماعية ، مثل جين آدمز ، ويليان والد ، بيوتاً للإيواء في الأحياء الفقيرة من المدن الكبرى ، على غرار توينبي هول في لندن . وتولت هذه البيوت ، التعامل في إنسانية ورحمة مع أولئك الذين كان تيودور باركر قد وصفهم بأنهم الطبقات الهالكة والخطيرة في المجتمع . . من مهاجرين حديثي الوصول ، حائرين في عالم غريب ، إلى متعطلين عن العمل ومعدمين من ضحايا الصناعة التي لم تتحمل أية مسئولية من أجل خيرهم ، بل ولا من أجل أجسامهم التي أصابتها آلاتها بعاهات معجزة . . إلى شيوخ ونساء محطمين هجرهم أولادهم ، إلى الأطفال المشردين في الشوارع والحارات ، والشباب الذين يتعرضون لمشكلات مع آبائهم أو كنيسهم أو القانون ، إلى المهملين والمنبوذين في المدن الجديدة التي كانت تنمو بسرعة لا تدع سبيلاً إلى التفكير في عدالة ، أو رحمة ، أو جمال . كانت دور الإيواء ، كما قالت جين آدمز « مجهوداً تجريبياً للمعاونة على حل المشكلات الاجتماعية والصناعية الناجمة عن ظروف الحياة الحديثة . وهي في الوقت ذاته محاولة للتخفيف من التكدر المفرط للعمال في أحد طرفي المجتمع ، والفاقة في الآخر » .

عصر الإصلاح ٣٩٥

وكان أكثر بيوت الإيواء نجاحاً وشهرة هل - هاوس ، في الجانب الغربى من شيكاغو . ومن الممكن أن يعزى هذا إلى عبقرية جين آدمز ، أكثر العاملات في الخدمة الاجتماعية فهماً ، وقوة إقناع ، وفعالية . فهى قد أنشأت هل - هاوس في سنة ١٨٨٩ ، ولم تجعله ملاذاً للفقراء والمشردين فحسب ، بل جعلته كذلك مدرسة تدريب للشباب ، ومعملاً لعلماء الاجتماع والفلاسفة . فأصبح هل - هاوس مركزاً اجتماعياً لشيكاغو بأسرها ، ومدرسة فنية ، ومدرسة للموسيقى ، ومدرسة للتمثيل ، ومسرحاً ، ومركزاً للتأهيل ، كما كان - على مستوى آخر - مركزاً لتدريب الباحثين الاجتماعيين على أساليب الخدمة الاجتماعية ، وتحقيق الأهداف الاجتماعية عن طريق التشريع . ومن هل - هاوس انطلقت إشاعات كافة أنواع الأنشطة الإصلاحية : فقد عمل كمركز مقاصة وتصفية للحريات المدنية ، وتبنى التشريعات التى تحمى النساء والأطفال فى الصناعة ، وساعد على إقامة أولى محاكم الأحداث فى البلاد . وقد أصبح هل - هاوس معهداً عالمياً ، وأصبحت جين آدمز - القديسة جين ، كما كانت تعرف لدى الآلاف - شخصية عالمية ، إذ كانت الأولى فى الحرب ضد الفقر والجريمة ، والأولى فى السلام قطعاً (إذ كانت أول امرأة فازت بجائزة نوبل للسلام) ، والأولى فى قلوب مواطناتها ومواطنيها .

ومن أكثر المشكلات العاجلة التى شغلت المصلحين ، مشكلة الجريمة ، لا سيما ما يتعلق بتزايد انحراف الأحداث . فقد شهد عقد الثمانينات من القرن التاسع عشر ازدياداً فى نزلاء السجون بنسبة ٥٠ فى المائة ، وكان الأطفال يمثلون خمس هذا العدد . وللولايات المتحدة تاريخ طويل ومشرف فى الاهتمام بإصلاح قوانين العقوبات والسجون ، على أنه بالرغم من جهود النقاد والمتنورين ، مثل إدوارد ليفينجستون ودورثيا ديكس وفردريك واينز ، فإن قوانين العقوبات ظلت قاسية فى كثير من الولايات ، كما أن ظروف السجون فى بعض الولايات كانت تذكر الزائرين بـ « جحمر كلكتا الأسود » بدرجة كبيرة . وبجهود شاقة ماتت الفكرة القديمة القائلة بعقاب المخالفين للقانون وليس بإصلاحهم ، وكذلك كان الأمر بالنسبة لوحشية سلطات الأمن ، والتعذيب ، وتطبيق قانون على الأغنياء وذوى النفوذ وآخر على الفقراء والذين لا حول لهم . ولقد نادى ألتجيلد حاكم إللينوى - الذى أصدر عفواً عن فوضوى هايماركت - بأن المجتمع هو الذى يكون مذنباً إذا ما ارتكبت جرائم ما ، وليس الأفراد . ولقد قام بجهد بطولى فى إصلاح قانون العقوبات فى الولاية . وقد تتلمذ عليه عمدة توليدو « جونز صاحب

الحكم الذهبي » ، وسلك مسلكه . . ووجد الفرصة لإبراز رأيه :

كان دائم التردد على سجون المدينة أو الإصلاحيات ، والتحدث إلى الأشقياء المساكين فيها وكأنه واحد منهم . . وكان يعمل باستمرار على إخراجهم من السجن ، ودخل معي آخر الأمر في اتفاق صغير ، يدفع بمقتضاه كافة النفقات اللازمة لمحاكمتهم . . إذا توليت بنفسى قضاياهم . فإذا قبض على فتاة فقيرة مثلاً ، وطلب محاكمتها أمام محلفين ، وأوليت قضيتها من العناية ما كانت تلقاه لو أنها كانت على شيء من الثراء ، فإن الشرطة إذا ما وجدوا أنهم لا يملكون إدانتها ، خليقون بأن يصبحوا أكثر حرصاً على حريات الأفراد ، فيشرعون في أن يولوا حقوق الإنسان وحياة الإنسان شيئاً من الاحترام .

غير أن هذه الإجراءات كانت علاجات مسكّنة أكثر منها إصلاحات في الواقع . وكان الأخذ بنظام الحكم غير النهائي ، والحكم مع وقف التنفيذ أو وضع المتهم تحت المراقبة ، حوالى نهاية القرن ، أهم من تلك الإجراءات . وبوحي من المثال الذى ضربه توماس موت أوسبورن ، طُهر بعض من أسوأ السجون ، وشُنت حملة لا هوادة فيها على تقييد المجموعات من المسجونين بسلسلة واحدة ، وتأجير العمال المسجونين ، كما كان شائعاً في الجنوب على نطاق واسع . كذلك أقيمت محاكم خاصة للخارجين على القانون من الأطفال ، وقد اجتذب القاضى بن ليندساي — الذى رأس محكمة دنيفر للأحداث ، بولاية كلورادو ، حوالى ربع قرن — انتباه الأمة كلها بتوفيقه في تخفيض انحراف الأحداث . غير أن الحملة ضد عقوبة الإعدام أخفقت .

وكانت الحانة من الأسباب الجلية للجريمة والفقر ، في ظن الناس ، فشهدت تلك الأعوام هجوماً جماعياً على « شيطان الخمر » ، انتهى آخر الأمر بتحريمها على نطاق الأمة كلها . وترجع أصول حركة الحد من الخمر إلى الأعوام الأولى للجمهورية ، وقبل الحرب الأهلية وقع آلاف من الرجال التعاهد على الامتناع عنها كما جربت عدة ولايات في نيوإنجلاند تحريمها قانونياً . غير أن السنوات التى أعقبت الحرب اقترنت بازدياد في استهلاك الجعة (البيرة) والكحول المقطر ، وتكاثر الحانات في المدن . ولم يحن عام ١٩٠٠ ، حتى كان في مدن مثل نيويورك ، وبنسالا ، وسان فرانسيسكو حانة لكل مائة من السكان . ولم يكن بعضها سوى « منتدى للرجل الفقير » ، بيد أن كثيراً منها كانت

عصر الإصلاح ٣٩٧

تسير في غير مراعاة البتة للامتناع ، أو حتى الاعتدال في تعاطي الخمر . وتجهلت قوانين إغلاق المشارب في أيام الأحد ، وشاع التهرب من دفع الرسوم العالية للحصول على ترخيص بتقديم الخمر ، ودخلت صناعة التقطير في تحالف للإفساد مع أسوأ العناصر في السياسة والمجتمع .

وللتصدي لهذه الأحوال ، هبط إلى الميدان في سنة ١٨٦٩ حزب يدعو لتحريم الخمر ، بيد أنه لم يكن ذا أثر . وكانت بعض منظمات مثل اتحاد النساء المسيحيات لمنع تعاطي الخمر ، ورابطة مناهضة الحانات ، والكنائس الإنجيلية لا سيما المنهجية منها ، أكثر مفعولاً من الحزب . فهي لم تكتف بإثارة الخواطر سياسياً ، وإنما شنت حملة دعائية متواصلة ، في الصحافة والكنائس وقاعات المحاضرات والمدارس . وقد ظل القائد المناضل لقوات التحريم سنوات عديدة فرانسيس ويلارد الذي نقل القتال إلى موطن العدو ، بأن كان يقود السيدات الداعيات إلى الامتناع عن الخمر إلى الحانات ، حيث كن يشدن المزامير ، ويركعن مصليات .

ولم تحن نهاية القرن حتى كانت هذه الأساليب قد ظهرت سبع ولايات كلها ريفية ، من الخمر ، وقدمت « بديلاً محلياً » لولايات كثيرة أخرى . وفي السنوات الأولى من القرن الجديد ، قطعت حركة التحريم شوطاً طويلاً ، فلم تحن الحرب العالمية الأولى ، حتى كان ثلثا سكان الولايات المتحدة خاضعين لقوانين تحريم الخمر . فلم تتمرد عليها سوى المدن . ولا سبيل للجزم بأن أنصار التحريم كانوا قادرين على مواصلة المارك في الأوقات العادية ، ولكن المؤكد أن الحرب العالمية ساعدتهم . ففي بداية الحرب ، حرم الكونجرس صنع أو بيع المشروبات المسكرة ، لأسباب تتعلق بالاقتصاد والكفاءة والأخلاق ، وقبل أن ينتهي أجل سريان هذا القانون ، كان التحريم قد أدرج في الدستور الاتحادي . وظل النص قائماً أكثر من عقد من الزمن ، ثم أخفقت « التجربة السامية » . وفي سنة ١٩٣٣ ألغى القانون ، وعادت المشكلة إلى الولايات لتتولاها .

الولايات ترشد إلى الطريق السليم

يشير تاريخ كل هذه الحركات الإصلاحية إلى مغزى لا يخطئه متأمل : أنه ما كان بوسع

الأفراد والهيئات الخاصة أن تحقق شيئاً يذكر بدون مسالك تشريعية . فقد قررت جوزفين شولويل منشئة جمعية المؤسسة الخيرية بنيويورك ، والعضو العاملة في كثير من المنشآت الخيرية ، أن تنسحب منها جميعاً ، إذ ثببت عزيمتها تجاربها في هيئات البر الخاصة . وقد عللت ذلك بقولها : « أرى أن هناك أعمالاً أهم من ذلك بكثير ، يجب أن تؤدي للعمال . فإن خمسمائة ألف من الأجراء المتكسبين في هذه المدينة ، بينهم ٢٠٠ ٠٠٠ امرأة منهن ٧٥ ٠٠٠ يعملن وسط ظروف مروعة ، أولقاء أجور لا تقيم الأود . هؤلاء أهم من ٢٥ ٠٠٠ عالة على المجتمع . . فلو أن العاملين أوتوا كل ما ينبغي أن يؤتوه ، لما كان لدينا معوزون ولا مجرمون . وأن تنقذهم قبل أن يتردوا أفضل من أن تقضى عمرك في انتشالهم عندما يصبحون مشرفين على الغرق ، ثم تعنى بهم بعد ذلك » .

ومن الجلى أن العمل الخيري كان مجرد علاج مسكن ، حتى إن أكثر العاملين في ميدان الإصلاح الاجتماعي — لعدم اطمئنانهم إلى العمل السياسي — كانوا ينتهون في مطافهم عادة إلى قاعات الهيئة التشريعية ، باسطين أيديهم يطلبون العون . كان تطهير الأحياء الفقيرة ، وإصلاح السجون ، وتعويض العمال ، وصيانة الموارد الطبيعية وإنقاذ الأطفال ، وتحريم الخمر . . كل هذه كانت تتطلب نشاطاً تشريعياً . وإذا كانت الحاجة تدعو لمزيد من الإصلاحات الجوهرية ، فكان لابد لهذه أيضاً أن تأتي عن طريق الولايات .

ذلك أن المعارك الكبرى الأولى لحركة الإصلاح دارت في الولايات ، وقد استمرت الولايات ميادين كفاح من أجل الإصلاح ، حتى بعد تحويل كثير من المسائل إلى الحلقة القومية . فلسنا بحاجة إلى أن نكرر أكثر مما ينبغي ، أنه كان من المسلم به ، وفقاً للنظام الدستوري الأمريكي ، أن يكون للدولة السلطان التشريعي على كافة المسائل ذات الطابع الاجتماعي . فساعات العمل وأجور العمال ، وظروف العمل في المصنع ، ورفاهية النساء والأطفال والسجون ، وإصلاح المدارس والمؤسسات الخيرية ، والتعليم ، وحق الانتخاب للمرأة ، والحكم المحلي في المدن . . كل هذه الأمور كانت من اختصاص الولاية ، وليست من شؤون الاتحاد . ولقد بدل البرنامج الجديد هذا كله حقاً ، غير أنه كان لابد من كارثة قومية لتبرير هذا التغيير ، وكان لابد من حكومة جريئة لتحاول الإقدام عليه ، وألا يتحقق إلا بتخطي المقاومة العنيدة من المحكمة العليا .

٣٩٩ عصر الإصلاح

ومن ثم كانت الولايات هي معامل التجارب للإصلاح . ففيها جربت أولاً معظم الإصلاحات القومية التي حققت بعد ذلك ، وفيها أبرزت الإصلاحات وجودها من حيث المبدأ ، وعدم كفايتها من حيث التطبيق . كذلك كانت الولايات مدارس التدريب للمصلحين الذين قاموا بعد ذلك بأدوار على النطاق القومى . فلقد درس ثيودور روزفلت في مدينة نيويورك ثم في ألبانى قبل أن يمضى في طريقه إلى واشنطن ، وتعلم لا فوليت اقتصاديات السكك الحديدية وتنظيم الترسى في ويسكونسين قبل أن يحاول تطبيقها على نطاق الأمة ، واكتسب ويلسن سمته كمتحرر (ليبرالى) وهو حاكم لنيو جيرسى ، قبل أن يثبت جدارته بها وهو رئيس للولايات المتحدة ، وكذلك قضى تشارلز إيفانز هيويز ، وجورج نوريس ، وفرانكلين دى . روزفلت جميعاً ، فترات دراسة وتدريب في ولاياتهم .

فماذا كانت طبيعة الإصلاحات التي حققتها الولايات ؟ كان الكثير منها يتعلق بتحقيق ديمقراطية الجهاز السياسى : حق الناخبين في المبادرة باقتراح القوانين والاستفتاء الشعبى ، والاقتراع السرى ، والانتخاب الأولى المباشر ، والانتخاب المباشر لأعضاء مجلس الشيوخ القومى ، وقوانين مناهضة أعمال الفساد ، وتوفير الحكم المحلى ، وحق الانتخاب للمرأة . وكانت هناك إصلاحات موجهة نحو غايات اقتصادية : السكك الحديدية وتنظيم الترسى ، ولجان الإشراف على المرافق العامة ، والإصلاحات الضريبية ، ولوائح تحديد ساعات وظروف العمل ، وتعويض العمال ، وتحريم تشغيل الأطفال . ثم كانت هناك إصلاحات ذات صبغة اجتماعية أوسع : إصلاحات التعليم ، وبرامج الصحة العامة ، وصيانة الموارد الطبيعية .

وكانت المشكلة العاجلة هي مراقبة الحكومات . كان من المفيد التساؤل عن أيهما أشد فساداً ، حكومات الولايات أو الحكومات المحلية . كان مجال الفساد متسعاً في كل مكان ، ومغرياً ، وتكاد ثماره أن تكون بلا حدود . كان في سلطة المجالس التشريعية ومجالس المدن منح امتيازات كبيرة القيمة للمرافق العامة ، وتحديد أجور السكك الحديدية والمرافق ، والإشراف على أعمال التأمين ، وتقدير الضرائب وتحصيلها ، ومنح عقود عظيمة الربح لإنشاء الطرق العامة ، وسلطة حماية الخانات أو القضاء عليها . وكلها أمور تتعلق بمئات الملايين من الدولارات ، ودوائر الأعمال على استعداد لأن تجزّل العطاء من أجل المحاباة ، أو الإعفاءات ، أو الحماية . ولم يكن ذلك في شكل رشاوى

٤٠٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

صريحة في كل الأوقات ، فربما اتخذت شكل تأييد سياسى ، أو اكتتابات للحملات السياسية ، أو عقود دسمة لأقارب أعضاء الهيئة التشريعية المرغوب إرضائهم ، أو عمليات قانونية مربحة للمحامين الناشئين . ومهما يكن الشكل ، فلإنها كانت دائماً قوية المفعول ، كما تبين المصلحون في جزع لما تردت إليه الأمور .

ولقد قامت هيئة قضائية كبرى بتحرى الأحوال في ولاية ميسورى ، عند نهاية القرن التاسع عشر ، فخرجت بأنه « لائنتى عشرة سنة . . كان الفساد هو الأمر المعتاد والمقبول في تشريع الولاية ، ودون ما تدخل أو عائق كذلك » . وهذا الحكم كان ينطبق بنفس الصدق ، في فترات متفاوتة ، على كل ولاية في الاتحاد تقريباً . فلقد كان أعضاء الهيئات التشريعية على استعداد لبيع ذمهم لمن يدفع الثمن الأعلى ، من نيو هامبشاير إلى كاليفورنيا ، ومن نيو مكسيكو إلى مونتانا . كان للشركات الكبيرة في كل مكان عملاؤها للتأثير على أعضاء الهيئات التشريعية بالرشوة غير المتوارية ، أو بالابتزاز إذا ما أخفقت . ففي ولاية نيو هامبشاير ، في الشرق ، كانت السيادة العليا للسكك الحديدية ، كما ينبتنا وينستون تشيرشل^(١) في روايته « كونيستون » « وصحيفة عمل مستر كرو » ، ولشركة سوزرن باسيفك في رواية فرانك نوريس « الأخطبوط » ، وهى رواية عن كاليفورنيا أحدثت دويماً قوياً ، وأفسد ملوك النحاس ولاية مونتانا ، واشترت شركات السكك الحديدية والتأمين ذمم الهيئة التشريعية لولاية نيويورك . حتى ولاية نيو مكسيكو الصغيرة ، القائمة في منطقة الحدود ، سيطر عليها تماماً تحالف غير شريف بين شركتين أو ثلاث للسكك الحديدية ، وشركات مناجم الفحم والنحاس ، وشركات الاتجار في الأخشاب والأرض وأصحاب مزارع تربية الماشية الكبرى ، فاستحوذت شركات الفحم على آلاف الدونمات من أراضى الثروة المعدنية الثمينة ، ونهبت شركات الأخشاب الغابات القومية ، وأطلق أصحاب مزارع تربية الماشية آلافاً من مواشيهم وأغنامهم للرعى في الأراضى العامة ، وداست السكك الحديدية والمناجم قوانين العمل ، وتهربت جميعاً من الضرائب .

ومن التكرار المشوش للذهن أن نحاول عرض تفصيلات الحرب على الفساد ، أو تتبع ظهور الإصلاحات السياسية في مختلف الولايات . فتاريخ ولاية واحدة يرسم لنا

(١) كاتب روائى أمريكى ، وهو غير وينستون تشيرشل الزعيم السياسى البريطانى — المترجم .

٤٠١ عصر الإصلاح

صورة — وإن شابها شيء من التفاؤل — ما كان يجرى في كافة أرجاء الاتحاد . فقد كانت ولاية ويسكونسين في الثمانينات من القرن التاسع عشر ولاية مزدهرة ، مستنيرة ، ولكن حكومتها كانت في أيدي ثلاثة من الشخصيات ذات السيطرة : بوس كيز المليونير المهيمن على صناعة الأخشاب ، وفيليتس سوير محامى السكك الحديدية ، وجون سبونز الذى تسلط على الشؤون السياسية للولاية عن طريق المؤتمر الحزبى لاختيار المرشحين . وفي هذا يقول فريدريك سى . هاو إن الولاية بأسرها . .

كانت إقطاعية لمصالح السكك الحديدية والأخشاب والشؤون الانتخابية ، وكانت بالتعاون مع جهاز أصحاب المناصب الاتحادية ، ترشح وتنتخب المحافظين ، وشيوخ ونواب كونجرس الولايات المتحدة ، فكان هؤلاء بدورهم يستخدمون كل سلطانهم لإثراء الذين صنعوهم . وكانت سلطات الاتحاد والولاية في الرعاية والمحسوبة تستغل للغايات عينها . فكانت دورة الهيئة التشريعية — التى تمتد عامين — برنامجاً ترفيهياً لمصالح نفر قليل . كانت السياسة حرفة ذات امتيازات ، لا يدخلها ذوو الطموح إلا إذا رضى عنهم جهاز حكم الولاية . وما أقل من كانوا يعتقدون أن من الممكن انتهاز أساليب أخرى ، وما من أحد تحدى قاعدة الأوليغاركية التى كانت توزع المناصب الانتخابية والتعيينية على السواء للحفاظ على سلطانها السياسى والصناعى . لم يكن ثمة احتجاج منظم . وكانت الصحافة إما غير مبالية وإما خاضعة للسلطان .

كان روبرت إم . لا فوليت شاباً حديث عهد بالتخرج من جامعة الولاية ، عندما هزته تيارات الإصلاح التى اجتاحت ولايات البرارى في الثمانينات من القرن التاسع عشر ، فقرر أن يسهم فيها . وبدون تأييد الجهاز المسيطر على الأمور ، كافح حتى وصل إلى الكونجرس ، وأثبت في أربع مدد انتخابية متعاقبة أنه أهل للثقة التى أخذ عامة الناس يكتونها له . وإذ هزم لا فوليت في موجة الفوز الساحق الذى ظفر به الحزب الديمقراطى في سنة ١٨٩٠ ، تحول إلى الشؤون السياسية للولاية . وكان الشعب معه ، ولكن أصحاب النفوذ لم يكونوا يريدونه ، فخذلته مؤتمرات حزبية متعاقبة تسلط عليها أصحاب النفوذ ، لتختار مرشحين أكثر منه انصياعاً . وتعلم لا فوليت من هذه التجربة ضرورة إلغاء نظام المؤتمرات الحزبية للترشيح ، وإدخال نظام الانتخاب المباشر في الدرجة الأولى .

٤٠٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

أخيراً ، فرض روبرت المكافح على مؤتمر متقاعس ترشيحه في سنة ١٩٠٠ ، وفاز فوزاً هائلاً بمنصب الحاكم ، وظل طيلة ربع القرن التالى ، الذى تخللته فترة حرب وجيزة ، مسيطراً هو وأتباعه على الولاية ، فجعلوها أكثر ولايات الاتحاد ديمقراطية وتقدمية ، وأحسنها حكماً . لم تكن « فكرة ويسكونسين المثلث » ، كما صاغها لا فوليت وطبقها في السنوات العشر أو الاثنتى عشرة الأولى من القرن مجرد خطة مثالية خيالية ، بل كانت برنامجاً عملياً مترابطاً . فقد أنمت الديمقراطية عن طريق انتخابات الدرجة الأولى المباشرة ، وحق الناخبين في المبادرة باقتراح القوانين ، والاستفتاء الشعبى ، وإقالة جميع أصحاب المناصب التى تملأ بالانتخاب عدا القضائى منها بالتصويت الشعبى ، وتحريم الأساليب الانتخابية الفاسدة ، ونشر نفقات الحملات الانتخابية والحد منها ، والحكم المحلى ، وإصلاح الخدمة المدنية (الوظائف) ، وإقامة هيئات من الخبراء لتقديم المشورة للسلطة الإدارية . ولحماية مواطنى الولاية من الاستغلال الذى تمارسه الشركات ، أقام لا فوليت لجناً لتنظيم لوائح أجور السكك الحديدية وغيرها من المرافق العامة ، وأجبر السكك الحديدية وشركات الأخشاب الكبيرة على دفع نصيبها الكامل من الضرائب والأداء الرجعى للضرائب التى هربت منها ، وسن القوانين بضريبة دخل تؤدى للولاية ، وبالتأمين لدى الولاية على ودائع المدخرات المصرفية . ولصيانة حقوق القوى العاملة كانت ثمة قوانين لتعويض العمال ، وتحريم تشغيل الأطفال ، والحد من ساعات العمل للمرأة . وحظيت الزراعة بتشجيع بفضل تخفيض معدلات أجور السكك الحديدية ، وبرنامج بعيد المدى لصيانة الموارد الطبيعية والطاقة المائية ، وتدعيم قوى لمحطات التجارب والمزارع النموذجية المرتبطة بجامعة الولاية .

ولم يكن ثمة ما هو أدمى للاهتمام من الطريقة التى جعل لا فوليت بها الجامعة المركز العصبى للولاية . ولقد جلب رئيس الجامعة فان هايز - وهو عالم مرموق - إلى المدرسة القائمة على ضفاف بحيرة مندوتا أكفأ هيئة للتدريس كان من الممكن أن توجد فى أى معهد للتعليم العالى فى العالم . وأهم من هذا أنه أرسى الفكرة القائلة بأن وظيفة الجامعة هى خدمة أهل الولاية . فعمل علماء الاقتصاد التابعون لها فى اللجان التى تولت تنظيم السكك الحديدية والضرائب . ووضع علماء السياسة مسودات مشروعات القوانين ، ونسق علماء التاريخ - تاريخ الولاية ، ووضع مهندسوها برامج إنشاء الطرق ، وعلمت مدرسة الزراعة الفلاحين العاملين تهجين الحيوان ، وقامت باستطلاعات وفرت على

٤٠٣ عصر الإصلاح

مزارعى الولاية - والأمة كلها - مئات الملايين من الدولارات ، وكانت العامل الأول فى جعل ويسكونسين دانمرك الدنيا الجديدة . كانت هذه تجربة فى التقدمية العلمية أثارت اهتمام الأمة كلها . فقد أثبت لا فوليت أنه ليس من المحتوم أن يقوم الإصلاح على نظريات ومذاهب ، وأن فى وسع المتفكرين والعلماء أن يسهموا فى المسائل العملية ، وأظهر كيف استطاعت ولاية إخضاع المرافق العامة للوائح تنظيمية دون أن تثير على نفسها الاتهام بالاشتراكية ، وكيف تسنى لهذا التنظيم المقتن أن يكون مصدر ربح للمرافق وللجمهور معاً . كما أنه كشف إمكانات أن تكون أية ولاية معملًا للتجارب السياسية ، وأرشد الأمة بأسرها ، لا الولايات الأخرى فحسب ، إلى الطريق الصحيح .

ثيودور روزفلت والإنصاف

كان ما أنجزته ولايات مثل ويسكونسين مدعاة للإعجاب ، إذ كان من الجلى أن معظم المشكلات التى انصرف المصلحون إليها ليست مما يمكن حله فى الأقسام المعزولة فى النظام الاتحادى . ولا سبيل لأن تكون الإصلاحات ذات فعالية إلا إذا انعكس إشعاعها على نطاق قومى ، وإلا إذا كانت الحكومة القومية قوية النفوذ بدرجة تكفل نجاحها . وكان الكونجرس قد سن من قبل فعلاً بعض قوانين ذات طبيعة تقدمية معتدلة : قانون بندلتون للخدمة المدنية سنة ١٨٨٣ ، وقانون التجارة بين الولايات سنة ١٨٨٧ ، وقانون مناهضة الترسى سنة ١٨٩٠ ، وقانون إردمان للتحكيم فى منازعات العمال المتعلقة بالسكك الحديدية ١٨٩٨ . بيد أن هذه القوانين وما شابهها كانت غير فعالة إلى حد كبير ، لسببين : أنها كانت قاصرة ، وأنها لم تنفذ بإحكام وشدة . كانت بإيجاز لمحات ، ترصيات صغيرة قدمها كونجرس متخاذل لتهدئة رأى العام .

وكانت الحكومة قد ظلت جيلاً من الزمن فى أيدي زعماء الجمهوريين إلى حد كبير ، وقد كانوا مبالغين لفلسفة حرية العمل التى كانت تسود الفترة ، فلم يكثرثوا لمعظم المطالب الاجتماعية والاقتصادية الجديدة . كانوا جميعاً ، بدون استثناء ، يولون المشروعات الكبيرة ودهم ، بينما أولوا المقاتلين القدامى فى الحرب الأهلية تشريعات

٤٠٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

تكفل لهم معاشات سخية ، وقد احتفظت جماعات الضغط والمصالح الخاصة بنفوذ مسيطر نادراً ما تصدع . ولقد كان رؤساء الجمهورية من الحزب الجمهورى جديرين بالاحترام : جرانت ، وهايز ، وجارفيلد ، وآرثر ، وهاريسون ، وماكينلى . . وكانت لهايز وجارفيلد ميول ليبرالية قوية ، ولكنهم فى مجموعهم كانوا يفتقرون إلى البصيرة وإلى الأقدام الإبداعي . وقد أوتى الرئيس الوحيد الديمقراطى فى ذلك الجيل — وهو كليفلاند — قوة شخصية ، وشجاعة لاتلين ، وبرنامجاً إصلاحياً للنفع العام . فأصلح أقسام (وزارات) السلطة التنفيذية الاتحادية ، واسترد مساحات شاسعة من الأراضى العامة من سيطرة الشركات ، وكافح قوانين نهب المعاشات وغيرها من التشريعات الخاصة ، وجدد قوى الخدمة المدنية ، بل إنه اضطر الكونجرس إلى تخفيض الرسوم الجمركية بقانون لضريبة الدخل يرتبط بها . . وهو قانون بادرت المحكمة العليا إلى الحكم بطلانه . ولكن فترة حكمه كانت متصدعة ، مليئة بالمتابع . فكانت السيطرة الحقيقية فى الولايات الصناعية الكبرى ، وفى واشنطن إلى حد ما ، فى أيدي رجال من أمثال : بلات فى نيويورك ، وكاى فى بنسلفانيا ، وحنافى أوهايو . . رجال كان مفهومهم عن فن الحكم هو خدمة الشركات المتسلطة عليهم ومكافأة أتباع حزبهم . وكان معظم رجال الكونجرس فى هذا الجيل من ماجورى الحزب ، فكانوا يملأون مضبطة الكونجرس بخطبهم ، ويزينون منصات المساجلات ، باصطفافهم وهم يرتدون الفراك والقبعات الغالية ، غير أنه من العسير على الأمريكى العادى أن يتذكر قانوناً واحداً أجازوه وأحدث تغييراً محسوساً فى مجرى تاريخ الأمة .

ولقد بعث قوى الإصلاح الزراعى بقيادة ويفر ثم بريان ، خوفاً حقيقياً فى نفوس الجناح المحافظ فى كل من الحزبين ، وأخذ تضخم دواعى التمرد فى كثير من الولايات يشير إلى أنه لا سبيل إلى إرجاء الإصلاح وقتاً أطول . ثم قامت الحرب الإسبانية ، فنسى القوم الإصلاح مؤقتاً . ولقد دارت الحملة الانتخابية فى عام ١٩٠٠ ، حول موضوع الاستعمار غير الواقعى ، واستطاع ماكينلى أن يناصر جانبى الموضوع معاً ، لا بفضل الحذق بقدر ما كان بفضل اضطراب الآراء ، فظفر بإعادة انتخابه رئيساً للجمهورية ، بينما خذل بريان للمرة الثانية . وإذا كان الرخاء فى أوجه ، فقد بدا أن البلاد مقبلة على تجربة طويلة أخرى لفلسفة الرضى بالوضع الراهن .

ثم أطلق أحد الفوضويين الرصاص على ماكينلى فى ٦ ديسمبر سنة ١٩٠١ ، وبموته

٤٠٥ عصر الإصلاح

بعد أسبوع ، تغيرت صورة السياسة الأمريكية بأكملها . إذ وجدت البلاد في ثيودور روزفلت — الذى ارتقى لكرسى الرئاسة بفضل المأساة — قائداً ذا نشاط متحفز وقوة نفوذ رائعين ، كما وجدت الحركة التقدمية فيه زعيماً قومياً . كان روزفلت قد ولد وسط الثراء ، وترعرع بين موسرين من أهل الولايات الشرقية ، وتعلم في هارفارد . ومع ذلك كان ديمقراطياً عميق الديمقراطية ، ذا اهتمام متحمس حار بالإصلاح . وكان في الوقت ذاته سياسياً واقعياً ، وقومياً متوقد المشاعر ، وجمهورياً مخلصاً لحزبه . وكان أكثر الرؤساء الأمريكيين — بعد جيفرسون — انطلاقةً وتشعباً في جهوده ، وإن لم يناهز جيفرسون تماماً في عمق التفكير أو وحدة الذهن ، ولا أوتى مثاليته الفلسفية ولا بصيرته وسعة أفقه . كان قد مارس تربية الماشية ، واصطيد الوحوش ، وألف عديداً من الكتب ، وقضى فترات في السلطة التشريعية لولاية نيويورك ، وتولى إدارة شرطة مدينة نيويورك ، وساعد على تنظيم الخدمة المدنية للحكومة الاتحادية ، ورأس إدارة الأسطول ، وقاد الفرسان غير النظاميين في كوبا ، وأثبت أنه حاكم من الدرجة الأولى حين تولى منصب الحاكم . وكان نهماً في القراءة ، يهتم بكل امرئ ، وله آراء في كل شيء . وكان يشغف بصياغة العبارات التي لا تنسى ، وقد جعله صدق إخلاصه ، ودأبه ، وروعة نظره داعية قوى التأثير ، لا يضاهية أحد ، في الاستقامة في خدمة الوطن . إذ أوتى — على غرار أندرو جاكسون — موهبة فذة لاكتساب ثقة الإنسان العادى ، وإسباغ مظهر الإثارة والشعور المفعم على معاركه . كذلك كان يعتقد مثل جاكسون أن الرئيس أوثق صلة بالشعب وأقرب إليه من الكونجرس ، وأن اتقان قيادة السلطة التنفيذية أمر لا غنى عنه لتنفيذ الأمور . ولكنه لم يكن مثل جاكسون في عدم الاطمئنان الذى يداخل الخبير بجهاز الخدمة المدنية .

ولم ينقض عام حتى كان روزفلت قد أثبت أنه كان على فهم بالتغيرات الكبيرة التي هبت على أمريكا ، وأنه كان يعتزم أن يفعل الكثير لإزاءها ببراعة رجل الحكم الذى يحذق فنه . وما كان روزفلت متطرفاً (راديكالياً) ، ولكنه كان محافظاً مستنيراً ، فهو لم يشأ إحداث ثورة في النظام الاقتصادى القائم ، وإنما كان يتغنى إنفاذه باجتثاث العيوب التي تسلبت إليه . كان معقود العزم على التجارة والصناعة ، وأن يمنح الإنسان العادى مزيداً من الإنصاف .

ولقد استغل روزفلت ، في هذه الغايات ، الشعور العام المتولد عن حركة الحزب

٤٠٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

الشعبي ، وعن قوة الدفع التقدمية من الولايات والمدن ، وعن عصبة جريئة من « كاشفى الفضائح » ، الذين كانت كتبهم ومقالاتهم فى الصحف تفضح الكسب غير المشروع والفساد ، وسوء تصرفات الشركات والمشروعات ، و« البشر الاجتماعى » ، وقمع الأقليات العنصرية ، وكثير من الشرور الأخرى التى حاقت بالحياة الأمريكية . ولم يكن كاشفو الفضائح فى حد أنفسهم فحسب أداة للإصلاح ، بل إن الشعبية المذهلة التى اكتسبوها كانت عرضاً من أعراض نضوج الجمهور لرسالتهم .

لقد قال روزفلت : « إن النمو العظيم للاقتصاد الصناعى ، يعنى أنه لابد من وجود ازدياد فى الإشراف الذى تمارسه الحكومة على المشروعات التجارية والصناعية » . وكان قد قدم من قبل مثلاً على هذا « الازدياد فى الإشراف » إذ فرض تنفيذ قوانين مناهضة الترس . كما أن حملاته التى أشرنا إليها من قبل على تجمع شركات الأوراق المالية فى نوردرين سكيوريتيز ، وترستات النفط والتبغ ، وإنشاء مكتب الشركات كإدارة للمراقبة والإشراف اليقظين ، علمت الشركات الكبيرة أن تحترم الحكومة .

بيد أن الترسات لم تكن المصالح الوحيدة التى شعرت « بالقبضة الشديدة » . فقد كان بسط الإشراف الحكومى على السكك الحديدية من المنجزات الإيجابية لحكم روزفلت . فقد وصف روزفلت شخصياً تقنين اللوائح المنظمة للسكك الحديدية بأنه « مسألة عليا » . ووفق بالضغط المتواصل إلى إجازة مشروعين لقانونين تنظيميين كبيرين . إذ أن قانون إلكنز لسنة ١٩٠٣ جعل الأسعار المنشورة هى القياس القانونى للنقل ، وجعل الشاحنين عرضة للمساءلة كالسكك الحديدية سواء بسواء فيما يتعلق بعمليات الحسم (الخصم) . وبموجب مواده أفلحت الحكومة فى مقاضاة دور التعبئة والشحن وشركة ستاندارد أويل . وكان قانون هيرن لسنة ١٩٠٦ أهم منه ، إذ منح لجنة التجارة بين الولايات سلطة واقعية فى تنظيم لوائح أسعار النقل ، ومد اختصاص اللجنة إلى التخزين والتسهيلات فى المحطات النهائية ، وإلى مركبات النوم ، وشركات النقل السريع ، وخطوط الأنابيب ، كما أجبر شركات الطرق البرية على النزول عن مصالحها المتشابكة مع خطوط الملاحة بالبواخر وشركات الفحم . ولم تكن نهاية عهد روزفلت حتى كانت عمليات الحسم قد اختفت فعلاً ، ولم تعد أسعار السكك الحديدية مشكلة ملحة . وكان استخدام « القبضة الشديدة » فى مسائل العمالة عظيماً ، ولنتائجه المعنوية أثر كبير . فلإزاء إلحاح الرئيس أجاز الكونجرس قانون تعويض العمال من مستخدمى

٤٠٧ عصر الإصلاح

الحكومة ، وقوانين تشغيل الأطفال في منطقة كولبيا ، وتشريع أجهزة الأمن والسلامة للسكك الحديدية . كما حرص الرئيس بنفسه على تنفيذ قانون تحديد ساعات العمل اليومي بثمان في العمل الحكومي ، وقد كان موضوع استهزاء من قبل . وأروع من هذا أن تدخل روزفلت في إضراب سنة ١٩٠٢ الكبير لعمال الفحم (الأنتراسيت) . وكان اتحاد عمال المناجم ، بزعامة جون ميتشيل الفتى ، قد أفلح بعد نضال طويل في الفوز بامتيازات هامة ، فلما ألغى مديرو المناجم هذه الامتيازات ، أضرب العمال . وكان المديرون بقيادة جورج باير ، يمثل العصر الحجري في الصناعة الأمريكية ، الذي أعلن أن « حقوق ومصالح العامل لن يحميها ويرعاها مهيجو خواطر العمال ، وإنما الاتقياء الذين منحهم الرب بحكمته التي لا حدود لها السيطرة على مصالح الملكية الخاصة في البلاد » . وعندما رفضوا التحكيم ، بدا أن البلاد ستواجه الشتاء بدون وقود . وعند هذه النقطة تدخل روزفلت مهدداً بأنه سيستولى على المناجم ويديرها بوساطة الجنود إذا لم يتفق المديرون مع العمال . وكان التهديد قوى المفعول ، وظفر عمال المناجم برفع الأجور وتخفيض ساعات العمل .

ومن التشريعات الأبقى أثراً لدى الأمريكي العادى ، تشريع الأغذية والعقاقير النقية ، الذى ضم إلى مجموعة القوانين فى سنة ١٩٠٦ . فقد ظل معبثو اللحوم والأغذية وصناع الأدوية يبيعون الجمهور أطعمة مغشوشة وعقاقير خطيرة وأدوية لا تستعمل إلا بأمر الطبيب . وقد أثير سخط شعبى بفضل سلسلة من الفضائح كشف عنها الدكتور هارفى وايلى ، رئيس كيميائى وزارة الزراعة ، وما أمارط عنه الكاتب أبتون سنكلير اللثام من ظروف فى مذابح (سلخانات) أومجازر شيكاغو . واستجاب الكونجرس بأن أصدر قانون التفتيش على اللحوم ، وقانون الأغذية والعقاقير النقية ، الذى كان ذا أثر بعيد فى محو أسوأ العيوب .

وأهم منجزات روزفلت طراً فى الجبهة الداخلية ، هو صيانة الموارد الطبيعية . فلقد ظلت البلاد طويلاً منساققة لوهم الوفرة التى لا حدود لها بالنسبة لغاباتها وتربتها . ثم انتهت فى نهاية القرن التاسع عشر إلى أن ثلاثة أربع غاباتها قد تلاشت ، وأن قسماً كبيراً من ثروتها المعدنية قد تبدد ، وأن الطاقة المائية كانت تستغل للريح الخاص ، وأن التربة كانت تنمحي بفعل الفيضانات أو تتطاير بقوة العواصف الترابية . ولقد أدى حب روزفلت للطبيعة ، ودرأته بالغرب إلى اهتمام شخصى لديه بالصيانة . وقد أعلن فى أولى

٤٠٨ موجز تاريخ الولايات المتحدة

رسائله إلى الكونجرس أن « من المحتمل أن مشكلتي الغابات والماء من أهم المشكلات الداخلية للولايات المتحدة » ، وأوصى ببرنامج بعيد المدى للصيانة والاستصلاح . وقد استغل قانون سنة ١٨٩١ للحفظ على الغابات ، فاقطع حوالى ١٥٠ مليوناً من الدونومات خصصها للغابات ، وسحب من المناطق المسموح للجمهور بدخولها ٨٥ مليون دونم أخرى في ألاسكا والشمال الغربى ، بغية دراسة غاباتها وثروتها المعدنية . وفى الوقت ذاته ، وضع صيانة الغابات تحت إشراف جيفورد بينشوت المثقف الموفور الحمية . ونص قانون استصلاح الأراضى فى سنة ١٩٠٢ على إنشاء مشروعات للرى واسعة النطاق على حساب الحكومة الاتحادية وتحت إشرافها ، وسرعان ما نشط العمل بموجب مواد هذا القانون فى سد روزفلت العظيم فى أريزونا ، وسد آروروك فى إيداهو ، وسد إلفانت بت على نهر ريو جرانده . ولم يكن هذا كله سوى بداية ، فى الواقع . فقد استقرت هذه الإصلاحات كسوابق ، ويسر إيقاظ اهتمام الرأى العام إلى برنامج أوسع نطاقاً قامت به الحكومات التالية .

وفى سنة ١٩٠٨ ، كان روزفلت قد قضى فترتين فى الرئاسة ، واحدة كخليفة لماكينلى ، وواحدة بانتخابه شخصياً للرئاسة . وكان فى أوج شعبيته ، وما من شك فى أنه كان يستطيع البقاء فترة أخرى لو أنه طلب . ولكنه تردد فى التصدى لتقليد الفترة الثالثة ، وأثر بدلاً من ذلك أن ينتقى خليفة « ينفذ سياستى » . ووقع اختياره على وليم هوارد تافت القدير ، المتبحر فى العلم ، وصدق على الاختيار مؤتمر الحزب الجمهورى للترشيح أولاً ، ثم الانتخاب الشعبى بعد منافسة فاترة مع بريان .

كان تافت قاضياً للمحكمة المتنقلة ، وحاكماً عاماً للفلبين ، ووزيراً للحربية . وقد أبدى جدارة فى كافة هذه المناصب الإدارية ، ولكنه لم يكشف فى أى منها عن موهبة سياسية أوليبرالية خلقة . وكان صادق النزوع إلى مواصلة البرنامج روزفلتى ، ولم تكن منجزاته مما يمكن إغفاله . فزاد من نشاط محاكمة الترسات ، وعزز لجنة التجارة بين الولايات ، وأنشأ صندوق مدخرات بريدية ونظاماً للطرود البريدية ، وتوسع فى نظام الجدارة والأهلية فى الخدمة المدنية ، وتبنى إجازة تعديلى للدستور الاتحادى . . أحدهما نص على الانتخاب المباشر للشيوخ ، والآخر حول الرئيس فرض ضريبة على الدخل . على أنه لابد فى مقابل المنجزات التقدمية من ذكر سياسات وبواد ذات طابع رجعى . وكان أبرزها قبول تعريفه جمركية أثارت القواثم الخاصة بالحماية فيها سخط الليبراليين ،

٤٠٩ عصر الإصلاح

وفصل جيفورد بينشوت عن رئاسة مرفق الغابات ، ومعارضة دخول أريزونا الاتحاد لأن دستورهما تضمن فصل القضاة بالاقتراع الشعبى ، وازدياد الركون إلى الجناح المفرط في المحافظة في الحزب .

ولم يحن عام ١٩١٠ حتى كان تافت قد أفلح في وقوع تصدع كبير في حزبه ، وعودة الديمقراطية للسيطرة على الكونجرس بأغلبية ساحقة . وكان روزفلت في حرصه على أن يترك مجال العمل حراً لخليفته ، قد ذهب إلى أفريقيا ليصيد الأسود ، فإذا بأغنية شعبية تعبر عن آمال أتباعه :

عد يا تيدي للوطن وانفخ بوقك . .
فالغنم في المروج والبقر في الذرة .
والفتى الذى تركته ليعنى بالغنم . .
مستغرق في النوم تحت التبن .

وعاد روزفلت فعلاً ، بعد جولة في أوروبا استقبل فيها استقبال المظفرين ، فأسرع الجمهوريون الأحرار (الليبراليون) - من أمثال لا فوليت وبينشوت - إلى صب سخطهم في أذنه الواعية . ولم يكن روزفلت قد استعد بعد للعمل ، ولكن لا فوليت كان مستعداً ، فبدأ في سنة ١٩١١ حملته ليظفر بترشيح الجمهوريين إياه . وقد أثارت هذه الحملة تأييداً واسع النطاق ، دعا روزفلت إلى أن يفيد منه ، فأعلن في أوائل سنة ١٩١٢ أنه ينزل إلى الحلبة . وتبع ذلك حملة حامية بين روزفلت وتافت . كسب فيها الأول كل التأييد الشعبى ، وكسب الثانى معظم الوفود . وفي مؤتمر الحزب الانتخابى في شيكاغو ، فإذا جهاز الضغط الداهم يسحق مؤيدى تيودور روزفلت ذوى الدعاية الصاخبة ويؤثر تافت بالترشيح . ولقد طعن روزفلت في هذا العمل ووصفه بأنه « سرقة صريحة » ، ووعد بأن يدخل المعركة بقائمة مستقلة . وبعد أسابيع قلائل ، اجتمع عشرون ألفاً من أتباعه المتحمسين في شيكاغو ، وكونوا الحزب التقدمى ورشحوا زعيمهم المحبوب عنه .

وكان الديمقراطيون يراقبون هذا كله بتحمس طاغ . فقد ظلوا سنوات عديدة يهيمون مع بريان في البيداء السياسية ، فإذا بهم في الحال يلمحون ومضة من أرض

٤١٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

الميعاد . كان التنافس على الترشيح لرئاسة الجمهورية حاداً في معسكرهم . فقد احتشد المحافظون وراء مناضل قديم هو تشامب كلارك من ميسورى ، وكان رئيساً لمجلس النواب . أما الليبراليون فنادوا بعضو جديد وأولوه أصواتهم ، هو وودرو ويلسن حاكم نيوجيرسى . وفى النهاية ، كان بريان هو الذى حسم الاختيار . . بريان المسكين الذى لم يتمكن قط من أن يظفر برئاسة الجمهورية لنفسه ، ولكنه فى أروع لحظات تاريخه ، ألقى بكل طاقة تأييده فى صف وودرو ويلسن . وهكذا كفّل الترشيح ، الذى كان معادلاً - فى انتخابات سنة ١٩١٢ - للانتخاب نفسه للرئاسة .



الفصل ١٩

الارتقاء إلى مركز دولة عالمية كبرى

قوى وآفاق جديدة

عندما نتأمل تاريخ أمريكا السياسى فى الجيل الذى أعقب الحرب الأهلية ، فإننا نصادف أيضاً من الأحداث المثيرة : إعادة التنظيم ، حركة التعاونيات الزراعية ، القضاء على نظام النهب ، معارك التعريفية الجمركية ، انتشار حركة الحزب الشعبى ، قيام الحركة التقدمية . وعندما نتأمل التاريخ الصناعى ، نصادف مرحلة لا تقل ازدحاماً بالأحداث عن هذه : شبكات السكك الحديدية المتسلطة ، نمو الترسنات ، مولد الصناعات الضخمة الجديدة ، أعمال الأقطاب من أمثال روكفلر ، وكارنيجى ، ومورجان ، وهيل . وعلى النقيض من هذا ، فإن سجل العلاقات الخارجية هزيل . فلا يوجد سوى حدثين أو ثلاثة ذات أهمية ، تضىفى لونا على السنوات التى مرت بين الجلاء الفرنسى عن المكسيك تحت الضغط الأمريكى فى سنة ١٨٦٧ ، وغرق السفينة مين ، أمام ساحل هافانا فى سنة ١٨٩٨ . حتى ليتمكن القول بأن أى عضوفى الكونجرس ذا أفق محدود ، كان خليقاً بأن يصيح متذمراً : ما شأننا بالخارج ؟ .

على أن المجال كان أهم مما تراءى ، بسبب حقائق ملحة معينة أخذت تبرز . .

٤١٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

حقائق تعنى كل أمريكى بصفة مباشرة . كانت الولايات المتحدة فى طريقها إلى أن تكون دولة عالمية كبرى ، ذات مصلحة كبيرة فى سلام وهدوء ورخاء أسرة الدول التى تزداد تكافلاً واعتماداً بعضها على بعض باطراد . كذلك كانت تزداد شعوراً بوجود صلة خاصة لها ببريطانيا العظمى . ولما كان مبدأ مونرو ، والتوسع التجارى ، — بعد سنة ١٨٩٩ — سياسة الباب المفتوح فى شرق العالم ، تتطلب جميعاً محيطاً تسيطر عليه دول كبرى محبة للحرية ، ونظراً للروابط الطبيعية بين الشركات التجارية والصناعية وخير عملائها ، ولوجود مصلحة مشتركة فى تعزيز الديمقراطية ، فإن الولايات المتحدة اتجهت إلى إنشاء ترابط أوثق بالإمبراطورية البريطانية . وفى الوقت ذاته ، اتخذت الولايات المتحدة مسلكاً ينطوى على حماية أشد نحو أمريكا اللاتينية . ولما كانت السلع المصنوعة والمواد الأولية تتطلب منافذ ، فقد أولت تنمية الأسواق الخارجية مزيداً من الاهتمام . ولأسباب تجارية واستراتيجية من ناحية ، ولدوافع مثالية من ناحية أخرى ، ولزهوة القوة والسلطان من ناحية ثالثة ، تحولت إلى توسع هائل فيما وراء البحار .

ولقد بدأت الولايات المتحدة تكشف عن إدراك لمركزها كدولة كبرى فى العالم ، قبل الحرب الأمريكية الإسبانية بأمد طويل . فشرعت تنشئ أسطولاً بحرياً حديثاً ، قوياً ، فى عهدى الرئيسين آرثر وكليفلاند ، فلم يحن عام ١٨٩٠ حتى كان « الأسطول الأبيض » موضع اعتزاز قومى بالغ . ولقد كان مجموع صادرات الولايات المتحدة ، حوالى سنة ١٨٨٠ ، يتجاوز ٨٣٥ مليوناً من الدولارات بقليل ، فإذا به بعد عشرين سنة يناهز ١٤٠٠ مليون دولار . ولا تملك أية أمة تصدر هذا القدر إلى الخارج سوى أن تهتم اهتماماً حياً قوياً بالشؤون الخارجية . ولقد مضت فترة بعد الحرب الأهلية لاح فيها أن حمى الرغبة القديمة فى التوسع قد تلاشت تماماً . وشعر معظم المواطنين ، بعد شراء ألاسكا فى سنة ١٨٦٧ ، بأن العلم الأمريكى كان يرفرف على مساحة أكثر من كافية ، فقبول مجهود جرانت لضم سانتو دومينجو بخذلان ساحق فى مجلس الشيوخ . بيد أن الشعور التوسعى أعاد النمو تدريجاً . فلما حاولت ألمانيا أن تضع يدها على ساموا فى جشع ، وقفت الولايات المتحدة مع بريطانيا العظمى فى تأكيدها لحقوقها هناك فى حزم . فأقيمت حماية من الدول الكبرى الثلاث ، وعند تقسيم الجزر فى نهاية القرن التاسع عشر ، أخذت الولايات المتحدة جميع الجزر عدا أكبر جزيرتين منها ، وظفرت بمرفأ ياجو — ياجو الذى طال اشتهاؤها للحصول عليه . وفى هاواى ، كانت الولايات المتحدة

٤١٣ الارتقاء إلى مركز دولة عالمية كبرى

قد حصلت على السيطرة على صناعة استنبات قصب السكر . ثم ظفرت في سنة ١٨٨٧ بحق الانفراد باستخدام بيرل هاربور - التي تفوق قيمتها كل تقدير - كمحطة للأسطول . وكاد مجهود لتحقيق ضم هاواي أن ينجح ، بعد ذلك بستة أعوام ، لولا أن عودة كليفلاند للحكم أوقفته ، إذ رأى عن حق أن الأساليب التي استخدمت لم تكن سليمة . بيد أن جزر هاواي ظلت بعد ذلك تحت سيطرة أمريكيين مقيمين بها ، حتى سنة ١٨٩٨ حين انضوت نهائياً تحت العلم الأمريكي . وفي تلك الأثناء كانت الولايات المتحدة قد استقدمت ، في سنة ١٨٨٩ ، وفوداً من حوالى عشرين جمهورية من أمريكا الجنوبية ، لأول مؤتمر لرابطة الدول الأمريكية في واشنطن ، فكان النفوذ الأمريكي مطرد الامتداد خارج الوطن .

ومن الطبيعي أن كل المنازعات الدولية للولايات المتحدة ، في السنوات الثلاثين التي أعقبت الحرب الأهلية ، كانت مع الدولة الكبرى الوحيدة الأخرى في نصف الكرة الأرضية الغربية ، وهى بريطانيا العظمى . وكان بعضها خطيراً ، بيد أن الحقيقة تمثلت في أنها جميعاً كانت تحل بالتحكيم ، أو بالتقاضى ، وعلى وجه أدى إلى تحسن المشاعر الأنجلو- أمريكية .

وقائمة التسويات الودية حافلة . فلقد ثار عداء شديد نحو بريطانيا في الشمال أثناء الحرب الأهلية ، وكان الكثير منه غير قائم على أسس ، إذ أن الاعتراف البريطانى باشتراك الاتحاد التحالفى لولايات الجنوب في حرب كان سليماً ، وقد انتهج الأسطول البريطانى سياسة كانت في مجموعها محابية للشمال ، وقد آذرت الجماهير البريطانية لينكولن ، حتى في مناطق حليج القطن في لانكشاير ، التي أصابها أبلغ الضرر . غير أن تصرفات المؤيدين الأمريكيين للحكم البريطانى غير الودية ، والأعمال التخريبية التي قامت بها طرادات صنعت في بريطانيا أوجهزت بأسلحة بريطانية تحت علم الاتحاد التحالفى علقت بالذاكرة مثيرة للغضب . وبدا أن من المحتمل حدوث صدام مع بريطانيا لفترة بعد الحرب ، إذ راح زعماء مثل تشارلز سومنر الشديدي التطرف ، في المطالبة بتعويضات عن أضرار مغالى فيها . وشاء الحظ أن يكون في الولايات المتحدة إذ ذاك وزير من أحكم وزراء خارجيتها ، هو هاملتون فيش . وبقيادته وضعت خطة لعرض المطالبة الأمريكية بتعويض عن الأضرار التي أوقعتها المدمرة آلاباما - وغيرها من المدمرات - للتحكيم . واجتمعت في جنيف أول محكمة دولية كبيرة في الأزمنة الحديثة ،

٤١٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

وختمت النزاع كله في سنة ١٨٦٩ بمنح الولايات المتحدة ١٥ ٥٠٠ ٠٠٠ دولار ، فدفع البريطانيون هذا المبلغ المعتدل على الفور . وفي الوقت ذاته ، سوى بالتحكيم نزاع أصغر متعلق بالحدود بين الولايات المتحدة وكندا ، ومنها بضع جزائر عند الساحل الشمالى الغربى . وبعد ذلك بسنوات قلائل ، تمت تسوية نزاع على حقوق صيد الأسماك فى شمال المحيط الأطلنطى بوساطة لجنة مشتركة للتوفيق . ولقد قام فى أواخر الثمانينات من القرن التاسع عشر ، نزاع حول حق الكنديين فى المشاركة فى اصطياد عجول ألاسكا البحرية ذات الفراء ، فى بحر بيرينج . ولقد أصرت وزارة الخارجية فى عجرفة على أن هذه المياه بحر داخلى تحت السلطان الأمريكى المطلق . ومرة أخرى ، عرض النزاع على مجلس دولى ، أصدر قراره لصالح بريطانيا .

وكانت أجدر التسويات الودية بالذكر ، هى الخاصة بالنزاع حول حدود فنزويلا ، الذى نشب بدرجة مثيرة وخطرة فى الأيام الأخيرة من سنة ١٨٩٥ . وقد اتخذ هذا النزاع صدارة بين الأحداث فى فجائية مذهلة . فما أقل من كان يتصور فى أمريكا أو بريطانيا - يوم ١٦ ديسمبر سنة ١٨٩٥ - نشوب احتكاك بين الدولتين . وفى ١٧ ديسمبر ، صقع رأى العام فى الدولتين لنبا إرسال الرئيس كليفلاند رسالة إلى الكونجرس اشتملت على إنذار ضمنى بحرب ضد بريطانيا . فكيف تسنى صدور رسالة كهذه ؟

كانت ثمة حدود لم تسو من عهد بعيد بين غيانا البريطانية وفنزويلا . وقد عرضت الولايات المتحدة مراراً مساعيها الطيبة للوصول إلى البت فى أمرها . ولكن ادعاءات فنزويلا كانت مغالية بدرجة غير معقولة ، وقد رفض البريطانيون قبول التحكيم إلا بصدد المطالب المتعلقة بغرب ما يسمى خط شومبورجك ، الذى رسم قبل نصف قرن . ولقد ارتاب كثير من الأمريكيين فى أن البريطانيين كانوا يرمون إلى انتهاك أرض على حساب دولة ضعيفة . وأخيراً ، أرسلت وزارة الخارجية الأمريكية فى صيف سنة ١٨٩٥ إلى لندن ما سماه كليفلاند « مذكرة بمثابة مدفع عيار عشرين بوصة » ، إذ كانت فى الواقع اتهاماً لبريطانيا العظمى بانتهاك مبدأ مونرو ، ومطالبة برد صريح بصدد التحكيم . وقد أكدت المذكرة أن « الولايات المتحدة اليوم هى صاحبة السيادة الفعلية على هذه القارة » . وعندما وصل الرد البريطانى بعد طول تأخير ، أنكر أن للحدود موضع النزاع أى شأن بمبدأ مونرو ، وأبرز بعض أخطاء تاريخية فى المذكرة الأمريكية ، ورفض التحكيم مرة أخرى . وجن جنون كليفلاند ، فأرسل على الفور إلى الكونجرس

٤١٥ الارتقاء إلى مركز دولة عالمية كبرى

رسالة أعلن فيها وجوب إيفاد لجنة للتحقيق على جناح السرعة إلى فنزويلا لتحديد الخط الحقيقي للحدود ، فإذا ما أتمت مهمتها ، فعلى الولايات المتحدة « أن تقاوم بكل وسيلة في طاقتها » أى عدوان على الأرض المخصصة لفنزويلا .

وظل الكثيرون فترة من الزمن يخشون أسوأ التوقعات ، ووجدت العناصر الشديدة التطرف مجالاً تصول فيه وتجول . بيد أن النتائج النهائية للأحداث كانت سعيدة . فقد أبدى الشعب البريطاني وحكومته سيطرة رائعة على الأعصاب ، بينما جاءت بريقة قيصر ألمانيا لزعيم البوير كروجر في أوائل سنة ١٨٩٦ ، فحولت الانتباه إلى موضوعات أخرى . واستهجن الصحف الأمريكية القوية النفوذ ، تتقدمها « ويرلد » النيويوركية ، تصرف كليفلاند المتهور . وقامت هيئات تجارية ودينية تعارضه . وأبدت الأوساط المهنية أسى واستياء . وأعلنت جموع حاشدة على جانبي المحيط الأطلنطي أن الحرب لا تخطر ببال . وتبدلت رسائل الصداقة والثقة . وناشد ١٣٠٠ من المؤلفين البريطانيين مودة أمريكا وتفاهمها ، وطالب أكثر من ٣٥٠ عضواً بالبرلمان بالتحكيم في جميع المنازعات . وانتهى الأمر بأن وافقت بريطانيا وفنزويلا ، بفضل مساعي الولايات المتحدة الحميدة ، على التحكيم الذي لا يمس المناطق التي ظلت في حوزة كل من الطرفين لخمسین عاماً أوتريد . وأدت القضية بأسرها إلى تصفية الجوبين انجلترا وأمريكا ، وزيادة الاحترام المتبادل بينهما ، وأظهرت مدى قوة الروابط التي راحت تعمل تحت سطح السياسة .

ومن الخير أن الأمر انتهى على هذا النحو . فقد أخذ يتضح باطراد أن السياسة الخارجية للولايات المتحدة في قبضة قوى جديدة ذات نفوذ متين . كانت الجمهورية على وشك أن تقوم بدور على مسرح أوسع نطاقاً ، وكان لابد من نبذ العداء الأنجلو أمريكي ، ليحل محله وئام أنجلو أمريكي .

الحرب الأمريكية الإسبانية

شهد العقد الأخير من القرن التاسع عشر ارتفاع الشعور الاستعماري لدى معظم الدول الكبيرة . فكان تقسيم أفريقيا يجري على قدم وساق ، وبدا أن الصين كانت موشكة

على أن تتمزق إرباً لمنفعة الدول الكبرى . وكانت بعض جذور الاستعمار الحديث (الإمبريالية) اقتصادية ، إذ كان التكاثر السكاني والنظم الصناعية المتوسعة تتطلب أسواقاً جديدة . كما كانت بعضها سياسية ، لأن الدول المتزاحمة كانت تشدد دعماً في دول خارجية تتبعها . وكانت بعضها بحرية ، وقد أكدت كتب ألفريد تى . ماهان قيمة وجود سلسلة من القواعد البحرية . كذلك كانت بعضها دينية وخلقية ، إذ شعر رجال الكنائس الانجيلية أن من الواجب الدينى نشر الضوء في البلاد المظلمة ، بينما راح المصلحون يتحدثون عن رسالة الإنسان الأبيض للارتقاء بالشعوب المتخلفة . ثم إن من الأسباب ما كانت محض عاطفية ، فإن الصحف المثيرة للمشاعر أذكت ميلاً إلى المغامرة في المجالات الأجنبية . ولقد أدى فزع عام ١٨٩٣ وإعادة انتخاب كليفلاند ، المعادى للاستعمار ، في الولايات المتحدة إلى كبح روح المغالاة في التطرف الوطنى وسياسة التوسع . ولم تحن سنة ١٨٩٧ ، حتى أخذت هذه الروح في الانتعاش ، بتلاشى الكساد الاقتصادى ، وخذلان كليفلاند . وقد صادفت فرصتها عندما اشتد استفحال عصيان دموى في كوبا .

كان الحكم الإيبانى في كوبا فاسداً ، وطاغياً ، وقاسياً منذ أمد طويل . وقد استنزف عاماً بعد عام خمس الدخل السنوى للجزيرة على الأقل ، وخفض طاقتها الإنتاجية ، وأفقر أهلها . كان الإيبانيون يحتكرون الحكم في الواقع ، مؤثرين أنفسهم برواتب تثير النقمة ، ومنهمكين في نظام للسرقة المتواصلة . ففرضت على الصناعة والتجارة ضرائب لا تكاد تطاق . وأثقلت الضرائب عاتق الزراعة والتعدين ، في حين أن التعريفية الجمركية منحت الصناع والتجار الإيبانيين احتكاراً استغلوه بأن فرضوا أسعاراً لسلعهم تستنزف موارد الأهالى . ولم تكن الحياة ولا الثروات في مأمن . فكان من الممكن القبض على أى كوبي بإجراءات موجزة ورميه بالرصاص بحجة محاولة الفرار . وكانت المحاكم أدوات في أيدي الحكام الإيبانيين ، وكانت المقاضاة عادة تعنى السرقة . أما الصحافة فكانت مكبّمة . والكنيسة التى كانت في أيدي المطارنة الإيبانيين — مفسودة ، عديمة الكفاءة ، بعيدة عن التعاطف مع عامة الناس . وكان الأساقفة الرجعيون يستأثرون بقبضة خانقة على التعليم ، حتى إن الأمية كانت عامة . وكان ثمة جيش مقيم كبير العدد ، يعيش على حساب الشعب . فكان التمرد يكمن دائماً تحت السطح ، وكانت ثمة حرب عصابات مدمرة طال مداها معظم العقد الثامن

الارتقاء إلى مركز دولة عالمية كبرى ٤١٧

القرن التاسع عشر ، حتى إذا حدث كساد اقتصادى شديد فى سنة ١٨٩٥ ، زادت التعريفية الجمركية الأمريكية بالنسبة للسكر حدة ، لم تعد الجماهير التى برحت بها المعاناة تقوى على كبح سخطها ، ورفع المناضل الوطنى جوزيه مارتى علم الكفاح فسرعان ما دبت نار الثورة فى البلاد بأسرها .

وبالرغم من أن حكومتى كليفلاند وماكينلى بذلتا جهداً صادقاً فى التزام الحياد ، فقد اتضح بجلء أن أمريكا ستضطر إلى التدخل إذا طال أمد الحرب . فقد كانت الآثار الاقتصادية على الولايات المتحدة فادحة ، إذ كان خمسون مليون دولار تقريباً من الأموال الأمريكية مستثمرة فى كوبا ، كما أن التجارة مع الجزيرة قبل الثورة وصلت إلى ١٠٠ مليون دولار فى العام . وعندما استخدم الثوار الكوبيون الولايات المتحدة قاعدة تنطلق منها حملاتهم العسكرية ، اشتكت مدريد . غير أن الموقف كان متعذر العلاج ، وكان الحصار الإشبانى غير الفعال عاملاً مهماً لذلك . وتعرض المواطنون الأمريكيون فى كوبا لخسائر فى الأموال ، والحرية ، بل والأرواح ، فقدمت واشنطن احتجاجات شديدة على المعاملة التى يلقونها . وأهم من هذا كله . أن الضراوة التى أبدتها الطرفان فى الحرب ، ووحشية السياسة الإسبانية أثارنا الشعور الأمريكى أيما إثارة . وبعد إفاد فاليريانو ويلير- القدير ولكن فى غير رحمة - لسحق الثورة ، أخذ الصراع يزداد وحشية وهمجية . فعاث الطرفان فى البلاد فساداً ، وأعمالاً الذبح فى الأسرى لدى كل منهما . وأطلقا العنان للاعتداءات الغاشمة على غير المحاربين الذين لم يكن لهم حول ولا قوة . وفى خريف عام ١٨٩٦ ، حول ويلير بعض المدن الصغيرة والكبيرة إلى مناطق اعتقال ، وساق النسوة والأطفال والمسنين إلى مناطق محصورة كانوا يهلكون فيها كما يموت الذباب . فلم تحن نهاية عام ١٨٩٧ حتى كان ما يزيد على نصف سكان إقليم هافانا الذين سيقوا لمناطق الاعتقال ، وعدتهم ١٠١ ٠٠٠ نسمة ، قد ماتوا . وأورد القنصل العام الأمريكى فى تقاريره أن ٤٠٠ ٠٠٠ امرأة وطفل عزل ، فى الجزيرة بأسرها ، قد حرموا كل مورد للعيش ، وتردوا إلى مصاف الحيوانات المتوحشة ، وكانوا يُدفنون بالمثلثات يوماً من جراء الموت جوعاً أو بالحمى .

وأرسلت الحكومة الاسبانية أفواجاً كبيرة من الجنود إلى كوبا ، حتى إنه لم تحن بداية عام ١٨٩٨ إلا ولها ٢٠٠ ٠٠٠ رجل هناك . وحارلت وزارة الخارجية بها أن تكون رابطة من الدول الأوروبية الكبرى لمنع الولايات المتحدة من التدخل . ولقيت تأييداً أكيداً من

٤١٨ موجز تاريخ الولايات المتحدة

روسيا ، ومعارضة نشيطة من بريطانيا العظمى ، وبعض التشجيع من ألمانيا والنمسا والمجر وفرنسا . غير أن الفرصة لحدوى هذه المحاولة كانت قد انقضت في سنة ١٨٩٨ ، إذ أن الكونجرس كان يزداد صخباً وحدة في المطالبة بعمل حاسم . وكان الشعور مستعداً للحرب ، استجابة للحقائق الصريحة للموقف من ناحية ، ولصخب الصحافة المثيرة للعواطف بقيادة صحيفة وليم راندولف هيرست « جورنال » النيويوركية من ناحية أخرى . وكان الرئيس ماكينلى وفريق الشيوخ الممثل لمصالح المشروعات التجارية الكبرى ، والذين كانوا أقرب المستشارين إليه ، يودون تفادى نشوب صراع . بيد أن الاعتبارات السياسية ، مع إيمان بحق الإرادة الشعبية في الحكم ، جعلت لمقاومة ماكينلى للضغط حدوداً . وزاد الطين بلة ، أن الوزير المفوض الإسباني في واشنطن دوبوى دى لوميه الغبى ، يسر في شهر فبراير لصحافة هيرست أن تحصل على خطاب وصف به ماكينلى بأنه « كان من الممكن أن يصبح سياسياً ، وأنه يسعى لشراء إعجاب الجموع ، وأنه مذنب إذ يكن لإسبانيا سوء النية . وبعد أسبوع ، نسفت البارجة مين في ميناء هافانا ، وبلغت الخسائر ٢٦٠ نفساً . وسواء كان هذا من عمل إسبانيين لا يقدررون المسئولية ، أو كوبيين أرادوا الاستفزاز والتحريض ، فإن الحادث جعل الحرب أمراً لا يكاد يكون منه مفر . وبادرت الحكومة الإسبانية بتنازلات متعجلة ، في اللحظة الأخيرة . ولو أنها استغلت على وجه سليم ، لكان من المحتمل أن تقضى إلى تحرير كوبا سلمياً . غير أن ماكينلى رأى أنه لم تعد فرصة لمزيد من التأخير ، وأرسل إلى الكونجرس في ١١ أبريل رسالة حرب . وما من مراء في أنها كانت حرباً أملاها الشعب ، كما كان من الواضح أنها حرب ليس لها من داع .

وما من صراع أمريكي جلب نتائج سريعة تمثل نوعاً من المجد ، كالتى جلبتها الحرب الإسبانية الأمريكية . فقد بدأ القتال في أول مايو سنة ١ٸ٩٨ ، وانتهى في عشرة أسابيع . ولم تتخلله أية نكسة ذات قيمة . ففى عيد مايو^(١) ، انطلق ديوى في مياه خليج مانايلا الخالية من الألغام ، عند الفجر ، وأخذ يقترب من الأسطول الاسبانى مطمئناً إلى أنه يفوقه في مدى الرماية ، إلى أن أصبح على المسافة المثل ، ثم قال : « لك أن تطلق نيرانك عندما تكون مستعداً يا جريدلى » ، وقضى على مقدرة العدو دون أن

(١) May Day : عيد الربيع في كثير من بلدان العالم ، وقد أصبح عيد للعمال — المترجم .

٤١٩ الارتقاء إلى مركز دولة عالمية كبرى

يفقد رجلاً واحداً . وقد مجد هذا الحدث حق التمجيد ، فيما كتبه الشاعر الكنساسى :

كان الصباح ندياً . .

في اليوم الأول من مايو . .

وكان ديوى قائد الأسطول . .

هناك ، في خليج مانيلا

وكانت عيون الإسبانين منددة ^(١) . .

كانت أفلاكاً من سواد وزرقة . .

فهل ترانا شعرنا بخور ولين ؟ . .

لا أعتقد أننا أخلدنا للين .

وأنزل عدد من الجنود يعادل فيلقاً من الجيش إلى البر بالقرب من سانتياجو في كوبا ،
وكسب سلسلة من الاشتباكات السريعة ، وجعلوا الميناء في متناول رمايتهم . وفي تهور ،
اقتحم أسطول الأدميرال سيرفيرا الإسباني المؤلف من أربعة طرادات ، طريقه إلى خارج
خليج سانتياجو ، فإن هى إلا سويغات حتى كان ثمة صف من الهياكل المهشمة على
طول الساحل . . دون أن يخسر الأمريكيون سوى قتيل واحد . وهبط جيش الجنرال
مايلز في بورتوريكو فجاس خلالها كأنه في استعراض في يوم عيد . وقد كتب مستردولى
يصف غزو الجزيرة بأنه « النهضة الخلوية الفخمة التى قام بها الجنرال مايلز ، وجولة في
بورتوريكو في ضوء القمر » .

ولقد تقبل الشعب الأمريكى الحرب بروح وطنية راضية . فكانت كل فرقة موسيقية
تعزف لحن سوسا الحديد « النجوم والأشرطة إلى الأبد » ، وكل بيانو يعزف لحن
الراجتايم ^(٢) العسكرى : « سيسود البلدة العتيدة الليلة جو صاخب » . وتنوسيت
الحزازات الحزبية ، حتى إن بريان تولى منصب ضابط برتبة كولونيل في فرقة من

(١) Dewey : اسم القائد البحرى جورج ديوى ، وهو شبيه في النطق بكلمة Dewy أى ندى أو مندى ، وبكلمة Dew بمعنى اللين والتراجع عن الشدد . ومن هنا نفهم بلاغة الشاعر في التلاعب باللفظ الذى شاء القدر أن يتيحه اسم الاميرال ديوى - المترجم .

(٢) الراجتايم . نوع من الموسيقى الأمريكية مأخوذ عن أصل زنجى - المترجم .

نبراسكا . وانصهرت في نار الشعور القومي آخر آثار العداء الذي قام بين الشمال والجنوب من مدة الحرب الأهلية ، حتى إن جو هويلر القائد الشهير لفرسان الاتحاد التحالفى الجنوبى ، صاح وهو يقاتل أمام سانتياجو ، أن معركة واحدة من أجل العلم الأمريكى تستحق خمسة عشر عاماً من العمر . وانطلقت الصافرات من بوسطن حتى سان فرانسيسكو ، ورفعت الأعلام ، فى اليوم القاطئ من شهر يوليو ، الذى وصل فيه نبأ سقوط سانتياجو . ودفعت الصحف بمراسليها إلى كوبا والفلبين ليشهدوا الأحداث البهيجة ، وقد أذاع هؤلاء ذكر عدد من الأبطال القوميين الجدد . فهناك « بوب المقاتل » إيفانز من أيوا ، الذى نقل سيرفيرا إلى سفينته بعد هزيمته . . والكابتن فيليب من تكساس ، الذى قال أثناء غرق سفينة إسبانية : « لا تهملوا ابتهاجاً يا أولاد ، فإن المساكين يموتون » . . والملازم فيكتور بلو الذى توغل فى أدغال كوبا ليظفر بمعلومات عن القوات الإسبانية . . والكابتن آر . بى . هوبسون ، الذى أغرق ناقلة الفحم مرياك فى محاولة عقيمة لسد مدخل خليج سانتياجو . وفوق هؤلاء الأبطال جميعاً ، تطاول ذكر جورج ديوى الذى منحه الأمة بيتاً فى واشنطن عرفاناً ببطولته ، وتيودور روزفلت قائد الفرسان غير النظاميين ، الذى حمله بلاؤه فى الحرب إلى بيت فى واشنطن أكثر شهرة ^(١) . ولقد بدت الحرب مثالية ، إذ كانت قائمة الخسائر فى الأرواح فيها قصيرة ، ولم تكلف الدولة ديوناً كبيرة ، ورفعت مكانة أمريكا فى الخارج ، وخرجت الأمة منها بجيوب مليئة بالغنائم .

على أن تأملها عن قرب يبين أنه كانت لها جوانب أقل تشريفاً . فإن مجدها اكتسب على حساب عدو عاجز ، إذ أن مقاومة العدو كانت مثيرة للإشفاق . كان الأسطول الإيبانى سعى التسليح ، خائر القوى المعنوية حتى إنه لم يكد يحدث خدشاً فى السفن الأمريكية . وكان الجنود المائتا ألف فى كوبا معوقين بسوء القيادة وسوء النقل ، حتى إنه لم يتسن حشد أكثر من اثنى عشر ألفاً فى سانتياجو عندما اقتربت القوات الأمريكية من تلك المدينة . ومن الممكن القول بأن بعض الفضل فى انتصاراتنا كان راجعاً إلى الإقدام والشجاعة ، ولكن الفضل الأكبر برغم ذلك كان راجعاً إلى ضعف الإيبان . وكانت خلفية هذه الانتصارات مثلاً قياسياً لفساد وعدم كفاية وسوء أداء بيروقراطى ، مما كان

(١) يقصد البيت الأبيض ، مقر رئيس الجمهورية — المترجم .

الارتقاء إلى مركز دولة عالمية كبرى ٤٢١

يبدو للمواطن المتأمل فوق ما يصدقه عقل . كانت وزارة الحرب من سوء الإدارة بحيث أن وزيرها لم يلبث أن اضطر للاستقالة من حكومة ماكينلي ، مفسحاً مكانة لقائد رفعها والجيش إلى مستوى رفيع من الكفاءة ، هو إيليهو روت . . كان معدل الوفيات من الأمراض في الجيش يعكس صورة قائمة لا للقسم الطبي فيها فحسب ، وإنما لمرافق الصحة العامة والصحة البشرية الأمريكية عامة . وبالرغم من سلسلة من الانتصارات - من جانب واحد - على الإسبانين ، فإن براعة الأسطول في الرماية كشفت عن قسوة فظيعة ، فكان لابد من كبح جماح المدفعية بشدة . وتكشفت مرة أخرى قبضة السياسة التي كانت تشل الدوائر الحربية في واشنطن . فكان تيودور روزفلت على صواب إذ وصف هذا الصراع بأنه حرب أمريكا غير المستعدة . فسرعان ما رفع عدد أفراد الجيش إلى ١٠٠ ٠٠٠ ، وأنشئت هيئة أركان حرب دائمة ، وزيد الأسطول بسرعة ، وعززت القوات المحترفة في الفرعين (الجيش والأسطول) ، وساعد استيعاب دروس الحرب الولايات المتحدة على أن تستعد استعداداً كافياً لمحنة ١٩١٧ - ١٩١٨ .

وتم تدبير الصلح مع إسبانيا بسرعة ، باجتماع المفوضين في باريس . ولم تصطدم الآراء إلا بصدد نقطتين فقط . فقد حاول ممثلو إسبانيا أن يصروا على وجوب تحمل كوبا مسئولية الديون التي كانت إسبانيا قد عقدتها على أن تخصص لسدادها عائدات الجزيرة ، كما جادلوا من أجل احتفاظ إسبانيا بكل جزر الفلبين أوبجزء منها . ولكن الوفد الأمريكي وقف موقفاً حازماً من النقطتين . فبعثت كوبا من جديد دولة متحررة من الديون . وسلمت جزر الفلبين بأكملها إلى الولايات المتحدة ، ومعها بورتوريكو . وبهذا الاستحواذ على أقاليم فيها وراء البحار ، تسكنها أجناس أجنبية في اللغة والثقافة والتقاليد السياسية ، بدا أن أمريكا مقبلة على طريق جديد . وأثار مناهضو الامبريالية ، بقيادة بريان وكارل شورز وإي. إل. جودكين ومارك توين والسيناتور جورج فريسيبي هور ، اعتراضات حامية . وصاح الشاعر وليم فوجان مودي في لوحة :

أكاذيب ! أكاذيب ! .. هذا غير ممكن !

لا تستثيروا ضعفنا ، جشعنا !

فما لم ندع رجال الجزر مطلقى الحرية ..

٤٢٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

فإن أشباح الذين ماتوا عبثاً ولم يكللوا بالغار . .
ستلعننا من السواحل الباعثة على الأسى . .
حيث يسير الموتى والإحباط يثقلهم . .

على أن انتخابات سنة ١٩٠٠ كانت دليلاً على أن المعاهدة قوبلت بالرضى ، إذ أعيد ماكينلى إلى الحكم بأغلبية زادت عن المرة السالفة . وكان مقدراً أن تثبت الأيام أن المسئوليات التى أخذتها الولايات المتحدة على عاتقها كانت محض مؤقتة من ناحية ، وأن الأمة — من ناحية أخرى — ظلت فى الصميم غير استعمارية . فعلى مر الأعوام آثرت أن تخفض ممتلكاتها فى الخارج لا أن تزيدها .

ومع ذلك فإن الحرب الإسبانية الأمريكية لم تكن نقطة تحول فى التاريخ الأمريكى . فقد أدركت الأمة فى نهاية الأمر أنها دولة عالمية كبرى ، وأخذ شعورها بالعزلة والعكوف على نفسها يقل باطراد ، بينما كان يزداد قيامها بدور قيادى فى التنسيق الدولية الواسعة النطاق . وأصبحت عن وعى ودراية من الدول المرشدة للشعوب المتخلفة . واضطلعت بقيادة حكام عامين من أمثال الجنرال ليونارد وود ، بهام ضخمة لإعادة التنظيم ، والإصلاح ، والتطوير فى الفلبين ، وكوبا ، وبورتوريكو ، ثم فى بناما بعد ذلك بقليل . وإزاء عناصر مثل الاليجوروت والموروس تولت تدريب من سهاهم كييلينج « الشعوب الحديثة الوقوع فى الأسر ، الحرون ، فأهلها نصف شياطين ، نصف أطفال » . وجاء التغلب على الحمى الصفراء نتيجة تجارب الدكتور ولترريد وغيره من أطباء الجيش فى كوبا ، انتصاراً يساوى وحده كل نفقات الحرب . فلقد ظلت الحمى الصفراء قروناً تقضى على الحياة فى كافة المناطق الحساسة ، وكانت خطراً قائماً باستمرار على موانئنا الجنوبية . ولقد كانت الولايات المتحدة حتى فى حربها مع إسبانيا تعتمد اعتماداً ضمنيّاً على الأسطول البريطانى فى الحفاظ على مبدأ مونرو ، ولكنها أصرت بعدها على أن يكون لها أسطول قادر على مراعاة المبدأ دون ما عون . ولقد أدت الحرب ، لا سيما رحلة البارجة أوريجون من ساحل أمريكا على المحيط الهادى حول رأس هورن إلى المياه الكوبية ، مستغرفة ثمانية وستين يوماً . . أدى ذلك إلى إقناع كل امرئ بضرورة شق قناة فى الخليج بين المحيطين الهادى والأطلسى . وأخيراً ، كان للصراع أثر فى زيادة الصداقة الأنجلو أمريكية ، إذ احتفل البريطانيون بالانتصارات الأمريكية كما لو كانت انتصاراتهم ، بينما

الارتقاء إلى مركز دولة عالمية كبرى ٤٢٣

كان الأسطول الألماني الذي جثم في مانيللا يرقب الموقف في غيرة ، موقعاً للقلق والاضطراب في نفس ديوى .

الباب المفتوح : الدبلوماسية روزفلتية

كان إعلان مبدأ الباب المفتوح أول إشارة إلى اتجاه جديد في شؤون العالم . كانت الصين قد أصبحت هزيمتها من اليابان في ١٨٩٤ - ١٨٩٥ فريسة للدول الأوروبية الكبرى ، التي انقضت عليها لتستولى على امتيازات اقتصادية وتنازلات إقليمية . فاستولت روسيا فعلاً على منشوريا الشمالية ، واستأجرت ألمانيا ميناء كياوتشاو مكتسبة بذلك سيطرة اقتصادية على مقاطعة شانتونج ، وحصلت فرنسا على امتيازات متباينة . وكانت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى ترقبان هذا النهب في جزع . فقد كانتا تعلقان أهمية على التجارة مع الصين ، وتحافان إقامة حواجز اقتصادية عالية . وقبل بداية الحرب الإسبانية الأمريكية بقليل ، اقترح البريطانيون عملاً أنجلو أمريكياً مشتركاً للحفاظ على الفرص التجارية الحرة في الصين ، بيد أن وزارة الخارجية الأمريكية كانت فاترة . ثم تحولت واشنطن في سنة ١٨٩٩ إلى موقف مختلف . إذ سلطت المصالح الصناعية والتجارية ضغطاً من أجل سياسة أشد حزمًا في الشرق ، وأعادت إلى الأذهان أن مكتب التجارة الخارجية كان قد وصف الصين بأنها « من أكثر البقاع التي تبشر » بمستقبل من أجل « غزو أمريكي لأسواق العالم » . وضمت مصالح الاتصالات التبشيرية صوتها . وأثار المشاعر بدرجة كبيرة ، كتاب صدر في الوقت المناسب للورد تشارلز بريسفورد باسم (تقطيع أوصال الصين) . وأخذ العديدون يعملون من وراء ستار ، وأخيراً طلب جون هاى وزير الخارجية ، في سبتمبر ، إلى الدول التي لها مجالات مصلحة في الصين ، أن تتعهد بالآ تفرض تعريفات جمركية أو رسوم مرافئ أو أجور للسكك الحديدية خاصة في داخل تلك المجالات . ومع أن معظم الردود اشتملت على بعض الاشتراطات ، فإن هاى أعلن في أوائل سنة ١٩٠٠ الموافقة النهائية والحاسمة من الدول الكبرى ، على سياسة الباب المفتوح في الصين .

بعد أن تبوأ تيودور روزفلت الرئاسة في سنة ١٩٠١ ، اتخذاً هاى أولاً ، ثم روث

وزيراً للخارجية ، تشعبت السياسة الخارجية الأمريكية إلى قسمين رئيسيين . فتركز شطر منها على الممتلكات الجديدة من الجزر وعلى منفذ بناما ، وكان في المقام الأول ناشئاً عن الحرب الإسبانية الأمريكية وما ترتب عليها من انتقال الولايات المتحدة إلى مركز شعرت فيه أنها أكثر مناعة من ذي قبل في المحيطين الأطلنطي والهادي . أما الشطر الآخر فكان يمثل بعض مغامرات شخصية لروزفلت في الدبلوماسية العالمية ، وكان مؤذناً بوصول الولايات المتحدة إلى مركز دولة عالمية كبرى . ومن أهم هذه المغامرات الجديدة بأن نوليها بعض الاهتمام ، استخدام روزفلت مساعيه الحميدة في سنة ١٩٠٥ لإنهاء الحرب الروسية اليابانية ، ومشاركته في مؤتمر آلبسيرا^(١) في سنة ١٩٠٦ . وكانت هاتان التجربتان رائعتين ، وموفقتين في رأى روزفلت . والواقع أنه ما كان ثمة داع لأى منها . فقد كان من الممكن أن تسوى روسيا واليابان نزاعهما في مكان غير بورتسموث ، بنيو هامبشاير ، كما أنه لم تك ثمة ضرورة لإيفاد هنرى هويت لتأييد فرنسا في صراعها التاريخي مع ألمانيا على الموانئ والامتيازات في شمال أفريقيا . وإنما كانت الأهمية الحقيقية بالنسبة للأمريكيين لسياسات روزفلت الخارجية المتعلقة بالفليين ، وجزر البحر الكاريبي ، وبناما .

وقد يكون لنا أن نضيف إلى هذه سياساته بالنسبة للعلاقات الأنجلو أمريكية ، إذ كان مقدراً لآمال الديمقراطية ، بل للحضارة نفسها ، أن تعتمد بعد وقت قصير على تعاون الدولتين الكبيرتين الناطقتين بالإنجليزية في حربين جبارتين ، وإن لم يخطر هذا ببال أحد إذ ذاك . فقد رأت الولايات المتحدة بجلاء — وهي تُقبل مرتجفة على حلبة الشؤون العالمية القارسة الموحشة — أن مساندة الأسطول البريطاني كانت مرغوبة إلى درجة كبيرة . وكانت بريطانيا العظمى من ناحيتها تواجه من كل ناحية خطر قوة ألمانيا الجبارة : المنافسة الألمانية في التجارة الدولية ، والمطالب الألمانية بنصيب في أفريقيا ، والعداء الألماني لسياسة الباب المفتوح في آسيا ، وتحالف ألمانيا الثلاثي والمطامع البحرية الألمانية في أوروبا . وليس ثمة ما يجزم بأن ألمانيا كانت غير ذات مطامع إقليمية في جزر الهند الغربية أو أمريكا اللاتينية . . فلقد كان بعض قادتها خليقين بأن يتمنوا الحصول على قاعدة بحرية هناك . ووجدت الولايات المتحدة وبريطانيا نفسيهما — لأسباب

(١) Algeiras : ميناء في مقاطعة قادش بإسبانيا . ويبدو أن الاسم من أصل عربي هو الجزيرة — المترجم .

الارتقاء إلى مركز دولة عالمية كبرى ٤٢٥

واضحة — على وفاق مطرد التجلى في الشرق الأقصى ، والبحر الكاريبي ، والمسالك البحرية الرئيسية ، حيث تمسكتا بما أطلق عليه فيما بعد النظام الأطلنطي .

وإذ وضح أن الولايات المتحدة عقدت العزم على إنشاء قناة في خليج بناما ، قدمت الحكومة البريطانية تنازلات سخية لتمهيد الطريق أمامها . إذ كانت معاهدة كلايتون - بولور قد اشترطت — في سنة ١٨٥٠ — على أن تمتلك الدولتان امتيازات متساوية في أية قناة وأن لا تقوم أى من الدولتين بإنشاء استحكامات عليها . فأفضت مفاوضات بين وزير الخارجية هاى والسفير البريطانى في واشنطن إلى معاهدة هاى — بانسفوت ، التى تم التصديق عليها في سنة ١٩٠١ ، والتى مثلت تنازلاً من البريطانيين عن كافة حقوقهم في المعاهدة القديمة ، إذ نصت على أن للولايات المتحدة أن « تنشىء » ، وتصور ، وتسيطر « على القناة » (وإن لم يكن مسموحاً بأى تمييز بين الدولتين في رسوم المرور) . ولم تطلب بريطانيا مقابلاً لذلك ، وهو أمر قدره الأمريكيون حق قدره . وبعد ذلك بأمد وجيز ، اتخذت بريطانيا مسلكاً آخر ارتاحت له واشنطن بصدد موضوع الدين الفنزويلي . فلقد طالبت ثلاث دول كبرى — هى بريطانيا وإيطاليا وألمانيا — حكومة الرئيس كاسترو السيئة السمعة بالدين . وفي خريف سنة ١٩٠٢ ، اتفقت على انتهاج « إكراه تعاوني » ، إذ أخفقت في الحصول على السداد بأية طريقة أخرى . فحاصرت ألمانيا وإيطاليا ساحل فنزويلا ، واستولت على بعض سفن المدفعية ، وقصفت حصنين . وكانت الولايات المتحدة على استعداد لأن ترى فنزويلا معرضة للخوف . ولا شئ أكثر منه . ولما لمحت بريطانيا العظمى أن مسلكها أخذ يضايق الرأي العام الأمريكى ، تراجعت . فدبرت مناقشة في مجلس العموم لشجب العمل المشترك مع ألمانيا ، وأعلنت الوزارة رغبتها في تفادى استعمال القوة . رضى الشعب الأمريكى عن موقف بريطانيا إذ قارنه بمناورات ألمانيا وأساليبها . وقد روى روزفلت فيما بعد قصة مؤثرة (غير دقيقة ولكنها قد لا تكون عديمة الأسس) عن أنه كان قد أمر ديوى والأسطول بالاستعداد للتحرك لإقناع القيصر بالتراجع .

وفي أوائل القرن العشرين ، عادت الحكومة البريطانية فساعدت على تسوية الحدود الكندية المتاخمة لولاية ألaska بطريقة أرضت الأمريكيين بقدر ما أسخطت الكنديين . إذ أن حدود لسان ألaska الشبيه بيد المقلاة ، كان — وفقاً للمعاهدة الانجليزية الروسية في سنة ١٨٢٥ — يتبع قمم الجبال الموازية للساحل ، بطريقة تترك لروسيا شريطاً ساحلياً

٤٢٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

عرضه ثلاثون ميلاً . وقد ورثت الولايات المتحدة هذا الشريط . وكانت المشكلة هي ما إذا كان يمتد في خط متعرج حول رؤوس الخلجان الصغيرة أو أنه يمتد مستقيماً عبر هذه الرؤوس . وكان الكنديون يأملون في الحصول على مرافئ عند بعض هذه الرؤوس . وبعد نقاش ، أحيل الأمر إلى لجنة من القانونيين الكنديين والبريطانيين والأمريكيين . وإذا كان روزفلت معقود العزم على الفوز ، فقد لوح بالقوة . غير أنه لم يكن ثمة داع لذلك في الواقع ، فإن الحق كان مع الأمريكيين ، فكان القانوني البريطاني ، اللورد ألفيرستون ، يدلي بصوته في جانبهم باستمرار . وأخيراً ، استدعت بريطانيا جناح أسطولها المتمركز في برمودا لحماية جزر الهند الغربية ، عندما أعادت توزيع الأسطول البريطاني في سنة ١٩٠٦ ، فقسمته إلى ثلاثة أساطيل : للبحر المتوسط ، وللغنال الإنجليزي (المانش) ، ولشرق المحيط الأطلنطي . وكانت تهديدات ألمانيا هي السبب في سحب ذلك الأسطول ، ولكن الولايات المتحدة قابلت بالتقدير إطلاق يدها في البحر الكاريبي بعد أن بات لها أسطول قوى .

وقد أطلقت يدها هناك فعلاً ، وكان من أسباب ذلك أن مشروع قناة بناما كان يسير بخطوات جادة . وقد قال روزفلت في خطاب ألقاه في جمهور من الغرب ، في سنة ١٩١٢ : « لقد أخذت بناما . . فقد كانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي يتسنى بها إنشاء القناة » . ويكاد يكون الشطر الأول من هذا التصريح صحيحاً بحذافيره . فبموجب قانون صدر في سنة ١٩٠٢ ، كان الكونجرس قد خول الرئيس شراء حقوق الشركة الفرنسية القديمة لشق القناة في بناما ، والحصول من كولبيا على حق السيطرة الدائمة على قطاع من هذه الولاية يصل بين المحيطين الأطلنطي والهادي ، والشروع في حفر القناة . وبدأت المفاوضات مع كولبيا ، ولكن هذه الجمهورية كانت تدرك أن بناما من أكبر أرصدها ، فلم تشأ أن تفرط فيها لقاء مكاسب زهيدة . وخذل مجلس الشيوخ في بوجوتا معاهدة صيغت في واشنطن لمنح أمريكا السيطرة على شريط عرضه ستة أميال . وكان مثل هذا الخذلان شائعاً في الولايات المتحدة ، حيث أقدم الكونجرس على تهشيم أكثر من اتفاق مهم واحد . غير أن روزفلت شجبه باعتباره إهانة مزرية ، واصفاً سياسى كولبيا بالجنس والفساد . وكان مصمماً على أن يظفر بموقع القناة قبل استئناف الكونجرس اجتماعاته في ديسمبر ، إذ كان يخشى أن تنهار بعض خططه إذا لم يتحقق ذلك . إذ كان ثمة عنصران قويا التنفيذ في حاجة إلى تصرف فوري . وكانت الشركة

الارتقاء إلى مركز دولة عالمية كبرى ٤٢٧

الفرنسية أحد العاملين ، وكانت تسعى في عرض سابق للبيع إلى أربعين مليوناً . أما العنصر الآخر ، فهو شعب بناما الذى كان يخشى أن تنشأ القناة في نيكاراغوا بدلاً من بناما إذا لم تشرع الولايات المتحدة في إنشائها في وقت قريب . ونجم عن ذلك أن قفزت فكرة قيام ثورة في بناما في أذهان عدد كبير جداً من الأشخاص في وقت واحد . وظهرت مجلة « ريفيو أوف ريفيوز » - التى كان يرأس تحريرها صديق حميم لروزفلت - وقد تصدرها مقال بعنوان : « ماذا يكون إذا قدر لبناما أن تثور ؟ » وملاً الحديث عن نشوب ثورة جو واشنطن . فأرسلت الطرادات إلى ساحل بناما . وكان عملاء فرنسا يعملون بنشاط في الخليج . وعقب وصول البارجة ناشفيل إلى كولون ، في ٣ نوفمبر سنة ١٩٠٣ ، أبرقت وزارة الخارجية الأمريكية إلى القناصل الأمريكيين هناك ، تقول : « وصلت أنباء عن ثورة في الخليج . وافوا الوزارة بالمعلومات الكاملة ، فوراً - لوميس ، عن الوزير » .

ولم يكن القنصل الأمريكى في بناما غيباً ، فرد ببرقية قال فيها : « لا ثورة بعد . سنوافيكم بالأنباء الليلة . الموقف خطير » . وبعد ساعة أو اثنتين ، أبرق قائلاً : « حدثت الثورة الليلة ، ١١/٦ ، لم ترق دماء ما . اعتقل ضباط الجيش والبحرية . ستؤلف الحكومة الليلة » .

وأنزل جنود البحرية الأمريكية إلى البر ، فأوقفوا القوات الكولمبية عن التصدى للثورة . وسرعان ما استقبل وزير من بناما في واشنطن ، وبسرعة خارقة أبرمت الجمهورية الصغيرة الجديدة معاهدة تمنح الولايات المتحدة الشريط المنشود من الأرض ، مقابل عشرة ملايين من الدولارات دفعت فوراً ، وإيجار سنوى معقول . وقد قال روزفلت فيما بعد : « لوأننى انتهجت الأساليب المحافظة التقليدية ، لكان لزاماً أن أقدم إلى الكونجرس مذكرة رسمية تليق بالمقام ، وقد تتألف من مائتى صفحة ، ولكانت المناقشات دائرة للآن . ولكنى أخذت منطقة القناة وتركت الكونجرس في نقاشه ، وبينما يسير النقاش ، تسير القناة هي الأخرى » . وهذا ما حدث . وفي خلال سنوات عشر ، كانت القناة معدة للعمل ، بفضل نابغة الهندسة الكولونيل جورج دبليو . جوثال ، وعبقري الهندسة الصحية وليم سى . جورجاس . ولقد هزت أساليب روزفلت الخارجية عن العرف الشعور العام في أمريكا اللاتينية بأسرها وأفرعته .

كان تيودور روزفلت مدفوعاً برغبة صادقة في تحسين العلاقات مع الجمهوريات

٤٢٨ موجز تاريخ الولايات المتحدة

اللاتينية ، بيد أن سياساته ونتائجها لم تكن صافية الوضوح تماماً . فعندما عقد المؤتمر الثالث لرابطة الدول الأمريكية في ريودي جانيرو ، أوفد وزير خارجيته روت في جولة ودية لأمريكا الجنوبية كي يوضح صداقتنا لأمريكا اللاتينية . ولقد اعتبر مبدأ مونرو حماية لا غنى عنها للجمهوريات اللاتينية ، غير أنه أضاف إلى هذا المبدأ تذييلاً مشهوراً أثار قلق كثير منها أياً إثارة . فقد أوضح أنه لما كانت الولايات المتحدة تأبى أن تسمح للدول الأوربية الكبرى بأن تتخذ مسلحاً خشناً مع الدول الصغيرة التي تتمرد على سلطانها ، أو تتدخل عن تسديد ديونها ، أو تستولى على ممتلكات الأجانب لديها ، أو تسعى معاملة المقيمين من الأجانب فيها ، فإنه يعلن أن هذا يلقي على عاتق الولايات المتحدة مسئولية لا مهرب منها . ومن ثم فإن العم سام مضطر إلى أن يحرص بنفسه على أن تسلك هذه الجمهوريات مسلحاً طيباً . وضرب مثلاً لذلك بمعاملته لسانتو دومينجو . فعندما كانت هذه الدولة مهددة بتدخل أجنبي في سنة ١٩٠٤ ، أغراها بأن تسمح له بإنشاء هيئة أمريكية تكون بمثابة حارس مالى ^(١) . وكانت هذه سابقة لإقامة عدد من المحميات الحقيقية في منطقة البحر الكاريبي . وكانت هذه السياسة ترمى لإقرار السلام والنظام ، بيد أنها بعثت في أمريكا اللاتينية المخاوف من أن الولايات المتحدة كانت تنتهج مسلحاً فيه سلب لحياتها .

كذلك انتهج روزفلت في حوض المحيط الهادى منهجاً أثار الهواجس . كانت العلاقات اليابانية الأمريكية قد أخذت تتحول إلى مصدر للقلق . وتدخل الرئيس في خلاف بين اليابان ومدينة سان فرانسيسكو التي كانت تولى اليابانيين في المدارس معاملة تقوم على التفرقة العنصرية . واستطاع بمساعيه الحميدة أن يهدئ مشاعر اليابانيين الغاضبة ، وحصل على « اتفاقية جنتلمان » لمنع هجرة العمال اليابانيين ، وحل سلطات سان فرانسيسكو على انتهاج مسلك أكثر لباقة وحكمة . غير أنه رأى أن التحذير أمر لائق ، فأوفد أسطولاً في جولة حول العالم ، توقف فيها في الموانئ اليابانية ، حيث حظى باستقبال ودى . وكانت روح هذا المسلك منه تتمشى مع رأى من أكثر الآراء تردداً عنه : « ترفق في كلامك ، واحمل عصا كبيرة » .

(١) أشبه بنظام الحراسة المالية التي تفرض بحكم قضائى في حالات الأفراد ، تتولى مراقبة الشؤون المالية ، وتحصيل الإيرادات ، وتسديد الديون — المترجم .

٤٢٩ الارتقاء إلى مركز دولة عالمية كبرى

وبمرور الأعوام ، أخذ يتضح بجلاء مطرد أن الولايات المتحدة ليست إحدى الدول الكبرى في العالم ، بل أنها إحدى أعظم ثلاث أو أربع دول كبرى في العالم . فقد اضطلعت بدور بارز في مؤتمري لاهاي لتعزيز السلام العالمى . وبذلت التأييد المعنوى للمبادئ الديمقراطية وحرية التبادل التجارى فى كافة أرجاء الأرض . وبالرغم من مجافاة اللباقة لروزفلت فى بعض المناسبات ، و« دبلوماسية الدولار » التى انتهجها تافت — أى ترويج التجارة والاستثمارات الأمريكية بوسائل دبلوماسية — فإنها قطعت شوطاً فى كسب ثقة أمريكا اللاتينية . كذلك أخذت تزداد صلاته ببريطانيا والكونغولث البريطانى الكبير ، فيما وراء البحار ، بالرغم من بعض خلافات بسيطة من وقت إلى آخر . وعندما بدأت الحرب العالمية الأولى ، كانت الولايات المتحدة بعد فى شىء من العزلة ، ومع ذلك فإنها سرعان ما استدرجت إلى المعمة الفظيعة ، بالرغم من عزلتها .



الفصل ٢٠

أمريكا تبلى الرشد

الخط الفاصل فى التسعينات

تؤلف السنوات الواقعة بين سنة ١٨٩٠ تقريباً والحرب العالمية الأولى خطأ فاصلاً فى التاريخ الأمريكى . فعلى أحد جانبيه الخط كانت الصفة الغالبة على أمريكا أنها ريفية زراعية ، وأنها تلتزم عزلة تقليدية ، وأنها بعد متشبثة بتفاؤلية القرن الثامن عشر ، وبروح المساواة التى اقترنت بالقرن الثامن عشر . وعلى الجانب الآخر للخط نجد أمريكا فى الشؤون العالمية ، عميقة الانشغال بمشكلات ظلت طويلاً تبدو مقصورة على الدنيا القديمة ، وهى تمر بتغيرات مصحوبة باختلاجات تشنجية فى الاقتصاد والمجتمع والثقافة .

فمع العقد العاشر من القرن التاسع عشر ، أقبلت أمريكا جديدة ، وكأنها كان يحملها سيل طاع . إذ شهد ذلك العقد تلاشى منطقة حدود العمران ، ونهاية جيل الحرب الأهلية . والمسائل التى صاحبت إعادة التنظيم والتى ظلت طويلاً تعكر الشؤون السياسية الأمريكية ، ونهوض الجنوب الجديد . كذلك شهد العقد مقدم الهجرة الجديدة ، واكتمال الخطوط الحديدية العابرة للقارة ، والتنظيم السياسى لآخر الأقاليم

الغربية ، وأزمة في الزراعة ، والتنظيم الواسع المدى للصناعة وما صاحبه من تنظيم مواز للعمالة ، وأول اعتراف جدى من الحكومة بمسئوليتها عن الاقتصاد القومى ، وبداية التوسع في منطقتى البحر الكاريبى والمحيط الهادى ، وتقدم أمريكا كدولة عالمية كبرى .

كما شهد ذلك العقد ثورة مشابهة في عالم الآراء والأفكار ، وإن لم يكن من الميسور ربطها بهذا التاريخ تماماً . فلقد ظل الأمريكيون في معظم القرن التاسع عشر يعيشون في الشفق الذى خلفته حركة التنوير^(١) . ظلوا - أو ظل معظمهم - يؤمنون بفكرة جيفرسون عن وجود عناية إلهية مسيطرة ، تثبت بكل تدابيرها أنها تبتهج بسعادة الانسان في الدنيا ، وسعادته الكبرى في الآخرة . وكانوا يتقبلون دون نقاش أو شك نظرية التقدم ، وما قدر للشعب الأمريكى من إعفاء خاص من أعباء التاريخ ، وما قدر له من حظ خاص وواضح في التاريخ .

ونخيم على هذه الرؤية المشرقة ، حوالى أواخر القرن ، تعاليم جديدة في العلم والفلسفة . فإن الكون الذى تنظمه قوة عليا ، وفقاً لفلسفة التنوير ، تصدع تحت وطأة البيولوجية الداروينية ونظريات علم الطبيعة الحديثة ، والآراء الأدبية والفلسفية الوافدة من القارة الأوروبية . وقد أدت هذه جميعاً إلى تفاعل فكرى ، وتشكل جدل في كافة النواحي المألوفة ، وسعى إلى صيغ جديدة بدرجة لم تعهد منذ الأربعينات ، في القرن التاسع عشر .

وكان مقدراً للمشكلات التى برزت في التسعينات ، وللآراء والنظريات الجديدة التى تبلورت لتفسيرها والتصدى لها ، أن تسيطر على المشهد الأمريكى نصف قرن آخر . . ونقصد مشكلات العزلة الدولية ، ومشكلات التقلص الزراعى والنمو الحضري ، ومشكلات صيانة الموارد الطبيعية ، ومشكلات الترسبات والاحتكاكات وخطر قيام حرب طبقية ، ومشكلات التناقضات بين التقدم والفقر ، ومشكلات التوفيق بين الفكر الاجتماعى وتعاليم النشوء والارتقاء .

(١) فلسفة التنوير التى انبثقت في القرن الثامن عشر ، وقوامها مناقشة وفحص النظريات والقيم التقليدية ، والاتجاه إلى الفردية ، وإبراز فكرة عالمية التقدم البشرى ، وحرية العقل ، والملاحظة والتجربة في العلم - المترجم .

الدين والفلسفة

في سنة ١٨٥٩ ، نشر تشارلز داروين كتابه « أصل الأنواع » ، فشقت نظرية الارتقاء طريقها في العالم الغربي بأسره ، وإن تباينت معدلات سرعة الانتشار . ووجدت الفكرة الجديدة على الفور تحبيذاً من العلماء الأمريكيين — بل إن آسا جرای سبق ما توصل إليه داروين — كما وجدت قبولاً لدى الفلاسفة . بيد أن وقتاً طويلاً ، ونزاعاً متواصلاً ومريراً ، سبق قبول علماء اللاهوت داروين في دائرة رضاهم . على أن أدهش ما في الأمر هو الاذعان للنظرية في آخر الأمر ، وليس التصدى لها بالعداء في أوله . ذلك لأن متضمنات الارتقاء كانت ثورية برغم كل شيء . فهي قد أحلت التطور الطبيعي وبقاء الأصلح محل الخلق الخاص والتوجيه الإلهي . ولم يكن النقد الأعلى ، ولا كانت تعاليم الفلسفة المتعالية ^(١) قد هيأت العقلية الأمريكية لذلك .

ولقد ظلت الكنيسة البروتستانتية جيلاً من الزمن ممزقة بالمشادة بين القائلين بالعصمة الحرفية للكتاب المقدس ، المتشبهين بما ورد في التوراة عن الخلق ، والمحدثين الذين كانوا يميلون إلى تفسير الكتاب المقدس على ضوء العلم . بل أن السلطة الدنيوية دخلت المعمعة هي الأخرى ، إذ حرمت بعض الولايات الجنوبية تدريس الارتقاء في المدارس . وفي الوقت ذاته ، وُفق المتنورون من علماء اللاهوت — من أمثال هنري وورد بيتشر من بروكلين ، وجيمس فريمان كلارك من بوسطن — مع الفلاسفة العلماء كتوماس هكسلي في انجلترا وجون فيسك في أمريكا ، إلى التقريب بين الدين والارتقاء . فقد رأوا أن النشوء والارتقاء « طريقة من طرق الله في عمل الأشياء » لا تتجمل عن الخلق الخاص على قدرته ، وهي أسهل فهماً لدى الإنسان العادي . وشيئاً فشيئاً ، أخذت الكنائس البروتستانتية الأكثر تحوراً بالنظرية ، بيد أن الكنيستين المشيخية واللوثرية ظلتا إلى مرحلة من القرن العشرين متشبثتين بمعارضة التعاليم الجديدة ، في حين أن الكنيسة الكاثوليكية ، المطردة لزيادة عدداً ونفوذاً في كل عام ، شجبت الحركة « العصرية » بأكملها .

(١) النقد الأعلى : الدراسة الأدبية والتحليلية للتوراة على ضوء النظرة التاريخية دون تخرج من المعتقدات الدينية . والفلسفة المتعالية هي القائلة بأن دراسة عمليات الفكر وليست التجربة هي التي تؤدي إلى كشف الحقيقة — المترجم .

وكانت الذرائعية أو البراجماتية^(١) كما أصبحت تعرف في أمريكا ، هي الجواب الفلسفى للنتائج الجديدة المستخلصة بالتفكير العلمى . ولقد غزا هذا الجواب ، الذى توصل إليه فريق من مفكرى نيوانجلاند — كان وليم جيمس وجون ديوى أبرزهم — معظم قلاع الفلسفة الجامعية (الأكاديمية) وظفر بشعبية لم تحظ بها معظم الفلسفات ، فى وقت وجيز . ولم تكن البراجماتية فلسفة بقدر ما كانت طريقة للتفكير فى الفلسفة . فهى لا تنظر إلى الحقيقة كأمر مطلق ، وإنما هى تراها نسبية . وقد أوجزها وليم جيمس أقدر إيجاز بعبارة الماثورة : « سحقاً للمطلق » . فالحقيقة ، كما رآها البراجماتيون ، ليست ثابتة ولا نهائية ، وإنما هى لا تزال فى طور التكوين . وقد كتب جيمس يقول : « ليست حقيقة أية فكرة صفة جامدة كامنة فيها . إنها الحقيقة تحدث للفكرة . فالفكرة تصبح حقيقة ، والأحداث هى التى تجعلها حقيقة » . وخير محك للحقيقة يُلمس فى نتائجها ، إذ أن « المحك الأخير لما تعنيه حقيقة ما ، هو التصرف الذى تمليه أو توحى به » ، كما يقول جيمس .

وكان معنى هذا أن تأكيد البراجماتية كان منصباً فى كل مجال على الارتقاء والنمو والتغير . فتقبل البراجماتيون كل متضمنات الارتقاء العضوى ، وخلصوا من هذا إلى أن النظام الاجتماعى كان بالنظام الطبيعى عرضة للتطورات الارتقائية . ومن ثم فإن « سحقاً للمطلق » لا تنطبق على عالم الفلسفة الموضوعية وحدها ، بل تنطبق كذلك على عوالم القانون ، والسياسة ، والاقتصاد ، والفكر الاجتماعى ، والفن ، والجماليات ، بل والأخلاقيات . هذه الطريقة الجديدة فى تأمل الفلسفة ، والنظام الاجتماعى بأسره ، سرعان ما أحدثت ثورة فى الفكر الأمريكى . فقد جلبت معها تحولاً لا سبيل إلى رده عن الاستقراء إلى الاستدلال ، عن البدهة إلى التجربة ، عن المبدأ إلى التطبيق العملى ، عن الشكل إلى الوظيفة أو العمل .

الفكر الاجتماعى

من الممكن أن نرى هذه الثورة فى كل قسم من أقسام الفكر الاجتماعى . فقد اعتنق

(١) الكلمتان ترمزان لمعنى واحد ، هو فلسفة الحكم على قيم الأفكار الفلسفية بالنتائج العلمية والواقعية — المترجم .

أمريكا تبلغ الرشد ٤٣٥

التربويون ، بقيادة جون ديوى ، ما أصبح يعرف بـ « التعليم التقدمى » ، الذى أدى إلى التحول عن فكرة اعتبار الطفل مادة للتلقين إلى اعتباره موضوعاً تدرس ردود فعله لما يتلقاه ، عن التعلم بالاستظهار إلى التعلم بالممارسة . . أى بالفعل . ولم يعد المحامون ورجال القانون — من أمثال لويس برانديس والقاضى هولز — ينظرون إلى القانون على أنه « كائن كلى العلم يستوى فى السماء » ، فنبذوا المطلقات القانونية ، ونظروا فى تشكك إلى جور السالفين ، واستخلصوا أن القانون من وضع المجتمع ، وأن غايته هى خدمة حاجات المجتمع . وهجر علماء السياسة ، مثل وودرو ويلسون ولترليمان المصطلحات التجريدية كالسيادة أو الدولة أو القانون الطبيعى ، وولوا اهتمامهم إلى الأحزاب والحكومة والرأى العام بدلاً منها . وخلصوا مع ويلسون إلى أن :

الحكومة ليست جهازاً ، بل هى كائن حى ، فهى لا تدخل تحت نظرية الكون ، وإنما تحت نظرية الحياة العضوية . ويمكن تفسيرها على ضوء تعاليم داروين لا تعاليم نيوتن . . ليست الحكومة كتلة من القوى العمياء ، وإنما هى هيئة من البشر . فيجب أن تكون الدساتير السياسية الحية داروينية فى مبنائها وفى تطبيقها .

كذلك نبذ علماء الاقتصاد القوانين التقليدية التى وضعتها الأجيال الماضية — مثل قانون العرض والطلب — وبقيادة متفقيهم مثل تورستين فيبلين وجون آر . كومنز ، درسوا بدلاً منها عمل النظم الاقتصادية وتطبيقاتها وسوء تطبيقاتها . كما أن علماء الاجتماع ، وكان أبرزهم بلا مراء هو العالم والموظف الحكومى ليستر وارد ، انصرفوا عن أوسع التعاليم انتشاراً : « الداروينية الاجتماعية » . . وهى تعاليم كان يبدو أنها تقضى بأن الانسان مخلوق لا حول له ولا قوة من نتاج بيئته ، وأخذوا يعلنون بدلاً منها أن الإنسان مسيطر على البيئة ، وبوسعه أن يستخدم الوسائل السياسية والقانونية لتغييرها . وفى هذا قال وارد :

يقال لنا إن علينا أن ندع الأمور وشأنها ، وأن ندع الطبيعة تجرى فى مجراها . ولكن ، ليست الحضارة ذاتها ، بكل ما حققته ، نتيجة لعدم ترك الانسان الأمور على أعنتها ، وعدم ترك الطبيعة تجرى فى مجراها ٩ . . إن كل أداة ، أو عدة ، وكل آلة ميكانيكية . .

هى انتصار للعقل على القوى المادية للطبيعة فى منافسة مستمرة لغير هدف بينه وبينها .
 إن كل النظم البشرية — من دين وحكومة وقانون وزواج وعرف — مع ما لا حصر له من
 أساليب وأشكال تنظيم الحياة الصناعية والتجارية ، ليست سوى طرائق متعددة للتصدي
 لمبدأ المنافسة والتغلب عليه .

الأدب

كان إيمرسون قد أطلق بياناً باستقلال فكرى منذ الثلاثينات من القرن التاسع عشر ،
 بيد أن ظهور أدب أمريكى ذى طابع متميز استغرق وقتاً . ولنا أن نرجع ، بشيء من
 الاطمئنان ، ظهور أدب أمريكى إلى ديوان هويتمان « أوراق العشب » فى سنة ١٨٥٥ ،
 وأن نرجعه بمزيد من الاطمئنان إلى كتاب مارك توين « سذج فى الخارج » فى سنة
 ١٨٦٩ . فقد كان مارك توين أول من استغل إمكانيات اللغة العامية الأمريكية ، وفهم
 شخصية الرجل الأمريكى العادى — والصبى — فى الشمال والجنوب والغرب ، وعبر عن
 روح الفكاهة الأمريكية الحققة . كان أمريكياً حقاً ودون ما نزاع . وفى ذلك كتب وليم
 دين هاوولز : « إيمرسون ، لونجفيلو ، لويل ، هولمز . . لقد عرفتهم جميعاً ، وعرفت
 سائر الباقين من الحكماء ، والشعراء ، وذوى البصيرة ، والنقاد ، وأهل الفكاهة ،
 بيد أن توين كان وحيداً فى نوعه ، لا قرين له . . كان لينكولن أدبنا » . وكان قسط كبير
 من مؤلفاته من قبيل السيرة الذاتية . فكتابه « بإيجاز وغير تنميق » يصف تجاربه كسكرتير
 للحكومة الإقليمية فى نيفادا فى سنوات الحرب . وكان « الحياة على المسيسبى » وصفاً
 لتجاربه كمرشد أودليل يتعرف على النهر العظيم والبلاد التى يجتازها ، والمجتمع الذى
 كان يعيش على السفن التى تمخر عباب النهر أوعلى ضفافه . وفى عام ١٨٨٤ ، صدر
 أعظم مؤلفاته « هكليرى فين » ، وقد قال إيرنست هيمنجواى إن كل الأدب الحديث
 انبعث عن « هكليرى فين » ، وهذا القول أقرب إلى الصدق من معظم ما قيل ، فقد
 كان هذا الكتاب أول رواية كبيرة — اللهم إلا إذا جاز أن نستثنى موبى ديك — ذات
 طابع أمريكى لا سبيل إلى إغفاله ، بحيث إنه ما كانت لتكتب فى أى مكان آخر عدا
 أمريكا .

أمريكا تبليغ الرشد ٤٣٧

«وإدى الديمقراطية» الذى أنجب مارك توين ، أنجب كذلك صديقه وزميله وليم دين هاولز ، أكثر الأدباء الأمريكيين طراً فى تعدد نواحي الانتاج ، وفى تمثيل أمريكا . ففى حوالى أربعين رواية ، وثلاثين تمثيلية ، وأكثر من عشرة كتب فى النقد والسيرة ، ومئات المقالات والصور القلمية فى كبرى الصحف ، رسم هاولز أشمل وأدق صورة لمجتمع الطبقة الوسطى الأمريكية يمكن أن توجد فى أدبنا كله . ولعل أحداً من الروائيين المحدثين — فيما عدا بلزاك — لم يصف مجتمعه وصفاً مفصلاً صادقاً بالدرجة التى وصف بها مجتمعه هذا الكاتب الرقيق ، الذى نشأ فى أوهايو ، ثم انتقل إلى بوسطن ، ثم إلى نيويورك . فلقد رسم صوراً أدبية لريف نيوانجلاند ، وأحسن اللوحات لرجل الأعمال العصامى ، وللحياة الجاحمة فى منطقة حدود العمران فى أوهايو ، وللحياة والعمل المتسمين بالخشونة وعدم الاستقرار فى مدينة نيويورك ، ولخصائص ومميزات ضواحي المدينة ، ولتصادم الثقافات فى المصايف والمدن السياحية الأوربية . ولقد كتب إليه هنرى جيمس قائلاً : « كان مقدراً لعملك ، كلمة إثر كلمة وكتاباً بعد كتاب ، أن يصبح أعلى درجات التسجيل لكل ديمقراطية ضوئنا وظلالنا ، وعطائنا وأخذنا » . ولم يكن هاولز واحداً من أكثر روائيينا الأمريكيين تمثيلاً لحياتنا فحسب ، بل إنه كان الناقد الأدبى الأمريكى الأول كذلك ، وفى الوقت ذاته . وقد رأس تحرير مجلة « أتلانتيك » الشهرية الأدبية العظيمة ، وقدم لبسن وزولا وتورجنيف للقراء الأمريكيين ، وأسبغ رعايته على الكتاب الناشئين ، مثل ستيفن كرين وفرانك نوريس . وكان ثالث الروائيين الكبار الذين ظهروا فى السبعينات من القرن التاسع عشر واستكملوا نضجهم فى تلك السنوات الانتقالية : هنرى جيمس ، شقيق الفيلسوف وليم جيمس . وإذا كان مارك توين قد كتب عن حياة النهر العظيم ، ومعسكرات التعدين ، والمزارع المتداعية المنهكة التربة ، وإذا كان هاولز قد كتب عن طبقة أمريكى الوسطى ، فإن هنرى جيمس اختار الروابط الثقافية الرفيعة المتبادلة بين المجتمعين الأمريكى والأوربى موضوعاً لكتاباتاته . فإن خير رواياته — « صورة سيدة » و « الأمريكى » و « السفراء » و « جناحا الحمامة » — استطلاعات لموضوعات المعايير والعادات والأخلاق المتضاربة فى المجتمعين ، مصوغة فى أكثر الأحيان فى نسيج سذاجة الدنيا الجديدة وفساد الدنيا القديمة . فكان جيمس أكمل الروائيين الأمريكيين جميعاً ، من هوثرن حتى فوكنر ، اهتماماً بالمشكلات الخلقية . ونظراً لأنه كان يكتب عن

شخصيات وموضوعات غريبة على الأمريكي العادى ، وبأسلوب معقد رفيع ، فإنه لم يحرز شعبية كبيرة خلال حياته ، ولكنه منذ موته فى سنة ١٩١٦ ، تعرض لإعادة اكتشاف دقيقة مفصلة ، وأصبح معترفاً به واحداً من أعظم الأدباء الأمريكيين .

ولقد بلغ مارك توين ، وهاولز ، وجيمس ، نضوجهم قبل أن يصبح الأثر الكامل للفلسفة الداروينية محسوساً . فكان الجيل التالى هو الذى استجاب فى اختلاجات تشنجية تقريباً لتلك الفلسفة ، أو بالأحرى لتيارى الطبيعيين (الواقعيين) والفرويديين الأدبيين الأوربيين ، اللذين يدينان بالكثير إلى تلك الفلسفة . وكان من الممكن الاطلاع على هذه الاستجابة فى الروايات الواقعية لجاك لندن ، وفرانك نوريس ، وستيفن كرين ، وفى قصص الثورة الزراعية لهاملين جارلاند ، وفى الأشعار والقصص الفرويدية من قبيل « مختارات نهر سبون » الأدبية لإدجارلى ماسترز ، و« واينسيرج ، أوهايو » ، رواية شيروود أندرسون التى ذاعت شهرتها فى فترة من الزمن . ولعل درايزر كان أكثر المستجيبين لهذين التيارين الفكرين الجديدين ولغيرهما — مثل الماركسية — إرهافاً فى الحس . ففى سلسلة من الروايات العظيمة المتتابعة فى غير انتظام — « الأخت كارى » ، « الجبار » ، و« المالى » و« المأساة الأمريكية » — نسج درايزر نسيجاً من خيوط متضافرة من موضوعات البقاء للأصلح ، وعلم النفس الفرويدى ، والحياة الصاخبة فى المدن الكبيرة ، والصراعات الضارية لأقطاب السرقه من رجال الأعمال والمال .

ولقد ظلت قصة الشعر الأمريكى تروى لوقت طويل ، وإلى حد كبير ، على ضوء والت ويتمان الذى أخذ يزداد مقدرة باطراد أثناء الحرب وفى السنوات التالية للحرب . ولكن ويتمان ظل راسخاً فى مثالية إيملرسون ، حتى فى قصائده التى أعقبت تلك الحقبة ، مثل « على شاطئ أونتاريو الأزرق » ، و« أنت أيتها الأم وصغارك المتساوون » ، و« الرحلة إلى الهند » . أما الشعراء الجدد ، الذين بلغوا النضوج فى التسعينات من القرن التاسع عشر ، وفى أوائل القرن الجديد ، فقد عكسوا بمثل صدق الروائيين ، أثر الداروينية والفرويدية . وكان أبرزهم إى . ايه . روبنس ، إذ كان على غرار هاردى وفرانسيس طومسون فى انجلترا ، يشعر بالمصير المأسوى للإنسان وبواجب التصدى له بصلاية وصمود ، وانتزاع شىء من الانتصار الروحى من الهزيمة المادية . ولقد عرض هذا الرأى عن الحياة فى سلسلة من القصائد القصيرة وضعها فى بلدة تيلبىرى الخيالية ولكنها جد حقيقية ، ثم فى ثلاثية الملك آرثر العظيمة — « ميرلين »

أمريكا تبليغ الرشد ٤٣٩

و«لانسيلوت» و«تريسترام» — التي يمكن أن تقاس بأية أعمال شعرية أخرى في هذا الموضوع . أما المؤلف المسرحي والشاعر وليم فوجان مودي — الذي كانت قصائده الشعبية الغنائية «برابرة جلوسستر» وقصائده في الاحتجاج على حرب الفليبين ، من أكثر إنتاجه اقتراناً باسمه — فقد أخذ عن فلسفة روبنس ، وكذلك الشعراء الناشئون الذين بلغوا نضوجهم في العقد الثاني من القرن العشرين .

تلك كانت النهضة الحقيقية للشعر . . كانت ازدهاراً لم يعرف له مثيل منذ عهد نيوانجلاند الذهبي . وقد كتب جون بتلر ييتس : «إن القيثارات ترسل أنغامها في أمريكا بأسرها» . وكان هذا صحيحاً ، ولكنه كان في الغرب الأوسط أصح . فهناك كان كارل ساندبيرج . . عملاق شاب أمريكي من أصل سويدي ، اكتشف شاعرية المدينة ، وأرصفة الشحن ، والمصنع ، والمنجم ، واستجاب لها بديوان على نمط دوواين ويتمان : «نعم ، الشعب» . وهناك إدجار لي ماسترز الذي كان ديوانه «نهر سبون» مقطوعات إغريقية فرويدية ، وفاشيل ليندساي الشاعر الغنائي الذي كان يكتب القصائد للغناء ، والذي أضاف بعداً جديداً إلى شعرنا بدواوينه «بلبل من الصين» و«الجنرال وليم بوت يلج الجنة» و«الكونغو» . أما تى . إس . إيليوت الذي ولد في ميسوري ، وإيزرا باوند الذي ولد في إيداهو ، فقد اكتسبا صيتاً عالمياً ، في اغترابهما عن الوطن . وهناك الشعراء الغنائيون مثل إدنا سامنت فنسنت ميلاي ، وإيلينور وايلي الأنيقة المزهقة ، التي كتبت ما يمكن اعتباره أروع أغاني الحب في الأدب الأمريكي . ويظهر «إرادة فتى» في سنة ١٩١٣ ، تجلّي أبرز شعراء الجيل الجديد : روبرت فروست ، وفروست يحل على كل تعريف أو وصف ، إذ كان من أنصار القديم والحديث ، كان مقلداً ومجدداً . فلم يكن ينتمي لأية مدرسة ، ولا اشترك في أية حركة ، وإنما شق طريقه لنفسه في هدوء ، مبدعاً أسلوباً خادعاً في بساطته ، وهو ينمو عاماً بعد عام في قدرته الخلقية وعمقه الفلسفي . ولم يلق شاعر أمريكي منذ لونجفيلو ما لقيه فروست من إقبال ، ومن حب عميق .

الفنون

كتب الناقد لويس ممفورد إنه لم تكد تحين الستينات ، حتى كانت فوضى العمارة قد

بلغت حدًا نجم عن عدم النظام عنده وحشية ودمامة ماديتان لاتفتان تهاجمان المرء وتصدمان شعوره أينما ولى عينيه . ولقد استمر فن العمارة بدون أسس ، ومشتقاً من مصادر غريبة إلى ما قبل القرن العشرين . فكان النمط من أنماط الدنيا القديمة — أو نمط مقتبس منه — يعقب نمطاً في فوضى تبعث على الحيرة . فنشر جيفرسون ولا تروب فن النهضة الاغريقية ، الذى أفسح مكانه ، فى الأربعينات والخمسينات — لطرز الفيلا الإيطالية ، ثم لأشكال متباينة من العمارة القوطية . وأدخل هنرى إتش . ريتشاردسن الطراز الرومانى ، الذى كان غير ملائم للوسط الأمريكى بدرجة مضحكة . بيد أنه فى كنيسة الثلاث (ترينيتى) فى بوسطن ، وفى مستودع مارشال فيلد قدم مثالين توفر لهما الامتياز البارز والتكامل . ولقد عاد ريتشارد موريس هنت من باريس وهو مشغوف بفن النهضة الفرنسية ، وهو فن العمارة الذى لقى حظوة لدى الأغنياء المحدثين ، فبنى قصوراً فخمة على نسق القصور الريفية الإقطاعية فى فرنسا أو بيوت المدن الشبيهة بقصور علية القوم فى باريس وبوردو . وفى سنة ١٨٩٢ ، اختار هنت وأعوانه النمط الكلاسيكى للعمارة فى تصميم معرض كولبيا فى شيكاغو ، وحشد أقدر رجال الفن فى البلاد ليشتركوا فى بعث الفن الكلاسيكى ، وهم : لويس سوليفان ، وستانفورد هويت ، ودانييل بيرنهام ، ولفن المناظر الطبيعية فردريك لو أولستد الذى كان قد صمم متنزه سنترال بارك فى مدينة نيويورك . وكان المعرض أجمل معارض العصر الحديث ، ولكن جماله كاد أن يكون مقتبساً عن آخره . وفى هذا قال أحد المعمارين لفرانك لويد رايت الشاب : « لقد رأى الشعب الأمريكى الفنون الكلاسيكية على نطاق كبير لأول مرة ، وأكد أرى أن أمريكا بأسرها ستبنى على نسق المعرض ، على الطراز الكلاسيكى الأشم المهيّب » . وسرعان ما تحقق هذا . فقد تبنى واشنطن العمارة الكلاسيكية كطرز رسمى للبنيات العامة ، وانتشرت الكلاسيكية فى البلاد إلى الكليات والمكتبات ومحطات السكك الحديدية والمصارف .

وبدأ ظهور فن أمريكى متميز عن سواه فى العمارة ، على يدى فرانك لويد رايت الذى كان قد آلى على نفسه من قبل الدعوة إلى أن يكون الشكل وفقاً للوظيفة ، والذى كان يرى أن البنائيات ليست وحدات معمارية منفصلة ، وإنما هى أجزاء من مجموع عضوى يضم الأرض ، والوسط ، والمجتمع . ولقد كانت الدور فى نيويانجلاند — فى عهد الاستعمار — وفى بعض المزارع الجنوبية وظائفية أو عملية بشكل واقعى جداً .

أمريكا تبليغ الرشد ٤٤١

بيد أن رايت كان أول مهندس للعمارة جعل الوظيفة أو الأدائية المبدأ الغالب بالنسبة للبنىات العامة والخاصة . وكان قد أنشأ في سنة ١٩٠٦ معبد الوحدة في أولك بارك ، أول الكنائس التي قامت بدور كبير في قلب عمارة البنىات الكنسية في أمريكا . ولقد وجه عبقريته من ذلك الحين إلى منشآت واسعة التباين والتعدد ، مثل بيوت مناطق البرارى ، والمدارس ، والبنىات المكتبية ، والمصانع ، ومنها مبنى لاركين في بفالو ، ومصانع جونسون للشمع في راسين بولاية ويسكونسين . وكما كان رايت أكثر المعمارين الأمريكيين جيعاً أصالة وابتكاراً ، فإنه كان أكثرهم فلسفة ، وأعمقهم وأثبتهم اهتماماً بالمعاني الاجتماعية التي تتضمنها مهنته .

كذلك ظل فن الرسم الأمريكي معتمداً لأمد طويل على الإلهامات الفرنسية الايطالية ، غير أن طائفة من الرسامين ظهرت تبعاً في سنوات ما بعد الحرب ، بطراز أمريكي صميم . وقد أنجبت سنوات الحرب الأهلية أول هؤلاء الرسامين وأطولهم وأعظمهم شهرة ، وهو وينسلو هومز وكانت مجلة « هاربرز » الأسبوعية قد أوفدت هومر إلى الجبهة ليرسم لوحات تخطيطية لحياة المعسكرات وللمعارك ، فأدى المهمة ببراعة لا تزال تستهوى خيالنا . ولقد تحول بعد الحرب إلى رسم اللوحات المستمدة من الحياة اليومية ، وقد رفع هذا الفن إلى أعلى مستوياته في لوحات مثل « ناقوس الصباح » ، و« دع السوط يفرقع » و« الكرنفال » . وكانت الأعوام الوسطى والأخيرة أعظم سنى عمره إبداعاً ، كما كان شأن ویتمان . وفي الثمانينات استقر به المقام على الساحل في مين ، وهناك راح يرسم البحر والقفار ، وقد تجلّت في لوحات : « التيار تحت السطح » ، و« ثمانية نواقيس » و« تيار الخليج » قوة حركة وإصالة لم يعرفها فن الرسم الأمريكي قبل ذلك .

وكان معاصره العظيم توماس إيكينز مفتوناً بالشخصيات افتتان هومر بالطبيعة كما كان متحرر الفكر ديمقراطياً على غرار ویتمان الذى رسم لوحة له . ولم يكن يجد شيئاً غريباً على فرشاته ، مثله في ذلك مثل الرسامين الهولنديين في القرن السابع عشر ، فرسم الشباب يسبحون أو يجدفون ، والجراحين أثناء إجراء عملياتهم ، والأساتذة وهم يحاضرون ، والمغنين على منصات قاعات الموسيقى ، والعلماء في معاملهم ، والملاكمين المحترفين في حلبة الملاكمة . وقد قال ویتمان عنه : « ما عرفت قط فناً يقوى على أن يقاوم إغراء ما يرى أنه كان ينبغي ، بدلاً من أى

يرى ما هو كائن ، سوى واحد ، هوتوم إيكينز » .
 ومع نهاية القرن ظهرت مدرسة من الواقعيين الذين كانوا في الفن أنداداً لستيفن
 كرين ودرايزر في الأدب ، مثل روبرت هنري ، وجون سلوان ، وجورج لوكس ،
 وجورج بيلوز . وكان أغلبهم من تلاميذ إيكينز ، فكانوا يرسمون الحياة حيث وجدوها :
 الأطفال يلعبون تحت جسور الخطوط الحديدية العالية ، والفتيات يحففن شعورهن على
 سطوح البنايات السكنية ، ومرتادو حانة ماكسورلي ، ومعذبة العبور إلى جزيرة ستاتن .
 وقد عرفوا على سبيل السخرية - ثم في إعزاز ، فيما بعد - باسم مدرسة وعاء
 الرماد^(١) ، وكانوا الأنداد الأمريكيين لتولوز لوترك وإدفار مونش .
 ولقد كان أبرز الرسامين الأمريكيين امتيازاً يؤثرون الإقامة والانتاج خارج البلاد .
 وكان جيمس ماكينيل هويسلر السباق إلى ذلك ، حتى قبل نشوب الحرب الأهلية ، فقد
 استقر في السبعينات في لندن ، حيث رسم لوحات « المشاهد الليلية » و« السيمفونيات »
 التي جلبت عليه الاستهجان في البداية ، ثم الشهرة العالمية . ومن المغتربين جون
 سينجر سارجنت ، أبهر الفنانين ، وأكثر رسامي اللوحات الشخصية أناقة في جيله ،
 فكان الذي يرسم بريشة سارجنت صنواً للذي يحظى بوسام ! ومن المغتربات ماري
 كاسات الموسرة الفيلادلفية . وكانت الوحيدة بين أهل الفن الأمريكيين التي قبلها
 الانطباعيون واحدة منهم . وكانت تلميذة لديجا ، وصديقة وداعية لمانيه وغيره ، وقد
 اقترن بذكرها رسوم الأطفال الفخمة الأنيقة ، ورعايتها الناجمة عن سعة خيال
 للانطباعيين ، في وقت كانوا لا يلقون فيه اكترائاً بوجه عام .

التعليم

جدير بنا أن نتذكر أن الآباء المؤسسين كانوا يسلمون بأنه لا سبيل إلى نجاح التجربة
 الديمقراطية بدون ناخبين مستنيرين . ومن ثم فإن التعليم أصبح من البداية نوعاً

(١) Ash-Garn : المعنى الأصل هو الوعاء المعدني للرماد أو النفايات ، ولكنها لم تلبث أن أصبحت مصطلحاً يطلق على
 الفنان الواقعي الذي يعنى بنقل صور الحياة اليومية - المترجم .

٤٤٣ أمريكا تبلغ الرشد

من العقيدة الدينية للأمريكيين ، وله أعياد كالتى تُراعى فى الديانة . . وقد ظل كذلك حتى يومنا هذا . ولقد عرقلت الحرب الأهلية التعليم فى الجنوب ، بيد أنها أذكت نشاطه بدرجة كبيرة فى أرجاء أخرى من البلاد .

وقد جاء التنشيط فى مجال التعليم العالى بوجه خاص : أولاً ، خصص قانون موريل للأراضى الممنوحة ، فى سنة ١٨٦٢ ، لكل عضو فى الكونجرس ٣٠ ٠٠٠ دونم من الأرض ، لتعزيز الفنون الزراعية والصناعية ، وقد خصصت بموجب مواده المستنيرة منح من الأرض للولايات فى كل ولاية من ولايات الاتحاد . وتدين المعاهد العتيقة ، مثل كورنيل ، ومعهد مساشوستس للتكنولوجيا ، وبيرديو ، وجامعة ولاية متشيجان ، بالمؤازرة فى باكورة قيامها لهذا القانون . وثانياً ، شهدت سنوات إعادة التنظيم نشأة أول جامعات بالمعنى الحقيقى فى أمريكا : هارفارد ، التى حولها تشارلز دبليو . إيليوت من كلية إلى جامعة ، فى سنة ١٨٦٩ ، وجامعة كورنيل التى أنشأها إيزرا كورنيل وتولى قيادها رجل العلم والحكم المبرز أندرو دى . هويت ، فى سنة ١٨٦٨ ، وجامعة جونس هوبكينس وهى منشأة جديدة تماماً ، خصصت للدراسات العليا وللبحوث المهنية ، وقد افتتحت فى بلتيمور ، فى سنة ١٨٧٦ . وقد جاءت فى إثرها بعد ذلك : جامعة كلارك فى مساشوستس ، وجامعة ليلاند ستانفورد فى كاليفورنيا النائية ، وجامعة شيكاغو التى أسسها جون دى . روكفلر وأغدق عليها الهبات فى سنة ١٨٩٢ .

ولقد طرأ على التعليم العالى ثلاثة تطورات ذات أهمية باقية ، فى نصف القرن الذى أعقب أبوماتوكس . أولها النمو السريع للتعليم التكنولوجى والمهنى استجابة للمطالب العاجلة لمجتمع صناعى وحضرى معقد . . فأقيمت مدارس جديدة للتكنولوجيا والهندسة والعمارة والقانون والطب . وثانيها توفير دراسات عليا كتلك التى كانت موجودة من عهد طويل فى فرنسا وألمانيا ، وسرعان ما تقدمت هارفارد بعد تحويلها إلى جامعة ، وجامعة جونز هوبكينس الجديدة سواهما فى هذا الميدان ، بيد أن جامعات الولايات لم تتخلف عنها طويلاً . وثالثها توفير التعليم للإناث بدرجة أكثر كفاية ، وإنشاء كليات نسوية جديدة مثل فاسار وويليسلى وسميث ، وانتهاج التعليم المشترك فى الجامعات الجديدة التى أنشأتها الولايات خارج الجنوب ، وفى كثير من المعاهد الخاصة . وفى الوقت ذاته ، تكفلت معاهد دراسية حديثة الشئ ، مثل جامعة هوارد فى العاصمة القومية ، وجامعة فيسك فى ناشفيل ، ومعهد هامبتون فى فيرجينيا ، بتوفير التعليم العالى والمهنى للزواج .

٤٤٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

وبما يسر هذه التطورات ، ظهور فريق من رجال الحكم التربويين في ذلك الجيل ، كانوا أبرز من ظهوروا في تاريخنا : أندرو ديكسون هويت ، من كورنيل — الذى توصل إلى فكرة قيام جامعة يستطيع فيها أى طالب للعلم أن يدرس أى موضوع ، وتشارلز دبليو . إيليوت ، الذى حول هارفارد من كلية إلى جامعة ، وأدخل النظام الاختيارى ، ورفع المستويات في جميع المدارس المهنية ، ودانييل كويت جيلمان ، الذى خطط ووجه غايات جامعة جونز هوبكينس الجديدة ، وجيمس بى . أنجيل الذى جعل جامعة متشيجان نموذجاً لجامعات الولايات ، وتشارلز فان هايز المشول عن « فكرة ويسكونسين » عن تكامل الجامعة مع البلد الذى تقوم فيه ، ووليم رينى هاربر الذى جعل من جامعة شيكاغو الجديدة أحد المراكز المترزمة للتعليم في العالم — في فترة وجيزة — وبوكر تى . واشنطن الزعيم الزنجرى العظيم ، الذى أنشأ معهد تسكجى في سنة ١٨٨٢ .

ولقد كان التعليم العام في ركود ، بالرغم من الجهد الرائد الذى بذله هوريس مان وهنرى بارنارد في الجيل السابق على الحرب الأهلية . فإلى سنة ١٨٧٠ ، كان عدد المسجلين رسمياً في المدارس العامة ٧ ملايين ، في حين أن متوسط عدد الموظفين على الدراسة لم يتجاوز ٤ ملايين ، ومتوسط عدد أيام الدراسة ٧٨ ، ولم يكن في المدارس الثانوية سوى ٨٠ ٠٠٠ طالب فحسب . ولم يتحسن الموقف تحسناً ملموساً إلا مع بداية القرن العشرين . فلم يحن عام ١٩٢٠ ، حتى كان في المدارس الأولية حوالى ٢١ مليون صبي وصبية ، وفي المدارس الثانوية ما يتجاوز مليونين .

وكان أهم تطور ، هو ما لقيته هذه الاصلاحات ، التى لم تلبث أن عرفت باسم التعليم التقدمى — وإن كان في هذا بعض التجاوز — من تقبل عام . وتدين هذه الفلسفة الجديدة في التعليم بشيء من الفضل إلى تعاليم التربويين الألمان في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، كما تدين بقدر أكبر للفلسفة وعلم النفس الجديدين اللذين عزياً إلى وليم جيمس . وكان الفيلسوف البراجماتى جون ديوى هو الذى صاغ المجموعة الجديدة من الأفكار في واحد من أشهر المؤلفات التربوية قاطبة ، هو « المدرسة والمجتمع » ١٨٩٩ ، والذى أوفد مئات من أشد تلاميذه تحمساً لنشر مذهبه التعليمى الجديد ، أثناء توليه منصبه المهني في جامعة شيكاغو ، ثم جامعة كولبيا . ولقد حول التعليم التقدمى الاهتمام عن التعليم إلى التعلم ، وعن المادة النظرية إلى

أمريكا تبلى الرشد ٤٤٥

التدريب للطفل ، وعن التعليم بوصفه « إعداداً للحياة » إلى التعليم كجزء من الحياة ذاتها لا غنى عنه . وإن هو إلا جيل واحد تقريباً ، حتى كان التعليم التقدمى قد غزا البلاد ، ولقد تضاءلت سمعته بعض الشيء ، فى أعقاب الحرب العالمية الثانية . غير أن هذا كان راجعاً ، فى المقام الأول ، إلى أن تعليماته أصبحت تقبل على أنها الوضع البدهى للموضوع — وهو ما يحدث لكثير من الفلسفات الناجحة .



الفصل ٢١

وودرو ويلسون والحرب العالمية

وودرو ويلسون

كان وودرو ويلسون ، في كثير من الاعتبارات ، أبرز شخصية في السياسة الأمريكية بعد جيفرسون . كان رجل علم وفكر ، لم يتعوّد جلبة الحياة العامة وضجيجها ، ولكنه مع ذلك كان بارع الذكاء ، واقعياً ، واسع الحيلة . ومع أنه كان حالمًا ومثاليًا ، فقد كان في الوقت ذاته أكثر الزعماء السياسيين بعد لينكولن واقعية ودهاء . كان من المتمسكين بالأخلاق في السياسة والشؤون الدولية ، وقد بُعِثت فيه روح أسلافه من أصحاب العهد ^(١) . فاجتمعت فيه حفاوة مجاملة عتيقة الطراز مع حب للنزال شديد الأوار ، وولاء حار للمبدأ مع ضراوة عنيدة في التمسك به . فلم تتسم خطبه بشيء من اللطف الأليف الذي كان في خطب بريان ، ولا العنف الصريح الذي خالط خطب

(١) جماعات ظهرت في فترات من تاريخ اسكتلندا ، كان أفرادها يتعهدون على التساند والتكاليف للدفاع عن مبدأ من المبادئ ، وأشهرهم جماعة « الميثاق القومي » - سنة ١٦٣٨ - للحفاظ على نقاء العقيدة المشيخية ومقاومة البدع المستحدثة - المترجم .

روزفلت ، وإنما اتسمت ببلاغة رفيعة ، وجمالاً شاعرياً لا نظير لهما منذ لينكولن . وكان دارساً للعلوم السياسية ، وقد وضع عدة كتب في الحكومة تعتبر حجة ، كما كانت له آراء خاصة تامة النضوج في طبيعة منصب الرئاسة ، والنظام الحزبي ، ومكانة الولايات المتحدة بين دول العالم ، كما كان مستعداً لتنفيذ هذه الآراء عملياً . ولقد وصفه الوزير لين بأنه « نظيف ، قوى السيطرة ، رفيع الفكر ، هادئ الجنان » ، وكان بجانب ذلك شرساً ، لا يلين في المسائل الفكرية ، شديد الاستياء والتصدى إذا صادف معارضة . وكان متجرداً من الطابع الشخصي في علاقاته فكانت جاذبيته للناس أشبه بجاذبية المبدأ المجرد ، ولم يسمح قط للعاطفة الشخصية بالتدخل في سياسته . ولا صفح يوماً عن صديق عجز عن الارتقاء إلى معايير السامية .

ولقد قضى ويلسون الشطر الأكبر من عمره في الأروقة الأكاديمية ، كأستاذ للسياسة ورئيس لجامعة برينستون . وفي سنة ١٩١٠ ، أبرزه كبار المسيطرين على الحزب الديمقراطي في نيوجيرسى ؛ ليكون « نافذة عرض ناطق » لهم ، فإذا به يستولى على « الحانوت » السياسى بأكمله . ولم ينقض عامان حتى كان قد طرد المسيطرين من المعابد السياسية ، وحول نيوجيرسى من ساحة ثانوية عفنة للسياسة الأمريكية ، إلى ولاية مثالية ، وصقل في هذه العملية كثيراً من الأساليب التى قدّر له فيما بعد أن يستخدمها ببراعة : الإقدام الجريء ، والإخلاص الصادق الذى يأسر المشاعر ، والمثالية البارزة ، والإصرار على مركزه كزعيم حزبي ، ومخاطبة الشعب نفسه متجاوزاً السياسيين ، واستراتيجية الهجوم الخاطف ، المتواصل . وكانت منجزاته اللامعة في نيوجيرسى ، هى التى جعلته شخصية قومية ، واجتلبت له تأييد رجال من أمثال بريان وأتاحت له الترشيح لمنصب رئاسة الجمهورية . وكان صدقه الشفاف ، وبلاغته التى لا تبارى في الحملة الانتخابية ، هما اللذين مكناه من الانتصار على روزفلت .

وكان الخطاب الذى افتتح به عهده تحدياً ووعداً ، في آن واحد ، وقد قال فيه : « ما من أحد يخطئ الغاية التى من أجلها تسعى الأمة اليوم إلى استعمال الحزب الديمقراطي . إنها تبغى استعماله لأداء تغيير في خططها ووجهة نظرها » . وأعقب ذلك برنامج للإصلاح البناء لتحقيق « الحرية الجديدة » ، برنامج جسور وشامل في آن واحد . فقال : « لقد فصلنا الأمور التى ينبغى تغييرها » ، وذكر منها تعريفه بجمركية تجعل الحكومة أداة سهلة في أيدي ذوى المصالح الخاصة ، ونظاماً مصرفياً ونقدياً مهيباً

٤٤٩ وودرو ويلسون والحرب العالمية

أكمل تهيؤ « لتركيز النقود السائلة وتقييد القروض » ، ونظاماً صناعياً يقيّد الحريات ويحد من فرص العمالة ، واقتصاداً زراعياً عديم الكفاءة وغير معتنى به ، واستغلال الموارد الطبيعية للكسب الخاص . وكان على الحكومة ، من الناحية الايجابية أن ، « تكون في خدمة الانسانية » ، وتصون صحة وخير النساء والأطفال والمستضعفين .

وقدر لهذه الاصلاحات أن تتحقق بحذاقها ، وبكفاءة ، بيد أن عملية الاصلاح لم تكن « مجرد عملية هادئة قائمة على العلم وحده » ، وإنما :

سرت في الأمة هزة عميقة . . هزها شعور عاطفى جليل ، هزها إدراك الخطأ ، إدراك المثل العليا المضئعة ، إدراك حكومة تُعاب أكثر مما ينبغي ، وتُتخذ أداة للشر . إن المشاعر التى نواجه بها هذا العصر الجديد ، عصر الصواب والفرصة تهب على أوتار قلوبنا كأنها هواء منبعث من وجود الرب ذاته ، حيث يربط الوفاق العدالة بالرحمة ، وحيث القاضى والأخ واحد . إننا لنذكر أن واجبنا ليس مجرد مهمة تتعلق بالسياسة ، وإنما هى تسبر أعماق أغوارنا . . .

« الحرية الجديدة » تنشيط للعمل

تلك كانت مثلاً عالياً رفيعة ، صيغت ببلاغة ، أفكان فى طوق ذلك العالم المتفقه ، الذى ارتقى الرئاسة بما يشبه المعجزة ، أن يترجمها إلى قانون ؟ إنه سرعان ما أبدى أنه كان يعتزم العمل . فاستدعى الكونجرس إلى دورة خاصة ، حتى إذا اجتمع ، أحياً ويلسون تقليداً كاد أن يكون منسياً ، إذ خاطبه شخصياً ، فقال : « إن الرسوم الجمركية يجب أن تعدل . يجب أن نلغى كل ما يوحى ولو بشبهة الامتياز » . وكان الأمر خطيراً . فما تعرض نظام الحماية الجمركية لأى خرق حقيقى منذ الحرب الأهلية ، ولم يظفر كليفلاند من أنصار الحماية بغير تنازلات طفيفة ، كما أن روزفلت الداهية تفادى الموضوع تماماً . على أن أندروود نائب ألاباما ، وهل نائب تيسى ، كانا قد أعدا مشروعاً بقانون ، وتحت صرامة السلطة التنفيذية ، أجاز مجلس النواب المشروع بسرعة كافية . غير أن عملاء الضغط السياسى تدفقوا على العاصمة كجيش من النهابين ، عندما تلقف

مجلس الشيوخ مشروع القانون ، وتوقع المراقبون تكراراً للفشل المدوى الذى حدث فى سنة ١٨٩٠ ، عندما خرج مشروع لإصلاح التعريف الجمركية من الكونجرس مشوهاً مبتوراً ، حتى أن كليفلاند استنكره ، واصفاً إياه بأنه خيانة حزينة ، وخزى حزبى ، وأبى أن يوقعه باسمه . إذ ذاك هاجم ويلسون الضغط للتأثير على الهيئة التشريعية ، فى رسالة للجمهور ، قائلاً : « من المهم لمصلحة البلاد ، أن لا يكون ثمة ضغط مؤثر على الشعب بوجه عام . . . فى حين أن هيئات كبيرة من الدهاة يسعون لخلق رأى عام مصطنع ، ولتخطى مصالح الجمهور من أجل نفعهم الخاص » . وكان اللوم قوى المفعول ، فلم ينقض ستة أشهر على تولى ويلسون الحكم ، حتى وقع وهوراضى النفس قانوناً للتعريف الجمركية ، عكس بصورة صادقة الوعود التى تضمنها البرنامج والعهود التى تضمنتها الحملة الانتخابية ، إذ حقق أول تنقيح حقيقى فيما يزيد على خمسين عاماً لتخفيض الرسوم الجمركية .

واعتمدت البلاد وتأملت ، فها هو ذارئس للسلطة التنفيذية يعنى ما قال ، ويفعل ما اقترح عمله . ولم يمهل ويلسون حزبه ، بل راح يذكّره — حتى أثناء مناقشة الكونجرس فى اقرار الجداول الجمركية — بما تعهد به فى خطابه الافتتاحى من اصلاح « نظام مصرفى ونقدى قام على حاجة الحكومة لبيع سنداتنا قبل خمسين عاماً ، ومهيئاً أكمل تهيو لتركيز النقود السائلة وتقييد القروض » . وكان هذا الموضوع كموضوع التعريف الجمركية ، محشواً بالديناميت السياسى . فلقد عانت الأمة طويلاً من نظام ائتمانى ونقدى غير مرن ، وكان كل الناس تقريباً متفقين على تشخيص الداء ، ولكن الذين اتفقوا فى رأى بصدد العلاج كانوا قلة . ولقد صدر فى عهد حكومة روزفلت قانون لرتق النقص ، إذ سمح للمصارف القومية بإصدار عملة للطوارئ ، وقدمت لجنة لبحث نظام النقد سلسلة مفصلة من التقارير عن الأعمال المصرفية فى الدول الأخرى . بيد أن الوقت كان قد حان من عهد طويل لتحقيق إصلاح شامل للنظام المصرفى . واحتشد أصحاب المصارف ليضعوا قانوناً يستمرو بمقتضاه فى السيطرة . أما بريان الذى طال جدله بأن مسألة المال مسألة ذات أهمية عليا ، فقد صمم على وجوب سيطرة الحكومة على الائتمان . وقد انحاز إليه ويلسون الذى لم يكن على دراية واسعة بالنواحي الفنية للنظام المصرفى ، ولكن دراسته لتاريخ مصرفى الدولة الأول والثانى لم تكن عبثاً . فقال : « إن السيطرة يجب أن تكون عامة وليست خاصة . . يجب أن

٤٥١ وودرو ويلسون والحرب العالمية

توكل للحكومة ذاتها ، حتى تكون المصارف أدوات وليست سادة للسيطرة على التجارة والصناعة والم شروع الفردى وروح المبادرة » . ولقد حقق هذه المطالب قانون الاحتياطى الاتحادى ، الذى صدر بعد نقاش طويل . فقد قضى على مركزية النظام المصرفى ، وهياً تسهيلات مصرفية أفضل للجنوب والغرب اللذين كانا مُهمَلين ، ووفر بالأوراق المالية للاحتياطى الاتحادى عملة مرنة تحت سيطرة الحكومة . وقد جاء نظام الاحتياطى الاتحادى فى الوقت المناسب ، فلولاها لما كان مقدراً للحكومة أن تنجو من أزمة الحرب العالمية .

وتمثل إنجاز تشريعى رئيسى ثالث للحكومة الجديدة ، فى تنظيم الترسنات . ذلك أن قانون شيرمان كان أشد أثراً على العمالة منه على التجمعات الصناعية الكبرى . وكانت التحريات الحديثة قد كشفت عن أن حركة تركيز السيطرة فى الصناعة والنقل والعمليات المصرفية تسير بسرعة كبيرة . فما إن فرغ ويلسون من التشريعات الجمركية والمصرفية ، حتى سار فى تنفيذ تعهداته الانتخابية . وإذا قانون كلايتون المناهضة الترسنات - الصادر فى سنة ١٩١٤ - يحدد بعناية عدداً من إساءات التصرف ، ويحرم التفرقة فى الأسعار مما ينحو إلى خلق احتكارات ، ويمنع الربط بين الشركات الكبيرة و« إدارات متداخل بعضها فى بعض » ، ويجعل مديرى الشركات مسئولين شخصياً عن انتهاكات القوانين المناهضة للترسنات . ولقد أحبطت المحاكم إلى حد كبير حركة - لعلها كانت صادرة عن قصد - لإقصاء العمالة عن دائرة تطبيق القانون . وأقيمت فى الوقت ذاته لجنة اتحادية للتجارة ، لتحقيق فى العمليات التجارية والصناعية ، وتنصت إلى الشكايات من الأساليب غير العادلة ، وتوقفت الاجراءات الضارة عن طريق إصدار أوامر « الكف والارتداع » .

ولم يكن المزارعون والعمال نسياً منسياً . فقد يَسَّرَ قانون اتحادى للاقراض الزراعى القروض للزراعيين بأسعار للفائدة منخفضة ، كما أن قانوناً لمخازن الإيداع ، حقق إلى حد كبير مشروع الشعبين القديم بأن تيسر خزانة الدولة القروض للزراعيين ، إذا حوّل تقديم القروض بضمّان المحصولات الرئيسية . أما قانون لا فوليت للعاملين فى البحار - الصادر فى سنة ١٩١٥ - فقد حرر المغلوبين على أمرهم من العاملين فى البحار من الظلم الذى طال عناؤهم منه . فى حين أن قانون آدمسون - الصادر فى العام التالى - أقر أن يكون يوم العمل لعمال السكك الحديدية ثمانى ساعات . ولقد أجاز الكونجرس قانونين

يهدفان إلى وضع نهاية لفضيحة تشغيل الأطفال في الصناعة ، بيد أن المحكمة العليا أبطلتهما بحجة أن الكونجرس لم يؤت سلطة إصدار لوائح للعمل سواء بمقتضى سلطته الضريبية أو سلطته في الإشراف على التجارة . وفي حركة تكفير عامة نادراً ما تصدر عن المحكمة ، أقدمت بعد ذلك باثنين وعشرين عاماً على الاعتراف بأنها ضلت عن الصواب بقرارها السابق ، وسمحت للكونجرس بأن ينهى تشغيل الأطفال .

وهكذا دفع ويلسون في ثلاث سنوات من التشريعات الهامة أكثر مما فعل أى رئيس منذ عهد لينكولن . وكشف عن إمكانات لا تحوم حولها شبهات في قيادة السلطة التشريعية للكونجرس وفي قيادة رئيس الجمهورية للحزب . وبرهن على أن بوسع الديمقراطية أن تعمل بسرعة وكفاءة إبان الأزمة .

سياسة خارجية ديمقراطية

انحرفت سياسة ويلسون الخارجية انحرافاً حاداً عن سياسة سلفه ، كما كان الأمر بالنسبة للسياسة الداخلية . إذ أن روزفلت كان قد لَوَّح مبهجاً بـ « العصا الغليظة » في السياسة الخارجية ، في حين شجع تافت ما أصبح معروفاً بـ « دبلوماسية الدولار » . وما من مرأى في أن هاتين السياستين قد عادتتا على الولايات المتحدة بمزيد من النفوذ في الشؤون العالمية ، ولكن في مقابل إثارة عداوة دول أمريكا اللاتينية ، وتعرض رفاهيتنا للخطر نتيجة إقحامنا في مغامرات دبلوماسية وتجارية عشوائية لم تكن لنا فيها مصلحة حقيقية . وكان أول الأعمال الرسمية لويلسون ، هو سحب الموافقة الرسمية على مشروع قرض مصر في الصين ، بسبب أنه « لم يكن يقر شروط القرض أو ملابسات المسؤولية » . وفي الأسبوع ذاته ، أعلن غرضه الرامى إلى « تنمية الصداقة والظفر بالثقة » لدى جمهوريات أمريكا اللاتينية . وبعد ذلك بقليل ، أوضح في خطابه في موبيل شجباً موضوعياً لدبلوماسية الدولار بالذات ، ووعداً بأن الولايات المتحدة لن تسعى قط مرة أخرى إلى اكتساب أراضٍ بالغزو . وكان مقدراً أن تدفع الظروف الولايات المتحدة إلى التورط في شؤون عدد من جمهوريات حوض الكاريبي وأمريكا الوسطى ، بيد أن ويلسون رفض بإصرار طويلة حكمه أن يجعل التدخل عذراً للاستغلال .

٤٥٣ وودرو ويلسون والحرب العالمية

ولقد كانت العلاقات مع المكسيك مثلاً وافياً لمصاعب السياسة الويلسونية . فلقد ظلت تلك البلاد التعسة خمسة وثلاثين عاماً تثن تحت وطأة حكم بورفيريو دياز الطاغية الذى هبط بشعبه إلى مصاف العاملين بالسخرة ، بينما كان يبيع بلاده للشركات التعدينية والتجارية الأجنبية . وفى سنة ١٩١١ ، ثارت الطبقات الوسطى والكادحون ، وطردها دياز ، وأقاموا ليبراليا يدعى فرانسيسكو ماديرورئيساً للجمهورية . وبدا كأن فجر عهد جديد بزغ فى المكسيك ، بيد أنه لم تكد تكتمل سنتان حتى قامت حركة ثورية مضادة بزعامة فيكتوريانو هورتا ، وأطاحت بهاديرو واغتالته . واغتبطت الشركات الأجنبية للبترول والسكك الحديدية والمناجم والأراضى ، إذا توقعت عودة أيام دياز المثقلة بالخيرات ، كما أن معظم الدول الكبرى سارعت إلى الاعتراف بالرئيس الجديد . ولكن ويلسون لم يحذو حذو سواه ، فقد شعر بأن الاعتراف بهورتا بمثابة الرضى عن القتل ، ولم يرحضه عن موقفه إلحاح أصحاب الأعمال الأمريكيين الذين كانت أرباحهم هى الغاية الأولى ، وقال وهو يستبق الموقف الذى قدّر له أن يتخذه فيما بعد ، فى أزمة أكبر من هذه : « أننا نؤمن بأن الحكم العادل يقوم دائماً على رضى المحكومين ، وأنه لا يمكن أن توجد حرية بدون نظام يستند إلى القانون ، وإلى وعى الجماهير ورضاهما » . ولقد تعرضت هذه السياسة التى تقيم الاعتراف على اعتبارات خلقية ، للنقد إذ ذاك وفيما بعد ، بوصفها تحولاً عن العادة الصحيحة ، وعن إملاءات النفعية . ولقد قال امبراطور ألمانيا : « لا بأس بالقواعد الخلقية ولكن ما مصير حصص الأرباح ؟ » غير أن ويلسون تبين — كما تبين فرانكلين دى . روزفلت بعده بجيل — مدى خطورة العواقب القضائية التى قد تترتب على الانصياع للأعمال غير القانونية أو الاعتراف بشمار العنف ، ولعله لم يقدّر تمام التقدير مصاعب جعل الاعتراف مستنداً إلى حكم الاختلافات الخلقية بين الأطراف المتضادة ، وهى فوارق دقيقة ومعقدة دائماً ، ورواغة خادعة عادة .

ولم يكتف ويلسون برفض الاعتراف بهورتا المخضب اليدين بالدم ، بل استدرج بريطانيا إلى تأييد سياسته . . وهو تأييد كسبه بتنازلات جاءت فى وقتها بالنسبة لمسألة رسوم قناة بناما . ومع ذلك فإن العلاقات مع المكسيك أخذت تسوء بسرعة ، حتى إذا قبض هورتا على بعض ملاحين أمريكيين فى تامبيكو بادر ويلسون إلى إنزال مشاة البحرية فى فيرا كروز . وبدا أن الحرب محتومة ، ولكن ويلسون لم يكن يتتوى أن يسمح للموقف

بأن يفلت من يده ، وبفضل إقامته فاصلاً مميزاً بين الشعب المكسيكى — الذى كان يرجو صداقته — والحكومة المكسيكية التى عقد العزم على القضاء عليها ، نجح فى كبح صيحة الحرب الغاضبة فى بلاده ، وهويستدرج هورتا إلى وضع لا يستطيع الصمود فيه . ثم استغل فرصة الأزمة المكسيكية ، فأخذ يبرز سياسته القائمة على معاملة جمهوريات أمريكا اللاتينية على قدم المساواة ، بأن أوعز إلى الأرجنتين والبرازيل وشبلى بالمعاونة فى تسوية النزاع . وعندما وقفت هذه الدول فى صف الولايات المتحدة ، اضطر هورتا إلى الفرار من البلاد ، وتولى الحكم كارانزا ، زعيم أنصار الدستور . ولقد استمرت المتاعب بعد ذلك . وعندما أغار زعيم قطاع الطريق المكسيكى بانشو فيلا على كولبس ، فى نيومكسيكو ، أوفد ويلسون حملة بقيادة الجنرال بيرشينج لتأديبه . فأبى كارانزا هذا الغزو ، وتصاعدت صيحات الغضب من أنصار العنف الأمريكين مطالبة بالحرب ، بيد أن السلام ساد الموقف ، وسُمح للمكسيك بأن تتولى إنقاذ نفسها بنفسها . ونجحت سياسة « الانتظار والمراقبة » ، التى كانت تُرمى بأنها سياسة تحاذل ، فى تحقيق هدفها المزدوج : مساعدة المكسيك وكسب ثقة جمهوريات أمريكا اللاتينية .

على أن سياسات ويلسون أخفقت فى أن تتطابق مع المبادئ فى أى مكان آخر فى حوض البحر الكاريبى . وعلى أية حال ، فلم يكن ثمة فارق يُذكر بين مسلك ويلسون نحو نيكاراغوا ، وسانتو دومينجو ، وهايتى ، وتصرفات الحكومات السابقة . فإن المعاهدة التى توصل إليها بريان مع نيكاراغوا انتقصت سيادة هذه الدولة اللاتينية انتقاصاً قاسياً ، حتى إن محكمة الصلح فى أمريكا الوسطى استنكرتها رسمياً ، فقد أخذ الوزير المفوض الذى أوفده بريان إلى سانتو دومينجو يتصرف كأنه حاكم عام لتلك البلاد ، كما أن مشاة الأسطول الذين نزلوا فى هايتى وتقاضوا ضريبة باهظة من أرواح أهلها ، لم يبارحوها نهائياً إلا فى سنة ١٩٣٠ .

وكشفت حكومة ويلسون فى ميدانين آخرين عن حرصها على صون السلام وقداسته بالاتفاقات التعاهدية . فإن بريان الذى تربع على رأس وزارة الخارجية ، كان موقناً من عهد بعيد بأن كافة المنازعات الدولية قابلة للتحكم ، ووضع وأبرم بتشجيع من ويلسون معاهدات لتهدئة الخواطر مع دول أجنبية . وقد نص فيها على التحكيم والتراضى فى كل المسائل — دون استثناء لما يمس منها الكرامة القومية — وإرجاء كل استعداد حربى

٤٥٥ وودرو ويلسون الحرب العالمية

لمدة عام يكون فترة تهدئة للخواطر . ولقد دارت المفاوضات حول ثلاثين من هذه المعاهدات ، ولم تبرم سوى اثنتين وعشرين منها . فقد رفضت ألمانيا بصلف قبول واحدة منها . وعندما قدمت اليابان ، في سنة ١٩١٥ ، إلى الصين مطالبها الواحد والعشرين المستهجنة ، وهى ماضية فى سياستها المتهورة التى أدت آخر الأمر إلى حرب مع الولايات المتحدة ، قدمت وزارة الخارجية الأمريكية احتجاجاً بأن هذه المطالب كانت انتهاكاً شنيعاً لسياسة الباب المفتوح ولل قانون الدولى .

الحرب العالمية والحياد

كانت أوروبا هى مصدر أشد تهديد للسلام الأمريكى . ففى ٢٨ يونيو ، أطلق أحد الوطنيين الصربيين رصاصة تردد صداها فى كافة أرجاء العالم . وإن هى إلا خمسة أسابيع ، حتى كانت أوروبا كلها مشتبكة فى أكبر حروب العصر الحديث . وكان رد الفعل الأمريكى يجمع بين عدم التصديق والخيرة . وعندما أعلن الرئيس ويلسون حياد أمريكا رسمياً ، كان ينطق بإجماع من الأمة ، بل إنه كان يعبر عن موقف أغلبية الأمريكيين ، حتى عندما دعا إلى الحياد الفكرى بجانب الحياد العملى .

ومع ذلك فما كان بوسع الأمريكيين أن يكونوا أكثر انصرافاً عن صراع سنة ١٩١٤ ، منهم عن صراع سنة ١٩٣٩ ، وتجلى فى النهاية أن الحياد مستحيل ، سواء فى الفكر أو فى السياسة الحكومية . كان الشعور الأمريكى محشوداً على أشد وجه منذ البداية . وكانت الأغلبية الساحقة من الشعب تأمل أن يكون الفوز لبريطانيا وفرنسا وبلجيكا . فقد كانت تربطه بالشعب البريطانى مائة رابطة من ثقافة وتقاليد ونظم مشتركة وتطلع مشترك . ولم تكن ذكرى المساعدة الفرنسية فى الثورة ، والاعجاب بمقاومة الشعبين الفرنسى والبلجيكى الباسلة ، أقل من ذلك قوة . وكان المتعاطفون مع دول أوروبا الوسطى قلة نسبياً ، مؤلفة من عناصر قليلة ، فى مقدمتها الأمريكيون من أصل ألماني الذين استجابوا لنداء الدم ، والأمريكيون من أصل إيرلندى الذين ورثوا الكراهية لبريطانيا . كانت السياسة الألمانية فى حوض المحيط الهادى ، وفى الصين ، وفى البحر الكاريبى ،

والتصرفات القاسية للعسكريين الألمان ، وخطرسة المثقفين والساسة الألمان . . كانت هذه جميعاً قد ألّبت مشاعر الأمريكيين قبل الحرب بزمان طويل ، وأدى غزو بلجيكا دون ما استفزاز إلى تأكيد أسوأ الهواجس إزاء ألمانيا . كما تجلّى أن الألمان كانوا يناصرون الآراء الاستبدادية في الحكم والمجتمع ، وأنه إذا قدّر لهم التسلط على أوروبا فلن يلبثوا قطعاً أن يتصادموا مع أمريكا الديمقراطية ، عاجلاً أو آجلاً .

هذان الاعتباران — التعاطف مع الحلفاء والخوف من عواقب انتصار ألمانيا — كانا حاسمين في السيطرة على السياسة الأمريكية في آخر الأمر . ولقد عززت الاعتبارات الاقتصادية الاعتبارين العاطفي والسياسي . فأقرض الشعب الأمريكي بريطانيا وفرنسا مبالغ هائلة من المال . وسارعت الصناعة الأمريكية إلى تهيئة نفسها وفقاً لحاجات بريطانيا وفرنسا الحربية ، فأخذت تمدّها بكميات ضخمة من المدافع والقذائف والمتفجرات الشديدة وغيرها من المواد ، وتجنّى من ذلك أرباحاً باهظة . وكانت المصارف الأمريكية تعمل كوكلاء للحلفاء في الشراء ، وطرحت قروض الحلفاء للاكتتاب ، وأقامت حسابات ائتمانية للحلفاء في الولايات المتحدة . كما أن الزراعة الأمريكية أفادت من كساد حاد سبق الحرب ، فوجدت أسواقاً مهيّأة ومربحة للقطن والقمح ولحم الخنزير في إنجلترا وفرنسا . وفي تلك الأثناء ، كان الاتجار مع الدول الوسطى غير ذى بال ، كما أن الحصار البريطاني حدّ بكفاءة من الاتجار مع الدول المحايدة هي الأخرى .

ومع ذلك ، فلم تكن الاعتبارات الاقتصادية هي التي أنفعت ويلسون والشعب الأمريكي بحتمية الحرب ، بل كانت السياسة الألمانية الزاخرة بـ « التخويف » هي التي أقنعتهم . فقد استخدمت الغواصات لإغراق السفن التجارية ، ولم يكن بالوسع إنقاذ أرواح الملاحين أو المسافرين . وعندما أغرقت الباخرة البريطانية لوزيتانيا — في سنة ١٩١٥ — وراح معها ما يزيد على ألف ومائة شخص ، منهم ١٢٨ من الأمريكيين ، غشيت البلاد موجة من الجزع والغضب . ووعدت ألمانيا بأن تصلح نهجها ، وهذا ويلسون من نائرة الشعب ، بيد أن الذين كانوا يعتقدون أن على أمريكا أن تستعد للحرب ازدادوا عدداً وعزماً . وفي تلك الأثناء كان ويلسون قد انتهى إلى أن الطريقة الوحيدة لاستبقاء الولايات المتحدة خارج الحرب ، هي في إنهاء الحرب ذاتها . فراح يعمل دون هوادة طيلة سنة ١٩١٦ لاقتناع المتحاربين بأن يطرحوا عنهم أهدافهم من الحرب ، وأن يمهّدوا الطريق لتنظيم عالم ما بعد الحرب .

٤٥٧ وودرو ويلسون والحرب العالمية

ونجح ويلسون في انتخابات الرئاسة ، سنة ١٩١٦ ، وكان الفضل الأكبر راجعاً إلى أنه « استبقانا خارج الحرب » . غير أنه لم يقدم أى تعهدات بشأن المستقبل ، ولا هو وعد بشراء « السلام بأى ثمن » . بل إنه حتى يناير سنة ١٩١٦ كان يحذر الشعب الأمريكى بكلمات كان جديراً بسادة الحرب فى ألمانيا أن يحفلوا بها :

إننى لأعرف أنكم تعتمدون علىّ لاستبقاء هذه الأمة خارج الحرب . ولقد فعلت هذا حتى الآن ، وإنى لأعاهدكم - وليساعدنى الرب - على أننى سأفعل هذا . . إذا أمكن . بيد أنكم ألقىتم على كاهلى واجباً آخر . لقد طلبتم منى أن أعمل على ألا يطلع شئ شرف الولايات المتحدة أو يمس ، وهذه مسألة ليست فى طوقى ، بل إنها تتوقف على ما يفعل الآخرون ، وليس على ما تفعله حكومة الولايات المتحدة .

وفى أوائل سنة ١٩١٧ ، أعلن الألمان العودة إلى حرب الغواصات بشدة غير محدودة ، وهم واثقون من أن بوسعهم أن يقضوا على انجلترا جوعاً فى ستة أشهر ، وأن المساعدة الأمريكية ما كانت فى ذلك الحين قديرة . وفى بضعة أسابيع ، أغرقت ثمانى سفن أمريكية ، واثارت ثائرة الشعب بانكشاف مؤامرة لتوريط الولايات المتحدة فى حرب مع المكسيك واليابان . وتحلى أن صون الكرامة والسلام معاً قد أصبح « مستحيلاً ومتناقضاً » . وفى ٢ أبريل ، وقف ويلسون فى الكونجرس ، وطلب إعلان حالة الحرب :

إنه لأمر مخيف أن نقود هذا الشعب المسالم العظيم إلى الحرب ، إلى أفطع الحروب جميعاً وأحفظها بالدمار ، حتى أن الحضارة ذاتها تبدو مؤرجحة فى الميزان . بيد أن الحق أعلى وأثمن من السلام ، وسنقاتل من أجل الأمور التى اعتدنا أن نعتز بها دائماً إياها اعتزاز . . من أجل الديمقراطية ، من أجل حق أولئك الذين يخضعون للسلطة لكى يكون لهم صوت فى حكم بلادهم ، من أجل حقوق وحرىات الدول الصغيرة ، من أجل سيطرة عالمية شاملة للحق عن طريق اتفاق بين الشعوب الحرة يجلب السلام والسلامة لجميع الأمم ، ويجعل العالم نفسه آخر الأمر حراً . لمثل هذا الواجب نستطيع أن نكرس حياتنا وأقدارنا ، وكل ما نحن عليه وكل ما نملك ، مع عزة أولئك الذين يعلمون أن اليوم قد

حان لأن تحظى أمريكا بامتياز إنفاق دمها وقوتها من أجل المبادئ التي تدن لها بمولدها ، ومن أجل السعادة والسلام اللذين تعتز بهما . وهي لا تملك أن تفعل غير هذا ، والله في عونها .

وفي يوم الجمعة الحزينة ، السادس من إبريل سنة ١٩١٧ ، دخلت الولايات المتحدة الحرب .

الحرب

القوة ، القوة إلى أقصى مدى ، القوة دون حصر ولا حدّ . وهكذا وعد الرئيس ويلسون ، وقد سارعت الأمة للوفاء بوعده . وما أبدت الحكومة في أية حرب سابقة من الذكاء والكفاءة ، ولا كشف الشعب الأمريكي عن طاقة ، وسعة حيلة ، وعبقريّة إبداعية ، أعظم مما حدث في هذه الحرب . وأثبت ويلسون أنه من أعظم رؤساء الحرب ، وهو يسيطر على كل ناحية من نواحي المجهود الحربي ، ويحرص على الروح المعنوية في الداخل وفي الخارج ، ولا يغفل عن الغايات النهائية التي كانت الأمة تقاتل من أجلها ، يعاونه بمقدرة وزير حربه نيوتن دي . بيكر ووزير ماليته وليم ماكادور رئيس مجلس الصناعات الحربية برنارد باروك . كان على الحكومة أن تتخذ خطوات أشد وأقصى من كل ما خطر بالبال في أية حرب سابقة ، وقد فعلت ذلك بسرعة وهمّة . فأصبحت ديكتاتوراً على الصناعة والعمالة والزراعة . واستولت على خطوط السكك الحديدية والبرق . وكانت الحاجة ماسة إلى الطعام فازداد إنتاج المزارع بحوالى الربع ، وكانت الحاجة ماسة إلى الفحم فارتفع إنتاج الفحم بحوالى الخمسين ، وجمعت الحكومة عن طريق القروض والضرائب حوالى ستة وثلاثين بليوناً من الدولارات ، أقرضت الحلفاء عشرة منها وأنفقت الباقي في الداخل . ولقد ركزت الحكومة جهودها ، فوق كل شيء ، على الفوز في معركة الأطلنطي . . التي كان يبدو في ربيع وخريف سنة ١٩١٧ أنها خاسرة . وكسبت المعركة فعلاً ، بفضل الاستيلاء على السفن الألمانية في مياه المحيط ، ومصادرة السفن المحايدة للأغراض الحربية ، والاستحواذ على السفن الملاحية

٤٥٩ وودرو ويلسون والحرب العالمية

الخاصة ، والقيام ببرنامج هائل لبناء السفن — إذ صنعت ما يزيد على ثلاثة ملايين من الأطنان في عام واحد — والإجراءات البطولية في مقاومة الغواصات .

ولقد أقر الكونجرس التجنيد في وقت مبكر ، وقبل أن تنتهى الحرب كان تسجيل حوالى ٢٥ مليون رجل يوحى بشيء عن ضخامة موارد القوى البشرية لهذه الدولة الديمقراطية الغربية . ولكن ، أكان بوسع الولايات المتحدة أن تدرب جيشاً وتجهزه وتوفده إلى فرنسا في وقت كاف لصدد تيار الزحف الألماني ؟ كانت هذه هى المشكلة الكبرى في سنتى ١٩١٧ و ١٩١٨ .

لقد هبطت أول دفعة أمريكية إلى فرنسا في يونيو سنة ١٩١٧ . . وقد أوفدت على عجل ابتغاء تأثيرها المعنوى ، أكثر مما كانت تُرجى لأغراض عسكرية . وفي ٤ يوليو ، قام الجيش الصغير بعرض عسكري في الشانزليزيه ، وعلمه الأحمر والأبيض والأزرق يرفرف في الهواء . وقد وصف براند هوبتلوك المنظر قائلاً :

سمعت الموسيقى العسكرية ، وكانت تعزف « زحفاً في جورجيا » . ولم أملك نفسى ، فهبطت إلى الطريق ، وخرجت عارى الرأس إلى شارع ريفولى . وكانت الجماهير تتساب على طول الطريق ، تحت السياج الحديدى الكبير لقصر التوليرى ، من رصيف إلى رصيف ، دون ما نظام ، فالرجال والنساء والأطفال يركضون في حمس وانفعال ، يحاولون متابعة الصف النحيل المؤلف من جنودنا النظاميين في زهم « الكاكي » ، وهم يسرون بخطوة عسكرية نشيطة . وكان الجنود الفرنسيون في زهم الخفيف الزرقة يركضون بجوارهم ، مقترين منهم قدر الإمكان ، محملقين فيهم بما يشبه اهتمام وعجب الأطفال ، كما يفعل الصبية وهم يهرعون بجوار عرض لفرقة السيرك . كان جنودنا مكللون بالأزهار . . وخيرير جلبة الحشد مستمر لا ينقطع ، تتخلله من وقت إلى آخر صيحات : لتعيش أمريكا

بيد أن هذه لم تكن سوى قوة رمزية ، فإن الجيش الأمريكى الحقيقى كان بعد في معسكرات التدريب في الولايات المتحدة . وكانت الحاجة ماسة إليه ، لأن الحرب كانت تتجه في سنة ١٩١٧ إلى الأسوأ . ففي أكتوبر ، تحطم الجيش الايطالى فى كابوريتو ، وكان على الحلفاء أن يعجلوا بالتعزيزات ليوقفوا تقدم النمسيين . وبعد شهر ، انسحب

٤٦٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

الروس ، وقد مزقتهم الثورة ، وطلبوا الصلح . فأرسلت على عجل أربعون فرقة ألمانية جديدة ، سحبت من جبهتي روسيا والبلقان ، إلى فرنسا . ولم يحن ربيع عام ١٩١٨ ، حتى كان للألمان تفوق عددي واضح في الغرب ، وعززوا أنفسهم تأهباً للضربة القاضية ضد جيوش بريطانيا وفرنسا المرهقة المضنة ، وفي مارس سنة ١٩١٨ ، حان الهجوم الكبير الأول ، وفي أسبوع كان الألمان قد شقوا طريقهم خلال خطوط الجيش الخامس البريطاني ، مستولين على تسعين ألف أسير ، وعلى مخازن هائلة . ثم حان هجوم كبير آخر في شهر أبريل ، وأصدر الجنرال هيچ نداءه الذي لا يُنسى : « على كل منا أن يقاتل حتى النهاية ، وظهورنا إلى الحائط ، ونحن موقنون بعدالة قضيتنا » . ثم شُنَّ هجوم ثالث في يونيو ، وإزاء وجود الألمان على الضفة اليمنى للمارن ، رفع الحلفاء المارشال فوش إلى القيادة العليا ، فأشار على الرئيس ويلسون بأن « ثمة خطراً كبيراً قد يؤدي إلى خسران الحرب ما لم يتسن علاج النقص العددي لدى الحلفاء بأسرع ما يمكن ، عن طريق إيفاد الجنود الأمريكيين » .

وكان السباق مع الزمن قد بدأ فعلاً . فاستجمعت حكومة الولايات المتحدة قواها لبذل مجهود جبار . ومنح النقل البحري أولوية على كل شيء ، وأبحرت القوافل الضخمة من الموانئ الأمريكية واحدة بعد أخرى ، محملة بالمشاة ذوى الزى « الكاكي » . فأرسل إلى ما وراء البحار في مارس ٨٠ ٠٠٠ ، وفي أبريل ١١٨ ٠٠٠ ، وفي مايو ما يقرب من ٢٥٠ ٠٠٠ . ولم يحن شهر أكتوبر حتى كان الجيش الأمريكى في فرنسا يتجاوز مليوناً وثلاثة أرباع المليون من الجنود .

ولقد جاءوا في الوقت المناسب تماماً . ولقد أثبتوا صلابة معدنهم في مونديديه وكانتيني أولاً ، ثم في غابة بيلو . وإذا القيادة الألمانية ، التى كانت قد أسقطت المساعدة الأمريكية من حسابها ، تقر بأن « الجندى الأمريكى يثبت شجاعة وقوة جلد ومهارة . ولا ترهبه الخسائر في الأرواح » . بيد أن الأزمة الكبرى لم تكن قد حدثت بعد . ففي منتصف ليل ١٤ يوليو ، شن الألمان هجومهم الذى طال انتظاره على المارن ، والذى كان يرمى إلى تصديق آخر خط للحلفاء ، وفتح الطريق إلى باريس ، التى لم تكن تبعد بغير خمسين ميلاً . وتدفَعوا عبر المارن ، موفّقين في كل مكان عدا النقاط التى صادفوا فيها فرقاً أمريكية حديثة الوصول . وكتب فالتر راينهارت ، رئيس هيئة أركان حرب الألمان : « هنا ، على المارن ، بلغنا جميع أهدافنا المعيّنة لفرق الصاعقة لدنا تقريباً . . . ولقد

٤٦١ وودرو ويلسون والحرب العالمية

حققت جميع فرق الجيش السابع - بوجه خاص - نجاحاً مبدئياً باهراً ، فيما عدا الفرقة الواحدة التي كانت في جناحنا الأيمن ، فقد صادفت هذه وحدات أمريكية . وهنا فقط واجه الجيش السابع . . . عقبات خطيرة . فقد التقت بشدة مراس ومقاومة نشيطة - لم تكونا مرتقبتي - من الجنود الأمريكيين الحديثي الوصول . وبينما وفقت بقية الفرق . . . في اكتساب مواقع وغنائم هائلة ، فقد ثبت أن من المستحيل علينا زحزحة رأس خطنا الأيمن في جنوب المارن إلى موقع موات لتطور القتال الدائر . وكانت الصدمة الكابحة التي تلقيناها ، من نتائج القتال الهائل الذي دار بين فرقة المشاة العاشرة من قواتنا والجنود الأمريكيين » . ثم أضاف في غيظ : « يبدو أن الأمريكيين فوق كل إرهاب » . ولم يكن ١٨ يوليو حتى كان الهجوم الألماني قد انحسر ، ودعا فوش الأمريكيين إلى القيام بهجوم مضاد . وقد فعلوا ، وب نجاح رائع . وكتب الجنرال بيرشينج : « لقد تحول مسار الحرب تحولاً حاسماً لمصلحة الحلفاء » .

وفي سبتمبر حدث الهجوم على التتوء بالبارز من خط الدفاع عند سان ميهيل . وكتب الجنرال بيرشينج بهذا الصدد : « أدت السرعة التي تقدمت بها فرقنا إلى ارتباك العدو » . وبلغت الخسائر في الأرواح سبعة آلاف ، بيد أن الأمريكيين اكتسحوا التتوء ، وأسرأوا فوق هذا ستة عشر ألفاً . وفي الشهر التالي ، قام جيش أمريكي يزيد على المليون بدور طليعي في هجوم الموز - أرجون الواسع النطاق ، والذي انتهى بتحطيم خط هيندنبيرج الذي طال التشدد به ، فتصدعت روح الألمان المعنوية .

ولم يكن جهد ويلسون - في هذه الأثناء - بأقل من دور القوات المسلحة في تأكيد النصر ، بفضل تحديده البليغ المسهب لأهداف الدول الديمقراطية . إذ كان قد حاول ، من البداية ، إيقاع الفرقة في ألمانيا بترديد أن قتالنا لم يكن ضد الشعب الألماني وإنما ضد حكومته الاستبدادية الطاغية . كذلك أصر على أنه لا ينبغي أن تتضمن شروط الصلح ضم شعوب على غير رغبة منها ، أو دفعات من المال على سبيل العقاب . وفي رسالة إلى الكونجرس ، في يناير سنة ١٩١٨ ، عرض النقاط الأربع عشرة المعروفة ، كأساس لصلح عادل . وقد تضمنت اتفاقات صريحة يتم التوصل إليها علانية ، وحرية البحار في السلم والحرب ، وإزالة الحواجز الاقتصادية بين الدول ، وتخفيض الأسلحة ، وتعديل غير متحيز للمطالب المتعلقة بالمستعمرات ، والتعاون مع روسيا لإرساء سياستها القومية بمؤسسات من اختيارها الخاص ، وإعادة تعديل الحدود في أوروبا مع العناية

اللازمة بمبدأ حق الشعوب في تقرير المصير، وإقامة « جمعية عامة للأمم » لتوفر « الضمانات المتبادلة للاستقلال السياسى وسلامة وحدة الأراضي » .

ورأت الحكومة الألمانية ، وقد اندحرت جيوشها وأوشك حلفاؤها على الانهيار ، وإزاء تدفق القوات الأمريكية على الجبهة بأعداد لا تبدو لها نهاية ، أن صلحاً فورياً هو الوسيلة الوحيدة لمنع غزو التراب الألماني . ولهذا ولت وجهها شطر ويلسون وناشدته التفاوض على أساس النقاط الأربع عشرة . وبينما كان النزال الدبلوماسى دائراً ، إذا بالعصيان والثورة في ألمانيا يجعلان المقاومة الألمانية مستحيلة . ونزل القيصر عن عرشه وفر من بلاده . وفي ١١ نوفمبر ، بلغت الحرب ختامها .

العصبة والعزلة

كان ويلسون قد أثبت حتى ذلك الحين أنه قائد ذوبراعة من الطراز الأول . بيد أنه أقدم على عدة أخطاء متعاقبة بمجرد انتهاء الحرب . فقد ناشد الشعب أن ينتخب كونجرس ديمقراطياً ، فاختار الشعب أغلبية من الجمهوريين في المجلسين امتعاضاً من تصرفه الحزبى . ولقد قرر أن يذهب شخصياً إلى مؤتمر الصلح ، مما أذى شعور كثير من الأمريكيين الذين كانوا يؤمنون بأنه ليس للرئيس أن يبرح التراب القومى قط ، وقد انتهى بهذا العمل إلى الخط من مكانته في أوروبا . ولقد تقاعس عن أن يعين في لجنة لمؤتمر الصلح أحداً من الجمهوريين البارزين ، أو أى امرئ ذا مقدرة من الدرجة الأولى في الواقع . وبينما كان يرتكب هذه الأخطاء التقديرية ، أخذ يكتنف البلاد ملل من الحرب ، وتجدد للشك في أوروبا ، وشعور بتبدد الآمال ، وعداء حزبى . وإذا أبحر إلى فرنسا ، أقدم الرئيس السابق روزفلت ، في مرارة وتحد ، على إنذار « حلفائنا وأعدائنا » بأنه « ليست لمسترويلسون سلطة ، أياً كانت ، ليتكلم باسم الشعب الأمريكى في هذا الوقت » .

والتقى صانعو المعاهدة - ويلسون ، ولويد جورج البريطانى ، وكليمنصو الفرنسى ، وأورلاندو الإيطالى ، وعدد من رجال الحكم الأقل مكانة - في باريس ، في جو من الكراهية ، والطمع ، والخوف . . والكراهية للعدو ، والطمع في المستعمرات

٤٦٣ وودرو ويلسون والحرب العالمية

والتعويضات ، والخوف من البلشفية . وكان الصلح الذى أبرم ، صلحاً جاء نتيجة الاملاء لا التفاوض . فقد أحكمت معاهدة فرساي إلقاء وزر الحرب على ألمانيا ، انتزعت منها كل ما كانت تمتلك من مستعمرات ، ونصت على تعديلات لكل حدودها ، وفرضت عليها تعويضات باهظة . وأدت معاهدات أخرى إلى خلق دول أو الاعتراف بدول جديدة ظهرت إلى الوجود وفقاً لمبدأ ويلسون الخاص بتحديد المصير ، ومنها تشيكوسلوفاكيا ، ويوغوسلافيا ، وبولندا ، وفنلندا . وبقبول هذه الشروط ، اضطرت ويلسون إلى التساهل بصدد بعض نقاطه الأربع عشرة ، وما كان على استعداد لذلك إلا يقيناً منه بأن كل هذه الأخطاء من الممكن تصحيحها عن طريق عصبة الأمم .

ذلك أن ويلسون كان قد أفلح فى ربط عصبة الأمم بتدابير المعاهدة ورغم المعارضة القوية . ولم تكن فكرة إنشاء جمعية للأمم بالجديدة ، وقد ساهم كثيرون ، من كثير من الدول فى بلورة هذه الفكرة . بيد أن عصبة الأمم التى أنشئت فى النهاية ، كانت من ابتداع ويلسون . وكانت وظيفتها « تدعيم التعاون الدولى وتحقيق السلام والأمن الدوليين » . وكانت العضوية مفتوحة لجميع الدول ، على أن يعهد بالاشراف إلى مجلس تسيطر عليه الدول الكبرى وإلى جمعية عامة يُمثل فيها جميع الأعضاء . ولقد تعاهد أعضاء العصبة على أن « يحترموا ويصونوا الوحدة الإقليمية والاستقلال السياسى القائم » لكل الأعضاء « ضد العدوان الخارجى » - وهى المادة العاشرة المشهورة - وأن تطرح كل الخلافات للتحكيم ، وأن تستخدم العقوبات العسكرية والاقتصادية ضد الدول التى تلجأ إلى الحرب غير مملّية للعصبة بالأ . فضلاً عن هذا ، فقد أوردت نصوص بشأن نزع السلام ، وحكم المستعمرات التى تحت الانتداب ، وإقامة محكمة عدل دولية دائمة ومكتب دولى للعمل .

وعندما رجع ويلسون إلى الولايات المتحدة بمعاهدة فرساي وبالعصبة ، وجد معارضة مستشرية وضارية . فقد وجد كثير من الزعماء الجمهوريين - مثل السيناتور لودج الموغر الصدر ، الموغل فى الحزبية - فى الأمر فرصة لهزيمة الديمقراطيين وإذلال ويلسون . ولقد حادت الكراهية الشخصية للرئيس بعدد من مناصريه . ووجد الأمريكيون من أصل ألماني ، والأمريكيون من أصل إيطالى ، والأمريكيون من أصل إيرلندى من الأسباب ما يدعوهم إلى شجب شروط الصلح . فقد بدت المعاهدة لبعض الناقمين غاية فى التساهل مع ألمانيا ، وكثير من الليبراليين غاية فى القسوة . وخشى

٤٦٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

عدد لا بأس به من المحافظين الأمريكيين من التورط في المنازعات الأوربية وأخذوا يرددون أن الأمة ظلت أكثر من قرن في منأى من شؤون الدنيا القديمة بوجه عام .

على أن هناك ما يدل على أن أغلبية الشعب – وأغلبية الفئات الأكثر استشارة بالتأكيد – كانوا يجيذون عصبة الأمم ، وعلى أن المعاهدة لم تفتقر إلى الأغلبية في مجلس الشيوخ في أى وقت . بل إن أغلبية الثلثين اللازمة للتصديق على المعاهدة كان من الممكن الظفر بها لو أن ويلسون أبدى رغبة في التفاهم بصدد المادة العاشرة التي أوّلها المتطرفون على أنها تحد من السيادة القومية . بيد أن ويلسون لم يكن مستعداً لذلك ، وقال للجنة الشيوخ : « إن المادة العاشرة تبدو لي بمثابة العمود الفقرى للاتفاق بأسره . فبدونها لا تكاد العصبة تكون أكثر من جمعية قوية النفوذ للتداول » . ولكن المعارضة الجمهورية أبست الاقتناع ، فحمل ويلسون الموضوع إلى الشعب . وبينما كان يحوب الغرب مناضلاً ، انهارت صحته ، وأصيب بنوبة من الشلل في ٢٥ سبتمبر ، لم يبرأ منها قط . كانت القضية الكبرى التي اعتنقها قد حُذلت . وفي ٢٠ مارس ، قضى مجلس الشيوخ في التصويت النهائي برفض المعاهدة وميثاق العصبة ، فألزم الولايات المتحدة بأن تلوذ بعزلة عقيمة وغير مجيدة لسنوات مقبلة .

ودفعت انتخابات سنة ١٩٢٠ الجمهوريين إلى الحكم من جديد ، بأغلبية لم يسبقها مثيل ، فبادروا بجعل العزلة من مبادئ حزبهم . واعتكف ويلسون ، وقد تحطمت صحته وإن لم تتحطم روحه ، ليرقب بخيبة أمل غامرة ، تعطل الأمن الجماعى الذى كان يتكهن به . كان قد عاش على غرار جيمس بيتجرو ، الذى كان يعجب بالأبيات المنقوشة على قبره :

لا يُرهبه رأى . .

ولا يستهويه ملق . .

ولا تنزع نكبة .

وعلى غواره كذلك :

٤٦٥ وودرو ويلسون والحرب العالمية

واجه الحياة بشجاعة القدامى . .

والموت بأمل الأتقياء .

ولم يقدر للبشر أن يدركوا سلامة المبادئ التي ناضل من أجلها بشهامة ، إلا بعد
أن هزت أسس الكون ذاته حرب عالمية ثانية ، أكبر من الأولى .



الفصل ٢٢

من الوضع السوى إلى الكساد الاقتصادي

الوضع السوى والعزلة

بهزيمة ويلسون ، ورفض الحرية الجديدة والدولية أصبح المسرح مهيباً لظهور العزلة وسياسة عدم تدخل الحكومة في الشؤون الاقتصادية Laisser Faire ، فسيطرت هاتان القوتان عليه طوال عقدين من الزمن . والواقع أن الحزب الجمهورى لم يكن قد اتخذ موقفاً جلياً من عصبة الأمم ، ولكنه بدلاً من ذلك لجأ إلى تميع بارع للمسألة . غير أن الأغلبية الحاسمة التى فاز بها الحزب فى الانتخابات سنة ١٩٢٠ ، أقنعت معظم الزعماء - لاسيما الرئيس هاردينج الضعيف الإرادة - بأن أنصار العزلة هم المعبرون عن رأى الشعب ، ورفعت رجالاً مثل أعضاء الشيوخ جونسون وبوراه ولودج إلى مراكز ذات نفوذ استراتيجى ، بينما انجذبت إلى إضعاف الثقة فى ذوى العقلية الدولية من الجمهوريين ، أمثال هيوز وروت وتافت . وما إن تبوأ الجمهوريون حتى أضفوا على العزلة وضعاً رسمياً .

وكان هذا أمراً جديداً في تاريخ كل من الحزب الجمهورى والأمة . فما خذلت الولايات المتحدة في أى يوم من الأيام آمال الجنس البشرى بمثل هذا التعنت ، بل إن السياسة التقليدية الأمريكية كانت أقرب إلى تحقيق الرجاء في قيادة عالمية . ولم يكن الحزب الجمهورى قد التزم يوماً من الأيام قبل ذلك بالعزلة . فقد كان جرانت وسيوارد يحثان على التوسع في البحر الكاريبي والمحيط الهادى ، ولقد اعتنق بلين فكرة الرابطة الأمريكية ، وقاد ماكينلى الأمة إلى الحرب من أجل أهل كوبا ، وأحرز مستعمرات جديدة في المحيط الهادى . ولقد سعى تيودور روزفلت ليكون للأمة مركز مسيطر في سياسات النفوذ العالمى . فكان تاريخ الحزب الجمهورى تاريخاً تسوده الإمبريالية والدولية .

غير أن الحزب في هذه الفترة التزم سياسة القومية الضيقة ، وتفادى مسئولية من قبيل تلك التى حاقت ببريطانيا في أواسط القرن التاسع عشر . ومع هذا ، فقد كانت العزلة الحقيقية مستحيلة ، ولم يكن في وسع الولايات المتحدة أن تظل بمبعدة عن الأمور الجارية في أى مكان آخر من العالم . والواقع أن الحكومة في هذه السنوات من الحكم الجمهورى اتخذت دوراً نشيطاً في الوصول إلى حل لبعض المشكلات البالغة الإزعاج ، والتى عكّرت العلاقات الدولية . فبسط الرئيس هاردينج رعايته على مؤتمر لنزع السلاح البحرى ، بشىء من التوفيق . وحصل خليفته كوليدج على تأييد اثنتين وستين دولة لميثاق باريس ، الذى قضى بعدم شرعية الحرب كأداة في العلاقات الدولية . ويرجع مشروع ينج ومشروع دووس للتعويضات في أصلهما إلى الولايات المتحدة ، وقد كانت للرئيس هوفر الصدارة في اقتراح تأجيل دفع ديون الحرب . ولقد حث جميع الرؤساء الجمهوريين على انضمام أمريكا لعضوية المحكمة العالمية – وإن ذهب محاولاتهم سدى – كما أنهم جميعاً قاموا بخطوات على سبيل التجربة نحو التعاون مع بعض جهود عصبة الأمم .

غير أن كفة هذه المحاولات ، التى اتجهت إلى نزع السلاح والسلام ، كانت أخف من أن تتوازن مع كفة العزوف الأمريكى عن العمل الحقيقى للعصبة ، والنمو المطرد للقومية الاقتصادية . والواقع أن العزلة آتت أشد عواقبها في المجال الاقتصادى . فإن الأمة في خوفها من المنافسة الأجنبية ، وتلهفها على الأسواق الخارجية ، وإصابتها بفكرة السيادة الاقتصادية المطلقة ، أقبلت على سياسة عمادها المذهب التجارى الجديد ، وكانت سياسة محملة بالخطر للعالم كله وليس لها وحدها .

ففى سنة ١٩٢٠ ، اندفع كونجرس يسيطر عليه الجمهوريون إلى إجازة مشروع

٤٦٩ من الوضع السوى إلى الكساد الاقتصادى

قانون بتعريف جمركية للطوارئ ، تهدف إلى إقامة سياج لحماية المنتجات الأمريكية ضد المنتجات الأجنبية . وفي رسالة أعلن فيها الرئيس ويلسون نقضه هذا القانون ، حث على مراعاة الإدراك السليم في هذا الصدد . وقال : « إذا كان قد جاء على أمريكا يوم — فى أى عهد — وجدت فيه ما يدعو للخوف من المنافسة الأجنبية ، فإن هذا اليوم قد ولى . وإذا كنا نريد أن تسدد أوروبا ديونها — سواء الحكومية منها أو التجارية — فإن علينا أن نكون على استعداد للشراء منها . ومن الجلى أن هذا ليس بالوقت الملائم لإقامة حواجز تجارية عالية » . ولكن الجمهوريين آثروا تجاهل هذا النصيح الحكيم ، وما إن استولوا على السيطرة الكاملة على الحكم ، حتى أصدروا تعريف فورردنى — ماك كمبر التى رفعت الرسوم الجمركية إلى مستويات لم سبقها مثيل ، فمنعت دول أوروبا من بيع سلعها لأمريكا . وبعد ثمانية أعوام ، كانت الأغلبية القوية لا تزال للجمهوريين ، وقد أجازت تعريف سموت — هولى ، وهى أعلى التعريفات فى التاريخ الأمريكى ، وقد صدق عليها هوفر بالرغم من احتجاج كل اقتصادى ذى شأن فى البلاد تقريباً . ولم تغلق هاتان التعريفتان السوق الأمريكية فى وجه المنتجات الزراعية والصناعية الأوروبية فحسب ، بل أفضتا إلى تعريفات انتقامية أغلقت الأسواق الأوروبية فى وجه السلع الأمريكية .

ولم يكن هذا سوى وجه واحد للمسألة الاقتصادية . وكان هناك وجه آخر لا يقل عنه أهمية ، هو الوجه المالى . فقد شهدت سنوات الحرب وما بعد الحرب تحول الولايات المتحدة من دولة مدينة إلى دائنة . وكانت الحكومة خلال فترة الحرب وإعادة التعمير قد أقرضت الخلفاء والدول المرتبطة بهم حوالى عشرة بلايين من الدولارات ، ثم أغدق المستثمرون الخاصون خلال العشرينات عشرة أو اثنى عشر بليون دولار أخرى على أسواق الاستثمار فى أوروبا وآسيا وأمريكا اللاتينية . فكيف كان من الممكن رعاية هذه الديون وتسديدها — فى النهاية — إذا لم تسمح الولايات المتحدة للمدينين بأن يبيعوها سلهم ؟ لم يكن لدى سياسة الجمهوريين جواب حاضر عن هذا السؤال الوثيق الارتباط بسياستهم . ولقد ظلت سياسة الجمهوريين طيلة العشرينات خاضعة لهذين الاعتبارين المتناقضين . فانتهجت الحكومة نحو مديونية العالم الخارجى موقف العناد المتعنت . كان لابد من وجود تنازلات سخية بالنسبة للفائدة ، أما بالنسبة لتسديد أصول الديون ، فقد كان موقف الحكومة ثابتاً ، وقد عبر عنه الرئيس كوليدج بقوله : « لقد استخدموا الأموال ، أليس كذلك ؟ » غير أن التسديد كان مستحيلاً ما دامت أسوار التعريف الجمركية

الأمريكية قائمة لم تمس . فلم يكن من سبيل في الواقع لكى تتمكن ألمانيا من الاستمرار في دفع التعويضات ، والدول الأخرى كى تبتاع سلعاً أمريكية ، إلا بالإمعان في الاقتراض . أما في الساحة الداخلية ، فقد ابتدأت حكومة هاردينج عهد « الوضع السيئ » . . وكانت فكرة هاردينج عن الوضع السيئ هو العودة إلى أيام مارك حنا وماكينلي الماضية . ولم تكن هذه سياسة عدم تدخل الحكومة في الشؤون الاقتصادية بحذافيرها ، وإنما كانت خليطاً موفقاً من سياستين . . إحداهما : حرية المشروعات الخاصة من القيود الحكومية ، والأخرى : مساعدات سخية للمشروعات الخاصة . فتراجعت الحكومة عن المشروعات التجارية والصناعية ، ولكن المشروعات التجارية والصناعية تدخلت في تشكيل معظم السياسات الحكومية .

وكان السجل باهراً في الناحية الإيجابية . فقد قامت التعريفتان الجمركيتان الصادرتان في سنتي ١٩٢٢ و ١٩٣٠ ضماناً عملياً ضد المنافسة الأجنبية . فانهمكت وزارة التجارة ، بقيادة هربرت هوفر الذى لم يكن يعرف الكلل ، في فتح أسواق جديدة في الخارج ، وبررت بذلك التشدد بأنها كانت « أمتن جهاز في العالم لغزو التجارة الخارجية » . أما في المجال الداخلى ، فقد تعاونت الوزارة بهمة في تنظيم حوالى مائتى جمعية تجارية واتحاد للمنتجين (كارتل) أشبه بتلك التى أنشئت فيما بعد ، في عهد حكومة الانعاش القومى . وفي هذا قال هوفر في إيجاز بليغ : « إننا ننقل من مرحلة نشاط فردى للغاية ، إلى مرحلة أنشطة متشاركة » . فأقر الكونجرس إعانات مالية سخية للملاحة التجارية ولشركات الطيران التى كانت تنقل بريد الولايات المتحدة . وتوصلت وزارة الخزانة في عهد الوزير أندرو ميلتون إلى إلغاء ضريبة الأرباح الفائضة ، وإلى تخفيضات كبيرة في الضرائب الاضافية وضرائب الدخل المتوسطة (العادية) ، وإلى تخفيض الضرائب العقارية . وكانت النظرية المبررة لهذا أنه سينشط التجارة والصناعة ، بيد أنه لسوء الحظ أذكى جنون المضاربة الذى ساد أواخر العشرينات .

وفي الوقت ذاته ، كانت سياسة عدم التدخل الحكومى مراعاة بنفس القدر من الاخلاص . فأعيدت الخطوط الحديدية ، التى كانت الحكومة قد أدارتها بنجاح باهر أثناء الحرب ، إلى أصحابها بشروط سخية . كذلك أحيل شطر كبير من السفن التجارية التى صنعت أثناء الحرب إلى الشركات الخاصة بأسعار زهيدة لا يكاد يصدقها العقل . وأوقف العمل بقانونى شيرمان وكلايتون لمناهضة الترسات فعلاً ، إذ اتخذت السلطان

٤٧١ من الوضع السوى إلى الكساد الاقتصادى

التنفيذية والقضائية موقفاً يعفياً من المطالبة بأن « تبطل القوانين الاقتصادية » . أما أبرز تعبير لسياسة عدم التدخل الحكومى ، فقد جاء مرتبطاً بمشروعات قيام الحكومة بإنشاء وإدارة محطات توليد الكهرباء من القوى المائية . إذ كان الرئيس ويلسون قد خول الحكومة فى سنة ١٩١٦ إنشاء سدين نهريين عند مَصِل شولز ونهر تنيسى لتوليد الطاقة لمصانع النترات . ولقد أصبح التصرف فى هذه المحطات والسدّين بعد الحرب موضوع جدل طويل ومرير . فكان المحافظون يرون تحويلها إلى شركات خاصة ، وأصر التقدميون — بقيادة جورج نوريس الجسور ، عضو الشيوخ عن نبراسكا — على استمرار بقائها ملكاً للحكومة وتحت إدارتها . وفى سنة ١٩٢٨ ، أقر الكونجرس قانوناً يقضى بأن تديرها الحكومة ، ولكن الرئيس كوليدج رفض التصديق عليه . واتخذ قرار مشابه فى سنة ١٩٣١ فخذله الرئيس هوفر ، الذى شرحت رسالته الخاصة برفض القانون فلسفة « الفردية الخالصة » ، التى كان وحزبه يرونها ، أكمل شرح :

إننى أعارض بكل حزم دخول الحكومة فى أى عمل تجارى وصناعى غرضه الأكر منافسة مواطنينا منافسة مقصودة . . فإن هذا يقضى على ما لشعبنا من مساواة فى الفرص ، وهو إنكار للمثل العليا التى قامت عليها حضارتنا . . وإنى لأجفل من تصور مستقبل نظمنا ، وبلادنا إذ لم يعد همّ المسئولين فيها هو نشر العدالة والمساواة فى الفرص ، وإنما يُكرّس مهمهم للمقايضة فى الأسواق . فهذه ليست ليبرالية وإنما هى تحلل .

وكان هذا الاهتمام بالمساواة فى الفرص خليقاً بأن يلقى تكريماً أفضل ، لو أن حكومتى هاردينج وكوليدج أظهرتا اهتماماً صادقاً ومعززاً لرفاهية فئات العمال والمزارعين . بيد أن هاتين الحكومتين لم تكونا تهتمان بغير « رجل الأعمال » ، وكان مفهومها للتجارة والصناعة ضيقاً . فلم يحظ المزارعون ولا العمال بنصيب من الرخاء المتدفق فى العشرينات . ولقد طرأ انخفاض وجيز وحاد على أسعار المنتجات الزراعية فى سنة ١٩٢١ ، ولم تحن أواسط العشرينات حتى بدأ انهيار تدريجى ومتواصل دون ما انقطاع إلى أن بدأ تطبيق وسريان إصلاحات النظام الجديد . فانخفض الدخل الزراعى فيما بين سنتى ١٩٢٠ و ١٩٣٢ من خمسة عشر بليوناً ونصف البليون من الدولارات إلى خمسة ونصف من البليونات . وفى سنة ١٩٢٠ ، درّ حوالى ثمانمائة مليون بوشل من القمح

٤٧٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

ما يقرب من بليون ونصف البليون من الدولارات . بينما در محصول يقل عن ذلك بدرجة ضئيلة ما يقل عن ثلاثمائة مليون دولار في سنة ١٩٣٢ . ولقد بيعت ثلاثة عشر مليون بالة من القطن في سنة ١٩٢٠ بها تجاوز بليون دولار بقليل ، بينما بيع نفس المقدار بعد اثنتى عشرة سنة بأقل من نصف بليون دولار . ونفس القول ينطبق على معظم المحصولات الأخرى . وظلت الأسعار التى كان المزارع يدفعها لآلاته ومخصباته ومروياته على ما كانت عليه . وتجلت النتيجة في تصاعد أرقام تأجير المزارع وبيع الموهون منها لقاء الديون . ولم يحن عام ١٩٣٠ حتى كان ٤٢ في المائة من مزارع البلاد تدار بواسطة مستأجرين ، وكان مجموع المديونية لقاء رهن قد ارتفع فوق تسعة بلايين من الدولارات ، في حين أن ما لا يقل عن عُشر الممتلكات الزراعية ، بيع في المزادات العلنية بين سنتى ١٩٢٧ و ١٩٣٢ لقاء ديون كانت مرهونة في مقابلها .

ومع هذا ، فإن حكومتى هاردينج وكوليدج في حرصهما على وضع الحكومة رهن المشروعات التجارية والصناعية ، أظهرتا في هذا الموقف عدم اكتراث بالمصالح الزراعية . وكان أول حل من الجمهوريين لمشكلة الزراعة ، هو إصدار تعريفية جهركية للمنتجات الزراعية . وأقل ما يقال بصدد هذا الحل أنه لم يكن مناسباً ، لأن الولايات المتحدة كانت تصدر من المنتجات الزراعية أكثر مما تستورد . واستخدم الرئيس حق النقض (الفيتو) لرفض مقترحات سليمة كانت تدعو إلى مساعدات مالية وإشراف على المحصولات ، برغم أنها كانت مقترحات مؤيدة من الهيئات الزراعية . وقبل فوات الفرصة ، أنشأ الرئيس هوفر مجلساً زراعياً مجهزاً بسلطة واعتمادات لمساعدة التسويق المنسق للمحصولات . ومع أن هذا حقق بعض الخير ، فإنه لم يكن كافياً .

ولقد كان عهد « الوضع السوى » هذا فترة خمول ورتابة لم تخفف منها سوى فضائح هاردينج المثيرة ، والمعارك الحزبية المهلكة التى تخللت فترتى حكم هوفر . وما كانت حكومة الولايات المتحدة من قبل أداة في أيدي الجماعات ذات النفوذ بعلاية أكثر جرأة منها إذ ذاك ، فنادرأ ما خضعت إدارة شؤون الدولة لحكم الاعتبارات السياسية إلى هذا الحد من عدم التحفظ . ولقد كان وارن جى . هاردينج عضواً بمجلس الشيوخ عن ولاية أوهايو ، امتاز باللفظ ولكنه كان ضعيفاً . وقد رشح للرئاسة لمجرد أن أحداً لم يعرف عنه ما يعيبه ، وتم انتخابه لأن البلاد كانت قد سئمت المثالية الويلسونية . وكان انصياعه السهل لاستغلال المصالح التجارية والصناعية الكبرى للحكومة ، وتسامحه إزاء

٤٧٣ من الوضع السوى إلى الكساد الاقتصادى

الفساد الشنيع ، خلال العامين ونصف العام التى تولى فيها المنصب ، محققين لآمال أولئك الذين كانوا يتطلعون إلى إنهاء المثالية . وكان كالفين كوليدج الذى خلفه سياسياً محدوداً للغاية ، غشياً ، غير واسع الأفق ، مُقلاً فى الكلام والآراء ، مكرساً جهوده للإبقاء على الوضع القائم ، شديد التوجس من الليبرالية فى أى أشكائها . أما هيربرت هوفر ، الذى تولى الرئاسة فى سنة ١٩٢٩ ، فكان ذا مقدرة تفوق ما لسلفيه بكثير ، وذا شهرة كإدارى كفء ، ورجل حكم ذا عقلية دولية ، ومصلحاً اجتماعياً عظيماً ، ولكنه فقد كل هذه الصفات فى أربع سنوات ، وعمد إلى ارتكاب أخطاء فى الحكم على الأمور أشد خطراً مما ارتكب أى رئيس منذ عهد جرانت .

المجتمع والثقافة فى سنوات ما بعد الحرب

هؤلاء الرؤساء الثلاثة ، الذين اختلف كل منهم عن الآخر فى الشخصية والطباع بهذه الدرجة ، كانوا يمثلون تمام التمثيل القوى المتسلطة على المجتمع الأمريكى خلال سنوات ما بعد الحرب . كانت مثالية عهد ويلسون قد وُتت ، وكان الشغف الروزفلتى بالإصلاح الاجتماعى فى علم الغيب بعد . فكان عقد العشرينات من القرن العشرين خاملاً ، معتماً ، يتسم بالاغراق فى المصالح المادية ، والقسوة فى غير رحمة . وقد قال الرئيس كوليدج فى إيجاز بليغ : « المشروعات التجارية والصناعية فى أمريكا لا تعرف المجاملة » ، وكانت هذه العبارة صحيحة وإن لم تكن شاملة . فإن الأمريكيين فى ضيقهم بالمثالية ، وخيبة أحلامهم بشأن الحرب وعواقبها ، انصرفوا فى تحمس غير مستتر إلى جمع المال وإنفاقه . فما كان المجتمع الأمريكى مادياً بهذا القدر فى يوم من الأيام حتى فى عهد ماكينلى ، وما كان فى أى وقت سابق خاضعاً تماماً لتسلط مفاهيم ومبادئ ساحة السوق ، أو لأساليب الآلة كما كان فى تلك السنوات . كان عهد التضخم فى الحجم وعهد الكفاءة ، فاتحه الاعجاب الجماهيرى إلى هذه الأمور ؛ فكان الأبطال الشعبيون هم : سمسار الأوراق المالية ، ومندوب البيع ، ومندوب الإعلان ، ونجم الأفلام السينمائية . ولقد نمت الأمة — من حيث السكان — إلى سبعة عشر مليوناً ، ومن حيث

الثروة إلى درجة تفوق هذه ضخامة . وإذا لم تكن الثروة موزعة توزيعاً عادلاً ، فقد بدا أن هناك منها ما كان كافياً للتداول ، وأخذ الناس يتشددون بـ « العهد الجديد » ، الذى لا تخلو فيه قِدر من دجاجة ولا حظيرة من سيارتين . وصارت المدن أكبر ، والبنائات أكثر ارتفاعاً ، والطرق أطول ، والثروات أعظم ، والسيارات أسرع ، والكليات أوسع ، والملاهى الليلية أكثر بهجة ، والجرائم أكثر عدداً ، والشركات أقوى نفوذاً ، والمضاربة أشد احتداماً فى التاريخ مما كانت إذ ذاك . وكانت الإحصاءات الجامحة الازدياد تمنح معظم الأمريكيين شعوراً بالرضاء إن لم يكن بالأمن .

كانت فترة تماثل وتطابق بين القوم ، وعدم تسامح مع أى خروج على التطابق والتماثل . وكانت الشخصية الأدبية التى تقبلها معظم الأمريكيين باعتبارها أكثر الأعمال تمثيلاً لهم ، هى شخصية جورج باييت التى ابتكرها سينكلير لويس ، والتى كان صاحبها يصدق كل ما يسمع وما يقرأ . ومن الحقائق الداعية للدهشة أن الجمهور لم يكن عنيفاً فى رد فعله إزاء فضائح حكومة هاردينج ، ولا طلب القصاص من الحزب المسئول عنها ، بل إنه على النقيض ، أثر باستيائه أولئك الذين كشفوا هذه الفضائح أو انتقدوا نهج الحياة « الأمريكى » . ولقد غرست بذور عدم التسامح فى أثناء الحرب ، فتمت بعد الحرب وترعرعت بشكل غريب ومثير للذعر . فإذا القومية تعصبية فى مغالاة ، وإذا مبدأ العزلة يتخذ طابعاً خلقياً وفكرياً إلى جانب طابعه السياسى . فكان ثمة عداء واسع النطاق للأجانب وللأفكار الأجنبية . وأحيط بالأجانب الذين حامت حولهم شبهة النوازع الراديكالية ، وأبعدوا عن البلاد بالعشرات ، وطُهرت المجالس التشريعية من الاشتراكيين ، وحاولت الولايات أن تفرض الولاء للنظم السياسية والاقتصادية بحكم القانون . وكرست « الكوكلكس كلان » - التى كانت تزهبعضوية بلغت المليون - نفسها لنزوة تفوق العنصر الأرى ، التى قدّر للحكام الديكتاتوريين الأوروبيين أن يعتنقوها بعد عقد من الزمن ، وأشاع أعضاؤها ذوو القلائس السابغة الخوف لدى الكاثوليك والزنوج واليهود . ولقد وُجّهت الروح العدائية نحو منتقدي الأوضاع التجارية والصناعية الأمريكية ، لا تفريق فى ذلك بين قادة العمال ، والاقتصاديين الليبراليين ، ودعاة السلام ، و« المهيجين » من أى لون ، ممن كانوا يجسرون على إثارة الريب فى أخلاقيات التجارة والصناعة . ولقد لاح إجهاض مأسوى للعدالة فى قضيتين ذاعت لهما سمعة سيئة ، هما قضيتا مونى وبيلىنجز فى كاليفورنيا ،

٤٧٥ من الوضع السوى إلى الكساد الاقتصادى

وساكو وفانزيتى فى مساشوستس . وقد بدا الادعاء مصمماً ، فى الثانية بوجه خاص ، على معاقبة المتهمين — الذين كانوا من أشياع الفلسفة القوضوية وواضعى المنشورات — جزاء أنشطتهم الراديكالية وليس عن أية جرائم تتسم بالعنف ويقوم عليها الدليل . ولقد أعيد ساكو وفانزيتى فى سنة ١٩٢٧ . وأقنعت المراجعة الدقيقة للقرائن — فيما بعد — الكثيرين بأن ساكو كان مذنباً ، يحمل وزر جريمة القتل التى حوكم من أجلها ، أما فانزيتى — وهو داعية بليغ للمبادئ المثالية — فكان بريئاً .

على أنه من السهل الشطط فى مدى وعمق هذا التعصب . ومن اللائق أن نتذكر أنه كان من وحى تحمس للديمقراطية ضلّ التوجيه ، ولم يكن صادراً عن عداوة للديمقراطية . وقد ظل تيار المعارضة له والاحتجاج عليه يجرى قوياً وعارماً طيلة هذه الفترة بأكملها . فما من تعصب مضى دون لوم وتقريع ، وما من ضحية للظلم كان من الذلة بدرجة لا تمكنه من استنهاض رجال المناصرة قضيته . ولعل أطرف الأمور عن قضيتى مونى وبيلينجز ، وساكو وفانزيتى ، أنها أثارتا احتجاجات بليغة وجريئة ، قدّر لها أن تُفلح فى أولى القضيتين وأن تحقّق فى الأخرى وأحرزت المجالات الليبرالية — مثل « نيشن » و« نيوريبيليك » — رواجاً ونفوذاً كبيرين ، وحظى الشعراء والروائيون الذين راحوا يروجون لرسالة التمرد والثورة بشعبية واسعة ، وظلت الكليات والجامعات مراكز لحرية الفكر والبحث والتحرى . ووقفت المحاكم طيلة هذه السنوات صامدة لحماية الحريات الشخصية والضمانات التى كفلتها قوانين الحقوق . ولمع فى ذلك العهد برانديس ، وكاردوزو ، وهولز .

وكان نمو المدن وازدياد سرعة التغيرات التكنولوجية أهم عاملين حكما التطور الاجتماعى أثناء هذا الجيل . فلم تحن سنة ١٩٣٠ حتى كان أكثر من نصف سكان البلاد يعيشون فى المدن الصغيرة والكبيرة ، وكان قسم ليس بالصغير منهم يقيمون فى مناطق العواصم الكبرى . فقد كانت المدن مراكز الصناعة والتجارة والأعمال والحكومة والترفيه والتعليم والأدب والفنون . وانتشرت أفكار وأساليب حياة الحضر فى الريف كله . وأفسحت الإقليمية الريفية الطريق لتعميم التناسق وتوحيد الأساليب ، تحت تأثير الأفلام السينمائية والراديو والسيارة والمواد الصحفية التى توزعها الوكالات لتنتشر فى صحف مختلف البلدان فى آن واحد ، والإعلان على مستوى الدولة ، وغير هذه من مؤثرات عديدة . . بل إن الفكاهة — ولعلها أبرز أشكال التعبير القومى — والقصة

٤٧٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

الطويلة التي تدور أحداثها في منطقة حدود العمران ، أفسحتا الطريق للنوادر المتكلفة أو الرسوم الكاريكاتورية التي روّجت مجلة « نيويوركركر » لها .

وكانت السيارة والسينما والراديو هي أهم القوى الكثيرة التي كانت تعمل على تعميم التناسق . بل إنها كانت أهم العوامل في الحياة الاجتماعية لهذا العقد من الزمن . وكانت السيارة أسبق الثلاثة عهداً ، بل كانت في عدة اعتبارات أعظمها شأناً . إذ كان هنري فورد قد صنع « مركبة بالبزين » في أواسط التسعينات من القرن التاسع عشر ، ولكن طراز « تى » الذى أنتجه فورد ، وغيره من السيارات الرخيصة ، لم تدرج على الطرق بمئات الآلاف قبل العقد الثانى من القرن العشرين . ففي سنة ١٩٢٠ ، كان المستعمل من السيارات حوالى تسعة ملايين ، وإن هى إلّا عشر سنوات حتى كان العدد قد تضاعف ثلاث مرات . وقد حطمت السيارة العزلة ، وزادت من سرعة الحياة ، وكشفت طرقاً جديدة لقضاء الفراغ ، وأتاحت للشباب حرية جديدة ، وخلقت صناعات جديدة واسعة المجال ، ومنحت عملاً لملايين الناس ، وحثت على برنامج لإنشاء الطرق يشمل الدولة كلها ، وأقامت منافسة خطيرة للسكك الحديدية ، وتقاضت من الأمة ضريبة من الأرواح والأطراف في كل عام ، تعادل ما تقاضته الحرب الأهلية . ولم تمر سنوات حتى لم تعد السيارة شيئاً كمالياً ، بل أصبحت من الضرورات ، بل لعلها الضرورة اللازمة .

ولم تكد السينما والراديو تكونان أقل أهمية من السيارة ، وإن كانتا جديدتين نسبياً . وترجع السينما إلى السنوات الأولى من القرن العشرين ، بيد أنها لم تصبح صناعة وتجارة ذات رواج كبير حتى الحرب العالمية الأولى ، ولا توصلت إلى نفوذها الهائل قبل ابتكار « الأفلام الناطقة » في سنة ١٩٢٧ . ولم تحن نهاية العقد حتى كان عدد المترددين على السينما ٨١٠٠ مليون شخص في الأسبوع . . وكان شطر كبير جداً منهم من الأطفال . ومن السينما استمد الجيل الناشئ كثيراً من آرائه عن الحياة ، وهى عادة آراء خيالية ومضللة إلى حد كبير . وكان عهد العنف قادماً في الطريق . فلقد وفرت السينما للكثيرين مهرباً من الواقع الكئيب إلى عالم خيالى شاعرى ، ينتهى فيه الشر دائماً إلى العقاب ، والفضيلة إلى الجزاء ، وجميع النساء فيه جميلات ، وجميع الرجال ملاح ومجيدون الأساليب البهلوانية ، والثراء فيه يجلب السعادة بينما يجلب الفقر القناعة ، وكل القصص فيه ذات نهاية سعيدة . ففرضت السينما لنفسها نفوذاً مباشراً أو غير مباشر يجلب على

٤٧٧ من الوضع السوى إلى الكساد الاقتصادى

الحسبان ، وأقامت الأشرطة في الثياب وتصفيف الشعر ، وفي الأثاث والزينة الداخلية (الديكور) ، وابتكرت أغاني شعبية ، ولقّنت الناس عادات في السلوك ، وغرست فيهم أخلاقاً ، وخلقت أبطالاً وبطلات شعبيين . ولقد امتد نفوذها في كافة أرجاء العالم ، وأثبتت أنها قد تكون أقدر أداة للإمبرالية الثقافية والاجتماعية الأمريكية . وتضمنت برامجها صورة – كاريكاتورية أحياناً – للحياة الأمريكية ، إرضاء واستهواء لجمهور السينما في الجزر البريطانية ، وروسيا ، والملايو ، والأرجنتين .

كذلك كان الراديو ذا نفوذ مماثل ، كأداة للترفيه ، والتعليم ، وتوحيد أساليب الحياة . ولقد نما الراديو وتطوّر بسرعة أثناء الحرب العالمية الأولى ، وقد بدأت أول محطة تجارية للإذاعة ، عملها في سنة ١٩٢٠ . وإن هو إلا عقد من الزمن ، حتى كان يوسع كل أسرة في الأمة تقريباً ، أن تستمع إلى عروض مضحكة مثل «أموس» و«آندى» ، أو الأنباء المذاعة ، أو الموسيقى . وأصبح الراديو كالسينما مشروعات تجارية كبيرة ، كما أنه أصبح كالسينما موجهاً للاستهلاك الجماهيري ، وكان لزاماً عليه أن يهيء برامج للتشويق الشعبي ، حتى أن أية دراسة لبرامج الراديو كفيّلة بأن تكشف بقدر ما تكشف أية دراسة أخرى عن العقلية الشعبية . وقد اضطلع – بدرجة ضعيفة في الواقع – بالبرامج التعليمية ، كما أنه يذيع الأنباء ، والحملات السياسية . ومن الطريف أن نلاحظ أن الراديو ظل – فيما عدا استثناءات معدودة – مشروفاً خاصاً ؛ لا يُنْفَق عليه من الضرائب ، وإنما يُنْفَق عليه المعلنون ، كما هو الشأن في الدول الأوروبية كافة . وتختلف الآراء بصدد ما إذا كان الأمريكيون قد دفعوا ثمناً باهظاً للغاية لقاء التحرر من سيطرة الحكومة على الراديو .

الكساد الاقتصادى الكبير

تولى هربرت هوفر الحكم في ظروف مواتية تفوق تلك التي رافقت أى رئيس للجمهورية بعد تافت . فقد كانت كل المظاهر توحى بأن البلاد لم تكن أكثر رخاء ، ولا كان المجتمع أكثر ازدهاراً ، عما كانا إذ ذاك . كانت الأوراق المالية قد ارتفعت إلى مستويات شاهقة ، فكان مئآت الملايين من الدولارات تدفع شهرياً من سندات وأسهم جديدة ، من

المستثمرين الطامعين في أن يشتركوا في اللعبة الجديدة ، لعبة تكوين ثروة من لا شيء . ولم تعد المصانع قادرة على أن تنتج من السيارات ، والبرادات (الشلاجات) ، والمذياعات (الراديو) ، والمكانس الكهربائية ، والمواقد البترولية ما يلاحق الطلب النهم على الأجهزة الجديدة . وأخذت السكك الحديدية تزرح بأحمالها ، وبرزت مئات الآلاف من المنازل الجديدة ، في خليط عجيب من الأطرزة : طراز عهد الاستعمار ، والتودوري ، والقوطي ، والإسباني ، والمكسيكي ، والمستحدث ، في ضواحي المدن الكبرى ، أوفى مدن الصناعات الجديدة في الجنوب والغرب . واكتظت الكليات ودور السينما ، وأصبح تزويد الرجال بسلع الأناقة والنساء بمعاجين التجميل تجارة كبيرة ، بينما ارتقى الإعلان من مستوى مهنة تجارية إلى أعلى المستويات كعلم وفن . وفي كل يوم أخذ يظهر تحسين تكنولوجي جديد وروائع أو تقدم علمي مطمئناً إلى أن ثمة أزمان أحسن وأفضل في الطريق . كان هذا هو العهد الجديد . وإذا كان المزارعون أو العمال غير المهرة لم يحظوا بنصيب من خيراته ، فقد كان هذا مقدراً لهم في وقت لاحق . وكان من المناسب أن يأتي استهلال ذلك العهد الجديد على يد رجل كسب شهرته بوصفه مهندساً ، وأثبت أنه مصلح اجتماعي ، وكشف عن فهمه للحضارة القائمة على التجارة والصناعة بخدماته الجليلة وهو وزير للتجارة . ولقد قال هوفر مزهواً : « إننا في أمريكا أقرب إلى الانتصار النهائي على الفقر مما كان سواناً في أية بلاد ، في أي وقت سابق من التاريخ » . ولقد كان كل امرئ تقريباً يتوقع أن يحتفل هوفر نفسه بهذا « الانتصار النهائي » . ولكن القدر كان قاسياً .

ذلك أن انهيار اكتوبر سنة ١٩٢٩ ، جاء بفجاءة درامية ومثيرة . ففي الرابع والعشرين منه ، انتقلت ملكية ما يزيد على اثني عشر مليوناً من الأسهم ، من يد إلى يد ، في إقبال محموم على البيع . وفي التاسع والعشرين منه جاءت الطامة . وخسرت الأسهم المتينة المكانة — كأسهم « أمريكيان تليفون آند تليجراف » و« جنرال إلكتريك » و« جنرال موتورز » — ما بين مائة ومائتي بنط في أسبوع واحد . ولم تحن نهاية الشهر ، حتى كانت خسارة حملة الأسهم المحسوبة قد تجاوزت ١٥ بليوناً من الدولارات . ولم تحن نهاية العام حتى كان الانكماش في قيمة الأوراق المالية من كافة الأنواع قد بلغ مبلغاً خيالياً ، قدره أربعون بليوناً من الدولارات . وخسر ملايين من المستثمرين مدخرات أعمارهم . بيد أن دوامة الكساد الاقتصادي لم تتوقف عند هذا الحد . فإذا دور الأعمال

٤٧٩ من الوضع السوى إلى الكساد الاقتصادى

تغلق أبوابها ، والمصانع تتوقف عن العمل ، والمصارف تهبط إلى الحضيض ، وملايين المتعطلين يذرعون الشوارع بحثاً عن عمل . وفقدت مئات الآلاف من العائلات بيوتها ، وهبط تحصيل الضرائب إلى الدرجة التى عجزت عندها المدن والمقاطعات عن دفع رواتب المدرسين ، وتوقفت أعمال الإنشاء والبناء تماماً ، وتقلصت التجارة الخارجية - التى كانت قد أضربت من قبل أيما ضرر - إلى درك لم تنحدر إليه من قبل .

ما أسباب هذا الفرع والكساد الطويل الذى أعقبه ؟ ليس من المقنع ولا من المفيد أن نقول أن ذلك الكساد جزء طبيعى من الدورة التجارية ، وإن كان هذا صحيحاً إلى قدر كبير عندما تعاف الحكومة التدخل للسيطرة على جموح المشروعات الفردية . ففى حالة فرع عام ١٩٢٩ ، كانت ثمة عوامل من الواضح تماماً أنها أفضت إلى الانهيار . وأول كل شيء أن الطاقة الإنتاجية للأمة كانت أعظم من طاقتها الاستهلاكية . وكان هذا راجعاً إلى حد كبير إلى أن قسماً من الدخل القومى أكبر مما ينبغى أخذ يتجه إلى نسبة ضئيلة من السكان الذى كانوا يحولونه على الفور إلى مدخرات أو إلى الاستثمار ، بينما كان نصيب طبقات العمال والمزارعين والمستخدمين من الدخل غير كاف ، فى الوقت الذى كان نظام المشروعات يستند إلى مقدرتهم المستمرة على الشراء . وكان ثانى العوامل أن سياسات الحكومة فيما يتعلق بالتعريفية الجمركية وبديون الحرب اقتضت بدرجة كبيرة السوق الخارجية للسلع الأمريكية ، فلما حدثت الضائقة الاقتصادية التى سادت العالم فى أوائل الثلاثينات ، انهارت تلك السوق . وكان ثالث العوامل أن سياسات الائتمان السهل كانت قد أفضت إلى توسع مشتط فى الاقتراض ، وتوسع هائل فى الشراء بالنسيئة (التقيسيط) وإلى مضاربات جامحة . وقد بلغ مجموع الديون الحكومية والخاصة ما بين مائة بليون ومائة وخمسين بليوناً من الدولارات ، كما أن المضاربة دفعت الأوراق المالية والعقارات إلى أبعد من قيمتها الحقيقية . وأخيراً ، فإن الكساد الزراعى المطرد ، والبطالة المستمرة فى الصناعة ، والاتجاه المتواصل نحو تركيز الثروة والنقوذ فى كثير من الشركات الكبرى ، أدت إلى اقتصاد قومى غير سليم فى جوهره .

ومهما تكن الإيضاحات ، فلم يلبث أن اتضح أن الأمة فى قبضة أشد كساد مدمر فى تاريخها . فإن فرع عام ١٨٣٧ استمر ثلاث سنوات أو أربعاً ، وفرع عام ١٨٧٣ امتد إلى خمس سنوات ، كما أن كساد سنة ١٨٩٣ الفظيع انتهى فى ربيع سنة ١٨٩٧ ، فى حين أن فترات الفرع الاقتصادى فى أعوام ١٩٠٤ و ١٩٠٧ و ١٩٢١ كانت قصيرة

الأجل . بيد أن الكساد الكبير في سنة ١٩٢٩ استمر قرابة عقد كامل . فلم يسبقه مثيل في طول الأمد ، وفي الفقر الشامل والمأساة التي صبّها على المجتمع . كذلك كان يختلف عن نوبات الكساد السابقة ، في ناحية أخرى . إذ من الواضح أنه كان نتاج الوفرة لا العوز . كان مثلاً أكمل من أى كساد آخر لانهايار نظام توزيع الثروة وتوزيع السلع وفشل قيادة التجارة والصناعة .

وما دام الكساد لم ينبعث عن أسباب طبيعية ، وإنما عن أسباب مصطنعة ، فإنه كان يدعو بالحاح إلى تصرف حكومي نضالي . بيد أن هذا لم يحدث . إذ أن الرئيس هوفر كان كملايين غيره يؤمن بقوى الانعاش التلقائية ، فلم يستبعد تماماً التزام الحكومة بالتصرف ، بيد أنه ظل مؤمناً بأن النجدة كانت مهمة المبرات الخاصة والحكومات المحلية وحدها . وقد قال في هذا : « علينا كامة أن نصدّ الجوع والبرد عن أولئك الذين يعانون الضائقات الحقة من شعبنا » . بيد أنه كان يرفض في إصرار المشروعات الموضوعية للإغاثة القومية المباشرة للمتعطلين والمتضجرين جوعاً . وانتهج من البداية سياسة التهوين من مدى الكساد ، فلما لم يعد هذا ممكناً ، اعتنق نظرية أن الرخاء قريب لا ريب فيه . وفي الناحية الإيجابية ، قنعت حكومة هوفر بسلسلة من العلاجات النوعية الجزئية : برنامج لإنشاء الطرق ، والبنائات العامة ، والخطوط الجوية ؛ واعتماد ٣٠٠ مليون دولار للقروض الزراعية ؛ وقانون « جلاس — ستيجال » لتوسيع التسهيلات الائتمانية في نظام الاحتياطي الفيدرالي ؛ وفوق كل هذا إنشاء شركة لتمويل التعمير ، مع بليونين لإقراض المصارف والسكك الحديدية وشركات التأمين والمؤسسات الصناعية .

ولكن هذه الإجراءات لم تكن كافية لسوء الحظ ، فأخذ الموقف ينحدر من سوء إلى أسوأ باطراد . ولم تحن سنة ١٩٣٢ حتى كان عدد المتعطلين قد تجاوز اثني عشر مليوناً ، وحتى أغلق ما يزيد على خمسة آلاف مصرف أبوابها ، وبلغت الإفلاسات التجارية اثنين وثلاثين ألفاً ، وهبطت أسعار المنتجات الزراعية إلى أدنى مستوى في التاريخ ، وتعرضت الطبقة الوسطى لخطر الزوال ، وهبط الدخل القومي من أكثر من ثمانين بليوناً في سنة ١٩٢٩ إلى أربعين بليوناً ، وبدأ أن الاقتصاد القومي للبلاد بأكمله يتصدع ويتحلل ، وصار الشعب في حالة نفسية بشعة .

والأمريكيون ليسوا مبالين للثورة ، لذلك تطلّعوا في هذه الأزمة نحو قيادة مختلفة ،

٤٨١ من الوضع السوى إلى الكساد الاقتصادى

بأمل . وكان فريق من التقدميين الجمهوريين قد هاجموا - بقيادة الشيوخ نوريس ، ولا فوليت ، وكوستيجان ، وكتنج - سياسات هوفر ، ولكنهم لم يكونوا من المقدرة بدرجة تمكنهم من انتزاع السيطرة على الحزب من المحافظين ، ودعت الضرورة البلاد إلى التطلع إلى الديمقراطيين من أجل الخلاص . وفى سنة ١٩٣٠ ، فاز الديمقراطيون فى انتخابات الكونجرس بأغلبية ساحقة . ولم يفد محافظو الحزب الجمهورى من دروس الكساد ، فأعادوا ترشيح الرئيس هوفر فى تحدٍ . وعاد هوفر يهيب بـ « الفردية الخالصة » لحل الأزمة القومية . وقدم الديمقراطيون فرانكلين دى . روزفلت ذا الشخصية الفائزة التحمس ، الشديدة الجاذبية ، وكان كمحافظ للامبايرستيت قد كشف عن شخصية واسعة الحيلة ، جسور ، وعن أنه زعيم ومصلح إنسانى ، وسياسى داهية ، وقد وعد الأمة بـ « نظام جديد » . وفى انتخابات نوفمبر ، شق روزفلت طريقه مظفراً إلى البيت الأبيض ، على سيل جارف من أغلبية شعبية بلغت سبعة ملايين من الأصوات .



الفصل ٢٣

فرانكلين دى . روزفلت والنظام الجديد

الرجل والمشكلة

وفقت الديمقراطية الأمريكية دوماً فى الاهتداء إلى قادة عظام فى أوقات الأزمات الكبرى ولقد كان الاختيار أحياناً مبنياً على منطق ومقصود ، كما فى حالة واشنطن . وفى أوقات أخرى كان الاختيار مصادفة ، كما فى حالات لينكولن وتيودور روزفلت وويلسون . وليس من الممكن القول بأن فرانكلين روزفلت كان كماً غير معروف عندما انتخب لرئاسة الجمهورية ، بل من الجائز أن نؤكد أن فئة قليلة من الذين منحوه أصواتهم والأمل يحذوهم ، كانوا يدركون أنهم أوتوا فى شخص روزفلت زعيماً كان فى الدفاع عن الديمقراطية والقومية نداءً للينكولن ، وفى القيادة نحو نظام عالمى أفضل كان زعيماً لويلسون .

كان روزفلت قد بنى شهرته كحاكم لنيويورك ذى كفاءة وذى عقلية اجتماعية ، بيد أن وراء ذلك اجتهاداً طويلاً فى التلمذة السياسية . كان كموسر من أسرة مرموقة ،

وخرّيج في مدرسة غروتون وفي جامعة هارفارد قد قرر من سن مبكرة أن يقتفى خطوات قريبه في البيت الأبيض ، بأن يقبل إقبالاً نشيطاً على الأمور السياسية . وقد امتازت جهوده الأولى بصفتين أصبحتا طابعين له فيما بعد : الولاء للمبادئ التقدمية ، وموهبة تيسر له الاستحواذ على ثقة الناس من كافة مناحى الحياة . ولقد خدم في الجمعية التشريعية لولاية نيويورك ، وكان مساعداً لوزير البحرية في عهد ويلسون ، ورشح لمنصب نائب الرئيس في سنة ١٩٢٠ . ثم أصيب بشلل الأطفال وقد ناضل في تؤدة حتى استرد صحته ، وأخذ يدرس خلال سنوات الاعتكاف عن النشاط السياسي – التاريخ السياسي الأمريكي ، واكتسب بالمراسلة والاتصالات الشخصية أتباعاً كثيرين وأولياء . وفي سنة ١٩٢٨ ، سبق المرشحين معه إلى الفوز بمنصب حاكم ولاية نيويورك ، ثم أعيد انتخابه بعد عامين بأغلبية أكبر . ومن المحتمل أن روزفلت – بهذه الخلفية والخبرة – كان أفضل زعيم من الديمقراطيين معرفة واطلاعاً في البلاد ، في سنة ١٩٣٢ .

بيد أن الرئيس الجديد أوتى صفات ومؤهلات أخرى بجانب الخبرة والمعرفة . وكان ذا ثقة غريزية بعامة الناس لا تقل عما كان لبريان ، وذا إيمان نابع عن العقل والمنطق بالديمقراطية يعادل في العمق ما كان لويلسون . وكان ذا دهاء سياسي ، وفهم لفن القيادة ، وغريزة تهديه إلى الشريان الحيوى للمسائل الكبرى . ثم كان على غرار جيفرسون ، انتهازياً بالنسبة للوسائل ، وذا مثابرة دائبة بالنسبة للغايات ، قابلاً للتفاهم بالنسبة لغير الجوهريات ، ولكنه نادراً ما يتزحزح بالنسبة للجوهريات . كما أنه كان على بينة من أن السياسة فن كما هي علم . ولم يكن يغتر بالفكرة التي تزّين أن من الممكن إعادة تشكيل المجتمع بمشروعات على الورق ، أو أن مهنة الحكم من الممكن تذليلها لتكون نوعاً من الإدارة العلمية للسياسة ، أو نوعاً من المشروعات الهندسية . كان على علم بالماضى الأمريكي ، وعلى فهم للعالم الذى كان يعيش فيه ، كما أنه أولى شطراً من تفكيره لتنظيم عالم الغد . وكان يثق بالسياسيين ، ولكنه لم يمسك ثقته عن الخبراء والأخصائيين ، وكان مرهف الحس بالنسبة للرأى العام ولكنه لم يكن يتردد عن أن يصوغه ، ولا كان يخاف من أن يتصدى له . ولقد كان يبدو عفواً بصدد قرارات كبرى إلى درجة تأثير الأسى في بعض الأوقات ، بيد أنه كان ذا اهتمامات واسعة النطاق ، وطاقة لا تعرف الكلل ، وروح استبشار سريعة العدو ، كان ينقلها إلى المحيطين به ، وإلى الشعب بأسره في نهاية الأمر . وهذه الحسنات العظيمة ترجح أخطاءه بكثير ، وهى

٤٨٥ فرانكلين دى . روزفلت والنظام الجديد

أخطاء تمثلت فى : طريقة عفوية فى معالجة المسائل البالغة الخطورة ، وازدراء ارستقراطى للمال ولأصحاب المال ، ومسلك متعال نحو مشكلات المالية العامة .

وكان الخطاب الافتتاحى لروزفلت وعداً بما هو مقبل ، حافلاً بالمعانى كخطاب ويلسون فى استهلال فترة حكمه الأولى ، وإن لم يكن فى بلاغته . فأكد أن الأمة سليمة فى جوهرها وأسسها ، وأن « على أعتابنا وفرة وافرة ، حتى أن أى سخاء فى استعمالها يتضاءل إزاء مشهد الوفرة ذاتها » إنها كان العيب فى « الصيارفة » و « الساعين من أجل أنفسهم » ، وهؤلاء قد طردوا من المعابد ^(١) ، والواجب المرتقب هو مهمة تجديد وإعادة الوضع السليم . ولهذا المهمة كرس الرئيس نفسه . . . لتخفيف الفقر والعوز ، وإعادة التوازن بين الزراعة والصناعة ، والاشراف على الأعمال المصرفية والأوراق المالية ، وإعادة تصحيح العلاقات الاقتصادية الدولية ، وبدء سياسة حسن الجوار . وقال فى جرأة : « إننى على استعداد لأن أوصى بالاجراءات اللازمة لأمة منكوبة وسط عالم منكوب . هذه الاجراءات . . . سأسعى فى نطاق سلطتى الدستورية ، لتحقيق سرعة انتهاجها » . فإذا تخاذل الكونجرس فى الاستجابة « فسأطلب إلى الكونجرس الأداة الوحيدة الباقية للتصدى للأزمة . . . سلطة تنفيذية واسعة لشحن حرب ضد الظروف الطارئة ، تعادل فى كبرها السلطة التى يجدر ايكالها لى لو أن عدواً أجنبياً غزا بلادنا فى الواقع » . وانتهى إلى القول :

إننا نواجه الأيام العصيبة التى ترتقبنا بالشجاعة الحارة المستمدة من الوحدة القومية ، بوعى حلى يدفعنا للسعى إلى القيم الخلقية القديمة والغالية ، بارتياح صاف ينبع من الدقة الصارمة فى أداء الواجب من المسن ومن الشاب على السواء . إننا نهدف إلى أن نكفل حياة قومية شاملة متناسكة ودائمة . إننا لا نتحرز فى الثقة بمستقبل الديمقراطية التى لا غنى عنها .

كان هذا الخطاب الاستهلالى بمثابة تنبيه رسمى إلى الأمة بأن ثمة نظاماً جديداً مقبل . وكانت الحاجة تدعو إلى ذلك النظام الجديد من أمد طويل . إذ أن رجال

(١) إشارة إلى طرد السيد المسيح للمرابين وطلاب الذهب من المعبد — المترجم .

السياسة كانوا قد قضوا ما يزيد على عقد من الزمن ، بأوراق مغشوشة ، وقد جمعت المشروعات التجارية والصناعية كل المكاسب تقريباً . ولقد اعتزم روزفلت أن يعيد قواعد اللعب الديمقراطي . وبدأ النظام الجديد لكثير من المعارضين بمثابة ثورة . والواقع أنه كان نظاماً محافظاً إلى حد بعيد . . محافظاً بالقدر الذي كانت به الديمقراطية الجيفرسونية والويلسونية محافظة . كان يهدف إلى حماية الضرورات الجوهرية للديمقراطية الأمريكية من العنف الصادر عن اليسار أو عن اليمين . . إلى صون الموارد الطبيعية والبشرية . . إلى حفظ التوازن في المصالح في ظلال الدستور والأمن والحرية .

كان النظام الجديد من ناحية الفلسفة ديمقراطياً ، ومن ناحية الأسلوب ثورياً . ولما كانت الإصلاحات التشريعية قد احتجزت خمسة عشر عاماً ، فإنها لم تلبث أن تفجرت على البلاد بما بدا أنه عنف ، غير أنه اتضح حين هدأت المياه أنها تسير في قنوات مألوفة ، فكانت سياسة صيانة الموارد في النظام الجديد قد بدأت على يد تيودور روزفلت ، وكانت قوانين تنظيم السكك الحديدية والترستات ترجع إلى الثمانينات من القرن التاسع عشر ، وكانت بعض الإصلاحات المصرفية والنقدية قد أنجزت على يد ويلسون . أما برنامج الإغاثة الزراعية فقد استعار الكثير من الشعبين ، واستعار تشريع العمالة الكثير من إجراءات تطبيقها ولايات مثل ويسكونسين وأوريغون . بل إن الإصلاح القضائي الذي أثار ضجة عاتية ، كان مما تطلع إليه لينكولن وتيودور روزفلت . وفي مجال العلاقات الدولية ، كانت سياسات النظام الجديد استطرادات واضحة للسياسات التقليدية الرامية إلى تدعيم الأمن القومي ، والحفاظ على حرية البحار ، ومساندة القانون والسلام ، والدفاع عن الديمقراطية في العالم الغربي .

تطبيق النظام الجديد

كان الكساد الاقتصادي في دركه الأسفل ، عندما تولى فرانكلين روزفلت الحكم ، في ٤ مارس سنة ١٩٣٣ ، وكان النظام الاقتصادي للبلاد على شفا الانهيار التام . وتصدى روزفلت للأزمة بجرأة وحمية ، وقبل أن تنتهي مدة حكمه الأولى ، كان قد دفع إلى حيز الوجود بمجموعة من التشريعات أكثر تنوعاً وأهمية مما صدر عن أى واحد من سابقيه

فرانكلين دى . روزفلت والنظام الجديد ٤٨٧

منذ واشنطن . وكان النظام الجديد الذى أتاحتها حكومة روزفلت للبلاد ، مكوّناً من إجراءات للإنعاش والإغاثة - من ناحية - ومن إجراءات للإصلاح ، من ناحية أخرى . والواقع أن كثيراً من الإجراءات يجمع بين الغرضين ، فليس من الممكن باستمرار تعيين حد فاصل بين انتهاء الإنعاش وبداية الإصلاح . ففى مجال الإغاثة ساعدت الحكومة المشروعات التى برحت بها الضائقة ، بقروض اتحادية سرعان ما وصلت إلى بلايين من الدولارات . ولقد أرست دعائم برنامج واسع للإئفاق على الإنشاءات العامة وإقراض مشروعات الإسكان والطرق والجسور والتحسينات المحلية ، لكى تنشط التجارة والصناعة وتوفر العمالة . ولقد أنشأت نظماً فضفاضة لإغاثة المتعطلين ، فلم تحن سنة ١٩٤٠ ، حتى كانت قد أنفقت حوالى ستة عشر بليوناً من الدولارات على الإغاثة المباشرة ، وسبعة بلايين أخرى على مشروعات عامة متباينة . كما أنها بدأت برنامجاً واسع المدى للحفاظ على الموارد الطبيعية ، كان من أدواته الرئيسية « فيلق الصيانة المدنى » ، الذى أتاح عملاً لحوالى ثلاثة ملايين من الشباب . ولقد خفت لمساعدة السكك الحديدية ، وحققت تدعيم التسهيلات ، ومولت تحسينات تأخرت كثيراً عن موعدها . وبفضل الرعاية الاتحادية لمشروعات التأليف ، وللمسارح والفرق الموسيقية ، ولزخرفة وزينة البنايات العامة ، ساعدت الحكومة الكتاب والفنانين والموسيقيين الذين عصّتهم الضائقة ، وبهذا أثرت الحياة الثقافية للأمة بدرجة كبيرة . ولقد كان كثير من الإصلاحات الطويلة المدى فى الزراعة والصناعة ، مرسوماً كذلك للإغاثة السريعة .

وكان من الطبيعى أن تحدث أخطاء ، بعضها خطير . فقد أثبتت إدارة الإنعاش القومى فشلاً ، حتى قبل أن تقضى عليها المحكمة العليا فى سنة ١٩٣٥ . ولم يؤد تخفيض الدولار إلى رفع الأسعار ، وهو غايته الرئيسية ، بدرجة تذكر . ولقد بددت كثير من الأموال دون جدوى ، ونما الدين القومى بمعدل سريع . كما اتسمت الحكومة بكثرة المنازعات الداخلية فيها ، بيد أن السجل العام للنظام الجديد كان طيباً .

وفى اتجاه الإصلاح الدائم . اتجه نظر الحكومة إلى العمليات المصرفية ، وتوليد الطاقة من القوى المائية ، والزراعة ، والعمالة ، والتأمين الاجتماعى ، والتشريع السياسى . فأغلق النظام الجديد المصارف ، ثم أعاد فتحها تحت أشد رقابة وبضمانات حكومية للدوائى المصرفية . ولقد هجر قاعدة الذهب وخفّض قيمة الدولار لتحقيق

تضخم معتدل وتحت سيطرة موجهة ، وبذلك رفع أسعار السلع . وأقام رقابة دقيقة على بيع الأسهم والسندات وغيرها من الأوراق المالية . كما أنه كسر شوكة الشركات الكبرى التي كانت تفرض سلطانها على شركات أخرى ، والتي كانت قد ظفرت بسيطرة على قطاع كبير من عمليات إمداد البلاد بالإنارة الكهربائية ، والتي ما كانت تدار في كثير من الأحيان إلا لمنفعة فئة قليلة من المهيمنين عليها . كذلك وضع مجموعة من القوانين بقواعد عادلة لممارسة التجارة والصناعة ، ترمى إلى القضاء على المنافسة المتلافة . ورفع الضرائب على دخل الأغنياء والشركات ، وسد ثغرات التهرب في القوانين الضريبية ، وبدد كثير من الارتباك الذي طال وجوده بالنسبة إلى السياسات الضريبية للحكومات الولايات والحكومة الاتحادية .

إعادة انتخاب روزفلت : انصراف جديد إلى الإصلاح

في أواخر الحملة الانتخابية لرئاسة الجمهورية في سنة ١٩٣٦ ، تنبأ جيمس إيه . فارلى المؤيد المتحمس لروزفلت ، بأنه سيفوز بأصوات جميع الولايات ماعدا مين وفيرمونت . وقد تحقق تفاؤله . ففي تنافس مع حاكم لولاية كنساس — جدير بالاحترام ولكنه بدون لون سياسى ، هو ألفريد إم . لاندون — فاز روزفلت بأكثر أغلبية شعبية في التاريخ ، إذ نال ٤٨٠ ٠٠٠ ٢٧ صوتاً في مقابل ١٦ ٦٧٥ ٠٠٠ نالها لاندون ، وأحرز في المجمع الانتخابي ٥٢٨ صوتاً في مقابل ٨ لمزاحمه . وكانت مئاة مكانة الرئيس في المدن بارزة بوجه خاص ، كما أن الولايات العشر التي تضم أكبر اثنتى عشر مدينة في الدولة ، أوشكت أن تسيطر على أى انتخاب قومي . ولم يهزم روزفلت الجمهوريين وحدهم ، بل إنه هزم مجموعة كانت تسمى رابطة لينكولن ، ضمت المحافظين الديمقراطيين من أمثال جون دبليو . ديفيز وألفريد إى . سميث .

وقد أعلن روزفلت ، في آخر خطاب مهم في حملته الانتخابية ، أن قوى رجعية شديدة البأس كانت تحاول أن تعيد إقامة حكومة « لا أسمع ، ولا أرى ولا أفعل شيئاً » . وقال : « إنهم على قلب رجل واحد في كراهيتهم لى . . وإننى لأرحب

فرانكلين دى . روزفلت والنظام الجديد ٤٨٩

بكرهيتهم » . وكان من الصحيح أن الجماعات التى تخصصت فى الكراهية والتحامل ، والزعماء الذين كانوا يدعون إلى العاطفة بدلاً من العقل والمنطق ، قد احتلوا مكانة بارزة ، مثيرة للجزع ، فى البلاد . وقد خلقتهم الآلام التى ترتبت على الكساد ، والإغراء الطبيعى الموحى بتجربة ألوان العلاج الشاملة لكافة العلل ، وانفعالية أشد المؤيدين بل وأشد المعارضين ، لإجراءات روزفلت الكاسحة ، والمخاوف من أى تغير مقبل . وكان لمنظر الاضطراب والقلق فى الدنيا القديمة نصيب فى ذلك ، فقد شهد عام ١٩٣٦ عدواناً يابانياً ضد الصين ، وقيام الحرب الأهلية الإسبانية .

وكانت إحدى الجماعات المتطرفة ، وهى جماعة « مجتمع المشاركة فى الثروة » التى أنشأها هيوى لونج ، تمثل اختلاجة احتضار . إذ كان لونج — أول حاكم للويسيانا ، ثم عضو مجلس الشيوخ — قد اغتيل فى خريف سنة ١٩٣٥ ، فانتهى بذلك خطر قيام نظام حكم شبه فاشى فى الولاية . ولقد تمسكت فئة ضئيلة من أتباعه بآرائه الغوغائية ، واشتركت مع الجماعتين اللتين كانتا تحت قيادة دكتور فرانسيس تاونسيند والأب تشارلز كوغلين ، فى طرح قائمة للمرشحين فى انتخابات سنة ١٩٣٦ ، تصدرها وليم ليمك ، نائب داكوتا الشمالية . وكان تاونسيند قد ابتكر مشروعاً لدفع معاشات متغيرة لكل امرئ بلغ الستين من العمر أو تجاوزها . أما كوغلين فقد استخدم الإذاعة فى الدعوة إلى العزلة وكراهية الدول الأجنبية أو عدم الاطمئنان إليها . وعندما أخفق مجموع الأصوات التى نالها ليمك فى بلوغ ٩٠٠ ٠٠٠ ، تمزقت منظمته المتعددة الألوان . ولقد كان هو شخصياً مثل الدكتور تاونسيند ، حسن المقصد ، غير مؤذ ، فى جوهره . بيد أن هذا لا يمكن قوله عن كوغلين أو الانتهازى جيرالد كيه . سميث ، وهو قس من لويزيانا ، اعتنق قسماً من أسوأ آراء لونج . أما « رابطة الحرية » ، فإن استخدام هربرت هوفر إياها للنيل بعنف من سياسات روزفلت ساعد على إفقادها ثقة الناس ، ثم قضت عليها الانتخابات .

ومن الطبيعى أن فوز روزفلت الساحق فى عام ١٩٣٦ ، منح حكومته اعتداداً ذاتياً متزايداً . كان سير الأحداث فى داخل البلاد وخارجها يبلور تغيراً فى السياسة . وكانت أولى الملابس القاسية للكساد قد انقضت ، فأصبح بوسع الحكومة أن تمنح الإصلاح — منفصلاً عن الإنعاش — مزيداً من العناية ، وقد اضطرتها القلاقل العالمية إلى أن تنتهج سياسة خارجية أكثر فاعلية ونشاطاً .

وجدير بنا أن نولي اهتماماً خاصاً للميادين الأربعة الكبرى للنظام الجديد : الزراعة ، والعمل ، والتأمين الاجتماعى ، والإدارة الحكومية . فكانت الغايات فى الزراعة هى رفع أسعار السلع إلى مستوى ما قبل الحرب العالمية ، وتخفيض الإنتاج الزراعى إلى الحد الذى يمكن عنده تقليل الفائضات المسببة للتلف ، وتشجيع الحفاظ على خصوبة التربة ، وزيادة تيسير القروض للمزارعين ، وإنقاذ المزارعين المستأجرين للأراضي والمزارعين فى الأراضي الحدية ^(١) ، وفتح أسواق جديدة فى الخارج وفى الداخل للمنتجات الزراعية . وقد حققت كل هذه الغايات إلى حد كبير . فصدر فى سنة ١٩٣٣ قانون التعديل الزراعى ، بغية التخفيض الاختيارى لإنتاج بعض محاصيل رئيسية معينة ، فى مقابل مساعدات مالية من الحكومة . وقد أبطلته المحكمة العليا بعد ثلاث سنوات ، وإذ ذاك أقر الكونجرس قانوناً ثانياً أفضل للإعانة الزراعية . وقد نص على أن تقدم الحكومة مبالغ من المال للمزارعين الذين يخصصون جزءاً من أرضهم لمحاصيل تبقى على التربة . ولم يكن عام ١٩٤٠ حتى كان ستة ملايين من المزارعين قد انضموا إلى هذا البرنامج ، وأخذوا يتلقون إعانات مالية زاد متوسطها على مائة دولار لكل مزارع . كذلك نص القانون الجديد على قروض سلعية على فائض المحاصيل ، وتيسيرات فى التخزين لضمان « مصدر كاف باستمرار للقمح » ، مع التأمين على القمح . وقد أفلح التناقض فى إنتاج المحاصيل الرئيسية – المترتب على هذه السياسة – وفتح أسواق جديدة فى رفع أسعار السلع الزراعية : فلم يكن عام ١٩٣٩ حتى كان التدخل الزراعى يفوق ضعف ما كان فى سنة ١٩٣٢ . ويسرت دائرة ائتمان زراعى القروض بمعدلات اسمية للفائدة ، وتولت دائرة الضمان الزراعى تمويل عملية تمليك المستأجرين لأراضي واستصلاح المزارع الحدية .

ومن النظام الجديد ، فى ميدان العمالة ، مجموعة من القوانين التى تؤدى إلى عهد جديد . فحاول قانون الإنعاش القومى فى سنة ١٩٣٣ نشر العمل ، وتقصير ساعاته ، ورفع الأجور ، وإنهاء تشغيل الأطفال ، كما كفل المساواة الجماعية ، وحرم العقود الخارجية على نقابات العمال . ولقد أبطلته المحكمة العليا فى سنة ١٩٣٥ ، بيد أن مواده نُقِّحت فى قانونين أساسيين عظيمين : قانون واجنر لسنة ١٩٣٥ ، وقانون مستويات

(١) التى يتعادل إنتاجها مع نفقات رعايتها ، فهى لا تحقق ربحاً ولا تحقق خسارة – المترجم .

فرانكلين دى . روزفلت والنظام الجديد ٤٩١

عادلة للعمل فى سنة ١٩٣٨ . فقد كفل قانون واجتر للعمال حق المطالبة والمساومة عن طريق نقابات من اختيارهم هم ، وحرّم على أصحاب العمل التفرقة التى تغيب أى عضو نقابى ، وأقام مجلساً لعلاقات العمل لفض كل النزاعات العمالية . ولقد أثار القانون معارضة عنيفة ، بيد أنه منح العمال معاملة أفضل مما حظوا بها فى أى وقت سابق . فتجددت حيوية اتحاد العمل الأمريكى تحت رعايته ، وظهر إلى الوجود تنظيم جديد وقوى النشاط للعمال ، هو مؤتمر التنظيم الصناعى . وقد بعث مؤتمر التنظيم الصناعى هذا النقابية الصناعية التى كانت فيها مضى لفرسان العمل ، وأفلح فى تنظيم عمال الصلب والنسيج والسيارات وغيرها من الصناعات التى كانت منيعة على الحركة النقابية . ولم يحن عام ١٩٤٠ حتى كان عدد أعضاء النقابات قد ازداد إلى تسعة ملايين ، ولم تحن نهاية الحرب حتى كان العدد قد بلغ خمسة عشر مليوناً تقريباً . أما قانون مستويات عادلة للعمل فكان المقصود به وضع حد أعلى لساعات العمل وحد أدنى للأجور . فحدد أربعين ساعة كحد أدنى أسبوعى سوى ، وأربعين سناً للساعة كحد أدنى سوى للأجر ، وقدر لتحديد الساعات أن يظل على حاله إلى الجيل التالى ، أما الحد الأدنى للأجور فأخذ يرتفع باطراد . كذلك حرم القانون تشغيل الأطفال فى صناعات مشتركة فى التجارة بين الولايات . . وهو تحريم أبقت عليه المحكمة العليا لحسن الحظ .

ومن التشريعات ذات الأهمية الجوهرية كذلك ، تشريع لحماية المتعطلين والمسنين والعجزة . وكانت هذه الأمور قد تركت حتى ذلك الحين للولايات . فسنت بعض الولايات قوانين بمشروعات كافية لتأمين البطالة ومعاشات الشيخوخة . بيد أنه كان من الواضح أن الولايات كانت عاجزة عن أن تعالج المشكلة بمفردها ، إذ أنها كانت مشكلة قومية فى أبعادها . فسن الكونجرس فى سنة ١٩٣٥ ، بإلحاح من الرئيس ، مجموعة من قوانين الضمان الاجتماعى ، توفر معاشات للمسنين ، وتأمينات للبطالة ، وإعانات مالية للعميان ، ولأمهات غير العاملات ، وللأطفال الكسحين ، واعتمادات لخدمات الصحة العامة . وكان على أصحاب العمل أن يوفر جزءاً من تمويل هذه البرامج ، وعلى العمال توفير جزء آخر ، على أن تديرها الولايات ، تحت إشراف الحكومة الاتحادية . وسرعان ما ظفر برنامج الضمان الاجتماعى بتأييد شامل ، بالرغم من المعارضة الأولية الواسعة النطاق . وقد زيد سخاء مواده ووُسّع مجاله فى السنوات التى تتابعت بعد ذلك .

وقد كان من أهم منجزات النظام الجديد إنشاء هيئة وادى تنيسى لتنمية موارد حوض من أكبر أحواض الأنهار الداخلية في البلاد ، عن طريق استخدام السدود التى تمتلكها الحكومة لتوليد الطاقة الكهربائية ، وعن طريق برنامج واسع للإصلاح الاقتصادى والزراعى . وقد أُرِدِف هذا المشروع الجرىء البالغ النجاح بمشروعات مشابهة ، وإن كانت أقل طموحاً ، فى الغرب الأقصى ، واقتُبس على نطاق واسع فى الخارج .

وأخيراً ، أدخلت حكومة روزفلت إصلاحات مهمة وبعيدة المدى على الجهاز الإدارى . فأعيد تنظيم الشعبة التنفيذية - التى كانت قد نمت عشوائياً وبدون تنسيق ، والتى اتسمت بعدم الكفاءة وبالإسراف - تنظيمياً جزئياً وإن ظل ثمة الكثير الذى لابد من إصلاحه . ولعل أهم إجراء لإصلاح الخدمة المدنية منذ قانون الإصلاح الأصلى الصادر فى سنة ١٨٨٣ ، هو قانون هاتش لسنة ١٩٣٩ ، وقد حرم على المستخدمين الحكوميين الأنشطة السياسية الضارة ، ووجه الضربات إلى فساد الأحزاب السياسية وشططها . وفى سنة ١٩٣٧ ، اقترح الرئيس مشروعاً لإصلاح المحكمة العليا ، إذ أقلقه أعظم القلق سلسلة القرارات التى لم يسبقها مثيل ، والتى كانت تلغى معظم إجراءات « النظام الجديد » . وكان أسلوبه هو تحقيق تقاعد القضاة المسنين ، وتزويد المحكمة بدم جديد ، بغية إقناع المحكمة بالعودة إلى التقليد العظيم الذى وضعه مارشال ، وستورى وهولز . . تقليد تفسير الدستور على أنه أداة مرنة للحكومة ، وليس حاجزاً فى طريق الحكومة . وقوبل اقتراح روزفلت الموضوعى بانتقاد حاد ، وما لبث أن هُزم . على أن رجال المحكمة بدأوا - فى تلك الأثناء - يتغيرون ، ولم يطل الوقت حتى أخذوا ينظرون نظرة أكثر استنارة إلى التشريعات التى يصدرها فرعاً نظام الحكم الآخرين^(١) ، المساويان للقضاء ، والمستقلان عنه . فعكست معظم قراراتها السابقة التى كانت تشل الحكومة ، وإذا الجدل الكبير الذى أثاره روزفلت بصدد المحكمة ، وإن أنتج كثيراً من الارتباك والسخط ، ينتهى إلى خطوة نحو تلقين الأمة الطابع الحقيقى المميز للنظام الدستورى الأمريكى ، وحمل المحكمة على أن تبدى احتراماً أكثر واقعية للنصوص الدستورية القضائية بفصل سلطات الحكم الثلاث وتساويها ، وأن تتكيف مع الديمقراطية الأمريكية .

(١) الهيئة التشريعية والهيئة التنفيذية - المترجم .

فرانكلين دى . روزفلت والنظام الجديد ٤٩٣

شبح الحرب

قطع صخب الشؤون الخارجية استرسال البرنامج الداخلى لروزفلت على نحو مزعج ، كما حدث لبرنامج ويلسون . وقبل أن يقطع شوطاً في فترة حكمه الثانية ، كان قد اتضح أن المشكلات الدولية خليقة بأن تتقدم على المشكلات الداخلية . كان نظام الأمن الجماعى الذى وضعه الرئيس ويلسون وهو مفعم بالأمل ، قد تصدع ابتداء من العشرينات ، وواصل تصدعه في الثلاثينات دون علاج شاف . ولابد من أن تتحمل الولايات المتحدة بعض مسؤولية هذا التصدع . إذ أن سياسة العزلة التى اعتنقتها بكل اعتداد حرمت عصبة الأمم من الدعم المعنوى والعمل من أعظم الدول الكبرى العالمية وأكثرها استقلالاً . وساهمت سياساتها الجمركية في الانهيار الاقتصادى العالمى ، كما لاح أن انسحابها من الشرق الأقصى شجع استمرار العدوان اليابانى ، وأدى السعى المهتاج إلى نزع السلاح إلى صرف الدول الديمقراطية عن اتخاذ موقف واقعى إزاء مشكلات الاستعداد البحرى والحربى .

وتتغلغل أصول الحرب العالمية الثانية في عقد العشرينات من القرن . فقد شعرت اليابان بأن عصبة الأمم قد صفقت الباب بشدة في وجه المضى في التوسع ، وكانت تعاف بشمم سلطان بريطانيا والولايات المتحدة في الشرق . ولم تكن إيطاليا راضية عن ثمار اشتراكها المتأخر في الحرب العالمية الأولى في جانب الحلفاء ، كما كان زعيمها المتهور الجعجاع بنيتو موسوليني في جوع وظماً إلى المجد . وكانت ألمانيا مفعمة بالامتعاض من هزيمتها ، ومتململة من قيود معاهدة فرساي . ثم كان هناك الكساد الاقتصادى ، وضغط التزايد السكانى ، والفوضى الاجتماعية والخلقية ، وقد مهدت هذه جميعاً لظهور قيادات جديدة ، نافذة الصبر إزاء بطء عمليات التوافق السلمى ، ولظهور فلسفات تحدت مُسلّمات واستنتاجات الفلسفات القديمة . ولم تكن اليابان في الواقع بحاجة تذكر إلى فلسفة جديدة ، فما كانت بحاجة لغير أسلحة تنفذ بها فلسفتها القديمة . وتحولت إيطاليا إلى الفاشية . وسمحت ألمانيا ، بعد عقد حافل بالارتباك ، لمتعصب متهوس نمسوى من مقاتلى الحرب الأولى ، هو أدولف هتلر ، بأن ينظم حزباً ثورياً هو الحزب الاشتراكى القومى ، وبأن يستولى على مقاليد الحكم . فلم تحن أوائل الثلاثينات ، حتى كانت الدول الثلاث جميعاً قد شكّلت حكومات ديكتاتورية ، وحتى كانت ثلاثتها

٤٩٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

متأهبة لإلغاء معاهدة فرساي والمعاهدات التي ترتبت عليها ، بل وكيان القانون والنظام الدوليين بأكمله .

وأخذت الأحداث من ذلك الحين تجرى بسرعة مخيفة . فقد سلكت كل من الدول الديكتاتورية طريق العدوان . وأخذت كل منها تنمى وتعزز جهازها الحربى ، وتهدد جاراتها الضعيفة ، وأقبلت على مجازفات استعمارية (إمبريالية) . وقد بُنيت معظم هذه المجازفات منطقياً على أسس معقولة ، ونُقذت بطريقة عززت مكانة المعتدين بدرجة كبيرة ، بيد أنها لم تستفز بشدة معارضة الدول الديمقراطية . فغزت اليابان ، فى سنة ١٩٣١ ، منشورياً وأقامت دولة مانشوكو التى كانت دمية لها ، ومن هذا المنطلق الممتاز أصبحت تتاخم سيبيريا الروسية شمالاً ، والصين جنوباً . أما إيطاليا التى كانت قد دعمت مركزها فى الدوديكانيز من قبل ، فاستولت على فيومى ، ووسّعت حدودها فى ليبيا ، وبدأت إحياء الإمبراطورية الرومانية بشن الحرب على الحبشة فى سنة ١٩٣٥ - ١٩٣٦ وأخضعت هذه الدولة العريقة ، وإن كانت ضعيفة ، لتبعيتها . أما ألمانيا فألغت معاهدة فرساي ، وعادت إلى احتلال إقليم الراين ، وأقبلت بجسارة على التسلح على نطاق واسع . ولقد احتجت عصبة الأمم ، وأبدى الدبلوماسيون أساهم لما جدد ، واستنكره الزعماء الديمقراطيون ، وعانت منه الضحايا ، ولكن ما من أمة أو مجموعة من الدول اعترضت وأقامت حاجزاً فعالاً فى وجه الأطماع الديكتاتورية .

وكان معظم الأمريكيين يرقبون هذه التطورات فى غير اكتراث . . وإن خالط هذه اللامبالاة استهجان فى الواقع . ولقد أيقنوا أن هذا ليس سوى فصل جديد فى قصة قديمة ، قصة إحياء الإمبرياليات . ولم يدركوا ما للقوى التى أُطلقت فى العالم إذ ذاك من طبيعة ثورية بأكثر مما أدركها معظم الإنجليز . فلم يفتنوا إلى أنهم كانوا إذ ذاك فى مواجهة شر أشد خطراً ، وأشد تفجراً ، من أى شر سابق فى التاريخ الحديث . بل إنهم كانوا يهشون أنفسهم عن أنهم بمأمن خارج هذه التطورات جميعاً ، ويحميهم محيطان شاسعان ، ويتمتعون بكفاية ذاتية ، وغنى ، وقوة سلطان .

كان من العسير على معظم الأمريكيين أن يفهموا الكُنه الحقيقى للخطر المعلق فوقهم وفوق العالم بأسره . فهو لم يكن مجرد خطر عسكرى . ولقد تصدت الولايات المتحدة من قبل لأخطار عسكرية وخرجت منتصرة . إنما كان هذا شيئاً جديداً ومبهماً .

فرانكلين دى . روزفلت والنظام الجديد ٤٩٥

وكان الأمريكيون شعباً وادعاً طليقاً ، لم يعرف الهزيمة ولا ثبوت المعنويات ، كما كانت قوازع الشر غريبة على العقلية الأمريكية ، كما أشار سانتايانا . فلم يكن بوسعهم أن يصدقوا أن ثمة فلسفة جديدة قد ظهرت ، فلسفة رفضت نهجهم فى الحياة وقيمهم الموروثة وأعلنت الحرب عليها .

والفرد هو لب فلسفة الحكم الأمريكية والإنجليزية . فالفرد هو مصدر الحكم ، وله حقوق وحريات فى المجتمع : حق العبادة كما يشاء ، حق القول والكتابة ، وحق التنقل حيث يلائمه ، وحق اختيار عمله ، وحق الزواج بمن يشاء ، وحق تكوين أسرته وفق رغبته ، دون مضايقة من الدولة . وكيفما يكن تفكيره ، أو تدبيره ، أو عمله مكيفاً وفقاً للمجتمع ، فإن الهدف النهائى لحكومته ومجتمعه واقتصاده القومى هو خلق الإنسان الحر وحمايته .

وإزاء هذه الفلسفة فإن الديكتاتورية ، كما طبقت فى إيطاليا وألمانيا واليابان ، كانت تقييم فلسفة مختلفة تمام الاختلاف . فالفلسفة الاستبدادية تخضع الفرد للدولة أو العنصر . ففى النظامين الفاشى والنازى ، كان الفرد غير مهم نسبياً ، ولم تكن لحياته ، وحقوقه ، وممتلكاته ، ومطامحه وآماله ، وعلاقاته الاجتماعية والعائلية ، قيمة .

وإذ تجل كنه الديكتاتورية الحقيقى ، أخذ توجس الأمريكيين يزداد باطراد ، ثم تحول إلى سخط إذ جددت ألمانيا وإيطاليا واليابان اعتداءاتها ، وأخذت تنقض على الدول الصغيرة واحدة إثر أخرى . وفى ١٩٣٦ - ١٩٣٨ حدثت محنة إسبانيا ، حيث ساعدت جيوش وطائرات موسولنى وهتلر القوميين فى الإطاحة بنظام الحكم الجمهورى ، بينما وقفت الدول الديمقراطية مكتوفة الأيدى ، يشل التردد حراكها . وفوق هذا ، فبينما كانت الفيالق الأجنبية المنتصرة تدق أبواب مدريد ، بادرت اليابان بتعجيل « حادث الصين » الذى قدّر له أن يمتد سنوات عديدة حتى دخل فى حرب عالمية عامة . ثم حدث أن ضم هتلر النمسا إلى الرايخ بالعنف ، فى سنة ١٩٣٨ ، وبدأ تحقيق ألمانيا الكبرى . وتلتها تشيكوسلوفاكيا ، فقبل أن تكون الدول الديمقراطية قد أفادت من صدمة ضم النمسا ، أخذ هتلر يطالب بضم إقليم السوديت ، المنطقة الديمقراطية الصغيرة ، التى كانت بريطانيا والولايات المتحدة قد ساعدتا على قيامها . وفى غمرة الانزعاج ، دعا قادة بريطانيا وفرنسا إلى التحكيم فى الموضوع ، فلما رُفض التحكيم طار مستر تشمبرلين إلى ميونيخ ، وهناك أسلم تشيكوسلوفاكيا إلى سادة الحرب الألمان . وقال

تشميرلين عند عودته : « هذا سبيل السلام في عصرنا » ، ولكن وينستون تشرشل قال : « كان على بريطانيا وفرنسا أن تختارا بين الحرب أو الخزي . وقد اختارتا الخزي . وستفرض عليهما الحرب » .

ولم يكن رد فعل أمريكا إزاء هذا كله تصرفاً تذكره الأجيال المقبلة بالفخر . فقد انتهجت في بادئ الأمر سياسة تدعو للسلام بأى ثمن ، وقد بددت أحلامها نتائج الحرب السابقة ، وخشيت من التورط في حرب جديدة ، ووقفت نفسها أن في يدها هي القرار الذي يؤدي إلى الحرب أو إلى السلام . وفي تسرع هجرت كثيراً من تلك الحقوق التي حارب أبائهما وأجدادها مرتين للحفاظ عليها ، وأعلنت على العالم أنه ليس لأية دولة محاربة ، فريسة أو معتدية ، أن تتطلع إليها طلباً للعون ، مهما تكن الظروف . وقد أدرج هذا كله في تشريع الحياد في ١٩٣٥ - ١٩٣٧ ، الذي حرم الاتجار مع أية دولة محاربة أو إقراضها .

ولقد أخطأ الرئيس روزفلت بالتصديق على هذا التشريع ، الذي لم يكن يقره ، ولا كان وزير خارجيته كوردل هل يقره . فلما ازداد الموقف الدولي سوءاً ، آلى على نفسه أن يثبت في الشعب الأمريكي إدراكاً لطبيعة ما كان يحدث في العالم الخارجي ، وأن يسلمح أمريكا معنوياً ومادياً لتتصدى لهذا الموقف وتتغلب عليه . وفي خطاب ألقاه في شيكاغو ، عام ١٩٣٧ ، دعا إلى حَجْر خلقى ومعنوى ضد الدول المعتدية ، فلم تقابل دعوته إلا بآتهامه بأنه يتلاعب بالسياسة ويعرض البلاد للتورط في حروب « أجنبية » . ولقد استنكر عدوان اليابان على الصين ، ووطد علاقات ودية مع دول أمريكا اللاتينية ومع كندا ، وأخذ يهيب بالكونجرس أن يقر اعتمادات أكبر من أجل الأسلحة ، كضرورة لازمة . وحذر الديكتاتوريين بأن « السلام بقوة الخوف ، لا يتسم بميزة أرفع ولا أكثر بقاء من السلام بقوة السيف » . ورفض أن يعرب عن خوف ، أو عن أنه يتأثر بإرهاب القوة . ومع ازدياد السياسة الاستبدادية عدواناً ، ازدادت الروح الأمريكية صلابة ضدها .

مقدم الحرب

كذلك أخذت بريطانيا تتسلح بعجلة محمومة ، وقد نال لقاء ميونيخ من كرامتها ، وأهاج غضبها ما ترتب عليه من القضاء على تشيكوسلوفاكيا . إذ تبدى أخيراً إفلاس سياسة

فرانكلين دى . روزفلت والنظام الجديد ٤٩٧

التهديئة . بيد أن هتلر لم يشأ الانتظار حتى تخرز بريطانيا والولايات المتحدة تعادلاً عسكرياً مع ألمانيا . فقد ظل طيلة ربيع سنة ١٩٣٩ وصيفها يهدد بولندا ويتوعدها ، مطالباً بضم دانزج والممر البولندى . وازداد مركزه عزة وقوة بدرجة لا سبيل إلى قياسها ، عندما أبرم فى أواسط الصيف تحالفاً مع أقوى دول أوربا ، وهى روسيا . ثم ، وجه ضربته إلى بولندا ولا تزال المفاوضات جارية . وفى أول سبتمبر تدفقت قواته مجتازة الحدود ، بينما كانت طائراته تمطر المدن البولندية موتاً وخراباً . وبعد يومين ، أعلنت بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا ، وفاء بالتزاماتها .

ولم ينقض أسبوعان حتى كانت ألمانيا قد اكتسحت بولندا ، وزحفت روسيا من الشرق لتكمل هزيمة الأمة المنكودة . ثم حدث المأزق الطويل الذى وصفه كثير من الأمريكيين ، فى غباء سخيف ، بأنه حرب « زائفة » . فما إن حان الربيع ، حتى كان هتلر مستعداً لجولة ثانية . وبدون أى إنذار ، دخلت جيوشه الدنمرك والنرويج . وانتهت محاولة بريطانيا إرسال المعونة العاجلة إلى النرويج الصامدة بالفشل ، وفى أقل من شهر كانت موارد الشطر الأكبر من اسكنديناوة تحت سيطرة ألمانيا . وفى ١٠ مايو ، اتجهت ألمانيا غرباً لتهاجم هولندا وبلجيكا المحايدتين ، ثم فرنسا . ولم يدم الهجوم الخاطف أكثر من شهر ، فلما انتهى كانت هولندا قد هُزمت ، والجيش البلجيكى قد استسلم ، وفرنسا ذاتها قد سقطت ، فى حين أن الحملة البريطانية اندفعت فى عجلة عبر القناة (المانش) ، ولم تنج إلا بمعجزة من الطاقة النشيطة والبطولة .

ووقفت بريطانيا وحيدة . ولكنها لم تعد بريطانيا التى ذهبت إلى ميونيخ ، ولا بريطانيا التى فشلت حملتها لنجدة النرويج . كانت بريطانيا التى تذكرت أن ما من غاز حكم أرضها منذ ألف سنة . وقد قال شكسبير مزدهياً : « لتأت ثلاث أركان العالم مدججة بالسلاح ، فسوف نصعقها » . وقد أخذ يردد هذا الازدهاء الأشم وينستون تشيرشل ، الزعيم العظيم الذى آل إلى يديه مصير الأمة وقضية الحرية :

سنثبت مرة أخرى أننا قادرون على الدود عن وطننا الجزيرة ، وأن نعلو عاصفة الحرب ، وأن نتغلب على نذر الطغيان ، ولو قضينا سنوات ، ولو حاربنا وحدنا . . . وبالرغم من أن مساحات كبيرة من أوربا ، وكثيراً من الدول العريقة والشهيرة قد سقطت أو قد تسقط فى قبضة الجستابو وكافة الأجهزة البغيضة للحكم النازى ، فإننا لن نتزحزح ولن نسقط ،

بل سنمضى حتى النهاية ، وسنحارب في فرنسا ، وسنقاتل في البحار والمحيطات . سنقاتل بثقة متزايدة ومقدرة مطردة في الجو . سندافع عن جزيرتنا مهما يكن الثمن . سنقاتل على السواحل الرملية ، وسنقاتل في مناطق هبوط العدو . سنقاتل في الحقول وفي الشوارع . سنقاتل في التلال . ولكننا لن نستسلم ، وحتى إذا — ولا أصدق هذا لحظة واحد — أخضعت هذه الجزيرة أو جزء كبير منها وتضورت جوعاً ، فإن امبراطوريتنا فيها وراء البحار ، مدججة بالسلاح ومحروسة بالأسطول البريطاني ، كفيلة بمواصلة الصراع ، إلى أن يأذن الله للعالم الجديد ، بكل مقدراتها وسطوتها ، أن تتقدم لنجدة الدنيا القديمة وتحررها .

أمريكا تهجر الحياد

« إلى أن يأذن الله » . ولكن متى يكون هذا ؟ لقد دفع الهجوم على بولندا عجلة أكبر نقاش منذ أيام الرق . وهو نقاش لم يجر في قاعات الكونجرس فحسب ، وإنما في كل صحيفة ، وفي كل قاعة عامة ، وفي كل بيت في البلاد . وأخذ روزفلت يعمل بنشاط لإبطال تشريع الحياد ، وبعد جدال طويل ، استطاع أن ينتزع من كونجرس متروك تشريع « ادفع وتسلم » ، الذي جعل موارد أمريكا في متناول الدول الديمقراطية المحاربة ، مادام بوسعها أن تدفع الثمن ، على الأقل . فإن سقوط فرنسا أقنع معظم الأمريكيين أخيراً بسطوة وجبروت الجهاز الحربى الألماني ، كما أن الهجوم الجوى على بريطانيا في صيف وخريف ذلك العام ألقى في روعهم ما جعلهم يتحققون من أن أمريكا ستقف وحدها — إذا ما سقطت بريطانيا — ضد أعتى تحالف عسكرى في التاريخ .

إزاء هذا الاحتمال ، أقر الكونجرس مبالغ هائلة للتسلح ، وأبرم اتفاق مع جمهوريات أمريكا اللاتينية لبسط الحماية الجماعية على ممتلكات الدول الديمقراطية في الدنيا الجديدة ، وأقامت الولايات المتحدة وكندا مجلساً مشتركاً للدفاع ، وبدىء في تجنيد ما يقرب من مليون رجل وتدريبهم عسكرياً في وقت السلم . ولكن الاتفاق الخطير الذى تم بين روزفلت وتشيرشل كان يفوق هذه الخطوات جميعاً أهمية ، إذ أجرت بريطانيا بمقتضاه للولايات المتحدة مجموعة من القواعد البحرية الممتدة من نيوفونلاند إلى غيانا

فرانكلين دى . روزفلت والنظام الجديد ٤٩٩

البريطانية ، فى مقابل خمسين مدمرة عتيقة . وقد قال روزفلت إن هذه كانت أهم خطوة فى دفاعنا القومى منذ شراء لويزيانا ، وأضاف تشيرشل إلى ذلك : « إن هاتين الهيئتين من هيئات الديمقراطيات الناطقة بالإنجليزية - الإمبراطورية البريطانية والولايات المتحدة - مضطرتان إلى أن تمتزجا إلى حد ما فى بعض شؤونهما من أجل النفع المشترك والعام » . وكان قوله لمحة انطوت على تنبؤ .

كان روزفلت قد رسم الطريق الذى لابد للأمة من أن تسلكه ، فهل كان فى مقدرة أن يلزمها هذا الطريق ؟ لقد دُعى الشعب الأمريكى فى صيف عام ١٩٤٠ إلى اختيار رئيس الجمهورية الذى سيقوده خلال الأعوام الخطيرة المقبلة . واختار الديمقراطيون فرانكلين روزفلت مرشحاً عنهم مرة أخرى ، نابذين فى جرأة مارجوا عليه من مناهضة تريغ الرئيس لثلاث فترات متعاقبة . أما الجمهوريون ، فاخترأوا - فى اجتماع سادس جوف من الارتباك - شخصية جديدة على السياسة ، شخصية ويندل ويلكى من إنديانا ونيويورك . وكان الديمقراطيون وزعيمهم قد التزموا التزاماً لا رجعة فيه بسياسة معونة بريطانيا . . وهى سياسة كان من المحتمل أن تفضى إلى الحرب . أفكان الحزب الجمهورى ومرشحه الجديد ، عديم الخبرة ، يقدمون على اعتناق السياسة المضادة ؟ لقد هاجم ويلكى النظام الجديد فى الناحية الداخلية ، ولكنه أبى فى تصميم أن يقحم موضوع معونة بريطانيا فى المعركة السياسية . ففى هذا الموضوع الخطير ، أثر أن يتخذ جانب الرئيس ، وأيد التجنيد ، وأطرى صفقة المدمرات ، وتعهد بأنه لن تكون ثمة رجعة عن الطريق التى اختطها الرئيس وانتهجها الكونجرس ، إذا هو انتُخب . وكان هذا قراراً عظيماً ، نم عن حذق لفن الحكم ، وكشف عن أن الحزب الجمهورى وجد فى ويندل ويلكى زعيماً ذا شجاعة ، وحكمة ، وسعة أفق .

وأعيد انتخاب روزفلت فى انتخابات نوفمبر ، فمضى بهمة فى سياساته وقد أصبح واثقاً من التأييد الشعبى . فلما اجتمع الكونجرس فى شهر يناير قَدَّم إليه مشروعاً كان يرمى إلى الإفلات من القيود الباقية لتشريع الحياذ . . ذلك هو مشروع قانون الإعارة والتأجير . وقد نص هذا المشروع على أنه يجوز للولايات المتحدة أن تعير أو توجر أية معدات أو تسهيلات دفاعية لأية دولة يكون الدفاع عنها حيواً بالنسبة للدفاع عن الولايات المتحدة . وبعد نقاش مستطيل ، أقر الكونجرس المشروع ، وبمقتضى مواد الحكيمة بدأ يتدفق إلى بريطانيا وحلفائها سبل من الطائرات والدبابات والخامات والمواد

٥٠٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

الغذائية وغيرها . ومن الجلى أن هذا الإجراء لم يكن من الحياد فى شىء ، غير أن الولايات المتحدة كانت قد أصبحت ملتزمة بهزيمة ألمانيا . وأعقبت ذلك إجراءات غير حيادية أخرى : الاستيلاء على سفن المحور ، وتجميد أموال المحور ، ونقل ملكية ناقلات النفط لبريطانيا ، واحتلال جرينلاند ثم آيسلند فيما بعد ، ومدّ نطاق الإعارة والتأجير إلى الحليفة الجديدة ، روسيا ، ثم — فى النهاية ، وبعد سلسلة من اعتداءات الغواصات الألمانية على الملاحه الأمريكية — الأمر الرئاسى « بإطلاق النار » على أية غواصات للعدو بمجرد رؤيتها .

ومن إمارات المشاركة المتزايدة التوثق بين أمريكا وبريطانيا ، الصياغة المشتركة لأهداف الديمقراطية فى الحرب . فقد اجتمع روزفلت وتشيرشل فى وسط المحيط الأطلنطى ، فى ١٤ أغسطس ، ووضعوا « ميثاق الأطلنطى » ، متضمناً بعض المبادئ المعينة التى بنى عليها « آمالها المتعلقة بعالم أفضل فى المستقبل » . وكانت هذه المبادئ : لا توسع إقليماً ، ولا تغييرات إقليمية لا تتفق مع رغبات الشعب المعنى بها ، وحق الناس جميعاً فى اختيار شكل الحكم الخاص بهم ، واستمتاع كل الدول بحرية الوصول إلى التجارة والمواد الأولية ، والتعاون الاقتصادى بين الأمم ، وحرية البحار ، والابتعاد عن استعمال القوة كأداة للعلاقات الدولية . وهنا نجد نقاط ويلسون الأربع عشرة فى ثوب جديد ، أكثر بساطة .

هكذا بدا أن الولايات المتحدة كانت تنساق إلى الحرب مع ألمانيا ، بيد أنه بدا كذلك أن هذا الانسياق كان من المحتمل أن يستغرق وقتاً طويلاً . كانت الولايات المتحدة قد اتخذت قرارها ، غير أنها لم تكن بعد من الجراءة بحيث تسلمه لمقادير الحرب . وفى تلك الأثناء ، كان التوتر قد تصاعد فى الشرق الأقصى . كانت اليابان قد انضمت رسمياً إلى المحور . ثم انتهزت فى هذه الفترة التورط البريطانى والأمريكى فى الحرب الأوربية ، فأخذت تمضى بجراءة فى « تدبيرها الجديد » . . وهو تدبير كان اليابانيون يسعون بمقتضاه إلى حكم الشرق بأكمله وحوض المحيط الهادى . وإذ ثبت أن سياسة التهدة غير مجدية ، فإن بريطانيا والولايات المتحدة اتخذتا إزاء اليابان موقفاً أكثر تشدداً وحزمًا . وكان هذا بدوره غير مجد ، إذ أن القادة الحربيين كانوا قد وطدوا سيطرتهم ، وذاقوا طعم الانتصار ، فأصبحوا موقنين من أن انتصارات أعظم ترتقبهم . وفى نوفمبر سنة ١٩٤١ ، وبينما كان الروس يحاربون ببطولة أمام موسكو ولنينجراد ، والبريطانيون

فرانكلين دى . روزفلت والنظام الجديد ٥٠١

يقاتلون للإبقاء على مسالك المحيط الأطلنطى مفتوحة ، دفع اليابانيون بسيل من الجنود إلى الهند الصينية الفرنسية ، وأعدوا قواعد جوية على طول تايلاند . واشتدت خطورة الموقف فى ٦ ديسمبر ، حتى إن الرئيس روزفلت وجه نداء شخصياً إلى إمبراطور اليابان ، ليشارك معه فى الوصول إلى حل يبقى على السلام .

ولا يحتمل أن يكون الإمبراطور قد تسلم هذه الرسالة إطلاقاً . إذ كانت اليابان قد أصبحت متأهبة لأكبر مجازفة متهورة فى التاريخ الحديث . ففى يوم الأحد ٧ ديسمبر ، أغارت بضراوة مدمرة على المراكز الأمامية الأمريكية فى هاواى ، وجوام ، وميداوى ، وويك ، والفلبين . وهكذا حانت الحرب .



الفصل ٢٤

الحرب العالمية الثانية

النظرة القائمة إلى المستقبل

بلغ أعظم الصراعات في التاريخ جبروتاً ، وقد تعلّق به مصير النظم الديمقراطية ، ما أسماه وينستون تشرشل إحدى نقاط تحول الكبرى ، بوقوع حادث بيرل هاربور . ومن الجلى أن اليابانيين أحرزوا نصراً مذهلاً في بيرل هاربور وفي الفليبين ، ولكن من الجلى كذلك أنهم بمهاجمتهم لإقليماً أمريكياً انتهكوا مبدأ من مبادئ الحرب الأساسية . ذلك هو : أنك إذا هاجمته ملكاً ، فلتكن ضربتك قاتلة . والذي حدث هو أن الانقضاض على بيرل هاربور صرع أسطول الولايات المتحدة في المحيط الهادى ، ولكنه لم يصرع الولايات المتحدة . بل إنه على النقيض ، وحد هذه الأمة كما لم يكن بوسع أى شىء آخر أن يوحدّها ، فكرست كل مواردها وطاقاتها للحرب ، ودفعت مقدراتها الإنتاجية العملاقة إلى أعلى درجاتها ، وبثت في شعبها تصميماً لا يلبث على القتال حتى النصر . وإن هى إلا ستة أشهر بعد بيرل هاربور ، حتى كانت القوات البحرية والجوية المشتركة للولايات المتحدة قد أوقعت باليابانيين في ميدواى أول هزيمة بحرية كبرى حاقت بهم في أى وقت من الأوقات . وفي خلال سنة واحدة ، كانت

٥٠٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

الامة التى أريد لها أن تُصرع قد شنت هجمات كبرى موفقة في جانين متقابلين من الكرة الأرضية . . في جزر سولومون وشواطئ أفريقيا الشمالية .

ومع ذلك ، فقد كان الموقف بعد خطيراً ، في ديسمبر سنة ١٩٤١ ، وكان المستقبل المرتقب معتماً . ففي كل مكان ، كان الحلفاء المضعضعون من جراء الهجمات المتتابعة يلتزمون الدفاع ، وفي كل مكان كانت دول المحور منتصرة ، فكان هتلر يسيطر على أوروبا الغربية بأسرها ماعدا شبه جزيرة أيبيريا ، وكانت جيوشه الجبارة قد اندفعت مئات الأميال داخل روسيا ، التى بدا أنها على وشك التداعى . وكانت إيطاليا تتسلط على البحر المتوسط ، وفيالقها تجتاح شمال أفريقيا ، مهددة مصر وقناة السويس . أما اليابانيون ، فكانوا قد أخضعوا شطراً كبيراً من الصين ، وأصبحوا متآهين لينسابوا مكتسحين الملايو ، ومتدققين عبر جزر الهند الشرقية ليهزموا الفلبين ، مهددين الهند في الشرق ، وأستراليا في الجنوب ، وجزر ألوشيان وألاسكا في الشمال .

ولم تبق صامدة في وجه المحور ، في الدنيا القديمة ، سوى بريطانيا وروسيا : بريطانيا ممزقة ، تنزف الدماء من جروحها ، تتلقى الضربات دون انقطاع من السماء ، ومهددة بالمجاعة . . وروسيا جاثية تحت الضربات ، وقد خربت أراضيها ، ودمرت مدنها ومصانعها ، وهلك قسم كبير من جيوشها . ولم يكن من المحتمل فحسب في ديسمبر سنة ١٩٤١ ، بل كان يبدو من المرجح أن تندفع ألمانيا في شمال أفريقيا أوفى القوقاز نحو الشرق ، وأن تشق اليابان طريقها عبر الصين وبورما نحو الغرب ، وأن تلتقى دولتا المحور الكبريان في الهند ، وثلاثة أرباع العالم تحت أقدامها .

ومع ذلك فلو أمكن بطريقة ما تبادى النكبة الفورية ، لما كانت الصورة المرتقبة في الأجل الطويل داعية لليأس إلى هذا الحد . إذ كانت حوالى أربعين دولة قد اشتركت في « الأمم المتحدة » ، بينها أعظم دول الأرض ، وأكثرها سكاناً ، وأقدرها ، وهى : الولايات المتحدة . وبريطانيا ، وروسيا ، والصين ، والهند ، والممتلكات البريطانية . فكان للحلفاء التفوق ، لا في القوى البشرية وحدها ، بل في الطاقة الإنتاجية ، — كما قام الدليل — في العبقرية العلمية والابتكارية كذلك . ولم يكن ينقصهم لضمان النصر النهائي سوى شيء واحد ، هو : الوقت . كان المحور قد استغرق عقداً من الزمن في الاعداد لهذه الحرب ، وقد أشعلها في الصين وإسبانيا وأفريقيا نصف هذه المدة . فاستولى على المبادرة في كل مكان واحتفظ بها . وكان في طوق الحلفاء ،

٥٠٥ الحرب العالمية الثانية

إذا أتيج لهم الوقت ، أن يحشدوا مواردهم الهائلة ، وإن يوجهوا وطأتها إلى العدو . فهل يتاح لهم الوقت ؟

كان للحلفاء امتياز ملحوظ على دول المحور في ناحيتين . فهم أولاً كانوا متحدين واقعياً ، اتحادهم اسماً . فهم لم يتقاسموا مواردهم واساليبهم الفنية العسكرية والعلمية فحسب ، ولكنهم فيما عدا روسيا والصين أدمجوها في الواقع . وعلى النقيض من هذا ، لم يكن للمحور وحدة فعلية . كانت كل من ألمانيا وإيطاليا واليابان تخوض حروباً منفصلة ومستقلة ، فلم تكن ثمة استراتيجية كبرى ، ولا رئاسة أركان حرب مشتركة ، ولا تبادل للأسلحة ، بل ولا للمعلومات ذا قيمة فعالة . أما الميزة الثانية للحلفاء فكانت في القيادة . ففي هذه الأزمة التاريخية الكبيرة ، وجدت كل من بريطانيا والولايات المتحدة قادة صالحين لمسئولياتهم ، وأهلاً للقضايا التي كانوا يمثلونها . فقد أثبت وينستون تشرشل أنه أعظم قائد حرب عرفه الشعب البريطاني منذ بيت الذي كان يصغره سنّاً . ولقد برز فرانكلين دى . روزفلت كأكفأ الرؤساء جميعاً الذين حكموا في فترات الحرب . وكان كل منهما يظفر بالتأييد ويثير الإعجاب لا في بلاده وحدها ، بل في كافة الأصقاع المتحضرة من العالم .

كذلك كانت ثمة ميزة ثالثة ، أخذت قيمتها في الاتضاح مع مر السنين : كانت دول المحور تخوض الحرب بأسلحة الطغيان ، والقمع ، والاستعباد ، فكان عدم الامتثال والخنوع يُعاقَب بالتشهير وتشويه السمعة ، وكان النقد يُحرق ، والاستقلال وروح الأصالة تُحترق ، والمعارضة تقابل بالإعدام أو الاعتقال . أما في جميع الدول الناطقة بالإنجليزية ، فقد ازدهرت الحرية في الحرب ازدهارها في السلم ، فلم ينقطع سير الإجراءات الديمقراطية ، وكان النقد يلقي تشجيعاً ، والأصالة والاستقلال يكافآن . وبهذا اكتسبت دول المحور كراهية الشعوب التي تغلبت عليها قاطبة ، فلم تكن قادرة على حماية نفسها من أخطائها المحتومة . أما الحلفاء فكان بوسعهم الركون إلى تأييد الشعوب التي سعوا إلى تحريرها ، وكانوا يستمتعون بميزة تفوق كل تقدير ، تتمثل في حوار صريح بصدد السياسات والاستراتيجية ، وتأيد من تلقاء النفس وبجراح القلب من كافة قطاعات سكانها ، ومساهمات من عقول ذات أصالة واستقلال .

ولقد اتخذ الحلفاء قراراتين أساسيين منذ بداية الحرب ، بل قبل بيرل هاربور في الواقع . أولهما أن تكون الأولوية لهزيمة ألمانيا . وكانت الحجة المبررة بسيطة ، هي أن

من الممكن لليابان أن تنتظر . أما الانتظار فلم يكن ممكناً بالنسبة لألمانيا . فلو أن الولايات المتحدة انصرفت إلى هزيمة اليابان ، كما كان كثيرون من قصار النظر من الأمريكيين يرون ، لكان من المحتمل أن تصرع كلاً من روسيا وبريطانيا ، فتبقى هذه الدولة لتقاتل وحيدة ضد ثلاثة أرباع المعمورة . أما إذا أمكن إنقاذ روسيا وبريطانيا ، وتيسرت هزيمة ألمانيا ، فلا بد من أن تسقط اليابان لا محالة أمام ما للحلفاء المنتصرين من مقدرة موحدة . وهذه هي الخطة التي اتُّخذت . . وهذه هي الخطة التي أفلحت .

أما القرار الثاني ، فكان جعل الحرب عملية مشتركة : التخطيط المشترك لكافة السياسات العسكرية والسياسية والدبلوماسية والاقتصادية الرئيسية ، وتجميع الموارد ، وإدماج الجيوش تحت قيادة واحدة إلى أقصى ما يمكن . وكان النمط لهذا كله قد رسم من قبل باتفاقية القواعد والمدمرات وقانون الإعارة والتأجير . وقد نما هذا النمط وتطور أثناء الحرب ، عن طريق رئاسة الأركان المشتركة ، دون تعاون من روسيا . وقد حقق أعظم نجاح بالتعاون على إنتاج القنبلة الذرية .

وهكذا واجهت الدول المتحالفة المستقبل لا يخالفها أى إحساس بالتورط أو القنوط ، واجهته بشجاعة لا يخالفها خوف ، وبثقة ، وبإدراك لا يقتصر على مقدرتها التي تفوق كل قياس ، بل يمتد إلى ما عبر عنه روزفلت بقوله « الأغلبية الشاسعة من أعضاء الجنس البشرى في صفنا » ، وإنها كانت تحارب من أجل قضية عادلة .

الإعداد العسكري والصناعي

مهما يكن ما يقال عن الحرب فإننا نخلص إلى أن نتيجتها تتوقف على أمرين : الأسلحة والمعدات ، والرجال الذين يستخدمونها . ذلك لأنه في القرون الماضية ، كما قال فرانسيس بيكون « كانت المدن المحوطة بالأسوار ، والأسلحة المخترنة ، والدروع ، والصفائف من الجياد ، وعجلات الحرب ، ومصانع العتاد ، والمدفعية وما إلى ذلك . . كل هذه ليست سوى حَمَل في جِلْد أسد ، ما لم تكن نشأة القوم وفطرتهم شديدي البأس » . وقد كانت نشأة البريطانيين والأمريكيين وفطرتهم شديدي البأس لحسن حظ قضية الحرية . ولحسن الحظ أيضاً ، إهمهم وإن لم يكونوا قد تجهزوا تجهيزاً كافياً

٥٠٧ الحرب العالمية الثانية

بـ « الأسلحة والدروع ، ومصانع العتاد ، والمدفعية وما إليها » ، فقد كانوا على استعداد لأن يصنعوا كل شيء آخر تتطلبه الحرب الحديثة بوفرة غزيرة .

ومن المحقق أن الولايات المتحدة كانت أفضل تجهيزاً لهذا منها في أية حرب خاضتها من قبل . كان الاستعداد قد بدأ في الثلاثينات ، مع تحويل بإعداد أسطول يكفى محيطين ، حتى إذا اشتعلت الحرب في أوروبا ، أدى سيل مستمر من الطلبات من الخارج ومن واشنطن إلى دفع عجلة الصناعة الأمريكية لما يلائم الإنتاج الحربى . وكانت صفقة « المدمرات في مقابل القواعد » ، وما ترتب عليها من احتلال جرينلاند وآيسلند ، قد أتاحت للولايات المتحدة قواعد جوية وبحرية في منتصف الطريق فى الأطلنطى ، كما أن « الإغارة والتأجير » لم يقتصر على إمداد الحلفاء بالغذاء والعتاد الحربى اللذين كانت الحاجة ماسة إليهما فقط ، بل حوّل المصانع الأمريكية إلى الإنتاج الحربى ، كما أن قانون التجنيد فى زمن السلم ، الذى صدر فى سنة ١٩٤٠ ، ثم أعيد إقراره بأغلبية هزيلة فى العام التالى ، كان قد وفر جيشاً مدرباً مؤلفاً من مليون ونصف المليون من الضباط والجنود . وفوق هذا ، فإن الولايات المتحدة وبريطانيا كانتا قد أخذتا تتبادلان الأسرار والأساليب الفنية العلمية فعلاً ، وكانتا تتعاونان فى أمور مثل الرادار والبحوث الذرية .

لهذا فإن وطأة الحرب الفعلية لم تدهام الولايات المتحدة على غرة ، ولا تطلبت تغييراً جذرياً فى الاقتصاد الأمريكى ، كما حدث فى سنتى ١٨٦١ و ١٩١٧ مثلاً ، بل اقتصرت على زيادة ما كان يجرى فعلاً . وكانت أولى المهام زيادة القوات المسلحة إلى مستوى حاجات الحرب ، وتجهيزها بكميات هائلة من أحدث أسلحة الحرب . وقد تم هذا بسرعة وكفاءة . وامتد التجنيد ليشمل كل الرجال بين الثامنة عشرة والخامسة والأربعين من العمر ، فكان مجموع من سُجّلوا أثناء الحرب حوالى ٣١ مليوناً ، ومن فُحصوا ١٧ مليوناً ، ومن ضُموا إلى الخدمة ١٠ ملايين . فإذا حسبنا المتطوعين ، نجد أن ١١٥ ١٤٥ ١٥ رجلاً وامراً قد خدموا فى القوات المسلحة ما بين بيرل هاربور ويوم الانتصار فى أوروبا ، منهم حوالى ٤,١٠ من المليون فى الجيش ، وحوالى ٩,٣ من المليون فى الأسطول ، وحوالى ستسائة ألف فى مشاة الأسطول ، وما يناهز ربع المليون فى حرس السواحل . وكان لابد من إيواء هذا الجيش الشاسع ، وإطعامه ، وتدريبه ، وتجهيزه ، ونقله واستبقائه فى درجة عالية من المقدرة والصحة والكفاءة والروح المعنوية ، على بُعد آلاف الأميال من الوطن ، وأن يكون هذا

٥٠٨ موجز تاريخ الولايات المتحدة

كله على نطاق يتضاءل إزاءه أى شىء قامت به الولايات المتحدة من قبل .

ولقد استطاعت الولايات المتحدة ، فى الحرب العالمية الأولى ، أن تنقل حوالى مليونين من الجنود إلى فرنسا ، ولكنهم كانوا يعتمدون على بريطانيا وفرنسا فى شطر كبير من أسلحتهم ومعداتهم . أما فى الحرب العالمية الثانية ، فقد كان على الولايات المتحدة أن تنقل ما يزيد على ضعف هذا العدد بكثير من الرجال ، إلى ميادين قتال متناثرة فى شتى أرجاء الأرض ، ومعظمها فى أيدي العدو . ولم يكن عليها أن تجهز هذه الجيوش وحدها وتواصل إمدادها ، بل كان عليها أن تسهم فى مواصلة إمداد جيوش بريطانيا وروسيا والصين وفرنسا الحرة وغيرها ، وقواتها الجوية واقتصادياتها المدنية كذلك . ولم يكن هذا كله يتطلب قوى بشرية وأسلحة فحسب ، بل كان يتطلب نقلاً بحرياً من الضخامة بحيث يكفل استمرار تدفق الإمدادات إلى البلدان النائية ، وتيسيرات هندسية لإقامة معسكرات ، وطرقاً ، وموانئ ، ومطارات ، وخطوط أنابيب . كما كان يتطلب سلاحاً طبياً لوقاية الجنود والبحارة من طائفة من الأمراض الجديدة وللقضاء على الأوبئة . وكان لابد — فوق كل شىء — من أسطول قدير بدرجة تكفل السيطرة على البحار السبعة ، وسلاح جوى قادر على أن ينقل الحرب الجوية إلى العدو .

وكانت الطاقة الإنتاجية لأمريكا أكبر من طاقة كل دول العدو مجتمعة لحسن الحظ ، وقد برهنت أنها كفاء للمستوليات التى ألقيت على عاتقها . فقد أهاب الرئيس روزفلت بالولايات المتحدة أن تصبح مصنع ومستودع الأسلحة للديمقراطية « ترسانة الديمقراطية » ، فاستجابت الأمة . واتجهت الجهود الهائلة للشعب كله إلى الإنتاج الحربى فى وقت وجيز ، فإذا كل أنشطتهم — من صناعة ، وزراعة ، وتعددين ، ونقل ، ومواصلات ، وتمويل ، بل وعلوم وتعليم — تدخل بقدر ما تحت إشراف حكومى جديد أو موسّع . وبين عشية وضحاها أنشئت صناعات كبيرة جديدة ، لاسيما فى مجال تصنيع المغنيسيوم والمطاط الصناعى ، فى حين وسّع نطاق صناعات أخرى كالطائرات والسفن بدرجة هائلة . واستطاع الغرب الأمريكى الأقصى ، لقربه من حرب المحيط الأطلنطى ، أن يقطع خطوات لم يسبقها مثيل ، فى التصنيع ، وفى السكان كذلك . ووجهت مبالغ هائلة من الأموال الاتحادية إلى بناء وتوسيع المنشآت الصناعية من أجل الأغراض الحربية ، وأصبحت الحكومة الاتحادية مالكة لما دعت إليه الطوارئ من مصانع للسفن ومن تيسيرات ومرافق لصنع المطاط والألومنيوم ، مع عدد كبير من

الحرب العالمية الثانية ٥٠٩

المؤسسات الأقل شأنًا . وجُنِّدت معامل البحوث بالجامعات والصناعات للتوصل إلى ماثات من الأساليب الفنية الجديدة ، وأجزاء الآلات ، والمخترعات ، وكذلك للبحوث في موضوعات مثل الرادار ، وأجهزة اكتشاف الأجسام تحت الماء بوساطة الموجات الصوتية ، والتفجير الزمنى والمكانى ، والقنبلة الذرية .

ومع ارتفاع نسبة العمالة إلى معدل لم تبلغه فى أى وقت ، أضيفت ثلاثة ملايين امرأة إلى قوائم العاملات ، وانتهجت سياسة ساعات العمل الإضافية ، وجهود استباق الزمن ، والتعاون الشامل بين العمل والإدارة ورأس المال والحكومة ، مما أدى إلى أن تحطم الصناعات الأمريكية كل الأرقام القياسية للإنتاج ، متجاوزة توقعات الأصدقاء والأعداء على السواء .

وفى السنوات الخمس ، من يوليو سنة ١٩٤٠ حتى هزيمة اليابان فى أغسطس سنة ١٩٤٥ ، ناهز ما أنتجته المصانع ومؤسسات بناء السفن الأمريكية ٣٠٠ ٠٠٠ طائرة حربية ، و ٨٦ ٠٠٠ دبابة ، و ٣ ملايين من المدافع الرشاشة ، و ٧١ ٠٠٠ سفينة حربية من جميع الأنواع ، وما حملته ٥٥ مليون طن من السفن التجارية . وأنتجت من براميل النفط ، وأطوال الخشب ، وأطنان الصلب والألومنيوم ما يتجاوز ما أنتج فى أى وقت سابق فى التاريخ . فأنتجت من الطائرات ، والدبابات ، وسيارات « الجيب » ، وسيارات النقل ، وأجهزة الهاتف الميدانية ، والإطارات المطاط للعجلات ، وأجهزة الرادار ، وأشرطة الألومنيوم لمدارج هبوط الطائرات ، وألف شىء آخر ما لا يقتصر على إمداد الجهاز الحربى الأمريكى وحده ، بل يفى بحاجات بريطانيا ، و— إلى حد ما — روسيا كذلك . وهكذا أرسلت إلى بريطانيا آلاف الطائرات ، وما يزيد على ١٠٠ ٠٠٠ سيارة نقل و« جيب » ، و ٦ ملايين طن من الصلب ، وما قيمته بليون دولار من العتاد ، فى حين حصلت روسيا على ما يزيد على ٤٠٠ ٠٠٠ سيارة نقل ، و ٥٠ ٠٠٠ سيارة « جيب » ، و ٧٠٠٠ دبابة ، و ٤٢٠ ٠٠٠ طن من الألومنيوم . ولم تحن نهاية الحرب ، حتى كان حساب « الإعارة والتأجير » يبين أن الولايات المتحدة قدمت من المواد الغذائية والمواد الحربية ما تبلغ قيمته ٥٠ بليوناً من الدولارات . أما الجانب المدين من حساب « الإعارة والتأجير » ، وهو فى الغالب خدمات وتسهيلات ، فوصل إلى حوال ٨ بلايين .

ولاشك فى أن أبهر الإنجازات كانت فى صناعتى الطائرات والسفن . كان هيرمان جورينج قد قال إن « الأمريكيين لا يستطيعون صناعة الطائرات ، فكل ما يحدقونه هو

٥١٠ . موجز تاريخ الولايات المتحدة

صنع البرادات الكهربائية وشفرات الحلاقة » ، وقدر هذه النبوة وكثيرات غيرها أن تُدخض . ومع أن إنتاج الطائرات بدأ بداية بطيئة ، فإنه لم يكد ينطلق حتى تخطى كل التوقعات . فلم تكن خطوط التجميع قد أخرجت أكثر من حوالى ٢٣٠٠٠ طائرة حربية فى الثمانية عشر شهراً التى سبقت بيرل هاربور ، ولكن الإنتاج وصل فى سنة ١٩٤٢ إلى ٤٨٠٠٠ طائرة ، وفى ١٩٤٣ إلى ٨٦٠٠٠ ، وتجاوز ٩٦٠٠٠ فى سنة ١٩٤٤ . كذلك كانت الطائرات المنتجة فى مؤسسة ويلورن أوجلين مارتن خارج بلتيمور ، أو مؤسسة « دوجلاس » فى كاليفورنيا الجنوبية ، تزداد حجماً وسرعة وإحكاماً سنة بعد أخرى . وقد كفّل الإنتاج الأمريكى ، يكمله الإنتاج البريطانى ، للحلفاء السيادة على جو أوروبا والمحيط الهادى حوالى سنة ١٩٤٤ . ولم تحن نهاية هذه السنة حتى كانت صناعة الطائرات تستخدم ما يزيد على مليونين ونصف المليون من العمال ، وتنتج من الطائرات ما تقدر قيمته بحوالى ٢٠ بليوناً من الدولارات ، فأصبحت كبرى الصناعات جميعاً فى البلاد . هكذا كان الشوط الذى قطعته الولايات المتحدة منذ أيام الشقيقتين رايت فى كيتى هوك ! .

ولا يقل عن هذا روعة نجاح برنامج صناعة السفن الذى استندت إليه نتيجة الحرب إلى حد كبير . فعلى طول عامى ١٩٤١ و ١٩٤٢ ، قضت الغواصات الألمانية على قدر كبير من السفن الملاحية ، أمريكية وبريطانية على السواء ، فى المحيط الأطلنطى . ولأح لفترة من الزمن أن خطة هتلر التى كانت ترمى إلى عزل بريطانيا وحرمان أمريكا من الوصول لأى جزء من الدنيا القديمة ، قد تفلح . ولم يقو إنتاج الحلفاء من السفن على تعويض الخسائر القائمة قبل نهاية سنة ١٩٤٢ . وقد تسنى تخفيض الوقت اللازم لإنشاء سفينة النقل حمولة ١٤٠٠٠ طن من شهور إلى أسابيع ، ببناء السفن على شكل قطاعات أو أجزاء كبيرة ، واستعمال اللحام الكهربائى ومخترعات أخرى . وكانت أولى هذه السفن ، التى أطلق عليها اسم سفن الحرية ، هى باتريك هنرى ، وقد أنزلت إلى الماء فى سبتمبر سنة ١٩٤١ ، وبعد عامين من بيرل هاربور ، كانت مصانع السفن الأمريكية قد قدمت ٢٧٠٠ سفينة تجارية من جميع الأنماط — سفن الحرية ، والنصر ، وناقلات النفط وغيرها — بلغ وزنها الإجمالى ٢٧ مليون طن ثابت . وأدت هذه مع المساهمات الكبيرة من مصانع السفن البريطانية ، وانتصار الحلفاء فى حرب المحيط الأطلنطى ، إلى تأكيد سيادة الحلفاء على أعالي البحار ، ومكّن من بقاء بريطانيا ومن غزو القارة فى النهاية .

٥١١ الحرب العالمية الثانية

ولقد أسهم العمل ورأس المال بنصيبيهما كاملين في كسب الحرب . فبعد بيرل هاربور مباشرة دعا الرئيس إلى مؤتمر يمثل العمال والإدارة ، واتخذ عهداً متسامياً نحو الكمال بعدم إضرابات أو اعتصامات حتى نهاية الحرب ، وقد قبل التنظيمان العماليان الكبيران - اتحاد العمل الأمريكي ، ولجنة التنظيم الصناعي - هذا على أساس استبقاء نفقات المعيشة منخفضة كذلك . بيد أن ارتفاع الأسعار كثيراً وبسرعة ، لم يلبث أن اضطر « مجلس العمل خلال الحرب » ، الذي كان حديث الإنشاء ، إلى أن يطبق ما سمي حل لیتل ستيل . . زيادة الأجور بحوالى ١٥ في المائة ، بغية التصدى للأسعار المرتفعة . واشتكى العمال ، وكانوا على شيء من الحق ، من أن هذه الزيادة لم تكن كافية ، ومن أن المشروعات الصناعية والتجارية والمزارعين كانوا يجنون من الحرب أرباحاً كبيرة . ومع أن الأجور لم ترفع بالسرعة التي كان العمال يرونها مناسبة ، فإن العمالة الكاملة والسخاء في الدفع مقابل الساعات الإضافية ، رفعا دخول العمال إلى مستوى لم تبلغه في أى وقت ، وجعل منظمات العمل في مركز أعز من ذي قبل . وراعت النقابات الكبرى التعهد بعدم الإضراب بإخلاص تام . ولم تقع متاعب عمالية خطيرة إلا في مناجم الفحم ، حيث قاد جون إل . لويس أعضاء عمال المناجم المتحدين إلى الإضراب أربع مرات ، ومع ذلك فقد ظل إنتاج الفحم مناسباً برغم هذه الاضطرابات .

كذلك قام المزارعون بمعجزات في الإنتاج في سنوات الحرب ، وساعدتهم في ذلك مواشيهم ، وخنازيرهم ، ودواجنهم أيما مساعدة . وقد ضرب المزارع الأرقام الزراعية القياسية ، بالرغم من أنه كان يعمل في ظروف قاسية لنقص الأيدي العاملة ، وعدم كفاية ما يتلقى من آلات زراعية . فقد ارتفعت الطاقة الإنتاجية للمزارع الأمريكية - بين سنتي ١٩٣٩ و ١٩٤٤ - بحوالى الربع ، وزاد ما أنتجه المزارعون في سنة ١٩٤٤ على ما أنتجوه في سنة ١٩٣٩ بما مقداره ٤٧٧ مليون بوشل من الذرة ، و ٣٢٤ مليون بوشل من القمح ، و ٥٠٠ مليون رطل من الأرز ، في حين أن الزيادة في الماشية والخنازير ومنتجات الألبان كانت أكثر إذهالاً .

وكان لابد للتركيز على الإنتاج الحربى أن يخل بالاقتصاد المدنى ، ومع ذلك فإن الأمريكيين تعرضوا لأقل مما تعرضت له شعوب أية دولة كبرى محاربة أخرى من الاضطرابات ، وعانوا أقل مما عاناه سواهم من الضائقات . فلم يكن التجنيد كاملاً لكل القوى الرجولية والنسوية كما حدث في بريطانيا وروسيا ، ولا كانت ثمة رقابات

شاملة للاقتصاد القومي ، ولا كانت ثمة أزمات لنقص خطير للضروريات التي لا غنى عنها . ولقد فرضت الحكومة نظام الحصص (البطاقات) لأنواع مهمة من المواد الغذائية والسلع الاستهلاكية ، بيد أن غذاء الأمريكيين كان أفضل من ذي قبل بوجه عام ، وكذلك كانت معيشتهم فيما عدا مضايقات أزمات النقص في المساكن . ولقد رُفعت الضرائب على الدخل والشركات إلى معدلات لم يسبقها مثيل ، بيد أن الأرباح لم تكن محدودة بحد ، فتضاعف الدخل المتبقى بعد الضرائب فيما بين عامي ١٩٤٠ و ١٩٤٥ ، وراح الكساد في أدراج النسيان تقريباً . لأنه كان من الأمور الماضية . فتمتع كافة قطاعات المجتمع الأمريكي تقريباً — فيما عدا الفئات الكتابية والمهنية — برخاء لم يسبق حدوث مثله . ولقد ارتفع الدين القومي إلى أكثر من ٢٥٠ بليوناً من الدولارات ، ولكن تسديد الدين ترك للأجيال اللاحقة ، وفقاً للنظريات الاقتصادية القائمة والتي كانت شائعة لدى كل الطبقات على السواء لأول مرة ، وظل الائتمان الأمريكي شائعاً شأنه في أى وقت من أوقات التاريخ الأمريكي .

الدفاع عن المحيط الهادى

كانت بيرل هاربور تؤلف نكبة كبرى مع تدمير معظم السلاح الجوى الأمريكى في الفلبين ، وإغراق البارجتين البريطانيتين ريبّلس وبرينس أوف ويلز . على أن الأحداث كانت تخفى ما هو أسوأ . فإن هما إلا شهران حتى كان اليابانيون قد اجتاحتوا الهند الصينية وتايلاند ، واندفعوا إلى شبه جزيرة الملايو ، مستولين على سنغافورة ، المعقل الكبير ، مخترقين حاجز الملايو — المؤلف من سومطرا ، وجاوه ، وبورنيو ، وجزر سليمان ، وتيمور — ليستولوا على رابول شرقى غينيا الجديدة ، ويندفعوا إلى جزر سولومون ، ويهددوا أستراليا . وكانت قوات يابانية أخرى قد شقت طريقها في بورما ، وعزلت الصين ، ووقفت على حدود الهند . وبعد بيرل هاربور بثلاثة أيام ، كان اليابانيون قد تدفقوا على لوزون في الفلبين ، ولم يحن شهر يناير حتى كانوا قد استولوا على مانيلا ، وتغلبوا في الأربعة الأشهر التالية على المقاومة الأمريكية والفلبينية الباسلة في باتان ، واجتاحتوا جزيرة كوريجيدور الحصينة ، فتمت لهم هزيمة الفلبين بأسرها .

٥١٣ الحرب العالمية الثانية

وهكذا لم يحن ربيع عام ١٩٤٢ حتى كانوا السادة المهيمنين على شطر كبير من آسيا ، وسيطروا على حوض المحيط الهادى الغربى ، وعلى الملايين من الأهالى ، وعلى الموارد الخيالية من النفط والمطاط والقصدير فى إندونيسيا . وما قدّر لغزاة آخرين فى التاريخ أن يظفروا بمثل هذه الانتصارات العظيمة مقابل تكاليف زهيدة .

على أن المحيط الهادى شهد حشداً سريعاً للقوات البريطانية والأمريكية والاسترالية . ومع أن أسطول الباسيفيك المقاتل كان قد هُزم ، فقد تسنى انتشال اثنتين من بوارجه المفقودة فى نهاية الأمر فاشتركتا فى القتال من جديد ، فى حين أن معظم مدمراته وحاملات الجنود الثلاث الكبيرة لم تمس . وباتخاذ هذه القطع نواة ، سرعان ما تجمعت قوة بحرية ، ونقلت التعزيزات الجوية إلى هاواى وأستراليا والجزر النائية التى ظلت فى حوزة الحلفاء . وبصدّ الهجمات الجوية اليابانية على سيلان ، وإنشاء قوة مقتدرة على طول حدود بورما ، أنقذ البريطانيون المعقل الحصين الرئيسى ، الممثل فى الهند . فى حين أفلت الجنرال ماك آرثر من كوريجيدور وأقام مركز قيادة فى أستراليا وشرع ينشئ قوات برية وجوية هناك للقيام بهجوم مضاد .

وكانت الاستراتيجية الأمريكية تدعو إلى إرجاء العمليات إلى أن يتسنى جمع قوة كافية لهجوم برى مائى على الساحل الشمالى لغينيا الجديدة إلى « هاماليرا » وجنوب الفلبين ، ومجموعة من الهجمات البحرية على « السُلّم » المؤلف من جزر سولومون وجيلبرت ومارشال وماريانا وبونين إلى مسافة مناسبة لقصف اليابان ذاتها . بيد أنه كان لابد من انقضاء عام قبل أن يجمع الأمريكيون من القوة البرية والجوية والبحرية ما يكفى لشن هذه الهجمات .

وفى تلك الأثناء ، وضع اليابانيون خطة للقضاء على مابقى من سطوة الحلفاء فى المحيط الهادى ، وقد أصابهم ماسمّاه أحد قادتهم البحريين « مرض الانتصار » . ففى مايو سنة ١٩٤٢ ، ضربوا الأسطول الأمريكى فى معركة بحر المرجان Coral Sea ، فى المياه الممتدة خارج شمال أستراليا مباشرة . وكان صراعاً فذاً فى طابعه ، قال عنه الأدميرال كينج : « أول اشتباك بحرى فى التاريخ ، لم تشترك فيه السفن الطافية على السطح بطلقة واحدة » ، وقد أرسى نمطاً للقتال فى المستقبل . إذ قامت بالقتال كله طائرات كانت تنطلق من حاملات بحرية . ولقد أغرق اليابانيون حاملات الطائرات ليكسينجتون ومدمرة وناقلة للوقود ، فى حين أعطب الأمريكيون حاملتى طائرات يابانية ، وأغرقوا

٥١٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

الحاملة شوهو وعدداً من السفن الأخرى . وبعد بضعة أسابيع ، حدثت معركة ميدواى الفاصلة (٤ - ٦ يونيو) . ففي ٤ يونيو ، اهتدت الطائرات الأمريكية إلى قوة يابانية هائلة ، مؤلفة من حوالى خمسين سفينة نقل وثلاثين بارجة ، بينها أربع حاملات للطائرات . وكانت تزحف إلى قاعدة ميدواى الجوية والبحرية الأمريكية ، وهى جزيرة مرجانية على مسافة ١٥٠٠ ميل إلى الغرب من هاواى . وبينما كانت الطائرات اليابانية تزأر فى طريقها إلى ميدواى ، قصفت الطائرات المنطلقة من الحاملات الأمريكية أسطول الغزو فأغرقت حاملات الطائرات الأربع جميعاً ، وطرادتين ثقيلتين ، وثلاث مدمرات ، وأعطيت ثلاث بوابج . وفى اليوم التالى ، لاذ اليابانيون بالفرار ، تطاردتهم قاذفات القنابل الانقضاضية ، التى ألحقت بالأسطول المعطوب مزيداً من الضرر . فكانت أول هزيمة بحرية كبرى لليابان ، ومقدمة لما كان مقدراً أن يتلوها . كما كانت إحدى نقاط التحول فى حرب المحيط الهادى . ولم تكن الولايات المتحدة مستعدة بعد لتصعيد الهجوم ، بيد أن قوة اندفاع الهجوم اليابانى كانت قد كُبحت قطعاً .

غير أن اليابانيين لم يكونوا راغبين فى الاعتراف بأنهم قد رُدعوا . فتحركوا نحو جزر سولومون معتمزين مهاجمة قوات الحلفاء الصغيرة على الطرف الشرقى لغينيا الجديدة ، وشرعوا فى إقامة قاعدتين جويتين فى تولاجى وجوادالكانال . فهبطت قوة صغيرة من مشاة الأسطول الأمريكيين فى ٧ أغسطس على جوادالكانال ، واستولوا على المطار المقام هناك ، وغيروا اسمه إلى « مطار هندرسن » . وكان رد اليابانيين حاداً : فبعد يومين ، باغتت قوة من الطرادات اليابانية الأسطول الأمريكى والاسترالى الذى كان يحمى عملية الإنزال ، وأبادته تقريباً . غير أن معركة جزيرة سافو هذه ، كانت بداية قتال امتد ستة أشهر من أجل جوادالكانال ، وكان من أشد الحملات الحربية فى التاريخ العسكرى الأمريكى ، ومن أبقاها ذكراً . وكانت حملة اتسمت بمجموعة من الاشتباكات البحرية الكبرى ، وحوالى اثنتى عشرة عملية أرضية ضارية ، ومعارك جوية فى كل يوم تقريباً . وجرت العملية الحاسمة فى نصف نوفمبر سنة ١٩٤٢ ، فى معركة جوادالكانال البحرية التى كبدت العدو بارجتين وطراداً ومدمرتين وستاً من سفن النقل . وكان مقدراً أن يستمر القتال الكثيف شهرين آخرين ، على أنه لم يحن فبراير سنة ١٩٤٣ ، حتى كان اليابانيون قد غادروا

٥١٥ الحرب العالمية الثانية

المنطقة . ومن ذلك الحين ، انتقلت المبادأة في جنوب المحيط الهادى إلى الأمريكيين .

لم يحن ربيع سنة ١٩٤٣ حتى كان التفوق البحرى في المحيط الهادى قد انتقل إلى الولايات المتحدة ، بفضل بُعد نظر واشنطن التى أنزلت إلى الماء كثيراً من السفن فيما بين سنتى ١٩٣٨ و ١٩٤١ ، وبفضل النجاح الرائع لبرنامج بناء السفن ، وإصلاح السفن بعد ذلك . وكان من مظاهر الموقف الجديد العمليات التى أجريت في جزر ألوشيان المحيطة بالضباب ، حيث طُرد اليابانيون من آتو في مايو ، ومن كيسكا في أغسطس التالى . وبهذين الانتصارين تلاشى كل خطر للهجوم عن طريق آلاسكا . وكانت معركة بحر بيسمارك (٢ مارس سنة ١٩٤٣) مظهراً آخر ، وقد كبدت اليابانيين قافلة كاملة من ناقلات الجنود ، وحياة الأميرال ياماموتو ، أقدر قائد حربى يابانى . كذلك كان من المظاهر شن هجوم كامل في جزر سولومون الوسطى ، وسلسلة من الغارات المدمرة على معقل اليابانيين في راباول دبّرت لحماية قوات ماك آرثر من أى تدخل من هذه الناحية . وقد مهدت هذه العمليات جميعاً الطريق لبلوغ الذروة في إعادة فتح الفلبين ، والاستيلاء على إيواجيا وأوكيناوا .

معركة المحيط الأطلنطى

وهكذا استطاع الأمريكيون ، مع ما كان بوسع الممتلكات البريطانية والهولندية أن تسهم به ، أن يعرقلوا بمجهود خارق وقوع نكبة في المحيط الهادى ، وأن يمهّدوا للنصر . وفي الوقت ذاته ، كانت الحرب في الميدان الأوربى تسير سيراً حسناً هي الأخرى . وكان القرار الأساسى ، كما رأينا ، هو حصر توسع اليابان إلى أن يتسنى القضاء على ألمانيا . بيد أنه كان على الولايات المتحدة ، أو بريطانيا على الأقل ، حل المشكلة الكبرى — مشكلة نقل الجنود وإيوائهم وإمدادهم — قبل أن تلتحقاً بالنازيين . ومن الجلى أنه لم يكن من سبيل إلى مهاجمة ألمانيا من أمريكا . كذلك لم يكن من سبيل لمهاجمتها من بريطانيا ، ما لم تكفل الولايات المتحدة استمرار إمداد بريطانيا بالغذاء والسفن والطائرات وغيرها من عتاد الحرب ، ثم تحويل هذه الجزيرة إلى قاعدة عسكرية منيعة من أجل عملياتها .

٥١٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

ومن ثم ، كان الواجب الأول هو الظفر بالسيطرة على المحيط الأطلنطي . ولقد بدأت معركة الأطلنطي ، التي كان النصر أو الانكسار يتوقف على نتائجها ، قبل بيرل هاربور بوقت ليس بالقصير ، في الواقع . وكانت البداية ، مهما يقال في دوافعها ، هو القرار الذي اتخذ بُبعد نظر ، وبتحويل محوط بالشك ، للمقايسة بمدمرات عتيقة في مقابل قواعد في المحيط الهادى والبحر الكاريبى ، وما ترتب عليه من اكتساب قواعد في جرينلاند وآيسلند . بل إن مرحلة القتال في هذه المعركة بدأت قبل دخول الحرب رسمياً بثلاثة أشهر ، عندما انتهز الرئيس روزفلت اعتداء الغواصات الألمانية على الباطرة الأمريكية جرير ليصدر أمراً إلى الأسطول الأمريكى بضرب القطع الألمانية « بمجرد رؤيتها » . وبهذا بدأت المعركة بين الغواصات ، وسفن الإغارة ، وبأثاث الألغام الألمانية ، والأسطولين والسلاحين الجويين البريطانيين والأمريكيين . واستمرت هذه المعركة حتى نهاية الحرب . وانحاز النصر في النهاية إلى جانب الحلفاء ، ولكن بأضيق فارق . وكانت المرحلة الأولى من هذا الصراع ، من ١٩٤١ إلى ١٩٤٣ ، من المعارك الحاسمة في التاريخ .

كان من أشق المهام دحر الغواصات الألمانية التي تدفقت كقطعان الذئاب على شبال المحيط الأطلنطي ، ثم على جنوبه ، وعلى طول المياه الساحلية في المحيط ، بل وعلى البحر الكاريبى . ولقد حاول البريطانيون أن يتصيدوها على طول السواحل الفرنسية والألمانية والنرويجية ، أو أن يقصفوا أوكارها في سان نازير وبريست وبريمرهافن وغيرها من الموانئ ، ولكن بدون نجاح كبير . وظلت الخسائر الناجمة عن الغواصات في تصاعد أثار الذعر طيلة عامى ١٩٤١ و ١٩٤٢ ، فضلاً عن الخسائر الناجمة عما بثه العدو من ألغام بغزارة في المسالك المحفوفة بالأخطار والمحدقة ببريطانيا . ولم تحن نهاية سنة ١٩٤٠ ، حتى كان مجموع الخسائر في السفن قريباً من خمسة ملايين من الأطنان . ثم أودت الغواصات والألغام الألمانية بأربعة ملايين أخرى من الأطنان في سنة ١٩٤١ . وزاد دخول أمريكا الحرب من استهداف الغواصات الألمانية للأخطار ، بيد أنه زاد كذلك من الفرائس المحتملة . ففي الأربعة الأشهر الأولى من سنة ١٩٤٢ ، أغرقت الغواصات الألمانية ٨٢ سفينة مجموع حمولتها نصف مليون طن ، في المحيط الأطلنطي الشمالى وحده . ثم نقلت هجومها الرئيسى إلى الخليج والبحر الكاريبى ، وقضت على ١٤٢ سفينة أخرى يناهز مجموع حمولتها ثلاثة أرباع المليون من الأطنان . وفي هذه

٥١٧ الحرب العالمية الثانية

المدة ، التي بلغت ستة أشهر ، تمكن الحلفاء من إغراق عشرين غواصة ألمانية فقط ،
أى أقل من إنتاج شهر واحد .
ونحدثنا « إس . إى . موريسون » - مؤرخ الأسطول الأمريكى فى الحرب العالمية
الثانية - عن قيمة القضاء على هجمات الغواصات بقوله :

لنأخذ قافلة متجهة نحو الغرب ، فى شهر فبراير ، يحرسها زورقا حراسة السواحل
الأمريكىان « سنسر » و « كامبيل » ، ولحس طرادات كندية وبريطانية ، ومدمرة
بولندية . وكان الكابتن بى . آر . هينان ، من رجال أسطول الولايات المتحدة ، هو
القائد . وخفضت الرياح المعاكسة سرعة التقدم إلى ٤ عُقَد ، ومع ذلك فإن السفن
المرافقة وُقِّعت فى التزوّد بالوقود من ناقلات فى القافلة ، أثناء وجودها فى المياه الهائجة .
وفى ٢١ فبراير ، أغرق الزورقان المسلحان وطائرة ليبريتور أقبلت من المملكة المتحدة
غواصة ألمانية . وفى الأيام الثلاثة التالية ، تعرضت القافلة وهى خارج نطاق الحماية
الجوية لست هجمات من سرب كبير من الغواصات النهمة ، وخسرت خمس سفن .
وأصاب المدمرة البولندية « بورزا » غواصة ألمانية بقذيفة أعماق فغاصت إلى ١٣٠ قامة .
ثم نسف قائدوها جميع الخزانات ، وصعد إلى السطح بزواية شديدة الميل ، فسرعان
ما ضربته « كامبيل » فأغرقتة . وواصل بقية السرب مهاجمة القافلة يومين آخرين ، ولكن
مقدرة قطع الحراسة وحذقها أوصلت السفن دون أن تفقد أكثر من واحدة . ولم تكد وحدة
الحراسة التى يقودها هينان تنعم بالماوى غير الأمن الذى أتاحه مرفأ أرجنتيا ، إذ حلت
البحرية الكندية محلها جنوبى نيوفاوندلاند ، حتى اضطرت للخروج ثانية لتتولى حراسة
قافلة من ٥٦ سفينة متجهة شرقاً . وظلت الأنواء والرياح الغربية مع البرة المنهمر تعصف
بهذه القافلة تسعة أيام تباعاً . ومع أن سفن الحراسة كانت قد اكتسبت خبرة ، وكان
ملاحو السفن التجارية يبدون شجاعة ونظاماً ، فإن ست سفن فُقدت فى هذا البحر
الهائج ، ولم يتسن إنقاذ سوى نفر قليل من أفرادها .

وكانت روسيا منذ اللحظة الأولى للغزو ، قد أخذت تجار طلباً للمعونة من كل من
بريطانيا والولايات المتحدة ، وبرغم ما كانت فيه الحليفتان الغربيتان من ظروف ضيقة ،
فإنهما بذلتا غاية وسعهما لتلبية هذه الطلبات . وإلى أن فُتح طريق الخليج العربى فى سنة

٥١٨ موجز تاريخ الولايات المتحدة

١٩٤٣ ، كان لابد من إرسال كل العتاد الحربى إلى روسيا عن طريق المحيط المتجمد الشمالى إلى مينائى مورمنسك وأرشانجل . وكان ذلك أكثر طرق القوافل خطراً ، لتعرضه لهجمات لا تنقطع من الطائرات والغواصات والطرادات الألمانية التى اتخذت قواعد فى المياه النرويجية . ففقد فيه ما لا يقل عن رُبع جميع السفن التى سلكته فى سنة ١٩٤٢ ومع ذلك فإن تسع عشرة قافلة شقت طريقها ، فى ذلك العام ، خلال الثلوج والضباب والهجمات النازية إلى الموانئ الروسية الشمالية .

وشيئاً فشيئاً ، صارت للحلفاء اليد العليا فى هذه المعركة البحرية القاسية بين سفن تطفر على السطح والغواصات المتريصة تحت الماء . وأنشأوا قوافل لحماية سفنهم التجارية وحاملات الجنود فى المياه المليئة بالأخطار ، فلم تغرق سوى اثنتى عشرة سفينة تقريباً من آلاف السفن التى كانت تحرسها الطرادات والمدمرات والزوارق المسلحة وغيرها من السفن الحربية . كذلك أقاموا داوريات جوية تنطلق من نيوفوندلاند ، وآيسلند ، والبرازيل ، وبرمودا ، وجزيرة اسينشن ، ثم من جزر الأزور أخيراً . واستعملوا أجهزة الاستطلاع بالموجات الصوتية للاهتداء إلى الغواصات الألمانية وتوجيه قذائف الأعماق لإغراقها ، وخصصوا ما لا يزيد على ألف سفينة لاكتساح الألغام ، وجعلوا سفنهم بالقضبان « الممغنطة » لتنبه إلى وجود الألغام أو الغواصات . وبهذه الأساليب وغيرها انخفضت الخسائر بدرجة كبيرة ، ولم يحن صيف سنة ١٩٤٣ حتى كان الحلفاء يفرقون للعدو غواصة فى اليوم ، فى المتوسط .

ولقد ظلت هناك عقبات مرتقبة دون شك . فبالرغم من غارات القصف التى لم تنقطع ، على المدن الصناعية الألمانية ، كان إنتاج الغواصات فى ازدياد مطرد ، حتى بلغ ذروته فى سنة ١٩٤٤ بإنزال ٣٨٧ غواصة ألمانية إلى الماء . وكان علماء هتلر يعملون مهمة محمومة للبدء فى إنتاج غواصات « شنوركل » الجديدة ، التى يبلغ طولها ٢٥٠ قدماً ، وتسير بالكهرباء ، والتى كان بوسعها أن تقطع ١٧ عقدة فى الساعة ، وأن تبقى تحت الماء أمدأ غير محدود . ولم يتسن لحسن الحظ الإنتاج الكامل لهذه الغواصات قبل نهاية الحرب . . ففادت فرصة الإفادة من إنتاجها . ولم تحن أواسط صيف سنة ١٩٤٣ حتى كان الحلفاء قد فازوا فى معركة الأطلنطى فوزاً أكيداً ، وأصبحوا فى موقف يمكنهم من الحشد لهجوم واسع النطاق على القارة الأوربية .

شمال أفريقيا وإيطاليا

في الوقت الذي كان أسطول المحيط الهادى يردع فيه اليابانيين عند ميدواى ، وقوافل الحلفاء تكافح للمضى فى المحيط الأطلنطى المقعم بالخطر ، تقابل روزفلت وتشيرشل - فى يونيو سنة ١٩٤٢ - فى واشنطن مع رؤساء الأركان المشتركة لرسم خطة سقوط هتلر . كان الأمريكيون يريدون فتح « جبهة ثانية » فى أوروبا فى سنة ١٩٤٢ أو ١٩٤٣ على الأكثر ، وكان البريطانيون الذين جعلوا جزييرتهم منيعة على الغزو ، وكانوا يدركون كل الإدراك أخطار أى هجوم سابق للأوان المناسب على أوروبا المحتلة ، راغبين فى إرجاء الجبهة الثانية إلى أن يكون الحلفاء قد حشدوا احتياطات كافية وظفروا بالسيادة الجوية كاملة . وكان قرار القيام بهجوم على شواطىء أفريقيا الشمالية حلاً وسطاً بين هذين الرأيين .

ومع ذلك ، فقد كان قراراً جريئاً . إذ لم تترك سوى أربعة أشهر لرسم وتنفيذ المشروع الكبير . لتدريب الجنود على الحرب البرية المائية ، وتكديس الإمدادات ، وتوفير مئات من السفن التجارية ، وسفن النقل ، والسفن الحربية ووقايتها فى المياه الموبوءة بالغواصات ، والسير فى مفاوضات حساسة مع فرنسا الحرة ، وفرنسا حكومة فيشى ، وإسبانيا فرانكو . يضاف إلى هذا أن المشروع كان يتطلب أدق تنسيق بين قوات الغزو ، بحيث تبهر من موانئ فى الولايات المتحدة والجزر البريطانية وتصل فى وقت واحد إلى موانئ على مسافة آلاف الأميال ، فضلاً عن التنسيق مع الجيش الثامن بقيادة الجنرال ألكسندر فى مصر .

على أنه إذا كانت المخاطر جسيمة ، فإن النتائج كانت مغرية . فلو قدر للخطة أن تنفذ بنجاح ، لكان من الممكن أن تحول دون دخول إسبانيا الحرب فى صف المحور ، وأن تلم شمل قوات فرنسا الحرة فى الوطن وفى أفريقيا ، وأن تشجع قوات المقاومة فى كل مكان ، وتكفل السيطرة على البحر الأبيض المتوسط فتقصر المسافة لبلوغ الشرق الأدنى بدرجة كبيرة ، وتظهر شمال أفريقيا من قوات المحور ، وتوفر نقطة الانطلاق لغزو إيطاليا والمواطن الحساسة من أوروبا .

وعهد بقيادة عملية « المشعل » Operation Torch ، كما أطلق عليها ، إلى الجنرال دوايت دى . أيزنهاور ، الذى كان يقود القوات الأمريكية فى الساحة الأوربية إذ ذاك .

٥٢٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

وما إن بدأت الخطة المعقدة ، حتى تابعت خطواتها في دقة الساعة . . ما عدا ذلك الجزء منها ، الذي كان يسمى : التعاون الفرنسي . فحوالي منتصف ليل ٧ نوفمبر ، وقفت ثلاثة أساطيل كبيرة للحلفاء ، خارج مرافئ الدار البيضاء وهران والجزائر . وبينما أخذت السفن والطائرات تدك الاستحكامات في الصباح التالي ، أقبل الجنود يخوضون الماء إلى الشاطئ . وكانوا يتوقعون أن تفتح الأحضان لاستقبالهم ، ولكنهم بدلاً من ذلك قوبلوا بالرصاص والقنابل . كانت عمليات النزول في الجزائر سهلة نسبياً ، أما في وهران فقد تحملها قتال شديد ، في حين أن الدار البيضاء لم توقف المقاومة إلا بعد أن أغرق الأميرال هويت معظم الأسطول الفرنسي الذي كان يذود عن مرفئها . وشاء الحظ الحسن للموقف العسكري ، أن الأميرال دارلان ، أحد كبار المسؤولين في حكومة فيشي ، وكان في شمال أفريقيا إذ ذاك ، أصدر أمراً في ١١ نوفمبر بوقف إطلاق النار ، وأسلم قواته إلى الحلفاء . وعلى الفور تبرأ منه الشيخ المخرف بيتان الذي كان بعد موقناً من أن دول المحور لن تلبث أن تكسب الحرب . ولقد ظلت مضاعفات هذه « الصفقة » مع دارلان السيء السمعة تهدد فترة بتطورات خطيرة ، بيد أن اغتياله بعد بضعة أسابيع أعاد للجو صفاءه . وبعد محاولة فاشلة لإيصال القيادة إلى الجنرال هنري جيرو الأسطوري ، اعترف الحلفاء بمطالب شارل ديغول ذي الموقف البطولي — الذي كان أول من رفع لواء المقاومة — في أن يرأس حكومة شمال أفريقيا الفرنسية المؤقتة ، وأن يكون الناطق باسم قوات فرنسا الحرة في كل مكان .

كان الغزو مفاجئة باغتت الألمان ، بيد أنهم بادروا بسرعة وكفاءة إلى الرد . فاستولوا فوراً على فرنسا فيشي بأكملها ، وإن أخفقوا في الظفر بالأسطول الفرنسي في طولون قبل أن ينسحب منها . وأرسلوا بالطائرات عشرين ألف رجل ، عبر مضائق صقلية إلى تونس ، فاستولوا على أكبر ميناءين فيها : تونس وبيزرت ، وأقاموا مطارات في الداخل وتأهبوا لأن يتقاضوا من الحلفاء ثمناً باهظاً من أجل رمال أفريقيا .

ثم بدأ السباق للاستحواذ على تونس . وكان الجنرال برنارد مونتجمري قد شن الهجوم الشهير ، الذي قُدِّر له أن ينقل الجيش الثامن من مصر إلى تونس ، وما بعدها . فقد سحق جيش روميل الخليلط من الألمان والإيطاليين عند « العلمين » في إحدى معارك الحرب الفاصلة (٢٣ أكتوبر — ٣ نوفمبر سنة ١٩٤٢) ، ثم انطلق في مطاردة بقياه بدون كلل عبر برقة وطرابلس . وبادر الجنرال أيزنهاور — عقب الغزو — بالزحف عبر

٥٢١ الحرب العالمية الثانية

خمسمائة ميل من الأراضي الوعرة ، من الجزائر إلى تونس . ولم تكن نهاية نوفمبر حتى كان قد وصل إلى مطير التي لا تبعد عن غايته بغير ٥٥ ميلاً . بيد أنه كان قد نشر قواته أكثر مما ينبغي ، فطالت خطوط مواصلاته ، بينما ساء الطقس ، وكان الألمان يسيطرون على المطارات الجيدة جميعاً . وصمد المحور . ثم قام في فبراير سنة ١٩٤٣ بهجوم مضاد في ممر قصرين ، وأوقعوا الاضطراب بين الأمريكيين الذين لم يتمرسوا بالقتال بعد ، وهددوا بشطر جيوش الحلفاء . وأرسلت التعزيزات إلى مسرح الأحداث بسرعة ، وأقبل السلاح الجوي بقوة شديدة ، فضم الحلفاء صفوفهم واستردوا المبادأة .

وكان مونتجمري في تلك الأثناء قد اضطروم إلى الاعتصام بخط ماريت الشديد التحصينات ، وراء حدود تونس مباشرة . وفي عملية من أذكى عمليات الحرب ، ضرب مقدمة العدو ومؤخرته ، فاضطره إلى الخروج من استحكاماته ، ودفعه إلى الارتداد نحو صفاقس وخليج قابس . وإذ ذاك ، اكتملت حلقة الجيوش الأمريكية والبريطانية والفرنسية حول الفريسة . ففي ٧ مايو سقطت تونس وبيزرت معاً ، وبعد ستة أيام استسلم ربع مليون من الجنود الألمان والايطاليين المذهولين ، عند رأس بون . وتم غزو شمال أفريقيا ، وأصبحت الطريق إلى أوروبا مفتوحة .

ولم تكن النتيجة المواتية التي ترتبت على هذه الحملة مفاجأة لقادة الحلفاء . إذ أنهم كانوا قد رسموا خططهم لكي يناضلوا للفوز بالنصر . ففي يناير سنة ١٩٤٣ ، التقى روزفلت وتشيرشل وأركان حربهما في الدار البيضاء ، حيث عقدوا أحد مؤتمرات الحرب المهمة . وكانت النذر مبشرة بالخير لأول مرة منذ سنة ١٩٣٩ . إذ كان الأمريكيون قد ظفروا بجواد الكنال وانتزعوا المبادأة من اليابانيين في المحيط الهادى . وكان الروس المحاصرون في ستالينجراد ، مقررة جيش ألماني كبير وآمال ألمانية جسيمة ، قد أحرزوا نصراً حاسماً ، وأصبحوا في موقف لشن هجوم مضاد كبير . وكان مونتجمري قد هزم روميل ، كل الاحتمالات توحى بأن المحور سيُطرد من أفريقيا ، وسيتم تطهير البحر المتوسط . كانت تلك ، كما قال تشيرشل ، « نهاية البداية » . وكانت ، كما نراها الآن ، نقطة التحول في الحرب . وإزاء هذه الخلفية ، اتخذ الحلفاء قراراتهم الحاسمة : غزو صقلية وإيطاليا في أول لحظة تسنح ، وزيادة الحرب المضادة للغواصات شدة ، وحشد قوة في المحيط الهادى إعداداً لهجوم كبير ، وعدم إنهاء الحرب إلا على أساس التسليم غير المشروط .

ولقد ظفرت هذه الخطة بموافقة عامة في ذلك الوقت ، وإن تعرضت لقدر كبير من الانتقاد فيما بعد . وكانت الحجة المبررة هي أن عدم ترك أى مجال للتفاوض ، وعدم ترك أى أمل في شروط أيسر ، ثبّطت همّة الجماعات المتمردة في داخل دول المحور ، وزاد من صلابة مقاومة المحور ، مما أطال أمد الحرب . ولن يقدر لنا أن نعرف في الواقع « ما كان يحتمل أن يجرى » في التاريخ . بيد أن الخطة لم تؤخر استسلام إيطاليا ، وليس ثمة دليل على أن القوى المضادة لهتلر في ألمانيا ، أو القوى المضادة للإمبراطور في اليابان كانت على مقدرة تمكنها من شيء ، ولا كان قادة الحرب لدى هتلر أوفى اليابان على استعداد للتفاوض . والأرجح أن التسليم غير المشروط لم يعجل بنهاية الحرب ولا أطال أجلها .

وسرعان ما وضعت الخطط التي رسمت في الدار البيضاء موضع التنفيذ . ففي أوائل يونيو شن الجنرال أيزنهاور هجوماً كبيراً على صقلية ، فنزل الأمريكيون بالساحل الجنوبي الغربي ، ونزل البريطانيون إلى الشرق في سيراكيوز . ولم تكن المقاومة الإيطالية ذات قيمة ، بيد أن الألمان تصدوا في قتال شديد . وفي أربعين يوماً اجتاحت الحلفاء الجزيرة بأسرها ، واستولوا على مائة ألف أسير إيطالي وكميات هائلة من العتاد الحربي ، بينما بلغت خسائرهم ٢٥٠٠٠ رجل .

وبينما كانت فلول الفرق الألمانية تنقل إلى إيطاليا عبر مضيق ميسينا ، كان الحلفاء يرسمون خططهم لإخراج إيطاليا من الحرب . فإن هذه الدولة كانت أضعف شريكة في المحور . كانت تترنح من الضربات التي انهالت عليها ، وكان أهلها قد سئموا الحرب والطاغية موسوليني الذي قادهم إلى سلسلة من النكبات التي لم يسبقها مثيل في تاريخهم . وفي ٢٥ يوليو ، خُلع موسوليني ، وبدأت في الشهر التالي حكومة انتقالية مفاوضات للصلح مع الجنرال أيزنهاور . وبمجرد أن اندفع الحلفاء المظفرون عبر مضيق ميسينا إلى كالابريا في ٣ سبتمبر سنة ١٩٤٣ ، سلمت إيطاليا بدون شرط . هكذا سقط واحد وبقي اثنان ، كما قال روزفلت .

على أن هذا كان بعد سابقاً للأوان ، إذا راعينا أن إيطاليا وإن كانت قد خرجت من الحرب ، فإن الألمان كانوا بعد في إيطاليا ومستعدين للقتال من أجل كل ياردة من الأرض . وقد تكشف حمة إيطاليا عن أنها من أوعر حملات الحرب . فقد بدأت ، والظروف تبشر بالخير ، بقتال ضار قوبلت به القوات البرية المائبة وهي تنزل على شاطئ ساليerno ، على بعد ثلاثين ميلاً إلى الجنوب من نابولي . وما إن تم تعزيز رأس الجسر على

٥٢٣ الحرب العالمية الثانية

هذا الشاطئ ، حتى اندفع الجيشان الخامس الأمريكى والثامن البريطانى بسرعة ويسر للاستيلاء على نابولى ذاتها ، وعلى مطارات فودجيا التى لا تقدر بقيمة ، والتى كان بوسع قاذفات القنابل المنطلقة من مدارجها قصف البلقان والنمسا وجنوب ألمانيا . بيد أن الحملة فقدت قوة اندفاعها بعد سقوط نابولى ، إذ كان الألمان قد استغلوا أرض الجنوب والوسط الإيطاليين الجبلية ، فأقاموا مجموعة من خطوط الدفاع الشديدة البأس : خطوط فولتورنو ، ووينتر ، وجوستاف ، وهتلر . وقد اجتمعت هذه مع الطقس والتضاريس الجغرافية على إقامة عقبات كؤود فى وجه الدبابات والطائرات والمصفحات المتحالفة . واستغرق قطع الأميال الثمانين من نابولى إلى روما ثمانية أشهر من أشد أنواع القتال ، وعدداً من المعارك الالتحامية الضارية ، كانت أشدها وطأة معركتنا ساحل آنزيو ومونت كاسينو . ولم يتسن للحفء أن يهشمو استحكامات كاسينو نهائياً وأن ينفذوا خلال الطوق الذى ضربه الألمان حول ساحل آنزيو قبل مايو سنة ١٩٤٤ . وبينما كان أسطول الغزو الهائل يتأهب للإبحار إلى سواحل نورماندى ، دخل الحلفاء المنتصرون روما ، فى ٤ يونيو .

الغزو الكبير

كانت الاستراتيجية الكبرى للحرب ولغزو القارة قد رسمت فى سلسلة من المؤتمرات ضمت قادة الحرب المتحالفين فى سنة ١٩٤٣ . فأقام مؤتمر الدار البيضاء هيئة تخطيط مشتركة فى لندن ، وحدد المؤتمر الثلاثى الذى عقد فى واشنطن ، فى مايو سنة ١٩٤٣ ، التاريخ المبدئى للغزو بعد عام واحد . وفى أغسطس ، درس مؤتمر عسكرى أنجلو أمريكى كامل العناصر - فى كوبيك - « مسرح العمليات فى العالم بأسره » ، وكما جاء فى البيان الرسمى « اتخذ القرارات اللازمة . . . للتمهيد لعمليات تقدم الأساطيل والجيش والقوات الجوية » . وتسنى لأول مرة ، فى سبتمبر ، استدرج روسيا بنجاح إلى الخطة العامة ، بفضل اجتماع وزراء الخارجية فى موسكو . فقد أقام هذا الفريق لجنة استشارية أوربية مركزها فى لندن ، لتضع الخطط والتوصيات للعمل المشترك فى المجال الدولى ، وأصدر الوزراء بياناً تعهدوا فيه بإقامة منظمة دولية للسلام بعد الحرب . وجاء

٥٢٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

أهم مؤتمرين في نهاية العام ، في طهران وفي القاهرة . ففي طهران (في فارس) ناقش تشيرشل وستالين الاستراتيجية الكبرى للحرب ، ووضعاً خططاً محددة لمجموعة من التحركات الجبارة تقوم بها القوات الروسية والأنجلو أمريكية في العام التالي . أما مؤتمر القاهرة ، فانصرف في معظمه إلى خطط الحرب في المحيط الهادى والتسوية النهائية لشؤون الشرق الأقصى .

وهكذا كانت عملية السيد الأعلى ، كما عُرف الغزو ، قد رسمت من حيث المبدأ الاستراتيجى العريض ومن حيث التفاصيل قبل القيام بها بعام كامل . ومن الأمور الأخرى التى تقرر ، أن يكون القائد الأعلى أمريكياً ، نظراً لأن الولايات المتحدة ستسهم بالقسط الأوفر من الرجال والعتاد . وأدى نجاح إيزنهاور في أفريقيا وصقلية وإيطاليا ، ومكانته لدى القادة المدنيين والعسكريين في جميع الدول المتحالفة ، إلى أن يكون أصحح مرشح لهذا المنصب . وفي يناير ، نقل إيزنهاور مركز قيادته إلى لندن ، وبدأ الإعداد التفصيلي للغزو بمعاونة الجنرال سير فردريك مورجان كرئيس لجهازه التخطيطي .

وما واجهت يوماً القوات الحربية لأمة ما أو مجموعة من الأمم مهمة بهذه الضخامة والمشقة . فإن هتلر نفسه عجز عن أن يتخطى القنال الإنجليزي (المانش) ، حتى في عامي ١٩٤٠ و ١٩٤١ عندما كان له التفوق الطاغى في الرجال والطائرات ، وعندما كانت الاستحكامات البريطانية مؤقتة بعد إلى حد كبير . ثم أنه أوتى أربع سنوات جعل فيها وسائل دفاعه على الساحل الفرنسى منيعة . وكان اختراق هذه الاستحكامات ، والنزول ، واستبقاء جيش في أرض معادية ، وتعزيزه وتدعيمه حتى يستطيع ملاقاته الجيش الألماني في أى مكان من أوروبا على قدم المساواة معه . . كان كل هذا يتطلب من الحلفاء جمع قوة برية وبحرية ضخمة ، ومخترنات هائلة من الإمدادات والعتاد الحربى . كذلك كان الأمر يتطلب شيئاً آخر لا غنى عنه : السيطرة على الجو . . لا على جو القنال والساحل الفرنسى فحسب ، بل على القارة بأسرها حتى برلين وفيينا شرقاً . وكان على الحلفاء قبل أن يشرعوا في غزو يحف به أى أمل في نجاح ، أن يدكوا المصانع الألمانية ، وأن يقطعوا المواصلات الألمانية ، وأن يضطروا القوات الجوية الألمانية إلى ملازمة الأرض . وكان هذا مهمهم الرئيسى وإنجازهم العسكرى الأول في الساحة الأوربية ، في سنة ١٩٤٣ والشهور الأولى من عام ١٩٤٤ .

٥٢٥ الحرب العالمية الثانية

وحدثت البداية الحقيقية للهجوم الجوي على ألمانيا في ٣٠ مايو سنة ١٩٤٢ ، إذ أغارت ألف قاذفة للقنابل على المدينة الصناعية الكبيرة كولون . وأعقبها سلسلة كاملة من الإغارات الرادعة على مدن أقليم الراين والروور وأعمق أعماق ألمانيا . ولم يشترك السلاح الجوي الأمريكى فى المعركة اشتراكاً حقيقياً قبل سنة ١٩٤٣ ، وإن كان قد اشترك فى غارات رمزية فى العام الذى سبقها . وهكذا بلغ مجموع ما أسقطه السلاح الجوي الملكى البريطانى خلال سنة ١٩٤٢ على أوروبا الخاضعة للاحتلال الألمانى ٧٥٠٠٠ طن من القنابل . أما السلاح الجوي الأمريكى المستقر فى قواعد بريطانية ، فألقى ٢٠٠٠ طن من القنابل . على أن التصاعد الأمريكى كان سريعاً ، ففى عام ١٩٤٣ ، ألقت القاذفات الأمريكية ١٢٣٠٠٠ طن من القنابل على العدو ، وألقت البريطانية ٢١٣٠٠٠ طن أخرى . وفى عام ١٩٤٤ ، اشتد تصاعد القصف من جانب الحلفاء . وكان البريطانيون فى هذه الأثناء قد وصلوا إلى أسلوب للقصف الشعبى ، وتوصل الأمريكيون إلى أسلوب لدقة التصويب والقصف خلال الغيوم . ويوماً بعد يوم كانت العاصف الطائرة الجبارة ، وليلة بعد ليلة كانت الطائرات الهاليفاكس واللانكاستر والستيرلينج تنطلق محلفة فوق ألمانيا والنمسا وفرنسا المحتلة ، مهشمة المدن الكبيرة إلى انقاض ، ومدمرة المصانع والطرق الحديدية والقنوات وأوكار الغواصات ، وغير ذلك من الأهداف . وقبل أن تنتهى الحرب كانت هامبورج ، كولون ، وفرانكفورت ، وإيسن قد حُيت تقريباً .

كانت ضخامة الهجوم الجوي على ألمانيا فى حد ذاتها تزرى بأى شىء تمكن الألمان من أن يفعلوه ضد بريطانيا فى العامين الأولين من الحرب . ففى الغارة الكبيرة على كوفنترى فى عام ١٩٤٠ ، ألقى « اللوفتفاة » Luftwaffe (السلاح الجوي الألمانى) ٢٠٠ طن من القنابل ، فإذا اتخذنا هذا قياساً ، تكون برلين قد عانت قدر كوفنترى ٣٦٣ مرة ، وكولون ٢٦٩ ، وهامبورج ما يزيد على ٢٠٠ مثل ، وعلى وجه الإجمال ، أرسلت الأسلحة الجوية للحلفاء طيلة الحرب ما يقرب من مليون ونصف المليون من طلعات قاذفات القنابل ، ومليونين وثلاثة أرباع المليون من طلعات المقاتلات ، وأسقطت حوالى ٢٧٠٠٠٠٠ طن من القنابل على أهداف العدو فى الساحة الأوروبية . ولم تكن المدن ذاتها هى الأهداف الرئيسية ، وإنما كانت هذه هى الصناعات الرئيسية كالنفط ، ووقود الطائرات ، والمطاط الصناعى ، و« رمان البلى » ، وشبكة النقل .

ومع ضخامة هذا الإنجاز ، فمن الخطأ الزعم بأن ألمانيا إنما هُزمت من الجو ، أو أن السطوة الجوية وحدها كانت قادرة على كسب الحرب . والواقع أن ألمانيا أظهرت جلدًا وسعة حيلة غير عاديين في مواجهة القصف . ومع أن الحسائر في الأرواح كانت كبيرة ، كما أن الحياة الاجتماعية والاقتصادية العادية اختلت وتمزقت ، فإن إنتاج العتاد الحربي لم يتأثر بدرجة خطيرة حتى الشهور الأخيرة من عام ١٩٤٤ . بل إن الإنتاج الحربي الألماني كان في سنة ١٩٤٤ أعلى بدرجة كبيرة منه في أى عام سابق : فقد ازداد إنتاج الطائرات والغواصات والأسلحة جميعاً في ذلك العام . على أن الحرب الجوية أتت بنتيجتين حاسمتين في ناحيتين : فإن إنتاج النفط ووقود الطائرات مع الاستيلاء على حقول النفط الرومانية ، أعجزاً قسماً كبيراً من السلاح الجوي الألماني عن الطيران . والنتيجة الثانية هي أن تمزيق شبكة النقل في شمال فرنسا وغرب ألمانيا شل تنقلات الجنود تقريباً في وقت الغزو .

ولم يحن ربيع عام ١٩٤٤ ، حتى كانت خطط ذلك الغزو قد اكتملت . وحدّد يوم البدء ليكون ٥ يونيو ، وإن ظل هذا باستمرار متعلقاً بتقلبات الطقس . وحدّدت منطقة الغزو - استناداً إلى حد كبير إلى اعتبارات المسافة والتيارات والسواحل والدفاعات الشاطئية - لتكون ساحل نورماندى عند ملتقى شبه جزيرة كويتان بالقارة ، فخصص القطاع الشرقى من هذه المنطقة للبريطانيين ، والقطاع الغربى للأمريكيين . وكان الحلفاء قد جمعوا حشداً كبيراً ، ناهز الثلاثة ملايين من الجنود والملاحين ورجال الطيران . وكان ثمة أسطول كبير من أربعة آلاف بارجة وسفينة من كافة الأنواع معدة لنقل جيش الغزو عبر القنال ومواصلة إمداده بقدر هائل من العتاد اللازم لحملة كاملة ، وأعدت إحدى عشرة ألف طائرة لحماية الغزاة وإلزام السلاح الجوي الألماني الأرض . وكانت هناك أسلحة جديدة ، وقوارب خاصة بالإنزال ، ومرافق صناعية ، ومائة شىء وشىء ابتكرت لتكفل النجاح لعمليات الإنزال . وقد بلغ من ثقل الإمدادات المكسدة في بريطانيا ، أن قيل أن ستار المناطيد المعلقة هي التى صانت الجزيرة من الغرق في البحر . وقد كتب الجنرال أيزنهاور في « الحملة العسكرية في أوروبا » ، أن جنوب إنجلترا بأكملة . .

كان معسكراً حربياً هائلاً ، زاخراً بالجنود في انتظار الأمر النهائى بالانطلاق ، ومكدساً بالإمدادات والعتاد في ارتقاب نقلها إلى الشاطئ الآخر للقنال . كانت المنطقة بأسرها

٥٢٧ الحرب العالمية الثانية

قد اقتطعت عن بقية إنجلترا . . . كان كل معسكر ، وثكنة ، ومستودع للسيارات ، وكل وحدة محددة على حدة وبناية على خرائطنا الرئيسية . وكان موعد تحرك كل وحدة قد حسب بحيث إنها تصل إلى نقطة التعبئة على السفن في الموعد الذي تكون السفن مستعدة لاستقبالها فيه تماماً . كان الحشد الجبار مشدوداً كأنه زنبك ملفوف ، وهكذا كان تماماً في الواقع . . . كان زنبكاً بشرياً عظيماً ، ملفوفاً في انتظار اللحظة التي تُطلق فيه طاقته ، فيعبر القنال الإنجليزي في أعظم انقضااض يرى مائى حواره البشر .

وهدد الخطة كلها طقس متقلب ، ولكن أيزنهاور غامر استناداً إلى صحو السماء ، وأصدر الأمر بالانطلاق في ٥ يونيو . وفي تلك الليلة دكت الطائرات شمال فرنسا بأكملها من بلجيكا حتى بريتاني ، وأبحر أسطول زائف نحو منطقة رأس كاليه لخداع الألمان ، وهبطت بالمظلات ثلاث فرق من الجنود المحمولة في الطائرات خلف خطوط الألمان على ساحل نورماندى . وفي الصباح الباكر من ٦ يونيو ، اقترب أسطول الغزو من الشواطئ ، واخترق استحكامات العرقلة المقامة تحت الماء ، واندفع الجنود إلى البر كالسيل . وبوغت الألمان الذين كانوا قد توقعوا أن يجري الهجوم الرئيسى في رأس كاليه . ومع أنهم ظلوا وقتاً ينظرون إلى غزو نورماندى باعتباره هجوماً لتشتيت قواهم ، فلم ينهم قابله بشفة . بيد أن سيطرة الحلفاء على الجو حالت دون أى تعرض جوى لأسطول الغزو ، في حين أن تدمير الخطوط الحديدية والجسور على طول المسافة إلى باريس ، جعل من المستحيل للقائد الألماني فون روندشتد أن يرسل التعزيزات بالسرعة الكافية لحرمان الحلفاء من إقامة رأس جسر على الشاطئ . ولم ينته نهار يوم الغزو حتى كان الحلفاء قد اخترقوا جدار الأطلسنطى ، وأنزلوا جنوداً بلغ مجموعهم ١٢٠ ٠٠٠ شرعوا يشقون طريقهم موعلين في البلاد ليتقابلوا مع جنود المظلات البواسل . وإن هو إلا أسبوع حتى كان لهم على البرما يزيد على ٣٠٠ ٠٠٠ رجل و ١٠٠ ٠٠٠ طن من الإمدادات ، وحتى كانوا يسيطرون على منطقة طولها سبعون ميلاً وعرضها ما بين خمسة أميال وخمسة عشر . ثم اندفع الأمريكيون غرباً ، شاقين طريقهم بعرض شبه جزيرة كوتنتان ، ولم يحن ٢٦ يونيو حتى استولوا على ميناء « شربور » العظيم .

وفي خلال الشهر التالى ، كسب الحلفاء معركة نورماندى . ففي الشرق استولى البريطانيون على مدينة كان الرئيسية ، وفي الغرب استولى الأمريكيون على سان لو ،

الباب المفضى إلى الجنوب . وقبل نهاية الشهر كان مليون رجل قد هبطوا على الشاطئء
الفرنسى ، وكانت مشكلة الإمداد قد ذُلت إلى حد كبير بإنشاء مرافء صناعية كبيرة ،
وخطوط أنابيب لنقل الوقود للفرق الآلية . أما وقد توفر للأنجلو أمريكيين تفوق عددى
واضح على العدو ، وسيطرة جوية لا منافس لها ، فقد أصبحوا مستعدين لاختراق
الاستحكامات الألمانية ، والانتشار فى الشمال الفرنسى بأسره .

وفى ٢٥ يوليو انتهت معركة نورماندى وبدأت معركة فرنسا . واخترق الجيش الثالث
بقيادة الجنرال باتون الاستحكامات الدفاعية للألمان فى غرب سان لو بقوة لا سبيل إلى
مقاومتها ، إلى كوتانس ، على عشرة أميال إلى الجنوب ، واستولى على أفرانش ، وأحبط
هجوماً ألمانياً مضاداً فيما سُمى ثغرة « فاليز » . وبينما كانت فلور الألمان تندفع هاربة
صوب خط « سيجفريد » اكتسح جناح من قوات الأمريكيين بريتانى بأسرها اللهم
إلا بضع مدن ساحلية صغيرة ، بينما سار آخر شرقاً على طول نهر اللوار إلى باريس ، فى
حين تدافع البريطانيون والكنديون على طول الساحل إلى بلجيكا وهولندا . وتم تحرير
باريس فى ٢٣ أغسطس . وإن هى إلا أيام معدودات حتى كان البريطانيون قد استولوا
على بروكسل وميناء أنتويرب الكبير ، ولم يحن ١١ سبتمبر حتى كان الجيش الأمريكى قد
حرر لوكسمبورج ، ونفذ إلى داخل ألمانيا عند آخن . وفى تلك الأثناء كانت قوة أخرى
للغزو قد هبطت على الساحل الجنوبى لفرنسا ، وتغلبت على مقاومة ألمانية واهنة ،
واستولت بمساعدة الفرنسيين الأحرار على ميناءى طولون ومارسيليا الكبيرين ، ثم
اندفعت شمالاً نحو وادى الرون إلى حدود سويسرا . ولم يأت نصف سبتمبر حتى كانت
فرنسا بأسرها قد تطهرت من العدو . وكان هذا من أروع الانتصارات فى تاريخ
الحروب .

وظل المحور فى تقهقر ، فى كل مكان ، طيلة صيف وخريف ذلك العام . وكان
ستالين قد وعد بتنسيق هجومه مع هجوم الحلفاء الغربيين ، وبينما كان الأمريكيون
يشقون طريقهم إلى شربور ، شن هجوماً واسعاً على جبهة عرضها ألف ميل . فتم غزو
فنلندا فى أقصى الشمال وأجبرت على الخروج من الحرب . وفى الوسط شقت الجيوش
الروسية طريقها خلال أوكرانيا وبولندا إلى أبواب وارسو . وفى الجنوب ، اجتاحت
رومانيا وحاربت مندفة إلى يوغوسلافيا والمجر . كذلك كان الألمان فى محنة عصبية فى
إيطاليا . إذ كانت جيوش الحلفاء قد زحفت شمالاً ، بعد سقوط روما ، فحوّلمباردى ،

٥٢٩ الحرب العالمية الثانية

مستولية على المدن الكبرى واحدة بعد أخرى ، فلم يحن شهر سبتمبر حتى كانت قد بلغت وادى نهر البو ، الذى نُسجت حوله القصص . أما فى المحيط الهادى ، فإن ماك آرثر كان قد هبط إلى الفلبين ، وأوقع الأسطول باليابانيين أشنع هزيمة فى تاريخهم . وإذا كانت انتصارات الحلفاء فى شمال أفريقيا هى نهاية البداية ، فإن هذه المجموعة من الانتصارات كانت بداية النهاية .

النصر فى أوروبا

لم يحل سبتمبر سنة ١٩٤٤ ، حتى كانت جيوش الحلفاء قد أوغلت مسافات طويلة ، وبسرعة جعلتها تستنفذ إمداداتها ، فكان عليها أن تتوقف لتعزز مكاسبها ، وتعيد تنظيم قواتها ، وتطهر الموانئ ، وتجمع الإمدادات ، وتنشئ مطارات ، وتعيد إنشاء الطرق والجسور ، وتتأهب للحملة التى تنتقل بها إلى جوف ألمانيا ، عبر نهر الراين . وكان أشد أنواع القتال فى ارتقابهم ، كما دلت الأحداث ، فإن الألمان دافعوا عن وطنهم ببسالة بالغة التطرف . وكان خط سيغفريد الشديد المتانة يمتد من هولندا إلى حدود سويسرا ، وخلفه كان نهر الراين العريض . وقد أجريت محاولة لتطويق خط سيغفريد بعملية إسقاط للجنود من الجو على نطاق واسع ، عند أرنهيم ونييميغن فى هولندا ، ولكنها أخفقت بفارق ضئيل ، وشرعت الجيوش المضادة فى عمليات عنيفة . فشهد خريف سنة ١٩٤٤ قتالاً فى تلال بلجيكا ولوكسمبورج ، والألزاس ، واللورين وغابات شديدة الشبه بذلك الذى دار فى بطاح فيرجينيا قبل ثمانين عاماً . فكانت هناك مجموعة متعاقبة من المعارك المحتدمة ، لا تقل كل منها ضراوة عن أية معارك اشترك فيها الأمريكيون ، ولم تكبدهم من الخسائر أقل مما تكبدوا فى تلك : معركة دلتا نهر شيلد ، التى قام البريطانيون والكنديون بالقسط الأكبر من القتال فيها ، وفتحت انتويرب لسفن الحلفاء . . والمعركة التى استهدفت الاستيلاء على آخن وسدود نهر الرور ، والتى انطوت على قتال فى غابة هورتجن البدائية الوعرة ، والتى لم يتم الفوز النهائى فيها قبل فبراير من العام التالى ، والمعركة التى استهدفت مدينة ميتز الحصينة ، وحوض السار ومعركة ستراسبورج والألزاس . ولم ينتصف شهر ديسمبر حتى كانت قوات أيزنهاور

٥٣٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

قد كسبت كل هذه المعارك بوجه عام ، ووقفت متأهبة لخوض الراين . ثم حدثت نكسة هددت لفترة وجيزة بعواقب خطيرة . فقد قرر هتلر ، على عكس نصيحة كبار قادته ، أن يستخدم كافة موارده الباقية في الغرب ، في مغامرة مستميتة أخيرة . . في هجوم مضاد واسع النطاق بغية شطر الجيوش المتحالفة شطرين ، وعودة الجيش الألماني ثانية إلى ساحل القنال الإنجليزي ، أو إلى باريس على الأقل . وحدث الهجوم في فجر ١٥ ديسمبر ، على جبهة عرضها خمسون ميلاً ، على تلال الأردن المكسوة بالثلوج ، وأسفر عن نجاح أولى مدهل . ففي عشرة أيام ، اكتسح الألمان خطوط دفاع الأمريكيين النحيلة ، وحاصروا الحامية القائمة في باستوني ، ودفعوا رأس حربة خمسين ميلاً خلال الأردن إلى نهر الموز . وكان الخطر من انهيار خطوط الأمريكيين داهماً للخطّة ، بيد أن الأمريكيين جمعوا صفوفهم بسرعة ، وصمد المدافعون على حدود الجيب بقوة ، وعززت الحامية الباسلة في باستوني على عجل بالفرقة ١٠١ من الجنود المحمولة بالطائرات ، ومع أنها كانت محاصرة ومعزولة ، فإنها أبدت مقاومة أوقعت الارتباك في الجدول الزمني للألمان بأكمله ، واكتسبت شهرة باقية . وهكذا أوقف الهجوم الألماني ، ثم أجبر على التراجع . وفي حوالى أواسط شهر يناير ، كان الألمان قد فرطوا في كل مكاسبهم ، وخسروا ١٢٠ ٠٠٠ رجل ومئات الدبابات والطائرات في مغامراتهم غير الحكيمة .

وبينما شن الروس هجومهم الشتوى الكبير بغية الوصول إلى أبواب فيينا وبرلين ، تأهب الحلفاء للتوغل عبر الراين والانقضاض على هتلر من الغرب . وتقهر الألمان عبر النهر ، مدمرين الجسور في طريقهم ، ولكن الرقابة على الراين لم تكن محكمة ، فوجدت قوة أمريكية عاملة ، في ٧ مارس ، جسر لودندورف القريب من بون سليماً ، واستحوذت عليه . وفي بضعة أيام ، كان الأمريكيون قد أرسلوا خمس فرق عبر النهر ، وبدأوا في الانتشار شمالاً وجنوباً . وبعد أسبوعين ، عبر جيش الحلفاء بأكمله نهر الراين من كليف إلى مانهايم ، يصاحبهم أكبر قصف جوى عُرف في الحرب . وبمجرد العبور ، اندفعوا خلال الخطوط الألمانية بسرعة هائلة ، فكانت الفرقة المدرعة الواحدة تقطع تسعين ميلاً في اليوم الواحد . وضرب الجيشان الأمريكيان الأول والتاسع حلقة كبيرة حول الرور ، موقعين في قبضتهما ما يزيد على ٣٠٠ ٠٠٠ ألماني . وأسرع الجيش الثالث بقيادة باتون نحو كاسيل ونهر الإلب . واندفع الجيش السابع بقيادة باتش جنوباً ، مخترقاً

٥٣١ الحرب العالمية الثانية

بافاريا إلى حدود تشيكوسلوفاكيا ، كما اندفع جنود مونتجمرى البريطانيون والكنديون شمالاً إلى ساحل البلطيق عبر بريمن وهامبورج .

تلك كانت النهاية . فإزاء إطباق الروس من الشرق والجنوب ، والأمريكيين والبريطانيين من الغرب ، واضطرار الألمان في إيطاليا لإلقاء سلاحهم ، بدأ الجيش الألماني في التفتت . وفي ٢٥ أبريل تقابل الروس والأمريكيون عند نهر الإلب ، فشطرت الجيشان اللذان بدأ أحدهما على شواطئ نورماندى والآخر على ضفاف الدنيبر - تفصل بينهما ٢٠٠٠ ميل - ألمانيا إلى قسمين . وخاض المدافعون المشبهون آخر قتال عنيف دفاعاً عن برلين ، حتى إذا تجلّى أن المدينة مقضى عليها بالضياع ، انتحرت هتلر . وكان موسوليني قد قتل بأيدي الإيطاليين الساخطين . وفي ٧ مايو ، استسلم ما كان قد بقى من الجيش الألماني بدون شرط . وهكذا انهارت دولة الرايخ التي كان مقدراً لها أن تعيش ألف عام .

وكان أحد الذين صاغوا النصر قد فارق الحياة ، فلم يشهد تنفيذ خطته ، أو انتصار قضيته . إذ توفى « فرانكلين دى . روزفلت » في ١٢ أبريل .

وكان الحزبان السياسيان الكبيران في أمريكا قد حددا مرشحيهما لانتخابات الرئاسة في الخريف ، بينما كانت جيوش الحلفاء تشق بعد طريقها إلى نورماندى في صيف سنة ١٩٤٤ . ولم يكد يكون ثمة مناص للديمقراطيين من أن يولوا وجوههم شطر الرجل الذى قادهم ثلاث مرات إلى الفوز ، والذى كان إذ ذاك يقود الأمم المتحدة إلى النصر ، فأعادوا ترشيح روزفلت في الإقتراع الأول . أما الجمهوريون ، فأشاحوا عن ويندل ويلكى إذ كان في آرائه الداخلية شديد الاقتراب من النظام الجديد ، وفي آرائه الخارجية مسرفاً في النزعة الدولية ، وكان في أى مناسبة شديد الخروج على سياسة حزبه ، فتحول الحزب نحو توماس إى . ديوى حاكم نيويورك ، إذ كان من أعضاء الحزب المعروفين بالاعتدال الليبرالى في المسائل الداخلية ، ومن تحولوا تحت ضغط الأحداث إلى الفلسفة الدولية ، كما بدا واضحاً . ومع أن المعركة الانتخابية كانت حامية ، فإن نتيجتها النهائية لم تكن موضع شك جدى قط . إذ ظفر الرئيس روزفلت بتأييد ٣٦ ولاية ، وأحرز ٤٣٢ من أصوات المجمع الانتخابى . وكسب ديوى ١٢ ولاية و ٩٩ صوتاً في المجمع الانتخابى . وفي التصويت الشعبى فاز روزفلت بأصوات مجموعها ثلاثة ملايين ونصف المليون .

٥٣٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

وفي خطابه الاستهلالي الرابع ، لم يقطع روزفلت على نفسه عهداً بالانتصار فحسب ، بل تعهد بأن ينشئ نظاماً دولياً بعد تحقيق النصر . وقد قال :

إننا تعلمنا . . . أنه ليس بوسعنا أن نعيش في سلام وحدنا ، وأن خيرنا يعتمد على خير دول أخرى نائية . لقد تعلمنا أن علينا أن نعيش كبشر وليس كنعام ولا ككلاب في מדود . تعلمنا أن نكون مواطنين متمين للعالم ، أعضاء في الجماعة البشرية .

وكانت أفكار روزفلت ، كلما ازداد النصر اقتراباً ، تزداد انجهاً إلى هذه المشكلة الكبرى ، مشكلة السلام والقانون الدولي ، وكانت طاقاته تزداد انصرافاً إلى حلها . وفي فبراير سنة ١٩٤٥ ، قام بالرحلة الطويلة إلى يالتا في شبه جزيرة القرم ، ليتباحث مع ستالين وتشيرشل والمستشارين العسكريين والمدنيين بصدد الحرب وتسويات ما بعد الحرب . كان قد اتضح بجلاء أن الحرب في أوروبا كانت تقترب من نهايتها ، ومع أنه كان من المرتقب أن تتطلب هزيمة اليابان عاماً آخر أو اثنين ، فقد تبدى أن الهزيمة محتومة . وهكذا ، فمع أن قسماً كبيراً من مهمة مؤتمر القرم أو يالتا كانت موجهة إلى المسائل العسكرية الخالصة ، مثل دخول روسيا حرب المحيط الهادى ، فإن قسماً كبيراً منها كان موجهاً كذلك إلى تخطيط عالم ما بعد الحرب . وهكذا ، كان روزفلت ومستشاروه العسكريون يؤمنون ، عندما عادوا من يالتا ، بما وصفه هارى هوبكينز بأنه . .

كان هذا فجر اليوم الجديد الذى كنا نصلى من أجله ، ونتكلم عنه أعواماً كثيرة . كنا موقنين يقيناً جازماً بأننا قد كسبنا أول انتصار عظيم من أجل السلام . . . وكسبه كل الجنس البشرى المتحضر ، بوساطتنا . . . أعنى على أيدينا جميعاً .

ولقد انتقدت المعارضة روزفلت ، حتى أثناء الحملة الانتخابية للرئاسة ، بأنه « شيخ مُتَعَب » . وكان الوصف صائباً ، إذ أن الحرب استنفدت طاقاته ، وأرهقت روحه المنشرة المستبشرة . وكان من الواضح أنه عاد من يالتا معلولاً ، وقدم تقريره إلى الكونجرس وهو — لأول مرة — جالس في مقعده ذى العجلتين . ثم مضى إلى بيته

٥٣٣ الحرب العالمية الثانية

الشتوى فى وورم سبرينجز بولاية جورجيا ، ليستجم ويستعد لافتتاح أول مؤتمر للأمم المتحدة فى سان فرانسيسكو . وبينما كان يكتب - يوم ١٢ أبريل - مسودة خطاب للاحتفال بذكرى جيفرسون ، أصيب بنزيف مخي ومات . وكانت الكلمات الأخيرة التى كتبها ، تصلح لأن تكون مرثية توجز حياته : « ستكون شكوك يومنا هى الحد الوحيد لإدراكنا فى الغد . ولنمض قدماً إلى الأمام بإيمان شديد نشيط » .

الانتصار فى المحيط الهادى

كانت إعادة فتح جوادالكانال بمثابة عملية إيقاف ترمى إلى سد الطريق أمام الزحف اليابانى ، والحصول على قواعد لتكثيف قصف راباول ، وتطهير السبيل إلى الهجوم الكبير الذى كان محمداً لبدايته شهر نوفمبر سنة ١٩٤٣ . وكان مقرراً أن يتخذ هذا الهجوم شكلين : هجوماً يقوم به ماك آرثر على طول ساحل غينيا الجديدة إلى هالميرا وجزر الفليبين الوسطى ، وزحفاً يقوم به الاميرال نيميتز على الجزر تباعاً حتى يصل إلى مسافة تمكن من قصف جزر الوطن اليابانى . وكانت كل من العمليتين برية مائية ، بيد أن الجيش قام بأكبر دور فى أولاهما ، بينما قام الأسطول وفيالق مشاة الأسطول بعبء ثانيتهما . وكان ثمة طريق ثالث للاقتراب من اليابان ، وذلك عبر بورما ، ثم على طريق بورما إلى الصين . بيد أن مشكلة النقل والإمدادات كانت متعذرة الحل هنا ، وكانت المعونة المرتقبة من الصينيين الوطنيين ضئيلة ، ومع أن بورما لم تلبث أن طُهرت من العدو ، فإن تلك الحملة لم تكن ذات أثر على نتيجة الحرب .

وانطلق الهجوم ، وفقاً للخطة الموضوعة ، بانقضاض برى مائى على جزيرة بوجينفيل فى شمال جزر سولومون ، فى أول نوفمبر سنة ١٩٤٣ . وفطن اليابانيون إلى خطر هذا الهجوم على راباول ، فردوا عليه بمثله ، بيد أنهم هُزموا هزيمة قاسية فى معركة خليج الإمبراطورة أوغستا . وزحف الأمريكيون من بوجينفيل إلى الجزر التى إلى شرق وغرب راباول ، وأفقدوا هذه المنطقة الحصينة فاعليتها بالغارات الجوية دون توقف . وإذا اطمأن ماك آرثر إلى مؤخرته على هذا النحو ، انطلق على ساحل غينيا الجديد فى وثبات ، وكان على الاميرال نيميتز أن ينطلق لفتح المسالك المائية الطويلة المؤدية إلى أوكيناوا .

٥٣٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

كان الأساس في الزحف إلى اليابان هو النمو الرائع للأسطول الأمريكي وللقدرة الجوية التابعة للأسطول إلى الدرجة التي لم تكفل له تفوقاً على اليابان وحدها ، بل أصبح أقدر من أساطيل الدول المتحاربة مجتمعة . والواقع أن « الحملة ٥٨ » الشهيرة ، بقيادة الاميرال هالسي (وكانت تسمى ٣٨ بالتناوب) كانت وحدها أقوى من الأسطول الياباني بأكمله . ولم يحل أواسط صيف سنة ١٩٤٤ ، حتى كان الأسطول الأمريكي يضم ما يزيد على أربعة آلاف سفينة ، منها ٦١٣ سفينة حربية . وكانت سبع بوارج كبيرة جديدة الصنع قد ضمت إلى أسطول المحيط الهادى بعد بيرل هاربور ، وكذلك مائة حاملة طائرات تقريباً ، عليها آلاف من الطائرات ، من طراز جرمّان وإيلدكات وهيلكات وكيرتيس هيلدايفر ودوجلاس دوتليس وأنواع أخرى كثيرة .

هذه القوة الجبارة كانت قد أصبحت مستعدة لإيقاع مجموعة متتابعة من الضربات الهائلة . ولم يكن الإمبرال نيمتيز ينتوى أن يحاول الاستيلاء على كل واحدة من عشرات الجزر المرجانية التي كانت في أيدي العدو ، والمتناثرة في كافة أرجاء المحيط الهادى الجنوبى والأوسط . بل كانت خطته العسكرية هي الاستيلاء على الجزر الرئيسية في كل مجموعة من المجموعات الكبرى ، وإقامة قواعد جوية عليها ، ثم يقوم بثوبة واسعة إلى جزيرة أخرى أكثر قرباً من اليابان بمئات الأميال ، تاركاً الحاميات اليابانية في الجزر الخارجية عن نطاق مسيرته ، لتذبل حيث هي . وما لبث أن تبين أن من الممكن التجاوز عن جزر كبيرة مثل مينداناو في جنوب الفلبين ، وفورموزا القريبة من ساحل الصين . أما اليابانيون الذين ارتكبوا في البداية خطأ التوسع أكثر مما ينبغى ، فقد ضاعفوا هذا الخطأ بأن شتتوا قواهم .

ولقد وُجّهت الضربة الأولى إلى تاراوا في جزر جيلبرت . كانت في هذه الجزيرة المرجانية الضئيلة حامية من حوالى ٣٠٠٠ من مشاة الأسطول اليابانيين . وكانت في أدق شبكة دفاعية صادفها الأمريكيون حتى ذلك الحين ، فكان الاستحواذ عليها عملية دموية ، كبدت الأمريكيين ما يقرب من ألف قتيل وألفى جريح . وبعد شهرين ، زحف الأسطول على جزر مارشال ، على مئات الأميال إلى الشمال . وكانت الهدف الأول جزيرة كواجاليين المرجانية ، التي كانت تؤوى حامية من ٨٠٠٠ من اليابانيين المتطرفين . ونزل مشاة الأسطول بالجزيرة في ٣١ يناير سنة ١٩٤٤ ، وإن هي إلا أيام ثلاثة حتى كانوا قد استولوا على الجزيرة وقضوا على العدو . ثم واصلوا الزحف

٥٣٥ الحرب العالمية الثانية

واستولوا على « إنيويتوك » ، على مسافة ٣٥٠ ميلاً إلى الغرب .
 ويعزل راباول وتزك ، وانتقال جزر جيلبرت ومارشال إلى أيدي الأمريكيين ،
 انطلقت القوة البرية المائية الخامسة إلى جزر ماريانا ، على ١٢٠٠ ميل إلى الغرب ، وعلى
 ١٥٠٠ ميل فقط من طوكيو . وكان الهدفان الرئيسيان في هذه المجموعة هما : سايبان ،
 التي كان اليابانيون قد حولوها إلى قاعدة جوية بحرية قوية . . وجوام ، التي انتزعت
 من الأمريكيين في هجوم ديسمبر سنة ١٩٤١ . وإزاء اقتراب حملة الأدميرال سبروانس من
 المياه التي كانت مياهاً إقليمية لليابان حقاً ، خرج الأسطول الياباني إلى القتال . وقامت
 بمعركة بحر الفلبين التي أعقبت ذلك (١٩ - ٢٠ يونيو سنة ١٩٤٤) الطائرات
 المنطلقة من الحاملات وحدها ، فدمرت أسطول حاملات طائرات العدو ، وأعطبت
 بوارجه وطراداته . ثم تم الاستيلاء على جزر ماريانا بدقة مرسومة ، وإن تطلب هذا
 قسماً من أقصى ما دار في حرب المحيط الهادى من قتال . واستغرقت سايبان ثلاثة
 أسابيع ، كبدت خلالها الأمريكيين خسائر في الأرواح بلغت ١٥٠٠٠ . أما جوام
 فكانت صعبة المراس ، بيد أنه لم يحل شهر أغسطس حتى كانت جزر ماريانا في أيدي
 الأمريكيين . وسرعان ما أخذت قاذفات القنابل العملاقة « ب - ٢٩ » تنطلق من
 مدارجها لتقصف جزر الوطن الياباني .

فتحت هذه الانتصارات في جنوب ووسط المحيط الهادى الطريق إلى انقضاخ
 مباشر على جزر الفلبين . وكان أسلوب الوثب بين الجزر الذى انتهجه الأمريكيون قد
 أثبت من النجاح ما جعل الجنرال ماك آرثر يقرر التجاوز عن مينداناو وأن يوجه ضرباته
 إلى قلب الجزر . ففي ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٤٤ ، أبحر أسطول هائل من ٦٠٠ سفينة ،
 بينها سفن لنقل الجنود حملت ما يزيد على مائة ألف منهم ، إلى خليج « ليت » Leyte .
 وهبط ماك آرثر إلى الشاطئ ، وقال : « لقد رجعت يا أهل الفلبين . . فتجمعوا
 حولى » . وخفوا مستحيين لندائه . وفي وقت قصير ، كان لديه في الفلبين مائتا ألف
 رجل ، انضم إليهم المواليون من الفلبينيين الذين كانوا يشنون حرب عصابات ضد
 الغزاة اليابانيين المبعوضين .

كان هذا تحدياً لا يملك اليابانيون أن يتجاهلوه ، فآلقوا بكل ما كان لديهم في وجه
 الأمريكيين ، في مجهود مستثس . وكانت معركة خليج ليت (٢٣ - ٢٥ أكتوبر) آخر
 وأكبر معركة بحرية في الحرب كانت في الواقع ثلاثة اشتباكات منفصلة ، خرج

٥٣٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

الأمريكيون من كل منها منتصرين . ولم يقدر للأسطول الياباني أن يفيق — قط — مما وقع به في هذه المعركة ، فلم يثر في سبيل الزحف الأمريكي بعد ذلك مقاومة تذكر . واجتاح ماك آرثر ليت بسرعة خاطفة ، وانتقل إلى لوزون وسقطت مانيلا في فبراير سنة ١٩٤٥ ، ولم يحن شهر أبريل حتى كانت الجزر جميعاً قد تحررت .

وقبل أن يستكمل ماك آرثر إعادة فتح الفلبين ، كان الأسطول قد قام بالطفرة الطويلة التالية نحو اليابان . ولم تكن جزيرة أيووا جيما الضئيلة تبعد عن طوكيو بأكثر من ٨٠٠ ميل ، فظلت الطائرات تصلحها قصفاً يومياً مدة شهر ، وظلت حملة مؤلفة من ست بوارج ، وطرادات ، ومدمرات تدك استحكاماتها الدفاعية أسبوعاً . ثم تدفق مشاة الأسطول على الشواطئ في ١٩ فبراير ، وتطلب القضاء على المدافعين اليابانيين شهراً من الزمن و ٥٠٠٠ من الأرواح على أنه لم ينتصف شهر مارس حتى كانت قاذفات القنابل الأمريكية تقلع من مدارجها إلى طوكيو ، في سلسلة من الغارات بالقنابل الحارقة ، وأوقعت بها من الضرر ما أوقعته الغارات البريطانية الكبرى بهامبورج . ثم زحف الجيش والأسطول على أولى جزر الوطن الياباني ، وهي أوكيناوا في مجموعة ريوكيو . وفي يأس لجأ اليابانيون إلى الكاميكازي وشنوا هجمات جوية انتحارية ، إلا أنها لم تقو على إيقاف الغزو ، وإن أوقعت بالأسطول الأمريكي ضرراً بليغاً . وظل المدافعون يقاومون زهاء ثلاثة أشهر ، وهم يقاتلون من كهف إلى كهف . فلم تهزم أوكيناوا نهائياً قبل نهاية شهر يونيو .

وفي ذلك الوقت كانت الحرب الأوربية قد انتهت ، وكان اليابانيون ينفرون يوماً بعد يوم . ففضت الغواصات الأمريكية على الأسطول الياباني التجاري عن آخره ، وتضعضع الاقتصاد الياباني . وأخذت طائرات الأسطول تحلق فوق المرافئ فتغرق فلول السفن المعادية . وراحت حملة الأميرال هالسي تغير على طول الساحل دون ما عائق . وأصبحت طوكيو خراباً متفحماً ، وتحولت معظم المدن الصناعية الكبيرة إلى خرائب بفضل الغارات الحارقة . وكان القادة اليابانيون يدركون أنهم قد انكسروا ، بيد أنهم كانوا في خوف من أن يطلعوا شعبهم على الحقيقة ، وكانوا يأملون أن يتوصلوا إلى أحسن شروط صلح من الحلفاء ، إذا ما هددوا باستمرار القتال إلى أقصى النهاية .

غير أن الحلفاء لم يكونوا ميالين إلى التفاوض ، إذ كان قد أصبح في وسعهم أن يحشدوا جميع قواتهم المسلحة ضد اليابان ، كما كانوا يعلمون أن روسيا باتت على وشك

الحرب العالمية الثانية ٥٣٧

دخول حرب المحيط الهادى . ثم فُجِّرت القنبلة الذرية الأولى فى صحراء المكسيك فى شهر يوليو ، وأصبح هذا السلاح الأخير معداً لُيستخدم ضد اليابان . أما هل كان ينبغى استعماله ، أو هل كان ينبغى استعماله أولاً فى تجربة للإرهاب ، فمسألة ستظل موضوع جدال أمدأ طويلاً . فإن سبعة من العلماء الذين عُنوا بصنع القنبلة أشاروا بعدم استعمالها ، ولكن الوزير ستيمسون ، الذى كان رئيس الجمهورية يركن إلى رأيه كل الركون ، وكثيرين من مستشاريه العسكريين ، أخذوا يهيئون بأن الاستعمال المباغت للقنبلة ، هو الكفيل وحده بأن يضع للحرب نهاية دون خسائر فادحة تنزل بالقوات الأمريكية . كل هذه الاعتبارات كانت وراء الإنذار الذى وجهه زعماء الحلفاء — إذ التقوا فى بوتسدام بألمانيا — إلى اليابان بالاستسلام أو الدمار ، ولقد تجاهلت الحكومة اليابانية الإنذار ثم ، حُلقت فى يوم ٦ أغسطس قاذفة قنابل وحيدة من طراز « ب — ٩ » فوق مدينة هيروشيما الصناعية ، وألقت قنبلة ذرية . وبعد ثلاثة أيام ، أسقطت قنبلة أخرى على ناجازاكي . ومُحِيت المدينتان من الوجود ، وزادت الخسائر فى الأرواح على مائة ألف بكثير . وفى مواجهة الوعيد بالدمار الشامل ، كَفَّت اليابان عن المقاومة فى ١٤ أغسطس . ثم وقعت فى ٢ سبتمبر تسليماً غير مشروط ، على سطح السفينة الأمريكية ميسورى . وهكذا اختتمت أفضع الحروب جميعاً .

اختتمت بنهاية ملائمة تماماً ، إبادة كانت كافية لأن توضح أن البشرية لن يقدر لها بقاء إذا هى خاضت حرباً أخرى . وكان المتحضرين فى كل مكان ، قد خالجهم الأمل بأن تكون الحرب العالمية الأولى خاتمة الحروب جميعاً ، ولكنهم صُدموا فى هذا الأمل على نحو مُفجع . فبعد عشرين سنة حافلة بالمتاعب ، تجاسر من جديد رجال تملكهم الشر والطموح على الظفر بغاياتهم بالعنف والإرهاب . ولقد كادوا يفلحون . بيد أنهم فى نهاية الأمر أخفقوا إخفاقاً صاحبه الكوارث ، فكانوا برهاناً آخر على أن كل من يشهر السيف لا يلبث أن يهلك بالسيف . ومهما تكن الأسباب العسكرية لهذا الفشل ، فإن السبب الأصلى الكامن له واضح كل الوضوح . لقد هُزمت دول المحور لأنها نبذت القيم الإنسانية والإيمان البشرى فاثارت بذلك على نفسها كافة ما فى العالم من قوى ظلت تعتز بالإنسانية . وكان النصر فى النهاية لأولئك الذين كانوا يؤمنون بفضيلة الإنسان وذكائه وكرامته . ولم تستنفد لوعة الحرب الخلال التى جلبت الانتصار فى آخر الأمر لشعوب العالم الحرة . وكما قال الرئيس روزفلت فى رسالة الحرب التى رفعها إلى الكونجرس : « إن

الهدف الحق الذي نسعى إليه ، أسمى وأبعد من ميدان المعركة البشع . فنحن حين نلجأ إلى القوة . . . إنما نعقد العزم على أن تكون هذه القوة موجهة إلى الخير النهائي ، كما هي موجهة ضد الشر المبادر .

أما أن الحرب العالمية الثانية أحبطت « الشر المبادر » فأمر جلي يعلو على كل نزاع . وأما أنها جلبت « الخير النهائي » فأمر لا يزال الجزم به متروكاً للمستقبل . ومن المحقق أنها خلقت ظروفاً قد يتسنى للبشر فيها أن يسعوا إلى الخير ، إذا شاءوا . وأما بالنسبة للشعب الأمريكي ، فقد جلبت الحرب عليه مسئولية لا عهد له ، ولا عهد لأي شعب آخرها من قبل . فعلى عاتقه استقر إلى حد كبير عبء تعمير العالم الذي خربته الحرب ، وإعادة بناء حضارة العالم المسيحي الغربي ، وتدعيم الديمقراطية ، وإعالة الشعوب الحرة في كل صقع على وجه الأرض ، وإنشاء تنظيم دولي من المتانة بحيث يكفل السلام . ولقد حقق الأمريكيون كثيراً من هذه المسئوليات في السنوات الخمس التي أعقبت الحرب . فأسهموا بسخاء في إعادة تعمير وتنظيم العالم الغربي ، وأيدوا الديمقراطية والحرة في أقطار العالم النائية ، وتصدروا الدول في إنشاء منظمة الأمم المتحدة لحفظ السلام وفي الإنفاق عليها . ومع ذلك فقد ظل العالم في همّ من الحرب وشائعات الحرب ، وظلت الآفاق قائمة مظلمة .



الفصل ٢٥

الحرب الباردة

هارى ترومان

ارتبك خليفة روزفلت فى « البيت الأبيض » للحظة أمام فداحة مسئولياته ، على أن ارتبأكه لم يتعد فترة وجيزة . فلقد أوتى هارى إس . ترومان من صفات البت ، والثقة بالنفس ، والعزم ما كان يناقض مظهره الشخصى الذى لم يكن ينم عن طابع معين . كان ثانى رئيس لنا من غرب المسييى ، فقد نشأ فى ميسورى الغربية ، فى وسط ريفى ، ودرس فى المدرسة الثانوية . وكانت تجاربه متنوعة : من مستخدم كتابى فى مصرف ، إلى مزارع ، إلى ضابط فى المدفعية بفرنسا أثناء الحرب العالمية الأولى ، إلى بائع السلع البسيطة (كالخيط والأزرار) ، إلى سياسى فى مدينة كنساس ، إلى قاض (مسئول إدارى فى مقاطعة ، فى الواقع) ، إلى عضو بمجلس شيوخ الولايات المتحدة آخر الأمر . وفى مجلس الشيوخ ، كان يؤيد « النظام الجديد » ، وقد بذل اهتماماً خاصاً لتشريعات الزراعة والعمال ، واكتسب فى مدة عضويته الثانية بالمجلس سمعة قومية بوصفه الرئيس الكفاء للجنة الخاصة التى تولت التحقيق فى نفقات الدفاع . ولقد ساء ترشيحه لمنصب نائب الرئيس عدداً من الديمقراطيين الذين كانوا يرون أنهم أحق به ،

٥٤٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

ومنهم هنرى ولاس ، وجيمس إف . بيرنز . وقد خفف ترومان من استياء الأول نوعاً ما ، إذ عينه وزيراً للتجارة ، وكذلك واسى الثانى إذ لم يلبث أن عينه وزيراً للخارجية .

وسرعان ما اثبتت الأحداث أن ترومان أوتى مؤهلات رائعة ، لا للزعامة القومية وحدها ، بل للزعامة الدولية . وما من شك فى أنه أخطأ فى مسائل صغيرة ، إذ عين بعض أشخاص عن غير جدارة ، وساند أصدقاءه الحميمين بعد أن غدروا بثقته ، وصرح بعدة بيانات مرتجلة دون تقدير للمسئولية . وكانت خطبه تفتقر إلى البلاغة ، ومذكراته المكتوبة تفتقد الرشاقة والتناسق . كانت أشبه بالأحاديث غير المصقولة ولا المعدة ، التى تلقى من المنصة الخلفية فى الاجتماعات السياسية ، والتى كان مبرزاً فيها . وكان يميل إلى تبسيط المواقف الجارية ، وكثيراً ما كان التحزب يغلب على أحكامه . غير أنه أوتى عقلاً صافياً ، حاسم البت . وكان أفضل تعليماً من كثيرين من الرؤساء ، إذ كان واسع الاطلاع ، لاسيما فى التاريخ الأمريكى . كذلك كان على شغف متحمس بالديمقراطية ، وعلى اقتناع لا يقل عمقاً عما كان لويلسون أو فرانكلين دى . روزفلت ، بأن واجب الولايات المتحدة أن تكون الحارس النشط للديمقراطية فى الشؤون العالمية . وقليل من الرؤساء كانوا فى مثل دأبه على العمل ، فظل فترات طويلة يعمل ست عشرة ساعة فى اليوم . وكان شديد الإيمان بالعمل والقيادة . وعند حدوث أزمات ، كان هذا الرجل الوداع المظهر يهب للتصدى لها بقرار فورى وقدره ضارية .

وكان القتال قد انتهى فى أوروبا تقريباً ، عندما تولى الحكم فى أبريل سنة ١٩٤٥ ، ولم يكن قد بقى دون السلام فى آسيا سوى أربعة أشهر . على أن مجموعة واسعة من مشكلات ما بعد الحرب كانت تتأهب للانقضاض . واتضح أنها كانت أشد صعوبة ، لاسيما أنها لم تقدر حق قدرها لفترة من الزمن . وكما حدث فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، أخذ الأمريكيون يتحدثون بتحمس أكثر مما ينبغى عن عصر جديد فى الشؤون العالمية ، ويعولون بإيمان أكثر مما ينبغى على إجراءات وتدابير الأمن الجماعى ، وأبدوا نشاطاً متهوراً فى إعادة الجنود إلى الوطن ، وفى تخفيف القيود الاقتصادية . وخيل لمعظم الناس أن « العم سام » لن يلبث فى القريب أن يعكف على الشؤون الداخلية وحدها . وكان مقدراً لخياهم أن يصدف فى قسوة .

٥٤١ الحرب الباردة

ولقد اشترك ترومان نفسه في التفاوض الأهوج لفترة وجيزة . فانصاع لضغط « الوضع السوى » بأن وقع في غير ترو قراراً أوقف شحنات « الإعارة والتأجير » بمباغنة أضرت ببعض حلفائنا وأذت مشاعرهم . واستجاب لمطالب المحافظين من رجال الأعمال بأن أنهى معظم القيود المفروضة على الأسعار . ولقد ندم على الفور تقريباً لاتخاذ هاتين الخطوتين . وشرعت حكومته في تسريح الجنود بتعجل متحمس ، وسحبت من بعض المناطق الأوربية قوات كان الواجب أن تمكث هناك . كما أنه ساعد ، بمزيد من السعادة ، على إتمام جهود إنشاء الأمم المتحدة كأداة دائمة للتعاون الدولى . وإذا كانت أمريكا قد ارتقت من الأمم المتحدة أكثر مما ينبغي ، فإنها قد ساعدت على الأقل في منح هذه الهيئة مقدرة - أثبت أن تمنحها عصبة الأمم - على البقاء سليمة نافعة . فلقد اكتسبت البلاد خبرة ودراية منذ عهد ويلسون .

الأمم المتحدة

كانت الأمم المتحدة قد بدأت كتحالف ضد ألمانيا وإيطاليا واليابان ، لم يلبث أن ضم ستين دولة . ففى غمرة الحرب (أكتوبر سنة ١٩٤٣) أبرم وزراء خارجية الولايات المتحدة وبريطانيا وروسيا اتفاقاً (انضمت إليه الصين الوطنية فيما بعد) لتحويل هذا التحالف إلى هيئة دائمة . وأيد الكونجرس هذا المشروع بقوة ، وساعد على الوصول إلى هذا آرثر لاتش . فاندنبرج عضو الشيوخ عن متشيجان ، وكان من قبل من أنصار العزلة . ومالبت أن اجتمع ، فى أواخر صيف سنة ١٩٤٤ ، فريق من الخبراء فى دمبرتون أوكس بولاية واشنطن ، ووضعوا الهيكل الرئيسى للميثاق المرجو للأمم المتحدة . فكانت فى أغلب النواحي صورة مبسطة ومدعمة من « عصبة الأمم » فهناك مجلس للأمن يحمل العبء الرئيسى للحفاظ على الوفاق العالمى ، وجمعية عامة تتيح ندوة واسعة للشكوى والنقاش ، ومحكمة عالمية تقضى فى المسائل التى تحال إليها ، وسكرتير عام وجهاز من العاملين يعملون فى نواح عديدة متباينة . وتقرر أن يكون للمجلس خمسة أعضاء دائمون : أمريكا وبريطانيا وروسيا والصين . . وستة آخرون يختارهم الجمعية

٥٤٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

العامه للعضوية لمدة سنتين . ولأى عضو دائم فى المجلس حق نقض إجراءاته (الفيتو) .

وكان أول حدث عظيم لحكومة ترومان هو انعقاد « مؤتمر الأمم المتحدة بصدد التنظيم الدولى » فى سان فرانسيسكو ، ابتداء من ٢٥ أبريل سنة ١٩٤٥ ، لمناقشة مشروع دمبرتون أوكس . وكانت الثمان والأربعون دولة الممثلة ، تنقسم إلى ثلاث مجموعات رئيسية : روسيا ، والدول الكبرى الغربية ، وعدد من الدول الغربية الصغيرة تنزعمها استراليا . وقامت روسيا بدور معرقل بوجه عام ، محاولة أن توسع نطاق الفيتو ، وأن تستبقى الأمم المتحدة أضعف من أن تتدخل تدخلاً جدياً مع أى معتد . كان أملها أن تشيع الارتباك واللبس فى العالم وأن تفرقه . كذلك عارض وزير الخارجية الروسى مولوتوف ، بعناد ولكن بدون توفيق ، انضمام الأرجنتين عضواً . وفى اجتهاد صادق أخذت الدول الكبرى الغربية تعمل لجعل الأمم المتحدة أداة قوية وأمينه للسلام ، فاشترك فى ذلك أنتونى إيدن بوصفه المتكلم الرئيسى بلسان بريطانيا ، وإى . آر . ستينبوس وهارولد ستاسن ، وفاندنبرج ممثلين رئيسيين لأمريكا . وكان هربرت إيفات ، وزير خارجية استراليا ، منافحاً بأسلاً عن الدول الصغرى التى كانت تمنى أن تكون المنظمة أقوى مما صارت عند تحقيقها . وقرر المؤتمر أخيراً أنه إذا كان للأعضاء الدائمين فى المجلس حق النقض فى المسائل الأساسية أو العويصة بين الدول ، فليس لها أن تستخدم الفيتو فى مناقشة الإجراءات المتعلقة بوسائل معالجة هذه المسائل . وقد ساعد هذا القرار على تدعيم الأمم المتحدة كندوة يتكوّن فيها الرأى العام العالمى ويتشكل .

وكان قرار مجلس الشيوخ بصدد الأمم المتحدة سريعاً وحاسماً . فتم التصديق على الميثاق بأغلبية ٨٩ صوتاً ضد ٢ . وكان هذا يعكس بدقة شعور الرأى العام بهذا الصدد . وازداد الاهتمام والتحييد الأمريكيات عن ذى قبل ، عندما اختارت الأمم المتحدة مقرها فى مدينة نيويورك ، مشرفاً على نهر إيست . والواقع أن بعض المراقبين أبدوا تذمراً من أن كثيرين من الأمريكيات كانوا يرون الأمم المتحدة أداة أمريكية أكثر منها هيئة عالمية . . وما ماتت فلسفة العزلة (الانعزالية) البتة ، ولكنها كانت تلقى هجوماً فى كل مكان . فقد فهمت البلاد أخيراً أن قيام الحرب فى أى مكان يهدد الدول فى كل مكان ، وأن السلام لا يتجزأ .

النظام العادل

عقد ترومان العزم ، وهو يحاول في صيف عام ١٩٤٥ توجيه اهتمامه للجهة الداخلية ، على أن يستبقى البلاد في الطريق التقدمية . كانت البلاد تخرج من الحرب بدين هائل ، ولكن بزيادة هائلة كذلك في طاقتها الإنتاجية . فقد أخذت أساليب الإنتاج الكبير ، بمعاونة الاكتشاف العلمي والتقدم الهندسى ، تحقق معجزات كبيرة عاماً بعد عام . وفى ذروة الحرب (١٩٤٤ - ١٩٤٥) ، تخطت البلاد جميع الأرقام القياسية فى الصناعة والزراعة والنقل بفارق كبير . فقدّر الإنتاج بأنه بلغ مثلى ونصف المثل مما كان عليه فى سنة ١٩٢٩ . وإزاء مطالبة العالم الجائع والمفتقر إلى كل ما كان بوسع أمريكا أن تقدمه ، بدا أن المخاوف من حدوث بطالة حادة نتيجة لتسريح الجنود ، مخاوف لم تستند إلى أساس . ولكن ، هل تقسم الزيادة فى الإنتاج بالتساوى ، وهل تسود العدالة الاجتماعية مع استمرار هذه الزيادة (كان الدخل القومى ٢٧٥ بليوناً من الدولارات فى سنة ١٩٥٠ ، فى مقابل ٤٠ بليوناً فى غمرة الكساد الاقتصادى) ؟

كان من الطبيعى أن يتمنى ترومان - بوصفه تلميذاً لروزفلت - أن يبقى على فعالية النظام الجديد . وفى سبتمبر سنة ١٩٤٥ ، أصدر رداً متحدياً أولئك الذين كانوا قد جاهروا بأن الوقت قد حان للعودة إلى نظام الحماية وإلى التجمع والاندماج . وفى خطاب أمام الكونجرس عرض برنامجاً سماه « النظام العادل » . وقد تضمن أن تتدخل الحكومة ، إذا دعت الحاجة ، لتوفير العمالة الكاملة ، ورفع المعدلات الدنيا للأجور ، وتوسيع نظام الضمان الاجتماعى ، واعتمادات الميزانية الاتحادية لإزالة الأحياء الفقيرة ، وتحسين الإسكان ، وإعانات لرفع أسعار المحصولات الزراعية ، وإنشاء مشروعات مثل هيئة وادى تنيسى على نهري ميسورى وكولمبيا وغيرهما من الأنهار . كان يبنى بجلاء الحفاظ على ما كفله « النظام الجديد » القديم من تحالف العمال والمزارعين لإتاحة ديمقراطية اجتماعية واقتصادية متدفقة للنشاط للبلاد . بيد أنه صادف عقبات . فإن طوائف المزارعين والعمال ، التى لم تكن متجانسة فى أى وقت فى الواقع ، تباعدت وانفصلت إذ بدأت الأسعار الزراعية فى الانخفاض ، بينما استمرت الأجور فى الارتفاع . وكانت العناصر المحافظة فى مجالات التجارة والصناعة والمهن تبغى الإقلال من الرقابات الحكومية وتخفيض الضرائب ، بينما جزع كثير من البيض فى الجنوب من

مطالبة ترومان بتشريعات اتحادية ضد ضربية الرؤوس والإعدام بقرار من الأهالي دون محاكمة قانونية ، وباستمرار « لجنة إجراءات العمالة العادلة » لمنح الزنوج نصيباً كاملاً من الأعمال . فسرعان ما واجه ترومان في الكونجرس جداراً فولاذياً من المحافظين الجمهوريين وغلاة المحافظين من الديمقراطيين الجنوبيين .

ولعل أهم نتيجة عاجلة لبرنامج « النظام العادل » هي أنه صان المكاسب التي ظفر بها النظام الحديد من قبل ، وقد أتاح للتقدميين نقطة تجمع ، وكان بمثابة إنذار بأن الحكومة متأهبة لمكافحة أية خطوة للتخلف . وعلى مر الزمن أدرجت معظم مشروعات ترومان التشريعية في مجموعات القوانين . بيد أنه لم يكن ثمة بد من تسجيل نضال استغرق عشر سنوات ، وكثير من التقلبات ، وزعامة كثيرين من الرجال الآخرين — سواء من الجمهوريين أو الديمقراطيين — قبل أن يحدث هذا . والحقيقة الجوهرية هي أن البلاد لم تتعرض بعد الحرب لرد فعل كالذي حدث عقب الحرب الأهلية أو الحرب العالمية الأولى .

جهود لإقامة السلام

كان كبار المسؤولين الحكوميين أسرع من عامة الجمهور إدراكاً لأن إقامة عالم يسوده السلام مهمة شاقة ، وقد تكون مستحيلة . إذ كان الرئيس روزفلت قد بدأ قبل وفاته يدرك النوايا العدوانية لدى حكومة ستالين . وبادر السفير آفريل هاريمان وغيره من المعيّنين في روسيا إلى تنبيه ترومان . فحضر الرئيس المؤتمر الثلاثي في بوتسدام (٧ يوليو — ٢ أغسطس سنة ١٩٤٥) في حالة تيقظ وانتباه . وسرعان ما تعذر الاتفاق بين الشرق والغرب بصدد مسائل مهمة ، فانفض المؤتمر بعد أن عهد بمواصلة العمل بشأن إقامة السلام إلى مجلس وزراء الخارجية ، الذي كانت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وروسيا والصين ممثلة فيه . وكانت القوات الأمريكية تحتل منطقة تناهز مساحتها ٤٠ ٠٠٠ ميل مربع ، في جنوب غربى ألمانيا ، والقوات البريطانية تحتل حوالى ٢٧٠٠ ميل مربع ، والفرنسية ١٦ ٧٠٠ ميل مربع ، في حين استولى الروس على ٤٦ ٦٠٠ ميل مربع في ألمانيا الشرقية . وكانت مدينة برلين داخل القطاع الروسى وتحتلها

٥٤٥ الحرب الباردة

الدول الأربع . كذلك كانت النمسا مقسمة إلى أربعة قطاعات . ووُضعت اليابان تحت قبضة الجنرال دوجلاس ماك آرثر الشديدة بوصفه قائداً أعلى للدول المتحالفة . أما كوريا التي وُعدت بالاستقلال فكانت مقسمة ، تسيطر روسيا على نصفها الشمالى ، والولايات المتحدة على الجنوبى .

وسرعان ما اتضح أن روسيا كانت تعتمز إقامة نطاق عريض حولها من الدول التابعة ، والوصول إلى الدردنيل والبحر المتوسط ، والحصول على نصيب فى إدارة شؤون المرور ومرافقه الصناعية الضخمة ، واستخدام الأحزاب الشيوعية فى فرنسا وإيطاليا وغيرهما من الدول التى أضعفتها الحرب لتشل حكوماتها إن لم تسيطر عليها . ولقد أضحى الوزير بيرنز نفسه ، كما فعل إيرنست بيفن وزير الخارجية فى بريطانيا ، للوصول إلى حالة من التعايش مع الحكومة السوفيتية . وكان بيرنز مفعماً بالأمل فى الواقع . ولم يكن مصطلح « الحل الوسط » مألوفاً فى معاجم اللغة الروسية ، فكانت موسكو تأخذ كل ما تستطيع الوصول إليه ، ولا تنزل فى مقابله إلا عن القليل . وكان تسلط الاتحاد السوفيتى واضحاً بوجه خاص فى بولندا ، التى كانت الدول الغربية ترجو أن تجعلها دولة ديمقراطية ذات حكم ذاتى حقاً . أما روسيا ، فلم تقنع بأن ضمت حوالى ٧٨ ٠٠٠ ميل مربع من بولندا القديمة ، بل استغلت احتلالها العسكرى لإسقاط ممثلى « حكومة بولندا فى المنفى » ، التى كانت تستقر فى لندن ، وإنشاء دستور على النمط السوفيتى ، وإقامة نظام حكم شيوعى خاضع لها برئاسة بوليسلاف بيروت . وفى الوقت الذى خففت فيه الدول الغربية الأسلحة بمعدل كبير ، زادت روسيا من قدراتها الضاربة ، وعززت قواتها فى أوائل سنة ١٩٤٦ تحت قيادة الجنرال نيكولاى بولجانين .

● وللتصدى للخطر الذى كان المسلك الروسى يندره ، أخذت الولايات المتحدة تتشدد فى مسلكها باطراد . فأبدى مندوبو أمريكا عناداً متزايداً فى المؤتمرات التى عقدت : فى لندن ، فى خريف سنة ١٩٤٥ ، وفى موسكو فى ديسمبر من ذلك العام ، وفى باريس من مايو حتى أكتوبر سنة ١٩٤٦ . ولقد أبرمت معاهدات متعلقة بالمجر وبلغاريا ورومانيا ، فأساء ستالين استغلالها على الفور (وهنا أيضاً توالى احتجاجات أمريكا وبريطانيا) ليظفر بالسيطرة على تلك الدول . ولقد حُررت فنلندا ، ولكنها سرعان ما أُجبرت على توقيع معاهدة للمعونة المتبادلة مع روسيا مداها عشر سنوات . ولم تبق للفريق الغربى سوى إيطاليا ، التى أصبحت جمهورية فى سنة ١٩٤٦ ، وقبلت

٥٤٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

بعد ذلك معاهدة صلح جردتها من مستعمراتها جميعاً . ووُضعت في المنطقة الحرة من تَريستا حاميتان أمريكية وبريطانيا بتخويل من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة . كذلك أبعد التصرف الأنجلو أمريكي الروس عن أن يكون لهم أى صوت في إدارة شؤون الرور في القطاع البريطاني . ولقد رفضت روسيا الموافقة على أية معاهدة لتحرير النمسا ، التي كانت موسكو تبغى استغلالها لتستخلص الثروة من منطقة احتلالها ، ولتتخذها حُجة للاحتفاظ بجنود على طول خطوط الإمدادات في أوروبا الشرقية وفي البلقان .

ومن المسائل التي اتفقت روسيا والغرب بصدها ، معاقبة أعلى الزعماء النازيين . فأعدت الاتهامات ، وقُدّم اثنان وعشرون من زعماء الحرب إلى المحاكمة في نورمبرج ، في نوفمبر سنة ١٩٤٥ . وظلت القضية تناقش أكمل نقاش من الجانبين ، حتى ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٤٦ . ففضى على أحد عشرة رجلاً بالشنق في أول أكتوبر . وانتحر هيرمان جورينج بالسم في سجنه ، بينما مات العشرة الآخرون – ومنهم وزير الخارجية جواشيم فون ريبنتروب – على المشانق . وانقسم الرأي العام في الولايات المتحدة بدرجة كبيرة بصدد عدالة وسرعة إنجاز هذا التصرف الدولي الذي لم يسبقه مثيل . ولا نزاع في أن جرائم النازيين كانت شنيعة ، بيد أنه كان من الممكن ترك القصاص لمحاكمة ألمانية . وفضلاً عن هذا ، فإن كثيراً من الجرائم الألمانية كانت شبيهة بانتهاكات روسية تعادها شناعة ، كما أن ألمانيا وروسيا أطلقتا نذير الحرب العالمية الثانية بتوقيع ميثاق ريبنتروب – مولوتوف في سنة ١٩٣٩ ، واشتركتا في غزو بولندا وتخريبها . ويكاد يكون من المحقق أن ما عزاه الروس إلى هتلر من قتل ٧٠٠٠ ضابط بولندي أسير عمداً ، إنما تم بأمر من ستالين .

أمريكا تتخذ موقفاً حازماً

تغير الشعور الأمريكي نحوروسيا في تَوْدَة بادية الأمر ، ثم بسرعة . فقد تلكأت البلاد فترة عن التمشي مع ترومان الذي أهاجه نفاق ستالين ، فصاح في سنة ١٩٤٥ : « لقد آن الكف عن تدليل السوفييت ! » . ولقد زار وينستون تشرشل مدينة فولتون ، بولاية ميسوري ، في مارس سنة ١٩٤٦ ، يلقي خطاباً شجب فيه العدوان الروسي ، ودعا

٥٤٧ الحرب الباردة

الغرب إلى المقاومة . وصدم خطابه كثيراً من مشاعر الأمريكيين ، بيد أن ترومان استحسنه من فوق المنصة ، كما حبه كثير من الزعماء في كل مكان . ورد ستالين على تشيرشل في ٣٠ أبريل بأن « الرجعية الدولية » تخطط لحرب جديدة . بيد أنه كشف مزيداً من سياسته ، عندما أرسل إلى تركيا مذكرة في ١٢ أغسطس ، مطالباً بنصيب من الإشراف على الدردنيل . وفي باريس ، ظل بيرنز طيلة الصيف يناضل الروس في مؤتمر وزراء خارجية الدول الكبرى الأربع ، ثم استهجن علانية في ١٥ أغسطس « تكرار النيل من السياسة الأمريكية وتحريفها » .

وأذكى الموقف المتغير حدث مؤثر . فبينما كان بيرنز ينازل مولوتوف ، وكانت حكومتنا تحتد في مناقشة يوغوسلافيا ذات القيادة الشيوعية من أجل إسقاطها ثلاث طائرات أمريكية غير مسلحة ، أخذ الوزير ولاس يعد خطاباً ألقاه يوم ١٢ سبتمبر في حديقة ماديسون سكوير وحمل فيه بعنف على « سياسة الدعوة للتشدد مع روسيا » . وكان ترومان قد أخطأ إذ أقر النص المكتوب للخطاب دون أن يقرأه بدقة . وإذ غضب الوزير بيرنز لما اعتبره طعنة غادرة ، قدم مذكرة بأنه يستقيل إذا لم يستقل ولاس من منصبه . فبادر ترومان إلى فصل ولاس بحجة « تضارب جوهرى » في الآراء بصدد السياسة الخارجية . وساند الشعور العام ترومان ، ولكن المشاعر بين بيرنز والرئيس ظلت متوترة ، وعلاقتها أقل لطفاً مما كان ينبغي . وفي أوائل سنة ١٩٤٧ ، استقال بيرنز بحجة سوء صحته ، مفسحاً المجال لإحدى الشخصيات العظيمة حقاً ، في تلك الفترة - للجنرال جورج مارشال .

ولما كان مؤتمر باريس قد انتهى إلى غير اتفاق بشأن ألمانيا والنمسا ، فقد بقيت لروسيا قوات ضخمة تستحوذ على أوروبا الشرقية بأسرها ، وتهدد الغرب . وفي خريف ذلك العام ، اتخذت فرنسا دستوراً جديداً ، حتى إذا استولى الشيوعيون ، في نوفمبر ، على أكبر كتلة من المقاعد في الجمعية الوطنية الجديدة ، سرت في الدول الحرة قشعريرة . بيد أن ألمانيا أصبحت بؤرة القلق ، فقد كانت سياسة روسيا هي أن تمتص من ألمانيا كميات كبيرة من السلع المصنوعة كتعويضات ، وأن تحول دون انتعاش ألمانيا أو أن ترجئه ، وأن تدفع الشعب إلى التحول إلى شيوعيين ، عن طريق توليد الفقر والفوضى بأساليب مرسومة . أما السياسة الأنجلو أمريكية فكانت على النقيض ، كانت ترمى إلى إعادة ألمانيا إلى العافية الصناعية ، وإعادة إرساء الرخاء ، وصون النظام ، وتدريب

٥٤٨ موجز تاريخ الولايات المتحدة

الشعب على الديمقراطية السياسية . كانت ألمانيا الغربية تضم من السكان حوالى ٤٥ مليوناً ، وألمانيا الشرقية حوالى ١٧ مليوناً . وقد أخذ يتدفق على ألمانيا الغربية سيل كبير مستمر من اللاجئين ، فزاد من تضخم سكانها . وكانت ألمانيا الشرقية فى الأوضاع الطبيعية كفيلة بأن ترسل المواد الغذائية إلى بقية البلاد ، بيد أن الروس أوقفوا الشحنات التى من هذا النوع . ومن ثم اضطرت الدول الغربية الكبرى إلى استيراد ، كميات كبيرة من الأطعمة لمختلف القطاعات التابعة لها ، واضطلع الأمريكيون والبريطانيون بالعبء الأكبر . وكانت النتيجة المحتومة أنه بينما راح الغرب يغدق الأموال والموارد على ثلثى الدول اللذين تحت إشرافه ، أخذ الروس يمتصون من ثلثهم قدر ما كان الغرب يقدم . وكان هذا الموقف غير محتمل . فأصبح مجلس الإشراف المتحالف فى برلين مسرحاً للمشاحنات بين المندوبين الأنجلو أمريكيين والروس . فبالنسبة للأمريكيين أقام الجنرال لوشىوس دى . كلاى جهازاً إدارياً قريب الشبه بالحكومة ، مكتسباً بذلك احترام الشعب الألمانى وإعجاب زملائه البريطانيين . وفى ٢ ديسمبر سنة ١٩٤٦ ، أبرمت الولايات المتحدة وبريطانيا اتفاقية لإدماج قطاعيهما اقتصادياً ، وإذا المنطقة الشائبة التى ناهزت مساحتها ٨٠ ٠٠٠ ميل مربع تصبح أكثر حيوية ونماء من ذى قبل بكثير . وكان هذا تطوراً شغل بال الروس ، وكذلك كان التخفيف المطرد من الأنجلو الأمريكيين للقيود على الصناعة الألمانية ، وحظر الشحنات إلى الدول الخاضعة للسيطرة الشيوعية ، والتنشيط العام للإنعاش الألمانى . وأجريت تحت الرعاية الأمريكية والبريطانية فى سنة ١٩٤٦ أول انتخابات حرة لمجلس البلدية منذ قيام هتلر .

وأصبح الانقسام بصدد ألمانيا كاملاً ومكشوفاً فى أوائل سنة ١٩٤٧ . وفى ١٠ مارس ، عقد مجلس وزراء الخارجية مؤتمراً فى موسكو بشأن شروط الصلح مع النمسا وألمانيا . وعقب مناقشات صاخبة ، انفض المؤتمر بعد ستة أسابيع دون ما اتفاق على موضوع واحد ذى أهمية . وصمد مارشال ، وبيفن ، وييدول فى موقفهم دون أن يتزحزحوا ، كما تشبث مولوتوف بموقفه . وعندما أبلغ مارشال الشعب الأمريكى أن ستالين أخبره بأن من الممكن تسوية كل الخلافات بالتفاوض ، سرت فى طول البلاد وعرضها رنة ابتهاج ، إذ تقبل الرأى العام الإجراء الذى اقترحه ستالين . وأزيحت المسألة الألمانية جانباً إلى أجل . ولقى تجمد الموقف فى هذه الناحية قبولاً ، فانتقل مركز الاهتمام فوراً إلى اليونان وتركيا .

مشكلات الدفاع

أظهرت الحرب الباردة أنه لابد من زيادة التسلح الأمريكي . بل إن الأمريكيين كانوا قد بدأوا قبل ذلك بتوجيه كثير من العناية إلى تحسين كفاءة تخطيط الدفاع وإدارة مخططاته . فلقد كشفت الحرب عن حاجة ماسة إلى توحيد القوات وأركان الحرب . وأيدت حكومة ترومان الدعوة إلى هذه الغاية ، فوافق الكونجرس عليها أخيراً .

وفي ٢٦ يوليو سنة ١٩٤٧ ، وقع ترومان مرسوم ضم الجيش والأسطول والسلاح الجوى إلى وزارة دفاع جديدة ، أقام على رأسها جيمس فورستال . ولقد رسم الإدماج بعناية وتفصيلات واسعة . فكان لكل من الأسلحة الثلاثة وزير مساعد ، دون أن يكون له مقعد في مجلس الوزراء . وأنشئ « مجلس أمن قومي » لدراسة الموقف الخارجى والتوصية بالسياسات (مؤلف من رئيس الجمهورية ووزيرى الخارجية والدفاع والأسلحة الثلاثة ورئيس مجلس موارد الأمن القومى) . وكان على مجلس موارد الأمن القومى أن يدرس وينظم الموارد والإنتاج والقوى البشرية ، فلم يكن له دور يذكر في زمن السلم ، بيد أنه كان ذا أهمية حيوية في الحرب . وأقيم مجلس للدخائر يتولى المهام التى كان يمارسها من قبل مجلسا الجيش والأسطول اللذان كانا يحملان الاسم ذاته ، وعُيِّن مجلس للبحث والتنمية ليتولى البحث العلمى . وأخيراً ، أنشئت وكالة المخابرات المركزية CIA ، التى تتيح للأمة لأول مرة في تاريخها مركزاً لتجميع المعلومات عن التسلح والأنشطة المسلحة للدول الأخرى . وعلى مر الزمن ، أصبحت هذه الوكالة هيئة قوية النفوذ ، تحاط أنشطتها بالسرية ، بل وتعمل مستقلة .

وشاء سوء الحظ أن يكون رسم المخططات للتوحيد على الورق أسهل منه في التنفيذ . وكان فورستال الذى أدار شطراً كبيراً من المعركة قد تطلع إلى إنشاء وزارة للدفاع صغيرة ، تشرف على التعاون الودى بين الفروع الثلاثة للقوات المسلحة ، فإذا الوزارة الجديدة تصبح كبيرة بدرجة مرهقة ، وإذا الأسلحة الثلاثة تتنازع الاعتمادات والسلطان في غير . واشتد اختلاف الخبراء بصدد أدوار الأسلحة الذرية ، والبوارج ، والطائرات إذا قامت حرب جديدة . وعندما طارت طائرة من طراز « ب - ٢٩ » ، في خريف سنة ١٩٤٦ ، من هونولولو إلى القاهرة دون توقف ، في رحلة طولها ٩٤٢٥ ميلاً ، فوق القطب الشمالى ، تقبل الكثيرون هذا الحدث كدليل على أن زمن الوحدات البحرية

٥٥٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

الثقيلة قد ولى . بيد أن البحرية أصرت على أن القتال في اشتباكات المستقبل سيكون في الغالب بطائرات نفثة كبيرة الحجم والسرعة والتعقد ، وأنه لابد لها من حاملات هائلة ، باهظة التكاليف ، لتؤويها ولتطلقها إلى الجو . أما أعضاء الكونجرس الذين كانوا يميلون إلى تصوّر أن القنبلة الذرية قد افتتحت عهداً جديداً في الحروب ، فقد تشبّثوا بالاعتقاد بأنه ليس بوسع روسيا أن تصنع قنبلة ذرية قبل سنة ١٩٥٢ ، فكانوا مهيئاً الأذهان للتقدير بالنسبة للأسلحة الأخرى .

وانهار فورستال وهو يحاول التصدى لمصاعب تنظيم وزارة الدفاع ، وتسوية المنازعات التافهة بين الأسلحة الثلاثة ، وانتزاع اعتمادات كافية من الكونجرس ، والرد على الحملات السياسية الظالمة . وأعقب اعتزاله بوقت قصير وفاته المحزنة . وما أقل الشخصيات التي ظهرت في فترة ما بعد الحرب ، وبدت أكثر شهامة — نسبياً — من هذا الرجل المتفاني ، الذي أوتى تهديداً وإرهاباً حس غير عادي . ولقد أبدى لويس جونسون — من فرجينيا الغربية — الذي خلفه ، قوة وطاقات عظيمتين ، ولكنه كان قليل الحصافة وسعة الأفق . وقد استمر بموافقة ترومان في سياسة تقدير تبين أنها كانت خطيرة إزاء ازدياد حدة الحرب الباردة . وكان يتشاجر مع الكونجرس ، ومع وزارة الخارجية ، ومع فروع القوات المسلحة . وقد أوقف إنشاء حاملات الطائرات الهائلة الحجم التي كان إنشاؤها قد أجهز في عهد فورستال . وقبل أن ينقضى وقت طويل ، كان لابد من الإغضاء عنه كشخصية سياسية ذات مستقبل . وظلت مسألة السياسة العسكرية الصحيحة للبلاد بدون حل ، حتى اضطرت الحكومة ، عندما اشتد الخطر ، إلى أن تعالجها بزيادات باهظة التكاليف في مقدرات الفروع الثلاثة جميعاً . . . وهي سياسة تحف بحكمتها الشبهات .

كانت الأسلحة الذرية والطاقة الذرية من أعظم المشكلات اقتضاء للاهتمام القومي والدولي . وقد حاولت الأمم المتحدة والكونجرس معالجتها في وقت واحد تقريباً . فأنشأ مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة لجنة للطاقة الذرية من عشرة أعضاء ، مثل الولايات المتحدة فيها وارين أوستن ، وبريطانيا العظمى سير ألكسندر كادوجان ، وروسيا أندريه جروميكو . ولقد قدم برنارد باروك إلى هذه الهيئة في سنة ١٩٤٦ مشروعاً مدروساً ومفصلاً للإشراف العالمي على الأسلحة النووية . وبما أنه لم تكن تملكها إذ ذاك سوى الولايات المتحدة وحدها ، فقد نمّ هذا المشروع عن موقف غاية في الكرم . إذ اقترح

٥٥١ الحرب الباردة

إنشاء هيئة ذرية دولية تتولى السيطرة الكاملة على هذا المجال ، وتمتلك أو تدبر سياسة جميع منشآت الطاقة الذرية التي يحتمل أن تنذر بتصرف عدوانى ، وتقوم بالتفتيش على كافة الأنشطة الذرية الأخرى ، وإجازتها وتنظيمها ، وتشرف على البحوث الذرية ، وتشجع الاستعمال النافع والبناء للطاقة الذرية . وقد وافقت على المشروع لجنة الأمم المتحدة بأكملها ، فلم يتخلف عن الموافقة سوى أندريه جروميكو .

وبعد شهر ، أى فى يوليو سنة ١٩٤٦ ، أقر الكونجرس قانون ماکماهون للطاقة الذرية ، الذى قضى بإنشاء لجنة للطاقة الذرية من خمسة رجال ، كهيئة مستقلة لم يلبث عدد مستخدميها أن وصل إلى خمسة آلاف خلال عام واحد . وكان من واجباتها الإشراف على صناعة الأسلحة الذرية ، واستخدام القوة الذرية عملياً فى مجموعة كبيرة من الاستعمالات الأخرى ، كمحركات الغواصات ، ومحطات توليد الطاقة الكهربائية ، والطب ، والزراعة . وفى صيف ذلك العام ، فجرت الولايات المتحدة قنبلتها الذرية الرابعة فى جزيرة بيكيني المرجانية فى المحيط الهادى ، وقنبلتها الخامسة تحت ماء المحيط . وكانت للسلاحين طاقة تدميرية لم يسبقها مثيل . ومع ذلك رفضت روسيا بإصرار مشروع باروك ، أو أى تعديل معقول له . وكان من أسباب ذلك أن الحكام السوفييت كانوا يشعرون بأمان تام . كانوا يوقنون من أن الولايات المتحدة ما كانت لتستخدم قنابلها فى عمل عدوانى ، وأنهم كانوا موشكين على إتمام أسلحتهم الذرية الخاصة . ومن الأسباب أن روسيا ما كانت لتطبق اقتراحين مما تضمنه مشروع باروك . فإن التفتيش المطلق على المنشآت فى طول الاتحاد السوفييتى وعرضه كان خليقاً بأن يهدم ما سماه تشيرشل الستار الحديدي وأن يكشف لأنظار العالم غوامض وخبائث كانت روسيا مضطرة لحجبها ، وهذا ما كان يتعارض مع ما كانت تفرضه روسيا من حرمان من الحريات . كذلك لم يقبل الروس اشتراط ألا يجوز لأى عضو بمجلس الأمن للأمم المتحدة استخدام حق النقض « الفيتو » لعرقلة أى تصرف تتخذه هيئة الطاقة الذرية . كان الروس قد اعتنقوا عادة النقض . وعندما عرضت روسيا ، فى ذلك الحين ، مشروعها للإشراف الذرى ، دعت إلى حظر تام لهذه الأسلحة الرهيبة ، بدون أى قيد اللهم إلا تفتيش جزئى ، وعلى فترات متباعدة .

الموازنة مع قوة روسيا

اقترون طلب ستالين من تركيا نصيباً في الإشراف على الدردنيل بانقضاض مستتر على حرية اليونان . إذ كان ملك تلك البلاد ومجلس وزرائه قد عادا إلى الحكم عندما تم تطهير البلاد من الألمان في سنة ١٩٤٤ . بيد أن حرباً أهلية ضارية شبت بين عصابات المحاربين الوطنيين ، مما أغرق البلاد في قلاقل . وأسهم شيوعيو بلغاريا وألبانيا ويوغوسلافيا في الأحداث ، فكانوا يقاتلون ثم يتراجعون عبر حدودهم على التعاقب ، ويمدون التأثيرين على حكومة أثينا ، ويختطفون آلاف الأطفال . ووجد البريطانيون الذين اضطلعوا بمهمة حفظ النظام في اليونان ، أن العبء المالي والعسكري فوق إمكاناتهم . فأخطروا الحكومة الأمريكية في أوائل عام ١٩٤٧ بأنه لا بد لهم من أن يسحبوا قواتهم وأن ينهوا مساعداتهم المالية . وكان ثمة خطر كبير من أن تسيطر العصابات الشيوعية على البلاد ، باستخدامها الأساليب الإرهابية . ولما كانت روسيا مستبقة ضغطها على تركيا ، وتهديدها إيران - التي كان أقصى أقاليمها في الشمال ، آذربيجان ، متاخماً للأراضي السوفيتية - فإن إثنيار اليونان كان من الممكن أن يُردف بتوغل سوفيتي عام في الشرق الأوسط .

وهب ترومان على الفور للتصدي للأزمة . وفي اجتماع مشترك لمجلسي الكونجرس ، أوضح أن اليونان كانت مهددة من عصابات ذات قيادات شيوعية ، وأن بقاء وسلامة أراضي هذه الدولة وتركيا أمر جوهري للإبقاء على النظام والحرية في المنطقة بأسرها ، وأن تكاليف المعونة الأمريكية تتضاءل بالقياس إلى نفقات الحرب . وأعلن مبدأ ترومان أن الدول التي تناضل للحفاظ على استقلالها ، والتي تكافح جهوداً موجهة للسيطرة من أقليات استبدادية مسلحة ، جديرة بأن تتلقى معونة عسكرية واقتصادية من أمريكا . وقال : « إن بذور الاستبداد تتغذى على المسغبة والعوز . وهي تبلغ كامل نموها عندما يموت أمل الشعب في حياة أفضل ، فعلينا أن نحفظ بهذا الأمل حياً » . وأجيز في مايو مشروع قانون باعتماد ٣٠٠ مليون دولار لليونان ، و ١٠٠ مليون لتركيا ، وتفويض الرئيس لإيفاد خبراء عسكريين وبحريين واقتصاديين للدولتين .

٥٥٣ الحرب الباردة

ولا جدال في أن هذا التدخل أنقذ اليونان وساعد تركيا . واضطرت الجماعات اليونانية الحاكمة ، وكانت رجعية وأنانية ، إلى أن تكفل بضغط حازم من أمريكا بعض إصلاحات كانت الحاجة إليها ملحة . وكانت الحكومة التركية أكثر قابلية وإخلاصاً في التعاون ، وقد ظلت تركيا من حصون الحرية في الشرق الأدنى . وفي تلك الأثناء ، ساعدت الولايات المتحدة على خلق معقل آخر في فلسطين ، حيث أعلنت جمهورية إسرائيل في ١٤ - ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ، عين تاريخ انسحاب بريطانيا من هناك . وعلى الفور اعترفت حكومة ترومان بالدولة الجديدة ، وأولتها التأييد المعنوي خلال الصراع المستميت الذي تلا ذلك بين الإسرائيليين والدول العربية . وكان من الطبيعي أن يوفر اليهود الأمريكيون الأموال والأسلحة والمعونة العسكرية في الصراع . فلما وضعت هدنة نهاية للقتال ، كانت إسرائيل قد نشرت لنفسها حدوداً واسعة تكفل لها وجوداً قومياً . ومن العوامل التي أدت لتجميد الموقف في البلقان والشرق الأدنى ، تمرد يوغوسلافيا على السيطرة السوفيتية . فعندما تخاصم ديكتاتورها المارشال جوزيف بروز (تيتو) مع ستالين ، تضاعف خطر العدوان الشيوعي في النطاق الكبير الممتد من ألبانيا إلى أفغانستان .

بيد أن مبدأ ترومان ، وقانون المعونة لليونان وتركيا لم يكونا كاملين ، إذ كانا جديداً ومحدودين . وكان الانسحاب الذي اضطرت إليه بريطانيا من هذا الصقع من العالم دليلاً على أن أوروبا بأسرها كانت في مأزق محزن . كانت بريطانيا العظمى ، قلب الكومنولث والإمبراطورية الهائلين ، لا تزال دولة كبرى عالمية ، بعد راسخة ، وبعد مالكة لإمكانات صناعية عظيمة . أما إيطاليا وفرنسا فكانت الحرب قد خربتها ، والحزازات الأهلية تمزقها ، وقد حُرمتا من قدر كبير من الكرامة والقُدرة الأدبية والمعنوية . وكانت دول أخرى ، كهولندا وبلجيكا والدنمرك والنرويج ، قد خسرت الرجال والآلات والنظم الثقافية والثقة . وكانت عملية إعادة بناء المدن المهتمة والصناعات المهشمة فوق طاقتها . كانت بحاجة إلى المال ، وكان يبدو أن أمريكا أوتيت كل المال : وكانت بحاجة إلى الأمل والشجاعة . وكان لابد من انتشار ألمانيا والنمسا من خرائبها وبأسهما . لم يكن أحد يملك إنقاذ الحضارة الغربية بسرعة ويقين سوى دولة واحدة . . . بيد أنه لابد لها من أن تكشف عن بصيرة وسعة خيال وسخاء لا يضارعهما مثيل .

مشروع مارشال

كانت هذه الصفات ، وهى ضرورات لا غنى عنها لنهضة العالم ، ميسورة لحسن الحظ ، فإن الولايات المتحدة لم تكن قد نسيت الدروس التى تكشف عن « الإغارة والتأجير » عندما جمعت الدول المتحالفة مواردها فى مجهود مشترك هائل . فكان لابد من إعادة هذا التجميع فى حرب جديدة ، فى صراع ضد الفقر والخوان والانهيار . ومن الناحية المثالية ، كان لزاماً أن تقوم الأمم المتحدة أداة لهذا الانبعاث التجديدي ، بيد أن روسيا شلت حراك هذه المنظمة فى كل مجهود لدفع العالم نحو السلام والرخاء ، مستخدمة حق النقض لسد الطريق أمام كل عمل ، والخطب الدعائية المتصلة لكى تشوِّش الأفكار .

وفى هذه المرة ، أعلن الوزير مارشال السياسة التى اعتزمتها الولايات المتحدة . وفى خطاب ألقاه فى جامعة هارفارد ، يوم ٥ يونيو سنة ١٩٤٧ ، تعهد بأن تبذل الولايات المتحدة مساهمات ضخمة نحو مشروع لإنهاض أوروبا تعاونياً . وكان « برنامج الإنعاش الأوروبى » ، كما أصبح معروفاً ، يتضمن تقديم الآلات والمخططات والخامات والخبراء المتفرسين فى التكنولوجيا الأمريكية ، وليس المال وحده . وكان على الدول الأوروبية أن تعين كل منها الأخرى بالقروض ، وتبادل التسهيلات الخاصة ، وتعجيل سرعة التجارة الدولية . وكان لابد من إزالة الحواجز الجمركية أو تخفيضها تخفيضاً كبيراً ، على الأقل ، فى كافة أرجاء العالم الحر . فكان المأمول أن يترتب على هذا البرنامج تقدم جديد نحو الحلم الذى لم يتحقق قط ، حلم ولايات متحدة أوروبية . وقد أوضح مارشال أن على أوروبا أن تتكفل بالمبادرة التمهيذية والطاقة النشيطة .

فهل تستجيب أوروبا ؟ وهل يفى الكونجرس بتعهد مارشال وهو الحريص على الانفاق الأمريكى ؟

كان الرد عن السؤال الأول سريعاً . فإن وزيرى خارجيتى بريطانيا وفرنسا ، وجهها الدعوة إلى جميع الدول الأوروبية ، وبينها روسيا ، لحضور مؤتمر فى باريس لمناقشة برنامج موحد للتعيم وإعادة التنظيم . ولم تكتف روسيا بالامتناع ، بل إنها حرمت على بعثاتها الشان أن تحضر المؤتمر . غير أن ست عشرة دولة ، من آيسلندا حتى تركيا ، حضرت واتخذت فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٤٧ مشروعاً تعاونياً لإعادة التعيم والإنشاء ،

٥٥٥ الحرب الباردة

تطلب استخدام ما يقرب من اثنين وعشرين بليوناً من الدولارات في السنوات الأربع التالية . وكان لابد لقسط من هذه الأموال أن يأتي من البنك الدولي للإنشاء والتعمير ، وقسط من متباين الدول ، ولكن القسط الأكبر كان من الولايات المتحدة . وقام المشروع على تعهد من الدول الست عشرة المشتركة « بقدر واسع النطاق من المساعدة المتبادلة الفعلية والممكنة » . وما كان من الممكن أن يكتمل المشروع في أقل من أربع سنوات . . . ولكن أوروبا تصبح ، إذا ما اكتمل ، أكثر تقدماً عن مرحلة التنمية الاقتصادية التي كانت فيها قبل الحرب بشوط كبير .

ولم يكن الكونجرس سريعاً في استجابته بهذه الدرجة . ففى اجتماعه في أوائل سنة ١٩٤٨ ، قدر الوقت اللازم لدراسة المشروع بشهرين . ثم استحثه استيلاء الشيوعيين على الحكم في تشيكوسلوفاكيا على العمل . وفي ٤ أبريل سنة ١٩٤٨ ، وقع ترومان قانون التعاون الاقتصادي ، الذي اعتمد للعام الأول ٦٠٩٨٠٠٠٠٠٠ من الدولارات . وقد جاء فيه : « هذا هو الرد على التحدي الذي يواجهه العالم الحر » . وبادر بأن أمر بتوفير بليون دولار للبدء في البرنامج ، وعين لقيادة دائرة التعاون الاقتصادي ، أحد أصحاب مصانع السيارات ومن الجمهوريين ، هوبول جي . هوفمان .

ونما التعاون الاقتصادي في أوروبا على نحو مرض ، وأخذ الانتعاش يسير باطّراد . وعندما اختتمت دائرة التعاون الاقتصادي العام الرابع لنشاطها ، في سنة ١٩٥١ ، كانت الولايات المتحدة قد أقرضت أوجادت بمنح لتنفيذ عملها بلغت ١٢ بليوناً من الدولارات ، وكانت القارة الأوروبية قد عادت تستوى على أقدامها ، وقد تسنى الوصول إلى مرحلة جديدة في العلاقات الأمريكية الأوروبية ، فكانت ثمة منح مالية ومادية كبيرة أخرى تُقدّم . وقبل أن يحين منتصف عام ١٩٥٠ ، كانت دول مشروع مارشال قد رفعت الرقم القياسي لإنتاجها الصناعي إلى مستوى فوق مستواه في الفترة ١٩٣٦ - ١٩٣٨ بمقدار الربع ، وبلغ الارتفاع النصف قبل أن ينتهي عام ١٩٥١ .

والواقع أن مصانع ومزارع أوروبا الغربية بلغت أعلى معدل للإنتاج في تاريخها كله . وبدأت هذه المنطقة المزدهرة مطمئنة إلى استطاعتها أن تبيع من السلع ما يكفي لرفع مستوى معيشتها باطراد ، وكان بعض الفضل في ذلك راجعاً إلى إجراءات أكثر تحرراً فيما يتعلق بالرسوم الجمركية في الولايات المتحدة وبلاد أخرى . كانت معظم دول القارة ترفع إنتاجها الصناعي بما بين سبعة وتسعة في المائة سنوياً . على أن عاملاً ظهر لسوء الحظ ،

فأنخلّ بهذا التقدم بدرجة كبيرة . إذ دعت الضرورة إلى إعادة تسليح الغرب بأسره ، فكانت الضرائب العالية والتضخم نتيجة لنفقات التسليح عائقاً أثقل التقدم المستمر .

وأى برنامج تعاونى يكون فيه معظم العطاء من أحد الطرفين ، ومعظم الأخذ من الطرف الآخر ، لا يخلو من بعض عوامل التوتر . فكان كثير من الأمريكيين يرون أن الأوروبيين لم يظهروا قدراً كافياً من العرفان ، كما أن كثيراً من الأوروبيين كانوا قد أحسوا بأن الأمريكيين كانوا يتطلعون إلى أكثر مما ينبغى . ولقد كره بعض الأوروبيين ضغط الخبراء فى دعوتهم إلى الإصلاح ، والجهد ، والتجديدات . . فقد كانوا يؤثرون أساليبهم القديمة ولو كانت أقل كفاءة . بينما صُدم بعض الأمريكيين بالتقدم الضئيل الذى أحرزه الأوروبيون فى طريق الوحدة . وكان شك فرنسا فى ألمانيا بوجه خاص عميقاً وملحاحاً . وكانت المصالح الطبقة تعوق العدالة الاجتماعية والرخاء الاقتصادى فى بضع دول أوروبية قليلة . وقصارى القول ، إن هناك احتكاكات وامتعضات قد ظهرت . بيد أن الحكومات المتباينة أظهرت صبراً بوجه عام . وكان هوفمان وأعوانه الرئيسيون نماذج للباقة والخصافة ، فلم تتبلور أية أزمة حقيقية تذكر ، فيما عدا ما كانت الطوائف الشيوعية تثيره من متاعب باستمرار . كانت أوروبا تتطور لتصطبغ فى مظهرها بالصبغة الأمريكية ، وتأخذ عن الأمريكيين لكتهم العامية ، وموسيقى « الجاز » ، والمشروبات المرطبة والأغذية والأزياء الأمريكية إلى جانب ما تأخذ من الآلات الثقيلة وأساليب الإنتاج الكبير .

أعمال عدوانية جديدة من روسيا

تحقق ستالين من أن مشروع مارشال قضى بانتهاء الآمال الروسية فى إنقاذ أوروبا وتمزيقها . وقد كشفت موسكو عن تكدرها وضيقها بشتى الطرق . ففى أكتوبر سنة ١٩٤٧ ، تم تنظيم مكتب الاستعلامات الشيوعى للمساهمة فى إرشاد الدول السائرة فى فلك روسيا ، ولتوفير سيطرة محكمة على الأحزاب الشيوعية فى الخارج ، ولقد كان الاستيلاء على تشيكوسلوفاكيا بعد بضعة أشهر غطرسة اتسمت باللامبالاة إلى درجة أن بادرت معها كل الدول الغربية الكبرى بالاحتجاج . وحاولت العناصر الشيوعية

٥٥٧ الحرب الباردة

بتعليات سوفيتية أن تشل حراك البلاد في فرنسا بالاضرابات ، وفي إيطاليا بالشغب والهيّاج . ثم قام الاتحاد السوفيتي في أول أبريل سنة ١٩٤٨ بما خيل إليه أنها اللعبة الحاسمة ، إذ فرض قيوداً شديدة على حركة المرور في الطرق وعلى الخطوط الحديدية بين برلين الغربية والقطاعات الأمريكية والبريطانية والفرنسية في ألمانيا الغربية . وكان المرتقب من هذا الحصار أن يؤدي إلى تسليم برلين للسيطرة الروسية ، ليتسنى إذا حان الحين جعلها عاصمة دولة ألمانية شيوعية قوية . وكانت حجة السوفيت أن الغرب انتهك بعض الاتفاقيات ، غير أن السبب الحقيقي هو أن الغرب كان يعمل لبعث ألمانيا اقتصادياً وسياسياً كجزء مهم من أوروبا جديدة أعيد تعميرها .

ولم يفكر الأمريكيون أو البريطانيون لحظة في الخنوع . فشرع الجنرال لوشبوش دي . كلاي والجنرال سيرريان روبنسون في التغلب على سد الطرق بنقل جوى . فأقاما مجموعة من المطارات الجديدة ، وأطلقا أسطولاً ضخماً من طائرات النقل لنجدة برلين ، وهما يعلنان أن قواتهما لن ترحل برلين قط . ولم يحن الخريف حتى كان زهاء ألف طائرة أنجلو أمريكية تصل إلى مطارات برلين بمعدل واحدة كل ثلاث دقائق ، حاملة ثلاثة آلاف طن يومياً على الأقل ، ومكدسة مدخرات من الأطعمة والوقود . وعهد بالمجهود في النهاية إلى حملة عسكرية مشتركة للنقل الجوى ، يرأسها قائد أمريكي ونائب بريطاني للقائد . وعندما عمد الروس إلى المناورات الاستفزازية ، اشتد الخوف من أن يقع حادث منكود يشعل شرارة الحرب . وقد أذاع البريطانيون إزاء ذلك أنهم سيوفرون لطائراتهم حماية من الطائرات المقاتلة . وقد أبدى أهل برلين إعجابهم بشهامة الحلفاء في مجهودهم ، بأن أقبل ١ ٣٣٠ ٠٠٠ منهم على الإدلاء بأصواتهم ، في انتخابات أجريت في شهر ديسمبر ، بالرغم من التهديدات الشيوعية ، ومنحوا الديمقراطيين الاشتراكيين المناهضين للشيوعية ٦٥ في المائة من أصواتهم .

والواقع أن الشعور المناهض للسوفييت اندلع في كافة أرجاء أوروبا الغربية . وانتهى الأمر بأن تخلت الحكومة الروسية عن الحصار ، مطالبة مرة أخرى بنصيب في الإشراف على إقليم الرور ، ليقابل طلبها بالرفض من جديد . وأسفرت الانتخابات في ألمانيا الغربية ، في أغسطس سنة ١٩٤٩ ، عن اختيار حكومة معتدلة ، برئاسة كونراد أديناور . وفي العام ذاته استبدلت الحليفتان الغربية بسيطرتها العسكرية بعثة مدنية سامية ، وأوفدت الولايات المتحدة جون جيه . ماكلوى ليحل محل الجنرال كلاي .

انهيار الصين الوطنية

في سبتمبر سنة ١٩٤٩ ، صدر عن ترومان تصريح هام جداً : « لدينا دليل على أن . . تفجيراً ذرياً حدث في الاتحاد السوفييتي » . ومع أنه كان لابد من بعض الوقت حتى يجمع الروس كمية مختزنة من القنابل ، فإنهم كانوا في الطريق إلى التعادل مع الولايات المتحدة . وقد شهد العام ذاته تطوراً كبير الأهمية معادلاً لذلك ، في الشرق الأقصى ، إذ أن القوات الشيوعية هناك ، اجتاحت الصين بسرعة مذهلة ، وأنهت الحرب الأهلية التي استمرت عشرين عاماً .

ففى بداية العام ، كان الوطنيون من أعضاء حزب « الكومينتانج » بزعامه شيانج كاي - شيك يستحوذون على نصف مساحة وسكان أرض الصين الأصلية . بيد أن حكمهم كان يتخبط في الفساد ، وكانت قبضتهم ضعيفة . وإذا استولت الجيوش الشيوعية على نانكين عاصمة شيانج ، في ٢٤ أبريل ، واصلت زحفها للاستيلاء على المدن الرئيسية الأخرى : كانتون ، وتشونكين ، وشنغهاي . ولقد استولت في تقدمها على كميات كبيرة من الأسلحة الأمريكية التي أُعطيت لشيانج . وكانت قصة العلاقات الأمريكية بذلك الزعيم معقدة غاية التعقد . إذ كانت الحكومة الأمريكية قد حاولت اثناء الحرب توحيد العناصر الأكثر اعتدالاً من الشيوعيين والوطنيين على السواء ، في حزب وسط يهيمن على البلاد . ولقد واصل ترومان مساندة هذا الهدف بعد هزيمة اليابان . وذهب جورج مارشال إلى الصين ، فدبر عدة هدنات قصيرة الأجل بين الجانبين ، باذلاً جهده لإقامة حكومة وسط . وما كان لشيانج ، ولا الجماعات المعارضة تحت زعامه ماوتسى - تونج ، رغبة في التفاهم والصلح لسوء الحظ ، مما خيب آمال حكومة ترومان في الزعيمين . كان الشيوعيون يعتقدون أنهم في طريقهم إلى النصر قطعاً ، سواء انتهت الحرب الأهلية بانتصار كامل أو بفوضى تامة . وكان شيانج من ناحيته يعتقد بأن الولايات المتحدة خليقة بأن تبذل جهداً شاملاً لمصلحته ، في آخر الأمر ، مهما يكن سوء حكومته أو ضعف استراتيجيته . ولم يدرك أن الرأي العام الأمريكي ما كان ليؤيد إلقاء الملايين من الرجال في الدوامة الصينية ، مهما يكن عداؤه لماوتسى - تونج .

لهذا وقفت الولايات المتحدة عاجزة ترقب قوات ماو الجيدة التدريب والتنظيم وهي

٥٥٩ الحرب الباردة

تتم فتح البلاد ، وفلول جيش شيانج وهي تهرب إلى جزيرة تايوان (فورموزا) . وكان على الولايات المتحدة أن تدرج في قائمة الخسارة النهائية معونات قدرت وزارة الخارجية أنها بلغت في مجموعها في الفترة التي أعقبت الحرب بليونى دولار ، ولكن من المحتمل أنها لم تكن في الواقع بهذه الضخامة . وعقد ماو « مؤتمراً تشاورياً » ، أو جمعية دستورية في بكين ، أقرت بدون أى نقاش حقيقى ، مشروعاً لإقامة نظام للحكم ، أعده زعماء الشيوعيين . وهكذا برزت الجمهورية الشعبية الصينية للوجود ، ومعها تراث من الازدراء للديمقراطية ، ومن الروح العسكرية ، ومن الكراهية للغرب ، ولأمريكا بوجه خاص . وقبل أن ينتهى عام ١٩٤٨ ، زار ماو موسكو لإبرام اتفاقية سياسية وأخرى اقتصادية ترقيان إلى ما يقرب من التحالف ، وكان لازماً على العالم أن يسلم بأن ما يزيد على خمسمائة مليون نسمة انضمت إلى الكتلة الشيوعية . وظل الوطنيون يحتفظون بمقعد الصين في الأمم المتحدة ، بينما أخذ الشيوعيون الصين ذاتها .

وأذهلت هذه النكسة الولايات المتحدة ، فأخذت تستعرض الماضى فى أسى ، دون أن تتمكن من إلقاء الذنب على أية جماعة أمريكية . وقدم « كتاب أبيض » أصدرته وزارة الخارجية ما يزيد على ألف صفحة من الإيضاح والتحليل ، تخلص إلى أن شيانج هو المذنب الأكبر . فبينما كانت القوات الكبيرة من دعاة الإصلاح والتجديد تعزز مكانتها بين الصينيين ، كان الوطنيون غير الأمناء ولا الأكفاء يتجاهلونهم ، بينما أخذ الشيوعيون يستغلونها بحذق . واتبعت الحكومة البريطانية سياستها التاريخية فى الاعتراف بحكومات « الأمر الواقع » ، فأوفدت إلى بكين سفيراً عومل بإهمال . وكانت وجهة النظر البريطانية هى أن حكومة الصين ، إذا عوملت بلباقة وحصافة ، قد تحرص على استقلال سليم عن موسكو . بيد أن الولايات المتحدة استمرت فى معاملة حكومة شيانج على أنها الممثلة الوحيدة للشعب الصينى ، وصاحبة الحق الحقيقى فى مقعد الصين فى مجلس الأمن بالأمم المتحدة . وحذرت وزارة الخارجية ماو من أننا سنقاوم أى اعتداء على حرية الدول الصغيرة فى جنوب شرقى آسيا . وراح ماو من ناحيته يرمق أمريكا فى تحدٍّ .

هذه كلها ألفت فصلاً من أتعس فصول فترة ما بعد الحرب . فلقد كانت الولايات المتحدة أجيالاً عديدة الصديق الغربى الرئيسى للصين . فوقف جون هاى ضد تقسيمها ، وأنشأت المبرات الأمريكية الكليات والمستشفيات ، فعلمت الطلبة الصينيين ، وقامت بتنفيذ البرامج الصحية . وكان من المحزن أن يُطمس هذا السجل .

والأكثر من هذا أهمية عاجلة ، هو إمكان انضمامها إلى قوة الجانب السوفيتي في اللحظة التي ظفرت فيها روسيا بالقنبلة الذرية . ومن الجلى أن الموقف كان يدعو إلى تدابير جديدة في المنطقتين الغربية والباسيفيكية .

مولد منظمة حلف شمال الأطلسي

شاء الحظ الحسن أن يكون الغرب قد اتخذ من قبل الخطوات الأولية نحو توحيد القوة والنفوذ . فقبل مسيرة ماو المظفرة بوقت طويل ، وقبل توقف مؤتمر الأقطاب الأربعة بباريس في مايو سنة ١٩٤٩ ، كان إرنست بينن وبعض قادة البنيلوكس (بلجيكا ، هولندا ، لوكسمبورج) قد ناقشوا مشروعات لإنشاء اتحاد دفاعي وثيق . واستدرجت الولايات المتحدة ، وكندا ودول أخرى إلى المفاوضات . وفي ٤ أبريل سنة ١٩٤٩ ، وقع وزراء خارجية الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وتسع دول أخرى الميثاق التاريخي لإنشاء منظمة حلف شمال الأطلسي وقد جاء فيه : « يوافق الأطراف على أن أى اعتداء مسلح على أحدها . . سيعتبر اعتداء مسلحاً ضد الجميع » . ففي حالة اعتداء كهذا ، ستضم الدول الاثنتا عشرة صفوفها « لاستعادة وصون الأمن في منطقة شمال الأطلسي » .

وجمعت منظمة حلف شمال الأطلسي حوالى ٣٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة معاً ، تشغل أرقى المناطق تصنيعاً في أوروبا وأمريكا الشمالية ، في تحالف لإنشاء قوات جديدة ، واختيار أسلحة مشتركة ، وانتقاء قادة مشتركين ، ومقابلة القوة بالقوة . وما قدر للولايات المتحدة من قبل أن تمضى إلى هذا المدى في نزول عملي واقعي عن جزء من سلطات سيادتها . ولا قدر لها من قبل أن تعترف بمثل هذا الجلاء بأن حدودها تقع ابتداء من ذلك الحين على بعد كبير فيما وراء البحار ، على طول الخطوط التي كانت تفصل الدول الحرة عن الممتلكات السوفيتية . ولم يكن يقاس بالشعور العام الطاغى المجهّد للمعاهدة ، سوى النشاط الذى صدّق به عليها — طارحاً عنه كل التحفظات — بأغلبية ٨٢ صوتاً إلى ١٣ . وإذ تم التصديق عليها ، عرضت حكومة ترومان برنامجاً للمعونة العسكرية ، يتحوّلها سلطة إنفاق ١ ٤٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دولار في أثناء العام التالى ، لتقديم

٥٦١ الحرب الباردة

أسلحة وخبرة إلى الدول الأخرى الموقعة لحلف شمال الأطلسي ، ولليونان وتركيا (التي لم تلبث أن انضمت إلى المنظمة) ، وإيران التي كانت بعد ماهدة بعدوان روسي على حدودها ، وكوريا والفلبين . ولقد رأى البعض أن المبلغ أكبر مما ينبغي . واعتقد البعض ، وكان السيناتور روبرت تافت منهم ، أن الواجب يدعو لوقف المنح إلى أن يستكمل مجلس دفاع الحلف مخططاته . بيد أن مشروع القانون الذي قدمته الحكومة أصبح قانوناً .

قيادة حلف شمال الأطلسي

اتخذت هذه التدابير في آخر لحظة مناسبة . فسرعان ما كشفت الأحداث في كوريا عن أن خطر قيادة حرب عالمية ثالثة كان حقيقياً ومروعاً . كان الضعف من الدول الغربية خليقاً بأن يغري باعتداءات ستالينية في كثير من أرجاء الكرة الأرضية . كان لدى روسيا ما يزيد عن خمسة ملايين من الرجال تحت السلاح ، مع ١٥٠٠٠ طائرة ، و ٣٠٠٠٠ دبابة ، كما كان بوسعها أن تحشد بسرعة ١٧٥ فرقة من أبنائها ، فضلاً عن عشرات أخرى من الدول التابعة لها . وكانت لأسطولها من الغواصات - التي تتزود بالأوكسجين دون أن تبرز إلى سطح الماء - طاقة كبيرة للتنقل والطواف . وكان من الممكن لصواريخها الموجهة أن تصيب كل مدينة غربية ، إذا ما أطلقت من قواعد متقدمة في ألمانيا الشرقية وتشيكوسلوفاكية . وكانت التصريحات المتعاقبة من القادة الروس تؤكد ما لستالين من عدم اكتراث مطلق بالمسؤولية ، وتجرد من الرحمة ، واعتياد الكذب . فلولم يشه الخوف من السطوة الذرية الأمريكية ، لكان من المحتمل أن تحتاج فرقه أوربا بأسرها حتى القنال الإنجليزي وجبل طارق بسرعة كبيرة .

وشهد عام ١٩٥٠ منظمة حلف شمال الأطلسي ، وقد أخذت تستجمع كيائها بسرعة ، وتشرع في إنشاء قواتها المسلحة . ففي أوائل ذلك العام أقر مجلسها مخططات لدفاع متكامل . ووصلت أولى شحنات الأسلحة الأمريكية إلى أوربا في شهر أبريل . كما وعدت بريطانيا ، وهي تحسن قوات الجو والدبابات التابعة لها ، بأن يكون لديها زهاء ٧٠٠٠٠ رجل تحت السلاح في الربيع التالي . وشرع الفرنسيون في برنامج للتسلح

مداه ثلاث سنوات ، وكان المرجو أن يتيح للجمهورية في القريب عشرين فرقة متأهبة للعمل فوراً . وحدد نصيب الولايات المتحدة في جيش المنظمة بست فرق ، كانت منها اثنتان في أوروبا فعلاً . وأتاحت بعثة عسكرية من الولايات المتحدة لتركيا مشورة الخبراء في تدريب وتجهيز قوة عدتها ٦٠٠ ٠٠٠ رجل تقريباً . وفي النهاية ، قبل الجنرال أيزنهاور ، في شهر ديسمبر ، قيادة جميع العمليات البرية لمنظمة حلف شمال الأطلسي ، وهبط بعد ذلك بقليل في شيربور ليحظى باستقبال حماسي صاحب . فأقام مركز قيادة بالقرب من باريس — وعكف على العمل بحمية وتمكن وتفاؤل معروفة عنه .

وكانت وزارة الخارجية الأمريكية قد أصبحت في هذه الأثناء في يدي دين جي . أتشيسون ، وهو من أقدر الذين تولوها في الحقبة الحديثة . كان ابناً لأسقف من رجال الكنيسة الأسقفية ، ومحامياً واسع التجارب ، ورجلاً واسع الثقافة ، وقد شغل منصباً هاماً في الوزارة أثناء الحرب . ولقد أكسبه ذكاؤه اللامع ، وفلسفته العقلية المخيفة نوعاً ما ، بعض الأعداء . بيد أنه أمسك مقاليد منصبه بحزم وحكمة ، في غمرة العاصفة المتزايدة الهياج من الحملات الحزبية المتجنّية . وكان أتشيسون هو الذي مثل الولايات المتحدة في اجتماع مجلس منظمة حلف شمال الأطلسي في أوتاوا ، في عام ١٩٥١ ، عندما ضمت تركيا واليونان إلى الحلف . وقد بعث أيزنهاور إلى ذلك الاجتماع برسالة أبرز فيها الأهمية العاجلة للاستعدادات للتصدي لئذّر الخطر الروسي ، وأهاب بعدد لم يورد أسماءه من الدول أعضاء الحلف أن تجند مزيداً من القوات ، وأن تقيم مزيداً من مصانع الأسلحة ، وأن ترفع إجمالي إنتاج الأسلحة في العام التالي بمقدار الثلث . وقد ذكرت هذه المطالب في مجلس الشيوخ الأمريكي بمزيد من القوة على لسان روبرت تافت ، فأنارت احتجاجات في بعض الدول الأوروبية . إذ أكد وزراء المالية وخبراء الاقتصاد أنه لا سبيل لتلك الدول إلى بذل تضحيات أكبر دون تعريض أنفسها لصدام داخل . كان عليها أن تضع نصب عينيها خطر الإفلاس ، إلى جانب الخطر السوفيتي .

وكان قد اتضح في تلك الأثناء أنه لا بد من أن تقوم ألمانيا الغربية بدور رئيسي في رخاء أوروبا الغربية ودفاعها معاً . وكان الشعب الألماني بما عرف عنه من دقة علمية ، ودأب ، وبراعة في التكنولوجيا الجديدة ، يجتاز انتفاضة اقتصادية رائعة . وكان الغرب بحاجة إلى حديد ألمانيا الغربية وفولاذها وقواها البشرية الماهرة والجنود الذين بوسعها أن تحشدتهم . وقد عرف أنه لا بد من ثمن يُدفع في سبيل ذلك : الحرية السياسية لألمانيا

٥٦٣ الحرب الباردة

الغربية ، فقد كانت تشاطر فرنسا الخوف من بعث المزاج العسكري . بيد أن الموقف العالمى فى سنة ١٩٥١ ، جعل من المستحسن الاقدام على المجازفات . وفى خلال الصيف ، توصلت دول الاحتلال الثلاث إلى قرار بإعادة قدر كبير من السيادة الألمانية ، وبالتفاوض مع جمهورية بون ، برئاسة كونراد أديناور ، لإبرام اتفاقية تمنح الجمهورية حكماً ذاتياً عاماً . بيد أنه كان عليها أن تظل مسيطرة على برلين الغربية ، وأن تستبقى قوات فى الرايخ ، وأن تنفرد بحق التفاوض مع روسيا بصدد توحيد ألمانيا ، وأن يكون لها حق النقض « الفيتو » إزاء التغييرات السياسية الأساسية التى تضر بالغرب ، وأن يكون لها حق التدخل للحيلولة دون أى انقلاب شيوعى أوفاشى . وقد آذت هذه الشروط المقترحة مشاعر كثيرين من الألمان .

وفى الوقت ذاته ، وضعت الحكومات الغربية الثلاث معاهدة أمن متبادل ، يسمح بمقتضى موادها لألمانيا بإنشاء جيش كبير بدرجة لا بأس بها ، على أن يكون جزءاً من قوة دولية وليست قومية . أى أن يدمج فى جيش متعدد الجنسيات ، مؤلف من جنود فرنسيين وإيطاليين وألمان ومن أبناء دول البنىلوكس . وكان على هذا الجيش أن يخدم بجانب القوات المنفصلة التابعة لدول منظمة حلف شمال الأطلسى ، بقيادة أيزنهاور ومن يخلفونه . وبهذا يفيد الغرب من القوى البشرية الألمانية دون التعرض لخطر عدوان المانى بدرجة أكبر مما ينبغى . هذه الخطة العبقريّة انبعثت أول ما انبعثت من الفرنسيين . بيد أنه لم يكن من المحقق ، حين أشرف عام ١٩٥١ على ختامه ، أن تقبل كل من فرنسا وألمانيا المشروع فى مجموعه . غير أنه كان من المقدّر لألمانيا الغربية أن تظفر بوضع أقرب إلى الاستقلال بعد فترة وجيزة ، وكان من الجلى تماماً العمل على تعجيل تنفيذ الخطط المتعلقة بالفرق الألمانية ، كما كان أيزنهاور يبغي . إذ كانت روسيا قد حرّمت من كل حق فى الاعتراض .

جبهة آسيوية

كانت بعض الفئات الأمريكية قد أصرت أثناء الحرب على أن جبهة المحيط الهادى كانت أهم من جبهة الأطلسى فى الواقع . وقد عادت إلى ذلك الرأى بعد انتهاء الحرب . فلما

٥٦٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

خسر شيانج الصين الأصلية ، واعترفت الهند مع بريطانيا بماوتسى - تونج ، ثار في الولايات المتحدة نقاش عنيف ، ووافق كثيرون من الأمريكيين بريطانيا والهند على وجوب إلحاق الصين الشيوعية بالأمم المتحدة . وذهب البعض إلى أن من واجب الولايات المتحدة أن توفد سفيراً إلى بكين ليسعى إلى استعادة بعض صداقة الصين السابقة ، ودق إسفين بين الصين وروسيا وهما عدوتان تاريخيتان . وكان يبدو أن الوزير أتشيسون يجهد هذا المسلك ، بيد أن أغلبية من الكونجرس ، وقسماً كبيراً من الشعب الأمريكي كانوا متعنتين في عداوتهم لحكومة ماو .

ولقد اتخذت حكومة ترومان مسلكاً وسطاً لفترة من الزمن . فلم تتخذ خطوة ما نحو الاعتراف بالصين الشيوعية ، ورفضت — من ناحية أخرى — في يناير سنة ١٩٥٠ أن تتعهد باستخدام ما لأمريكا من سطوة في البحر والجو لحماية شيانج في فورموزا من أى هجوم . إذ كان رؤساء أركان الحرب المشتركة قد قرروا أن الجزيرة ليست عنصراً ضرورياً للدفاع الأمريكى . وسعت الحكومة في تلك الأثناء إلى تدعيم مركز أمريكا في كل مكان آخر .

ففى الموعد الموعود ، ٤ يوليو سنة ١٩٤٦ ، مُنحت الفلبين حريتها ، وأمدتها الولايات المتحدة بالمال (أكثر من ٦٠٠ مليون دولار) ، والعناد والخبراء في سخاء ، لإعادة التعمير والتنظيم . ووافقت الفلبين ، في مقابل ذلك ، على الانحياز الحر مع الولايات المتحدة لمدة ست سنوات ، كما وافقت على تأجير قواعد عسكرية لتسع وتسعين سنة .

ولقد عوملت اليابان المهزومة باعتدال حكيم . فلما كانت الولايات المتحدة تبتغى أن تدع هذه الدولة تحبط السيطرة الحازمة ، وإن كانت متلطفة ، التى كان يمارسها القائد الأعلى للدول المتحالفة ، الجنرال دوجلاس ماك آرثر . فمع أن ماك آرثر كان مطالباً بأن يحتفظ بارتباط وثيق بواشنطن ، وأن يرضخ لتوجيهاتها ، فإن مكانته الكبيرة بين اليابانيين ، ومهابة طباعه ، وحكمته الصادقة ، أتاحت له درجة كبيرة من الحرية . وكان اعتداده الذاتى الرصين ، وتحفظه ، وانصرافه بعقلية مستقلة إلى عمله تثير قلق كثير من المراقبين الأمريكيين للموقف ، وإن كانت قد بهرت شعب الجزيرة التى تولى أمرها ، إذ كانوا يحترمون قوة السلطان ، وجلال المنصب ، والتحفظ ، والتفانى في الواجب .

٥٦٥ الحرب الباردة

يضاف إلى هذا أن اليابانيين لم يجدوا عناء يذكر في ترويض أنفسهم على التدابير التي ابتكرها ماك آرثر وبسطها . وزاد من سهولة ذلك أنه حرص على أن يكون ومعظم أعوانه في خلفية الصورة تماماً . فظل الميكادو إمبراطوراً ، وإن جُرد من أية مزاعم خلقها أتباعه في أن يكون له وضع شبه إلهي . وبقيت الحكومة اليابانية في قلبها القديم ، وإن طولبت طبعاً بإطاعة القرارات الأمريكية التي كان القائد الأعلى يتخذها أو ينقلها إليها . وفي حرصه على ألا يعرض سلطانه الأعلى ، رفض أن يسمح للأمريكيين بالإعلان عن وضعهم كمنتصرين . وبالرغم من سحق بعض اليابانيين على ما حدث في هيروشيما ، فلم يهتم حدوا للقوات الأمريكية عدم إقبالها على أي مسلك ذي شبه بتصرفات النازيين الجاحمين في روسيا ، أو تصرفات الروس المقابلة في ألمانيا ، وأدركوا أن الجنود الياباني كانوا مكبوحى الجراح بدرجة تدعو إلى الإعجاب ، . بالقياس إلى طريقة تصرف جنودهم هم في نانكين ، والملايو ، والفلبين .

كذلك لم يعترض اليابانيون على السياسات الأمريكية . فقد كانت نية واشنطن وماك آرثر إعادة تشكيل نظم الجزيرة في قالب أكثر ديمقراطية . ونُقذ نزع السلاح على أتم وجه . وجردت القلاع والحصون من استحكاماتها ، وأغرقت السفن ، ودُمّرت المعدات الحربية ، ورجع الجنود إلى الحياة المدنية . ونجم عن محاكمات مجرمي الحرب إعدام عدد بسيط من ذوى المناصب الرفيعة ، بينهم توجو رئيس الوزراء السابق ، وبضع مئات من الشخصيات الأقل منه شأنًا ، وتم القضاء إلى حين على أكبر الكارتلات أو الاحتكارات اليابانية ، وقسمت أراضي الضياع الكبيرة بين الفلاحين ، وأصلح النظام التعليمي وجعل من وظائفه الرئيسية تدريس المبادئ الديمقراطية ، ومنحت نقابات العمال فرصة كي تقوّي جذورها ، ورفع وضع المرأة إلى أرقى مما كان في الدول الشرقية . ذلك لأن ماك آرثر كان في كثير من هذا على احترام عميق للشخصية الشرقية ، بيد أنه كان يشاطر معظم الأمريكيين رأيهم في أن اليابانيين كانوا قد انصاعوا في عبودية أكثر مما ينبغي للنظام العسكري ، فكانوا بحاجة إلى غرس خصال الفردية فيهم . ومع أن ماك آرثر كان في دخليته محافظاً ، فإن سياسته القائمة على إقصاء القادة العسكريين والاستعماريين والاحتكاريين السابقين عن الحكم والنفوذ ، أتاح فرصة لم تكن مرتقبة للعناصر اليسارية كي تتقدم إلى مراكز النفوذ .

وبالرغم من خسائر الحرب ، فقد ظل سكان اليابان في ازدياد ، حتى بلغوا ٩٠

مليوناً في سنة ١٩٥٠ ، وهو عدد هائل بالنسبة إلى ضالة موارد البلاد بعد أن فقدت كوريا ، ومنشوريا ، وغيرهما من البلدان التي كانت تستحوذ عليها . ولقد ساعدت الأموال التي كانت تنفق على الجنود الأمريكيين والتي كانوا ينفقونها اقتصاد البلاد المترنح . بيد أنه كان لابد من إعادة الرخاء إلى اليابان إذا أريد صونها من الوقوع في مخالب الشيوعية . فأخذت السلطات الأمريكية تقلل من اهتمامها بالإصلاح ، وتزيد من عنايتها بالإنعاش ، بحكم الضرورة . وأقيم برنامج لتحقيق الاستقرار الاقتصادي في سنة ١٩٤٩ ، يكاد يكون صنواً لقانون التعاون الاقتصادي ، فأثبت أنه ذو عون كبير حقاً . وسمح للوحدات الصناعية والتجارية الكبيرة بأن تقوم مرة أخرى ، وأن تكبح اللون المغلاة في المنافسة . أما مطالب قادة العمال فقد حصرت في حدود مناسبة ، إذ أنه لم يكن في وسع اليابان بعد أن تهيم مستوى معيشة يعادل المستوى الغربي . ولما كان اليابانيون قد وجدوا الكثير من أسواق منسوجاتهم ومصنوعاتهم الخزفية مغلقة دونهم ، فقد ساعدهم المستشارون الأمريكيون على إنشاء صناعات ثقيلة ، فلم يلبثوا أن شرعوا في تصدير الآلات إلى الأسواق الآسيوية المتلهفة إليها . وإن هي إلا سنوات قلائل حتى كان إنتاجهم قد تجاوز ما كان عليه في أوائل الثلاثينات ، وأخذ يزداد بسرعة .

كانت الولايات المتحدة مليئة بالأمل في أن تتمكن من أن تجعل اليابان من معازل الحرية في المحيط الهادئ وتحفظها بهذا الوضع . وكانت إعادة إقامة الدولة ، وتسليحها إذا حان الحين ، كما حدث في ألمانيا ، تنطوي على مخاطر . وكانت الدول الصغيرة التي عانت العدوان الياباني أشد من الأمريكيين إدراكاً لهذه الحقيقة . فماذا يحدث إذا قررت اليابان بمجرد استقلالها أن من الأرباح لها أن تنضم إلى الصين الشيوعية وروسيا ؟ ومع أن هذا التخوف لم يتحقق ، فإن اليابانيين كانوا يزدادون فعلاً عزوفاً عن الأخذ بالسياسات الخارجية الأمريكية دون ما انتقاد ، وكانوا يزدادون برماً بحرماتهم من التعامل مع أسواق الصين .

كوريا

إذا تأملنا التغيرات العاصفة والتفاعل العام الذي كان يسرى في آسيا ، نجد أن معظم الأمريكيين لم يكونوا يولون المنطقة الضئيلة المسماة كوريا اهتماماً يذكر حتى سنة ١٩٥٠ .

الحرب الباردة ٥٦٧

إذ أنهم كانوا منصرفين إلى الأجزاء الأكثر اجتذاباً للأنظار في الصورة الشاملة للقارة . كانت الهند قد حصلت من حكومة آتلى العمالية في لندن على حريتها الكاملة ، فوطدت مكانتها كدولة بسرعة ونجاح عجيبين . وهزمت الجمهورية الجديدة بزعامة رئيس الوزراء نهرو معظم متاعبها السياسية وكثيراً من متاعبها الاجتماعية والاقتصادية . أما باكستان وسيلان ، وقد تحررتا كذلك ، فقد بقيتا عضوين في مجموعة الدول البريطانية (الكومنولث) . وكانت بورما أقل توفيقاً في استغلال تحررها . أما أندونيسيا الهولندية ، فكانت قد مُنحت وضعاً على قدم المساواة مع هولندا كدولة حرة تحت التاج الهولندي ، ولكنها ظلت تقاتل من أجل الاستقلال التام ولم يلبث أن حققته . وكانت الهند الصينية الفرنسية قد أصبحت تتمتع بالحكم الذاتي في كافة الشؤون الداخلية ، وتواجه مستقبلاً غير مطمئن ، إذ كانت الحرب الأهلية - التي كان الشيوعيون من الموحين بها - تعصف به . فكانت القارة الكبيرة بأكملها تبدو في حالة جيشان لا يبشر بخير . كان بليون نسمة ، في المساحة من سوريا حتى جزر سليمان ، في مراحل متباينة من الثورة على الاستعمار ، والفوارق القائمة على اللون ، وعلى فقرهم وبؤسهم .

وكوريا شبه جزيرة جبلية صغيرة ، نصف قاحلة ، في هذه القارة ، ولكنها كانت في محنة منكودة بدرجة خاصة . كانت مقسمة بين السيطرتين الروسية والأمريكية ، بخط مصطنع تماماً ، هو خط العرض ٣٨° . وكانت كل الجهود لتوحيد البلاد قد أخفقت ، لأن الروس أبوا الرضاء بانتخابات حرة ، كما أبوها في ألمانيا . وكان النصف الخاضع لرقابة أميركا لديه معظم السكان والزراعة . أما النصف الذي تحت رقابة روسيا ، فقد أوتى نصيباً كبيراً من الصناعة . ولقد حاولت الأمم المتحدة في آخر الأمر معالجة المتاعب ، استجابة لطلب تقدمت به الولايات المتحدة . فأرسلت بعثة لتنظيم حكومة هناك . ولكن الروس منعوا هذه البعثة من دخول منطقتهم . فعمد أعضاؤها إلى فعل كل ما كان ممكناً . إذ أجروا انتخابات في كوريا الجنوبية ، وأشرفوا على وضع دستور لها ، وساعدوا على إقامة حكومة برئاسة سينجمان ري ، وهو محافظ ، قدير ، مسن ، صلب الإرادة . وفي ١٩٤٨ - ١٩٤٩ سحب الروس والأمريكيون على السواء قواتهم ، بيد أن الفريقين تركا وراءهما عتاداً حربياً ، وخبراء عسكريين . وكان بوسع الموظفين وضباط الجيش السوفييت ، العاملين في سرية تامة ، من موقعهم الممتاز وراء نهر يالو ، أن يضعوا الخطط لأية تدابير يشاءونها .

٥٦٨ موجز تاريخ الولايات المتحدة

ولقد سجل الرئيس ترومان في مذكراته أن المراقبين في واشنطن كانوا منذ أوائل سنة ١٩٥٠ في توجس عميق من حدوث صراع مسلح فجأة . كانوا يدركون أن للروس قوات متحفزة للضرب في عدد من النقاط : في ألمانيا ، والنمسا ، والبلقان ، واليونان ، وتركيا ، وإيران ، وهكذا بعرض الخريطة حتى كامتشاتكا . وما من أحد كان يدرى ما يتمخض عنه اليوم التالى . كان من الواضح أن الشيوعيين لم يكونوا راغبين في أن يترثوا إلى أن تشتد قوة منظمة حلف شمال الأطلسى . وكانت مواطن القلق الأكبر في أوروبا والشرق الأقصى . وكان رؤساء أركان الحرب المشتركة قد قالوا بإسهاب أنه ما من نقطة بعد اليابان والفليبين ذات طابع حيوى أو حرج لدفاعنا . ولكن التكهن بالمستقبل كان مستحيلاً . وفي ٢٦ يونيو ، فوجئت البلاد المذهولة بأنباء أن جيش كوريا الشمالية ، قد اندفع عبر خط العرض ٣٨ ° ، بطائرات روسية ، ودبابات روسية وضباط مدربين على أيدي الروس ، وأنه بات على أبواب سيول .

على أنه من الجدير بنا أن نرجع إلى تأمل الأحداث الداخلية تحت حكم ترومان ، قبل أن نتناول الحرب الكورية .



الفصل ٢٦

مشكلات ما بعد الحرب

١٩٤٦ - ١٩٥٢

الرخاء والتضخم

انتقلت الأمة من الحرب إلى رواج عظيم وطويل الأجل . فبلغ الانتاج ، والعمالة ، والدخل ، والأرباح مستويات غير عادية في الثلاث سنوات الأولى بعد النصر . وكان الطلب على السلع ، من الحكومة والمستهلكين في الداخل ، والدول الأجنبية يفوق العرض باستمرار تقريباً . ولقد ظهر ركود بسيط في أوائل سنة ١٩٤٩ ، ولكنه لم يستفحل . وكان هنري والاس قد أصدر قبيل انتهاء الحرب بقليل كتاب « ستون مليون فرصة عمل » الذي ظنه الكثيرون تهوراً في المطالبة بإجراءات حكومية شديدة لضمان عمالة كاملة ، بيد أن العمالة الكاملة تحققت بدون محفزات خاصة ، ورفعت مجموع الأجراء إلى ما يزيد على ستين مليوناً بكثير .

ولم يكن ثمة مناص تقريباً من أن يكون الرواج مصحوباً بارتفاع الأسعار وبتضخم جرّ الضائقة على قطاعات كبيرة من السكان . وقد أشار الرئيس ترومان ، في تقريره

الاقتصادى إلى الكونجرس ، فى بداية سنة ١٩٤٧ ، إلى كثير من العوامل المشجعة : منشآت صناعية موسّعة ومحسّنة ، وقوة عمالية أكبر وأرقى تدريباً ، وأموال وفيرة للنمو الصناعى ، وقائمة ضخمة من الطلبات التى لم تتسنّ تلبيتها . ولكنه أشار فى الجانب المقابل إلى انخفاض فى القوة الشرائية نشأ عن المستويات العالية للأسعار ، وتذمر عناصر عمالية مهمة ، وخطر الإضرابات المترتب على ذلك ، واحتمال هبوط الاستثمارات . وفى خريف سنة ١٩٤٧ ، بيع القمح بسعر تجاوز الثلاثة دولارات للبوشل ، وهو أعلى مستوى بلغه فى جيل واحد ، ولكن مكتب الإحصاءات العمالية نشر فى نوفمبر من ذلك العام ، أن معامل السعر للمستهلك تجاوز مستواه فى ١٩٣٥ - ١٩٣٩ بحوالى ١٦٥ فى المائة . وكان السكان فى تكاثر هائل - ١٩ مليوناً خلال سنوات الأربعينيات العشر - وقد زاد هذا من الضغط على كميات السلع والأسعار .

بين الكونجرس ورئيس الجمهورية

ورث ترومان عن روزفلت كونجرس يسيطر عليه الحزب الديمقراطي ، بيد أنه لم يجن من هذا فائدة كبيرة . فإن ائتلافاً بين الجمهوريين وغلاة المحافظين من الجنوبيين قام كجدار أمام مشروعات « البرنامج العادل » لا سبيل إلى اختراقه . ثم تغير المنظر فى خريف سنة ١٩٤٦ ، إذ أن الجمهوريين بالشعار الذى راحوا يرددونه : « ألم نكتف ؟ » أحرزوا أغلبية ٥١ إلى ٤٥ فى مجلس الشيوخ ، و ٢٤٦ إلى ١٨٨ فى مجلس النواب . واستطاع المحافظون فى الكونجرس الثمانين الجديد أن يميزوا تشريعاً برغم نقض ترومان . وأقروا على الفور تشريعاً حول علاقات إدارة المشروعات والعمال (١٩٤٧) ، اشتهر باسم قانون تافت - هارتلى ، الذى جمع - إلى جانب بعض معالم ثانوية - مواد وصفتها نقابات العمال بأنها لا تطاق : حظراً على الاتفاقيات التى تقصر العمل على النقابيين وحدهم ، وعلى الإضرابات ومحاصرة أبواب المصانع لمنع تشغيلها فى حالات الإضراب . وبادر وليم جرين ، وجون إل . لويس ، وغيرهما من قادة العمال بشن معركة لإبطال القانون أو تعديله تعديلاً كبيراً ، ولكن دون جدوى . كذلك قدم الكونجرس إلى الولايات تعديلاً للدستور يحول دون أن يتولى أى رئيس للجمهورية

مشكلات ما بعد الحرب ٥٧١

الحكم لأكثر من مدتين . وكان هذا تصويماً بعدم الثقة في رأى الشعب الأمريكى ، كما كان نيلاً من روزفلت من ناحية ، وجهداً من ناحية أخرى لتوجيه ضغط أدبى على ترومان كى لا يتطلع إلى فترة حكم ثالثة (وإن كان هذا مرتقباً منه إذ ذاك بحكم توليه الرئاسة) . وقد تم التصديق على هذا التعديل ، وأصبح فى عام ١٩٥١ التعديل الثانى والعشرين .

وطلب ترومان ، فى انزعاجه بالتضخم ، تشريعاً يسمح للحكومة بفرض نظام الحصص على السلع النادرة الوفرة ، وفرض حدود عليا للأسعار والأجور حيث تمس الحاجة ، والحد من الصادرات ، وتنظيم المضاربة على السلع ، وتوزيع مرافق النقل بالحصص ، والحرص على عدم ارتفاع الإيجارات ، واتخاذ خطوات أخرى . وأصر الجمهوريون على أن رئيس الجمهورية كان يحاول أن يجنى من الموقف رصيذاً سياسياً له ، وأنه لم يكن فى الواقع راغباً فى هذه السلطات البعيدة المدى . والواقع أن كلاً من الجانبين كان ينشد مكاسب سياسية كثيرة . وعندما تم إقرار القانون ، جاء من الميوعة بدرجة جعلته غير ذى فعالية . إذ أنه حجب عن الرئيس سلطة السيطرة على الأسعار أو الأجور ، وسلطة تقنين السلع والحصص ، واقتصر على السماح بالاتفاقات الاختيارية بين المشروعات التجارية والصناعية ، والعمال ، والمشروعات الزراعية من أجل كبح جماح التضخم . ولقد وصفه ترومان بأنه « غير واف بدرجة تثير الرثاء » ، وأثبتت الأحداث صواب رأيه ، بالرغم من أنه صدق عليه ، إذ استمر التضخم مطرداً .

والواقع أن الكونجرس الثمانين رفض معظم الأمور التى طلبها منه ترومان . فقد أحجم عن إقرار قانون دائم لإجراءات عادلة للعمالة ، وقانون لزيادة الحد الأدنى للأجور من أربعين إلى خمسة وستين سنتاً فى الساعة ، وبرنامج جرى للإسكان ، والتوسع فى الضمان الاجتماعى ، وقبول المشردين من أوطانهم من الأوربيين . وقد أجاز قانوناً جديداً لتولى رئاسة الدولة كانت الحكومة ترجوه . وقد نص هذا القانون على أن الرئاسة العليا تنتقل إلى رئيس مجلس النواب ، والرئيس المؤقت لمجلس الشيوخ ، وأعضاء مجلس الوزراء بترتيب إنشاء وزاراتهم ، إذا مات رئيس الجمهورية ونائب الرئيس معاً . ولقد اشتد التشاحن بين الكونجرس وترومان بصدد تخفيض الضرائب ، ذلك أن الكونجرس ، سعيًا وراء التقرب إلى الناخبين ، أقر مشروعات قوانين لتخفيض عبء الضرائب بحوالى أربعة بلايين من الدولارات ، فرفض الرئيس التصديق عليها باعتبارها غير ناضجة وسيئة الصياغة .



والواقع أن الإنفاق القومي استمر بمعدل كان كفيلاً بأن يجعل تخفيض الضرائب عملاً غير سليم بدرجة فاحشة ، فإن اعتمادات السنة المالية ١٩٤٨ - ١٩٤٩ زادت عن ثلاثة وأربعين بليوناً من الدولارات ، وهو رقم قياسى فى زمن السلم . وكان من الأمور الشاذة فى تلك الفترة ، ما ثبت من استحالة تخفيض الدين القومى ، بالرغم من الرخاء . بل إنه ازداد فى الواقع فبلغ فى ديسمبر سنة ١٩٤٩ ، رقماً قياسياً هو مائتان وسبعة وخمسون بليوناً من الدولارات . وأوشك العجز فى الميزانيات أن يكون قاعدة . وقد أعلن ترومان ، فى أواخر سنة ١٩٤٩ ، أنه لابد من الكف عن الاقتراض . بيد أن الموقف الدولى لم يدع مفرأ من الإنفاق على مستوى مرتفع ، فلم يلبث اقتصاد الدولة أن أصبح على مرور الزمن معتمداً على الإنفاق الحكومى .

ترومان والولاء

أعقب الحرب العالمية الأولى حملة كبيرة تدعو للولاء ، والالتزام ، والتنشيع الكامل لأمريكا . وهى حملة عانى منها كثير من الوطنيين والليبراليين . وقد عادت هذه الظاهرة بشكل أشد وطأة فى هذه الفترة . ومع أن عدد أعضاء الحزب الشيوعى فى الولايات المتحدة لم يكن يتجاوز خمسة وسبعين ألفاً ، وهو عدد كان يتناقص بسرعة ، فقد ثارت ضجة بصدد إلغاء شرعية وجوده ، والمطالبة بتحقيق غير قائم على أساس مشروع حول مزاعم عدم الولاء ، لاسيما فى الحكومة والصحافة والتعليم وصناعة الملاهى . وكانت هذه الحركة تهدد الحقوق المدنية الأساسية ، فحاول الحكماء من قادة الأمة مكافحتها .

ولقد اتخذت « لجنة مجلس النواب للأنشطة غير الأمريكية » فى الكونجرس الثانى ، مواقف متطرفة برئاسة وكيل المجلس جيه . بارنيل توماس نائب نيو جيرسى . وكذلك فعلت لجنة الحقوق المدنية الخاصة التى كونها الرئيس ترومان . وقد رفعت كل منهما تقريراً فى سنة ١٩٤٧ . فأكدت لجنة توماس أنها كشفت عدداً من الجهات الشيوعية ، مثل جبهة الشباب الأمريكى للدفاع عن الديمقراطية ، ودفعت إلى المحاكمة العلنية عشرة من كتاب السيناريو والمخرجين فى هوليوود ، أدانتهم باحتقار

مشكلات ما بعد الحرب ٥٧٣

الكونجرس ، وعملت على إدانة يوجين دنيس سكرتير الحزب الشيوعي ، والحكم عليه بالسجن . كما أنها فضحت عملاء شيوعيين مشبوهي السيرة مثل جيرهارت وهانس أيسلر . ولقد تعرضت أساليب هذه اللجنة لأقذع النقد . أما لجنة الرئيس ، التي كان يرأسها تشارلس إى . ويلسون رئيس جنرال إليكتريك ، فقد أكدت وثيقة كتبت بأسلوب رائع ، أن الحقوق المدنية الأساسية انتهكت واحدة إثر واحد باسم الأمن وقالت أن هذا قد جرى في أرجاء البلاد كافة . . « ففى أوقات متباعدة ، نالت كل منطقة في الواقع . . . نصيباً من الاعتراض المشين لحقوق بعض الأشخاص » . وفصلت اللجنة أقذع الإساءات ، وأوصت بإجراءات تصحيحية .

وفي خريف عام ١٩٤٦ ، أصدر ترومان أمراً إدارياً بإنشاء « لجنة الرئيس المؤقتة لتحرى ولاء المستخدمين الحكوميين ، وطلب إليها إعداد مشروع برنامج لمهمتها . وفي العام التالى أنشئ جهاز كبير يحكم التنظيم . وأقامت لجنة الخدمة المدنية مجالس إقليمية لتحرى الولاء في طول البلاد وعرضها ، وعقدت جلسات استجواب أمام مجلس للولاء لمن أتهموا بعدم الولاء أو بالأنشطة الهدامة ، مع إتاحة المشورة القانونية لهم ، فإذا لم يقتنعوا بحكم المجلس كان لهم أن يستأنفوه أمام مجلس لإعادة النظر في الولاء ، مؤلف من ثلاثة وعشرين عضواً معينين من قبل ترومان ، وعلى رأسهم سيث ريتشاردسن ، وهو من الجمهوريين المحافظين .

وكان لهذا البرنامج لحماية الوكالات الحكومية ميزات تسد الثغرات التي كانت موجودة ، بيد أنه أوتى عيوباً خطيرة كذلك . فهو قد قام على افتراض التسليم بأن شغل أى منصب حكومى ليس حقاً وإنما هو امتياز تكريمى . وقد قبل مبدأ أن من الممكن رفض استخدام أى شخص أو عزله من الخدمة إذا « كانت توجد أسباب منطقية معقولة للاعتقاد بأن الشخص المقصود عديم الولاء » . وأسرع نفر من كانت الشبهات تحوم حولهم إلى الاستقالة من الحكومة ، بينما انتزع آخرون من مناصبهم . على أن كافة البيانات عن أى شخص كانت ساحته تُبرأ ، ظلت باقية في الأضابير ، كما كتب ترومان فيها بعد ، فكان النظر يعاد في ملفه كلما انتقل من منصب إلى آخر ، وكان عليه أن يبرئ سيرته مرة أخرى . وفى هذا كتب ترومان : « ليس هذا من تقاليد الإنصاف والعدالة في أمريكا » . وكان مقدراً للموقف أن يزداد سوءاً .

إعادة انتخاب ترومان

أثارت معركة الرئيس مع الكونجرس الثمانين عطفاً عليه في الدوائر التقدمية ومعسكر العمال . فلما قام بجولة في ربيع عام ١٩٤٨ ، مستهجنًا كونجرس « لا يعمل شيئاً » ، قوبل باستجابة شعبية ليست بالقليلة . ومع ذلك ، فإن فرص الديمقراطيين في انتخابات الرئاسة كانت تعتبر ضعيفة بوجه عام . . وكان من أسباب ذلك أن هنري إيه . والاس أعلن ترشيحه على بطاقة حزب ثالث ، ومع أنه هاجم الجمهوريين والديمقراطيين على السواء ، فقد كان المرتقب أن يكون المصدر الرئيسي للأصوات له هم الآخرين . ومن الأسباب كذلك أن الديمقراطيين الجنوبيين كانوا في ثورة علنية على برنامج ترومان الذي كفل الحقوق المدنية للزواج . فتولدت حركة قوية تدعو إلى إيكال الترشيح باسم الحزب إلى دوايت أيزنهاور ، وعلى ترومان أن يتنحى له . وما كان أحد يعلم أى جانب يتخذه أيزنهاور . على أن الديمقراطيين لم يجدوا حيلة سوى العودة إلى ترومان ، عندما كشف أيزنهاور عن إصرار عنيد على عدم خوض الانتخابات مرشحاً عن أى الحزبين .

وفي شهر يوليو ، رشح مؤتمر الحزب الديمقراطي في فيلادلفيا ترومان دون معارضة تذكر ، ودون أدنى تحمس . وأبدى ترومان روح كفاح لا تهن ، فأصر على برنامج انتخابي تبنى الحزب فيه « النظام العادل » . ولم يدع الخطاب الذي أعلن فيه قبوله الترشيح أى مجال لأعدائه . ولقد أثار جزع الجمهوريين إذ أعلن أنه سيدعو الكونجرس الثمانين إلى دورة خاصة ، ليتيح له فرصة التحلل من العهود التي كان الجمهوريون يبذلونها في تلك الأونة . ولو دعت الضرورة فقد كان ترومان على استعداد لخوض المعركة وحده .

ولقد بدا وحيداً إلى درجة كبيرة لفترة من الوقت . كان الجمهوريون ، الذين عقدوا مؤتمرهم هم الآخرون في فيلادلفيا ، قد أعادوا ترشيح توماس إى . ديوى ، وحشدوا كل عناصر الحزب لمساندته . وكان قد لاح لفترة أن السيناتور روبرت إيه . تافت كفيل بهزيمة النيويوركي ، فهو ابن لرئيس سابق ، ورجل قيل عنه أنه « أحسن ذهن في واشنطن ، إلى أن يعقد عزمه على العمل » . بيد أن الطابع الرئيسى لعقلية تافت وشخصيته كان يتسم بالتعنت المحافظ بدرجة أكبر مما يناسب العصر ، بالرغم من أنه

مشكلات ما بعد الحرب ٥٧٥

أوتى لمحات من الليبرالية . ولقد ظلت عالقَة بالأذهان مناداته بالعزلة فيما قبل الحرب ، وفتوره نحو الأمم المتحدة فيما بعد الحرب . كما أن تذبذباته وتحاملاته جعلته يبدو متقلباً مع الأهواء وغير مستقر ، بالرغم من كل ما عرف عنه من أمانة صادقة وطيدة . ولقد كان ديوى أصغر منه سناً ، وأكثر جاذبية ، وأكثر ليبرالية . . وكان محوطاً بأحسن جهاز دعائى . وفاز بالترشيح فى الاقتراع الثالث ، وكان زميله فى البطاقة إيرل وارين ، حاكم كاليفورنيا القدير الواسع الشعبية ، والذي كان مرتقباً أن يحمل معه أصوات ولايته . أما برنامج الجمهوريين الانتخابى فكان ينادى بالدولية فى السياسة الخارجية ، بيد أنه كان غير حاسم إزاء المسائل الداخلية الهامة .

ولكى تزاد فرص ترومان عتمة وقتامة ، عقد غلاة المعتنئين من ديمقراطى الجنوب مؤتمراً إضافياً ورشحوا جيه . ستروم ثيرموند حاكم كارولينا الجنوبية وفيلدينج إل . رايت حاكم المسيسيبي . وكان أصحاب المصالح البترولية فى خليج كاليفورنيا تواقين مثل الولاية ذاتها فى جعل الأراضي التى تغمرها مياه المد أوتنحسر عنها مياه الجزر تحت سيطرة الولاية . وحنقاً منهم على ترومان لنقضه مشروع قانون لهذه الغاية ، فقد ساهموا بأموال للحملة الانتخابية للحزب الديمقراطى الجنوبى . ولقد تشبث معظم المحافظين الجنوبيين بولائهم الحزبى القديم ، غير أنه كان من الممكن أن تصل الانتخابات بثيرموند إلى المنصب لو أنه فاز بأصوات بضع ولايات . وكان والاس فى تلك الأثناء قد رشح من لدن « حزب تقدمى » أنشئ على عجل ، وبدأ جولة خطابية هاجم فيها ترومان متهماً إياه بأنه موشك على الزج بالبلاد فى حرب مع روسيا . وتحول عنه الليبراليون الحقيقيون بالسرعة التى اندفع بها الشيوعيون إلى صفه . وكانت معظم الاستفتاءات التقديرية تشير إلى فوز ساحق للجمهوريين . وكان معظم الناحيين يبدون غير مكترئين ولا مباليين .

ومع ذلك فلم تن عزيمة الرئيس قط . واستعمل فى مجموعة كثيفة من الرحلات الخطابية لغة الجماهير العامة فى استهجان الكونجرس الثمانين ، والحملة على ديوى ، والدفاع عن سجل أعماله . وأثارت حملته الفردية الإعجاب . وكان ديوى فى تلك الأثناء بالغ الثقة من انتصاره حتى إنه كان يتفادى المشكلات الحقيقية ، ولا يكاد يتحدث إلا عن الوحدة القومية . فلم تلهم أساليبه المائعة أحداً بتأييده ، بل نفرت منه كثيرين .

واستيقظت الأمة في اليوم التالي للانتخابات على أكثر المفاجآت إذْهالاً في التاريخ . فقد فاز ترومان بأكثر من ٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠ صوت شعبي ، وبثلاثمائة وثلاثة من أصوات المجمع الانتخابي . أما ديوى فلم يصل إلى ٢٢ ٠٠٠ ٠٠٠ صوت شعبي ، و ١٨٩ من أصوات المجمع . ولقد ظفر ثيرموند بأغلبية أصوات لويزيانا والميسيسيبي وآلاباما وكارولينا الجنوبية ، ولم يحظ ولاس بأغلبية في ولاية واحدة . ولقد عزا البعض النتيجة إلى أنه لم يذهب إلى اللجان الانتخابية سوى ثلاثة أخماس الناصحين ، وأن كثيرين جداً من الجمهوريين آثروا لعب الجولف . وعزاها بعض آخر إلى ضعف حملة ديوى الذي انتزع الهزيمة من بين أنياب النصر ! ولعل هناك سبباً أكبر ، هو أن الأمريكيين يعجبون بالمحارب الذي لا يلين . ووجدت النظرية القائلة بأن البلاد أصبحت تميل أساساً إلى ذلك الجانب من الحزب الديمقراطي الذي دعمته نتائج انتخابات الكونجرس . فكان مجلس الشيوخ الجديد ديمقراطياً بنسبة ٥٤ إلى ٤٢ ، وكان للديمقراطيين في مجلس النواب الجديد أغلبية ٢٦٣ إلى ١٦١ . ولم يكن لهذا شأن كبير لدى ترومان . فقد كانت الفرص تسمح بالحد من نتائج أى ائتلاف بين الديمقراطيين الجنوبيين والجمهوريين .

النظام العادل يفقد بريقه

كان بوسع أى رئيس أكثر لباقة وسعة أفق من ترومان ، أن يحظى من الكونجرس الواحد والثمانين ، الذى اجتمع عقب انتخابه مباشرة ، بأكثر مما حظى ترومان . فمع أنه عاد فطرح على الكونجرس برنامجه المسمى النظام العادل ، لمواصله النظام الجديد وتوسيع نطاقه ، فإنه لم يحرز تقدماً يذكر . إذ أن معظم رؤساء الجمهورية يصادفون في فترة الحكم الثانية مصاعب تفوق ما صادفوا في الأولى . ولقد هبط نفوذ ترومان في الكونجرس في ١٩٤٩ - ١٩٥٢ إلى أدنى مما هبط إليه نفوذ تافت في ١٩١١ - ١٩١٢ ، وإن لم ينحدر إلى ما انحدر إليه نفوذ كليفلاند في ١٨٩٥ - ١٨٩٦ أو هوفر في ١٩٣١ - ١٩٣٢ .

ولقد ظل الأعضاء الجنوبيون صامدين ضد مشروعاته في مجال العلاقات

مشكلات ما بعد الحرب ٥٧٧

العنصرية . فأجاز مجلس النواب مشروع قانون ضعيفاً بلوائح عادلة (سوية) للعمالة ، ومشروع قانون بإبطال ضريبة الرؤوس ، بيد أنها أخذت في مجلس الشيوخ . وظلت العقبة التي جمدت المعونة الاتحادية للمدارس قائمة . وعجز ترومان عن أن يعدل قانون تافت - هارتلى ، بله أن يلغيه . ولقد أجاز الكونجرس قانوناً للإسكان (أبريل سنة ١٩٥٠) ، مخولاً الحكومة استخدام مبلغ لا يتجاوز بليون دولار ونصف البليون لإزالة الأحياء الفقيرة وإقامة مساكن زهيدة التكاليف . ولقد أقدم الكونجرس على خطوة مهمة في إنشاء « مؤسسة قومية للعلوم » لوضع برنامج قومي للبحوث الأساسية في الهندسة والعلوم التطبيقية جميعاً . كما رفع الحد الأدنى للأجور من المستوى القديم (٤٠ سنتاً) إلى خمسة وسبعين سنتاً في الساعة (١٩٤٩) . وأهم من هذا كله أنه وسع نطاق قانون الضمان الاجتماعي لينطبق على حوالى خمسة وأربعين مليوناً من النساء ، بعد أن كان يشمل خمسة وثلاثين مليوناً (سنة ١٩٥٠) . غير أن الكونجرس رفض أن يتناول مسائل من قبيل طلب ترومان إنشاء مشروعات على غرار هيئة وادى تينيسى في الوديان الكبيرة الأخرى .

وفي هذه الأثناء قطع التضخم شوطاً طويلاً دون إجراءات تذكر لكبح جماحه . ولقد أنشئت بمقتضى قانون الإنتاج الدفاعى لسنة ١٩٥٠ وكالة لتحقيق الاستقرار الاقتصادى ، رأسها فى أول الأمر الدكتور آلان فالنتين ، ثم مايكل ديسال . ولقد حاول فالنتين إقامة ضوابط انتقائية ، لحمل الصناع والتجار على الإبقاء على أسعار سلع معينة عند مستويات محددة . أما ديسال فحاول محو قيود تحديد الأسعار . ولم يحرز أى منها نجاحاً كبيراً . وعاد السباق المألوف - حيث تلاحق الأجور الأسعار ، فتلاحق الأسعار الأجور - إلى الظهور بعد بدء الحرب الكورية ، فعانى أقصى الشظف أصحاب الرواتب ، والعمال الذين لا تحميهم نقابات قوية ، والمزارعون وغيرهم من العاجزين عن رفع دخولهم .

وكانت مشكلة التضخم ، بوجه عام ، معقدة أقصى التعقد ، ومع ذلك فلم يكن ثمة بد من بذل مجهود لعلاجها . وفى هذا قال تشارلس إى . ويلسون ، رئيس دائرة التعبئة الدفاعية : « إذا قُدر للتضخم الجامح الانطلاق أن يستبد بأمريكا ، فإن الأمة ستفلس ، وسيحقق ستالين أحلامه بالفتح دون طلقة واحدة » . وفى يناير سنة ١٩٥١ ، أصدرت الحكومة أوامر لكبح الأجور والأسعار عند مستويات محددة ، غير أن

الأوامر تضمنت استثناءات كثيرة ، وقد ثبت أنها كانت مؤقتة . كان خير دفاع ضد التضخم هو رفع الضرائب ، على الشركات والأفراد على السواء ، وهو ما بدا في ذلك العام .

عودة إلى الشيوعية والأمن

وقعت بعد انتخاب ترومان مباشرة سلسلة من الأحداث الضخمة ، التي ردت الاهتمام العام إلى الأنشطة الشيوعية في الداخل ، وساعدت على شعور عام محموم ، خشى البعض أن يؤدي إلى تهور معاد للشيوعية .

ففي سنة ١٩٤٩ ، قدم أحد عشر زعيماً شيوعياً ، كانوا يؤلفون المكتب السياسي للحزب ، إلى المحاكمة ، بتهمة انتهاك قانون سميث لسنة ١٩٤٠ ، الذي جعل التآمر - للدعوة إلى - ولتلقين - قلب الحكومة بالعنف جريمة . ولقد أثارت المحاكمة عدداً من الأسئلة : هل كان الحزب الشيوعي تآمراً ؟ هل كان يتلقى أوامره من موسكو ؟ هل كان يدعو إلى الإطاحة بالحكومة بالقوة ؟ ولقد أجمل القاضي هارولد مدينا - الذي رأس المحاكمة بحياد وكفاءة - القضية في اتهام بارع مؤلف من ستة عشر ألف كلمة ، ودعا المحلفين إلى التسليم بدستورية قانون سميث ، الذي تعرض للمساءلة ولكنه لم يلبث أن ترك قائماً . ووجد المحلفون أن المتهمين الأحد عشر مذنبون جميعاً ، وانتهى أمرهم إلى السجن .

وفي الوقت ذاته تقريباً ، قدم للمحاكمة ألجر هيس ، وهو رجل كان له بعض الشأن في وزارة الداخلية من قبل ، ثم ترأس بعد ذلك منحة كارنيجي للسلام الدولي . وقد اتهم بالحنث باليمين إذ أنكر أمام هيئة عليا للمحلفين أنه أعطى يوماً أوراقاً سرية من وثائق وزارة الداخلية إلى هويتيكير تشامبرز ، وكان شيوعياً سابقاً . واتسمت المحاكمة بعناصر غامضة مثيرة . وبعد أن اختلف الرأي في هيئة للمحلفين ، وجدت هيئة أخرى أن هيس كان مذنباً ، وقضى عليه بالسجن خمس سنوات . وفي العام التالي (١٩٥١) ، قضى بالإعدام على اثنين من أهل نيويورك هما جوليوس وإثيل روزنبرج بوصفهما خائنين ، إذ قدما لعملاء من الروس بيانات هامة عن القنبلة الذرية في ستي

مشكلات ما بعد الحرب ٥٧٩

١٩٤٤ - ١٩٤٥ ، اللتين كانتا تتسلمان بظروف حرجة . وكانت القرائن الكاملة لإدانتها قد قدمت بوساطة شقيق مسز روزنبرج ، الذى قضى عليه بالسجن خمس عشرة سنة . وقد أعدم الزوجان روزنبرج على المقعد الكهربائى فى سنة ١٩٥٣ . وفى الوقت ذاته أبعدت الحكومة عن البلاد عدداً من الأجانب الذين اتهموا بالأنشطة الشيوعية . وأقبلت ولايات عديدة على دراسة — وأجاز بعضها — مشروعات بقوانين تقتضى أن يؤدى المستخدمين الحكوميين ، ومنهم مدرسو المدارس العامة والجامعات ، يمين الولاء . وفى نيويورك ، أباح قانون فاينبيرج الجارف فصل المدرسين الذين ينتمون إلى منظمات يدمغها مجلس الولاية للأوصياء بأنها هدامة ، بيد أنه أثار عاصفة من الاحتجاج فألغى .

ولقد خشى كثير من الأمريكيين أن يفلت زمام حركة التيقظ للأخطار الداخلية ، تحت وطأة المشاعر المشبوبة التى أذكتها الحرب الكورية ، فيسبب هذا من الضرر أكثر مما يستطيع الجواسيس والمتآمرون الشيوعيون أن يوقعوا بالبلاد . كانوا يعتقدون أن ثمة جواً من الفزع والشك والقمع يلف البلاد ، وأن حرياتنا للقول والنشر والاجتماعات العامة والاختلاف فى رأى ، كانت تتعرض لانتقاص خطير باسم الأمن . وقد أوضح قادة الرأى العام المنطقيون أن « الإدانة بالمشاركة » أمر غير عادل ولا سبيل للدفاع عنه ، وأنه ما من أحد يملك إعداد قائمة عادلة تشمل « المنظمات الهدامة » ، وأن أى مجهود لطرد الناس المتهمين بعدم الولاء بالجملة من مناصبهم فى المدارس والجامعات ووسائل الإعلام والحكومة كفيل بأن يقضى على كثيرين من الأبرياء ، وأن يوقع بالنظم التى تتعرض لذلك أضراراً لا سبيل لإصلاحها . ولقد بذلت حكومة ترومان قصارى جهدها بوجه عام لمقاومة التهوس الشعبى ، بيد أن الكونجرس كان أقل منها حرصاً وعناية . فأبدت اللجنة الفرعية للأمن الداخلى برئاسة السيناتور بات مأكاران تحمساً يفوق ما أبدت من روية وتعقل ، فى حين أن لجنة الأنشطة غير الأمريكية بمجلس النواب استمرت فى نهجها المتهور .

كان ثمة فراغ قد فُتح لزعيم مهيّج دهمائى ، فتقدم السيناتور جوزيف آر . مكارثى من ويسكونسين ليملاؤه . كان جعجاعاً ، غير متمسك بالمبادئ الخلقية ، داهية فى مكروه . وقد رأى أن من الممكن أن يحرز شهرة ، وربما سلطاناً قومياً بالاتهامات المتهورة ، والأدلة الزائفة ، والحمولات الوقحة ، والطعنات غير القانونية ، واستثارة التحامل والأهواء . وسرعان ما ألف جمهور التليفزيون ملاعقه الشرسة ، وصوته المزعج المنفّر ،

واستعماله أسلوب الكذب الجريء . وكان موهوباً في الوصول إلى العناوين الرئيسية للصحف . وقد فجر أولى فضائحه المدوية باتهام وزارة الخارجية بأنها كانت تأوى ، في عهد أتشيسون ، أكثر من مائتي شيوعي معروف ، وباتهام أوين لايمور – الأستاذ بجامعة جونز هوبكنز والمدير السابق لعمليات المحيط الهادى في دائرة الاستعلامات الحربية – بأنه كان عميل روسيا الأكبر في الولايات المتحدة . ولم يتسن العثور على شيوعي واحد في وزارة الخارجية . وما لبثت إحدى لجان مجلس الشيوخ الفرعية أن برأت ساحة لايمور بعد تحقيق طويل . وما لبثت المحاكم أن شجبت جميع الاتهامات التي كانت قد ألصقتها به حكومة أيزنهاور نقمة وانتقاماً . ولكن الفضائح التي فجرها مكارتى في مجلس الشيوخ ، في أعقاب إدانة هيس وإماطة اللثام عن عالم بريطاني ، يدعى كلاوس فوكس ، كان قد أعطى روسيا أسراراً ذرية . . هذه الفضائح خدعت الكثيرين . وكان على استعداد لأن يقوم بدور أكبر لو أن الجمهوريين ظفروا بأغلبية في الكونجرس .

ولقد كان مكارتى في مناعة من مقاضاته للتشهير طالما كان يستخدم لإجراءات النيل من الناس في داخل مجلس الشيوخ . وكانت بعض تصريحاته من القسوة والبشاعة بحيث إنها انقلبت عليه . ففي عام ١٩٥١ مثلاً ، هاجم جورج مارشال وزير الدفاع متهماً إياه بالتسامح إزاء مؤامرة شيوعية واسعة النطاق في الولايات المتحدة . ولقد هاجم سفراء ورؤساء تحرير ، بل وزملاء له في مجلس الشيوخ ذوى نزاهة رفيعة . وكان كلما تكشفت افتراءاته أكد أن خصومه يبرئون الشيوعية ببيانات محرفة ، كما حدث في سنة ١٩٥٠ عندما أعلنت لجنة فرعية لمجلس الشيوخ أن اتهاماته الرئيسية افتراء وخداع . ولقد أدت حملاته الساخرة على الحكومة إلى إضعاف مهابة وأثر جهاز الحكم بوجه عام . والأنكى من هذا ، أن الضجيج الذى أثاره أضر بالولايات المتحدة ضرراً يجل عن التقدير في بقية أرجاء العالم التي اعتقدت أن ثمة حركة فاشية مقبلة .

ومن الشعور بالذعر في دوائر واسعة ، انبثق مشروع قانون ماكاران – نيكسون ، الذى تم إقراره برغم اعتراض الرئيس في سنة ١٩٥٠ . وقد استلزم القانون تسجيل أسماء جميع أعضاء منظمات الجبهة الشيوعية ، واستبعد استخدام الشيوعيين في مؤسسات صناعية ترتبط بالدفاع القومى ، ونص على القبض على الشيوعيين وغيرهم من « العناصر الهدامة » في زمن الحرب . كما أنه حرم أى شخص اشترك يوماً في منظمة استبدادية من دخول الولايات المتحدة . وقد أدى هذا إلى إبعاد الشاعر البريطاني ستيفن سبندر الذى

مشكلات ما بعد الحرب ٥٨١

اعتنق الشيوعية يوماً واحداً ، بنزوة من نزوات الشباب – ثم تاب على الفور . كما أدى إلى إبعاد أعداد كبيرة من الألمان والمجريين والإيطاليين ذوى السمعة الطيبة ، وغيرهم ممن كانوا على علاقة بالجماعات الفاشية ، وإبعاد أعداد ممن قاتلوا في حركات المقاومة ضد الاحتلال النازي . وفي سنة ١٩٥٢ أُرْدِف هذا القانون بقانون ماكاران ، الذى أجاز هو الآخر بالرغم من اعتراض ترومان ، وتضمن تنقيح تشريعات الهجرة . ومع أن هذه القوانين تضمنت معالم سليمة ، فإن هذه المعالم كانت محوطة بكتلة من التشريعات كفيفة بأن تطيل بقاء مظالم قديمة وتعرقل الجهود الأمريكية لحشد العالم من أجل قضية الحرية . ولقد اتخذ أيزنهاور هذا رأى بالذات ، فقال إن أمريكا اعتادت أن تكون دوماً أملاً للأجانب المضطهدين ، « ومع ذلك ، فبالنسبة للتشيكى أو البولندى أو المجرى الذى يحمل حياته على راحته ويعبر الحدود الليلة . . من الممكن أن يكون المثل الأعلى الذى هداه سراً بسبب قانون ماكاران » .

وقصارى القول ، أنه مع اقتراب حكم ترومان من نهايته ، كان ثمة خطر قائماً من أن توترات وقت الحرب بجانب رد فعل من أيام « النظام الجديد » ، قد تمهد الطريق لفترة من الإسراف فى سياسة المحافظة والرجعية . وكانت الضغوط مما لا يكاد يوجد سبيل إلى مقاومتها : الضيق بأعباء مركز الدولة العالمية الكبرى ، والخوف من الأنشطة الهدامة يكاد يبلغ درجة المرض العقلى ، والاستياء من المطالب المتزايدة من جماعات الأقليات ، ورغبة « فى عودة الأعمال للأوضاع العادية » مع ضرائب أقل وأرباح أكثر . فلو أمكن حماية القيم الليبرالية على النحو الصحيح ، فيما سماه أيزنهاور « عصر الخطر » ، فإن كل الأمور تسير على مايرام . بيد أن احتمالات هذا كانت تتضاءل باطراد .

ولابد لنا من أن نتنقل من الشؤون الداخلية ، عائدين إلى أسود صفحات الشؤون الخارجية .



الفصل ٢٧

الحرب الكورية : القنبلة الهيدروجينية

ترومان يجمع صفوف العالم الحر

لاريب في أن الشيوعيين — عندما غزوا كوريا الجنوبية في ٢٦ يونيو سنة ١٩٥٠ ، كانوا يعتقدون أن الوقت قد حان ليعينوا أن بوسعهم التسلط على آسيا . إذ كان ماو في حكم الصين ، وكان الفيت — منه يرجون أن يستولوا بمساعدته على الهند الصينية الفرنسية ، وكان التأمرون الشيوعيون يوجهون حرب عصابات مريعة في ماليزيا البريطانية ، وكان الهكس Huks ، الذين يعملون بإيحاء الشيوعيين ، لايزالون عزيزي الجانب في الفلبين . وكانت حكومة بكين قد قضت الصيف كله في حشد السفن القديمة وغيرها من المراكب في فوشو وغيرها من الموانئ لمهاجمة فورموزا . فقد كان بوسع الشيوعيين أن يملأوا قلوب جميع الشعوب الآسيوية برهبتهم إذ هم فتحوا كوريا ، وطهروا جنوب شرق آسيا من النفوذ الغربي ، وقضوا على شيانج كاي — شيك . ومن المحتمل أن ستالين كان يعتقد أن الولايات المتحدة لن تحاول التدخل . فإن

أرض الوطن الأمريكي كانت على مسافة سبعة آلاف من الأميال ، ولم تكن هناك سوى بضع فرق في حالة استعداد ولياقة للقتال ، وكان إرسال جنود إلى آسيا كفيلاً بأن يضعف أوروبا الغربية . كما أن الوزير أتشيسون كان قد حذف كوريا من تحديده للمجال الدفاعي لأمريكا ، وكان ماك آرثر قد قال إن أى امرئ يود توريط قواتنا في آسيا جدير بأن يعرض لفحص عقله .

ومن حسن الحظ أن ترومان وأتشيسون ومستشاريهما كانوا يدركون القيمة المعنوية للتصرف الفوري . فلو أنهم تأخروا لكان من المحتمل أن يستشرى الفرع في أوروبا . ففى خلال ٢٤ ساعة ، أذاع الرئيس أنه شرع في إرسال قوات جوية وبحرية أمريكية لمساعدة الكوريين الجنوبيين ، وأصدر أوامره إلى الأسطول السابع بحماية فورموزا . وفى وقت لاحق من اليوم ذاته ، أهاب مجلس الأمن بالأمم المتحدة بالدول الأعضاء أن تردع العدوان الشيوعى . وبناء على هذا ، أمر ترومان بإرسال جنود أمريكيين إلى جبهة القتال . ولم يكن الوقت ليتسع كى يطرح الأمر على الكونجرس ، ولا كان هذا ضرورياً . فلقد رأى الشعب الأمريكى أنه لا بد من مقاومة الاعتداء على العالم الحر ، وقد أيدت الأمم المتحدة ذلك .

وأقدمت دول ديمقراطية أخرى على التصرف السريع . فبدأت بريطانيا وأستراليا ونيوزيلندا وهولندا بإرسال قوات ، فى أوائل شهر يوليو . وسرعان ما تبعها كندا ، وقبل أن ينقضى وقت طويل ، لحقت بها فرنسا وتركيا وتاييلاند والفلبين والبرازيل . وعندما طلب مجلس الأمن ، فى ٧ يوليو ، إلى الولايات المتحدة إنشاء قيادة موحدة ، بادرت واشنطن بتعيين الجنرال ماك آرثر . وأعلنت التعبئة لملء الصفوف الأمريكية . وقبل مضى وقت طويل كان علم الأمم المتحدة يرفرف على جيش عالمى متعدد العناصر ، هو الأول من نوعه ، وقد شرع يقاوم المعتدين . وكان الكوريون الجنوبيون يؤلفون ، فى بداية الأمر ، أكبر كتلة من المحاربين فيه ، يليهم عدد من الأمريكيين ، وقد كانوا الأفضل تسليحاً والأقوى أثراً ، ولم يلبث أن ألف البريطانيون والكنديون والأستراليون وغيرهم فرقة من قوات الكومونولث ، كما قدمت الدول الباقية خدمات مناسبة ، حتى إن الهند أسهمت بوحدة مستشفى . وساعد غياب روسيا عن مجلس الأمن على هذا الحشد الفوري بدون خوف من حق النقض (الفيتو) . واكتسبت الأمم المتحدة على الفور مكانة لم تصل إليها عصبة الأمم يوماً .

تقهقر وتقدم

ظلت الوحدات الكورية الجنوبية والأمريكية وغيرها زهاء ستة أسابيع في تقهقر مطرد في شبه الجزيرة ، حتى خشى المراقبون أن يُلقى بهم إلى البحر قبل أن تصمد خطوطهم . وقد أبدى الغزاة شجاعة بالغة . إذ كان كثير منهم قد قاتلوا في صفوف الصينيين أو اليابانيين أو الروس في الحرب العالمية الثانية ، فحذقوا استخدام العتاد السوفييتي ، لاسيما الدبابات ، وتعلموا من اليابانيين فن الهجوم الليلي والتسلل ، مما كانت مقاومته عسيرة . وكانوا فوق ذلك متفوقين في العدد . وكثيراً ما كان الالتحام المباشر يشيع الارتباك بدرجة كبيرة ، حتى لقد قال أحد الضباط الأمريكيين : « لعمري أنني لا أملك أن أعرف من الذي حاصر الآخر ! » ولقد ساعد وجود أمريكيين ممن حاربوا في اليابان ، وقطاعات كبيرة من الأسطول حاربت في مياه الشرق الأقصى ، على سرعة إنزال التعزيزات ، بيد أنهم كانوا أقل مما ينبغي . وأخذ المدافعون يتراجعون إلى أقرب أطراف كوريا إلى اليابان ، فوق جبال وعرة يتراوح ارتفاعها بين ثلاثة آلاف وخمسة آلاف قدم ، وعبر مستنقعات الأرض ذات الروائح الكريهة ، وعبر وهاد متشابكة .

ولكن إرجاء الجنرال والتون ووكر للمعركة حقق غايته . فقد أقبلت أوائل سبتمبر وهو محصور في مستطيل غير منتظم ، طوله وعرضه ستون في مائة من الأميال ، والإمدادات تأتيه عن طريق ميناء بوسان . وهنا صمد مقاتلو الجيش الثامن بقيادته ، بينما كان يجري إنزال مزيد من الجنود ، وبينما أقبلت وحدات جديدة من الأسطول . وقد بلغ إحصاء غير مكتمل لخسائر الأمريكيين في الأرواح ما يقرب من ٧٠٠٠ ، في حين كان الكوريون الشماليون قد خسروا عدداً أكبر بكثير . وفي ١٥ سبتمبر ، وقد وصلت أسلحة وقوات كافية ، تحولت قوات الأمم المتحدة فجأة من الدفاع إلى الهجوم . وكان الرئيس سينجمان رى قد أذاع : « أننا على وشك الانطلاق » . وقد انطلقوا بطريقة أذهلت العالم .

كان ماك آرثر قد حدد في خطته أن تكون ضربته على مسافة بعيدة شمالاً ، عند ميناء إينشون على الساحل الغربي ، بالقرب من سول . ولقد تجمع في موانئ اليابان أسطول مؤلف من أكثر من ٢٦٠ سفينة . وبدأت الطائرات الأمريكية والبريطانية والأسترالية في

قصف العدو بالقنابل الشديدة الانفجار والحارقة ، وبصواريخ مليئة ببتترول محوّل إلى شكل هلامي (نابالم) . وصبت البوارج الأمريكية والبريطانية القذائف على المناطق الساحلية المكشوفة . واستولت الفرقة الأولى من مشاة الأسطول على جزيرة وولى فى الفجر ، واندفعت إلى إينشون المخربة ، وانضمت إلى الفرقة السابعة من المشاة فى زحف سريع على سول . وفى الوقت ذاته ، تحرك جنود الجنرال ووكر فى مستطيل بوسان مهاجمة الكوريين الشماليين ، بينما هبطت قوات كوريا الجنوبية على الساحل الشرقى لتزحف إلى العمق . وسلطت البارجة ميسورى ، التى كانت قد قطعت أحد عشر ألف ميل من نورفولك ، مدافعها الثقيلة . وبات العدو فى خطر داهم من قطع خطوط مواصلاته . فلا عجب فى أن جميع جبهات كوريا الشمالية انهارت ، وأن جيوشها لاذت بالفرار .

ولم يحن بعد ظهر ٢٦ سبتمبر حتى كانت سول فى يد الأمم المتحدة ، وتمكن الرئيس رى من إعادة إقامة حكومته فى عاصمته القديمة ، بينما كانت قوات كوريا الجنوبية والأمم المتحدة تطارد الغزاة إلى ما وراء الحدود . وأذاع ماك آرثر إنذاراً للعدو باللقاء السلاح « تحت أى إشراف عسكري أُمليه » . ولقد تجاهله العدو ، بيد أنه بات من الجلى للعالم أن العدوان الشيوعى قد أحبط .

وأصبح هناك سؤال حاسم لا بد له من جواب : هل تتوقف قوات الأمم المتحدة عند خط العرض الثامن والثلاثين ، أو تواصل تقدمها حتى تخضع كوريا الشمالية بأسرها وتوحد البلاد ؟ انقسم الرأى فى الدول الغربية . كان ماك آرثر موقناً من أنه ما لم يطارد الأعداء حتى نهر يالو ، المؤلف لحدود البلاد مع منشوريا وسيبيريا ، فإنهم لن يلشوا أن يعودوا للتجمع فى الجبال ، وأن يضموا مجندين جدداً ، وأن يحصلوا على تجاوز خط العرض . فتحرّكت قوات الأمم المتحدة فى زحف سريع ، واستولت على بيونجيانج عاصمة كوريا الشمالية ، فلم تأت أواخر أكتوبر حتى كانت موعلة فى حزام الحدود الشمالية ، وقد بات خطها يمس نهر يالو فى إحدى النقاط فعلاً . وبعد أن كانت الوحدات الأمريكية قد تحرّكت ، أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قراراً يهبط هذه الخطوة ، وطالب إرنست بيفن ، وزير الخارجية البريطانية ، بوجود إتاحة حكومة حرة لكوريا بأكملها .

على أنه يبدو من الواضح أن ماك آرثر ذهب فى تقدمه السريع إلى أبعد مما كانت حكومة ترومان أو أية دولة أخرى من الأمم المتحدة تتوقع . وكان من العوامل المحيرة أن

الحرب الكورية : القنبلة الهيدروجينية ٥٨٧

شيانج كاي - شيك اقتنص أملاً في أن الولايات المتحدة ستساعده على غزو الأراضي الصينية الأصلية . أما هل منحه ماك آرثر أى تشجيع ، وأما ما إذا كان ماك آرثر قد توقع ورغب في محاربة الصين ، فسؤالان لايزالان بحاجة إلى إيضاح مفصل . وعلى أية حال ، فإن شيوعى الصين كانوا قد بدأوا يتحفزون منذ أوائل عمليات ماك آرثر الجديدة . وأبلغ وزير الخارجية شو إن - لاي سفير الهند بأن الصين سترسل قوات لمساعدة كوريا الشمالية إذا تخطت الحدود القديمة أية قوات عدا القوات الكورية الجنوبية . ووردت من موسكو وستوكهولم أنباء مشابهة .

ولو أن الصين تدخلت فعلاً ، فإن اندفاع ماك آرثر الطويل كان قد وضع قوات الأمم المتحدة في وضع غير مريح ، إذ كانت خطوطه الوسطى مكشوفة للهجوم . وانزعج الرئيس ترومان لهذا الموقف حتى إنه أمر ماك آرثر بأن يجتمع به في جزيرة ويك يوم ١٥ أكتوبر ، وهناك تباحثا في الاستراتيجية العليا . وطمأن ماك آرثر الرئيس إلى أن النصر في كوريا كان قد أُحرز ، وأن الشيوعيين الصينيين لن يهجموا ، وأنه سيكون من الممكن إعادة فرقة واحدة من كوريا إلى أوروبا في شهر يناير التالى . والواقع أنه كان يتوقع أن يسحب الجيش الثامن إلى اليابان قبل عيد الميلاد . وقال ماك آرثر أن الصين لو تدخلت لن تستطيع أن ترسل إلى كوريا أكثر من ستين ألف رجل ، من الممكن القضاء عليهم إذا لم تحمهم قوة جوية قادرة .

الصين الشيوعية تشن هجوماً

ولقد تدخلت الصين الشيوعية فعلاً ، وتدخلت على نطاق هائل . فسرعان ما كان الجنود الصينيون الجاحمو التعصب يتدفقون عبر نهر يالو ، وبات من الواضح أنهم كانوا مستعدين لحرب عامة ، إذا دعت الضرورة . وما كانت الولايات المتحدة ، ولا الأمم المتحدة ، راغبة في حرب كهذه ، إذ أنها - كما قال الجنرال برادلى - خليقة بأن تكون الحرب غير المناسبة ، في الوقت غير المناسب ، وفي المكان غير المناسب . ولكن ، هل كان من الممكن تفاديها ؟

تشبث الشيوعيون بزعم أن القوات الصينية الكثيفة إنما كانت من المتطوعين لنجدة

كوريا الشمالية . وقال متحدث روسي مخاطباً الأمم المتحدة بسخرية : « ما أشبه روكامبو بلافايت ١ » ولقد احترم الطرفان هذا الزعم إلى حد أنها لم يعلننا الحرب ، برغم أن الحرب كانت دائرة فعلاً . فقد كان من الواضح أن الهجوم الصيني حيلة أريد بها إيقاف المعونة الأوربية في تعمير أوروبا . وكان ترومان يعتبر أوروبا مفتاح السلام العالمى ، فلم تكن لديه أية نية في أن يسمح للجهود الأمريكية بأن تتحول عن المجال الأوربى . وتفادت الأمم المتحدة بحذر توقيع أية عقوبات عسكرية ضد بكين .

وأمر ماك آرثر الجيش الثامن بأن يبدأ ما سماه « هجوماً عاماً » ، فى ٢٤ نوفمبر ، رغبة منه في تبين مدى شدة المجهود الصينى واتجاهه وأهدافه . وسرعان ما تداعى هذا الهجوم ، وإذا القوات الصينية المتدفقة بأعداد هائلة تفصل الجناحين الأمريكين وتسحق فيالق كوريا الجنوبية حتى كادت تبيدها تماماً . ولم يكن ٣ ديسمبر حتى كانت تقارير ماك آرثر تصف موقف الجيش الثامن بأنه « متزايد الحرج » . فسرعان ما كان يتراجع في تقهقر كامل نحو منطقة سيول . ودُفعت القوات التركية الاحتياطية بعجلة لمساعدته . ولكنها وجدت نفسها في خطر من أن تُكتسح . ومع أن وزارة الدفاع أذاعت أن الموقف « لم يكن ينذر بنبكة » ، فإن واشنطن حفلت بمؤتمرات سادها القلق .

وحوالى ختام سنة ١٩٥٠ ، كان لقوات الأمم المتحدة خط محفوف بالخطر ، بين سيول وخط العرض الثامن والثلاثين . ولم تكن أية وحدة قد عُزلت عن سواها ، بالرغم من أن كثيراً منها كانت قد تضاءلت ، وأوشكت بعضها أن تُباد . وكان الليفتنانت جنرال ماثيوى . ريدجواى ، الذى تولى قيادة الميدان تحت إمرة ماك آرثر بعد مصرع الجنرال ووكر ، يرأس قوات شديدة البأس من المشاة تضم حوالى ٣٢٥٠٠٠ رجل ، منهم ٢٠٠٠٠٠ تقريباً من الأمريكين ، وإذا أضيف إليهم رجال الجو والبحر بلغوا ٣٥٠٠٠٠ . أما قوات العدو فكانت تقدر بحوالى نصف مليون على وجه التقريب ، فضلاً عن احتياطى هائل شهاى يالو . على أن تفوق المقدرة البحرية والجوية للأمم المتحدة ، مكنت من جعل نسبة الخسائر في الأرواح إلى خسائر العدو حوالى واحد إلى خمسة ، ومن شل مرافق النقل لدى العدو .

خذلان الهجوم الصيني

اقترن شتاء وربيع عام ١٩٥١ بهجمات شيوعية متتابة ، ومجهود جبار ناجح من الأمم المتحدة لتخفيف سرعتها ، وإغراقها في الدماء ، ثم إيقافها في النهاية . وما لبث ريدجواي أن شن هجوماً مضاداً حمل قوات الأمم المتحدة إلى ما بعد سول شمالاً مرة أخرى ، فلم ينتصف شهر أبريل حتى كان الأمريكيون وحلفاؤهم قد تجاوزوا خط العرض الثامن والثلاثين بأكثر من عشرة أميال ، واحتلوا جزءاً من « المثلث الحديدي » الذي كان مركز السيطرة الشيوعية في كوريا .

ولعل قتال الشتاء كان أقسى قتال في التاريخ الأمريكي بأسره ، فقد جمع بين البرد القارس والعواصف العاتية ، والأرض الوعرة على جبال شديدة الانحدار ، والمستنقعات المضللة ، والجداول المائية المستعصية العبور ، وضراوة العدو الذي كان يقاتل دون هوادة وحتى تصبح قواته خلف صفوف من الجثث ، وشدة بأس الدبابات الروسية ومقدرة الطائرات النفاثة الروسية الصنع التي أسقطت كثيراً من قاذفات القنابل « ب - ٢٩ » الأمريكية وهي مشتعلة ، وطبيعة كثير من المعارك المستميتة - كتلك التي أريد فيها لواء بريطاني من جلوسيسترشاير عن آخره - والخوف المستند إلى مبررات قوية من أن يلقي الأسرى من رجال الأمم المتحدة معاملة أبعد عن الإنسانية من تلك التي لقيها الأسرى الألمان واليابانيون من الروس . . وقد جعل هذا كله من الصراع محنة رهيبية . بيد أن الطائرات الأمريكية والبريطانية احتفظت بتفوق واضح ، فكانت تنطلق أحياناً في أكثر من ألف طلعة في اليوم الواحد ، فتغمر العدو بالقنابل ، وبطلقات المدافع الرشاشة ، وبالنابالم .

وشهد شهراً أبريل ومايو هجومين مضادين شرسين من العدو ، ثم اضطروا في النهاية إلى التوقف بعد أن خسر حوالى ٢٠٠ ٠٠٠ رجل . ثم جاء الهجوم المضاد الكبير من الأمم المتحدة ، في شهر يونيو . فأخذ الجيش الثامن يتقدم باطراد ، عابراً خط العرض ، مستولياً على قسم أكبر من « المثلث الحديدي » ، محتلاً مراكز مستعصية على أى مهاجم . وأخذ القتال يفتر تدريجياً .

وعندما حانت الذكرى الأولى لاندلاع الحرب الكورية ، في ٢٥ يونيو ، كان الشيوعيون قد فقدوا ٢١٠٠ ميل مربع من الأراضى التي كانوا يسيطرون عليها عند بدء

٥٩٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

هجومهم . ووصلت حدود قوات الأمم المتحدة ، في بعض النقاط ، إلى أربعين ميلاً شمال خط العرض الثامن والثلاثين . وكانت مدن كوريا الشمالية أطلالاً ، ومصانع كوريا الشمالية قد توقفت . وكان ثمن ذلك أقدم نسبياً مما تكلفته الحربان العالميتان الأولى والثانية . وقدرت خسائر قوات الأمم المتحدة بأكثر من ٤٠٠ ٠٠٠ قتيل وجريح ومفقود (٢٦٠ ٠٠٠ من الكوريين الجنوبيين ، و ١٣٥ ٠٠٠ من الأمريكيين ، و ١٢ ٠٠٠ من أبناء الدول الأخرى) ، بينما خسر الشيوعيين أربعة أمثال ذلك . . مليوناً ونصف المليون على الأقل . وموجز القول أن هذه الحرب كانت من أشنع حروب التاريخ . كذلك استشرت الأوبئة في صفوف الحمر . ولقد أثبت العالم الحر قدرته التي لا تُغلب على القتال ، وعززت الأمم المتحدة مركزها كدرع للدول الصغيرة ضد المتعششين للعدوان .

خلع ماك آرثر

بينما كانت هذه المأساة من الهجوم والمهجوم المضاد دائرة ، بلغ صراع محتدم بين ترومان وماك آرثر ذروته . كان صراعاً أعاد إلى الأذهان متاعب لينكولن مع ماكليلان الصعب المراس . . صراعاً بين رئيس دولة مضطر إلى تدبر كثير من الاعتبارات العالمية ، وقائد لم يكن يفكر في غير الأهداف العسكرية . . بين رئيس جمهورية مصمم على الاحتفاظ بالسيطرة على الموقف ، وقائد كان يستخدم الضغط السياسي ليجبر الحكومة على عدم إعاقته .

ولقد كانت صدمة ماك آرثر شديدة ، عندما صادفت جيوشه الهزيمة . وقد أبلغ رئاسة أركان حرب الجيش بأن ثمة ثلاثة مسالك محتملة : التحرك المستمر ضد الصينيين في كوريا وحدها ، وقبول خط العرض الثامن والثلاثين كخط هدنة (إذا رضى الصينيون) ، والقيام بهجوم شديد على الصين في كل مجال ممكن . وكان يجذب الثالث ، فكان يؤثر محاصرة الساحل الصيني ، وقصف أراضي الصين الأصلية ، واستخدام جيش شيانج كاي - شيك لغزو جنوب الصين ، وتعزيز كوريا الجنوبية . وكان من الواضح أن إنزال الولايات المتحدة رجال شيانج في الصين ، وقصفها المدن الصينية ،

٥٩١ الحرب الكورية : القنبلة الهيدروجينية

يؤديان إلى حرب عامة ، إذ كانت روسيا مرتبطة بمعاهدة لمساعدة الصين . ولم يكن ترومان راغباً في المجازفة بحرب عالمية ثالثة . وأذاع (فى ١٥ ديسمبر سنة ١٩٥٠) رسالة للشعب الأمريكى قال فيها : « إنما هدفنا السلام ولبس الحرب . إن اسمنا يقوم فى كافة أرجاء العالم رمزاً للعدالة الدولية ، ولعالم يقوم على مبادئ القانون والنظام » . ولقد حظى الرئيس بالتأييد التام من رؤساء هيئة الأركان المشتركة ، إذ نادى بحرب « محدودة » ، وبحرب غير معلنة فيما يتعلق بالصين .

على أن ماك آرثر لم يقبل سياسة الحكومة . وعندما أقبل شهر مارس بتحوّل في تيار الحرب ، تأهب ترومان لاستقبال الوضع الجديد بإذاعة أن الوقت حان ، وقد طُهرت كوريا الجنوبية من الغزاة إلى حد كبير ، لإيقاف القتال والبحث في تسوية . وأبلغ ماك آرثر في الوقت المناسب بأن هذا البيان قد أعدّ تقريباً ، وساعدت ترومان في اللمسات الأخيرة للبيان وزارة الخارجية ، وهيئة رئاسة الأركان المشتركة ، ووزير الدفاع . وبينما كان الرئيس يتأهب لإصدار البيان إذا كل عنائه يذهب بديلاً ، ففي ٢٤ مارس طلع ماك آرثر على العالم ببيان من عنده ، كان متبائناً تمام التباين مع بيان ترومان ، إلى حد أن الناس كانوا سيتعرضون لارتباك أليم لو أن البيانين نشرا معاً . فقد أكد الجنرال أن الصين الحمراء قد هزمت ، وأنها كانت تفتقر إلى موارد لمواصلة الحرب وقتاً أطول ، فلوقررت الأمم المتحدة القيام بمجهود جبار جديد ، « بالتوسع فى عملياتنا الحربية حتى مناطقها الساحلية وقواعدها الداخلية » ، فإن الصين قد تتعرض لانهايار داهم . وقصارى القول إنه أُرْدِف التهديدات بطلب موافقة الصين مقدماً على عقد هدنة .

وكان ترومان قد عقد العزم على فصل الجنرال ، عندما وقع حدث جديد فى ٥ أبريل . إذ أن جوزيف دبليو . مارتن ، الزعيم الجمهورى فى مجلس النواب ، قرأ على المجلس خطاباً شخصياً ردد فيه ماك آرثر آراءه عن ضرورة التعجيل بمعالجة أمر الصين الشيوعية . وكتب أن الحديث عن الأهمية العظمى لأوروبا كان حماقة ، فجدير بالناس أن يتذكروا « أننا نخوض هنا ^(١) الحرب بالأسلحة من أجل أوروبا ، فى حين أن

(١) فى كوريا وآسيا .

الدبلوماسيين لا يزالون يخوضونها هناك^(١) بالكلمات ، وأن سقوط أوروبا أمر لا مفر منه إذا نحن خسرنا الحرب وكسبتها الشيوعية في آسيا . أما إذا فزنا فيها ، فأغلب احتمال هو أن أوروبا ستفادى الحرب ، ومع ذلك فإنها ستصون الحرية . « وأردف قائلاً : « ما من بديل يحل محل النصر » .

ولم يكن أمام ترومان سوى مسلك واحد . ففي ١١ أبريل سنة ١٩٥١ ، أعلن بموافقة تامة من مستشاريه العسكريين والمدنيين ، إقصاء الجنرال المشاكس . وضاعف في ضخامة القرار مكانة الجنرال الهائلة ، وعلاقته بالعناصر الجمهورية المعادية لترومان ، ومطامحه السياسية . وعاد ماك آرثر إلى الوطن لأول مرة منذ أربع عشرة سنة ، فلقى استقبلاً حافلاً صاحباً ، في سان فرانسيسكو . وفي ١٩ أبريل ، تحدث في جلسة مشتركة لمجلس الكونجرس ، واستمعت إليه الأمة عن طريق الإذاعة . وفي اليوم التالي ، استقل سيارته في فيف آفنيو بين هتافات الجميع . وبدأ لوهلة أن نجمه السياسي في ارتفاع .

غير أن التحقيقات المشتركة ، التي أجرتها لجنة تمثل مجلسي الشيوخ والنواب ، في أوائل مايو ، سلطت ضوء المنطق الخالي من الانفعال على مسألة فصله ، ومع مرور الوقت اتضح بجلاء متزايد أن قرار ترومان كان من إملاء الحكمة والضرورة معاً ، وأنه قد دعم مرة أخرى المبدأ القائل بهيمنة السلطة المدنية على السلطة العسكرية .

الانعزالية الجديدة

لم يهز الجدل الكبير بشأن ماك آرثر سياسة الحكومة ، بل لعله عززها . ومن أسباب ذلك أن الناطقين بلسان الحكومة أوضحوا أنهم لن يتساهلوا إزاء أية حماقة من الشيوعيين ، وإن كانوا راغبين في تفادي المسالك المحفوفة بالأخطار . كان صبر أمريكا قد امتد إلى أقصى مدى يمكن أن يبلغه . ولقد حذب الشعور العام هذا الموقف ، بيد أن تحقيقات الكونجرس أماطت اللثام عن طراز جديد من الانعزالية .

الحرب الكورية : القنبلة الهيدروجينية ٥٩٣

ولقد كشف ماك آرثر عن أنه أوتى آراء سياسية قوية ، وإن كان قد أنكر أنه أوتى « أية مطامع سياسية » . كان ينشد سياسة تراعى مصالح أمريكا فحسب . فنحن في رأيه بغير حاجة معينة إلى حلفاء في الغرب ، بل إن علينا أن نركن بجرأة إلى قوتنا ، وأن نضرب بها بشدة . وأوضح بجلاء أنه كان أكثر ميلاً إلى السيناتور روبرت تافت منه إلى الجنرال أيزنهاور ، ليكون المرشح الجمهورى المقبل للرئاسة ، لأن تافت كان على رأس شبه الإنعزاليين « في الحزب . وكانت بعض تلميحاته إلى أيزنهاور لاذعة ، وقد ارتاح إلى موقف هربرت هوفر الذى دعا في أوائل ذلك العام إلى سحب قواتنا من القارة الأوربية ، وإنشاء « جبل طارق لنصف الكرة الأرضية الغربى » فى الأمريكتين ، على أن تكون بريطانيا العظمى مركزاً أمامياً متقدماً . هذا ، فى الوقت الذى كان أيزنهاور يطالب فيه بإيفاد أربع فرق أخرى إلى أوروبا .

غير أن الزمن الذى قد تكون فيه العزلة خطرة كان قد ولى . ولقد تحدث أيزنهاور إلى مجلسى الكونجرس بعد نداء هوفر مباشرة ، شارحاً عمله من أجل منظمة حلف شمال الأطلسى ، مبرهاً على أن شمال الأطلسى كان منطقة اهتمامنا الأولى . وقال إنه ما كان بوسعنا الاستغناء عن أوروبا الغربية كمنطقة تجميع للعمالة الماهرة ، بل إنها أعظم منطقة تجميع فى العالم ، فعلى أن نحافظ على مقدراتها الصناعية الضخمة . وتحدث عن ارتفاع فى الروح المعنوية الأوربية يبشر بالأمل . وفى أوائل أبريل ، أجاز مجلس الشيوخ بأغلبية ٦٩ صوتاً إلى ٢١ قرارات تحبذ معاهدة شمال الأطلسى كنقطة تحول فى التاريخ ، وتعلن أن على الأمة أن تودع أوروبا « من وحدات قواتنا المسلحة ما تدعو إليه الضرورة وما يكفى للمساهمة بنصيبنا اللائق » فى الدفاع الغربى .

وبادرت الحكومة إلى دفع برنامجها قدماً لإعادة تسليح أمريكا ومساعدة أوروبا على إعادة التسليح . وكانت الخطة فى الداخل ترمى إلى زيادة الإنتاج القومى بحوالى الخمس خلال ثلاث سنوات (جعلت أربعاً فيما بعد) . وشجّع استثمار الأموال فى منشآت جديدة ذات قيمة جلية فى الحرب ، بالإعفاءات الضريبية ، بتقديم قروض مالية حكومية عندما تدعو الضرورة . وكان لابد من الاحتفاظ بالاستهلاك المادنى السوى (الطبيعى) دون مساس ، وإن لم يكن ثمة بد من إنتاج كميات هائلة من المدافع والطائرات والدبابات . وكان من الواضح أن الحرب الباردة قد تدوم عشرات السنين ، بل أجيالاً ، وعلى الولايات المتحدة أن تكون أفضل من روسيا تجهزاً فى السباق الطويل .

٥٩٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

على أن العبء كان ثقيلاً في ناحيتين : كان لابد من استبقاء حوالي ٣٥٠٠٠٠٠ مجند في الخدمة وتحت التدريب ، وكان لابد من اعتماد ما بين أربعين وستين بليوناً من الدولارات سنوياً للنفقات . وكان ارتفاع مستوى الإنفاق والضرائب يعنى تضخماً يدعو للقلق .

ومع ذلك ، فإن ما بدا من واقع الترابط بين التسليح والتضخم والرخاء كان بلا شك عاملاً ساعد على إخفاق الانعزالية الجديدة ، التي كان ماك آرثر وهوفر وبعض أعضاء مجلس الشيوخ من ولايات الغرب الأوسط والغرب يدعون إليها . وأهم من ذلك أن الظروف كانت تمل بشدة التشبث بالسياسات التي رسمت برعاية روزفلت ، وترومان ، ومارشال ، وأيزنهاور . فإن أى انفصام بين الولايات المتحدة وأعضاء منظمة حلف شمال الأطلسي قد يكون مصدر هلاك محتم للطرفين .

الهدنة الكورية

لم يحن يونيو سنة ١٩٥١ إلا وقد بلغ الصراع الكوري مرحلة حرجية ، فلما أشار المندوب السوفيتي لدى الأمم المتحدة إلى أن الكرملين كان مستعداً لمناقشة إبرام هدنة ، كانت الطريق ممهدة لوقف الحرب المهلكة . وفي أوائل يوليو ، بدأ القادة العسكريون لقوات الأمم المتحدة وللجيوش الشيوعية سلسلة من المناقشات التي أخذت تتلأأ بعد ذلك شهراً إثر شهر . كان الموضوع المعين الذي بدا الوصول إلى اتفاق بصدده متعزراً ، هو مسألة الأسرى . فإن معظم الأسرى من قوات الأمم المتحدة في أيدي الشيوعيين كانوا قد ماتوا أو قُتلوا ، وكان معظم الأسرى الشيوعيين في أيدي الأمم المتحدة يأبون العودة إلى كوريا الشمالية أو الصين . على أن العقبة الحقيقية تمثلت في أن إرجاء السلام كان يناسب مخططات روسيا . إذ أن القتال المتقطع كان يضطر قوات الأمم المتحدة إلى البقاء في كوريا ، ويؤخر دول حلف شمال الأطلسي في مجهودها لتسليح أوروبا . كما أنه كان يزيد من اعتماد الصين على روسيا ، ويوفر مجالاً لتدريب الجنود الصينيين والطيارين الروس . ولم تكن الولايات المتحدة والأمم المتحدة من ناحيتها راغبة في إبرام سلام جزئي أوزائف في الشرق الأقصى . وما كان من الممكن دراسة أمر كوريا بمعزل عن الهدنة

الحرب الكورية : القنبلة الهيدروجينية ٥٩٥

الصينية وماليزيا حيث كانت روسيا والصين توفران الأموال والإمدادات والخبراء للمتطرفين الشيوعيين . فما كان العالم الحر ليكسب شيئاً إذا سحب ما وجيشه من كوريا الشمالية لمجرد أن يدفع قوات معادلة إلى التحرك في جنوب شرق آسيا . وكان من الواضح أن غاية روسيا هي استخدام صنائعها من الدول للقيام باشتباكات مزعجة في الشرق ، بينما كانت موسكو تشن الحرب الباردة في أوروبا . كان المفاوضون باسم الأمم المتحدة ينشدون دليلاً على تغيّر النوايا ، وليس تغيّر الجبهات . وكان الضيق بالحرب ينمو في الولايات المتحدة وبريطانيا وغيرهما من الدول الغربية ، إذ بدا أن القتال الكوري غير ذى جدوى تذكر . بيد أن القرائن كانت تبين أن الضيق بالحرب كان في الصين أكبر .

وفي غمرة نموه ، أدت وفاة ستالين والصراع الذى ترتب عليها من أجل الحكم في روسيا ، بين مالينكوف ويبريا ، إلى موقف جديد . ولم تحن الأسابيع الأولى من عام ١٩٥٣ حتى كانت الصين والاتحاد السوفييتى تبديان مزيداً من الميل إلى الصلح . فاستؤنفت المفاوضات التى كانت قد قطعت في بانمونجوم . وخلق الوطنى الشيخ العنيد ، الرئيس سينجمان رى ، عقبات بإصراره على وجوب توحيد كوريا بأسرها تحت حكومته ، وتبدير « هرب » حوالى ٢٠ ٠٠٠ أسير من كوريا الشمالية كانوا راغبين في البقاء في الجنوب . بيد أن الشيوعيين تراجعوا في النهاية إلى درجة قبول مشروع لإعادة الأسرى يقوم على التطوع دون الإجبار . وتم توقيع الهدنة نهائياً في ٢٧ يونيو سنة ١٩٥٣ . وانتهت الحرب .

لقد كسب الغرب انتصاراً ملموساً بضمن باهظ . إذ سكن القبور عشرات الآلاف من الأمريكيين والبريطانيين والكوريين الجنوبيين وغيرهم من الجنود ، ولقد شُوّه مئات الآلاف ، أو أُعجزوا نتيجة الأمراض والمحن ، ويات معظم كوريا خراباً . ولكن الغرب حقق ، ما وصفه ونيستون تشرشل بأنه « هزيمة تامة »^(١) ، فلقد هزم العدوان الشيوعى بأن حصره في موقف لا حراك له منه . ولو أن الاتحاد السوفييتى نجح في ضغطه التجريبي في كوريا ، لأسرع فأردفها بحركات أخرى . إذ كان ستالين قد أعد جدول الزمنى لغزو ماليزيا ، والهند الصينية ، وفورموزا ، ولو أنه أفلح ، لأعقبها بأوروبا الغربية . ولكنه أُحبط ، بينما ازدادت سرعة التسلح الغربى . فباتت الجبهة العالمية ضد

(١) الأمل Checkmate وهى الحركة التى لا يعود بعدها سبيل إلى إنقاذ « شاه » الخصم في مباراة الشطرنج - المترجم .

الشيوعية أشد مما كانت عندما شنت كوريا الشمالية هجومها بدرجة تفوق أى قياس .

القنبلة الهيدروجينية

لم تقتصر الولايات المتحدة ، في المراحل الأخيرة للحرب ، على إجراء التجارب على قنابل ذرية أكبر ، بل إنها فجرت في جزيرة إنيوتوك أول قنبلة هيدروجينية في التاريخ . كان وهج الانفجار في ذلك الصباح ، صباح أول نوفمبر سنة ١٩٥٢ ، أقوى من وهج عشر شمس . وبلغ طول اللهب ميلين ، وارتفاعه ألف قدم ، فأحرق الجزيرة التي فُجرت عليها القنبلة تماماً . وكتب دبليو . إل . لورنس في صحيفة « نيويورك تايمز » ، يقول : « بوسع هذا السلاح ، الذي تفجّر بشدة تعادل شدة تفجير عشرين مليون طن من أقوى المتفجرات ، أن يخرب مساحة تزيد على ٣٠٠ ميل مربع بقوة التفريغ الهوائي ، و ١٢٠٠ ميل مربع بنيانه . ولو أودع قذيفة من الكوبالت لأنتج سحابة من الغبار المشع تعادل ما يحدثه خمسة ملايين رطل من الراديوم ، تنشر الموت والدمار على آلاف من الأميال المربعة » .

وموجز القول ، أن بوسع القنبلة الهيدروجينية أن تمحو لندن ، أو موسكو ، أو نيويورك تماماً . ولقد أدرك العالم شيئاً فشيئاً خطر هذا السلاح الجديد . فبالرغم من أنه كان كالقنبلة الذرية شديد الإفناء ، فإن الحرب بقذائف من هذين النوعين ظلت ممكنة . غير أن القنبلة الهيدروجينية ، كتيارات هوائية تحمل السحب الذرية المميتة إلى كل مكان ، كانت لا تقل خطراً على الدولة التي تستخدمها منها على الدولة التي تُستخدم ضدها ، وقد تؤدي حرب بالقنابل الهيدروجينية إلى إبادة سكان الكرة الأرضية بأسرها . وهكذا توصل الإنسان أخيراً إلى سلاح يبلغ من شدة تدميره ، أن أحداً لا يمكن أن يفكر في حرب غير محدودة إلا إذا كان مجنوناً . وكانت هذه فاتحة عصر جديد .

بين أيزنهاور وستيفنسون

أتاحت حملة انتخابات الرئاسة في سنة ١٩٥٢ فرصة للجدال حول الحرب والدفاع .

٥٩٧ الحرب الكورية : القنبلة الهيدروجينية

إذ كانت الظواهر توحى بأن كلاً الموضوعين والشخصيات المرتبطة بهما في تضخم . كان الجمهوريون يعيبون على حكومة الديمقراطيين الفساد والخط من المستويات الحكومية ، والضرائب الباهظة والإنفاق دون اكتراث ، والتضخم والتدخل البيروقراطي في التجارة والصناعة ، والتهاون إزاء العناصر الهدامة ، وفوق هذا وذاك كانوا يعيبون عليها ترك الحرب الكورية جارية دون داع لذلك . أما خصومهم فكانوا يهاجمون الحزب الجمهورى بسبب عناصره الرجعية والانعزالية . وأخذوا يعيدون للأذهان ما كان للكونجرس الثمانين – الذى كان الجمهوريون يسيطرون عليه – من صفحة سيئة ، ويرددون ما خلفته حكومات هاردينج ، وكوليدج ، وهوفر من ذكريات ممّضة .

وكان كل من الحزبين يعانى من انقسامات داخلية خطيرة . فبالنسبة للحزب الديمقراطى ، كان المحافظون الجنوبيون قد أصبحوا موغرى الصدور ضد ترومان أكثر من ذى قبل ، فى حين أن الناخبين من المزارعين أخذوا يفقدون عواطف الولاء التى نشأت فى عهد فرانكلين دى . روزفلت . وقوبل إعلان ترومان – فى شهر مارس – عزوفه عن خوض الانتخابات مرة أخرى بترحاب من كثير من الديمقراطيين باعتبار أن هذا يخلص الحزب من « ربان » تقادم به العهد . وبالنسبة للجمهوريين ، انتعشت آمال « الحرس القديم » – بقيادة روبرت تافت – بفضل هوفر وماك آرثر ، إذا كان معادياً للعناصر التقدمية التى كانت تؤمن بضرورة تقبل المعالم الرئيسية لسياسة النظام الجديد وتأييد الروح الدولية كما تتمثل فى الأمم المتحدة ، ومنظمة حلف شمال الأطلسى ، وبرامج المعونة الخارجية . وظهر « حرس من الشباب » ، تزعمه أيزنهاور الذى كان بعيداً عن الشباب ، وتجمع وراء الجنرال سياسيون على شاكلة توماس إى . ديوى .

ولقد هيمن أيزنهاور على الساحة الجمهورية من البداية . وقوبل إعلانه – فى شهر فبراير – بأنه مستعد لتقبل الترشيح إذا عُرض عليه ، واستقالته من قيادة منظمة حلف شمال الأطلسى لينصرف إلى السياسة بتحمس شعبى . ولامراء فى أنه كان أعظم الرجال شعبية فى البلاد ، وكان يدير أموره بحذق الهواة ، كما أن درايته بالتاريخ والسياسة كانت ضئيلة ، وكان إدراكه لاقتصادياتنا ونظام حكمنا ومشكلاتنا الاجتماعية يفتقر إلى الكثير . ولكن الشعب أوتى ثقة هائلة بمقدرته ، وتمكّنه ، ووعيه ، وخبرته الدولية . فلم يفلح الطامعون من المزاichen ، أمثال هارولد ستاسن وروبرت تافت وإيرل وارن حاكم كاليفورنيا ، فى أن يؤثروا على الجمهور تأثيراً يذكر .

وعندما اجتمع المؤتمر السياسى للجمهوريين فى شيكاغو ، فى أوائل يوليو ، تولى الحاكم ديوى قيادة أنصار أيزنهاور ، فانضم إليهم المندوبون المترددون بقوة الاقتناع بأن أحداً لا يملك أن يوقن من الفوز سوى « آيك » ، فاختير الجنرال فى الاقتراع الأول بأغلبية صاخبة ، واختير السيناتور ريتشارد نيكسون — عضو الشيوخ عن كاليفورنيا — نائباً للرئيس .

وكانت الشخصية الأولى بين الديمقراطيين أدلاى ستيفنسون حاكم إلينوى — تمتاز باسم معروف فى الحزب (إذ كان جده نائباً للرئيس فى فترة الحكم الثانية لكليفيلاند) ، وبخبرة بمختلف مناصب واشنطن ، وبالخدمة كمندوب لدى الأمم المتحدة . وكان حكمه لولايته حكماً كفاءً وتقديماً . وكان ذا مواهب شخصية نادرة ، إذ كان سريع البديهة ، رفيع الثقافة ، بشوشاً ، متوثب النشاط . ولقد دفع ترومان ديوى ليكون مرشحاً ، وعندما انحاز هاريمان بوفد نيويورك إلى صفه فى الاقتراع الثالث ، تم اختياره . وأسرع ستيفنسون بالنزول إلى الحلبة ، فألقى خطاباً أذيع تليفزيونياً ، فأعلن فيه قبوله الترشيح ، وأحدث أثراً عميقاً بسحر عباراته ، وبلاغته ، ومنطقه .

ولم تكن الحملة الانتخابية التى أعقبت ذلك شديدة الاحتدام ، ولا شديدة الضجيج . وعندما انضم أعداد كبيرة من المثقفين إلى قادة العمال فى تأييد ستيفنسون ، حمل الجمهوريون فى إقذاع على « ذوى الثقافة الرفيعة » ، ووصفوه بأنهم دعاة اشتراكية وتشريعات للطبقة العاملة . وبعد تلكؤ لفترة من الزمن ، التقى تافت بأيزنهاور ، فى أواسط شهر سبتمبر ، فى منزل رئيس الجامعة بجامعة كولبيا ، وخرج بتصريح بدا أنه انطوى على أن معظم مطالبه توفرت لدى الجنرال . وقام كل من المرشحين للرئاسة بسلسلة من الجولات الطويلة ، واضطلعوا بحملات انتخابية إذاعية وتليفزيونية مضنية ، ووصلا مع الخريف إلى درجة الإرهاق . وبينما لقي آيك عناء من الليبراليين لاستعداده للتعايش مع المهيجين الدهماويين من أمثال مكارثى فى ويسكونسين ووليم إى . جينر فى إنديانا ، عانى ستيفنسون من المحافظين من الناحيين ، بسبب استخدام ترومان العنف ضد أيزنهاور فى مواجهة للناحين فى إحدى المحطات الصغيرة ، فى شهر أكتوبر . وكانت هذه أول حملة فى التاريخ قام فيها التليفزيون بدور مهم ، وأول حملة استؤجرت فيها شركات الإعلان والعلاقات العامة على نطاق واسع لتنظيم الدعاية . وكان الجمهوريون يمتازون بدرجة كبيرة فى سخاء الانفاق على الحملة إذ قدرت نفقاتهم

٥٩٩ الحرب الكورية : القنبلة الهيدروجينية

بخمسة وثلاثين مليوناً ، وفي استخدام الصحافة ، إذ كان ثانون في المائة من الصحف والمجلات على الأقل مؤيدة لأيزنهاور . ومع أن خطب ستيفنسون كانت ذات محتوى ثقافي نادر ورواء أدبي ، وأن أيزنهاور كان يتولى مركزاً ذا مهابة كبيرة وقدر رفيع ، فإن المعركة كانت في مجموعها مخيبة للظنون . إذ لم يؤد المجهود الهائل ، الباهظ النفقات ، إلى تنوير أذهان الجمهور بدرجة تذكر . وكانت أفضل معالم الصراع اثنتين : أن ستيفنسون كان يجمع بين الصراحة والتمسك بالمبادئ ، وقد أثبت أنه من أكمل المرشحين في تاريخنا نزاهة وأمانة . . وأن أيزنهاور تقبل بشجاعة السياسات الرئيسية لحكومات روزفلت وترومان ، قائلاً : « لن نعيد عقارب الساعة إلى الوراء » .

وكانت النتيجة فوزاً ساحقاً ، لا للجمهوريين وإنما لأيزنهاور . فقد كسب تأييد تسع وثلاثين ولاية ، محرزاً ٣٤٠٠٠ ٠٠٠ صوت في الانتخابات الشعبية ، و٤٤٢ صوتاً في المجمع الانتخابي . أما ستيفنسون فلم يكسب تأييد أكثر من تسع ولايات ، وحصل على ٢٧ ٣٠٠ ٠٠٠ صوت شعبي ، و ٨٠ صوتاً مجتمعاً . وفاز أيزنهاور بالأغلبية المطلقة في ولايات تكساس وفلوريدا وفيرجينيا وتينيسي وأوكلاهوما . وسبق سواه من الجمهوريين ، وبشوط كبير باستمرار ، في كل مكان . فبدافع من شهرته ، وخدماته الجليلة للأمة ، وصفاته الشخصية الجذابة ، كان الناس في حال عاطفية عبر عنها الشاعر الشعبي : « آيك يعجبني » .

الحكومة الجديدة

أما أنه كان انتصاراً شخصياً ، وليس حزبياً ، فقد أوضحه فوز الجمهوريين بأغلبية ضئيلة في الكونجرس . فكان لهم في مجلس النواب الجديد ٢٢١ إلى ٢١١ ، وفي مجلس الشيوخ ٤٨ إلى ٤٧ . ولولم تساعد الأغلبية الكبيرة من الأصوات التي ظفر بها أيزنهاور كثيرين من الأعضاء الجمهوريين الذين كانوا على حافة الهزيمة ، لسيطر الديمقراطيون على المجلسين معاً . ولقد أوضح أيزنهاور أن أمله الكبير هو توحيد الحزب ، وتوحيد الأمة ، وتوحيد الدول الغربية . والواقع أن الكثيرين أيده كرمز للوحدة القومية والدولية في وقت كان أهم ما يحتاج إليه العالم هو : أمريكا

٦٠٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

متناسقة تساند حلفاً متناسقاً ، حسن القيادة ، لشال الأطلنطى .
 وكان جميع الذين عينهم لمناصب حكومته من المعتدلين والمحافظين ، وكلهم ما عدا واحداً ممن ينطبق عليهم قوانين التجارة والصناعة ، أو المالية ، أو الشركات . وقد اتخذ وزيراً للخارجية جون فوستر دالز النيويوركى ، الذى كان من غلاة الداعين لتوحيد السياسة الخارجية للحزبين ، وكان ممثلاً للولايات المتحدة فى الجمعية العامة للأمم المتحدة . وقد عزز هذا العمل الروح الدولية للحكومة الجديدة . أما مركز وزير الدفاع ، فكان من نصيب تشارلز إى . ويلسون ، رئيس مجلس إدارة شركة جنرال موتورز . وتولى وزارة المالية قائد آخر من قادة الصناعة والتجارة هو جورج إم . همفرى من كليفلاند . ولم يكن دوجلاس ماكاى الأوريجونى من الميالين لفلسفة المحافظين ، وقد رأس وزارة الداخلية ، كما عين إيزرا تى . بنسون من يوتاه وزيراً للزراعة . وأهم من هذه التعيينات الوزارية جميعاً ، اختيار أيزنهاور شيرمان بى . آدمز مساعداً شخصياً له ، وهو يانكى قح من نيو هامبشاير . وقد أصبح شيرمان ، على مر الزمن ، أقرب ذوى الخطوة لى أيزنهاور ، فكان فى معظم المسائل الروتينية أقوى سلطاناً من أى عضو فى المحكمة الجديدة .

وكان من الواضح أن الحكومة الجديدة محافظة ، حكيمة ، بعيدة عن الحزبية السياسية الشديدة . وكان من الجلى كذلك أن الأفق الدولى للحكومة فى مثل استنارة أفق حكومة ترومان ولقد عهد بمنصب مدير الأمن المتبادل إلى هارولد ستاسن ، الذى كان يشارك الرئيس المنتخب ودالز آراءهما بصدد أهمية الاحتفاظ بتحالف غربى متين . وكانت الأمة ، عندما تولى أيزنهاور مقاليد الحكم ، فى أوج الرخاء والنمو الصناعى ، وقد اعتزم أن يستبقها فى هذه الحال . فإن استقرار العالم الحر كان يستند إلى حد كبير إلى استقرار الولايات المتحدة اقتصادياً وسياسياً .



الفصل ٢٨

حكومة أيزنهاور

اتجاهات السياسة

تولى الجمهوريون الحكم لأول مرة خلال عشرين سنة ، وكان ثمة انقلاب قد طرأ على الشؤون الداخلية والعالمية منذ غادر هوفر البيت الأبيض في ظروف كئيبة . وقد كان رئيس الجمهورية — على الأقل — مستعداً لقبول هذا الانقلاب . وما أقل الأمريكيين الذين كانوا قد رأوا من المشهد الخارجى قدر ما رأى أيزنهاور أو فهموا بقدر الوضوح الذى فهم به ضرورة التحام الدول الحرة ضد الهجوم الشيوعى . وقد أعلن في خطابه الاستهلالي أن لأمريكا رسالة ، هى « القيادة العالمية » ، وأنها ستضطلع بها « بثقة ، وليس بارتباك » . وبينما أُنذر الشعب بالآلات يرتقب تخفيضاً في الميزانيات أو الضرائب ، وبأن يستعد لتضحيات أكبر ، عاهد أيزنهاور الغربية على استمرار المعونة ، وجاهر بأن الولايات المتحدة كانت مستعدة لتخفيض الرسوم الجمركية لتدعيم التجارة . وأهاب بالأوروبيين أن يحملوا نصيبهم من الأعباء المالية ، وأن يمشوا قدماً في رفع الإنتاج ، وفي تسليح أنفسهم .

وفي الشؤون الداخلية ، أوضح أيزنهاور الخطوط العريضة لأرائه الأساسية في أول

رسالة طويلة وجهها إلى الكونجرس . فكان راعياً في الحد من التدخلات البيروقراطية في حياة الشعب . وكان يؤثر ترك الصناعة والتجارة لتفاعلات القوانين الاقتصادية الطبيعية ، اللهم إلا في أوقات الأزمات . فالدور الحقيقي للحكومة هو « توطيد الاستقرار الاقتصادي ، وتشجيع النشاط الحر لعرقية قومنا في مجال المبادرة الفردية » . وكان تخفيض الديون القومية أهم من تخفيض الضرائب ، ومن الواجب التصدي للتضخم بوجه عام ، بفرض قيود تحد من الائتمان ، وليس بتحديد المستويات العليا للأجور والأسعار . أما في مجال العمل ، فكان الرئيس يؤثر ابتعاد الحكومة عن الاجتماعات التي تتساوم فيها الإدارة مع النقابات ، ما لم يؤد توقف العمال في بعض المصانع إلى تهديد الصالح القومي . ولقد رأى في مجال الزراعة أن من المحتمل إذا ما انتهى سريان قانون الإعانات الحكومية الجامدة من أجل تثبيت الأسعار في سنة ١٩٥٤ ، أن تُستبدل بها إعانات مرنة . وكان يحبذ تعديل قانون « ماكاران » النعس الخط ، وتحقيق توسعات جديدة في الضمان الاجتماعي . أما فيما يتعلق بموضوع الولاء الذي أثار الاستياء ، فقد اقتفى أثر ترومان في الإيذان بأن المسؤولية الأولى لإبعاد العناصر الهدامة عن الحكومة ، تقع على عاتق السلطة التنفيذية وليس على الكونجرس .

وعلى وجه الإجمال ، كانت آراء أيزنهاور ومسلكه تنم عن الاعتدال ، أو على حد تعبيره الموجز ، كانت آراء ومسلك رجل يؤمن بـ « الليبرالية الديناميكية » ، أي الدافعة للحركة من الطراز المعتدل . كان يحب أن يصف نفسه بأنه يتحرك في وسط عرض الطريق ، وإن كان الواضح أنه كان يلتزم الجانب الأيمن للوسط . كان يعتبر نفسه موقفاً قومياً أعلى ، على استعداد لأن يبذل كل ما في وسعه للوحدة الحزبية والوحدة القومية معاً . فكان يؤثر البقاء فوق المشاحنات السياسية على غرار ما كان واشنطن يفعل ، وأن ينأى بنفسه عن نضال غلاة الطامعين في الحكم ، وأن يكون وسيطاً للحد من التطرف أو حَكَمًا . وكان معنى هذا أنه لم يكن يبذل جهداً يذكر لقيادة الكونجرس أو توجيه الرأي العام ، وأنه راح يرفض في حزم وإصرار أن يتيح لمعظم خصومه مجالاً لمنازلته . كان رئيساً من طراز ماكينلي أو تافت . ومن الواضح أنه نظم مزاج الأمة بدقة وإحكام ، فما أتيح لغير نفر ضئيل ممن شغلوا البيت الأبيض أن يظلوا محتفظين بشعبيتهم بقدر ما احتفظ هو بشعبيته طوال سني حكمه الثمان .

ولقد حققت الدورة الأولى للكونجرس الثالث والثمانين بعض المهام المعتدلة التي

٦٠٣ حكومة أيزنهاور

طلب منه أيزنهاور إنجازها . فأقام وزارة للصحة والتعليم والإصلاح الاجتماعي ، عين على رأسها مسز هوبى من تكساس . وألغى هيئة تمويل التعمير والإنعاش وأحل محلها « إدارة للمشروعات الصغيرة » ، لها أن تقدم قروضاً لا يزيد كل منها على مائة وخمسين ألفاً من الدولارات . ولقد بسّط النظام الجمركى ، ومدّ أجل برنامج المساعدات الحكومية لتثبيت أسعار السلع الزراعية ، وأجاز مدّ أجل قانون الاتفاقيات التجارية المتبادلة عاماً ، وكان هذا القانون — منذ وضعه كوردل هل — قد قام بدور كبير فى تنشيط التجارة الدولية . كذلك أقنع أيزنهاور الكونجرس — وإن خاض صراعاً من أجل ذلك — بأن يعتمد أربعة بلايين ونصف البليون من الدولارات للمعونة الخارجية ، مما أضيف إليه من الأرصدة التى لم تنفق من الاعتمادات السابقة ، فبلغ مجموع المبالغ المتوفرة ستة بلايين وستمائة مليون دولار .

ولم يحجز الكونجرس تدابير أخرى كان الرئيس يبتغيها ، مثل الاعتراف بهواى كولاية ، وتعديل قانون تافت — هارتلى . بيد أن أيزنهاور كان ميالاً إلى المضى وفقاً لخطوة مرسومة . كان يعتقد أنه لا بد من الدراسة لمدة عام قبل إصدار توصيات نهائية فى بعض المجالات الخطيرة ، كالسياسة الزراعية . ولم يكن ميالاً إلى دفع الكونجرس بحدة ، كما فعل تيودور روزفلت وويلسون . ومع أن الإعجاب والحب الشعبين لأيزنهاور ظلّا فى نمو مطرد ، فإنه تعرض لانتقاد حاد ، إذ اتهم بالافتقار إلى الكد والمثابرة ، وبالتردد فى صوغ آراء جديدة وفى القيادة .

إنهاء الحرب الكورية

كان أيزنهاور قد وعد أثناء الحملة الانتخابية بأن يوقف الحرب الكورية القاسية الطاحنة . وزاد من تيسير هذه المهمة وفاة ستالين وملل الصينيين من الحرب . بيد أن هناك خطوات إيجابية من الحكومة ساعدت على إعلان قيام هدنة . إذ أن الحكومة أطلعت الشيوعيين ، عن طريق نهرورئيس وزراء الهند ، على أن قوات الأمم المتحدة ستشرع فى قصف خطوط الإمدادات الصينية ، ما لم ينته الصراع فى القريب . أى أن أيزنهاور ودالز كانا على استعداد لأن يستخدموا الأسلحة الذرية فى الصين أكمل استعمال

٦٠٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

لتحقيق غاياتهما ، ولو جازفا في ذلك باستدراج روسيا إلى النزاع وإشعال حرب عالمية
ثالثة ! وهنا لانت قناة الحكومة الصينية ، إما لأنها كانت تبتغى هدنة حقاً ، وإما لأن
الحكومة الجديدة في موسكو - في أعقاب حكومة ستالين المتحمسة للحروب - وجهت
إلى بكين ضغطاً ، وإما لأن نفوذ نهرو كان ذا أثر . وبموجب الهدنة التي أعلنت يوم ٢٧
يوليو سنة ١٩٥٣ ، تخلى الشيوعيون عن إصرارهم المتعنت بوجوب إعادة الأسرى الذين
في أيدي الأمم المتحدة إلى السيطرة الشيوعية قسراً ، ولو كانوا غير راغبين ، بإصرار
متهوس . وحُدّد خط بين كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية ، أتاح لهذه الأخيرة كسباً صافياً
مقداره حوالى ١٥٠٠ ميل مربع . فضلاً عن هذا ، وضعت تدابير نظام للتفتيش فاز
بفضل كوريو الجنوب بنوع من الإنذار المسبّق في حالة حدوث أى هجوم جديد . وكان
المفترض أن يعقب الهدنة فوراً مؤتمر سياسى ، فمعاهدة واصلح دائم . بيد أن الأحداث
أثبتت أن هذا كان سراباً . فقد حظى العالم بإنهاء القتال ، ولكنه لم يحظ بتسوية نهائية ،
ولم تظفر كوريا بالوحدة .

بيد أن العالم الحر كان قد أحرز كسباً هائلاً يتوازن مع كافة الأرواح التى فقدتها . .
إذ أنه برهن على أن بوسعه أن يصد العدوان الشيوعى ، وأنه عازم على ذلك .
وعندما عقد مؤتمر في جنيف من تسع عشرة دولة ، في سنة ١٩٥٤ ، لمعالجة
مشكلتي كوريا والهند الصينية معاً ، انتهى هذا المؤتمر إلى خسائر للعالم الحر تفوق
المكاسب . فقد أزيحت المسألة الكورية جانباً لاستحالة الاتفاق بصددتها ، إذ أصّر
الغرب على إجراء انتخابات حرة ، وهذا مُنكر يجرّمه الشيوعيون . ولقد قسمت الهند
الصينية الساحلية (فييتنام) عند وسطها ، فأسلم النصف الشمالى الذى لقيت فيه
القوات الفرنسية الهزائم تبعاً على أيدي الثوار الشيوعيين إلى « الفيت مينه » أو الحُمر .
أما النصف الجنوبي فُجعل دولة مستقلة إلى حين . إذ لم يكن لأحد أن يعرف للمنطقة ،
أو لجنوب شرق آسيا بأسرها ، مصيراً . وكان الأمر المؤكد الوحيد هو أن اثني عشر مليوناً
من الناس في فييتنام الشمالية قد نقلوا إلى ربة الشيوعيين . ولقد أقصّ هذا راحة بال
كثيرين من الأمريكيين ، وبادر الوزير دالز إلى اتخاذ خطوات لعقد مؤتمر للدول الحرة في
المنطقة بهائلا ، حيث أنشأوا منظمة حلف جنوب شرقى آسيا ، التى أريد بها أن تكون
النّد المقابل لمنظمة حلف شمال الأطلسى ، بيد أنها لم تؤت متانة بنيان هذه الأخيرة .
وأقصد الاتحاد السوفيتى ، تحت رؤسائه الجدد على حملة للسلام كان من الجلى أنها

٦٠٥ حكومة أيزنهاور

تفتقر إلى الإخلاص الصادق ، ولكنها بهرت بعض المناطق المحايدة المتذبذبة . ومن المحتمل أن تمرداً قام به عمال ألمانيا الشرقية في ١٧ يونيو سنة ١٩٥٣ ، وخلافاً دب بين القادة الشيوعيين ، كانا ذوى شأن في هذه الحملة . وكان الغرب على استعداد لها . ففي أواخر سنة ١٩٥٣ ، عرضت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا على روسيا عقد اجتماع لقادة السياسة الخارجية في وقت مبكر . فلما رُفض هذا الاقتراح ، لم يفلت أيزنهاور المبادرة ، فعرض في خطاب قوى ألقاه في الجمعية العامة للأمم المتحدة ، في ديسمبر ، أول علاج مهم جديد للمشكلة الذرية منذ رفض مشروع باروك (باروخ) . واقترح أن تجمع كل الحكومات المعنية بالدرجة الأولى جميع اليورانيوم والمعادن القابلة للانشطار النووي في مستودع مشترك كبير تتولى إدارته الأمم المتحدة . وعلى الوكالة التي تتولى ذلك أن تحرص على استخدام هذه المواد في الطب والزراعة والهندسة ، وفي توفير الطاقة الكافية في أرجاء من الكرة الأرضية تفتقر إلى الفحم أو إلى الطاقة الكهربائية المتولدة من المياه . ولقد أبدت روسيا فتوراً في بادئ الأمر ، ومع أنها اشتركت بعد ذلك في مناقشات للموضوع ، فإنها لم تبد ميلاً لاتخاذ خطوة حقيقية واحدة .

نشاط الكونجرس

استطاعت الحكومة بالصبر ، ولكن دون مجهود مضمّن في الواقع ، أن تظفر وثيداً بجزء من البرنامج الذي عقد أيزنهاور عليه العزم ، فكان في وسعه في نهاية سنة ١٩٥٤ أن يقطع بأنه منح الأمة بعض الإجراءات الطافرة بقوة الدفع (الديناميكية) . وكان أهم تشريعات العام مجموعة كاملة لإصلاح النظام الضريبي الاتحادي بأكمله ، هي الأولى من نوعها منذ عهد رذرفورد بي . هايز . ووجدت التجارة والصناعة فيها عاملاً مشجعاً ، إذ كانت تكفل إعفاءات أكبر وأكثر مرونة من ذي قبل لاستهلاك أدوات الإنتاج . كما أنها منحت الصناعة معاملة متحررة (ليبرالية) بشأن نفقات البحوث ، وزادت من التعويض عن العبء الضريبي من نواح متعدد ، وإن لم تمس الامتيازات الداخلة في صلب القانون . كذلك انتصر الرئيس في سعيه لتقرير إعانات مرنة لتفادي أسعار المنتجات الزراعية الرئيسية . وكانت سياسة الحكومة تهدف إلى تخفيض الإعانات

٦٠٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

بيطء واعتدال ، حتى تيسر الانتقال إلى النظام الجديد . وقد حاولت عبثاً أن تخفض الفائضات الضخمة والمبددة من المحصولات المحتجزة في مخازن الحكومة ، بيد أن تدمير الزراعيين أخذ ينمو ، وظلت مشكلة الزراعة في جوهرها بدون أى حل .

ومن الجلى أن قرار الرئيس بالتخلي عن الحق الاتحادي في موارد النفط في البقاع المغمورة تحت المياه الساحلية بتكساس ولوزيانا وكاليفورنيا ، كان متمشياً مع تفضيله رقابة الولاية على الرقابة الاتحادية ، وللنشاط الخاص على النشاط العام في المجال الاقتصادي . . وهو موقف كان أيزنهاور قد أعلنه في حملته الانتخابية . ولقد بدا هذا للكثيرين تراجعاً غير موفق عن سياسات صيانة الموارد الطبيعية التي كان الرئيس روزفلت^(١) يعملان من أجلها بنشاط وحمة . وكانت المحكمة العليا قد أعلنت أن الموارد النفطية المائية ملك للأمة ، وقد عهد بها الرئيس ترومان إلى البحرية بوصفها من الاحتياطات المدخرة . فإذا أيزنهاور يردّها إلى الولايات . ولقد كشفت الحكومة عن اشتباهاها في وجود « تسلل إشتراكى » وتفضيلها تشجيع الحافز الفرد أو الشركات بتخفيضها الاعتمادات المخصصة لهيئة وادى تنيسى ، وتأبيدها نمو الموارد المائية للكهرباء ذات الطابع الخاص على المشروعات العامة ، وبالسماح بتحويل أراضي الرعى إلى أيدي الأفراد ، وبإلحاحها في استثناء الغاز الطبيعي من اللوائح الاتحادية التنظيمية . وقبل أن يبرح أيزنهاور منصبه مباشرة ، اعترض على مشروع قانون نص على التدخل القومى للحد من تلويث الأنهار بفضلات المصانع ، على أساس أن هذا من مسئوليات الولايات والهيئات المحلية في المقام الأول ، وليس من مسئوليات الحكومة العامة .

ولقد آيد الحزبان في الكونجرس برنامج الرئيس لتوسيع نطاق قوانين الضمان الاجتماعى وزيادة منافعها . كذلك ساعده في مايو سنة ١٩٥٤ على تنفيذ تدبير طال إرجاؤه للمشاركة مع كندا في إنشاء الطريق المائى بين بحيرة سانت لورنس والبحيرة الكبرى . وكانت كندا على استعداد لأن تنشئ الطريق المائى وحدها ، في حين كانت الولايات المتحدة تؤدّ أن يكون تحت إشراف دولى . وقد تم إنشاء الطريق المائى ، وأقيم عليه ١٥ هويساً جديداً ، وافتتح للملاحة مع مقدم سنة ١٩٥٩ . واستطاع تألف بين الحزبين ، كان للديمقراطيين فيه حظ يفوق ما للجُمهوريين ، أن يخذل تعديل بريكر

(١) تيودور وفرانكلين روزفلت — المترجم .

٦٠٧ حكومة أيزنهاور

للدستور . وكان مشروع بريكر يقضى بالألا تصبح أية معاهدة أو اتفاقية دولية قانوناً سارياً في الداخل بدون تشريع من الكونجرس (ما لم يقرر مجلس الشيوخ في المناسبة ، التجاوز عن قاعدة ثلثي الأصوات) . وكان التعديل خليقاً بأن يشل سلطة الرئيس في إبرام المعاهدات بدرجة كبيرة ، وأن يعيد الولايات المتحدة إلى الوضع الذي كان سائداً في فترة الاتحاد لولايات الجنوب . وفي اللحظات الأخيرة ، أدى تدخل الرئيس إلى خذلان التعديل بأغلبية ضئيلة .

وبحركة متقطعة ولكنها قوية ، تسنى سحق مكارثي نهائياً في سنة ١٩٥٤ . وكان قد اكتسب مركزاً ذا نفوذ قوى برئاسته اللجنة الفرعية للتحقيقات في مجلس الشيوخ . فازداد عجرفة ، مما أنزلق به إلى خطأ إهانة شخصية عامة ووطنية ، هي شخصية وزير الجيش ، من أجل مسألة تافهة ، هي ولاء أحد أطباء الأستان بالجيش . فقد رد الجيش على ذلك بمجموعة من الاتهامات المضادة ، فقرر إجراء تحقيق على أيدي لجنة أخرى تابعة لمجلس الشيوخ . وظلت الأمة طيلة شهرى أبريل ومايو ، وشطراً من يونيو ، تراقب إجراءات هذا التحقيق بواسطة التلفزيون ، فازداد اشمئزازها من ميول مكارثي الاستعراضية وتهوره العنيف . ولقد عرض جوزيف ويلش ، كبير محامى الجيش ، نقاط ضعف قضية السيناتور مكارثي بطريقة تلحق بها أبلغ الضرر . وتدخل أيزنهاور في إحدى المراحل ، إذ طلب مكارثي أن يمده الرئيس بوثائق معينة كانت تعتبر سرية بحق ، فأكد الرئيس بقسوة لاذعة أنه يصون حقوق الهيئة التنفيذية « التى لا يمكن لأى فرد يسعى إلى أن يضع نفسه فوق قوانين بلادنا أن يستغلها » . وعندما شن مكارثي هجوماً شخصياً لا سبيل لتبريره ضد شاب من مساعدى ويلش ، تحول الشعور العام عنه نهائياً .

وكانت النتيجة تعيين لجنة خاصة جديدة في مجلس الشيوخ برئاسة آرثر في . واتكينز ، عضو المجلس عن ولاية يوتاه ، قامت بالتحقيق في مسلك مكارثي ، في حدود ضيقة ، دون أن تتناول الافتراءات الفاضحة التى جعلت منه عدواً خطيراً للحقوق المدنية ولسمعة الأمة دولياً ، وإنما اقتصر التحقيق على انتهاكاته لقواعد اللياقة المأثورة عن مجلس الشيوخ . بيد أنها استطاعت ، بالرغم من ضيق مجال عملها ، أن تغوص في أعماق الأدلة ، وأن تخرج بتقرير أوصى صراحة بأن يوجه المجلس لوماً رسمياً إلى مكارثي . وأقر اللوم بأغلبية ٣ إلى ١ من الأصوات ، فاخفتى المدان عن مسرح

الأحداث العامة تقريباً في خيبة تامة ، ومات نفوذه بأكمله تقريباً . وكان مقدراً له أن يفقد رئاسته للجنة على أى الأحوال ، إذ أن الديمقراطيين استردوا السيطرة على المجلسين في انتخابات الكونجرس في خريف ذلك العام

ولقد بدأ سيل التهوس بصدد الخطر الشيوعى المزعوم في الانحسار في كل مكان آخر كذلك . إذ أخذت منظمات — مثل الاتحاد الأمريكى للحريات المدنية ، وصندوق الجهاد لأجل الجمهورية — في إبراز ما هناك من خطر كامن على الحريات التقليدية في كثير من الهياج ضد « الراديكالية » . وعادت المحكمة العليا ، في سلسلة من الآراء المصوغة ببلاغة ، تعزز بحزم صلاحية قانون الحقوق ، وتحد من تطرفات لجان الكونجرس ، كافلة حق المواطنين في جوازات السفر مطالبة بالإجراءات القانونية الواجبة حتى في التحقيقات المتعلقة بالأمن ، وقاضية على الرقابة التى تفرض بالتشريع أو بالإرهاب .

أيزنهاور في جنيف

كان على الولايات المتحدة أن تتصدى بكل جهدها لأزمة إثر أزمة ، إزاء عدم انفراج التوترات العالمية . فإن تفجير قنبلتين هيدروجينيتين في المحيط الهادى — في سنة ١٩٥٤ — لم يمنح البلاد شعوراً بالأمن ، إذ أعلن الروس أنهم هم الآخرين قد امتلكوا القنبلة الهيدروجينية . ولقد بذلت حكومة أيزنهاور قصارى جهدها لتدعيم دفاعات أوروبا الغربية . وفي صيف سنة ١٩٥٤ ، اقترب من مرحلة القبول العام مشروع معاهدة لإقامة جماعة الدفاع الأوربي بإدماج القوات العسكرية لدول ست « فرنسا ، وألمانيا الغربية ، وإيطاليا ، وهولندا ، ولكسمبورج ، وبلجيكا » في جيش واحد . ثم خذلت الجمعية الوطنية الفرنسية المعاهدة بما وصفه أيزنهاور بأنه « نكسة كبرى » لسياستها . وزاد من أسى أمريكا أن الاتحاد السوفيتي كان يتوق في استتاته إلى تهشيم « جماعة الدفاع الأوربي » . بيد أن منظمة بديلة ، باسم الاتحاد الأوربي ظهرت إلى الوجود بمبادرة من أنتونى إيدن ، وزير الخارجية البريطانى ، مع تعهد بريطانيا العظمى بأن تبقى قوات كبيرة من قوتها في القارة الأوربية ، ما لم تنشب حالة طارئة حادة فيها وراء البحار .

٦٠٩ حكومة أيزنهاور

إذ ذاك مضت إعادة تسليح ألمانيا الغربية قدماً ، تحت إشراف الاتحاد . فمنحت هذه الدولة حق إنشاء جيش من نصف مليون جندي ، يتولى قيادته القائد الأعلى لحلف شمال الأطلسي ، مما أثار فزع جاراتها الشرقية ، بل وفرنسا . وكان نصف هذا العدد من الجنود كافياً لأن يؤلف جيشاً قوياً ، إذا ما ضُمَّ إلى الفرق الأمريكية والبريطانية الموجودة في أوروبا ، وإلى القوات الإيطالية والفرنسية وقوات « الهنلوكس » . وقد تم هذا التدبير الجديد في أبريل سنة ١٩٥٥ .

وعقد في يوليو التالي اجتماع تاريخي في جنيف ، لقادة الدول الغربية الرئيسية وقادة السوفييت : أيزنهاور ، وإيدن (وقد أصبح رئيساً للوزراء) ، ودالز ، وفور ، ورئيس الوزراء السوفييتي بولخانين ، ورئيس الحزب الشيوعي نيكيتا خروشوف ، ووزير الدفاع يورجي زوكوف . وكان هدفهم استطلاع الفرص للأسس التي يمكن أن يقوم عليها اتفاق بين بلادهم . وكان نزع السلاح وتوحيد ألمانيا هما الموضوعين الرئيسيين . وقد قال أيزنهاور : « سنكون متسامحين واسعى الصدور ، لأن هذه الدولة لا تسعى إلى فرض نهجها في الحياة على سواها » . وسرعان ما أصبح الرئيس الشخصية المهيمنة على المؤتمر ، وأحدث أثراً مواتياً ممتازاً لدى الرأي العام العالمى ، بصدق عرضه لمشروع « السموات المفتوحة » للتفتيش الذى كان نيلسون روكفلر ومجموعة من الخبراء قد وضعوه ، وهو مشروع يسمح لأجهزة مفوضة بالقيام بجولات استطلاعية تصويرية مستمرة من الجو للدول الكبرى ، على أصول وفي حدود يتفق عليها . وقد أعلن أيزنهاور أن أمريكا مستعدة لأن تبنيح سماء مساحتها بأكملها للتصوير من الجو ، إذا قبلت روسيا أن تفعل المثل ، للتأكد من عدم تجاوز الأسلحة الحدود المتعاهد عليها . ولقد ولدت صراحة تبادل الآراء في المؤتمر بفترة وجيزة جواً مبشراً بالأمل ، حتى إن الناس راخوا يحبون « روح جنيف » . بيد أن عموميات الجلسات لم تتحول إلى خطوات عملية قط ، وسرعان ما تبخرت الروح .

انتخابات عام ١٩٥٦

كان الناس قد بدأوا يتحدثون عن الانتخابات الرئسية المقبلة ، عندما أصيب أيزنهاور في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٥٥ بأزمة قلبية . ووضعت سرعة تعافيه نهاية للحديث عن أنه

٦١٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

قد لا يُرشح مرة أخرى . فقد رأى قبول إعادة ترشيحه إذ كانت قد بقيت ثمة إجراءات جديدة بالتحقيق . وكان يرجو أن يعزز سيطرة السياسة الجمهورية الجديدة الليبرالية ، وقد بدا أن مكانته الدولية كانت ذات نفع ، وقد اتفق مع قادة الحزب على أنه « الجمهورى » الوحيد القادر على الفوز الأكيد فى الانتخابات . وزاده ارتياحاً أنه أعد الحسابات الختامية للميزانية لسنة ١٩٥٥ - ١٩٥٦ ، فأثبت فائضاً صغيراً . ولقد ثار بعض المعارضة لإعادة ترشيح نيكسون نائباً للرئيس ، ولكنها انصهرت أمام شمس رضا أيزنهاور . وسرعان ما ثبت أن شعار : « إننا نؤثر آيك » قد أثار شعوراً واسعاً .

وولى الديمقراطيون وجوههم مرة أخرى صوب زعيمهم المبرز أدلاى ستيفنسون . وقد دعا ستيفنسون ، فى خطاب بليغ أعلن به قبوله الترشح ، إلى « أمريكا جديدة » تكرس جهودها للسلم العالمى ، ومحو الفقر ، وتحقيق الحرية للجميع دون مراعاة لعنصر أو عقيدة . وشهدت الأيام الأخيرة للحملة أنظار الأمريكين تتحول فجأة إلى شؤون الشرق الأدنى . فقد استولى حاكم مصر الجديد ، البكباشى جمال عبد الناصر ، على قناة السويس وهدد إسرائيل بالحرب ، ليعزز مركزه المتأرجح . وقبل أن يتمكن عبد الناصر من شن هجوم ، غزا جيش إسرائيلى الأراضى المصرية فى ٢٩ أكتوبر ، وبادرت بريطانيا وفرنسا بتقديم إنذار إلى الحكومة المصرية على الفور ، اردفته بعمل عسكري متعجل . وفى الوقت ذاته ، انفجرت طاقة التذمر المختزنة فى المجر الخاضعة للسيطرة السوفيتية . هذان الانفجاران فى الخارج أفادا قائمة مرشحي الحزب الجمهورى ، إذ دعماها بالحجة القائمة « لا تغيروا الجياد فى وسط مجرى الماء » . ومع أن ستيفنسون شن حملة امتازت بتحليل قدير للمشكلات القومية ، فإن أيزنهاور فاز بانتصار ضخم . فأحرز تأييد واحدة وأربعين ولاية مقابل سبع لستيفنسون ، واستأثر بأكثر من سبعة وخمسين فى المائة من الأصوات الشعبية ، بل إن قائمة الولايات التى انحازت له ضمت الولايات الجنوبية الخمس : فيرجينيا ، وفلوريدا ، وتكساس ، وتيسى ، ولويزيانا . ومع ذلك فقد احتفظ الديمقراطيون بسيطرتهم على الكونجرس بأغلبية حاسمة فى مجلس النواب ، وأغلبية ضئيلة فى مجلس الشيوخ . ومن الجلى أن الانتخابات أسفرت عن انتصار شخصى وليس حزبياً .

الشؤون الخارجية : أزمة السويس وما بعدها

كان على الحكومة أن تواجه ، عقب إعادة انتخاب أيزنهاور مباشرة ، مضاعفات الاعتداءين الإسرائيليين والآنجلو-فرنسي على مصر . فقد كانت للولايات المتحدة بعض المسؤولية عن الاتجاه المنكود للأحداث . كانت وزارة الخارجية غير راضية عن نظام الحكم شبه الديكتاتوري الذي أقامه جمال عبد الناصر في مصر ، فكانت ترجو سقوطه . وفي أواسط شهر يوليو سنة ١٩٥٦ ، ألغت واشنطن قرصاً قدره ٧٠ مليون دولار للمساعدة في الإنفاق على إنشاء سد عالٍ على النيل في أسوان . وكانت هذه خطوة سببت للقاهرة غماً شديداً . فإن هو إلا أسبوع حتى أذهل عبد الناصر الدول الغربية بتأميم قناة السويس ، التي ظلت زمناً طويلاً خط مواصلات حيويّاً بين أوروبا وموارد النفط في الشرق الأوسط ، وبين كل من بريطانيا وفرنسا والدول التابعة لهما في المحيطين الهادئ والهندي .

وفي هذه اللحظة بالذات ، غزت إسرائيل شبه جزيرة سيناء ، ودفعت بريطانيا وفرنسا بجنود في منطقة القناة . ولقد غاظ واشنطن أن الحركة الآنجلو-فرنسية اتخذت دون أى إنذار مسبق ، إذ أن العمل المتعجل تجاهل الحاجة إلى اتحاد محكم بين أعضاء منظمة حلف شمال الأطلسي ، فضلاً عن أنه وهب الشيوعيين مادة جاهزة للدعاية ضد « الإمبرياليين » و « المعتدين » الغربيين ، وهي مادة زاد من نفعها أنها تسرت بعد الثورة الشعبية في المجر ، التي قمعها الجنود السوفييت بوحشية قاسية . فتدفق على النمسا ويوغوسلافيا آلاف من المجرين الهاربين من الإرهاب ، في حين قامت مظاهرات مهتاجة ضد السوفييت في بولندا ، في الوقت ذاته . ومن الطبيعي أن الروس استغلوا قضية السويس كل استغلال ممكن ، وقدر لمجلس الأمن بالأمم المتحدة أن يشهد في ٣١ أكتوبر المشهد الغريب : مشهد الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي يصوّتان معاً مجبذين قراراً لوقف إطلاق النار ، نقضته فرنسا وبريطانيا إذ ذاك .

ورفض أيزنهاور اقتراحاً لرئيس الوزراء بولجانيين بتدخل عسكري مشترك من الروس والأمريكيين باعتباره « أمراً لا سبيل للتفكير فيه » ، و « محاولة واضحة لتحويل انتباه العالم عن الفاجعة المجرية » . وعندما تصدت الجمعية العامة للأمم المتحدة ، في أوائل

٦١٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

نوفمبر ، للموقف بالموافقة على قرار معدّل لوقف إطلاق النار ، بأغلبية ٦٤ صوتاً إلى ٥ ، انصاعت بريطانيا وفرنسا ، وما لبثتا أن سحبتا جنودهما في صَغار ليس بالقليل . وقد دبرت الولايات المتحدة لتيسير ذلك مجعاً نفطياً لتزيد من إمداد بريطانيا بالبترو ، إذ كانت القناة مغلقة بسفن أغرقها المصريون . ومع أنه كان من العسير حمل القوات الإسرائيلية على مبارحة شبه جزيرة سيناء — إذ أصرت إسرائيل على ضمانات لثمتها بحق الملاحة في خليج العقبة — فإن عام ١٩٥٦ لم ينته حتى كان الموقف في الشرق الأوسط مستقراً إلى حد كبير . ولقد أثبت عبد الناصر ، الذي تلقى درساً قاسياً ، قدرته على إدارة قناة السويس بكفاءة حملت الدول الأخرى على قبول سيطرته عليها ، مقابل وعود ضمنية بحسن السلوك . بيد أنه تشبث برفضه فتح القناة للسفن الإسرائيلية ، فأخفق دالز في الوفاء بضماناته لإسرائيل .

وفي هذه الأثناء ، أقام الروس في المجر حكومة عميلة جديدة ، بعد قتل آلاف من العمال والمثقفين ، واغتيال إيمرى ناجى رئيس الحكومة الديمقراطية القصيرة العمر . كذلك استعادت السلطات السوفييتية تسلطها على بولندا ، بعد إخماد القلاقل الشديدة ، وإن اضطرت إلى بذل تنازلات هامة للشعب البولندى الألبى .

وأدى خذلان هبوط القوات الأنجلو — فرنسية في مصر إلى خلق فراغ في النفوذ في الشرق الأوسط ، فأرى أيزنهاور ودالز أنه لا غنى للولايات المتحدة عن أن تملأ هذا الفراغ . وقد تضمنت رسالة رئاسية خاصة ، في ٥ يناير سنة ١٩٥٧ ، ما أصبح معروفاً باسم مبدأ أيزنهاور ؛ ولقد قال الرئيس : « نحن لا ننشد العنف ، بل نسعى للسلام » . ومع ذلك فقد طلب إلى الكونجرس أن يتحول سلطة استخدام القوة في الشرق الأوسط إذا دعت الضرورة « لتحقيق وحماية وحدة أراضي أية دولة تطلب معونة من هذا القبيل ضد عدوان مسلح صريح من أية دولة تحت سيطرة الشيوعية الدولية . كذلك طلب ٢٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دولار لتقديم المساعدة العاجلة لدول المنطقة في التنمية الاقتصادية والدفاع . واستجاب مجلس النواب على الفور ، ومع أن حفنة من أعضاء مجلس الشيوخ أبدوا معارضة شديدة ، فإن هذا المجلس وافق بدوره على مبدأ أيزنهاور في أوائل سنة ١٩٥٧ ، بأغلبية ٧٢ صوتاً إلى ١٩ . ومع أن الغرب حبّد المبدأ الجديد ، فإنه أثار عداً في الشرق الأوسط ، ونقداً حاداً من نهرو ، وعملاً مضاداً فورياً من السوفييت .

الزنجى وحقوقه

كان المواطنون الزنوج يبدون ، طيلة هذا العقد من الزمن ، روحاً نضالية جديدة في معركتهم من أجل الحقوق المدنية والعدالة الاجتماعية . ففي سنة ١٩٥٥ ، بدأ الزنوج في مقاطعة الحافلات « الاتوبيسات » العامة في مونتجمرى ، بولاية ألاباما ، لأن خطوط الحافلات كانت تفرّق بين العناصر العرقية وفقاً لقانون الولاية ولوائح المدينة . ولكن الخطوط رُزحت تحت تناقص الدخل . واستمرت المقاطعة في إصرار طيلة عام ١٩٥٦ ، وإن كانت سلطات البيض قد حاولت إيقافها بالاعتقالات وبأحكام السجن ، كما أن قاضياً واحداً حرّم على الزنوج استخدام السيارات بالمشاركة^(١) في الانتقالات . وأخيراً ، قضت المحكمة العليا ، في نوفمبر سنة ١٩٥٦ ، بعدم صلاحية قوانين التفرقة باعتبارها انتهاكات للتعديل الرابع عشر للدستور ، وبذلك نبذت مرة أخرى مبدأ المساواة مع الفصل بين العناصر في المرافق ، الذى قضت به المحكمة لأول مرة في قضية « بليسى ضد فيرجسن » في سنة ١٨٩٦ . ولقد أحبطت سلسلة من قرارات المحكمة جهود الولايات الجنوبية للقضاء على التدخل في نشاط الجمعية القومية لتحسين أحوال الملّونين ، إذ دعمت هذه القرارات حق أى مواطن في الانضمام لهذه المنظمة . ولقد ازدهرت الجمعية تحت وطأة الاضطهاد ، وشنت في سنة ١٩٦٠ حركة مقاطعة قوية الأثر ضد متاجر التجزئة التى كانت تمارس التفرقة في أقسام الوجبات الخفيفة بها .

وكان حق الانتخاب مكفولاً بمقتضى التعديل الخامس عشر للدستور ، ولكن الزنوج كانوا يُحرّمون منه بإصرار ووقاحة شنيعة ، ثم اقترح أيزنهاور في سنة ١٩٥٦ تشريعاً لحمايته ، فكانت خطوة ساعدت على استرجاع كثيرين من الزنوج إلى الحزب الجمهورى في انتخابات الحريف . وجدد الرئيس توصيته في العام التالى بعبارات أشد تأكيداً . ومع أن شيوخ الجنوب قاموا بمعارضة غاضبة ، فإنه ظفر بتأييد الحزبين ، وأجاز كل من المجلسين في نهاية الأمر مشروع قانون معتدلاً بأغلبية ساحقة . وبهذا حظى أيزنهاور بالإرضاء إذ وقع في ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٧ أول قانون للحقوق المدنية منذ عهد حكومة جرانث . ولقد أقام القانون الجديد لجنة للحقوق المدنية لها سلطة استدعاء الشهود في

(١) اشترك عدد من الأفراد في استئجار سيارة يتقاسمون أجرها - المترجم .

تحقيقاتها بصدد كافة الانتهاكات لحقوق المواطنين في الانتخابات ، الانتهاكات القائمة على اللون أو العنصر أو الدين أو الأصل القومي ، على أن ترفع اللجنة تقاريرها إلى الرئيس . كذلك نص القانون على مساعد للمدعى العام يتولى قسماً خاصاً بالحقوق المدنية في وزارة العدل ، أنيطت به مسئولية اتخاذ الإجراءات القضائية فيما يتعلق بأى خرق للقانون . وسار تنفيذ هذا القانون ببطء وخطوات غير متساوية ، ولم ينقض وقت يذكر حتى تبين أنه لابد من قانون أشد ، إذا أريد للزنجى أن يحظى بحق الانتخاب .

ولا يقل عن هذا أهمية الحق في المساواة في التعليم . وكانت المعركة في هذا المضمار ضارية وطويلة . ففي ١٧ مايو سنة ١٩٥٤ ، أصدرت المحكمة أهم قرار في تاريخ العلاقات العنصرية ، في قضية « براون ضد تويكا » . وعبر كبير القضاة وارن عن رأى هيئة المحكمة بالإجماع ، فأعلن أنه لابد من إنهاء التفرقة العنصرية في المدارس العامة . ونيز القرار المبدأ القديم : مرافق « منفصلة ولكنها متساوية » ، إيماناً بأن الفصل في حد ذاته مجافاة للمساواة ، ودعا سلطات التعليم في الولاية وفي الأوساط المحلية إلى إنهاء التفرقة « بكل سرعة يمكن تدبيرها » . واضطلعت سلطات التعليم على طول الحدود ، من بليمور إلى مدينة كنساس إلى أعماق تكساس ، بتطبيق هذا القرار ، بتدبير وروية أكثر منها بسرعة في بعض الأحيان . بيد أن خطأ من المقاومة الحاقدة امتد من فيرجينيا حتى لويزيانا . وفي سنة ١٩٥٦ ، قبلت جامعة ألاباما بأمر من المحكمة فتاة كانت أول طالبة زنجية بها ، بيد أنها انصاعت لعنف غوغائى وفصلتها . ولقد سنت ثمان ولايات جنوبية في سنة ١٩٥٦ قوانين متباينة الأنواع استهدافاً للإبقاء على التفرقة ، وكانت كلها تقريباً مجافاة صريحة للدستور . ثم حدث انفجار للعنف في ليتل روك بولاية أركنساس ، في سنة ١٩٥٧ .

كان مجلس المدارس في تلك المدينة قد عنى باتخاذ استعدادات مدروسة لإلحاق تسعة من الزنوج بمدرستها الثانوية المركزية ، وتوقع معظم الناس أن يجرى إدماج العناصر في هدوء . ولعل الأمر كان يمضى على هذا النحو ، لولا أن الحاكم أورفال إى . فاويس ، بث الحرس القومى حول المدرسة ، في اليوم السابق على افتتاح الدراسة ، ليمنع الصغار الزنوج ، زاعماً أن هذا كان إجراء ضرورياً للحيلولة دون القلاقل الغوغائية . وقد أغرى هذا أنصار التفرقة من خارج المدينة بالتجمع وإحداث الاضطراب المرتقب . وفي ٢٣ سبتمبر ، أمر الرئيس أيزنهاور كل المعرقين للسلطة

٦١٥ حكومة أيزنهاور

القومية في ليتل روك بأن تنصرف وتتفرق . فتحدى فاوبس الحكومة الاتحادية . وهذا أعاد تدعيم مبدأ « اعتراض الولاية » ، الذى كان كاهون قد نادى به ، ولكن الحرب الأهلية طوّحت به إلى نسيان غير رسمى . ولم تكن لدى الرئيس أيزنهاور أية رغبة فى التساهل إزاء مثل هذا التحدى ، فأمر على الفور بضم الحرس القومى بولاية أركنساس للخدمة الاتحادية ، واستخدامه فى تعزيز سلطة المحكمة ، وأتبع هذه الخطوة بإيفاد ألف من جنود المظلات التابعين للولايات المتحدة إلى ليتل روك . وإذ سُدت المنافذ فى وجه فاوبس ، حاول اتباع مسلك آخر . ففي عام ١٩٥٨ ، دعا الهيئة التشريعية إلى دورة خاصة ، وحملها على أن تخوّل سلطات فردية على النظام المدرسى ، ثم أغلق مدارس ليتل روك الثانوية الأربع بأكملها فى سبتمبر . وقد أضر هذا بالطلبة البيض إلى درجة جعلت سحق الرأى العام المستنير يضطره إلى الترحيح عن موقفه فى آخر الأمر . ولقد أضر تصرفه الدهماوى بالمدينة والولاية ، وأساء إلى سمعة أمريكا فى الخارج ، وزاد من الحزازات والاحتكاكات العنصرية ، بيد أنه أفضى كذلك إلى إثبات أن السلطة الاتحادية هى العليا ، وأن التفرقة العنصرية فى طريقها إلى زوال .

ولقد عمدت السلطات المحلية فى ولايات أخرى ، لاسيما فيرجينيا ، إلى إغلاق المدارس لمنع إلحاق الطلبة الزنوج بها ، وهى سياسة أضرت بالصغار البيض ضررها بالزنوج ، بل أضرت بالمجتمع كله . ولقد أخفق مجهود فيرجينيا فى « المقاومة الصلبة » للإدماج العنصرى بقطع أموال حكومة الولاية عن المناطق التى ألغت التفرقة ، إذ أعلنت المحكمة العليا للولاية أن هذا العمل خرق لدستور الولاية ، بيد أن مقاطعة واحدة ، هى برينس إدوارد ، قررت إغلاق مدارسها جميعاً . وسار إلغاء التفرقة العنصرية ببطء شديد فى كل مكان فى أعماق الجنوب . ففي سنة ١٩٥٨ لم تأخذ بالإدماج فى مدارسها سوى ٧٩٠ منطقة تعليمية من ١٨٩٠ منطقة فى ولايات الحدود والجنوب ، بيد أنها لم تلحق بالمدارس سوى ٤٠٠٠٠٠ زنجى . ومع ذلك فقد انتخبت فى ذلك العام امرأة زنجية لعضوية مجلس التعليم فى هيوستون بولاية تكساس ، وشرعت فى المساهمة فى خطة لمحو التفرقة فى هذه المدينة الكبيرة . وعندما ألحق طلبة زنوج بالمدارس الثانوية فى أتلانتا ، بولاية جورجيا ، فى سنة ١٩٦٠ ، لم تبق بدون إدماج عنصرى - ولورمزى - سوى ثلاث ولايات ، هى : المسيسيبي ، وألاباما ، وكارولينا الجنوبية . وفى سنة ١٩٦٢ ، شهدت ولاية المسيسيبي إلحاق أول طالب زنجى بجامعة الولاية

٦١٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

فيها ، وإن عمد حاكم صعب المراس مرة أخرى إلى اضطراب قوة الاتحاد إلى حماية الطالب . وفي أوائل العام التالي ، التحق أول طالب زنجي بكلية كليمنسون ، بولاية كارولينا الجنوبية ، دون حادث يذكر .

وفي ١٩٦٠ - ١٩٦١ ، أدلت أعداد كبيرة من الزوج بأصواتها في الانتخابات ، في مدن جنوبية كبيرة مثل ممفيس وأتلانتا ، وفي كافة أرجاء الشمال . وعينت الحكومة الجديدة - حكومة كينيدي - عدداً من الزوج في مناصب رفيعة ، فعُين منهم روبرت سي . ويفر رئيساً لوكالة الإسكان والتمويل الداخلي ، وجورج إل . بي . ويفر مساعداً لوزير العمل ، وثيرجود مارشال قاضياً في محكمة الاستئناف بالمنطقة الثانية ، وجون بي . دنكان مفوضاً (قوميسير) لمنطقة كوليبيا ، وكارل تي . روان سفيراً لدى فنلندا .

واشتد الصراع من أجل حقوق الزوج بعد سنة ١٩٦٠ . فسعى الزوج إلى إيجاب الحركة النقابية للعمال في كافة أرجاء البلاد على منحهم الاعتراف الكامل ، وكافحوا ضد التفرقة العنصرية الواقعية في المدارس في مدن شمالية كبيرة ، وطالبوا بإسكان أفضل ، إذ أن الأحياء الفقيرة في مواقع مثل هارليم وجنوب شيكاغو كانت من أسوأ الأحياء الفقيرة في العالم . وفي أثناء عام ١٩٦١ ، قام « فرسان الحرية » بحملة ضخمة لضمان المساواة في المرافق في السفر بالحافلات بين الولايات . وتعرض « الفرسان » للاعتقال ولأحكام قاسية في ألاباما والميسيسيبي جزاء إصرارهم على استخدام الاستراحات ، وحجرات الانتظار ، والمطاعم في محطات الحافلات ، دون تفرقة عنصرية . وقد فازوا بمأربهم عندما طالبت لجنة التجارة المتبادلة بين الولايات ، في ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٦١ ، بالمساواة وعدم التفرقة في أماكن الجلوس بجميع الحافلات المتنقلة بين الولايات ، وبمحو التفرقة في المرافق بكافة المحطات النهائية . وما لبث موقفهم أن حظى بدعم في المحاكم .

صعاب داخلية : ١٩٥٧ - ١٩٦٠

اقتربت السنوات الأربع لحكومة أيزنهاور الثانية بالاضطراب ، بل بالتجهم والشقاء . فإن نوبة ركود اقتصادي كانت قد بدأت في أواخر سنة ١٩٥٧ ، وبلغت تمام أبعادها في سنة ١٩٥٨ . ومع أنها كانت قصيرة بقدر ما كانت حادة ، فإن عدد المتعطلين تجاوز في

٦١٧ حكومة أيزنهاور

فترة من الوقت خمسة ملايين ، أو ما يقرب من ثمانية في المائة من القوى العاملة . وكانت نتيجة هذا من أسباب ارتفاع العجز في ميزانية الحكومة للسنة المالية ١٩٥٨ - ١٩٥٩ إلى ما فوق اثني عشر مليوناً ونصف المليون بقليل - وهو أكبر عجز حدث في تاريخ أوقات السلم - مع أنه كان دون الثلاثة ملايين في ١٩٥٧ - ١٩٥٨ . كذلك كان على الأمريكيين في سنة ١٩٥٧ أن يواجهوا ضرورة القيام بتحسينات بعيدة المدى في نظمهم العلمية والتعليمية على الفور . إذ أن نجاح الاتحاد السوفييتي في أواخر ذلك العام في إطلاق أول أقمار الدنيا الصناعية مجهزاً بكافة الأجهزة ، أظهر أن الولايات المتحدة كانت متلكئة في ميدان حيوى الأهمية . ولحققت البلاد خلال سنة ١٩٥٨ بركب سباق عصر الفضاء ، إذ أطلقت القمرين الصناعيين « فانجارد » و « اكسبلورر » ، بيد أنه اتضح أن الأمة كانت بحاجة إلى فريق من الباحثين العلميين أكبر عدداً وأكثر خبرة مما كان لديها .

ولقد ظلت الحكومة ، في مضيتها في إجراءاتها في الكونجرس ، معتمدة على تحالف الديمقراطيين الليبراليين والجمهوريين ، إلى جانب أن زعيم الديمقراطيين في مجلس الشيوخ - ليندون بى . جونسون اللقب المصقول - كان أكثر مساعدة لها من وليم إف . نولاند زعيم الأقلية المحافظ المتعنت ، كما أن رئيس مجلس النواب الديمقراطى صمويل رايسر كان أكثر تعاوناً معها من جوزيف دبليو . مارتين رئيس الأقلية . ولقد كان الديمقراطيون في بعض العهود يشكون من افتقارهم إلى شخصيات قيادية للهيئة التنفيذية ، وبادروا بأنفسهم لعلاج ذلك . وامتازت الدورة الثانية للكونجرس الخامس والثمانين ، في سنة ١٩٥٨ ، بوفرة التشريعات المعتدلة غير ذات الطابع الحزبى . فمد الكونجرس مدى سريان قانون اتفاقيات التبادل التجارى مرة أخرى ، ولأربع سنوات في هذه المرة ، كما فوّض الحكومة في ثلاثة بلايين وثلاث البليون من الدولارات للمعونة المشتركة ، وأنشأ وكالة الطيران الاتحادية للإشراف على الخطوط الجوية التى أصبحت مزدحمة ، وإدارة قومية لأبحاث الطيران والفضاء لتوجيه جهود الحكومة في ارتياد الفضاء الخارجى ، ومنح ألاسكا وضع الولاية . وكانت المزاومات على السلطة بين أسلحة الجيش والطيران والأسطول مصدر قلق كبير لإيزنهاور ، فطلب إجازة مشروع قانون لإعادة تنظيم الدفاع يكفل إنهاء هذه المزاومات وإيكال مزيد من السلطة إلى وزير الدفاع وهيئة رؤساء الأركان المشتركة . وقد أجاز القانون بنوع من التراضى بين الحزبين .

ومع أن نجاح القمر الصناعي الروسى « سبوتنيك » أبرز ضخامة أهمية مزيد من الدعم للتعليم ، لاسيما التعليم العلمى ، فإن ما أحرز في هذا المجال كان ضئيلاً . ولقد حث الرئيس على اعتماد إعانة اتحادية لبناء المدارس ، ولكنه عندما أقر الكونجرس في آخر الأمر مشروع قانون ينص على هذه الإعانة ، اعترض الرئيس بحجة أنها تدخل غير لازم في استقلال الحكم المحلى . على أن الكونجرس أصدر فعلاً قانوناً للدفاع القومى فيما يتعلق بالتعليم ، فوُض الحكومة في استخدام ٨٨٧ مليوناً من الدولارات لإعانة طلبة التعليم العالى الموهوبين ، بقروض ذات فوائد منخفضة في المقام الأول . ومن المؤكد أن هذا لم يكن وافياً بوجه عام ، بيد أن الكونجرس كان يعكس اقتناع أيزنهاور الشخصى بأن الإعانة الاتحادية المباشرة للتعليم ، في جميع المستويات ، غير مستحبة ولا هى دستورية .

تنظيم الاقتصاد القومى

كان الحزب الجمهورى قد جاء إلى الحكم بعد عشرين عاماً من الحرمان ، وتعهد بأن يضع نهاية للإشتراكية « المتسللة » ، وأن يعيد « المشروعات الخاصة » (الاقتصاد الحر) . كان الجمهوريون يرون أن « دولة الرفاهية » شىء على الطريق المفضى إلى الشيوعية ، وأن الميزانية غير المتوازنة دعوة إلى الفوضى ، وأن التنظيم العمالى و « المثاليين الخرقاء » كانوا يقودون الشعب معاً إلى الخراب . ولم يكن الرئيس أيزنهاور على استعداد لاعتناق وجهات النظر الرجعية ، ولكنه أعانها وسرى عنها بأن أكد أن « الدور الحق للحكومة هو إقرار وتثبيت الاقتصاد » ، وبإيثاره المضى فيها سماء « وسط عرض الطريق » وب « السياسة المحافظة الدافعة » ، التى ثبت أنها كانت « محافظة أكثر مما كانت قوة دافعة » . واتخذت « السياسة المحافظة الجديدة » شكل سلب لجان التنظيم الحكومى المستقلة بحريتها ، أو حشدها بأعضاء لا يؤمنون باللوائح الحكومية ، والنزول عن موارد النفط تحت المياه الساحلية إلى الولايات ، وتحويل القطاع الخاص امتياز تشغيل منشآت الطاقة الذرية ، والتخلى عن مشروع إنشاء سدّ عند هيلز كانيون على نهر سنك تمّوله الحكومة الاتحادية وتولاه لتحل محله مشروعات سدود صغيرة تنشئها وتولاه الشركات

٦١٩ حكومة أيزنهاور

الخاصة للطاقة والكهرباء ، وتقييد حرية هيئة وداى تيسى ، وإنهاء الرقابات للسيطرة على الأسعار ومعدلات الإيجار ، وإبطال القانون الاتحادى لمقاومة تلوث المياه .

كان الديمقراطيون قد ظلوا يحاربون العمل والعمال عشرين عاماً ، فلم يكن ثمة عجب فى أن رأى الجمهوريون أن الوقت قد حان لتقييد الامتيازات والسلطات التى أصبح العامل يستمتع بها ويسىء استعمالها . فقامت لجنة السيناتور ماكليان - التى شكلها مجلس الشيوخ للنظر فى الأنشطة العمالية غير اللائقة - بإجراء تحقيقات وتحريات بصدد إضراب اتحاد عمال السيارات ضد شركة كوهلر فى راسين بولاية ويسكونسين ، وسلوك جيمس هوفازعيم اتحاد عمال الشاحنات (سيارات النقل) ، وهو اتحاد عمالى شديد العنف . وقد اتهمت اللجنة هوفاً باليمين الكاذبة وبجرائم أخرى ، واتهمت نقابته بقمع الأعضاء الذين كانوا يسعون لطرد زعمائهم الفاسدين بوحشية . وسعيًا وراء جعل النقابات العمالية أكثر ديمقراطية فى تنظيمها ، ولعاقبة من يسيئون استغلال أموال النقابات ، أجاز الكونجرس فى سنة ١٩٥٩ مشروع قانون لندروم - جريفين ، الذى وقعه الرئيس على الفور . وقد منح القانون أعضاء النقابات حماية كاملة فى القول والتصويت فى المسائل المتعلقة بالعمل والإدارة ، وفرض على النقابات تقديم تقارير كاملة عن مالياتها ، وقيد مرابطة العمال أمام أبواب المصانع فى الإضرابات لمنع غير المضربين من العمال ، وحرم المقاطعة الثانوية . ومع أن هذا القانون كان نافذ المفعول بوجه عام ، فإنه لم يكن ذا أثر يذكر فى علاج المساوىء التى التصقت باتحاد عمال الشاحنات إلى أن تمكنت حكومة كينيدي من سوق الزعيم المتغطرس لهذه النقابة إلى ساحة القضاء ، حيث قضى عليه بالسجن من جراء جرائمه .

أيزنهاور يفقد كبار معاونيه

اعتمد الرئيس أيزنهاور طيلة مدة حكمه اعتماداً كبيراً على رجلين : جون فوستردالز ، الذى كان يطمئن اطمئناناً تاماً إلى حكمته فى الشؤون الخارجية ، وشيرمان آدمز من نيوهامبشاير ، الذى كان يدعوه « يدى اليمينى » فى إدارة الشؤون الروتينية للبيت الأبيض ، والذى كان يمحّصه رأى بذكاء اليانكى الحريص ، وقد فقدتهما معاً فى فترة

٦٢٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

لم تتجاوز ثمانية أشهر . ولقد واجه دالز كثيراً من الأزمات العصبية ، ومنها الأزمات التي اكتنفت مباحثات الهدنة الكورية في سنة ١٩٥٣ ، وهزيمة فرنسا على أيدي القوات الشيوعية في الهند الصينية في سنة ١٩٥٤ ، وتهديد فورموزا بهجوم صيني في ١٩٥٤ - ١٩٥٥ . وكان يتطلع متمنياً إلى وحدة الحليقات الغربية ، وأسهم في الوصول بمنظمة حلف شمال الأطلسي إلى مركز قوى مدعم ، وتعاون مع انتوني إيدن في ضم ألمانيا الغربية إلى النظام الدفاعي للعالم الحر ، كما كان المنشئ الرئيسي لمنظمة حلف جنوب شرق آسيا ، وذلك في مؤتمر مانيلا في سبتمبر سنة ١٩٥٤ . وكان داعية راسخ العزم لقيادة أمريكا للعالم الديمقراطي ، ولسخاء أمريكا في مساعدة الدول الأضعف . وقد ظفر بإيمانه بقدر الأمة ، وإدراكه الواعي للواجب ، وإخلاصه المتفاني لرئيسه ، باحترام الناس ، حتى أولئك الذين كانوا يرونه عنيداً ومستبداً ، أو الذين لم يكونوا يطمئنون إلى ما سواه أدلاى ستيفنسون « سياسة حافة الهاوية » — أى استعداده للمجازفة بحرب عالمية — والذين كانوا يكرهون منه مظهر التعالي الذي اعتاد أن يبدو به .

أما شيرمان آدمز فقد عرف ببرود طباعه واقتضابه الكلام وتزمته الصارم إزاء مقابلات الرئيس ، مما أكسبه كراهية معظم أعضاء الكونجرس والمسؤولين في واشنطن . وفي عام ١٩٥٨ تعرض لمسألة سياسية . فإن لجنة فرعية بمجلس النواب ، للتحري عن لجان التنظيم الحكومي المستقلة ، نشرت وثائق تبين أن أحد رجال الصناعة في بوسطن ، ويدعى برنارد جولدفاين ، دفع نفقات كبيرة لفندق ، عن إقامة آدمز وأسرته ، في فترة كان جولدفاين فيها متورطاً في تحقيقات كانت لجنة التجارة الاتحادية ، ولجنة الأوراق المالية و « البورصة » ، تجريانها . ولقد أقر آدمز بأنه تقبل هدايا أخرى ، ولكنه أنكر ارتكابه أى ذنب . ولقد طلب كثير من الجمهوريين — الذين كانوا يتأهبون لحملات إعادة الانتخابات في الخريف — تنحيته عن منصبه . حتى إذا انحازت أغلبية ولاية مين إلى الديمقراطيين ، استقال . ومن المحتمل أنه كان لهذه المسألة أثر في الفوز الحاسم للديمقراطيين في ذلك الخريف ، إذ ظفر الحزب بثلاثة عشر مقعداً — فوق ما كان له — في مجلس الشيوخ ، وخمسين في مجلس النواب . وكان شعور أيزنهاور بالخسارة قاسياً ، إذ كان هو الذى تشبث بآدمز . وكانت وفاة دالز بالسرطان ، في ٢٤ مايو سنة ١٩٥٩ ، أقسى وطأة على أيزنهاور من فقدانه آدمز . ولقد شغل كريستيان هيرتر ، من مساشوستس ، مكانه على رأس وزارة الخارجية ، ولكن أيزنهاور احتفظ بالشؤون

٦٢١ حكومة أيزنهاور

الخارجية إلى حد كبير في يديه . ولقد أبدى الرئيس في العام ونصف العام الآخرين من حكمه ، قدراً متزايداً من الاعتماد على النفس ، وأتاح للبلاد قيادة أقدر .

الولاء في الحكومة

عندما بدأ أيزنهاور الاستيلاء على مقاليد البيت الأبيض ، كان السيناتور مكارثي يثير ضجة حول موضوع الشيوعيين في الحكومة ، وهو الموضوع الذي كان زائفاً في مجموعه تقريباً . ولقد واصل حملاته على وزارة الخارجية ، حتى بعد أن تولاه دالز ، واشتد إلى درجة مهاجمة أيزنهاور لضمه بريطانيا في نظام للأمن المتبادل بعد أن كانت هذه الدولة قد اعترفت بالصين الحمراء . وكان الرئيس يبغضه ولكنه أبى أن ينازله في نضال صريح . وواصل مكارثي في هذه الأثناء مضايقة الموظّفين العامين ، وقذف الأمناء باتهامات لا أسس لها ، وإرهاب موظفي وزارة الخارجية الأمريكيين في الخارج ، وذلك في سلسلة من التصرفات غير المتسمة بالمسئولية ، والتي تحملها دالز في جين كان مثار دهشة . ولقد لقي سقوط مكارثي في سنة ١٩٥٤ قبولاً عاماً باعتباره من الصالح العام . ولقد اطمأن الناس ، حتى أشدهم هلعاً ، إلى الانهيار الفعلي للحزب الشيوعي . ومع ذلك ، وبالرغم من هبوط عدد أعضائه إلى حوالي ١٠ ٠٠٠ ، فإن جيه . إدجار هوفر ، رئيس مكتب التحقيقات الاتحادى F.B.I. ، ظل يعلن أن هذا الحزب عدو شديد الخطر على الأمن الأمريكى .

وفي سنة ١٩٥٤ ، دعم قانون الأمن الداخلى ، الذى صدر في سنة ١٩٥٠ لمعاملة الموظفين الحكوميين عديمى الولاء ، بقانون القضاء على الشيوعية ، قضى بإلغاء الحزب الشيوعي باعتباره مجافياً للقانون . ومن المؤكد أن المدعى العام هربرت براونيل بث في أنشطة وزارة العدل قسوة وصرامة مفرطتين ، كما ظهر في جهوده المجهضة لإدانة العالم أوين لاتيمور . وهى جهود استحوطت اللوم والاستنكار من المحاكم الاتحادية . ولقد ظل الخوف من الغدر من ناحية الهدامين الذين يحتلون بعض المناصب ، ومن الفساد الناجم عن الكتب والآراء والأفلام والمجلات والبرامج التليفزيونية الهدامة . . ظل هذا الخوف حتى نهاية ذلك العقد من القرن يستبد بكثير من الأمريكيين ، وأدى إلى قيام فورات من

الاضطهاد وعدم التسامح . وكانت الحكومة في عهد ترومان قد تناولت « مخاطر عدم الولاء » ، ولكنها وسعت نطاق عنايتها في عهد أيزنهاور ليضم « المخاطر التي تهدد الأمن » . وزاد هذا التغيير من عمق واستفحال فوضى التعبيرات اللفظية . وقد ظلت المحكمة قلعة للدود عن الحقوق المكفولة بالتعديل الأول للدستور . فقضت في سنة ١٩٥٦ مثلاً ، ببطلان برنامج للأمن وضعته ولاية بنسلفانيا على أساس أن الحكومة القومية قد وفّت هذا الميدان حقه . كما أبطلت في سنة ١٩٥٨ قانوناً لولاية كاليفورنيا كان يقتضى من رجال الدين أن يؤدوا يمين الولاء ليظفروا لكنائسهم بالإعفاء من الضرائب . بيد أن المحكمة ذاتها كانت منقسمة على نفسها . فكان ثمة فريق من الليبراليين ، بزعامة القاضى الجليل « بلاك » ، على استعداد لهدم أى تشريع يبدو أنه انتهاك للتعديل الأول . وكان ثمة فريق آخر بقيادة القاضى المبرز فرانكفورت رآى أن الليبرالية الحقة تتطلب من السلطات القضائية ضبط النفس ولو فى مواجهة تشريع صار بشكل واضح .

الولاية الخمسون

طلع عام ١٩٦٠ على الأمة وقد أصبحت مؤلفة من خمسين ولاية . إذ صدر فى مارس سنة ١٩٥٩ قانون منح هاواى وضع الولاية ، بأغلبية ساحقة فى مجلس الكونجرس . وكنتيجة لذلك ، لم يلبث مجلس الشيوخ أن رحب بأول عضوبه من أصل شرقى ، وهو هاواى من أصل صينى ، كما شهد مجلس النواب أول عضوبه من أصل يابانى يؤدى اليمين الدستورية .



الفصل ٢٩

حدود جديدة : التمديد

أى الحزبين فى الحكم ؟

لم تغلب أية مسألة قومية كبيرة على الحملة الانتخابية للرئاسة فى سنة ١٩٦٠ ، ولا خيمت عليها ظلال مسألة دولية يحتدم بشأنها الجدل . فقد تقادم العهد بالأيام التى كان الناخبون فيها يختلفون بضراوة بصدد مسألة الأرض المباحة أو التعريف الجمركية أو العملة أو العلاقات مع بريطانيا أو اسبانيا أو ألمانيا . كان التعاون بين الحزبين قد طبع فى العهد الأخير عمل الكونجرس فى معظم المسائل الداخلية ، وكان التعاون بين الحزبين منشوداً بحرص وعناية فى الشؤون الخارجية . كانت ثمة مشكلات مستعصية تواجه الأمة ، ولم يكن القوم على فكر واحد بصدد حلها ، غير أن أهم الخلافات لم تكن بين الديمقراطيين والجمهوريين ؛ وإنما كانت بين الجناحين الليبرالى والمحافظة فى كل من الحزبين . وكان الناخبون فى قلق من متاعب إلغاء التفرقة العنصرية فى المدارس والهيئات العامة ، فكانت المشاعر متأججة بصدد هذه المسألة ، ومع ذلك فإن كلا من الحزبين الكبيرين كان يؤمن بحكم الضرورة بوضع نهاية للتفرقة . كذلك كان القوم منقسمين بفضل الآراء المتباينة بصدد الضرائب ، والإنفاق على الدفاع ،

٦٢٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

والأسلوب السليم لعلاج العناصر الهدامة ، والتشريعات العمالية ، بيد أن كلا من الحزبين كان يعالج هذه الأمور بنفس الطريقة المعتدلة . وفي المجال الخارجى ، كان الأمريكيون جميعاً فى الواقع يواجهون روسيا بعزم واحد : السعى إلى تسوية سلمية للأمر الذى يدور حولها الجدل ، دون التزحزح عن الدفاع حتى النهاية عن التراث القومى من الحرية ، ومنح حلفائنا الأحرار العون والحماية .

كانت البلاد ، بعد ثمانية أعوام من سلبية أيزنهاور وعرقلة الكونجرس ، متعطشة إلى قيادة ، إلى مزيد من الجرأة ، وسعة الأفق ، والإقدام فى واشنطن . كانت ترجو أن تأتى الانتخابات الرئاسية برجال قادرين على تخفيف التوترات بين واشنطن وموسكو ، وتخفيف عبء التسليح المروع . كانت تصبو إلى قائد يستحث التنمية الاقتصادية للبلاد التى كانت متلكئة بشكل واضح ، ويذود عن الحقوق المدنية بمزيد من الحمية والنشاط ، ويدخل مزيداً من سعة الأفق لحل المشكلة الزراعية المحيرة ، ويتبنى الدفاع عن زيادة الإنفاق على التعليم ، ويتصدى للحاجات الناشئة عن النمو السريع للسكان . كان ثمة جيل جديد يتولى السيطرة على البلاد . كان كثيرون من أبناء هذا الجيل يتوقون إلى زعماء خلقين يوقظون الشعب من إغفائه الناشئة عن الانغماس فى الأهواء الذاتية ، ويقودون جهاداً من أجل العدالة الاجتماعية والمساواة فى الفرص . كانت البلاد تسرف فى الإنفاق على الكماليات الشخصية ، وتقترى التوفير العام من أجل المستقبل تقتريراً شديداً . . كانت تنفق أكثر مما ينبغى على الاقتصاد الخاص ، وأقل مما ينبغى على الاقتصاد العام .

كان أى امرئ يتلفت حوله قادراً على أن يبصر التحديات المحتملة . فقد كانت تتجلى فى النمو الخاطف للمدن الكبيرة الذى كان يفرض على أمريكا مجموعة شائكة من المشكلات الحضرية . . وفى سباق الفضاء مع الاتحاد السوفيتى ، وفى المجهود المستميت من الزواج للحصول على المساواة فى المرافق العامة ، وفى المدارس العامة ، والجامعات ، والعمالة ، والانتخاب ، والإحصاءات التى كانت تبين أن واحداً فى المائة من الشعب كان يستحوذ على نصف الثروة ، وفى الابتذال الذى شوه سمعة التليفزيون والأفلام السينمائية ، وفى النقص الذى ساد معظم الصحافة ، وفى ازدياد انحرافات الأحداث . فكل أمة تحتاج من وقت إلى آخر إلى بعث روحى . وكانت الولايات المتحدة قد قضت مدة كافية بعد تضحيات الحرب العالمية الثانية فى الراحة والاستجمام ،

وحانت ساعة استئناف مسيرتها إلى الامام . ولكن ، من الذى يحمل الراية ؟

المرشحون والحملة

لم يكن لدى الجمهوريين شىء من الهواجس السابقة على المؤتمر السياسى الحزبى . كان الجمهوريون قد فرطوا فيها يكاد يكون نصراً مؤكداً ، بمناصرة ما وصفه أيزنهاور نفسه بأنه عمل انتقامى مرتد على أصحابه . ذلك هو التعديل الثانى والعشرون للدستور ، الذى حرم أيزنهاور من فترة حكم أخرى . وأخذ نائب الرئيس ريتشارد نيكسون ، وهو سياسى أريب ، يستغل رضاء أيزنهاور ، والشعور بأنه كفيل باستئناف سياسات أيزنهاور ، وتأييد الأجهزة السياسية فى الولايات ، وصدافة المشروعات الكبيرة ، فى تدعيم ترشيحه . ولم يكن يثق فى شخصيته أو مقدرته سوى قلة ، بيد أن تركية الرئيس له على أساس خبرته كانت ذات وزن كبير . . وإن لم يستطع عندما سئل أن يتذكر قراراً واحداً ذا أهمية ساهم نيكسون فى اتخاذه . وكان نيلسون إيه . روكفلر حاكم نيويورك ، يصبو صراحة إلى أن يحظى بالترشيح ، وقد كان أكثر كفاءة واستقلالاً . ولكنه انسحب فى هدوء عندما كشفت الجولات الاستطلاعية فى البلاد عن أن رجال الأعمال كانوا يرونه ليبرالياً أكثر مما ينبغي ، وأن نيكسون قد جند لمناصرته كل ذوى النفوذ السياسى القوى . ورشح المؤتمر الجمهورى ، الذى عقد فى شيكاغو ، نيكسون بأغلبية ١٣٢١ صوتاً إلى ١٠ ، وسانده بزميل فى الترشيح لمنصب نائب الرئيس هو هنرى كابوت لودج ، حفيد خصم ويلسون فى الماضى .

كانت ساعة انفعال واحدة هى التى أذكت الحياة فى اجتماع الجمهوريين . وذلك عندما أصر روكفلر على أن يساعده نيكسون فى إعادة صياغة أجزاء بالغة الأهمية فى مسودة البرنامج السياسى التى قدمتها لجنة روتينية . هذا التنقيح حول بياناً معتدلاً عن الحقوق المدنية إلى مادة رئيسية ، صريحة ، تحررية ، مرضية للزئوج ولكنها مثيرة لسخط كثيرين من الجنوبيين البيض . كذلك أتاح التنقيح للحزب بياناً أقوى بصدد تدعيم الدفاع القومى . ولقد أعلن نيكسون فى خطاب قبول الترشيح أن المشكلة الكبرى أمام الحكومة المقبلة هى تنبيه الشعب إلى الخطر الماحق الكامن فى

دعاية شيوعية مأكرة ، كانت تكيل الوعود الزائفة بالسلام والوفرة والأمل . وعلى النقيض من ذلك ، كان اختيار الديمقراطيين غير مستقر ، حتى إن معركة المؤتمر السياسى اجتذبت انتباه البلاد بأسرها . كان الطامحون الرئيسيون هم : الداهية ليندون جونسون من تكساس ، المحارب الذى خاض كثيراً من المنازلات السياسية ؛ وستوارت سايمنجتون من ميسورى ، وكان المعتقد أنه خبير فى الدفاع ؛ والسيناتور هيوبرت همفرى من مينيسوتا . وفوق هذه الشخصيات ، تسامقت شخصية أدلاى ستيفنسون ، بمكانته الثقافية التى اكتسبها بجدارة ، وبطول خبرته وتجربته ؛ والشاب المتوثب النشاط ، المتمكن من نفسه جون فيتزجيرالد كينيدي عضو الشيوخ عن مساشوسستس ، الذى حاول عبثاً الفوز بالترشيح نائباً للرئيس قبل أربع سنوات . وكان يعترض فرص ستيفنسون عدم فوزه فى الانتخابات القومية مرتين من قبل ، ورفضه أن يعلن ترشيح نفسه . ولقد أوتى كينيدي عقبتين ظاهرتين ، هما أن الأمة لم تختريوماً رومياً كاثوليكياً رئيساً للجمهورية ، وإنه لم يكن قد حظى بعضوية مجلس الشيوخ سوى مرة واحدة . ولكنه كان قد رسم حملته الانتخابية ببعد نظر وجراحة بارعين . فبعد استعراض دقيق للبلاد ، حشد تنظيمياً للعمل الجاد ، واستعان بعدد من القادة الديمقراطيين الأكفاء ، من تشيستر بولز من كونيتيكت إلى مايك دى سال حاكم أوهايو . وفوق هذا كله ، قام بحملة موفورة النشاط وسعة الأفق ، مستغلاً شبابه ، وأناقته الفكرية ، بل وكاثوليكيته إذ أخذ ينادى بالتسامح الدينى . وبجسارة خاض الاجتماعات الحزبية التمهيدية فى سبع ولايات ، ففاز بها جميعاً ، وأقبل على المؤتمر الحزبى فى طليعة المتزاحمين .

كان الجمهور فى مؤتمر شهر يوليو ، بلوس أنجلوس ، مع ستيفنسون . ولكن الوفود على المنصة كانت تحبذ كينيدي . فلما فاز فى الاقتراع الأول ، بادر إلى إثبات فطنته بأن طلب أن يكون مزاحمه ليندون جونسون ، الواسع النفوذ فى الجنوب ، نائباً للرئيس ، وأخذ يقنع جونسون بقبول المنصب . ولقد أثار حماس أتباعه فى خطاب قبول الترشيح ، إذ قال وقد صاغ عباراته على طريقة ستيفنسون : « إننا اليوم نقف على حافة حدود جديدة للعمران . . والاختيار الذى يتحتم على أمتنا الإقدام عليه ، هو الاختيار بين المصلحة العامة والراحة الشخصية . . بين العظمة القومية والتداعى القومى .

نصر كينيدي

لم يكن الفارق بين الفائز ومنافسه بهذه الضآلة في أية انتخابات منذ الثمانينات من القرن التاسع عشر . فإن الأغلبية التي ظفر بها كينيدي على مزاحمه في التصويت الشعبى لم تتجاوز ١١٨ ٠٠٠ من ٦٨ مليوناً من الأصوات ، ومع أن أغلبيته في المجمع الانتخابى كانت حاسمة ٣٠٣ إلى ٢١٩ – فإن بضعة آلاف قليلة من الأصوات فى إللينوى وتكساس هى التى كونت الفارق بين الهزيمة والنصر . ولقد حقق كينيدي حدثاً لا يكاد يكون له مثيل من قبل ، هو إقصاء الحزب الحاكم عن الحكم فى وقت يسوده السلم والرخاء معاً . فهو لم يتغلب على عقبة الكتلكة الكؤود وحدها ، بل تغلب كذلك على شعبية أيزنهاور الهائلة .

ولقد استحوذ على خيال الشعب كل شيء تعلق بالرئيس الجديد تقريباً ، ولم تشذ عن ذلك مناسبة تنصيبه . فقد أقيمت الحفلات فى الهواء الطلق ، ولقد هبت على المنصة ريح عاصفة بينما كان روبرت فروست – أول شاعر دعى للاشتراك فى تنصيب رئيس للجمهورية – يقرأ : « كانت الأرض ملكاً لنا ، قبل أن نكون نحن ملكاً لها » . ثم ربط كينيدي الأمة بترائها الثورى ، فى خطاب مرصع بالمثالية والبلاغة :

لتنطلق الكلمة من وقتنا هذا ومكاننا هذا ، إلى الصديق والعدو على السواء ، معلنة أن المشعل قد انتقل إلى جيل جديد من الأمريكيين ، ولد فى هذا القرن ، وصقلت عودة الحرب ، وروضه سلام مرير قاس ، وهو فخور بترائنا التليد ، غير مستعد لأن يشهد أو يسمح بالقضاء البطيء على تلك الحقوق الإنسانية التى التزمت بها هذه الأمة دوماً . فلنعرف كل أمة ، سواء كانت ترجو لنا خيراً أو كانت ترجو شرّاً ، إننا سندفع أى ثمن ، وسنحمل أى عبء ، وستصدي لأية محنة ، وسنساند أى صديق ، وسنقف فى وجه أى عدو ، لضمان بقاء الحرية ونجاحها .

غير أن الخطاب لم يكن مجرد دعوة إلى المعركة ، بل كان كذلك دعوة إلى السلام . فقد قال الرئيس : « لنحذر أبداً الإقدام على التفاوض بدافع من الخوف ، ولكن لنحذر كذلك أن نخاف يوماً من التفاوض » . فالتعاون خير من النزاع ، ولنحل التعاون إذن محل النزاع :

ليكشف كل من الجانبين المشكلات التي توحد بيننا ، بدلاً من سوق المشكلات التي تفرق بيننا . . ليس الجانبان معاً إلى استخلاص عجائب العلم بدلاً من أهواله . لنستطلع معاً النجوم ، ولنتغلب على الصحارى ، ولنقضى على المرض ، ولنسر أغوار المحيط ، ولنشجع الفنون والتجارة . ليتحد الجانبان ليعملا . . بوصية إشعياء : « فك عقد النير وإطلاق المسحوقين أحراراً » ^(١) .

كان كينيدي أول رئيس للجمهورية ولد في القرن العشرين ، وأصغر شاب انتخب يوماً لرئاسة الجمهورية ، فلم يكن ناطقاً بلسان جيل جديد فحسب ، بل كان رمزاً لهذا الجيل كذلك . ولقد جلب إلى رئاسة الجمهورية ذكاءً يقطاً ، وسحراً شخصياً عارماً (ما أصبح من الشائع تسميته : سحر الزعامة القيادية) ، وروحاً إنسانية دافئة كريمة ، وفهماً رفيعاً مصقولاً للحقائق الواقعية السياسية ، ولكنه جلب إليها كذلك إدراكاً حياً نشيطاً لما للقيادة الرئاسية من إمكانات هائلة . ولقد كادت السلطة الرئاسية تتفكك في يدي أيزنهاور المضطربتين ، فأعاد كينيدي الطاقة والسلطان القويتين إلى المنصب ، كما جلب إليه التآلق : فلم يقدر منذ أيام تيودور روزفلت للبيت الأبيض أن يصبح مركزاً للاهتمام وللانفعال العاطفي القومييين بهذا القدر ، ولا لواشنطن أن تصبح مركزاً للثقل السياسى بهذه الدرجة . إذ أنه أوتى شيئاً من قوة سلطان تيودور روزفلت ، وحظاً من مقدرة فرانكلين روزفلت على الوصول إلى قلوب الشعب بأكمله ، وقد قرن هاتين الميزتين باهتمام بالفنون ، ومناقب اجتماعية في أصالة ما كان لجيفرسون .

جلب حكم كينيدي عهداً جديداً من حيث الفكر السياسى والشخصيات السياسية ، إذ أن كينيدي كان شاباً في تفكيره كما كان في عمره ، ولقد رفض بفطرته الشعارات (الكليشيهات) البالية التي ظلت قرابة عقد من الزمن تفسد شطراً كبيراً من النقاش السياسى الأمريكى : الاتهامات المبتذلة بالشيوعية ، والتركيز المتغطرس على الولاء ، والبحث المتهموس عن النشاط الهدام ، والجمعية الخطابية المبتسرة حول الاقتصاد الحر والاشتراكية المتسللة ، حول المركزية وحقوق الولايات . فلقد أدرك أن الأمة كانت تواجه مجموعة كبيرة من المشكلات الجديدة ، وأن هناك مشكلات قديمة قد

(١) إشعياء : ٥٦ : ٦ .

٦٢٩ حدود جديدة : التحدى

قد اتخذت طابعاً جديداً ، فأصبحت تتطلب أفكاراً وأساليب جديدة لحلها . كانت المهمة كبيرة وجليّة ، وقد أهاب الرئيس برجال من الحزبين معاً ليساعدوه . فتجاوز شخصيات صالحة للاختيار لمنصب وزير الخارجية ، مثل أدلاى ستيفنسون والسناطور فولبرايت ، وعين بدلاً منها دين راسك الذى كان رئيساً لمؤسسة روكفلر ، والذى جمع بين المواهب القضائية والإدارية . وأصبح روبرت إس . مكنهارا وزيراً للدفاع ، وكان رئيساً لمجلس إدارة شركة فورد للسيارات . وتولى الجمهورى دوجلاس ديكون ، الذى عمل تحت إمرة أيزنهاور ، وزارة الخزانة . ومن أطرف الشخصيات التى عينها كينيدي آرثر جولديريج ، الخبير المبرز فى العلاقات الصناعية ، فولاه منصب وزير العمل وقد انتقل بعد ذلك إلى مركز ممتاز فى المحكمة العليا ، ثم أصبح سفيراً لدى الأمم المتحدة فى سنة ١٩٦٥ . ولقد ظل أدلاى ستيفنسون الزعيم الفكرى للحزب من عدة اعتبارات ، وعين فى المنصب المتزايد الأهمية ، منصب السفير لدى الأمم المتحدة . وكان أهم التعيينات من عدة نواح ، وأبعدها عن الأصول قطعاً ، هو تعيين روبرت إف . كينيدي شقيق الرئيس لمنصب المدعى العام ، وهو تعيين لم يصدر عن إدراك لأهمية موضوع الحقوق المدنية فحسب ، وإنما عن رغبة الرئيس فى أن يكون إلى جواره دائماً صديق ومستشار كذلك . إذ كانت ثمة أسرة حاكمة فى طور التكوين ، تضارع فى السلطان أسرتهى آدمز وروزفلت ، هى أسرة كينيدي . فإن هو إلا عام آخر ، حتى قدر لشقيق ثالث ، هو إدوارد كينيدي أن ينتخب عضواً بمجلس الشيوخ عن مساشوستس . وكان من البوارى التى نمت عن تداعى الروح المناهضة للعقليات المثقفة ، أن حشد الرئيس هيئة من العقول الخيرة اختير الشطر الأكبر منها من جامعتى هارفارد وأكسفورد المؤرخ آرثر شليزينجر الابن كمساعد خاص ، والعميد ماكجورج بندى كمستشار فى الشؤون الخارجية ، والاقتصادى جون كنيث جالبرت كسفير لدى الهند ، ومن معهد مساشوستس للتكنولوجيا (وال روستو ، وبول صمويلسون) . وظفرت هذه الهيئة بتحيز عام .

الرئيس والكونجرس

ظلت للديمقراطيين قبضة قوية على الكونجرس ، برغم فقدانهم عشرين مقعداً فى

مجلس النواب . ولكن ، أكان بوسع الرئيس أن ينفذ ذلك البرنامج الليبرالى للإصلاح الاجتماعى والاقتصادى ، الذى تعهد به هو وحزبه ، بأغلبية شعبية بلغ من ضآلتها أنها أثارت تساؤلات بصدد شرعية التفويض الانتخابى ؟ أكان بوسعه أن يكون أحسن توفيقاً من الرئيسين ترومان وأيزنهاور فى التعامل مع الائتلاف المعهود بين الديمقراطيين الجنوبيين المحافظين والجمهوريين الرجعيين ، وهو الائتلاف الذى طالت ممارسته للاعتراض والنقض للتشريعات التقدمية ؟ كان هذا الائتلاف نتاج نظام التوزيع النسبى الذى قام على التعصب ضد الأغليات الحضرية ، وضرائب الرؤوس التى كانت تحرم زنوج الجنوب من حظ عادل فى الحكومة ، ونظام للأقدمية انطوى على تناقض ، فكان هذا الائتلاف يؤثر المسنين من الديمقراطيين الجنوبيين بالسيطرة على جميع اللجان المهمة بالكونجرس تقريباً . ولقد تعرضت كل هذه الأمور للتغيير قطعاً ، ولكن التغييرات لم يقدر لها أن تكون ذات مفعول عقد آخر من الزمن .

والذى أسفرت عنه الأيام ، هو أن الرئيس لم يصادف سوى نجاح محدود فى إجازة من الكونجرس ، وإن كان بوسعنا الآن أن نرى أن حميته ولباقته كانتا من العوامل التى مهدت الطريق لسن القوانين اللازمة فى آخر الأمر . فلقد سد الائتلاف العنيد الطرق فى وجه مقترحاته واحداً إثر آخر ، ومع ذلك فقد كان الرئيس يحرز شيئاً من النجاح فى كل حالة . إذ طلب كينيدي إقرار برنامج موسع إلى حد كبير للإعانة الاتحادية المخصصة لإنشاء المدارس ولرواتب المدرسين . ولقد أجاز مجلس الشيوخ مشروع قانونه ، ولكن المسألة الدينية سدت الطريق فى وجه التشريع فى مجلس النواب . إذ طالبت كنيسة الروم الكاثوليك بأن تقدم الحكومة نجدة لمدارسها الأبروشية المتخمة بالتلاميذ . وأوضح الكاثوليك أنهم ظلوا زمناً طويلاً يحففون عن دافعى الضرائب قسماً كبيراً من أعباء التعليم العام ، وقد آن للرأى العام أن يعترف بهذا وإن يخف للنجدة . ولكن الرئيس ساند وجهة النظر التقليدية القائلة بأن إعانة الحكومة الاتحادية للمدارس الأبروشية خرق لما يطلبه الدستور من الفصل بين الكنيسة والدولة . وانضم فريق من النواب الكاثوليك إلى المحافظين الجمهوريين فى اعتراض التشريع الذى كانت الحاجة ماسة إليه .

كذلك صادف الرئيس فى ميدان الإصلاحات الاجتماعية عقبة ، وذلك حين استجاب الكونجرس لحملة الدعاية الكبيرة التى شنتها الجمعية الطبية الأمريكية وللخوف الطاغى من أى شكل من أشكال الاشتراكية فتخاذل عن إقرار مشروع قانون

٦٣١ حدود جديدة : التحدى

لتوفير الرعاية الطبية للمسنين في إطار نظام التأمين الاجتماعي على أن الحكومة أفلحت في إجازة برنامج طبي صحي تضمن اعتمادات كبيرة للبحوث وإنشاء مراكز محلية للصحة العقلية ، واعتمادات بلغت مائتي مليون دولار للتعليم الطبي ، الذي كان متخلفاً عن الاحتياجات العامة بدرجة كبيرة . كذلك كان ثمة تقدم في مجال تجديد المدن . إذ كانت مدناً كثيرة — من أبرزها بيتسبرج ، وفيلادلفيا ، وسانت لويس ، وبوسطن — قد حاولت إيقاف المحنة الحضرية التي أخذت تهبط بها بسرعة إلى مصاف أحياء فقيرة شاسعة ومطرودة الزحف ، بيد أنه اتضح أن المهمة كانت أكبر من الموارد المحلية بكثير ، وكانت المساوىء التي ابتليت بها معظم المدن تستفحل بسرعة وتستعصى على العلاج . ولقد خذل الكونجرس مشروع الرئيس كينيدي لإنشاء إدارة لشؤون الحضر على مستوى وزارة ، بيد أن الرئيس أقنع الكونجرس بإقرار قانون للإسكان ، يسر لتجديد المدن حوالى خمسة بلايين من الدولارات على مدى أربع سنوات . كانت هذه البرامج باهظة التكاليف حقاً ، بينما كانت عقلية الكونجرس تتجه للاقتصاد في الإنفاق . ومع ذلك فإن نفقات برامج الإصلاح الاجتماعي الاتحادية لم تكن تقاس بجانب نفقات الدفاع القومى ، التي وصلت إلى حوالى خمسين بليوناً من الدولارات في العام .

كينيدى والفنون

لم يقدر لأى رئيس ، منذ عهد جيفرسون ، أن يهتم بالفنون والآداب والعلم ، ولا أن يشترك فيها قدر اهتمام واشتراك كينيدي . إذ كان هو نفسه في عداد أهل العلم ، كمؤرخ . . وقد اكتسب كتابه : « صور في الشجاعة » رواجاً على نطاق الأمة كلها . وهو لم يقتصر على أن يحيط نفسه بأهل الفكر ، بل اجتذب المتفهمين ، والعلماء ، والفنانين إلى واشنطن التي أصبحت — وربما لأول مرة — عاصمة ثقافية إلى جانب أنها عاصمة سياسية واجتماعية . وكان من المعالم المميزة أن دعا كينيدي الشاعر الجليل روبرت فروست للاشتراك في احتفالات تنصيبه ، وإن انتهز فرصة إطلاق اسم روبرت فروست على مكتبة بكلية أمهيرست فنأدى بأن أمريكا لا تخاف الفضل والجمال . . وتكافئ

المنجزات في الفن كما تكافئ المنجزات في الصناعة والتجارة أوفى فن الحكم ، وتنتزع الاحترام في كافة أرجاء العالم بحضارتها وليس بقوتها فحسب . وتجسيدا للاحترام للفنون ، أنشأ ميدالية الحرية الرئاسية ، وهي نوع شبيه بوسام الجدارة الأمريكي ، وكان ممن حظوا بهذه الميدالية فنانون من قبيل : ماريان أندرسون ، وبابلو كاسالز ، ورودلف سيركين ، وأندرو واث ؛ وكتاب مثل : ثوزنتون وإيلدر ، وتي . إس . إيليوت ، وكارل ساندبيرج ، ولويس ممفورد ؛ ورجال تربية ودراسات مثل : جيمس بي . كونانت ، وولتر ليبمان ، وصمويل إيليوت موريسون . وفي الوقت الذي ردت فيه مسز كينيدي البيت الأبيض إلى بعض بهائه وجماله القديمين ، وأعادت تصميم حدائق البيت الأبيض ، أيد الرئيس مشروع إنشاء مركز قومي كبير للفنون في واشنطن ، وإعادة العاصمة ذاتها إلى ما كان ميجور لنفان وجيفرسون ولا تروپ يأملون أن تصبح عليه . ولم تكن هذه مجرد ظواهر ذات دلالات ، بل إنها كانت جزءاً من فلسفة اعترفت بالفنون كجزء جوهري للحضارة . وفي خطاب بكلية أمهيرست ، قبيل موته بأشهر قلائل ، قال الرئيس الذي كان ذا ميل فطري عميق للسلطان :

لقد رأى روبرت فروست في الشعر وسيلة لإنقاذ القوة من القوة ذاتها . فعندما تفضي القوة بالانسان إلى الغطرسة والغرور ، يذكره الشعر بحدوده . وعندما يضيق السلطان بجالات اهتمام الانسان ، يذكره الشعر ببراء وتنوع وجوده . وعندما يفسد السلطان الانسان ، يظهره الشعر . إذ أن الفنون توطد الحقائق الانسانية الأساسية التي يجب أن تكون المحك لحكمنا .

الكفاح من أجل الحقوق المدنية

أوشكت أن تكتمل مائة عام على الحرب الأهلية وتحرير العبيد ، والزواج في الجنوب وفي أصقاع كبيرة من الشمال لا يزالون مواطنين من الدرجة الثانية ، محرومين من الحقوق الأساسية ، ومعرضين لمهانات لا تنقطع . فكان أبناء الزواج يحالون إلى مدارس لم تكن قائمة على التفرقة العنصرية فحسب ، بل كانت أدنى شأناً من مدارس البيض . وكان

٦٣٣ حدود جديدة : التحدى

الشباب الزوج محرومين من دخول جامعات الولاية . وكان على الزوج أن يجلسوا في حافلات لا يركبها البيض ، وأن يتناولوا الوجبات الخفيفة على موائد خاصة باللونين ، وأن يلعبوا في ملاعب خاصة بهم ، وأن يسبحوا عند شواطئ منفصلة عن شواطئ البيض ، بل أن يعبدوا الله في كنائس للسود . وكانوا يعينون في أعمال أقل شأنًا من المخصصة للبيض ، وبأجور أدنى ، وكانوا يحصرّون في أحياء فقيرة أو أحياء طائفية للأقليات ، هي مباءات للجريمة والانحراف . وإذا كان الشنق على أيدي الدهماء من البيض بدون محاكمات قد ولى ، فإن الاغتيا ل لم يول مثله ، فكان بوسع البيض في أعماق الجنوب أن يقتلوا الزوج ويفلتوا من العقاب . ولقد وصف عالم الاقتصاد السويسرى جونار ميزدال المشكلة الزنجية في سنة ١٩٤٤ بأنها معضلة أمريكية مستعصية . وقد ظلت بعد عشرين سنة معضلة أمريكية مستعصية ، ولا تزال بلا حل .

غير أن الثورة التى كانت الحرب العالمية الثانية قد بدأتها ، والتى حظيت باعتبار دستورى فى الواقع ، بفضل القرار التاريخى الذى أصدرته المحكمة العليا فى قضية « براون ضد تويكا » (١٩٥٤) ، أخذت تنمو فى القوة بدرجة تندر بأن لا سبيل لمقاومتها . ولقد أسهمت فى هذا النذير ثلاثة أمور : أولاً ، مجموعة طويلة من القرارات المتعاقبة للمحكمة العليا ، تزيل آخر أشلاء مبدأ « الفصل مع المساواة » بين العناصر ، وتقضى على أكثر أشكال التفرقة العنصرية علانية ، وتضفى شيئاً من الحقيقة الواقعية على ضمانات المساواة التى طال تجاهلها ، وتنفذ حق الانتخاب على كل مستوى ، وثانياً ، بقظة ضمير فى الشمال ، صحبتها فورة إدراك لما لأصوات الزوج من نفوذ ممكن ، لا سيما فى المدن الكبيرة ، حيث أصبح الزوج يؤلفون فئة سياسية غالبية . وثالثاً ، وهذا أهم الأمور الثلاثة ، تقرير قادة الزوج – كالآب مارتن لوثر كينج ، وإيه . فيليب راندولف ، وثيرجود مارشال ، وجيمس بالدوين وسواهم – أن يتولوا بأنفسهم قيادة حملة نضال من أجل المساواة فى الحقوق . ولم تحن الستينات من القرن حتى كانت هذه الحملة قد بلغت أبعاد ثورة سلمية . إذ قام الزوج ، وهم يرددون نشيد معركتهم « لسوف نقهر » ، بحملة شبيهة بانتفاضة الشعبين فى التسعينات من القرن الماضى ، حركة كانت مستقلة تقريباً عن حملات المساواة التى سبقتها ، والتى قامت تحت تسلط البيض الليبراليين . فقام القادة بدور إيجابى فى الشؤون السياسية فى كل مكان ، وأقبلوا على حملة إعلامية وتعليمية شديدة العنفوان ، ونظموا مظاهرات اعتصام ومسيرات فى ولايات

٦٣٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

المسييسى وألاباما وجورجيا ، ثم في العاصمة القومية ذاتها ، واستخدموا أساليب المقاطعة الاقتصادية ، وخاضوا كل قضية تعصب عنصري أوحرامان من الحقوق في المحاكم .

كان قانون الحقوق المدنية لسنة ١٩٥٧ غير واف ولا فعال ، كما كانت التكهات تتنبأ له ، وبات من الواضح أن الحزب الذى أدرج تحرير العبيد وحقوق الزنوج في الدستور قبل قرن ، قد أخفق في الإفادة من فرصة هذا النص الدستوري . ولم يكن لأى موضوع لدى الرئيس كينيدي أهمية تفوق ما للحقوق المدنية ، إذ كان كسليل للأيرلنديين على إمام بطرف من تاريخ الاضطهاد ، وكان كاثوليكي قد صادف وناضل تماماً لم يكن يختلف كثيراً عما كان كل زنجى يعانيه في كل يوم . كذلك كان قد أوتى إدراكاً غير جامد بالتاريخ ، فكان يعرف أن الولايات المتحدة في خطر من أن تفقد زعامتها الأدبية في أرجاء شاسعة من الكرة الأرضية بفضل المظالم التي تلحقها بمواطنيها الزنوج . وفي نداء مؤثر ، في يونيو سنة ١٩٦٣ ، قبيل وفاته ببضعة أشهر ، قال الرئيس محدراً : « إننا نواجه أزمة خلقية ، لا سبيل للتصدي لها بعمل بوليسى ، ولا سبيل لمعالجتها بالمظاهرات المتزايدة في الشوارع ، ولا سبيل إلى تهدئتها بخطوات رمزية أو بالكلام . لقد حان الوقت للعمل في الكونجرس ، وفي ولاياتكم وهيئاتكم التشريعية المحلية ، وفي حياتنا اليومية بأكملها » . ولكن الكونجرس لم يشأ أن يعمل ، للأسف . واستمرت الوحشية البوليسية ، والظلم ، والإحباط ، والتعصب العنصرى ، وكذلك استمرت المظاهرات ، والمسيرات ، والاحتجاجات . . احتجاجات بلغت ذروتها في مسيرة إلى واشنطن هائلة ، ضمت مائتى ألف زنجى تقريباً ، في أواسط صيف سنة ١٩٦٣ .

وكما ورث الرئيس جونسون الكثير من برنامج كينيدي التشريعى ، فإنه ورث تحمسه المتأجج للمساواة والعدالة الاجتماعية . فقد قال في خطاب بجامعة واين في أوائل سنة ١٩٦٤ : « إلى أن تعمى العدالة عن اللون ، وإلى أن يغفل التعليم أمر العنصر ، وإلى أن تكف الفرصة عن أن تزيغ بصرها عن لون الإنسان ، فإن تحرير الرق سيظل مجرد إعلان ، ولن يكون واقعاً » . وكان مصمماً على أن يجعله واقعاً ، فإن صدمة اغتيال كينيدي ، واقتران هذا العمل المتهور بالجنوب - مصادفة في الواقع ، وإن لم يخفف هذا التصادف من أثره على المشاعر - قاما بالكثير لدفع الرأى العام إلى العمل ، في حين أن مقدرة الرئيس الجديد البارة على الظفر ببغيته من الكونجرس كانت مسئولة عن ترجمة

٦٣٥ حدود جديدة : التحدى

هذا العمل إلى قانون . فكان قانون الحقوق المدنية لسنة ١٩٦٤ أول قانون فعال للحقوق المدنية حقاً ، في طيلة مائة عام . إذ حرم التمييز العنصرى في جميع أنواع المرافق العامة — من فنادق ، وسيارات (موتيل) ومطاعم ، وملاعب ، ومسارح ، ومكتبات عامة — وفي العمالة والتشغيل ، وفي نقابات العمال التى لا تقل عن ذلك أهمية . وإلقصاء « التبصر المتأنى » عن اتخاذ الإجراءات « بكل سرعة مقترنة بالتبصر » لمحو التفرقة العنصرية من المدارس خوّل القانون الحكومة الاتحادية أن تقطع الاعتمادات المالية عن أية مدرسة تستمر في التمييز العنصرى . وللتغلب على التخريب البشع المردول الذى كان يمارس في معظم الولايات الجنوبية ضد التعديل الخامس عشر للدستور ، حظر القانون التمييز العنصرى في تطبيق قوانين القيد في الجداول الانتخابية أو ممارسة حق التصويت في أى انتخاب للاقتراع على شغل منصب اتحادى ، ونص على أن يكون الإلزام في ستة صفوف في المدرسة ، مفترضاً أنها كافية لتعليم القراءة والكتابة . وإلى جانب تحريم ضريبة الرؤوس في الانتخابات الاتحادية بفضل التعديل الرابع والعشرين للدستور ، فإن هذه النصوص قطعت شوطاً كبيراً نحو ضمان تصويت الزوج في الانتخابات المقبلة . وكانت انتخابات سنة ١٩٦٤ ، التى أدلى فيها ملايين من الزوج بأصواتهم ، مثلاً صوّر أكمل تصوير أثر نفوذ الزوج في السياسة الأمريكية .

المحاكم والحقوق المدنية

من أروع التطورات في الخمسينات والستينات من القرن الحالى ، نبذ ممارسة الحجب القضائى ، وعودة بروز المحكمة كقوة حاسمة في الحكومة والمجتمع الأمريكيين . إذ كانت المحكمة العليا قد ظلت عشرين عاماً — منذ معركة حكومة روزفلت مع المحكمة — تنأى بنفسها متحاشية التدخل في حلبة السياسة أو الاقتصاد ، تسليماً منها بأن هذين المجالين يدخلان في اختصاص الفرعين السياسيين لنظام الحكم التنفيذى والتشريعى . فلما تولى إيرل وارين منصب كبير القضاة في سنة ١٩٥٣ ، أقبلت المحكمة على دور أكثر إيجابية ونشاطاً ، لاسيما في مجال الحريات المدنية . وكان القاضى فرانكفورتر قد حث على أن تمارس المحكمة في هذا المجال عين ما كانت تبديه في المجال

٦٣٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

الاقتصادى من ضبط النفس . ولكن المحكمة أقبلت بازدياد على اتخاذ الموقف الذى نبه إليه القاضى ستون فى حيثيات حكمه المشهور فى قضية منتجات كارولين فى سنة ١٩٣٨ :

ما من ضرورة تدعو الآن إلى دراسة ما إذا كان التشريع الذى يقيد الدعاوى السياسية التى يرتقب عادة أن تؤدى إلى إبطال التشريع غير المرغوب فيه - يجب أن يعرض دون معظم التشريعات الأخرى لبحث قضائى دقيق على ضوء التحريات الواردة فى التعديل الرابع عشر للدستور . وليست بنا حاجة إلى التحقيق فيما إذا كانت مثل هذه الاعترافات تدخل فى إعادة النظر فى القوانين الموجهة إلى . . الأقليات العنصرية . وهل من الممكن أن يكون الإجحاف الواقع بالأقليات المنفصلة والمغلقة حالة خاصة ترمى بدرجة خطيرة إلى الحد من عمل تلك الإجراءات السياسية التى يُركن إليها عادة لحماية الأقليات ، والتى قد تدعو إلى مزيد من التحرر والبحث القضائى يتناسب معها .

وكان تهديد المكارثية ، وما تضمنه من ملابسات بعيدة المدى بالنسبة لنزاهة « تلك الإجراءات السياسية التى يركن إليها عادة » ، هو الذى حمل المحكمة على التصديق على هذه الفتوى وإن لم تطبقها فى كل الحالات . ومع استمرارها فى العزوف عن التدخل فى التدابير الاقتصادية التى كانت تصدر عن الفرعين السياسيين للحكم (الهيئتين التنفيذية والتشريعية) ، مع رفض امتداد سلطان الهيئة القضائية إليها فى أغلب الأحيان ، فإنها اتخذت دوراً متزايد الإيجابية والنشاط فى الذود عن الحقوق والحريات المدنية . ولم تحن الستينات حتى كانت هذه المشكلة تستغرق حوالى ثلثى مهمة المحكمة . فقد أخذت المحكمة تعمل بثقة متزايدة على حماية المواطنين من حكوماتهم ومن أنفسهم ، ويتعين القاضيين ، برينان وجولديبرج انتقل مركز الثقل القضائى من الجناح المحافظ إلى الجناح الأكثر تحوراً (ليبرالية) ، أو من الجناح الأكثر سلبية إلى الجناح الأكثر إيجابية فى المحكمة . وقد بثت المحكمة برئاسة وارين روجاً جوهرياً فى ضمانات المساواة الواردة فى التعديل الرابع عشر للدستور ، وفى المادة الخاصة بـ « المساواة فى الحماية » كذلك ، ودعمت حقوق المواطنين فى السفر إلى الخارج ، واجتثت التدخل غير السليم فى الحرية من ناحية البيروقراطيين الذين تسلطت عليهم عقلية الأمن واللجان التشريعية المعنية

٦٣٧ حدود جديدة : التحدى

بـ « الولاء » ، وأحرزت بعض التقدم نحو إيضاح الحقوق الحديثة البروز ، والمتعلقة بحرمة الأسرار الشخصية والحرية الأكاديمية . ولقد ساندت ضمانات حرية الكلام والصحافة ضد كافة أنواع الرقابة ، لاسيما في قضية اتهام المسؤولين في مدينة برمنجهام ، بولاية ألاباما لصحيفة « النيويورك تايمز » بالقذف ، إذ زعموا أن نشر الظلم العنصرى في تلك المدينة تشهير بالموظفين المسؤولين . كما أنها حمت حق التجمع وتنظيم الجمعيات من اعتداءات الولايات الجنوبية التي سعت للقضاء على تنظييات مثل الجمعية القومية لتحسين مستوى الملونين واتحاد الحريات المدنية ، وأصررت على الاجراءات القضائية التي كانت تفضي معنى واقعياً على المفهوم المناسب للدعوى في المحاكمات الجنائية .

ولم تكن المساهمات القضائية في الديمقراطية بأقل شأناً من هذه ، ومع أنها كانت غير مباشرة في الواقع ، فإن ذلك لم يقلل من مفعولها . فلقد كانت المناطق الريفية ، في كل مكان من الولايات المتحدة تقريباً ، تحظى بأكثر من حقها من التمثيل في الهيئات التشريعية للولايات ، بينما كانت المناطق الحضرية تحظى بأقل من حقها ، حتى أصبحت المجالس التشريعية في معظم الولايات خاضعة — في النهاية — لسيطرة أقلية كان مركزها وسلطانها يبدو أن فوق كل مساس . والواقع أن دوام التمثيل الأكثر والأدنى مما ينبغى جعله وضعاً متجمداً في الإجراءات الدستورية . وكانت المحكمة العليا قد رفضت في سنة ١٩٤٦ قضية ضد سوء التوزيع النسبي في الهيئة التشريعية لولاية اللينوى ، لعدم وجود قانون يمنحها سلطان البت فيها « قضية كوليجروف ضد جرين » . ولكنها بعد ستة عشر عاماً أقدمت في جسارة على التدخل في الاجراءات السياسية بأن قبلت البت في قضية ضد سوء التوزيع النسبي في ولاية تينيسى . ففضى القرار في قضية « بيكر ضد كار » ١٩٦٢ بأن توزيع المقاعد في المجلس الأدنى (النواب) بالهيئة التشريعية قائم على التمييز العنصرى ، فهو خرق للمادة الخاصة بالمساواة في الحماية بالدستور الاتحادى . وبسطت المحكمة هذا الرأى بعد عامين حتى تناول المجالس العليا (الشيوخ) كذلك ، فوطدت بالنسبة للحكومات الولايات مبدأ « صوت واحد ، للمرء الواحد » ، لا أكثر ولا أقل ، وكانت هذه القرارات تبشر بإحداث ثورة في الشؤون السياسية الأمريكية تضارع تلك التي ترتبت في المجال الاجتماعى على قضية « براون ضد تويكا » قبل ذلك بعقد من الزمن . وقد مهدت مع قانون الحقوق المدنية الذى دعم الضمانات الواردة في التعديلين الرابع عشر والخامس عشر للدستور ، ليوم يكون فيه

لجميع الأمريكيين حق الانتخاب ، وتساوى فيه الأصوات وزناً . وكان هذا يعنى تحولاً في مركز الثقل من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية في أمريكا ، ومن الزراعة إلى العمل ، كما كان يعنى مزيداً من الاعتراف بالزواج . واليوم — في الستينات — بات من الممكن توقع إمكان تحقيق الوعود بالمساواة والديمقراطية ، بعد انقضاء قرن أو ما يقرب من القرن من بذلها .

أمريكا اللاتينية والتحالف من أجل التقدم

إذا كانت السياسية الأمريكية نحو أوروبا في سنوات ما بعد الحرب قد أثبتت نجاحاً واضحاً ، وإذا كانت السياسة الأمريكية نحو آسيا قد أسفرت عن تعادل مخيب للآمال بين النجاح والفشل ، فمن الممكن القول بأن أبرز الأمور بصدد العلاقات مع أمريكا اللاتينية تمثل في عدم وجود أية سياسة . ومن الصحيح أن فرانكلين روزفلت أقام سياسة « حسن جوار » ، بيد أن حسن الجوار كان ، فيما بدا ، مسألة سلبية أكثر منها إيجابية ، مسألة كف عن التدخل في الأمور الداخلية لدول أمريكا اللاتينية ، وجعل مبدأ مونرو متعدد الأطراف ، شكلاً على الأقل . ولقد كانت دول أمريكا اللاتينية — فيما عدا المكسيك وشيلي إلى حد ما — في غمار أزمة اقتصادية واجتماعية كبرى . إذ كان السكان في نمو أسرع مما في أى جزء آخر من الكرة الأرضية ، دون أن يقترن ذلك بزيادة مناسبة في الثروة أو الطاقة الإنتاجية ، فأخذت الثغرة بين الفقراء والأغنياء في الاتساع ، وإزاء تحول الأغنياء وذوى النفوذ إلى السلطة العسكرية للحفاظ عن النظام ، اتجه الفقراء إلى الثورة . وفي غمرة تورط الولايات المتحدة في أرجاء الأرض الأخرى ، فإنها لم تبد اهتماماً يذكر بحفظ ومحن جاراتها الجنوبية ، حتى إذا ما تدخلت بدا أنها انحازت لصف لنظام والوضع القائم وليس لصف الإصلاح . فلقد بلغ من خوف الولايات المتحدة من الشيوعية في أمريكا اللاتينية ، أنها آثرت الديكتاتورية العسكرية على المصلحين الذين قد ينساقون أكثر مما ينبغى إلى اليسار ، وساندت أمثال باتيستا في كوبا ، وتروجيلو في جمهورية الدومينيكان ، وبيرون في الأرجنتين ، ومخينيز في فنزويلا .

ولقد حاول الرئيس أيزنهاور إصلاح علاقاته مع أمريكا اللاتينية ، خلال العامين

٦٣٩ حدود جديدة : التحدى

الأخيرين من حكمه . فبالرغم من رفضه اقتراحاً برازيليّاً بمشروع مارشال لأمريكا اللاتينية ، فإنه أقدم بمبادرة منه على إقامة بنك تنمية لدول الأمريكتين ، برأسمال قدره بليون دولار ، قدمت الولايات المتحدة نصفه تقريباً . ووصلت استثمارات أخرى للحكومة في أمريكا اللاتينية إلى أربعة بلايين من الدولارات ، في حين تجاوزت الاستثمارات الخاصة غير الحكومية تسعة بلايين . على أن كل هذا وإن بدا لمعظم الأمريكيين شكلاً من أشكال المعونة الاقتصادية ، فإن الأمريكيين اللاتينيين رأوا فيه إمبريالية اقتصادية . وفي سبتمبر سنة ١٩٦٠ ، ظهرت خطة تعاونية لا يمكن وصفها بغير أنها صادقة الغاية ، تمثلت في قانون بوجوتا ، الذى خوّل الحكومة منحة قدرها نصف بليون من الدولارات لمساعدة التقدم الاجتماعى والتربوى ، وليس الاقتصادى وحده ، في أمريكا اللاتينية . وقد قال الرئيس أيزنهاور عند زيارته سانتياجو في شيلي : « لسنا قديسين . فنحن نعرف أننا نرتكب أخطاء ، بيد أن قلبنا في وضع سليم » .

ولكن ، أكان ذلك حقاً ؟ لقد واجه الرئيس كينيدي عين المعضلة التى حيرت الرؤساء السالفين . كان من الواضح أن من الأمور الجوهرية توفير معونة واسعة للدول القائمة جنوب ريو جراندى ، ولكن هل تتجه هذه المعونة إلى تدعيم نظم حكم قائمة وبذلك تسهم في الابقاء على الوضع الراهن ، أو تستخدم في تعجيل خطى الإصلاح الاجتماعى ، ولوانطوى هذا على خطر قيام ثورة ؟ كان كينيدي في سنة ١٩٥٨ ، وهو بعد عضو في مجلس الشيوخ ، قد أكد « أنه يجب ألا تكون غاية برنامجنا لمعونة أمريكا اللاتينية هو شراء حلفاء ، وإنما تعزيز نصف الكرة الأرضية الغربى كعالم حر وديمقراطى ، وتخفيف تلك الأحوال التى قد توفر فرصاً للتسلل الشيوعى ، وتوحيد شعوبنا على أساس . . مستويات معيشة مطردة الازدياد » . هذا الاقتناع بأن رفع مستويات المعيشة كان خير أسلوب لكبح جماح الشيوعية ، ألهم كينيدي بعد أن صار رئيساً مشروعاً جريئاً ، هو إنشاء التحالف من أجل التقدم . . وهو مشروع لعشر سنوات يحقق لأمريكا اللاتينية ما فعله مشروع مارشال لأوروبا الغربية . مشروع يكون ثورة سلمية على نطاق نصف الكرة الأرضية . . جهداً تعاونياً واسع النطاق ، لا شبيه له في الضخامة وسمو الغرض ، لإشباع الحاجات الأساسية لأهل أمريكا في البيوت والعمل والأرض والصحة والمدارس . ولتحقيق هذا تعهدت الولايات المتحدة بتقديم منحة أولوية قدرها بليون دولار ، مع وعد ببلايين أخرى في المستقبل .

على أن الرئيس لم يكن يملك ، وهو يعد بالمزيد من المعونة ، سوى أن يلاحظ أنه (ليس بوسع أى قدر من الموارد الخارجية ، ولا أية نظم جديدة تجمع بين الدول الأمريكية ، أن تحقق التقدم لدول لم تؤت استقراراً سياسياً وقيادة مصممة على التقدم » . فهل كان معنى هذا أن الولايات المتحدة ستستخدم التحالف من أجل التقدم لمساندة نظم الحكم القائمة أو لمقاومة تلك التيارات العميقة ، تيارات الثورة الاقتصادية والاجتماعية التى كانت تنذر فى كل مكان بالتفجر عن قلاقل وعنف ، فكثيراً ما كان هذا يحدث فى الماضى . وقدر لكوبا أن تقدم تحدياً جديداً ، تجربة جديدة ، ولكنها للأسف تجربة ألقت الضوء على المشكلة الحقيقية .

لقد ظلت كوبا قرناً ونصف القرن بمثابة رأس الملك تشارلز لأولئك الذين كانوا يديرون دفة السياسة الخارجية الأمريكية . فكان جيفرسون يرى أنها داخل نطاق النفوذ الأمريكى دون مرء . وكان جون كوينسى آدمز يتطلع بثقة إلى دخولها فى عداد الولايات المتحدة فى نهاية الأمر ، ولقد حاول بيان أوستند سنة ١٨٥٤ - الذى يذكر بالسوء - أن يضغط على إسبانيا ليدفعها إلى بيع الجزيرة للولايات المتحدة ، كما أعلنت لجنة تابعة لمجلس الشيوخ قبيل الحرب الأهلية مباشرة أن « من الممكن اعتبار الاستحواذ النهائى على كوبا غرضاً ثابتاً محدداً » . ومع أن الولايات المتحدة لم تشأ التدخل فى حرب السنوات العشر ١٨٦٨ - ١٨٧٨ ، فإنها تدخلت فعلاً فى الثورة التى عادت إلى الانفجار فى سنة ١٨٩٥ ، بصفة قاطعة فى هذه المرة : فإن الحرب الاسبانية الأمريكية جلبت الاستقلال للجزيرة المضطربة ، ولكنها ظلت مع ذلك داخل نطاق النفوذ الأمريكى ، وقد حجزت الولايات المتحدة لنفسها قاعدة بحرية فى جوانتانامو . ولقد تدخلت الولايات المتحدة بالقوة فى شؤون كوبا ، فى سنة ١٩٠٦ ثم فى سنة ١٩١٧ ، لحماية الممتلكات الأمريكية . بيد أن الولايات المتحدة ظلت حوالى أربعين عاماً ، بعد ذلك الحين ، تتبع سياسة عدم التدخل .

ولقد ظلت الجزيرة طيلة الخمسينات من القرن مصدراً لقلق متزايد للولايات المتحدة ، إذ بدا من الواضح أن الشعب الكوبى سيثور حتماً على الطاغية الجبار فولجنشيو باتيستا الذى تولى الحكم فى سنة ١٩٥٢ . ومن المكسيك ، أبهر فى سنة ١٩٥٦ زعيم الطلبة يدعى فيدل كاسترو إلى كوبا ليحشد أتباعه للعصيان . ولم ينقض عامان حتى كان قد أفلح فى خلع باتيستا وأقام نفسه فى مكانه . ولقد قوبلت ثورة كاسترو

٦٤١ حدود جديدة : التحدى

بتحمس في معظم الجمهوريات الأمريكية في البداية ، على أنه سرعان ما اتضح أنه كان يعتزم إقامة حكم ظالم يسارى يعادل حكم باتيستا الظالم اليميني . فرفض إجراء انتخابات ، وكبت الحريات المدنية ، وأعدم مئات من الأسرى بعد محاكمات كانت مسخاً للعدالة وسخرية منها ، وغمر الاقتصاد الكوبي في الارتباك بفضل إصلاحات متعجلة سيئة الدراسة ، وانتزع ممتلكات الأمريكيين والأجانب من أراض ، ومشروعات تجارية وصناعية ، ومؤسسات للمنافع العامة ، ومصارف . ولقد كان من الممكن التسامح إزاء هذه الأعمال لو لم يوضح كاسترو اعتزامه إقامة دولة شبه شيوعية في كوبا ، وأن يوثق ارتباطه بالاتحاد السوفيتي ، ويعكف على برنامج لإثارة انقلابات في دول أمريكا اللاتينية الأخرى .

كان الشعب الأمريكي في تلك الأثناء قد ازداد حساسية إزاء تطاولات الشيوعية على أمريكا اللاتينية . ففي أوائل الخمسينات من القرن ، اتخذت الحكومة التي أقامها جاكوبو أربينز في جواتيمالا لوناً شيوياً ، فصادت الأراضي ، وغرقت بنقابات العمال ، ووضعت الصحافة تحت رقابة شديدة ، واستوردت الأسلحة من بولندا لتقابل التذمر الشعبي بالتخويف . ولقد جعلت متاخمة جواتيمالا لقناة بناما هذا الموقف خطيراً ، وبعد محاولات دون طائل ، عن طريق منظمة الدول الأمريكية ، لكبح التسلسل الشيوعي ، عمد الوزير دالز إلى تسليح وتشجيع غزو قام به ثوار من أبناء جواتيمالا لهذه البلاد من ناحية هوندوراس ، مما أدى إلى الاطاحة بحكم أربينز واستبدال حكومة محافظة به . ولقد هدأ هذا الحل الخشن للمشكلة من هواجس الولايات المتحدة ، ولكن بضمن تمثل في عدم رضا واسع شاع في أرجاء أمريكا اللاتينية .

تدفق آلاف من اللاجئين من كوبا على البلاد المجاورة ، بعد سنة ١٩٥٩ . فأما الذين ذهبوا إلى جمهورية الدومينيك فقد حظوا باستقبال ودى من الجنرال تروجيلو ، الذي كان متعاطفاً مع زميله الديكتاتور باتيستا ، وسرعان ما نظموا غزواً لكوبا تجمد على ساحل الدومينيك . ولقد هربت أعداد كبيرة من اللاجئين إلى فلوريدا ، حيث أخذوا يدبرون ويعدون العدة للعودة إلى جزيرتهم والاطاحة بالديكتاتور ، في حماية وبمساعدة أمريكيتين رسميتين . وفي تلك الأثناء ، كان كاسترو قد ازداد اقتراباً من الشيوعية والاتحاد السوفيتي ، فزار كوبا في فبراير سنة ١٩٦١ ميكويان نائب رئيس الوزراء السوفيتي ، لتدبير معونة اقتصادية وعسكرية كبيرة النطاق للجزيرة . ومن الجلى

٦٤٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

أن الاتحاد السوفيتي كان يأمل في أن تقوم كوبا بدور المركز لتصدير الأيديولوجية الشيوعية والحركات الهدامة في كافة أرجاء أمريكا اللاتينية . ولقد بادرت الولايات المتحدة بقطع العلاقات الدبلوماسية مع كاسترو ، وحذت حذوها اثنتا عشرة دولة من دول أمريكا اللاتينية .

ولقد حدثت خطوة غير متروية أضرت بالمركز الأدبي لأمريكا في الأزمة الكوبية ، عقب تولى الرئيس كينيدي الحكم بوقت قصير . إذ أن وكالة المخابرات المركزية برئاسة آلن دالز ، كانت قد سلحت خفية أعداداً كبيرة من اللاجئين الكوبيين ودرّبهم ، في عهد حكومة أيزنهاور ، مخالفة في ذلك قوانين الولايات المتحدة والقانون الدولي معاً . فحاول حوالى ألف وخمسمائة من هؤلاء ، غزو كوبا عند خليج الخنازير ، بحرين في ١٧ أبريل سنة ١٩٦١ من أمريكا الوسطى ومن فلوريدا ، بمساعدة سفن أمريكية ، ولكن دون تدخل طائرات أمريكية . ولقد منى الغزو بفشل شنيع ، وصار كاسترو — الذى اتهم الأمريكيين في البداية بـ «عدوان جبان» — قادراً على المجاهرة بتفوقه على الأمريكيين . وقد قبل على الفور جائزة لينين للسلام التى منحه الاتحاد السوفيتي إياها ، وعرض تبادل حوالى ١٢٠٠ أسير وقعوا في يده ، مقابل نقود سائلة وآلات زراعية . وقد اضطرت الولايات المتحدة تحت حكم الظروف إلى أن تدفع حوالى ٥٣ مليون دولار . وكانت طريقة غير كريمة لمنح معونة خارجية .

كانت هذه هى خلفية أحداث خريف عام ١٩٦٢ .

إذ ظلت وزارة الخارجية وقتاً وهى مصرة على الزعم بأن الولايات المتحدة لم تكن مشتركة اشتراكاً مباشراً في حملة خليج الخنازير الفاشلة . ومع ذلك ، رفض الرئيس كينيدي في الوقت ذاته أن يسلم بأن الولايات المتحدة لن تقدم ، في أى موقف ، على عمل عسكري . وفي أوائل سبتمبر سنة ١٩٦٢ ، أُنذِر في خطاب له بأنه :

إذا قدر في أى وقت للحشد الشيوعي في كوبا أن يهدد أو يتعارض مع أمننا بأية طريقة . .
أو إذا حاولت كوبا في أى وقت أن تصدر أغراضها العدوانية بالقوة ، أو أن تهدد أية دولة في هذا النصف من الكرة الأرضية بالقوة ، أو أن تصبح قاعدة هجومية لأية مقدرة ذات وزن للاتحاد السوفيتي ، فإن هذه البلاد ستقوم بأى عمل لابد منه ، أيا كان ، لحماية أمنها وأمن حليفاتها .

٦٤٣ حدود جديدة : التحدى

ولقد حانت هذه اللحظة بأسرع مما كان متوقعاً . فقد اكتشفت طائرات استطلاع أمريكية ، فى الأسابيع الأولى من أكتوبر . أن السوفييت قد أقاموا صواريخ قادرة على حمل رؤوس نووية إلى أية بقعة فى نصف الكرة الأرضية الغربى ، من كندا حتى بيرو ، وعلى تدمير جميع المدن الأمريكية الكبرى . ولم يتعرض مبدأ مونرو ، منذ مغامرة مكسيميليان المنكودة فى المكسيك قبل ذلك بقرن تقريباً ، لمثل هذا التحدى الصريح . وكان الرئيس مونرو قد صرح فى سنة ١٨٢٣ بقوله : « إننا بحكم الصراحة الصارمة ، وبحكم العلاقات الودية القائمة بين الولايات المتحدة وتلك الدول الأوربية ، مطالبين بأن نعلن بأننا سنعتبر أية محاولة من ناحيتها لبسط رقعتها إلى أى جزء من نصف الكرة هذا ، عملاً خطراً على سلامتنا وسلامتنا » . وها هى ذى محاولة ينطبق عليها هذا الوصف . وقد رد الرئيس كينيدي على هذا التهديد بحزم وشجاعة . فأعد القوات الجوية والبرية للعمل ، وعزز قاعدة جوانتانامو البحرية ، وأمر الأسطول بالقيام بدوريات فى المياه الكويتية ، وفرض حصار وقائي ضد استيراد الأسلحة وغيرها من المواد الخطرة . وفوق هذا ، طلب فك جميع قواعد الصواريخ فى الحال ، وإزالة الأسلحة والطائرات الروسية من الجزيرة . وقد أُنذر الرئيس — فى خطاب مؤثر أذيع فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٦٢ — الشعب الأمريكى وبقيّة العالم بالأخطار المرتقبة :

إن الطريق الذى اخترناه فى الوقت الحاضر ، ملئ بالأخطار ، شأنه فى ذلك شأن كل الطرق ، بيد أنه الوحيد الأنسب لشخصيتنا وشجاعتنا كأمة ، ولالتزاماتنا للعالم بأسره . . . وليست غايتنا الظفر بانتصار ينم عن السطوة ، وإنما تدعيم الحق ، ليست غايتنا السلام على حساب الحرية ، وإنما السلام والحرية معاً ، فى هذا النصف من الكرة الأرضية ، وفى العالم كله كما نرجو .

وظل العالم يتأرجح على حافة حرب نووية بضعة أيام . غير أنه كان من الجلى أن خروشوف لم يكن أكثر رغبة فى حرب كهذه من كينيدي . فرأى السوفييت من الحكمة أن يقبلوا طلبات كينيدي ، وحصلوا من الولايات المتحدة مقابل ذلك على تعهد « بإنهاء الحصار الوقائي » وضمانات ألا تغزو كوبا . ولم يحن شهر نوفمبر حتى كان بوسع الرئيس أن يطمئن الشعب الأمريكى إلى حدوث تقدم فى إعادة استتباب السلام فى البحر

٦٤٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

الكاربي . وفي يناير سنة ١٩٦٣ . كان بوسعه أن يذيع أن أزمة الصواريخ الكوبية قد انتهت . وكان ثمة بضعة آلاف من الجنود السوفييت في الجزيرة ، وقد أوحى هذا لبعض الحزبيين - مثل ديركسن وجولدوتر عضوا مجلس الشيوخ - بالمطالبة بسياسة أكثر إيداناً بالحرب ، غير أن الرئيس أتاح للسوفييت الحفاظ على كرامتهم بانسحاب تدريجي منظم .

هذا الموقف الحازم من الرئيس ، لقن الاتحاد السوفييتي احتراماً جديداً لقوة الولايات المتحدة وتصميمها ، كما أنه أدى إلى تصفية الجو وتحسين فرص السلام في الوقت ذاته . ونتيجة لذلك ، شاب الحرب الباردة شيء من الدفء الذي يصهر جليدها . وكان هارولد ماكميلان رئيس وزراء بريطانيا العظمى قد أخذ يحض منذ فترة من الزمن على إنهاء تجارب الأسلحة النووية في الجو ، إذ كانت تلوث الهواء بالغبار الذري السام . . غبار لم يكن يفرق بين المشتركين في المنافسات النووية والمتفرجين الأبرياء ، وقد انضم الرئيس كينيدي ، بعد هذه الأحداث ، إلى رئيس الوزراء البريطاني في الدعوة إلى هذه الخطوة الحكيمة . وبعد مفاوضات طويلة ، وقعت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى والاتحاد السوفييتي ، في أغسطس سنة ١٩٦٣ ، معاهدة لإنهاء جميع التجارب النووية سوى تلك التي تجري تحت سطح الأرض . وما لبثت مائة دولة أخرى أن وقعت الاتفاق . وأمسك ديجول عن التوقيع ، كذلك فعلت الصين التي كانت أكثر إنذاراً بالشر ، والتي كانت تسير بسرعة نحو أن تصبح دولة نووية . ولقد أجاز مجلس الشيوخ معاهدة حظر التجارب النووية بأغلبية من الحزبين بلغت ٨٠ صوتاً إلى ١٩ . فلم يحن ١٠ أكتوبر حتى كان بوسع الرئيس كينيدي أن يعلن ما كان ، كما توجي كل المرجحات ، أهم إنجاز لحكومته .

أزمة في الشرق الأقصى

ارتد الغريمان ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ، إلى مسلك أكثر تعقلاً وأقل عدوانية ، بعد أن أطلتا على أغوار الهوة النووية . ولم تكن معاهدة حظر التجارب النووية سوى أبرز ظواهر هذا المسلك . فقد كانت هناك ظواهر أخرى : بيع فائض القمح

٦٤٥ حدود جديدة : التحدى

إلى روسيا ، ومفاوضات التبادل الثقافي بين الدولتين ، والتعاون فى البحث العلمى والطبى ، واقتراح الرئيس كينيدي للارتياح المشترك للفضاء الخارجى ، وإن لم يسفر هذا عن شىء .

ولقد ساعد على انصهار جليد الحرب الباردة مع السوفييت تطوران كبيران . أولهما أن روسيا برحيل ستالين بدأت تخطو خارج المرحلة الأكثر صخباً وبدائية فى ثورتها وتنتقل إلى الاستقرار والدراية والتجربة . إذ كانت الثورة قد أصبحت حقيقة تم إنجازها ، كما أصبحت روسيا بعد انتصارها على هتلر دولة كبرى معترفاً بها فى العالم . ومع شعورها بمزيد من الاطمئنان ، فقدت شيئاً من حمسها للحملات العنيفة وأصبحت أكثر استعداداً للاختلاط بجماعة أوروبا الغربية . وثانى التطورين ، أن الصين بدأت تتجلى كدولة يحتمل أن تصبح أقوى الدول الشيوعية ، فهي مستعدة لتحدى السيطرة الروسية فى شياها ، والنفوذ الروسى فى كل مكان فى آسيا . ولقد بدا التحدى من ناحية الصين ، فى نظر الصين ، أدعى للجزع من التحدى من ناحية الغرب .

والواقع أن انصهار الجليد فى العلاقات الروسية - الأمريكية لم يذهب بالعداء نحو الشيوعية أو التوجس منها فى الولايات المتحدة ، بل أنه حوّل أهداف العداء إلى كوبا « كاسترو » وإلى الصين .

كان العداء للصين قد أصبح متغلغلاً ، ومطرّد الاستفحال ، وما من شك فى أن هذا كان شعور الصينيين كذلك . ولقد أوشكت الحرب الكورية أن ترقى متطورة إلى حرب كبرى مع الصين . . وهذا ما كان خليقاً بأن يحدث لوفند الجترال ماك آرثر خططه . وبقيام الهدنة المضطربة فى كوريا ، تحولت الأعمال العدائية إلى فورموزا ، حيث أبقى سلطان أمريكا ومواردها على شيانج كاي - شيك ، الطاعن السن ، فى الحكم . ومن الطبيعى أن الصين الأصلية - القائمة فى القارة الآسيوية - كانت مصممة على أن تبسط سلطانها على فورموزا ، فى حين أن الأمريكيين لم يكونوا أقل منها تصميماً على صيانة استقلال فورموزا . هذه المسألة بالذات ، هى التى أذكت الأحقاد بين الدولتين الكبيرتين .

كانت الدولتان الشيوعيتان الكبيرتان - فى القرن العشرين - دولتين توسعتين وإمبرياليتين (استعماريتين) وعسكريتين ، كما كان شأن بريطانيا وفرنسا وألمانيا فى القرن التاسع عشر . كان التوسع الروسى قد وصل إلى نهري اللب والدانوب فى الغرب ،

وإلى سواحل المحيط الهادى فى الشرق ، فى حين أن نفوذها اشتد فى الشرق الأوسط بأسره . وهامى ذى الصين ، التى يناهز سكانها سبعمائة مليون نسمة ، تتربص ضاغطة على حدودها المباشرة - سيريا ، والتبت ، والهند ، وكوريا ، وبورما ، ولاوس ، وفيتنام - وتحاول أن تمد نفوذها وسلطانها إلى الإندونيسيين والهنود واليابانيين . وكان الضغط يتخذ أحياناً شكل عدوان صريح ، كما حدث ضد التبت والهند ، ولكن الأكثر شيوعاً أنه كان يستخدم أساليب التسلل وإثارة الخواطر الهدامة .

وكانت لاوس ، ثم فيتنام ، أرض المعركة التى وجد الأمريكيون أنفسهم يناضلون فيها على غير توقع . كان الفرنسيون فى هذه البلاد ، التى كانت الهند الصينية الفرنسية ، قد سعوا دون ما جدوى للذود عن الحكم الذاتى المحلى وعن مصالحهم . فلما رحل الفرنسيون فى سنة ١٩٥٤ ، دخل الأمريكيون بالرغم من أن مصالحهم أوطبيعة تعهدهم لم تكن واضحة تماماً . وسرعان ما واجه الأمريكيون كل المشكلات التى كان الفرنسيون قد واجهوها وذاقوا فيها الخزي .

وكانت لاوس هى التى بدت مركز المحنة والخطر فى أثناء الخمسينات وأوائل الستينات . كانت اتفاقية بين أربع عشرة دولة قد أقامت حكومة ائتلافية متأرجحة ، فكان هذا الائتلاف على شفا الانهيار باستمرار ، ولاح أن لاوس لابد أن تدخل فى نطاق النفوذ الصينى . ولتعزيز الائتلاف المتأرجح ، أوفدت الولايات المتحدة حملة عسكرية من الأسطول السابع ، وقوة من مشاة الأسطول ، وتم إقرار نوع من الصلح .

أما فيتنام فكانت تمثل مشكلة أشد صعوبة ، لم يظهر أن من الممكن تطويعها لأى حل . كانت اتفاقية جنيف سنة ١٩٥٤ قد رسمت خطأ بعرض وسط هذه البلاد التى مزقتها الحرب ، تاركة الشمال للفيت كونج الشيوعيين ، والجنوب لأية حكومة غير شيوعية يمكن أن تظل على قيد البقاء . وكان المقرر إجراء انتخابات حرة فى سنة ١٩٥٦ ، ولكن يوم إمكان إجراء هذه الانتخابات لم يحن أبداً . فى حين أن التسلل الشيوعى من الشمال ومن لاوس ، والمشاحنات الدينية بين الأقلية الكاثوليكية والأغلبية البوذية ، والتدمير الاقتصادى ، والفساد والحكومات عديمة الكفاءة ، تكاثفت جميعاً لتقضى على فيتنام الجنوبية بالاضطرابات الدائمة ، وتعرضها للخطر المستمر . وكان من الممكن أن تقبل الولايات المتحدة هذا كله كجزء من الآلام المتزايدة فى الدول الجديدة ، وأن تقف جانباً . ولكن المسيطرين على السياسة الخارجية كانوا قد اعتنقوا

٦٤٧ حدود جديدة : التحدى

نظرية الدومينو . . النظرية القائلة بأنه إذا سقطت إحدى دول جنوب شرق آسيا في أيدي الشيوعيين ، فإن كافة دول المنطقة حتى أقصاها ، أى إندونيسيا وماليزيا ، وحتى الهند كذلك ، ستهاوى كقطع الدومينو . وهذا ما اقتنع به الرؤساء الأربعة أيزنهاور وكينيدي وجونسون ثم نيكسون . . فقد كانت لدى كل منهم محاذير خاصة ، تحولت إلى يقين لا يلين . وبموجب سلطة اتفاقيات منظمة معاهدة جنوب شرقى آسيا المحفوظة بالشك والتي ألزمت الموقعين عليها بحماية جنوب شرق آسيا من العدوان الخارجى ، والتي كانت موجهة ضمناً ضد الصين ، أقبلت الولايات المتحدة لتضطلع بالمسؤوليات التى عجز الفرنسيون عن تحقيقها . وهكذا وجد الأمريكيون أنفسهم وقد تورطوا باطراد فى نوع من الحرب المتراخية ضد فيتنامى الشمال وضد العصابات فى الجنوب . تلك الحرب التى لم يعلن عنها من قبل ، ولا أيدها الشعب الأمريكى .

وبرغم أن الرئيس أيزنهاور قاوم فى البداية تلك الضغوط التى استهدفت توريط الولايات المتحدة الأمريكية فى محاولة إنقاذ القوات الفرنسية فى فيتنام ، إلا أنه هو الذى دفع بالأمريكيين إلى التورط فى آسيا حين أعلن تأييده للرئيس ديم . وورث الرئيس كينيدي هذه السياسة بل ومضى أبعد من ذلك بإعلانه اقتفاء أثرها أيضاً . ونتيجة لهذا . . كان على هانوى أن تعتمد على الصين والاتحاد السوفيتى .

حاول كينيدي فى البداية التخلص من أى رغبة تدفعه للخوض فى المستنقع الآسيوى . . إلا أنه اندفع فى تزويد فيتنام الجنوبية بالمساعدات العسكرية والاقتصادية . كما أنه لم يعتمد على القوات البرية التقليدية فى مواجهة القلاقل فى تلك المنطقة ، بل اعتمد على جماعات « الحرب غير التقليدية » بما فيهم من خبراء فى التخريب والإرهاب . وتولت المخابرات المركزية الأمريكية عمليات التنسيق ضماًناً « للأمن » . . فتم إرسال بعثات فنية أمريكية للمساعدات الفنية ، وقام المستشارون العسكريون بتدريب القوات الفيتنامية الجنوبية ، وقامت وكالة « التنمية الدولية » بإمدادهم بالمال اللازم ، فأصبحت هذه الوكالة بمثابة الكنز لرجال حكومة سايجون . بعد ذلك أصدر كينيدي أوامره السرية بإرسال خمسمائة رجل من ذوى « الباربهات الخضراء » إلى فيتنام ، وهم مجموعة من المقاتلين ذوى الكفاءة العالية المدربين على سحق الثورات . وقام العديد من المستشارين العسكريين — نواة القوات التى وافق كينيدي على إرسالها فى فبراير ١٩٦٢ — بالرد على إطلاق النار بحجة الدفاع عن النفس . بعدها تعهد الأمريكيون

بتدريب القوات الفيتنامية الجنوبية في حالة « نشوب القتال » على حد تعبير روبرت مكنمارا وزير الدفاع الأمريكي آن ذاك ، ومع حلول عام ١٩٦٣ بلغ مجموع القوات الأمريكية في فيتنام ١٦٠ ألف رجل . كما حلقت في سائها طائرات الهليكوبتر تنقل المجموعات دعماً للقتال . . وأخذ الطيارون الأمريكيون يدمرون أهداف العدو في حين انشغل المستشارون العسكريون في الإشراف على الغارات على الشمال وكذلك على عمليات التدمير وعمليات إخلاء السكان التي سُميت « الدرع الاستراتيجي » والتي قامت على فرض الهجرة على الفلاحين ليتم القضاء على الحياة الريفية التقليدية . وقد ازداد عدد هؤلاء المستشارين في عهد الرئيس جونسون ، ومن ثم ازدادت عملياتهم العسكرية السرية . كانت المخابرات المركزية قد مهدت في عام ١٩٥٨ لقيام ثورة في لاوس أدت إلى تغيير نظام الحكم المحايد في هذه الدولة . فتولى الحكم جنرال من الجناح اليميني مهد لتدافع المستشارين العسكريين والمساعدات العسكرية إلى تلك الدولة المحاصرة .

بدأ ديم إظهار نوايا السلام مع حكومة هانوي . . غير أن هذا المسلك لم يرق لجنرالات فيتنام الجنوبية ، فنجحوا في مقاومته وذلك بمساعدة السفير الأمريكي في سايجون . . سراً ، وبمساعدة المخابرات المركزية . . علناً .

أما ليندون جونسون ، مرشح السلام في حملة ١٩٦٤ الانتخابية ، فقد ورث أيضاً السياسة الفيتنامية من أسلافه . . بل مضى فيها قدماً . . لأنه خشى — مثل كينيدي — أن يُتهم بالهزيمة العسكرية أمام الشيوعيين . فتورط بذلك تورطاً كاملاً فيما يعرف « بالحرب الشاملة » . وبرغم العديد من التقارير المتفائلة فإن حقيقة الموقف السياسي والعسكري قد انتقلت من السيئ إلى الأسوأ ، ورد الفعل عند جونسون هو المزيد من التأييد لحكومة سايجون الجديدة . وكلما ازداد التورط . . ازدادت معه عمليات رجال المخابرات المركزية وغارات الكوماندوز لنسف الجسور وتدمير المنشآت بطول الشاطئ . . وقد أدت إحدى هذه العمليات إلى حادث خليج تونكين الشهير في ٢٤ أغسطس من عام ١٩٦٤ ، والذي بسببه اتخذ الكونجرس قرار « خليج تونكين » الذي يخول لرئيس الجمهورية سلطة اتخاذ قرار الحرب . وقد تمت الموافقة على هذا القرار في الكونجرس بأغلبية صوتين . . وبدون أي معارضة في مجلس الشيوخ ، فدفع الرئيس ، طبقاً لهذا القرار ، بقواته المسلحة إلى فيتنام لتقديم يد المساعدة لأي إقليم في هذه

٦٤٩ حدود جديدة : التحدى

المنطقة يطلب العون دفاعاً عن حريته . وسرعان ما واصل جونسون قصفه المستمر شمال المنطقة منزوعة السلاح فتم تدمير الأهداف العسكرية والمدنية معاً في تلك المناطق الصناعية المحاصرة بغير تمييز .

وهذا يكون الرئيس جونسون قد ضرب عرض الحائط بتقارير المخابرات المركزية التى أفادت بأن هذا القصف ليس له أى تأثير مباشر فى الحد من قدرة هانوى على مواصلة دعمها للعمليات العسكرية . كما أنها أيضاً عديمة الجدوى فى وقف المد الشيوعى . واكتفى جونسون بالالتزام باقتراحات « مجلس الأمن القومى » بزيادة النشاط العسكرى . وأرسل تبعاً للوحدات البحرية للاشتراك فى القتال فى ربيع ١٩٦٥ . . بحجة العمل فى الأغراض الدفاعية فقط . واعتبر هذا القرار نقطة تحول فى السياسة الأمريكية . وبناءً على ذلك ارتفع مجموع القوات المشتركة إلى أن وصل إلى ٥٥٠ ٠٠٠ مقاتل . وارتفع لهيب الحرب بين قصف ومعارك . وبعد أن صرح الرئيس بقوله : « اننا لا نسعى لتوسيع دائرة الحرب » إذا بالغارات الجوية المجنونة تتواصل على مدى ثلاثة أعوام متتالية . وأصبح العديد من المناطق السكانية الضخمة فى فيتنام الجنوبية مناطق « مستباحة » من حق الطيران الأمريكى أن يقصف أى شىء « يتحرك » . وهكذا بدأ أشرس قصف جوى عرفه التاريخ . وقد صرح أحد مساعدى وزير الدفاع الأمريكى بقوله : « كنا نواصل القصف ملتزمين بشعار أنه لكى نقضى على قوات «الفيتكونج » فإنه يلزم دك كل القوى . . وسحق كل الغابات . . ثم يسوى بعد ذلك . . سطح أرض فيتنام كلها بالأسفلت » . وقبل نهاية عام ١٩٦٦ فاق وزن ما ألقى من قنابل على فيتنام الجنوبية بالطن . . كل ما ألقى على الباسيفيك فى مسرح عمليات الحرب العالمية الثانية . وقبل نهاية الحرب بلغ ما ألقته الولايات المتحدة من قنابل فوق جنوب شرقى آسيا . . ثلاثة أضعاف كلى ما ألقى من قنابل فى الحرب العالمية الثانية . ويمقدم عام ١٩٦٨ جاوز تعداد القوات البرية والجوية المشتركة فى القتال النصف مليون مقاتل ، عملوا جميعاً على تدمير القرى مستخدمين الكيماويات فى إزالة منطقة لا تقل مساحتها عن مساحة مساشوستس . . هذا غير الدمار الذى لحق بشطرى فيتنام الجنوبي والشمالي . ولا عجب من أنه قبل نهاية عام ١٩٦٨ . . بدأت الحركات الداعية للسلام تأخذ شكلاً واضح المعالم فى أمريكا . وغمت أرجاء البلاد الأنشطة المناهضة للحرب . وخابت آمال جونسون فى الفوز بفترة رئاسة ثانية بسبب تزايد هذه الأنشطة المعارضة من ناحية . .

٦٥٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

وبسبب هجوم اختبار قوة الحشود المهيبة الذى وقع فى ٣١ يناير ١٩٦٨ من ناحية أخرى . فقد أثبت هجوم « اختبار قوة الحشود » الشامل المذهل الذى قام به الفيتناميون الشماليون إفلاس الاستراتيجية العسكرية الأمريكية . وكان إهانة بالغة موجهة إلى برنامج جونسون فى فيتنام أما الذى أصاب الجميع بالدهشة بعد اختبار قوة الحشود فهو فوز مرشحى الحزب الديمقراطى المناهضين للحرب فى الانتخابات التمهيدية . . وكذلك استدعاء الجنرال وليم وستمورلاند قائد القوات الأمريكية فى فيتنام . . لقوات إضافية بلغت ٢٦٠٠٠٠ مقاتل . . وأصبح جلياً أنه لكى يتحقق النصر فلا بد من تجميع رهيب للقوات مع مواصلة القصف ، وهو الأمر الذى يهدد بمواجهة مع الصين والاتحاد السوفيتى وهى مغامرة لم يكن بمقدور جونسون الإقدام عليها . واضطر جونسون إلى إعلان وقف عمليات القصف فى ٣١ مارس ، وذلك بسبب الهزة العنيفة التى أحدثتها عملية « اختبار قوة الحشود » وكذلك بسبب الانتقادات الحادة التى واجهت جونسون من أقرب المستشارين إليه . ليس هذا فحسب ، بل إن جونسون أعقب قراره هذا بتصريح أعلن فيه انسحابه من انتخابات الرئاسة التالية .

خاض نيكسون المعركة الانتخابية رافعاً شعار إنهاء الحرب . غير أن فوزه فى انتخابات ١٩٦٨ لم يحقق أى جديد فى هذا الشأن . بل على العكس من هذا أعلن نيكسون أن اشتراك أمريكا فى الحرب الدائرة جنوب شرقى آسيا يجب أن يكون « مثار فخر » ومضى يبحث عن حكومة قوية تناهض الشيوعية فى سايجون معلقاً كل آمال النصر على القوة الجوية الأمريكية فى فيتنام . وبمجرد توليه منصب الرئاسة أمر نيكسون مجموعة القاذفات بـ ٥٢ بقصف كمبوديا المحايدة بلا توقف على مدى أربعة عشر شهراً . وقد أخفيت أخبار هذا القصف على الشعب الأمريكى بل اضطرت الحكومة إلى تزيف نتائج الغارات . كانت هناك أيضاً أسرار أخرى غير معلنة من بينها قيام رجال المخابرات المركزية بتدريب قوات كمبودية فى اليونان ، وكذلك اشتراك قوات كوماندوز من فيتنام الجنوبية مع القوات الخاصة الأمريكية فى عمليات داخل الحدود الكمبودية . وقام أيضاً الرجال ذوو « الباربات الخضراء » بغارات داخل حدود فيتنام الشمالية . هذا غير الطلعات الجوية الخاطفة التى قام بها الطيران الأمريكى داخل حدود الصين . . ولاوس . وبرغم هذا . . بدأ الرئيس فعلاً فى سحب بعض قواته البرية ببطء برغم أنه حقق نوعاً من التوازن حين دعم جيش فيتنام الجنوبية وكثف عدد الغارات

٦٥١ حدود جديدة : التحدى

الجوية . وهذا ما أسماه نيكسون « فتنمة الحرب » . . أى استمرار الاشتراك في الحرب . . لكن مع نقل الخسائر من الجانب الأمريكى إلى الجانب الفيتنامى .

وفي الثلاثين من أبريل عام ١٩٧٠ دفع الرئيس الأمريكى بقواته لغزو كمبوديا المحايدة . . بحجة أنها منطقة تجمع قوات العدو . ولأن هذا القرار جاء مخالفاً للقوانين الدولية . . وللولايات المتحدة ذاتها فقد اضطر نيكسون للدفاع عنه بقوله : « إننا لن نذل أبداً ولن نُهزم أبداً . . وإذا تحركت الولايات المتحدة على أساس أنها ذلك العملاق العطوف العاجز . . فإن قوى البغى والاستبداد ستهدد كل الحكومات الحرة والأمم المدافعة عن الحرية » . ورغم هذا فقد أوجد هذا التوسع الاستبدادى في الحرب حركة انتقادية حادة جداً داخل مجلس الشيوخ الأمريكى فأصدر المجلس في الخامس من يناير عام ١٩٧١ قراراً يحظر تواجد أى حشود أمريكية داخل حدود كمبوديا بعد الثلاثين من يونيو ومنع مساعدة القوات الجوية الأمريكية لقوات الجيش الكمبودى . ومن الأمور التى ساعدت على تفجر الشعور بالاستياء داخل الولايات المتحدة ذاتها عملية الهجوم على كمبوديا والتى سميت « الغزو » . وكذلك فطائع القوات الأمريكية التى كشف عنها ماى لاي والظروف المعيشية السيئة التى تعرض لها المسجونون من فيتنام الشمالية داخل سجن جزيرة كون سون الخاضع للإدارة الأمريكية ، ثم ذلك الهجوم الذى قامت به قوات فيتنام الجنوبية على لاوس وتلك الضربة العسكرية لخطوط الإمداد فى هانوى والتى تمت بمساعدة القوات الجوية الأمريكية . لكن نجح نيكسون فى تهدئة معارضيه داخل الولايات المتحدة بسحبه لقوات الغزو وملئه السوء بالطائرات الأمريكية .

أثناء ذلك وفى عيد الفصح عام ١٩٧٢ وجهت قوات فيتنام الشمالية ضربة أفقدت فيتنام الجنوبية توازنها وقوضت حصار المدفعية . فاستهدفت هانوى بعد ذلك وتم تلغيم ميناء هايفونج وعاد القصف مرة أخرى فبره نيكسون بقوله : « لكى نكسب الحرب فى فيتنام ونضع نهاية لها » . وقد وقع هذا الاعتداء بعد أن وقع هنرى كيسنجر مستشار رئيس الجمهورية للشؤون الخارجية معاهدة للتسوية مع فيتنام الشمالية فى باريس فى أكتوبر ١٩٧٢ نصت على أن من حق هانوى وضع قوات لها فى فيتنام الجنوبية . ولأن أحداً لم يستشر نيجوين فان ثيو آخر رؤساء فيتنام الجنوبية . . فقد غضب من هذا البند ورفض توقيع معاهدة السلام . فلجأت الولايات المتحدة إلى قصف جوى استمر اثنى عشر يوماً إبان أعياد الميلاد عام ١٩٧٢ بصورة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الحروب . .

٦٥٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

من أجل تطيب خاطر الرئيس ثيو . . وحثه لتوقيع معاهدة السلام . وقد نجحوا في ذلك بالفعل لأن حكومة هانوى وافقت على تقديم بعض التنازلات البسيطة . . ووافق ثيو على التوقيع في يناير ١٩٧٣ . برغم أنه قد ثبت عدم جديته في احترامه لبندوها فيما بعد . وطبقاً لهذه المعاهدة فقد تعهدت الحكومة الأمريكية بسحب قواتها من فيتنام على أن تستمر في سد احتياجات سايجون من السلاح والمعدات . وقد خلفت أمريكا وراءها في الجنوب عتاداً كان يمكن أن يحيل فيتنام الجنوبية إلى واحدة من أكبر الدول البحرية في العالم . . ورابع أكبر جيش وسادس قوة جوية في العالم كله .

وهكذا أصبح من حق الرئيس نيكسون الادعاء بأنه قد حقق « السلام المشرف » بعد حرب العشر السنوات المريرة في جنوب شرقى آسيا . ولقد أثبتت الأحداث فيما بعد أنه لم يكن هناك ثمة « سلام مشرف » في تلك الاتفاقيات . وقد بلغ ما أسقط من قنابل فوق فيتنام إبان حكم نيكسون الذى استمر ثلاث سنوات فقط . . كل ما أسقط من قنابل فوق آسيا وأوروبا مجتمعين في الحرب العالمية الثانية . وضحت الحكومة بحياة ١٥ ألف أمريكى . وبلغت الخسائر ١١٠ ألف جريح وخمسين بليون دولار ذهبت كلها أدرج الريح . أما فيتنام الجنوبية فقد فقدت ٦٠٠ ألف مواطن بين قتيل وجريح من أجل أن تمضى الأمور بصورة « مشرفة » . وبشكل عام أدت هذه الحرب إلى فقد حياة ٥٥ ألفاً أضيف إليها خسائر بلغت ٣٥٠ ألفاً . . وفاقته نفقاتها ١٦٠ بليون دولار . أما الخسائر المعنوية والفكرية فلا يمكن تقديرها بهال . وجاء في تقرير اللجنة التى شكلها مجلس الشيوخ أن الضريبة التى دفعها فيتنام الجنوبية بلغت النصف مليون مقاتل بينما بلغت خسائر الأعداء المليون قتيل . هذا غير الخسائر التى بلغت المليون ونصف المليون مواطن . ولاحقت الحرب كمبوديا ولاوس فترة من الزمن وألحقت بها خسائر في الأرض التى دكتها الغارات والدمار الذى لحق بالحياة في القرى .

ومع ذلك . . لم تحقق المعاهدة السلام المنشود . . فقد دأبت كل من فيتنام الشمالية والجنوبية على انتهاكها . . وأمريكا أيضاً . ومن حقائق الأمور أنه بغير مساعدة أمريكا الفعلية لما قامت قائمة لحكومة الجنوب . فإن حكومة ثيو لم تحظ بولاء الشعب أو الجيش ولا حظيت بأى سند معنوى أو فكرى . . وقد مارست فيتنام الشمالية في ذلك العام . . ضغوطاً رهيبية على فيتنام الجنوبية . وما أن حل عام ١٩٧٥ حتى أصبح جلياً أنه لكى يقف نظام ثيو المتداعى الفاسد . . على قدميه فلا بد من دعم أمريكى هائل . ولم تال

٦٥٣ حدود جديدة : التحدى

الإدارة الأمريكية جهداً من أجل دعم الجنوب . إلا أن الكونجرس الأمريكى منع المساعدات المفتوحة . . كما أن المساعدات المستترة لم تكن كافية ؛ لذا فإن السقوط والانحيار المفاجيء لثيو كان مثيراً للدهشة بالفعل . وفى الفترة ما بين شتاء وربيع عام ١٩٧٥ وبمساعدة عناصر متعددة فى الجنوب . قامت فيتنام الشمالية باجتياح سايجون فى الوقت الذى خبت فيه قوة الحكومة . وانطلقت الصرخات اليائسة تطلب المساعدة العسكرية فى اللحظة الأخيرة وتنادى بالوساطة . وقد أعلن الرئيس فورد بوضوح لا يخلو من القسوة بأن تجديد المساعدات الأمريكية للجنوب كان كفيلاً بإنقاذ الموقف اليائس وتبديله . ولم يكن للأغلبية داخل الكونجرس ولا للسواد الأعظم من الشعب أى دخل فى صياغة حقيقة أن الأمريكيين والفيتناميين على حد سواء قد أنهكتهم الحرب تماماً . . وسعوا لوضع حد لها بأى وسيلة . وهدوء زحفت القوات الشيوعية إلى فيتنام وكمبوديا محققة الآمال المستحيلة فى الجنوب وقامت بوضع اليد على طائرات الدعم الأمريكى والدبابات والمعدات العسكرية الأخرى . وبعد أن ألحقت الهزيمة النكراء بقوات الجنوب قامت بمطاردة فلولهم المهزومة إلى سايجون وكأنهم شرذمة من الرعاع وليسوا قوات نظامية محاربة . قبلت الولايات المتحدة الأمر الواقع المحتم « لكن فى وقت متأخر جداً » . فقامت على الفور بعملية إجلاء لقواتها ولأصدقائها من الفيتناميين الجنوبيين . . ونجح حوالى ١٣٠ ألف فيتنامى جنوبى فى الفرار إلى أمريكا . وسقطت كمبوديا فى أيدي قوات الخمير الحمر من الشيوعيين المحايديين . . وكذلك لاوس . وفى ٣٠ أبريل ١٩٧٥ دخل الفيتناميون الشماليون وحلفاؤهم من الجنوبيين . . إلى سايجون . وانتهى بذلك صراع خمسة وعشرين عاماً من أجل قيام دولة فيتنامية مستقلة متحدة . أما بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية . فإن العشرين عاماً من التدخل والحرب فى فيتنام لم تكن فقط بمثابة هزيمة عسكرية . . وإنما كانت كارثة سياسية ودبلوماسية ونفسية ومعنوية .

واستطاعت فيتنام أن تنزع نفسها وتتححر من تلك الصورة الذاتية الثابتة التى فرضتها مقتضيات الأخلاق الأمريكية ، بنفس القدرة التى تحررت بها من ربة تلك الفلسفة « الجيوبوليتيك » التى انقضت عليها عقدان دون أى اهتزاز . وبالتالى فقد أثبتت سياسة كل من جونسون ونيكسون فيما وراء البحار . . اختلافها عن سياسة الحرب الباردة لمن سبقوها من رؤساء . . خاصة فيما يتعلق بالنفقات . فقد كان لديها يقين

واحد مشترك . . هو نتاج مصدر واحد لا يتغير . . إن هناك التزامات وتعهدات أصبحت لها الصفة العالمية وليست المحلية كما فعل جيفرسون . أو أن يكون لديهم تعهدات للعالم الغربي كما حدث من بولك وكليفلاند وكانت هذه الاعتبارات نظرية بحتة . . أكثر منها عملية . ومنذ نهاية الأربعينات من هذا القرن وبشكل متزايد أصبحت استجابة الرؤساء الأمريكيين للتحديات — سواء حقيقية أو وهمية — تتم بشكل آلى . . وأحياناً بدون الرجوع إلى الكونجرس . . حيث إنه ما دام هناك تهديد للحرية ومن قبل « الشيوعيين » فيجب أن تكون الموافقة فورية وبغير حرج .

ومن المدهش أنه في بعض البلدان الواقعة تحت التهديد مثل بوليفيا وبيرو وكوبا وسانتو دومينجو ، فقد قامت — وعلى الفور — قوات الباربهات الخضراء وبعض القوات الأمريكية بتنفيذ عمليات مضادة لحركات التمرد داخل هذه البلاد . وخوفاً من تكرار ما حدث في ميونخ وخوفاً من تتابع سقوط قطع الدومينو قامت المخابرات المركزية الأمريكية وبمعاونة مثيري المظاهرات . . بتدريب قوات خاصة لمقاومة التمرد من داخل هذه البلاد . وبلغ عدد من دربتهم أمريكا في الفترة من ١٩٥٠ إلى ١٩٦٨ ما يزيد على ٤٠ ألفاً من أمريكا اللاتينية للقيام بما أسماه روبرت مكنهارا وزير الدفاع بتحقيق « الأمن الوطنى » . ووصل الأمر إلى حد تأييد أنظمة حكم قمعية . . سواء أكانت في السلطة بالفعل أم في طريقها إلى الاستيلاء على السلطة كما حدث في إسبانيا واليونان . والدليل على هذا أنه حين أعلن جنرالات البرازيل استيلاءهم على الحكم في عام ١٩٦٤ . . وأقصوا الرئيس الديمقراطي المنتخب جاواو جولارت بحجة إنقاذ البلاد من خطر الشيوعية أعلن جونسون على الفور اعترافه بالنظام العسكرى الحاكم . . الجديد .

لقد انشغل صانعو السياسة الأمريكية بشؤون جمهورية الدومينكان وتم الإطاحة بجوان بوش رئيس هذه الجزيرة المضطربة . . المنتخب دستورياً ، وذلك إثر ضربة عسكرية . وحين خرجت الحشود الشعبية في الطرقات تهدد هذه الشرذمة العسكرية التى حكمت لفترة وجيزة . . طلب السفير الأمريكى التدخل العسكرى . وبدون أن يكلف الرئيس جونسون نفسه مشقة اللجوء إلى الكونجرس . . سارع بإرسال ٢٣ ألف رجل من مشاة الأسطول قاموا بسحق قوات الرئيس بوش الدستورية وأنقذوا النظام العسكرى الحاكم . ولتهذئة الموقف أعلن جونسون أنه لجأ إلى هذا لإنقاذ حياة الأمريكيين . . وظهر تفسير آخر يدعى أن الثورة الديمقراطية الشعبية كانت وشيكة السقوط في أيدي

٦٥٥ حدود جديدة : التحدى

الشيوعيين المتآمرين ! وحقيقة الأمر أنه لم يكن هناك ثمة وجود لهؤلاء المتآمرين ^(١) . ولقد أدت تصرفات جونسون التى تمت بمسئوليته فقط فى مواصلة الالتزامات التى تعهد بها لإدارة المناطق المحتلة وفى اغتصابه للقوة التنفيذية . . إلى اهتزاز الهيمنة الأمريكية على العالم . . . أخلاقياً .

لقد أثبتت سياسة أمريكا فى أمريكا اللاتينية . . أن الأمة التى سبق وأن قادت ثورة وتحدثت من أجل ذلك « الحلف المقدس » . . أصبحت هى الآن ذلك الحاجز العاتى الجبار ضد تيار الثورات . وللحفاظ على سياسة الوضع الراهن اضطرت أمريكا فى عام ١٩٦٨ إلى حشد ما يزيد على المليون مقاتل خارج حدودها وأكثر من ٣٣ ألف طائرة فى مطارات متناثرة حول العالم كله وعشرات الآلاف من الرجال فوق القطع البحرية ، وعدد مجهول من رجال المخابرات المركزية السريين المنتشرين داخل ما يقرب من ٦٠ دولة وكذلك شبكات مكونة من ألفى قاعدة صواريخ . وبالإضافة إلى كل هذا . . قامت بتسليح ومساندة أكثر من مليونين من المقاتلين فى أماكن متناثرة يعملون جميعاً تحت إمرة الديكتاتورية العسكرية . هذا غير إنفاق ٥٠ بليون دولار فى شكل مساعدات عسكرية لما يزيد عن عشرين دولة . . وقامت بنسج شبكة مكونة من خمسة أقاليم وأكثر من ٤٢ حلف دفاعى ثنائى .

وحين جاء نيكسون . . واصل نفس السياسة بالنسبة لكل أنحاء الأرض . . فقد دعمت إدارته الديكتاتورية العسكرية فى اليونان . . وساعدت فى الإطاحة بالأسقف مكاريوس فى قبرص . وباعت المقاتلات النفاثة إلى جنوب أفريقيا والبرتغال . . ثم خاضت صراعاً مريعاً مع القوى المضادة فى المستعمرات الأفريقية وانتهكت قرار الأمم المتحدة الخاص بفرض عقوبات على حكومة جنوب أفريقيا . . بل ومنحتها تسهيلات اقتصادية وهى الدولة التى قاطعها العديد من البلدان الديمقراطية لسياساتها العنصرية . أما بالنسبة لشيلى فقد عملت لجنة الأربعين السرية التى كان يرأسها هنرى كيسنجر ، مستشار الرئيس فى ذلك الوقت ، على تقويض النظام الديمقراطى الاشتراكى للرئيس المنتخب سيلفادور ألييندى . وتنصل البنك الدولى من كل التزاماته بالنسبة

(١) أحتوت القوائم التى ضمت أسماء هؤلاء الشيوعيين . . أسماء بعض الموتى وآخرين فى السجون وطفلاً فى السادسة من

٦٥٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

للقروض لشيل (كان لأمريكا حق الفيتو في البنك) ونفس الموقف فعله بنك الولايات المتحدة للاستيراد والتصدير . . . وبعدها حصلت المخابرات المركزية على دعم قدره ٨ مليون دولار من أجل فريق « إثارة القلاقل » الذي أوجده هنري كيسنجر وزير الخارجية آنذاك . فساعد هذا كله على توجيه الضربة العسكرية التي أحاطت بحكم الرئيس ألييندى في عام ١٩٧٤ واستبدلت به نظاماً عسكرياً ديكتاتورياً . أما في آسيا فقد ساهمت المساعدات الأمريكية في وجود حكومات عميلة مثلما حدث في جنوب فيتنام وتايوان والفلبين وجنوب كوريا . وحين قررت حكومة نيكسون . . . الميل تجاه باكستان قامت بإغراق البلاد بالمساعدات المالية والعسكرية وذلك أثناء عمليات الإبادة الوحشية التي تمت ضد شعب شرقي البنغال . وقطعت في ذات الوقت مساعدتها للهند . . . وبهذا تؤكد الولايات المتحدة مساندتها للديكتاتورية العسكرية في مواجهة ما كان يُعرف بأعظم ديمقراطيات العالم كله .

في زمن الحرب الباردة شجب نيكسون كل مساوئ الشيوعية ، ومع ذلك نادى بتجميد العداء مع الصين والاعتراف بنظام شيانج كاي - شيك في تايوان وتأييده ، وحث الأمم المتحدة للاعتراف بتايوان على أساس أنها أرض الصين الأصلية . وقد بدت هذه السياسة غير قابلة للتنفيذ . . . لكن اتباعاً لما شاع في ذلك الوقت حين تهادن دى فاليرا مع بريطانيا ، وأمنى أيزنهاور حرب كوريا ، وانسحب ديجول من الجزائر ، فقد قرر نيكسون التخلص عن تأييده لتايوان وبدأ سياسة التقارب مع الصين . ونحن لا نعلم بالضبط إلى أى مدى اعتمد نيكسون على مستشاره الذكى الداهية الثابر هنري كيسنجر فيما يتعلق بتغيير سياسته . عُرف عن كيسنجر اتباعه لسياسة الوفاق معتمداً على وضوح الرؤية أمامه وقوة علاقاته . فقد عرف بدءاً أنه لا يمكن بالطبع زحزحة الصين وروسيا عن الخط الشيوعى ، ومن ثم فقد حان الوقت لتدرك الولايات المتحدة هذه الحقائق وتسعى إلى تسويات تحقق لها التوازن الكلاسيكى لتتبوأ مكانة أفضل . وقد أعلن نيكسون في خطابه للعالم في ٢٥ فبراير ١٩٧٣ أن الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت مهياة الآن لكى تقوم جمهورية الصين الشعبية بدور بناء في المجتمع الإنسانى . بعدها تلاحقت الأحداث بسرعة . فقد أوقفت الولايات المتحدة أعمالها التخريبية في مضيق فورموزا ، وطار كيسنجر سراً إلى بكين لتحديد موعد ، ثم يعلن الرئيس أنه سيزور الصين قبل مايو ١٩٧٢ . وفى نوفمبر ١٩٧٢ وبعد أن أصبح جلياً أن هناك أغلبية داخل

٦٥٧ حدود جديدة : التحدى

الأمم المتحدة تسعى لعزل وفد تايوان وتحويل مقعدها إلى بكين ، أظهرت الولايات المتحدة مقاومة مظهرية لهذا الاتجاه وإن كانت في حقيقة الأمر قد قبلت هذه الحقيقة المؤلمة . كان لهذا الانقلاب في سياسة نيكسون جوانبه المثيرة أيضاً . فقد أنهكت سياسة الدعم المستمر لنظام ثيو الفاسد قوى الحزب الجمهورى ومن ثم فإن رحلة سلام إلى بكين ستكون مفيدة جداً لإصلاح الأوضاع في الداخل . هذه الرحلة كانت مجرد جزء من مخططات كيسنجر العالمية . فكان يسعى إلى تخفيف حدة التوتر مع روسيا لإنعاش التبادل التجارى مع هذه الدول التى تنمو بسرعة ، مع تخفيف حدة سباق التسلح النووى . وفى سعيه من أجل تحقيق أهداف دولية عامة لإيجاد نوع من الاستقرار الدولى استطاع كيسنجر إقناع الرئيس بأنه يمكن تخفيف حدة التوتر مع الصين وروسيا بإظهار العطف عليهما بالتلويح بالإغراءات التجارية ، ثم التخلص من حصار هايفونج والقصف العنيف لهانوى ومحاولات سحق الخصوم في آسيا .

وإلى جانب جدية المناورة التى تحققت لأمريكا . فإن هذا الانقلاب في السياسة كانت له مزايا أخرى . . فقد ساعد إلى حد كبير في تخفيف حدة التوتر الدولى ، وتم التفاوض بين روسيا والولايات المتحدة بشأن التوسع في تجارة القمح ، وضمنت كل منهما للأخرى حق عدم الاعتداء النووى طبقاً لاتفاقية سولت المجددة . وتدفع رجال الأعمال الأمريكيون على موسكو بحثاً عن مزيد من اتفاقيات الأعمال . أما الصين ، التى كانت يوماً ، جزءاً من المخطط الشيوعى الشيطانى ، أصبحت الآن ينظر إليها كدولة صالحة لما تحققة من إنجازات اجتماعية واقتصادية .

« ما من درع يقى من القدر »

إزاء عناد الكونجرس ، ومع العداء الواسع النطاق لبرامج الرئيس كينيدي الخاصة بالحقوق المدنية والإصلاح الاجتماعى في الجنوب ، اعتزم الرئيس في نوفمبر سنة ١٩٦٣ ، أن يعرض قضيته على الشعب . واختار فلوريدا وتكساس كولاييتين رئيسيتين يبدأ بهما . كانت فلوريدا قد صوتت لصالح الجمهوريين في انتخابات سنة ١٩٦٠ ، ولم يبق تكساس في صف الديمقراطيين سوى ترشيح ليندون جونسون نائباً للرئيس .

وكان لما للرئيس من علو الهمة وعمق الجدية أثر هائل في فلوريدا . ثم رحل يوم ٢١ نوفمبر إلى تكساس وهو مستبشر . ولقد حظى باستقبال حماسى صاحب فى سان أنتونيو ، وهيوستون ، وفورت ويرث . ثم طار إلى دالاس يوم الجمعة ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٦٣ . وبينما كان موكبه يمضى من المطار إلى داخل المدينة ، أطلق الرصاص على الرئيس ، فاخترق رأسه وقُتل على يدى شاب مهتر العقل يدعى لى هارفى أوزوالد . وعلى الفور أدى نائب الرئيس ليندون جونسون اليمين ليتولى الرئاسة . وجمدت الأمة - والعالم - ثلاثة أيام فى ذهول وصمت ، وهى تشاهد وتسمع الجنازة المهمة لرجل حظى بحب لم يحظ به أى أمريكى آخر ، فى أى عهد .

هكذا راح ضحية لكرهية خرقاء ، سيد عظيم ، ووطنى متفان ، ورجل حكم حكيم ، رجل جمع بين المرح والمهابة ، وبين الصبر والحمية المتأججة ، وبين الشفقة والشجاعة ، وبين الشعر والسطوة .

بدا مقتل الرئيس على يدى أوزوالد التعس مسرفاً فى البعد عن أى هدف ، وفى الانسياق للنزوة ، بدرجة عز معها تصديقه ، فلم يستطع الشعب الأمريكى أن يصدق أن هناك من يرتكب جرماً بهذه الشناعة بدافع بمثل هذه التفاهة . لذلك لم يكن من دواعى العجب إذ ذاك ، أن يتمثل خيال الشعب على الفور مكائد ومؤامرات وراء الاغتيال ، ووراء اغتيال أوزوالد نفسه بعد يومين ، على يدى عامل خسيس فى أحد الملاهى يدعى جاك روبى . ولابد أن هذين الحداث اللذين هزاً الكون ذاته ، كانا ينطويان على معنى ما ! أكان الاغتيال من تدبير المتطرفين الجنوبيين ؟ أكان جزءاً من مؤامرة شيوعية كاملة ؟ أولعله كان من توجيه كاسترو . وللتخلص من الشائعات والمخاوف ، كون الرئيس جونسون لجنة برئاسة كبير القضاة وارين للتحقيق فى الاغتيال من كافة نواحيه . وفى الموعد المحدد ، قدمت اللجنة تقريراً تاريخياً استبعد تماماً كافة الشائعات عن وجود مكيدة أو مؤامرة ، وأوضح أن أوزوالد كان يعمل بمفرده ، وكذلك كان جاك روبى ، وأن الأمر كله كان كابوساً ناشئاً عن جنون وعشوائية ، كان قصة من نسج معتوه . على أنه لا سبيل للقول بأنها كانت قصة بدون معنى ، إذ أنها صورت فعلاً ، وبأكثر الصور واقعية وشرأ ، الطريقة التى يمكن فيها لجو الكراهية أن يولد العنف .

الرئيس ليندون بي . جونسون

ليس في السياسة الأمريكية كثير من المفارقات التي تفوق بروزاً تلك التي كانت بين الرئيسين كينيدي وجونسون . فقد كان الأول من أبناء نيوانجلاند ، وكان كاثوليكياً ، ولد في أحضان الثراء والجاه ، وتعلم في المدارس الخاصة وفي هارفارد . بينما كان الآخر محتفظاً في بعض النواحي بسبب ابن مناطق حدود العمران ، وقد تعلم في المدارس الريفية وفي كلية المعلمين التابعة لإحدى الولايات ، فهو في الواقع قد علم نفسه بنفسه ، وصنع نفسه بنفسه . وكان أسلوبا الرجلين مختلفين اختلاف نشأتهما وتعليمهما . كان كينيدي لامع الذكاء ، ذا حسم قاطع ، وذا سحر يسيطر على الجماهير ، وكان وافر المعرفة والاتصالات ، ذا شخصية عالمية منطلقة . أما جونسون فكان عامياً ، لا يتقيد بشيء ، عزوفاً عن العيش خارج وسطه ، إقليمياً . كان أحدهما على نسق جيفرسون ، والآخر على نسق لينكولن .

بيد أن الأحداث أظهرت أن الأهمية كانت لأوجه الشبه ، وليس لأوجه الاختلاف كان الرجلان يميلان لفلسفة سياسية واحدة إلى حد كبير ، ويلتزمان برنامج واحد إلى حد كبير . كانت فاجعة دالاس ، إذ وقعت في لحظة حرجية في مجرى توجيه دفة السياسة الخارجية ، تهدد بتغيير حاد في التاريخ الأمريكي ، ولكنها لم تحدث أى تغير ولومن الناحية السياسية ، فكان الاستمرار لا التغير هو الطابع الباهر .

ففي الميدان الداخلي ، سرعان ما كشف الرئيس جونسون عن مقدرة لا يكاد يكون لها مثيل في كسب « إجماع في الرأي » وفي إقناع الكونجرس بأداء ما كان ينبغي أداءه . كان هذا راجعاً من ناحية إلى الأسلوب ، إذ كان جونسون مستعداً للتفاهم والتوافق ، في حين كان كينيدي مناضلاً . . وكان راجعاً ، من ناحية أخرى ، إلى البراعة الفنية . . فلقد عاش جونسون ثلاثين عاماً في الكونجرس ، فكان على دراية بكيفية التعامل مع الكونجرس ، وكان الكونجرس على معرفة بكيفية التعامل معه ، على أية حال . ونجم عن ذلك أن جونسون تمكن خلال شهور قلائل من أن يميز عن طريق الكونجرس كل البرنامج التشريعي الأصلي لكينيدي تقريباً ، بل وأكثر منه . فإذا مشروع قانون شامل للحقوق المدنية يمر بالكونجرس بأغليبيتين هائلتين ، وإذا لم يكن قد وضع نهاية لتعطيل الجنوب للتعديلين الرابع عشر والخامس عشر للدستور ، فإنه حدد بداية النهاية . كذلك

أجيز مشروع قانون تعليمي بعيد المرامى ، نص على تكفل الاتحاد بدعم التعليم في كل مستوياته من مرحلة ما قبل المدرسة حتى مدرسة مرحلة التخرج ، بعد عرقلة دامت عقداً من الزمن . ولقد ظفر مشروع قانون الرعاية الطبية للمسنين ، الذى ناضلت الجمعية الطبية الأمريكية من أجله نضالاً مريراً ، بأصوات ذات وزن في المجلسين . ولقد أعلن الرئيس « الحرب على الفقر » ، ووضع مشروع قانون لمناهضة الفقر ، موجه خاصة إلى المناطق المنكوبة في إقليم أبلاش وإلى الأحياء الفقيرة في المدن الكبرى ، ظفر بتأييد الحزبين معاً ، وطبق الكونجرس للمساعدة على تنفيذه نظام « فيالق السلام » — وهى من ابتكارات الرئيس كينيدي النابغة من خيال واسع — في المناطق . ولم تشهد البلاد منذ « الأيام المائة » في عهد روزفلت مثل هذه الموجة الدافقة من تشريعات الولايات للإصلاح الاجتماعى .

واستعدت البلاد في سنة ١٩٦٤ لانتخاب رئيس للجمهورية ، وسط رخاء لم يسبقه مثيل ، وإصلاح اجتماعى لم يسبقه مثيل كذلك .

ولقد درج الحزبان الأمريكان على التشابه الكبير في الطابع ، والسياسات ، والعضوية . فلقد ظل كل من الحزبين الديمقراطي والجمهورى مائة عام يمثل ، أو يحاول أن يمثل ، قطاعاً عرضياً للجمهور الأمريكى . وقد اعتاد كل منهما أن يكون معتدلاً ، وأن يتحاشى الموضوعات التى تهدد بالانقسام . وعندما نبذ الحزبان في مناسبتين ، في سنتى ١٨٦٠ و ١٨٩٦ ، هذه الصفات المميزة ، وتصادما بصدد هذين الأمرين ، وجدت البلاد نفسها ممزقة بالخلافات ، وبالحزابات الطبقة والطائفية . وخرج معظم الأمريكيين من ذلك بأنهم لا يملكون الانغماس في أحزاب تمثل جماعات ومصالح ومعتقدات وأيديولوجيات متضاربة ، وإن جاز هذا للأوروبيين .

على أن الأمريكيين انغمسوا فعلاً في الخلافات في سنة ١٩٦٤ ، كما انغمسوا في المناسبتين السابقتين ، مما أدى إلى عواقب وخيمة لأحد الحزبين . فالواقع أن الرئيس جونسون سعى كعادته إلى « إجماع في الآراء » . وإذ رُشح وسط التهليل للرئاسة ، تعمد أن يولى وجهه نحو محبوب الليبراليين الشماليين هيوبرت همفرى عضو الشيوخ عن مينيسوتا ، ليكون زميله في القائمة نائباً للرئيس ، وأقبل على الحملة الانتخابية ببرنامج استهوى كل قطاع من البلاد ، وكل مصلحة ، وكل طبقة تقريباً .

أما الجمهوريون فاختراروا مسلكاً آخر . إذ أن العناصر المتطرفة في الحزب ، شرعوا

٦٦١ حدود جديدة : التحدى

في حملة سرعان ما اكتسبت أبعاد حرب صليبية ، مدفوعين بالذعر من نجاح الديمقراطيين في الاستفتاءات ، وبإلغاء فلسفة حرية التجارة ، وبمنح سلطان الحكومة القومية على حساب الولايات ، وبإطراد ازدياد الدين القومي ، وبالانتهازية الأنانية في السياسة ، وبنبذ الانعزالية ونمو الروح الدولية ، وبما راحوا يصورونه من « شر شيوعي داهم » ، في الداخل وفي الخارج على السواء .

كان إله هذا العنصر القائم على منطلق « الحكم أو الخراب » في الحزب ، هو السيناتور باري جولدووتر من أريزونا ، الذي كان مقتنعاً بحق بأن الأمة تسير إلى الخراب . وبرقة حديثه ، ولطفه ، وحسن سمعته ، أصبح يمثل لأتباعه المفتونين فضائل أمريكا التي دالت وولت ، أمريكا حدود العمران (قبل أن تمتد رقعتها لساحل المحيط الهادى) ، وفضائل الرجل العصامى ، البسيط الصفات ، البسيط الأخلاق ، البسيط الحلول لكل المشكلات . كان في كل شىء تقريباً ، عدا الأمانة والنزاهة ، على نقيض حاد لمزاحمه الأكبر نيلسون روكفلر حاكم نيويورك . ومع الفوز بأصوات الولايات الجنوبية والغربية ، فاز السيناتور جولدووتر في الانتخابات الأولية – البالغة الأهمية – في ولاية كاليفورنيا ، فإذا قوة دفع هذا الفوز تصل به إلى الترشيح في الاقتراع الأول بمؤتمر الحزب في سان فرانسيسكو . وكان هذا المؤتمر مصدر أول صدمة لجمهور أعضاء الحزب الجمهورى في كافة أرجاء البلاد ، إذ نظمه وأداره متطرفو الحزب ، الذين طغوا بضجيجهم على كل معارضة ، وأهانوا كل مزاحمى جولدووتر على الترشيح ، بل وصوتوا ضد بند خاص بالحقوق المدنية في البرنامج السياسى ، وبهذا بدأ الانشقاق على الحزب الذى لم يلبث أن اكتسب سرعة القطعان الشاردة .

وسرعان ما أصبحت الحملة أشبه بالكابوس . وفي أرق الطرق وأكثرها حصانة راح السيناتور جولدووتر يدعو إلى سياسات وبرامج بدا أنها مما يقف له شعر الرأس . . . ونقول « بدا » لأن الحملة لم تؤت من التفكير المنطقى والتناسق إلا القليل . كان قد خذل في مجلس الشيوخ معاهدة حظر التجارب النووية ، ومشروع قانون الحقوق المدنية ، ولم يكن راغباً في أى منها أوفياً بمثله . وفي تنقله من مكان إلى آخر في أرجاء البلاد ، بدا كأنه كان يسعى متعمداً إلى الهزيمة ، حتى تساءل بعض المراقبين جهازاً عما إذا كانت لديه أية نية صادقة في الاهتمام الجدى بترشيحه . ومع أنه كان من الواضح كل الوضوح ، أنه ما من أمل لأى مرشح في النجاح بدون تأييد الولايات الصناعية في الشمال ،

٦٦٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

والتنظيمات العمالية ، والزنج ، فإن جولدوتتر سلك مسلكاً أوحى بأنه إما أنه كان يتجاهلها ، أو أنه كان يعتمد اكتساب عدائها . ففي حديثه إلى ناخبى وادى تنيسى عرض بيع هيئة وادى تنيسى للمؤسسات الخاصة للطاقة الكهربائية . وفى حديثه للمتعطلين فى الشمال الصناعى اقترح أن يعودوا إلى العمل وأن يتعدوا عن التأمين الاجتماعى وتعويض البطالة . وفى حديثه للمنظمات العمالية دعا إلى قوانين « حق العمل » البغضة . وبينما كان يدعو دون انقطاع إلى تخفيض الإنفاق العام ، راح يدعو فى الوقت ذاته إلى زيادة الإنفاق العسكرى ، وإلى توسيع الحرب فى فيتنام ، وإلى سياسة متشددة إزاء كوبا ، وإلى العودة إلى التجارب النووية فى الفضاء الخارجى . وصُدم الجمهوريون المعتدلون فى كل مكان بهذا التخطيط فى دعوته ، وبالعجز المشين عن تكوين أى برنامج واقعى ، ويميله إلى المتطرفين ، والعنصريين ، وأنصار السياسة العسكرية .

واتضح من باكورة الحملة أن الفوز لجونسون ، فكان التساؤل الوحيد هو حجم الفوز ، وفرص البقاء للجمهوريين المعتدلين . وجاء الفوز كاسحاً ، كما أوجت التنبؤات . فظفر جونسون بتأييد شعبى فى البلاد بأغلبية تجاوزت خمسة عشر مليوناً من الأصوات ، وأحرز أصوات جميع الولايات ماعدا ستاً منها فى المجمع الانتخابى ، فإذا الولايات التى اعتادت أن تتخذ موقفاً وسطاً بين الحزبين — مثل نيويورك وكاليفورنيا ومنتشيجان وأوهايو وبنسلفانيا — تنحاز إلى الحزب الديمقراطى بأغلبية مليون صوت ، بينما انحازت لجولدوتتر خمس ولايات فى أعماق الجنوب ، هى لويزيانا والميسيسيبى وألاباما وجورجيا وكارولينا الجنوبية ، إلى جانب الولاية التى كان ينتمى إليها ، وهى أريزونا . كان مصيراً بدد كل أوهام الحزب الذى قاتل من قبل للحفاظ على الاتحاد ولتحرير السود ! وأدى الاستسلام الانتحارى من الحزب الجمهورى للعناصر الداعية للعنف والعسكرية كأصحاب شريعة الغاب فى أقدم العصور البدائية . . أدى هذا إلى نوع من الانقلاب فى الكونجرس كذلك . إذ فاز الديمقراطيون بجميع المقاعد التى دارت حولها انتخابات مجلس الشيوخ — وعددها ٣٥ — ماعدا سبعة ، كما أنهم اجتاحتوا مجلس النواب بأغلبية لم يسبقها مثيل (٢٩٥ إلى ١٤٠) . ولم يقدر المرشح أن يقود حزبه إلى هزيمة كاملة بهذا الشكل منذ تحول الديمقراطيون عن بريان إلى آلتون بى . باركر ، فى سنة ١٩٠٤ . ولكن ، هل كان لديهم زعيم مثل بريان يستطيع أن يقودهم ليخرجهم من فيافي الرجعية ؟

٦٦٣ حدود جديدة : التحدى

وفي خطاب ليندون جونسون الاستهلاكي كرئيس عن جدارة^(١) ، دعا الكونجرس والشعب إلى مساعدته على إنشاء « المجتمع العظيم » :

لا ينبغي في بلاد واسعة الشراء ، أن تعيش العائلات في فقر مدقع . وفي بلاد غنية المحصولات ، يجب ألا يجوع الأطفال . في بلاد المعجزات الشافية ، يجب ألا يعاني الجيران ويموتوا دون ما علاج . في بلاد العلم العظيم وأهل العلم ، يجب أن يُلقن الشباب القراءة والكتابة .

كانت الخطوط العريضة للمجتمع العظيم قد عُرفت من توصيات الرئيس وتشريعات الكونجرس خلال العام السابق ، وطيلة الجيل السابق في الواقع . ذلك لأن مجتمع جونسون العظيم لم يكن يختلف عن « النظام الجديد » و« النظام العادل » في الروح أو الغاية . ولكنه كان يختلف في الأسلوب والنسق . فاولاً ، كانت فكرة دولة الرفاهية (قيام الدولة بالإصلاح الاجتماعي) قد أصبحت تحظى بقبول عام ، فلم يكن جونسون بحاجة لجدل بصدد الناحية الأيديولوجية . ذلك لأن هذه الناحية كانت قد استقرت على ذلك النحو الغامض الذي تسوّى عليه الخلافات أو التناقضات في أمريكا . . أي بإزاحتها جانباً . ومن ثم كان للرئيس أن يصرف طاقات نشاطه العامة نحو التطبيق بدلاً من المحاجة والجدال . وثانياً ، بينما كانت كثير من البرامج السابقة تقوم على التسليم بأن علاج الظلم يتطلب إعادة توزيع الثروة عن طريق الضرائب أو أية قوانين تنظيمية ، إذا جونسون يعتبر من المسلم به أن من الممكن توسيع الثروة والموارد دون ما حدود تقريباً ، ومن ثم ففى وسع المجتمع تمويل برامج للإصلاح الاجتماعي بعيدة المدى من الثروة المتولدة عن العملية ذاتها (عملية الإصلاح) . وفي هذا قال الرئيس : « لم يعد هناك داع لأن يتصارع الرأسمالي والعامل ، المزارع والموظف الكتابي ، المدينة والريف ، من أجل تقسيم نعمنا وخيراتنا . فبالعمل كثفاً إلى كثف ، نستطيع معاً أن نزيد خيريات الجميع » . وكان الرئيس كينيدي قد فكر في شيء من هذا القبيل ، فقرن توصياته

(١) التعبير الأصلي للمؤلف : كرئيس يتولى المنصب بحكم حقه الشخصي ، أي لأنه فاز بالمنصب في الانتخابات وكان مرشحاً له ، وليس بحكم أنه كان نائباً للرئيس - المترجم .

٦٦٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

الخاصة ببرامج الإصلاح الاجتماعي بمشروعات لتخفيض الضرائب ، ولكن بقي على الرئيس جونسون أن يقدم الدليل على أن هذه النظرية عملية فعلاً . ففي غمرة سعيه لكسب التأييد لبرامجه الخاصة بالتعليم والصحة العامة ، أغرى الكونجرس بتخفيض ضرائب الدخل والشركات والأموال . وكانت النتيجة زيادة سريعة في الرخاء ، لم ترفع دخول الأفراد والشركات فحسب ، بل رفعت دخل الحكومة كذلك . وفي اقتصاد قومي كهذا ، يستلهم آدم سميث وجون مانيارد كينز معاً ، باعتبارهما قمة النبوغ ، في اقتصاد اتحد فيه الاقتصاد الخاص والاقتصاد العام متكاملين من أجل نفعهما المتبادل ، كان للشعب الأمريكي أن يأمل ، دون إسفاف في التفاؤل ، في أن يحقق « المجتمع العظيم » .

لعله عنوان خطابي متضخم ، ومع ذلك فكل برامج هذا المجتمع العظيم كانت راديكالية . فاعتمدت الرعاية الصحية على فرض ضرائب على الدخل بأثر رجعي فلم تحقق العون إلا للمسنيين فقط مما جعلها تبدو أضعف من برامج ترومان الصحية . فالحرب على الفقر التي شنها مكتب « الفرص الاقتصادية » تجاهلت ملايين من المسنيين والمرضى والمعوقين الأمريكيين . وبشكل عام فإن برامج الإدارة لم تمحس كما ينبغي . بعكس ما غنمت به فيتنام . فلم يتم تدعيم برنامج « الحرب على الفقر » تدعيماً كافياً ربما بسبب تزايد الالتزامات العسكرية والمالية لسايجون . . وقد عرفت الأمة أنه لا يمكن خوض حربيين على جبهتين في وقت واحد .

ولم يكن عجز برامج « الرخاء الاجتماعي » هو المسئول وحده عن بعض المساوئ داخل المجتمع . وكرد فعل للاقتراحات التي تقدمت بها الاتحادات الطلاب سافر المئات من المتطوعين البيض لقضاء صيف عام ١٩٦٤ في منطقة الميسيسيبي بغية ضم أسماء الناضحين السود ومنظمتهم إلى ما يسمى « حزب الميسيسيبي الديمقراطي الحر » . فكان رد فعل المجتمع الأبيض لهذا العمل مزيداً من الإرهاب والعنف . وفي العام التالي سن الكونجرس قانون « حق الانتخاب » . وقد ساعدت أعمال الشغب التي قامت بها الأقليات على إصدار هذا القانون . . وساعدت عليه كذلك مساعي وجهود الزعماء السياسيين لحركة الحقوق المدنية للعمال والسود أمثال د. مارتن لوتر كنج ، الذي قاد العديد من المسيرات السلمية دفاعاً عن حقوق الناضحين في سيلما ومونتجمري بولاية ألاباما . وفي عام ١٩٦٦ فشل صدور قانون الحقوق المدنية . . فبدأ الحساس لها يقل

٦٦٥ حدود جديدة : التحدى

تدريجياً . وتحدى المسئولون في مدارس الجنوب أوامر المحكمة العليا بالتضامن ، وبينما قاوم الجنوبيون قوانين « المحلات العامة » ، استمر الكونجرس في تأييده ودعمه لهذه القوانين العنصرية . وبرغم أن السود حققوا إنجازات طيبة في المجالات السياسية والتعليمية إلا أن تقدمهم الاقتصادى كان ، وللأسف ، بطيئاً جداً . فكانوا هم آخر من يحصلون على الوظائف وأول من يُطردون منها ! ولم يكن أمامهم غير الوظائف الوضيعة والأجور المنخفضة ؛ ولأن المجتمع الأمريكى لفظهم بقسوة لجأ الكثيرون منهم إلى العنف .

وفي نهاية عام ١٩٦٤ ، كانت هناك بعض المتاعب المنذرة قام بها المناهضون للحرب من شباب الطبقات المتوسطة البيض داخل حرم جامعة كاليفورنيا في بيركل ، وقام بها أيضاً من عارضوا سلفاً القوانين العنصرية في منطقتى الخليج والمسيشى . وفي سبتمبر ١٩٦٥ انتشرت المعارضة التلقائية لمسودة القانون خاصة داخل الجامعات وهى أكثر الأماكن هيبة واحتراماً فى الأمة كلها . كما أصبحت المعارضة لنظام تدريب فصائل الضباط الاحتياط والتعبئة العسكرية وأبحاث الدفاع الجامعية ، معارضة عنيدة . وسرعان ما ارتفع عدد الطلبة المنضمين إلى اتحاد طلاب المجتمع الديمقراطى ، وهذا أول تنظيم شبابى راديكالى يُمثل قوة اليسار الجديدة ، التى نظمت أكبر مظاهرة مناهضة للحرب فى تاريخ مدينة واشنطن وذلك فى أبريل ١٩٦٦ . كان ثمن التورط فى حرب فيتنام مزيداً من التفكك بين صفوف الأمة . فساد العنف الراديكالى فى كل مكان ، وحول المتمردون السود حركتهم المناهضة للعنف المعروفة باسم « اللجنة القومية للتسوية بين الطلاب » إلى تنظيم ثورى أوعلى الأقل إلى منظمة للقوميين السود . وفى أبريل من عام ١٩٦٧ ومن داخل مدينة واشنطن قاد مارتن لوثر كنج مسيرة احتجاج تُعد تجسيداُ للتضامن بين المناهضين للحرب وأولئك المدافعين عن الحقوق المدنية . وقد صرح مارتن لوثر كنج الذى لم يهو استخدام الرموز :

يجب أن يتوقف هذا الجنون . . وإنى أتحدث كأحد أبناء الله وشقيق لكل الإخوة الفقراء الذين يعانون فى فيتنام . . أتحدث إلى من يشعرون بالضيق . . وإلى من تهدمت بيوتهم وتبددت حضاراتهم . أتحدث اليوم كمواطن يعيش فى هذا العالم الذى يشعر الآن بالذهول للمسلك الذى سلكناه . أتحدث الآن بصفتى أمريكياً

٦٦٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

إلى قادة هذه الأمة . فإن كنا نحن من وراء هذه الحرب . . فيجب أن نكون نحن من يوقفها أيضاً .

شهد صيف عام ١٩٦٧ المزيد من الاضطرابات العنصرية . . ويُعد ما حدث في ديترويت ونيويورك من اضطرابات هو أسوأ ما شهده هذا القرن . وبرغم أن خسائر اضطرابات ديترويت وحدها بلغت ٤٣ قتيلاً وألفى مصاب و٥٠ مليون دولار في الممتلكات ، فإن هذه الاضطرابات لم تحقق من النتائج غير القليل . بل على العكس من ذلك ، عجلت بضرورة تسليح قوات الأمن بالمزيد من أسلحة الفتك ، وجعلت من حركة القوميين السود هدفاً رئيسياً للحملة التي قادها المرشح نيكسون والتي نادى بضرورة أن يستتب الأمن والنظام داخل البلاد .

وبعيداً عن المناضلين السود ، الذين كانوا يعيشون داخل أحياء فقيرة جداً قريبة من المناطق التي تحيا فيها الأقليات الميالة للعنف . فقد نبث من أرض هذا الواقع الأمريكي حركة جديدة تماماً ، نادى بضرورة خلق أسلوب جديد للحياة يختلف تماماً عن أسلوب السلف ، وعُرفت باسم حركة الهيبز أو أبناء الزهور . وفي مدن هايت - أشبيري في سان فرانسيسكو ، وإيست فيلاج من داخل نيويورك ، استمتع هؤلاء الهيبز بموسيقى الروك وبتعاطى العقاقير وبالحرية الجنسية وبالمسرح المفتوح التلقائي ، وتبادلوا بطاقات الورد ومارسوا التنجيم واعتمدوا على ما هو ضروري جداً للصحة من غذاء . . وتوسدوا فراشاً خشناً . ومن بين المائة ألف الذين اشتركوا في المسيرة المناهضة للحرب التي اتجهت إلى البنتاجون في أكتوبر ١٩٦٧ ، كان هناك عدد من أتباع البوذية ، وأبناء الزهور قاموا بوضع الورود داخل فوهات مواشير بنادق الجند الذين تصدوا لهم .

وفي مارس من عام ١٩٦٨ ، فاجأ ليندون جونسون الأمة بقراره الدراماتيكي الخاص بالانسحاب من المعركة الانتخابية التالية . وهنا شدد السيناتور يوجين مكارثي من هجومه على الحرب فالتف حوله الآلاف من الطلاب المتطوعين . وفي ذات الوقت لاقت مسيرة الفقراء في أبريل ١٩٦٨ استحساناً لدى الجماهير ، وهي المسيرة التي ضمت فقراء المدن والقرى والتي انتهت إلى العاصمة : وفي الرابع من أبريل عام ١٩٦٨ وفي مدينة ممفيس في تينيسى تم اغتيال مارتن لوثر كنج زعيم حركة الحقوق المدنية . وقد فجر اغتياله الاضطرابات في العديد من المدن داخل البلاد . وسرعان ما تلت هذه الأحداث

٦٦٧ حدود جديدة : التحدى

العنيفة ، وفي شهر يونية ، عملية اغتيال روبرت كينيدي مُرشح الحزب الديمقراطي ، ثم عملية التقاء الآلاف من الراديكاليين داخل مدينة شيكاغو في المؤتمر القومي للحزب الديمقراطي . وقد أدى هذا اللقاء إلى سلسلة من الصدامات العنيفة بين الشباب الراديكاليين وقوات البوليس في شيكاغو وهي التي أطلق عليها فيما بعد « اضطرابات البوليس » . وكانت للمشاهد التي نقلها التلفزيون لأبناء الطبقة المتوسطة من البيض الأمريكيين وهم يتلقون أعنف الضربات من المفروض أنهم حماة المجتمع ، أكبر الأثر في نفوس الأمريكيين بل وعلى التاريخ أيضاً .

رئاسة نيكسون

سادت نوبة استياء بين ليبرالي الحزب الديمقراطي إثر ترشيح هيوبرت همفري لمنصب نائب الرئيس . فمن غير المعقول أن يؤيد أنصار مكارتشي مرشحاً عُرف عنه تأييده لسياسة أمريكا في فيتنام . ولم يكن الخط الجمهوري فاسداً أو مشوشاً أيديولوجياً . فقد اعتكف نيكسون بعد هزائمه عامي ١٩٦٠ و ١٩٦٢ ، ثم عاد وقرر الدخول إلى حلبة الصراع السياسي فنحى جانباً صراعه مع نيلسون روكفلر عمدة نيويورك ونجح في أن يرشحه الحزب القديم الكبير . وركز نيكسون في برنامجه على خطة لإحلال السلام في فيتنام مما جعله يحظى بتأييد الجنوب . . واختار نيكسون سبيرو آجينيو عمدة ماريلاند نائباً له طبقاً لاستراتيجية كسب الجنوب . وقد ساعدت اضطرابات الجامعات وارتفاع معدلات الجريمة حسب الإحصائيات . . نيكسون في حملته الانتخابية . مما دعاهم إلى القول بأن نيكسون « إنما جاء دفاعاً عن الأمريكيين المنسيين هؤلاء الذين لا يخالفون القانون ويدفعون الضرائب ويذهبون لأعمالهم ويدخلون أولادهم المدارس ويذهبون إلى الكنائس . . هؤلاء الذين يحبون بلادهم » . وقد وجه نيكسون اللوم للمحكمة العليا لتجاوزاتها وللحالة التي وصل إليها الأمن في البلاد وللإجراءات القانونية المتعسفة ، وأهم من هذا كله قدم خطة لإنهاء الحرب وإحلال السلام . هذه الأمور أدت إلى فوز الجمهوريين لكن بأغلبية ضئيلة . . ففوز نيكسون تم بنسبة ٤٣ ٪ من الأصوات . . بينما فاز همفري بنسبة ٤٢,٧ ٪ من الأصوات وفاز جورج والاس ، المرشح الثالث عن

٦٦٨ موجز تاريخ الولايات المتحدة

حزب الاستقلال الأمريكى ، بنسبة ١٣,٥ ٪ من الأصوات فقط . وضمن نيكسون أصوات كل ولايات الغرب وأعلى الجنوب والحدود بالإضافة إلى بعض الولايات الصناعية في وسط الغرب .

وبرغم هذا الانتصار إلا أنه كانت هناك تحفظات قوية على الرئيس الجديد . فبعض النقاد السياسيين المناهضين للحرب شككوا في مدى صدق مخططات السلام التي طرحها . وسرعان ما تأكد شكهم عندما زادت الغارات على فيتنام . وفي ١٥ أكتوبر ١٩٦٩ بلغ عدد من اشتركوا في مسيرات وقف حرب فيتنام مليونين هذا غير ربع المليون الذين اشتركوا في مسيرات واشنطن ، وفي المناطق السكانية الأخرى . وانهارت الحالة المعنوية في فيتنام وارتفعت معدلات تعاطى العقاقير وزادت نسبة الفارين من التجنيد وانتشرت حوادث اغتيال الضباط ورفضت وحدات بأكملها خوض المعارك . وأشعل غزو كمبوديا في ٣٠ أبريل ١٩٧٠ جذوة نار الثورة . . لتحقيق بذلك أقوى حركات المعارضة وأكثرها انتشاراً في تاريخ أمريكا . فقد تفجرت المظاهرات بعد أقل من ساعة من إعلان نيكسون دخول القوات الأمريكية إلى كمبوديا . وفي جامعة ولاية كنت احترق مبنى تدريب فصائل الضباط الاحتياط . واستدعى الحرس القومى لدخول الحرم الجامعى . وفي الرابع من مايو أطلق رجال الحرس النار على اجتماع للطلبة المناهضين للحرب فقتلوا أربعة وأصابوا تسعة .

واستمرت الحرب . . برغم حالة القلق العامة وبرغم رغبة المتظاهرين فى كل مكان في السلام . وكانت للحرب نتائج اقتصادية لم تقل خطورة عن نتائجها السياسية أو الاجتماعية أو المعنوية . فارتفع الدين القومى بسرعة مذهلة حتى وصل إلى ٣٩٥ بليون دولار . كما زادت ديون المدن والولايات وفسدت الخدمات العامة مثل النقل والصحة وفي الوقت ذاته أحكمت المؤسسات العامة سيطرتها على اقتصاديات الأمة . وفي عام ١٩٧١ سيطر ١ ٪ من الأعمال في أمريكا على ٨٦ ٪ من أصول المؤسسات الصناعية (وفي عام ١٩٧٣ حصل أقل من ١ ٪ من إجمالى عدد المؤسسات - حوالى ٥٠٠ - على ٧,٥ ٪ من إجمالى الأرباح) . واتجه العديد من هذه المؤسسات إلى الأعمال الدفاعية ، فارتفعت نفقات الدفاع نوعاً في هذه السنوات . وبالفعل أصبح الدفاع هو أربح الأعمال في الولايات المتحدة . وفي ميزانية ١٩٧٣ وصل معدل إجمالى الضرائب الفيدرالية للأسرة الواحدة ١٣٠٠ دولار تحت بنود عسكرية بينما

٦٦٩ حدود جديدة : التحدى

لم يتجاوز التعليم ١٣٠ دولاراً والإسكان والخدمات الاجتماعية الأخرى ٦٥ دولاراً .
 بمعنى آخر . . فقد ظُلم الاقتصاد . . واستمرت الضرائب في الزيادة . وكان
 ما يدفعه ١ ٪ من أغنى أغنياء البلد أقل بكثير مما يدفعه الأمريكيين بسبب وجود مخالفات
 متباينة وثغرات في قانون الضرائب . وفي عام ١٩٦٩ لم يدفع ٣٠٠ شخص أى ضرائب
 فيدرالية على الإطلاق ورغم أن دخل الواحد منهم تجاوز ٣٠٠ ألف دولار . وضرب
 الرئيس نيكسون مثلاً على هذا بنفسه فقد حاول التهرب من ضرائب مستحقة عليه بلغت
 أكثر من ٤٠٠ ألف دولار^(١) . وقد ساعد وجود مثل هذه الثغرات والإعفاءات الضريبية
 والإعانات المالية الأخرى - مثل تصاريح تفريغ البترول - لشركات الطيران والسفن
 والسكك الحديدية والبترول ، في زيادة ثراء المؤسسات وتدعيم نفوذها . وقد تشابك
 العديد من المؤسسات والشبكات المالية لأول مرة ليس فقط على المستوى القومى وإنما
 عالمياً أيضاً . وتعددت أساؤها وأحجامها كما حدث مع العالمية للتليفون والتلغراف .
 وقد أدى تضخم أحجام الصناعات الزراعية بفضل المعونات الحكومية للإسراع بنهاية
 مزرعة العائلة وانخفاض عدد الفلاحين إلى حد أنهم وصلوا في عام ١٩٧٠ إلى ثلاثة
 ملايين في الوقت الذى زاد فيه معدل الزيادة في مساحة المزرعة من ٢١٥ إلى ٣٨٠ فداناً .
 وبهذا حصل ٧ ٪ من أثرى أصحاب المزارع على ٦٣ ٪ من قيمة المعونات الحكومية عام
 ١٩٧١ ، بينما حصل النصف الفقير على ٩,١ ٪ من قيمة هذه المعونة . وارتفع دخل
 الأسرة المتوسطة من ٥٦٠٠ دولار عام ١٩٦٠ إلى ٩٥٩٠ دولاراً عام ١٩٧٠ . لكن حالة
 التضخم أفسدت جزءاً من هذا الارتفاع في الدخل . وازدادت الهوة بين الفقراء والأغنياء
 اتساعاً . وأيدت الإحصائيات وقوع هذا الظلم واكتشفوا بذلك حقبة « ما بعد الفقر »
 في الولايات المتحدة (وتم تحديد مبلغ ٣٧٠٠ دولار للأسرة المكونة من أربعة
 أشخاص) ، وأثبت مكتب الإحصاء أن أكثر من ٢٧ مليوناً يعيشون في فقر ، وهذا
 الرقم يشمل أكثر من رُبع عدد الكهول وسُبع عدد الأطفال وثُلث تعداد السود في
 أمريكا .

وأكدت هذه الأرقام الشعور السائد بأنه ورغم بعض المزايا التى تحصل عليها الأقلية
 فإن الحياة في أمريكا بدأت تتفتت . ومن ثم لم يكن تقرير لجنة كيرنر عن حياة المدن مثيراً

(١) بناء على حكم القانون تم استدعاء نيكسون وطلب منه أن يدفع المبلغ بأثر رجعى .

للدهشة : فالضرائب متصاعدة والإسكان سىء جداً والهواء ملوث ومعدلات الجريمة فى الارتفاع . وقد عانت معظم المدن من الفاقة وانتشار إدمان العقاقير فى أحيائها السكنية . . ومن حالات الخروج على القانون . وأصبحت الولايات المتحدة هى الثانية عشرة فى العالم من حيث حالات الوفيات بين الأمهات ، والرابعة عشرة من حيث وفيات الأطفال والسابعة عشرة من حيث وفيات الذكور .

أدى الخروج على نمطية الحياة فى أمريكا بواسطة شباب الأمة ونهجهم أسلوباً جديداً فى الحياة إلى خلق نوع من العلاقات الجديدة بين البيض والسود وبين المسنين والشبان وبين رجال البوليس والمواطنين وبين الأساقفة والقساوسة وبين الرجال والنساء . ثم تحدثت حركة تحرير المرأة المفهوم التقليدى للأم الزوجة قعيدة البيت . وتحركت المرأة إلى قوة متحركة لدفع حملة حرية الإجهاض وإصدار قانون المساواة فى الحقوق الذى كان يعوزه فقط موافقة خمس ولايات فقط ليصدر فى عام ١٩٧٥ . وما الوصول إلى حبوب منع الحمل إلا نتاج التغير فى موقف المرأة الاجتماعى وأصبح من حق المرأة أن تقرر متى تحمل طفلاً كما أعطى المرأة غير المتزوجة مزيداً من الحرية الجنسية بعيداً عن مخاطر الحمل . وساهمت أيضاً فى خفض نسبة الحمل غير الشرعى وساعدت فى تحديد النسل فانخفضت نسبة المواليد من ٢٣,٧ فى الألف عام ١٩٦٠ إلى ١٥ فى الألف عام ١٩٧٤ ، وهى أقل نسبة فى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية .

وتبعاً ، هبت رياح التغير لتشمل مناطق أخرى . فكم تأثر الأمريكيون بالحياة القاسية التى يحياها المسجونون وراء القضبان . . وتأثروا أكثر بأحوال هؤلاء النزلاء . فالمساجين عادة من الفقراء السود الذين استصرخوا لإصلاح الأوضاع داخل السجون . . وكم أدى هذا إلى صدامهم مع إدارات السجون العنيفة . وأصبح الشغب داخل السجون من الأمور المألوفة . إلا أن أعنف حوادث الشغب تلك التى وقعت داخل سجن أتيكا فى نيويورك فى سبتمبر ١٩٧١ والتى أدت إلى مقتل ٣٣ نزياً غير عشرة من حراس السجن .

سبق أن تباهى جيفرسون فى خطابه الذى استهل به رئاسته : « سنظل أرضنا كافية لآلاف وآلاف من الأجيال القادمة » إلا أن الأيام أثبتت أنه فى الربع الأخير من القرن العشرين لم تكن الأرض وحدها هى التى تبددت وإنما ثروات الأمة أيضاً . ويبدو أن مذهب المحافظين الذى دعمه تيودور روزفلت وجيفورد بينشوت فى مطلع هذا القرن ثم

٦٧١ حدود جديدة : التحدى

أعاد الشباب إليه فرانكلين روزفلت في أربعينات القرن . . قد وهن . هذا غير العوامل التى تضافرت لتشكّل خطراً يهدد الأمة وبقاءها . . من بينها ما تقوم به شركات تقطيع الأخشاب من أعمال تدميرية ، وكذلك ما يقوم به أصحاب المناجم غير ما يلقي على الشواطىء من نفايات معامل تكرير البترول وتلويث البحيرات والمنايع المائية ببقايا المصانع ، وهذا ما أحال بالفعل البحيرات العظمى إلى بحر ميت وجعل من نهر كليفلاند كاياهوجا ناراً مشتعلة وهددت العوادم صحة سكان المدن وتسبب انتشار استعمال المنظفات الصناعية والمبيدات الحشرية فى قتل الأسماك والطيور وكل مظاهر الحياة الطبيعية بشكل عام . . وتم استنزاف احتياطي البترول بشكل متزايد . واستطاع حماة البيئة تحقيق بعض المكاسب فى زمن إدارتى جونسون ونيكسون حين استصدروا فى عام ١٩٧٠ قانون تحسين جودة المياه الذى أدى إلى فرض حماية مكثفة على تلوث مياه البالوعات ومنع تلوث مياه الشرب والنفايات الحرارية ، ثم صدر أيضاً قانون « نقاء الهواء داخل الوطن » والذى دعا إلى ضرورة خفض نسبة التلوث فى الهواء بسبب عوادم السيارات التى بلغت ٩٠ ٪ ، ثم فرض القيود بشكل تجريبي على المناجم الضيقة وكذلك دعا إلى ضرورة أن تقوم المدن برصف طرق تسمح بانسياب حركة المرور فى حرية ويسر وألزم الولايات بمعاينة مخالفات اللوحات الإشارية . إلا أن هذه القواعد لم تسهم كثيراً فى منع التعديات على البيئة . فقد أثبتت أزمة الطاقة عامى ٧٤/٧٥ أن الأمريكيين وحكوماتهم أصبحوا مستعدين للتضحية بالبيئة من أجل مصالحهم الشخصية ونفهمهم ووظائفهم . بل إنهم على استعداد بالتضحية بما ينفع الأجيال القادمة من أجل احتياجاتهم السريعة المؤقتة ويبدو أنهم كانوا يتساءلون : وما الذى نستفيد نحن من الأجيال القادمة هذه ؟ .

ويبدو أن الدين ذاته قد تجاوب مع الغليان الذى تميزت به هذه السنون ، فقد كانت هناك عودة إلى شعار « تمدين المسيحية » فاستطاع البابا جون الثالث والعشرون إحداث حركة تمدين للكنيسة الكاثوليكية كما سبق وحدث عند مطلع هذا القرن . فقد حلت اللغة المعاصرة محل اللاتينية فى القداس . وتمرد بعض القساوسة على حالة العزوبة التى فرضت عليهم فهجروا الدعوة كى يتزوجوا . كما تحدث بعض الراهبات الهيمنة الدينية وأقمن نظاماً دنيوياً . بينما شغل عدد كبير منهن وقته بالنشاط السياسى والاجتماعى . ولم يكن هذا الفوران الدينى من نصيب الكنيسة الكاثوليكية أو البروتستانتية فقط ، فقد

٦٧٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

انجبه الكثيرون إلى الديانات الشرقية المتألمة أو إلى التعبير الحسى — وليس العقلانى — عن الدين وكان من بينهم الكثيرون من الشبان فى سن التعليم الجامعى . استطاع ١٧ مليون مواطن صالح إقناع نيكسون بالتخلّى عن المحظورات السياسية فى فترة رئاسته الثانية . وكان هذا العدد يُشكل حوالى ٦٠,٧ ٪ من عدد أصوات ناخبيه . وبعد شهر نوفمبر بدأ نيكسون احتجاز الأموال التى يميزها الكونجرس للبرامج الاجتماعية مثل التعليم والخدمات ومشاكل البيئة والسكان ، بعيداً عن الدفاع الذى كان يحصل البتاجون لأجله على أى شىء يتطلبه ، وكان هذا الأمر يُعد تحدياً لقوة الكونجرس الدستورية .

غير أن أهم ما يميز حكم نيكسون هو ما ابتكره من قواعد للإصلاح مثل خطة مساعدة الأسرة ، والتى كانت تهدف إلى تزويد كل الأسر التى تعمل أطفالاً بحد أدنى من الدخل يصل إلى ١٦٠٠ دولار للأسرة المكونة من أربعة أفراد . ثم الخطة الفيدرالية الجديدة التى تهدف إلى المشاركة بمبلغ معين ، وذلك عن طريق توزيع حصة من فائض المال الفيدرالى على كل الولايات والحكومات المحلية التى تواجه مشاكل معينة . وقد رفض الاقتراح الأول من الكونجرس فى عام ١٩٧٢ . أما الثانى فقد خُشى أن تبقى الحكومات المحلية فى حالة أسوأ مما هى عليه خاصة بعد استرجاع ما قد جُمّد فيدرالياً . فنحى الرئيس هذه التجارب جانباً ربما محجماً أولامالياً وتعاطف مع الاتحادات الأعمال وأنس إلى المحافظين من الجنوب ثم أصبح خاضعاً لرغباتهم . وفى أول مارس ١٩٧٠ عارض نيكسون أسلوب فرض مشاريع أتوبيسات المدارس وذلك من أجل تحقيق التوازن العنصرى . ثم أعلن أنه يجب إعطاء حرية التصرف لمجالس المدارس لرسم سياسات لوقف التمييز العنصرى تتفق واحتياجاتهم المحلية ، وفى العام الذى تلا هذا أيدت المحكمة العليا بالإجماع الالتماس الدستورى باعتبار أتوبيسات المدارس هى الأسلوب الأمثل لتحقيق التوازن العنصرى فى مدارس تشارلوت بكارولينا الشمالية . فكان رد فعل نيكسون طلبه من الكونجرس تأجيل قرار المحكمة الخاص بهذه الأتوبيسات . وعارضت الإدارة القضائية التوسع فى قانون حقوق الانتخاب لعام ١٩٦٥ . ثم أنهت ضمانات العنف فى الجنوب وتدخلت لتأجيل منع التمييز العنصرى فى مدارس الميسيسى . وعلى جبهة أخرى من الجبهات الداخلية ، قام نيكسون بتصفية مكتب الفرص الاقتصادية الذى كان أحد الخطوط الرئيسية فى بناء المجتمع العظيم وبعد ذلك سحب

٦٧٣ حدود جديدة : التحدى

المساعدة المقدمة لمشروع المساكن المتساوية واقترح إرجاع بعض البرامج الخاصة بمساعدة الطلبة والفلاحين والجنود والعاطلين والمرضى العقلين . وأنهى المساعدة المقدمة لحماية المستهلك وكل اقتراحات حُماة البيئة . ثم حارب لوائح المناجم الضيقة وألغى تشريعاً مضاداً لتلوث الماء سبق أن التزمت به الإدارة . وعندما تمت الموافقة على هذا القانون برغم عدم موافقة نيكسون . . حجز هو موافقة الكونجرس عليه .

وفي عام ١٩٦٧ طلب وزير الدفاع روبرت مكنارا أن يتم التحقيق حول ما وقع من أخطاء في الحرب في آسيا . وقد قدم تقريراً عن هذا الموضوع عرف باسم « أوراق البنتاجون » يتكون من أربعين مجلداً ، وكان من بين من عملوا في هذا التقرير دانيال إليزابيرج بوصفه واحداً من العاملين في مجموعة دانيال وهى المؤسسة التى عهد إليها روبرت مكنارا القيام بهذه الدراسة . وقد خلص دانيال إليزابيرج إلى أنه لم تكن هناك صورة حقيقية عما جرى في جنوب فيتنام سواء لدى الحكومة أو الشعب . ولقد أقنعوه بأنه لا مبرر لنشر هذه الأوراق لأهميتها القصوى للأمن القومى . إلا أنه إيماناً منه بضرورة أن يعرف الناس الحقيقة قام بتصوير أوراق البنتاجون هذه ووضعها تحت تصرف جريدتى « نيويورك تايمز » و « الواشنطن بوست » وكانت تضم تقريراً عن القرارات التى اتخذت في عهد جونسون والتى أثارت شكوك منتقدى هذه الحرب . وأظهرت الأوراق أيضاً كيفية اتخاذ بعض القرارات العسكرية السرية التى تعارضت مع أوضاع الإدارة الرسمية وأوضحت أيضاً حقائق كثيرة عن أكبر عملية خداع لم يسبق لها مثيل في التاريخ . وقد أفلحت الإدارة في الحصول على توصية مؤقتة بعدم نشر هذه الأوراق مما يعد - وللمرة الأولى في تاريخنا - أكبر حركة تقييد للصحافة . وقد تم التصويت في المحكمة العليا بنسبة ستة إلى ثلاثة ضد الحكومة . . وتمت الموافقة على استمرار نشر هذه الأوراق . فقامت الإدارة الأمريكية باتهام إليزابيرج بالسرقة والجاسوسية والتآمر . وبعد توفر الأدلة على تلاعب الإدارة ومحاولة إخفاء الأدلة وتهريب الشهود مثل حادث سرقة مكتب طبيب إليزابيرج النفسى ، حفظ القاضى القضية .

أكد قرار نشر « أوراق البنتاجون » الحفاظ على حرية الصحافة . غير أن المحكمة العليا لم تكن دوماً في جانب هذه الحرية . والدليل على هذا أنها أيدت القرار التحذيرى الذى أصدره أسلافها والخاص بسياسة التكامل داخل المدارس وأتوبيسات المدارس . ومع هذا فقد حطمت بعض القوانين الخاصة بعقوبة الإعدام والإجهاض والقيود التى

تحد من قوة الرئيس التي كانت تميز المراقبة على المحادثات التليفونية بغبر سند قانونى . ولكن أثبتت بعض الآراء الخاصة بالقضاء فى عهد نيكسون أنها بعيدة كل البعد عن الليبرالية لجنة وارين . وهذا يُعد أمراً طبيعياً لأن نيكسون قد شكل القضاء وفقاً لرؤيته هو . وحين استقال إيرل وارين أحل محله وارين بيرجر وهو أحد قضاة محكمة الاستئناف المتشددين وعرف بمعارضته لآراء زملائه قضاة الجرائم العامة . كما قام نيكسون بتعيين ثلاثة قضاة جدد من المحافظين وهم : هارى بلاكمان الذى كانت له آراء مختلفة حول الحقوق المدنية ، ولويس باول من فيرجينيا وهو محام محافظ جدير بالاحترام ، ولويم رينكويس نائيب المدعى العام الذى مثل جناح جولدووتر فى الحزب الجمهورى . وكان وجود هؤلاء القضاة يعنى الصياغة الدقيقة لقرارات محكمة وارين الليبرالية المتجددة . وطبقاً لما قاله القاضى دوجلاس « فالآن ، يسود القانون والنظام وأصبح هناك إحساس عام بالقضاء أو ما يسمى الشعور القضائى » . وقد حققت القرارات التى أصدرتها هذه المحكمة مكاسب ليبرالية خاصة فى مجال قضاء الجريمة ومن أجل سرعة إتمام قضايا الجرائم تقرر أن تُشكل المحكمة من ستة محلفين من الرجال والأحكام غير جماعية وكذلك تخصيص محاكمات للدعاوى التى يحكم فيها بالسجن ستة شهور أو ما دونها .

فى ذات الوقت ازداد التدخل السياسى والحكومى فى الحياة الخاصة بشكل ملحوظ وبعلم القانون . فقد وافقت الإدارة القضائية على مشروع قانون الرقابة على الجرائم ، وقانون الأمن فى الشوارع فى عام ١٩٦٨ وعلى الرقابة السرية على المكالمات التليفونية . وكان الهدف من ذلك على حد قول المدعى العام جون ميتشيل « لكبح جماح العناصر المتمردة داخل المجتمع » . وقد سمحت هذه الإدارة لمدعى قسم الأمن الدولى باستخدام هيئة المحلفين كسلاح سياسى ، وأجبرت الصحيفة على الإرشاد عن مصادر معلوماتهم . وانطلاقاً من هذا تمكنت الإدارة من فتح ملفات لآلاف من الحالات المشتبه فيها من الراديكاليين والمناوئين للحزب ومن اليسار الكاثوليكي . كما زجوا فى السجن بعض المشتبه فيهم لإجبارهم على الشهادة وليس عقاباً على جرائم ارتكبت . وكانت محاكمة المتهمين بالتآمر من مناهضى الحرب تتم بسرعة شديدة فأوضحت هذه المحاكمات أن هناك فارقاً بين استخدام العملاء مثيرى الفتن والقلاقل وبين الذين ينصبون الفخاخ للمواطنين . وقد أثبتت الإدارة فشلها فى مثل هذه المحاكمات التى أثارَت الشكوك فى أن المتهمين

٦٧٥ حدود جديدة : التحدى

يؤخذون بدون إدانة بينما الهدف من ذلك هو إلقاء الخوف في قلوبهم وإزعاجهم وإلحاقهم مالياً أيضاً .

قضية ووترجيت

سبق أن أعلن الرئيس أنه « لا أحد فوق القانون » . حتى ولو كان باسم العدالة . لكنه هو ذاته الذى أساء استخدام وكالات المخابرات والأمن القومى من أجل أغراضه السياسية . وأنشأ بنفسه قوة استخبارات إضافية تعمل لحسابه شخصياً . فقد قام بعض الرصاصين - وهو الاسم الذى أطلق على بعض عملاء البيت الأبيض - بالتجسس على الملفات الخاصة ، وسجلوا المكالمات التليفونية للصحفيين ، ونظموا من أجل القيام بهجوم مضاد على المتظاهرين المناهضى للحرب . بينما قام الجناح التنفيذى بشن حملة واسعة النطاق من التجسس السياسى وقاموا بزرع المحرضين ليدفعوا الراديكاليين للقيام بأعمال مضادة للقانون . كما زيفوا الأدلة الجنائية ضد خصومهم السياسيين كما استغلوا مكتب الخدمات المالية الداخلية لإثارة أحقاد السياسيين . وتحت رئاسة المدعى العام السابق جون ميتشيل قامت لجنة إعادة انتخاب الرئيس بجمع احتياطي من المال بلغ ٦٠ مليون دولار . بما فيها مبالغ ضخمة دفعت في شكل هبات وإعانات غير قانونية من قبل شركات البترول والطيران وغيرها . وقد سميت هذه الإعانات باسم « الغسل » .

لم تكن هناك أى ضرورة على الإطلاق لإعانات الغسل هذه . . . ولا إلى ما في الجعبة من الأعياب قدرة كالتى استخدمت في انتخابات الرئاسة التمهيدية عام ١٩٧٢ . فبعد أن فاز السيناتور الأمريكى جورج ماكجفرن في الاقتراع الأول ، أهمل الحملة التى تتلو هذا الاقتراع . ونادى برنامج الحزب الديمقراطى بإنهاء حرب فيتنام وتحويل الدعم المالى الرهيب للدفاع إلى برامج الرخاء الاجتماعى والقضاء على الثغرات في نظام الضرائب ، وبعد إطلاق الرصاص على جورج والاس مرشح الحزب الديمقراطى في الانتخابات التمهيدية في ماريلاند تودد نيكسون إلى مؤيدى الحزب الديمقراطى بأن أعلن لهم أنه في حالة فوزه بالرئاسة فسوف يعمل على إنهاء هذا العصر الذى استبيح فيه كل شيء ، ويعمل على إصدار تشريعات تمنع إجبار الأطفال على الاشتراك في سيارات المدارس

٦٧٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

ثم أعلن بعد ذلك وبذكاء ضرورة إنهاء حرب فيتنام . وبدأ التمهيد لمبادراته الدبلوماسية مع روسيا والصين وكل هذا من أجل الوصول إلى الناحيتين ذوى الاتجاهات السياسية المختلفة . تحول الاتجاه السائد في البلاد ناحية المذهب المحافظ وانتخب نيكسون بأغلبية ١٧ مليون واكتسح كل الولايات عدا مساشوستس ومقاطعة كولبيا .

وكما هو واضح لم يكن الجمهوريون في حاجة إلى التجسس السياسي أو أى وسائل غير شرعية للوصول إلى الفوز . ولا كانوا في حاجة إلى هذه العمليات المستترة التى انتهت بالقضاء على الرئيس ذاته . فالمسألة كلها بدأت بعملية بسيطة جداً عندما تسلت شرذمة من عملاء المخابرات المركزية السابقين إلى مقر الحزب الديمقراطي في أوئيل وترجيت بواشنطن وقاموا بتركيب أجهزة تجسس على التليفونات وصوروا الوثائق ، وبعد غارة أخرى على مقر الحزب ذاته في ليلة ١٧ يوليو ١٩٧٢ تم إلقاء القبض على هذه الشرذمة داخل المكاتب المظلمة . ويبدو هذا الحادث للوهلة الأولى أنه عابر ولا أهمية له كما أعلن رونالد زيجلر السكرتير الصحفى للرئيس . وكان من الممكن الاكتفاء بهذا الوصف لولا أنها جرت معها أعلى كوادرات الإدارة الأمريكية وما لم تحاول هذه الإدارة طمس معالم طبيعة هذه الجريمة . إن وترجيت هى الفتيل الذى اشتعل ثم انفجر بعد عامين من اشتعاله في أكبر فضيحة سياسية في تاريخ أمريكا .

بدأت اللجنة المختارة من الشيوخ الأمريكيين في ربيع عام ١٩٧٣ وعلى مدى شهرين في تحسس أبعاد قضية وترجيت لحسم الخلاف حول مدى تورط الرئيس فيها . وظهرت نتائج هذه اللجنة على شاشات التليفزيون فشاهدها الملايين المتطلعة إلى هذه الدراما . فإن نظرنا إلى أى مدى تشابكت خيوط الحدث الرئيسى فيها وإلى الدوافع المعقدة والعلاقات المريبة والسلوك المنحرف ونظرنا أيضاً إلى من فيها من أوغاد متملقين لأدركنا على الفور أنها دراما لكنها من الواقع الحى وليست مجرد دراما تليفزيونية . وبدأت المواكب تزحف إلى غرفة الشيوخ . . مواكب من المسؤولين في مجلس الوزراء وموظفى الحزب القديم الكبير والمساعدين التنفيذيين وعملاء المباحث الفيدرالية والمخابرات المركزية . كانوا يدلون بأقوالهم التى تضاربت وتعارضت . . وكانوا جميعاً يدينون بفلسفة بسيطة للغاية وهى : الولاء لرئيس الجمهورية قبل الولاء للقانون والدستور . والذى تأكد جلياً للعيان هو كيف أصبح من السهل تحريف الديمقراطية وإخضاعها لخدمة الأغراض الشخصية . ووصف جون دين ، مستشار الرئاسة ، تورط نيكسون في التستر

على هذه القضية وصفاً بليغاً دقيقاً فقال : « كان إخفاؤه للأدلة وإغراؤه بالمال لشرذمة لصوص ووترجيت المسجونين لإسكاتهم ووعدده لهم بإصدار عفو عنهم والشهادة التي أدلى بها كلها كانت العوامل التي دمرته » . واعترف ألكسندر باترفيلد أحد المساعدين في رئاسة الجمهورية للجنة بأن نيكسون أمر بالفعل بتسجيل مناقشات المجلس حول استراتيجية ووترجيت . وكان هذا الاعتراف بمثابة إلقاء الزيت على النار . وحين طلب أرشيبالد كوكس ، الذي رأس المكتب الخاص للمدعى العام الذي أنشئ حديثاً في ذلك الوقت ، هذه الشروط طرده الرئيس . وكانت هذه هي بداية النهاية ففي الرابع والعشرين من شهر يوليو أمرت المحكمة العليا بالإجماع أن يقوم الرئيس نيكسون بتسليم ٦٤ شريطاً وثيقة . عندئذ بدأ الجمهوريون التحرر من قيود ولائهم للرئيس وأصبح الفصل الأخير من هذه الدراما هو الذي بين أيدينا الآن .

أثناء ذلك . . تم استدعاء آجينو نائب الرئيس الذي كان من الرجال الذين يحترمون القانون ولم تشبه شائبة ووترجيت ، لكن تم التحقيق معه في ولاية ماريلاند لحصوله على عمولات لتعاقدات حكومية عندما كان يشغل منصب المحافظ . وعندما مثل أمام المحكمة اعترف أيضاً بتهربه من الضرائب فأصدرت ضده حكماً مخففاً . . فاستقال من منصبه يشيعه الخزي .

في ذات الوقت كان محققو مكتب المدعى الخاص ولجنة الشيوخ يواصلون عملهم الشاق في كشف أغوار القضية التي ارتفع عدد المشتكين فيها . وصاحب هذا استقالة خمسة عشر من الإدارة ، وتم رفع دعوى الاتهام على أربع حالات وثلاث حالات أخرى وعدد لا يحصى من الحالات التي تراجع فيها أصحابها طلباً للحماية « التعديل القانوني الخامس » وكان الذي يدير التحقيقات اثنان من كبار المحلفين وأربعة من لجان الشيوخ وواحد من لجنة بيت القضاة ، وحضر المحاكمة ثلاثة من أصحاب الدعوى القضائية المدنية . كما أعلنت هيئة المحلفين الكبرى الفيدرالية في لوس أنجلوس عدداً من مساعدي البيت الأبيض السابقين بتهمة محاولة اقتحام عيادة اليزبيرج النفسى . وابتداءً من هذه اللحظة بدأت أحداث غير مفهومة تطفو على السطح ، مما جعل قضية ووترجيت أكثر من مجرد فضيحة سياسية : مثل عملية اقتحام عيادة اليزبيرج ، والتدخل في المراحل القضائية ، وعمليات « الغسل » لتمويل الحملة الانتخابية ، واستخدام مكتب التحقيقات الفيدرالية ووكالة المخابرات المركزية ومكتب الإغانات الداخلية في أغراض

سياسية ، وتسجيل المكالمات التليفونية لمرشح الرئاسة إدموند ماسكى بحجة « الأغراض الخاصة بالأمن القومي » . كل هذه الأمور عجلت بما يراه البعض تعويقاً للمسار السياسي والدستوري للديمقراطية .

ومما أضعف من تأييد الشعب والحزب لنيكسون اكتشاف أن الشرائط التي سلمت إلى المدعى الخاص كانت ناقصة وكانت غير دقيقة وكانت أيضاً ممسوحة . كما أن رفض نيكسون الإذعان بالثول أمام لجنة الشيوخ أو لجنة بيت القضاة أثبت أنه لا مفر إذن من محاكمة برلمانية . وفي ٣١ يوليو عام ١٩٧٣ عرض روبرت درينان عضو الكونجرس عن مساشوستس اقتراحاً رسمياً باتهام الرئيس « بارتكاب بعض الجرائم الفاحشة والعديد من الجنح » . ولم تنصب الاتهامات فقط على ووترجيت وإنما امتدت وشملت عملية قصف كمبوديا السرية واحتجاز الاعتمادات التي أقرها الكونجرس والنفقات الهائلة المشبوهة التي أنفقت من أجل تهديد منزل الرئيس في فلوريدا وكاليفورنيا كما علم أن نيكسون قد دفع فقط مبلغ ٨٠٠ دولار ضرائب مستحقة لمبلغ ٢٠٠ ألف دولار من دخله . كما حاول أن يستقطع ٥٠٠٠ دولار أنفقتها ابنته ترشيا لتضم كمصاريف رسمية خاصة برئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، كما أنه استقطع ٤٨٠ ألف دولار من أجل هدية اضطر إلى أن يزيّف وصفها في إقراره الضريبي وسجلها بتاريخ قديم . كما ادعى أن هناك من عبث بهذه الشرائط . وبهذا فسدت سلامة الإجراءات القانونية . وقد أثبتت هذه الشرائط بالذات أن نيكسون نصح معاونيه بأن يشهدوا زوراً وأن يشتركوا في مؤامرة انتهاك حرمة القوانين الفيدرالية . وكان من بين الاتهامات التي وجهت إلى رئيس الجمهورية : اعتراض سير العدالة والتستر على الجرائم والتحريض على الحنث باليمين . وقد استمعت الأمة المكلمة إلى كل هذه الاتهامات في ذهول . وكان أهم هذه الاتهامات جميعاً أو بمعنى أدق الخطأ الفاحش الذي تولدت عنه كل هذه الجرائم هو إساءة استخدام السلطة .

وخلال ربيع وصيف ١٩٧٤ كانت الأرضية القانونية قد استقرت في صلاية وحكم القاضي جون سيريكما من المقاطعة على ستة من المتهمين الرئيسيين في ووترجيت . ولم تتم مقاضاة الرئيس نيكسون بسبب ما أعلنه المدعى الخاص في هيئة المحلفين الكبرى بأن مثل هذا الإجراء مشكوك في سلامته دستورياً . لكن . . كان قد وصل إلى القاضي سيريكما تقرير سرى للغاية جاء فيه أن نيكسون ليس متهماً

٦٧٩ حدود جديدة : التحدى

بالتأمر ، وموضحاً أبعاد تورطه وإلى أى مدى أصبح ملوماً فى نظر المحلفين .
 بدت هناك محاولات لإعاقة سير الإجراءات . فحاولت الرئاسة المناورة من أجل عدم تسليم الأشرطة والوثائق . ثم رفض مجلس مستشارى البيت الأبيض مجرد الاكتفاء باعتبار أن إساءة استخدام ثقة الجماهير تعد تهمة لكن فى هذا الوقت كان قد بلغ السيل الزبى لدى الجماهير ولدى الكونجرس . وعندما تأكدت الجماهير ، بعد نشر الشرائط التى فشل نيكسون فى إخفائها ، من أن نيكسون كان على علم بكل خبايا وتفصيل التستر على ووترجيت وأنه حنث فى يمينه مدعياً جهله بكل شىء وبرأته أجمعت لجنة بيت القضاة فى ٣٠ يوليو ١٩٧٤ على أن هناك تهمتين ثابتتين على نيكسون . وحظى هذا القرار بتأييد مزدوج . فقد بلغ إجماع الأصوات ٢٧ : ١١ كما أن أوفى مساعدى نيكسون بدأوا فى التخلي عنه .

وبعد أن تأكد الرئيس من أن قوته فى البيت الأبيض بدأت تتلاشى لم ينتظر مزيداً من التطورات . . وفى السادس من ديسمبر ١٩٧٣ كان نيكسون قد أحل جيرالد فورد محل آجينو . ومعروف عن جيرالد فورد أنه رجل قانون محنك من ميتشجان وزعيم للأقلية فى البيت . وفى الثامن من أغسطس عام ١٩٧٤ استقال نيكسون من منصبه وغادر البيت الأبيض إلى منزله فى سان كليمنت بكاليفورنيا . وبعد انقضاء شهر من هذه الأحداث تخلى الرئيس الجديد عن تأكيداته السابقة ومنح عفواً غير مشروط للرجل الذى سبق ورشحه للرئاسة .

إدارة الرئيس فورد

لو أن جيرالد فورد دخل انتخابات الرئاسة عام ١٩٧٤ لكان أهم بند فى برنامجه هو إعادة الثقة فى منصب الرئيس . وكان هذا بالفعل هو الهدف الرئيسى الذى واجهه حين تولى مهام منصبه . لكن هذا الهدف لم يتحقق على الوجه الأكمل حتى فاز عليه جيمى كارتر بعد عامين من توليه . وبما لا شك فيه أن فترة رئاسة جيرالد فورد كان لها تأثير شاف للجراح التى أحدثتها قضية ووترجيت فى السياسة الخارجية . إلا أن فترة رئاسته التى استمرت عامين لم تغير من الصدمة العنيفة التى أحدثتها ووترجيت والتى أدت إلى زعزعة

٦٨٠ موجز تاريخ الولايات المتحدة

ثقة الجماهير في الحكومة . بل على العكس فقد تعمق الشعور بهذه الأزمة خلال هذين العامين وساعد في ذلك تردى الأوضاع الاقتصادية في الداخل واستمرار اهتزاز هبة أمريكا في الخارج ، وربما يعود هذا أيضاً إلى حد ما بسبب عدم استحسان الجماهير لعفو جيرالد فورد عن ريتشارد نيكسون . . السابق لإدارته حيث تم هذا في الثامن من سبتمبر ١٩٧٤ .

ومع ذلك فقد أجمعت الجماهير على أن زعم الرئيس الجديد بأنه لم تكن هناك ثمة قضية وإنما فقط القوانين الإلهية وهذه المصالحة الوطنية هي التي قادته من أجل اتخاذ قراره هذا بالعفو . . لم تكن كلها إلا أمثلة جديدة على التستر على هذه القضية . وقد حاول فورد إيجاد نوع من التوازن . . فبعد أن أصدر العفو قام أيضاً بالعفو المحدود عن الشبان الذين فروا من التجنيد من أجل فيتنام . إلا أن غموض نقاط برنامج العفو كانت على النقيض من العفو عن نيكسون . ومثل هذه اللقطة التي كان الغرض منها إخراج نيكسون من بؤرة الشعور العام . . حتى يتمكن فورد من مباشرة مهمة لم تكن لقطة مباشرة بالخير بالنسبة للإدارة . كما أن المشاكل التي واجهتها هذه الإدارة كانت مشاكل عديدة ، وملحة .

كانت حرب فيتنام تندفع نحو نهايتها المؤسفة ومع ذلك كانت هناك ضرورة للتخلص منها وتصفيتها ، وهي مهمة شاقة تحتاج لوقت طويل . ولم تكن فيتنام هي القضية الوحيدة التي ورثها فورد . فهناك التضخم اللولبي الذي كان إلى حد كبير نتاج رفض كل من نيكسون وجونسون فرض ضرائب جديدة للإنفاق على الحرب . وهناك أيضاً زيادة البطالة ثم تعويم أسعار البترول . وقد شكلت هذه العناصر الثلاثة تهديداً لرخاء الشعب الأمريكي وأكثر من هذا فإن السنوات التي استغلت فيها الثروات الطبيعية وتم تلويث التربة والماء والهواء تحت اسم « التقدم » جعلت الأمريكيين لأول مرة ، يواجهون حقيقة أن ثرواتهم الطبيعية محدودة وليست غير متناهية . ولا عجب من أنه بمقدم عام ١٩٧٤ كان الأمريكيون قد تحرروا من شبح حرب فيتنام ووترجيت وشعروا بالإحباط في الأمل في المستقبل . ومن ثم فقد نادوا بالعودة إلى القيم التقليدية وللايام الخوالي القديمة التي حكم فيها أيزنهاور وانكمشت الحكومة . تلك الحقبة التي كان تفوق الأمريكيين فيها على العالم قضية مسلم بها . وإلى حد ما فقد نجح جيرالد فورد في تحقيق هذا الإحساس القومي بالوطنية . فإن لم تمكنه فترة رئاسته على العمل من

٦٨١ حدود جديدة : التحدى

أجل حل المشاكل الموروثة . . وإن لم يكن قد نجح في إعادة الثقة في الرئيس التنفيذي . . فإنه سعى جاهداً لاسترجاع الاحترام . فإن كان نيكسون قد خدع هؤلاء الشغوفين بالعودة إلى التاريخ القديم ، فإن جيرالد فورد لم يفعل . ولقد اقتنع فورد مثل أسلافه الرؤساء كوليدج وأيزنهاور بأن الرئيس التنفيذي يجب أن يكون مجرد حارس للأمة وليس قائداً . وهذا ما فعله بالضبط فقد أثبت أنه مجرد رئيس حارس . . حتى مقدم انتخابات ١٩٧٦ .

وبرغم أن نيكسون كان خارج السلطة فيبدو أن سياسته ومعانيه استمروا في السيطرة على الأداة الحكومية . وكانت حلول فورد للمشاكل الاقتصادية ولاهتزاز هيبة أمريكا ، مجرد حلول بسيطة مثل « لا تقضى أوقاتاً طويلة في الداخل . . وكن قوياً في الخارج » . وقد جلبت له سياسته هذه الاحترام والتعاطف معه . . ومع ذلك لم تغير أسلوب الحكومة عما كان عليه طوال السنوات الست الماضية . وقد نادى فورد بالتقشف المادى إلا فيما يتعلق بالنواحي العسكرية . اتبع فورد سياسة القانون والنظام . . التى كانت محور إدارة نيكسون . وقد وهنت هذه العبارة داخل أمريكا عندما سعى نيكسون إلى تعيين قضاة المحكمة العليا ؛ لذلك سعى زير خارجية نيكسون ، هنرى كيسنجر لتدعيم فلسفة القانون والنظام في الساحة الخارجية .

ومن بين المشاكل المستعصية على الحل والتى ورثها فورد من الإدارة السابقة ، وأكثرها إلحاحاً كانت مشكلة تطويق حرب فيتنام . وبرغم أن نيكسون قد انتهى إلى وقف إطلاق النار مع الفيتناميين وبدأ بالفعل فى مارس ١٩٧٣ فى سحب القوات الأمريكية من فيتنام ، فإنه ترك فورد للتفاوض من أجل التسوية النهائية للحرب . وإن كان قد امتد أمد هذه المفاوضات ، ويرجع ذلك إلى أن سياسات الولايات المتحدة الأمريكية كانت تفتقر إلى بعد الرؤية والنخوة كالتى أظهرت من قبل لليابان وألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية . ربما لأن الأمريكيين لم يكونوا قد اعتادوا آن ذاك على أن يخسروا أى حرب . وحتى إذا كانت إدارة فورد مهية لأن تدفع الكثير حفاظاً على السلام المشرف الذى كانت تتباهى به إلا أن التسليم بالهزيمة واللوم لم يكن يلقى إلا بعض التأييد . ولم تكن مفاوضات المعاهدة ، المخطوطة ، هى الميراث الوحيد لحرب فيتنام . وإنما والأهم من ذلك — ما بقى من جراح عاطفية ومعنوية ونفسية عانت منها البلاد إثر سعيها لأن تصبح قوة آسيوية . ومن بين الأمور التى جعلت من فيتنام أعظم طوفان

٦٨٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

مزلزل في تاريخ أمريكا منذ الحرب الأهلية ، ذلك الدمار الذي حدث في أساليب الحياة واستنفاد الثروات الطبيعية والتخلص من وهم الحكومة في الداخل وفقدان الثقة في الولايات المتحدة كقوة عظمى في الخارج ، ثم ذلك الشعور المرير بالذنب لحرب لم يكن لها أبداً ما يبررها سواء في دعواها أو مسلكها . وعلى العكس من الحرب الأهلية حين حاول الجنوب المهزوم أن يحول هزيمته العسكرية إلى نصر معنوي ونفسي ، فإن حرب فيتنام لم تحقق هذه الترضية للشعب الأمريكي ، على الرغم من أنه في عام ١٩٨٠ أعلن رونالد ريغان مرشح الحزب الجمهوري في انتخابات الرئاسة وفي محاولته كسب تأييد مجموعة من السياسيين القدامى ، أن حرب فيتنام كانت من أجل قضية نبيلة . وقد أيد بعض العامة خارج قاعدة الاجتماع هذه العبارة . وقد أثبتت فيتنام أنها الجرح الدامي للولايات المتحدة . . عسكرياً ومعنوياً . . ثم عادت لتثبت أنها الجرح الدامي اقتصادياً واجتماعياً أيضاً .

وقد أدى شعور الأمريكيين بفقدان مكانتهم الدولية كالدولة رقم ١ في العالم . إلى مطاعن البعض بتحويل المجتمع إلى مجتمع عسكري . فإذا كانت الحرب الباردة قد انحسرت مع الصين بعد انفتاح نيكسون تجاهها . . فإنها قد زادت من حدة مرارتها مع الاتحاد السوفيتي ؛ فقد أثبتت حرب فيتنام أن الولايات المتحدة لم تكن مستعدة . فإذا كانت أمريكا تسعى لاستعادة « تصديق العالم لها » فإن عليها أن تعيد بناء صرحها العسكري لحماية أغراضها في مواجهة التهديد السوفيتي في أي مكان في العالم .

واعتمد برنامج فورد - إن جاز هذا التعبير - على المناداة بضرورة التقشف الاقتصادي وتحديد حجم الحكومة . أما الاستثناء الوحيد من القيود المضروبة حول أي اعتمادات مالية فكان للإنفاق العسكري . . وهو ما كان متبعاً في عهد نيكسون . وبرغم أن فورد اعترض على قانون المنح التعليمية في عام ١٩٧٦ ونادى بضرورة الانضباط المالي فإنه طالب في نفس العام بتخصيص مبلغ إضافي وقدره ١١ بليون دولار من أجل الإنفاق العسكري . وقد أكد فورد من قبل للجماهير أن هدفه هو « العمل قدر جهده على إبعاد الحكومة الفيدرالية عن أعمالكم وعن حياتكم وعن حافضاتكم وحتى بعيداً عن شعركم » . ولكنه مع ذلك قبل - وبغير مناقشة - إخضاع الشعب الأمريكي والاقتصاد الأمريكي لخدمة العسكرية الأمريكية . فما أسماه أيزنهاور بمجمع الصناعات العسكرية تطور في عهد نيكسون وفورد ليصبح المجمع الأكاديمي للعمل العسكري والصناعي

٦٨٣ حدود جديدة : التحدى

والمالى فإذا كانت هذه السياسية المتعارضة قد فشلت فى استثارة أى معارضة جماهيرية جادة فيرجع ذلك إلى أن غالبية الأمريكيين — مثلهم فى ذلك مثل رئيسهم — اعتبروا أن الهدف الأسمى للحكومة هو تحقيق الأمن القومى . وكان هذا الأمن القومى ذات مدة الأمن الاجتماعى وفى عام ١٩٧٤ أصبح الأمن العسكرى وبرغم أنه أبدى تأييداً للعسكرية إلا أنه فى الوقت ذاته قد عارض العديد من التدابير الاجتماعية مثل مشروع قانون الوظائف الفيدرالية ومشروع قانون الأعمال العامة الشاملة ثم تدبير مساعدة فيدرالية للتعليم وبرنامج للتغذية فى المدارس . وبهذا يكون فورد قد وثق هذا المفهوم الضيق لمعنى كلمة « أمن » .

وبرغم أن أقلية هى التى تحدثت عن الكرم الحقيقى للعسكرية الأمريكية إلا أن إجراءات التقشف فى القطاعات الأخرى لم ترق لهم . وقبل نهاية عام ١٩٧٦ بلغ عدد الذين لا يحصلون على معاشات « البطالة » نصف الثمانية ملايين عامل عاطل . وقد خسر المستنون وأصحاب الدخول معركتهم ضد التضخم . أما المدن الكبيرة التى رفضت الاعتمادات المالية الفيدرالية مثل نيويورك وكليفلاند وديترويت ، فقد أصبحت تعاني من الإفلاس . أما السود والأقليات الهسبانية الى أغروها بالدخول من الباب المفتوح إلى المجتمع العظيم ، فقد وجدوا هذا الباب موصداً فى وجوههم . وارتفعت معدلات البطالة بين الشبان السود إلى نسبة تصل إلى ٤٠٪ . فلو تم إصلاح المسار السياسى فى عهد الرئيس فورد لابتعد شبح انقسام المجتمع الذى بدأ رسمياً بحرب فيتنام ، والذى زاد من حدته ترذى الأوضاع الاقتصادية والذى عمقه تأييد حركة « المحافظين » الجديدة التى رفضت بشدة مفهوم « المجتمع العظيم » .

أما الذين استفادوا بشكل واضح من « تحفظية » فورد المالية بالإضافة إلى « عسكريته » فهم تكتل اتحادات الصناعات الكبيرة . وقد أذعن الرئيس للضغوط فى ديترويت وأجل حتى عام ١٩٧٦ قراره بإجراء تخفيض ٩٠٪ من « التلويث » الذى اشترطه قانون الهواء النظيف الصادر فى عام ١٩٧٠ وذلك خوفاً من مزيد من النقص فى العمالة . كما عارض فورد الرقابة على الأسعار وحتى على التقشف . وذلك فى مواجهة السوء المستمر فى أزمة الطاقة نتيجة ارتفاع أسعار البترول وكذلك بسبب عداء الجماهير لنظم التموين أو الضرائب المتزايدة . وقد فشلت حركة « المحافظين » الجديدة التى بدأت عام ١٩٧٠ فى حماية جماهير الأمة أو البيئة المحيطة بها .

بدأ جيرالد فورد فترة رئاسته تحت سحابات من الشك والسرية نجمت عن سلفه . ولكن ساعدت أمانته وعفته على تبديد هذه السحابة التي خيّمت على البلاد . ومما لا يدع مجالاً للشك أن كل عمليات المخابرات المركزية الأمريكية في شيلي والتي أدت إلى الإطاحة بالرئيس سلفادور ألييندى فى عام ١٩٧٣ أو محاولات اغتيال فيدل كاسترو السرية . . لم تتم أبداً فى رئاسة فورد . وعندما كشف محققو مجلس الشيوخ مدى زيادة عمليات المخابرات المركزية ، فإن جيرالد فورد فشل فى إلزام نائبه العام إدوارد ليفى فى اتخاذ أى إجراء مضاد للمخابرات المركزية . . ومكتب التحقيقات الفيدرالية وعملاؤها ، بل إنه بكل وضوح صدق على دعم ميزانية المخابرات المركزية فى البرتغال وأنجولا وأكثر من هذا بالنسبة إلى إيطاليا بغية السيطرة على سياستها الداخلية .

أما بالنسبة للشئون الخارجية ، فقد فرضت سياسة هنرى كيسنجر نفسها أيضاً على إدارة فورد كما كان الحال مع نيكسون . وفى سعيه وراء تحقيق « الأمن القومى » من أجل « أمريكا الحرة » فإن كيسنجر لم يكتف فقط بالتوّد إلى حلفائه الموالين أمثال الجنرال بينوتشيت فى شيلي أو الجنرال بارك فى جنوب كوريا وإنما شجع فى عام ١٩٧٥ على إرسال دعم عسكري إليهم يصل إلى ٤,٧ بليون دولار . كما شجع وزير الدفاع جيمس شلنجر احتياجات البنتاجون فى زيادة عدد مخازن المنتجات العسكرية الحديدية وذلك لتمكين الولايات المتحدة من توجيه الضربة الأولى دائماً . كما أن كيسنجر قد شجع أيضاً « عسكرية » دول أخرى فى العالم على اعتبار الولايات المتحدة مصدر العتاد الحربى للعالم كله . ومن أجل شراء السلام فى الشرق الأوسط وضمان استمرار تدفق البترول تم بيع كميات كبيرة جداً من الأسلحة إلى إيران والمملكة العربية السعودية . كان ثمن السلام فى الشرق الأوسط باهظاً فقد كان لابد من استمرار تدفق السلاح على المنطقة . ومع ذلك تحققت بعض تدابير للسلام فى الشرق الأوسط . فقد نجحت « دبلوماسية الماكوك » إلى حد ما والتي قام بها هنرى كيسنجر فى استعادة أمريكا لهيبتها فى الشرق الأوسط ، وفى إقامة حوار عربى إسرائيلى لأول مرة . . وفى تجديد أمل الأمريكين بأن يعودوا مرة أخرى زعماء للعالم الحر .

كانت استعادة السيادة الأمريكية من أهم الأهداف الحيوية بالنسبة لإدارة الرئيس فورد وللأمريكين أنفسهم . وقد نجح هذا جلياً فى أسلوب معالجة فورد لإحدى المشاكل التى وقعت فى العامين الدراميين اللذين حكم فيهما فورد ، برغم عدم أهمية تلك

٦٨٥ حدود جديدة : التحدى

الحادثة ، وهى عملية أسر سفينة الشحن الأمريكية « مايا جيز » من قبل زورق طوربيد كمبودى . فبرغم الخمسة والعشرين ألف طن من القنابل التى أسقطت والأربع بلايين دولار التى أنفقت من قبل الولايات المتحدة من أجل تنظيم رجال عصابات من الخمير الحمر ، فإن التورط فى كمبوديا لم يكن أكثر من « حدث فرعى » إلى جانب الحدث الرئيسى الحادث فى فيتنام المجاورة . وقد توقف النشاط فى تلك المنطقة عندما تم أسر سفينة الشحن « مايا جيز » فى مايو ١٩٧٥ داخل المياه الإقليمية الكمبودية وقد أثار تبجح كمبوديا غضب الأمريكيين جميعاً حتى « الحثائم » من رجال الكونجرس مثل شيوخ الكنيسة وفردت أجنحتها مثل الصقور وطلبت أن ترى العملاق الأمريكى وقد تخلّى عن عجزه بعد كل هذا . وقد استخفّ العالم كلّه بادعاء كمبوديا أن السفينة كانت تحمل أجهزة سرية للغاية خاصة بالمخابرات . . كما استخفّ العالم أيضاً بالرسالة التى أفادت بإطلاق سراح طاقم البحارة . . وفى انتهاك صارخ لقانون « قوى الحرب » الصادر فى ١٩٧٣ صدّقت الإدارة الأمريكية على القيام بهجوم يبدأ بعملية إبرار جوى عنيف لإنقاذ السفينة . وبعد انقشاع دخان المعارك وغازاتها وبعد أن بلغ القتل الأمريكيون ٣٨ قتيلاً اهتز « الصدق » الأمريكى فزغم الانتصار على الكمبوديين لم يصبح العملاق الأمريكى عاجزاً . . وإنما أصبح هستيرياً .

وبرغم حادث السفينة مايا جيز فإن سنوات حكم فورد كانت بلا لون . وكرئيس « حارس فقط » لم ينعش فورد أمريكا من حالة الإرهاق القومى التى أصابها بعد الهزيمة التى منيت بها فى فيتنام . كما أنه لم يقدم أى حلول للمشاكل داخل البلاد مثل مشاكل التضخم والبطالة والتلوث والطاقة وهى المشاكل التى عانى منها الأمريكيون حتى مقدم انتخابات ١٩٧٦ .

انتخابات عام ١٩٧٦

بعد كارثة حرب فيتنام وفضيحة ووترجيت وما فيها من جرم وخداع ، أصبح احتمال فوز الديمقراطيين فى انتخابات ١٩٧٦ مؤكداً . ولم يكن لدى الديمقراطيين أى مرشح يمكنه خلق جو من الثقة وأن يستأثر بخيالات الجماهير بينما استطاع « جيسى فورد » إثبات أنه

الأقرب إلى شخصية أيزنهاور ، فهو شخص ودود مريح استطاع أن يظهر قدراً من الهدوء واللياقة كانت الأمة في ميسس الحاجة إليهما وكان منافسه الجمهورى الوحيد والحاكم السابق لكاليفورنيا رونالد ريجان الذى كان يوماً ما نجماً سينمائياً يتميز بملامح الأبوة . لكن فى النهاية وبعد مواجهة عنيفة قرر الجمهوريون الالتفاف حول فورد .

أما معركة الرئاسة داخل الحزب الديمقراطى فكانت على العكس من الحزب الجمهورى مفتوحة للجميع بدليل وجود اثنى عشر مرشحاً بعضهم غير معروف نسبياً يجاهدون جميعاً من أجل ملء الفراغ السياسى المذهل وانتهى الصراع بوصول أربعة ، هم : سيناتور اسكووب جاكسون من واشنطن وجيرى براون حاكم كاليفورنيا وجورج والاس من ألاباما وهو رجل دائم الترشيح فى الانتخابات وكل مؤهلاته أنه يحمل جراح محاولة اغتياله سابقاً ثم سيناتور هيوبرت همفرى الذى هزمه نيكسون بصعوبة فى انتخابات ١٩٦٨ . وبين هذه الكوكبة من السياسيين اللامعين برز وافد جديد اسمه جيمى كارتر حاكم جورجيا الفلاح مزارع الفول السودانى . وما أثار دهشة المحترفين السياسيين أن هذا الوافد هو الذى فاز فى النهاية . وما تفسير هذا الانتصار إذن ؟ ربما لأن الرجل بدا كأنه : داود الذى يحارب وحده أكثر من جوليات واحد . وربما لأن الأمة قد تعبت من كثرة السياسيين المحترفين الساعين لتقلد الوظائف . وربما لهذا الورع والتدين اللذين التقيا وغرائز الأمريكيين فى سعيهم للتمسك بمبادئ الفضيلة والإيمان فى الحياة العامة ، وعلى أى حال فعندما عقد الحزب الديمقراطى اجتماعه فى مدينة نيويورك فاز الحاكم كارتر فى الاقتراع الأول وكان هذا انتصاراً لا يحققه إلا سياسى عتيق . ثم اختار لمنصب نائب الرئيس الذى يكمل معه هذا السباق رجلاً عرف الأمريكيون أمانته وقدراته هو السيناتور ولتر موندال من مينيسوتا .

وبحصر عدد الأصوات فاز كارتر على منافسه بزيادة ٢٪ فقط فى (إحصاءات المجمع الانتخابى مع العلم أنه إذا حدث وانحرفت أوهايو وهاواى فى طريق بعيد لفاز جيرالد فورد إذ أن المنافسة فيها كانت شديدة جداً) أما التأيد الحقيقى الذى دعم موقف كارتر فجاءه من بقايا ائتلاف فرانكلين وروزفلت ممثلاً فى العمال والسود . وقد بذل جهداً خارقاً للوصول إليهما . ثم الجنوبيون الذى أسعدهم رؤية أول رئيس من أقاصى الجنوب منذ زخارى تايلور .

كان يوم الانتخابات بكل المعانى يوم انتصار عظيم للديمقراطيين وكان لهذه

٦٨٧ حدود جديدة : التحدى

الانتخابات ملمحان أحدهما نذير سوء والآخر بشير خير . أما لماذا نذير سوء ؟ ذلك لأن عدد الذين اشتركوا في الانتخابات بلغ فقط ٥٣٪ من الناخبين وهى أسوأ نسبة مئوية في القرن العشرين والتي على العكس منها وبشكل مذهل ما حدث في الانتخابات في أوروبا الغربية التي ارتفعت نسبة الانتخابات فيها من ٧٥٪ إلى ٩٠٪ فكشفت عن انقسام كامن داخل البلاد على مستوى الخطوط الجغرافية . فقد فاز فورد بكل الولايات غرب نهر المسيسيبي باستثناء مينيسوتا وتكساس وسوف تثير هذه اللفتة كل من لا يزال يذكر ذلك الانقسام الجغرافي الذي حدث عام ١٨٦٠ والذي انبثق عنه فيما بعد « الجنوب الموحد » . أما بشائر الخير في هذه الانتخابات فيدل عليها أمران : الأول تدافع الناخبين السود إلى صناديق الانتخاب في أعداد لم يسبق لها مثيل . والأمر الثانى أن هذه الانتخابات أعادت السود مرة أخرى إلى المدينة ومكاتب الولايات .

ويعتبر جيمس إيرل كارتر – والذي يفضل أن ينادى جيمى – فيما يتعلق بأسلوب تفكيره وشخصيته قريب الشبه بالرئيس ويلسون أكثر من أى رئيس آخر في القرن العشرين . فشاركه في المزج بين الشخصية والتجربة لأنه ولد ونشأ في قرية صغيرة اسمها بلين في جورجيا وتخرج في أكاديمية أنا بوللى البحرية وعمل في برنامج الغواصات النووية تحت إمرة الأدميرال هيمان ريكوفر . فهو إذن من حيث المهنة مهندس ، ومن حيث الممارسة فهو فلاح ، ومن حيث الفطرة سياسى ، ثم إنه عمل حاكماً لولايته فترة رئاسية واحدة مثله مثل وودرو ويلسون . وكان أيضاً طريداً فقد لفظته مؤسسات واشنطن . فوعد أن يشكّل حكومة أكثر إيجابية وفعالية من حكومة جيرالد فورد الذى اعتمد في إدارته القصيرة على قوة الفيتو (حين كان في السلطة أصدر جيرالد فورد أكثر من خمسين فيتو ضد البرامج الاجتماعية الليبرالية والاقتصادية) فبدأ أكثر سلبية .

تعهد كارتر أثناء الحملة الانتخابية بتوخي الأمانة في العمل الحكومي والحد من البيروقراطية الحكومية ومن الإنفاق العسكرى ومبيعات السلاح في الخارج ، ومن الناحية الإيجابية فقد تعهد بعمل برامج طموحة للرعاية الصحية والحماية البيئية وإنفاذ المدن المهتدة . وفي خطابه الذى استهل به رئاسته حذر من انتظار الكثير من الحكومة وركز كثيراً على العبارات الغامضة البليغة : « علينا أن نجدّد سعينا للرحمة والتواضع والعدالة . علينا أن ندعم روابط العائلة الأمريكية . علينا أن نحقق باسم القانون المعاملة المتساوية بين الضعيف والقوى وأن نجعل الشعب فخوراً بحكومته مرة ثانية »

واستمراراً في استعراض تواضعه وتبسطه . . فبعد أن فرغ من خطابه الافتتاحي مشى وزوجته روزالين يداً في يد من الكابيتول إلى البيت الأبيض تماماً كما فعل توماس جيفرسون منذ مائتي عام مضت حين سار من مبنى الكابيتول الذي لم يكن قد انتهى بناؤه بعد إلى مقره الرسمي بعد تنصيبه .

إدارة كارتر

إن كارتر بابيتست يولد من جديد كما أنه أيضاً بوبوليسيت وبرغم التصاقه الطويل المدى بأخلاقيات الجنوب العنصرية إلا أنه نجح في اكتساب أصوات السود بما أظهره من إحساس باحتياجاتهم والاحترام الذي أبداه لمن هم في عداد الأثرياء ، وقد أبدى أسفه على انحرافات وكالة المخابرات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالية كما وعد بدعم القوانين التي طال التحايل عليها وعدم احترامها ووعد بإيجاد وظائف الخدمة العامة للعاطلين وتحقيق العدالة الضريبية واحترام حقوق المرأة وتوفير الحماية المشروعة لها . وفي كل ما يرمى إليه . . كان يثق في تأييد الكونجرس له . . . حيث إن الحزب الديمقراطي تسيد الكونجرس بعد الفوز الحاسم الذي حققه الديمقراطيون داخل الكونجرس . . وأكثر مما حدث على مستوى الرئاسة . . فقد فازوا بواحد وعشرين مقعداً في مجلس الشيوخ . . في مقابل أحد عشر مقعداً للجمهوريين ، و٢٩٢ في المجلس في مقابل ١٤٣ للخصوم — وشعر الأمريكيون حين رأوا رئيسهم الجديد يمشى إلى البيت الأبيض — بأنه سيفي بكل ما وعد به في حملته الانتخابية . لكن هذا الفلاح من جورجيا . . الذي أصبح رئيساً . . أثبت أنه أكثر تعقيداً مما كان يتصور عنه في الحملة الانتخابية . وبصفته عضواً سابقاً في لجنة دافيد روكفلر الثلاثية . . والتي تمثل أقوى الاهتمامات المشتركة في العالم الغربي . . أذهل بعض مؤيديه باختياره بعض مستشاريه من هذه اللجنة وتوابعها . وقد أظهر أسلوب اختياره لمجلس وزرائه هذا الجانب الهام من حياته مع مؤسسات العمل ، وبمجموعة « صفوة واشنطن » .

تم تعيين سيروس فانس في منصب وزير الخارجية . . وهو من مين لين بفيلا دلفيا وخريج جامعة ييل وقد عمل كمحام في وول ستريت ورئيس لاتحاد محامى نيويورك لفترة

٦٨٩ حدود جديدة : التحدى

رئاسية واحدة ووكيل لمؤسسة روكفلر كما أنه عمل مستشاراً للرئيس جونسون الذى أيد سياسته فى حرب فيتنام لكن بغير حماس . أما هارولد براون وزير الدفاع الجديد فقد كان له نفس أوراق الاعتماد : قائداً للقوات الجوية فى عهد الرئيس جونسون ثم رئيساً فخرياً لمعهد كاليفورنيا التكنولوجى وكان متحمساً أكثر من فانوس لضرورة ضرب فيتنام . لكن بغير هذا الاهتمام المريب بضرورة إلحاق خسائر مدنية إضافية محدثة هذه الكوارث .

أما رئيس مجلس الأمن القومى الجديد زيبجينو برزنيسكى وهو خريج جامعة كولومبيا وكان عضواً فى لجنة روكفلر الثلاثية واتحاد السياسة الخارجية . ولم يكن ما يجرى داخل البيت الأبيض مجرد عمل عادى فقد انعكست طبيعة كارتر المعقدة فى اختياره للمناصب العليا التى شغلها من هم من جورجيا . فرئيس مكتب الميزانية هو بورت لانس من خبراء البنوك فى أتلانتا وشرح ريفين بيل لمنصب النائب العام وهو منصب سياسى وقانونى فى ذات الوقت . أما من تولى مهمة متابعة الشؤون السياسية يومياً فى البيت الأبيض والحزب الديمقراطى . . فهما هاملتون جوردان . . وجودى باول من خبراء الاستراتيجية السياسية . . كان من الصعب معرفة ما سوف يتم عمله . . بمثل هذه المجموعة من الناس ومن على شاكلتهم والذين يحيط الرئيس نفسه بهم . لكن سرعان ما اتضح الأمر . . فمستشارو الرئيس . . أولئك . . لم يحققوا إلا ميلاد ثورة جديدة على كل ما هو فاسد . . وكل ما هو خفى . . ومن أجل الطبقات التى تكاد تفتنى من المجتمع .

فإن كانت شخصية كارتر المركبة . . قد أذهلت مؤيديه . . فإن التاريخ أيضاً قد أذهل كارتر . . كان خطاب نتويجه . . مثله مثل خطاب ويلسون منذ ستين عاماً مضت . . متسق والمساءلة الوطنية . . وكانت الحلول المطروحة متسقة تماماً واحتياجات السياسة الداخلية . . غير أن الشؤون الدولية بدأت تفرض نفسها على كارتر كما فعلت مع وودرو ويلسون . فسرعان ما اكتشف كارتر أن أمريكا ليست هى مركز الجاذبية الأرضية . . وإنما العالم كله . وحتى المشاكل التى بدت وكأنها مسألة داخلية بحثة مشكلة نفاذ المصادر البترولية ، والتضخم ، والبطالة ، اكتشف أنها جميعاً معقدة ومتشابكة مع ظروف وأزمات فى أماكن أخرى فوق الكرة الأرضية . وسرعان ما أصبح جلياً حتى لأصحاب النظرة المحدودة أنه يتعذر حل هذه المشاكل داخل الغرف المغلقة والمعزولة فى الولايات المتحدة الأمريكية . لقد أدرك الفلاسفة من قبل أن العلم والفن وحدة واحدة وعلى الساسة إدراك حقيقة أن السياسة والاقتصاد والاجتماعيات والفضيلة

كلها وحدة واحدة ، ومن ثم فعلى الأمم في كل مكان أن تحترم هذه البديهية إذا أرادت أن يكتب لها البقاء . فهل كان يصدق أحد في الجيل الماضي أن يحدث في منتصف السبعينيات من قبل وتستعبد دول البترول في الشرق الأوسط الولايات المتحدة الأمريكية ، أو أن الانتفاضات في كوبا وأنجولا يمكنها دفع أعظم قوتين على الأرض إلى المواجهة الأيديولوجية والعسكرية أحياناً ، أو أن يتضخم الصراع العربى الإسرائيلي ليصبح الشاغل الأكبر للسياسة الخارجية الأمريكية ، أو أن التجارب النووية في الصين يمكنها أن تهدد أمريكا الشمالية وأوروبا بخطر تساقط الغبار الذرى ، أو أن زيادة معدل السكان في المكسيك أو دول الكاريبى يمكنها أن تربك سياسة واقتصاد أمريكا الشمالية كلها ، أو أن يصعب الحفاظ على الأسرار النووية بعيداً عن متناول الأمم المنافسة أو الإرهابيين ، أو أن تحدّد قيمة الدولار الأمريكى في لندن وزيورخ وفرانكفورت بعد أن كان الدولار الأمريكى هو القياس العالمى ، أو أن قيام ثورة في إيران البعيدة جداً يمكنها أن تعجل بحدوث أزمات اقتصادية كبيرة وسياسية وعسكرية داخل أمة ظلّت تخدع نفسها بأنها أقوى أمة على الأرض ؟!

كان هذا كله مبرراً كافياً لإعادة الصياغة العميقة لفكرنا التقليدى ومسارنا . فلم يكن هناك أى مبرر لاسترجاع النغم السياسى القديم والمقولات مثل « الأمة رقم واحد في العالم » و « الاعتماد على القوة العسكرية الأولى في العالم » و « وهم أن مصادرها الطبيعية لا تنضب أو الادعاء التوكوفيللى بأن الديمقراطية هي موجة المستقبل التى لا تقاوم . كل هذا وغيره من الافتراضات أصبحت عقيمة وغير ذات جدوى . فما نحن في حاجة إلى ننادى به هو تقوية مصادرها والفساد ثم الخيال المصحوب بالقوة لمواجهة المشاكل الجديدة في الداخل أوفى الخارج . فمنذ عهد روزفلت لم يتحل أى من رجال الدولة بمثل هذه الصفات . وبرغم النوايا الطيبة للرئيس الجديد وبرغم معسول عباراته إلا أنه لم يكن موعداً فيما يتعلق بتطبيق هذه الصفات ليصبح عهده مميزاً .

ليس كل ما هو حقيقى في العلاقة الدولية . . حقيقياً في العلاقات الداخلية . فقد ثبت هنا عدم جدوى النغم السياسى القديم . ففي انتخابات ١٩٧٦ تمّ تحديد مفهوم « المحافظة الليبرالية » . وكل من حاول تطبيقها في حلّ المشاكل السياسية وجد أنها على العكس من هذا فقد زادت المشاكل تعقيداً . والجيل الذى أسس الجمهورية ووضع دستورها اكتشف فهاً سفسطائياً لطبيعة المشاكل السياسية المفروض حلّها . فقد أدركوا

٦٩١ حدود جديدة : التحدي

أن المشكلة الجوهرية لمجال الحكومة وحدودها هي في الواقع مسألة « المبدأ » . أما مسألة هل هي الحكومة الإقليمية أو الحكومة القومية التي يجب أن تمارس الهيمنة السياسية وفي أى المناطق ، فهي مسألة خاضعة للتجربة العملية . وقليل من الذين ناقشوا هذه المسائل منذ الحرب العالمية الثانية نجحوا في السيطرة على الاهتمام بهذه الفروق وفهمها . وهكذا فإن الحملات الانتخابية عامي ١٩٧٦ و ١٩٨٠ تم إدارتها بأسلوب تكتيك حرب العصابات أكثر من خضوعهما لاستراتيجية منضبطة تخضع هي أيضاً للمنطق أو الفلسفة . وكانت الاختلافات الحزبية حول بعض المسائل الهامة مثل دور الحكومة في الصحة العامة والتوظيف والإسكان والتعليم والبيئة والسيطرة على قانون العقوبات أو بالنسبة لحقوق الأقليات أو المرأة (التي تقيد أغلبية) فإن هذه الفوارق كانت كلها فوارق بلاغية وعرضية و متميعة وبعيدة عن المنطق أو التماسك . فالحزب الجمهوري الذي هو من المفروض حزب التأمين والمركزية فقد نظر إلى الحكومة بعين الارتياح ، ونظر إلى الحكومة القومية بحذر بينما قد تحمس كثيراً للمشروعات الخاصة . في الوقت ذاته . . كانوا هم أبطال « العمل التعاوني » والمجتمع العسكري و « التحقيقات » وما إلى غيرها من مسميات تركز بشدة المؤسسات . بينما الحزب الديمقراطي المفروض أنه حزب « حقوق الولايات » و « المحليات » و « دعه يعمل » فقد أخذ الآن خطوات إيجابية نحو « الحكومة الكبيرة » والمشروعات العامة و رخاء الولايات ، وفي هذا تفوق على توماس جيفرسون وخلفائه عبر مساحات زمنية كبيرة من القرن التاسع عشر ؛ فوجد الرئيس نفسه منساقاً بغير مقاومة إلى المعسكرين معاً .

أما حركة « المحافظين » الجديدة التي أسسها ريتشارد نيكسون ورعاها جيرالد فورد فقد وجدت ضيافة طيبة في البيت الأبيض إبان إقامة كارتر . أثبتت سياسة نيكسون - فورد - الدرامية إلى تقليل اللوائح الحكومية بالنسبة للمشروعات الخاصة ، إنها سياسة غير حزبية . وهذا ما أثبتته أيضاً سياسة رفع المخصصات العسكرية حتى ولو على حساب البرامج الاجتماعية . وقد تأكد عند مجيء عام ١٩٨٠ أن رجل عام ١٩٧٦ ذلك الغريب المبتسم دائماً الذي شقّ الحرب على « نفس الجماعات الداخلية أصحاب الوعود غير المحققة » قد فقد بتسامته وفقد معها إيمانه أنه بوسع أى إنسان خارج الحكومة أن يدير الحكومة . وإذا كان كارتر قد فقد إيمانه بمن هم « غرباء » عنه أثناء سنوات حكمه فإن الكثيرين ممن انتخبوه قد فقدوا الثقة فيه أيضاً . وبينما وصل الأمر ببعض إلى حدّ

فقدان الثقة في قدرة كارتر على قيادة البلاد إلى أيّ جهة . . فقد رأى البعض أنه يقود البلاد بالفعل لكن إلى هوة اقتصادية لا مفرّ من التراجع أمامها . أما المثقون والأقليات والنساء وعمد معظم المدن الأمريكية ومن عارضوا الرغبات النهم للبتاجون فقد عانوا جميعاً بأكثر من حالة فقدان الثقة ، فقد شعروا أنهم قد خدعوا من هذا البوبيوليس الذي عاد من جديد ليعد بالكثير ويعطى القليل .

من عجائب الأمور في السياسة القومية أن الشعب إما أن يدين رئيسه أو يمتدحه . . وكأنه لا يوجد سواه في الحكومة . وحين يسئل الأمر إلى رئيس الدولة تنقسم الأمور إلى حدّ الشيزوفرنيا . وتصبح القضية هي : هل من حق البيت الأبيض رسم « السياسات » أم أن عليه فقط تنفيذ ما يمليه عليه الكونجرس من سياسات ؟!؟ ويبدو أن الإجابة تحتل منطق الكذب في وسط الطريق . كما أن الإجابة تعتمد أيضاً على ما إذا كان المواطن الأمريكي سيوافق أو يرفض مقترحات الرئيس . وليس في وسع أي رئيس أن يؤثر في السياسة بغير تشريعات . . ما لم يتقن فن مراوغة الكونجرس والتقرب إلى الدستور . فإن كان جيمي كارتر قد عمّق أزمة الزعامة فربما يرجع هذا لفشله شخصياً في الوصول إلى هذا اللون من التعاون . فإذا كان جيرالد فورد قضى الجزء الأكبر من عامي رئاسته رافضاً قرارات الكونجرس فإن جيمي كارتر قضى فترة رئاسته كلها . . مرفوضاً من الكونجرس .

بدأ كارتر رئاسته بادعائه « ونحن نتهياً لمواجهة المشكلة الضخمة بإعادة الأمريكيين إلى العمل مرة أخرى ، ونحن نتهياً للسيطرة على التضخم ووضع سياسة للطاقة ومواجهة مشاكل الدفاع والإصلاح الضريبي والعمل من أجل الرخاء ، فسوف نعمل بالمشاركة مع الكونجرس للوصول معاً إلى هذه الأهداف » . لكن الكونجرس أثبت رفضه العمل مع السيد كارتر وكل مواليه « الجورجيين » فاقدى الفعالية السياسية . وقد أصبح للكونجرس اليد العليا في صراعه مع الرئيس وذلك بفضل القيود التي فرضها الكونجرس على سلطاته مثل قانون الميزانية لعام ١٩٧٤ الذي قوّى قبضة الكونجرس على خيوط الميزانية . ونتيجة هذا كله فإنه برغم أن سنواته الأربع داخل البيت الأبيض كانت سنوات نشاط تنفيذي هائل إلا أنها في ذات الوقت كانت سنوات إنجازات ضئيلة جداً . تحفرت إدارة كارتر إلى بداية جيدة جداً . ففي الحادى والعشرين من يناير تم توقيع قانون العفو عن المتهرين من التجنيد الذي سبق ووعد به . ثم تتابع ظهور اقتراحات

٦٩٣ حدود جديدة : التحدى

خاصة بتحسين الوضع الاقتصادى وتجديد شامل لرخاء البلاد وإلغاء « المجمع الانتخابى » وتدعيم انتخابات الرئاسة والكونجرس باعتمادات مالية عامة . وبرغم ما أثارته هذه الخطوات من إعجاب إلا أن الكونجرس قاومها مقاومة خفيفة برغم إعجابه الظاهرى فقط . . ثم سرعان ما تحول الأمر إلى العداء السافر .

لقد مُنى الرئيس بأسوأ هزيمة له فى مفاوضات الطاقة مع الكونجرس ، وفى مدى التجاوب العام معه . ولأنه كان يعتبر أن هذه هى أهم مسائل العمل الوطنى قام فى مارس ١٩٧٧ بإنشاء وظيفة جديدة داخل مجلس الوزراء هى وظيفة « وزير الطاقة » وعين بها جيمس شيلسنجر الذى كان وزيراً للدفاع إبان حكم نيكسون . وكان رد فعل زرع هذه الوزارة ، فاتراً . وفى تحذيره للشعب أكد كارتر على الحاجة إلى زيادة الإنتاج وخفض استهلاك البترول . إلا أنه لم يكن مهياً فى ذلك الوقت للتدخل فى عمل الحكومة من أجل سرعة إنجاز هذه الأهداف المطاطة . وبدلاً من سنّ القوانين بدأ يتحايل عليها ، وبهذا يكون قد سرق بعض الامتيازات من خصومه الجمهوريين دون أن يقدم نفسه قرباناً لهم . وكان له بعض العذر فى هذا ، فلا الكونجرس ولا الشعب كانا مستعدين لقبول ضرائب أو وظائف فعلية . وقد أظهر الكونجرس استخفافه بهذه الحقيقة . . فأسقط قانون ضريبة « العشرة سنتات لجالون الجازولين » الذى اقترحه كارتر .

لا شئ يساعد التضخم مثل ارتفاع أسعار البترول . . وبرغم هذه الحقيقة فالشعب أنزل الطاقة إلى المرتبة الثانية واعتبر التضخم مشكلته الأولى . ولا عجب أن نسبة التضخم ارتفعت منذ جاء كارتر من ٧٪ سنة ١٩٧٩ إلى ١٢٪ . وتجاوب الكونجرس مع رأى العام الذى اعتراه الندم والغضب ، فتحرك من أجل السيطرة على التضخم وأثر أن يبدأ بالميزانية الفيدرالية من أجل الصالح العام . لكن ميزانية الدفاع « زاغت » من بلطة الكونجرس .

واستمر التضخم برغم محاولات الكونجرس السيطرة عليه . وكان هذا بلا شك أمراً محتملاً لأن مسببات التضخم سواء داخل البلاد أو خارجها كانت تغلت من أى سيطرة . ففى الداخل اتضح أن السبب كان تلك الزيادة غير المستحبة فى الميزان التجارى مع الدول المنتجة للبترول . فقد وصل العجز فى الميزانية عام ١٩٧٩ إلى ٩٥ بليون دولار وبلغت الديون القومية ثمانية بلايين دولار . وصاحب هذا . . هبوط فى الإنتاج ربما بسبب الفشل فى تطوير المصانع لاستيعاب التكنولوجيا الحديثة ولأن البحوث

العلمية والكفاءات الهندسية والتكنولوجية كانت بعيدة عن دائرة الإنتاج الاقتصادي ،
بعكس البحوث والصناعات العسكرية التي كانت غير إنتاجية .

لقد عكس الكونجرس بأمانة المزاج العام تجاه « حركة المحافظين الجديدة »
والاستخفاف بكل الدوافع الحكومية وذلك حين قاوم اقتراحات كارتر ، وعند تناوله لأزمة
التضخم ، وبالتالي فإن المشاكل الاقتصادية ساهمت في تغذية هذا التيار « المحافظ »
الجديد ، الذي ارتاب في « الحكومة الكبيرة » وتحمس « للشركات الكبيرة » سواء قومية
أو عالمية . فمجموعة « مرياد » ذات المسؤولية المحدودة والتي ظهرت إبان حكم
نيكسون . . قد استمدت قوتها أثناء حكم كارتر ، وساعدت في تعميق حركة
« المحافظين » ثم قامت اللجان السياسية بشن حملة ضد الإجهاض والرقابة على السلاح
وحركة المطالبة بالمساواة في الحقوق ، وطالبت بإعادة عقوبة الإعدام والصلاة في المدارس
والتشريعات التي تلزم الناس بالتمسك بالقيم والفضيلة . ولأول مرة منذ الحملة
« البروتستانتية » ضد ألفريد سميث عام ١٩٢٨ ، اقتحمت الجماعات الدينية بشجاعة
الحلبة السياسية بهدف هدم الحائط الذي يفصل بين الدولة والكنيسة . ومن ثم فقد
ظهرت المكارثية الأخلاقية ضد الأفراد أو الجماعات أو السياسات التي تحاول أن تخرج عن
تيار الحياة الأمريكية السائدة ثم القيام بانتفاضة عنصرية تدعو إلى تعميق العداء ضد
السود والأقليات الهسبانية (المتحدة بالأسبانية) ومن قال عنهم تيودور باركر . . تلك
الطبقات « الفاسدة الخطيرة » .

وفي عام ١٩٨٠ تركز هذا الشعور بالاستياء من الحزب الحاكم خاصة من الرئيس
كارتر الذي سبق ووعد بأن يجعل الحكومة ملكاً للشعب حيث كان يتفاخر بسلوكه
الأخلاقي . وأثبتت التعهدات التي وعد بها كارتر في حملته الانتخابية من أجل الرخاء
الاجتماعي وإنهاء الحرب الباردة تدريجياً زيادة الميزانية العسكرية كما أثبتت أنها كانت مجرد
وهم ؛ ومن ثم فقد خسر الجميع حتى الليبراليين الذي ساعدوا على انتخابه . وقد
أغضبت هذه التعهدات « المحافظين » الذين اتهموه بأنه متساهل جداً مع المجرمين
والشيوعيين . وكما عجز كارتر عن خلق توازن في الميزانية أو أن يوقف التضخم فإنه قد
فشل أيضاً في الحصول على تأييد الشعب لبرامج الطاقة . وكان هذا التأييد الشعبي
ضرورياً جداً ليتغلب به على مراوغة وتباطؤ الكونجرس . وقد انقشع ضباب الوهم مع
ما يؤكد المسلك اليومي لمكتب الرئيس . فقد أجبر مدير الميزانية بيرت لانس على تقديم

٦٩٥ حدود جديدة : التحدى

استقالته وكانت نزاهته السياسية والمالية موضع تساؤل من قبل الصحافة والرأى العام . ثم السياسات محدودة الأفق التى اتبعتها بعض معاونيه « الجيورجيون » أمثال النائب العام جريفين بيل . ثم قرار كارتر الأهوج بطرد المتحدث باسم « حقوق المرأة » ، وبطلة هذه الحركة بيللا أيزوج . ثم عملية الانتقالات والتبديل التى تمت فى ١٩٧٩ بين مجلس وزرائه مقترباً بذلك من شكل مجلس الوزراء إبان إدارة نيكسون .

أثبتت إحصائيات الرأى قرب انتهاء السنة الأولى لرئاسة كارتر أن أقل من نصف الشعب الأمريكى يعتقدون أن كارتر رئيس كفاء ، لكن فى منتصف العام الثالث لرئاسته قفز هذا الرقم ليصل إلى الثلث فقط . ويبدو أن كارتر كان فى احتياج لقوة خارجية أخرى تنفذه من السقوط التام من دائرة التعاطف معه . . مثل أزمة الرهائن الأمريكين فى إيران .

سياسة كارتر الخارجية

منذ مائة وخمسين سنة كتب أليكسيس توكوفيل أعظم مفسرى الديمقراطية مشيراً إلى الولايات المتحدة الأمريكية : « أن السياسة الخارجية نادراً ما تتطلب إياً من المواصفات المنطقية للديمقراطية . بالعكس فهى تتطلب الاستخدام الجيد لكل نواقصها . إن الديمقراطية تصبح مرغوبة حين تعمل على تنمية المصادر الداخلية للأمة . فهى تقوم بتوزيع الثروات ونهى سبل الراحة وتزكى الروح المعنوية وتقوى من احترام كل طبقات المجتمع للقانون . وكل هذه المزايا لها تأثيرها غير المباشر على علاقات الناس بعضهم البعض . لكن الديمقراطية تستطيع بجهد كبير أن تنظم دقائق الالتزامات الهامة . ثم إنها تساعد على المثابرة فى عمل خطة ثابتة وتيسر تنفيذها برغم المعوقات العنيدة » .

ويبدو أن هذه الملاحظات لم تكن مجدية لمسار السياسة الأمريكية فى معظم سنوات القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين . أما فى النصف الثانى فقد بدأت سلسلة طويلة من الأخطاء فى تقدير الحسابات ، والتذبذب والهفوات . . تدفع مسار السياسة الخارجية الأمريكية ناحية الخزى داخل الوطن وخارجه : فهناك التدخل الأهوج فى جواتيمالا وجمهورية الدومينيكان وكوبا . . ثم تدخل المخابرات المركزية

٦٩٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

الأمريكية في الشؤون الداخلية لعديد من أمم الأرض . واستخدام المساعدات الخارجية من أجل أغراض سياسية والعداء لجمهورية الصين الشعبية ثم الإصرار العنيد لمدة تزيد عن العشرين عاماً على أن الصين الحقيقية هي تايوان . وإيغار حدة الحرب الباردة مع روسيا . ثم القضية التي فاقت كل القضايا : وهى حرب السنوات العشر المأساوية البشعة على فيتنام وكمبوديا . ومع نهاية السبعينات قرر بعض دارسى السياسة الخارجية الأمريكية بتفهم كامل مثل جورج كينان وهانز مورجنتا أن السياسة الخارجية الأمريكية كانت بمثابة المجزر وأنها فقدت الاحترام فى الداخل والخارج .

هل هذا الانحدار فى هبة ونفوذ الولايات المتحدة يعكس فشل الزعامة الأمريكية أم أنه تأكيد على أن المنافسة بين العالم الشيوعى وغير الشيوعى قد زادت حدتها ، وأن المنافسة من أجل تكوين حلفاء من دول العالم الثالث قد زادت . أو أن الصراع قد ازداد شراسة من أجل وجود منافذ لنقص المصادر الطبيعية ؟ ! أم أن عالماً مكوناً من ١٥٠ دولة أصبح مضطرباً بدرجة يصعب معها تدبر سياسة خارجية ثابتة راسخة ؟ !

ومهما بلغ أثر التدهور الذى حدث فى الستينات والسبعينات فى زعزعة قوة وهبة أمريكا فإن الولايات المتحدة لم تتخل عن مسئولياتها بصفتها قوة عالمية ولم تنكرها أيضاً . فقد اتسعت مشاغلها باتساع العالم كله . حتى إدارة نيكسون التى لم تبذل جهداً يزيد من رصيدها فى الداخل ، بذلت أقصى جهد لزيادة رصيدها فى الخارج ، فقد ساهمت بشكل مذهل فى تمهيد الطريق لحل مشكلتين ظهرتا فى الأفق الدولى وهما : مشكلة الحرب الباردة مع الصين ومشكلة سباق التسلح النووى التى كادت تتفاقم إلى حد يصعب السيطرة عليه .

وبرغم المعارضة العنيفة من الجناح الموالى للصين داخل حزبه ، فإن نيكسون تخلى عن موقفه السابق باعتبار أن محاولة للاعتراف بالنظام الشيوعى فى الصين ، هى شكل من أشكال الخيانة . وفى بداية عام ١٩٧٢ بدأ هو أول خطوة درامية بزيارته للصين للقاء قمة مع ماوتسى تونج ، اتفق فيه الزعيمان على إنهاء العداء بينهما وبدء مرحلة وفاق جديدة . وتعهد كل منهما على العمل للوصول إلى هذه الغايات . وفى أول يناير ١٩٧٩ كان كارتر مهياً لإعلان الاعتراف الدبلوماسى الكامل بجمهورية الصين الشعبية وإلغاء معاهدة الدفاع المشترك مع تايوان . وقد أثار هذا الإلغاء تساؤلات دستورية هامة عن السلطات الممنوحة للرئيس والتى تحول

٦٩٧ حدود جديدة : التحدى

له حق إلغاء معاهدة أو إبرامها أساساً بمشورة وقبول مجلس الشيوخ .
وقد ساعدت هذه السياسة تجاه الصين في رأب الجراح المتقيحة وبالتالي ساهمت في احتمال انحسار التدخل الصيني في شؤون كوريا ، كما ساعدت في زيادة معدلات تصدير الحبوب والميكنة والتكنولوجيا بما يوحى بزيادة معدلات بيعها إلى السوق العالمى .
لكنها في نفس الوقت أنهت حدة توتر العلاقات مع الاتحاد السوفييتى وقضت على خطر أن تلعب الحكومة الأمريكية بورقة الصين وكأن الولايات المتحدة شريك في لعبة الورق الدولية والصين هى الورقة التى تلعب بها أمريكا .

وبرغم مرض البارانويا الذى عانى نيكسون منه طويلاً تجاه الشيوعية بجناحيها الصينى والروسى ، فإنه هو - بمساعدة ومشورة هنرى كيسنجر - الذى بدأ أول خطوة فعالة تجاه تخفيف حدة سباق التسلح المدمر مع الاتحاد السوفييتى . وجاءت معاهدة «سولت ١» عام ١٩٧٢ وهى المعاهدة الأولى للحد من التسلح الاستراتيجى ، وإن لم تكن هذه المعاهدة قد خفضت حدة التسلح بالفعل ، فقد ختمت بالشمع الأحمر على تصنيع بعض أنواع الأسلحة النووية .

ووصول كارتر إلى أبعد من هذا في خطابه الذى استهل به رئاسته حين ألزم حكومته أن تتحرك تجاه هدفنا الأسمى وهو نزع السلاح النووى من العالم كله . ولم تلق أى أجزاء من الخطاب استحساناً مثلما حققت هذه الكلمات . ومع ذلك فما أن حل شهر يونية ١٩٧٩ - وبعد مفاوضات مطولة - حتى اجتمع الرئيس كارتر مع الرئيس ليونيد بيرجنيف في باريس لتوقيع المعاهدة الثانية «سولت ٢» التى طالبت الاتحاد السوفييتى بخفض الحشد الهائل من الصواريخ وقاذفات القنابل وتحديد عدد الرؤوس النووية التى تضاف إليها . ثم تقييد تطوير شبكات الصواريخ المضادة للقذائف لفترة ما . وكان هذا الاتفاق عادلاً كما كان حساساً للغاية . كما أنه ترك الباب مفتوحاً أمام المزيد من التسويات والاتفاقيات . وقد وصفها كارتر بأنها «تسعى إلى خدمة أهداف الأمن والبقاء . كما أنها تخدم الوضع العسكرى للولايات المتحدة الأمريكية وقضية السلام العالمى» .

وقدم الرئيس عند عودته إلى واشنطن تبريره للتصديق على هذه المعاهدة بقوله : « إن الحقيقة في هذا العصر النووى أن الولايات المتحدة الأمريكية يجب أن تحيا مع الاتحاد السوفييتى في سلام . . أولاً تحياً أبداً . ومنذ بدء التاريخ ومصائر الشعوب والأمم تتحدد

بواسطة موجات لا نهائية من الحرب والسلام وهذا الشكل يجب أن ينتهي إلى الأبد .
ويجب أن تختفى موجات الحرب والسلام بين الأمم التي تملك الآلاف من الأسلحة
النووية الحرارية ، التي يمكن للواحد منها فقط أن يحدث دماراً لا يمكن تخيل مداه !!
يجب أن تختفى موجات الحرب والسلام ويحل محلها السلام فقط » .

كان منطق الرئيس هنا لا يمكن دحضه . لكن القوى المؤيدة للحرب الباردة هي
التي لم تعد تشعر بأى منظم وراء ما يحدث . وقد حصلت « سولت ١ » على تأييد جماعى
ساحق لكن مجموعة من مؤيدى الحرب الباردة المتحدثين باسم اتحاد صناعات الأسلحة
والجمهوريين المعنيين المتربصين للفوز فى سباق الرئاسة التالى دون أى اعتبار لاحتياجات
الدفاع الحقيقية تزعموا حملة لإقناع الشعب الأمريكى بأن الاتحاد السوفييتى تحقق له
التفوق العسكرى الفعلى على الولايات المتحدة الأمريكية . وأنهم يتحركون للعمل
منطلقين من هذا التفوق . ومن الأشياء التى أكدت هذه المخاوف فشل الولايات المتحدة
فى التدخل من أجل حماية الرهائن فى سفارة أمريكا بإيران فى نفس العام . ثم عملية
غزو روسيا لأفغانستان فى العام الذى تلاه . ويأساً من الحصول على الموافقة اعترف
الرئيس - مؤقتاً - بهزيمته وسحب المعاهدة من مجلس الشيوخ . وعلى أى حال لم يتخل
الرئيس عن هذه المعاهدة فقد وعد فى حملته الرئاسية عام ١٩٨٠ بإعادة تقديمها إذا أعيد
انتخابه . وهذا ما لم يحدث .

فى الوقت ذاته اقترحت مجموعة من المشاكل اهتمامات الرئيس ، فقد وجدت الإدارة
الجديدة نفسها أسيرة أخطاء الماضى فيما يتعلق بالكاريبى وأمريكا اللاتينية . وكان كارتر
قادراً على تصحيح بعض هذه الأخطاء . كما كانت لديه القدرة أيضاً على إفساد البعض
الأخر .

كان خليج الخنازير هو الذى أساء للعلاقات بين أمريكا وكوبا فى عهد كاسترو .
ولم يكن بوسع جونسون أو نيكسون تصحيح هذا العمل الطائش . . أو القيام بمبادرات
تمهيدية لإعادة العلاقات الطبيعية بين البلدين . بل على العكس من ذلك فقد أصرت
الولايات المتحدة على حظر المبادلات التجارية مع كوبا خلال أربع إدارات . وحين شعر
كاسترو أنه مواجه بعداء لا يمكن تهدئته من ناحية الولايات المتحدة . . اتجه تلقائياً إلى
الاتحاد السوفييتى الذى أمده بالطبع بالمساعدات الاقتصادية الضرورية فى مقابل إجباره
على تأييده لمغامراته فى أفريقيا .

٦٩٩ حدود جديدة : التحدي

وبدأ كارتر بعض التلميحات الاختبارية نحو تخفيض حدة العداء لكنه سرعان ما تخلى عن هذه المحاولات عند اكتشافه ٣ آلاف خبير روسي موجودين داخل كوبا منذ عام ١٩٦١ . ولأغراض سياسية داخلية قام الرئيس بإظهار غضبه الهائل باستعراض القوة العسكرية في خليج جواتانامو الخاضع لأمريكا . ثم وقعت الأحداث المؤسفة الخطيرة في العام التالي حين قام كاسترو - مظهراً كذبه - بإطلاق سراح عدة آلاف من المسجونين الكوبيين والتحفظ عليهم كما سمح لعدة آلاف أخرى باللاحق بعائلاتهم وأصدقائهم في الولايات المتحدة . وكانت النتيجة تدفق عشرات الآلاف من الكوبيين على شواطئ وموانئ فلوريدا التي لم تكن مهيأة لاستقبالهم .

لم تكن مسئولية أمريكا مؤكدة عن إحداث الشغب في أمريكا الوسطى . فقد دعمت أمريكا لعدة سنوات نظام انستاسيو سوموزا الفاسد في نيكاراغوا وزودته بالأسلحة الحديثة وتدريب ضباطه . بينما في يوليو ١٩٧٩ بدأت الثورة الجائعة تحتاج البلاد وبعد فترة طويلة انتصرت على سوموزا وأجبرته على الفرار خارج البلاد ، مستولياً على جزء لا يستهان به من السيولة النقدية . لكن فطنت إدارة كارتر لضرورة الاعتراف بالنظام الجديد . وكان الكونجرس كارها لتقديم أى مساعدات للحكومة الجديدة . وكذلك فقد قوبلت ثورة مماثلة في سان سلفادور بحماس فاتر من إدارة الولايات .

وعلى العكس من هذا قامت بنما بتحقيق انتصارات دبلوماسية مميزة على إدارة كارتر . ومنذ أن تهاوى تيودور روزفلت بتصريحه في ١٩٠٢ « أنا أخذت بنما » ، فإن السيطرة على هذه الولاية التي انشقت من كولومبيا وكذلك السيطرة على المنطقة التي شقت فيها أمريكا القناة ، أصبحت هذه السيطرة موضع نزاع بين البلدين . وبديى طبعاً أن تطلب بنما التحرر من السيطرة الأمريكية وأن تزيد نسبة أرباحها من ريع القناة . فإن زيادة أحجام السفن وأوزانها واستراتيجيات الحرب الحديثة جعل السيطرة على القناة أمراً لا قيمة له . استجاب الرئيس كارتر للمطالب البنمية بالدخول في مفاوضات من أجل إبرام معاهدة تضمن لهم استعادة السيطرة على منطقة القناة . وإعادة القناة ذاتها إلى بنما بكامل السيطرة حتى عام ٢٠٠٠ . وفي مواجهة المعارضة الشرسة في الكونجرس وفي أماكن أخرى تم التصديق على المعاهدة في أبريل ١٩٧٥ بأغلبية صوت واحد .

كانت قضية حقوق الإنسان من بين القضايا التي شغلت اهتمام الرئيس كارتر . ففى خطابه الذى استهل به رئاسته قال : « ولأننا أحرار لا يمكنه أن نتجاهل حرية

الآخرين المقدرة في أى مكان آخر . ومن ثم فإن التزامنا بحقوق الإنسان — يجب أن يكون غير محدود » . ومما لا شك فيه أن الدفاع عن حقوق الإنسان في العالم كله شغل جهد كارتر . أما التزامه هذا فلم يكن « غير محدود » وإنما كان موجهاً فقط إلى الاتحاد السوفيتى والدول التى تدور فى فلكه مثل كوبا وشيلي والأرجنتين وإلى حد ما جنوب أفريقيا . ولأسباب ربما ترجع إلى منطق الحكمة أو الإحساس باللاجدوى ، لم يشعر الرئيس بالحماس للدفاع عن حقوق الإنسان فى بعض البلاد الصديقة التى كان قمع الحريات فيها بشعاً مثلما حدث فى كوريا الجنوبية والفلبين وإندونيسيا والبرازيل وإيران برغم نفوذ أمريكا فى هذه البلاد . ومن ملامح الاتزان فى دفاع الرئيس عن حقوق الإنسان أنه برغم توقيع اتفاقيات تلزم الولايات المتحدة بالتمسك بالإعلان العالمى لحقوق الإنسان وميثاق الأمم المتحدة للحقوق المدنية والسياسية . وميثاق الحقوق الاقتصادية والاجتماعية ، فإنه لم يستطع إقناع الشيوخ بالتصديق على أى من هذه الالتزامات .

كانت قضية الشرق الأوسط هى محور السياسة الأمريكية على مدى ثلاث إدارات . فكما جاء فى طبعة ١٩٧٧ من « السجل السنوى » الذى بدأه إدmond بيرك عام ١٧٥٨ : « فيما يتعلق بالزمن وبالسطة فقد أثبتت مشاكل الشرق الأوسط عميقة الجذور أنها الشاغل الأعظم للولايات المتحدة الأمريكية . لكن لم تحقق المشورات الهائلة والتحذيرات والنفوذ والايحاء أى تقدم ملموس » . وكما أكدت الأحداث فإن هذا يعد غيباً فى حد ذاته .

فلعدة سنوات أصبح الشرق الأوسط — وهو الذى يضم مصر والبلاد العربية شرقاً حتى حدود باكستان — البازود المهدد بالانفجار فى كل خطة . . متمثلاً فى حروب دينية أو عنصرية أو أيديولوجية أو اقتصادية . فقد تفجرت الحرب ثلاث مرات بين إسرائيل والدول العربية المجاورة لها . بينها أصر المطالبون بتحرير فلسطين باستعادة جزء من أرض الوطن التى فقدوها . ونهجوا فى سبيل ذلك أسلوب حرب العصابات العنيفة . ولأن الدول العربية — بما فى ذلك الدول الواقعة جنوب البحر المتوسط — هى المسيطرة بكل المعايير على ما يعد أحبر احتياطي للبتروى فى العالم . . فإن كل الدول الصناعية تقريباً فوق الأرض أصبح لها ضلع فى سياستها واقتصادياتها .

وفى هذه المنطقة المضطربة من العالم تحققت أعظم إنجازات كارتر . وفيها أيضاً

٧٠١ حدود جديدة : التحدى

تحقق فشله المريع . أما النجاح الذى لم يكتمل بعد فيتمثل فى إنهاء العداء بين مصر وإسرائيل وقد هددت باشتعال حرب شاملة مرة أخرى . أما الفشل فيتمثل فى ثورة إيران التى ما إن أطاحت بالشاه المكروه حتى انقلب العداء بكل شراسة إلى الولايات المتحدة التى كانت مسئولة عن اعتلاء الشاه عرشه ولأنها ظلت صديقه الوفى ردحاً من الزمن . وبعد حرب ١٩٧٣ القصيرة احتلت إسرائيل بعض الأراضى المصرية فى شبه جزيرة سيناء وشرعت فى إقامة المستوطنات والدفاعات العسكرية فيها . وكان هذا تهديداً رفضته مصر . كما أن استمرار احتلالها للأرض يهدد بانفجار العداءات وبمجرد أن تشعر الدول العربية باستعادة قوتها فسوف تعاود الهجوم على هذه الدولة التى أنقسموا على القضاء عليها . ومن ثم لم ترض الولايات المتحدة أن تقف موقف المتفرج من هذه الأزمة خاصة وهى الدولة التى ساهمت فى إنشاء دولة إسرائيل المستقلة . كما أنها تضم أكبر عدد من اليهود فى العالم . وعندما اتبع وزير الخارجية هنرى كيسنجر دبلوماسية الكوكة . . نجح فى إقناع الخصمين على الأقل بضبط النفس انتظاراً لمجيء الوقت المناسب . وبالفعل عندما تولى كارتر كان الوقت قد حان . وفجأة . . وفى نوفمبر ١٩٧٧ وفى مبادرة درامية قام الرئيس السادات بزيارة مذهلة إلى القدس . وفى ١٩٧٨ طار الرئيس كارتر إلى مصر ليناقش مع الرئيس السادات حل المشكلة المستعصية فاشتراط الرئيس السادات أنه فى مقابل الاعتراف الكامل بإسرائيل فعلى إسرائيل إعادة كل الأراضى المصرية المحتلة وأن تعترف بالحق الشرعى للفلسطينيين للاشتراك فى تسويات تحدد مصيرهم . وبعد ذلك تم دعوة الرئيس السادات ورئيس الوزراء بيجين لزيارة الرئيس كارتر فى مقره بكامب دافيد ؛ لبذل جهد آخر لتسوية المشاكل المعلقة بين البلدين التى لم تهدد بقاءهما فقط وإنما هددت السلام العالمى كله . وبعد مفاوضات مكثفة على مدى ثلاثة أسابيع خرج الرؤساء الثلاثة على العالم فى ١٧ سبتمبر ١٩٧٨ بمجموعة اتفاقيات تبشر بالسلام . وقد استغرق الأمر ستة أشهر أخرى لتمكين الدولتان من توقيع المعاهدة الفعلية . وتم هذا الحدث فى البيت الأبيض فى ٢٦ مارس . ولم تبارك أى دولة عربية أخرى هذا الحل ؛ لذلكبقى الأمل فى السلام الدائم أمراً غير مؤكد .

أما ثورة إيران التى قامت كرد فعل للسياسة الأمريكية فقد جاءت مفاجئة للجميع ، فالولايات المتحدة كانت المعين الحقيقى لاسترداد الشاه عرشه فى ١٩٥٣ . ومنذ ذلك الحين ظلت هى أخلص معاون للشاه . فاعتمدنا على بتول إيران . واعتبرنا

٧٠٢ موجز تاريخ الولايات المتحدة

العربية السعودية وإيران المعادل للنموذ السوفيتي في الشرق الأوسط . وبالتالي كان من الضروري التغاضي عن الاستبداد والتعذيب اللذين تميز بهما حكم الشاه . ومن ناحية أخرى اعتمد الشاه على الولايات المتحدة فيما يساوى بليون ونصف البليون دولار للتسليح . وعندما أطاحت الثورة التي ألهبها آية الله الخميني بعرش الشاه أصبح منفيًا . وإبان إقامته في المكسيك طلب الشاه من أمريكا الحق في المعالجة من السرطان . وبرغم تحذير سفارة أمريكا في إيران من أن السماح بدخول الشاه إلى الولايات المتحدة قد يثير الرغبة في الانتقام . فإن الإدارة الأمريكية وبإيعاز من هنري كيسنجر ودافيد روكفلر وبعض رجال الحزب الجمهوري ، قبلت السماح له بدخول أمريكا .

ولأن العلاقات كانت هشة جداً احتلت الطلبة – المسلحون الذين أطلقت الحكومة الإيرانية أيديهم في الأمر – سفارة أمريكا وأخذوا حوالي خمسين من أعضائها رهائن . وكرد فعل لهذا قام الرئيس كارتر بتجميد أموال الإيرانيين في أمريكا وطرد الدبلوماسيين الإيرانيين ، وهكذا تم قطع العلاقات بين الدولتين . أدانت الأمم المتحدة عملية الاحتجاز . واعتبرتها محكمة العدل الدولية عملاً غير مشروع . وذهب كل هذا أذراج الرياح . يوماً بعد يوم ازداد عنف الإيرانيين . وكانت شروطهم لإطلاق سراح الرهائن تتمثل في تقديم أمريكا اعتذارها وإعادة ثروة الشاه إلى إيران واستمرار العون الأمريكي العسكري . وهي كلها ماسة بالشرف . ولأن كارتر كان في ميسس الحاجة إلى أي فعل يقوم به فأرسل في مطلع عام ١٩٨٠ قوة لإنقاذ الرهائن . لكن القوة فشلت في إنقاذهم . . كما فشلت أيضاً في إنقاذ شعبية كارتر المتدهورة .

لقد خلقت الثورة الإيرانية بها تشكله من تهديد لمنابع البترول وللأستقرار في الشرق الأوسط ، نوعاً من الارتباك للاتحاد السوفيتي كما فعلت مع أمريكا . ولم يكن هذا بأمر مفاجئ . فإيران تطل على حدود الدولتين الإسلاميتين أفغانستان وباكستان . الأولى تشارك الصين بعض حدودها . والثانية تقع على الطريق إلى الهند . وللأتحاد السوفيتي اتهامات في كلا الدولتين . وكانت الفرصة مواتية جداً لقيام حركة إسلامية معادية للشيوعية تنتشر عبر هذه المساحات الشاسعة . كما أنها يمكن أن تنفذ إلى المناطق الإسلامية داخل الأتحاد السوفيتي ذاته ؛ لذلك وفي نهاية عام ١٩٧٩ بادر الأتحاد السوفيتي باحتلال أفغانستان ذاتها بهدف خلق وضع ثابت لا يمكن السيطرة عليه . ولأن الأفغان لم يدعوا للأمر بل حاربوا فقد أخذ هذا الوضع شكل الاستعمار الشيوعي الإرهابي .

٧٠٣ حدود جديدة : التحدى

شجب الرئيس كارتر هذا الغزو ووصفه بأنه انتهاك صارخ للقانون الدولى ، وتهديد خطير للسلام العالمى . وسارع بمقاطعة الأولياد المقرر قيامه فى موسكو . ووصفها كارتر بقوله : « لقد قلبت الموازين أمام عيني » وجعلت الولايات المتحدة الأمريكية مواجهة بأعظم خطر يهدد السلام العالمى منذ الحرب العالمية الثانية . وكان هناك تأييد واسع لوجهة النظر هذه فى الكابيتول . وقد انضم بعض الليبراليين أمثال السيناتور ماسكى والسيناتور تشيرش للمنادين بفضح هذه « البربرية الدولية » . وكانت العواقب بعد ذلك وخيمة . . . ومحتمة . فقد وجدت إدارة الرئيس كارتر نفسها مضطرة للخروج من اعتدالها والعودة إلى الحرب الباردة والإسهام فى سباق التسلح بعد أن بذلت جهداً مخلصاً لتخفيف حدة الحرب الباردة فى العالم .

انتخابات ١٩٨٠

الحكومات المستبدة هى التى تخشى الثورات لا الانتخابات . بينما تستطيع الحكومات البرلمانية بشكل عام أن تسيطر على هذه الانتخابات حتى تضمن اتجاهها فى الوجة التى تريدها فى النهاية . وهذا الترف ليس من نصيب الإدارات ولا الحكومات فى الولاية المتحدة الأمريكية . وقد جاءت انتخابات عام ١٩٨٠ فى أسوأ فترات إدارة الرئيس كارتر . فقد ارتفع التضخم إلى أن وصل ١٢٪ وزادت البطالة إلى ما يزيد على ستة ملايين ، وظهرت الميزانية عاجزة ، وارتفع سعر البترول ارتفاعاً جنونياً ينذر بمزيد من الارتفاع . وإدارة دقة الشؤون الخارجية بدت غير فعالة وفى معظم الأحيان عقيمة . وأكبر دليل على ذلك هو دراما احتجاز الرهائن فى إيران . وقد رأى النقاد فى الداخل والخارج أن الولايات المتحدة أصبحت لا يمكن الاعتماد عليها فى تخطيط سياسات ثابتة واضحة . ولم يحظ كارتر بالتعاطف أو التقدير الذى كان يتوقع له منذ سنوات أربع مضت .

بدأت حملة انتخابات ١٩٨٠ مبكرة سنة عن موعدها المتبع . وانزلت فى طريق ملتر أثناء الانتخابات التمهيدية والاجتماعات وجداول الاقتراع . فتم هذا كله وسط شلالات من الخطب والأحاديث مثل شلالات نياجرا . . . ومعظمها إما مغرض أو وليد خوف أكثر منها خطب تضع الأسس وترسم الحلول .

٧٠٤ موجز تاريخ الولايات المتحدة

وقد ظن السيناتور إدوارد كينيدي ، بعد انخفاض شعبية الرئيس إلى حد أكثر من انخفاض شعبية نيكسون بعد ووترجيت ، أن المجال مفسوح أمامه لتولى زعامة الحزب والأمة . وكانت الدلائل السياسية مشجعة لهذا . ولم يكن إدوارد كينيدي صاحب اسم له بريق ساحر فحسب وإنما نجح أيضاً في أن يبنى شهرة جيدة خلال الدورات الثلاث في مجلس الشيوخ ؛ وذلك لدفاعه عن جماعة روزفلت - كينيدي الليبرالية . كما أنه كان خطيباً مفوهاً وسياسياً حاذقاً ، غير أنه لم يضع في حساباته عاملين أفسدا ترشيحه في النهاية وهما أولاً ذكرى المأساة التي وقعت له في تشابا كويديك وما زالت ظلالها تخيم عليه حتى الآن ، وثانياً الخوف من ليبراليتيه المعلنة . وقد أصبح هذا المصطلح (الليبرالية) ولأول مرة في تاريخنا موضع تحقير . ومن بين الأمور التي دفعت بالناس للإحساس بالضجر من الإصلاح الليبرالي وزيادة التشريعات الحكومية ، موافقة الولايات على قانون مضاد لحق الإجهاض ولعقوبة الإعدام والعداء الإقليمي لمشروعات أتوبيسات المدارس ثم رد فعل الولايات للقوانين المضادة للتلوث وقوانين البيئة باهظة التكاليف ثم الثورة المتزايدة على قوانين الضرائب . وحتى إذا غفر لكينيدي مأساة تشابا كويديك فقد كان عليه أن يسبح ضد تيار المحافظين . فأثبتت الانتخابات التمهيدية أنه لا يتوقع له الفوز ومن ثم أصبح كارتر هو مرشح الحزب .

بدا الأمل براقاً أمام الجمهوريين . واستعد اثنا عشر مرشحاً من بينهم الحاكم السابق ريجان والحاكم السابق جون كانالي من تكساس . وجورج بوش عضو الكونجرس السابق ومدير وكالة المخابرات المركزية وروبرت دول مرشح منصب نائب الرئيس في انتخابات ١٩٧٦ ثم الرئيس السابق جيرالد فورد الذي وقف بعيداً في تواضع داخل الكواليس منتظراً إشارة تدعوه لدخول مسرح الأحداث . وفي النهاية اتجهت الترشيحات كلها إلى نجم السينما والتلفزيون وحاكم كاليفورنيا السابق رونالد ويلسون ريجان . وفي غمار حملة انتخابية مرهقة تحرك المرشحين الرئيسيان في خطى وثيدة إلى وسط الدائرة . حتى بدا التفريق بين براجميها وسياستيها أمراً بالغ الصعوبة .

لم يعن تصنيف ديمقراطي وجمهوري أى شيء في انتخابات ١٩٧٦ . أما في انتخابات ١٩٨٠ فلم يعن هذا التصنيف الكثير اللهم إلا بالنسبة للمرشح الجمهوري رونالد ريجان الذي انتقد بحدة كلا من الرئيس كارتر لأفكاره المسروقة من برنامج الحزب الجمهوري ، ثم رجل الكونجرس وعضو الحزب الجمهوري جون أندرسون الذي أراد

٧٠٥ حدود جديدة : التحدى

خوض الانتخابات مستقلاً ، لأنه اندس بين صفوف الحزب الديمقراطي لسرقة أفكاره . وكما أصبح الاقتصاد في انحدار مستمر وكذا هيبة أمريكا في الخارج ، فإن أحداً لم يهتم كثيراً بالتحديدات القاطعة بين الحزبين سواء على المستوى السياسى أو غيره . من المؤكد أن الاختيار الذى فقد معناه بين مرشحين كلاهما مع أو ضد خفض التضخم . . والبطالة وإنقاذ البيئة والسعى للسلام وتحقيق التفوق العسكرى على كل الخصوم فى العالم كله ، جعل المستقلين يتشجعون لتقديم بدائل جديدة . وقد تقدم ثلاثة بالفعل وحصلوا على بعض التأييد من الصحافة والعامه على السواء ، اثنان منها هما بارى كومونور أحد أبطال الدفاع عن البيئة والحفاظ على المصادر الطبيعية ، ثم إدوارد كلارك الذى اعتبر نفسه « تحررى » وقد فسر هو وأتباعه هذا المصطلح بمعنى « ليبرالى » بمفهوم هيربرت سبنسر ووليم جراهام سوند . أكثر من مفهوم توماس جيفرسون ومع ذلك لم يشكلوا تهديداً يذكر فى الانتخابات . أما ثالث المرشحين المستقلين فهو جون أندرسون من ولاية إللينوى الذى بدأ وكأنه أكثرهم احتراماً وأعمقهم فكراً وأرشقهم عبارة وأكثرهم أمانة سياسية . وبرغم أنه حظى بالتأييد الحساسى للليبراليين والأكاديميين والشبان فإنهم لم يشكلوا أى دعامة انتخابية . وكان أندرسون هو المرشح الوحيد الذى خط لنفسه برنامجاً ومع ذلك فقد عانى من ثلاثة معوقات قاتلة ، الأول الفشل فى الحصول على تمويل الكونجرس لحملة الانتخابية ، والثانى إحجام الناخبين والذى يرجع إلى عهد قديم ، والثالث خوف عدد كبير من الديمقراطيين والمستقلين من أن أى صوت يذهب إلى أندرسون هو فى الحقيقة لصالح ريجان فى النهاية . حيث بدا أن فترة رئاسة جديدة يتولى فيها ريجان لن تكون بحال من الأحوال أسوأ من إعادة انتخاب كارتر لسنوات أربع جديدة .

تركزت الحملة على أشخاص المتنافسين الرئيسيين أكثر من تركيزهم على محتوى ومضمون البرامج ذاتها . فلم يكن بأمر غريب أن يتشابه كارتر وريجان عند مناقشتها مسائل مثل التضخم والدفاع وأى من المشاكل الأخرى التى واجهت أمريكا فى ١٩٨٠ . وقد أثار الرئيس كارتر بعض الإعجاب لذكائه السياسى ولهارته فى التعامل مع بعض المشاكل الدولية الشائكة . أما ريجان فقد استحوذ على تعاطف الناس لحماسة وبساطته وقدرته على عدم التفريق بين الرجال والنساء بشكل عام . وكما اتضح فيما بعد فإن الذى فاز فى هذه الانتخابات كان التأثير القروى وليست المواصفات العامة الموضوعية .

٧٠٦ موجز تاريخ الولايات المتحدة

كانت النتائج مذهشة حتى للجمهوريين أنفسهم . لدرجة أن أغلبية الحاكم السابق لريجان في المجمع الانتخابي والتي بلغت ٤٨٩ صوتاً في مقابل ٤٩ صوتاً ، كانت هي من أهم عوامل الحسم في تاريخ الرئاسة الحديثة . كان كارتر قد حصل على تأييد ست ولايات فقط غير مقاطعة كولومبيا . وكان عزاؤه أن ولايته الأم جورجيا كانت بينهم ثم مينيسوتا ولاية نائبه السابق ولتر مونديل . ولم تكن الأصوات العامة كلها في جانب واحد إلا أنها كانت فعالة . لقد خسر الرئيس سىء الحظ بعدد عشرة ملايين صوت . وهو عدد أكبر من العدد الذى صعد به إلى الرئاسة في انتخابات ١٩٧٦ . وقد أوضحت انتخابات إعادة أن ريجان حصل على أصوات ٥٢٪ فقط من الناخبين . وفاز كارتر وأندرسون بحوالى ٤٧٪ من الأصوات . مع العلم بأن عدداً كبيراً من الناخبين لم يعبأ بالذهاب إلى صناديق الانتخاب . أما فوز ريجان الساحق هذا فلم يزد على ٢٦٪ من مجموع أصوات المؤيدين له بالفعل .

وبشكل عام فإن من أهم ملامح هذه الحملة الانتخابية ، أنه لأول مرة منذ رئاسة أيزنهاور يتمكن الجمهوريون من اجتياح مقاعد مجلس الشيوخ ، ويقومون بغارات مكثفة على الأغلبية الديمقراطية في المجلس . وأكثر من هذا فإن الكثير من الديمقراطيين الذى عانوا مرارة الهزيمة في الاقتراع كانوا من أبرز أعمدة الحزب . لدرجة أن السيناتور ماجنسون من واشنطن والذى استمر يحكم على مدى أربعين سنة بدون منازع أجبر على التقاعد . كما أن فرانك تشيرش الذى بقى سيناتوراً لمدة أربع وعشرين سنة عن أيوا ورئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ لقى هزيمة مريرة من منافس غير معروف . وهذا ما حدث أيضاً للسيناتور بيرش باسى سيناتور إنديانا ، وجورج ماكجفرن مرشح حزبه في انتخابات ١٩٧٢ . كل هذا يعنى أن بعض اللجان الهامة التى رأسها بعض الديمقراطيين الليبراليين سوف يرأسها الآن أعضاء أكبر سناً وأكثر محافظة من الحزب الجمهورى . فرجل مثل ستروم ثيرموند من كارولينا الجنوبية رشح ليخلف السيناتور كينيدي رئيساً للجنة العدل ، وجون تاور عن تكساس رئيساً للجنة الخدمات العسكرية .

عند تشريح نتائج الانتخابات فسر الكثيرون انتصار الجمهوريين على أنه يشير بإنهاء ذلك التعصب الغالى المملح الذى سبق أن قضى عليه روزفلت في عام ١٩٣٢ مثل ما يقال عن الجنوبيين والسود واليهود والعمال والفقراء والمثقفين . لقد احتفظ

٧٠٧ حدود جديدة : التحدى

الديمقراطيون في انتخابات ١٩٨٠ بمساندة السود لهم وكذلك بدعم ثانى أكبر أقلية في أمريكا وهى « الهسبان » الذين يتكلمون الاسبانية . أما جوهر الائتلافات الأخرى فقد بدأ يتغير بعمق .

كان هناك شىء واحد ، واضح للجميع ، وهو أن هذه الانتخابات كانت في حد ذاتها ثورة بالمقارنة بالثورة الجديدة التى صعدت بروزفلت إلى الحكم في ١٩٣٢ فلم يكن لهذه الثورة مجرد سياسات وبرامج وإنما كان لها ما يمكن أن يسمى بالفلسفة . فقد وصفت بأنها فلسفة فى القانون والدستور عنيت بتوفير الرخاء لأول ولاية أمريكية غير ثرية على غرار نظم العالم القديم . وإنما هى تختلف بحدة عن مبادئ وممارسات الماضى . إن الانتصار الجمهورى عام ١٩٨٠ كان بريئاً من « البرامج أو الفلسفة » فبدت قوته الدافعة سلبية ممثلة فى التقليل من حجم الحكومة ، والحد من البيروقراطية . وخفض الخدمات الاجتماعية . وخفض الإنفاق فى كل المجالات عدا المجالات العسكرية ومقاومته أو تأجيل مطالب الفقراء والعاطلين والسود والأقلية الهسبانية . . . وحتى . . . مطالب المرأة .

وفى تفسير هزيمة كارتر قيل إنه هو وحزبه كانت تنقصهما بصيرة ما يجب أن تكون عليه أمريكا ، وهى البصيرة التى سبق أن ألهمت واشنطن ونيلسون وفرانكلين روزفلت . وهذا حق . والحزب الجمهورى أيضاً تنقصه أى بصيرة من هذا النوع . ربما لأنه بمقدم عام ١٩٨٠ أصبحت هذه البصيرة غير محسوسة ، ربما لأن السحب التى تكاثفت فوق الأفق كله . . . كانت شديدة العتامة !



CONTENTS

| |
|--|
| THE PLANTING OF THE COLONIES |
| THE COLONIAL HERITAGE |
| THE IMPERIAL PROBLEM |
| THE REVOLUTION AND CONFEDERATION |
| MAKING THE CONSTITUTION |
| THE REPUBLIC FINDS ITSELF |
| THE RISE OF NATIONAL UNITY |
| A NATIONAL CULTURE |
| JACKSONIAN DEMOCRACY SWEEPS IN |
| THE WEST AND DEMOCRACY |
| THE SECTIONAL STRUGGLE |
| THE BROTHERS' WAR |
| THE EMERGENCE OF MODERN AMERICA |
| THE RISE OF BIG BUSINESS |
| LABOR AND IMMIGRATION |
| THE WEST COMES OF AGE |
| THE FARMER AND HIS PROBLEMS |
| THE AGE OF REFORM |
| THE RISE TO WORLD POWER |
| AMERICA COMES OF AGE |
| WOODROW WILSON AND THE WORLD WAR |
| FROM "NORMALCY" TO DEPRESSION |
| FRANKLIN D. ROOSEVELT AND THE NEW DEAL |

V.9

THE SECOND WORLD WAR

THE COLD WAR

POSTWAR PROBLEMS, 1946-1952

THE KOREAN WAR: THE HYDROGEN BOMB

THE EISENHOWER ADMINISTRATION

NEW FRONTIERS: THE CHALLENGE

| |
|-----------------------------------|
| رقم الإيداع ١٩٩٠/٣٦٨٦ |
| الترقيم الدولى ISBN 0-394-40892-6 |

منشورات العصر الحديث
MODERN EGYPTIAN PRESS
مكتبة براد ٣٥ شارع فلسطين - القاهرة ١١١١٠٢١ - ٢١١١٠٢٢ - ٢١١١٠٢٣

A SHORT HISTORY OF THE UNITED STATES

ALLAN NEVINS
HENRY STEELE COMMAGER

هذا الكتاب

برزت أمريكا على مسرح التاريخ جريئة ناضجة ، مكتملة النمو ،
ذلك لأن المستوطنين الأوائل لم يكونوا بدائيين ، وإنما كانوا متحضرين ،
فغرسوا فيها ثقافة لها من العمر قرون . .
وتعتبر أمريكا أحدث الأمم الكبرى ، وأكثرها جدة ، وإثارة
للاهتمام ، فتاريخها — على قصره — يوجه تاريخ وتطور النظم الإنسانية في
مجالاتها المختلفة . .
وفي هذا المؤلف الوجيز ، يطوف كاتبه بهذا التاريخ الذى امتد بظله
وتأثيره إلى بقاع كثيرة من العالم ، مؤكداً ريادة أمريكا فى الفكر والعلم
والنظم السياسية المعاصرة .

INTERNATIONAL PUB. & DIST. HOUSE
CAIRO — KUWAIT — LONDON